


الحملة الأمريكية

مستعربون وسفراء ورحالة

تأليف: روبرت كابلان . ترجمة محمد الخولي





KITAB
AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٦ – محرم – يونيو ١٩٩٦ No-546 Ju -1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

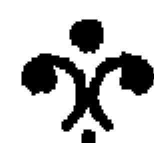
أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش
سوريا ١٧٠ ليرة – لبنان ١٠٠٠٠ ليرة – الأردن ٣٧٠٠ فلس – الكويت ٢٠٠٠ فلس – السعودية ٢٠ ريالا

الحملة الأمريكية

مستعربون وسفراء ورحّالة

تأليف : روبرت كابلان

ترجمة : محمّد الخولي



دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

كلمة المترجم

هذا الكتاب يستعرض، بأدوات الاستقصاء والتحليل بانوراما ممتدة عبر الزمان إلى لأكثر من ٢٠٠ سنة، ومنبسطة عبر المكان كي تسع، أو تكاد تسع، إقليم الوطن العربي الأكبر: من شواطيء الخليج ثم الجزيرة العربية والشام ومصر إلى المغرب العربي على مشارف الأطلسي.

ومن القسمات المميزة للكتاب، ما توسل به مؤلفه من استخدام أساليب وأدوات شتى فى تناول الموضوع :

★★ منها أسلوب العرض التاريخى فى متابعة ذلك الشغف الذى توهج فى نفس النخبة الأمريكية بشئون المنطقة وشجونها، منذ أن نزل أول أمريكى إلى أرض الاسكندرية فى يوليه من عام ١٧٨٨ أى فى مخاض ولادة هذا الكيان السياسى المسمى حاليا بالولايات المتحدة الأمريكية: كان هذا المواطن – واسمه جون ليديارد مغامرا بقدر ما كان رائدا وإلا ما أقدم وحده على قرار باستكشاف منابع النيل! وكان جريئاً بقدر ما كان مأفونا وإلا لما تجاسر على أن يصف نهر النيل ببساطة بأنه «لا يزيد فى سعته عن نهر «كونيكتيكت».

وهو نهر متواضع يشق واحدة من أصغر الولايات الأمريكية !

وإذا كان هذا الأمريكى المغامر، الرائد، الجرىء والمأفون قد مات بالقاهرة ولما ينقض على وصوله إلى مصر عام واحد، فقد قيد للتجربة الأمريكية مع الشرق الأوسط أن تعيش وأن يعايش أصحابها - مغامرين كانوا أو مبشرين أو معلمين أو ساسة، أو سفراء - تاريخ المنطقة وشعوبها وآمالها واحباطاتها وسلوكيات زعمائها ومفكريها.. وأوغادها أيضا.

★★ استخدم المؤلف كذلك أسلوب المقابلة مع جميع من لايزالون على قيد الحياة من قيادات العمل السياسى والدبلوماسى الذين لعبوا أدوارا أو كلفوا بمهام فى العواصم العربية المختلفة. وعلى اختلاف شخصيات هؤلاء الرجال وتباين خلفياتهم الأكاديمية وأصولهم الاجتماعية ومشاربهم الفكرية، إلا أنهم حملوا - طوعا أو كرها - لقب «مستعرب» وهو فى تعريفه العام - هل نقول الفضفاض - يصدق على الأمريكى من النخبة المثقفة الذى يكون قد اكتسب خبرة مباشرة بالمنطقة العربية وقضاياها، وفى قلبها كما سيتضح من سطور الكتاب، قضية الصراع العربى - الصهيونى. وقد يعمق تعريف «مستعرب» ليصدق على أفراد أمعنوا ونبغوا فى إتقان العربية لغة وثقافة وحضارة «مثل السفير هيوم هوران مثلا» أو أفراد اتصفوا بقدر من نزاهة الفكر واستقامة القصد حتى ليكادوا يتوحدون مع عدالة الجانب العربى

ومن ثم الفلسطينى على محور الصراع المذكور «السفير باركر أو السفير سيل أو غيرهما كثير». وقد يتسطح مفهوم «مستعرب» فيصدق على دبلوماسى التمس ترقية فلم يحصل عليها إلا فى عاصمة عربية أو سفير عاش فى بلاد العرب ردحا من زمن يقصر أو يطول، ولم يعرف من العربية حرفا بل وتأخذه العزة بالإثم فلا يلبث أن يفخر بهذا الجهل وأولئك هم «مستعربو الصدفة» كما قد نقول.

★★ أفاد المؤلف كذلك من السجل الشفوى فى مركز التاريخ الدبلوماسى بالخارجية الأمريكية وهو مؤسسة نرى أن من واجبنا أن نحث على إنشائها أو تطويرها فى دوائر الخارجية بمصر أو غيرها من أقطار العروبة: كل من شغل موقعا أو تولى منصبا ينطوى على أداء مهام سياسية أو دبلوماسية أو قنصلية فى إطار سلك الخدمة الخارجية الأمريكية يتعين عليه أن يعود إلى وطنه فيدلى بإفادات شفوية كاملة، وفق دليل إرشادى معتمد ومقنن، بحيث يسجل الزمن محصلة التجربة والدروس المستفادة من المأموريات المختلفة، وبما يشكل مع التراكم عبر أجيال الدبلوماسيين رصيدا هائلا وثمينا من الخبرة التى لا يلبث القوم أن يخضعوها للتدوين والتحرير والتبويب والفهرسة لتسهيل الإحالة إليها مرجعا لا غنى عنه لكل من يعمل من بعد فى هذا المجال.

★★ ولقد حرص مؤلف الكتاب على أن يوازن بين إحالته إلى هذا الرصيد وبين محصلات المقابلات الشخصية التى أجراها، فضلا عن المتابعة التحليلية التى عكف عليها من واقع مراحل تاريخ المنطقة فى عصور شتى واستطاع من هذا كله أن يصوغ مادة كتابه فتجمع بين موضوعية السرد التاريخى وبين «شخصنة» المادة الحية المستقاة من الأفراد وبما أتاح له أن يرفع الستار - كلما احتاج السياق، عن دراما الصراعات بين الشخصيات والأمزجة بل والأطماع والأهواء سواء فى الميدان «الشرق الأوسط» أو فى أروقة الكابيتول هول «البيت الأبيض أو إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية» فى واشنطن.

ولأن الكتاب يسع بانوراما يتقاطع فيها محور الزمان ومحور المكان، ولأن هذه البانوراما تسع بدورها أكثر من دراما صراع بين مصائر وارادات، فقد كان حريا بالمؤلف أن يصوغ مادة الكتاب بأسلوب يتسم بأناقة الترسل الأدبى بل ويرقى فى بعض مواضعه إلى مستوى التأمل الإبداعى وهو ما جعل جهد التعريب - علم الله - أشد مراسا وأكثر تحديا ★ . ولأن العمل الفكرى

★ أدخل المؤلف زيادات وتنقيحات على المتن تمهيدا لإصدار طبعة ثانية مرتقبة من الكتاب. وقد حرصنا - بعد الاتصال بالمؤلف - على استيفاء كل هذه التعديلات فى ترجمتنا لنقدم للقارىء العربى نصا مزيدا ومنقحا.

اجتهاد في كل حال، فقد كان طبيعيا أن تحفل السطور بأخطاء هنا وتجاوزات هناك وهو ما عمدنا إلى تصحيحه أو التعليق عليه – مع الحفاظ على أمانة النقل – في أكثر من حاشية تحمل توقيع «المترجم» على متن الكتاب.

و .. لا يعرف الشوق إلا من يكابده!

ولكم كابدنا – في سياق جهد التعريب – من أجل أن نحقق اسم بلدة وردت في المتن من أعمال الهند – أو نخوض غمرات ديوان البارودي، لكي نرد إلى الأصل بيتين من ابداع الشاعر العربي الكبير بعد أن تغنى بهما في مناسبة دبلوماسية في واشنطن مستعرب فصيح من سفراء الولايات المتحدة الأمريكية.

هذه الأمانة العلمية التي التزمنا بها – ونحن بإزاء نص شديد التسييس حافل بالأحكام جعلت الحواشي التي أوردناها أمرا مندوبا إليه كما يقول الفقهاء، وإن كان المطلوب في رأينا، هو أن يتذرع القارئ بحبال التفهم والصبر فالكتاب في التحليل الأخير كاتبه أمريكي بكل قناعاته وتحيزاته وموجه بالدرجة الأولى إلى القارئ الغربي، ولكنه محصلة صورتنا عند «الآخر» سواء كان هذا «الآخر» مستشرقا بريطانيا يطل علينا من منظوره الامبريالي، وكأننا أيقونات حضارة بائدة أو تمائم أو تذكارات. يزين بها مجموعاته الأثيرة – أو كان مستعربا أمريكيا – ناهيك

عن «المستعربين العرب» إن صح التعبير - يطل على حياتنا وقضايانا من منظور التبشير أو شعار التمدين ومنهم من يتربص بأخطائنا، والخطأ كسب إنساني، ومنهم من يتشفى في جروحنا، والجروح دوما إلى التئام، ومنهم من «يبشرنا» بأن قوميتنا وهْم وخيال وبأن انتماء العروبة الذى يربطنا شعار لا سند له من واقع أو تاريخ!

وإذا كان لمؤلف الكتاب - الأمريكى - أن يثير هذه القضايا وغيرها فلا جناح عليه ولا تثريب. فإن من واجبنا ، بل ومن حق القارىء العربى علينا، أن نتيح له أن يطلع على هذه المقولات وأن يتفهم أبعادها ويتقصى خلفياتها مما يوسع إطار الوعى لديه باعتبار أن الوعى هو أول أسلحة العروبيين فى مواجهة ما ألمحنا إليه من تحديات.

لهذا أقدمنا على ترجمة الكتاب .. نبتغى به أداء بعض واجب نحمله فى أعناقنا تجاه قومنا وثقافتنا والأمة التى نشرف بالانتماء إليها.

والله غالب على أمره.

محمد الخولي

ووتر سايد، نيويورك

أول مايو ١٩٩٥

تمهيد

ثلاثى الأجيال ... والحروب ... والزيجات

فى عام ١٩٦٠، ذروة الحرب الباردة، كان اليمن لايزال متعثرا فى القرن الثالث عشر. وبينما كان «الطيار الأمريكى» * فرنسيس جارى باورز يستقل طائرة التجسس «يو ٢» فوق الاتحاد السوفييتى، كان بيل ستولفوز يحارب الشيوعية بأفلام العرض المنزلى. كان الروس والصين «فى اليمن» يقدمون فيلمين متواليين كل ليلة فى سفارتيهما. هكذا تتذكر جانيت زوجة ستولفوز «السفير الأمريكى» وتقول : إن بيل عبر بالتالى البحر الأحمر إلى اثيوبيا حيث كان لأمريكا قاعدة جوية وعاد وفى جعبته شريط فيلم «سبع عرائس لسبعة إخوة» ونصب بيل جهاز عرض ١٦ مم على سطح مبنى متداع ونظَّم مقاعد منفصلة للرجال وللنساء احتراما للتقاليد الإسلامية. وما كان من الفيلم إلا أن ظل يعرض كل ليلة على مدار أسبوع، ثم حدث أن شاهده الإمام «أحمد حميد الدين» مرتين... وهكذا تحقق النصر لنا... كما تقول زوجة السفير الأمريكى.

★ لإثراء معرفة القارىء ولشرح ما قد يغمض عليه فى سياق النص، عمدنا إلى إيراد شروحات يطالعها القارىء بين أقواس زيادة على متن الكتاب «المترجم».

لم يكن فى اليمن وقتها مدارس ولا إذاعة ولا هواتف ولا سيارات، بل كانت أبواب المدينة تغلق عند الغروب وكانت العملة الوحيدة هى ريال ماريا تريزا : عملة فضية ثقيلة الوزن موروثة من تجار القرن التاسع عشر. وكان المخالفون للأوامر يسلسلون فى الأغلال .. ثم كان قطع الرقاب ممارسة شائعة على رءوس الأشهاد.

«كان لدينا خدم حفاة وسيارة جيب نتبادل - أنا والزوج السفير بيل - قيادتها إلى عدن للتزود بالمؤن.. وكنا نتعيش على علب الفاصوليا المحفوظة من القاعدة العسكرية الأمريكية فى اثيوبيا ، وكان بيل يأخذ أجازة قبل أى حفل عشاء نقيمه فى سفارتنا لكى يذهب إلى الصحراء يصطاد الحبارى. مع أنه كان لدينا كثير من المشروبات وكنا فى حالة ثمل مستمر». هكذا أضافت جين بقدر من المبالغة ملحوظ.

السفير «السابق» بيل رجل طويل القامة.. رياضى الجسم فى الستينات من العمر يجلل رأسه تاج كامل من الشعر الأبيض.. قطع حديث الذكريات «مع زوجته» ليضيف قائلا : عندما كنت أود الذهاب إلى السخنة حيث يقيم الإمام، كان يتعين علىَّ أن أمضى أياما لا يتصل بى أحد بانتظار الإذن بالمثول. ولا أزال أتذكر القلعة ذات الجدران الطينية حيث كان الإمام يحتفظ برهائنه. إذ كان احتجاز الرهائن تقليدا متبعا فى اليمن : الإمام يحتجز أبناء

المنافسين على الحكم ضمانا لولاء الآباء.. أجل ... أتذكر كيف كنت أتربع مع الإمام على البساط.. وكان يأمر بإحضار وحشه البرى الأثير.. يفتح الإمام القفص ويدفس يده كى يلعقها الوحش القابع فيه.. وبعد أن يخرج يده يناوله الخادم فوطة يأخذها الإمام وعلى وجهه علامات رضا ثم يمسح الدم من ظاهر يده.

يصمت السفير الأمريكى السابق ثم يقول : كنت أرقب هذا المنظر معجبا بطريقة الإمام فى أن يترك يده لسنور متوحش كى يخمشها : أقصد طريقته فى استشعار غضبة الوحش.

وقد يكون فى هذا ما أفضى بالسفير إلى أن يتحدث عن «غضبة المسلمين».. يقول : المسلمون لا يقبلون التكنولوجيا التى نعتمدها ولماذا يقبلون ؟ إنهم لا يتصوروننا أفضل منهم لمجرد أننا أكثر حداثة.. ثم ما معنى الحداثة أصلا؟ إننا معشر الأمريكيين مستغرقون فى ذاتنا لدرجة أن لا نتمهل كى نتفهم ثقافات الآخرين.

السفير الأمريكى السابق مؤمن بأن حياة المسلمين وثقافتهم أو حضارتهم ستكون قوة ذات شأن فى القرن المقبل. بل إنه يرى أن الأحوال التى سادت اليمن وقتها «منذ ٣٥ عاما» وإن كانت ترجع للقرون الوسطى، إلا أنها لم تكن «بدائية» قط .. ثم يضيف محترسا، نحن فى هذا المنزل لا نستخدم مصطلح «بدائية» إنه ينطوى على إصدار حكم شخصى على الآخرين.. وإنما نفضل

لفظة «أساسية». وتقاطعه زوجته جانيت كى تستكمل ذكرياتهما عن اليمن :

لا تنسى أماريو جوييه يا عزيزى. وجوييه هذا ارستقراطى إيطالى.. فاز فى مضمار الفروسية فى الأولمبياد وكان ضابطا فى سلاح فرسان حملة موسولينى على الحبشة . وقد أعلن امبراطورها هيلاسلاسى مكافأة لمن يأتى برأس جوييه هذا، فما كان منه إلا أن هرب على متن قارب إلى اليمن متنكرا فى شخصية شخص عربى معتوه.. واستعمله الإمام معلم فروسية لأولاده، ثم أصبح من أقرب أصدقاء السفير الأمريكى بيل وزوجته جانيت التى تصفه قائلة : إن أماريو كان يرتدى دائما ملابس أهل اليمن.

أهلا بكم فى برنستون، ولاية نيوجيرسى حيث منزل السفير ويليام «بيل» ستولفوز وعقيلته جانيت، أول زوجين تبعث بهما الولايات المتحدة إلى ما لا يقل عن ستة بلدان عربية : اليمن، البحرين، الإمارات العربية المتحدة، قطر، عمان، الكويت.

وقد لا يستلفت نظرنا اليوم السجاجيد الشرقية التى نراها معروضة فى كثير من مجمعات الأسواق فى الضواحى.. لكن الطنافس الشرقية فى هذا البيت لها إيقاع خاص.. كبيرة هى ومفروضة وسط تمائم من اثيوبيا ومشغولات نحاس من إيران وخواتم أميرية منقوشة من البحرين وخزانة ومعها دلة نحاسية كبيرة من السعودية ثم واجهة باب ضخم من الخشب المحفور

يدويا من الكويت يستخدم طاولة فى غرفة المعيشة.. رمزا لتجربة حياتية تختلف كثيرا عن تجاربنا التى اعتدنا ، وها هى تضع الزائر تحت تأثيرها : حياة لم يكن اليمن يمثل فيها سوى فصل صغير لا يستحق سوى لوحة زيتية تصور شارعا يمنيا.. وقد وضعت قرب ردهة المكان.

تقول الدبلوماسية والرحالة البريطانية فريا ستارك : فى بلاد العرب.. لايفارق المرء لحظة، ذلك الشعور الغريب بأنه لايعيش حياة الواقع بل هو أقرب إلى أن يكون عنصرا فى صورة أو طيفا فى رواية .. فى تلك الحياة سمة ما قرأناه أو ما سمعنا عنه فى حكايات طفولتنا.

وفى حالة السفير بيل وزوجته جانيت – فإن «أرابيا» هذه .. بلاد العرب المطروحة فى كتب الحكايات.. كانت بمثابة الأمر الواقع.. وقد شكلت فصولها الأساسية الأحداث الكبرى فى حياة كل منهما.

ولد بيل ستولفوز فى بيروت عام ١٩٢٤. وهو سليل أسرة من مبشرى البروتستانت من وسط الغرب الأمريكى. ولأن شهادة ميلاده تقول إن مسقط رأسه هو بيروت، سوريا فهو يفسر ذلك بقوله إنها لم تكن بيروت، لبنان لأن الواقع كان كذلك فقد درجنا دائما على أن نعتبر بيروت جزءا من سوريا «الكبرى» ★ أما لبنان الحديث فهو اختراع فرنسى.

★ أو «بلاد الشام» المترجم.

التقى والدا بيل فى ملجأ للأيتام فى صيدا حيث كان كلاهما يقدم معونات غوثية إنسانية بعد الحرب العالمية الأولى. ثم التقى بيل نفسه مع جانيت فى بيروت، بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان خريجا من جامعة برنستون وفى دورة متقدمة فى اللغة العربية فيما كانت هى خريجة أيضا تقوم ببعض المهام الإنسانية بين صفوف العرب. ومن أبنائهما فيليب خريج برنستون كذلك على غرار أبيه وجده من قبل . وقد التقى بعروسه الخريجة فى غمار مهمة إنسانية بدورها بعد فترة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ من اشتعال الحرب الأهلية فى لبنان .. هكذا يلاحظ السفير بيل بشعور من الإجلال : ثلاثة أجيال وثلاث حروب .. وثلاث زيجات.

بعد أن تزوج بيل وجانيت فى عام ١٩٥٤ أوفد إلى الكويت نائبا للقنصل الأمريكى، فى تلك الأيام كانت الكويت عبارة عن مدينة مسورة تكاد تنتمى للقرون الوسطى حيث أعطت ظهرها للصحراء. لم يكن ثمة تكييف للهواء. وقصارى الزوجين أن يناما فوق السطح دون غطاء فى ليالى الصيف تحت درجة حرارة تقارب الخمسين. وكان طفلهما الأول ويليام هو أول طفل غير عربى يولد فى المستشفى الوطنى الذى كان قد أنشأه المبشرون الأمريكيون منذ نحو نصف قرن.

فى تلك الأيام انقضت أيام بيل منهمكا فى معالجة طلبات تأشيرات اللاجئين الفلسطينيين للسفر إلى الولايات المتحدة ولأن

الفلسطينيين جاءوا من منطقة كثيفة السكان قرب البحر المتوسط كانت قد خضعت بواسطة البريطانيين لعملية التحديث السريع، فقد كانوا أفضل من سواهم تعليما وأشد جلدا على أداء العمل. وبعد أربعين عاما من ذلك التاريخ، لاتزال هذه القابلية وذلك التصميم الذى تبدى فى صفوف اللاجئين معيارا تحترمه جانيت التي تعمل مدرسة فى ثانوية برنستون فتقول: فى أيامنا هذه ترى اسم الكورى أو اليابانى أو الصينى ضمن قائمة الصف الدراسى فتعرف أن هذا الطفل سوف يتميز عن أقرانه، تماما مثل الأطفال الفلسطينيين الذين عرفتهم فى الكويت.

على أنه من العسير على بيل وجانيت فى ضوء ظروف الحياة التى عاشاها ألا يتعاطفا مع الفلسطينيين ففى ذلك مما يجافى الروح الإنسانية. مع ذلك تحرص جانيت على أن تضع كل أمر ضمن سياقه الطبيعى وهى بوصفها اختصاصية فى أمور التربية.. تنطلق فى تناول المواضيع ذات الحساسية الخاصة بغير تبرم أو حساسيات.

تقول جانيت لزائرها : أنت مازلت حديث السن.. لن تدرك كيف كانت قوة الشعور بكراهية اليهود «معاداة السامية» فى أمريكا عند منتصف القرن عندما كنا لانزال فى المدرسة لم نكد نصادف يهودا هنا أو هناك .. لا فى جامعة برنستون ولا فى

المدارس الإعدادية التى كنا نختلف إليها .. كم كانت أمريكا مختلفة فى تلك الأيام!

لذلك فقضية الهولوكوست هى الآن أقرب إلينا عما كان عليه فى تلك الأيام التى أعقبت وقوعها مباشرة. والسبب هو ذلك السيل الذى شهدته السنوات الأخيرة من كتب وأفلام ومقالات.

ومن الكويت نقل الدبلوماسى بيل عام ١٩٥٦ إلى سفارة أمريكا فى دمشق ليعمل مسئولا سياسيا وكانت سوريا للأمريكيين الآخرين بمثابة الوجه الآخر من القمر فى عقد الخمسينات.. إذ كانت مثوى الانقلابات المخيفة والاضطراب السياسى بغير جدوى فى الإصلاح لكنها بالنسبة إلى بيل وجانيت كانت أقرب إلى العودة إلى الوطن.

كان بيل قد شب عن الطوق فى حلب.. مدرسة البازار التاريخية فى شمال سوريا بعد أن أصبح أبوه المبشر رئيسا لكلية حلب.. وكانت المدينة هى المكان الذى اختاراه للاحتفال بخطبتهما قبيل الزواج. ثم كانت هناك بيروت أيضا على مسافة ساعات من دمشق بالسيارة حيث عادا والدا بيل .. أما دمشق ذاتها فى تلك الحقبة فمازالت جانيت تتغزل فى جمالها إذ كانت مدينة صغيرة ذات أسواق حافلة تمتع العين وكأنها انحدرت من سطور التوراة – ثم يضيف زوجها قائلا: كان السوريون دائما يتسامحون مع الأمريكان.. وقد تبادلنا وإياهم الثقة سواء بسواء.

من هنا لم تكن العلاقات الأمريكية - السورية تتسم قط بذلك الطابع المشهود من الخصام بالنسبة لبيل ستولفوز ابن بيروت وربيب حلب على نحو ما اتسمت به في العقود الأخيرة، بل استندت إلى شبكة من الصداقات الشخصية بين شريحة مثقفة من مجتمع العرب وبين المبشرين والمعلمين الأمريكيين الذين كانوا قد توافدوا على سوريا في بدايات القرن التاسع عشر.

في ذلك الوقت، وإذ كان الأتراك العثمانيون يحكمون الشرق الأوسط لم تكن ثمة حدود بين أقطار المنطقة. بل كانت هناك منطقة الهضبة الجيرية إلى الشمال المعروفة باسم سوريا.. وبعدها تنداح رمال الصحراء إلى مشارف اليمن في الجنوب وتظهر كلمة سوريا ذات الأصل اليوناني لأول مرة في معرض الإشارة إلى جبل عرمون الذي يحدق بالحدود الحالية في المنطقة، ولم يكن لبنان وقتها - وحده - جزءا من سوريا «الكبرى» بل كان معه أيضا فلسطين والأردن وشرقي العراق وجنوب تركيا.

والحق أن المبشرين الأمريكان ومنهم مثلا والد السفير بيل هم الذين تصدروا الحركة نحو تكريس اسم سوريا لا عند قومهم في الغرب - بفضل رسائلهم إلى ذويهم أو الجمعيات التي شكلوها والمطابع التي استخدموها - بل عند العرب أنفسهم الذين كانوا حتى مقدم هؤلاء المبشرين يطلقون على تلك المنطقة اسم «الشام».

من هنا كانت سوريا «بلاد الشام» بالنسبة للدبلوماسى بيل وزوجته أكثر من وطن وبيت كانت بمثابة نسخة منقولة من منطقة نيوانجلند الأمريكية التى ينتميان إليها : الربى العالية التى يسكنها رفيعو الثقافة أشبه بالنساك وقد وضعت موطىء قدم لها على جبال لبنان.. أو مملكة سحرية لعائلات البروتستانت المفعمة بروح من المغامرة والاستقامة والمثالية .. حيث تلبّث القرن العشرين فلم يصل إلا في عام ١٩٤٨ .. ولقد كان وصوله مشبعا بروح الانتقام.

ليس بالضرورة أن يصبح كل موظف فى السلك الدبلوماسى سفيرا.. مهما كان موهوبا.. فالأمر يقتضى قيراطا من الحظ.. وبيل ستولفوز لم يكن استثناء من هذه القاعدة.. ولقد وافته ساعة الحظ الموعودة فى عام ١٩٧١ عندما كان الرجل الثانى فى سفارة أمريكا فى جدة بالمملكة العربية السعودية.. وأوكلوا إليه يومها أن يتولى تنظيم زيارة سبيرو اجنيو نائب رئيس الجمهورية.

لم تكن مهمة سارة على كل حال.. هكذا يقول السفير الأمريكى السابق «فى لقائه مع مؤلف الكتاب» ثم يضيف مفسرا : كان أفراد الأمن – الخدمة السرية – لا يراعون الثقافة والتقاليد المحلية.. مثلا كانوا يزيحون الستائر ويرفعونها فى حرملك النساء فى القصر قبل أن يصل إليه نائب الرئيس.. حتى لعب التنس مع

أجنيو لم يكن أمرا سارا بدوره .. كانوا قد حذروا السفير من أن نائب الرئيس رجل يمقت الهزيمة .. وهكذا ظل السفير يعمد إلى ضرب الكرة فى حذر وخفة.. ثم ما لبث أن حدث نفسه قائلا : ما هذا العبث؟ ومضى يسدد الضربات.. وبدلا من أن يغضب الرجل الثانى فى أمريكا.. إذا بنائب الرئيس تنفرج أساريره بالإعجاب.. وسرعان ما نمت صداقة بين الطرفين وبعدها أسر بيل إلى أجنيو ببعض ما يعرفه من معلومات عن الشرق الأوسط . وهنا يعلق السفير قائلا: كان أجنيو رجلا ممتازا.. من طراز غاية فى التهذيب .. لكن طبعا كانت له مشاكله .. قالها السفير وهو يرفع حاجبيه اللذين علاهما المشيب.

ولم يطل الأمر بعد عودة سبيرو اجنيو إلى واشنطن .. فقد تمت ترقية بيل إلى رتبة السفير .

وعندما ثارت فضيحة .. أجبرت أجنيو على الاستقالة كنائب للرئيس نيكسون فى عام ١٩٧٤، ظل الرجل يختلف إلى منطقة الشرق الأوسط بوصفه رجل أعمال معلنا تبنيه للقضية العربية فى مواجهة إسرائيل.. لكن الذى لم يكد يعرفه أحد هو أن جانبا مما تعلمه سبيرو أجنيو حول سياسات الشرق الأوسط، إنما كان مصدره السفير الأمريكى بيل ستولفوز، وهو يفسر الأمر بقوله : أرأيت إلى مصالحنا الداخلية وكيف تدمّر سياستنا الخارجية .. ولا شبهة عندى فى أن المصالح القوية والمعلنة لهذه الفئة أو تلك

من الذين يتمركزون فى المدن الكبرى والولايات الكبيرة.. هى التى تقرر سياستنا في الشرق الأوسط.. وإن كنت تفتش عن مؤامرة من نوعا ما .. فانظر إلى تلك المصالح .

★★★

السفير السابق بيل يدلى بهذه الأقوال فيما زائره يدون عنها ملاحظاته .. ولقد دعا زائره إلى بيته كى يضع كل الأمور فى نصابها ومن ثم أصبح من واجب الزائر «المؤلف» أن يصنع الشيء نفسه.

إن ما يقصده السفير هو أن الصراع بين جماعات اللوبى الأمريكى اليهودى وبين الدبلوماسيين الأمريكيين من أمثاله، صراع امتد عبر عقود طويلة من الزمن وبات لايمكن إنكاره .. بل هو نفسه يطرحه بصراحة ويعلن عن رواسبه التى مازالت متبقية لديه.. إلا أنه صراع يدعو للأسف بكل مقياس .

إن آخر ما يريده رجل مثل بيل هو أن يتناقض كدبلوماسى أمريكى مع محموعة أخرى من الأمريكيين.

بيل وزوجته جانيت قوم لايزالون يتحلون بحس مرهف من مثالية الأمريكيين .. يكفى مثلا أن صغرى بناتهما لاتزال تعمل فى خدمات هيئة السلام الأمريكية فى أفريقيا.. وهذا أمر ينبغى أن يظل واضحا.

★★★

السفير السابق بيل ستولفوز يوصف بأنه مستعرب «أرابيست» وتلك كلمة من أكثر التعابير المشحونة فى القاموس الأمريكى.. فى القرون الوسطى، لم يكن المستعرب سوى طبيب درس الطب العربى الذى كان وقتها أشد تقدما بكثير من أساليب الطب الممارسة فى أوروبا.

فى أواخر القرن التاسع عشر ثم فى القرن العشرين كان المستعرب هو دارس اللغة العربية تماما مثل المستغرق أى دارس لغة الإغريق - اليونانية - أو دارس اللاتينية. لكن مع قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ .. ما لبث مصطلح مستعرب أن حمل بسرعة معانى أخرى.

يقول ريتشارد ميرفى مساعد وزير الخارجية الأمريكية السابق لشئون الشرق الأوسط، وقد عمل سفيرا لدى سوريا والمملكة العربية السعودية: أن الكلمة حملت معنى من الاستهانة وكأنها تشير إلى ذلك الذى وقع ثقافيا وفكريا فى غرام العرب.. بمعنى، ذلك الذى يفترض فيه السذاجة السياسية والانتقائية والإيغال فى توقير الثقافات الغريبة الأطوار .. بل إن مقاطع الكلمة «أرابيست» فى الإنجليزية تشير إلى شدة التعاطف لدرجة التوحد مع العرب، على خلاف ما تشير إليه كلمة من قبيل صينولوجست التى تصدق على المتخصص فى شئون الصين .. وهنا تهز السيدة آن زوجة

السفير ميرفي رأسها قائلة : إن سميت نفسك «مستعرب» .. فقد يظن القوم إنك معاد لليهود .

من ناحية يعترف السفير بيل قائلا : إن الجالية الأمريكية في سوريا ولبنان ظلت معارضة لدولة إسرائيل.

صحيح أن هذه الجالية تعيَّن عليها أن تقبل بإسرائيل في نهاية المطاف لكنه لم يكن قبولا من القلب.. تماما كما تعيَّن على المحافظين أن يقبلوا في نهاية المطاف بوجود الصين الشيوعية.

★★★

لو كان لنا أن نربط بين السفير بيل وبين نوعية معينة من البشر.. فتلك فئة يتدرج ضمنها عادة بريطانيون هاموا حبا برمال الصحراء منهم مثلا سير ريتشارد فرانسيس بيرتون وشارلس دوتي، و ت . لورانس العرب، وهاري عبدالله فيلبي وكذلك ويلفرد ثايجر ثم جيرترود بل.. لقد استوطنوا بيئة الصحراء العربية.. وأحدثت بهم دوامات من الفانتازيا وعشقا غريب الأطوار ونزعة العدمية.. هتف قائلهم ويلفرد ثايجر : أريد اللون والتوحش .. أريد تطهرا يندر وجوده في عالم البشر.. ولقد استبد بي حنين الماضي ورفض الحاضر وخوف المستقبل.

والحق أن قلة من الرسميين الأمريكيين لاقت ما صادفته فئة المستعربين هذه من عنت واستهانة فيما ظل أفرادها على ما كانوا عليه من غموض وركون إلى ظلال المجهول.. والمستعربون ليسوا

تلك الحفنة من كبار موظفى الخارجية الأمريكية الذين تلهبهم أعمدة الصحف بسياط الانتقاد.. ولا هم عادة ذلك الطراز الذى يتحدث عن سياسات الشرق الأوسط على شاشات التليفزيون.. المستعربون رجال ونساء من طراز السفير بيل يقرأون ويتكلمون العربية وقد أمضوا ردحا طويلا من عمرهم المهنى، ومعهم عائلاتهم فى العالم العربى.. سواء كدبلوماسيين أو ملحقين عسكريين أو عناصر استخبارات أو حتى باحثين عن مغامرات فى مجال العلم والمعرفة.

المستعربون يمثلون أغرب مظاهر مؤسسة الساحل الشرقى بالولايات المتحدة وأشدها مثارا للخلاف وهو عادة ساحل الفكر والثقافة إن فرانسيس فوكوياما، وقد كان عضوا سابقا فى فريق تخطيط السياسات بالخارجية الأمريكية وهو الآن مفكر سياسى ذائع الصيت يقول إن المستعربين يشكلون ظاهرة سوسيولوجية.. إنهم نخبة داخل النخبة ممن ظلوا مخططين على طول الخط بأكثر من الاختصاصيين فى أى مجال آخر من مجالات السلك الدبلوماسى الأمريكى ذلك لأن المستعربين لم يتبنوا قضية العرب فحسب، بل تبنوا كذلك نزوع العرب إلى خداع الذات(!).

مع هذا الرأى يختلف تماما نيكولاس فليوتس وقد كان بدوره مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط، كما عمل سفيرا فى الأردن ومصر ويقول:

كلما صادفت من ينتقد المستعربين بادرت بالرد عليه المستعربون هم رجال ونساء اتقنوا لغة صعبة وأمضوا سنوات من عمرهم وسط بيئة أجنبية صعبة فى خدمة الولايات المتحدة ولكم وددت لو كنت واحدا من زمرتهم ولست كذلك للأسف الشديد.. فلم تكن عربيتى سليمة فى يوم من الأيام.

ولقد يظن القارىء أنه فهم السفير بيل ستولفوز والأمر على خلاف الظن.. ثمة مستويات لشخصية الرجل لايستطيع المر اختراقها إلا إذا تسنى له الاقتراب من تجربة تاريخية معينة.

بادىء ذى بدء، على المرء ألا يخلط بين رجل من طراز بيل وبين المجانين من البريطانيين فأيا كانت السمات الشخصية لأولئك المستعربين البريطانيين إلا أنهم كانوا يعملون وقد صدروا عن خلفية من الأمبريالية.. لقد اتيحت الفرصة لهؤلاء البريطانيين من رجال ونساء، بفضل مزايا السلطة وقوة الاستعمار فحققوا ذواتهم وترجموا أحلامهم فوق مثل هذا المسرح الفريد والمثير.. وبرغم غرابة أطوار بعضهم.. فإن رجالا مثل «لورانس» ونساء مثل «جرترود بل» عملوا فى بلاد العرب كعملاء للحكومة البريطانية ومن ثم كان ما يعنيهم أساسا هو آليات القوة الاستعمارية.

وفيما كان المستعربون البريطانيون استعماريين، كان المستعربون الأمريكون أصلا مبشرين ، كان لهذا انعكاساته ودلالاته.. ومن ثم فالتبشير هو الذى حدد هوية مستعربى

الأمريكان فى حين أن الاستعمار حدد هوية نظرائهم البريطانيين.
ولا ريب أن هذا الفصيل الاجتماعى قليل الوجود كنوع أمريكى أصيل .. أعنى المبشر ومن ثم المبشر.. المستعرب :
إنه شخص لايكاد يعنيه السلطة السياسية قدر ما يعنيه أفعال خير يقوم بها من أجل عالم أفضل وابتغاء محبة المحرومين أو المحتاجين. البريطانيون كانوا يسعون للسيطرة.. لاكتساب أو اقتناء ثقافة، تماما كما يشغف المرء باقتناء نادر وجميل وتلك استعارة يمكن ترجمتها حرفيا حين نعرف أن د . هوجارث الذى كان يدير المكتب العربى البريطانى - قلم الاستخبارات فى المنطقة من القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى - جمع ٣٠٠ كتاب عن مواضيع عربية فى غضون الحرب .
لكن الأمريكيين، ومنهم والد السفير بيل شخصيا كانوا يلتمسون هدفا أبعد منالا، كان مبتغاهم هو تغيير تلك المنطقة.. وتحسين أحوالها باستخدام نموذجهم الذى يعتمدون، وتبدت فيهم نزعة نفسية نبعت من واقع الثورة الأمريكية.. وهو ما أدى فى نهاية المطاف إلى مأساة واحدة من سفراء أمريكا الأمريكيين فى العراق لاحقا بعد ٢٠٠ سنة من عمر الزمن.
فكما نعرف كانت المقابلة الشهيرة فى يولية ١٩٩٠ بين السفيرة الأمريكية ابريل جلاسبى والرئيس العراقى صدام

حسين.. أمرا استغرق تحقيقه فى واقع الأمر قرنين من الزمن. لقد دخلت السيدة جلاسبى إلى مقر صدام حسين وبين جوانحها رهبة من بضاعة تراث المستعربين القديم.. ولم تكن مأساة «عراق - جيت» فضيحة في بنك ، بل كانت قصة إنسانية ملحمية تتوازى فصولها مع تاريخ الجمهورية الأمريكية ذاتها.

★★★

ومن عجب أن الأمريكيين يعرفون عن الامبريالية البريطانية بأكثر مما يعرفون عن الدوافع التى كان يصدر عنها أبناء جلدتهم فى الشرق الأوسط من رجال ونساء ، كان نفوذهم فى المنطقة فعالا ومشهودا. ولم يسبق للمنطقة أن شهدت قط ثقافة وافدة مثل تلك التى جاءت بها مستعمرات المبشرين الأمريكان فى العالم الإسلامى لا على صعيد التجربة البريطانية ولا على مستوى التجربة الأمريكية ذاتها.

إنها قصة ينبغى أن يبدأ بها البحث من أجل اكتشاف هوية، ومن ثم سلوكيات وأعمال رجال من أمثال السفير بيل ستولفوز وأضرابه ممن كانوا ممسكين سرا بعجلة القيادة لقاطرة السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

★★★

الباب الأول

الحلم

الفصل الأول

لبـــنان مـوطنـــا

، «انتفضت الآلات بالوجيب وارتعشت السفينة وأخيرا كنا على طريق نهر الهدسون فاجتزنا تمثال الحرية ثم جزيرة اساتن ومنها انطلقنا إلى الأطلسى الكبير فى طريقنا إلى الوطـن ، كان الوطن بالنسبة إلى «آن بيرلى» البالغة من العمر ثمانى سنوات هو مدينة صيدا على الساحل اللبنانى ★ . فى عام ١٩٣٩ كانت صيدا بلدة غارقة فى السبات ، ترفل فى مناظر الطبيعة الجميلة ويعرفها الناس بشجرة عتيقة ارتاح تحت ظلالها النبى أيوب ثم «تحسس قروحه»، كما عرفوها بأن ساحلها استقبل يونس النبى خارجا من بطن الحوت.

«آن» الصغيرة ذات الشعر الأحمر، كانت عائدة إلى صيدا بعد عام أمضته بالمدرسة فى أمريكا وكانت تنحدر من أرومة أنجلو -

---

★ الانتداب الفرنسى كان قد أعطى لبنان فى عام ١٩٢٠ شخصية قانونية مستقلة لحين إنشاء الدولة السورية بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن المبشرين ظلوا ينظرون إلى لبنان وكأنه إقليم سورى.

أمريكية كريمة، كان جدها الأعلى هو أندرو بيرلى الذى حارب فى الحرب الفرنسية والهندية «وهناك لوحة مكتوبة باسمه فى الحديقة الحكومية غرب مدينة بيتسبرج فى أمريكا». أما جدها المباشر أندرو روبرتسون بيرلى فكان برتبة رائد فى جيش الاتحاد أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. ثم كان أبوها القس رويت كرين بيرلى قد ولد فى المنطقة الهولندية من ولاية بنسلفانيا ثم اتجه إلى لبنان «حين كان وقتها جزءا من سوريا الكبرى» بوصفه مبشرا للكنيسة المشيخية ★ وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى حيث التقى بوالدة آن التى انحدرت بدورها من أصلاب مبشرين من لندن. وكتب على الاثنين، على نحو ما حدث لوالدى السفير ستولفوز، أن يمضيا ردحا طويلا من العمر فى الخدمة الإنسانية للعرب.

وبالنسبة لطفلة أمريكية فى لبنان تعيش فى مرحلة ما بين الحربين، كان الأصل البروتستانتى الذى تنحدر منه آن لائقا بها بصورة كاملة وكذلك كان شعورها الفريد بالهوية الوطنية. لقد شبت عن الطوق «وهى تتحدث مزيجا من الإنجليزية والعربية والفرنسية» كانت مائدة الإفطار للعائلة أمريكية الطابع فيما كان

★ المنبثقة عن مذهب كالڤن البروتستانتى ويقوم على أمرها نظام من شيوخ الكهنة المتساويين فى الحقوق. «المترجم».

الشاى إنجليزيا، أما العشاء فكان «يضم الأطباق العربية اللذيذة التى كنا نشغف بها جميعا» وكانت آن «تستوعب فى اللاشعور الثقافات» التى تميز البشر من حولها، ومع ذلك كم كان شعورها بالوطنية فائقا عندما كانت تشارك بنى قومها الأمريكيين فى غناء أناشيدهم الوطنية يوم الرابع من يوليه - عيد الاستقلال الأمريكى.

أما ما كانت تهواه آن، شأنها شأن سائر الأمريكيين ممن أطلق عليهم وصف «أبناء لبنان» فكان بالذات النزهات على البحر المتوسط : «عندما يكتمل القمر بدرا كنا نبقى حتى بعد أن يسدل الظلام ستوره نلعب فى الماء ونتأمل بإعجاب ومضات الفوسفور التى كانت تميز ثياب استحمامنا» وكان الخدم العرب يقدمون لنا السمبوسك، تلك العجائن المثلثة المحشوة باللحم أو الخضر المطبوخة، على الأبسطة لكى يتناولها الأطفال وعائلاتهم. وبعد ذلك كان الكل يلقون بالفتات إلى سرطان البحر. وحدث أن لويز برومر، وهى من صديقات آن، أمضت إحدى تلك الليالى ثم أرسلت بعدها إلى آن قصيدة بعنوان «الروبيان السورى» تقول أبياتها :

رأيت قافلة بعير وقت الغروب
إذ كنت أسبح قرب شاطىء البحر فى صيدا
فى سيرها الوئيد حادت عند حافة الماء

ثم اختفت بين طيات الأفق الأزرق
طلع البدر مثل كرة من ذهب
ومن خلفه جبال لبنان إلى قريب
أما نحن فكنا أشبه بالملك إينياس
الذى تغنى بذكره شعراء الزمن القديم
تناولنا العشاء والتهمنا ما على الأطباق
عشاؤنا كان خبزا وفاكهة من البحر
فما أحلى ذكريات أيام الحبور
التى أمضيناها فى صيدا

★★★

وتتذكر جريس دودج، ابنة رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت، التى كانت من معارف طفولة آن، كيف كانت تمشى بين البيت والمدرسة على محاذاة البحر المتوسط فى عمق لونى الأزرق والأخضر «وقد علته سمرة من طين نهر كان الأقدمون يسمونه «دم أدونيس» وكان جبل صنين فى خلفية الصورة يرتدى إهابا من الثلوج تلمع فى ضوء وردى عند الغروب» وبمحاذاة الطريق كان ثمة سلسلة من الكهوف التى كثيرا ما عمدت جريس وصديقاتها إلى استكشافها. ويتذكر أخوها، ديفيد ستيوارت دودج الرحلات ورياضة التزلج فى جبل الأرز حيث مازالت أشجار الأرز تقف

شامخة منذ الأزل. وفى أيام الصيف كانت جريس وشقيقها ديفيد يفرسان الخيام مع العائلة فى غابة الأرز التى تحميها الكنيسة المارونية. ويقول ديفيد «لبنان الذى عرفته صبيا كان موقعا يظلله السلام»، وديفيد مثل أبيه وجده شب عن الطوق ليصبح بدوره رئيسا للجامعة الأمريكية فى بيروت ، وكثيرا ما يستخدم لوصف لبنان فى تلك الحقبة ألفاظا وعبارات من قبيل «المسالم» و«الوسنان».

تالكوت سيل، الذى سيصبح سفيرا لأمريكا لدى تونس وسوريا فى المستقبل سيظل يذكر دوما كيف كان القوم، حتى المسلمون أنفسهم يطربون إلى الإيقاعات الجميلة للترانيم المسيحية التى كانت تتصاعد كل صباح من الكنيسة الصغيرة، وسيذكر كذلك نوعية الحياة فى بيروت «غارقة فى الوسن وناعمة بالسلم». ديفيد زيمرمان الذى سيصبح بدوره دبلوماسيا أمريكيا يتذكر لعبة البيسبول كل سبت واجتماعات الكشافة فى مرفأ بيروت واحتفالات الألعاب النارية فى عيد الرابع من يوليه. وفى هذا المجال يقول السفير جيل ستولفوز «كنا نعيش مثل نبلاء الإقطاع الإنجليز مع الخدم وكأن كلا منا يملك جبلا وكان مأوانا بيوتا شبيهة بتلك التى ضمتها بحيرات نيو إنجلند».

آرثر وراى كلوز اللذان سيصبحان فيما بعد من رواد الاستخبارات الأمريكية فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية

الثانية، كانا جزءا من العصابة كذلك. هذان الشقيقان شبا عن الطوق فى بيروت المسلمة وسط عائلة مبشرين عاشت فى لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر. وفى هذا السياق يقول آرثر: على خلاف العائلات الأمريكية الأخرى لم يكن لدينا سوى خادم واحد. وفى كل أسبوع كنا نتناول أربع وجبات عربية وثلاثا أمريكية. وكانت أمى تتحدث العربية بطلاقة وكانت تحب العرب. وكان اللبنانيون فى تلك الأيام شعبا لين الجانب لدرجة المحبة، وقد نشأنا على حب ذلك البلد وما كان لديه ليقدمه لنا. ولن أنسى ما حييت رحلاتنا وجولاتنا خلال القرى المسلمة والدرزية. كنا نعيش حياة ريفية تكاد تكون مصطنعة.

وتعبير مصطنعة هنا يتوقف على ما يراه المرء لكنها كانت ريفية بالفعل. ومن خلال حجب الزمن، أى بعد أكثر من عنف ساد المدن اللبنانية بصورة أقرب إلى أفلام السينما فى السبعينات والثمانينات ثم سبقه نزاع سياسى دام ثلاثة عقود ونجم عن ارتفاع دعوة القومية العربية وشمل كذلك أربع حروب عربية مع إسرائيل، كل هذا جعل هذه الذكريات الفريدة عن لبنان وكأنها لم توجد قط أو تبدو بعيدة ومستحيلة ومجافية للواقع. مع ذلك فالذكريات مهمة باعتبار أن هناك من الذين حملوها بين جوانحهم من أصبح له شأن ونفوذ فى مستقبل الأيام.

ومن الصعب أن نتصور شلة أسعد حظا من الشباب بأكثر مما كانت مجموعة أن بيرلى وجريس وديفيد دودج وتالكوت سيل وبيل ستولفوز وديفيد زمرمان وآرثر وراى كلوز وأصدقائهم. فمن الناحية الواقعية لم يكن هناك أماكن تكاد تقارب جمال لبنان على وجه الأرض: إنه واحدة من تلك البقاع المباركة التى يستوى فيها جمال الشتاء والصيف والبحر والصحراء والغرب والشرق، كلها تتضافر معا فى مزيج مثير وسط خلفية من أشجار الأرز والكافور حيث يمكن للمرء أن يسبح وأن يطير وسط ثلوج الجبال. والذى قيض له أن يعرف لبنان لا قبل الحرب الأهلية فقط ولكن قبل التوترات الخارجية والداخلية التى انتابته فى الخمسينات والستينات يمكن أن يفهم كيف كان نعيما سابغا.

فما بالك بطفل أمريكى عرف لبنان فى العشرينات والثلاثينات حيث نعم بجنة ريفية لم تترك فى نفسه آثارا اجتماعية أو اقتصادية فقط بل خلفت أثرا أخلاقيا . كذلك الجالية الأمريكية الوافدة فى لبنان قبل الحرب العالمية الثانية جاءت نتيجة استثناء مذهل بالنسبة إلى فكرة لويل توماس عن «النظام التقليدى» للغزو (الاستعمارى) : «المستكشف ثم المبشر فالجندى وبعد ذلك التاجر». فى لبنان كان المستكشف والمبشر شخصا واحدا وفى لبنان أيضا لم يأت الجندى قط، وبدلا من التاجر جاء رجل التربية والتعليم وإن لم يخل الأمر من حفنة من التجار.

وفي تناقض سافر إزاء المستعمرين الأوروبيين فى العالم المتخلف أو حتى المغتربين الأمريكيين فى منطقة قناة بنما وممتلكات أمريكا فى المحيط الهادىء فإن الاتجاه الامبريالى والاستغلال التجارى لم يكن لهما مكان داخل المتاع الذى حمله معهم المبشرون إلى لبنان. بل إن الأمريكيين لم يشكلوا يوما تهديدا إزاء الثقافات الدينية المحلية على نحو ما فعل مثلا المبشرون فى مستعمرات الهند والصين وبورما وسيام. لكن إذا كان للحقيقة أن تروى، فبالمقارنة إلى المبشرين فى الشرق الأقصى الذين استطاعوا كسب أعداد كبيرة من الصينيين لصالح المسيحية البروتستانتية، فإن المبشرين الأمريكيين فى الشرق الأوسط باءوا بالفشل الذريع والكامل. إن خصوصية الإسلام سرعان ما اضطرتهم أن يتخلوا عن أى أمل فى تحويل القوم هناك إلى ديانة المسيح. وفي ملاحظة دقيقة عن النظرة إلى الأمريكيين بوصفهم قوما لا ضرر منهم، ذكرت مسز إيلى سميث وهى زوجة مبشر كان فى بيروت فى عام ١٨٣٩ أن الأمريكيين كانوا فى عيون المسلمين «قوما لا يكذبون ولا يسرقون ولا يتشاجرون ولا يفعلون أيا من ذلك لكنهم، المساكين، ليس لهم ملة أو دين!».

إن الأمريكيين فى لبنان نجحوا فقط فى أن يكونوا مبشرين بالتعليم الغربى ، ومن هنا استطاعوا أن ينالوا محبة أهل البلاد من العرب.

كان أول مواطن أمريكى على وجه الإطلاق يتحرك ضمن صفوف العرب هو جون لديارد أوف جرتون من ولاية كونيكتيكت. كان لديارد الذى لم يكمل دراسته فى كلية دارت موث قد تجول فى أنحاء برية نيو هامشاير فى بلده وقام برحلات سيرا على الأقدام فى سيبيريا عام ١٧٨٦ قبل أن يقبل عرضا من الجمعية الأفريقية فى لندن بالإبحار فى مياه النيل لاكتشاف وسط أفريقيا. وصل لديارد إلى ميناء الاسكندرية المصرى على ساحل البحر المتوسط فى يوليه ١٧٨٨ قبل أن يتم تنصيب جورج واشنطن رئيسا بسنة واحدة. على أن لديارد لم يقدر له أن يتجاوز مدينة القاهرة إذ مات هناك بعد أشهر قليلة من جراء مرض غامض زاد من تعقيده جرعة كبيرة من العقاقير الشعبية. كانت سنة ٣٧ وباستثناء وصف غريب لنهر النيل قال فيه «إنه لايزيد فى حجمه عن نهر كونيكتيكت» فإن دوافع الرجل كانت تعصبه لبلاده ومن ثم فسرعان ما انزوى إلى حجب النسيان تماما.

مع ذلك فبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، شهدت منطقة غرب ماسوشوسيتس علاقة درامية بين أمريكا والعالم الإسلامى

بل مع العرب على وجه الخصوص. فى عام ١٨٠٨، وفى حرم كلية ويليامز، إلتقى خمسة طلاب يتزعمهم صمويل ميلز الابن وأدوا الصلاة إلى جوار كومة من العشب الجاف خلال عاصفة رعدية معبرين فيها عن إيمانهم بالمسيح. هذه الحادثة المعروفة باسم حادثة «هاى استاك» أصبحت بمثابة أسطورة تروى لدرجة أن تفاصيلها أصبحت يشوبها الإبهام والغموض على أن المعروف أن الطلاب الخمسة نذروا أنفسهم بأن ينشروا التعاليم الطيبة بين ملايين البشر فى آسيا وأفريقيا الذين تصوروا أنهم بلا عقائد وأنهم سيجنون الخير كله من سماع الرسالة.

هذا التدليل الغريب على الإيمان لم يكن ليحدث فى فراغ ولكنه جاء تتويجا لعملية واحدة ثم جاء بداية لعملية أخرى. كان المذهب البروتستانتى قد نشأ فى ذلك الوقت وتطور بوصفه المؤسسة الاجتماعية والثقافية الأولى لشباب الولايات المتحدة. كانت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ومن مفتتح القرن التاسع عشر «مرحلة شهدت معسكرات واجتماعات وحركات إحياء وتحولات عقائدية» على نحو ما يلاحظ المبشر المؤرخ «ديفيد فينى» وكانت العمليات تتعلق جميعا بإحياء وتعزيز البروتستانتية على نحو لم يشهده العالم من قبل، وكان ذلك كله يتم وسط إطار من

تفاؤل الرواد بصورة غير اعتيادية. كان الوعاظ من البروتستانت من كل لون وفكر يتصورون أن كلا منهم يحمل الكلمة الحقيقية ومن ثم احتدمت بينهم المنافسة الشرسة فى منطقة نيو إنجلند من أجل هداية البشر. ولأول مرة فى التاريخ الإنسانى، أصبحت العقيدة مسألة اختيار محضة. وبهذه الطريقة نشأت مختلف النحل والتفريعات البروتستانتية: المشيخية والميثودية والمعمدانية والوحدانية والكنيسة والمجمعية. وكما يوضح المؤرخ الدينى «مارتن مارتى» فإن الثورة الأمريكية كانت في حقيقتها ثلاث ثورات وإن اندلعت الحرب من جراء واحدة منها . أما الثورة الثانية فكانت تتمثل فى الفصل بين الكنيسة والدولة وتلك فكرة لم تكن نبيلة بقدر ما جاءت بوصفها نموا عمليا للتفريعات الجديدة المنبثقة عن البروتستانتية مما جعل من المستحيل تعريف الأمة الجديدة وتحديد الصفوة المؤسسة لها على أساس انتمائها إلى كنيسة واحدة بعينها . الثورة الثالثة جعلت الدين أمرا من أمور العقل قبل أن يكون شأنا من شئون الوجدان. وفى هذا يقول المؤرخ مارتى «أصبح الدين متاحا للجميع سواء آمنوا بالكتاب المقدس - الإنجيل أو لم يؤمنوا» هذه الثورة الثالثة هى التى ارتبطت بحركة اليقظة الكبرى التى كانت بدورها هى القوة المحركة لجهود التبشير.

اليقظة الكبرى، كما يراها أحد الناطقين باسمها، وهو القس «صمويل هوبكنز» في رود أيلاند كانت تسعى إلى نشر المجد لله كي لايقتصر على إنسان بعينه وإنما يفيض على أكبر عدد من البشر. وفي هذا يقول القس هوبكنز : «بنشر الحب المسيحي وليس بغيره يمكن أن نجعل البشرية تقترب من يوم الخلاص حيث يزول الفقر وينجلي الظلم وينجاب الاضطهاد». وهنا كان يتجسد الصوت الديني لأمريكا الشابة بكل حيويتها وبكل نقائها وبحثها عن المساواة وثقتها في نفسها، وجاء بوصفه نتاجا فرعيا للتجربة التي خاضتها الأمة الأمريكية الجديدة مع الحرية بوصفها الحل لأدواء الإنسان. تلك المعتقدات هي التي صنعت «البيوريتاني الحق» على نحو ما رآه راندولف بورن الذي كتب عام ١٩١٧ واصفا إياه بأنه «أكثر البشر إيثارا وأشدهم استقامة على جادة الطريق» وهذا أيضا هو الذي دفع صمويل ميلز وحوارييه إلى الاجتماع وقرب كومة العشب الجاف بينما كان سنا البرق يلمع في أنحاء المكان.

ويمكن القول إن ما يكاد يكون جميع الطوائف البروتستانتية بدأت حركات تبشيرية جاء قادتها من منطقة نيو إنجلند (شمال شرق الولايات المتحدة) في منافسة محتدمة لتحويل الأهالي إلى مذهبهم. من ثم كان من المنطقي أن تأتي الخطوة التالية على شكل التماس حواريين جدد في أصقاع بعيدة. وعندما جاء القرن

التاسع عشر كان المعمدانيون * قد بدأوا بالفعل فتح الجنوب الأمريكي فيما اختارت العناصر الميثودية ** فتوحاتها في الدول المتاخمة لأمريكا. مع ذلك فما أن بدأت هذه الانتصارات في سبيل العقيدة في العالم الجديد - ولم يكن قد تسنى بعد تحويل معظم السكان الهنود الحمر إلى العقيدة الدينية - حتى انتاب القوم فجأة ذلك الشعور الذي دفعهم إلى السعي نحو أعمال التبشير في الخارج يستوي في ذلك المجمعيون (الأبرشيون) *** الذين تزعمهم ميلز والذين انضم إليهم بعد ذلك المشيخيون ثم الكنيسة الإصلاحية الهولندية*** * .

---

* المعمدانية دعوة إلى عدم تعميد الفرد إلا في سن النضج لإدراك فحوى التعاليم (المترجم)

** اتباع الكنيسة المنهجية الإنجليزية التي تزعمها «جون ويسلي» في اكسفورد بانجلترا في دعوة لاصلاح وتجديد الكنيسة التقليدية . (المترجم)

*** أتباع الدعوة إلى استقلالية الابراشيات (الكنائس) على الصعيد المحلي. (المترجم) .

**** قيض للأبرشيين أن يسيطروا على أنشطة التبشير في الشرق الأوسط حتى عام ١٨٧٠ عندما نشأ تقسيم ودي للعمل : الأبرشيون أصبحوا مسئولين عن تركيا والمشيخيون مسئولين عن مصر وسوريا وإيران بينما أصبحت الكنيسة الإصلاحية الهولندية مسئولة عن الخليج العربي.

وبالمقارنة مع الجهود الخطرة والتى لم تكد تحرز نجاحا بين السكان من الهنود الحمر فى أمريكا، افترض المجمعيون أن المشاكل فى خارج الحدود ستكون هينة إذ تكون المنافسة أقل على هداية البشر. فيما تلوح إمكانيات تحقيق المكانة وإحراز المجد. إن القوة الدافعة التى جعلت هؤلاء الرجال والنساء يجتازون البحار والقفار لم تكن بمختلفة عما نشهده الآن. كان الذهاب إلى الخارج سبيلا لتحسين مكانة الفرد الاجتماعية التى كانت قد بدأت تتضاءل فى حالة الكاهن رجل الدين بسبب الموجات الكثيفة الأولى من المهاجرين الأوربيين الذين بدأوا يصلون إلى نيو إنجلند ليغيروا وجه الحياة فى ريفها. يومها تحولت القرى لتصبح مدنا صاخبة بالحياة وليتحول القساوسة المحليون ليصبحوا مجرد صوت ضمن الأصوات الكثيرة التى كانت تتنافس على اجتذاب اهتمام أمريكا الجديدة بتنوعها الثقافى المتزايد ونظامها الاقتصادى المتسع.

كانت جزر ساندويتش (هاواى) ثم الصين والساحل الغربى لأفريقيا هى أولى السواحل الأجنبية التى شهدت غزو بروتستانت نيو إنجلند. لكن نداء الأراضى المقدسة كان يرتفع فوق كل النداءات ولم يكن ذلك فقط بسبب أهميتها بوصفها مسقط رأس السيد المسيح. لقد رأى المبشرون فى حركتهم أنها لاتقل شأنا عن حملة صليبية جديدة، حملة من شأنها فى نهاية المطاف أن تخلص أرض الإنجيل من التخلف الإسلامى (!) لذلك نجد واحدا منهم يسأل : ما هى أوامركم للزحف؟ تماما كما يفعل جندى ذاهب إلى

ساحة القتال. شعر المجمعيون بحق أن الأمريكيين - وليس الأوربيين هم الذين مقدر لهم أن ينشروا دعوة الإنجيل الغربى إلى الأرض المقدسة. والمؤكد أن الأمريكيين ندبوا أنفسهم لهذه المهمة وهم يرتدون مسوح النقاء فقد عاشوا فى أرض عذراء لم تكن قد تلطخت بالبغضاء وبكل عوامل الظلم التى انتابت العالم القديم وهو ما كان يمثله فى رأيهم أحسن تمثيل حقيقة أن الولايات المتحدة الجديدة كانت «الدولة المسيحية الوحيدة التى لم تضطهد قط أحفاد إسرائيل» لا غرو أن تصبح معاداة السامية (بغض اليهود) يوما ما قضية محورية بالنسبة للأمريكيين فى العالم العربى. بيد أن الأمر بدأ بصورة مختلفة إلى حد كبير.

هؤلاء المجمعيون الأوائل كانوا بأدق معنى، ينحدرون من أصلاب أمريكية بيضاء خالصة: «كانوا الأخلاف الروحيين المباشرين للبيوريتان الأصليين» طبقا لما رآه المؤرخ فينى. وقد خلعوا على أبنائهم أسماء عبرية من التوراة: دانييل، اسحق، ناتان، ليفى. كان دينهم، شأنهم شأن العرب، يشكل نظاما اجتماعيا كاملا يبرز فيه النهى عن تناول الكحوليات ويؤكد على الخير والبر والإحسان والزهد فى أمور اللباس. بيد أن وعيهم بالتسامح إزاء اليهود، وهو أمر شائع حتى اليوم بين الانجيليين، سيساعد على إقامة المحطات التبشيرية الأمريكية الأولى فى العالم الإسلامى.

رؤساء الملة المجمعية رفضوا فى بداية الأمر خطة ميلز من أجل إنشاء إرساليات تبشيرية فى الخارج لكن مناشداته ظلت بغير هوادة.

وينبغى للمرء أن يتصور أن تلك كانت حقبة من فتوة المثالية. كانت هناك كليات منشأة حديثا مثل كلية ويليامز وميدل بورى (وبعدها هاملتون وأمهرست) بالإضافة إلى معاهد علمية لاهوتية مثل أندروفر ويونيون وكانت كلها تعمل على تخريج ذلك النوع من الشباب الفائق الثقة فى النفس والمجبول على التضحية والإيثار حيث كانت الحياة فى العالم الخارجى بالنسبة له ضمانا لمكانة فورية يحققها. وفى عام ١٨١٠، أى بعد عامين لا أكثر من حادثة هاى ستاك، كان الخريجون وأفراد الشعب الكنسى قد جمعوا ما يكفى من الأموال لتنظيم مجلس أمريكى للمبشرين للبعثات التبشيرية الخارجية يسيطر عليه المجمعيون ويتخذ مقره فى بوسطن. مع ذلك فلم يتح حتى عام ١٨١٩، خلال رئاسة جيمس مونرو، وبعد تسعة أعوام من إنشاء المجلس المذكور وست سنوات من إقامة الإرساليات الأمريكية الأولى إلى الشرق الأقصى، أن أبحرت الأرساليات الامريكية الأولى الموفدة إلى الأراضى المقدسة (فى الشرق الأوسط) وسرعان ما اتضح أن الأراضى المقدسة فى حقيقتها كانت مكانا مختلفا عن الصورة التى طالما راودت أفئدة البروتستانت.

بليني فيسك تخرج فى كلية ميد بلبورى فى فيرمونت ومعهد أندوفر اللاهوتى فى شمال بوسطن ، وهناك تصادق مع ليفى بارسونز وكان شابا تقيا عاكفا على قراءة الكتب المقدسة. ولم يكن فيسك يحب اللغات الأجنبية فيما كان بارسونز متقلب الأهواء شديد التأمل ضعيف المعدة. وفى عام ١٨٢٠ وصل هذا الثنائى الغريب إلى أزمير وكانت مدينة يونانية على ساحل تركيا الشرقى تعرف يومها باسم «لؤلؤة الشرق» وكان سكانها من المسيحيين الأرثوذكس وطائفة التجار الغربيين فيها يشكلون شريحة غريبة الطابع وسط الشرق الإسلامى (على نحو ما أصبحت اليه بيروت بعد ذلك) مما كان يسهل الحياة على الوافدين الجدد كما فعل الأمريكيان اللذان حاولا شق طريقهما إلى الشرق.

أمضى بارسونز معظم أيامه مريضا فى فراشه فى أزمير وأمضى فيسك وقته فى العناية ببارسونز والصلاة. وفى عام ١٨٢٢ أبحر الاثنان إلى الإسكندرية على أمل أن تتحسن صحة بارسونز لكنه مات بعد شبر من وصولهما إلى مصر. وبرغم أن فيسك قام ببعض زيارات إلى القدس فى سنوات ١٨٢٣ و ١٨٢٤ فإنه مات فى بيروت فى عام ١٨٢٥ بعد مرض ولم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين وكم عانى كثيرا على فراش الاحتضار بالضبط كما سبقه إلى ذلك صديقه بارسونز.

بعد ذلك جاء ويليام ماكلور طومسون وكان فى الثامنة والعشرين وعروسه إيليزا فى الرابعة والثلاثين وكلاهما صادف

حظا أفضل من فيسك وبارسونز. كان الزوجان قد التقيا في برنستون التي أنشأت تراثا من المبشرين إلى الشرق الأوسط ومن الإخصائيين في الأمور العربية ظل مستمرا حتى يومنا هذا. وبعد الوصول إلى الأرض المقدسة عام ١٨٣٤، انتفض سكان القدس العرب ضد الوالي المصري محمد على باشا الذي كان يحكم فلسطين في ذلك الوقت نيابة عن الأتراك وبسبب اندلاع القتال، تقطعت السبل بين طومسون الذي كان في ذلك الوقت على ساحل يافا وبين زوجته التي كانت في القدس ودام الأمر شهرين. أما إيليزا طومسون التي عاشت وحدها وسط قصف المدافع وتصدع الجدران وصرخات الجيران ورعب الخدم وتوقع المذابح باستمرار فقد وضعت طفلا اسمه ويليام الابن، وبعد أقل من أسبوعين من عودة زوجها ماتت من جراء الحمى. بقي ويليام طومسون في الشرق الأوسط لكنه لم يعمل كمبشر بل ككاتب رحلات حيث نشر مغامرة لاقت رواجا منقطع النظير بعنوان «الأرض والكتاب». وفي هذا الكتاب يعترف طومسون بأن حفنة من العرب فقط هم الذين أعربوا عن اهتمام بإنجيل الغرب وهذه الحفنة فعلت ذلك لأنهم تصوروا أن بوسعهم كسب أموال من الأجانب الملتاثين السذج الذين يأتون إلى بلدهم. حقيقة كان وقع المبشرين الأوائل على العرب مثل وقع الهيبي الذين كانوا يسافرون في الستينات والسبعينات على الآسيويين أو كما يحدث لأكثر عمال الإغاثة الغربية سذاجة حينما يبدون في عيون أهل العالم الثالث معلنين

عزمهم على العون والمساعدة لكنهم بكل أسف لا يفهمون من حولهم شيئا.

مع ذلك فلأن هذا الفشل الذريع كان يحدث فى أصقاع العالم البعيد، فإن تفاصيله جللها النسيان وإن بقى منها المجد والفخار لدرجة أن يكتب أحد الكهنة فى ذلك العصر قائلا : «من حق المرء أن يعيد كتابة الفصل الحادى عشر من سفر العبرانيين مرصعا بأسماء معروفة من واقع الحوليات المعاصرة للعاملين المسيحيين فى أرض التوراة ... وفى طليعتهم تأتى أسماء رجال من أمثال بيلينى فيسك وليفى بارسونز». على أن مجلس الإرساليات فى بوسطن لم يفت فى عضده شىء بل أوفد المزيد من البعثات إلى المشرق. والحقيقة أن التجارب المفجعة التى شهدتها الكنائس البروتستانتية مع الهنود الحمر فى أمريكا دفعتها إلى وقف كل جهودها لصالح هؤلاء السكان الأصليين لأمريكا إلا أن ذلك لم يؤثر على جمعها للأموال لصالح الإرساليات فيما وراء البحار حتى بعد أن أصبح واضحا أن الشرق الأوسط على الأقل فيه غالبية من المسلمين الذين لا تلوح بينهم أى فرصة من قريب أو بعيد لكى يتحولوا عن ديانتهم.

لكن بحلول عام ١٨٣٠ كان مجلس الإرساليات فى بوسطن قد بلغ من اليأس لدرجة أنه استهدف ملة شبه مجهولة من مسيحيى المشرق وهم النساطرة فى إيران البعيدة بوصفهم يشكلون إمكانية للتحول عن مذهبهم. كانت التجارب الأولى فى أزمير والاسكندرية

والقدس وبيروت قد علمت المجمعيين أن المسيحيين المشارقة ليسوا بأقل من المسلمين حاجة إلى فهم المسيحية إن لم يكونوا بحاجة أكثر إلى ذلك.

ومجرد استحالة تحويل المسلمين أو يهود المشرق عن ديانتهم، أجبرت المبشرين على القبول بحقيقة أن أصحاب هاتين الديانتين مختلفون تماما لأنهم يشكلون جزءا من الوسط المشرقى الفريد الذى يستوجب دراسة جادة * . لكن الوصول إلى القدس ولو على أعتاب الموت كما حدث لكل من فيسك وطومسون لمجرد رؤية كنيسة المهد المقدس وغيرها من المواقع المقدسة . وقد قام على حراستها طغمة زرية تعيش بالخرافة من اليونانيين والعرب الذين اكتسبوا الطابع اليونانى وقد انكبوا على تقبيل الأيقونات وحرق البخور وسط أجواء مموهة بالذهب، كل هذا زاد من حنق البيوريتان المهذبين القادمين من نيو إنجلند فى أمريكا. وفى أعين هؤلاء المبشرين كان المسيحيون المشرقيون سواء الروم الأرثوذكس أو أقباط مصر أو موارنة لبنان وغيرهم هم الذين شوهوا حقيقة الأرض المقدسة عندما أكدوا على أهمية الشعائر والطقوس التى تكاد تسلم الناس إلى نوع من التنويم المغناطيسى فتعلو على كلمة الرب! بل عداء المبشرين البروتستانت إزاء هذه الكنائس المشرقية وشعائرها الغريبة بوصفها نتاجا للحكم البيزنطى فى الشرق

★ كان القانون العثمانى فى حقيقة الأمر يجرم أعمال التبشير المسيحية بين السكان المسلمين .

الأوسط منذ القرن الرابع إلى القرن السادس للميلاد عداء لم يزل على الإطلاق بل زاد فى واقع الأمر، حتى أنه فى عام ١٩٢٠ تكتب مبشرة فى بيروت اسمها مرجريت مجليفارى فتقول: «الكنيسة المشرقية جرح غائر فى قلب المسيحية وبقدر ما أنها تمثل أكبر همزات الوصل مع الإسلام فإن الأمر يدفع العالم المسيحى إلى تجديد النظام الذى يقصر عن الترويج لقضيته فى الشرق الأدنى».

ومن أجل دراسة أحوال النساطرة اختار مجلس الإرساليات هاريسون جراى دوايت وإيلى سميث للقيام برحلة شاقة عبر الأناضول إلى المنطقة الجبلية الوعرة والمجللة بالثلوج التى تتقاطع فيها حدود تركيا وأرمينيا وإيران وجورجيا. كان الرجلان فى التاسعة والعشرين وقد تخرج دوايت فى كلية هاملتون فى أعالى ولاية نيويورك ومن معهد أندوفر اللاهوتى، أما سميث فتخرج فى بيل وأندوفر. كان دوايت رجلا طيب المعشر متين البنيان لا يهاب الأخطار وأصبح بذلك رحالة كامل الأوصاف أشبه بسلفه ويليام طومسون حيث نجح كمكتشف وكاتب رحلات وليس كمبشر دينى. أما إيلى سميث فكان رجلا أشد رقة وأكثر تعرضا للأمراض لكنه حقق المزيد حيث أصبح إيلى سميث أول مستعرب أمريكى فى التاريخ.

وبوسع المرء أن يؤرخ لبداية تراث الاستعراب الأمريكى فى عام ١٨٢٧ عندما خرج إيلى سميث اليانكى الأمريكى القادم من

جامعة بيل فى ولاية كونكتيكت من الأمن النسبى إلى دوائر التبشير الوليدة فى بيروت منطلقا إلى الجبال المحيطة كى يعيش عدة أشهر مع المسلمين فى القرى الدرزية يدرس لغتهم (فى ذلك الوقت كان ريتشارد فرانسيس بيرتون أول المستعربين البريطانيين العظماء صبيا فى السادسة من عمره) وعلى خلاف بلينى فيسك الذى سرعان ما تخلى عن تعلم العربية، واصل سميث تعليمه يوميا لمدة ثلاث سنوات فمهد بذلك الأرضية لحياته البحثية حتى تلقى كلمة من مجلس التبشير ليلتقى مع دوايت من أجل الرحلة التى قاما بها إلى إيران.

بدأ سميث ودوايت رحلتهما من أزمير فسافرا شمالا على متن الجياد إلى القسطنطينية وقد ارتديا الملابس وأغطية الرأس الوطنية وحملا مسدسات وكانا ينامان على أبسطة شرقية أحضراها معهما. وكانت اللحى التى أطلقاها مناسبة تماما لثيابهما الوطنية ، ومن هنا فقد أصبح هذان الأمريكيان وهما نتاج ثقافة الشرق القديمة والعميقة الجذور فوجداها أمرا لا سبيل إلى مقاومته. استغرق الأمر أكثر من ثلاثة أسابيع حتى استطاع الرجلان أن يعبرا المناطق العاصفة بالرياح والغبار فى شمال الأناضول من الآستانة إلى أرضروم فى المنطقة التى يسكنها الأرمن فى شرقى تركيا. كانا ينامان فى الاسطبلات بين الجياد وروثها. وفى الصيف وصل سميث ودوايت إلى تفليس فى جورجيا حيث أصيب سميث بالكوليرا وأصبح من الضعف لدرجة العجز

عن امتطاء الحصان فركب من خلف دوايت فى عربة تجرها الثيران وقد يمم الاثنان وجههما شطر الجنوب الشرقى عبر الجبال نحو إيران. كان سميث قد أشرف على الموت من المرض وكان عاجزا عن النوم بسبب جحافل البعوض التى لم تنقطع وهو يتذكر هذه المرحلة بقوله : «كنت أرقد وأبكى مثل طفل».

ولثلاثة أشهر بقى الرجلان فى مخفر أمامى لبعثة تبشير سويسرية فى أرمينيا حيث استرد عافيته وجاء شهر نوفمبر وبدأ الجليد يسقط على غابات الاستبس عندما انطلق الرجلان من جديد قاصدين تبريز فى الشمال الغربى لإيران. أمضيا ليلة فى زاوية متربة دون مدفئة فسقط سميث مريضا من جديد. وفى مناسبة أخرى كانا ينامان وسط كل أنواع القاذورات والبراغيث والقمامة واضطرا إلى أن يعيشا على الخبز الذى كان حافلا بكل أنواع المخلوقات الزاحفة، وقد تم انضاجه على روث البقر المجفف. أخيرا فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٠ كان سميث قد بلغ من الضعف لدرجة العجز عن السير أو الوقوف إلا أن هذا التاريخ جعل مدينة تبريز الإيرانية تشهد أول الأمريكيين من زوارها.

فى مارس التالى، تحسنت صحة سميث بما يكفى لدفعه مع رفيقه إلى رحلتهما نحو الشاطىء الغربى من بحيرة أورميا القريبة حيث يسكن النساطرة. وربما كانت مشقة الرحلة إلى تلك النحلة

المسيحية المعزولة فضلا عن معجزة بقائهما على قيد الحياة بحد ذاتها هى التى دفعت سميث إلى التحمس الشديد لجعل أورميا موقعا للعمل التبشيرى الذى اضطلعا به.

هكذا جاء عام ١٨٣٣ فأوفد مجلس التبشير فى بوسطن جوستين بيركنز (٢٨ سنة) وعروسه الجديدة شارلوت لإنشاء بيت فى جبال غربى تبريز. وكان بركنز خريج أمهرست ومعهد أندوفر اللاهوتى بمثابة براهما مجمعى نمطى حيث اكتسب سمعته بفضل أخلاقه الحميدة وحسن تربيته العالية فضلا عن إرادة حديدية وقوة على التحمل بالغة. انطلق الزوجان فى رحلة كانت أيسر سبيلا إذ ركبا البحر عبر شمال الأناضول على ساحل البحر الأسود إلى شرق تركيا قبل أن يشرعا فى الرحلة فى البر. وكانا قد أحضرا خيمتهما الخاصة وأدوات المطبخ ، وكما قدر للسيدة أليزا طومسون أن يأتيها المخاض وسط ظروف مفجعة فى القدس حدث الأمر نفسه للسيدة شارلوت بركنز فى تبريز، لكن شارلوت عاشت وإن لم تكتب الحياة لطفلتها الوليدة.

هنالك أدرك مجلس بوسطن أن البعثات فى تلك المواقع البدائية مكتوب عليها الفشل دون وجود طبيب مدرب. ومن هنا ففى الأسابيع الأولى من عام ١٨٥٥ نزل إلى القارب فى قناة إيرى طبيب يبلغ من العمر ٢٨ سنة هو أساهل جرانت من نيويورك وزوجته جوديش. كان جرانت، على خلاف غيره من المبشرين، لا

ينتمى إلى شريحة عليا فى نيو إنجلند. كان رجلا ضئيل الجسم سهل الاستثارة أسمر البشرة ولم يقدر له أن يتخرج فى جامعة ولا حتى فى كلية طب أصولية. كل ما حمله من شهادات كان تعلمه الميدانى على يد طبيب فى أعالى نيويورك فضلا عن استغراقه فى قراءة الكتب المقدسة لكن حماسه كان مدفوعا بفكرة أن النساطرة يعدون بين القبائل التائهة أو الضائعة من بنى إسرائيل.

فى أول شتاء فى إيران نامت عائلتا جرانت ويركنز فى مساكن الطوب اللبن مرتدين ملابس النوم التى جللها الجليد والصقيع. وفى يناير ١٨٣٦ افتتح الأمريكيون مدرسة تبشير فى بحيرة أورميا تعلم التلاميذ قراءة صلوات الرب. لكن جرانت هو الذى قدر له، رغم تواضع مولده وافتقاره إلى التعليم المنظم بل وإصابته بالكوليرا، أن يكتسب عمله الطبى قلوب سكان أورميا من مسلمين ونساطرة ويهود فشرعوا يطلقون عليه لقب «حكيم صاحب» (أى السيد الطبيب) .

نمت العيادة الطبية وازدهرت ، شأنها شأن المدرسة وأصبح جرانت يعالج الآلاف تلو الآلاف من المرضى وبعد ذلك أرسل مجلس بوسطن مطبعة للجالية أنتجت صلوات الرب وكتاب المزامير بالسوريانية (اللسان النسطورى المماثل للآرامية التى كان يتكلمها السيد المسيح).

بيد أن الجهد الجهيد والظروف الوخيمة اقتضت ضريبتها فماتت جوديث جرانت واثنان من أطفالها بعد المرض، وكذلك كان مصير أربعة من أبناء بركنز. بالإضافة إلى ذلك، أصيبت شارلوت زوجة جوستين بالصرع واستجاب المجلس فى بوسطن بمجرد إرسال المزيد من المبشرين إلى أورميا. ولم يطل الوقت قبل أن تقوم البعثات الأمريكية الجديدة بافتتاح مقارها فى الموصل المجاورة (شمال العراق حاليا) وفى آشيثا (قرب الحدود العراقية التركية الحالية) .

كانت تلك ريادة أمريكية فى أقصى شجاعتها وأفضلها وهى التى تستحق ذكرها عن جدارة فى كتبنا المدرسية الأمريكية حتى بعد أن أدى تصحيح السياسات حاليا إلى الحيلولة دون إضافة المزيد من الأسماء.

فى أمريكا فى عام ١٨٣٥ لم يكن أبراهام لينكولن الشاب من ولاية إلينوى قد مضى عليه سوى ثلاث سنوات منذ أن استطاع إخضاع قبائل الهنود الحمر المحلية فى حقل الصقر الأسود، ولم يستطع بناء خط سكك حديدية على مدى عشرين سنة بعد ذلك. ولم تكن ولايتا نبراسكا ووسكنسن تشملان سوى حفنة من البلدات الصغيرة والحصينة وسط البرية ، وكان أوائل المستوطنين البيض يعملون جاهدين على التسلل إلى وادى ويلياميت فى

أوريجون فيما كانت أوكلاهوما ما زالت أرضا مجهولة ومأهولة بالهنود الحمر. مع ذلك كانت هناك عائلتان أمريكيتان هما عائلة جوزستين بركينز وآشيل جرانتس، استطاعتا إنشاء مستوطنة عند بحيرة فى جبال إيران قرب أرمينيا وكردستان وأذربيجان، وتلك منطقة ستظل حتى تسعينات القرن الحالى - بعبارات جوديث جرانت فى رسالة بعثت بها إلى الوطن فى عام ١٨٣٥ - من بين «أسوأ وأخطر مناطق العالم».

كان المشروع برمته غريب الأطوار، ومع ذلك فقد ظل يقف شاهدا مبكرا على أن العزلة الأمريكية التى طالما تحدثوا عنها كانت تخالطها روح من التفاؤل والدينامية لاتعرف حدودا إقليمية.

ومن بين النساطرة فى أورميا كان العدد لايزيد على ٦٠٠ فقط بالمقارنة مع ألفين من اليهود وأكثر من ٢٧ ألفا من المسلمين. وبرغم أن طائفة النساطرة فضلا عن عناصر يهودية ومسلمة أيضا أصبحوا من أخلص أصدقاء بل وحماة المبشرين بفضل ما تلقوه منهم من مساعدة إنسانية، فلم يتمكن المبشرون سوى من تحويل حفنة فقط إلى المذهب البروتستانتى.

على أن الأهم من ذلك أنهم بفضل المدارس والعيادات الطبية فى مناطق قاسية لم تعرف يوما خدمات حكومية، فإن المجمعيين كانوا فى واقع الأمر يقومون بإدارة أول برنامج معونة خارجية لأمريكا، وعندما تواصلوا فى المنطقة مع أحوالها ولغاتها، بدأ المجمعيون يصبحون بمثابة رواد رومانسيين بل وعاملين فى هيئات

السلام الأمريكية أكثر من كونهم مبشرين حقيقيين. على سبيل المثال، كان آشيل جرانت قد أنشأ عيادته فى أورميا وبعدها انطلق ليجرى دراسة اثنوجرافية للجبال الكردية بدعوى أنه قد يجد بعض النساطرة لتحويلهم إلى مذهبه.

لكن بيروت، الميناء الصغير السريع النمو فى سوريا الكبرى الذى كانت تحيطه أشجار الأرز فى سلسلة جبال لبنان، هى المكان الذى استطاعت فيه جالية التبشير الأمريكية بالشرق الأوسط أن تجد لشخصيتها مستقرا ومنطلقا.

★★★

فى نوفمبر ١٨٢٣ عندما وصل الأمريكيون الأوائل لميناء بيروت واستطاع بيتر آبوت وكان قنصلا بريطانيا يجمع بين الحنكة والحكمة والدراية الواقعية أن ينقذ هؤلاء القادمين الجدد من ولاية ماساشوسيتس الأمريكية – الزوجان ويليام جوديل، والزوجان اسحق بيرد وقد خالطهم الاضطراب، من براثن الحاكم التركى مدخن الأرجيلة ودعاهم للإقامة فى بيته ريثما يجدون مساكن مناسبة، كان القنصل بذلك يرسى نمطا ثابتا. وبرغم أن الثورة الأمريكية كانت قد وقعت منذ أربعة عقود فقط، كما انتهت حرب ١٨١٢ منذ ثمانى سنوات فحسب، إلا أن مشاعر الكراهية كانت سنة ١٨١٥ مازالت حية فى النفوس وسط البيئة الأجنبية المعادية فى الشرق الأوسط، فلم يجد هؤلاء المجمعيون أبناء نيو إنجلند

سوى حلفاء طبيعيين وفوريين هم البريطانيون * . ولم يقتصر الأمر على أن البريطانيين كانوا كالأمريكيين يتكلمون الإنجليزية، بل كانوا أيضا بروتستانت قاموا منذ فترة قريبة بإيفاد مبشرين على نفقتهم إلى الشرق الأوسط، وكانوا قد استقروا بالفعل فى منطقة المشرق، فاستطاعوا أن يتولوا زمام القيادة بالنسبة للقادمين من الأمريكيين البسطاء. وستمر سنوات كثيرة يظل فيها القنصل البريطانى هو الحماية الرسمية والممثل الرسمى عن المبشرين الأمريكيين فى سوريا .

القيم بدورها دفعت بالأمريكيين إلى معسكر البريطانيين كما أن الأمريكيين وجدوا أنفسهم متعاطفين بدورهم مع السكان العرب المحليين فى نضالهم اليومى ضد السلطة العثمانية ، وكان الأمريكيون من ناحية مدفوعين فى ذلك بدعوتهم التبشيرية وكذلك بتجربتهم التى لم تكن بعيدة فى الزمن فى التحرر من الطغيان الأجنبى وكذلك فعل البريطانيون الذين كانوا بدورهم خصوما مستنيرين للأتراك.

من ناحية أخرى كان ثمة رابطة من الولاء تتشكل نحو المكان ذاته فى نفوس البريطانيين والأمريكان البروتستانت وهذا المكان

---

* جوديل وبيرد كانا أول أمريكيين فى بيروت وقد حصلا التعليم الاعتيادى للمبشرين البروتستانت حيث كان جوديل قد تخرج فى كلية دارت موث ومعهد أندوفر اللاهوتى فيما تخرج بيرد من جامعة ييل ومعهد أندوفر أيضا .

هو بيروت بل ولبنان بوصفه جزءا متميزا من بلاد الشام وليس بوصفه بلدا قائما بذاته وعندما عاد سميث إلى بيروت عقب مغامرته التى أوصلته إلى حافة الموت فى إيران مع دوتيس دوايت. وبعد رحلة عند المجامع الدينية فى بوسطن وفى اندوفر القريبة منها ربما كانت القدس هى أفضل محطة لايفاد المبعوثين لكن فى واقع الأمر كانت القدس وقتها موقعا إقليميا يحفه الجمود والبرود والتعاسة ويقع تحت سيطرة الأتراك، فى حين كانت بيروت مرفأ يأخذ بأسباب التحديث وينعم بمناخ رائع وفريد وتحيط به جبال خلابة مثل نظيراتها فى أوروبا. وعندما انضم إيلى سميث وغيره إلى عائلتى جوديل وبيرد فى أواخر العشرينات من القرن الثامن عشر، بدأت بيروت تشكل مجتمع الوافدين الحقيقى رغم ضيق مساحته، قبل أن تكون محطة أمامية لايفاد المبشرين مثل القدس أو أورميا . رجع فيها إلى الساحل الشرقى لأمريكا للزواج) يومها شعر بكل معنى إنه بعودته إلى بيروت، فإنما يعود إلى «الوطن».

عروس سميث واسمها سارة هانتنجتن كانت مثل زوجها من عائلة كبيرة فى كونكتيكت. كان جدها قد ساعد على إنشاء مجلس التبشير فى بوسطن. وما أن وجدت هذه الارستقراطية ابنة نيو إنجلند نفسها فى بيروت حتى أصبحت شغوفة ومولعة بكل ما هو إنجليزى. كان موقع «نبلاء الإنجليز» فى الكنيسة هو الذى جعلها تدرك أن «أفضل» الأمريكيين تربية هم فقط الجديرون بأن يستعرضوا أنفسهم فى سوريا وقد كتبت يوما تقول «إن مايتصف

به بعض مواطنينا الجمهوريين الطيبين من أخلاق سانجة ومتفردة يتعارض إلى حد الأذى مع الذوق الأجنبى». هكذا كانت الصفوة المتدينة من نيو إنجلند تبدى ميلا ملحوظا تتطلع فيه إلى البريطانيين وخصوصا النوع المرموق والغريب منهم. مثلا، أصبح من آيات الشرف لأى أمريكى فى ثلاثينات القرن الماضى فى بيروت أن تتاح له فرصة الاجتماع إلى ليدى هيستر ستانهوب التى عرفوها باسم راهبة لبنان المجنونة وهى ابنة إيرل انجليزى عاشت طويلا فى صفوف البدو وباتت تشغل قلعة متداعية تطل على صيدا وكانت تدرس السحر وفن التنجيم.

وبعد أن هيأت سارة لزوجها إيلى سميث بيتا فى بيروت، عاود على الفور دراساته العربية التى تفرغ لها على مدار السنوات الثلاث والعشرين التالية حتى وفاته عام ١٨٥٧. وكان يتخلل هذا النشاط رحلات منظمة فى كل إنحاء سوريا الكبرى وفلسطين. وكانت اجادته للعربية من الاتقان لدرجة انه حين وفاته كان قد قطع شطرا كبيرا من أجل إنجاز أول ترجمة على الإطلاق لإنجيل البروتستانت من الانجليزية الى العربية ★. وكان سميث قد جمع قائمة موسوعية بالمدن والقرى السورية التى شكلت أساس المعرفة

★ أكمل الترجمة زميل مبشر فى بيروت هو الدكتور كورنليوس فان دايك.

الجغرافية لمن أتى من الاختصاصيين فى الشرق الأوسط. ومن خلاله بدأ معنى المبشر يتغير من مجرد الواعظ أو الرحالة أو المكتشف الجهم السيىء الاستعداد إلى المستشرق المتفرد والعالم - المربى الذى يتواصل مع ثقافة فريدة ومع الخط العربى الشديد الثراء.

كان المبشرون يتكيفون ببطء ولكن بثبات مع البيئة التى عاشوا فيها . كان هناك جوناس كينج خريج كلية ويليامز، يدعو من صميم قلبه إلى الخلاص من الحكم الاستبدادى المسلم للأتراك، ولكنه كان يرتدى القاووق على رأسه ويربى لحيته حتى يسهل عليه أكثر التواصل مع العرب. مع ذلك. فبينما كان المبشرون قادرين على التوصل إلى أسلوب تعامل مع العرب المسلمين المحليين إلا أن علاقاتهم مع المسيحيين المشرقيين كانت تتطور من سيىء إلى أسوأ .

فبسبب محاولة تحويل بعض المسيحيين إلى البروتستانتية، أعلن أن ويليام جوديل واسحق بيرد شخصيات غير مرغوب فيها بين صفوف الروم الأرثوذكس والموارنة، وكان الموارنة بالذات هم الذين ضايقوا المبشرين الأمريكيين كثيرا، ففى عيون البروتستانت، يعد الروم الأرثوذكس مذهبا يجسد كل وثنية الشرق وفساده ببساطة وبغير استثناء. ولكن لأن المسألة مع

الموارنة كانت أكثر تعقيدا، فإن البغضاء ضربت بجذورها إلى أغوار بعيدة.

الموارنة يتخذون اسمهم من اسم راهب قديس من القرن الخامس هو مار مارون، وقد نشأ المذهب في شمال وسط سوريا قرب مدينة حماة بوصفه انشقاقا من المسيحية التقليدية وهى مذهب الروم الأرثوذكس. الذى كانت تدين به امبراطورية بيزنطة. وعندما فتح العرب المسلمون فى القرن السابع المنطقة، فإن الموارنة رحبوا بهم وانتهى بهم الأمر الى اتخاذ العربية لغة شعائرهم وظلوا يستخدمونها حتى اليوم. ويبقى من غير الواضح بالضبط متى هاجر الموارنة من شمال سوريا إلى الجبال فى شمال وشمال شرقى بيروت. ولأنهم ظلوا مذهبا صغيرا محاطا بالأعداء فقد تعايشوا على عقد الصفقات مع أى قوة تمتلك مقاليد الأمور فى لحظة ما. وبرغم ادعائهم بالتفوق الدينى على كنيسة روما. فإن الموارنة أرسلوا التهانى إلى البابا، وانضموا الى صفوف الصليبيين فى اللحظة التى قامت فيها أول حملة صليبية بغزو بيت المقدس. وعندما دارت الدائرة على الصليبيين تحول الموارنة بولائهم إلى المماليك فى مصر الذين استطاعوا بعد ذلك طرد الصليبيين. ومع ضعف شوكة المماليك فى الشرق الأوسط استأنف الموارنة علاقاتهم مع الكنيسة الكاثوليكية عشية الغزو

التركى العثمانى بما ضمن لهم تحالفا يحميهم مع فرنسا بوصفها قوة كاثوليكية كبيرة فى ذلك الوقت. والموارنة عناصر جبلية صعبة المراس وهم قادرون بكل طريقة على التعايش والاستمرار. فضلا عن ذلك كان الوقت قد حان لكى يشرعوا فى تطوير عقيدتهم الوطنية. وعلى خلاف سائر أبناء سوريا الكبرى، فإن الموارنة، بمعنى سياسى على الأقل، كانوا بالفعل فى طريقهم ليصبحوا شعبا يأخذ بأسباب الحداثة. ولأن المبشرين البروتستانت كانوا لايشكلون بوضوح قوة سياسية تؤخذ على محمل الجد، فلم يعاملهم الموارنة قط، بنفس الاحترام والتوقير الذى عاملهم به العرب المسلمون.

أما المبشرون الكاثوليك الفرنسيون فكانوا فى سوريا يعملون مع الموارنة على مدار ١٥٠ سنة قبل وصول البروتستانت (الأمريكيين) من نيو انجلند. لهذا فلم يكن من عجب أن يكون رد الفعل غاضبا من جانب الحكومة الفرنسية والقيادات المارونية إزاء كل من البريطانيين والأمريكيين وهم يذهبون لإلقاء عظات فى القرى المارونية، زادت التوترات فى عام ١٨٤٠ عندما بدأت قوات محمد على من مصر فى الانسحاب من سوريا. ولأن الموارنة كانوا، على طريقتهم المثلى، قد دخلوا فى علاقات طيبة مع العسكرية المصرية خلال احتلالها القصير الأمد، فقد باتوا فى

ذلك الحين في موقف مكشوف. لقد عاد الأتراك فأعطوا تأييدهم العسكري إلى الدروز أكبر خصوم الموارنة، وهم طائفة كانت تنتمي بسبب ما للإسلام وعاشت أيضا في جبال لبنان. واستجاب الفرنسيون إلى استفزاز الأتراك بزيادة مساندتهم للموارنة مما دفع بالبريطانيين، وإلى حد ما بالمبشرين الأمريكيين، إلى دعم الدروز، وهكذا فبالنسبة إلى المبشرين البروتستانت كان «العدو» قد أصبح هو الموارنة ومن يحمونهم من الفرنسيين.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان البروتستانت القادمون من نيو إنجلند إلى بيروت يقاومون المرض والموت، ولو على نطاق أضيق من إخوتهم في إيران – وفي ضوء تشكيلة من المواقف والتحيزات – كان هذا كله من أجل تحويل ما لايزيد على ثلاثين من أبناء سوريا المحليين إلى البروتستانتية، لكن الشخصية هي قدر الانسان، وشخصية رجل واحد من ولاية فيرمونت، سرعان ما سيصل إلى بيروت، سيقدر لها أن تلم كل أطراف الأعمال الخيرة التي اجترحها المبشرون، وقد كانت مشتتة وأحيانا لايقدرها أحد في سوريا ومن ثم يعطيها اتجاها ديناميا بحيث تؤثر على السياسة الأمريكية في المنطقة حتى نهاية القرن العشرين، هذا الرجل كان اسمه دانييل بليس.

الفصل الثاني

أجمل موقع في بيروت

لو كان ثمة نموذج قح للبروتستانتى الأمريكى من الجيل الأول لكان هذا النموذج اسمه «دانييل بليس» الذى ينحدر من عائلة مجمعية جاءت من انجلترا بعد سنوات قليلة من مجىء الحجاج المهاجرين الأوائل الى أمريكا ثم شب عن الطوق فى مزرعة نائية فى وادى فيرمونت وكأنه يكرر بذلك حياة أبراهام لنكولن الذى كان قد نشأ قبل ذلك بسنوات فى انديانا ثم هاجر بليس وهو فى الثالثة عشرة من عمره إلى أوهايو فى عربة مغطاة تجرها الخيول وبعدها فى قارب فى ترعة إيرى ثم عاد شرقا ليدرس اللاتينية واليونانية والعلوم اليهودية فى كلية أمهرست.

«بليس» شأنه شأن كثير من الأمريكيين الذين استقروا فى بيروت، نشأ فى بيئة ريفية شهدت طفولته ولم تكن بالبيئة الميسورة بحال ولكنها حظيت بذكريات جميلة يتداعى معها تلك الصرامة وأحيانا شظف العيش الذى تتولد منه شخصية فى صلابة الفولاذ وآداب مجبولة على الخير والطيبة، يقول بليس فى كتابه بعنوان «ذكريات»: «أكثر مشاهد حياتى التى بقيت فى الذاكرة هو الينبوع البارد قرب شجرة البلسم الباسقة وهو أيضا جمع اللوزات

والفستق في الخريف وجمع التوت بأنواعه في مواسمها». وكان دانييل الصغير يستعد لقدوم الشتاء بخزن البطاطس وعصر التفاح وكان يمتطي جواده لحراسة الأرض ويحمل المياه من النبع ويأتي بالحطب إلى الموقد. وكشأن لنكولن أيضا ذاق بليس الصبي تجربة وفاة أمه، ومن أمه كان قد تعلم حب الكتب المقدسة التي كان مايفتأ يستشهد بفقرات منها وكانت الدروس المستفادة من سطورها هي التي تطبق على الموقف الذي عاشه في لبنان.

بليس كان يعشق التعليم بكل جوارحه شأنه أيضا شأن أبراهام لنكولن، وعندما كان في سنوات الصبا الأول كان يبكي، كما اعترف بعد ذلك، مثل طفل عندما كان أبوه وأخوه الأكبر يرفضان السماح له بالانتظام في مدرسة البنين في استنبرغ، أوهايو، وسرعان ما استطاع أن يلتحق بمدرسة من اختياره ووجد عملا في مزرعة قريبة أتاح له دفع المصاريف وبعدها كان القوم يشهدون بليس الشاب يجول في أنحاء منطقة بحيرة أيرى يدق على بوابات المزارع بحثا عن أي فرصة متاحة تمكنه من سبل العودة إلى سلك الدراسة. عمل في دباغة الجلود وفي قطع الأشجار كي يمول دراسته في كلية في كينجز فيل في مكان ليس بالبعيد في شمال شرق ولاية أوهايو (كان عمره في ذلك الوقت - ١٨٤٦ - ثلاثة وعشرين عاما).

وفى تلك الكلية تجلى نبوغه على الفور فطلب منه عميدها أن يعمل معيدا بها وكان قد قارب السادسة والعشرين وبعدها عاد إلى منطقة نيو انجلند ليدخل كلية اللاهوت الشهيرة فى أمهرست.

كانت كشأن المعاهد الرفيعة فى القرن التاسع عشر فى منطقة نيو انجلند تؤدى دورها بوصفها مؤسسة صغيرة وحميمة إذ كانت تضم أقل من عشرة أساتذة مهمتهم الأساسية أن يعدوا طلابهم من أجل «عالم متحضر ومتحول إلى الانجيلية». وفى ضوء الطموح الذى رواد الفتى، فضلا عن تجارب التجوال التى خبرها فى شبابه فى أوهايو بدا الأمر وكأنه كتب على بليس أن يفضى به المطاف لمهمة تبشيرية خارج الحدود.

كان للفتى مواقف للتحدى فى أمهرست شبيهة بمواقفه فى سابقتها فى كينجز فيل. ففى خطاب استهلالى ألقاه فى الكلية دعا إلى ما وصفه بأنه «تحريك» دائم فى ميدان الديانة ومضمار السياسة باعتبار أن ليس هناك «حد نهائى تقف عنده حدود الالهام والتجليات» إلا عندما تضاء أرجاء العالم كله بالاستنارة وتشرق على آفاقه كلها شمس الحرية.

كانت لفظة بروتستانتى بالنسبة إلى بليس تفهم فى معناها اللغوى الأصلى: التمرد على نظام دينى وأخلاقى متجمد وكانت المثالية البروتستانتية التى انتفضت بالحياة بفعل الحركية

السياسية وزاد من شحنتها التأملات الفكرية هى التى تسيطر على الجو السائد فى أمهرست وكذلك على معهد اندوفر الدينى الذى كان المحطة التالية التى انتقل إليها بليس. يومها كان بليس يعلم زوج المؤلفة «هاريت بيتشر ستو» صاحبة رواية «كوخ العم توم» الشهيرة. أما السيدة التى تزوجها بليس وهى آبى وود فكانت صديقة مقربة من الكاتبة والشاعرة الشهيرة أيضا إميلى ديكنسن. وعندما كان صاحبنا فى الخامسة والثلاثين أبحر من ميناء بوسطن فى ديسمبر ١٨٥٥ وبصحبته عروسه ولما يمض على زواجهما ثلاثة أسابيع قاصدا بلاد الشام وكان سلوكه بهذا هو سلوك المبشر البروتستانتى فى الجوهر وفى الأساس.

من هنا لم يكن دانييل بليس يمتلك الخلفية الصحيحة لمهمته فحسب بل كان، وهذا هو الأهم، قادرا على تحديد نقطة البداية من خارج الصورة كما قد نقول، ومن ثم ارتقى الى قمة الفئة التى ينتمى إليها بين صفوة خريجى معاهد نيو انجلند. ولأن مسار حياته اجتاز أكثر من محطة من المشاق إلى أن تحقق له النجاح، فلم يكن ثمة شكوك تراود الرجل وإنما كرس نفسه إلى تحقيق المثل المزدوج للثورى الأمريكى: احراز التقدم وارتقاء مدارج الكمال الانسانى. كانت تحدوه قناعة مطلقة بأن التعرض لقيم الحق وتحصيل التعليم السليم هو كل مايتطلبه توجيه

الشعوب والثقافات مهما كان جنوحها الى حيث يتحقق المجد لله. وهذا ما أودعه عبارات خطابه الاستهلالي في كلية أمهرست. حتى سحنة بليس كانت تعكس هذا كله، كانت قسماته خطوطا مستقيمة كأنما نحتت من رسم من إبداع جرانت وود: ملامح قاسية بزوايا حادة تطل منها عينان صافيتان على شاكلة أهل نيو انجلند تشعان ثقة عمياء وقناعة لاتهتز يخالطهما حس من تفوق الخيرين.

كانت محطته التبشيرية الأولى في سوريا «الكبرى» في منطقة «عبية» المرتفعة في الجبال المحيطة ببيروت. وكانت محطته الثانية على بعد أميال قليلة شمال بيروت في سوق الغرب. المحطة الأولى كانت تتسم بمناخ نادر وجمال أوربي الطابع وفيها تعلم بليس كيف يحب لبنان. أما في «سوق الغرب» فلم يرق له أمر المسيحيين من روم أرثوذكس وموارنة الذين سرعان ما رأى فيهم «المحرك» بليس تجسيدا بليغا لما كان يرفضه من نظام ديني واجتماعي عف عليه الزمن وران عليه الجمود. إن رهبان الروم الارثوذكس لم يقصروا عن اثناء الصبية المحليين عن الاختلاف إلى مدرسة التبشير التي افتتحها بليس فحسب، بل عملوا أيضا على أن يغلقوا أبوابها. وفي كتابه «ذكريات» يورد صاحبنا مثالا عن تلميذ تحدى أوامر الرهبان فجاء الى المدرسة وأصبح هذا الصبي بالذات طبيبا وقاضيا في المحكمة. ولو كان بليس بحاجة إلى أي

إثبات ليؤكد فعالية التعليم الغربي في بيئة الشام الفاسدة لكان هذا الدليل هو تصميم ذلك الصبي. فبالنسبة إلى بليس كانت معاناة الصبا وحرمان الفتى من التعليم أمرا قريب العهد في وجدانه ومن ثم كان يفهم تماما التوق الذى كان يتأجج بين جوانح الفتيان العرب شوقا إلى التعليم.

وخلال نشوب القتال في عام ١٨٦٠ بين الموارنة والدروز، تعلم بليس شيئا آخر: عدم الثقة بصنعة السياسة حتى ولو كانت سياسة بريطانية أو أمريكية. وبينما كان يجهد في إنقاذ جماعة من المدنيين المسيحيين الذين أحيط بهم وسط اشتباكات الحرب، إذا بالقنصل البريطاني يرفض مد يد المساعدة باعتبار أن ذلك من شأنه تعقيد علاقات بريطانيا مع الدروز والمسلمين. من هنا رأى بليس أن المبشرين ينبغي أن يشكلوا قوة قائمة على حدة بدلا من أن يكونوا خاضعين لمتطلبات السياسة الدولية بكل مشاكلها.

وكان السؤال: لماذا هذا الاستقلال؟ هل ليتاح الفرصة لمجرد الوعظ والارشاد؟ أو لتقديم تبرعات البر والإحسان هنا أو هناك بعد اندلاع مذبحة أو تفشي وباء؟ لا. إن نتيجة مثل هذه الأنشطة في سوريا الكبرى ثبت أنها أضعف من أن ينجم عنها أثر دائم. المبشرون بحاجة إلى أداء دور أكبر من ذلك، وهكذا أصبح واضحا أمام بليس كما سبق واتضح في عيون ويليام طومسون

واسحق بيرد وغيرهما أن التعليم الغربى هو أكثر الأسلحة مضاء وفعالية.

وبحلول عام ١٨٦٠ كان المبشرون الأمريكيون يعملون على تشغيل ثلاث وثلاثين مدرسة فى بلاد الشام ، ولأن هدفهم النهائى كان «تمدين المجتمع السورى» فبعد كثير من المناقشات وبعد أخذ ورد فى الأفكار ادركوا أن مايحتاجونه هو كلية غير مذهبية تفتح أبوابها لكل الأجناس والأعراق وتقوم بعملها على أعلى مستويات موجودة فى منطقة نيو انجلند الأمريكية ، ومن ثم ينجم عنها أثر دينامى بالنسبة لتوجيه الثقافة والحضارة فى بلاد الشام. مثل هذا الهدف لم يكن ليتسنى تحقيقه إلا بدمج هذه الكلية أو الجامعة مع البيئة المحلية وهذا ما لم يفعله البريطانيون أو الفرنسيون على السواء.

ولتحقيقه أيضا فمن الطبيعى أن تكون العربية وليست الانجليزية هى لغة التعليم. وكثيرا ما كان مجلس التبشير فى بوسطن يؤكد أهمية اللغة العربية فى معركته لكسب متحولين الى المسيحية فى الشرق الأوسط. على أن القرار بتعليم العرب بلغتهم ذاتها كان يتسم بشجاعة خاصة بحد ذاته لا لمجرد مايكمن فى تعليم العربية من صعوبة بالغة. وفيما استطاع الجزويت أن يجتذبوا أعدادا كبيرة من الطلاب الى المدارس الكاثوليكية

الفرنسية بسبب رغبة اللبنانيين فى تعلم لغة أوربية. فإن مجلس بوسطن الأمريكى، وقد ساندہ فى ذلك بليس لم يرضخ إزاء الاغراء بمنافسة الجزويت فيطرح الانجليزية كلغة تعليم فى المدارس الامريكية. كان مبشرو نيو انجلند على استعداد للتضحية بقدر من النفوذ الذى تمتعوا به فى الشام من أجل تمكينهم من التأثير على قيم مجتمع تلك البلاد، كانوا يعرفون إنهم بتعليم الانجليزية فلن يتسنى لهم سوى خلق شريحة من الصفوة العربية فحسب معزولة عن شعبها ولسوف ينتهى المطاف بكثير من عناصرها بالهجرة إلى أمريكا أو انجلترا.

يكتب ستيفن بنروز وهو من كبار رجال التربية الأمريكيين فى بيروت فيقول: إن أسلافه من المبشرين لم تكن لديهم رغبة كما كان لدى غيرهم فى «فرنجة» أبناء البلاد الأصليين لأغراض امبريالية بل أدركوا الثروة التى لاتوصف للثقافة العربية المهددة بالانقراض فكان إن قرروا «الاستفادة منها».

إن اختيار البروتستانت للعربية لغة لكليتهم الجديدة، وبرغم مانجم عنه من مآل سيىء، كان مرتبطا أوثق الارتباط بنضالهم الذى لم يهدأ لتحويل مجتمع الشام من داخله على أساس من الشراكة بدلا من العمل من الخارج على نحو ما كان يفعله الفرنسيون أو البريطانيون. وفيما اختار الفرنسيون والبريطانيون

فى سوريا أن يتنافسوا وأن يتطارحوا القوة على مسرح السياسة فإن الأمريكيين ركزوا على صعيدى المجتمع والتربية والتعليم. وكان من شأن هذا ان يكسب للأمريكيين محبة العرب واحترامهم. ومن هنا يكتب جورج انطونيوس،، المؤلف المسيحى العربى فى كتابه الموسوعى حول القومية العربية الذى نشره عام ١٩٣٨ بعنوان «اليقظة العربية» فيقول:

«نجمت مزية فائقة عن الأنشطة التعليمية التى مارسها المبشرون الأمريكيون فى تلك الفترة المبكرة بين مزايا أخرى كثيرة: فقد أضفوا على العربية مكانة الاعتزاز وألزموا أنفسهم بالتعليم بتلك اللغة فكان أن تحملوا بهمة ونشاط واجب تقديم أدبيات لها قيمتها. وفى ذلك كانوا روادا لتلك الثورة الثقافية التى ميزت الارهاصات الأولى لحركة الاحياء العربية التى تدين لكثير من أياديهم البيضاء».

على أن هذا الإيثار من جانب المبشرين كان له أيضا عواقبه الأخرى فقد زاد من مشاعر العداوة من جانبهم التى ضاعف منها افتراض بتفوقهم الأخلاقى إزاء الفرنسيين وإزاء الموارنة الذين يتبعون نهجا فرانكفونيا عميقا. وبعد ذلك بسنوات سنجد مارجريت ماك جلفارى سكرتيرة فرع بيروت للصليب الأحمر الأمريكى تعرب عن سخط وغضب شديدين لأنه فيما يعمل

الأمريكيون فى سوريا «بدوافع انسانية بحتة» فإن القساوسة الفرنسيين كانوا «عملاء للبروباجندا السياسية». من هنا تعمقت عزلة الوافدين الأمريكيين فى بيروت إزاء السياسات الواقعية للدبلوماسية البريطانية ، بل وكذلك إزاء دبلوماسية بلدهم ذاته الذى كان فى تلك الفترة مشغولا بحربه الأهلية بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ومن ثم لم تستطع سياسته أن تلمح أبعاد القضايا الأخلاقية التى يحدق بها الخطر وقت ذاك فى الشرق الأوسط.

هذا الإحساس بالعزلة والتفرد، بأن القوم يحفرون قدر أمريكا فى صخر الأرض المقدسة الاصيلة دون مساعدة أو إعاقة من جانب الحكومة الأمريكية، كل هذا أضاف وقودا سيكولوجيا تعززت به الأسباب العملية العديدة التى دفعتهم إلى إجادة العربية أو الى أن يكونوا مستعربين تماما بعبارات أخرى. وكما يلاحظ ستيفن بنروز فإن المبشرين «بدأوا بأنفسهم فى تعلم العربية ثم علموا ووعظوا وكتبوا أو ترجموا المقالات والكتب باللغة العربية. ثم جاء يوم ٣ ديسمبر ١٨٦٦ ليشكل نهاية حقبة للأمريكيين فى الشرق الأوسط وبداية حقبة جديدة. فى ذلك اليوم افتتحت الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت ★ أبوابها

★ المدرسة الكلية السورية الإنجيلية - قاموس الإعلام للزركلي جزء٢ (المترجم)

رسميا لينتظم فى سلكها ستة عشر طالبا ويكون دانييل بليس أول رئيس لها ★ .

أمـا رئيس مـجلس أمناء الكليـة فكان القس الابرشى ديفيـد ستيوارت دودج (وشمل المجلس أيضا شقيق القس المذكور ويليام ايرل دودج). هـكذا لم تعـد الجـاليـة الأمـريكيـة فى بيـروت تركـز نفسـها حول مـجموعة متنوعة من المبشـرين بل تركزت حول كلية جامعية.

فى بادىء الأمر تألفت الكلية البروتستانتية السورية من بضع غرف فى حـفنة مـبان ، وفى الوقت نفسـه جاهد بليس والاخـوان دودج فى البـحث فى كل منطقـة بيـروت عن حـرم جـامـعى دائم، وبعد عـام كامل من البـحث توصلوا الى «أجمل موقـع فى بيروت، إن لم يكن فى بلاد الشـام بأسرها». واستطـاعوا تأمينه بدفع مقدم خـمـسـة آلاف دولار. وتشـاء الأقـدار أن يكون الموقع فى الجـزء المسلم من مدينة بيروت فوق ربوة تطل بمنظر سـاحر على البـحر

★ بعد ثلاث سنوات في عام ١٨٦٣ قام عضـو سـابق في مـجلس التبشير بفتح كلية روبرت في اسطنبول ، وفي عام ١٨٦٥ قامت الكنيسة المشيخية المتحدة لأمريكا بافتتاح كلية أسيوط فى صعيد مصر الأوسط ولكن نفـوذ وتأثير هاتـين الكليتين كـان هامشـيا على العـلاقات العـربيـة الأمريكية .

الأبيض المتوسط وخليج سان جورج، فى البقعة التى يقال أن القديس المسيحى قتل فيها التنين الشرير.

وفى ٧ ديسمبر ١٨٧١ وضع بليس والاخوان دودج حجر الأساس لحرم الكلية، والكلمات القليلة التى تفوه بها أمام الجمع الصغير ستصبح بعد ذلك مجسدة فى حوليات الاستعراب بل تكتسب قوة مع مرور السنين، ولاعجب ففى ذلك اليوم حدد بليس معالم رؤية الكلية السورية التى لم تكن تمثل خلاصة لروح الإنصاف والمساواة التى تطلعت اليها اليقظة العربية فحسب، بل كانت إرهاصا للروح الدولية التى دعا إليها الرئيس ويلسن: «إن هذه الكلية تفتح أبوابها لكل البشر من مختلف الأوضاع والطبقات دون نظر إلى لونهم أو جنسيتهم أو أرومتهم أو ديانتهم، من حق إى إنسان أبيض كان أو أسود أو أصفر أو حتى بغير ديانة أن يدخل إلى هنا وينعم بكل مزايا هذا المعهد لثلاث أو أربع أو حتى ثمانى سنوات ثم يخرج وقد آمن برب واحد أو بغير ذلك. لكن سيكون من المستحيل علي أى أمرىء أن يواصل مسيرته معنا دون أن يعرف أننا نؤمن بالحق ويتعرف على أسباب هذا الإيمان».

بعبارات أخرى فبرغم أن المبشرين كانوا مستعدين فى نهاية المطاف للاعتراف بفشلهم إزاء تحويل اليهود والمسلمين والمسيحيين المشارقة إلى المذهب البروتستانتى إلا أنهم كانوا

مصممين أيضا على تحقيق فوزهم على الساحة العلمانية من خلال ما عملوا عليه من زرع القيم البروتستانتية فى مجتمع سوريا الكبرى وهى القائمة على الديمقراطية والعمل الشاق وحرية البحث الفكرى.

وتكشف الأمر بعد سبعة عشر عاما من المحاولة عن أن اقتصار التعليم على اللغة العربية كان أمرا غير عملى، ويرجع هذا أساسا إلى استحالة الحصول على كتب علمية مستحدثة بتلك اللغة، وبرغم أن الانجليزية أصبحت منذ ذلك الحين لغة التعليم الاساسية، فإن دروس العربية ظلت جزءا من منهج التعليم بما أزكى من روح الديمقراطية والقومية داخل الكلية السورية البروتستانتية وقد تبددت نتائج هذا كله فى القرن العشرين الذى تلاه.

أدرك بليس أن الشرق فيه «الذاكرة مكتملة وشديدة النضوج» لدرجة متقدمة للغاية ولكن هذا الأمر لايصدق فى نفس الوقت على العقل والمنطق. إن حشو أدمغة الطلاب بالحقائق لم يكن هو مايحتاج اليه العرب. كان نجاح الكلية أو فشلها يتوقف على قدرتها على تعليم طلابها كيفية تنظيم الحقائق وتفسيرها. لم يكن ثمة طريقة حقيقية لانجاز هذا الأمر على نحو ما عرفه بليس إلا بإجبار الطلاب على التفكير بصوت عال فى الفصل مع العمل فى

الوقت ذاته على تبيان أوجه التناقض فى تفكيرهم ثم تشجيعهم على حرية المناقشة حول كل قضية. فى هذا الصدد يقول ستيفن بنروز إن بليس «كان يتمتع بقدرة نادرة على الوصول إلى أدمغة طلابه، تلك العقول الشرقية الصميمة التى تفكر بالصور والحكايات. كان أستاذا فى أحكام التصوير وكان نموذجا لا يبارى يحكى القصة ثم يستخلص منها الموعظة، وتلك كانت طريقة المسيح عليه السلام فى التعليم.

بطبيعة الحال كان من الصعب قياس التقدم المحرز فى هذا المضمار. لقد سأل بليس نفسه فى عام ١٩١٢: من الذى صنع الكلية؟ وكانت الاجابة جديرة بأن تجرى على نسق إجابة توبسى فى كوخ العم توم عندما سألوها من الذى صنعك ياتوبسى؟ فأجابت: «لا أدرى، لقد ألفيت نفسى موجودة هكذا».

الكلية البروتستانتية السورية، وهى من إبداع دانييل بليس، ربما تكون أبلغ الأفكار وأكثرها تأثيرا فى تاريخ المعونة الأجنبية. فلم يكن الأمر يقتصر على أنها كانت مشروعا حميما فى الأساس لتمرير خلاصة القيم الغربية إلى العالم العربى عبر الزمن، ولكنها ظلت تمثل رمزا جماليا دائما لأمريكا فى المنطقة ، وكأنها نصب تذكارى لاينطوى على أى تهديد لسيادة أحد هنا أو هناك. بل فى واقع الأمر أصبحت الكلية عنصرا من عناصر تعزيز السيادة

العربية. وفى هذا المجال، يقول ديفيد ستيورات دودج. الذى كان جده الأعلى أول رئيس لمجلس أمناء الكلية الأمريكية.

«عملت الكلية على نشر مناخ من التفكير الحر والحوار المفتوح مما كان مهادا ولدت فى رحمه القومية العربية وأتاح للقومية العربية أن تتطور وبوسعك أن تقول أن القومية العربية نشأت فى أحضان هذه الكلية».

ودرو ويلسن (الرئيس الأمريكى الشهير) كان فتى فى الثامنة عشرة فى كلية دابتسون فى نورث كارولينا عام ١٨٧٤ عندما نشط الاساتذة والطلاب فى كليتهم فى بيروت، لكن الرمز الأكبر لحلمه الدولى فى تقرير مصائر الشعوب. وقد انبثق وسط رماد حقبة ونظام استعمارى زائل كان بالفعل قد أصبح قائما.

فى السنة نفسها، انتقلت مدرسة ريفية يديرها اليسوعيون الى بيروت وأعيدت تسميتها باسم الكلية اليسوعية. ثم أصبحت جامعة القديس يوسف الفرنسية، وبعد الحرب العالمية الأولى غيرت الكلية السورية اسمها لتصبح «الجامعة الأمريكية فى بيروت» وتذيع شعبيتها تحت هذا الاسم. وعلى مدار عشرات السنين ستظل المنافسة محتدمة بين الجامعة اليسوعية والجامعة الأمريكية فى بيروت لدرجة أن كلتا المؤسستين ستصبحان رمزين للبنان ذى القطبين المتعارضين: الجامعة اليسوعية رمزا للقلب الثقافى

والايديولوجي للبنان إذ يرى نفسه فرنسيا ومارونيا ومؤيدا لاسرائيل وغربيا، لبنان الذي يرى في نفسه سليل فينيقيا القديمة وينظر من علٍ إلى حد بالغ الى الجماهير العربية المسلمة، ثم من ناحية أخرى الجامعة الأمريكية في بيروت التي أصبحت قلب اليقظة القومية العربية النابض التي ترى لبنان جزءا لايتجزأ من بلاد الشام ومن العالم العربي الأكبر، عالم جاءت دولة اسرائيل لتصبح بمثابة تذكرة مستفزة له بحقبة الاستعمار البريطاني، تماما كما أن لبنان الماروني السيطرة سيصبح رمزا للاستعمار الفرنسي.

وبالإضافة الى الفرنسيين والامريكيين كان للبريطانيين والروس والألمان والأسبان والايطاليين مدارسهم ونفوذهم المصاحب لها على قطاعات متنافسة من سكان سوريا الكبرى (المدارس البريطانية لها نفوذها على الدروز)، (والروس نفوذهم على أبناء الكنيسة الارثوذكسية الشرقية، وما إلى ذلك). وعليه فالأجانب الذين جاءوا بقيم غربية إلى العرب وخاصة قيم القومية الحديثة كانوا في الوقت نفسه، ومن عجب، يعززون الانقسامات العرقية والسياسية العميقة داخل مجتمع سوريا الكبرى، مما حال بين منطقة سوريا وبين ان تصبح بحق أمة حديثة. أما جامعة بليس الامريكية في بيروت، فبرغم منجزاتها البارزة فإنها كانت

على وشك أن تجتاحها دراما تاريخية كبرى لم يستطع المبشرون للأسف أن يفهموا بحق أبعادها ومراميها.

في عام ١٩٠٣ كان دانييل بليس قد شارف على الثمانين من العمر، فسلم مقاليد رئاسة الكلية السورية الى ابنه هوارد سويتسر بليس وكان كاهنا ولد فى موقع أبيه التبشيرى فى بلدة «سوق الغرب» ثم تعلم شأن أبيه فى كلية امهرست بأمريكا. ومثل أبيه ايضا فإن هوارد بليس قبل أن يعود إلى مسقط رأسه فى لبنان اكتسب خلفيته الأمريكية عندما علم سنتين فى مدرسة توبيكا فى كانساس فى أوائل ثمانينات القرن الماضى.

فى عام ١٩١٠ صاحب هوارد بليس (الابن) اثنين من التوائم هما بايارد وكليفلاند دودج فى أول زيارة فيه إلى بيروت. كانا حفيدين لواحد من الأعضاء الأصليين بمجلس أمناء الكلية، وكان كل منهما يبلغ ستة أقدام طولا ويتسم بالنحافة والوسامة وبعينين بهما زرقة خفيفة، وكانا قد تخرجا للتو من جامعة برنستون وانطلقا فى رحلة حول العالم عندما ذهب بليس الابن الى مصر ليحضرهما.

جريس دودج ابنة بايارد دودج مازالت تتذكر تماما أول نظرة ألقاها أبوها على بيروت عندما وقف عند مرسى السفينة يطل على بحر شديد الزرقة: ساعتها اجتاحه الاحساس بأنه يضع أقدامه

على ساحل بلاد كنعان القديمة المفضية الى فينيقيا مرورا بيافا وصور وقيصرية وصيدا. أخيرا التقطت عيناه مرأى أشرطة صفراء هي السواحل وتنهض وسطها منارة بيروت وإذ اقترب من الميناء اشار هوارد بليس إلي حرم الجامعة في مبانيه التي تحفها هالة سندسية ندية وترصعها أشجار الارز الشديدة الخضرة وينهض وسطها برج حاد الزوايا علما على ساحة الجامعة الرئيسية.

ما أجمل العالم وما أحفله بالأمل وخاصة في الشرق الأوسط! هكذا بدا الأمر في تلك اللحظة المشمسة بالنسبة لعائلتي بليس ودودج ولجميع الامريكيين الآخرين الذين يعيشون في بلاد العرب. إن التصريحات النارية لقيصر ألماني وتعبئة الجيوش عبر جنوب اوروبا وما عمدت اليه النمسا في آونة أخيرة من ضم البوسنة، كل هذا بدا في عيون الجالية الامريكية في بيروت وكأنه أحداث لا اتصال بينها تنتمي الى بيئة أشد برودة وأكثر قتامة بفعل بعد المسافة فضلا عن انعدام الصلة مع ماهم فيه، بل إن ثورة تركيا الفتاة التي سبقت قبل عامين ظلت تنطوي على أمل بامبراطورية عثمانية تأخذ بأسباب ديمقراطية يستطيع فيها رعاياها من الشعوب كالعرب أن يعيشوا بسلام وقد طمحوا بالحلم الى الحكم الذاتي.

«كـانت تلك سنوات من التـفـاؤل العظيم الذى سـاد صـفـوف المبشـرين أمـلا فى أن يفسـروا القرائن المتناثرة لكى تعنى أنهم استطاعـوا فـى نهـاية المطاف أن يجتـازوا الحـواجـز الى عـالم الاسـلام لكى تصل كلمتـهم إلى جـماهـير مـسلمـة أوسع نطاقـا». هكذا يـلاحظ جـون دينوفـو وكان واحـدا من كـوكـبـة من الاسـاتذة الذين يتعاملون مع الأمريكيين فى بداية القرن بالشرق الأوسط هو يضيف إلى ذلك قوله «كان كثير من المبشرين يحلمون بالتأكيد بأن ثمة فجرا جديدا فى طريقه الى البزوغ، إذ كانوا يتنبأون بتحويل المنطقـة الى الانجيلية بمعنى تحـويلهـا الى القيم البروتستـانتية الأمريكية».

وكان بوسـع المبشـرين أن يتصـوروا هذا الأمـر باعتبـار أنهم كانـوا – ربما بأكثـر من الأوروبيين بل وأهل المنطقة أنفسهم – قوة هادية خلف كـواليس الاحـداث فى تطوير المؤسـسـات الحـيـوية بمنطقة سـوريا الكبرى. كانت أول مطبعة عربية فى تلك المنطقة هى مطبعة المبشرين الامريكيين التى جاءوا بها إلى بيروت من مالطة سنة ١٨٣٤ مـسـتـخدمـة بنطا طبـاعيا طوره إيلى سميث فـأصبح يعـرف فى سـوريا الكبرى باسـم العربى الامـريكانى. وكـانت أول رابطة ثقافيـة قومـية عربية وهـى الجمـعية السـورية للفنون والعلوم، وقد انشئت عام ١٨٤٧ هـى أول مـشروع مـشترك بين أبناء المنطقة

وبين المستعربين من المبشرين الامريكيين الأوائل ومنهم إيلي سميث وكورنيليوس فان دايك. إن ابراهيم اليازجي، وهو ابن واحد من مؤسسي الجمعية المذكورة كتب ما أصبح يعرف بأول نشيد قومي عربي يظهر بالحروف اللاتينية والعربية بعنوان «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب». وهو يزين صفحة غلاف كتاب «يقظة العرب» لجورج انطونيوس الذى استوحى عنوانه من النشيد، ويشير انطونيوس كذلك إلى «أن أول جهد منظم فى حركة القومية العربية يمكن إرجاعه الى عام ١٨٧٥ عندما قام خمسة شباب تعلموا فى الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت بتشكيل جمعية سرية».

وبحلول عام ١٩٠٠ للميلاد كان الأمريكان يتولون تشغيل ٩٥ مدرسة فى منطقة سوريا الكبرى ويعلمون ٥٣٠٠ طالب. وكان من الجهود المرموقة لدى سكان المنطقة بصورة عامة تلك المساهمات التى أسداها الامريكيون فى مجالات الطب والاغاثة. ففى عام ١٩٠٨ وهى السنة التى نشبت فيها ثورة تركيا الفتاة، قامت الدكتورة ميرى إيدى ابنة أحد المبشرين فى كلية ويليامز بافتتاح اول عيادة قرب بيروت لمعالجة مرض السل فى الامبراطورية العثمانية. وفى غضون سنوات قلائل أصبح المبشرون الامريكيون يعالجون ٤٠٠٠٠ من المرضى سنويا فى مستشفيات وعيادات

متناثرة فى كل انحاء الامبراطورية العثمانية. هكذا قدر لمدرسة الطب التابعة للكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الامريكية فى بيروت) التى فتحت فى عام ١٨٦٧ ومدرسة الصيدلة الملحقة بها التى افتتحت عام ١٨٧١. أن تصبح محورا لخدمة أولية للإرشاد الريفى أدخلت الطب الى القرى العربية. وبدلا من الطلاب الستة عشر الذين افتتح بهم دانييل بليس الكلية، أصبحت تضم ٦٠٠ من الطلاب جاءوا من جميع أنحاء العالم العربى، كانت نسبة متزايدة من الطلاب مسلمين ممن أصبحوا فى الشرق الأوسط فى مواقع القيادة فى مجتمعاتهم. وكان هذا يصدق بخاصة على خريجى مدرسة الطب. وكم من طبيب فى قرية، وهو ذلك الشخص الذى يتطلع اليه أفراد مجتمع بكل احترام، يدين بمكانته تلك إلى تعليمه الأمريكى الذى كان آية على تميز سرعان مايعرفه ويعترف به كل مخالطيه. وعندما بدأت شمس القرن التاسع عشر فى المغيب. كان الامريكيون باستثناء بقاع قليلة فى الأرض الاجنبية عنهم، يبدون فى عيون السكان المحليين فى إهاب من النقاء والكمال. ويصدق هذا بخاصة على منطقة الشام.

على أن وجود الأمريكيين فى تركيا وغربى إيران كان أوسع نطاقا. فالمهمة التى بدأت عام ١٨٣٠ على شكل مخاطرة أقدم عليها أوتيس دويت وإيلى سميث عندما ارتادا جبال النساطرة

سرعان ماتوسعت فى عام ١٩٠٠ للميلاد لتشمل ١٤٩ محطة تبشير تضم ٢٠٦ من المبشرين الامريكيين و١١٥٠ من المساعدين من أهل البلاد وكانوا يديرون تسعة مستشفيات ويعلمون فى ٥٤٢ مدرسة كانت تقدم تعليما علمانيا (غير لاهوتى) لما يقرب من ١٧٠٠٠ من الطلاب الأتراك والايرانيين والافراد والنساطرة واليهود وغيرهم. وقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى، ارتفع هذا الرقم الى مايزيد عن ٢٥٠٠٠ تلميذ ★ ، فاذا ما سعد الحظ شابا فى قرية بشرقى الاناضول او غربى ايران لكى يحصل على تعليم لائق فى تلك الفترة فالارجح أن كان مدرسوه من المبشرين الامريكيين من الكنيسة الابرشية أو الكنيسة المشيخية.

أما العملية الامريكية فى مصر، التى كان يديرها المشيخيون من البروتستانت، فكانت تقارب نظيرتها فى تركيا وايران من حيث الاتساع حيث تولى المبشرون تعليم ١٤٠٠٠ تلميذ فى مائتى مدرسة. وعندما افتتح المشيخيون كلية البنات الامريكية فى القاهرة عام ١٩١٠ لم تكن الشخصية التى ترأست حفل قص الشريط بأقل من تيودور روزفلت، الرئيس الأمريكى الأسبق، الذى

★ لا تشمل هذه الإحصاءات مدارس الأحد والمراكز اللاهوتية التي كان يديرها المبشرون .

كان عائدا لتوه من رحلة فى أدغال افريقيا كان يصطاد فيها الفيلة.

ثم كانت هناك الجزيرة العربية ذاتها، ذلك الربع الخالى الحافل بالرمال الذى كان يمتد فى كل مكان جنوب هضبة سوريا الجبلية. فى عام ١٨٨٩ قام مبشران مدعومان من الكنيسة الاصلاحية الهولندية هما صمويل زويمر وجيمس كانتين بتنظيم بعثة الى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية. استفاد الرجلان بحق من حركة التبشير فى الشرق الأوسط عندما بدأت تكتسب قوة دافعة مع بداية القرن العشرين، وما كان أحدهما من صفوة نيو انجلند الشهيرة (الواسب - نخبة البيض فى الولايات المتحدة) ولا كان خريجا لاحدى جامعات القمة فى أمريكا،. بل كان زويمر ابن مهاجر هولندى من ميتشيجن وكان أبوه وأكبر اخوته مستخدمين متجولين لحساب الكنيسة الاصلاحية الهولندية فى كل الولايات الامريكية فى منطقة الغرب الأوسط والاطراف. ثمة أخ ثالث كان رائدا تبشيريا فى مناطق داكوتا الامريكية الموحشة. ويدعى زويمر أن والديه «نذرانى للخدمة الخارجية قبل أن أولد» وانه وصاحبه كانتين المنتمى الى منطقة جبال كاتسكيل فى نيويورك «كانا مقتنعين تماما بأن الله يريدهما فى بلاد العرب». وبعد فترة قصيرة أمضياها فى بيروت لدراسة العربية استقلا

باخرة الى ميناء عدن اليمنى عاقدين العزم على تحسس احوال البلاد بغير دليل فى يدهما سوى كتاب أشعياء. وإذ دخلا الى حى عدن الوطنى المحاط بالاسوار الذى كان يمثل أول تجربة لهما فى بلاد العرب فقد أصيبا على الفور بالملاريا على نحو مايقول كانتين. مع ذلك كانت كلمات الرب العبرانى الى أشعياء هى التى دفعت كانتين الى تصور أن مشروعهما سيحقق النجاح حيث تبشرهما بأنهما «سوف يجولان فى المدينة سبع مرات ثم تسقط من حولهما أسوار المدينة» ★ .

كان كل من زويمر وكانتين بحق مؤمنا ورائدا وجنديا من جنود الرب بكل معانى الكلمة. على مدى خمسين عاما، من عام ١٨٨٩ وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية ظلا مندفعين باخلاص وتكريس جيئة وذهابا شمالا وجنوبا عبر سواحل الجزيرة العربية من بغداد فى منطقة مابين النهرين نزولا الى أهوار دجلة الحافلة بالبعوض فى البصرة وهى وطن السندباد البحرى الاسطورى عند فم الخليج العربى، ثم من الكويت وغيرها من المشيخات الى مسقط مع الالتفاف حول خليج عمان الى عدن عند مدخل البحر الأحمر.

★ قاما بإصدار كتاب مشترك بعنوان «معالم الطريق الذهبية» .

في تلك الموانىء والقرى الحافلة بالعرق والهوام، أمضى زويمر وكانتين سنوات النضج من حياتهما دون خدم للمعونة وبغير مغريات المزايا التى كانت ترطب حياة الابرشيين والمشيخيين من كنائس نيو انجلند الذين كانوا ينعمون بالبيئات الحضرية فى بيروت والقاهرة. كم من ليلة أمضاها الرجلان «يطالعان الاسفار الدينية بالعربية على ضوء شمعة خافت وسط أمتعة ودواب فى خان مشرقى» كم ناما على متن القوارب وكم سكنا غرفات متسخة فى أكواخ من الطين وكثيرا ماكانت تنتابهما الأمراض وهما يعيشان حياة أقرب الى الهيبى. وإن نعما بسعادة لمدة أسابيع عندما كانا ينجحان فى نهاية مطاف فى اقناع اعرابى بأن يقبل نسخة من الكتاب المقدس ناهيك عن أن يصطحبها الى بيته. وخلال جميع السنوات التى تشهد فشلا يوميا، كان يعينهما دائما الأصحاح الأول من كتاب أشعياء حين يقول: كل بقعة تطؤها قدماك سوف نعطيها لك.

فإلى جانب شبكة المدارس أرسى الرجلان الأساس لخمسة مستشفيات تبشيرية سوف تعالج يوما ما ٢٣٧٠٠٠ مريض فى السنة فى منطقة الخليج العربى، ولسوف يقدر لابن «السفير» بيل ستولفوز أن يولد فى الكويت فى مستشفى كان جزءا من تلك المزايا التى قدمتها الكنيسة الاصلاحية الهولندية.

★★★

هكذا أتاح هوارد بليس لابنى عـائلة دودج أول رؤية لبـيـروت ولبنان حيث كانت الرؤية حافلة بالوعد والبشرى. بدا البروتستانت الامـريكيـون وكـأنهم مـوشـوكـون على قطـع الطريق على مـسـيـرة الاستعمار والامبريالية بعد أن شيدوا مؤسسة ترمز الى الخير والنفوذ على شـواطـىء اسـتـراتيجية اجنبـية وفـعلوا ذلك من خـلال اعمالهم الطيبة لاغير. وكان الرئيس تيدى رزفلت فى أمريكا من بين أكبر مساندى الجامعة الامريكية الجديدة المتحمسين. ثم قيض لهؤلاء المبشرين صديق آخر فى البيت الابيض عندما أصبح ودرو ويلسن رئيسا لأمريكا عام ١٩١٣ وهو ابن قسيس مشيخى وصديق قديم لابن كليفلاند دودج. فضلا عن كونه من أصحاب النزعة الدولية الداعية الى حق تقرير المصير.

هكذا شعر الامريكيون فى بلاد الشام وقتها أن الوقت لن يطول بالعرب إلا ويخلصون أنفسـهم من براثن الاتراك وأحابيل الفرنسيين. بل ساد التصور أن يوما ما سيأتى فى المستقبل فإذا بالميادين العامة فى بيروت ودمشق تطلق عليها اسماء من قبيل دانيـيل بليس وإيلى سميث وغيرهم ممن قدموا للمنطقة تعليما غربيا وكتبا باللغة العربية بل وأتاحوا سبل قيام القومية العربية لصالح العرب. هنالك لاحت بشائر تركيبة ثقافية وتفاعل حضارى وكما كتب هوارد بليس نفسه يوما فإن المشاركة «مع أهل الشرق

فى أفضل ما لدينا بالغرب. معناها أن الغرب سيفوز بدوره بأشياء كثيرة ليس أقلها الصوفية الكامنة فى عقائد الشرق».

بعد ذلك جاءت نهاية يونية ١٩١٤ حين قام واحد من صرب البوسنة ممن كانوا يعارضون ضمها الى امبراطورية النمسا باغتيال الارشيدوق فرانز فرديناند ولى عهد الهابسبرج (حكام النمسا والمجر) وبدأت الحرب العالمية الأولى فوضعت المشاكل وعلاقات القوى فى العالم الحديث ولأول مرة على أعتاب الأراضى المقدسة. هكذا حلت أول كارثتين فادحتين ما لبثت أن انفجرت شظاياهما فوق رءوس الرواد من رجال الوعظ والتربية والتعليم والاغاثة فغيرت من نظرة العرب إليهم كما بدلت من نظرتهم هم أنفسهم الى العرب. فضلا عن تبديل الطريقة التى كان سائر الامريكيين ينظرون بها الى بنى جلدتهم العاملين فى منطقة الشرق الأوسط.

الفصل الثالث

الانجليزي مجنون الصحراء

فى ٢٧ يولية عام ١٩١٦ توفى دانييل بليس، كان قد شارف على الثالثة والتسعين، وقبل وفاته بسبعة أسابيع، أطلق الشريف حسين فى مكة رصاصة بندقيته من النافذة فى بيته صوب ثكنات الجيش التركى القريبة وبهذا بدأت الأحداث التى تسمى بالثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين.

وبينما كانت أسرة بليس وأصدقاؤه يحضرون مراسم الدفن فى مقابر بعثة التبشير فى ضواحى بيروت، كان توماس إدوارد لورانس. دارس العربية البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما الذى تخرج من اوكسفورد. قد كلف من جانب المخابرات العسكرية البريطانية فى القاهرة بالابحار عبر البحر الاحمر الى ميناء جدة ليستطلع آراء الشريف حسين وأبنائه بشأن عقد محالفة مع البريطانيين كان هدفها طرد الاتراك الموالين للألمان (خصوم بريطانيا فى الحرب العظمى الأولى من منطقة الشرق الأوسط.

من بين الأغراض التى حملها لورانس بين أمتعته مجموعة من مجلدين من كتاب تشارلز دوتى بعنوان «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وكان مؤلفه هو البريطانى الوحيد الذى استطاع أن

يخترق دواخل غرب الجزيرة العربية حيث كان لورانس قد يمم وجهه شطرها. وكان لورانس قد اشترى الكتب حديثا من صمويل زويمر المبشر التابع للكنيسة الاصلاحية الهولندية الذى كان فى فترة استجمام بالقاهرة بعد جولات خاصة به طاف فيها الجزيرة العربية والتقى صدفة مع لورانس.. وقد قيل بعد ذلك أن لورانس حفظ مجلدى دوتى عن ظهر قلب. وبرغم أن تلك مبالغة بغير شك فإن لورانس نفسه كان مايفتأ يشير الى الكتابين بوصفهما انجيله فى التعامل مع العرب.

لورانس بطبيعة الحال قدر له أن يكتب مذكرات حازت شهرة أوفر بعنوان «أعمدة الحكمة السبعة» ولسوف يتبعها كتابات أخرى لبريطانيين عاشوا فى الجزيرة العربية منهم من لم يستطع التحدث بالعربية أو فهم العرب بأكثر مما فعل أسلافهم مثل صمويل زويمر أو إيلى سميث أو دانييل بليس. لكن هؤلاء البريطانيين كتبوا عن تجاربهم بمهارة أكثر ورشاقة أبلغ وكانوا بهذا مختلفين عمن سبقهم. لم تكن المسألة مجرد انتفاضات سياسية يغرق الوافدون الامريكيون الى الشرق الاوسط فى لجتها ويخضعون لتحولاتها، ولكن الأمر كان يتصل بالابداع الأدبى أيضا.

من هؤلاء الرحالة الانجليز الرومانسيون الذين وصفهم لورانس ذاته بأنهم «عصبة من المغامرين بغير حدود؟ كيف وجدوا

أنفسهم فى المواقع المؤثرة التى عاشوا فيها؟ وماذا كان بالضبط تأثيرهم على أقرانهم الأمريكيين؟».

لقد كان المبشرون الأمريكيون من أمثال صمويل زويمر وجيمس كانتين يجهدون فى تمرير الأناجيل فى الجزيرة العربية عند بدايات القرن فى حين أن كان هناك الانجليز الذين عكفوا على تعزيز هيكل قوة وسلطة على المستوى الاقليمى ليحمى الطريق البحرى المفضى الى الهند البريطانية.

نابليون بونابرت هو أول من أفضت أعماله الى التعجيل بالمصالح البريطانية فى الشرق الأوسط عندما هدد بشن هجوم على الهند انطلاقا من مصر التى احتلتها قواته فى الفترة من ١٧٩٨ الى ١٨٠١. وبعد مائة سنة من ذلك التاريخ، وعندما جاء قيصر ألمانيا ليهدد الهند، كانت قبضة بريطانيا على الجزيرة العربية هى التى دفعت ويلهلم الثانى (غليوم) الى الذهاب لتركيا والى التخطيط لانشاء سكة حديد ألمانية عبر آسيا الصغرى الى بغداد. هذه المزية الاستراتيجية فضلا عن الحاجة الى النفط التى طرأت على حياة هؤلاء القوم مجددا، هى التى أعطت لبريطانيا قوة دفع فى الجزيرة العربية لكى توسع نفوذها شمالا حتى يصل الى سوريا الكبرى ثم بلاد مابين النهرين (العراق).

هكذا جاءت الامبريالية بالانجليز الى الشرق الأوسط حيث هيأوا أرضية اسطورية من الثقافة والحضارة الوطنية التى كفلت لهم استراحة يأخذونها من حياتهم التى استبدت بها الآلة فى مجتمع (أوربى) كان يخضع وقتها لعاصفة من التصنيع السريع. يلاحظ الكاتب الانجليزى ديفيد برسى جونز أن «الخيال البريطانى كان أسير نزعته الفريدة والمتأصلة التى تقول بضرورة صون واعزاز كل ماهو مختلف وكل ماهو فاتن الجمال» بعبارات أخرى فإن العقل البريطانى يأسره جمال مخيمات البدو بقدر مايأسره جمال حديقة يانعة فى وطنه. وكما أن الحديقة بحاجة الى عناية وتشذيب بانتظام، فإن صور الخيام وأهل العباءات المسدلة الذين يدبون على مهاد الرمال تحتاج الى تفاصيل من صقل وتصوير فى ابداع الكتابة الوصفية.

ثم جاءت مسئوليات الاستعمار لتعزز هذا اللون من النشاط. فلكى تستطيع السيادة على مقاليد أهل البلاد عليك أن تفهم حياتهم وتتكلم لغتهم. هذه العملية أدت الى فهم وتقدير لكلا الجانبين - الحياة واللغة ولأن الدول العظمى الأخرى مثل فرنسا وألمانيا وروسيا كانت تنافس بريطانيا على مقاليد النفوذ فى تلك المنطقة المشبعة بالاساطير، احتاج الأمر الى كثير من الدهاء، وهذا يعنى القدرة على أن تندس بين صفوف أهل البلاد دون ان

يلحظك أحد وأن تتصرف كأنك واحد منهم، وذلك كى تعرف ما الذى يدور هنا أو هناك. وكم كانت تلك المحاولة قريبة من نفوس شرائح بعينها من الطبقات العليا بين الانجليز الذين كانت تراودهم نزعة الغرابة والتفرد، ولهذا فإن قصة «كيم» التى كتبها رأديارد كيبلنج حول التجسس وحول التزيى بزى المواطنين المحليين فى الحدود الشمالية الغربية من الهند البريطانية ينظر إليها بوصفها أعظم عمل فنى من انجازات الاستعمار.

ليس هناك شخصية فى رواية «كيم» تستأثر بقوة بالخيال وتجسد غرابة الأطوار التى شجعها الاستعمار مثل شخصية «لورغام صاحب» البقال الداهية الذى يمكن ان يراه الناس كأنه هندى او كأنه ينتمى الى جنسيات مشرقية أخرى والذى تعلم منه الصبى الايرلندى الابيض «كيم» دروس حرفة الجاسوسية بين الكتب القديمة والابسطة الشرقية واقنعة عبادة الشيطان وتماثيل بوذا المذهبة وعجلات الصلوات فى التبت وغير ذلك من آلات الايقاع . ويقال ان «لورغان» وغيره من الشخصيات فى رواية «كيم» تقوم كلها بدرجات شتى على أساس رجل واحد يقف تجسيدا ورمزا حيا على الغزو البريطانى فيما وراء البحار فى فترة القرن التاسع عشر وهذا الرجل هو السير ريتشارد فرانسيس بيرتون.

ريتشارد بيرتون كان «أسمر البشرة أنيقا، عيناه كعين الفهد، وحركته مثل وحش مفترس له جبهة معبود وفك شيطان» وكان يتكلم تسعا وعشرين لغة بالاضافة الى مجموعة متنوعة من الرطانات واللهجات أتاحت له أن يمضي دون أن يلحظه أحد بوصفه أفغانيا فيدخل الى مكة المحرمة على سواه ثم يدخل الى منطقة نهر الانديز بوصفه عاملا من الغجر وسط عصابة من العمال - كل هذا أضفى على بيرتون اسم الزنجي الابيض. وقد اكتشف بيرتون الكاماسوترا، ذلك الكتيب الذى يتناول فنون الجنس الهندية، وقاد أول حملة أوربية الى قلب افريقيا لكي يصل الى منابع النيل واستكشف دواخل البرازيل ودخل الى مدينة هرر المحرمة في الحبشة والساحل الغربي لافريقيا وترجم من العربية كتاب ألف ليلة وليلة. ومع ذلك كان أكبر وأول عميل سرى للتاج البريطاني وتلك مهمة أتاجت له القيام بانشطته الكثيرة الأخرى.

وخلال حياة بيرتون المتنوعة ظلت الجزيرة العربية والاسلام معلمين هامين الا انه بالاضافة الى بيرتون العربي كان هناك بيرتون النيل وكان هناك أيضا أكثر من بيرتون في حياة ذلك الرجل، هذا هو السبب الاساسى الذى يبرر إنه برغم الاشارة إليه بوصفه أول وأعظم مستعرب بريطاني فإنه لم يكن هذا وذاك فى واقع الأمر. اذ لم يكن بيرتون مهووسا في يوم من الأيام لا

بالعرب ولا بالجزيرة العربية لدرجة ان يستبعد ماعداهم من مناطق وتخوم من خياله. وبعد زيارته مكة حول اهتماماته الى وسط افريقيا لأن جزيرة العرب لم تعد تقدم له شيئا اكثر من «اكتشاف الصحارى» وبالمناسبة فلسوف نرى ان الشغف الشديد بالعرب سيصبح خاصية تميز المستعربين بالدرجة الأولى.

فى الشرق الأوسط أكثر من أى مكان فى الامبراطورية البريطانية، عمل الخيال البريطانى وعملت الاستخبارات أيضا فى اطار متشابك قوامه الافتتان والآثار واللغة والثقافة القبلية بشكل لم يسبق له مثيل. وهذه الظاهرة كانت تصدر عن أسباب عدة. فمن بين كل اصقاع الامبراطورية التى كان تحكمها بريطانيا العظمى فى أنحاء العالم، كان الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية الأقرب إليها ومن ثم الأيسر فى بلوغه. وفضلا عن ذلك فكما يوضح الباحث الفلسطينى ادوارد سعيد فى دراسته بعنوان «الاستشراق» فإن ديار الاسلام تتاخم بل وأحيانا تعلو أراضى التوراة. كذلك فالعربية والعبرية لغتان ساميتان وكلتاهما تتناولان «مادة غاية الأهمية للمسيحية» وهذا هو الذى جعل الإسلام «عامل استفزاز» خطير وساحر بالنسبة للبريطانيين (ثم للمبشرين الامريكيين على السواء) كان استيلاء الاسلام على الأرض المقدسة هو الذى أفضى الى نشوب الحروب الصليبية، فضلا عن

ذلك كان الاسلام من الفطرة لدرجة أن يسهل فهمه بغير تعقيد (على خلاف اديان الهند أو افريقيا) ولكنه كان من الاختلاف بحد ذاته لدرجة تستعصى على من يفهمه من الخارج. كانت المسألة مثل حسناء فريدة أخاذة تتضوع أعطافها بأريج العطور وعبيرها يكاد يلفح أنفاس البريطانيين وكان هذا معناه أن لابد من السيطرة عليها.

وكان هناك شيء آخر لاسبيل الى تعريفه بالضبط شيء عن الصحراء بكل رتابتها الأخاذة والغريبة التى تنبت على مهادها أفكار الفراغ والعدمية بنفس القدر التى تعزز فيه أفكار النقاء والكمال. فى الصحراء ليس هناك مبنى ولا أى دليل على غرور الانسان: فيها الرمال تكاد تخنق الانفاس لكنها مثل فردوس من البراءة يانع مبسوط حيث كل شيء على حاله قبل وقوع الطوفان. جزء من تلك الصحراء هو الذى جذب أحبار التوراة وأنبياءها الى البرية بنفس القدر الذى يعود ليجذب رجالا ونساء ليسوا أحبارا ولا أنبياء لكنهم مندفعون بحس عميق من الجمال، هؤلاء هم المستعربون.

إن ت. لورانس يجسد أكمل نموذج على هذه المقولة، ففى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» يروق له أن يسهب فى وصف أطلال فى شمال سوريا حيث تفوح رائحة الياسمين من غرفة فيما

يتصاعد اريج البنفسج من غرفة ثانية ورائحة الورد تفوح من الغرفة الثالثة لكن الغرفة التى اجتذبت وحركت مشاعر الدليل العربى الذى كان يقود لورانس ومن ثم لورانس نفسه، كانت الغرفة التى لم يكن يتصاعد منها سوى «رياح الصحراء المفعمة بفراغ بغير حدود، وتلك رائحة لايباريها شيء بالنسبة للانسان «إنها عبير اللاشىء، أفضل عبير على الاطلاق».

وبينما كان المستعربون الامريكيون يقعون فى حبائل سحر كتابات مثل مؤلفات لورانس وغيره من البريطانيين، فإن لورانس نفسه أثناء جولاته في الشرق الاوسط كان بدوره واقعا تحت سحر «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وهو وصف من ١٢٠٠٠ صفحة لاوديسا استغرقت سنتين بين عامى ١٨٧٦ و١٨٧٨ فيما يعرف اليوم بالشمال الغربى من المملكة العربية السعودية كتبها أحد كبار خريجى اكسفورد هو تشارلس مونتاجو دوتى.

وهذا السفر الذى استغرق من صاحبه عقدا كاملا من الزمان لكى يكتبه يتسم بقوة وشمول بالغين من حيث تأثيره وقدرته على الاحاطة بشئون العرب وصحراء الشرق الأوسط لدرجة أن المرء لايستطيع التزيد فى تأثير هذا الكتاب على فكر المستعربين جميعا.

إن كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» هو الذى جعل من دوتى بحق أول وأعظم مستعرب بريطانى. أما ريتشارد بيرتون

فكان نسيج وحده. كان كنجم تفجرت نيازكه في كل مكان وفي وقت واحد فلم يترك سوى فراغ أسود غداة الانفجار. ثم إن بيرتون جاء في مرحلة مبكرة للغاية، وعندما توفي في عام ١٨٩٠ كانت الامبراطورية التركية بالشرق الأوسط أمامها ستة وعشرون عاما أخرى من الحياة، ولكن كتاب دوتي بدأ حركة أدبية وسيكولوجية بين صفوف الغربيين قوامها الجاذبية نحو العرب وهذا ما لم يستطع أن يفعله بيرتون لا في رحلة التنكر التي جاءت به الى مكة والمدينة ولا في ترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة. إن كتاب «رحلات في صحارى بلاد العرب» أصبح ربما أكثر من مؤلفه ذاته شخصية مهمة لها اعتبارها في حكاية الاستعراب، بل أن لورانس تمادى عندما كان يشير الى الكتاب فيطلق عليه كلمة واحدة بسيطة هي: دوتي.

جزيرة العرب التي شهدها دوتي ووصفها كانت بمثابة المختبر أو المحك الذي يمكن على صراطه اختبار وتشكيل شخصية الانجليزي.. إنها أرض من الآماد والفيافي الغريبة الممتدة بغير حدود ومن الربع الخالي الحافل برمال الرعب ومن الكتل الهائلة والأشكال المتكررة ذات التصاوير التي تكشر عن انيابها. إنها كون قائم بذاته يعكس قسوة العهد القديم حيث يقتل اللصوص ببطء حتى الموت، وحيث يجرد الموتى على قارعة الطريق من كل

مايملكون قبل أن يجودوا بآخر أنفاسهم، وحيث البشر يمشون الى مطهر من التعب المؤلم والمكدود وحيث لاتكاد تجد ما تأكله سوى الجراد أو ماتشربه سوى مياه تسبح فيها البغاث. فى مدى عامين من التجوال بين حقول اللافا البركانية وبين ركامات لاتحوى بوصة من ظل يقى من هجير الشمس، ظل دوتى يتجول فيسرق بين حين وحين وتتقطع به السبل بغير زاد أو ماء ويتهدده الموت فى كل يوم تقريبا بسبب رفضه انكار ديانته المسيحية والدخول فى الاسلام. وعندما يصل الى الحامية التركية فى مدينة الطائف فى نهاية رحلته المكدودة. يصف دوتى نفسه بهذه الكلمات:

«سترتى كانت بالية فوق كاهلى ، ومعطفى أصبح قديما ممزقا فيما تهدل شعرى حتى الكتفين ، وتدلت لحيتى شعثاء غبراء ، كانت عيونى فى حمرة الدم وقد كاد يعشى منهما البصر ، وبشرتى محرقة ومشققة فوق وجهى، أرسلوا إلى الحلاق وأعدوا الحمام وقدموا فنجانا من الشاى وكم جهد العقيد التركى الطيب فى أن يحولنى قدر الإمكان إلى ما يشبه أهل المدينة والحضارة» .

على أن نقد دوتى للعرب (الأعراب) نقد لاذع قاس : «فى قلوبهم الآسيوية غل يفوق ما تحويه القلوب من التدين» . وفى ثمانينات القرن التاسع عشر يتنبأ بأن أمم الإسلام التى تتصف

بفهم بدائى تتسم بدهاء الثعالب وتتصور عن قناعة أن المعرفة هى القرآن . وليس غيره لا تستطيع أن تسلك أى سبيل من بعد إلى الخير .

إن دوتى منذ البداية حتى النهاية يرفض مجرد فكرة التشبه بأهل البلاد المحليين بل ويحذر من أنه كلما طال الأمد على المرء وهو يعيش فى بلد مفعم بالأساطير تضعف لديه ملكة الحكم على الأمور وهو يعترف عن نفسه بقوله : «إن الشمس جعلتنى عربيا ولكنها لم تجذبنى إلى حيث الاستشراق» . ويلاحظ لورانس أن قوة هذا الكتاب إنما تكمن فى تمسك دوتى بجذوره كإنجليزى بصورة لم يكن على استعداد للتنازل أو التزحزح عنها . مع ذلك فالكتاب رومانسى وموقف لورانس كله منه موقف رومانسى أيضا على نحو ما كشفته المقدمة التى كتبها لدى إعادة طبع الكتاب عام ١٩٢٩ .

يصف دوتى رحلته بقدر من التباعد العاطفى الذى يميز العلماء ، لقد جاء مسلحا بدفتر وبارومتر وهو يعيد خلق بيئة بأكملها على نحو يثير الإعجاب بيئة جيولوجية ولغوية وثقافية وسيكولوجية ، إنه يصف مثلا جمال القمر وأهميته العملية للصحراء ويصف كيفية تسمية الفصيل من صغار الإبل حسب عدد أسنانه ويصف أنواع الصخور المصقولة والبازلت وغيرها من

تكوينات الصخور في الصحراء ويبرر السبب فى أن تحايا الرجال المفعمة إنسانية وهم فى البرية ما تلبث أن يجللها النفاق عندما تستورد تلك التحيات والمجاملات إلى المدن . وهنا على وجه التحديد تكمن الرومانسية . إن الصحراء بكل جمالها المهيب وبكل رعبها وبكل رتابتها ترسم لها صورة شاملة كاملة ، وهناك ما يتجاوز ذلك . إنها تقدم بأصواتها التى تستدعى إلى الخاطر ما سبق إليه إنجيل تندال المترجم فى القرن السادس عشر ★ . فأى قارئ لدوتى لا يمكن أن ينسى مثلا مشابهته للساميين فى الصحراء وكأنهم رجل يجلس فى عينيه قذى بينما تكاد جبهته تلامس النجوم . بل إن دوتى اعترف أنه إنما ذهب إلى بلاد العرب لأغراض شتى منها «أن يخلص اللغة الانجليزية من الرتابة والفهامة التى سقطت فى ربقتها منذ أيام الشاعر «سبنسر» .

لكن الذى حدث هو أن هذا الغرض الذى توخاه دوتى غاب عن الحسبان فالمراقب البارد المحلل الذى كان يحذر سواه من التوحد مع البيئة هو الذى تحول مع مرور الزمن إلى حكيم واثق من النفس كأنه الشخصية الرئيسية على مسرح ملحمة طولها بعمر الزمن حول بلاد العرب . إن هذه السهول المنبسطة فى تجريدها

★ تندال المترجم كان مصلحا دينيا إنجليزيا وقد أعدم بتهمة الهرطقة .

وفى لا إنسانيتها التى طالما مارست أثرها على تغيير عقول البشر وشخصياتهم ما لبثت أن تحولت لأول مرة على يد دوتى إلى ساحة من ساحات الإبداع الأدبى مما جعل لها جاذبية وفتنة لا يستطيع المرء لها دفعا .

لورانس نفسه أشار إلى أن قسوة البيئة الطبيعية والبشرية هى التى جعلت من بلاد العرب كما رآها دوتى مقياسا من المعاناة تقاس به قدرة الرجال على الصبر والتحمل . هكذا وصف لورانس دوتى بقوله إنه خاض هذه التجربة بنفسه ، واجتاز اختبار البداوة بوصفها أقسى النظم الاجتماعية قاطبة من حيث شظف العيش، وكم كنا محظوظين عندما عمد إلى رسم هذا كله فى ألوانه الحقيقية : حياة فى غاية الشظف ، الفراغ يحوطها من كل جانب ، وهى تنكر كل شئ لكنها تحتفل بشئ واحد هو جانب القوة والإرادة والتصميم فى شخصية البشر . وعندما مخر لورانس عباب البحر الأحمر من مصر إلى جدة . فى صيف ١٩١٦ وفى صحبته كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» كان مصمما على أن يخوض بنفسه ذلك الاختبار فى البلاد التى وصفها سلفه ، وبحكم طبيعة الاستعمار البريطانى فى الشرق الأوسط فى تلك المرحلة فإن هذه الرغبة الشديدة الخصوصية لم تقف حائلا دون ممارسة لورانس لمسئولياته المهنية إن لم تكن قد دفعت تلك المسئوليات إلى الأمام .

قبل أن يخلع على توماس إدوارد اسم «لورانس العرب» ، كانوا يعرفونه ببساطة على أنه نيد أو صاحبنا الصغير بسبب ضآلة حجمه . لكن هذا الصاحب الصغير على نحو ما يصفه «روبرت جريفز» كان يتمتع بقوة بدنية كبيرة ، وقد رآه البعض وهو يرفع بندقية على طول ذراعه ممسكا إياها من الماسورة إلى أن تصبح موازية للأرض . ثم لاحظ جريفز وهو أحد كتاب سيرة لورانس أن الجزء الأعلى من وجهه كان يتصف بملامح من الرقة تكاد تشبه ملامح أم ، فيما يتصف الجزء الأسفل بملامح جامدة تبوح بالقسوة ، وربما كان أكثر أوصاف هذا الرجل نفاذا بكل ما يحوطه من جدل وأساطير هو الذى صدر عن زميل له فى المكتب العربى البريطانى هو هارى سان جون فيلبى الذى وصف لورانس بأنه كان يجمع بين حساسية المرأة وبين خشونة الذكر .

هذا فى الحقيقة هو الذى جعل لورانس أيا كان الرأى فيه شخصية كبيرة . هذا الرجل الضئيل بأياديه وأقدامه الصغيرة كان قادرا على أن يتحمل تجربة رهيبة من شظف العيش كتلك التى تحملها دوتى من قبل ثم يكتب عنها بحساسية واهتمام بالتفاصيل على نحو خلب ألباب عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهو عالم كم كان يتوق إلى أن يرى تذكارا فرديا تضيئه أشعة الشمس وترطبه نزعة الرومانسية ، يتذكر بها حربا كانت

حتى ذلك الوقت معروفة بمشاهد الموت الجماعى لأفراد بغير أسماء وسط الوحل وأمطار الجليد المتجمد فى ميدان القتال فى الفلاندرز ★ .

وفيما أصبح كتاب دوتى عملا مجهولا إلا بالنسبة للخبراء فى الشئون العربية فقد أصبح كتاب لورانس بعنوان «أعمدة الحكمة السبعة» واحدا من أوسع الكتب انتشاراً باللغة الانجليزية مما جعل القوم يخلعون على مؤلفه - بمساعدة رجل الدعاية الأمريكى لويل توماس لقب «لورانس العرب» . بطبيعة الحال كان لورانس يتمتع بميزة واضحة على سلفه دوتى الذى وقعت مغامرته فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية خلال فترة من الهدوء السياسى النسبى حيث كان التركى يغفو ولكن قبضته كانت شديدة على أقدار المنطقة وإن لم يدم ذلك طويلا. أما مغامرة لورانس فقد وقعت فى غضون اشتعال حرب عالمية مازالت اثارها محسوسة حتى الآن فى منطقة الشرق الأوسط مما يضفى أهمية دائمة على كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» .

على أن لورانس كانت له ميزة أخرى، أدبية هذه المرة، إن إنجليزية إنجيل المترجم كيم تتدال التى كتب بها دوتى كان يمكن أن تستأثر بإعجاب المتأدبين لكنها كانت غريبة على الجمهور العام. وفى حقيقة الأمر فالفقرات التى لا تنسى من كتاب «أعمدة

★ يقصد الحرب العالمية الأولى . «المترجم» .

الحكمة السبعة» تنطلق أساسا من وحى دوتى نفسه ، لكن لورانس استطاع أن يترجمها إلى لغة إنجليزية أبسط وأشد دقة لكى تستجيب للقارئ العادى المعاصر . كان تصور دوتى للعربى فى الصحراء أنه رجل كما أسلفنا يحمل القذى فى عيونه لكن جبهته تطال عنان السماء وهى صورة قال لورانس إنها تلخص تماما ما يتمتع به العرب من قوة وما يشوبهم من ضعف ، فضلا عن أوجه التناقض الغريبة فى تفكيرهم . ثم زاد عليها لورانس تحليلا ، ربما يعد أشهر تحليل قام به مستعرب غربى للعقل العربى وإن كان يعد ثاقبا عند قوم فيما يعد عنصريا عند آخرين :

«فى أول لقاء مع العرب تجد نفسك حيال وضوح كونى وثقة وطيدة فى المعتقدات تكاد تصل إلى أبعاد رياضية شديدة التحديد فيما تتخذ شكلا بعيدا عن كل تعاطف يشعر به البشر . كانوا قوما من ألوان بدائية أو فلنقل هم أهل الأسود والأبيض يطلون على العالم ضمن خطوط شديدة التحديد . هم قوم العقائد الثابتة يحتقرون التقاعس والتشكك ، والشك هو تاج الشوك الذى نعتز به نحن أهل العصر الحديث أما العرب فلم يفهموا مشاكلنا الميتافيزيقية ولا تأملاتنا الباطنية وإنما تركوا أنفسهم عند أقصى جانبى التطرف . هم يعشقو المبالغة باختيارهم ولم يرتضوا قط

أنصاف الحلول . إنهم يتبعون منطقا قوامه الآراء العديدة التى لا لقاء بينها ويصلون بالمنطق إلى أقصى الحدود دون أن يدركوا كم أن هذا غريب بل سخيف . لقد شقوا طريقهم بين رموز القبيلة والكهف على السواء» .

إن هذه اللغة الإنجليزية المستقاة من تقاليد أكسفورد وكمبردج التى كتب بها أعمدة الحكمة السبعة تبدو فى وقتنا هذا - أواخر القرن العشرين لغة غنية وجليلة فى حين أن كتاب لورانس يبدو بمقاييس سلفه دوتى إلى حد كبير نسخة موجزة مكثفة من كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» ومن أسف أن هذا أصبح اتجاها معتمدا ، فحركة الاستعراب بالبريطانى ، بوصفها نمطا ثقافيا فرعيا ، ظلت دائما محكومة بمقاييس الإبداع الأدبى ، والمشكلة أن الأدب ظل يتدنى باستمرار ليصبح أكثر شخصانية وأكثر اتجاها نحو الجانب السيكو - جنسى وأشد إيغالا فى الرومانسية جيلا بعد جيل ، إن لفظة «أنا» عند دوتى لا تنسى بسبب قوة شخصية دوتى نفسه التى تستمد أصولها من حكاياته التى رويت بكل تفصيل عن الصحراء . بيد أن «أنا» فى أعمدة الحكمة السبعة ، كما يلاحظ بحق البروفيسور إيلى قدورى «تتفق مع أعراف فن الدراما بمعنى البدايات الصغيرة العفوية وطرح

الرؤية عن الصـــحـراء وسنوات التنظيم والدهـاء فى رسم الخطط والقتـال والإرادة ومحـاولة إتقـان الأشـيـاء ، ثم يتوج هذا كله فى نهاية المطاف فى استثمار الأحداث والاستيلاء على دمشق كما لو كانت تلك الحادثة هى الذروة (الدرامية) المتوخاة لكل الحوادث التى شهدتها حرب الصحراء والتى اكتسبت من خلالها معناها وتجانسها» .

هذا النمط يبدأ منذ الوهلة الأولى كقصيدة يهدى بها لورانس كتابه ويفترض أنه وجهها إلى صاحبه العربى الحميم :

«عندما أحببتك .. أخذت مواكب الرجال بين يدى

وكتبت وصيتى عبر السماء عند مراقى النجوم» .

ويتلو ذلك الملحمة الشهيرة التى جعلت من رجل أشقر مثل لورانس (وهو أيرلندى فى الجانب منه مثل كيم بطل رواية كبلينج) يخلع زى الخـاكى للجـيش البـريطانى ثم لا يكتـفى بأن يرتدى الشداشة البيضاء بل يكـاد يتقمص سـيكولوجيا هوية العربى فى الصحـراء ثم يتولى وحـده قيادة هـؤلاء الذين يجمعـون بين البـداوة والنبالة إلى النصر على الأتراك العثمانيين .

بطبيعة الحال لم يتمكن عرب لورانس قط من تحرير دمشق بمعنى الكلمة . فالذى قام بالتحرير حقيقة هو الجيوش النظامية

للحلفاء بما أتاح للعرب أن يواصلوا زحفهم المنتصر إلى تلك المدينة علامة على الفخر والاعتزاز . ويعترف لورانس بحق بهذا فى رسالة إلى كاتب سيرته روبرت جريفز ملاحظا أن الفصل المتعلق بدمشق فى كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» حافل بأنصاف الحقائق بل إن الثورة العربية كلها بالطبع التى تولي لورانس قيادتها كانت «عرضا جانبيا متفرعا من عرض جانبى» فى مشاهد الحرب العالمية الأولى .. كان مسرح الشرق الأوسط أقل أهمية بكثير من المسرح الأوروبى ثم كانت تلك الثورة العربية عنصرا ثانويا على مسرح الشرق الأسط ، فلم تكن تتألف بأكثر من العصبة من المحاربين غير النظاميين الذين قادهم لورانس لكى يفجروا سكة حديد الحجاز التى أقامها الاتراك فى هذا الموقع منها أو ذاك حتى يسببوا من المضايقات أكثر من الدمار .

ثم كانت هناك أيضا حادثة درعا الشهيرة جنوبى دمشق حيث يصف لورانس بتفاصيل دقيقة بل ويمكن وصفها بأنها شغوفة كيف أهين جسديا ثم ضرب بالسياط بواسطة بيك تركى ، هناك عدد ليس بالقليل زعم أن هذا الأمر لم يحدث قط وكل ما هنالك أن لورانس كانت تراوده الرغبة فى أن يحدث ، تماما كما كان يمضى بحياته فى الصحراء حيث يقول إن الانسان يعيش مع الإنسان

بغير حواجز أو مداراة وحيث يمكن للمرء أن يراوده اعتزاز وحشى بإهانة جسده بأى طريقة تعده بألم أو إهانة فى جسمه (!) وفيما ذهب دوتى إلى الصحراء رائدا علميا فإن لورانس ذهب إليها بعقدة شذوذه وعدم شرعية مولده وكان فى هذا كله يبحث عن نوع خاص للغاية من أنواع السلام العاطفى .

مع ذلك ففى جنازته عام ١٩٣٥ بكى ونستون تشرشل وقال : «أيا كانت حاجتنا بعد ذلك فلن نجد إنسانا مثله قط ★ ، وكان تشرشل على حق فبرغم العيوب الشخصية التى شابت لورانس وأيا كانت المبالغة فى الدور الذى لعبه مع العرب الذين انتمى إليهم وانتموا إليه ، فإن لورانس فى واقع الأمر هو «كيم» فى الحياة الحقيقية بمعنى أنه كان يمارس أحلامه وهذيانه بينما كان يجمع فى الوقت نفسه معلومات استخبارية لها قيمتها ، خلال مجمل الفترة التى أمضاها فى بلاد العرب كان مركزه الرسمى هو ضابط مخابرات سياسى استطاع فى نهاية المطاف أن يسلم العرب إلى أيادى بريطانيا العظمى .

كان لورانس يفكر بوصفه استعماريا ، كان يحبذ وعد بلفور والمشروع الصهيونى (فى فلسطين) كوسيلة لإبعاد الفرنسيين عن

★ توفى لورانس فى حادثة دراجة وكان عمره ٤٦ عاما .

فلسطين وربما عن سائر بلاد الشام ، وتصدى لقيادة المفاوضات السيئة الحظ التى تمت بين الأمير فيصل ابن شريف مكة وبين حاييم وايزمان (الذى كان لورانس يكنّ له إعجابا أصيلا) وكانت تحيزات لورانس ذات دوافع إمبريالية إذ كان يكره بل يمقت الأتراك والفرنسيين ويحترم اليهود «كلما استطاع اليهود أن يزرعوها (يقصد فلسطين) فهذا خير وأبقى «هكذا كتب لورانس فى رسالة بعث بها إلى الوطن . وفى «أعمدة الحكمة السبعة» يلاحظ أنه فقط فى المعجزة الدائمة لليهودية استطاع الساميون الأبعدون أن يحافظوا على هويتهم وقوتهم فى عالم أوسع نطاقا.

مع ذلك فقد بقى التزام لورانس العاطفى إزاء العرب (الذين كانوا فى نزاع مبدئى فى ذلك الوقت ، لا مع اليهود ولكن مع الاتراك ومع الفرنسيين حول سوريا) وبقى هذا الالتزام غير مشروط لدرجة أنه فى مؤتمر الصلح والسلام فى فرساى حينما كان لورانس جزءا من الوفد البريطانى إلا أنه كان يرتدى الملابس العربية كاملة . لورانس كان مقتدرا بوصفه عميلا سريا ، لكن يتساءل المرء : كيف تسنى لمثل هذا الفرد بكل عاطفيته وبكل انفعالاته المشبوبة أن يحقق ما حققه من شأو بعيد فى مضمار رسم السياسة ؟ .

تكمن الإجابة في إنه مهما كانت مكانة الشرق الأوسط وأهميته بالنسبة مثلا إلى أفريقيا أو غيرها من الممتلكات الامبريالية ، وبالمقارنة إلى أوروبا إلا أن الشرق الأوسط ظل ساحة قصية مفعمة بالأسرار ومستعصية من ثم على معظم البريطانيين من رفيعي المكانة . في ذلك الوقت كان عدد البريطانيين من ذوي المهارات اللغوية وغيرهم من خبراء المنطقة صغيرا لدرجة أن لم يكن ثمة تمييز بين العالم والدبلوماسي وبين عميل المخابرات العسكرية ، ولو كان للمرء أن «يمتلك» ناصية العربية لاستطاع أن يكون هذه المهن الثلاث على حد سواء ، وفي أكسفورد أصبح لورانس صنيعة ديفيد جورج هوجارث عالم الآثار والمستشرق الذائع الصيت الذي كان متضلعا أيضا في العربية والتركية واحتفظ بصلات ممتازة في داخل مؤسسة الامبريالية البريطانية ، هكذا رتب هوجارث أن يعمل لورانس في موقع أثري في كرشميش على الحدود التركية السورية (كثيرا ما كان العمل الأثري في الحفريات هو الغطاء التقليدي لمهمات المخابرات) ، وبعد ذلك أصبح هوجارث رئيسا للمكتب العربي في القاهرة عندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، من ثم وجد لورانس مكانا في سلك المخابرات العسكرية عند بداية الثورة العربية ، وفي نهاية الحرب كان لورانس قد عاش مع البدو وقاد جيشا من البدو على مدار

سنتين ومن ثم اكتسب من الصلات والخبرات ما جعله فى مكانة مستشار رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج ، ورغم كل شئ فالسؤال يبقى : كم من الرجال أو النساء كانوا على شاكلة لورانس ؟

والإجابة أن كان هناك كثرة من هؤلاء جميعا . إن عرب لورانس لم يكونوا هم العرب الوحيدون فى الصحراء لقد ذهب لورانس إلى الجزيرة العربية مستشارا لحاكم بعينه هو حسين شريف مكة ، واستطاع أن يشكل رابطة وثيقة خاصة مع واحد من أبناء الشريف هو فيصل ، كان رجال فيصل من المحاربين العرب هم الذين جاء لورانس لكى يقودهم ، هؤلاء المقاتلون جاءوا جميعا من منطقة غرب وشمال غرب الجزيرة العربية التى تعرف باسم الحجاز حيث تقع مكة والمدينة المقدستان عند المسلمين . وفيما كان الحجازيون وخاصة أسرة الشريف فى مكة المعروفة باسم الهاشميين يتمتعون بمكانة سامية فى كل أنحاء الوطن العربى (بحكم دورهم كسدنة للأماكن المقدسة ومقولتهم بأنهم ينحدرون مباشرة من نسل النبى محمد عليه السلام) إلا أن الحجاز لم يستطع فى رأى البعض أن ينشئ أفضل المقاتلين بل ولا أتقى المسلمين . لكن هذا التميز يصدق على أهل القبائل فى وسط الجزيرة العربية حيث المنطقة المعروفة باسم نجد ، وفيها

عاش الوهابيون اتباع محمد بن عبد الوهاب وهو داعية سلفي من القرن الثامن عشر دعا إلى تفسير للقرآن الكريم على أساس من التقشف والتزهد ، وفى ضوء معايير الوهابيين الصارمة فإن الحجازيين ليسوا من الخشونة كما ينبغى بل أن تدينهم يشوبه شرك وشخصيتهم أساء إليها قربهم من البحر الأحمر وصلاتهم بالعالم الخارجى ، وكان أقوى زعماء القبائل فى نجد هو عبد العزيز بن سعود.

عشية قيام الحرب العظمى الأولى ، كان للبريطانيين عميل أو وكيل سياسى مرتبط بقبيلة ابن سعود هو الكابتن وليم هـ. شكسبير ، وهذا الشكسبير الذى ينتمى بصلة قرابة بعيدة للشاعر الكبير الذى حمل اسمه كان مكتشفا مقتدراً ، بل كان أول أوروبى يعبر الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها أى من الكويت إلى السويس وذلك إنجاز لا يطاوله إنجاز فى تلك الأيام . لكن شكسبير على خلاف لورانس ، لم يكن يرى أن يتزيا بزى العرب ، وهذا كلفه حياته نفسها ، ففى معركة دارت فى عام ١٩١٥ بين ابن سعود ورجال قبيلة خصمه ابن الرشيد ، الذى كان مواليا للأتراك ، ما أيسر أن كان الزى البريطانى غنيمة سائغة للرماة من رجال ابن الرشيد ، ولو عاش الكابتن شكسبير لكان الاحتمال أن يكون ذلك الرجل وليس لورانس هو الذى يقود الثورة العربية

ضد الأتراك ، والعرب في مثل هذا الظرف سيكنون عرب ابن سعود وليسوا عرب فيصل بن الحسين .

وبدلا من شكسبير بعثت بريطانيا إلى نجد هارى سان جون بريدجر فيلبى أو جاك فيلبى ، كما كان يعرفه زملاؤه الانجليز ، وفيما كانت مبادئ لورانس تتأرجح بين مساندة المصالح الاستعمارية البريطانية وبين ما رآه مطالب فيصل المشروعة فى سوريا إلا أن جاك فيلبى لم تكن تراوده هذه الوخزات من الضمير بشأن الولاء المزدوج ، كان دائما يعرف أن ولاءه الحقيقى يكمن عند ابن سعود والوهابيين .

الكاتب الانجليزى روبرت ليسى يصف فيلبى بأنه «ماكر داهية مثابر بكل مقياس» جاك فيلبى كان بالطبع والد العميل البريطانى المزدوج كيم فيلبى الذى هرب إلى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٦٣ بينما كان عضوا رفيع المكانة فى المخابرات البريطانية . ومن عجب أنه رغم كل ما كتب عن عمليات الجاسوسية فى الحرب الباردة لم يستطع مؤلف واحد أن يعالج بصورة منهجية تلك العلاقة المثيرة للعجب بين هذا الأب والابن وكلاهما تخرج فى كلية ترينيتى فى كمبردج ، وكلاهما كان بهذا الشكل خائنا بارزا لبلده الأصلى ، وخاصة لأن كيم فيلبى نما وسط بيئة استعرابية من ثم احترف الصحافة فى الشرق الأوسط ومع ذلك فلم يفض به هذا

إلى نفس حب العرب على نحو ما كان أبوه . ذات مرة كان كيم فيلبى يثرثر ثملا فى حانة فى بيروت فقال «العرب هم الشعب الوحيد الذى أعرف أنه يجمع بين الجهل والغرور» ، وبرغم أن كيم فيلبى رفض أباه وعرب أبيه إلا أنه انتهى به الأمر وقد كرر نفس سلوك أبيه وهو أمر طبيعى لمثل هذا الضرب من الأبناء .

جاك فيلبى بدأ حياته العملية مع نهاية القرن الماضى فى الهند كوكيل استعمارى بريطانى يعالج الأمور اليومية كجباية الضرائب ومكافحة الفيضان فى منطقة البنجاب ، سرعان ما أظهر فيلبى مقدرة مرموقة فى اللغات واللهجات فأتقن بسهولة الهندية والبوشتو والبنغالية ولغات أخرى . وكم كان سعيدا عندما كان ينغمس فى أى ثقافة بعيدة عن ثقافته الوطنية ، وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى وأصبحت بلاد العراق ساحة حرب استراتيجية بين البريطانيين والأتراك الذين انحازوا إلى قيصر ألمانيا ، كان فيلبى واحدا من ضباط عديدين تم تجنيدهم لحساب البعثة البريطانية فى البصرة ، حيث أضاف العربية بسرعة إلى قائمة اللغات التى أجاد استخدامها ، وفجأة نسى الهند وأصبح فيلبى مدمنا على الثقافة البدوية العربية يمضى الساعات الطوال يتتبع القبائل وأحسابها معترفا أن هذا العمل لم يكن يمت بصلة ما إلى عمله كدبلوماسى، ولكنه كان «مجرد ناتج فرعى لدراساتى

اللغوية» على أن فيلبى ظل فى بلاد ما بين النهرين مجرد سمكة صغيرة فى بحر كبير من الموظفين البريطانيين الموهوبين ، ثم جاء موت الكابتن شكسبير فأتاح له الفرصة لكى «يتبنى» زعيما عربيا كبيراً .

وكان يعرف ما يتعين على المرء أن يفعله لكي يحدث أثراً فعالا. لورانس كان له فيصل والحجازيون ، وها هو ذا فيلبى يكون له ابن سعود والوهابيون ، وفن العمالة كان مشكلة بدأت بوصفها ضرورة فى عصر لم تكن الدول العربية (المشرقية) قد خرجت رسميا فيه بعد إلى حيز الوجود ، ولم يكن ثمة آلية رسمية لهؤلاء الزعماء القبليين لكى يعبروا عن مشاعرهم إلا من خلال ضباط بريطانيين متعاطفين معهم ترتفع أقدارهم المهنية وتسقط بقدر ما يحدث لهؤلاء القبليين الذين كانوا مرتبطين بهم فضلا عن ذلك كانت تكنولوجيا الاتصالات من البدائية لدرجة أن المسئول الاستعمارى فى بلاد العرب أثناء الحرب العالمية الأولى كان على صلة واهية جدا بمكتبه فى الوطن على خلاف الصلة التى تربط الدبلوماسى بوطنه فى يومنا هذا ، مثل هذا المسئول القديم كان يمكن أن يمضى شهوراً عدة لا يصحبه أحد سوى رجال القبائل الذين تبناهم . وهذه الحقيقة جعلت تجربته فيما وراء البحار أكثر

تركيزا وأشد كثافة وكلما زاد تركيز التجربة ، زادت كثافة الولاء المتطور والناجم عنها .

هكذا لم يضيِّع فيلبى وقتا لكى يكسب ود عبد العزيز بن سعود ففى مدى أسبوع واحد بعد نوفمبر ١٩١٧ الذى شهد لقاءه خارج الرياض مع ذلك الزعيم العربى الوسيم فى خشونة الطويل القامة وجد فيلبى نفسه فى خصومة مريرة مع الكولونيل ر . هاملتون الوكيل البريطانى لشيخ الكويت مبارك الصباح حيث عبر هاملتون عن ازدرائه بعد أن اقترح فيلبى أن يسمح لابن سعود بالاستيلاء على الكويت من أيدى عائلة الصباح .

لم يكن ثمة شئ فى شخصية جاك فيلبى يخضع للسيطرة أو ينبئ بالتواضع ، حتى صديقته وزميلته المستعربة «جرترود بل» كانت تتصوره «متسيدا وصعبا بأكثر مما ينبغى» سرعان ما خرج فيلبى على الناس يرتدى الثياب العربية ويمتطى جملا ويصحب محاربى ابن سعود من الوهابيين ويعلن نفسه «النجم الجديد فى السماوات العربية» وكما يكتب فى سيرته الذاتية «أيام عربية» قال : استطعت أن أضيف كَمًّا هائلا إلى معرفتنا المتاحة بأحوال جزيرة العرب وأن أبدأ عهداً جديدة جعلنى عدوا للجميع وكان لدى الشجاعة لأن أعبر عن قناعتى بأن رجل الأقدار فى جزيرة العرب هو عبد العزيز آل سعود وليس الحسين بن على (شريف مكة) ،

وكـــان الأخـــيـــر هو المقـــرب إلى كل من لورانس والمؤســـــة الاستعمارية البريطانية .

كانت مقولة وزارة المستعمرات وقتها وكان كل مستعرب ما عدا فيلبى يوافق عليها هى التالى : عندما يختفى الأتراك من المسرح فليس هناك سوى العائلة الهاشمية لشريف مكة هم النسل المباشر للرسول هم الحائزون على المطلوب من حيث المكانة السياسية والدينية لكى يحكموا فى ظل الاستقرار الجزيرة العربية. ولكن فى عام ١٩٢٥ استطاعت قوات ابن سعود أن تسلك طريقها زاحفة نحو الغرب من وسط الجزيرة العربية فاجتاحت بذلك منطقة الحجاز ، وهكذا ذهب شريف مكة إلى المنفى وأصبحت مدينتا مكة والمدينة المقدستان جزءا من المملكة المتوسعة حديثا التى عرفت باسم المملكة العربية السعودية ، وأثبت جاك فيلبى أن كل زملائه البريطانيين كانوا على خطأ وما كانت هذه الحقيقة بالشيء القليل الذى يستهان به .

هكذا لم يخرج فيلبى من غبار هذه الأحداث بوصفه فقط اليد اليمنى للملك عبد العزيز آل سعود الذى كان يشاركه فى التسرى بالسبايا بل كان يناقشه مطولا فى آيات القرآن بل إنه أصبح بعد ذلك بمثابة أمين لسر الملك وحاجبه . كل غربى كان يأتى إلى الرياض خلال ربع القرن الذى تلا سعيا نحو امتيازات النفط وغير ذلك من العقود التجارية كان عليه أن يبدأ مباحثاته التجارية أولا

. مع جاك فيلبى ، وبصرف النظر عما تراكم لديه من الثروة من جراء هذا النشاط إلا أنه استغل موقعه المميز هذا لكى يسافر باستمرار إلى أماكن لم يكن ليسمح عادة للأجانب بالولوج اليها ثم ينتج عشرات من الكتب حول الثقافة العربية والانسان العربى والكشوف الجغرافية التى تصنف الآن بوصفها من الكتابات الكلاسيكية المرموقة التى لا تقدر بثمن بالنسبة لخبراء تلك المنطقة . وفى عام ١٩٢٩ ، بعد أن تحسنت علاقته الرسمية مع الحكومة البريطانية تحرك فيلبى إلى بيت بغدادى وهو نزل على شكل قلعة من الرمال يحوى شرفات معلقة على شط البحر الأحمر فى جدة حيث عاش جنبا إلى جنب مع مجموعة كانت متنامية من القردة العربية التى كانت تشغل أقفاصا على الشرفة .

فى عام ١٩٣٠ أصبح فيلبى على استعداد لاتخاذ الخطوة الأخيرة فيما كان عملية تدريجية من الانسلاخ عن شخصية الانسان واصطناع شخصية جديدة أو كما عبر هو نفسه «أن يذهب مع العرب إلى آخر الشوط» . ففى أوائل أغسطس من ذلك العام ارتدى ثياب شيخ عربى وقام بتوقيع وثيقة تشهد بقبوله الاسلام واتخاذه اسم عبد الله ومن ثم استطاع عبد الله فيلبى أن يسافر لأول مرة إلى مكة وأن يؤدى شعائر العمرة وهى الحجة

الأصغر حيث طاف بالكعبة مع المتعبدين ووصف ذلك بقوله إنها كانت تجربة مؤثرة تبعث الرهبة فى النفس فيما كانت أيضا فى غاية من المودة والدفء كأنما هى شئ غامض يتذكره الإنسان من ماض مطوى فى زوايا النسيان . هكذا أصبح قادرا على المشاركة كاملا فى ساحات البلاط الملكى وبعدها وهب له ابن سعود سرية اسمها مريم على سبيل الهدية تكريما لتحوله إلى الإسلام .

لكن سيقيض له أن يكون صديق وبطله ابن سعود هو الذى سيتخلى عنه فيما بعد ، فعندما زادت سطوة النازى فى أوروبا أصاب فيلبى اليأس من إشعال حرب ضد أدولف هتلر ، فبدأ يهمس فى أذن الملك أن لابأس ولا تثريب إذا ما عقدت إنجلترا سلاما على أساس شروط هتلر من قريب أو بعيد ، مع ذلك كان الملك حصيفا فأراد أن يلعب على كلا الحبلين فبالإضافة إلى عقد صفقات أسلحة مع ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية أبلغ الملك انجلترا بأمر جولة لمناهضة الحرب سيتحدث فيها فيلبى ويبدأها عام ١٩٤٠ ، وما أن غادر فيلبى المملكة السعودية حتى ألقت القبض عليه المخابرات البريطانية .

بعد ذلك سمح لفيلبى بالعودة إلى المملكة ، وعاد ليجد سلواه فى الوهابية التى حمته تقاليدها الصارمة بالتقيد بالمبادئ السلفية إزاء مقتضيات عالم سريع التغير . وفى عام ١٩٥٥ كان قد بلغ

التاسعة والستين ، فانتهى حلم عبد الله فيلبى ، فبعد أن شكى للملك الجديد سعود من «الفساد الضارب أطنابه» فى المملكة ، استدعى سعود فيلبى إلى حضرته وبصق عليه على رءوس الأشهاد ثم أمر بنفى فيلبى إلى لبنان .

★★★

عندما وصل فيلبى لأول مرة إلى بلاد ما بين النهرين قادما من الهند فى عام ١٩١٦ سرعان ما أنشأ صداقة مع «جرترود بل» وهو يصف ذلك بقوله «اكتشفنا اهتماما مشتركا بأشياء غريبة ، منها مثلا ، أنساب القبائل والحكام العرب الآنسة «بل» كانت تتمتع بجمال طابعه أرستقراطى إنجليزى ، طويلة القامة حادة الملامح ذات شعر فضى ، وعندما التقى بها فيلبى كانت تتكلم العربية بلهجة لا تكاد تعكس أى رطانة غريبة ، من الناحية الرسمية كانت «مس بل» ضابطا سياسيا تابعا للمكتب العربى البريطانى فى العراق ، وفى الحقيقة كانت هى القوة المسيطرة خلف قيام دولة يحاولون تجميع أطرافها من كردستان فى الشمال ومن منطقتى السنة والشيعة فى بلاد ما بين النهرين التى أصبحت تعرف باسم العراق وهى كلمة تعبر فى العربية عن الأصالة وطيب المحتد .

«جرترود مارجريت لوسيان بل» ، نشأت فى الريف الانجليزى محاطة بالثروة والنفوذ ، فى عام ١٨٨٨ كانت قد بلغت العشرين وتخرجت مبكرا من أكسفورد وأصبحت تجيد اللاتينية و الفرنسية والألمانية، وتعاملت مع الدبلوماسيين البريطانيين فى اسطنبول حيث نما لديها فضول عميق وشوق شديد إلى ما يقع على الجانب الآخر من البوسفور فى آسيا ، وفى أوائل تسعينات القرن الماضى نجدها فى طهران تجيد الفارسية و تنشر مذكراتها لرحلاتها الفارسية ثم تترجم أعمال حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى الذى عاش فى القرن الرابع عشر ، ومن فارس كانت خطوة منطقية تالية أن تغامر إلى سوريا ثم ما بين النهرين لإتقان اللغة العربية. وفى سوريا وما بين النهرين وشمال شبه الجزيرة فى السنوات الأولى من القرن العشرين اكتشفت الآنسة «بل» الشهامة التى لا تقاوم للصحراء فأصبحت رحالة متفرغة وأثرية هاوية إن كانت تصر على أن تصحب أفضل أدوات مطبخها وأجمل ملابس السهرة لديها فى كل الجولات التى قامت بها ، ومع اندلا ع الحرب العالمية الأولى ، كانت قد ألفت نصف دستة من الكتب عن الاستكشافات الاستشراقية بما فى ذلك «الصحراء والسهل الخصيب» الذى لا يجاريه حتى اليوم أى وصف لرحالة لمدن سوريا الكبرى وشعوبها ، على أن حبها لم يقتصر على الصحراء

: لقد دخلت فى علاقة عاطفية غير مشروعة مع ضابط متزوج من فرقة الرماه الملكية هو تشارلس مونتاجو دوتى - ويلى ، ابن أخ مؤلف «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وسميه ، وفى أبريل ١٩١٥ كان الكولونيل ويلى يقود قوة من الجنود الاستراليين فى مهمة بطولية أخيرة فى جاليبولي عندما قتله الاتراك برصاصة فى رأسه ومن بعدها عمدت الآنسة «بل» إلى توجيه كل عواطفها إلى الشعب الذى تبنته ، وهم عرب ما بين النهرين وإلى الدولة الجديدة ، العراق التى كانت مصممة على أن تولد على يديها . هؤلاء أصبحوا بمثابة العائلة التى لم يقدر لها أن تضم غيرها طيلة حياتها .

وعندما نشبت الحرب ، كانت السلطات البريطانية بحاجة إلى معارف الآنسة «بل» اللغوية والبشرية لأغراض الدبلوماسية وأعمال المخابرات .

وبعد وفاة ويلى ، أصبحت هذه المهمة شغلها الشاغل، وبين إصابات ونوبات بالملاريا وبين الإشراف على تحرير صحيفة عربية محلية وكتابة تقارير الدبلوماسية والاستخبارات فى مواسم الشتاء الحافلة بالمطر والوحل في بغداد فى السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، أنتجت الآنسة «بل» مجموعة من الدراسات الاثنوغرافية عن مواضيع مثل التقاليد الشيعية وكتابة العربية

بحروف إنجليزية ، وكذلك كانت تقيم حفلات وإن كان حتى أقرانها من البريطانيين انتقدوها ، على نحو ما يقول كاتب سيرتها «بسبب غرورها الزائد وكراهيتها للنساء العربيات اللهم إلا إذا كن ينتمين - كما قالت الآنسة بل نفسها «إلى طبقات أعلى» .

كان الذى يربط بين هذه الأنشطة جميعا حلمها بعراق المستقبل الذى كانت تريده «مركزا للحضارة والرخاء عندما نتمكن من أن نجعل بلاد ما بين النهرين دولة عربية نموذجية وساعتها لن يكون هناك عربى فى الشام أو فلسطين بغير رغبة فى أن يصبح جزءاً منها ، فى ذلك الحين كان المسئولون البريطانيون عاكفين على عملية اصطناع هذه الدولة ومن أجل خدمة أغراضهم الاستراتيجية أرادوها تشمل حقول النفط فى جنوب كردستان وتتمتع بمنفذ على الخليج العربى لدعم وجودهم فى الهند. وبرغم أن هذا كان يعنى توحيد عدة أقاليم تخلى عنها العثمانيون دون أن يكون بينها رابط مشترك اللهم إلا كراهيتها العودة إلى القديم ، إلا أن هذا كله لم يكن ليشغل «الآنسة بل» . كان العراق لعبتها التجريبية وعندما أصبح العراق حقيقة واقعة اعترفت أنها بينما استخدمت فى برقياتها حججا لتعزيز خلق العراق بالنسبة لوزارة الخارجية فى لندن وكانت حججا سياسية واقتصادية إلا أن مفتاح الموقف في العراق فى نظرها كان دائما هو «الشغف الرومانسى».

الآنسة «بل» لم تعد قط إلى انجلترا ، بقيت فى بغداد وحيدة لتصبح مديرة شئون الآثار فى الدولة العراقية الجديدة وواحدة من خلصاء ملكه الجديد فيصل الأول ★ ، إلا أن حكم فيصل تطور بالتدريج ليصبح أكثر خبثا وفسادا ومن ثم فإن محادثاتها مع ملك العراق أصبحت تتخذ شكل معجب خاب أمله إزاء بطله السابق :

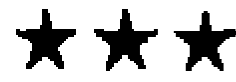
كانت تقول : بدأت أسأل (الملك فيصل) عما إذا كان يؤمن بإخلاص الشخص والثقة فيه فقال إنه لا يشك فى ذلك ، وقلت فى هذه الحالة فأنا أستطيع أن أتكلم بحرية كاملة رغم أننى فى غاية من التعاسة . لقد صنعت صورة جميلة ورشيقة من الثلج وشعرت إزاءها بالولاء ، وها أنذا أراها تذوب أمام ناظرى» .

(نزعة الآنسة «بل» إلى المبالغة والترسل فى الحديث يمكن أن تجد شبيها لها فى المحادثات التى تمت عام ١٩٩٠ بين حاكم عراقى آخر ودبلوماسية غربية أخرى أمضت بدورها كثيرا من سنوات حياتها فى العالم العربى) ★★ .

★ هو فيصل نفسه الذى حارب مع لورانس ضد الأتراك ثم كافأته بريطانيا بعرش العراق بعد أن أجبرته السلطات الاستعمارية الفرنسية على الخروج من سوريا .

★★ الأقواس هذه المرة من وضع المؤلف .ويقصد بالطبع المقابلة الشهيرة بين صدام حسين والسفيرة الأمريكية ابريل جلاسبى . «المترجم»

أعلنت الآنسة «بل» نفسها قائلة «أنا عراقية» ثم اتخذت لنفسها فيما بعد لقب أم المؤمنين (!) وكان العراقيون يسمونها الخاتون أو سيدة القصر . وعندما ماتت دفنت فى بغداد عام ١٩٢٦ قبل عيد ميلادها الخامس والثمانين بيومين بعد أن تناولت جرعة مميتة من عقار البربيتوريت ، إلا أن قصة أخطاء بريطانيا فى العراق ظلت مستمرة خلال الحرب العالمية الثانية ولسوف تعرض إليها سطر الكتاب فيما بعد .



ورغم أن الساحة شملت آخرين ، فإن «لورانس» و «فيلبى» والآنسة «بل» هم أكثر الشخصيات التى لا تزال ذكراها ماثلة بين الأفراد البريطانيين الذين عملوا فى الحرب العالمية الأولى وجمعوا بين العلم والعمالة الإمبريالية ، وامتلكوا الوسائل المالية للسفر على هو اهم وسحر كل منهم الآخر تماما . كما أن كلا منهم كان مسحور اللب بواسطة العرب . ولكن نفوذهم لم يقتصر على أن يكون مجرد معرفة ثقافية مكتسبة ، إن مفتاح القوة لكل منهم كان قدرته ككاتب وقيل أن تؤثر كتب لورانس أو فيلبى أو الانسة بل وغيرهم من البريطانيين الذين أثروا على أجيال من المستعربين الذين أنجبتهم أمريكا ، إلا أن برقياتهم الدبلوماسية كان لها بدورها تأثيرها على راسمى السياسات فى لندن .. إن هـ .

وينستون كاتب سيرة الآنسة بل ، يلاحظ أنها ولورانس قدما مادة للقراءة فى فترة الحرب لم يبارها بالتأكيد أى وثائق تابعة للمخابرات بل إن موظفى الخارجية البريطانية كانوا يتقاتلون للحصول عليها . لكن بينما كانوا أساتذة فى حرفة الكلمة إلا أنهم لم يكونوا لا من الوضوح ولا الاتساق فى الآراء التى طرحوها ، وهذا بدوره ، على ما يقول وينستون ، هو العيب المأساوى فى المستعرب البريطانى : «كانوا فى غاية الأناقة اللفظية ، العالم بالنسبة لهم كان يمكن أن يكون مكانا أكثر سلما للأجيال القادمة لو لم يكونوا هم ومن على شاكلتهم كتابا ومؤلفين على قدر مشهود من الكفاءة والإقناع» .

لورانس بالذات كان شخصا يؤثر فيه مسرح الأحداث تأثيرا بالغا . بين صفوف العرب فى الصحراء كان مؤيدا للعرب ، فى دوائر الخارجية البريطانية فى هوايت هول كان مؤيدا للإمبراطورية ، مع حاييم وايزمان كان يستشعر فى نفسه صهيونيا مخلصا ، وهكذا فعند قراءة حوليات الحرب من لورانس أو الآنسة بل أو غيرهما يحار المرء كثيرا عندما يقرأ مثلا أن القومية العربية فى مناسبة ما هى العلاج الشافى لكل الأدواء ، بينما يقرأ فى مناسبة أخرى أن الحكم الذاتى فى العراق وسوريا هو الحل الناجع للمشكلات ، هذا الارتباك والاضطراب هو

بالضبط الذى يجسده الشرق الأوسط الذى صنعه البريطانيون وساعدهم على ذلك الفرنسيون فى مرحلة ما بعد الدولة العثمانية .

العراق ، تلك المملكة المصنوعة فى بريطانيا جاء كفصل تال لما عمد إليه البريطانيون والفرنسيون من تقطيع أوصال بلاد الشام وهو ما أحبط كثيرا ما كان المبشرون الأمريكيون يحاولون إنجازه فى الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الامريكية) وغيرها من المعاهد العلمية .

لقد كانت الثورة العربية التى ألقت قيادها إلى لورانس مجرد نظير عسكرى لحركة اليقظة العربية التى قادها بدورها المبشرون الأمريكيون وقد شهدتها مدن كثيرة فى بلاد الشام فى القرن التاسع عشر من خلال تشكيل الجميعات الثقافية والسياسية السرية وهذا التراث جعل دمشق موئلا لمشاعر العروبة مع نهاية الحرب العالمية الأولى حيث أصبحت قلب العروبة النابض كما كانوا يسمونها وبالنسبة لقلة من المبشرين بدت بلاد الشام فى نهاية المطاف وكأنها ستنحو نحو اتباع خطى أمريكا بوصفها مجتمعا مستقلا وموحدا وليبراليا وديمقراطيا ، لكن هذه القومية العربية التى لا تعرف الحدود والتى ساندها المبشرون لم تكن تلقى عطفا إلا من جانب الغالبية السنية المسلمة ، هؤلاء الذين كانوا يعيشون أساسا على طول محور الشمال والجنوب فى دمشق وحمص وحماة . وفى غير ذلك كانت سوريا بمثابة رقعة شطرنج

لأطراف متنازعة ما بين المذاهب والأديان والمصالح القبلية في الشرق الأوسط ، كانت مجرد مصطلح على نحو ما قالته الآنسة بل فى لحظة صفاء فى بداية حياتها العملية قبل موت صديقها المحبب دوتى ويلى «مجرد مصطلح جغرافى لا تتوازى معه أى مشاعر وطنية فى صدور السكان» .

وإلى جانب الموارنة والروم الأرثوذكس كانت هناك جيوب من الأرمن واليهود والشركس وكثير من المذاهب الباطنية المختلفة المتخلفة عن مد الإسلام الشيعى الذى كان قد اجتاح المنطقة غربا من إيران إلى سوريا ثم انحسر قبل ذلك العهد بألف سنة . كان هناك الدروز والاسماعيليون والعلويون . وكما سبق إيضاحه فإن المجموعات المختلفة من المبشرين الأجانب الذين كانوا يعملون لأغراض شتى من خلال مؤسساتهم التعليمية التى كانت كل منها تلبى احتياجات نحلة بعينها ، كانوا فى واقع الأمر يعملون على تجزئة السكان فيما كانوا يناضلون من أجل توحيدهم . وعندما استطاعت قوات الحلفاء بمساعدة من رجال لورانس من المحاربين العرب أن تجتاح دمشق فى عام ١٩١٧ وتطرد الأتراك العثمانيين مضى البريطانيون والفرنسيون فى توطيد وتكريس هذه الانقسامات العربية لتصبح بمثابة صخر صلد ، بينما قطعوا أوصال الأغلبية من عرب السنة عن بعضها البعض .

كانت منطقة سوريا العثمانية سابقا منقسمة إلى ست مناطق مختلفة : جزء من شمال سوريا ضموه إلى دولة تركية جديدة بدأ مصطفى كمال أتاتورك يقتطعها من واقع الخلافة العثمانية القديمة ، جنوب سوريا انقسم إلى منطقتين : منطقة انتداب فى فلسطين (وعدت بريطانيا مرتين أن تعطيها لليهود وللعرب) ثم مملكة في شرق الأردن يحكمها واحد من حلفاء لورانس فى الحرب العالمية الأولى هو عبد الله شقيق فيصل وابن شريف مكة ، أما الجزء الشرقى من بلاد الشام فقد أصبح جزءا من العراق البريطانى ، والفرنسيون أخذوا ما تبقى وقاموا بدورهم بتقسيمه من خلال إعلان دولة لبنانية موسعة تعرف باسم لبنان الكبير لكى يعزز وجود أصدقائهم المسيحيين الموارنة الذين سيضعون منذ تلك اللحظة عددا كبيرا من السكان المسلمين السنة تحت سيطرتهم.

فى الوقت نفسه حصل فيصل رفيق لورانس فى السلاح فى الحرب العالمية الأولى وابن شريف مكة على مكافأة عن خدماته ، ومن ثم قامت بريطانيا بتنصيبه ملكا على سوريا فى عام ١٩٢٠ وعاشت مملكته تلك مائة يوم إلى أن أخرجه منها الفرنسيون . حينئذ مضى لورانس وصحبه فطوحوا بفيصل إلى العراق حيث لم يكن قومه الهاشميون القادمون من غرب الجزيرة العربية يتمتعون

بأى مساندة محلية ويومها تطوعت الآنسة «بل» المتحمسة بالمساعدة على بناء قاعدة قوة لصالحه .

لكن بينما كان البريطانيون والفرنسيون يرسمون خطوطا على الخريطة ويحركون الحكام هنا وهناك مثل قطع الشطرنج ، كان الأمريكيون البروتستانت يعانون جنبا إلى جنب مع ضحايا المجاعة والمذابح التى كانت العواقب الوخيمة الناجمة عن الحرب العالمية الأولي . وعندما كان هناك بريطانيون من أمثال لورانس وفيلبى والآنسة «بل» يقعون فى غرام العرب ، كان المبشرون يتعلمون ربما أكثر من ذى قبل معنى ما يشعر به المرء بحق عندما يكون عربيا فى الحانات والمطاعم الشعبية الخيرية بسوريا فى الحرب العالمية الأولى بعيدا عن مضارب خيام الملوك ومراكز القوة فى لندن ، وهنا يتعين علينا أن نعود فنلتحق بمسيرة الأنجيليين البروتستانت الأمريكيين .

الفصل الرابع

نهاية الطيف الملون

عندما يأتى ذكر الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأوسط تسجل الذاكرة المعاصرة صور الصحراء وفيالق الجمالة ولورانس مرتديا الدشداشة والعقال العربى ، لكنها لا تسجل الوجوه الضامرة لـ ٣٠٠٠٠٠ من أبناء الشام ، كثير منهم أطفال ، الذين تضوروا جوعا حتى الموت فى غمار إحدى المجاعات التى طال عليها النسيان فى هذا القرن .

بايارد دودج خريج جامعة برنستون الذى ذهب مع أخيه التوأم إلى بيروت فى قارب فى عام ١٩١٠ عاد إلى المدينة من جديد لدراسة العربية وللمساعدة فى جهود الإغاثة وقت الحرب . كان ينعم باستقلال الثراء فاستطاع أن يدعم شبكة من المطاعم الشعبية الخيرية التى تولت إطعام ١٢٠٠٠ عربى فى الجبال المحيطة ببيروت . كتب يوما يقول «كان الهواء حافلا برنين الأجراس التى تعلن الجنازات وكان الأطفال يبكون من أجل لقمة

خبز يتبلغون بها ، كانت الملابس شحيحة لدرجة أن الأمريكيين حولوا ستراتهم واستخدمت النساء الستائر لصناعة فساتين وكان الكيروسين من الندرة للدرجة أن الأهالى استخدموا لمبات بزيت الزيتون ، تماما كما كان أسلافهم الفينيقيون يفعلون ، كان الناس يتقاتلون على أكوام الزبالة ، وأصبح كثير من البيوت فى الجبال خالية بعد أن مات شاغلوها واستخدمت أبوابها لصناعة الأكفان».

هكذا كان السكان المدنيون فى بلاد الشام هم الذى دفعوا ثمن الثورة العربية التى قادها البريطانيون فى الحجاز ، أصبحوا بكل معنى الكلمة سجناء عند الأتراك الذين فرضوا حصارا على المؤن الغذائية إلى داخل سوريا الكبرى ، أما المغتربون الأمريكيون الذين كانت حكومتهم برئاسة ودرو ويلسن موالية للبريطانيين وسرعان ما أعلنت الحرب على تركيا وغيرها من القوى فى وسط أوروبا ، فكانوا بدورهم سجناء يتهددهم الأتراك باستمرار بالترحيل فى حافلات مقفلة إلى دواخل الصحراء بينما كانوا يفعلون ما يستطيعون لتخفيف المعاناة التى كانوا يطالعونها من حولهم هنا وهناك .

هوارد بليس رئيس الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الامريكية) وهو مستعرب محيط بموضوعه تماما كما كان لورانس

أو الآنسة «بل» أمضى سنوات الحرب فى كفاح لا يهدأ لمجرد أن يجد الطعام لأعضاء هيئة التدريس من أبناء المنطقة ويجعل الكلية تطفو بعيدا عن الغوص فى هاوية الديون إزاء مغارم الجهود الإنسانية التى قامت بها ، لم يكن يمضى يوم بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ إلا وكانت السلطة التركية تهدد أو على الأقل تثير المتاعب لرئيس الكلية الأمريكية.

• بالإضافة إلى أنشطة الإغاثة التى قامت بها الكلية المذكورة أنفق المبشرون الأمريكيون فى سوريا ١٦ مليون دولار وهو مبلغ جسيم فى ذلك الزمان على عمليات إطعام وإلباس العرب المحتاجين . كان رواد الكنائس فى أمريكا ذاتها هم الذين يجمعون الأموال ، ومع ذلك ففى اشتعال أتون الحرب عبر ساحات أوروبا بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، ومع اقتراب أمريكا من الالتحاق بهذا الأتون فإن الجماهير فى الوطن الأمريكى لم تكن تركز على المأساة فى بلاد الشام ، وعلى ذلك فإن المغتربين الأمريكان كانوا مثل الضباط السياسيين البريطانيين المنتدبين لقيادة القبائل العربية يشعرون بالعزلة وبأنهم متروكون لشأنهم إزاء تجربة شخصية غاية فى التوتر . بدا الأمر وكأنه أوكل إليهم سر عظيم ينوء به قلب الإنسان لا يكاد يهتم به خارج نطاقهم فى

العالم إلا قلة قليلة . أدى ذلك إلى إحباط الأمريكيين فى سوريا الكبرى بل تعميق مشاعرهم إزاء الأرض التى تبنتهم أو تبنوها . كانوا يعرفون كما تقول مرجريت مكجلفارى ، وهى مبشرة فى بيروت أن «أعمال الأمريكيين» أدت إلى نتيجة سياسية لم يكن يكترث أحد فى واشنطن حتى لمجرد متابعتها .. الحق أن أمريكا أعطت بسخاء ولكن دون اكتراث يذكر فيما إذا كان هذا السخاء سيعود عليها عندما يأتى يوم تعترف فيه الأمة فى سوريا بأمريكا بوصفها صديقا لا مصلحة له إلا الصداقة ، وتتذكر جريس دودج ابنة بايارد دودج أن أمريكا كانت تمثل فى نظر عرب سوريا «نهاية الطيوف الملونة» .

الوافدون الأمريكيون من جانبهم ، كما كتبت مكجلفارى ، كانوا يستوحون سلوكهم من الاتجاه القومى عند العرب الذى رأى فيه هؤلاء المغتربون علامات مبشرة بأن سوريا الكبرى تتمتع بامتلاكها عناصر قوة كامنة بل وشرارة من نار مقدسة . وعند نهاية الحرب أبحر بليس إلى مؤتمر السلام فى فرساى ليلقى خطابا مشبوبا بالعاطفة لصالح القضية القومية العربية ، وعلى خلاف لورانس وغيره من البريطانيين فإن إيمان بليس وسائر المغتربين الأمريكيين بالقومية العربية كان إيمانا شاملا ، إذ لم

يكن أى منهم يمثل أى مؤسسة إمبريالية لها دوافعها الخاصة فى المنطقة (الحكومة فى واشنطن ، كما سوف نرى ، لم تصبح بحق مدركة لأهمية منطقة الشرق الأوسط إلا بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية) .

وفيما كانت الجالية الأمريكية فى سوريا متحدة فى دعمها لقضية القومية العربية ، فإن أربع سنوات من الاحتلال التركى الوحشى زادت من تفاقم التباين المستمر بين هيئة التدريس فى الكلية البروتستانتية السورية وبين سائر المبشرين الأمريكيين ، إن مكجلفارى التى عملت فى فرع بيروت من الصليب الأحمر اتهمت بليس والعاملين معه فى الكلية المذكورة فى كتابها «فجر حقبة جديدة فى سوريا» بأنهم «كانوا يتقربون من الأتراك» ، كما أن ستيفن بنروز فى التاريخ الذى كتبه للكلية بعنوان «بحثا عن الحياة» كتب يصف بليس إذ حافظ على موقف متسق من الولاء للحكومة العثمانية القائمة فى ظل الاعتقاد فى أن لها حقا أن تطلب من الكلية بوصفها مؤسسة مرتبطة بالنظام التعليمى للإمبراطورية ، موقف الطاعة والانصياع ، وبعد الحرب علمت مكجلفارى بالجهود الكاملة التى كان قد بذلها بليس فاعتذرت له ، ولكن الغبار الذى أثير حول مجاراة السلطات التى كانت تحكم

بيروت عصف بالكلية منذ ذلك الحين فصاعدا . لقد كان اتخاذ موقف أخلاقى مثالى معناه أن تغلق الكلية منذ وقت طويل ، بينما أدى التعامل مع العسكرتاريا العثمانية (ومن بعدهم الاستعماريين الفرنسيين ثم بعد ذلك حركة المقاومة الفلسطينية فى لبنان على نحو ما اضطرت الجامعة مرارا إلى سلوكه) إلى تعريض إدارتها وأساتذتها لتهمة مداراة العناصر المحلية . وفى عام ١٩٩١ ، تناول ويليام برنز من كبار مساعدى وزير الخارجية الأمريكية السابق جيمس بيكر لشئون الشرق الأوسط هذه الأزمة التى عاناها المستعربون فقال «العالم العربى يمكن أن يكون مكانا سيئا ولكن المستعرب هو إنسان لا يملك ترف التنظير وهو يقف على الحواف والهوامش ، إن عليه فى حقيقة الأمر أن يعيش هناك ويعمل وحده ويتعامل مع هذا الواقع الذى لا يمكن تقصى أبعاده».

وإلى جانب الدمار الذى لحق أوروبا ، فإن المجاعة التى أصابت بلاد الشام كان عليها أن تتنافس أيضا لكى تحوز الاهتمام مع كارثة إنسانية كبيرة أخرى تمثلت فى القضاء على ما يزيد على مليون من الأرمن بواسطة السلطات التركية فى الجزء الشرقى من آسيا الصغرى عام ١٩١٥ ، وكان المبشرون الأمريكيون فى تلك المنطقة هم أول من أبلغ العالم حول ما كان

يحدث هناك من خلال إشارات مبطنة فى الرسائل التى كانوا يبعثون بها إلى الوطن .

«ويليام نسبيت تشامبرز» خريج برينستون وهو مبشر مجمعي يتذكر «أنها كانت تجربة مهمة عندما كان المرء يدخل فى جدل مع عصبة عازمة على إراقة الدم وسلب الأموال حيث كانت شهوة الدم تطل من العيون» وقد وصف تشامبرز كيف أنه حاول إنقاذ قسيس أرمنى إلا إن واحدا من عصبة الأتراك أطلق الرصاص على القسيس فى ظهره بينما أغمد آخر خنجرا فى الجانب الآخر من جسد الرجل ومن ثم «سقط بين ذراعى جثة هامدة» .

هذه التجربة وغيرها دفعت تشامبرز إلى أن يكتب رسالة إلى واحد آخر من خريجى برنستون هو الرئيس ودرو ويلسن شخصيا قال فيها «كم يود المرء لو أن دولة كالولايات المتحدة تصبح قوية فى البر والبحر لدرجة تحول بين حكومة كتركيا وبين أن تتجاسر يوما على أن ترتكب مثل هذه الجريمة البشعة» ، وكان المطلوب على نحو ما نصح به المبشر المجمعي بلحيته البيضاء هو سياسة خارجية أمريكية تمتشق فى يد «بندقية ضخمة بينما تمد يدها الأخرى وهى تحمل الإنجيل» .

والحق أن الرئيس الأمريكى وقد أسعده الانتصار على تركيا ، ثم أغضبته أحابيل البريطانيين و الفرنسيين التى وصفها الرئيس

ويلسن بأنها عملية سباق يثير الاشمئزاز تماما على بلاد الشام ، كان بدوره يتطلع إلى الانصياع لنصيحة تشامبرز وغيره من المبشرين لكى ينضم إليهم فى جهد يرمى إلى إعادة صياغة العالم على نسق أمريكا وصورتها ، وعليه ، ففى عام ١٩١٩ أوفد ويلسن هنرى كينج رئيس كلية أوبرلين فى أوهايو وتشارلس كرين ، وهو مليونير من شيكاغو كان أبوه قد كون ثروة فى صناعة المرافق الصحية إلى سوريا لاستطلاع الرغبات السياسية للسكان المحليين . لجنة كينج - كرين كما تذكر فى التاريخ كانت فى حقيقتها لجنة كرين - كينج بمعنى أن تشارلس كرين كان العنصر المهيمن والقوة الدافعة فيما كان هنرى كينج بمثابة القوة التابعة.

فى شخص تشارلس كرين نرى نوعية جديدة من الأمريكيين اجتاحت العالم العربى تختلف بصورة ما عن نوعية المبشر : شدة الدعاية وقلة العوائد . هكذا فبينما تشكل لجنة كينج - كرين مجرد حاشية على متن التاريخ ، إلا أن تشارلس كرين يستحق الوقوف عنده بالوصف .

فى مقالة كتبت فى الخمسينات يقول كريستوفر راند وكان من ألمع المراسلين الخارجيين لجريدة نيويورك هيرالد تريبيون القديمة إن «من أسوأ خطايا زملائه الصحفيين هو ذلك الاتجاه الذى

يدفعهم للنظر إلى الشرق بوصفه مجرد خلفية مثيرة للاهتمام بالنسبة لشخصية الإنسان وتلك نوعية من الأنانية وربما من الرومانسية يتصف بها من اسميهم «طيور الأعشاش» ، رجال دأبوا على جمع نتف من آسيا وكأنما يزينون بها أعشاشهم وهم ينغمسون فى دراساتهم عاكفين على أطباق وأيقونات ورماح ومخلفات وأوان من الفخار أو الصينى وغير ذلك من التحف الصغيرة . إننى أربط هذه الموجة بمعاصرى الرئيس الأسبق تيودور روزفلت» .

روزفلت كان بطبيعة الحال منشئ هذه النوعية من الأمريكيين حيث كان يعود وسط جلبة إلى الوطن من الأدغال الأفريقية وغيرها من الأماكن الغريبة ومعه عينات يضمها إلى مكتبته وإلى نادى هارفارد ومؤسسة متحف سميثونيان . وفى أيام روزفلت كان كل من يملك المال للسفر إلى تلك الأصقاع الغريبة ويعود بأشياء أغرب ينظرون إليه أتوماتيكيا وكأنه خبير بها . هكذا يقول راند «كانت تلك طريقة رخيصة لشراء دبلومة» بل إن مثل هذه الوصمة كان يمكن وراثتها . الرئيس فرانكلين روزفلت كان يتصور أنه على معرفة جيدة بالصين لمجرد أن أحد أسلافه كان فى يوم من الأيام يباشر تجارة من نوع ما حول منطقة هونج كونج . وكم

كان هذا يتفق مع العصر الذهبى عندما كان لدينا فى أمريكا طبقة عليا محدودة العدد لكنها تفرض وصايتها على الآخرين وكان أعضاؤها يستطيعون الاقتراب من أى فرد ومعالجة أى شئ من خلال ما يتوافر لديهم من صداقات شخصية أو إجادة التعرف على الناس والأشياء .

تشارلس كرين كان جزءا من ذلك العصر الذهبى ، ورث أموالا عن أبيه وسافر باستمرار دون حاجة للعمل لكى يكسب عيشا وكان يصف ملاحظاته على الثقافات والحضارات الأجنبية بأنها «دراسات» برغم أنه لم يتوافر لديه تعليم منظم ولم يكن يتكلم أى لغة أجنبية .

كانت روسيا أول هدف شغف به كرين . يكتب ليو بوكاك الذى وضع سيرة كرين ، فيقول «كانت تجمعات الأصدقاء حول سماور للشاى هناك تتيح له من الغبطة لدرجة أن يحمل هذه العادة ليكررها فى الوطن ويبدى فى ذلك قدرا كبيرا من الاعتزاز عندما يقدم الشاى لضيوفه من سماور .

كان أكبر جاذب لروسيا فى عين رين هو كنائسها التى تتلألأ بالذهب والأيقونات ، ولم يطل به الأمد حتى أصبحت من هوايته جمع أيقونات دينية من روسيا ، ولأنه كان أمريكيا ثريا فى روسيا

فى بدايات القرن ، فقد اجتمع إلى القيصر نيقولا الثانى وأصبح من أشد مؤيدى روسيا فى حربها ضد اليابان وفى دعايتها الحربية التى دفعت بها تهمة معاداة السامية (كان يعتبر أن المذابح التى قادها القوزاق ضد اليهود مجرد مضايقات) . هذه العواطف الثقافية أفضت بتشارلس كرين إلى أن يحب بسهولة ويكره بسهولة . وكانت عداوته لليابان بسبب انتصارها على روسيا هى التى شجعت شغفه الصين بوصفها العدو التقليدى اليابان ، قام بزيارات عدة إلى الصين حيث التقط «بعض تعابير قليلة» فى لغتها مما أضفى عليه سمعة المرجع الثقة فى شئون تلك البلاد ، وأفضى بالرئيس الأمريكى ويليام هوارد تافت إلى تعيينه وزيرا مفوضا لأمريكا لدى الصين .

فى تلك الأيام كانت مهام السفارة فى الصين لا تعدو أكثر من إضافة معلومات أساسية مثيرة للاهتمام إلى شخصية المرء . أو هى بمثابة أسلوب لأحد السادة كى يمضى الوقت ذاته . ولقد نصح واحد من العارفين بالأمور صديقه كرين بأن يتخذ من التصوير الفوتوغرافى هواية له ، فلن يكون لديه ما يفعله فى بكين، والحاصل أن كرين لم يذهب فى نهاية المطاف إلى الصين ، إذ تراجع الرئيس تافت عن التعيين أولا لأن وزارة الخارجية الأمريكية

حتى بمعايير ١٩٠٩ كانت ترى فى كرين شخصا مشاغبا ومشغولا وثانيا لأن الرئيس تافت نفسه صدم إزاء الكراهية السافرة التي كان كرين يضمرها بالنسبة إلى «اليابانيين واليهود» مما جعله يخلص إلى أن كرين سيكون «تعيينا خطرا» ولم يفت هذا فى عضد كرين ، بل أصبح أكبر متبرع فى الحملة الانتخابية للرئيس ودرو ويلسن سنة ١٩١٢ من ثم أصبح من أقرب أصدقاء الرئيس (سيكون أيضا من حملة نعش الرئيس ويلسن فى جنازته). ولقد كان ويلسن يلتمس آراء كرين بشأن روسيا وكان صاحبنا يقدمها بحرية تامة . كان كرين يشعر أن الروس شعب برئ تماما من الوحشية ، ومن ثم فالبولشفيك (الشيوعيون) جماعة لا سبيل إلى أخذهم على محمل الجد . ولأن هؤلاء القوم (يعنى يهود أمريكا) يسيطرون على الصحافة وأجهزة التعبير عن الرأى العام فإن أمريكا لا تحصل على صورة دقيقة لما يحدث فى روسيا ، فى واقع الأمر فإن كرين ، كما أوضح كاتب سيرته لم يكن لديه اهتمام حقيقى قط بالسياسة فى روسيا التى كانت بالنسبة له انحرافا مرهقا عن شغفه الشديد بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية والقطع الفنية التى أبدعتها والتى كان عاكفا على جمعها .

عرض ويلسن على كرين منصب السفير لدى روسيا ، وهو ما اعتذر عنه كرين إذ كان اهتمامه قد تحول إلى محنة الأرمن فى

آسيا الصغرى حيث أصبح مشاركا مع كليفلاند دودج والد بايارد والمبشرين المجمعيين فى تمويل وتنظيم جهود الإغاثة . ثم انضم كرين إلى مجلس أمناء كلية روبرت فى القسطنطينية (اسطنبول) وهى معهد أنشأه المبشرون قبيل سنوات من إنشاء الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية) . وقد انغمس كرين فى شئون الشرق الأوسط فى نفس الوقت الذى كانت المنطقة تشهد فيه المعاناة الإنسانية الكبرى فيما كانت مؤامرات البريطانيين والفرنسيين قد بدأت فى تخريب أهداف الرئيس ويلسن فى تقرير المصير لأهل سوريا الكبرى وغيرهم . وكان من الطبيعى أن يتبنى كرين نفس كراهية المبشرين للبريطانيين والفرنسيين ومن ثم كان طبيعيا أن تنمو لديه عاطفة من المحبة للعرب وثقافتهم من النوع الذى كان قد وقر لديه بالنسبة إلى الروس والصينيين من قبل ★ .

فى عام ١٩١٩ أوفد الرئيس ويلسن صديقه كرين رئيساً للجنة أمريكية تتولى توثيق ما يريده أهل سوريا الكبرى أنفسهم فى مجال السلام . وفى رسالة بعث بها إلى زوجته كورنيليا ، لاحظ

★ ربما كانت هذه المحبة للعرب وثقافتهم سببا فى ما لقيه كرين وسيرته من تحامل من المؤلفين والمؤرخين الامريكيين «المترجم» .

كرين أن ثمة «شعورا واضحا» بين صفوف العرب الذين التقى بهم بتهديد من جانب اليهود المحدثين والمتطفلين ، وفى واقع الأمر فإن لجنة كينج - كرين أوصت بالتخلى عن فكرة إيجاد وطن قومى يهودى وبأن تفرض قيوداً صارمة على الهجرة اليهودية وأن تصبح فلسطين جزءا من دولة سوريا يتم حكمها تحت انتداب أمريكى أو بريطانى ، دون أن يكون للفرنسيين دور فى أى حال. ولقد دفع كرين ، مثل تشامبرز ،المبشر المقيم فى أسيا الصغرى ، بألا تعود أمريكا إلى أسوار العزلة السابقة بل تستخدم قوتها لخير السكان من أبناء منطقة الشرق الأوسط .

لكن هذا لم يحدث : فرنسا وانجلترا قسمت سوريا ، أما أمريكا التى كانت قد بعثت شبابها ليقاتلوا ويموتوا فى أوروبا فلم يقدر لها سوى أن تشهد سلاما يائسا ينبثق عن الانتصار الذى تحقق ثم تجد تجربتها الأولية بوصفها رجل الشرطة فى العالم تجربة كئيبة بكل معنى ومن ثم سارعت بالانسحاب إلى داخل ذاتها مرة أخرى وسرعان ما أدى زئير الأطلسى إلى إخماد صيحات الحرية فى الشرق الأوسط والبلقان بعد أن استطاع لمدة وجيزة من الزمن أن يستأثر باهتمام الرأى العام . هذا الوضع ترك كرين وأصدقاءه المبشرين وهم من الإحباط فى غاية. لكن

شغف كرين بالعرب لم يكن ليفارقه ، فقد بدأ دراسة شخصية للتراث والحضارة الإسلامية ، مما أخذه فى نهاية المطاف إلى أسفار فى الهند وجاوة ، ثم واصل جمع القطع الفنية ليودعها فى بيته . هذا التعاطف من جانبه لم يكن سرا ، فقد اجتذب يوما فى دمشق حشدا من مئات العرب المرحبين الذين دعوه إلى مسجدهم وهم يهتفون عاشت سوريا مستقلة ، ولقد ظلت شخصية كرين ترى باستمرار فى الشرق الأوسط بقبعته السوداء ولحيته البيضاء وإطلالته التى تجمع بين العطف والكبرياء . أصبح واحدا من أوائل الأمريكيين الذين قدر لهم أن يخترقوا أبواب صنعاء التى كانت تنتمى للعصور الوسطى فى اليمن ، حيث أصبح صديقا للإمام ووافق على تمويل أول عملية للتنقيب عن النفط هناك . وعمل كرين أيضا مع جاك فيلبى لمساعدة الملك عبدالعزيز آل سعود ، وهو صديق آخر لكرين ، لبدء عمليات التنقيب عن النفط فى العربية السعودية .

يكتب مؤلف سيرته فيقول : «أبرز تحيز كان يسيطر على فكر كرين خلال سنواته الأخيرة تجسد فى بغضه غير المحدود لليهود . إذ حاول كرين أن يقنع الرئيس فرانكلين روزفلت وكان قد انتخب حديثاً أن يرفض مشورات فيلكس فرانكفورتر وأن يتحاشى تعيين

يهود آخرين في مناصب حكومية ،وكان كرين يتصور أن ثمة محاولة على مستوى العالم، يقوم بها اليهود لتشويه حياة الأديان كلها ، وشعر أن إحباط هذه المخططات لن يكون من القوة بمكان إلا بواسطة ائتلاف بين المسلمين والروم الكاثوليك. وفي عام ١٩٣٣ اقترح كرين بالفعل على الحاج أمين الحسيني مفتي القدس أن يبدأ المفتي محادثات مع الفاتيكان لتخطيط حملة مناهضة لليهود .

أدى هذا إلى أن وقر لدى كرين إعجاب شديد بأدولف هتلر الذي رأى كرين أن المانيا في عهده أصبحت «الحصن السياسي الحقيقي للثقافة المسيحية». من ثم كان من السهل أن يحظى بمقابلة مع الفوهرر كما سبق له بالنسبة لقيصر روسيا . وقد تيسر ذلك بحكم معتقدات رجل مثل كرين والوسائل المالية التي كان ينعم بها . وجد هتلر وكرين أنهما يتشاركان في كراهية للبريطانيين والفرنسيين وكذلك لليهود . وآخر رسالة لكرين عن الشئون العالمية قبل أن يموت كانت إلى هتلر يوجه فيها اللوم لليهود على المشاكل التي نجمت في الشرق الأوسط . في ذلك الوقت كان كرين برغم كراهيته للبولشفيك قد أعلن عن مساندته لعمليات التطهير التي قام بها ستالين ضد اليهود في روسيا السوفيتية.

ولقد يلحظ القارىء أن جورج أنطونيوس قد أهدى كتابه «اليقظة العربية» إلى «تشارلس ر. كرين ، الذى يكنى بحق باسم هارون الرشيد مع المودة» . كان كرين شخصية محببة بين كوكبة من المثقفين العرب مسيحيين ومسلمين على السواء ومنهم أنطونيوس نفسه الذى كان قد عمل بين حين وآخر مترجما لكرين. وفى واقع الأمر ، فإن كتاب أنطونيوس الكبير «اليقظة العربية» هو الذى قدم لأول مرة وجهة نظر العالم العربى الحديث إلى العالم الأدبى فى الغرب و قام كرين بتمويله . إن تشارلس كرين لم يخدع العرب ، لكنه فعلها دون قصد منه عندما أعطى إلى أنطونيوس وغيره من المثقفين العرب الانطباع الخاطىء بأن معظم الأمريكيين يشاركونه حبه الرومانسى للعرب مقرونا ببغض عاطفى متساو لليهود . لم يكن الأمر بالتأكيد على هذا الحال فيما بين الأمريكيين بعامة ولا كان على هذا الحال تماما بين صفوف جالية المغتربين الأمريكيين فى بلاد الشام .

كانت الضغوط التى يعانيها هوارد بليس فى إدارة الكلية البروتستانتية السورية تحت الاحتلال التركى وبعد ذلك ضغوط الدفاع عن قضية العرب فى مؤتمر الصلح فى فرساى أكثر مما تحتمله قواه وقد عاد من أمريكا فى عام ١٩١٩ بعد علاج طبى ،

وتوفي بعد ذلك بوقت قصير من جراء السل في منطقة ساراناك ليك ، نيويورك ، وسط أفراد عائلته . وقبيل ساعات من وفاته كان قد تكلم مطولا باللغة العربية ،لغة بلاد الشام التي شهدت مسقط رأسه ، وكان قد سمع العربية أولا وهو طفل ، إذ أن والده دانييل بليس كان يتحدث بها إلى والدته لكي تتعلم هذه اللغة بوتيرة أسرع .

في السنة ذاتها غيرت الكلية البروتستانتية السورية اسمها رسميا لتصبح الجامعة الأمريكية في بيروت ، وبعد سنتين من البحث قام مجلس إدارة الجامعة بتعيين بايارد دودج البالغ من العمر ٣٤سنة بوصفه أول رئيس للمؤسسة التي حملت الاسم الجديد . وقد يبدو للناظر إلى الأمور من الخارج أن هذا الاختيار حمل في طياته قدرا من المحسوبية ، فلم يكن بايارد دودج بمثابة حفيد فقط لأول رئيس لمجلس أمناء الكلية ولكنه أيضا كان زوج ماري بليس ، ابنة هوارد بليس ذاته وحفيدة دانييل بليس .لكن الاختيار في واقع الأمر جاء طبيعيا بل وملهما وبحلول عام ١٩٢٢ كان دودج الشاب من العناصر المخضرمة الشديدة المراس في بيروت حيث أثبت مواهبه القيادية في أعمال الإغاثة وقت الحرب. وفضلا عن ذلك ، ومع أن مواهبه الأخرى كانت ستتبدى مع

مـرور الزمن ، إلا أنه كـان نابغـا في فن الحلول الوسط على نحـو شديد البراعة ، وفى قدراته لمسايرة الظروف السيـاسـية التى لم تكن بالضرورة ودية إزاء الأمريكيين وفى ظل بايارد دودج ، تصل الجامعة الأمريكية فى بيروت ، بل وتصل حركـة الاستعراب من المبشرين الأمريكيين آخر مرحلة إنجاز صادق وصاف لها قبل أن يتغشى سجلها تحديات معنوية وسياسية صاحبت مولد إسرائيل .

وعلى غرار صديق والده تشارلس كرين ، لم يكن بايارد دودج من العناصر المتطرفة أو من الشـخصيات الهازلة فى حالة دودج تمثلت وتشابكت كل عوامل الحرفة بصورة صحية فى غالب الأمر، كان قد نشـأ نشـأة طيبة وتلقى تعليمـا رفيعـا فى برنسـتون ودير اللاهوت المتحـد ، يكاد يتفجر بنوع من المثالية الدينية العملية ، كان مفكرا شغوفـا بالجماليات الثقافية والعمرانية فى الثقافة العربية. موقف دودج تجاه دور الجامعة الأمريكية فى بيروت فى بلاد الشـام فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى تلخصه هذه الكلمات التى لاتختلف كثيرا فى معناها عن تلك التى سبق وأدلى بهـا دانيـيل بليس فى عـام ١٨٧١ ، وكـان ذلك عند وضع حـجـر الأساس لمبنى حرم الجامعة .

«نحن حـريصـون على أن نعلم طلابنا أن ينظروا إلى القـيم والمثل التى يـعتنقـهـا آباؤهـم بكل مودة وتعاطف وعلى أن نكرم كل

الذين يتحملون الواجبات الرسمية فى إطار الطوائف التي ينتمون اليها وأن نحترم دوافع كل الشعائر والفعاليات وأن نوقر أماكن العبادة الأصيلة ولكننا فى الوقت نفسه حريصون على العمل جاهدين لكى نبث الحياة فى هذا كله ، فى ضوء حياتنا الحديثة ، بحيث يصبح الدين قوة عملية وحقيقية فى بعث الروح الإنسانى وفى إعادة بناء العالم بعد أن مزقته الحرب» .

ولكن دودج كان يشعر فوق هذا كله بأن الجامعة الأمريكية «تشكل صلة بين الشرق والغرب أو قناة لتبادل الأفكار بين الطرفين» وكان على استعداد تماما لأن يتنازل عن درجة من المضاهاة بين ما استطاعت أمريكا أن تحققه معنويا وروحيا لشعبها وبين ما استطاع عرب الشام أن يحققوه ، ولأن سوريا الكبرى برغم ما فعله بها الاستعمارالبريطانى والفرنسى ، كانت ما برحت موقعا حافلا بالإمكانيات حيث يستطيع أى امرىء عاقل أن يشعر بالتفاؤل بالمستقبل فإن التوجه الثقافى لدودج لم يكن ليثير أى استغراب فى ذلك الحين .

فى ظل بايارد دودج أصبحت الجامعة الأمريكية فى بيروت بالمعنى السياسى والثقافى أكثر نفوذا من الحكومات البريطانية أو الفرنسية فى الشرق الأوسط ، وكان ذلك إنجازا مرموقا بكل معنى فى ضوء ما عمدت إليه الحكومة الأمريكية من تراجع من

المنطقة وفى ضوء غياب أى وجود حقيقى أمريكي يعتد به بعد ذلك عاودت الجامعة الأمريكية فى بيروت فى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية إلى تشكيل شخصية لها مستقلة عن أصولها الأمريكية ذاتها .

ومن أول الأعمال التى قام بها دودج بوصفه رئيسا للجامعة أن أمر بتعيين مدرسين دون النظر إلى جنسيتهم مما جاء بأساتذة عرب وأوروبيين إلى هيئة الجامعة فيما كانت جامعة القديس يوسف الفرنسية فى بيروت الشرقية المسيحية مقصورة على الجزويت الذين كانوا يبثون فى تلاميذهم روح الولاء لفرنسا ، فإن جامعة دودج الأمريكية فى بيروت الغربية المسلمة كانت بصورة مميزة دولية فى لهجتها ومتعاطفة مع القومية العربية ★ ولقد

★ هذا فيما كانت الكلية الدولية الأمريكية في أزمير قد وجدت ان المناخ الوطنى فى جمهورية مصطفى كمال أتاتورك التركية لايرحب بها لدرجة أن باعت ممتلكاتها وأصبحت منتسبة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت ، كانت أزمير لؤلؤة منطقة «الليفانت» فى آسيا الصغرى ، حيث كان سكانها من اليونانيين قد قدموا دعمهم إلى أوائل المبشرين الأمريكيين ومنهم بلينى فيسك وليفي بارسونز . على أن الأمريكيين الذين كانوا يشعرون بالاستياء تجاه تركيا بسبب مذبحة الأرمن التى وقعت حديثا ، وبحكم تصرفات السلطات التركية فى سوريا الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى ،لم يكونوا ليحملوا وهم فى بيروت بأن القومية العربية إذا ما وضعت فى حيز الممارسة قد تصبح بنفس الصعوبة فى التعامل معها على قدر الصعوبة التى أثبتتها القومية التركية .

انطلق نمو الجامعة الأمريكية فى بيروت فى فترة ما بين الحربين بفعل المنح التى تلقتها من مؤسسة روكفلر والتى رتب لها دودج وبدأ تدفقها فى عام ١٩٢٤. وقد توجه كثير من هذه الأموال إلى مؤسسات التعليم الطبى التى أنتجت ولاتزال أكثر مما تمس الحاجة إليه بالنسبة لرجل الشارع العربى وهم الأطباء المدربون ومن ثم ارتفعت سمعة الجامعة الأمريكية فى المنطقة. ويقول الأستاذ جون دينوفو «إن نفوذ الجامعة تخلل كل بلدان المنطقة وما حولها ، ويشهد بذلك الموقف الودى الذى اتخذته حيالها الطبقات العليا من العرب حيث زاد الاحترام الذي استأثرت به الجامعة ولقد عمدت الحكومات فى سوريا والعراق وفى شرق الأردن وفلسطين وفي العربية السعودية والسودان ، وغيرها من مواقع الوطن العربىِ إلى إرسال أنبغ طلابها إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت التى زودت تلك الأقطار البازغة بالصيادلة والعاملين فى مهن التمريض والمحاسبة والسكرتارية وغيرها ، فضلا عن الأطباء. وفى كل أنحاء الشرق الأوسط ، كانت الجامعة الأمريكية في بيروت تحت قيادة بايارد دودج قد أصبحت تعرف على سبيل المودة بوصفها «ملكة الشرق العظمى» وقد وصف مؤرخ هارفارد الكبير جورج سارتون تلك الجامعة بقوله «معمل تفريخ أفضل الرجال ومؤسسة دائمة للخير وحسن النوايا» .

على أن السؤال هو إلى أى حد يمكن أن يكون هذا صحيحا إذا ما قسناه على أساس الذكرى الموجعة لرحلة لفريق الكرة التابع للجامعة قام بها إلى مصر فى عام ١٩٣٠ ووصفها ستيفن بنروز فى كتابه بعنوان «فى سبيل الحياة» لقد استقل فريق الجامعة الأمريكية فى بيروت القطار إلى القاهرة ، ولأن عطلة الربيع كانت قد بدأت ، فقد انضم إلى الفريق بعض الطلبة فى فلسطين «كانت عربة القطار أشبه ببرج بابل حيث كنت تسمع الألسنة تنطق بالعربية والإنجليزية والعبرية والفرنسية..» وإلى الجنوب من حيفا كان ثمة قلق يساور كل فرد : هل سيلحق كوهين بالقطار ؟ وكان كوهين هو نجم الجناح الأيمن للفريق ويعيش فى تل أبيب على مسافة من خط القطار ، وكان محتملا أن تفوته الوصلة بين القطارين ولذلك فعندما وقف القطار عند ملتقى الخطوط زاد التوتر لكن كوهين كان هناك ولعل الصيحات التى تصاعدت وقتها أزعجت سكان اللد الطيبين رفعوه على الأعناق وأدخلوه إلى القطار من النافذة وكان الفرح غامرا، فها هى ذى الجامعة الأمريكية لبيروت تستطيع أن تهزم المصريين .

«فى ذلك الوقت كانت المشاعر العربية اليهودية قد وصلت إلى مرحلة من الخشونة ولكن كوهين لم يكن بالنسبة للعرب فتي يهوديا بل كان عضوا فى فريق وقبل أن يصل القطار إلى مرحلة القنطرة

شرق ، شوهد نائما فى القطار وقد أسند رأسه إلى حجر دارس من الطلاب المسلمين» .

لم يكن وجود اليهود أمرا غريبا فى الجامعة الأمريكية فى بيروت فى عقد الثلاثينات لقد كان أوركسترا تل أبيب السيمفونى ما يفتأ يقدم حفلاته فى حرم الجامعة ، وكانت الموسيقى فى القداس اليومى أمرا يتذكره بكل قوة منذ أيام الصبا ، الدبلوماسى الأمريكى تالكوت ستيل حيث كان يقودها عازف الأورغن وهو يهودى روسى . بل إن تجارة البرتقال الاسرائيلية تدين بدايتها فى مرحلة ما قبل قيام الدولة فى فلسطين إلى مساعدة قدمها خريجو الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وبرغم أن نمو الجامعة العبرية فى القدس كان يعنى تنافسا مع الجامعة الأمريكية فى بيروت إلا أنه كان فيما يظن من النوع الودى أكثر مما كان يمثله التنافس مع الجامعة الفرنسية – جامعة القديس يوسف فى الناحية الأخرى من المدينة اللبنانية .

هنا كانت قيم أمريكا وبالذات قيم منطقة نيو إنجلند بكل مجدها ، وهناك عبر المحيط الأطلنطى فى بلدة دير فيلد بولاية ماساشوسيتس . كان ثمة مجمعى آخر هو فرانك بودين يعلم تلاميذه فى أكاديمية دير فيلد أن المعهد الذى ينتمون إليه كان أكبر منهم ذاتهم ، بمعنى أنه يمثل كونا روحيا وأخلاقيا على أعلى

مستوى يفوق المجتمع ككل ومن ثم يمكن أن يكون قوة موحدة للعناصر قاطبة. وما كان يدرسه فرانك بودين وهو واحد من عظماء مديرى المدارس فى التاريخ ، كان يفعله بايارد دودج بطريقته الخاصة فى الجامعة الأمريكية في بيروت. من هنا كان بوسع الفتى كوهين أن يسند رأسه إلى حجر شيخ مسلم ، إذ كان كل منهما يعرف أنه بوصفه تلميذا بالجامعة الأمريكية فهو عضو فى صفوة حقيقية بمعنى الكلمة ولو كان للمرء أن يقف عند لحظة فى أوج حياة المبشرين مما لا يمكن قياسه كميا ، فإنها تلك اللحظة فى القطار إلى مصر حيث اليهود والمسلمون ★ تربطهم وحدة روح الفريق على الطريقة الأمريكية برغم الشبح الجاثم على بعد أميال قليلة من الصراع والاضطراب بين الجاليات والطوائف.

على أن نمو وانجازات الجامعة الأمريكية لم يأت بسهولة ، فالمعاهدات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى التى أعطت لفرنسا الانتداب على سوريا كانت أسوأ أنباء يمكن أن تتلقاها جالية المغتربين الأمريكيين الذين كان عداؤهم للفرنسيين سافرا وشديدا كما استبد بهم الرعب وهم يرون سوريا الكبرى الغالية عليهم وقد قطعت أوصالها إلى ست قطع لصالح البريطانيين والفرنسيين ثم

★ طبعا فى تلك الفترة ثلاثينات القرن ، لم يكن هناك كيان اسمه اسرائيل «المترجم».

هاهم الأمريكيون يتعين عليهم أن يعايشوا الفرنسيين الذين عمدوا إلى اتباع أساليب التآمر والوحشية من أجل المزيد من تجزئة الغنيمة المتبقية فى أيديهم .

أما الفرنسيون الذين كانت تجربتهم الاستعمارية مازالت حية فى الأذهان فى الجزائر وتونس فكانوا قد أشعلوا نيران بغضائهم إزاء القومية العربية السنية وقصدوا عمدا إلى إثارة الولاءات الطائفية لكى يحولوا دون قيام شوكة هذه القومية فى سوريا الكبرى، من ثم أعطوا استقلالا ذاتيا إلى المواقع الجبلية فى جبل الدروز واللاذقية حيث يعيش الدروز والعلويون ، وجعلوا هذه النحل الإسلامية الباطنية مسئولة فقط أمام سلطات الانتداب وليس أمام الحكومات السنية فى دمشق، بالإضافة إلى ذلك ، فإن العلويين والدروز وسائر الأقليات كانوا يدفعون ضرائب أقل نسبيا مما تعين أن تدفعه الأغلبية السنية بينما كانوا يحصلون على معونات إنمائية أكبر من الحكومة الفرنسية وشجع الفرنسيون أيضا تجنيد أبناء الأقليات فى جيوش احتلالهم التى سميت بالقوات الخاصة فى سوريا، أما الأغلبية السنية العربية من جانبها فكانت فى حال من القمع الشديد ، فمنطقة دمشق كانت تعامل بوصفها منطقة احتلال تجول فيها دوريات السنغاليين الشديدة المراس يساعدها

فى ذلك العلويون والدروز والأكراد. أما السنيون وأصدقاؤهم الأمريكيون زيضا فكانوا يتصورون أنفسهم من جانبهم وكأنهم تحت الاحتلال ،كأنما لم يغادر الأتراك الساحة ، خاصة لأن الفرنسيين كانوا قد أنشأوا دولة مستقلة فى منطقة لبنان وكان ذلك عملا زاد من تجزئة سوريا الكبرى ،ووضع المزيد من السلطة والنفوذ فى يد الموارنة الذين كانوا موالين للفرنسيين ومعادين للبروتستانت .

دودج عمد بحكمة إلى إدارة خده الآخر إزاء هذا كله ، ففى الطريق إلى بيروت لكى يتسلم رسميا رئاسة الجامعة الأمريكية فى بيروت توقف طويلا فى باريس لكى يرفع لغته الفرنسية إلى مستوى قدرته فى اللغة العربية ، وبعد ذلك وعلى مدى ما يقرب من عقدين من الزمن حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، حاول دودج أن يتقرب من المسئولين الفرنسيين ، بالضبط كما سبق أن حاول حموه ، هوارد بليس الراحل التقرب من الأتراك العثمانيين. ففى عام ١٩٤٠ عندما استولت حكومة فيشى الفرنسية على سوريا ، كان دودج واحدا من قلة من الأمريكان أو البريطانيين الذين بقوا فى بيروت خلال الاحتلال المؤيد للنازى حتى تبقى الجامعة الأمريكية فى بيروت فاتحة أبوابها. وبعد سنة من ذلك التاريخ ،

قامت قوات الحلفاء فى يولية ١٩٤١ بتحرير المدينة وتوقف شارل ديجول قائد فرنسا الحرة فى مسكن دودج لحضور حفلة شاى★ .

وكما كان الحال مع دانييل وهوارد بليس ، لم يكن كل شيء ينقصه الكمال فيما يبدو بالنسبة إلى بايارد دودج كان شأنه شأن أخيه التوأم كليفلاند طويل القامة ، أشقر ، خشن الملامح ، وصافى النظرات. وكما كان حال صديق أبيه ، تشارلز كرين ، كان هناك بين جوانحه ذلك الضوء الداخلى الذى تخيم عليه السكينة فضلا عن ذلك المزيج من الطيبة والكبرياء وكأنما يدل على حياة من النشاط الهادف فى ميدان اختاره بنفسه . إذ أن روح الاستقلالية ووفرة الثروة ورفعة التعليم ، كل هذا صرف عنه الحاجة لأى أنصاف حلول يصعب خيارها . إن ما كان يجهد

★مع ذلك فبالنسبة لعائلة دودج لم تكن الحرب العالمية الثانية قد انتهت ، ففى ٢٢ نوفمبر ١٩٤٤ قتل بايارد الابن وهو أحد أولاد دودج فى معركة ضد النازية فى فرنسا بعد أن ضحى بنفسه لكى ينجو الفصيل الذى كان ينتمى إليه. وقد منح بايارد هذا بعد وفاته وسام القلب الأحمر والنجمة الفضية ، وبعد قراءة البرقية التى أبلغته بوفاة ابنه ، عاد دودج إلى مقعده فى حفل عشاء فى بيروت ولم يبلغ زوجته بالأنباء حتى صباح اليوم التالى عندما أصبح قادرا على أن يأخذها فى جولة ليوم بالجبال. كان الانضباط وروح الصبر على المكاره من خصائص العائلة الواضحة تماما .

هؤلاء البشـر ويسـاورهم القلـق بشـأنه كـان مـقـتـصـرا على كبريات الأمور وعظائمها .

كم سـعـد دودج بدراسـتـه للعـربية والديانة الإسـلاميـة التى اسـتغرقت حياته كلها . كان يكرس سـاعات طـوال لنقـاش حول القرآن باللغة العربية مع العرب . منير سعادة ، الذى كان مدرسا بإحدى ثانويات بيـروت ، يقـول عن دودج «إنه انغمـس فى تاريخ العـرب لدرجة أنه أدرك أن ثمـة أشـياء عظيمة سـوف تأتى من هذا الجـزء مـن العـالم ، وأراد أن يكون بدوره جزءا منها بنفس الطريقة التى أراد بها أن تكون الجامعة الأمريكية جزءا من يقظة الشرق الأوسط» .

آرثر كلوز وبيل ستولفوز شبا عن الطوق فى بيروت فى الفترة التى كان فيها بايارد دودج رئيسا للجامعة الأمريكية هناك . ولد كلوز فى بيـروت عـام ١٩٢٥ ، سنة بعد سـتـولفـوز ، الذى كـان صديق صباه ، عائلة كلوز كانت فى سوريا منذ سنة ١٨٥١ عندما كان جده الأعلى لأبيه «وليم وود بريدچ إيدى» ، وهو قسيس شـاب من الكنيسـة المشيـخـية قـد أبحر إلى ميناء بيـروت بعـد تخرجـه مباشـرة من كليـة ويليـامـز . وقـد كـرس «إيدى» حـيـاته للعـمل التبشـيرى وكتابة تعليقات على العهد الجديد باللغة العربية . أما

ابنه «ويليام كينج إيدى» ، وهو جد كلوز ، فقد أمضى كل حياته في سوريا باستثناء سنوات أربع أمضاهن فى جامعة برنستون .

وكما يقول كلوز نفسه ، فإن جده «تبنى العادات العربية التى تفضل الأبناء على البنات مما جعل الحياة صعبة لابنته وهى بالصدفة أمى شخصيا»

جدة كلوز ، إليزابيث نيلز نيلسون كانت ابنة القس هنرى نيلسون ، الذى كان واعظا فى قداس جنازة الرئيس الأمريكى أبراهام لنكولن فى موطن الرئيس نفسه فى سبرنجفيلد بولاية ألينوى . أما والدة كلوز ، دورا إليزابيث إيدى فكانت مثل بنات هذه العائلة الشديدة التميز قد أمضت حياتها فى أعمال تبشيرية فى سوريا . وينبغى فى هذا المقام أن يرد أيضا ذكر خال كلوز ، ويليام ألفريد إيدى وكان نجما فى مكتب الخدمات الاستراتيجية (وهو الذى تولدت عنه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) خلال الحرب العالمية الثانية وقد واصل طريقه ليصبح الوزير المفوض الأمريكى لدى العربية السعودية وهو الذى تولى الترجمة للرئيس فرانكلين روزفلت خلال اجتماعه مع الملك عبدالعزيز آل سعود فى عام ١٩٤٥ .

يقول كروز «كانت أمى تتحدث العربية بطلاقة ، عشنا فى الجزء المسلم من بيروت وكانت علاقاتنا طيبة مع المسلمين والدروز

والروم الارثوذكس بأكثر مما كانت مع الموارنة . ولقد نشأنا فى بيئة متحيزة ضد الكاثوليك لأن الفرنسيين كانوا يحابون الموارنة وكانت المدارس الكاثوليكية تتنافس مع جامعة بيروت الأمريكية ، هكذا فأنت ترى أن الجامعة كانت مهد القومية العربية المناهضة للفرنسيين . وأما نحن (الأمريكيين) فكنا سعداء من موقعنا بوصفنا الطيبين الذين لا مصلحة لهم فى هذا الجانب أو ذاك . عائلتى كانت انجليزية النزعة ومؤيدة للبريطانيين ولتقرير المصير للعرب ، ولاسيما مبادئ لجنة كينج - كرين التى أيدت قيام دولة عربية فى فلسطين» .

«أما الموارنة فكانوا فى غاية الغرور» هكذا يضيف ستولفوز ويقول «كانوا جبليين فى غاية من صعوبة المراس يعرفون فن تحجيم الآخرين . وحتى الآن فإن المسلمين فى لبنان لا ينعمون بنصيب كامل من العدالة . أما الموارنة فهم نبت مصطنع باعتبار أنهم لم يعتبروا أنفسهم عربا بل من سلالة فينيقية» .

أيام الصبا السورية لكل من كروز وستولفوز انتهت عند اندلاع الحرب العالمية الثانية عندما عادت الكثير من العائلات المغتربة إلى الساحل الشرقى للولايات المتحدة . هذا هو الوقت الذى جعل كلوز وستولفوز وتالكوت سيل وابنى بايارد دودج (ديفيد وبايارد

الأصفر) وغيرهم من الفتيان «البيارتة» يرسلون إلى أكاديمية دير فيلد لتلقى تعليمهم الثانوى قبل أن يلتحقوا بجامعة برنستون (أو أمهرست فى حالة سيل) .

ولم يكن ثمة مكان أفضل بالنسبة لصبى فى مرحلة المراهقة ليقضى أربع سنوات فى أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات من دير فيلد الواقعة فى مغانى الرعاة فى غربى ماساشوسيتس . وأدى هذا المزيج بين بيروت الاغتراب وبين أكاديمية دير فيلد إلى أن أصبح هؤلاء الصبية يتمتعون بعقلية رفيعة ومناقب فاضلة إلى حد يقرب من الكمال . لكن أمريكا التى قدم إليها هؤلاء الصبية فى دير فيلد لم تكن أقل من أمريكا التى انتمى اليها مغتربو بيروت .. كان دير فيلد امتدادا لكل ما هو طيب فى عالم البروتستانت البيض . وكانت الثلاثينات والأربعينات بحق أفضل فترة فى دير فيلد عندما كان ثلاثة أرباع تلاميذها يأتون من مدارس إعدادية خاصة . وهنا نستذكر عبارة جانيت ستولفوز : «فى برنستون وفى ول سليب فى المدارس الإعدادية كنا نذهب لا نكاد نصادف أى يهودى فى يوم من الأيام . كانت تلك أمريكا المختلفة حينذاك» .

عشية قيام الحرب العالمية الثانية ، كانت الجالية الأمريكية فى الشرق الأوسط قد وصلت إلى أوج وجودها . كان هناك ثلاث

مدارس أمريكية للبنات في لبنان وحده . وإلى جانب الجامعة الأمريكية في بيروت والجامعة الأمريكية في القاهرة التي كانت قد فتحت أبوابها في عام ١٩٢٠ ورأسها تشارلس واطسن الذي ترجع جذوره في التبشير البروتستانتي في مصر إلى عام ١٨٦١ فقد افتتحت شعبة لإعداد المعلمين ودائرة خدمة ريفية ومدرسة للدراسات الشرقية ملحقة بالجامعة الرئيسية . كل هذا أدى إلى أن أصبحت الجامعة الأمريكية في القاهرة بسرعة محور النشاط التبشيري الأمريكي في مصر تماما كما كانت كذلك الجامعة الأمريكية في سوريا الكبرى . وتماثلت الجامعتان في اجتذاب أبناء المؤسسة الحاكمة في مصر فأصبحت حاضنة الوطنية المصرية ، تماما كما كانت الجامعة الأمريكية في بيروت حاضنة القومية العربية .

لكن مع رجفة الحرب التي عادت لتجتاح أوروبا من جديد ، عمد بايارد كينج إلى إبلاغ مجلس أمناء الجامعة الأمريكية في بيروت بأن الشرق الأوسط وصل إلى ختام حقبة من عمره ، وحتى برغم دور أمريكا في العالم العربي الذي كان إلى حد كبير أفضل من دور فرنسا أو إنجلترا من حيث أعمال الخير ، فقد أشار دودج إلى أن التوترات التي حلت من جراء القومية العربية سوف تشعر

بها أمريكا بدورها . أما الجامعة الأمريكية فى بيروت . وبالتالى مجمل الجالية من الوافدين الأمريكيين فى العالم العربى فقد ظلوا فى حال من الازدهار خلال الحرب العالمية الثانية لأنها استطاعت أن تقدم خدمات أساسية فى مجالى التعليم والرعاية الاجتماعية مع ابتعادها عن السياسة ، كان الوافدون يسايرون الاتجاه العام للرأى المحلى واستطاعوا مسايرة القوى التى كانت تعد نفسها على مسرح الأحداث ، ولم يكن لديهم حاجة للاعتذار عن الاجراءات التى تتخذها حكومتهم لأن واشنطن لم تكن تمارس نشاطا فى المنطقة على نحو ما كان الأوروبيون يفعلون . وفى حقيقة الأمر فإن دودج وغيره من الوافدين على المنطقة أرادوا وجودا حكوميا أمريكيا أكثر بروزا لكى يتنافس مع وجود الفرنسيين والبريطانيين . كانوا لا يزالون يأملون بل ويتصورون أنه عندما تجعل واشنطن وجودها محسوسا فى الشرق الأوسط فإنها ستفعل ذلك بما يعزز علاقاتها الخاصة مع العرب دون تعقيد تلك العلاقات . لكن الذى حدث بطبيعة الحال سيكون أمرا قاسيا بل سيكون مثل «الكوميديا الإلهية» . ثمة حركة أخرى كانت ليبرالية بدورها وكان لها قصدها السليم وكانت ذات طابع إنسانى كذلك لكنها كانت مدفوعة بمأساة بشرية من نوع وأبعاد سحقت

أمامها حتى منطق إنجيل البروتستانت وقدر لها أن تنفجر فوق رءوس هؤلاء الأمريكيين المغتربين فتؤدى إلي شعورهم بالمرارة والإحباط .

فى عام ١٩٤٨ ، تقاعد بايارد دودج وكان فى سن الستين إلى برنستون ، نيوجيرسى . وقد نشر دودج فى أبريل من ذلك العام مقالة فى مجلة «ريدرز دايجست» (المختار) عن أزمة فلسطين بعنوان «هل ينبغى أن تنشب الحرب فى الشرق الأوسط ؟» هذه المقالة التى تألفت من ستة آلاف كلمة وأصبحت منسية ولا يكاد يعرفها أحد هى البيان التعريفى للمستعربين الأمريكيين بشأن مولد اسرائيل . وبرغم أن كاتبها حذر بقوله «ليس كل اليهود صهاينة وليس كل الصهاينة متطرفين» إلا أن الحركة الصهيونية فى نظر دودج كانت مأساة لا تكاد تبشر بخير . لم يكن دودج معاديا للسامية ، بل كان يلوم رفاقه المسيحيين على التصرف بطريقة تجعل إحساس اليهود «باللاوطن .. إحساسا أكثر حدة». وفي واقع الأمر فإن محررى مجلة دايجست قدموا دودج بوصفه «صديقا بارزا للعرب واليهود» . أما مقولة دودج ضد الصهيونية فلا تنطلق من سياسات الحركة بل من المعارضة العربية لها، التى جعلت برنامج الصهيونية فى نظر دودج غير واقعى ومن ثم

محفوفا بالخطر . وكان دودج يعلم أن مولد دولة يهودية سوف تتلوه سنوات وعقود من الصراع ، ومن تلك كتب دودج يقول «إن كل الأعمال التي تقوم بها هيئاتنا الأمريكية الخيرية التى لا تقصد الربح فى العالم العربى - مؤسستنا للشرق الأدنى ، مبشرونا ، جمعياتنا للشبان المسيحيين والشابات المسيحيات ، كلية بوسطن اليسوعية التابعة لنا فى بغداد ، كلياتنا فى القاهرة وبيروت ودمشق ، كل هذا سوف يتهدده الإحباط والانهيار الكامل .. وكذلك أيضا سيكون امتيازاتنا النفطية» . وهو سيناريو قال دودج إنه سيساعد روسيا الشيوعية . ثم انطلق دودج ليقتبس من عبارات زميل وصفه بأنه خبير أمريكى فى شئون الشرق الأوسط تقول «إن الروس ينوون إدخال آلاف مؤلفة من الشيوعيين الروس اليهود إلى الدولة اليهودية الفلسطينية» وبرغم أن دودج أحال بشكل عابر إلى المحرقة - الهولوكوست اليهودى ولم يكن عمرها قد زاد عن ثلاث سنوات (وقت كتابة مقالته) إلا أنه بدا ناسيا العواقب السيكولوچية والتاريخية الناجمة عنها بالنسبة للاجئين اليهود الأوروبيين فى فلسطين ، وفيما اعترف بأن العرب لن يقبلوا قط بدولة يهودية ، إلا أن دودج ناشد اليهود أن يلقوا أسلحتهم ويدخلوا فى محادثات مع العرب . وتنتهى المقالة باقتباس من

الإنجيل يقول «لا بالقوة ولا بالسطوة ولكن بروح من عندى هكذا يقول رب الجنود» ولم يبد دودج واعيا بما كان يراود يهود فلسطين الذين عاشوا فى معسكرات الموت من كوابيس وهم يقرأون العهد القديم بعيون مختلفة عن عيون مبشر بروتستانتي .

فى الخمسينات عاد دودج مؤقتا إلى الشرق الأوسط ليعيش فى القاهرة ومنها سيسافر إلى كل دولة عربية فى المنطقة وكذلك إلى اليونان وتركيا وباكستان والهند ، يقضى عيد الميلاد فى الخرطوم ، ويكتب فى القاهرة دراسة عن جامعة الأزهر ، ويشرف على نشر مقالات عميقة عن المسلمين فى العصور الوسطى ، ويحضر مؤتمرات وحفلات شاى يقيمها طلابه السابقون بالجامعة الأمريكية فى بيروت . ويحتفل به باستمرار فى كثير من العواصم العربية ويملأ مذكراته بأوصاف عن بازارات «لكناو» ★ وعن الطيور الغريبة فى آسيا . كان دودج يحصد ثمار حياة مكرسة للعرب وللثقافة الإسلامية . إسرائيل كانت المكان الوحيد فى المنطقة الذى لم يكن قط ظاهرا على خط سيره فى كل رحلاته . وعندما توفى دودج فى عام ١٩٧٢ قال صائب سلام رئيس وزراء لبنان من راديو لبنان إن «بايارد» دودج فهم الشعب اللبنانى

★مدينة فى شمال الهند . «المترجم»

والشعوب العربية ، كان واحدا منهم وعاش قضاياهم الاجتماعية والتربوية والقومية ..» كان دودج ، شأنه شأن العرب ، غير مستعد لا عاطفيا ولا سياسيا ، للتعامل مع حقيقة دولة لليهود فى الجزء من فلسطين الذى منح لهم بمقتضى قرار التقسيم للأمم المتحدة .

كان دودج يمثل بامتياز فى هذا الصدد جالية بيروت بأكملها ، ذلك لأن المبشرين البروتستانت الأمريكيين ، على نحو ما يلاحظ ريتشارد كروسمان ، عضو البرلمان البريطانى الذى شارك فى فريق أنجلو أمريكى للتحقيق فى مشكلة فلسطين فى عام ١٩٤٧ «كانوا يعارضون قضية الصهيونية مستندين إلى جميع الحجج التى كان يطرحها بصورة أعنف المسئولون البريطانيون المؤيدون للعرب فى الشرق الأوسط» . وإلى حد ما فعل أيضا نفس الشئ أبناء هؤلاء المبشرين ، ولنصغ إلى آرثر كلوز الذى تخرج من دير فيلد وبرنستون وأصبح من الموظفين الأمريكيين فى الشرق الأوسط .

«لقد جعلت اسرائيل من عملى أشد صعوبة ، أتذكر اليوم الذى فتحت فيه السفارة السوفيتية أبوابها فى دمشق وما كان لذلك أن يحدث بسهولة لو كان ثمة حل مختلف لمشكلة فلسطين . ومن دواعى الأمانة التامة أن أقول إننى تصورت أن خلق دولة

اسرائيل كان خطأ ، فمن الناحيتين المنطقية والأخلاقية أنا أستطيع أن أرى كيف كان يشعر اليهود بعد الهولوكوست ، لكن حل مشكلتهم تم التوصل إليه بصورة غير نزيهة ، إن الولايات المتحدة والبريطانيين والسوفيت خططوا للوصول إلى تقسيم فلسطين من خلال الأمم المتحدة» .

الباب الثانى

على أرض الواقع

الفصل الخامس

الدبلوماسي المحترف

في سبتمبر ١٩٤٧م كتب لوى هندرسون مدير مكتب الشرق الأدنى وشئون أفريقيا وجنوب آسيا في الخارجية الأمريكية إلى وزير الدفاع جورج مارشال يقول : «إن تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية أمر يعارضه عمليا كل موظف في السلك الدبلوماسي أو في وزارة الخارجية ممن سبق له التعامل مع قضايا الشرق الأدنى والشرق الأوسط» . والحقيقة أن وزارة الخارجية لم تكن وحدها هي التي تعارض إقامة إسرائيل ضمن المؤسسة السياسية في واشنطن . إن جميع مستشارى الرئيس هارى ترومان لشئون السياسة الخارجية بمن فيهم كثير ممن كانوا يوصفون بالحكماء : مارشال وروبرت لوفيت وشارلس بوهلن وجيمس فورستال ودين اتشيسون كلهم كانوا ضد الاعتراف بالدولة اليهودية الجديدة التى كانوا يرونها عقبة فقيرة نفطيا توضع في مسار العلاقات مع العرب الأغنياء بالنفط والمتمتعين بموقع استراتيجى حاكم ، في وقت كانت الولايات المتحدة تنطلق

فيه إلى غمار صراع على الساحة العالمية مع الاتحاد السوفييتى. لكن لم يكن منهم من تمسك برأيه متشبثا على نحو ما فعل هندرسون وزملاؤه الدبلوماسيون فى مكتب الشرق الأدنى بوزارة الخارجية . وعندما بات واضحا أن ترومان لم يكن ليثنيه أحد عن تأييده لإسرائيل ، عمد كل من لوفيت ومارشال وغيرهما من الحكماء إلى سحب معارضتهما واصطفا من خلف الرئيس لدرجة لم يكن ليفعلها هندرسون أو وزارة الخارجية بحال من الأحوال . وعندما أذيعت أنباء اعتراف ترومان بإسرائيل هتف دبلوماسى أمريكى كان منتدبا فى البعثة الأمريكية بالأمم المتحدة فى نيويورك قائلا فى أسى : لا يمكن لهذا الأمر أن يكون . وعمد دبلوماسى آخر هو فيليب إيرلاند وكان قد مارس التدريس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى موازاة الصهيونية بالنزعة النازية وبعد أشهر من الاعتراف ، وعندما كانت إسرائيل تحارب فى ربيع ١٩٤٨م حاول هندرسون وزملاؤه جاهدين منع وصول الأسلحة إلى اسرائيل .

ومن الذكريات ما يستعيدها باركر هارت وهو مستعرب أصبح فيما بعد مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى فيقول : «إن خبراء المنطقة حز فى نفوسهم كثيرا ما وقع فى عام ١٩٤٨م ،

كنا قد بذلنا جهودا هائلة لوضع الأساس لقيام علاقات طيبة مع العرب . وإذ كنا في موقع متقدم في هذا المضمار بوغتنا بما حدث. وذهبت كل آمالنا أدراج الرياح» .

ويقول دبلوماسي آخر هو كارلتون كون : «كان المخضرمون من المستعربين يعرفون أنه لو كان التصويت على قرار التقسيم قد سار في منحنى آخر .. لأصبح العالم العربي مهيئا تماما للتغلغل السياسي وللإخصاب الثقافي الأمريكي لكن شهدنا أيام الوجود الأمريكي المرغوب وقد انقضت .. ووقر في أذهان البعض أن اسرائيل جاءت لتفسد كل شئ» .

أما الرئيس ترومان فكان لديه في مذكراته ما يلي : «خبراء وزارة الخارجية المختصون بالشرق الأدنى كانوا بغير استثناء لا يكنون الود لفكرة دولة يهودية .. بعضهم كان يتصور أنه ينبغي تسكين خواطر العرب بحكم تعدادهم وفي ضوء حقيقة أنهم يسيطرون على كل هذا القدر من موارد البترول .. ومنهم من كان يجنح إلى أن يكون معاديا للسامية» .

بيد أن مسئولي الخارجية الذين عايشوا تلك الحقبة ولا يزالون على قيد الحياة لهم تحفظاتهم على هذه الأحكام ، ولا

يكتفـون بإنكار صحتها بل يقـولون بأن ترومـان كان يعرف حق المعرفـة أن هندرسـون ورجاله مـا كانوا مـعـادين للسـامـيـة . والحاصل كما يؤكد هؤلاء المستعربون المحنكـون أن ترومـان كان يمارس لعبة السـياسة الداخلية ويدغدغ حـواس يهـود أمـريكا تطمينـا لمخاوفهم ولو على حساب الدبلوماسية المحترفة .

من ناحـيـة أخـرى ، لا يذكـر هؤلاء المخـضـرمـون أنهم لم يكن لديهم ببساطة لا الاسـتعداد ولا حتى القـدرة على تـخيـل مـحارق الهـولوكـوست النازية ضـد اليـهـود بنفـس الدرجـة التى كـان يتصورها بها ترومـان وكثير من الأمريكيين .. وكان المستعربون فى هذا أقرب إلى أسلافهم من جيل المبشـرين البروتسـتانت ومن سـواهم مـن وافدى الأمـريكان على منطقة الشـرق الأوسـط ، وهنا يـعـتـرف السـفـير السـابق سـتـولفـوز قـائلا : كـان اليـهـود بالنسـبـة لنـا يمثلـون عالما متباعدا وغير حقيقى فى حين كان الفلسطينيون أفرادا من لحم ودم تعرفهم بـأعيـانهم . قـارن هذا القـول بنظـير له حول الرئيس ترومان يشير إليه مستشاره كلارك كليـنـورد فيقول : كان ترومـان يشجب وجود الجيتو (مـعـازل أو حـارات اليـهود) واسـتـمرار الاضـطهاد الشـديد ولم يتـخلص من الشعور بالروع عندما يذكر مصرع نحو ستة ملايين يهودى على

يد النــازى وكــان على وعـى تمامــا ببـؤس الحــاجـة التى كـان يعيشـها مئات الآلاف من اليهـود الذين تشــردوا بسـبب الحـرب العــالمية الثـانية ، على أن المشـاعر العاطفيـة إزاء الهولوكـوست الذى وقع فى أوربا لا ينبغى بالطبع أن تؤثر على موقف المرء نحو الأوضـاع فى الشرق الأوسط . ومن الناحية الأخـلاقية المطلقة .. يستطيع المرء أن يبرر هذا التـحذير بوضـوح ، فلمـاذا يتـعين على العرب أن يعاقبوا عن جرائم أوربية بينمـا لم يشهد العالم العربى قط أيا من المشـاعر التقليدية من العداء المسيـحى للسامية ؟ لكن هذه المشـاعر لم تؤثـر فـحسب على المواقف السيـاسية فى عـام ١٩٤٧ و ١٩٤٨ بل إنهـا أدخلت، كمـا تكشف فيمـا بعد، تـصورا عميقا ينفذ إلى تطورات الأمور فى الشـرق الأوسط فى تلك الفترة، وهى تطورات لم يفلح فى استيـعابها وقتـها فيـما يبدو موظفو الخارجية الأمريكية .

إن جســامة حـجـم الهولوكوست .. أطلق عقال عملية تاريخية لم يكن التدفــق الضــخم للاجـئين اليهـود من أوربا إلى فلسطين سوى جزء منها ، وهذا الجانب جعل مولد اسـرائيل أمرا مقضيا ببسـاطة وكان هذا الجانب من الوضـوح بمكان لكنه لم يكن كذلك فى نظر المستعربين «الأمريكان» .

مع ذلك فقد كانت تشكيلة عناصر الخارجية مختلفة عن سابقتها (في القرن التاسع عشر مثلا) أي تشكيلة المبشرين البروتستانت ، وابتداء من عقد الخمسينات حدث اندماج بين التشكيلتين فتألف منهما فئة المستعربين التي لن تلبث أن تنقسم بدورها إلى تشكيلة ذات عناصر جديدة .. ومن هنا فلا غنى عن فهم الدبلوماسيين الذين عملوا في مكتب شئون الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وهذا يعني البدء برجل بعينه اسمه لوي هندرسون .

لوي هندرسون كان أكثر من رجل يمثل أحد أعمدة الدبلوماسية الأمريكية بل قد يعد أهم وأبرز دبلوماسي محترف في تاريخ الولايات المتحدة . وكونه لا يكاد يكون معروفا خارج نطاق دوائر الخارجية إنما يقف شاهدا على الدور المحوري الذي قام به ، وعلى تدافع الوقائع الاخبارية اللاهث في هذا القرن ، ثم على السرعة التي تنسى بها تلك الوقائع وما تحويه من تفاصيل . على مدى ما يقرب من نصف قرن ظل هذا الرجل لاعبا من خلف الكواليس فيما يكاد يكون كل دراما دولية شاركت فيها الولايات المتحدة . من ثم فالشرق الأوسط لم يكن سوى فصل من فصول الملحمة التي نسميها الحياة المهنية التي عاشها هندرسون .

جاء لوى وسلى هندرسون من بلدة صغيرة فى ولاية أركنسا، واحدا من توأمين ولدا فى عام ١٨٩٢ لواعظ فقير درس فى ثانوية متواضعة فى إحدى بلدات كنساس وانتقل بعدها إلى جامعة نورث وسترن خارج شيكاغو . واعتبروه غير لائق طبيا للخدمة فى الحرب العالمية الأولى . بسبب إصابته فى ذراعه ، لكنه تطوع فى خدمة الصليب الأحمر حيث عاين بنفسه مدى الفوضى الاجتماعية التى أغرقت ألمانيا و روسيا فى نهاية تلك الحرب ، وقد اختطف الموت التوأم روى الذى مات بمرض فى الكلى ويومها كتب إليه أبوه الواعظ يقول : أما وقد رحل أخوك فإن عليك أن تضاعف استقامتك مرتين . ومن ذلك الحين ظلت حياة لوى هندرسون تندفع بوحى من طيف شقيقه التوأم الذى رحل . وفى هذا السياق يلاحظ الأستاذ هـ . براندز فى كتابه بعنوان : «فى داخل الحرب الباردة : لوى هندرسون وصعود الامبراطورية الأمريكية ، ١٩١٨ - ١٩٦١» : أن كل الملابسات أفضت إلى عمق الإحساس بالواجب إلى حد يملك عليه نفسه بما أدى إلى تضييق مجال رؤيته للأمور وإلى تجاهل نزعة التأمل التى تجعل المرء يتعلم من انتقاد الآخرين .

أصبح هنـدرسون مثل ناسك جزويتى لا يعرف من ملته واعتقاده سوى السلك الدبلوماسى ؛ ذلك الكادر من الدبلوماسيين الذين أمضوا حياتهم المهنية يمثلون أمريكا فى سفارات فى الخارج أو يعملون فى وزارة الخارجية فى واشنطن. بيد أن هندرسون على خلاف سائر الدبلوماسيين ، لم يكن يستبد به فضول الفكر أو الثقافة . لا يكاد يقرأ كثيرا خارج مطالعة البرقيات الدبلوماسية الواردة أو الصادرة ومن ثم فالذين عرفوه كانوا يأخذون عليه افتقاره لروح الدعابة بل وعجزه عن المشاركة فى المشاعر الشعبية السائدة . ومما له دلالة خاصة ذلك الشعور الذى أعرب عنه هندرسون تجاه مدينة نيويورك حين قال : إنها مدينة أجنبية بالنسبة لى شأنها شأن لندن أو باريس أو برلين ، فالذين يجلسون فى المطاعم أو فى مترو الأنفاق .. الذين يدفعونك بالمناكب فى الشوارع أو فى مداخل الدكاكين يبدون وكأنه لا يربطهم فى أى جامع مشترك . ولقد كان من أولى المهام التى أسندت إلى هندرسون فى وزارة الخارجية تحرى الروابط السوفييتية بمنظمات العمل اليسارية فى الولايات المتحدة . وفى ضوء الدور الكبير الذى لعبه اليهود وغيرهم من الأعراق فى تلك

المنظمات فى العشرينات يبدو أن هذه المهمة هى التى أدت إلى تعميق كراهية هندرسون لمدينة نيويورك ولما تمثله من عالم متعدد الأعراق والسياسات .

تتبدى أوجه شبه كبيرة ، فى هندرسون على نحو ما مع رجل آخر اسمه جون ماكلوى تجسد فيه أكثر من أى فرد آخر واقع النفوذ السياسى وأنفة الشريحة العليا من مؤسسة الحياة على الساحل الشرقى للولايات المتحدة ، جون ماكلوى هذا هو أحد عمالقة دوائر المال فى وول ستريت . وقد ساعد فى إدارة وزارة الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية وعين بعد ذلك مندوبا ساميا فى ألمانيا ثم رئيسا للبنك الدولى ورئيسا لبنك تشيس مانهاتن ومجلس العلاقات الخارجية ، كان ماكلوى مثل هندرسون من الطراز الجاد يعمل خلف الكواليس ويجيد تدبير الصفقات دون كثير من تأمل .. ومثل هندرسون كان قد تربى فى عائلة بروتستانتية خاملة ورقيقة الحال .. وهذه الظروف بالذات دفعته إلى أن يكون أكثر من أرستقراطى أمريكى بمعنى أن يتأصل لديه إحساس عميق بالواجب أكثر من زملائه الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب، وثمة صورة التقطت للدبلوماسى هندرسون على عتبات المفوضية الأمريكية

فى بغداد عام ١٩٤٣ يبدو فيها على طبيعته الحقيقية منتصبا فى حلة السهرة السوداء ، يداه معقودتان خلف ظهره ، شاربه مهذب وعيناه مترفعتان بغير أدنى أثر لتردد أو ارتياب .. وبرأسه الأصلع كان أقرب ما يكون إلى هيئة نظيره ماكلوى . على أن الأخير ، وقد كان محور الثناء العاطر قرب ختام حياته ، إلا أنه خضع فى السنوات الأخيرة لعملية مراجعة بوصفه واحدا من أبرز المسئولين عن اعتقال الأمريكيين ذوى الأصل اليابانى خلال الحرب الثانية ومنع الجيش الأمريكى من قصف خطوط السكة الحديد المفضية إلى معسكر اعتقال النازى فى أوشفيتز . ولا مراء فى أن ماكلوى كان يصدر عن نمط محتمل من التحيز ، سواء حين سارع إلى العفو عن مجرمى الحرب الألمان فور أن وضعت الحرب أوزارها ، أو حين عارض بشدة خلق اسرائيل ، كما كان معارضا لأمنها قبل مجئ الليكود إلى السلطة بوقت طويل . وعلى غرار نفس النمط سارت حياة لوى هندرسون التى بدأت بكراهيته لنيويورك والثقافة العرقية اليسارية التى تسودها .

لكن إذا كانت حياة ماكلوى حافلة بأحكام خاطئة فإن أحكام هندرسون ، إذا نحينا الشرق الأوسط ، كانت فى جانب

الصواب بل حتى فيما يتعلق بالشرق الأوسط فإن آراء هندرسون وإن جاءت خاطئة فى بعض الحالات لا يستحيل الدفاع عنها .

لقد عمل هيرمان إيلتس الذى كان سفيرا لدى السعودية ومصر مع هندرسون فى مقتبل حياة إيلتس الدبلوماسية . وهو يصفه بقوله : كان لوى هندرسون رجلا يلتمس الشمول لا التفاصيل والجزئيات . وكان يطل على العالم من منظور كونى .على أنه جاء إلى الشرق الأوسط فى مرحلة متأخرة نسبيا من خدمته الوظيفية وقد وضع الشرق الأوسط بأحكام فى محور تأثيره على الصراع السوفييتى الأمريكى .

وكان هندرسون مع بواكير خدمته ، قد اقتصر على العمل من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٤٢ فى الشئون السوفييتية وشرق أوربا بما فى ذلك السنوات الثمانية التى أمضاها مقيما فى دويلات البلطيق وموسكو .

وقد خلقت هذه التجربة أثرها على مجمل حياته وأتاحت له أن يعمل جنبا إلى جنب مع رجال من طراز جورج كينان وتشارلى بوهلن .

. واكتسب الثلاثة معا سمعتهم بوصفهم أبرع ثلاثة خبراء فى المرحلة كلها مختصين فى أمور الاتحاد السوفييتى حيث خلقوا

سجلا لم يدانيه أحد من بعد من حيث التنبؤ والتحليل .
وفيما كان هناك الكثير من الأمريكيين ، ومنهم جماعة كانت واقعة كما ينبغي لنا أن نقول تحت سيطرة المثقفين اليهود نظرت إلى الدولة الشيوعية الجديدة في روسيا بمنظار وردي ، إلا أن هندرسون وبوهلن استطاعا أن يعاينا ويعايشا أساليب الحرمان والإرهاب التي مارسها نظام ستالين .

بل إن هندرسون إذ شعر بالاحباط إزاء شعبية ستالين في الأوساط الليبرالية بأمريكا ، وجه اللوم في برقية دبلوماسية إلى اليهودية العالمية على أنها مساند مهم للاتحاد السوفييتي .

وفي ريجا عاصمة لاتفيا تزوج هندرسون من سيدة لاتفية حملته على مضاعفة كراهيته للشيوعيين السوفييت والمتعاطفين معهم في الخارج ، وكما كان الحال مع تشارلس كرين عضو لجنة كنج كرين الموفدة بعد الحرب العالمية الأولى إلى بلاد العرب ، يمكن القول بأن مشكلة هندرسون مع اليهود إنما بدأت خيوطها في روسيا ، ولأنه كان يعيش فعلا في موسكو ويشهد مظالم ستالين فقد حضر المحاكمات الصورية التي نصبها وعايش التجارب المقيتة التي كانت فيها العناصر الروسية تختفي في الجولاج «الأرخبيل

على حد تعبير الروائى «سولجنستين» ، فقد أضحى هندرسون أكثر تشككا فى ستالين حتى عن هتلر نفسه ، وأدى ذلك إلى هجوم تعرض له هندرسون علانية من جانب اليسار الأمريكى واليهود متهمين إياه بنوازع فاشية ومعاداة السامية ، لكن وعى هندرسون بحقيقة النظام السوفييتى حمله على التنبؤ منذ ابريل ١٩٤٢ بأن التحالف السوفييتى الأمريكى ضد هتلر يشكل ظاهرة عابرة وأنه قمين بأن يتفكك فور أن تضع الحرب أوزارها .

على أن الأمريكان فى عام ١٩٤٢ ، وبخاصة الرئيس روزفلت كانوا مبهورين بحلفائهم السوفييت الجدد وقت الحرب ، لدرجة لم يكن تفكير هندرسون معها يعد صحيحا من الناحية السياسية ، ونجح الضغط على وزارة الخارجية من جانب عقيلة الرئيس اليانور روزفلت وغيرها من عناصر البيت الأبيض فى نقل هندرسون إلى الشرق الأوسط ، المنطقة الأقل أهمية من العالم حيث كان المتصور ألا يثير هندرسون المتاعب بأن يهاجم ما تواضع عليه الآخرون . يومها قال دبلوماسى أمريكى : «رباه : الشرق الأوسط ، تلك منطقة لا يحدث فيها شئ قط» . مع ذلك فقد شاء قدر هندرسون أن

يصل إلى الشرق الأوسط في نفس اللحظة بالضبط من التاريخ الأمريكي التي أصبحت فيها تلك المنطقة ذات أهمية تاريخية كبرى .

ثمة علاقة كانت تربط بين وزارة الخارجية الأمريكية وبين العالم العربي – ربما على نطاق أضيق : علاقة تعود إلى الأيام الأولى لنشوء الجمهورية الأمريكية .

لقد كان عاهل المغرب الأقصى – العلوى – أول حاكم أجنبي يعترف بالولايات المتحدة بعد الثورة الأمريكية . وفي عام ١٨٢١ في عهد إدارة الرئيس جون كوينس ادامز .. بدأ أول مستعرب في وزارة الخارجية الأمريكية في تعلم اللغة العربية وكان اسمه ويليام هودجسون ، بيد أن الحضور الدبلوماسي لواشنطن في العالم العربي ظل محدودا للغاية حتى نشوب الحرب العالمية الثانية إذ كانت سياسة أمريكا هي التسليم بمصالح بريطانيا في المنطقة والاكتفاء بدعم الجهود التعليمية التي كان يقوم بها المبشرون .. الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة جاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما تفهم الرئيس ودرو ويلسون الرغبة في أن تقوم أمريكا بدور سياسي في سوريا – الشام – وأوفد مبعوثه كرين إلى هناك لهذا الغرض . بيد أن فكرة

ويلسون ما لبثت أن تبددت أمام الضغط البريطانى والفرنسى ، ورغم أن المصالح البترولية الأمريكية التى عمد كرين إلى تعزيزها قد فتحت أبواب العلاقات مع زعماء العشائر العرب قبيل الحرب العالمية الثانية فمع كارثة تحطيم الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور كانت أمريكا لا تزال مستوردا صافيا للبترول ومن ثم كان البترول هو القضية المؤجلة لمراحل المستقبل ، لكن ابتداء من عام ١٩٣٩ فصاعدا ، وفيما كان ستولفوز وأرثر كلوز وأصدقاؤهما وعائلاتهم يغادرون بيروت بدأ الموقف يتغير على نحو درامى مثير .

رايموند هير كان دبلوماسا شابا برتبة سكرتير ثان فى المفوضية الأمريكية بالقاهرة فى الفترة من ١٩٣٩ حتى ١٩٤٢ ومن ثم كان واحدا من حفنة من الأمريكيين الذين عايشوا هذا التحول الجذرى . ولد هير فى وست فيرجينيا ومارس التدريس فى كلية روبرت فى اسطنبول التى أنشأها المبشرون قبيل إنشاء الجامعة الأمريكية فى بيروت - وعندما التحق هير بالسلك الدبلوماسى فى العشرينات لم يكن ثمة مؤسسة ملائمة فى واشنطن لتعليم اللغات ومن ثم توجب عليه ، كما فعل سلفه هودجسون من قبل ، أن يوفد إلى الخارج ليتعلم العربية والتركية فى مدرسة اللغات الحية فى باريس .

يحكى رايموند هير فى مذكرات منشورة فيقول : كانت الحرب هى حياة القاهرة ، كان القوم يقيمون المآدب فيما كان غيرهم يقاتلون فى الصحراء ، وكانت الشرائح العليا من الحياة الاجتماعية تضم أعضاء الأسر المالكة من الهاربين من ممالك البلقان ومعهم مشاهير من نجوم الأدب أمثال لورنس داريل وإيفلين وفرياستارك ، لكن واشنطن لم تكن مهتمة على نحو خاص بالشرق الأوسط ، ولا أدل على ذلك من أنه رغم الحرب الدائرة وقتها بين البريطانيين والألمان لم يكن بالمفوضية الأمريكية ملحق عسكرى ، وتلك مهمة وقعت على عاتق هير شخصيا الذى كان عليه أن يعتمد أساسا على السفارة البريطانية للحصول على المعلومات اللهم باستثناء مصدر خاص به - فى مصر وقتها - يطلق عليه اسما غامضا هو «الطيف» .

لكن فى مارس ١٩٤١ استطاع الرئيس روزفلت أن يقنع الكونجرس رغم اتجاهاته الانعزالية بإصدار قانون الإعارة والتأجير ، وبعده بدأ التحول التاريخى صوب اعتراف أمريكا بأهمية الشرق الأوسط . وسرعان ما عمدت واشنطن إلى دفع كميات كبيرة من الأسلحة إلى مصر كى يستخدمها الجيش البريطانى مما فرض وجودا موازيا وملموسا سواء من النواحى التعبوية أو الدبلوماسية أو الاستخباراتية .

إلا أن شعور الإحباط راود رايموند هير بالنسبة لردود واشنطن على البرقيات التى كان يبعثها ، وبينما كان يشدد باستمرار على أهمية الشرق الأوسط وخاصة منطقة البحر المتوسط فى الحرب ضد هتلر . إلا أن واشنطن، على نحو ما شرح الرئيس روزفلت يوما لرئيس الوزراء البريطانى تشرشل ، كانت ترد بأن السيطرة البحرية على المحيطين الهندى والأطلسى هى الكفيلة فى الوقت المناسب بكسب الحرب . من هنا وقعت مناشدات هيربل والسفير الأمريكى الكسندر كيرك بإمداد البريطانيين فى مصر بطائرات حربية أمريكية ، على آذان صماء فى واشنطن إلى أن سقطت طبرق الليبية بيد الألمان عام ١٩٤٢ .

يومها اندفع الأمريكيون إلى العمل ، وشارك سلاح الجو الأمريكى فى القتال بحلول نوفمبر ١٩٤٢ عندما استطاعت القوات البريطانية أن تصد تقدم الفيلق الألمانى الأفريقى – قوات روميل – عند العلمين فى صحراء مصر الغربية . فى ذات الوقت كانت القوات الأمريكية تنزل على ساحل المغرب مندفعة شرقا عبر الصحراء إلى تونس حيث قدر لها فى ربيع ١٩٤٣ أن تلتقى بالقوات البريطانية الزاحفة غربا من مصر وأمكن للطرفين فى سلسلة من المعارك السريعة طرد الألمان من شمال أفريقيا .

ورغم أن الأمريكان ألفوا أنفسهم فجأة فى موقع السيطرة بالشرق الأوسط إلا أن رايموند هير يضيف متأملا : إن هذه الحقيقة لم تكن واضحة لنا تماما ولا كان واضحا ضخامة الدور الذى كان علينا أن نبادر إلى الاضطلاع به فى المستقبل العاجل . وفى هذه المرحلة الفاصلة بين اكتساب قوة إقليمية وبين القدرة على استخدامها فى أرض الواقع ، شاء القدر أن يدخل إلى الصورة لوى هندرسون .

ومن المستبعد فى ضوء اتجاهات هندرسون وخبراته السابقة بعد أن ترك منصبه فى موسكو وقد كان أحد المراكز العصبية الحساسة أثناء الحرب العالمية الثانية ليعمل فى مركز «عضة البعوض» فى بغداد ، ألا يطوى جوانحه على شئ من الحنق نحو الرئيس روزفلت وزوجته اليانور ، وعلى الليبراليين بالحزب الديمقراطى وعلى اليهود الأمريكيين الذين كانوا وقتها فى جملتهم أعضاء بالحزب الديمقراطى ، كان هندرسون قد بلغ الحادية والخمسين ولم ينجب من زوجته أطفالا بل كانت حياته مكرسة تماما للسلك الدبلوماسى وتلك حقيقة تشهد بها الانهيارات العصبية التى كانت تصيبه أو ربما بسبب الإرهاق فى العمل .

أما بغداد فكانت وقتـها مـحطة متوارية فى خلفية الصورة ، كانت قاعدة تموين للبريطـانيين الذين كانوا يصدون زحف الألمان فى إيران المجاورة بل والسوفييت أيضا ، بيد أن العراق كان قاعدة مضطربة قبل أن يكون موقعا يخيم عليه الهدوء . وقتها تبدد الحلم القديم للراحلة - «جرترود بل» بأن تجعل من ذلك البلد الذى قامت بريطانيا بتصنيعه «دولة عربية» نموذجية . لقد أدت السيطرة البريطانية فضلا عن تنامى النزاع بين اليهود والعرب فى فلسطين إلى تحويل عرب العراق إلى جبهة التعاطف مع النازى .

ففى عام ١٩٤١ قبيل وصول هندرسون بعامين شهدت بغداد انقلابا سيئ الحظ متعاطفا مع النازى يقوده مجموعة من ضباط الجيش العراقى (ثورة رشيد الكيلانى) على أن «فرياستارك» الدبلوماسية البريطانية وأديبة الرحلات التى ورثت إلى حد ما وزن سابقتها «جرترود بل» ، بوصفها سيدة عرب العراق - مس ستارك كما يسمونها كانت ترى مستقبلا واعدا للديمقراطية فى العراق . ولذلك دافعت عن تصرف البريطانيين بوصفه كان لازما لإتاحة الوقت الكافى أمام جنود الملك فيصل الأول أن يكسبوا حربهم الخاصة ضد مدبرى

الانقلاب بغير مساعدة من أطراف أخرى . من اليهود الذين بقوا على قيد الحياة كان إيلي قدوري الذى كانت كوابيس ذكرياته محورا لتدفق كتبه ومقالاته الغزيرة ضد ضباط الشئون العربية البريطانيين المخضرمين . لقد شاهد قدورى كارثة يهود بغداد المعروفة محليا باسم أحداث السلب ، ورآها بمثابة نتيجة مباشرة لتداخل قوم من الهواة فى شئون العراق على امتداد عقود من الزمن من أمثال «مس بل» و «مس ستارك» الذين اخترعوا بلدا وقاعدة للسلطة للسكان العرب المسلمين . ومن ثم كان ينبغى لهم أن يتحملوا المسئولية عن الأقليات التى يهددها هؤلاء العرب . وفى دراسات عن الشرق الأوسط تأتى عبارات قدورى مفعمة بروح الغضب : «كان بوسعهم - اليهود» أن يسلموا طواعية بحق الغزو وطيلة تاريخهم تعلموا أن يؤثروا السلامة لكن هذه الخبرة مع طول أمدها لم تجعلهم يفهمون ضمير الغرب بكل نشوزه وغرابة أطواره .. غرابة المستر فيلبى الذى آل على نفسه أن يتبع هذيانه فيجعل من أى صعلوك رئيسا لجمهورية عراقية أو ذلك العشق الأحمق الذى جال بخاطر المس بل حتى تصورت نفسها حامية حمى امبراطورية عباسية

جديدة أو التعصب المأفون لدى الكولونيل لورانس الذى أقسم بشرفه أن ينصب كل سلالة شريف مكة على عرش من العروش . مع هذا كله فقد كان مصير اليهود فى يد هذه العناصر» .

ولم يكن ثمة من يساند رأى قدورى فى هذا الصدد غير ضابط المخابرات الملحق بالقوات البريطانية فى بغداد سومرست دى شير الذى كتب يقول :

«إن السبل التى تنتهجها وزارة الخارجية تستعصى على فهمى لقد شققنا بالسلاح طريقنا إلى قلب المدينة خطوة من بعد خطوة .. وعلينا أن نريح أقدامنا فى الخارج . وسيبدو الأمر مهينا لحليفنا حاكم البلاد - فيصل العراق - الذى فر إلى فلسطين ساعة وقوع الإنقلاب - إذا ما شاهدوه يعود على حراب البريطانيين» .

بعد أن وصل هندرسون إلى بغداد وأتيحت له فسحة من الوقت كى يستوعب كل حقائق التاريخ أدرك بأنه لن يوجد فى قلبه مكان للتعاطف مع اليهود فى العراق . لقد شعر أن اليهود يتحملون جانبا من مسئولية العنف الموجه ضدهم ، لا لأنهم فقط كانوا متعاطفين سرا مع الصهيونية بدلا من

التعاطف مع الشعور الوطنى العراقى ، ولكن أيضا بحكم ما اتصف به بعض تجار اليهود على رءوس الأشهاد من خيانة للأمانة وطمع وانتهازية وسلوك يحمل على الاعتقاد أنهم يرون أنفسهم اجتماعيا وثقافيا فى مرتبة أعلى من العرب .

لقد كان هذا البغض التلقائى الذى شعر به هندرسون إزاء الجالية اليهودية بالعراق أكثر تطرفا من الاتجاهات المماثلة التى اتخذها المستعربون البريطانيون أو المبشرون وربما كان الأمر فى حالة السفير الأمريكى الجديد يصدر عن جذور مختلفة . ففى حالة المستعمرين البريطانيين لم يكن أمرهم يتعلق بكراهية لليهود بل إن بعضهم مثل لورانس أن يكون محبا للسامية ، لكنهم كانوا يحبون العرب أكثر يدفعهم فى ذلك وشائج من الفن والعلم تربطهم بالثقافة العربية ، فضلا عن شعور دفين بالذنب بأنهم خانوا طموحات العرب بعد الحرب العالمية الأولى ، ولاسيما عندما سمحوا للفرنسيين أن يقتطعوا سورية «الكبرى» . من ناحية أخرى كانت ثمة روابط بين البريطانيين وبين أثرياء العرب . وهذا عين ما يقوله ريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطانى عن بنى جلدته بعد أن كلف بالتحقيق فى المشكلة الفلسطينية عام

١٩٤٧ : من السهل أن ندرك السبب الذى يجعل البريطانيين يفضلون الطبقة العربية العليا على اليهود لأن الانتلجنسيا العربية ذات ثقافة فرنسية وهى طبقة مسلية ومتحضرة وتجمع فى حياتها بين الشجن والملهاة . وبالمقارنة معهم يبدو اليهود كبورجوازيين متوترين ينتمون إلى وسط أوربا بل وألمانيا ، لكن علينا أن نتذكر أن هندرسون رجل لم يقرأ سوى القليل من الكتب ولم يكن لديه قابلية تذكر للتعاطى مع فنون الثقافة التى شغف بها البريطانيون . وكما يقول هيرمان ايلتسن وآخرون : لم يكن هندرسون كثير الشغف بالحضارة العربية . وفيما كان رفيق هندرسون وهو ارشى روزفلت حفيد الرئيس تيودور روزفلت ، وقد أصبح فيمبا بعد فى طليعة مستعربى المخابرات المركزية الأمريكية ، يستكشف فى حماس المواقع الأثرية ومناطق القبائل فى بلاد ما بين النهرين كان هندرسون قابعا فى عقر دار المفوضية يطالع التقارير السياسية .

وعلى خلاف المبشرين لم يكن هندرسون من أصحاب الاتجاه المثالى ، ولم يبد عليه ولا على أى من خلصائه أى اهتمام خاص على نحو ما فعل المبشرون بالحفاظ على

علاقة شخصية مع العرب مع ذلك كان هندرسون موهوبا فى التحليل وسرعة الاستيعاب . وكان قادرا على أن يتناول لفوره الحقائق المتوافرة عن منطقة لم يعرفها من قبل فيضعها ضمن إطار معرفى بحيث تتقاطع مع ما يجرى فى أماكن أخرى من العالم . ولم يطل به الأمر كى يتصور ما عساه يكون الوضع فور أن تنتهى الحرب ضد اليابان والألمان حيث سيكون الشرق الأوسط فوق برميل من بارود .

وكان قاطعا فى تصوره فى عام ١٩٤٣ بأن الموقف بين الطوائف فى فلسطين متفجر ويكاد يستحيل على الحلول ، وأن الصدمات الناجمة عنه سوف تتطاير شظاياها فى كل أرجاء الشرق الأوسط حيث تشوه سياسات المنطقة على النحو الحاصل فعلا فى العراق فى ذلك الزمان .

ولأنه كان متأكدا أنه بعد هزيمة هتلر فلسوف يصبح الاتحاد السوفييتى عدوا لأمريكا على صعيد العالم كله ، فقد تصور أنه ينبغى لأمريكا أن تنظر إلى قضية فلسطين من خلال «فلتر» النضال ضد الشيوعية . وهذا يقتضى أن تؤيد أمريكا الجانب الذى يتيح لها فى فلسطين أن تعزز قدرتها فى التعامل مع السوفييت . وفى رأى هندرسون لم يكن الأمر

محل جدال : فالعرب يملكون البترول والمواقع الاستراتيجية والأعداد من البشر مما كان يتبعه السؤال : وما عدد آبار البترول التي يملكها اليهود في كل حال ؟

في عام ١٩٤٣ كان هذا كله محض تنبؤات حتى ولو تصور البعض أنه كان صادرا عن عدم تعاطف من جانب هندرسون مع اليهود . وفي عام ١٩٤٧ كان هندرسون قمينا بأن يتحقق من أن اعتراف أمريكا باسرائيل سوف «يشترى» لها عشرات السنين من المشاكل والتكاليف بل سيؤدى على حد قوله إلى صعود التعصب الإسلامى بشكل لم يحدث من قبل لمئات من السنين فهل يمارى اليوم أحد فى ذلك ؟

مع هذا فقد ثبت أن هندرسون مخطئ فى شئ واحد فقط وهو : أن أمريكا استطاعت أن تكسب على كلا الوجهين : صداقة مع العرب ومع اليهود لكن الأمر ظل كما تصور طيلة ثلاثة عقود من الزمن وهو ما بقى واضحا بصورة قاطعة حية قبل أن يباشر هنرى كيسنجر سياسة المكوك وتعاد إقامة العلاقات مع مصر وسوريا فى السبعينات .

فى نهاية المطاف فإن موقف المرء إزاء هندرسون إنما يصدر عن تصور لما كانت تحتاجه السياسة الأمريكية من

التصـرف العـقـلانى بغـيـر عـواطـف فى تلك الفـتـرة ، ولأن هنـدرسـون كان قـد عايش الستـالينية لدرجـة لم تتح سـوى لقلة قليلـة مـن بنى وطنـه فلـم يكن تسـاوره أية ـ أوهـام عـن هـوية العـدو الذى سيكون وما عسـاها تكون العدة التى تحشد من أجل هزيمة ذلك العدو .

والحـق أن هندرسـون لم يكـن لديـه اهتـمـام خـاص ، لا بالعـرب ولا بلغتـهم أو ثقـافتـهم أو طمـوحـاتهم الفكـرية أو القومية . بيد أنه كـان يتبنى آراء قـوية بشـأن المصـالح القومـية للـولايات المتحـدة وأيـن يكون موضعها فى الشـرق الأوسط وقد حدث أن هذه الآراء قد تبعت سابقتها من آراء المبشـرين وهـذا التـتـابع بين السـابق واللاحـق هـو الذى نجـمت عنـه ثقـافـة المسـتعربين المـولدة التى نشـأت فـى عقد الخمسـينات .

لقـد تـرقى هندرسـون فـى وظيفتـه عام ١٩٤٥ وكـان ذلك بفضـل مهـاراته فى التحليـل وقوة شـكيمته ونشـاطه ومضـاء عـزيمتـه بدعم من زوجتـه «أليـس» وظل يضـحى بحـيـاته شـخصيا فـداء للعمـل وأداء الواجـب فـأصبح مـديرا لمكتـب شئون الشرق الأدنى فى وزارة الخارجيـة الأمريكيـة . ويومهـا بدأوا يحسـون بقـوة هندرسـون على الفـور . وعنـدما بدأت

الحكومة الفرنسية التى كان يتزعمها وقتئذ زعيم فرنسا الحرة شارل ديجول فى قصف دمشق وسائر المراكز السكانية العربية فى سورية كوسيلة للحفاظ على الانتداب الفرنسى ذهب هندرسون مباشرة إلى الرئيس ترومان وأشار عليه بأن يجبر الفرنسيين على الانسحاب ، ولم يقتصر هندرسون على التفكير فى أن الاجراءات الفرنسية تستهين بروح ميثاق الأمم المتحدة الجديد بل لأنها تهدد أيضا بأن تحرف مسار العلاقات بين الغرب وبين العرب وسائر المسلمين .

وكما شرح هندرسون لرؤسائه فإن بغض العرب للفرنسيين لن يلبث أن يتوجه إلى الغرب بأسره ، ومن شأنه أن يسمح للاتحاد السوفيتى يوما بأن يملأ الفراغ الذى تخلفه الدولة الكبرى فى سورية وهذا بالطبع نفس ما حدث على وجه الدقة .

وفى أوائل عام ١٩٤٦ تقدمت القوات السوفييتية صوب مدينة تبريز ومشارفها فى جنوب غربى إيران ، وكانت تزعم الاستيلاء على المدينة . كانت تلك أولى أزمات ما أصبح يعرف بعد ذلك باسم الحرب الباردة ، لكن كان لوى هندرسون مستعدا . هو الذى شق طريقه يومها إلى

مكتب وكيل الخارجية الأمريكية دين أتشيسون ووزير الخارجية جيمس بيرنز مسلحا بالخرائط لكي يشرح لهما كيف أن انتشار القوات السوفييتية على هذا النحو إنما يهدد تركيا والعراق وحقول النفط الإيرانية . وهو الذى ضغط على إدارة ترومان لكى تصدر تحذيرا متشددا إلى ستالين الذى سرعان ما بادر إلى سحب قواته . وكان هندرسون أيضا هو الذى استجاب إلى فوضى سياسية اجتاحت اليونان بعد ذلك وفى نفس العام المذكور وتحرك بنشاط لحشد استجابة أمريكية قوية لمنع وقوع انتصار للشيوعيين فى اليونان ، من هنا جاء القول بأن مبدأ ترومان الذى كان أقوى من أى وثيقة مماثلة فى تشكيل سياسة أمريكا لمناهضة الامبراطورية الشيوعية قد وضعت صياغاته فى مكتب هندرسون وتحت إشرافه المباشر ، وقد جاء ذلك كرد فعل للحرب الأهلية فى اليونان .

وفى مثل هذا الجو ، حيث كان ستالين يدق بعنف أبواب اليونان ويهدد الأطراف الشمالية من إيران ، قيض لهندرسون أن يواجه مشكلة فلسطين فى عامى ١٩٤٧ و١٩٤٨ . كان يتبع الأسلوب المكتبى فى إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية

الأمريكية وكان مستوعبا بالكامل فى التعامل مع الخطر الشيوعى وقد فعل كل ما استطاع فعله للحيلولة دون صدور قرار تقسيم فلسطين وكذلك دون اعتراف الولايات المتحدة بمنح جزء من فلسطين إلى اليهود . ورغم أن مارشال (صاحب المشروع الشهير) وعناصر أخرى من غير دوائر الخارجية كانوا يؤيدون هندرسون فى سياسته تلك ، إلا أن يهود أمريكا ركزوا كل غضبهم على هندرسون وحده . وفى هذا الصدد قال إيمانويل سيلر ، وهو عضو ديمقراطى بالكونجرس كان يمثل منطقة يهودية مكثفة فى نيويورك : ربما تكون فلسطين موضوعا جديدا ينشغل به المستر مارشال وقد يكون قد استقى معلوماته فى هذا الشأن من المستر لوى هندرسون عاشق العرب ومحترف التخريب ذى البنطلون المخطط .

وبحلول منتصف عام ١٩٤٨ ، وإذ كان ترومان يكافح فى معمعة الانتخابات ، أصبح هندرسون بمثابة عبء على كاهل مرشح الرئاسة الديمقراطى ولم يكن من سبيل لأن يتحمله ، وهكذا قيض لهندرسون أن يدفع ثمن جريمة ارتكبها عندما وقف متحديا ضد المتمسكين بكل ما هو تقليدى ومكروه وكان الثمن هو نفيه من جديد سفيرا هذه المرة لأمريكا فى الهند .

لكن هندرســون لم يكن نادمــا على شئ بحــال : كــان على استعداد لأن يتحمل علنا فريــة معاداة السـامية إذا كان هذا هو الثمن الذى يدفعه من أجل النهوض بواجباته كمسئول فى السلك الخــارجى للولايات المتــحـدة . ثم مـضى لا يلوى على شئ لكى يغرق نفسه فى بحر السياسة الهنـدية ، وعلى نحو ما سبق أن صـادفه بالشــرق الأوسط فقـد وصـل هندرســون إلى نيـودلهى بعد أن أصـبـحت الهند قـضـيـة كبـرى . ومـرة أخـرى عـمـد هندرسـون إلى التـحـدى التـقلـيدى والمتـعـارف عليـه ومنطـق الملاءمـة السـيـاسـيـة عنـدمـا جـرؤ على انتـقـاد زعـيـم الهنـد الجديد الذائع الصيت جـواهر لال نـهـرو : وجـد هندرسـون فى نهرو رجلا مغرورا وشديد الحساسية وعاطفيا ومعقدا فضلا عن إنكاره الجميل إزاء صداقـة الولايات المتـحـدة الأسوأ من هـذا فى رأى هـندرسـون أن كـراهيـة نهـرو لأمـريكا لم تكـن تنبع من اختـلافات فـى السـياسـة بل من خيـلاء تلميـذ تربى فى المدرسـة الإنجليـزية ولم ير فى أمـريكا سـوى ثقـافـة الاسـتهـلاك المادية وفكر الطبقـة الوسـطى ثم أن هندرســون رأى فى حيـاد الـهـند نزعـة خطيـرة بل وتنطوى على خيــانة فكرية ★ كـل هـــــذه

★ عدم أخلاقية الحياد – تلك الفكرة المختلة رددها دالاس بعد ذلك بالنسبة لجمال عبدالناصر «المترجم» .

الطروحات أصبحت فيما بعد مشاعا بين الناس لكن هندرسون كان أول من أشار إليها .

وفى عام ١٩٥١ ترك هندرسون الهند ليصبح سفيرا لدى إيران بعد أن عين الدكتور محمد مصدق رئيسا للوزراء فوعد بطرد البريطانيين ومصالحهم البترولية خارج بلاده ، وعلى مدار الثلاث سنوات التالية أدار هندرسون بنفسه سياسة أمريكا من أجل مزيد من التعاطى مع الشئون الإيرانية ومن ثم من أجل الإطاحة بمصدق عندما أصبحت مغازلاته واضحة مع الاتحاد السوفييتى ، وعلى ذلك تأكدت عودة الشاه إلى مقاليد السلطة فى ظل وجود قوى على مدار ربع القرن الذى جاء من بعد، وكان ذلك بفضل هندرسون نفسه الذى لم يكن مع ذلك سعيدا بالنتيجة ، فقد تنبأ بأنه سيأتى اليوم الذى سيصبح فيه الشعب الإيرانى مبغضا لأمريكا بقدر الكراهية التى أبداها نحو بريطانيا .

وأفضى حدث الإطاحة بالدكتور مصدق إلى إنشاء حلف بغداد بوصفه تحالفا بين دول الشرق الأوسط المعادية للشيوعية وعين هندرسون سفيرا لدى الحلف الجديد فى عام ١٩٥٥ كما شارك هندرسون فى أزمات

السويس والكونغو وغيرهما ، أما آخر مأمورية مهمة قام بها هندرسون في الخارجية الأمريكية فهي الإشراف في الخمسينات على إعادة تنظيم السلك الدبلوماسي كي يصبح قائما على الدبلوماسيين المحترفين قبل أن يقوم على الصفوة المحظوظة فيما أرسى الأسس التي قامت عليها عملية التحول الديمقراطي الحقيقية التي كانت جديرة بأن تشهدها الخارجية الأمريكية في عقد الثمانينات.

وفي نهاية خدمته كان أقران هندرسون ينظرون إليه ، وهو الموظف المحترف ، حتى النخاع بوصفه الرجل الذي لم يسمح للاعتبارات السياسية بأن تلون أو تصبغ المشورة التي يسديها والذي استطاع أن يشق طريقه إلى أعلى بفضل ما بذله من جهد دءوب وإخلاص وتفان في أداء الواجب .

ولقد كان مرؤسوه ينظرون إليه بوصفه نموذجا لما عساهم يصبحون - خاصة وأن هندرسون لم ينجب أطفالا مما جعله يتحلى بنظرة أبوية نحو شباب السلك الدبلوماسي الذين كان يرى فيهم ورثة يأتون من بعده .

يمكن القول بأن لوى هندرسون هو مخترع ثقافة وفكر الدبلوماسية الامريكية في العقود الأولى من حقبة ما بعد الحرب.

وكانوا يسمونه على محمل الود «مستر فورين سيرفيس» وكأنه التجسيد الحي للدبلوماسية وسلك الخدمة الخارجية وهو لقب لايزال علما عليه ويستخدمه زملاؤه السابقون حين يتناولونه بالحديث . وفيما تحمل قاعات غرف الاستقبال الدبلوماسية فوق سطح الخارجية الأمريكية أسماء مؤسسي الدولة الأمريكية فإن ثمة قاعة عامة واسعة في الطابق الأرضي تحمل اسم هندرسون . وعندما أعلن وزير الخارجية هنري كيسنجر إطلاق اسم الرجل على تلك القاعة في عام ١٩٧٦ أثنى على هندرسون بوصفه «الجوهر الذي يجسد ما يجعل السلك الدبلوماسي أداة عظيمة ومتفانية من أدوات سياستنا القومية » .

ولا يمكن أن يكون ثمة برهان أعظم عن المسافة اللامتناهية التي تفصل بين الخارجية الأمريكية وبين الدولة اليهودية من حقيقة أن الرجل الذي شن حربه الشعواء لمنع الاعتراف بها هو ذاته الرجل الذي يرى فيه أنداده أنه يمثل أعظم مقاييس المهنة التي ينتمون إليها . وفيما يعد لوي هندرسون وغدا زنيما في نظر الاسرائيليين واليهود الأمريكيين ، إلا أنه يظل شهيد التجاهل والجحود العام بنظر موظفي السلك الدبلوماسي الأمريكي .. كان هندرسون من طراز الصفوة

الكلاسيكية التى تنفذ إلى جوهر الأمور . كان يدرك أن الرأى الشعبى المحلى لا مكان له عند حساب المصالح القومية ذلك لأن الجمهور العام يفتقر إلى الحقائق ومهارات التحليل وخبرة الحياة فيما وراء البحار مما أتيح بوفرة له ولزملائه .

أفلم يكن هو على حق – فيما أخطأ جميع هؤلاء المثقفين اليهود – بشأن الطبيعة الحقيقية للشيوعية ؟

وبرغم أنه ما من أمرئ على يقين من المرة الأولى التى استخدموا فيها مصطلح «مستعرب» – أرابيست – فى أمريكا فى معرض الاستهانة لكى يصدق على من يؤيد العرب من الناحية السياسية ، إلا أن هذا التعريف الجديد والسلبى بدأ مع لوى هندرسون رغم أنه لم يكن يتكلم العربية بل ولم يمض فى العالم العربى سوى عامين فقط من أعوامه العملية التسعة والثلاثين . ★

ومنذ أوائل الخمسينات فصاعدا ظل التعريفان اللذان يصدقان على مصطلح «مستعرب» يتعايشان جنبا إلى جنب : تعريف السلك الخارجى والمبشر البروتستانتى المستعرب الذى يتكلم العربية بطلاقة وتوافرت لديه تجربة حياتية يعتد

★ توفى هندرسون فى عام ١٩٨٦ .

بها فى العالم العربى ، ثم التعريف الآخر على مستوى العامة وخاصة بين عامة اليهود : ذلك الذى أحب العرب وفعل ذلك غالبا لأنه يكره اليهود .

وهذا الحكم ارتبط بدوره مع تهم بالاستعلاء الطبقى أو الاجتماعى .. ويوضح أحد رؤساء منظمة محافظة فى واشنطن هذا الأمر فى معرض المقارنة بين خبراء شئون أمريكا اللاتينية وبين المستعربين فيقول : إن «المتأسبن» - المختص فى الاسبانية - يشير إلى معانى اللاصفوة .. بل يرتبط ببارونات المخدرات وبثقافة محلات السوبر ماركت المكونة من سبعة إلى أحد عشر طابقا وذلك بحكم علاقتنا الوثيقة مع العالم اللاتينى .

أما العربية فهى من الناحية الأخرى لغة بعيدة عنا .. وصعبة ومن ثم يحوطها الغموض ، والتضلع فيها يوحى بالقدرة على الدخول إلى طبقة حاكمة عليا حيث لا ترحيب بدخول اليهود ولا من على شاكلتهم من الامريكيين .

ولأن مستعربى الخارجية الأمريكية كانوا جميعا أفرادا ممن كانوا يصدرون باستمرار على مدار الزمن عن خلفيات مختلفة ، فإن سبر أغوار الحقيقة عنهم هو من الصعوبة

بمكان ، فضلا عن أن أهميته تتجاوز بكثير كلا من التعريفين السابقين لمصطلح المستعرب وإن كانت جذورهما السياسية غاية في الوضوح ، فعند إنشاء اسرائيل توجه مستعربو الخارجية الأمريكية إلى الشرق الأوسط وقد استقر وطيدا في أذهانهم نموذج لوى هندرسون وما أن استقروا في مواقعهم الخارجية حتى بدأوا يتأثرون بالقيم التي كانت تسود دوائر المبشرين المحلية .

الفصل السادس

المخضرمون

فى مذكراته التى كتبها بعنوان «مهمة فلسطين» كتب السياسى البريطانى - ريتشارد كروسمان يقول : أتصور أن بوسعك العثور على شخص تكون هوايته هى مراقبة الطيور يقف فى موقع التباعد عنها فيما يحدق فيك مباشرة ، إن خبير الشئون العربية يتصف بنفس السمات .

فى عام ١٩٤٧ عين كروسمان عضوا فى اللجنة الأنجلو - أمريكية التى تولت التحقيق فى مسألة فلسطين وكان عضوا فى البرلمان البريطانى بغير خبرة سابقة عن الشرق الأوسط ولا العرب ولا اليهود . وقدر له فى القدس والقاهرة أن يلتقى بمستعربين بريطانيين وأمريكيين لأول مرة فى حياته .

وهنا يقول كروسمان : إن المستعرب شأنه شأن من يعكف على مراقبة الطيور .. استطاع أن يتحرر من

السوقى والمبتذل ، من إيقاع المادية فى عالم الغرب والتمس اللجوء إلى سكينة داخلية . ويمضى كروسمان قائلا : المستعرب وقع فى غرام العرب لأنهم أتاحوا له أن يتوحد مع القيم العالية التى يفتقدها فى وطنه الأول حيث كان محكوما عليه أن يبقى محروما من تحقيق الذات ، لكن ها هو وقد وجد نفسه فى الشرق الأوسط ولقد عقد العزم دون أن يعرف السبيل إلى ما يتبعه كى يوائم بين الحضارة الغربية وبين الثقافة العربية . لقد تعلم بذاته أثمن قيم فى الحياة من العرب .. لكنه هو ذاته أيضا يعرف كوامن الضعف عندهم ، وكم يشعر بالإحباط إزاء ما يراه فيهم من خمول ومن فساد فى طبقاتهم العليا ، وفوق ذلك من تكريس الحضارة الغربية التى كثيرا ما يتبناها العرب المتعلمون ، من هنا فهو أولى من غيره بانتقاد العرب لأنه يفهمهم حق الفهم . بيد أن نقده هذا إنما يصدر عن فرد ربط مصيره بقضاياهم .

فى سجل حوليات السلك الدبلوماسى الخارجى كتب «كارلون ستيفنز كون» يصف نفسه بأنه «آخر سفير من طراز القرن التاسع عشر» كان يجلس (فى مقابلة)

المؤلف معه فى بيته الريفى المسور بالخشب فى وادى فرجينيا وقد زينت الجدران من خلفه بأقنعة الشيطان المجلوبة من الهند وكأنها تذكر المرء بذلك المتجر الذى كان يعمل فيه «لورغان صاحب» بطل رواية «كيم» . والمعروف أن السفير «كون» كان هو الذى تولى من وراء الكواليس صياغة دليل السياسة الخارجية للرئيس الأسبق ريجان في أوائل عام ١٩٨١ . وقد ذكر أنهم عينوه فى أكثر من منصب لسفير تتويجا لحياة دبلوماسية حافلة قضاها فى الشرق الأوسط وشبه الجزيرة الهندية ، إن «كون» يعتنق آراء فى السياسة الخارجية شديدة الاختلاف عن آراء رونالد ريجان ، ولكن حقيقة أنه كان جزءا من فريق مرحلة الانتقال إلى عهد ريجان نفسه ، إنما تشهد بالأسلوب الذى يمكن أن يؤثر فيه عنصر الاحتراف المهنى على أكثر الرؤساء البعيدين عن هذا الاحتراف .

يوضح السفير «كون» أنه اختار موقعه في كاتماندو (نيبال) لأنه أراد أن ينساه الآخرون ، كان ذلك فى الثمانينات ، ولما تكن سفارة أمريكا فى نيبال قد زودت

بهواتف بعد ، بل كانت السفارة تستخدم أسلوب البرقيات العتيق . ولهذا «فلم تكن واشنطن لتعير التفاتا إلى ما كنت أفعل فيها يا إلهى ! كم كان الأمر رائعا ! ناهيك عن تعيين زوجتى جين وهى بدورها دبلوماسية محترفة ومخضرمة سفيرة لدى بنجلاديش المجاورة . ولهذا كنت أنتهز عطلة نهاية الأسبوع لأطير إلى دكا أو تطير إلينا جين فى كاتماندو أو نذهب معا للاستكشاف فى الصين وبوتان ، فقد كان السفر متعة لنا» .

السفير السابق «كون» يتحدث بلهجة حادة مفعمة بالحفاوة تنم فى غموض عن روح الأمريكى البسيط تجمع بين المودة والارتياح .. هى نفس اللهجة التى كانت تشيع فى خطابات چورچ بوش ، طبعا مع مراعاة قواعد النحو . ذلك لأن السفير «كون» مثل بوش ، خريج أكاديمية فيلبس فى ماساشوشتس الواقعة فى حرم دير اندوفر القديم ، الذى انتقل فى أواخر القرن التاسع عشر إلى ضاحية نيوتاون فى مدينة بوسطن . وفيما ذهب بوش إلى جامعة ييل بعد أن خدم كطيار فى الحرب العالمية الثانية . فقد ذهب كون إلى هارفارد وهو يصغر الرئيس السابق بثلاث سنوات ، بعد خدمة

قصيرة فى الجيش ، بيد أن قصة كون تبدأ مع والده الذى يمكن أن يعد واحدا من أصفى العقول التى أنجبتها أمريكا .

ولد كون الأب عام ١٩٠٤ فى ويكفيلد فى ولاية ماساشوشتس وبعد أن طردوه من ثانويتها أرسله البربر إلى أكاديمية فيليبس حيث كان يثير المشاكل باستمرار ، وفى هارفارد كان بمثابة صاروخ غير موجه لكنه فى هارفارد أيضا التقى بعالم فى الانثربولوچيا ، هو أرنست البرت هوتن الذى أوقد شعلة بين جوانح الفتى كون بكتابه المعنون «من القرد إلى أعلى» وهنا يضيف الابن السفير كون قائلا : هكذا انغمس أبى فى النظريات العرقية ، فى تلك الأيام التى كانوا يحترمون فيها التقسيم إلى أجناس وأعراق .. الأيام التى كان يهرع فيها علماء الانثربولوچيا إلى أفريقيا والشرق الأوسط مسلحين بخرائط ورسومات لألوان بشرة الإنسان وقوالب لقياسات الدماغ . طبعا ليس لك أن تستعيد هذه السيرة فى أيامنا هذه وإلا وصفوك بأنك عنصرى فالموضة فى مجتمعنا اليوم أن لا تعترف بأن الشعوب والثقافات يمكن أن تكون مختلفة .

بيـد أن كون الوالـــد ما لبـث أن أصـبح مـشدودا بالذات إلى «شـعب الريف» وهـم قـوم شـقـر مـن قـبـائل البـربر ذوى العيـون الزرق ، ولم يكد يعرفهـم أحد ويسكنون جبال أطلس فى المغرب ، وكانوا أيامها يحـاربون المستـعمرين الفرنسيين . وكان والدى – يضيـف السـفير كـون – يعجـب بالمحـاربين المغاويـر ولا يسـتـهويه صنـف البشر المساوم فى بحر السياسة . كان أبى مـن طـراز البريطانيين فـى القـرن التاسـع عشـر الذين شدهم الإعجاب بمحاربى البـاتان ، قبـائل المقـاتلين بشـراسة الذيـن شهـدتهم حـدود أفغانسـتان مـع الـهند البريطانية . ثم وقـع كـون الأب وزوجتـه الجـديدة وكانت فـى العشـرين مـن العمـر فيمـا كان فى الثانيـة والعشـرين فـى قبضـة مـحاربى الريـف المغـربى عـام ١٩٢٦★ الذين تصـوروهـمـا مـن الفرنسـيين وشـرعوا يتنـاقشـون فيمـا بينهـم كيف يجهـزون عليهـما . ولما كان كـون يتحـدث فرنسـية شـديدة الركاكة فقـد خـلص رجـال القبـائل إلى أنهمـا بالفعل أمـريكيـان حسـب زعمهمـا ، وسـرعان ما عقـد والـدى صـداقات مع أحد أبنـاء

★ الإشارة هنا إلى ثورة جبال الريف بقيادة عبد الكريم الخطابى (المترجم) .

منطقة الريف اسمه محمد الأمنبهى بل عاد به إلى ماساشوستس عربونا للصداقة ولمزيد من الدراسة . وعلى أساس حكايات الأمنبهى كتب الأب روايتين بعنوان «رجل من جبال الريف» و«لحم الثور البرى» ومازالت ذكريات طفولتى تستعيد هذا الامنبهى الذى ما لبث أن عاد إلى المغرب ومات بعدئذ مسموما .

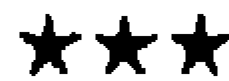
(ولأن الأب والأم كانا فى حال من الترحال الى أماكن بعيدة يجمعان كل مايصل إلى أيديهما من أغراض وعينات، فقد تولت جدة الطفل رعايته حتى يشب عن الطوق). كان وضعنا المالى محفوفا بالخطر. كان أبواى يحملان عصا الترحال كلما توافر فى أيديهما المال من هذه المؤسسة أو تلك. وحين لا يكونان على سفر كان بيتنا يسوده جو غريب حيث احتساء الشراب فى إطار من الخفة والسخر معهود فى أجواء هارفارد .

ولم يكن أبى يتوقف عن اختراع النظريات ولن أنسى ما حييت كيف أخذ يرقب باتريس لومومبا زعيم الكونغو الوطنى على شاشة التليفزيون إبان أزمة الكونغو عام ١٩٦٠ وكانت أصابع أبى تتحرك وكان بوسعك أن تلمح كم يود من صميم قلبه أن يضع هذه الأصابع على جمجمة لومومبا فيما هتف لحظتها قائلا: هذه ليست

جمجمة من الكونغو! . نشر كون الأب أكثر من ٣٠ كتابا يعد بعضها من بين افضل مؤلفات الرحلات والاثنوغرافيا في أوائل ومنتصف القرن العشرين. وكان الأب كذلك جاسوسا أثناء الحرب العالمية الثانية لمكتب الخدمات الخاصة الذى أنجب وكالة المخابرات المركزية فيما بعد، وكان من الطبيعى أن يضع عن المكتب مؤلفا بعنوان «حكاية من شمال أفريقيا» : عالم الانثربولوجيا عميل لمكتب الاستخبارات ١٩٤١-١٩٤٣» . ولقد ذهب أبى الى ذلك المكتب متطوعا بغير أدنى تردد ولو لم يكن المكتب قائما لأنشأه أبى وعمل فيه.. لقد كان من الطراز المغامر.. والوطنى أيضا .

رجل من هذا الطراز كان جديرا بأن يظل اسمه مذكورا عند كل من يتعاطى الأدب والثقافة لكن الأمر على خلاف ذلك فى الواقع، لأن الثقافة الأمريكية ليست على شاكلة نظيرتها البريطانية حيث لا يزالون يكرسون أسماء كتاب أدب الرحلات ومؤلفى الانثربولوجيا الوصفية. خذ مثلا كتابه المنشور عام ١٩٣٥ بعنوان «المقاسات فى اثيوبيا والفرار الى اليمن» والعنوان يشير الى قيام كون الأب بأخذ مقاسات مقادير كبيرة من رءوس البشر فى أثيوبيا طاردوه ليطردوه خارج الحبشة فولى وجهه شطر اليمن حيث صادفه حظ احسن إذ وجد عينات بشرية وحيث يصف الأمر

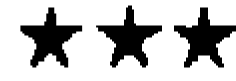
بقوله: ها. أنذا أمثل خليطا من الساحر والمهرج وراهب الاعتراف. وكم يخطىء القوم إذ يظنون أن ما أتمتم به من أرقام إذ أقيس أدمغتهم ، إن هو إلا صلوات أرددها وكثيرا ما يسعد الفرد منهم أن يشعر بقدر من أهمية وهو من غمار الناس عندما تؤخذ قياسات رأسه . ومعظمهم يتصورون أن أبى به مس من الجنون ولكن من حسن الحظ أنهم يتسامحون مع الجنون فى تلك البلدان بأكثر مما يفعل القوم ببلدى . مثل هذه السطور الساخرة يمكن أن ترقى إلى سخرية الكاتب «إيفلن دو» فى مؤلفه «سكوب» أو تتوازى مع روبرت بايرون، فى الطريق إلى اوكسيانا لكنها تتضح أيضا بشيء آخر يستدعى الى الخاطر واحدا من أعراف الكتابة البريطانية ذلك هو الحنين الى بلاد العرب - أرابيا التى اجتذبت كون الأب بقوة وما شده اليها سوى الجهامة التى تكسوها والفراغ الذى ينبسط فى أرجائها .



إن تفاؤله بالنسبة لبلاد العرب لم يكن بغير أساس فبفضل خدمات يهودى من اليمن اسمه «اسرائيل» ظل كون الأب ينعم بأيام هانية إذ يعكف من طلوع الشمس الى غروبها على أخذ مقاسات رؤوس من الجنس السامى. وفى هذا السياق يكتب

«كون» الأب قائلا: والحق إنه بغير «اسرائيل» هذا فلست أدرى ما عسانا كنا فاعلين فى اليمن.. ذلك لأن اليهود يعرفون عن العرب بأكثر مما يعرف العرب عن أنفسهم . لكن برغم أن كون الأب أحب يهود المشرق بكل ما يتفردون به إلا أنه كان أقل شغفا بالدولة الجديدة فى اسرائيل . وهو يذكر فى كتابه «*القافلة*» أن عام ١٩٤٨ ما لبث أن شهد حدثا انتكس معه تيار تصفية الاستعمار عندما ارتدت مسيرة التطور فاستطاع الإسرائيليون أن يخلفوا البريطانيين فى فلسطين وهم لا يزالون هناك.. وكتاب «القافلة» يعد أفضل كتب كون الأب.. وهو عمل فكرى ينفطم على سطوره كثير من المستعربين الامريكيين إذ يستخدمون الجغرافيا لتفسير الخصائص الثقافية لشعوب الشرق الاوسط على اختلافها. وفى ذلك الكتاب يثنى كون الأب على الاسلام باعتبار أنه أتاح الدرجة المثلى من البقاء والسعادة لملايين من البشر وسط بيئة كانت تزداد مسغبة وحرمانا. وهنا يعود المؤلف مؤكدا على استهانة مخيفة بالحياة العصرية وهو مايشيع بين صفوف المستعربين وبين مؤلفى أدب الرحلات على السواء يقول : الجغرافيا تجلب الاستقلال.. والتكنولوجيا تهزمه . ومن ثم تراود البعض الهواجس بالدعوة الى عالم واحد نعيش فيه فى ظل علوم

التكنولوجيا . ولو كنا فى عالم واحد.. فأين يعيش المتمردون؟ وبغير المتمردين.. كيف يظل العالم واعيا وفى غاية التأهب .



صدر «القافلة» عام ١٩٥١ . لكن «كون» الابن السفير يقول بحزن إن الكتاب بات الآن وكأنه ينتمى الى عصر هيرودوتوس مؤرخ اليونان القديم.. والابن يبدو بدوره قطعة من شظايا ذلك البناء القديم: قد ينكر هذا .. لكن بيته فى واشنطن أقرب ما يكون الى روح ذوق أبيه: بيت من النوع الذى يرتاح فيه رجال من طراز الأب أو حتى من طراز رديارد كبلنج شاعر الانجليز فى الهند البريطانية : كل الجدران مغطاة فى السقف بألوان تجليد الكتب القديم ثم مساحات هائلة من الأرضيات ، ربما أوسع مما فى بيت السفير بيل ستولفوز مغطاة بدورها بسجاجيد من أبدع ما أنتج الشرق.. ويفسر كون هذا الأمر بقوله إن الدبلوماسيين يعشقون السجاجيد كما تعشقها قبائل التركمان سواء بسواء لأنها فى غالب الأحيان هى متاع القبائل الرحل يحملونها من مكان الى مكان فى أرجاء العالم المعمور ويودعونها من ثم تلك المساحات الحميمة المقربة الى أفئدتهم .

السفير «كون» تبع خطى أبيه فى الدراسة فى أكاديمية فيلبس

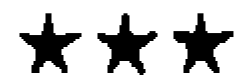
ثم في جامعة هارفارد لكنه قرر الالتحاق بالسلك الدبلوماسى لأنه أقرب الى ما كان عليه الأب وإن جاء مختلفا وهو يقول إن أبى كان سعيدا بهذا القرار .

هكذا جاء يوم الفاتح من سبتمبر ١٩٥٢ حين وصل «كون» الى دمشق، وهو يتذكر التاريخ إذ استقبله يومها فى المطار واحد آخر من عشاق السلك الدبلوماسى هو ويليام ايجلتون ويقول : كانت تلك أول مرة التقى فيها مع ايجلتون ومن يومها ونحن من اخلص الاصدقاء . ولقد قدر ايجلتون أن يلعب فى الثمانينات دورا مهما فى علاقات أمريكا مع العراق .

أمضى كون السنوات الأربع التالية فى دمشق وكانت تلك فترة طويلة لشاب فى العشرينات من العمر، ولم يقتصر الأمر على أن المكان ضم كون وايجلتون بل كان هناك أيضا بيل ستولفوز وارثر كلوز وعدد آخر من الأمريكيين المستعربين . وهنا قد يحتاج السياق الى قدر من التفاصيل لرسم معالم الجو السياسى الذى كان يسود المكان باعتبار أن سوريا فى الخمسينات كانت عالما قائما بذاته لا يضم دمشق أو حلب فحسب بل يشمل أيضا الجامعة الامريكية فى بيروت القريبة من المكان بعد أن أصبحت بيروت جزءا من دولة لبنان المستقل، يقول السفير «كون» لقد أثرنا غضب السوريين الشديد وكانت تلك تجربة جديدة بالنسبة لهم.

وقلما تعرضت علاقة بين بلدين الى ذلك التحول السلبى فى مدى قصير على نحو ماحدث فى العلاقة بين الولايات المتحدة وسوريا . ذلك لأن العلاقة الأمريكية السورية انقلبت رأسا على عقب ما بين عام ١٩٤٦ حين كان لوى هندرسون الأمريكى يدافع عن حقوق السوريين ضد قوات ديجول الفرنسية، تماما كما سبق للرئيس ويلسون وصديقه تشارلس كرين الدفاع عن السوريين ضد الفرنسيين والبريطانيين ، وما بين عام ١٩٤٧ حين أعلن ترومان تأييده لقيام دولة يهودية. هكذا أفضى قرن بأكمله شهد محبة وعطفا وحدبا من جانب المبشرين الأمريكيين الى جانب العرب السوريين الى تصادم بليل مع إحدى الطروحات المتأصلة فى صميم الليبرالية الغربية مجسدة فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين . هكذا تحولت نظرة السوريين الى الامريكيين من المستوى الأرفع الذى كان حتى عام ١٩٤٦ الى المستوى الذى رأوا فيه الأمريكيين بوصفهم عناصر الخطر التى تهدد كيانهم بالتجزئة والتقسيم. كان الفرنسيون قد اقتطعوا لبنان واقتطع البريطانيون شرق الأردن ثم ها هم اليهود يكملون ما شرع به البريطانيون لكن بدعم أمريكى هذه المرة، باقتطاع فلسطين . من هنا جاءت صيحات وحدة الصف العربى ضد اليهود، وكانت تقصد مبدئيا

على الأقل، دعوات إلى إعادة قيام سوريا الكبرى لكن فيما كان السوريون يتوقون الى عودة فلسطين فضلا عن سائر المناطق السليبة إلا أنهم كانوا يلقون اشد الصعاب فى أن يكملوا مسيرتهم ذاتها، إذ كان الفرنسيون قد منحوا استقلالا ذاتيا للعلويين فى الشمال الغربى وللدروز فى الجنوب. لكن فى وقت الاستقلال الذى حان بعد ربع قرن من ذلك التاريخ أعيدت هذه المناطق فجأة لتتوحد تحت حكم دمشق مما زاد الكيان السياسى صعوبة وتشوشا .



وثمة خرافة عمدت إلى إذاعتها عن سوريا وسائل الإعلام الأمريكية التى تعوزها ذاكرة التاريخ. وتابعها فى ذلك مؤيدو اسرائيل محاولين إبراز فرق محتمل بين ديمقراطية الدولة اليهودية وبين عدم ديمقراطية الدول العربية.. توهم تلك الدراسة بأن سوريا بلد لم يشهد أهله من العرب تجربة فى الديمقراطية أو فى سيادة القانون، وهذا مخالف الحقيقة على طول الخط على نحو ما يشهد به أى مستعرب أجنبى عاش فى سوريا الخمسينات ، فليس من بلد عربى عاش مثل سوريا تجربة الديمقراطية على الطراز الغربى ومارسها بكل حرية وإخلاص وسط ظروف غير مواتية على كل

حال وكان ذلك فى الاربعينات والخمسينات ، بل تشهد ذاكرة التاريخ بأن فشل الديمقراطية جاء أوثق اتصالا بتركة الاستعمار الاوروبى أى بعد إنشاء اسرائيل جزءا منها قبل أن يرتبط بخصائص تاريخية أو ثقافية فى صميم تكوين السوريين أنفسهم.

فى يوليو عام ١٩٤٧ كان هندرسون قد ساعد على وقف القوات الفرنسية هجماتها على سوريا. ورغم أن نفوذ فرنسا وهو يسعى إلى تقسيمها كان لا يزال محسوسا فإن سوريا أجرت انتخابات عامة وكانت النتيجة متوقعة بالنسبة لبلد كان قد تشكل لتوه من واقع مجتمعات سياسية متنازعة .. وقد فاز الحزب الوطنى الذى يتزعمه شكرى القوتلى بأصوات تفوق ما حصلت عليه أى جماعة أخرى، لكنه لم يكن قادرا إلا على تشكيل حكومة أقلية فيما ذهب النصيب الأكبر من الأصوات لصالح مختلف المستقلين الذين كانوا يمثلون شتى المصالح العرقية والاقليمية . ولكن تحت السطح كان الواقع أدهى وأنكى سبيلا، ويذكر حبيب كحالة فى كتابه «مذكرات نائب» لقد أجلت النظر من حولى فلم أر سوى حزمة من المتناقضات ، كانت المهانة التى ألحقتها اسرائيل بالجيوش العربية فى حرب الاستقلال عام ١٩٤٨★ قد ألحقت

★ هى حرب سلب فلسطين فى الادبيات العربية المعاصرة. «المترجم» .

الضعف بالحكومات المنتخبة ديمقراطيا وعندها دبر حسني الزعيم رئيس الاركان السورى انقلابا فى ٣٠ مارس ١٩٤٩ وهو أولى الحلقات من سلسلة استيلاء العسكريين على السلطة فى مرحلة ما بعد الحرب الثانية بالعالم العربى يومها رقصت الجماهير فى شوارع دمشق.

«حسنى الزعيم» لم يكن يمتلك أى سياسة متجانسة ، تتيح له التوفيق بين الانتماءات السورية المختلفة على الصعيد الداخلى التى ورثها عن سوريا تحت سيطرة الفرنسيين . سرعان ما أطيح به فى انقلاب عسكرى آخر - بل وحوكم «حسنى الزعيم» عسكرياً وأعدم رميا بالرصاص . وما لبث الحكم العسكرى التالى أن أعاد من جديد عملية تنظيم انتخابات وطنية جديدة لم يقدر لها أن تتم إلا فى عام ١٩٤٩. وجاءت نتائج التصويت على نفس شاكلة التشتت التى جاءت عليها فى عام ١٩٤٧ مما دفع بهذه التجربة الديمقراطية الأخيرة الى هاوية الفوضى بسبب احتدام التنافس بين الطوائف المختلفة التى أشتد عودها على أيام الفرنسيين .

من هنا اتسمت تلك الفترة بالاضطرابات والتظاهرات على نحو ما يكثر حدوثه فى المجتمعات الديمقراطية ، لكن الذى كثر حدوثه أيضا كان.. الاغتيالات السياسية على أن هذه الفوضى انتهت فى ديسمبر عام ١٩٤٩ عندما استولى العقيد .. أديب الشيشكلى على السلطة فى انقلاب عسكرى جديد .

كانت مقدرة الشيشكلى على إعادة النظام الى نصابه دافعا لكى يطلق عليه المراقبون الأجانب وصف «أتاتورك العالم العربى» لكن كان الشيشكلى وليس غيره هو الذى بدد تصورات الأجانب بأن بوسع سوريا أن تجد طريقها نحو الاستقرار . ففى عام ١٩٥٣ أعرب عن اسفه علنا لأن سوريا ما هى إلا الاسم الرسمى الحالى لبلد يقع ضمن الحدود التى سبق وأن رسمها الاستعمار. والمشكلة أن الرجل كان على حق فيما يقول .

في عام ١٩٥٤ أطيح بأديب الشيشكلى.. ذلك لأن اتجاه الشيشكلى أغضب عناصر مختلفة داخل الجيش وخارجه مما دفعهم الى التخلص من الرجل .

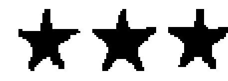
ولم تنقض أشهر قليلة حتى جاء خريف ١٩٥٤ ليشهد السوريين وقد أجروا انتخابات برلمانية حرة ونزيهة. وجاءت نتائجها أقرب ما تكون الى انتخابات الجزائر فى عام ١٩٩٢ التى أوصلت الأصوليين الأسلاميين قاب قوسين أو أدنى من السلطة ، جاءت لتشكل دليلا على أن الديمقراطية الغربية لا تتيح حلا سريعا لأدواء المجتمعات العربية. لقد فاز بأكبر عدد من المقاعد المستقلون والطائفيون فيما جاء على رأس الفائزين منذ انتخابات عام ١٩٤٩ حزب البعث وهو جماعة جديدة حاولت أن تتخطى

الانقسامات العرقية والدينية من خلال طروحات تدور حول اقتصاد على الطريقة الشيوعية وسياسة موالية للاتحاد السوفييتي.

وكما قدر (للدبلوماسى الأمريكى) هندرسون وصحبه أن يشهدوا فظائع الستالينية، أصبح هذا الجيل الجديد من موظفى السلك الدبلوماسى الأمريكى شاهدا علي ظاهرة جديدة ومؤلمة لم يكن ليفهمها سوى قلة من الأمريكيين .

لقد كان «كون» وزملاؤه شهودا على نضالات سوريا ومن ثم اخفاقها فى أن تخلص نفسها من التركة الثقيلة التى تخلفت عن تاريخ الاستعمار العثمانى والاوربى على السواء، وهو تاريخ كانت الدولة الصهيونية الجديدة تقف دائما شاهدا عليه على مسافة أقل من ساعة بالسيارة من دمشق - قامت وهى تتألف الى حد كبير من مهاجرين أوروبيين جاءوا بأساليب غربية تتحدى بعنف الثقافة العربية - الإسلامية الأصيلة بدلا من أن تتواءم معها. و لم يكن هؤلاء المهاجرون اليهود بحاجة الى مدارس تبشيرية ولا آلات طباعة لكى تعلمهم كيف تكون الوطنية أو القومية. ثم زادت جراحات الجالية الامريكية الوافدة الى سوريا عندما استطاع الاسرائيليون بسرعة ويسر أن يقيموا دولة على غرار الأسس اللبرالية الغربية، بينما عجز عن ذلك عرب سوريا برغم أكثر من

قرن من المساعدات التى تلقوها من المبشرين البروتستانت. وألقت هذه الحقيقة بظلالها على الدبلوماسيين الأمريكيين وبعضهم كان ينحدر من عائلات تبشيرية . وكانوا يتفاعلون بدورهم مع جالية الوافدين...



كانت اسرائيل هى أبرز الأسباب لا لمعاناة سوريا السياسية، فحسب ، بل لكراهية السوريين التى أضمروها لأمريكا .. كراهية شديدة لأنها كانت مستجدة وغير متوقعة ثم أنها كانت قد بدأت تدفع السوريين نحو السوفييت ، عدو أمريكا رقم واحد ..

ولم تكن تلك كراهية عمياء فقد كان الدبلوماسيون يعرفون ما لم يكن يعرفه الأمريكيون الآخرون: إن الاسرائيليين ليسوا كما يتصورهم الأمريكى العادى فرسانا فى دروع متألقة ولا كان السوريون من فصيلة الوحوش مثلا، كان ألفرد ليروى اثرتون (السفير فيما بعد فى مصر) دبلوماسيا شابا بسوريا فى الخمسينات على نحو ما كان «كون» واجلتون وستولفوز، ولكنه لاحظ أن الكيبوتسات (المزارع الجماعية) الاسرائيلية التى يطلق عليها النار الجنود السوريون من مرتفعات الجولان، لم تكن بالضحايا البريئة على نحو ما صورته أجهزة الاعلام الامريكية

يقول : صحيح أنهم كانوا مزارعين اسرائيليين لكنهم لم يكونوا مجرد مزارعين عاديين.. لقد كانوا من الفئة شبه العسكرية ولم يكن وجودهم مقصورا على أرض اسرائيلية بل على خط الهدنة حيث كانوا يعمدون الى استفزاز السوريين. ولهذا طرحت وجهة النظر السورية لدى عودتي الى واشنطن. وشعرت في ذلك الوقت بالتعاطف مع العرب مدركا أن للاسرائيليين كثرة من المتعاطفين وإنهم أقدر على أن يدبروا أمورهم بأنفسهم .

بيد أن الحياة اليومية في سوريا كانت بدورها درسا حول ما يمكن أن يساعد به الطابع القومي – الوطني في زيادة الاحوال تفاقما . وهنا نعود الى كارلتون كون.. يقول: ثمة عقدة نفسية كانت خليقة بالسوريين . أتذكر استعراضا عسكريا خرجت فيه دبابة عن مسارها فقتلت واحدا من المشاهدين . ولأنه تصادف وجود سائح امريكي في المنطقة يحمل كاميرا تصوير فما كان منهم إلا أن اعتقلوه .. والحق أن لكل من السوريين والاسرائيليين القدرة على تصور وقوع الظلم . ويحتاج الأمر الى أن يخترعوا درجات جديدة علي مقياس «رختر» لقياس الاهتزازات العاطفية عند الشعوب السامية في الشرق الاوسط .

يواصل «كون» الحديث قائلا :

أتذكر حفل استقبال فى دمشق ظل فيه صحفى سورى يلقى على مسامعي محاضرة حول أمريكا وكيف أنها تعمل على نشر سرطان يأكل قلب العالم العربى.. ويومها انفجرت مجيبا : إن اسرائيل جاءت لتبقى لأنه ما من طرف خارج الشرق الأوسط عازم على التخلص منها . وأنتم أيها القوم لا تملكون لا العزم ولا الارادة على أن تفعلوا ذلك بأنفسكم. ساعتها رمقتنى نظرات المستعربين الآخرين فى القاعة متهامسين : لقد تهاوى «كون» . لأننى فقدت هدوئى . وساعتها عرفت أننى لم أقدم حقيقة على الخطوة الأخيرة التى تجعل منى مستعربا حقيقيا وهو ما كنت جديرا أن أكونه نظرا للخلفية التى عاشها والدى .

من ناحية أخرى ذكر «كون» فى حديث منشور آخر أن اسرائيل تخرب الجو أمام الدبلوماسيين الأمريكيين فى المنطقة . وقال أن من الوضوح بمكان فى أعين المتفاعلين مع الحقائق أن انشاء اسرائيل ربما كان أخطر العوامل المنفردة التى أضرت بسياسة أمريكا ومصالحها فى الخارج منذ أحداث الحرب العالمية الثانية وأن لهذا العامل آثاره على المدى البعيد .

«إن ما تفعله اسرائيل بالنسبة لمصداقيتنا ولمركزنا لا فى دول العالم العربى وحده بل فى كل أنحاء العالم الثالث لأمر فى غاية الوضوح لكل من ينظر إليه ويمعن فيه التفكير» .

وقال «كون» كذلك : «ثمة أجزاء من الشرق أردت أن أزورها خلال فترة خدمتي» . وعليه فقد حزم «كون» متاعه في صيف ١٩٥٦ في سيارته الفورد «الستيشن واجون» وسافر بها برا الى العراق ثم إيران وأفغانستان وباكستان «الى جيث مركزي الجديد في نيودلهي» ويومها قال : «لقد اضطررنا الى تغيير ١٣ إطارا معطوبا في السيارة طوال رحلتنا» لكنه ما لبث أن عاد في عام ١٩٦٣ الى الشرق الأوسط بوصفه قنصل الولايات المتحدة في مدينة «تبريز» شمال غربي إيران . وهو يصف الأمر بقوله : «كان ذلك رائعا . تبريز كانت في أوج ٨٠٠ سنة من الانحدار» .

ثم عاد «كون» الى العالم العربي ليخدم في المغرب . وبعد تقاعده مضى جانبا من وقته لتحرير مذكرات «دانييل بليس» مؤسس جامعة بيروت الأمريكية ولأن «كون» لم يتقن العربية قط بل وأمضى ردحا طويلا من خدمته خارج العالم العربي فهو معروف بأنه «مستعرب» الشرق الأدنى أو «مشد» وهو أقرب الفصائل الى المستعرب الحقيقي . بل ان «كون» يعرف هذه الفئة «مشد» بأنها أفضل مكتب بالخارجية الأمريكية ذلك لأن المسئولين في مكتب شرق أوروبا لم يقدر لهم التعامل مع أي شعب في عام ١٩٨٩ ولم يقتل بينهم سفير . أما موظفو الشرق الأدنى فهم

يعرفون معنى اطلاق الرصاص أو معنى التعرض لحمى الصحافة والاعلام .

كل هذه الطروحات تساق عفو الخاطر بغير مرارة أو سوء قصد . إن «الدبلوماسى كون» يدرك أنه أنجز خدمة ناجحة فى السلك الدبلوماسى الأمريكى . وهو يلحظ زائره من مسافة متباعدة وبنفس مطمئنة كما لو كان يفحصه بمنظار مكبر ويفسر الأمر بقوله : إن حياته خارج الوطن وهبته قدرا من الحكمة مما حصنه ضد «ادعاء الثقافة» وتعاطى السياسات المحلية فى أمريكا . وتلك متوالية مترابطة الحلقات يعدها «كون» نعمة يشكر ربه عليها .

«تالكوت ويليامز سيل» شخصية أخرى ما زالت موضع ترحيب، شأنه شأن معاصريه من رفاق الصبا من أمثال بيل ستولفوز وآرثر كلوز ، وقد يضاف اليهم جورج بوش أيضا برغم أنه صوت ضد بوش فى الانتخابات الرئاسية حتى رغم اتفاقه بشكل عام مع الرئيس السابق فى سياسته الشرق أوسطية . إلا أن سيل - كما يعمد بنفسه الى التوضيح «ليس رجل البعد الواحد فى أى قضية». إن بيت سيل فى منطقة واشنطن تتجلى فيه الآثار المادية التى تنبئ عن حياة أمضاها فى العالم العربى : سجاجيد شرقية ومنمنمات وصور محفورة عن الأراضى المقدسة وكتب

قديمة عن الشرق الأوسط . وهو يقول : إننى أقرأ كثيرا من الكتابات الجديدة عن المنطقة ولكن احيانا أعود الى الكتب القديمة مثل كتاب چورچ أنطونيوس بعنوان «يقظة العرب» . وعندما يبلغه زائره (مؤلف الكتاب) أنه بسبيل وضع كتاب عن «المستعربين» إذا بالسيد سيل وهو سيد مهذب مولود فى بيروت عام ١٩٢١ يبتسم بعمق ويرد بتوجيه سؤال : هل قرأت «شواطيء الحب البرية ؟» .

هذا العمل من تأليف «بفرلى بلانش» ، عبارة عن كتاب خامل الذكر حول أربع نساء من العصر الفيكتورى فى انجلترا يحاولن - كما قد نقول - وضع شخصياتهن فى بيئات فريدة وغريبة كمن يبحثن كما يقول الكتاب المذكور عن ذلك الذى تلاشى من الغرب .. ذلك الذى يشدهن اليه فى باطن اللاشعور . ذلك الجو الشرقى من الاستغراق فى التأمل .. من الاستبطان .. فى كينونة الأشياء وكيفيتها حيث تصل الأشياء إلى جوهرها فإذا به حالة من السكون اللذيذ اقرب الى الشهوة .. وأبعد تماما عما يعرفه الغرب. لكن صاحبنا «سيل» ليس من أهل الترف اللذيذ. وبرغم ان خدمته كانت عاصفة فى بعض الأحيان أوصلته بعد ترك السلك الدبلوماسى الى صدامات عنيفة مع الجماعات الموالية لاسرائيل ، إلا أنه وصل فيما يبدو الى حالة الجوهر والكيف الخاصة به رغم

أنه ينكر بشدة أنه رجل رومانسي بل يفضل أن يصف نفسه بأنه : «برجماتي، واقعي وصاحب قضية ويقول : إن الزخارف التي تزين بيتي من صنع زوجتي .. ولا يكاد يهمني جمع التحف الشرقية.. وعندما كانت تذهب الى السوق في الشرق.. كنت أقبع كرياضي- في ملعب التنس .

الخلفية العائلية للسيد «سيل» تبدو وكأنها تاريخ الحركة البشرية البروتستانتية في العالم : جده الأعلى لأبيه كان رئيسا لكلية أمهرست حينا كان دانييل بليس تلميذا بها. وجده الأعلى لأمه كان من أوائل المبشرين في تركيا والعراق. هذا الجد بالذات، ويليام فردريك ويليامز المولود في عام ١٨١٩ - عام ابحار أول مبشرين الى الشرق الاوسط. اصبح أخوه ويليز ويليامز مبشرا في الصين، وهو الذي عمل بفضل اتقانه الصينية واليابانية مترجما للكومودور «بيري» الذي فتح اليابان أمام التجارة في عام ١٨٥٢. ويفسر «سيل» الأمر فيقول : لقد تعهد جدي الأعلى بأن ينذر ولديه لخدمة الرب فذهب أولهما الى الصين واتجه الآخر الى الشرق الأوسط .

علي أن «سيل» بل وكل مستعرب من أبناء جيله يشعر بقرابة دم تربطه مع موظفي شئون الصين.. في الخارجية الأمريكية -

هؤلاء المبشرون البروتستانت وأخلافهم الدبلوماسيون فى الصين، الذين تعرضوا لنقد عنيف، شأنهم شأن المستعربين فى عقد الخمسينات . وفى هذا يقول «سيل» : نحن جزء من نفس شجرة العائلة . وفى رأيه أن موظفى شئون الصين وقعوا فريسة بين براثن المكارثية فيما وقع المستعربون بين مخالب اللوبى الجديد الموالى لاسرائيل . وفيما كانوا يتهمون موظفى الصين بأنهم أضاعوا الصين لصالح الشيوعيين فقد ألصقوا بالمستعربين صفة معاداة السامية. ويتساءل صديق للدبلوماسى «سيل» من ضيع الصين ؟ ومن عارض قيام اسرائيل ؟ أنه نفس الاتهام فى الحالتين أن كل مافعله موظفو شئون الصين أنهم كانوا يبلغون عن حقيقة ما يجرى : طغمة شيانج كاى شيك كانت فاسدة وماوتسى تونج كان فى طريقه للاستيلاء على الصين، وكذلك فعلنا - أبلغنا عما كان يجرى حقا وصدقا فى الشرق الأوسط (جورج بوش، الذى كان أكبر دبلوماسى أمريكى بالصين فى السبعينات يمكن اعتباره من متأخرى اختصاصى الصين. لكن لأن بوش لم يتعلم الصينية قط فقد يوصف على نحو أدق بأنه من النوع ذي الاهتمام الصينى وقد يفسر هذا تدليله للنظام الشيوعى إبان فترة رئاسته).

وصل ويليامز فردريك ويليامز، جد «سيل الأعلى إلى سوريا فى عام ١٨٤٩ فى سن الثلاثين، وفى عام ١٨٥١ انتقل الي

الموصل حيث تمكن بعد سنتين من ذلك التاريخ من انقاذ حياة الحاخام شوليوم رئيس الطائفة اليهودية الذى اعتقله المسئولون العثمانيون بتهم فظيعة . الأمريكيون فى الشرق الأوسط كانوا متعاطفين بعامة مع يهود المشرق ، سواء كان هؤلاء الأمريكيون من المبشرين امثال صاحبنا ويليامز أو من الباحثين - المغامرين مثل «كون» الابن.. بعد ذلك انتقل المبشر ويليامز الى ماردين قرب حدود سوريا - تركيا حاليا حيث تمكن من حيازة بعض العاديات الاشورية التى لا تقدر بثمن بعد اكتشافها فى حفريات نينوى القديمة. وقد توفى ويليامز فى جنوبى تركيا عام ١٨٧١ بعد أن عاشر أربع زوجات على التوالى وماتت كل منهن بعد المرض فى الشرق الاوسط وعادت إحدى بناته الى نيو انجلند حيث تزوجت قسيسا هو ويليامز شامبرز - جد الدبلوماسى «سيل». وقد غير شامبرز مذهبه بإلحاح من زوجته وتخرج فى جامعة برنستون ثم توجه كمبشر الى شرقى تركيا ناسجا على منوال حميه المبشر ويليامز .

شامبرز هذا كان شاهد عيان على مذبحة الأرمن الجماعية. وقد كتب نداء مؤثرا الى الرئيس الأمريكى ويلسون يحث فيه على انتهاج سياسة اكثر فعالية لأمريكا فى المنطقة . وكان شامبرز

ايضا على معرفة وثيقة بالضابط البريطاني شارلس دوتي ابن أخ دوتي (رائد الاستعراب) وسميه أيضا وكان الصديق المفضل للمستشرقة «جرتود بل» التي عملت في العراق .

وقد ولدت أم الدبلوماسي «سيل» في «أرضروم» في جنوب شرقي تركيا حيث مقر ابيها. وعندما كانت تمضي دراستها العليا في الشئون الاسلامية في جامعة كولومبيا بنيويورك التقت بوالد «سيل» لورنز سيل، الذي كان بدوره ابنا لكاهن.. وانتقل الزوجان الى بيروت عام ١٩١٩ حيث حصل والد «سيل» على وظيفة استاذ علم النفس والفلسفة بالجامعة الأمريكية في بيروت .

وقد نشأ «سيل» في بيروت في العشرينات وهو يبادر الى القول : «كانت نشأتي في لبنان أمريكية الفين في المائة ولقد قاومت بعنف تعلم العربية في طفولتي ثم تعلمتها مثل أي موظف آخر بالسلك الدبلوماسي». وبخلاف ذلك فإن ذكرياته تشع عاطفة نحو بيروت الغافية والمسالمة وإذ كان يحف به الخدم من الأرمن وهم لاجئون من الاضطهاد التركي. ثم يقول : لقد تغيرت الاوضاع. إن اسرائيل هي واحد من العوامل التي أدت الى تسييس لبنان .

عندما عاد «سيل» إلى منطقة اسلافه في نيو انجلند درس في معاهد نورثاستون وماساشوستس وكانتون – نيويورك قبل أن

يتوجه ليدرس فى اكاديمية «ديرفيلد» وكلية «أمهرست» لم يكن فكرة العودة ثانية الى الشرق الاوسط تخطر فى باله - عودة يكرس فيها حياته وعمله على نحو ما فعل أبوه وجده وجد ابيه. إلا أن الحرب العالمية الثانية جاءت لتشهد «سيل» وقد تحولت به الاقدار للخدمة فى ايران قبيل زحف ستالين على تلك المنطقة . وقد ساعد لوى هندرسون - الدبلوماسى الامريكى علي الحيلولة دون اتمامه) وبعد أن انخرط سيل فى السلك الدبلوماسى - الامريكي - ارسلوه الى المانيا المحتلة حيث كان «جون ماكلوى» مفوضا ساميا. كان ماكلوى من الحكماء من امثال هندرسون وماكلوى وجورج كينان وتشارلس بوهلن وعندما جسروا على أن يتناولوا فى تقاريرهم الجوانب السلبية من الواقع الروسى ، فقد استهدفت نفس السهام طائفة المستعربين - من الدبلوماسيين الامريكيين - من أبناء جيله لانهم جسروا على أن يتناولوا فى تقاريرهم الجوانب الايجابية من الشئون العربية .

يقول «سيل» : إنه تراوده مشاعر مختلطة إزاء خدمته فى المانيا بعد الحرب نظرا لما فعله النازى فى اليهود «ولقد اتجهت الى الشئون العربية أساسا إذ كان ثمة عدد ضخم من المواطنين الامريكيين المتحدثين بالألمانية ولذلك كان الشرق الاوسط فرصة

سانحة لمستقبل مرموق. لكن في ضوء تاريخ عائلي أحسب أن علاقتي بالعرب علاقة متوازنة ولقد فقدنا في امريكا ميزة الاسرة الممتدة الى بطون وفروع - لكن العرب لايزالون يحتفظون بهذه الميزة على مدى أجيال .

إن «سيل» ليس المستعرب الوحيد من جيله ممن خدموا شبابا في السلك الدبلوماسي في المانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية نفس التجربة خاضها رفيقان له - هما «باركر هارت» و «الفرد ليروى اثرتون» وكلاهما أصبح في المستقبل مساعدا لوزير الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط فضلا عن أفراد آخرين من المستعربين وجميعهم يدعو أن هذا النشاط شحذ إحساسهم بمعاناة اليهود وشجعهم علي الاهتمام بالنزاع العربي - الاسرائيلي يقول قائلهم : في المانيا أصبح واضحا أن الشرق الاوسط سيكون ساحة العمل الفعال في المستقبل .. ولهذا اردت أن أذهب الى هناك ! إما حقيقة أن كلا منهم طلب انتدابه للعمل في العالم العربي وليس في اسرائيل فتفسرها مقتضيات المهنة إذ كانوا ينظرون الى اسرائيل منذ مولدها على أنها طريق مسدود لأفراد السلك الدبلوماسي، فلماذا يتعين مثلا على الدبلوماسي أن يتعلم العبرية التي لا تفيد إلا في بلد واحد بينما لو تمكنت من

العربية فلسوف تفتح أمامك أبواب أكثر من عشرين قطرا ؟ مع هذا كله فلا يزال الأمر جديرا بالملاحظة أن يطلب «سيل» وزملاؤه بعد معايشة التجربة فى المانيا - بعد هتلر - ومازال رماد اليهود ساخنا ، الالتحاق بوظائف السلك الدبلوماسى فى العالم العربى خلال السنوات الأولى من الصراع العربى - الاسرائيلى.

فى عام ١٩٥٢ غادر سيل المانيا عائدا إلى مدارج صباه فى الشرق الأوسط ولم يكن قد رآها منذ الثلاثينيات قبيل التحاقه بأكاديمية ديرفيلدز وهناك وجد كل شئ حميما ومألوفاً. أول موقع له كان فى عمان فى الأردن حيث تسنى له رغم تواضع مركزه الدبلوماسى أن يتمتع بعلاقات خاصة مع نصف مجلس الوزراء إذ كان نصف الوزراء تلاميذ سابقين لوالده فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، على أن سيل لم يتلفت إلى الوراء قط . فبعد أن تعلم العربية على يد مدرس فلسطينى وجد نفسه يمضى السنوات الثلاثين التالية بوصفه دبلوماسيا أمريكيا فى العالم العربى دون انقطاع ، اللهم باستثناء مهمة هنا أو مأمورية هناك بوزارة الخارجية الأمريكية حيث كان عمله يدور فى معظمه على العلاقات العربية - الأمريكية وإن كان قد عمل مساعدا أقدم لوزير الخارجية للشئون الأفريقية .

على طول هذه المسيرة اكتسب سيل ما يمكن اعتباره آراء المستعربين التقليدية . اكتسب إعجابا بمستعربى الماضى من البريطانيين وشعر أن إزاحة الاسرائيليين للفلسطينيين العرب - من فلسطين هى المشكلة المحورية فى الشرق الأوسط ، وهى المسئولة إلى حد كبير عما يستبد بالمنطقة من عنف وزعزعة للاستقرار . يتكلم سيل متدفقا عن أحداث أكتوبر ١٩٧٣ عندما كان سفيرا فى تونس ، يومها أرسل برقية إلى وزير خارجيته هنرى كيسنجر ينصحه فيها أن يرسل أسلحة للدفاع عن اسرائيل بعد أن باغتها هجوم مصر وسوريا .

ورغم أن كيسنجر وجه اليه اللوم على ذلك ، إلا أن كيسنجر كان أول من يعرف مقدرة سيل ومهارته كاختصاصى فى الشئون العربية ومن ثم أوفده كمبعوث خاص إلى لبنان عام ١٩٧٦ بعد اغتيال السفير الأمريكى فرانسيس ميلوى - وفى بيروت عمل سيل جاهدا لتدبير الإجلاء دون ضجة كبيرة للدبلوماسيين الأمريكيين وعائلاتهم وسط احتدام الحرب الأهلية، بيد أنه تعرض للنقد بغير حق إذ استخدم فى هذه العملية رجال أمن من منظمة التحرير الفلسطينية ويفسر هذا بقوله: استخدمت عناصر منظمة التحرير لأنها ببساطة كانت تسيطر على المنطقة التى تعين علينا اجتيازها .

وعندما كان سيل سفيرا لدى سوريا فى عام ١٩٨١ كانت برقياته الدبلوماسية، وبعضها رآه البعض معززا للإجراءات السورية تسبب التوتر العصبى لدى فرانسيس فوكوياما المفكر الأمريكى المعاصر وكان وقتها ضمن هيكل موظفى الخارجية الأمريكية فإذا به يكتب على هوامش تلك البرقيات تالكوت سيل هو السفير السورى فى واشنطن وليس السفير الأمريكى فى سوريا لكن الأمر كان من وجهة نظر سيل «إننى كنت أنحنى إلى الوراء كى أثبت أننى لست متحيزا بحكم الأمر الواقع». لكن عندما حل صيف ١٩٨١ كان سيل قد طفح به الكيل إزاء سياسة ادارة ريجان الجديدة ووزير خارجيته الكسندر هيج التى قامت على التأييد البالغ لاسرائيل ولم يعرض عليه القوم ترقية فما كان منه إلا أن عمد فى ٣١ أغسطس إلى استدعاء مراسلى جريدة - واشنطن بوست - ووكالة أسوشيتدبرس - إلى مكتب السفير فى دمشق ليعلن خبر اعتزاله السلك الدبلوماسى وإذ أخلد إلى كرسيه الوثير صرح السفير (الأمريكى) «سيل» أن عملية كامب ديفيد قد وصلت منتهاها وأنه ينبغى متابعة بذل جهود لإقرار السلام ضمن إطار مختلف . ودعا الولايات المتحدة إلى المبادرة فورا الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وانتقد بألسنة حادة

رئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجن وكذلك المستوطنات المزروعة فى الضفة الغربية. ويصف صامويل لويس وكان وقتها سفيرا لأمريكا فى اسرائيل هذا التصرف الذى أقدم عليه زميله سيل بأنه تصرف «مهين» .

وفى مايو ١٩٨٢ ، وبعد أن أصبح «سيل» مواطنا عاديا خاطب الرابطة الوطنية للعرب الامريكيين قائلا : سيكون من واجبنا ان نقنع اسرائيل بأن القدس الشريف لا يمكن أن تظل مقاليدها الى الأبد بين أصغر الأديان وأقلها شأنا وهى الأديان التى جعلتها مدينة مقدسة.. واستخدم «سيل» عبارات كانت خليقة لتحقيق المصالح القومية للولايات المتحدة ، وفى اواخر تلك السنة كان سيل يتحدث امام رابطة خريجى كلية امهرست فانتقد وزير دفاع اسرائيل وقتها ايريل شارون الذى رأى فيه سيل عنصرا لا يفترق عن افراد قوات العاصفة النازية .

ولك أن تتوقع ان سيل لم تكن علاقاته سهلة مع اليهود الامريكيين وهو يتذكر مناسبة دعيت فيها مجموعة من مستعربى الخارجية الامريكية الى عشاء يهودى لجمع التبرعات وفى نهاية الامسية احسسنا - معشر المستعربين - جميعا ونحن جلوس وحدنا فى طاولتنا الخلفية ان القوم غير مستريحين لوجودنا وما كنا نحن من جانبنا بمستريحين ... كان أمرا مخجلا !

ويعترف «سيل» لمحدثه قائلا : لك أن تظنني مبالغا فى التخصص في الشرق الأوسط. والحاصل أن إحدى بناته واصلت تقاليد الأسرة فقد درست العربية فى أمهرست ثم فى الجامعة الامريكية بالقاهرة وانتقلت بعدها للتدريس فى عمان وهى تعمل معاونة ضمن هيئة موظفى الملكة نور بالأردن .

على أن «شغف» هواة مراقبة الطيور بالعرب على حد تعبير - السياسى البريطانى - كروسمان لايتعين بالضرورة ترجمته إلى علاقة شائكة مع اسرائيل فكما أن العالم يتسع لطوائف متنوعة من البشر ، هناك أيضا أنواع مختلفة من المولعين بمراقبة الطيور.

ها هو «ريتشارد اندلاند» يحدق فيك بنفس النظرة المتباعدة النافذة على نحو ما يتصف به «سيل» و «كون» . ولد فى ولاية أوماها عام ١٩٣٠ لكن عندما التحق بهارفارد لم يعد إلى مسقط رأسه فى الغرب الامريكى الأوسط. قادته الدرجة التى نالها من هارفارد إلى دراسات عليا في جامعة ستانفورد ومن ثم إلى حلقة دراسية عقدت حول مصر بلغ من قوة تأثيرها عليه أن رتب لكى يمضى سنة كاملة فى منحة دراسية بالقاهرة، يقول : ما أن حططت رحالى فى مصر - منتصف الخمسينات - حتى صرت على الفور مولعا بالعرب ودنياهم ، أدركت أننى حللت فى المكان

الذى سأجد فيه الترحيب باستمرار . نحن معشر الأمريكان جئنا بالتعليم والطب إلى سوريا - الشام - وإلى الخليج العربى . ولقد شعرت أننا نجلب الشئ نفسه إلى مصر .

اهتم اندلاند فى مصر بدائرة الاستعلامات الامريكية المنبثقة عن الخارجية الامريكية مع اقتصار عملها على وسائل الإعلام والعلاقات الثقافية . التحق بالدائرة المذكورة فأرسلوه إلى بيروت ليتعلم العربية عام ١٩٥٧ وكانت الخارجية الامريكية قد أنشأت فى ذلك الوقت معهدا فى بيروت لتدريس العربية دون أن يرتبط رسميا بجامعتها الأمريكية وإن كان جزءاً لا يتجزأ من عالم الإغتراب والوافدين ★ . ومع ذلك يقول اندلاند : «كانت الجامعة الامريكية تقدم لنا المحاضرات وتقيم الحفلات الموسيقية وكان طلابها يستخدمون مكتبتنا كما كنا نستخدم مكتبتهم، كان لدينا الكثير مما نؤديه معا» .وكانت السنة التى أمضاها اندلاند وسط ذلك الجو المفعم بالاستعراب الأمريكى هى التى أقنعته بأن نوازعه الأولى نحو الولع بالعرب كانت صحيحة .. كان لهم وكانوا له أيضا . فمن عام ١٩٥٨ حين أصبح مسئولا صحفيا وثقافيا فى

★ يقصد معهد «شملان» لتعليم العربية فى «سوق الغرب» قرب بيروت حيث كان يدرس الدبلوماسيون وعناصر المخابرات الأمريكية «المترجم» .

سفارة أمريكا بتونس وحتى عام ١٩٩٢ حين تقاعد من السلك الدبلوماسى لم يخدم «اندلاند» سوى فى مجال الشئون العربية باستثناء وحيد يتمثل فى ١٨ شهرا أمضاها فى سايجون خلال حرب فيتنام، وفى هذا يقول «آندلاند»: إن لى من سنوات الخبرة المعاشة فى العالم العربى ما يفوق أى مستعرب آخر فى السلك الدبلوماسى الأمريكى .

وتلك حقيقة يؤكدها اندلاند وهو يستعرض قصة حياته بلهجة سريعة ورتيبة :

سنة ٦٢ إلى سنة ٦٤ فى الاسكندرية ،٦٦ و ٦٧ فى الجزائر رغم ١٤ شهرا قضيتها فى الرباط، ٦٧ إلى ٦٩ فى واشنطن وسنة ٧٠ عودة إلى بيروت و ٧١ فى الكويت ومن ٧٢ إلى ٧٥ فى الأردن ثم ٧٦ و ٧٧ فى الكويت والبحرين وقطر ثم ٧٩ إلى ٨٣ فى دمشق أجل كنت عضو مجلس إدارة المدرسة الامريكية فى سوريا وكانت المدرسة تقع بجوار ثكنات للجيش قصفها المتطرفون ، وإذ تجولت فى المدرسة بعد ذلك وجدت أشلاء بشرية عند الباب ، لكن كان لدينا برنامج ثقافى فعال أوفدنا ٥ آلاف طالب سورى للدراسة فى أمريكا وقامت مكتبتنا فى دمشق بمهمات جليلة .

أندلاند وزوجته جوان عقدا زواجهما فى القاهرة، وولد طفلهما الأول فى بيروت والثانى فى تونس والثالث فى الاسكندرية . كان

آخر موقع خدمته فى تونس حيث كان قد بدأ أولى درجات السلك الدبلوماسى منذ عقود مضت من الزمن وخلال تلك الفترة قام بعدة زيارات إلى اسرائيل وأقصى ما يسوؤه فى هذا الصدد يعبر عنه بقوله : يستبد بالاسرائيليين وسواس وهاجس الأمن بصورة لم أفهمها على الإطلاق .. ومن المؤكد أننى عارضت هذا كما عارضت ذلك العنصر المؤيد لاسرائيل فى سياستنا لكن كنت لا أشعر بأى غضاضة إذ أشرحه لمعارفى من العرب، ولو كنا نؤمن كما أؤمن بأن أبرز ما ترمز إليه أمريكا يمكن أن يؤدى إلى العالم الذى نرنو اليه جميعا فلن تثور أمامك يوما مشكلة استيعاب التفاصيل ، والفيصل فى هذا أن تعرف «من» أنت .. وأنك أمريكى فى الأساس .. فلا أنت عربى ولا أنت اسرائيلى أيضا .

«أندلاند» طويل القامة نحيل مثل – زميله السفير – «سيل» . وقد أصبح جواب آفاق فى سنوات خدمته الأخيرة ، وقبل أن يتقاعد فى واشنطن كان يقضى كل عطلة نهاية الأسبوع ماشيا يجوس خلال القرى ومضارب البدو فى أرياف تونس وقد أنس إلى الناس ونعم بما يحفل به المكان من حيوان ونبات، وفى هذا المقام يقول : كما نستطيع أن نتصور .. أنا رجل أحب العالم العربى وقد نعمت بحياة طيبة هناك .

هكذا كان أمره على هذه البساطة والتعقيد أيضا .

لم تكن جميع الأيدى العربية المحنكة على حد تعبير الخارجية الامريكية من فئة مراقبى الطيور بل كان بعضهم أقرب إلى النوع التحليلى مثل لوى هندرسون ولقد كان «ريتشارد بوردو باركر» من ذلك النمط - التحليلى من المستعربين .

هناك فى الخارجية الأمريكية من يتذكر - تالكوت سيل - وريتشارد (ديك) باركر ولو بقدر من الود المحدود فيقول إن الرجلين كانا متماثلين حتى فى الشكل والمظهر .. على أن هذا التماثل اقتصر على المظهر دون سائر الخصائص والصفات ؛ فبينما ولد سيل ونشأ بالعالم العربى بين أسرة انغمست فى أعمال التبشير ولد ديك باركر لأب عسكرى كان يعمل فى الفيلبين عام ١٩٢٣ . وبعد أشهر قليلة نقلوا أباه إلى الولايات المتحدة فاستقرت العائلة فى ولاية كانساس وعلى خلاف أسرة سيل وأضرابه من المستعربين الآخرين لم تكن أسرة باركر من براهمة نيوانجلند الميسورين .. افتقرت العائلة إلى وفرة المال بل والى الصلات الاجتماعية بما يتيح لها أن ترسل فتاها «ديك» إلى معهد تعليمى من طراز رفيع فأرسلوه إلى جامعة ولاية كانساس ليدرس الهندسة. وفى عام ١٩٣٤ التحق باركر بسلاح مشاة الجيش

ليخدم آمرا لفصيلة خلال الحرب العالمية الثانية. وفي معارك غابات «الأردين» في أواخر عام ١٩٤٣ وقع باركر أسيرا في قبضة النازيين الذين نقلوه مع أسرى أمريكيين آخرين في شاحنات مبردة ومحكمة الإقفال بغير طعام إلى معسكر للأسرى في غربي بولندا. وإذا كانت الحرب تؤذن بنهايتها جاء تحريره على يد الجيش الروسي الأحمر . وكانت تلك ضربة موجعة .. كما قد نقول إذ نقله السوفييت بدورهم في ظروف لا تكاد تختلف عن ظروف الألمان إلى أوديسا على البحر الأسود . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، تم إطلاق سراح باركر من الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٤٥ .

وعندما جاء الربيع، ورغم أن الطقس كان لايزال باردا في الساحل الشمالي من البحر الأسود، أبحرت سفينة باركر جنوبا حيث طرأت نسمة دافئة على برودة الهواء. وبغير انتظار وبعد ثلاث سنوات من كآبة الاحباط والوحشة إذ بباركر يطالع أسوار القسطنطينية (اسطنبول) ، يرى القباب والمآذن .. «أشياء لم أكن قد رأيتها من قبل بل لم أكن أعرف أن ثمة أشياء كهذه عاشت واستمرت رغم توالي السنين» . هكذا قدر له بعد ثلاث سنوات وللمرة الأولى أن يرى أضواء المدينة. لكن الذى لايزال يتذكره عن

اسطنبول هو الدفء إذ كانت السنوات الثلاث التى أمضاها – فى أوديسا مسلسلا لا ينقطع من الرعشة تحت قارس الزمهرير بيد أن السفينة واصلت إبحارها تجاه الجنوب . وفى بورسعيد عند مدخل قناة السويس أتاه الربيع الطلق مشويا بدفء البحر الأبيض المتوسط .. ساعتها شعر باركر بمعنى الحرية لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية و«منحوا كلا منا مائتى دولار وسمحوا لنا بمغادرة السفينة كى نستمتع بالمدينة » . وعندما سرحوه من الجيش عام ١٩٤٧ عاد إلى كانساس بهدف وحيد هو أن يتخرج من الجامعة .

فى عام ١٩٤٩ التحق ريتشارد باركر بالسلك الدبلوماسى فى الولايات المتحدة، فى تلك اللحظة كانت الخارجية قد شرعت فى الاستجابة لواقع ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث وجدت نفسها بإزاء عالم معقد ومتغاير من شعوب وجماعات لغوية متباينة ، وقدر للولايات المتحدة أن تتنافس على مواقع النفوذ مع الاتحاد السوفييتى بوصفها قوة عسكرية واقتصادية : مثل هذا الواقع كان يتطلب سلوكا دبلوماسيا محترفا بحق إذ لم يعد كافيا، على حد تعبير أحد مسئولى السلك الدبلوماسى، الاقتصار على أندية الصفوة التى تطرح أفرادا من عشاق الموسيقى والمرح ومن ذوى

الدماء الزرقاء يعيشون ويعملون كأنهم هواة اكتسبوا الفرنسية والألمانية على مستوى تلاميذ المدارس دون أن يعرفوا شيئا عن لغات مثل الأوردية أو العربية : نحن بحاجة إلى اختصاصيين حقيقيين .

هذا الإدراك للحقيقة نجمت عنه نتيجة مقصودة وأخرى غير مقصودة تمثلت فى فرصة سانحة أتيحت لخيرة أبناء الصفوة ذوى الدم الأزرق حيث الصفوة هم أبناء المبشرين فى لبنان من أمثال سيل وتولفوز الذين كانوا يتفاخرون بصرف النظر عن معرفتهم الفعلية بالعربية بما كان لديهم من مخزون المعارف والخبرات الموروثة فيما يتعلق بالشرق الأوسط مما كان يشكل الركيزة الواضحة للخبرة بالمنطقة، أما النتيجة المقصودة فإنها أتاحت الفرصة أيضا لعناصر أقل تواضعا فى المحتد ولكن لا تقل كفاءة واستحقاقا ومنها ديك باركر.

كان باركر قد استظهر الألمانية من أيام معسكر أسرى للحرب مدللا بذلك على قدرة فى الإلمام باللغات لم يكن يعرف قط إنه يمتكلها ، وبعد جولة وظيفية اجبارية بوصفه من شباب السلك الدبلوماسى فى استراليا عينوا باركر فى مدينة القدس المقسمة فى عام ١٩٥١ و «عشت وزوجتى عند بوابة مندلبوم حيث المعبر

بين شطرى القدس الأردنى والاسرائيلى وهناك استحضرت مدرسا خصوصيا لتعليمى العربية .. كان تعليم العربية بصورة نظامية فى مراحله الأولى فى تلك الفترة وحتى عام ١٩٥٠ لم تكن الخارجية الأمريكية قد رصدت اعتمادات يؤبه لها لتدرس اللغات الشرقية الفريدة التى مالبثت أن أصبحت أمرا حيويا فى حقبة التنافس الدولى مع السوفييت » .

ألم يسبق لكل من ويليام هودجسون فى عشرينات القرن الماضى ومن بعده رايموند هير فى عشرينات القرن الحالى أن يسافر بالضرورة إلى الخارج من أجل تعلم اللغة العربية؟ وعندما التحق شاب أمريكى اسمه هيرمان إيلتس بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٤٧ كان الموقع الوحيد فى عموم أمريكا الذى يتيح تعلم العربية هو كلية ديفنتى فى هارفارد . يقول باركر : كنت قد تعلمت المبادئ على يد اسكتلندى من نوعية المبشرين وبعدها عقدت الخارجية امتحانا لى فى إجادة اللغات وكان عبارة عن سؤالهم إياى أن أعد بالعربية من واحد إلى عشرة وبعد العد الصحيح قاموا بتدشينى بوصفى مستعربا (!) على أن الموقف تغير جذريا فى سنوات قليلة إذ أنشأت الخارجية الأمريكية معهدها المدنى لتعليم اللغة العربية فى بيروت متأثرة ولا ريب بقربه من جوار

الجامعة الامريكية وإلى ذلك المكان اتجه باركر بعد سنتين قضاهما في القدس .

عندما غادر باركر القدس إلى بيروت كانت آراؤه في طريقها إلى التبلور تماما فيما يخص النزاع العربي - الاسرائيلي . وعلى خلاف سيل لم تكن عائلة باركر تستند إلى خلفية تشمل عناصر شرق أوسطية ، لكن تجربته أثناء الحرب العالمية أتاحت له أن يتعاطف مع اليهود لدرجة لم يكن ليصل إليها زميله سيل «برغم أنني نجوت من فظائع الهولوكوست إلا أن اقتيادي أسيرا للألمان في عربة صندوق في عز الشتاء جعلني أكثر حساسية من الامريكي العادي إزاء ما عايشه اليهود. وعندما عرفت في استراليا أن وزارة الخارجية تزمع إرسالي إلى الشرق الأوسط سارعت مهتاجا بإبلاغ القنصل الإسرائيلي فأمدني بأول قائمة قراءات وأول دروس عن سياسات الشرق الأوسط، هكذا ذهبت إلى القدس وأنا في صف اسرائيل » .

لكن أفكاره ما لبثت أن اعتراها التغيير على نحو ما يحدث للمرء إذ يتعرض لمعايشة الواقع وهو يقيم في مكان ما مقارنا بمجرد القراءات التي يكون قد حصلها أو الزيارات المختصرة التي يكون قد قام بها ولندع باركر نفسه يفسر الأمر بهذه

العبارات : « بالتدريج .. وربما من غير وعى أو قصد لم يعد العرب بنظرى كائنات تجريدية بل أصبحوا بشرا حقيقيين وبعضهم أضحى من أصدقائنا ورغم أننى لا أتصور أن ساورتنى أوهام بشأنهم ، فإننى تفهمت عن حق أسباب السياسة التى ينطلقون منها وكانت أسبابا أكثر اقناعا من أسباب الاسرائيليين . ولا أتصور أن هذا حدث لمجرد أن تعلمت اللغة العربية بدل العبرية فاللغة ما هى إلا أداة لاتصالات أكثر تفصيلا بل إن الإقامة فى مكان ما أهم لبصيرة المرء من معرفة لغته» . وما يحدثك باركر فى هذا إلا عن معرفة وبصيرة والمهم أنه واصل مسيرته ليصبح أول اختصاصى فى شئون الحقبة الجديدة للشرق الأوسط : أول مستعرب بالخارجية الامريكية يحصل على معدل ٤ درجات من مجموع ٥ درجات فى نظام اختبارات الخارجية الامريكية الذى أخذوا به فى الخمسينات .

باركر أيضا على حق حين يلمح إلى أن العرب أكثر جاذبية من الاسرائيليين فها هو كروسمان يذكر فى مؤلفه «مهمة فى فلسطين» كيف بدا يهود فلسطين قبل قيام اسرائيل متوترين، بورجوازيين تراهم بحق من صميم أهل شرق أوروبا أو حتى من الألمان . بيد أن الأمر مضى إلى أعمق من ذلك وعلى نحو ما يعبر موظف

بريطانى كان يعمل فى أردن ما بعد الحرب العالمية الأولى : إن سنوات التهذيب والشمائل العربية تفسد علينا ماهو مألوف فى العالم الغربى من خشونة وفظاظة، وهكذا كان يهود فلسطين إذ ينتمون إلى "مجتمع مستوطنين خشن وديناميى لا يعوزه أن يشمل أكثر من قلة من العناصر المثقفة والمتوترة والغريبة الأطوار يتجسد فيه عالم الغرب بقدر من التشفى . على أن كروسمان يصف حوارا فى القدس حول موضوع: لماذا لا يملك الانجليزى سوى أن يكون مؤيدا للعرب :

«قال الكولونيل إن الأمر يرجع إلى معاداة السامية ، لكن ضابطا قال : إن هذا كان حقيقيا قبل مرحلة هتلر وقبل أن يعرف أى إنجليزى ما معنى معاداة السامية . ورد ضابط آخر أن الأمر ليس على هذا النحو ففى أثناء ثورة العرب على الأتراك، وإذ كان رجالنا يطلق عليهم الرصاص من خلف وهم يسبغون حمايتهم على اليهود كان معظمهم يحبون العرب، فالعربى المخضرم قد يطلق عليك النار فى الليل فإن جئت للتحقيق فى الصباح دعاك إلى فنجان قهوة . ثم خلصوا إلى أن ما يجعل الشرطى مواليا للعرب إنما هو شمائل العرب أنفسهم .. وهنا قال ضابط شاب : لكن أيضا لأن العربى أقل فى المستوى على نحو ما وإذا كان متعلما وتساوى معك كما يتساوى اليهودى فقد لاتنحاز إليه كما تفعل الآن » .

وفيما كان باركر ينتقل جيئة وذهابا إلى اسرائيل عن طريق بوابة مندلبوم كان يسلم باضطراد بذلك التباين الصارخ بين المجتمع الاسرائيلي وسائر أنحاء الشرق الأوسط ولكن لم يكن هذا حال زملائه من وزارة الخارجية المقيمين في دمشق وسائر العواصم العربية .

«ألفرد ليروي أثرتون» شاهد اسرائيل لأول مرة في صيف عام ١٩٥٥ بعد أن كان قد أمضى في سوريا ثلاث سنوات على التوالي . ويومها قال نفسه : يا ألهي كم هم متعمقون ومتحمسون هؤلاء الا سرائيليون لاتستطيع الدخول في حوار معهم دون أن يعتري أوصالك الجفاف . وثمة مستعرب آخر من جيله هو مايكل ستيرنر رأى اسرائيل لأول مرة في عام ١٩٥٩ بعد ما يقرب من عقد من الزمن في الدنيا العربية حيث كان يعمل في شركة أرامكو للنفط وبعدها في الخارجية الأمريكية ... وقال في انطباعاته :

«على نقيض العالم العربي، كانت الحياة الاسرائيلية تكتنفها موجة من الفكر والحركة. نحن فجأة بعد أن تنزع اللوحات العربية من سياراتنا ماركة موريس مينور المكشوفة، في منطقة الأرض الحرام الفاصلة بين لبنان واسرائيل فإذا بنا نغوص بغتة في مجتمع بدا كل من فيه يتجادل حول مستقبل الاشتراكية. كانت تلك مرحلة الاندفاعة المثالية في اسرائيل قبل أن ينسدل عليها

ستار التشاؤم . لكن يا ساتر ! كم كان الطعام فظيعا : سلسلة لاتنقطع من المأكولات التى بالغوا فى طهوها على الطريقة الألمانية». على أن ستيرنر هذا كان قادرا على أن يعود للاسترخاء والراحة بعودته إلى حيث كان العرب وكان فى هذا يشابه أثرتون ويماثل باركر ومن قبلهم تالكوت سيل .. الاسرائيليون كانوا قوما يسهل تقديرهم ولكن يصعب التعامل معهم ومشكلتهم أنهم يعاملونك كما لو كنت واحدا من أقرب أفراد العائلة دون أن يراعوا أصول اللياقة والمسافة المريحة التى عادة ما ينعم بها الغرباء ، فضلا عن ذلك كانوا أندادا لك سواء بسواء ثم كان الأدهى والأنكى أن لم يسمحوا لك أن تنسى ذلك لحظة من اللحظات .

بعد أن اتقن باركر العربية فى بيروت بدأت الحياة الدبلوماسية للرجل على غرار حياة زميليه ريتشارد اندلاند وتالكوت سيل : عمان، مكتب اسرائيل والأردن فى الخارجية ، مكتب ليبيا ثم عودة إلى بيروت ثم القاهرة ثم مكتب شئون مصر فى واشنطن فالرباط . وفى عام ١٩٦٠ كان باركر قد أكمل مأموريته فى مكتب ليبيا فى واشنطن وسنحت أمامه وقتها فرصة تعلم العبرية وفى هذا يقول باركر : رفضت، إذ كان يمكن لهذا أن يخلف أثرا معاكسا على سيرتى المهنية بوصفى مستعربا وأنا معترف بذلك

فقد خلفت ورائى هناك إلى العالم العربى كثيرا من الولاءات المحلية .

هذه المحليات .. أو .. العمالات :. بدأت فى الحرب العالمية الأولى حين تبنى الوكلاء السياسيون البريطانيون - وهم عناصر المخابرات وقتها - قضية القبيلة العربية التى انتدب العميل الإنجليزى أو العميلة الانجليزية للعمل معها ،لكن معناها لدى وزارة الخارجية الأمريكية فيما بعد الحرب الثانية أصبح يعنى التعاطف مع أحد جوانب القضية ومع البشر المرتبطين بها بسبب عدم التعرض للجانب الآخر .. وقد حدث هذا فى مواقع شتى من المعمورة : مثلا الدبلوماسيون فى نيودلهى كانوا أحيانا يميلون مع الهند وضد باكستان فيما كان المحتمل أن يميل المقيمون منهم فى إسلام أباد مع باكستان ضد الهند .. هذه المتوالية أصبحت متفشية بالذات فى الشرق الأوسط بحكم عوامل رياضية بحتة: فاللغة العربية ومعها الصينية واليابانية والكورية لغات مصنفة فى السلك الخارجى على أنها لغات - فائقة الصعوبة - وبرغم أن الفارسية تستخدم الحرف العربى إلا أنها عضو فى عائلة اللغات الهندو - أوروبية وليس المجموعة الأفرو - سامية مما يجعل الفارسية أقرب إلى الانجليزية ومن ثم أسهل على نحو ما فى التعليم . والمهم أن تعلم العربية كان من ثم يستغرق سنوات . وإذ

توظف الخارجية هذا الاستثمار فى فرد ما فإنها تطلب استخدام تلك المهارات فى الميدان .. بينما لا تنفع الصينية إلا فى قلة من البلدان الأجنبية وفيما لا تصلح الكورية إلا فى شمال وجنوب كوريا ولا تستخدم اليابانية إلا فى اليابان فإن هناك أكثر من ٢٤ سفارة وقنصلية أمريكية فى العالم العربى وهى تكفى كى تستغرق تاريخ خدمة الأفراد الدبلوماسيين ، وعليه ففيما قد يمضى «العنصر » الصينى جزءا من تدرجه الوظيفى فى الشئون المتصلة بالصين فإن بوسع العنصر المستعرب أن يمضى كل سنوات نضوجه واكتماله فى العالم العربى ، وفى مثل هذه الظروف تتأثر بالطبع آراؤه بصدد المسألة العربية – الاسرائيلية .

فى أواخر الستينات كان «باركر» قد اكتسب سمعة بوصفه «رجل الولاءات المحلية» .. يقول : بعد حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ – التى خسرتها مصر – خضت بمفردى معركة فى وزارة الخارجية الأمريكية لكى يأخذ القوم الرئيس المصرى جمال عبد الناصر على محمل الجد .. ولقد أصبح السفير باركر واحدا من أصدقاء عبد الناصر القلائل فى واشنطن ، وهكذا فعندما أصبح جوزيف سيسكو مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى فى عام ١٩٦٩ وشرع فى عملية تطهير جزئية لشبكة قدامى المستعربين ، كان «ديك باركر» على رأس الضحايا ، نقلوه من

، إدارة الشئون المصرية قلب النشاط العربي - الاسرائيلي إلى المغرب على أطراف سياسات العالم العربي والشرق الأوسط . يقول باركر : «كنت أضمر كراهية شخصية لسيسكو» ، ويضيف إنه أمضى السنوات الأربع نائبا لرئيس البعثة فى سفارة أمريكا بالمغرب في ظروف محفوفة بالضجر والسأم من الناحية السياسية.

بعد ذلك أصبح باركر سفيرا لأمريكا فى الجزائر ثم سفيرها لدى لبنان عام ١٩٧٧ أى بعد عام من قيام «سيل» بإخلاء السفارة - كان الموقف الأمنى فى بيروت قد تحسن قليلا ويقول باركر : شعرت بأقسى الإهانة بفعل الغطرسة الاسرائيلية وبسبب تجاهل السيادة اللبنانية ولم يكن ثمة خيار واسع بين الاسرائيليين والسوريين. ويوضح باركر أن مناحيم بيجن رئيس وزراء اسرائيل أحرجه عندما رفض اتفاقا حول تحركات للقوات فى جنوب لبنان ، لذلك فأنت تطالع فى بيت باركر فى ضاحية جورجتاون، واشنطن حوائط مكتبته الخاصة التى لم تقتصر على معروضات الخط العربى بل تعرض أيضا صورا كاريكاتورية لها دلالاتها .

أنهى الدبلوماسى الأمريكى - باركر - مدة خدمته سفيرا لبلاده فى الرباط التى أعلنته فى عام ١٩٧٩ شخصا غير مرغوب به .. بعد أن ثبت أنه كتب تقارير حول المعارضة للحكم المغربى .

وباركر يصف نفسه بأنه عضو فى جماعة من أهل النخبة - الأمريكية - الذين فقدوا حظوتهم عند أصحاب العروش العربية، ومن الأسباب الأخرى التى حملت صاحب العرش المغربى على كراهية باركر أنه كان الدبلوماسى المكلف بإبلاغ شاه إيران - السابق - وقد كان صديقا للرباط ، بأن ليس بوسعه القدوم إلى أمريكا - عقب الثورة الإيرانية - حين كان الشاه وقتها فى المغرب . ويصف السفير باركر مهمته تلك بأنه - تلقى التعليمات من واشنطن - بأن أعرض على الشاه بيتا - أو وطنا - فى باراجواى أو جنوب أفريقيا .. ويجدر بى أن أقول أنه تلقى الأنباء كرجل.

السفير - السابق - باركر شديد الانتقاد للرئيس الأمريكى كارتر لأنه - لم يغلق سفارة أمريكا فى ايران عام ١٩٧٨ ويفى بعهودنا لصديقنا - نفس الشاه الذى سبق وأن أعاده لوى هندرسون إلى عرشه منذ ربع قرن، باركر ينظر - كما ينظر - أستاذهم هندرسون إلى مصالح أمريكا نظرة حازمة مجردة من العواطف ، وهو يتصور أن أمريكا كان ينبغى لها أن تعامل الاسرائيليين بمزيد من القسوة والحزم. على مدى ما انصرم من عقود بل وتعامل صدام حسين بقدر أكبر من تلك القسوة والحزم. بهذا ينحو - باركر - بمزيد من اللائمة على رفاقه وأصدقائه من المستعربين الذين خدموا فى العراق فى الثمانينات ، وفى هذا

يقول قائلهم : باركر رجل من الصعب فهمه .. ثمة جانب مستقر في شخصيته يجلب له عداوة أصدقائه وعداوة الاسرائيليين على السواء .

السفير باركر متقاعد الآن ولكنه يمارس الآن ما سبق ورفضه في عام ١٩٦٠ : أنه يتعلم العبرية وهو يتدارس أحداث حرب الأيام الستة قائلا : لقد أصبت بالإحباط إزاء عجزي عن قراءة مذكرات اسحق رابين في نصها الأصلي .. وأيا ما كان الأمر فذلك هو المبرر الذي يعطيه تفسيرا لأحدث ما أقدم على تعلمه .

«جوزيف سيسكو» أصبح في عام ١٩٦٩ أول رئيس من غير المستعربين لإدارة الشرق الأوسط في الخارجية الأمريكية كمساعد للوزير . وهو يزعم أن بوسعه أن يحدد ما يزيد على عشرين نمطا من أنماط هؤلاء المستعربين .. ثم يستدرك موضحا أنه يبالغ فيما يقول وقد انحنى باتجاه زائره بزاوية حادة مضيفا : لكن صدقني . ليس هناك نمط ثابت للمستعرب في كل حال . ثم يورد على ذلك مثلا هو «الفرد أثرتون» الذي لا يصنف لا ضمن مراقبي الطيور - «المحايدون» على حد تعبير السياسي البريطاني كروسمان - ولا هو نسخة مطبوعة من لوي هندرسون - المستغرق في الأمر إلى حدود التقمص .

«ألفرد روى أثرتون » فصيلة نادرة من اختصاصيي الشرق الأدنى زائدا المستعرب : هو المخضرم الذى تطور ليصبح من المحدثين ، وليثبت أنه واحد من أنجح جيل الاختصاصيين فى الشرق الأوسط وأوسعهم نفوذا وتأثيرا ، هو رجل يمكن أن يؤثر على التاريخ بفضل تطوره الشخصى فى إطار المسألة العربية - الاسرائيلية : بدأ أثرتون فى سوريا فى الخمسينات وتشكلت لديه نفس الانطباعات التى تتولد لدى الدبلوماسيين الامريكيين هناك عن العرب والاسرائيليين بيد أن آراء أثرتون ظلت فى حال من التطور وإن كان يصعب بيان السبب الذى دفع إلى هذا التطور، وبينما أمضى أثرتون ردحا طويلا من خدمته خارج المدار العربى فقد كان هذا أيضا حال دبلوماسيين آخرين ممن لم ترق آراؤهم إلى آراء أثرتون . وربما يكمن جواب مثل هذا السؤال فى خبايا الشخصية بأكثر مما يدخل فى باب تجربة بعينها هنا أو هناك .

«السفير ألفرد روى أثرتون» يخلق فى نفسك ذات الانطباع، الذى يولده فى خاطرك - السفراء أيضا - بيل ستولفوز وكارلتون كون وتالكوت سيل وريتشارد اندلاند وديك باركر : سيد مهذب ومتميز ؛ فى إهابه فتوة وفى وجدانه فيض من ذكريات يعشقها عن أيامه الخوالى فى وطن العرب. لكن بدلا من الطنافس الشرقية

ولوحات الخط العربى والمحفورات العتيقة للأرض المقدسة تزين جدران مكتبه، فأنت تجد صورا فوتوغرافية ممهورة بتوقيع أصحابها ومهداة إلى أثرتون : مناحيم بيجن وأنور السادات وهنرى كيسنجر يشكرونه على جهوده ويحمدون صداقته وغداة وفاة بيجن فى عام ١٩٩٢ أخلد أثرتون إلى مكتبه متأملا : كان قد عرف بيجن جيدا وتفاوض معه، وهنا يدلى بملاحظاته قائلا : سوف ينصفه التاريخ فعندما أعطى سيناء وأبرم السلام مع مصر، تعين على بيجن أن يتخذ خيارات صعبة .. وحكيمة كان معناه التخلى عن أشياء ظل يحارب من أجلها طوال حياته .

ولد ألفرد أثرتون عام ١٩٢١ فى بتسبورج وترعرع فى سبرنجفيلد بولاية ماساشوسيتس حيث كان أبوه مهندسا ، ويصف أسرته بأنها كانت أسرة متماسكة من الطبقة الوسطى ثم يتساءل : أتريد أن تعرف شيئا عن معاداة السامية ؟ طيب : عندما انتقلت أسرة يهودية إلى منطقتنا ولا تنس أن تلك كانت فترة أمريكا المستغرقة فى المسيحية فى الثلاثينات كنت ترى بغض اليهود حقيقة نابضة ماثلة أمام عينيك على نحو أسوأ من مواقف معاداة اسرائيل التى تبناها بعض من عرفت من الدبلوماسيين الأمريكيين .

في سبرنجفيلد درس أثرتون في مدارس الحكومة ولدى حصوله على الثانوية اتخذ والده قرارا جاء على غرار أفضل ما يتخذه الآباء من قرارات مما أدى إلى تغيير حياة ابنه : «تصور أبي أنني لم أكن مستعدا بعد من الناحية الوجدانية للالتحاق بالجامعة إذ كنت وقتها أفتقر إلى النضج والثقة في النفس . وعليه فقد أرسلني سنة إضافية إلى ثانوية ملحقة بأكاديمية أكستر » ، ذلك المعهد الذى أنشئ عام ١٧٨١ وكانت «مؤسسة فيليب أكستر» جزءا من نفس النخبة التى انتمى إليها مؤسسو اكاديميات متميزة أخرى مثل اندوفر وديرفيلد . ولما كانت موارد الأسرة محدودة فقد تعين على الفتى أثرتون أن يخدم جرسونا على الموائد ليدبر مصاريف الدراسة بيد أن الأشهر العشرة التى أمضاها فى المدرسة أوصلته إلى جامعة هارفارد بل وسعت مداركه إذ عرضته للتعامل مع نوعيات شتى من البشر وبلغ الأمر بالفتى أثرتون إلى حد أن قام برحلة على الدراجة سنة ١٩٣٨ إلى المانيا حيث كان يعيش فى بيوت الشباب ويقول لن أنسى ما حييت الشعار المعلق على باب : شبيبة هتلر : خودن فيربوتسن .. أى ممنوع لليهود . لكنها كانت التجربة التى زادتنى نضوجا وحولت المجردات عندى إلى أرض الواقع المعاش وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية قطع

أثرتون دراسته ليخدم فى وحدة لمدفعية الميدان . وكما فعل زميله باركر خدم فى مناطق الغابات ، على أن صدور قانون المجندين أتاح له معاودة دراسته فى هارفارد بعد الحرب والحصول على البكالوريوس ودراسة الألمانية حيث كانت المانيا والسياسة الدولية قد ملكت عليه العقل والوجدان .

في تلك الأيام كانت كليات القمة تعمل بوصفها مزارع استنبات عناصر السلك الدبلوماسى فى أمريكا وفى ربيع ١٩٤٧ اجتاز أثرتون امتحان الخارجية وعينوه فى قنصلية أمريكا فى شتوتجارت بألمانيا وكان عمله عبارة عن استجواب الناجين من معسكرات الاعتقال النازية ومن سواهم الذين شردتهم ويلات الحرب وتقدموا للحصول على تأشيرات دخول للولايات المتحدة .. فى ذلك الوقت سافر دبلوماسى يهودى زميل هو سيمور ماكس فنجر إلى أمريكا ليشهد احتفالا بإنشاء اسرائيل . « وعاد ماكس إلى المانيا فيما يكاد يخنقه التأثر من التجربة ولم أكن قد عانيت فيه من قبل كل هذا الحماس العاطفى وظلت المسألة محفورة فى ذاكرتى» . وبعد ثلاث سنوات فى شتوتجارت انتقل أثرتون وزوجته «بيتى» إلى بون حيث كان جون ماكلوى قد وصل مفوضا ساميا لتنظيم انتقال المانيا الغربية المحتلة إلى وضع الاستقلال التام.

وبدأ الأمر في بون وكان الدبلوماسي الأمريكي الشاب يرى الشرق الأوسط كلما تطلع في كل زاوية وكل مسار : كانت - لجنة التوزيع المشتركة - وهي منظمة يهودية تساعد على إرسال الناجين من معسكرات الاعتقال إلى اسرائيل ، وكان أثرتون على صداقة حميمة مع زميله بيتر ميل بالسفارة البريطانية الذي كان منقولا لتوه إلى بون من دمشق ويومها قال له ميل : إن الشرق الأوسط هو المحور القادم الذي تصنع فيه منجزات الخدمة الدبلوماسية ، وعليه جاء أول أبريل عام ١٩٥٢ وبعد ما يقرب من خمس سنوات كاملة في ألمانيا ليشهد أثرتون وهو يملأ بطاقة يسميها الدبلوماسيون - بطاقة كذبة إبريل - مؤداها : أنت تذكر المواقع الدبلوماسية الثلاثة التي تود الخدمة فيها في انحاء العالم - ولن تحصل عادة على أي منها بيد أن أثرتون كان سعيد الحظ إذ طلب دمشق وبيروت وعمان .. فكان أن فاز بدمشق .

وقبل أن يشبد الرحال إلى هناك انخرط في دورة دراسية عن منطقة الشرق الأوسط في المعهد الدبلوماسي . وكان أستاذه أدوار رايت الذي يتذكره أثرتون بأنه كان من أهل التبشير ؛ مؤيدا للعرب ومعاديا لاسرائيل ، وفي وجه الدعوة المذهبية التي كان يطرحها رايت دخلت آراء أثرتون الموالية لاسرائيل في طور كمون

كالبيات الشتوى . ثم كان أن أمضى السنوات الأربع التالية من حياته فى دمشق حتى عام ١٩٥٦ . «واستقر فى ذهنى أنا وزملائى العاملين فى سوريا فى ذلك الوقت خيبة أمل جماعية كلما اتضح أن حكومتنا كانت تنحاز إلى صف اسرائيل - ذلك العنصر الدخيل على الشرق الأوسط . كانوا قد علمونى أن أرى أن العرب هم الضحايا البريئة لمشكلة أوروبا مع اليهود .. وبسبب الوضع السياسى فى سوريا الخمسينات كان قد نشأ تيار عربى كامن تحت السطح من معاداة السامية، وكان الدبلوماسيون الأمريكيون يتعاطفون مع ذلك التيار وإن كان زملائى أقرب إلى تأييد العرب منهم إلى البغض المبيت لليهود ولم يكن ذلك هو نمط معاداة السامية زمان .. فى ماساشوسيتس فى أمريكا حين انتقلت إلى منطقة الجوار عائلة يهودية».

السفير الأمريكى فى سوريا كان فى ذلك الوقت «جيمس موس» وكان بدوره مستعربا ذا باع فكرى طويل فى مجالى اللغة والثقافة على السواء ، لكن كان يراوده شعور بخيبة الأمل بالنسبة للسياسة الأمريكية.. بل وبالنسبة للعرب أيضا ذات يوم دخل أثرتون «الشاب» بعصبية مكتب السفير ليطلب منه إسداء نصيحة مهنية : كان أثرتون قد أدرك أن الوقت قد حان لكى يدرس العربية كى يصبح مستعربا بحق فما كان من السفير موس إلا أن قال :

يا فتى .. لقد درست العربية واتقنتها وخدمت فى العالم العربى .. ثم خلصت إلى أن العربية لغة تفتح بابا يفضى إلى حجرة .. فارغة خذ نصيحتى وتعلم الفرنسية بدلا منها (!) .

وهذا عين ما فعله أثرتون تماما ، أنه يعرب عن «ندمه» لأنه لم يتعلم العربية ولكنه فى هذا إنما يجامل أصدقاءه العرب لا أكثر ولا أقل ، بل هو يعلم أنه لو كان قد تعلم العربية لما أحرز ما أحرزه من تقدم فى السلك الوظيفى ، إن أثرتون بدأ يكتسب دون أن يدرى تلك الخاصية المهنية الكاملة التى تميزت بها حقبة كيسنجر : أن تكون قد حصلت على خبرة وطيدة بالشرق الأوسط لكن دون أن توسم بتلك المجموعة من المعتقدات التى تدرجك فى سلك المستعربين تلك الفئة التى كان علما عليها رجال من أمثال سيل وستولفوز وباركر .

الى حلب فى الشمال نقلوا أثرتون من دمشق عام ١٩٥٦ حيث كلف مع زميله كارلتون كون بتأسيس قنصلية مؤقتة فى غرفة بفندق البارون القديم. على أن تواضع الظروف فى حلب اضطر عقيلة أثرتون للبقاء فى دمشق - كانت كريمتهما تدرس فى الكلية الأمريكية فى بيروت - وفى مقهى فى حمص كان يجلس فيه أثرتون فى طريقه إلى دمشق من حلب لزيارة زوجته ، علم أثرتون

بهجوم اسرائيل على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ . كانت الأزمة المتكاثفة التى أثارها تأميم جمال عبد الناصر قناة السويس، فضلا عن الهجمات التى كان يشنها الفدائيون الفلسطينيون من الأراضى المصرية على اسرائيل قد تصاعدت لتصل إلى حرب كبرى. أما بريطانيا العظمى وفرنسا ، وقد استبد بهما الغضب بسبب تأميم القناة فقد انضمتا بدورهما إلى اسرائيل لشن هجوم ثلاثى على شبه جزيرة سيناء المصرية .. يقول أثرتون : كنت فى غاية الانتقاد لاسرائيل فى تلك اللحظة ، ولحسن حظى كان هذا موقف الرئيس أيزنهاور الذى أوقف المعونات الاقتصادية إلى اسرائيل وكان على وشك إجبار الدولة اليهودية قسرا على الانسحاب من المنطقة التى استولت عليها فى سيناء ، كنا معشر الأمريكيين فى وضع طيب إزاء أصدقائنا العرب فى سوريا. ولم تكن هذه الوشيجة السيكلوچية بين العرب من أهل البلاد وبين الأمريكيين لتقتصر على سوريا ففى مصر خلال حرب ١٩٥٦ تحدثت زوجة دبلوماسى أمريكية عن الجنود المصريين الذين كانوا يحاربون الاسرائيليين فقالت : « إننا فخورون بهم » .

فى أول يناير ١٩٥٧ .. افتتح «آلفرد أثرتون» رسميا أول قنصلية أمريكية فى حلب واستطاع يومها أن يرفع علم الأشرطة

والنجوم على المبنى ويشرع فى تعيين موظفين سوريين محليين ، كان زميله الدبلوماسى «كون» قد غادر لتوه بالسيارة فى طريقه إلى موقعه الجديد فى الهند .. لكن شهر العسل الثانى هذا بين أمريكا وسوريا جاء موجزا فما لبث أن انهار فى العام الذى تلا عندما قام الرئيس الأمريكى ايزنهاور بإرسال قوات مشاة الأسطول الأمريكى (المارينز) إلى سواحل لبنان لدعم حكم كميل شمعون المسيحى المارونى. يومها أدى نزول المارينز إلى البر اللبنانى إلى مظاهرات معادية لأمريكا قامت خارج قنصليتها فى حلب ، وقد عمد الرئيس الأمريكى بمساعدة جوهرية من الدبلوماسى المخضرم «لوى هندرسون» إلى صياغة «حلف بغداد» بوصفه حلفا مناهضا للسوفييت شمل كلا من تركيا وإيران وباكستان ونظام الهاشميين الموالى للغرب فى العراق . بعد ذلك وقع فى العراق انقلاب عسكرى عام ١٩٥٨ أطاح بالملكية التى كانت قد أنشأتها «جرترود بل» وزملاؤها البريطانيون بعد الحرب العالمية الأولى . ودون سابق إنذار إذا بالشعوب العربية فى العراق وسوريا ومصر تدخل مرحلة راديكالية مما جعل «أثرتون» وزملاءه الدبلوماسيين فى حال من الانتقاد المرير لسياسة الحكومة الأمريكية التى يمثلونها ، شعرنا أن وجود اسرائيل بات يحول بين

العرب تماما وبين أن يظلوا معادين للسوفييت. إن «أثرتون» يتذكر زيارة من جانب الكولونيل «ويليام أدى » وزوجته «مارى» وكانا ضيفين على بيته فى دمشق ، وإذا كان الكولونيل ينتمى إلى أوساط مبشرين وكان أيضا عم «أرثر كلوز»» سفير أمريكا وقتئذ بالسعودية – فقد كان معارضا لاستخدام مشاة المارينز لإنقاذ حكومة مسيحية مارونية فى لبنان حتى ولو كانت موالية لأمريكا .

الكولونيل «أدى» كما يقول «فيليب بارام» كان صديقا عظيما وشخصيا للعرب.. ولطالما كان معبرا عن وجهات نظرهم .. وخاصة آراء ابن سعود .. ولو بقدر مقلق من الصراحة والبلاغة ، وكان الكولونيل «أدى» قد استقال من وزارة الخارجية فى عام ١٩٤٧ احتجاجا على سياسة الرئيس الأمريكى ترومان المؤيدة لاسرائيل فى فلسطين . وقد توفى عام ١٩٦٢ ، وبناء على طلبه دفنوه فى لبنان وقد نقشوا على مثواه شاهدا يقول : «مارينز الولايات المتحدة» .

بيد أن «أثرتون» لم يكن راضيا كل الرضا عن بيئة التحزب أو التحيز التى كان يعيش وسطها وكأنها امتداد لمؤسسة التبشير الثقافى المنعزلة والمتماسكة فى بيروت ، ويوم عمل «أثرتون» بوصفه ضابط الاتصال المسئول عن تنظيم مؤتمر اقليمى لسفراء

امريكا بالمنطقة فى دمشق .. شهد «أثرتون» كيف عومل «أدوارد لوسون» سفير أمريكا فى اسرائيل ، من جانب زملائه السفراء الأمريكيين ، معاملة العدو لا أكثر ولا أقل، ولم يشفع له أنه كان سفيرا لأمريكا .. بقدر ما كانت مشكلته أنه معين لدى اسرائيل ، وبعد المؤتمر طلب «أثرتون» من رئيسه السفير «موس» أن يسمح له ببضعة أيام إجازة يقضيها وزوجته فى اسرائيل و.. «حذرنى السفير موس » بأننى لو ذهبت فقد يعلن السوريون أننى شخص غير مرغوب فيه لكن «أثرتون» ذهب على أى حال .. «وعندما عدنا لم نلق ، للغرابة ، أى نتائج وخيمة من جانب السوريين بل وجدناهم شغوفين للغاية بمعرفة انطباعاتى عن اسرائيل » .

يخلص السفير (السابق) أثرتون من ذكرياته عن سوريا بهذه العبارات : ثمة شيئان أتذكرهما : المستعربون الأمريكيون الذين يخدمون فى اسرائيل والدبلوماسيون الأمريكيون من اليهود العاملين فى أى مكان من الشرق الأوسط : فى تلك الآونة بدأت أتساءل عما إذا كنا – معشر الامريكيين – قد أصبحنا جزءا من المعركة الدائرة .

فى عام ١٩٥٩ – بعد ١٢ سنة قضاها فى الخارج – السبع الأخيرة منها فى سوريا – عاد «أثرتون» إلى واشنطن ليعمل فى

مكتب شئون العراق والأردن بوزارة الخارجية. وكان رئيسه هو «ويليام ليكلاند» وهو مستعرب قديم من أشد المؤيدين للقومية العربية وجمال عبد الناصر وحكم الأغلبية من أهل السنة. ولأن «أثرتون» لم يكن قد تعلم العربية ، «كان واضحا أننى لم أكن عضوا فى نادى المستعربين» وعليه فبعد فترة عمل موجزة مع «ليكلاند» نقلوه من الشئون العربية إلى الشعبة اليونانية - التركية بالوزارة .

«هكذا تحولت من كونى شخصية كبيرة فى حلب الصغيرة إلى حيث أسندوا لى عملا بيروقراطيا رتيبا فى مكاتب الخارجية . وكان درسا يلقنك كيف تعيد تكييف صورتك عن الذات . ولقد تعلمت فى تلك الأثناء كيف أن واشنطن لاتستطيع أن تفهمك وأنت بعيد خارج الحدود .. تماما كما أنك لاتستطيع فهمها إذ أنت من وراء البحار » .

وكان تكليفا جديدا لم يكن بوسع كل دبلوماسى أن يقوم به . فإذا كان بمقدور معظم المستعربين أن يتعاملوا مع العرب من منطلق مواقعهم الرفيعة فى السفارة فلم يكن بوسعهم أن يتعاملوا مع أندادهم الأمريكان وسط بيئة التنافس المحتدم فى وزارة الخارجية ، لكن تكوين شخصية الدبلوماسى وسمعته إنما كان

يتم وسط تلك الممرات المنعزلة الخانقة للأنفاس ، بعد سنتين أمضاهما فى واشنطن ، أخذ «أثرتون» إجازة دراسية لتعلم الاقتصاد فى جامعة كاليفورنيا فى «بيركل»» ثم أصبح مسئولا اقتصاديا فى قنصلية أمريكا فى كلكتا بالهند، وكانت تلك خطوة فرعية من حيث تدرجه الوظيفى ، لكنها كافية، مع تجربة مكتب اليونان وتركيا لكى تحقق توازنا صحيا مع جانب المستعرب فى حياته المهنية .

عاد «أثرتون» إلى واشنطن ثانية فى عام ١٩٦٥ وكان على رأس مكتب الشرق الأدنى السفير «رايموند هير» الذى عمل دبلوماسيا شابا فى القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، وها هو ذا قد أصبح مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى وعمل «أثرتون» مباشرة مع مساعد هير، وهو نائبه «هاريسون سيمز» وكان المكتب فى تلك الفترة عبارة عن ماكينة استعراب فعالة التروس إذ كان يعمل بوصفه قطب التوازن البيروقراطى إزاء جهاز متزايد الخطورة والحذق يتمثل فى اللوبى اليهودى ويقول المشايعون لمكتب الشرق الأدنى إنه كان الموقع الوحيد فى واشنطن الذى يجد فيه العرب من يسمعهم بأذن صاغية ومنصفة أيضا ، فضلا عن كونه المكان الذى لم يكن للإسرائيليين أو

مؤيديهم موضع قدم عند الباب، وكان من المسئوليات التى أسندت إلى «أثرتون» مسئولية التعامل مع وكالات الإغاثة العاملة فى الشرق الأوسط. يومها لاحظ أنه فيما كانت منظمات مثل «كير» وغيرها من الجماعات العاملة مع العرب تحظى من جانب مكتب الشرق الأدنى بكل صنوف الدعم الدبلوماسى والتعبوى ، كانت المنظمات الغوثية اليهودية المتنوعة العاملة فى اسرائيل تلقى معاملة المواطن من الدرجة الثانية بل لا يعترف المكتب بوجودها . وكان الأمر فى غاية الاستفزاز . وهكذا .. قرر أثرتون أن يغير قواعد اللعبة ، وأن يسلك فى ذلك طريقته التى عرف بها من الهدوء بغير انفعال .

وكانت طريقته هذه التى لم تتعد إلى استعداء الآخرين بالإدارة هى التى دللت على مهاراته المكتبية المتميزة التى لم تفت ملاحظتها على رؤسائه ولا على اللوبى اليهودى ذاته، الذى شرع «أثرتون» فى إقامة علاقات معه ، وبهدوء أيضا ، هكذا جاءت كوامن التعاطف بين «أثرتون» واليهود وقد كانت مستترة أثناء حقبته السورية، لكى توازن تعاطفاته المؤيدة للعرب ، ويلاحظ زميل للسفير «أثرتون» أن روى «كان من التوازن والإنصاف بمكان ، ولم يفصح قط عن آرائه ولست بقادر حتى يومنا هذا أن أصف لك ماهية تلك الآراء» .

ثم شاء القدر، بعد ذلك الانقلاب الصغير الذى قام به «أثرتون» مع وكالات الإغاثة أن أعيد تنظيم وزارة الخارجية الأمريكية لينتهى الأمر بصاحبنا «أثرتون» مديرا للشئون العربية - اليهودية، ثم جاءت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ - ومعها انطلق «أثرتون» من خمول الذكر ليصبح معروفا ومرموقا .

تجدر ملاحظة أنه فيما كانت هناك جوامع مشتركة بين رجال من طراز «كون» و «سيل» و «باركر» و «اندلاند» و «أثرتون» إلا أن ثمة قواسم فاصلة بينهم أيضا مثلا، «كون» و «أثرتون» لم يقدر لهما يوما إجادة اللغة العربية، و «باركر» لم يقدر له أن يدرس فى إحدى كليات القمة .. وهكذا ، فإن التعميم فى الحكم على هؤلاء المستعربين أمر سهل ميسور .. بشرط واحد .. ألا تكون قد التقيت بواحد منهم هنا .. أو هناك .

الفصل السابع

لا وقت للراحة

لم يشهد السلك الدبلوماسي الأمريكي يوما - لحظة واحدة من الراحة أو الفتور. هكذا يقول رجل باسم في غاية الرضا. على عينيه نظارات نصفية ويعلو هامته شعر في لون الفضة.. وقد جلس يحتسي قهوته «الكابوتشينو» في أحد مقاهي شارع فيافينيتو في روما إنه «ت. كلوفيريوس» سفير سابق لدى البحرين ويعمل مديرا عاما لقوة المراقبة في سيناء التي تتخذ مقرها في العاصمة الإيطالية، يبدو محدثنا وكأنه لم يترك شيئا إلا وقام به خلال خدمته الدبلوماسية: في السعودية تعلم فن تحنيط الجثث. يقول «ليس ثمة تحنيط هناك، فالمسلمون يدفنون موتاهم خلال أربع وعشرين ساعة. لكن طبيبا لبنانيا كان يجربه على جثث الأجانب. وقد ساعدته في ذلك يوما وأتذكر أن وضعنا جثة أمريكي في فريزر مقصفنا الذي لم يكن فارغا بحال من الأحوال» بل أتى

حين من الدهر ليشهد الدبلوماسي «كلوفيريوس» مشاركا في تحقيق جريمة قتل اتهمت فيها امرأة أمريكية وعشيقها بتدبير قتل الزوج. وما كان من «كلوفيريوس» - وقد كان يعتقد بإدانة المرأة - إلا أن دبر لإخراجها من البلاد.

ولم تكن تلك هي المغامرات الوحيدة التي أقدم على خوضها السفير «كلوفيريوس».

لقد ولد في بوسطن عام ١٩٣٤.. منحدرا من صلب عالم جغرافي هولندي ومتخذا اسمه أيضا. ونشأ وسط عائلة من ضباط البحرية المحترفين. وبسبب ضعف النظر لم يتمكن من الالتحاق بالأكاديمية البحرية الأمريكية في «أنابوليس» حيث ذهب أفراد آخرون من أسرته. لكن بعد التخرج في جامعة «نورث وسترن» دخل مدرسة مرشحي الضباط التي أوصلته إلى دائرة استخبارات البحرية في واشنطن حيث تعين عليه الاختيار بين عدة لغات فريدة كي يتعلمها. «التقطت روزنامة وقرأت فيها أن هناك عشرين بلدا وأكثر تتحدث العربية. وعليه فقد وضعت العربية خيارا ثالثا بعد الروسية والصينية». واختارته البحرية لدرس العربية ثم أرسلته إلى كاليفورنيا بعد عام من التعلم. وبعدها أوفدوه سنتين في وظيفة تصنت لمخابرات البحرية في قبرص تخللتها رحلات إلى لبنان وسوريا ومصر.

ترك «كلوفيريوس» البحرية عام ١٩٦٢. وأمضى عاما يفكر فى الانغماس فى عالم التجارة والأعمال أو الصحافة. وأخيرا حصل على منحة دفاع قومية لدراسة شئون الشرق الأوسط بجامعة أنديانا.. ولم يطل به الوقت إلا وأصبحت فيتنام قضية ساخنة فى حرم الجامعة. «كانت فترة كئيبة بالنسبة لنا – معشر الدارسين بالجامعة ممن لهم علاقات مع الجيش». وما كان منه إلا أن التحق بالسلك الدبلوماسي فى عام ١٩٦٧ رغبة منه فى مفارقة عالم الجامعة ودوائر يسار المثقفين مع العودة إلى الخدمة الحكومية. وفى أول يونيو ١٩٦٧ أبحر على متن حاملة الطائرات الأمريكية «اندبندنس» فى طريقه إلى العربية السعودية.

فى ميناء لشبونة، تلقى «كلوفيريوس» أنباء الهجوم الاسرائيلى المباغت على مصر نذيرا بحرب الأيام الستة. وكانت السفينة قد بلغت «نابولى» فيما كانت سفارات أمريكا تغلق أبوابها فى كل أنحاء العالم العربى. بيد أن السفارة فى «جدة» كانت لاتزال مفتوحة لتصريف الأعمال. وطار «كلوفيريوس» من «نابولى» إلى «اسطنبول» ومنها إلى «جدة» حيث التقى مع «تالكوت سيل» الذى كان نائبا لرئيس البعثة ثم السفير «هيرمان إيلتس» المسئول عن إبقاء السفارة مفتوحة الأبواب. «هيرمان إيلتس»، قدر له، ومعه

السفير «روى أثرتون» أن يكونا الوحيدين من أهل الاستعراب ممن سمح لهم أن يدخلوا ضمن «شلة» كيسنجر المقربة إليه. وعلى غرار «أثرتون» كان «إيلتس» يعد مستعربا غير تقليدى، بمعنى المستعرب الذى لايبدو أن يضمر آراء مؤيدة للعرب. رجل طويل القامة .. من أهل الصنعة ودود.. لايفارق الغليون أصابعه. مرءوسو «إيلتس» كانوا مولعين بالإشارة إليه على أنه «هيرمان سليل الألمان» فى إشارة إلى أرومته الألمانية وسلوكياته المنتمية إلى عالم المحافظين. إن «إيلتس» يشع من كل جوانحه بالحكمة والخبرة: «حكيم» ينحدر من أوساط الناس يصفه «ديفيد لونج» وهو دبلوماسى آخر كان يخدم فى «جدة» فى ذلك الوقت بأنه يعمل ١٨ ساعة يوميا. وسبعة أيام بلا انقطاع فى الأسبوع، من ناحية أخرى، يلاحظ عضو فى مجلس الأمن الأمريكى القومى بأن «هيرمان إيلتس» واحد من أقدر كاتبى البرقيات الدبلوماسية فى الخارجية الأمريكية.. بفضل ما أوتى من عقلية ثاقبة وفكر منضبط.

ولد السفير هيرمان فردريك إيلتس عام ١٩٢٢ فى بلدة من أعمال سكسونيا الدنيا، وكان والده هو القنصل الألمانى العام فى القدس واسطنبول. وإذ بدأ الكساد الاقتصادى عام ١٩٢٦ يمزق

أوصال النسيج الاجتماعي والاقتصادي في ألمانيا نقل الأب عائلته إلى «سكرانتون» في ولاية بنسلفانيا الامريكية حيث وجد له أقرباؤه عملا في السكة الحديد المحلية، إن غصة لاتزال في حلق السفير «هيرمان» إذ يتحدث عن والده الذى كان يراه عاملا مرهقا مكدودا في السكة الحديد.. والذى كان لايفتأ يلهب خيال ابنه بأحاديثه قبل النوم عن حياة رغدة ومغامرة في السلك الدبلوماسي «لقد ضحى أبى بكل شيء كيما يتيح لى الفرصة في أمريكا.. ومات عندما كنت في «فردان» أشارك في الحرب العالمية الثانية

★★★

ومن يوم تخرجه في جامعة بنسلفانيا كان الفتى يعرف أنه سيكون دبلوماسيا. في يوم من الأيام كان قد سمع عن كلية «فلتشر» للحقوق والدبلوماسية لكنه كان بحاجة إلى وظيفة يدفع منها مصاريف الدراسة. وشاء الحظ أن يبادر هالفورد هوسكنز «أستاذ الدراسات الشرق أوسطية إلى إتاحة فرصة عمل للفتى إيلتس يدرس فيها المركز القانوني للسودان المصرى – الإنجليزى، في تلك الأيام حاول إيلتس أن يرفض قائلا إن اهتمامه متجه صوب الشئون الأوروبية لكن الأستاذ أجابه بقوله: أيها الفتى إن أردت عملا هنا... فأحرى بك أن تقبل ما نقدمه.. وعندما التحق

الفتى بالجيش عام ١٩٤٢ كان اهتمامه بالشرق الأوسط قد ازداد اتقادا.

★★★

وجد نفسه فى نورماندى عام ١٩٤٤ وبعد إصابة فى الركبة أوصلته معرفته كملازم شاب بالألمانية إلى وظيفة فى المخابرات الحربية يتقصى فيها أثر مستندات النازى قبل أن يبادر القادة الهاربون إلى إعدامها أو قبل أن يصل الحلفاء الآخرون إلى وضع اليد عليها. وبعد الحرب استطاع هيرمان إيلتس أن يعوض ما فاته فالتحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٤٧. على أننى أصبحت مستعربا بالصدفة، لم يكن تعلم اللغات قد تطور إلى ما أصبح عليه الآن. وكانت الساحة لا تحوى سوى القلة لدرجة أن معارفى المحدودة باللغة العربية وبأحوال المنطقة أهلتنى لوصف «الخبير» ومن ثم وضعونى فى وظائف من عاصمة لأخرى: طهران، جدة، عدن.. وبغداد.

فى عام ١٩٦٤ شغر منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية فى تل أبيب وناور إيلتس للحصول عليه ولم يكن قد تخلى قط عن رغبته فى أن يصبح دبلوماسيا أمريكيا فى أوروبا وكأنما كان يشعر أنه بهذا يقترب من الدائرة التى كان قد بدأ بها

والده الدبلوماسى الأوروبى. وكان يتصور أن من شأن منصب فى إسرائيل أن يوصله إلى اختتام ناجح لسيرة المستعرب ويشكل من ثم خطوة وسيطة باتجاه أوروبا. ثم أن إيلتس كان يشعر بقدر من عدم الارتياح إزاء صفة مستعرب التى لصقت به وإزاء تلك النوعية من الدبلوماسيين الذين يشغفون بالولاء للثقافات المحلية وقد كتب عليه العمل معهم جنبا إلى جنب. لكن يشاء سوء طالعه أن يكون لدى أفريل هاريمان وكيل الخارجية أفكار مغايرة بالنسبة لمستقبل هيرمان إيلتس.

كان عقد استئجار القاعدة الأمريكية فى ليبيا على وشك الانتهاء، ولم يكن هاريمان واثقا فى السفير الأمريكى فى ليبيا وكان يريد عنصرا مقتدرا فى سفارته فى طرابلس يرقب تطور المفاوضات مع حكومة الملك إدريس السنوسى. وشرح هيرمان لوكيل الوزارة أهمية أن يخدم عنصر مستعرب فى إسرائيل لكى يكون مطلعا على ما يدور فى الجانب الآخر. لكن التمساح العجوز تظاهر إنه لايحسن الاستماع وإنما خفض هاريمان رأسه قائلا: إيلتس سوف تذهب إلى طرابلس.

★★★

وفى عام ١٩٦٥ كوفىء إيلتس على حسن إنجازه فى ليبيا بأن بعثوه سفيرا فى السعودية فى سن مبكرة نسبيا - الثالثة

والأربعين – وعاود وكيل الوزارة وقتها إلقاء محاضرة حازمة على مسامعه حيث قال: أرأيت لو كنت قد وافقت على طلب إرسالك إلى إسرائيل.. لما أصبحت الآن سفيرا.

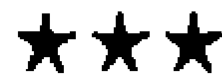
يقول جون كينيث جالبريت أستاذ الاقتصاد فى هارفارد وقد خدم بدوره سفيرا بالهند: أن تكون سفيرا أشبه بأن تكون طيارا: فترات طويلة من السأم وفترات موجزة من الإثارة وقت الأزمات.

وهكذا وفى أوائل يونيو ١٩٦٧ وقبيل وصول «كلوفيريوس» إلى جدة وبعد سنتين أمضاهما هيرمان إيلتس فى عمله كسفير بها واجه واحدة من تلك الأزمات الكبرى:

إندلع القتال فى سيناء ومرتفعات الجولان وكان الفلسطينيون فى أجهزة الإعلام (السعودية) قد أمعنوا فى تبشير الجماهير بوعود الانتصار ثم جاءت أنباء الهزائم العربية تتساقط كالصواعق على الرءوس. وشعر العسكريون بأن هناك من تخلى عنهم فقالوا إنهم لن يظلوا على علاقتهم بالأمريكان. وسارعت أرامكو إلى إجلاء مستخدميها وتلقى إيلتس برقية من واشنطن توصيه بأن يعمل بدوره على إجلاء موظفيه لكن إيلتس رفض طلب واشنطن بإغلاق السفارة.

يقول كلوفيريوس الذى وصل إلى جدة لحظة وصول الأزمة إلى نقطة الغليان كان الفرنسيون يهمسون فى الاذان بضرورة طرد

الأمريكان واعدين بأنهم سوف يديرون أرامكو من بعدهم. كانت أزمة الشرق الأوسط بالنسبة للفرنسيين عبارة عن فرصة تجارية جديدة. على أن إيلتس يتذكر أن أرامكو لم تكن هى المشكلة بل «كانت القضية الحقيقية هى المساعدات العسكرية. كان الفرنسيون على استعداد لتوقيع عقد كبير يشمل ناقلات الجنود المدرعة وكان رحيلنا جديرا بأن يفتح أمامهم الأبواب ليتولوا بدلا منا أمر العلاقات العسكرية».



ثم أن الأمر زاد خطورة بما يتجاوز مجرد المخاوف من الخسارة لصالح الفرنسيين. فكما أن سوريا الكبرى كانت محورا للعلاقات العربية الأمريكية فى مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية كانت السعودية فى الموقع نفسه فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية. رأى فينا أهلها شركاء فى أمور النفط والتجارة تماما كما سبق. ورأى فينا أهل الشام شركاء فى أمور التربية والتعليم. كانت العلاقة قد بدأت رسميا فى فبراير من عام ١٩٤٦ باجتماع الملك عبدالعزيز مع الرئيس روزفلت الذى كان المترجم فيه هو الكولونيل ويليام إدى. وفى الخمسينات توازى دور أرامكو مع دور جامعة بيروت الأمريكية السابق بوصفها ضابط الإيقاع المستتر للعلاقات

العربية – الأمريكية حيث حل محل المبشرين رجال خشنون غلاظ جاءوا من تكساس وأوكلاهوما يمضغون التبغ فى أشداقهم ويصنفون بأنهم أهم أمريكيين فى الشرق الأوسط.

★★★

ولم يكن يرمز إلى هذه العلاقة بصورة أكثر بلاغة ودرامية بأكثر من خط التابلاين، تلك الأنابيب العملاقة من الأسمنت التى يجاورها طريق وقد نقلت النفط باتجاه الغرب من حقول الظهران عند الخليج عبر شمال الجزيرة العربية وحتى البحر المتوسط والبحر الأحمر وهو ما يصفه «أرنست لاثام» الذى كان من معاونى السفير إيلتس بأنه واحد من شرايين حياة الوجود الأمريكى فى الشرق الأوسط.

هذا الوجود، أو تلك الامبراطورية، كان لها أيضا جانبها الرومانسى الذى امتد حتى عقد السبعينات، أى الفترة التى انفجرت فيها أسعار البترول مما جعل السدنة الغربيين يترنحون من هول الموقف. وهنا يسترسل ديفيد لونج فى ذكرياته عن الجزيرة العربية بقوله: إنها كانت فى تلك الأيام الخوالى شيئا عظيما: كانت كيانا أصيلا.. مجتمعا تقليديا دون زخارف أو تزويق لايحمل على كاهله طبقات التمدين التى وضعها العرب فى مجتمعات مصر أو بلاد الشام.

ولقد قيض لكل من «كلوفيريوس» ومعه «لاثام» وموظف آخر من معاونى السفير إيلتس هو «جراهام فولر» أن يعايشوا هذا المجتمع الأصيل بغير تزويق عندما انطلقوا بصحبة حارس من أهل المنطقة مسلح بمسدس عيار ٣٨ مم وسيف ذهبى المقبض فى رحلة طافوا بها الجزء الشمالى من البلاد.

يتذكر «لاثام» قائلا: هذه هى بلاد العرب على فطرتها.. وكما عرفها رواد رحالة مستشرقون من أمثال تشارلس دوتى حيث ترى الرجال وقد تخلل لحاهم الخضاب وأطلت من عيونهم نظرات كالشرر، وحيث يمكن أن تتعرف على واحة اجتاحتها الملاريا من واقع البشرة التى اسودت حيث يكون السكان السود قد اكتسبوا حصانة ذاتية ضد الملاريا، فإن مالت سيارتك إلى واحة قوامها من الأهالي السود فما عليك إلا أن تغادرها لفورك قبل أن تجتاحك أسراب البعوض عند حلول الظلام. ثم يتذكر «لاثام» و«كلوفيريوس» واحة من هذا القبيل صادف فيها عددا من المدرسين الفلسطينيين ويقول: كنا أول قوم من عالم الحضارة يأتون اليهم على مدار عدة أشهر. جلسنا معا نحتسى الشاى ووضعوا بيننا إناء ضخما من فخار يحوى أقراص الكينين وتجاذبنا لساعات أطرافا من أحاديث قبل أن يسدل الظلام

الستور. ثم يضيف «لاثام»: أدركنا كم أن هناك عوامل مشتركة وكثيرة تجمع بيننا وبين هؤلاء الفلسطينيين.

في يوم آخر ضل «لاثام» و«فوللر» بعض الطريق فوجدا نفسيهما وقد تجولت بهما السيارة في ضواحي المدينة المنورة ولها قداسة مكة حيث لايجوز لغير مسلم أن يدخلها وكان على اللاندروفر أن تستدير ١٨٠ درجة عند محطة بترول كي تسارع بالخروج من المدينة.

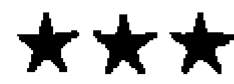
كان الدبلوماسيون الثلاثة لا ينعمون في واقع الأمر بريعان الشباب بل كانوا يحاولون أيضا التعلق بأذيال حقبة كاملة من الزمن، حيث كان الدبلوماسيون الأمريكيون روادا يديرون على قلتهم سفارة صغيرة بشارع فلسطين في جدة بدلا من جموع البيروقراطيين العاملين في مجمع السفارة في الرياض.

ويفسر «لاثام» الأمر بقوله فيما كان القوم في أرامكو يعدون بالمئات كنا نحن لانعدو العشرات. كنا مجرد فتات على كعكة عالمهم النفطي الحافل. وكان لأرامكو مكتبتها الشرق أوسطية ومكتبها للمعلومات الذي كنا نغشاه كي نستقي ما نبغيه – في أعقاب حرب ٦٧ انتهت خدمة لاثام في الشرق الأوسط ونقلوه ليكون من أوائل المختصين بشئون البلقان.

★★★

«سينشيا بارنوم» استشارية دولية فى نيويورك نشأت فى السعودية إذ كانت ابنة ممثل شركة الطيران العالمية الأمريكية الذى يعمل مع الخطوط السعودية تقول: لم يكن ثمة ود مفقود بين الأمريكيين من جماعة النفط والتجارة ومواطنيهم من جماعة السفارة - السلك الدبلوماسى - كما يسمونهم فى جدة بل كانت كل من الجماعتين مقسمة بدورها إلى معسكرين مختلفين: الذين ينعمون بصداقات عديدة بين العرب والذين يقبعون فى بيوتهم يحتسون الخمر ويسخطون على هؤلاء التاعسين من أهل البوادى والقفار. ثم تقول إن الثغرة الواسعة بين الثقافتين الأمريكية والعربية جعلت من الصعب بناء جسور إنسانية بين الطرفين فأنت تخاطر فى ذلك بأن تقع بين المطرقة هنا والسندان هناك. ولن يكون بوسعك أن ترضى أيا من الطرفين. لهذا اختار الكثير نعمة التطرف المطلق: إما أن يكره العرب من ناحية وإما أن ينحاز إلى جانبهم بشكل تام. من ناحية أخرى كان الشعور المحلى بالمنطقة تجاه العلماء والخبراء بالذات شعورا مختلطا. لقد انقضت سنوات حتى عام ١٩٨٠ حين كان «ديفيد لونج» يدير برنامجا للماجستير مخصصا للأمير بندر بن سلطان وقدموه يومها إلى (ولى العهد) فهد بن عبدالعزيز.. ويتذكر لونج كيف كانت عبارات تقديمه

بوصفه مستعربا عبارات مفعمة بالمبالغة والسرف فى الاطناب يومها لمعت عيون فهد وتمتم بآيات من القرآن الكريم فحواها «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً».



على أن هيرمان إيلتس استطاع الإبقاء على مجمل تلك العلاقة بين الرياض وواشنطن خلال فترة حرجة للغاية ولو كان قد أصغى إلى تعليمات واشنطن لتصدعت العلاقة من أساسها على نحو ما حدث للعلاقات الأمريكية - السورية.

ولم يكن إيلتس لينطلق من دوافع مهنية بحتة بقدر ما كان يصدر أيضا عن مطلق المصلحة الأمريكية بألا تخسر ميزة تجارية كان من الصعب كسبها ولصالح دولة غربية منافسة. وليس صدفة أن استطاع إيلتس دون تقديم أى تنازلات إبقاء السفارة مفتوحة فى جدة بمعاونة نائبه سيل وغيره من المساعدين. وكان النصف الثانى من عام ١٩٦٧ فى أعقاب حرب الأيام الستة مرحلة مشوبة بتوتر شديد إذ كان يمكن أن تتصدع العلاقة الأمريكية - السعودية فى أى وقت. هناك أمضى كلوفيريوس تلك الأشهر بوصفه الموظف الأمريكى الوحيد فى الرياض يقوم بكل شيء ابتداء من المهام القنصلية الاعتيادية إلى المساومة على استئجار

البيوت استعدادا ليوم الانتقال من ميناء جدة على البحر الأحمر إلي العاصمة الصحراوية - الرياض، حيث لم يكن مسموحا من قبل بالإقامة للدبلوماسيين الأجانب.

وإذا أعجب إيلتس بجهود كلوفيريوس البالغ وقتها الثالثة والثلاثين قال له «لا بأس عليك: سأجد لك وظيفة مرموقة فور أن تنجز هذه المهمة». كان إيلتس قد درج على تبنى تشجيع الدبلوماسيين من الشباب الذين يحترمهم. منهم مثلا «ويليام روخ» الذى تبناه إيلتس بعد تكليفه بافتتاح أول مكتب صحفى وثقافى أمريكى فى الرياض فأصبح فيما بعد سفيرا باليمن ثم سفيرا فى الإمارات العربية المتحدة وذلك إنجاز يتحقق لموظف فى هيئة الاستعلامات الأمريكية وليس موظفا فى الخارجية حيث الهيئة دائرة منفصلة وحيث كان من الصعب حتى على أنبغ موظفيها أن يكون من موظفى الخارجية أو من السفراء. ومن صنائع إيلتس أيضا «دانييل كورتزر» وهو يهودى أصولى وكان نائبا لعميد جامعة يشيفا فى نيويورك وأوصى إيلتس بتعيينه مسئولا سياسيا بسفارة أمريكا فى القاهرة عام ١٩٧٩ عقب توقيع اتفاقات كامب ديفيد للسلام ويقول: «ربما كان المصريون غير مستريحين لفكرة وجود دبلوماسى يهودى. لكن.. اللعنة! لقد كانت السفارة سفارتنا

بمعنى أن ليس لأحد حق التدخل فى شئونها» وبهذا أصبح «كورتزر» أول يهودى أمريكى يخدم فى إحدى سفارات الولايات المتحدة فى بلد عربى كبير بل كان يأمر بطعام الكوشير اليهودى فيأتيه حسب الطلب إلى حيث يقيم. وفى هذا يقول أحد المستعربين: هناك نوعان من اليهود الأمريكيين ممن عملوا فى شئون الشرق الأوسط بالحكومة الأمريكية: الذين كنا نثق فى أنهم لن يسربوا – الأسرار – إلى الاسرائيليين . والذين كنا لا نثق فيهم: كورتزر كان من النوع الأول.

حرص إيلتس أيضا على أن يجد وظيفة مرموقة لمساعده الآخر «كوفيريوس» عندما حان نقله إلى موقع جديد وكان ذلك فى اسرائيل، حيث المكان الذى سبق وأراد إيلتس نفسه أن يعمل فيه ولم يستطع، بسبب افريل هاريمان.. وفى هذا يقول «كلوفيريوس»: ذكر لى إيلتس أنه ينبغى لى أن أرى كلا الجانبين وألا أعير أى التفات لسخافة العداء للسامية التى كنت قد سمعتها من آخرين كانوا يعملون فى السفارة.

عرضوا على الدبلوماسى الأمريكى «كلوفيريوس» العمل فى سفارة أمريكا فى إسرائيل، وهو يتذكر هذا العرض فيقول «كان العرف الدارج يحكم عليك ألا تتاح لك العودة إلى العالم العربى

بعد خدمة تقضيها فى إسرائيل. وعليه فقد تلقيت أخبار العرض الجديد بقدر كبير من التوجس والمخاوف والفضول». على أن كلوفيريوس إنما كان يقتحم مجالا جديدا فلم يسبق لأى مستعرب من قبل أن خدم فى إسرائيل. وكان الأمر يتطلب قدرا غير عادى من التحوط والحذر. كان عليه مثلا أن يروى أكاذيب بيضاء لأصدقائه من عرب الجزيرة حول موقعه الوظيفى الجديد، وعندما جاء الحمالون لنقل أمتعته أبلغوهم بأن يضعوا على الصناديق ملصقا يقول «الجهة المقصودة قبرص» وكان الترتيب أن يعاد تغليف وتعبئة الأمتعة لترسل من قبرص إلى إسرائيل وفى ٤ يوليو ١٩٦٩ وبعد بضعة أيام من التخلى عن حياته التى أمضاها كمستعرب فى العربية السعودية وصل «كلوفيريوس» إلى تل أبيب حيث شرع لفوره فى دراسة العبرية. «وكان لدى الاسرائيليين مقدار من الفضول والتشكك يفوق ما كان عندى. ولقد تعرفت إلى أصدقاء كثيرين فى مجتمع الأثريين المحلى بفضل الصور التى كنت أقتنيها للمواقع النبطية فى السعودية حيث لم يكن باستطاعة الاسرائيليين الذهاب إليها. وكان رد فعلى المبدئى تجاه إسرائيل إيجابيا إذ كان أداؤها أفضل قليل عما هو. الآن كنت متزوجا ولى طفل واحد فى عام ١٩٦٩ ووجدنا فى تل أبيب خدمات ومرافق

طيبة من حيث السكن والمدارس وكان ذلك فى أعقاب نشوة انتصار حرب ١٩٦٧ حيث كان الاسرائيليون بانتظار مكالمة هاتفية لصنع السلام من الملك حسين».

بعد ذلك استطاع دبلوماسيون أمريكيون كثيرون النسج على منوال كلوفيريوس.. «توماس بكرنج» مثلا انتقل من كونه سفيرا لدى الأردن ليصبح سفيرا فى اسرائيل. «ريتشارد فيتس» و«نيكولاس فيلوتس» تحركا فى الاتجاه المضاد: من مساعد رئيس البعثة فى السفارة بتل أبيب إلى سفير بالأردن. بيد أنه كلما تحرك الفرد إلى أعلى زاد ابتعاده عن معطيات الواقع المحلى فيما تقل قدرته على التنقل والترحال. ومن ثم فتجربة أن تكون سفيرا أمريكيا فى بلد عربى كالأردن ليست مغايرة كثيرا عن أن تكون سفيرا أمريكيا فى إسرائيل. ذلك لأن تقنيات الدبلوماسية متماثلة بقدر تماثل سيارات الليموزين الفارهة أيضا . لكن كلوفيريوس كان فى ذلك الوقت من شباب الدبلوماسيين الذين كتب عليهم الانتقال من دقائق الحياة فى العربية السعودية إلى دقائق الحياة فى اسرائيل. أول مهمة اسندوها إليه كانت فى المجال الاقتصادى ليعالج أمر التبرعات الخيرية الأمريكية التى انتقلت بعد الاستيلاء على الضفة الغربية من مقرها فى عمان الأردنية إلى تل أبيب بما

يكفل مواصلة تقديم خدماتها الإنسانية للفلسطينيين. وكانت تشمل مؤسسات كير والغوث الكاثوليكي والخدمة اللوثرية العالمية. وكان التعامل مع الاسرائيليين بمثابة صدمة انتابت تلك المؤسسات الخيرية حيث اتصف الاسرائيلون بمزيد من الكفاءة وقليل من أدب السلوك وكثير من الطلبات بأكثر مما كان عليه نظراؤهم العرب. لكن الأمر بالنسبة إلى «كلوفيريوس» انطوى على إمكانات النفاذ بالبصيرة، لا إلى جوهر سلطات الاحتلال الاسرائيلي فحسب، بل إلى ردود فعل العاملين فى تلك المؤسسات المسيحية الغوثية إزاء اليهود المتشددين، إذ كانت همزة الوصل لكل من المؤسسات الخيرية والدبلوماسى كلوفيريوس هى وزارة الرعاية الاجتماعية فى إسرائيل وكانت فى تلك الفترة بيد الحزب الوطنى الدينى.

يقول «كلوفيريوس»: «في تلك الفترة كانت إسرائيل تتخير أفضل عناصرها لتضعهم فى مواقع الحكم العسكرى للضفة الغربية أملا فى كسب قلوب العرب وعقولهم لدرجة يمكن معها القول إن فى المراحل الأولى من الاحتلال كان يمكن لجيش الدفاع الإسرائيلى أن يكسب فى انتخابات شعبية بالضفة الغربية. لكن ما لبث النقاب أن انكشف عن واقع السيطرة الاستعمارية والفساد الذى يرافقها وجاء ذلك بالتدريج».

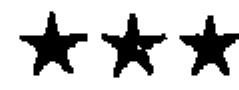
«عندما غادرت إسرائيل عام ١٩٧٢ كنت قد بدأت أشهد فسادا هائلا ضاربا أطنابه فى صفوف المؤسسة المدنية العسكرية الاسرائيلية بالضفة الغربية. وكان ذلك على شكل عمليات الإذلال والإرهاب الجسدى فضلا عن الرشاوى الصغيرة مما تعين على العرب أن يدفعوها للموظفين الاسرائيليين. وما أن جاء الليكود - بيجن إلى السلطة عام ١٩٧٧ حتى عمدوا إلى تشجيع هذا الإذلال لكرامة البشر فوضعوا فى الضفة الغربية أخبث عناصر اليهود العراقيين ومن سواهم من يهود الشرق - سفارديم من أجل اضطهاد العرب. ومن الأسباب غير المذاعة عن بقاء اسحق رابين وزيرا للدفاع حتى أواخر الثمانينات أنه كان يريد استعادة نزاهة جيش الدفاع الاسرائيلى فى الضفة الغربية».

يتحدث السفير «كلوفيريوس» عن إسرائيل بنفس الطريقة التى يتناول بها أفضل المستعربين حديثهم عن الأقطار العربية، لا من منطلق المشجع وحسب، بل من منطلق المطلع على بواطن الأمور. يعرف القاموس المستخدم وظلال المعانى المطروحة والتناقضات الحاصلة والجوانب الإيجابية والحماقات المدمرة للذات. وعندما تصغى إليه فأنت تدرك مكمن سوء الفهم تجاه إسرائيل الذى يتسم به المستعربون من أصحاب المبشرين ألا وهو العجز عن

إدراك حقيقة الآخر: بمعنى أنه بقدر ما أن سوريا أو الجزيرة العربية تشكل عوالم أكثر تعقدا واكتمالا مما توحى به الصور النمطية المنطبعة عنها بالأسود والأبيض.. فكذلك الأمر مع إسرائيل. وكما أن للمستعربين أصدقاء حميمين ومعارف مقربين طوال العمر فى العالم العربى ويشكلون عنصرا إنسانيا حساسا قلما تأخذه فى الاعتبار آليات السياسة الواقعية، فإن للدبلوماسيين الذين خدموا فى إسرائيل أصدقاء ومعارف هناك. على أن المستعربين أشبه بالرحالة - المكتشفين ويعنيهم الحرص على الواقع المشاهد بالتجربة العملية وهم لا يقبلون بوجود شىء إلا إذا تيسرت لهم مشاهدته وسماعه بل ومعايشته شخصيا كما قد نقول.

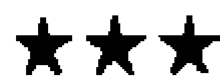
«المستعربون فى معظم الحالات ليسوا متحيزين ضد إسرائيل من منطلق مشاعر عاطفية عميقة بل لأنهم لم يتعرضوا للتجربة ببساطة» . إن كلوفيريوس يعنى بهذه العبارات أنهم لم يقدر لهم قط العيش فى إسرائيل وفى هذا يقول أيضا صمويل لويس سفير أمريكا فى إسرائيل بين عامى ١٩٧٧ و١٩٨٥ «المستعربون ثم الدبلوماسيون الأمريكيون العاملون فى اسرائيل يأتون من نسقين مختلفين تماما من أنساق التجربة الشخصية: فالمستعربون

استقوا أصدقاءهم وتجاربهم من واقع العالم العربى أما الدبلوماسيون الأمريكيون فى تل أبيب فهم اختصاصيون فى الشئون السوفيتية أو الآسيوية أو أمريكا اللاتينية وكانوا ينشدون العمل خارج مناطق اختصاصهم. لهذا حرصت أنا وروى أثرتون على الإلحاح على مباشرة عملية تخصيب متبادل بين الطرفين فى أواخر السبعينات فى محاولة لاستخدام المستعربين فى إسرائيل وبالعكس».



وإذا كان كلوفيريوس رائدا فى هذا المجال فقد عمد إلى استخدام الحقيبة الدبلوماسية لإرسال نسخ من كتاب عاموس ألون بعنوان «الاسرائيليون المؤسسون والأبناء» إلى الأصدقاء الدبلوماسيين فى كل أنحاء العالم العربى وكتاب - ألون - المنشور لأول مرة عام ١٩٧١ عبارة عن دراسة سيكولوجية بليغة لأول جيلين فى إسرائيل. ويقف الكتاب شاهدا علي وجود مؤسسة حزب العمل الليبرالية وينزع إلى التهكم على حقيقة الطابع اليهودى الشرقى لاسرائيل التى طفت على السطح أكثر وأكثر مع انصرام السبعينات مما يجعله دليلا لما أصبح يعرف باسم إسرائيل الجميلة. إن مناحم بيجين الذى تولى فيما بعد رئاسة

الوزارة وهو زعيم منظمة الأرجون السرية - الإرهابية - لايظهر اسمه فى فهرست اسماء الأعلام بالكتاب، من هنا يكتب ألون عن إسرائيل بغير الليكود وبغير المستوطنين من الجناح اليمينى - المتعصب - وأيضا بغير السفارديم - اليهود الشرقيين - تلك إذن إسرائيل التى يمكن أن يهضمها على الأقل كثير من المستعربين. وبالمناسبة فقد ذكر «ناتانيل هوويل» وهو مستعرب وكان سفيرا لأمريكا فى الكويت وقت الغزو العراقى أنه وجد إسرائيل فعالة نابضة بالحياة عندما زارها لأول مرة عام ١٩٧١ حيث «وجدت حساسية وقيادة عالمية الاتجاه على نحو لم اكتشفه فى السنوات اللاحقة».



والحاصل أن كثيرا من المستعربين الأمريكيين باتوا أخيرا فى السبعينات وبكل معانى الكلمة على مشارف الراحة النفسية إزاء الحقيقة القائلة بدولة يهودية. لكن جاء انتخاب بيجن لرئاسة الوزارة فى مايو ١٩٧٧ ليطوح بهم بعيدا إلى روح الخمسينات بمعنى السخط على تقسيم فلسطين. وقد صدق تالكوت سيل فى إحساسه بأن سياسات الليكود تتنافى أخلاقيا مع مصالح إسرائيل فى الأجل الطويل. ولقد جاء بيجن ليتبع سياسات

متشددة وبرغم أنه كان يوحي بدرجة من الاحترام فإن الدبلوماسيين وجدوا أنه من الصعب التعامل معه على أساس شخصي ثم أنه كان يمثل فى عيون الكثيرين الصورة النمطية السلبية عن اليهودى الأوروبى المثير للمتاعب، وإذ قدر للدبلوماسى كلوفيريوس أن يشهد تدهور المجتمع الاسرائيلى فى ظل الليكود فهو يتكلم بحمية صديق حقيقى لما يسميه إسرائيل الجميلة حين يقول:

«إنهم يعطون لمناحم بيجن أكثر مما يستحق عن كامب ديفيد وما كان لمعاهدة سلام أن تتم بين مصر وإسرائيل لولا وجود نماذج من حزب العمل من أمثال موشى ديان وعيزر وايزمان واهارون باراك ممن أسدوا النصيحة إلى بيجن وهم الذين ظلوا يضغطون صوب ابرام الاتفاق. على أن بيجن كان من التعقل إلى حد إدراك أن ليس فى صفوف الليكود موهبة يعتد بها. وهكذا كان اتجاهه لطلب المساعدة من حزب العمل. أما أريل شارون فقد ظل يوزع الاتهامات بغير أساس حول انتهاكات مصر للمعاهدة (مع إسرائيل).

★★★

إن «عاموس ألون» الكاتب المثقف والجنرال شارون بطل الحرب الذى تحول إلى سياسى من الجناح اليمينى هما بمثابة

طرفى حركة البندول التى تتحول على إيقاعها العواصف التى يسجلها المستعربون تجاه السياسات الاسرائيلية. إن السفيرة ابريل جلاسبى إذ كانت مستشارا سياسيا ونائبا لرئيس البعثة فى دمشق عام ١٩٨٢ هتفت فى مكتبها أمام كاتب هذه السطور قائلة: أوه! عاموس ألون: لله دره من رجل !

وهكذا فما عليك إلا أن تذكر اسم عاموس ألون إلا وتنطلق قلائد المديح من أفواه المستعربين فإن ذكرت شارون فلن يقتصر الأمر على السفير سيل وسط مسئولى إدارة الشرق الأدنى فى الخارجية الأمريكية ممن يجدون وزير الدفاع الإسرائيلى السابق فظا غليظا، كارلون كون يقول: عندما يتحدث شارون ويبتسم فهو أشبه بجورنج - زعيم النازى المقيت - أما لوشيوس باتل السفير السابق لدى مصر ومساعد وزير الخارجية للشرق الأدنى ورئيس معهد الشرق الأوسط فى واشنطن فيقول: إن شارون واحد من أفسد وأخبث الشخصيات فى هذا القرن.

الجنرال إيريل شارون بجرمه المكتنز وسلوكه الأشبه بوغد من الطراز التقليدى يتحمل وزر خطايا لا يستهان بها: بعضها معروف أكثر من سواه: فى منتصف الخمسينات. قاد عددا من أسوأ الغارات تعصبا لأرهاب المدنيين الفلسطينيين فى قطاع غزة.

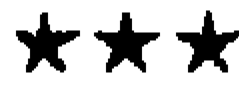
وفى عام ١٩٨٢ كان من شأن سياساته أن سمحت لوحدات الميليشيا المارونية باقتحام مخيمى صبرا وشاتيلا فى بيروت حيث ارتكبت عناصر الميليشيات مذبحة. وخلال توليه وزارة الدفاع الإسرائيلية فى أوائل الثمانينات كانت معاملته للسكان البدو المحليين عارية من اللياقة والكرامة. يتذكر أحد الدبلوماسيين الأمريكيين لقاء مع شارون فى إسرائيل حيث وقف شارون على رأس الرجل منتقدا السياسة الأمريكية بألسنة حداد متناسيا حقيقة أن أمريكا كانت تحول بلايين الدولارات نقدا وعدا إلى البلاد من أجل تعويم اقتصاده النيوستالينى. يقول الدبلوماسى الأمريكى: كان يوما قائظا وكان قميص شارون قد انفتح إلى أسفل من فرط بدانته وكان بوسعك أن تلمح العرق يتصبب فوق كرشه ليشكل بركة صغيرة فوق الأرض.

كان شارون يكره الدبلوماسيين الأمريكيين كراهية التحريم. ولم لا يفعل وقد كان مبغضا كذلك للدبلوماسيين الإسرائيليين؟ رأى فيهم حفنة من المأفونين المستعدين لإعادة تسليم أرض إسرائيل لمجرد إنشاء علاقات دبلوماسية مع المزيد من البلدان. لكن يظل من المشكوك فيه بكل مقياس حتى فى ظل خيال موغل فى التصور - التطرق إلى ايريل شارون بوصفه واحدا من أقسى

وأسوأ شخصيات العقد الأخير ناهيك عن القرن بأكمله وذلك فى ضوء ما شهده العالم فى السنوات الأخيرة من شخصيات رجال من طراز نيكولاى شاوسيسكو فى رومانيا وآية الله الخمينى فى إيران وصدام حسين فى العراق وبول موت فى كمبوديا ومنجستو هايلا مريام فى إثيوبيا المسئول عن تشريد ملايين من البشر من ديار آبائهم ناهيك عن مسئوليته عن المجاعة التى راح ضحيتها الملايين. ثم هناك بارونات الحرب فى الصومال والصرب ممن جعلوا الملايين يتضورون جوعا بل وأقاموا لهم معسكرات اعتقال بكل معنى معسكرات الاعتقال، إن المبالغات التى اكتنفت اريل شارون والتى ظل يرددها بغير انقطاع المستعربون - الأمريكيون - حول ذلك الجنرال الإسرائيلى الشديد البدانة والوقاحة، الداهية اللامع فى أمور التكتيك أليست تقود إلى طرح سؤال لامناص من طرحه: أهو شارون ذاته الذى يكرهون؟ أم شارون هذا مجرد ذريعة تريحهم ويتعللون بها للتنفيس عن بغضهم الذى يضمرون لاسرائيل؟ .

وهل اسرائيل مقبولة لديهم عندما تكون كاملة الأوصاف من الناحية الأخلاقية؟ إن السفير كلوفيريوس سوف يجيب على ذلك بأنه ينبغى لزملائه أن يدركوا الظلال الرمادية الفارقة بين اسرائيل

الجميلة عند المثقف «ألون» وتلك التى يراها شارون. لكن الأمر الذى لا يخفى بحال هو أنه فيما يعكف قدامى المستعربين على الإسهام أمام زائرهم فى شرح التعقيدات الرهيبة التى ينطوى عليها تفسير الواقع العربى وهم يمضون ساعات فى ذلك ولكنهم لايكادون يأبهون بأن يروا إسرائيل من خلال صورة نمطية سلبية شديدة التبسيط.



يقول كلوفيريوس إن ذروة خدمته الدبلوماسية فى اسرائيل كانت عندما سألته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل إذا التقته فى مكتبها إبان حفل استقبال: كيف ترى اسرائيل العالم العربى خارج حدودها؟ قلت لها «إن الاسرائيليين كانوا على قدر من السذاجة والخطأ فيما يتعلق بكثير من الأشجار العربية المغروسة هنا أو هناك ولكن لديهم فكرة طيبة عن مجمل الغابة العربية التى يتعاملون معها. وقلت لها أيضا إن اسرائيل ساذجة فى تصوراتها عن المشاعر الحقيقية الكامنة فى نفوس عرب إسرائيل وكذلك أهل الضفة الغربية».

ومن عجب أن خدمة كلوفيريوس فى إسرائيل فى أعقاب خدمته بالسعودية أدت إلى دفع ترقيه الوظيفى بدرجة غير عادية

بدلا من إنهاء اختصاصه كواحد من المستعربين. وكما وجد أثرتون نفسه مسئولا عن مكتب الشئون العربية بالخارجية خلال حرب الشرق الأوسط عام ١٩٦٧ وجد كلوفيريوس نفسه مسئولا عن نفس المكتب فى حرب ١٩٧٣، وعندما بدأ وزير الخارجية هنرى كيسنجر رحلاته المكوكية فى نهاية ذلك العام بدأ كلوفيريوس فى البروز بوصفه كبير المسئولين عن الصياغة للاتفاقات المختلفة التى كانت مطروحة إذ كان زملاؤه يرون فيه ممثلا لطرفى النزاع. وفى عام ١٩٧٦ وقبل أقل من عشر سنوات على التحاقه بالسلك الدبلوماسى رشح كلوفيريوس سفيرا لدى البحرين وقلما شهد تاريخ الدبلوماسية الأمريكية موظفا ترقى من رتبة صغيرة ليصبح سفيرا فى مثل هذا الوقت القصير.

عندما قرر السفير هيرمان إيلتس مقاومة اقتراح واشنطن بإجلاء موظفيه فى سفارة أمريكا فى جدة خلال حرب عام ١٩٦٧ أدى هذا إلى دفع تقدمه الوظيفى إلى الأمام فى الأجل الطويل علي الأقل وهو فى هذا يقول: قليل من الدفع يصلح الأمور .. يفيد ولن يضر فى كل حال.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يتمرد فيها إيلتس على مسار التفكير السائد والطرح التقليدى: قبل اندلاع حرب ١٩٦٧ كان قد

أوصى ومعه سفير أمريكا فى ليبيا - فى ذلك الوقت «ديفيد نيوسوم» - بإرسال مدمرات بحرية أمريكية عبر مضايق تيران بمدافع مصوبة على طريقة كورفو - بمعنى غير متأهبة للانطلاق (نهجا على سابقة إرسال سفن حربية بريطانية فى مظاهرة بين ساحل كورفو اليونانى والبانيا ذات النظام الشيوعى تأييدا لليونان وترويعا لألبانيا). وكان القصد هو استعراض أمريكى للقوة أمام مصر وضد إغلاق خليج العقبة بوجه الملاحة الاسرائيلية ولتطمين الاسرائيليين بأن الولايات المتحدة عاقدة العزم على الوفاء بالتزاماتها تجاه أمنهم على نحو ما قطعته بعد حرب سيناء ١٩٥٦.. يقول إيلتس: المستعربون الآخرون كانوا ضد هذا الاقتراح وانطوى الأمر على ممارسة الولاءات المحلية من جديد.. بيد أن أفضل قوات عبدالناصر كانت وقتها متورطة فى اليمن ومن ثم فلم يكن للمصريين أن يقصفوا سفننا.

«كان الجيش المصرى يساند القوى الوطنية فى ثورة اليمن وقد واصلت الحرب الأهلية هناك من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٩ ثم أن الاسرائيليين عندما يروننا جادين فى حمايتهم كان يمكن ألا يشعروا بضرورة شن هجوم إجهاضى مباغت على مصر على نحو ما فعلوا لفورهم».

★★★

هذا التفكير المستقل ربما يكون قد لعب دورا فى المنصب الذى أسند إلى إيلتس بعد وهو نائب قائد الكلية الحربية الأمريكية فى بنسلفانيا. وكان ذلك نوعا من المنفى الدبلوماسى وكان على إيلتس أن يأوى إلى عزلته تلك إلى أن جاءت إحدى ليالى خريف عام ١٩٧٣ فى أعقاب حرب أكتوبر عندما تلقى مكالمة من جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى يأمره بالقدوم إلى واشنطن «لأن الوزير كيسنجر يريد أن يتكلم معك».

كان كيسنجر يستعد لأولى جولاته الدبلوماسية فى عواصم الشرق الأوسط وبدأ محادثة أيلتس بأن سأله عن الملك فيصل، عاهل السعودية قائلا: «سمعت أن فيصل معاد لليهود وأنا يهودى فقل لى كيف أتعامل معه؟» أجاب أيلتس قائلا لكيسنجر: «كل ما هنالك عليك أن تدع فيصل يتكلم ويتكلم ويتكلم وسوف يحاضرك عن المؤامرة الصهيونية وما إلى ذلك. وما عليك إلا أن تسمع بهدوء وأدب وبعد ذلك - كما شرح أيلتس - ستأتى لحظة يشير فيها فيصل إلى مسجل اللقاء بأن يغادر المكان فتلك هى نسخة الاجتماع التى سوف ترسل إلى منظمة التحرير الفلسطينية - وبعد ذلك يستطيع فيصل وكيسنجر أن يتحولا إلى الكلام الجاد والتعاون المفيد.

وقد لاحظ كيسنجر أن إيلتس كان من القلائل الذين أوصوا بكسر حصار عبدالناصر الذى فرضه على مضايق تيران فى عام ١٩٦٧. وإذ أومأ ايلتس موافقا عرض عليه كيسنجر أن يكون سفيرا فى مصر حيث كان متوقعا استئناف العلاقات الدبلوماسية فى غضون أيام بعد أن كانت قد قطعت عام ١٩٦٧. وعاد إيلتس إلى موقعه فى تلك الليلة لإعداد حقائبه. ولأن كيسنجر قام أيضا بتسريب الخبر بأن إيلتس سوف يصحبه على طائرته إلى الشرق الأوسط ثم يبقى فى القاهرة لتولى مسئولياته الجديدة فقد رتب إيلتس لشحن أمتعته فى وقت لاحق.

عمل «هيرمان إيلتس» سفيرا لأمريكا فى مصر فى الفترة بين عامى ١٩٧٤ حتى ١٩٧٩ ولم يقتصر الأمر على أنه كان من المقربين ضمن دائرة كيسنجر الضيقة من مستعربى الخارجية الأمريكية بالنسبة إلى سياسة كيسنجر بالشرق الأوسط ولا يشاركه فى ذلك سوى الفرد أثرتون بل أن إيلتس كان من المقربين إلى الرئيس جيمى كارتر أيضا.

شهد إيلتس وشارك فى عدد من الأحداث التاريخية: اتفاق سيناء لفصل القوات وقد لعبت فيها أمريكا دور السمسار بين مصر وإسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ثم زيارة الرئيس المصرى

السادات المفاجئة إلى القدس عام ١٩٧٧ وبعد ذلك اتفاق كامب ديفيد.

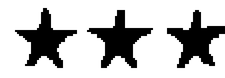
برهن إيلتس على أنه شديد المراس حقا. يقول أحد المشاركين في كامب ديفيد: إن إيلتس كان هو الذى يفسر شخصية السادات إلى كارتر وفانس وزير خارجيته وبريجنسكى مستشاره للأمن القومى. وإذا لم يكن أحد من هؤلاء يعرف كيف يفهم السادات كان إيلتس هو الذى يقول لهم متى يكون السادات جادا ومتى يكون منغمسا فى بلهوانات استعراضات مسرحية. ثم إن إيلتس كان حريصا على معاملة رئيس الوزراء بيجن باحترام محسوب كلما التقى به. كان يعرف أن وجود مستعرب سفيرا فى مصر قد يجعله محل شك فى أعين الاسرائيليين، لكنه اكتسب ثقة بيجن بل كان يرسل إليه باستمرار مذكرات مهذبة. وعندما توفيت زوجة بيجن كتب إليه رسالة شخصية ومطولة، كل ذلك رغم أن إيلتس على مستوى السياسة كان يكره مناحيم بيجن.

إن موقع «هيرمان إيلتس» فى التاريخ سيكون متصلا فى الأساس بسنوات خدمته فى مصر ، وتلك فرصة عمل يدين فيها إلى فراسة كل من سيسكو وكيسنجر بالنسبة له. ومن الواضح أن محور تقييم كيسنجر له هو قدرته على إبقاء سفارة أمريكا فى

جدة مفتوحة واستعداده لأن يعارض جميع زملائه فيوصى باستعراض عسكرى للقوة فى مضايق تيران. وهنا يتذكر جوزيف سيسكو قائلا: «هنرى وأنا رأينا أن إيلتس هو أفضل من صادفنا: كان متوازنا بأكثر من سائر المستعربين أما هنرى فقد رأى أنه لن يقامر به كما فعل بآخرين».

على أن المرء قد يشعر هنا بشىء آخر فى تقارب الرجلين دون أن يعترف به لا إيلتس ولا كيسنجر أيضا. فبرغم أن إيلتس ليس يهوديا مثل كيسنجر إلا أنه مثله ابن عائلة لاجئين ممن هربوا خشية الاضطراب السياسى فى ألمانيا. وعاش كلا الصبيين تجربة المهاجر إلى أمريكا فى نفس المرحلة تقريبا. والأهم أن كلا الرجلين احتفظ بين جوانحه الموروثة فيما يبدو وبصورة عميقة بما يشكل إطارا مرجعيا من تاريخ القرن التاسع عشر كى يفسر على أساسه ما تتكشف عنه حقائق الزمن الحالى.. يقول إيلتس: أنا أكن إعجابا شديدا لهنرى كيسنجر. كان العمل معه متعة فكرية، له ذهن لامع لا يلبث أن يقدح أفكارا. والأهم من ذلك أنه كان من أصحاب الرؤى النظرية يتطلع قدما إلى الطريق الذي ينبغى أن يسلكه. إن ما لا يدركه باستمرار المستعربون وغيرهم من أهل الاختصاص أن الجزء من العالم الذى ينتمون إليه لا يشكل سوى جانب من الصورة الأوسع فى مجملها وهم لم

يفهموا قط أن كيسنجر إنما كان يعمل على صعيد أوسع نطاقا بكثير بمعنى أنه كان يتعامل فى وقت واحد مع جميع أجزاء الكرة الأرضية.



بيد أن إيلتس خاض بالفعل مواجهات مع كيسنجر: «هنرى أستاذ فى فن رواية القصص مبتورة علي طريقة «ولا تقربوا الصلاة» وقد قدمت له استقالتى مرتين وأظن أننى واحد من سفراء قلائل ممن وقفوا بوجهه ولم يحنق علي ذلك بصورة ما بل بدا وكأنه يحترم هذا الموقف. وكنت من بين قلة من السفراء الذين لم يوجه اليهم انتقادا يوما من الأيام ★ .

★ فى أول مايو ١٩٩٢ منح هيرمان إيلتس كأس السلك الدبلوماسى وهو واحد من أرفع الأوسمة التى يمكن أن يحوزها دبلوماسى أمريكى. وتقول براءته: «هيرمان فردريك» إيلتس الجندى والدبلوماسى والمربى بدأ حياة مهنية طويلة ومتميزة ضابطا فى المخابرات العسكرية فى الحرب العالمية الثانية وأمضى ٣٢ عاما فى السلك الدبلوماسى توجت بتعيينه سفيرا لدى العربية السعودية ومصر، وكان المستعرب المتمكن فى الخارجية وبهذا كان ملهما لزملائه من أهل الاختصاص. وعندما تقاعد عام ١٩٧٩ أصبح أستاذا بارزا للعلاقات الدولية فى جامعة بوسطن حيث أنشأ مركز العلاقات الدولية ومن بعده قسما مستقلا للعلاقات الدولية.

إن قرار إرسال مستعرب مثل «كلوفيريوس» ليخدم فى إسرائيل ، وقرار استدعاء مستعرب آخر من نفس الطراز مثل «إيلتس» من المنفى الوظيفى تم اتخاذهم على أساس خلفية من التحولات الجوهرية التى طرأت على إدارة شئون الشرق الأدنى فى الخارجية الأمريكية ومن ثم على مجمل تاريخ المستعربين الأمريكان. ولأن هذه التحولات شكلت قوسا واسعا قبل أن تتجسد فى منعطف حاد فقد شملت تيارات متنافسة وعديدة كان من شأنها إخفاء ما كان يدور من وراء الستار لسنوات عدة فيما لاتزال تحمل مغزاها من حيث التحول المهم الذى طرأ على حياة الأفراد الذين تأثروا بها.

فحتى عام ١٩٦٩ يسهل إصدار تعميمات حول إدارة الشرق الأدنى، بل وعلى مجمل دوائر الاستعراب الأمريكية، لكن منذ ذلك الحين فصاعدا تغير المنظر الاستعرابى الشامل ليصبح غابة متشابكة الأغصان ومتداخلة الطيوف والألوان. أين هذا من الخطوط القليلة والواضحة فى الماضى؟ وقد شملت عناصر المبشرين ومراقبى الطيور وأنماط على شاكلة لوى هندرسون. لكن ظلت دوائر الجامعة الأمريكية فى بيروت استثناء شديد التميز وسط هذه العملية التى استجدت من التحديث الثقافى والسياسى.

إلا أن وزارة الخارجية تطورت بدورها بفعل عاملين نجمت عنهما سلسلة من التداعيات كان أولهما - ولعله الأقل إثارة - يتعلق بالإصلاحات التى طرأت داخل صفوف وزارة الخارجية نفسها وكانت جارية منذ عقد الخمسينات حيث جاءت الخارجية بالمزيد من العناصر من الأقليات والجماعات الإثنية وأبناء الطبقة الوسطى. أما العنصر الثانى والأهم فكان يتمثل فى الفلسفة السياسية للرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون الذى تم انتخابه فى نوفمبر ١٩٦٨ والتى جاءت ترجمتها بمثابة ثورة من نوع ما فى إدارة شئون الشرق الأدنى.

الفصل الثامن

خبراء المنطقة.. ساخطون

جاءت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ بمثابة حدث زلزالى أدى إلى تغيير فى حدود الشرق الاوسط.. يقول المؤرخ السياسى «ويليام كوانت».. فى واقع الأمر فإن عملية السلام التى شهدتها السنوات الأخيرة قصد بها فى الأساس أن تعالج ما نتج عن أحداث ذلك الصراع، لكن فى عالم المناورات البيروقراطية فى واشنطن جاءت حرب الأيام الستة بنتائج شديدة الخلط والاضطراب.. شذرات متداخلة من التفاصيل التى لا توصل إلى صورة ذات معنى أو تأثير، وجاء الأمر بالنسبة لمستعربى وزارة الخارجية محاطا بغلالات من التوتر والغموض سواء فيما يتعلق بالتعبئة لتلك الحرب أو ما نتج عنها من عواقب..

فعندما عمد الزعيم المصرى جمال عبد الناصر لتصعيد التوتر فى الأسابيع السابقة على اندلاع المعارك سادت مناقشات

كثيرة فى أروقة إدارة الشرق الأدنى وغيرها من أفرع الحكومة الأمريكية عما ينبغى القيام به وان لم تنشب معارك ضارية حول السياسات التى يتبعها الفرقاء.. وكما يلاحظ كوانت كان المستعربون والاسرائيليون كذلك يقفون فى نفس الجانب الذى يقول: إن على واشنطن أن تظل بعيدا عن هذا الصراع الذى بدأ يضطرم : كان المستعربون ينطلقون من فكرة أن من شأن حرب تقع أن تضعف على الأرجح من موقف اسرائيل، أما الاسرائيليون فكانوا ينطلقون عن الفكرة العكس وهى: إن بوسعهم أن يكسبوا الحرب إذا لم يتدخل أى طرف لمساعدة العرب.

★★★

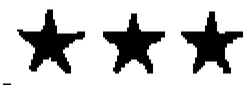
الرئيس ليندون جونسون كان على غرار من سبقوه: دوايت أيزنهاور وجون كيندى، يحبذ بقاء الحالة الراهنة فى الشرق الأوسط، مزيج من التعاطف مع اسرائيل ولكن بدرجات متفاوتة ثم صداقة مع العرب والأهم من ذلك رغبة فى تفادى وقوع النزاع. ولأن جونسون كان رئيسا قليل الخبرة يفتقر إلى أى آراء ثابتة بشأن الشرق الاوسط فقد كان يتلقى المشورة عن الموضوع دون تمحيص أو رؤية وكثيرا ما كانت النصائح التى تسدى اليه متناقضة .

★★★

كان المستعمربون باستثناء هيرمان إيلتس وديفيد نيوسوم، يعارضون إرسال سفن أمريكية لكسر إغلاق جمال عبد الناصر لمضايق تيران، بيد أن مسئولين آخرين فى وزارة الخارجية من المقربين إلى وزيرها دين راسك كانوا يحبذون الفكرة إلا أن موقف الدوائر العسكرية الامريكية كان فاتراً إزاءها، وأدى فضلا عن غيره من الجدل السياسى الى عدم الحسم مما أعطى للاسرائيليين الثغرة الضيقة التى كانوا يحتاجون إليها لشن هجوم مباغت على مصر دون أن يشغلوا أنفسهم حتى بمعرفة رد فعل واشنطن، وبعد ما لا يزيد على ستة أيام من القتال لم تسقط فى يد اسرائيل سيناء فحسب بل استولت ايضا على مرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية من الاردن ومدينة القدس بأكملها.

بالنسبة للمستعربين كانت تلك أنباء سيئة فقد تدعمت اسرائيل ولحقت المهانة بالدول العربية واغلقت سفارات امريكا فى الاقطار العربية مما اجبر اكثر من مستعرب على تغيير المسار الوظيفى، واحد منهم هو أندرو كيلجور، وصف الحرب بأنها كارثة للسلك الدبلوماسى، لكن انتصار اسرائيل فى معناه الاوسع ظل انتصارا للغرب على الاتحاد السوفييتى وعلى

سلاحه الأدنى مستوى وكما يقول المثل .. الهزيمة يتيمة وللنصر أكثر من والد.. فبدلا من أن يسود مناخ منذر بعواقب ساد شعور في الإدارة الأمريكية بأن الأمور قد سارت على ما يرام من ناحية أخرى أصبح الشرق الأوسط بالنسبة لمن بقوا في سلك الاستعراب في مقدمة المسرح منطويا في ذلك على تحد جديد وهو: حمل اسرائيل على مبادلة الأراضي مقابل السلام.. وأدى هذا إلى تخفيف الاكتئاب الذي شعر به كثير من المستعربين إزاء انتصار اسرائيل..



حرب الأيام الستة من منظور الماضي يمكن اعتبارها وكأنها هي التي مهدت المسرح كي تلعب عليه الشخصيات التي قدر لها أن تسيطر على مقاليد صنع السياسة بالشرق الأوسط حتى عقد الثمانينات ونتيجة لذلك فقد أفضت إلى تغيير وجه تيار الاستعراب الأمريكي. روي أثرتون مثلا، الذي تعين عليه أن يدير غرفة عمليات الخارجية الامريكية خلال حرب الأيام الستة بحكم كونه مديرا لمكتب الشئون العربية ـ الاسرائيلية في إدارة الشرق الأدنى بالوزارة اعتاد النوم على أريكة والتعامل مع تفاصيل شتى من سير الحرب ما بين إجلاء الامريكيين في الأقطار المتأثرة إلى

كتابة تقارير موقف استنادا إلى آخر برقيات المخابرات.. «هارولد سوندوز» كان أيضا مشاركا بعمق فى الأمر بوصفه خبيرا فى الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومى.. أخيرا .. وليس بالتأكيد آخرا.. كان هناك الدكتور «جوزيف سيسكو» مساعد وزير الخارجية للمنظمات الدولية وكان مكتبه يتولى شئون الأمم المتحدة والوفد الأمريكى لديها ولما تولد عن حرب الأيام الستة كثير من النقاش والقرارات فى الأمم المتحدة فقد تعين على سيسكو أن يحضر كثيرا من اجتماعات إدارة الأزمات التى شهدها الرئيس جونسون.

ولقد صعد نجم «سيسكو» خلال الازمة وغيره من عناصر الادارة الامريكية نظرا لندرة وجود العناصر الخبيرة بالشرق الأدنى بل كثيرا ما كان الصوت الوحيد من خبراء الشرق الأدنى فى تلك المناقشات هو مساعد الوزير لشئون الشرق الادنى لوشيوس باتل الذى تقوضت سلطاته بواسطة وكيل الخارجية ايوجين روستو والسبب فى هذا الضعف الذى اعترى دائرة الشرق الادنى وقت أزمة الحرب، على نحو ما يشرح مصدر مطلع، هو ذلك الاعتقاد الذى كان يساور كبار اعضاء حكومة جونسون بأن دائرة الشرق الادنى بالخارجية الامريكية كانت موالية للعرب أكثر من اللازم.

إن السفير لوشيوس باتل يرفض هذا التصور.

«لوشيوس باتل» يسمى نفسه أول مسئول من غير فصيلة المستعربين تولى منصب مساعد وزير الخارجية الامريكية لشئون الشرق الأدنى، وكان قد خلف فى المنصب سلفه رايموند هير قبل أشهر قلائل من اندلاع حرب الأيام الستة. أما جانب التحيز الوحيد الذى يعتز «باتل» بالاعتراف به فهو انتماؤه الى الحزب الديمقراطى وقد كان صديقا شخصيا ومؤيدا للرؤساء كيندى وجونسون وللسياسى هيوبرت همفرى، من هنا فإن تحديد هوية «باتل» أمر لا غنى عنه لفهم الفكرة المنطبعة عن هوية المستعرب كما كانت سائدة فى أروقة الخارجية الامريكية. «لوشيوس باتل» يتكلم الفرنسية ولكنه لم يتعلم العربية قط وقد عينه الرئيس كيندى مساعدا لوزير الخارجية للشئون التربوية والثقافية، وبعد أن ثارت مشكلة فى كوبا سنة ١٩٦١ وفى أماكن أخرى كان المنصب التالى الذى اختاره باتل قائلا: لكننى لا استطيع حتى ملء الخريطة بأسماء أمريكا اللاتينية وهنا أجاب الرئيس كيندى بقول: أعرف ذلك.. لكنك الشخص الذى أريد. فى تلك الايام كان التركيز على صنائع أمريكا وحوارييها جنوب حدودها وليس فى بلاد العرب.. وكان كيندى يريد ان يزرع دائرة الموز - جمهوريات

أمريكا اللاتينية الصغيرة - بأفراد ممن ليسوا خبراء فيها. بيد أن القدر تدخل حيث قتل كيندى وجاء عام ١٩٦٤ مباشرة لتسوء العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر. وهنا اوفد الرئيس جونسون «لوشيوس باتل» إلى مصر سفيرا لتلطيف جو العلاقات مع جمال عبد الناصر . هنالك استطاع باتل كما هو ذائع ومشهور ان ينشىء علاقة طيبة مع جمال عبد الناصر وهو يدلى بملاحظاته قائلا: كان عبد الناصر ذكيا لماحا لكن بغير ثقافة كان يفتقر تماما الى فلسفة سياسية - اقتصادية، والاشتراكية العربية عند عبد الناصر كانت عبارة عما يريد أن يفعله فى أى يوم من الايام.

وعندما أعاد جونسون باتل إلى واشنطن بعد ثلاث سنوات ليصبح مساعدا للوزير لشئون الشرق الادنى كان قد تولد عند باتل فى اقع الامر موقف أكثر تعاطفا إزاء النظام المصرى بأشد ما كان يساور المسئولين الآخرين فى الإدارة الأمريكية ، وعلى نحو ما يعبر أحد أصدقائه الاقربين أن عواطف باتل ضد اسرائيل معروفة للقاصى والدانى. وفى أعقاب حرب ١٩٦٧ حارب السفير باتل معركة لمنع إعطاء اسرائيل طائرات فانتوم «اف - ٤» قائلا إنهم ليسوا بحاجة إلى تلك الطائرات فأوضاعهم بدونها قوية للغاية.

هذا الموضـــوع مـــا لبث أن برز على السطح فى الحـــملة الانتخابية التى تنافس فيها هيوبرت همفرى وريتشارد نيكسون وكانت تلك أول مرة تصبح فيها مسألة بيع أسلحة الى الشرق الاوسط قضية من قضايا الانتخابات.

★★★

ومع حلول عام ١٩٦٨ كان السفير باتل يسدى مشورته إلى صديقه المرشح الرئاسى هيوبرت همفرى وكان «باركر هارت» قد اصبح مساعدا جديدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، «هارت» هذا كان من المدرسة القديمة: عطوفا جم التهذيب ويراعى الشعرة فى آداب السلوك، يحمل الليسانس من دار تماوث والماجستير من هارفارد.. كان سفيرا فى السعودية فى أوائل الستينات إلى أن حل محله هيرمان إيلتس، كان يجيد الالمانية والعربية، وكان شأنه شأن غيره فى سلك المستعربين قد تعامل مع اللاجئين اليهود النازحين من أوروبا محاولين الدخول إلى الولايات المتحدة، ورغم أن تجربته مع اليهود لم تكن فى ألمانيا بل فى النمسا وكانت قبيل نشوب الحرب العالمية وليس بعد اندلاع الحرب ، إلا أن هارت إستطاع ان يعاين النازية فى فجاجتها الأولى فى النمسا ولم يقدر له أن ينسى هذه التجربة يوما من الايام.

وهارت مثل باتل لايضمر مشاعر مناهضة لليهود، إن ما يشعر به من تعاطف مع العرب لا يعدو كونه أحاسيس ليس إلا، وقصاراهما ان يضمنا ان موقف العرب امكن حسب الاصول تفسيره وفهمه فى أوساط واشنطن بل إذا امعنا النظر فى الامور لوجدنا أن باتل كان يؤيد علانية فى انتخابات نوفمبر ١٩٦٨ المرشح الذى كان يجهر أكثر من منافسه بتأييد اسرائيل وهو هوبرت همفرى الذى كان يبالغ فى مشاعره تجاه أزمة اليهود التاريخية بقدر ما كان يبالغ فى سائر مشاعره على الاطلاق.

كل هذا يؤثر كثيرا على سياق الاحداث، وإذا نظرنا اليه فى إطار ما جاء من بعد لرأينا أن كلا من لوشيوس «لوك» باتل وزميله باركر «بيت» هارت هما بالضرورة آخر من قام من المدرسة القديمة بترأس إدارة شئون الشرق الادنى بالخارجية الامريكية، وكل منهما كان يرى الادارة المذكورة من نفس منظور سلفهما لوى هندرسون وحدة محكمة الاغلاق على نخبة من أهل الاختصاص تعمل تماما خارج إطار الخطاب السياسى المحلى وتقصر نفسها على إجراء حسابات على البارد للمصالح الأمريكية فى العالم العربى.

وقد وقع عبء تغيير هذا التعريف لإدارة الشرق الادنى على عاتق ريتشارد نيكسون الذى هزم همفرى وانتخب رئيسا فى عام

١٩٦٨، وعلى كاهل هنرى كيسنجر مستشاره الجديد للأمن القومى الذى استولى ايضا فى موقع قيصر الشئون الخارجية.. أما ادوات هذا التغيير ممن كانوا مرءوسين للسفيرين باتل وهارت فقد كانوا رجال الصف الثانى - سيسكو وآثرتون على وجه الخصوص.

★★★

لم يكن ثمة ود مفقود بين ريتشارد نيكسون ووزارة الخارجية الامريكية. يقول بارى روبين فى كتابه بعنوان «أسرار الدولة: وزارة الخارجية والصراع على السياسة الخارجية»: إن نيكسون اصبح مشهورا شهرة عدو الشعب «الجار هيس» (الدبلوماسى الامريكى المتهم بالتجسس لحساب السوفيت عام ١٩٤٨) بمعنى كونه رمزا فى اعين الكثرة لعجز الدولة وعدم الولاء لها، بل إن نيكسون كان قد أبلغ الرئيس إيزينهاور أنه كان يلتقى مع بعض من ألمع عناصر السلك الدبلوماسى فى البلاد اثناء رحلاته - كنائب للرئيس - إلى الخارج فإذا بعدد كبير منهم لا يظهر أى إخلاص يذكر لأمريكا بل ويتبدى منه موقف الغريب عنها، والأدهى من ذلك ان نيكسون كان يرى ان هوى معظم افراد السلك الدبلوماسى كان يجنح نحو خصومه الديمقراطيين - ثم ان

نيكسون كان من مقاتلى الحرب الباردة وكان يرى الشرق الاوسط من ثم، لا من حيث كونه الشرق الاوسط بل من خلال الصراع العالمى الأشمل مع السوفييت، وهكذا كان يفعل فى هذه النقطة «لوى هندرسون». بيد أن حرب الأيام الستة التى سبقت ارتقاء نيكسون مقاليد السلطة كانت قد اعطت اسرائيل مزيدا من الاراضى ومن ثم قيمة استراتيجية أكبر مما كانت عليه يوما فى مرحلة هندرسون. فضلا عن ذلك كان السوفييت قد باتوا إلى غير ما رجعة فى عناق مع العرب مما جعل اسرائيل رصيدا ثمينا فى بورصة الحرب الباردة، وفيما كان لكل من نيكسون ومن قبله هندرسون علاقة بالغة العناء مع اليهود فإن اسبق ولاءات هندرسون كان لسلك الخدمة الدبلوماسية، وهو مؤسسة كانت تتعاطف بيروقراطيا مع العرب بحكم وجود عدد كبير من السفارات فى العالم العربى إلا أنها كانت مؤسسة ينظر إليها ريتشارد نيكسون بقدر كبير من التوجس والارتياب.

★★★

وقع أول اختيار لنيكسون لمنصب وزير الخارجية على «ويليام روجرز» وكان نائبا عاما أيام إيزنهاور، وكانت تعوزه سواء الخبرة فى السياسة الخارجية أو التمتع بشخصية حازمة وحادة، وكان

خيار نيكسون متعمدا إذ كان عاقدا العزم على تصريف السياسة الخارجية بنفسه وبمساعدة مجلس الأمن القومى الذى عمد إلى تدعيمه فوضع على رأسه هنرى كيسنجر اللاجىء اليهودى الالمانى الذى كان صنيعة جون ماكلوى، الرجل الذى جعلت منه سخرية القدر مسئولا عن منع الجيش الامريكى من قصف الخطوط الحديدية الموصلة الى معسكر اعتقال النازى فى اوشفيتز والذى كان قد حث الرئيس ترومان على عدم الاعتراف باسرائيل ذلك أن ماكلوى استخدم كيسنجر فى عام ١٩٥٦ وكان وقتها استاذا فى هارفارد لا يكاد يعرفه أحد لاجراء دراسة حول العلاقات الامريكية السوفييتية وبعدها حصل كيسنجر على وظيفة لدى المليونير نيلسون روكفلر الذى قدمه فيما بعد إلى رجال ريتشارد نيكسون.

وفيما عمدت الادارة السابقة فى البيت الابيض الى تحاشى نشوب النزاع فى الشرق الاوسط إلا ان نيكسون وكيسنجر كان من رأيهما أن توصيل الامور الى حافة المجابهة إنما ينطوى على سلسلة من الفرص التى تتيح إعادة ترتيب اجزاء اللغز المسمى بالصراع العربى الاسرائيلى بما يروق اكثر للولايات المتحدة ويستهويها. وكما يقول احد محللى الشرق الاوسط: «كيسنجر كان يكره مجرد فكرة مساعدة الاطراف على الخروج من الورطة»(!).

كيسنجر كان يقول اساسا: «لا تساعدهم على الخروج. بل اجعلهم يصلون الى حيث اليأس وبهذا يشعرون بمدى الاحتياج إلينا». مع ذلك فقد جاءت اعقاب قتال ١٩٦٧ بحرب باردة من نوع ما بين الدول العربية واسرائيل حيث كانت اسرائيل ثملة بغرور فوزها فى حرب الأيام الستة فيما ظلت الدول العربية على رفضها القبول بوجود اسرائيل. هكذا بدأ الوضع فى المنطقة مجمدا، وعليه فقد شرع نيكسون وكيسنجر فى معاملة المنطقة بإهمال محسوس. ثم أن يهود أمريكا وقد انتفضوا فخارا ونشاطا نتيجة لفوز اسرائيل جعلوا نيكسون ينظر الى مفاوضات الشرق الأوسط بوصفها ورقة خاسرة فى السياسة الداخلية فى امريكا، وعلى كل فقد تصل المنطقة يوما الى حال من الفوران المضطرم مما يعطى للرجلين القدرة على صياغة الواقع المحلى على صعيدها.

★★★

وزير الخارجية «ويليام روجرز» ما كان يكتفى بالانتظار كى يقع الفوران المرتقب. وإذ كان يملك فى يده اثنتين من أوراق اللعب على ساحة الشرق الاوسط فقد عقد عزمه على أن الدخول فى التجربة، الورقة الأولى تمثلت فى ان نيكسون وكيسنجر لم

يعيرا اهتماما كبيرا الى منطقة الشرق الاوسط بل تركاها ساحة تنشط فيها السياسة التقليدية للخارجية الامريكية ولم يكن قد اقدم كيسنجر بعد على تطويعها والحاقها بمجلس الامن القومى.

أما الورقة الثانية فكان اسمها «جوزيف سيسكو» الذى كان الوزير روجرز يعرفه ايام كان سيسكو يعمل مساعدا لوزير الخارجية المكلف بأنشطة الامم المتحدة ، وإذ كان روجرز عضوا مرتين في الوفد الامريكى لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة فقد كان يعول على سيسكو التماسا لمشورة ولقد كان «جو سيسكو» هو الذى كتب قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢» ★ فى اعقاب حرب ١٩٦٧ الذى دعا الى مبادلة الاراض بالسلام. هكذا كان سيسكو هو اول تعيين اجراه الوزير روجرز حيث نقله من الخمول النسبى في شئون المنظمات الدولية ليصبح فى المركز الاكثر تألقا مساعدا للوزير لشئون الشرق الادنى فى مكان «باركر هارت»، وقد تبين ان هذه النقلة كانت ضربة معلم بحق حيث قدر لجوزيف سيسكو ان يكون انشط العناصر الوظيفية من بين مساعدى وزير الخارجية فى تاريخ الولايات المتحدة وقد لا يباريه فى ذلك سوى «لوى هندرسون». ولقد كانت فترة ولاية روجرز بالخارجية تتسم

★ هذه الرواية مخالفة للمتعارف عليه من أن القرار من صياغة الدبلوماسى البريطانى اللورد كارادون . «المترجم»

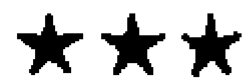
بحسن النية ثم تفتقر الى الفعالية ولو لم يفعل شيئا له قيمة لكفاه انه قام بتعيين «جو سيسكو» مساعدا للوزير للشرق الادنى وروى اثرتون نائبا لمساعد الوزير.

مع ذلك. فلم يكن الذى تدخل فى هذا الامر هو الوزير روجرز بشخصه بل هو التاريخ ايضا، يفسر ذلك وليام كوانت بقوله: لقد اختير سيسكو بحكم الحاجة تحديدا الى عنصر ملم ببواطن الامور يتولى ادارة الشرق الادنى غداة حرب ١٩٦٧ عندما اصبح الشرق الاوسط فجأة قضية عالمية الابعاد.

أثرتون يقول: إن التحولات التى طرأت على الإدارة المذكورة حدثت عندما جاء سيسكو اليها اما هيرمان إيلتس فيرى ان سيسكو جاء الى إدارة الشرق الادنى بقدر كبير من التوازن كانت الحاجة ماسة إليه .

كان سيسكو مصداقا للقول الشعبى الدارج: «عليك أن تكسر البيضات لكى تصنع العجة»، كان عنصرا فعالا، رغم أنه كان مكروها فى بعض الاحيان لانه حطم مستقبل افراد، ومن المثير ان عناصر السلك الامريكى الدبلوماسى لاتزال تحتفظ بأشرس الانتقادات بما يبلغ كراهية التحريم أو يكاد لرجال من طراز جوزيف سيسكو وهنرى كيسنجر وجيمس بيكر. ولقد كان كيسنجر وبيكر من الطراز الفعال لوزراء الخارجية لكنهما أساءا

معاملة هيئة السلك الدبلوماسي ، سيسكو بدوره، مثل كيسنجر وبيكر، فهم واستوعب ان بيروقراطية السلك الدبلوماسي مهما كانت موهبة العناصر لا تعدو كونها إدارة تنتظر صاحب اليد الخبيرة الذى يبادر الى التقاطها ثم يستخدمها لتحقيق غرض بعينه، غرضه هو شخصيا.



فى مقابلات شخصية مع مؤلف الكتاب توالت شكاوى اعضاء السلك الدبلوماسي بحق سيسكو، يقول «لوشيوس باتل»: «إن لى رأيا سلبيا للغاية حول الطريقة التى كان يعمل بها سيسكو». أما ريتشارد باركر فيقول «أنا اكره سيسكو شخصيا» فيما يقول جيمس اكنز وكان سفيرا فى السبعينات لدى السعودية: «سيسكو لم يكن يعرف حرف الالف من كوز الذرة عن الشرق الاوسط، لم يكن يدرى شيئا عن المنطقة ولا قرأ يوما كتابا حولها ولم يخدم فى الخارج قط. لكن كان بالطبع صديقا شخصيا لهنرى كيسنجر» و«نحن المستعربين رأينا فى هذه الرابطة الاساسية ودا عميقا تجاه دولة اسرائيل حيث كانا يتطلعان إلى انجاز ما تريد اسرائيل إنجازه» هكذا يقول اندرو كيلجور وكان سفيرا فى قطر وعباراته هذه مقتبسة من مقابلة حول تاريخه الشفوى اجراها

تشارلس ستبوارت كيندى فى ١٥ يونيه ١٩٨٨ تحت اشراف جمعية الدراسات الدبلوماسية وهو السفير الوحيد الذى تم الاتصال به لكنه رفض مقابلة مؤلف الكتاب، هناك ايضا من مستعربى السلك الدبلوماسى الامريكى من يقول: إن سيسكو وآثرتون كانا مجرد خادمين وضيعين يركضان فى ركاب كيسنجر أو يقول إن دعيت للعشاء فى بيت سيسكو فأحضر معك من يذوق لك الطعام.. فى حين يقول مستعرب ثالث: إن سيسكو لم يكن سوى شخص خسيس، لئيم.. خبيث.. وكذوب..

لكن كان لجوزيف سيسكو معجبوه ايضا ولو على استحياء..

يقول احد مؤرخي الشرق الاوسط: صحيح ان سيسكو لم يكن عارفا بالقضايا على نحو متخصص لكنه كان قادرا على تصريف الامور، ويقول هيوم هوران وكان سفيرا فى السودان ثم السعودية فى الثمانينات. كان مشاكسا له صوت جهورى والاهم من ذلك كان قادرا على ان يتذكر لفوره ما شاء من مستندات واحداث ، اما ايلتس فيتكلم وهو ينفض غليونه رافعا حاجبيه وكأنما بانتظار ان تسعفه العبارة المناسبة ويقول: سيسكو كان بمثابة مدير التشغيل البيروقراطى ، كان مدير الادارة الوحيد بالخارجية الذى استطاع ان يبعد المكتب عن كيسنجر ورجاله فى

مـجلس الامن القـومي.. ولهـذا حـاز احـتـرام كـيـسـنجـر. وغنى عن البال أن سـيسكو كـان بـحق مديرا للتـشـغيل من الطراز الجـهم.. بصوته الحـافل بالرنين وسلوكه غير الحافل بالآخرين ممن ارتقوا الى قمة مواقع السلك الدبلوماسى دون ان يخدم هو شخصيا فى الخـارجـية مرة واحـدة ، ربما لم يكن يعرف الكثير عن العرب أو اليهود قدر معرفة زملائه الذين عـاشـوا بالشرق الاوسط وتكلموا لغاته لكن هذا لم يحل بين سيسكو وبين ان يكون فى جـعبته كل الاجـابات عن الاسـئلة او ان يتظاهر بذلك، كـان اسـتـاذا فـى فن العضة السليمة حتى قبل ان يخترعوا هذا التعبير، بمعنى انه كان داهية سياسة يجيد فن الصفقات السياسية اكثر من كونه من شاكلة الدبلومـاسـيين، بل كـان يسـتـعد لخـوض انتـخـابات للفوز بمنصب مـقـاطعـة مـونتـجـمـرى من اعـمـال واشنطن حـين اخـتـاره روجرز مساعدا لوزير الخارجية، لم يكن ينهج انصاف الحلول بل كانت أراؤه وافكاره جد واضحة لا لبس فيها.. وما كان يفتقر اليه من حيث الفكر عمد الى تعويضـه من خلال النشـاط الوافر، يتذكر اثرتون قـائلا: كـان بوسـع «جو» أن ينـجز ورقـة سـيـاسـات ويضـعـهـا بيد الوزير قبل ان يفرغ الآخرون بالمكتب من مجرد تدارس المسألة كان من الطراز المكتبى الحاد والفعال والمسئول ، وكان نيكسون

ومستشاروه يعرفون ذلك ولهذا السبب اختاروه إذ كانوا يريدون شخصا يحدث هزة فى قوائم إدارة الشرق الادنى.. نيكسون كان يكن احتراما هائلا لسيسكو وكثيرا ما كان يقول له على الهاتف: إن هنرى كيسنجر أوغل فى التصرفات حتى انخلع انفه ولقد عرض نيكسون مرتين على سيسكو منصب السفير لدى الاتحاد السوفييتى ورفض صاحبنا العرض فلم يكن يريد ان ينغرس فى موسكو بينما تعكف أنت (نيكسون) وهنرى على عقد الصفقات السياسية من خلف ظهرى.

ولد جوزيف سيسكو عام ١٩١٩ فى شيكاغو وهو الجيل الاول لمهاجرين من ايطاليا إلى أمريكا فى فترة الكساد الاقتصادى الكبير لعائلة قوامها خمسة أبناء كان ابوهم يتقاضى سبعة دولارات اسبوعيا فى متجر للملابس، وفى الحرب العالمية الثانية عمل ملازما للمدفعية فى غينيا الجديدة حيث اصيب بحالة من مرض الملاريا كانت قاسية الوطأة بل كانت تعاوده طيلة العمر، وأدى ذلك الى ان ظل يعانى من إعاقة جزئية سنوات قليلة، ويقول انا رجل لم احصل على اول عمل لى إلا بعد ان بلغت الثلاثين، ولم اكن من الميسورين ذوى السراويل الامريكية المخططة مثل المستعربين بل ذهبت الى المدارس الغلط وجئت من الجانب الغلط

فى طريق الحياة، مع ذلك فلم أبال وانغمست فى شغل من نار وهذا كل ما فى الامر.

★★★

تخرج سيسكو من كلية نوكس فى ولاية الينوى وحصل على الماجستير والدكتوراه فى العلاقات السوفييتية من جامعة شيكاغو ثم التحق بالسلك الخارجى فى الخمسينات واعجب به رؤساؤه لدرجة انه كلما اوشك على الابتعاث إلى الخارج - إلى بلجراد - فى أواخر الخمسينات ثم - فيتنام - فى أوائل الستينات كان الانتداب يلغى للإبقاء عليه عنصرا يحفز البيروقراطية على الحركة والنشاط وخاصة فى الامم المتحدة، ولم يمض عليه بعد دخول الخدمة الخارجية عشر سنوات إلا وقام وزير الخارجية «دين راسك» بترفيعه الى رتبة وزير مفوض.

لكن كان هناك ما يتجاوز ذلك - يقول هيوم هوران: «مع وجود سيسكو انصهرت السياسة الخارجية مع السياسات الداخلية فى الشرق الاوسط». ويضيف اثرتون على ذلك قوله: كان يتمتع بحنكة على المسرح السياسى الداخلى بأمريكا بشكل لا يبارى فى تاريخ وزارة الخارجية ولقد تعلمت من «جو» أن ليس بوسعك أن تضع السياسة بالنسبة للشرق الاوسط فى معزل بالتعقيم عن السياسات والحقائق الداخلية.

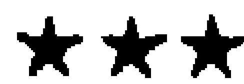
معنى هذا دون لف أو دوران ان العلاقة بين الرئيس الامريكى وبين الجالية اليهودية الامريكية باتت ـ مع سيسكو ـ أوسع وأعمق بأكثر مما عليه العلاقة بين المستعربين وبين الصلات التى أنشئوها من منطقة المشرق العربى.

فى ٧ نوفمبر ١٩٧١ كتب جوزيف كرافت مقالا فى مجلة نيويورك تايمز الاسبوعية عن المستعربين قال فيه ما أن تولى جوزيف سيسكو مقاليد وظيفته حتى انطلق فى تحطيم تركز المستعربين فى إدارة الشرق الادنى ـ المعنية بالشئون العربية اساسا ـ خذ روجر ديفيز مثلا وكان كما يصفه زميل له حكيم المستعربين فى ذلك الوقت.

لقد تلقى روجر ديفيز ركلة من سيسكو الى أعلى حيث خلع عليه رتبة فخيمة دون مسئوليات اللهم إلا عن اليونان وتركيا وقبرص، وفى مكان ديفيز ـ يضيف الصحفى كرافت ـ أتى سيسكو بالفريد اثرتون نائبا لمساعد الوزير، ذلك لان اثرتون مع إلمامه الواسع بشئون المنطقة فإنه لا يعرف اللغة العربية.

على أن السفير «لوشيوس باتل» ينعى على سيسكو مافعله مع روجر ديفيز ويصفه بأنه كان امرا سيئا وذلك «لان ديفز كان يعرف عن امور الشرق الاوسط بما يفوق معرفة سيسكو

ومعرفتي انا مجتمعين» ، حتى اثرتون نفسه وقد حل محل ديفيز يتذكر ان ديفيز كان من اصفى وألمع العقليات التى عرفتها وكان كبير نواب السفير باركر هارت ، وعندما تقرر احلال سيسكو محل باركر عمد ديفيز الى التماس النقل بغير ضجة موعزا الى موظفيه ان يظلوا على ولاء لجوزيف سيسكو، مع ذلك فما ان وصل سيسكو الى إدارة الشرق الادنى حتى قلب ظهر المجن للسفير ديفيز وكان دافعه الذى ساقه لهذا التصرف ما قاله من أنه كان بحاجة الى من يكتب بسرعة المذكرات السياسية.. فى غضون ساعات لا تزيد ولم يكن ذلك باستطاعة ديفيز لكنه كان باستطاعة روى أثرتون.

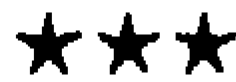


أدى قيام جوزيف سيسكو بنقل ديفيز إلى الشئون اليونانية التركية الى ترشيح ديفيز سفيرا لدى قبرص حيث اغتيل فى صيف ١٩٧٤ خلال احداث العنف التى صاحبت الاطاحة بحكومة الاسقف مكاريوس وما تلا ذلك من قيام تركيا بغزو الجزيرة.. ولقد كان روجر ديفيز موضع محبة زملائه المستعربين وكان جديرا بأن يظل حيا يرزق حتى الآن لو لم يعمد سيسكو الى إزاحته من الشئون العربية وربما تفسر هذه الحقيقة جانبا من العداوة التى يضمرها المستعربون تجاه جوزيف سيسكو.

على أن ديفيز لم يكن المستعرب الوحيد الذى أزاحه سيسكو لقد كتب كرافت فى مقالة التايمز السابقة الذكر يقول: إن أشد المستعربين انحيازا للعرب وهو السفير «ريتشارد باركر» نقلوه من مكتب الشئون المصرية إلى مكتب المغرب، والمستعرب الامريكى الذى اشتهر انه الأشد عداوة لاسرائيل وهو السفير « روبرت مون» نقلوه من مكتب اسرائيل الى مكتب تركيا ، اما مناصب السفارة التى اصبحت مفتوحة فى ليبيا والكويت وفى لبنان والاردن فقد عهدوا بها الى عناصر من غير المستعربين.

لكن الامر لم يكن تماما بهذه البساطة وهذا يفسر السبب في ان بعض المستعربين لايزالون بعد عشرين سنة من تلك الوقائع يتميزون غيظا عندما يرد ذكر مقالة كرافت: السفير ريتشارد «ديك» باركر مثلا كان قد خاض معركة الرجل الوحيد فى واشنطن لحمل أولى الامر هناك على ان يعاملوا مصر بصورة جادة برغم هزيمتها فى حرب ١٩٦٧، وأدى هذا إلى أن باركر قد وضع أصابعه العشرة فى الشق حين جاء سيسكو إلى إدارة الشرق - العربى - الادنى فى عام ١٩٦٩، ولم تكن المياه جارية بين سيسكو وباركر حيث يدعى الاخير ان ثمة كراهية بين الطرفين لا تتصل بالاختلافات السياسية، ولا أدى النقل الى مكتب

شئون المغرب إلى الاضرار بالتدرج الوظيفى لباركر الذى رشح فى سنوات قلائل سفيرا بالجزائر وسفيرا فى لبنان وهو بلد له أهميته في اطار المشكلة العربية ـ الاسرائيلية ثم سفيرا لدى المغرب، مع ذلك فلا ريب ان وصول سيسكو جاء علامة عل تغيير الحرس العامل داخل إدارة الشرق الادنى بالخارجية الامريكية.. ويعترف السفير باتل فى هذا السياق قائلا: بالقطع حصل تنزيل درامى فى رتبة دبلوماسيين وخبراء وهذا التنزيل ساعد فى تحويل جيل مستعربى مابعد الحرب العالمية الثانية إلى ما أصبح يوصف بأنه خبراء المنطقة المهيضة رجال اضيروا باستمرار بسبب ولائهم للعلاقات العربية ـ الامريكية وذلك من اجل تلبية احتياجات تولدت جزئيا عن مقتضيات السياسة الداخلية الامريكية بكفالة الامان والضمان لاسرائيل.



ومن المؤكد إن لم يكن ثمة مستعرب غص بالمرارة من التغييرات الوظيفية التى اجراها جوزيف سيسكو بأكثر من الدبلوماسى «أندرو كيلجور» ولد أندى كيلجور فى عام ١٩١٩ نفس سنة مولد سيسكو.. طويل القامة لطيف المعشر من اهالى جنوب الولايات المتحدة، وكان مولده فى بلدة صغيرة فى غرب

ولاية آلاباما حيث شب عن الطوق فى مزرعة يصغى إلى حكايات الرجال المسنين عن «شيلوه» و «شيكا موجا» وسائر معارك الحرب الاهلية الامريكية التى سبق وخاضوها . جاء كيلجور، كما جاء سيسكو، من اصول متواضعة وقد اشاروا إلى اصوله فى مقابلة ضمن برنامج التاريخ الدبلوماسى الشفوى بأنه من ارياف البروتستانت. ذهب للتحصيل فى دار صغيرة للمعلمين لا فى واحدة من كليات القمة وحارب معارك الباسفيكى فى الحرب الثانية. ومثل سائر المستعربين بدأ كيلجور أولى درجات السلم الدبلوماسى بالعمل مع اللاجئين فى ألمانيا بعد الحرب وتحت إدارة جون ماكلوى المفوض الامريكى السامى فى ذلك الوقت، ومثل ماكلوى وسيسكو كان لدى كيلجور إحساس حاد بأنه إنما جاء من الجانب الغلط من الطريق ، وفى هذا السياق يلاحظ كيلجور ان الذين يأتون للسلك الدبلوماسى من الخارج، بمعنى خارج عائلات مؤسسة الحكم والنفوذ ينعقد طموحهم فى ان يلتحقوا بصفوف تلك المؤسسة.

★★★

ومثل سيسكو ايضا جاء دخول كيلجور السلك الدبلوماسى فى عقد الخمسينات ضمن برنامج مبكر للاصلاح سعى الى ان يأتى

بعناصر من خلفيات اجتماعية متباينة الى صفوف السلك الدبلوماسى، وفى عام ١٩٥٥ تطوع كليجور ليتعلم اللغة العربية وظل طيلة ربع القرن الذى تلا ذلك وحتى اعتزاله الخدمة يخدم فى اقطار عربية وفى مواقع الشئون العربية داخل الخارجية الامريكية يقول: «كان معظمنا ـ معشر المستعربين – يشعر اننا من فصيلة شديدة الخصوصية، كنا فى الغالب الاعم من قدامى محاربى الحرب الثانية وكان في هذا إحساس بيننا برفقة السلاح، أما تعلم العربية فأمره صعب وعليك أن تعمل ليلا ونهارا لاتقانها، وكذا نجمع بين المتعة وبين إحساس يكاد يكون مقلقا إزاء مصطلح مستعرب الذى يستخدمه الصهاينة فى واقع الامر كناية عن قولهم «احذر.. هذا الرجل» ثم أن السفير كيلجور يرى ان من الاهانة بمكان ان تصف موظفا لامعا فى السلك الدبلوماسى يتصف بجوانب متعددة ومتشابكة ربما من طرازه هو بأنه مع هذا البلد الاجنبى أو ضد ذاك البلد الاجنبى

★★★

مع أواخر الخمسينات وأوائل الستينات كان كيلجور قد سافر الى كل درب من دروب الضفة الغربية وكانت وقتها فى يد الاردن «ولا تكاد توجد قرية إلا وزرتها حيث وجدت الفلسطينيين قوما

فى غاية الجاذبية وهم أقرب نوعا ما إلى أهل الجنوب فى امريكا بمعنى التصاقهم الشديد بالعائلة، مجبولون على الكرم، فيهم كل ما تعلمته صبيا بالمزرعة فى آلاباما شدونى اليهم الى حد بعيد.. ثم ما هذا الاهتمام الهائل بالمأكل والطعام.. يا الله! أتظن اننا نأكل حقا فى بلدنا؟ ألا فاذهب الى هناك».

فى عام ١٩٦١، وبعد سنوات اربع بالاردن نقل كليجور الى مكتب شئون العراق بالخارجية ثم اوفد فى عام ١٩٦٥ الى سفارة امريكا فى بغداد.. إلا ان فوز اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ جاء كارثة عليه شخصيا فقد أغلقت سفارات امريكية كثيرة فى العالم العربى ومن ثم نقلوا كيلجور الى دكا عاصمة بنجلاديش النائية حيث امضى ثلاث سنوات قبل ان يعود الى الوزارة ليعمل تحت رئاسة تالكوت سيل فى شعبة شمال الجزيرة العربية بإدارة الشرق الادنى، إن السفير «كيلجور» لا يزال يوجه اللوم حتى يومنا هذا الى وزير الخارجية الامريكية دين راسك الى اللوبى الاسرائيلى على اعداد العدة لشن حرب ١٩٦٧ فى مرحلة مبكرة ترجع الى عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤.

وبعد أن جاء سيسكو الى إدارة الشرق الادنى ارسلوا كيلجور فى عام ١٩٧٢ مستشارا سياسيا فى إيران.. وفى عام

١٩٧٤ تصور كيلجور أنه سوف يرشح سفيرا لدى البحرين عندما وجد نفسه بغتة وقد نقل نائبا للسفير فى نيوزيلندا، «وكان ذلك هو المنفى بكل المعانى وتصورت انه مادام بقى سيسكو هناك فلن أحصل يوما على منصب مرموق - فى العالم العربى - إذ كان يتربص بى الصهاينة فى ذلك الحين». إن السفير كيلجور يعتبر جوزيف سيسكو متعاطفا مع الصهاينة ويوجه اتهامه بأن سيسكو كان مندمجا فى اللعب مع السفارة الاسرائيلية.. سيسكو من جانبه حيرته هذه التهم ويقول: ماذا فى جعبته ضدى؟ لم أكد أتعاطى مع اى من شئون «أندى» كيلجور، بل أن تلك القرارات كانت تتخذها لجان شئون الموظفين.

عن كيسنجر يقول كيلجور: هنرى بالطبع لم يكن سوى طابور خامس فيما يتعلق بى. كان يعمل من اجل الاسرائيليين: كان الهدف الحقيقى الذى يقصده هنرى هو أن يبعد من الشرق الاوسط عناصر المستعربين الذين ليسوا على هوى الاسرائيليين ولم يكن هنرى ممعنا فى التستر بالسرية بل كان صهيونيا بغير مداراة.

ولم يكن سيسكو هو الوحيد الذى كانت تراوده شكوك فى مدى وجاهة ترقية كيلجور ، يقول مساعد أخر للوزير لشئون

الشـرق الادنى «إن ـ اندى ـ كـيلجـور يصـل الى حـد الخلط بين مواقفه المعادية لاسرائيل وبين مـعاداة السـامية».. ويقول مساعد ثالث للوزير: «وصل كيلجور الى حد ان اصبح لديه نقاط معتمة فى الرؤية تجاه اسرائيل».

كيلجور استدعوه فى عام ١٩٧٧ من نيوزيلندا ليرشحوه سفيرا لدى قطر ويقول هيرمان إيلتس وهو يهز رأسه: «قطر كانت الموقع المثالى له فلم يكن مطلوبا كتابة تقارير ذات أهمية محورية ولا كان كيلجور من اصحاب الفكر أو التنظير».

بعد أسابيع من اعتزاله الخدمة الدبلوماسية فى عام ١٩٨٠ اصبح السفير كيلجور من عناصر اللوبى المؤيد للعرب متحدثا باسم القضايا العربية، وقد شهد اجتماعا فى عام ١٩٨٢ فى واشنطن عقدته لجنة الارض المقدسة وهى جماعة متحالفة مع لوبى ليبرتى المتطرف وقد نذرت نفسها لقضية تحرير الولايات المتحدة من سيطرة الصهيونية، ويومها قال كيلجور: ثمة شىء واحد أمارسه شخصيا وهو ألا ادع بيانا صهيونيا يصدر بغير دحض أو تفنيد، ثم فى اجتماع عقدته نفس الجماعة بعد عام كامل ذكر هذا السفير الامريكى السابق ان «مركزى كمسيحى وامريكى مهدد بفعل التصرفات الاسرائيلية».

والسفير كيلجور تعليقات أخرى منقولة عن تقرير واشنطن عن شئون الشرق الاوسط يوليه ١٩٨٧ وفبراير ١٩٨٧ ومنها مايلي:

من الخطأ والانحراف ان تعمد عناصر متعصبة ضمن الاثنين ونصف بالمائة من سكاننا ممن هم يهود، إلى ارتهان الكونجرس لمصالحهم. إن على امريكا أن تنظر الى انتقال اسرائيل من مرحلة التسلل الى مرحلة توجيه السياسة الخارجية الامريكية بوصفه عملا اقترفته عقلية اجرامية كبرى.

على أن افضل مايعرف به كيلجور فى الثمانينات والتسعينات فى واشنطن انه رئيس تحرير «تقرير واشنطن عن شئون الشرق الاوسط» وهى مجلة شهرية تنشر مادة هى بكل مقياس من أشدها تأييدا للعرب ومناهضة لاسرائيل ، وفى عدد ابريل ـ مايو ١٩٩٢ اشارت مطبوعة كيلجور إلى ان الموساد ـ المخابرات الاسرائيلية ـ ربما تكون هى التى اطلقت النار على الرئيس جون كيندى:

«من اللافت للنظر أن نرى كيف يسارع الامريكيون الى اتهام المخابرات المركزية سى. آى. إيه. لكنهم قلما يشيرون الى امكانية تورط الموساد.. لكن النتيجة تمثلت فى وفاة رئيس كانت الحكومة الاسرائيلية تشعر نحوه بقلق عميق ومن ثم حل محله اشد الرؤساء تأييدا لاسرائيل على مر التاريخ».

فى نفس العدد يكتب كيلجور: أنه لو لم ينزح اليهود الى فلسطين لما تعيين على هتلر ان يقتلهم فبغير وعد بلفور عام ١٩١٧ هل كانت ألمانيا المهزومة سوف تتحول كى تنتقم من يهود أوروبا عام ١٩٣٣؟ إن مؤسسى اسرائيل استغلوا اسطورة نفوذ اليهود أو قوتهم لكى يستولدوا وعد بلفور وها هى اسرائيل الآن بعد خمسة وسبعين عاما من ذلك التاريخ تعيش على ميراث تلك الاسطورة بدعوى محرقة الاضطهاد فى أوروبا.

لم يكن كل المستعربين - فى الخارجية الامريكية - ساخطين على النظام الجديد الذى استحدثه جوزيف سيسكو على نحو ما كان السفير كيلجور ساخطا. رغم كل شىء فقد أضفى سيسكو قسمات جديدة على إدارة شئون الشرق الادنى فأصبحت بفضله تتمتع بالاهمية والبروز الاعلامى على نحو لم يسبق لها ان نعمت به من قبل. التقى سيسكو مع الرئيس نيكسون على فترات بأكثر مما كان متاحا فى السابق لسلفه فى الادارة لوشيوس باتل أو باركر هارت بالنسبة للرئيس الاسبق جونسون.

وفى مؤلفه «عقد من القرارات السياسية الامريكية تجاه النزاع العربى - الاسرائيلى ١٩٦٧ - ١٩٧٦» يقول ويليام كوانت: «إن سيسكو كان داهية فى أمور السياسة البيروقراطية يعرف دخائل

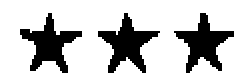
الامور ودقائقها فى وزارة الخارجية، كان رجلا شديد الحمية متحدثا لبقا وأستاذا بارعا فى فن التكتيك فى حين كان ألفرد آثرتون، وقد عمل معه كمدير لمكتب شئون اسرائيل والدول العربية، ثم كنائب لمساعد الوزير، كان يكفل بوجوده الاستمرارية والخبرة والدراية المهنية، اثرتون كان يواريه سخونة سيسكو وقد شكل الرجلان ثنائيا شديد التكامل فى دوائر صنع السياسة للشرق الاوسط».

عمد سيسكو واثرتون إلى تقسيم الاخصائيين بالشئون العربية الى مجموعتين : من يمكن استغلال مهاراتهم فى إطار النظام الجديد بالوزارة ومن يمكن ان يثيروا المتاعب أو لا يستحقون عناء الابقاء عليهم فى الأساس، ولقد كانت مكانة روجر ديفيز العالية بين زملائه المستعربين تشكل تهديدا بما قد يجعله خصما صعب المراس في أمور السياسات ولذلك كان يتعين التخلص منه، ثم هناك رجال من طراز تالكوت سيل وبيل ستولفوز ومايكل ستيرنر وجيمس اكنز وديك باركر - كانوا فى عداد الكفاءات الواجب الابقاء عليها، فى حين ان اندى كليلجور لم يكن كذلك. سيل مثلا كان فى أيام سيسكو الاولى مديرا لمكتب شئون الاردن ولبنان وسوريا والعراق وهو موقع لا يستهان به بحال من

الاحوال، وفى عام ١٩٧٢ رقى إلى رتبة سفير واوفد إلى تونس أربع مرات وبعد اتمامه مأموريته هذه رشح سفيرا فى سوريا التى يقال إنها البلد العربى المحورى فى سياسات الشرق الاوسط. ويجدر القول بأن سيل لايزال يحتفظ بذكريات طيبة من أيام العمل مع سيسكو ومن بعده كيسنجر بعد أن أصبح الاخير وزيرا للخارجية فى عام ١٩٧٣.

مع هذا كله - وكما يعترف روى أثرتون - أنه فيما اصبح جميع هؤلاء الرجال سفراء فلم يرتق منهم احد ليصبح لا مساعدا للوزير لشئون الشرق الادنى - ولا حتى نائبا لمساعد الوزير بل ولم يتح لأى منهم أى اطلاع حقيقى على الشئون العربية - الاسرائيلية. يقول نيكولاس فيلوتس المساعد السابق لوزير الخارجية للشرق الأدنى وكان سفيرا لدى كل من الأردن ومصر : عمد سيسكو وأثرتون إلى إبقاء هؤلاء الرجال بعيدا عن السلطة والنفوذ طيلة وجودهما فى الإدارة ولمدة عشر سنوات أخرى ، وإلا .. فمن الذى يشك مثلا فى كفاءة رجل من طراز تالكوت سيل الذى أنجز عملية كبرى تمثلت فى إجلاء الرعايا الأمريكيين من لبنان عام ١٩٧٦ ولا فى إحاطته بتخصصه المهنى خارج الحدود؟

لكن من يتصور أيضا أن مثل هذه النوعية من الرجال «سيل» مساعدا للوزير ومترددا علي مقر الحكم في «كابيتول هول» حيث يتعامل مع النواب وممثلي هذا اللوبي أو ذاك . ألم يكن معنى هذا استخداما مؤسفا لقدراته الواسعة ؟ ولقد كان سيسكو يعرف ذلك ولم يكن كيسنجر من ناحيته ليشك في كفاءة سيل الميدانية وهو الذي انتقاه للمهمة الحساسة التي تعاون فيها سيل مع منظمة التحرير الفلسطينية وأمكنه إتمام الإجلاء الحثيث بغير ضجة للدبلوماسيين الأمريكيين وعائلاتهم من بيروت على مرحلتين بالبحر في يونيو ويوليو من عام ١٩٧٦ .



يواصل السفير فليوتس مداخلته يقول : انت في الخارج تتعامل مع أجانب ، ومنهم العرب لكنك . في واشنطن عليك أن تتعامل من موقع مساعد وزير الخارجية مع أمريكيين آخرين . كذلك فالخارجية الأمريكية ليست بالخارجية البريطانية فهي تؤدي عملها في إطار حقائق الديمقراطية الأمريكية حيث تجمعات اللوبي لا تشكل طفيليات على هامش السياسة بل هي من الأطراف المشروعة اللاعبة على مسرحها ، ومع الانفتاح الذي اتسم به مجتمعنا - الأمريكي - في السبعينات زاد عدد

هؤلاء اللاعبين على الساحة بوسط هذا المناخ يمكن أن تلقى على طاولة اللعب سنوات خدمتك الاثنتي عشرة مثلا التى امضيتها في موريتانيا أو في الكويت أو سوريا مع ذلك فقد لا تفوز بشىء ذى بال فأنت هنا فى واشنطن بإزاء قواعد جديدة تتطلب مهارات جديدة .

جوزيف سيسكو يعبر عن ذلك على نحو أكثر صراحة يقول : لم يكن لا باركر ولا سيل ولا ديفيز ناهيك بالتأكيد عن كيلجور، يتمتع بقدرات الصياغة والتحرير ولا بحس تحليلى مرهف ولا إحاطة بالأمور بما يؤهله للتواصل مع الكونجرس . إنهم أفضل إذ يكونون سفراء خارج الحدود .

ليس معنى هذا أن سيسكو لم يكن ليحترم القنوات الدبلوماسية التى ورثها «لقد أمضيت خمس سنوات فى موقعى تلقيت فيها من المستعربين مشورات صريحة وبناءة ولم يعملوا يوما على أن يجعلونى أسيرا لأرائهم بل كانوا يطرحون الأمور بموضوعية ، ولست أتذكر حالة تعيين واحدة فى إدارة الشرق الأوسط الأدنى تمت على أساس سياسى غير مهنى بل اقتصر الأمر على الموظفين المحترفين ، ولكن لأن الإدارة كانت تستلم

دوما زمام المبادرات فلم يكن من محيص أن تصبح عرضة لسهام النقد المرير ولأن الجماعات الموالية لاسرائيل لا يمكنهم «شخصنة» خلافاتهم لا مع الرئيس ولا مع وزير الخارجية فكثيرا ماكانوا يجدون أن الأجدى لهم مهاجمة الدبلوماسيين المستعربين .

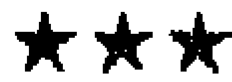
على أن سيسكو لا يلبث ان يقول : إن صفوف المستعربين كانت تسودها ولاءات مشدودة إلى أبعاد الواقع المحلى فى العالم العربى بأكثر مما كان سائدا بين ظهرانى غيرهم من الاختصاصيين . كانوا عازفين عن اتباع الأسلوب المباشر مع العرب يواجهونهم بحقائق الأمور بل كانوا يشعرون أن العنصر الثقافى السياسى الاقتصادى العربى لا ينال ما يستحقه من اهتمام ومكانة فى سياسة أمريكا .. ثم كان هناك على الخصوص مجموعة الخمسينات من الرجال الذين كانوا يتناوبون على المناصب الدبلوماسية فى كل قطر عربى دون أن يخدموا قط فى اسرائيل . لكن لم أكن أطلب منهم تفكيرا استراتيجيا فلم يكن ذلك عملهم فى أى حال .

وكان سيسكو يعنى بذلك أن مجرد معرفتهم بالعالم العربى بحكم اتساعها وعمقها ولحمتها وسداها فعلت فعلها فى تجميد قدرتهم على الفكر التحليلى بالنسبة لها .

★★★

بيد أن سيسكو نفسه كان يفتقر إلى تلك المعرفة العميقة وهكذا كان أثرتون ولو بدرجة أقل ، ويقول سيسكو إنهما بدلا من الالتصاق بالمنطقة بأى معنى حضارى أو حتى سياسى عام فقد انصب التصاقهما نحو تركيزهما على المشكلة : «عندما كلفت بالتعامل مع منطقة الشرق الأدنى أصبت بهذا المرض الذى لا شفاء منه : إن هذا الأمر لا بد من إيجاد حل له . هكذا أصبح النزاع العربى الاسرائيلى بالنسبة لهما بمثابة لعبة الشطرنج .. أو رقعة من الكلمات المقاطعة أو حتى مسألة فى الفيزياء لايستطيعان الفكاك منها إلا بعد أن يتوصلا إلى تصور المعادلة المكتملة التى تفضى لترتيب أجزاء اللغز فى وضعها السليم ، وفيما كان زملاؤهما المستعربون ينعمون بالسجاجيد الشرقية ويقتنون كتب الرحالة البريطانيين القدامى ، وقع سيسكو وأثرتون فى غرام الوثائق والمذكرات ، بل إنهما ومعهما هارولد سوندرز عضو مجلس الأمن القومى الأمريكى اصطنعوا تصنيفا جديدا لمعنى المستعرب : أن لا يكونوا مغرقين فى الأمر بوصفهم مستعربين قدر اغراقهم فى كونهم قائمين على تجهيز عملية السلام. وكانوا بذلك ارهاصا للمنعطفات الحادة التى سلكتها

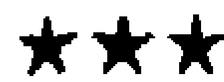
سياسة واشنطن فى الثمانينات والتسعينات، وكان هارولد سوندر أول من استخدم مصطلح «عملية السلام» فيما كان جوزيف سيسكو هو أول من استخدم تعبير «دبلوماسية المكوك» .



يقول كوانت فى كتابه «عقد من القرارات» : إن أثرتون كان النظير المثالى لجوزيف سيسكو الشديد التقلب . وكما يتذكر زميل لهما كان روى لطيف المعشر لين الجانب لا يتسم بعقلية استراتيجية وإن كان يتمتع بقدر كبير من حسن التقدير الكامن وراء دماثته . على أن روى كان على نحو ما موظفا بيروقراطيا بغير ملامح دقيقا وهيابا فى بعض الأحيان ، ومن عجب أنه شارك بعمق فى جميع المفاوضات المشهورة فى السبعينات دون ان يترك أى بصمة خاصة على مجريات السياسة .. ان روى أثرتون لم يكن رجل فكر وإنما كانت مقدرته تكمن فى توخى الحذر فى اسداء المشورة وقد ساهم فى العملية من خلال دأبه على أن يحول أن يشوبها ما يعكر الصفو من توافه الأمور .

إلى جانب الثنائى سيسكو - أثرتون نجمت علاقة محورية أخرى فى تلك الفترة التى نشأت أواصرها بين أثرتون وهارولد - هال - سوندرز الذى مافتىء يرتفع صوته بين حين وحين

فى السنوات الأخيرة مساندا الفلسطينيين فى معاناتهم إلا أنه كان فى تلك الفترة أقرب مايكون إلى أثرتون يلتزم كثيرا البعد عن الضوء ويسهل على كل من يعرفه التعامل معه ، ويقول أحد المصادر . إن السبب الرئيسى فى قلة الاحتكاك وقتها بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية فيما يتصل بالشرق الأوسط إنما يرجع الفضل فيه إلى كل من أثرتون فى الخارجية وسوندرز فى مجلس الأمن القومى بالبيت الأبيض : لقد حرصنا على تبادل الاطلاع على مجريات الأمور ومن ثم أدى إلى توطيد العلاقة بين فرعى الحكم هنا وهناك ..



فى ١٩٦٦ وبدعم من وزير الخارجية ويليام روجرز بذل جوزيف سيسكو جهودا جبارة لبدء محادثات سلام بين مصر واسرائيل .. وبينما يعد سيسكو ينظر كيلجور وأمثاله من المستعربين مؤيدا لإسرائيل فحقيقة الأمر أن سيسكو فى معظم سنوات ولايته فى إدارة الشرق الأدنى ظل يضغط لاتباع استراتيجيات للسلم كانت موضع خشية عميقة من جانب الاسرائيليين. يقول سيسكو : مع ذلك فقد أحبنى الاسرائيليون من البداية حتى وأنا احثهم على إعادة الأراضى . أتدرى لماذا ؟ ؟ لأنهم كانوا يعرفون أننى لست من المستعربين بل كنت مثلهم

سواء بسواء بمعنى فرد ينتمى إلى عنصر ماجاء من المنعطف الغلط من الطريق .

أولى محاولات سيسكو سعيا نحو اقرار السلام توجت بمبادرة روجرز★ التى لم تستجب لها مصر والتى رفضتها جولدا مائير شكلا وموضوعا وكان مشروع روجرز يطلب إلى اسرائيل الانسحاب من جميع الأراضى التى كانت قد استولت عليها منذ سنتين مقابل اعتراف غامض بسيادتها من جانب كل من مصر والأردن . على أن العيب القاتل فى ذلك المشروع أن الاسرائيليين نظروا إليه بوصفه أحد مشاريع وزارة الخارجية وأنه لا الرئيس نيكسون ولا مستشاره كيسنجر استثمر فيه ثقله ومكانته وجاء عام ١٩٧٠ ليشهد نقطة تحول فى الشرق الاوسط وليكون عاما وقعت فيه أحداث أشعلت غضب المستعربين تجاه جوزيف سيسكو .

فبرغم فشل مشروع روجرز ، جهد سيسكو فى اصطناع وقف لإطلاق النار بين مصر واسرائيل بعد جولة قتال متقطع بين

★ بعد استعادت مصر لامكانات الدفاع فى العمق - اسبوع تساقط الفانتوم الاسرائيلية - الامريكية فى يوليه ١٩٧٠ ، أعلن الرئيس عبد الناصر قبول مبادرة روجز . «المترجم» .

الطرفين فيما عرف بحرب الاستنزاف التى دامت عامين بعد ١٩٦٧ لكن بعد أن أكدت المخابرات الأمريكية أن مصر خرقت وقف إطلاق النار قرر نيكسون بعد اجتماعه إلى روجرز وكيسنجر وسيسكو فى فاتح سبتمبر ١٩٧٠ أن يبيع اسرائيل ١٨ من نفاثات الفانتوم ف - ٤.

من جهتها كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تخشى من احتمال سلام منفصل بين مصر - عبد الناصر وبين اسرائيل مع استمرار تزويد اسرائيل بالسلاح فقامت الجبهة باختطاف ثلاث طائرات وأمرتها بالتوجه إلى الأردن ، وساعد هذا الاختطاف على إشعال حرب أهلية فى الأردن سعت فيها عناصر المقاومة الفلسطينية بدعم من وحدات مغيرة من الدبابات السورية إلى الاطاحة بالنظام الأردنى الموالى للغرب ، أما نيكسون وكيسنجر فقد أطلا على الأزمة من المنظور الكلاسيكى لعلاقات الشرق والغرب حيث راودهما الشك فى ان الايدى السوفييتية تلعب سواء فى حالات خرق مصر وقف إطلاق النارأو فى تحريك الدبابات السورية إلى الأردن .

وسواء أذنب السوفييت فى هذا أم لا ،فقد كانوا جديرين بأن يكسبوا من جراء الاطاحة بالنظام الاردنى . لكن عندما

طلب الملك حسين العون قال البنتاجون (وزارة الدفاع) فى أمريكا للرئيس نيكسون إن الجيش الأمريكى يفتقر إلى قدرات التدخل السريع على الأرض . هنالك واجه نيكسون وكيسنجر حقيقة باللغة السفور : ان اسرائيل وليس غيرها هى التى بمقدورها التدخل فى الانقاذ وحفظ توازن القوى فى المنطقة هكذا كان التهديد بالتدخل العسكرى الاسرائيلى هو السبب فى تراجع السوريين وفى اتاحة الفرصة لسحق المقاتلين الفلسطينيين فيما اصبح يعرف باسم معركة أيلول الأسود ..

★★★

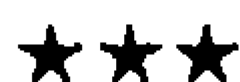
وسط رماد هذا التمرد الفاشل للفدائيين ولدت العلاقة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، وفى السنوات الثلاث التى أفضت إلى أزمة الأردن عام ١٩٧٠ كان متوسط المعونات العسكرية الأمريكية إلى اسرائيل يقل عن ٤٧ مليون دولار سنويا لكن فى السنوات الثلاث التى أعقبت تلك الأزمة ارتفع هذا المتوسط ليزيد على ٣٨٤ مليون دولار . وفى هذا الإطار زادت قوة «الإيباك» - لجان العلاقات العامة بين أمريكا واسرائيل - وهى الذراع الطولى التى يملكها اللوبى الاسرائيلى فى أمريكا - فيما زاد اشتعال غضب المستعربين الذين وجدوا فى شخص جوزيف سيسكو كبش الفداء .

★★★

ومع انحسار أزمة الأردن توفى جمال عبد الناصر وخلفه أنور السادات الذى كان يبدو شخصا لايكاد يعتد به أيام كان نائبا للرئيس .. واذ شعر نيكسون وكيسنجر بالثقة بدأ نجاحهما فى كبت العناصر الموالية للسوفييت فى الأردن وكان افتراضهما أنه قد أصبح من المأمول تجاهل الشرق الأوسط والتماس أمجاد جديدة فى مجال السياسة الخارجية فى الصين ، بيد أن سيسكو الذى لم يهمد له نشاط ما لبث أن بذل بدعم من روجرز محاولة جديدة تجاه عملية السلام فى الشرق الأوسط . هذه المحاولة الثانية التى قد لايعرف عنها الكثيرون كانت نتائجها أكثر إثارة وتعمقت جذورها فى صميم التجربة الشخصية لمستعرب بعينه هو «مايكل ستيرنر» .

«مايك ستيرنر» كان من الدبلوماسيين المخضرمين بالخارجية الأمريكية واختتم حياته الدبلوماسية سفيرا فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، ولد فى نيويورك عام ١٩٢٨ وتخرج فى مدرسة سان جورج الداخلية فى رود أيلاند ثم فى هارفارد - دفعة ١٩٥١ - درس الفرنسية والعربية وتأثر كثيرا بكتاب لورانس «أعمدة الحكم السبعة» ويقول : قرأت كذلك كثيرا عن كتابات المستعمرين الانجليز دوتى وجيرتورد بل وفيلى ثايجر . كان

البريطانيون مؤلفين مقتدرين .. وأنا أتذكر - يقظة العرب - لأنطونيوس ذلك السفر السياسى القيم الذى يجرى من الإنسان مجرى الدم ، ثم حدث أن استطاع صديق للعائلة تدبير وظيفة لـ «مايك ستيرتر» فى شركة أرامكو بالسعودية حيث استطاع ان يسافر منها إلى مصر وسوريا والعراق ولبنان ، وفى السعودية عقد صداقات مع كثير من الفلسطينيين وهو يعترف قائلا : إنه تولد بين جوانحه «قدر من التعاطف إزاء القضية الفلسطينية ونجم عن تجربتى فى السعودية أثر عاطفى هائل فيما يتعلق بالجوانب التى أتحيز لها . لم يكن هناك لا اسرائيليون ولايهود من حولى بل كان يرافقنى دوما عمال فلسطينيون وكنت أسمع عن الكيفية التى طردوا بها من هذه القرية أو تلك حيث كانوا قد نشأوا وترعرعوا».



بعد ذلك التحق ستيرنر بالسلك الدبلوماسى وعينوه فى اليمن بعد سنة أمضاها فى اتقان العربية فى بيروت . وبين عامى ١٩٦٠ ، ١٩٦٥ خدم فى مصر حيث انصب عمله فى السفارة الأمريكية بالقاهرة على كتابة التقارير عن السياسة الداخلية لمصر وبهذه الصفة أمضى ستيرنر وقتا طويلا يرصد أحوال

مجلس الأمة المصرى حيث كان رئيسه أنور السادات يدير الأمور بصورة هزلية على طريقة كبير العيلة مما جعل الأمر كله ملهاة ساخرة وإن كان مفيدا فى ممارسة اللغة العربية فضلا عن كونه فرصة لمعرفة السادات . وهنا يواصل ستيرنر الحديث : «لك أن تفهم إننى كنت الأمريكى الوحيد الذى يحضر جلسات مجلس الأمة ومن ثم كان السادات يحرص على دعوتى لتناول الشاى وتجاذب أطراف الحديث فى بيته بالجيزة وسط ديكور أقرب إلى طراز لويس الخامس عشر له أبعاد متسعة لكن بغير ذوق رفيع».

فى فبراير ١٩٦٦ ، وبعد عودته إلى واشنطن عمل ستيرنر ومعه لوشيوس باتل سفير أمريكا فى مصر وقتئذ على الترتيب لزيارة «نائب الرئيس» أنور السادات إلى الولايات المتحدة ★ ولأن جمال عبد الناصر لم يكن محبوبا بصورة خاصة فى أمريكا لاهو ولاسياساته الموالية للسوفييت فقد كان على السفير باتل ان يحرك جميع الخيوط كى يرتب لزيارة السادات : أكثر من يقول نعم لعبد الناصر على طول الخط فى مصر. ويتذكر باتل هذه الواقعة قائلا : حصلنا لأنور السادات على بدل سفر بمبلغ ١٢ دولارا فى اليوم وتذكرة سفر بالدرجة السياحية على طيران تى

★ السادات وقتها كان رئيسا لمجلس الأمة ، ولم يكن قد عين نائبا للرئيس . «المترجم»

دبليو إيه – ومن ثم حملنا الشركة على ترفيعها إلى الدرجة الأولى أما السادات فكان أشبه برجل يتلمس الظلام بيديه سائلا : ترى هل ستعاملونني حسب الأصول ؟

وبعد وصول السادات إلى أمريكا رافقه ستيرنر إلى كل مكان وكانت تلك أول زيارة للسادات لأمريكا رغم أنه تردد كثيرا على موسكو في مهام كلفه بها عبد الناصر وأردنا ان نبهره ومن ثم فقد أرسلناه جوا إلى كاليفورنيا .

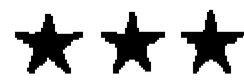
وفي «سكرامنتو» أمضى السادات طيلة اليوم في صحبة حاكمها «إدموندبات براون» . ذهبا أولا إلى جلسة لمجلس الولاية حيث كان النواب يسلقون حاكمها بألسنة النقد حول شتى القضايا ، وبعدها إلى اجتماع رتَّبه الحاكم براون مع تلاميذ مدرسة ثانوية حيث تعين عليه ثانية الرد على أسئلة قاسية. ويضيف السفير ستيرنر : كادت عيون السادات تطل من محجرها وهو يشهد تجربة التواصل بين الحاكم براون وبين عامة المواطنين خاصة أن طلبة الثانوية كانوا قد شددوا النكير بيد ان براون تحمل سخونة الجلسة بروح من المرح . أما السادات فقد ملكت عليه التجربة جماع جوارحه وتعمق لديه الإعجاب بما راه من تميز الحياة الأمريكية بالحيوية والانفتاح وعليك ان تتذكر ـــ أن السادات كان قد عرف موسكو في أيام ستالين

المظلمة★ .. واعتقد أن تلك كانت لحظة حاسمة لحظة أن «باعوا» صورة أمريكا لأول مرة لأنور السادات .

وفى نيويورك رتبوا غداء للسادات قبيل عودته إلى مصر فى «نادى ٢١» كان مقررا أن يحضره العمدة جون لندساى ، ويواصل «مايك ستيرنر» ذكرياته قائلا : وبسبب الضغوط التى مارستها الجماعات اليهودية ألغى لندساى حضوره قبيل ساعات ثلاث فقط من موعد الغداء ، وشعر السادات لحظتها بالإهانة لكنه مالبث أن تجاوز الأمر وساعتها سألته :" ان كان ثمة مايريد أن يفعله لكى يقتل الوقت فما كان منه إلا أن قال إنه يريد شراء مجموعة كاملة من روايات «زان جراى» عن رعاة البقر فى الغرب الأمريكى فعندما كان سجينا لدى البريطانيين مع سائر العناصر الوطنية المصرية ابان الحرب العالمية الثانية لم يكن لديهم مايقرأونه فى مكتبة السجن سوى روايات «زان جراى» . ثم إنه وخاصة بعد زياراته لكاليفورنيا أصبح مدمنا على هذه الصورة التى انطبعت فى ذهنه لأمريكا ، صورة رعاة البقر ولأننى نيويوركى أصيل كنت أعرف إلى أين أقتاده – إلى مكتبة فى شرق الشارع الرابع ولك أن تتصور الفرحة التى غمرت أنور السادات عندما وجد الكتب التى طلبها . وهكذا أصبح

★لعله يقصد أيام ما بعد ستالين الذى توفى عام ١٩٥٣ . «المترجم» .

العمدة جون لندساى فى طى النسيان . لقد كان السادات ينطوى على هذه القسمة الرومانسية من قسمات شخصيته . كان بوضوح رجل الحركات المسرحية ومازلت أتذكره مرتديا معطفه الادواردى فى الصباح وكأنه أحد الشخصيات فى أفلام ديفيد نيفن.



فى عام ١٩٧٠ واذ تولى السادات بعد جمال عبد الناصر أصبح مايكل ستيرنر مديرا للشئون المصرية فى وزارة الخارجية. «وكنت أعرف أننا بازاء لعبة كرة جديدة ونصحت زملائى ورؤسائى ألا يهملوا شأن الرجل الجديد فى مصر بوصفه نسخة بالفاكسميلى عن أصل اسمه عبد الناصر ذلك لأن السادات سوف يأخذ مصر إلى اتجاه جديد».

قليلون يومها أخذوا آراء ستيرنر على محمل الجد وعلى رأسهم طبعا لجنة العلاقات اليهودية - الأمريكية وجولدا مائير . ألم يكن ستيرنر قبل كل شىء مجرد واحد من المستعربين الرومانسيين وقد اجتذبته تلك النسخة الجديدة التافهة من عبدالناصر ؟ لكن الذى حدث مع بدايات الربيع من عام ١٩٧١ أن بادر أنور السادات ليصعق «دونالد برجس» أقدم دبلوماسى أمريكى فى القاهرة عندما قدم له مشروعا للتسوية بين مصر واسرائيل.

كانت مصر قد قطعت العلاقات رسميا مع أمريكا في عام ١٩٦٧ ولم يكن برجس يتمتع برتبة سفير .. بعدها طار ستيرنر إلى القاهرة من واشنطن وفي ٢٣ أبريل ١٩٧١ كان هو ومعه برجس يجتمعان مع أنور السادات .

يتذكر ستيرنر قائلا : «التقينا شمال القاهرة في إحدى استراحات الملك فاروق حيث جلسنا إلى كراسي البامبو نحتسي القهوة والمشروبات الباردة وصفر السادات يطلب الخرائط.. وجاءت خريطة لسيناء من وضع هيئة المساحة الأمريكية وقال : اذا كان الاسرائيليون على استعداد للانسحاب إلى الموقع كذا فأنا سأكون على استعداد لفتح قناة السويس .. بعدها استرسل في الحديث . كان قد عاني كثيرا في فترة عبد الناصر .. وأدركنا فجأة أن هذا الشخص يريد التفاوض على السلام وأنه كان يعني ما يقول .. وكان الأمر على هذا النحو مهما لكن ماذا عسانا نفعل لو أنه أطيح به ؟ .

على أن السادات مالبث أن هدأ بعضنا من تلك الوساوس بعد أيام قليلة عندما أخرج من الجراب أولى مفاجآته العديدة . لقد اعتقل على صبري رأس الحزب السياسي في مصر ، القوى الموالي للسوفييت ومع حلول الصيف سيقوم السادات بطرد

الخبراء العسكريين السوفييت من مصر . مع ذلك فقد بدأ موقف السادات الداخلى وكأنه لايزال هشا وبرغم أن كلا من وزير الدفاع موشى ديان ووزير الخارجية أبا إيبان - فى اسرائيل أبديا اهتماما بمبادرة السادات فإن رئيسة الوزراء مائير كانت يراودها مزيد من الشكوك .

بيد أن السفير «ستيرنر» لايلبث أن يعبر عن أسفه البالغ حين يقول : إنه عندما جاء كل من وزير الخارجية روجرز ومساعده سيسكو إلى الشرق الأوسط لدفع كلا الطرفين إلى التقارب مع بعضهما البعض وبرغم ماكان السادات يقدمه من تنازلات جديدة إلا أن الأمر كله مالبث أن تبدد بين حبات الرمال .

بدا الأمر وكأن كل أجزاء المعضلة موجودة ومتاحة . لكن المعضلة نفسها كانت تستعصى على الحلول . إن «أثرتون» الذى كان مشاركا بعمق فى مبادرة سيسكو يعترف من جانبه قائلا : «حتى أنا كنت متشككا فى إخلاص أنور السادات ولم نأخذ رئاسته فى مصر على محمل الجد كمؤسسة إلا عندما جاءت حرب ١٩٧٣ . هذا النصر أسهم مع غيره من العناصر فى فشل المحاول الثانية فى التقدم نحو السلام ، ويعترف «أثرتون» أيضا بأن الاسرائيليين كانوا على حق فقد كان ثمة تركيز بالغ

على الحدود دون أن تشهد هذه المحادثات التركيز الكافي على جوهر السلام ذاته . وحتى بدون هذه السلبيات فقد كانت تلك المبادرة ينظر إليها على أنها مشروع من مشاريع الخارجية معرض لاحتمال ان ينسحب منه الأطراف على استحياء في اللحظة الأخيرة دون ان تثير غضب الرئيس نيكسون .

والذى حدث أن فشل مبادرة ١٩٧١ أدى إلى المزيد من تدمير مكانة روجرز فى وزارة الخارجية مما أتاح المجال أمام نيكسون وكيسنجر لتسلم زمام السيطرة على سياسة الشرق الأوسط ، لم يكن لا المصريون ولا الاسرائيليون سعداء عند هذا المنعطف لا إزاء روجرز ولا تجاه سيسكو بل كانت إدارة الشرق الأدنى بالخارجية تدخل معركة مع لجنة العلاقات اليهودية - الأمريكية المؤيدة لاسرائيل حول كل شحنة سلاح تسلم لاسرائيل ، هذا بينما كان السادات يشعر كما يقول كوانت بأن ادارة الشرق الأدنى تعاملت معه كرجل أحمق مأفون .

فى عام ١٩٧٢ عين السادات حافظ إسماعيل مستشارا للأمن القومى وكان ذلك كما يشرح أثرتون منصباً جديدا تم انشاؤه لغرض وحيد هو تزويد السادات بقناة اتصال خلفية مع كيسنجر الذى كان يشغل الموقع بنفس الاسم فى صفوف الحكومة الأمريكية .

ويقول ستيرنر : إن خبراء المنطقة بالخارجية كانوا متبرمين لأن كيسنجر أبدى بوضوح عدم اهتمامه باقرار تسوية سلمية فى فترة ١٩٧١ - ١٩٧٢ . وكيسنجر تنقصه الشجاعة الأدبية للاعتراف بأخطائه . كما يضيف ستيرنر الذى يقول إنه لا الاسرائيليون ولا إدارة نيكسون كانوا يثقون فى مبادرات التقرب من جانب السادات قبل نشوب حرب الغفران (أكتوبر) ١٩٧٣

إن ستيرنر يعرض على زائره - مؤلف الكتاب - قصاصة من أحد أعداد جريدة هآرتس الاسرائيلية ومعناها الأرض ، صادر فى عام ١٩٧١ ، يحمل صورا لكل من ستيرنر شخصيا وكذلك روى أثرتون وبعض المستعربين الآخرين بالإدارة الأمريكية وهم يرتدون ملابس لورانس العرب البريطانى الشهير ، ويضحك ستيرنر قائلا : هكذا كانوا يسخرون منا . ولو كانوا قد صدقونا بشأن السادات لما قتل من أبنائهم عدد كبير فى عام ١٩٧٣ . على أن ستيرنر يعترف بأن ضروب الفشل التى منيت بها عملية السلام وقتها فضلا عن مبيعات الأسلحة إلى اسرائيل قد زرعت فى صفوف ادارة الشرق الأدنى مايشبه عقلية الخنادق المتحفزة والمتربصة. «مع أواخر عقد السبعينات ساد شعور بأننا

الوحيدون فى عموم واشنطن الذين نشكل قطب التوازن إزاء المناخ العام من الشراكة المؤيدة لاسرائيل» . تلك هى اللحظة التى بدأ فيها المستعربون يرون أنفسهم بجدية فى صورة أقرانهم من المختصين بشئون الصين الذين تعرضوا للاضطهاد خلال الارهاب الفكرى المكارثى الذى شهده عقد الخمسينات .

وما كان لهؤلاء المخضرمين من أهل الاستعراب أن ينعموا بفرصة لالتقاط الأنفاس . لقد جاء استيلاء كيسنجر على مقاليد شئون الشرق الأدنى حتى قبيل تعيينه وزيرا للخارجية فى سبتمبر ١٩٧٣ . وتم هذا الاستيلاء قبل التعيين بأربعة أشهر .. ففى مايو ١٩٧٣ ، وتحت غطاء محادثات باريس للسلام فى فيتنام ، عقد كيستجر اجتماعا سريا مع نظيره المصرى حافظ اسماعيل بعد أن أطلعه كل من سيسكو وأثرتون على تطورات الأمور. يومها ظل ويليام روجرز وكان لايزال اسميا وزيرا للخارجية بعيدا عن الصورة تماما ، وجاء مايو ١٩٧٣ ليشهد فى باريس أول تعامل بين كيسنجر وروى أثرتون الذى يتذكر هذا بقوله : أعجبنى فيه سرعة تعلمه فلم يكن بحاجة إلى كثير من الاطلاع على المعلومات .

ثم اكتمل التحول الذى طرأ على إدارة الشرق الأدنى بعد مجىء كيسنجر إلى وزارة الخارجية فقد جاء بمفهومه عن

السياسات المبنية على الواقع ليقلب رأسا على عقب مفهوم الدبلوماسية التى كان كيسنجر يتشكك كثيرا فى مقدراتها، يقول فى كتابه «سنوات الأزمة» : لقد تطور السلك الخارج فى السنوات الأولى من تاريخنا حين لم يكن يلوح تهديد فعلى ومباشر لأمن أمريكا وبدا ان تعاطى أمريكا مع الخارج وكأنه لا يصدر عن مفهوم المصلحة القومية مما كان يعد أمرا قصير النظر من الناحية المعنوية بقدر ما كان ينطلق من الأفكار المستنيرة عن حرية التجارة ووضع المبادىء الأخلاقية أو على الأقل القانونية موضع التنفيذ .. ان الخدمة الخارجية - الدبلوماسية - تنادى بالتفاوضية أو فى معنى آخر بالوعى بما سوف يقبله الجانب الآخر ..

فى كلمة واحدة يرى كيسنجر السلك الدبلوماسى الأمريكى بمثابة حفنة من المبشرين انطلقوا إلى الخارج يقصدون إلى الخير فكان أن التقوا بالأشرار فى منتصف الطريق وعلى حساب المصلحة القومية .

وقد تحولت مقدرة كيسنجر على استغلال العناصر البيروقراطية فى قراره بالابقاء على «سيسكو مساعدا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى حين كانوا ينظرون إلى سيسكو على

أنه رجل روجرز، وكانت معروفة تلك الكراهية التى يضمرها كيسنجر تجاه روجرز ، بل كان لكيسنجر أراؤه السوداوية إزاء محاولات سيسكو المتواصلة لصنع السلام التى وصفها كيسنجر بأنها نشاط من أجل النشاط ليس إلا . لكن من الواضح ان كيسنجر تنبأ - عن حق - بأن سيسكو عندما يصبح رجل كيسنجر سوف يشكل أداة مغرية وفعالة . وبرغم أن جوزيف سيسكو شأنه شأن هيرمان إيلتس لم يتردد فى أن يراجع كيسنجر فى أمور شتى بل أن يصرخ فى وجهه أحيانا إلا أن كسينجر كان يتقاضى عن تمرد الأفراد الذين يكن لهم الاحترام .

«مايك ستيرنر» واحد من المخضرمين الذين لهم أفكار تأملية بشأن التغيير الذى أحدثه كيسنجر وسيسكو فى الخارجية ولاسيما فى إدارة الشرق الأدنى : جاء كيسنجر بتصويب صحى لمسار السياسة الخارحية رأى كيف تعانى عملية أخذ القرار من جراء الشد والجذب بين الأطراف بغير ضابط أو رابط فمن المؤكد أن ثمة تحيزا مؤسسيا ومتأصلا لصالح العلاقات الثنائية فى وزارة الخارجية أى العلاقات بين أمريكا بين هذا البلد العربى أو ذاك .. لهذا جاء كيسنجر بهيكل معمارى جديد يكفل عمليات مراجعة وكشف منظمة لوضع الأمور فى نصابها

ذلك لأن من الدول ومن المبادىء مايفوق فى الأهمية دولا أو مبادىء أخرى .

وجاءت حرب الغفران (أكتوبر) ١٩٧٣ - التى كانت نتيجة جزئية لما عمد إليه نيكسون وكيسنجر من إهمال الشرق الأوسط بعد المكاسب التى تحققت لهما من أزمة «أيلول الأسود» فى الأردن عام ١٩٧٠ لكن الحرب أتاحت أمام كيسنجر فرصة العمر التى كان يرتقبها كى يبدد الأفكار والتصورات التقليدية التى درج عليها المستعربون - خاصة كما أكد عليها سلفه القديم - لوى هندرسون - بأن على الولايات المتحدة أن تختار بين صداقة إحدى وعشرين دولة عربية أو صداقة واحدة فقط هى اسرائيل . ذلك أن كيسنجر كان جديرا بإثبات أن بالإمكان كسب صداقة الطرفين على السواء .

وكان الأمر مهيأ تماما فبرغم ان اسرائيل كانت تخوض الحرب على جبهتين فى أكتوبر ١٩٧٣ إلا فإنها تكبدت جراحا مميتة بفعل الهجوم المباغت للسادات عبر قناة السويس وهجوم الزعيم السورى حافظ الأسد عبر مرتفعات الجولان ، هكذا تناقصت بصورة جذرية ميزة اسرائيل الاستراتيجية والسيكولوجية التى كانت تتمتع بها على جيرانها العرب، وهذه

النكسة أتاحت لكيسنجر الضغط على اسرائيل من أحل تقديم تنازلات . ثم ان الدول العربية باتت تدرك أن الولايات المتحدة وليس غيرها هي القادرة على أن تعيد اليهم أرضهم الضائعة بحكم علاقتها الوثيقة مع اسرائيل ، ومن ثم فبرغم استمرار العلاقة الحميمة بين أمريكا واسرائيل قامت كل من سوريا ومصر بتجديد صلاتهما الرسمية مع واشنطن .

كان كيسنجر وسيسكو وأثرتون هم نواة الفريق المسافر للخارجية الأمريكية لإجراء المفاوضات التاريخية التى أعقبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى المفاوضات التى شملت إعادة فتح قناة السويس وانسحاب القوات الاسرائيلية من الجزء الغربى من سيناء وخلق منطقة منزوعة السلاح فى مرتفعات الجولان . وكان هيرمان ايلتس هو الرجل الذى اختاروه لإعادة فتح سفارة أمريكا فى القاهرة وكان ريتشارد ميرفى هو الذى اختاروه لإعادة فتح سفارة أمريكا فى دمشق .

أثرتون كان هو الذى وضع عينه على ريتشارد ميرفى بوصفه يمثل فصيلا جديدا من المستعربين - فصيلا غير تقليدى وغير مستغرق في الاستعراب . بيد أن الخاصية التي ميزت ميرفى عن المخضرمين من أمثال سيل أو باركر أو ستولفوز أو كيلجور أو ستيرنر أو غيرهم كانت أعمق وأبعد مدى . فبدلا من

أن يكون فصيلا جديدا . كان يمثل بالأحرى طبعه مخففة من هؤلاء الرجال رغم أن ميرفى ، وكذلك يفعل بعض بعض أولئك السادة المخضرمين ، لا يقرون كيلجور مثلا على نوعية تصريحاته المتعلقة باسرائيل أو الصهيونية .

ميرفى مثل أثرتون تخرج في كلية أكستر حيث صادف لأول مرة كتاب دوتى الأشهر بعنوان «رحلات في صحارى بلاد العرب» وبعد دراسة في هارفارد أعقبتها فترة موجزة في الجيش التحق ميرفى بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٥٤ ثم درس العربية في الجبال المحيطة ببيروت فيما قرأ القرآن الكريم على يد شيخ علم في أحد الجوامع المحلية ، وزار ميرفى اسرائيل لأول مرة عام ١٩٥٤ وهناك اكتشف ان التحيز هنا أو هناك لجانب ما هو من الحماقة بمكان ، خاصة فيما يمس المستقبل الوظيفى للمرء . في فبراير ١٩٦٢ كان عاكفا على تسلم صور لرائد الفضاء الأمريكى جون جلن بالقنصلية الأمريكية في حلب في محاولة لتعزيز صورة أمريكا في صفوف الأهالى العرب وفي اليوم التالى اتهمته وسائل الاعلام السورية بأنه إنما كان يسلم صورا لجمال عبد الناصر★ كانت تلك فترة قطيعة (الانفصال) بين مصر وسوريا،

★وكانت تلك جريمة في نظر نظام الانفصال السورى .. فتأمل ! «المترجم».

واشتكى ميرفى إلى المسئولين السوريين وتلقى الاعتذار لكنه قرر فى صحف اليوم التالى أنه هو الذى قدم الاعتذار وفى هذا يقول ميرفى : الخطأ الذى ارتكبته هو إننى تعاملت معهم بالمنطق . ذلك هو النوع من التجارب الذى يتكرر مرارا وتكرارا حتى ليحصنك من أن تنحاز عاطفيا إلى العرب .

وبعد أن أصبح أثرتون نائبا لمساعد الوزير حصل لميرفى على منصب سفير لدى موريتانيا إذ كان أثرتون يدرك من واقع تجربته الخاصة أن أفضل شيء لمهمة المستعرب أن يتباعد المرء عن المسار الرئيسى فى العالم العربى . وموريتانيا إلى جانب كونها عند أطراف المحيط العربى إلا أنها أتاحت لميرفى فرصة الانضمام إلى صف السفراء فى سن صغيرة نسبيا بما يؤهله لمنصبه فى سوريج عندما يعيد كيسنجر إقامة العلاقات. وقد تعمدوا اختيار ميرفى متخطين بذلك كلا من ستولفوز وكيلجور ومن سواهم ممن يفوقونه فى الأقدمية وفى التمرس فى الشئون العربية ، وفى عام ١٩٧٨ عاود أثرتون مساعدة ميرفى فى تولى منصب السفير فى الفلبين بعد مهمته فى سوريا . وما أن جاء مطلع الثمانينات حتى أصبح ريتشارد ميرفى مؤهلاً بتاريخ خدمة حافلة لكى يصبح مساعدا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى عهد

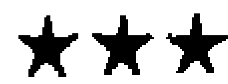
الرئيس ريجان . هكذا لم يقدر بعد ذلك قط أن يتولى مستعرب متأصل رئاسة إدارة الشرق الأدنى - منصب مساعد وزير الخارجية - فقد حل أثرتون محل سيسكو عام ١٩٧٤ عندما قام كيسنجر بترقية سيسكو إلى منصب وكيل الخارجية ، وبعد أثرتون جاء هارولد سوندورز معاون كيسنجر السابق فى مجلس الأمن القومى - بالبيت الأبيض - وهو واحد من رواد عملية السلام وبين سوندورز وميرفى تولى المنصب نك فليوتس .

★★★

ينحدر نك فليوتس من أصل يونانى فى كاليفورنيا وقد التحق بمدارس الحكومة وحصل على درجاته الجامعية من جامعة كاليفورنيا فى بيركلى ، وكان أول مناصبه الدبلوماسية فى نابولى ورما بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٦٠ وهو يعلق على تلك الفترة بصوت رتيب تفوح منه خبرة الحياة اليومية قائلا : خمس سنوات ممتعات فى إيطاليا قبل أن يلحقها التلف نتيجة عوامل مختلفة أمضينا فيها أجمل سنوات عمرنا أنا وزوجتى ومنذ ذلك الحين مابرحت فى تدهور .

سنوات فليوتس التالية أمضاها فى مواقع فى فيتنام والهند ولاوس .

وفى عام ١٩٧٣ وقد بلغ من العمر ٤٥ عاما خيروه بين منصب السفير فى بنجلاديش ونائب السفير فى اسرائيل والمعروف ان الدبلوماسى المحترف سواء اعترف بذلك او أنكره ينشد، رجلا كان أو أمرأة إن يصبح سفيرا قبل التقاعد فإذا ماعرض منصب السفير عليه ولما يزل فى الأربعينات من العمر مهما كان البلد صغيرا فمن شأن هذا أن يضع الدبلوماسى فى فئة النخبة التى يمكن أن تفتح أمامها أبوابا أوسع دون سابق إنذار.



لكن فليوتس المقامر بطبعه يقول لم أكن أريد العودة إلى آسيا لقد أصبت بكل مرض يخطر على البال هناك ولم يكن من قصدى أن أخترع أمراضا جديدة ثم كنت أخشى الملل الفكرى هناك .. وكان عندى ابناء ، واسرائيل موقع أفضل بالنسبة لعائلة.

ومالبثت اسرائيل ان برهنت على كل ماكان يتطلع إليه بالضبط فعشية حرب ١٩٧٣ واجه فليوتس بدلا من الملل الفكرى أعباء هائلة من العمل سبعة أيام فى الأسبوع . ووجد أن الاسرائيليين يتصفون بنوع من الغطرسة لايخلو من جاذبية : تل أبيب تحمل طابع وسط مانهاتن - قلب نيويورك - من حيث الجو

المحموم والمكهرب ولأن السفارة الأمريكية تقع في قلب الحي المشحون بالضوء الأحمر كان المنصب ممتازا .

في عام ١٩٧٥ عاد فليوت إلى واشنطن ليعمل ضمن هيئة رسم السياسات مع كيسنجر ، وفي عام ١٩٧٧ رشحه أثرتون نائبا لمساعد الوزير للشرق الأدنى في عام ١٩٧٨ أصبح سفيرا لدى الأردن ، هكذا ربح في المقامرة برفض منصب السفارة لدى بنجلاديش ثم «كان هناك من المستعربين من حاولوا النيل مني للحيلولة دون حصولي على المنصب في الأردن على أساس الفترة التي أمضيتها في اسرائيل والذي لم يدركوه أن الأردنيين هم الذين أرادوا مجيئي وبالذات لأن لي رؤية متعمقة بشأن اسرائيل».

المعروف ان فليوتس اختتم حياته الوظيفية سفيرا لدى مصر بعد أن عمل مساعدا للوزير لشئون الشرق الأدنى في الفترة ١٩٨١ - ١٩٨٣ .

على أن الأمور لم تمض بغير عوائق اذ لم يكن سهلا باستمرار على المستعربين المخضرمين ان يفسحوا مواقعهم كي يأتي إليها أمثال ميرفي أو فليوتس .. ففي أواخر عام ١٩٧٥ قام كيسنجر بطرد «جيمس إلمر أكنز» وكان سفيرا بالعربية السعودية

بتهمة العصيان الوظيفي لأنه على ماقيل كان متحيزا أكثر من اللازم لصف العرب ، وقد تعين على «إكنز» أن يقرأ خبر طرده في سطور عمود كتبه الصحفي جوزيف كرافت كان هذا هو هنرى كيسنجر في أحقر تصرفاته البيروقراطية . فما الذى دفعه إلى هذا التمادى فى السلوك ؟ ان الخلافات فى السياسة لم تكن كما قد يتوقع المرء سوى الأسباب الظاهرة - لهذه التصرفات .

★★★

لم يكن «جيم أكنز» من ذلك الطراز الذى نعهده فى مستعربى المدرسة القديمة لم يكن لا جم التهذيب ولا رقيق الحاشية على نحو ماكان اندى كيلجور وتالكوت سيل أو تيل ستولفوز ولا حتى من طراز اختصاصى الصين مثل جورج بوش . كان «أكنز» خشنا بحق متوقد الذكاء .

ولد فى اكرون ، أوهايو عام ١٩٢٦ من عائلة مبشرين فقيرة من طائفة الكويكرز ، وبدلا من برنستون أو أمهرست أو هارفارد تعلم فى جامعة اكرون وبدلا من أن يحصل على درجة فى الأدب أو العلوم السياسية نال درجته فى الفيزياء وفى هذا يكمن أحد مفاتيح شخصيته إذ هو عالم طبيعيات من النوع الثقيل وكل شىء حول شخصيته وأساليب تفكيره ينطلق من خبرة تحليلية قاسية

غير متهافتة – نكرر غير متهافتة بحال من الأحوال . إنه بهذا نقيض طراز المستعرب الرقيق من أهل العلوم الاجتماعية الذى يجب ان يكرهه بالذات غير المحافظين .

هذه الشخصية العلمية الحادة الاستقامة التى جبل عليها «أكنز» واقتربت بنشأته التبشيرية المتقشفة بين ظهرانى الكويكرز جعلت منه شخصية ديدنها الأخلاق . بل وإنسانا كما يقول البعض يتحلى بضمير يقظ يحاسب على كل شىء . مع بدايات الخمسينات خدم «أكنز» مع نخبة الأصدقاء الأمريكيين فى بولندا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا إلى أن قام الشيوعيون بطرد جماعة مبشرى كويكرز. كانت تلك سيرة هندرسون الذى شب بدوره فى بيئة فقيرة فى قلب أمريكا وخدم أيضا مع الصليب الأحمر بعد الحرب العالمية الأولى . على أن «أكنز» آنس فى نفسه فى تلك الفترة قدرة على تعلم اللغات . كانت الفيزياء قد أوصلته إلى الألمانية واستطاع بسهولة أن يتقن الفرنسية ثم أصبح أيضا من عشاق الثقافة واللغة اليونانية ، وفى عام ١٩٥١ كان قد أكمل جولة فى أنحاء اليونان وآسيا الصغرى حيث زار أقصى الأديرة فى جبل أثوسى وكان ذلك عقب الحرب الأهلية اليونانية إذ كان الريف فى معظمة ممزق الأوصال ، وفى تركيا تقصى «أكنز» مسار الاسكندر الأكبر مشيا على الأقدام وهو مايلاحظ أنه أمر

لم يحتفل به ولا انجزه كتاب الرحلات البريطانيين من أمثال فرياستارك ويقول : «ان شغفى بأحوال شرقى المتوسط تناهى إلى نفسى عن طريق اليونان .

ومالبث «أكنز» الشاب أن وجد لنفسه مستقرا فى بيروت عام ١٩٥٢ حيث كان يتكسب من تدريس الفيزياء والكيمياء «كنت قد نشأت فقيرا للغاية ولم أكن أعرف ماهو السلك الخارجى إلا بعد أن أقمت فى بيروت وتصورت أنه مقصور على أبناء الأثرياء ، وكنت أعرف أننى أفوقهم ذكاء وألمعية . هكذا انتظرت إلى ان دخلت امتحان السلك الدبلوماسى فى سفارة أمريكا وما داخلنى الشك لحظة فى اننى سأجتاز الامتحان . لكن الذى حدث أن أوراق الامتحان لم تصل قط بل جاءت السنة التالية عام ١٩٥٣ فأجريت استقطاعات بالميزانية وموريست الضغوط من جانب السناتور مكارثى وقد كان يصطاد فى مياه عكرة يراها حمراء فحالت دون تعيينات جديدة » ، وبعد فترة تسكع فى لبنان وسوريا كان الفرد أثرتون الدبلوماسى فى سوريا فى ذلك الوقت هو أول من التقاه اكنز من أفراد السلك الخارجى على الإطلاق وقد عاد أكنز إلى وا شنطن عام ١٩٥٤ ومالبث أن التحق بالسلك الدبلوماسى .

وفى عـام ١٩٥٦ عـين «أكنز» فـى سـوريا حـيث أبدى من اللمعان وأيضا الاعتداد بالنفس مايجبر المرء على احترامه وهو يبدأ فى تفسير ذلك فيقول «كان ذلك فى الفترة التى سبقت ايام دفع علاوات أسرية مقابل تعليم أولاد الدبلوماسيين أو الإجازات التى يمضونها فى الوطن، بمعنى آخر كان السلك الدبلوماسى لايزال بعد مؤسسة الأغنياء : مرتبات ضعيفة أساساً وعليك أن تدفع من جيبك الكثير وكان من السهل ان تكون أمينا فى البرقيات الدبلوماسية ، فأنت عائد فى حال ان يغضبوا عليك إلى حيث دخلك الخاص الوفير . أما أنا فلم أكن لأملك هذا الترف هنالك قررت ومهما كانت عواقب التصرف كما يفعل ابناء الأغنياء أن أكتب تقاريرى لأودعها بالضبط ماكنت أفكر فيه». وعليه جلس اكنز ليكتب تقريرا بخط يعدد فيه ١٦ علامة تنبىء بوحدة سياسية وشيكة الحدوث بين مصر وسوريا وأرسله خلال قناة معارضة ولكن عمد نائب السفير إلى تدمير تحليلى ثم ثبت أننى كنت مصيبا وكان هو المخطىء اذ قامت بالفعل الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ثم تعرضت للانفصال عام ١٩٦١» .

بعد ذلك خدم «أكنز» في مأمورية محدودية في قنصلية مدارس بالهند قبل ان يتوجه إلى بيروت لدراسة العربية. و«ما أسهل أن لحقت بالذين كانوا متفرغين يدرسون العربية ردحا طويلا من الزمن» . وهو يحرص على تذكير محدثه بذلك معربا عن الأسف لأن المعهد تعرض للإغلاق فترة من الزمن عندما قام أيزنهاور بغزو لبنان ، وفى عام ١٩٥٩ ذهب «أكنز» إلى الكويت ليحل محل «سيل » نائبا للقنصل وكان سيل قد حل بدوره محل «ستولفوز» وبعدها بدأ أكنز فى عام ١٩٦١ مهمة استغرقت أربع سنوات في بغداد مستشارا سياسيا بالسفارة وهو يلاحظ بسعادة أنه بفضل الانقلاب البعثى . عام ١٩٦٢ فقد نعمنا بعلاقات أفضل مع العراق ومن تصاريف القدر أيضا أن سبق «أكنز» فى منصب المستشار السياسى بالسفارة في بغداد زميله «بيل ليكلاند» الذى يراه أكنز « أفضل موظف فى السلك الخارجى الأمريكي التقيته على الإطلاق» وهو نفس بيل ليكلاند الذى وصفه أثرتون بأنه من غلاة مؤيدى القومية العربية وجمال عبدالناصر وحكم الأغلبية من أهل السنة .

وفى عام ١٩٦٧ حصل جيمس أكنز على وظيفة مدير مكتب المحروقات والطاقة بوزارة الخارجية بفضل معرفته عن العالم

العربى الغنى بالنفط من جهة وبفضل خبرته العملية من وجهة أخرى ويومها أثبت اكنز انه كاسندر ★ فى عام ١٩٧٠ . وعندما كان سعر البنزين ١٧ سنتا للجالون اقترح اكنز رسميا فرض ضريبة على البنزين بهدف الحد من الاستهلاك واعداد أمريكا لأزمة قادمة فى البترول تنبأ بوقوعها فى ربيع ١٩٧٣ أى قبيل أشهر قليلة من حرب الغفران – اكتوبر – وماتبعها من فرض حظر عربى على البترول .

وفى اجتماع ضمه مع جون ارلخمان مستشار السياسة الداخلية للرئيس نيكسون دافع أكنز عن خطة ترمي إلى حفظ النفط بمعنى الاقتصاد فى استخدامه خشية النضوب . إلا أن ارلخمان أجاب بقوله ان الحفظ ليس مما يتبناه الحزب الجمهورى ويعلق على ذلك اكنز بقوله وهذا غلط فإن أول دعاة الحفظ الكبار هو الرئيس الأسبق تيدى روزفلت وكان جمهوريا ثم يسترسل أكثر ضاحكا طبعا لم أجسر على أن أقول ذلك إلا بعد ان غادرت مبنى البيت الأبيض .

★ عرافة ضروارة أو زرقاء اليمامة عند العرب «المترجم» .

بدأ تعيين «جيمس أكنز» سفيرا لدى العربية السعودية، في نفس لحظة اندلاع حرب «يوم كيبور - الغفران - اكتوبر» بمثابة اختيار مثالى.. فأى اختيار أفضل من مستعرب وكذلك خبير فى الطاقة سفيرا لدى المملكة العربية التى كانت تتصدر منتجى النفط فى العالم؟ لكن «اكنز» ما لبث أن تسبب فى مشاكل على الفور.. ففى ٢٥ اكتوبر ١٩٧٣. وبعد أسابيع قلائل من اضطلاعه بواجباته فى المنصب.. أبلغ اكنز مديرى «أرامكو» بأن يستخدموا اتصالاتهم لكى يؤكدوا بيقين فى أمريكا أن رفع القيود عن النفط لن يتم إلا إذا جرت تسوية النزاع السياسى بطريقة ترضى العرب.

وقد جاء ذلك فى وثيقة من أرامكو مطبوعة فى لجنة مجلس الشيوخ الأمريكى الفرعية بجلسات الاستماع للشركات المتعددة - أو المتعدية الجنسيات★ .. بعد ذلك وتحت عنوان «آل سعود الأمريكيون: عصابة البترو دولار السرية» كتب الصحفى المحقق «ستيفن أمرسون أن» تصرفات اكنز كانت من الغرابة بمكان فها نحن بإزاء سفير أمريكى يحاول أن يعزز من ابتزاز العرب للولايات المتحدة» .

★ الشركات المتعدية الجنسيات والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الجزء ٧ ، ٢٠ و ٢١ فبراير ٢٧ و ٢٨ مارس ١٩٧٤ ، ص ٥١٧ .

كيسنجر وسيسكو كانا فى أهون الأحوال غير راضين عما حدث.. ومن ناحيته فإن «السفير اكنز لا يخفى كراهيته لكل منهما وتفضيله لوزير الخارجية الأسبق ويليام روجرز.. بيد أن أكنز ما برح ينكر أن هذا الأمر له علاقة بتحيز «من جانبه» للقضية العربية.. بل يقول إنه خاض معارك من أجل كيسنجر ومن أجل اسرائيل أيضا.. ويقول أيضا إن الملك فيصل لم يكن مستعدا لرؤية كيسنجر.. فقد كان فى رأيه يهوديا وصهونيا.. فما كان من أكنز إلا أن أكد على ضرورة استقباله وإلا فإنه سوف يستقيل إذ لن يكون له مصداقيته كسفير إذا ما فشل فى أن يرتب لقاء على مستوى القمة لوزير خارجيته، وبين رئيس الدولة المعتمد لديها.. ويضيف أكنز قائلا: «كان لزاما على أن أمضى الساعات الطوال لإقناع السعوديين بأن كيسنجر لم يكن له يد فى اغتيال فيصل الذى اغتاله أمير سعودى مختل فى مارس ١٩٧٥، ويشير أكنز إلى أن جورج حبش - الزعيم الراديكالى الفلسطينى وصفه بأنه أخطر الأمريكيين فى الشرق الأوسط بعد ما تردد من أن لى نفوذا سلبيا على فيصل.. وفى واقع الأمر فقد حولت موقف فيصل إزاء اسرائيل من عدم القبول نفسيا بدولة يهودية أيما كانت الى القبول عقليا

باسرائيل في حدودها فيما قبل ١٩٦٧.. « لايزال أكنز بقامتا الطويلة وشخصيته الشديدة التأثير على نحو يشوبه قدر مز الخشونة التي يكاد يختفي وراءها جوهر روحي أرهف احساسا – لايزال لديه ما يقوله: «لم أكن أريد لأسعار البترول أن ترتفع.. وطالما جادلت في ذلك مع أكبر المسؤولين بدعوى أنهم إنما يلحقون الأذى بالاقتصاد الغربي وإن ارتفاع الأسعار لن يصب إلا في مصلحة الشيوعيين وكانوا قوم مبغضين اليهم.. وكان الجواب الذي تلقيته «إذا أقنعتم إيران. وافقنا من جانبنا على تجميد الأسعار» لكن سيسكو وكيسنجر تضايقا من اقتراح بممارسة الضغط على الشاه كي يكبح جماح الأسعار ★.. أرادا أن يجني الشاه طائل الأموال كي يشتري بها أسلحتنا «الأمريكية» بيد أنني واصلت الضغط. وعدت هنا إلى عقدة سليل الأغنياء التي اصطنعتها وتصورت أن إلمامي بهذه المسألة بما يفوق معارف كل من كيسنجر

★ «السفير» كيلفور يشير في مقابلة التاريخ الشفوي التي أدلى بها أن ذلك كان جزءا من مؤامرة سيسكو وكيسنجر في ايقاع العرب بين قطبي قوتين عسكريتين غير عربيتين في المنطقة هما اسرائيل وايران (الشاه).

وسيسكو، وكذلك بفضل صلتى الوثيقة بالملك فيصل.. فإن ذلك كفيل بحمايتى من العزل من منصبى».

من ناحية أخرى فإن «السفير» هيوم هوران وكان نائبا للسفير «أكنز» يؤيد جانبا من روايته حين يقول: حارب جيم (السفير) بالقطع فى سبيل مصالح الولايات المتحدة.. وكان حازما إلى مايقرب من المواجهة.. يوصل الأمور إلى قرب الحافة ثم لا يلبث يتراجع ساحبا قواته (الفكرية) ومعيدا تنظيمها ومعاودا الكر مع المسئولين من جديد.. كان أداؤه فى قوام الصخر صلابة وفى براعتة النغم عذوبة واتقانا».

هيرمان إيلتس الذى كان قد وصل لتوه إلى مصر سفيرا لأمريكا وكان مطلعا على كواليس هذه المحادثات يقول إن إدعاء «أكنز» حول عزوف كيسنجر عن الضغط على الشاه ما هو إلا «تذييل ملحق بالقصة الأساسية» وفحواها أن «أكنز» كان يرفض أحيانا تنفيذ تعليمات كيسنجر ومن ثم كان يعطى الانطباع بأنه يرفض الضغط علي الرياض من أجل رفع حظر البترول.. ويضيف إيلتس فى أسى: كان أكنز شخصية لامعة لكنه كان خائبا فى التفاعل البيروقراطى مقصورا على الدخول فى مواجهات وإن كان الحق فكريا معه فى غالب الأحيان.. ثم

كان لديه ولاءات محلية (عربية) لايرى إلا ذاته.. كان أكنز يرى نفسه فى نقاء أفضل ماركات الصابون.

(السفير) هيوم هوران يقول: لاشك أن «چيم» كان رجلا عنيدا صلب المراس.. هذا هو الرجل الذى خاطب يوما رؤساء أكبر ٥٠٠ شركة فى أمريكا (يسمونهم فورتش - ٥٠٠ نسبة إلى المجلة الاقتصادية الشهيرة) طالبا منهم إطفاء سجائرهم لأنه من عتاة - غير المدخنين».

باختصار لم يكن هناك حيز خال ولا حتى فى مقعد السائق لكى يسع الرجلين معا، جيم اكنز وهنرى كيسنجر.. وقد يكون الرجلان على درجة من تقارب الشخصية على نحو لم يعترفا به أصلا.. وكان من مشاكل المرحلة ما زاد حدة الصدام بين هذين الرجلين بكل ما اتسما به من توتر وذكاء واعتداد يبلغ حد الغرور.. كان واضحا مدى الضغط الذى يرزح تحته (السفير) اكنز إذ يعالج مع الملك فيصل (وقتئذ) مسألة البترول وأيا كان ما حققه لم يكن كافيا قط ولا تحقق بالسرعة المطلوبة.. وعليه مضى كل جانب يزعم أن الجانب الآخر هو الأسوأ والأضل سبيلا.. وإذا كان الشخصان اللذان احتملهما كيسنجر وهما يراجعانه فى أمور الشرق الأوسط - سيسكو وإيلتس - ممن

لديهم نفس الإطلالة على المشكلة العربية - الإسرائيلية، إلا أن (السفير) اكنز «لم يكن يحترم كثيرا طريقة كيسنجر فى التعامل العربى.. تلك القائمة على الضرب على وترى القوة والضغط.. وهو يفسر ذلك بقوله: «أذكر عندما ظهر فى الإعلام الأمريكى تقارير عن قيام الولايات المتحدة باحتلال آبار النفط بالجزيرة العربية، أن أدليت بحديث تليفزيونى قلت فيه: كل من يتصور أن هذا أمر واجب الحدوث هو شخص مجنون أو مجرم أو عميل للاتحاد السوفييتى» حسنا ثم ينجلى الأمر عن أن كيسنجر «شخصيا» كان هو المصدر وراء نشر تلك الأنباء (كانت تلك هى طريقة كيسنجر فى إثارة أعصاب العرب) ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت وعرفت الحقيقة لما كنت قد اخترت ما تفوهت به من عبارات.. فلقد أكون صفيقا.. لكن لست ممن يقدمون على الانتحار».

فى الوقت نفسه يشتكى جوزيف سيسكو قائلا: إن أكنز يكرهنى حتى يومنا هذا.. وأنا أعرف ذلك ولكن لا أدرى له سببا.. لقد حاول إنقاذ وظيفته.. إنه ينحدر من عائلة فقيرة.. مفهوم.. وكذلك الحال معى.. وكان ينبغى أن نكون حليفين.

. إن ايلتس يشهد بمحاولة سيسكو إنقاذ (وظيفة) اكنز..» قال لى سيسكو: ماذا دها أكنز؟ألا يعرف أنه لو ظل على هذا المنوال

من التـصـرف فلن يجد هنرى (كيسنجر) بدأ من فصله؟ ثم يتذكر إيلتس حادثة محرر الشئون الخارجية فى نيويورك تايمز، س. سولزبرجر الذى سأل إيلتس يوما إن كان يمكن مساعدته على دخول السعودية.. كان سولزبرجر يهوديا وهم لا يسمحون رسميا لليهود بالدخول.. لكننى قلت له: فقط ابعث رسالة إلى سفيرنا جيمس «أكنز» . انت كاتب فى نيويورك تايمز وينبغى أن يسمحوا لك بالدخول.. لكن سولزبرجر أبلغنى أنه كان قد اتصل مع «أكنز» الذى رفض مساعدته وعندما أجريت اتصالاتى لتأمين تأشيرة لسولزبرجر ، تلقيت رسالة غاضبة من «أكنز» يقول فيها إنه ما كان ينبغى لتلك التأشيرة أن تصدر على الإطلاق.

القشة التى قصمت - كما يقولون - ظهر البعير جاءت عندما عاد ديفيد روكفلر من رحلة من الجزيرة العربية وجمعته مع صديقه القديم كيسنجر محادثة خاصة قال له فيها: عليك أن تتخلص من سفيرك بالسعودية.. أولا هو يشوه عرض سياساتك.. وثانيا: إنه ملكى أكثر من الملكيين.

وتصرف كيسنجر لا يلوى على شىء.. وطار «أكنز».

لكن ثمة حوادث مثل سولزبرجر ، فضلا عما أدى إلى تفاقمها من بيانات عديدة أدلى بها (السفير السابق) أكنز بعد

تركه السلك الخارجى فى عام ١٩٧٥، أدت إلى هز الانطباع عن ذلك الرجل الرفيع الموهبة.. ليس أدل على ذلك من خطاب أعده لإلقائه فى مؤتمر للطاقة عقد فى لندن.. فى سبتمبر ١٩٨١. واقترح فيه استخدام العرب سلاح البترول ضد أمريكا، إذا لم تكن سياستها مؤيدة بما فيه الكفاية للعرب.. ويومها هاجم أكنز أعداء العرب من أمثال «الكتاب اليهود» جوزيف كرافت ووليام سافير اللذين قرنهما «أكنز» مع النازيين، وكان محور هجومه على كرافت وسافير انهما يسارعان إلى شجب أى مظهر يريان فيه عداء للسامية فيما ينطلقان إلى السخر من العرب بنفس الأسلوب الذى كان يسخر به النازى من اليهود.

بيد أن أهم طروحات «أكنز» كانت صائبة بالطبع حين ذكر أن وسائل الإعلام الأمريكية كانت تصدر عن نفاق أعمى فيما يتعلق بالتعصب العرقى ضد العرب.. لقد تفشت الإهانات الإثنية تعريضا بالعرب فى صحف الكاريكاتور الأمريكية لدرجة لم يعد حتى المرء يتوقف عندها.. ولك أن تتصور كيف يكون حال الأمريكى من اصل عربى حين يطالع هذه المادة فى الصحيفة بانتظام.. لكن للمرء أن يتساءل أيضا عما إذا كان جديرا (بالسفير) أكنز.. ان يقارن اليهود بالنازى.. بدلا من

استخدام مقارنة أقل التهابا.. إنه يتهم سافير وزمرته بأن لهم مهاما مرسومة ينفذونها.. فماذا عن أكنز نفسه؟ (السفير) أكنز يعرض على زائره صورة تخطيطية (اسكتش) يعتز باقتنائها للملك فيصل فى مكتبه ويقول: السعوديون أوشكوا أن يلقوها بعيدا إذ تصوروا أنها تعكس ملامح كئيبة فطلبت منهم الاحتفاظ بها».. وهو دائم التفكير فى المملكة إلى جانب ذلك فهو متصلب فى منع التدخين ومؤمن بعمق بتحديد النسل.. ويحذر من «مصير بنجلاديش» الذى يخشى أن يئول اليه حال العالم العربى فى الجزيرة وغيرها إذا ما استمر السكان فى تزايد.. وآلت موارد المياه إلى نضوب حيث لن يكون بالإمكان إعالة السكان فى القرن القادم.. وعلى كل حال فقد جاءت تنبؤاته عن البترول منذ الستينات صائبة وثاقبة.. وقد يثبت الزمن من جديد أن الحق كان مع ذلك الرجل بشخصيته المعقدة التى لا ينقصها الجهامة فى بعض الأحيان.

عندما تولى جيمى كارتر منصب الرئاسة فى البيت الأبيض عام ١٩٧٧، كان أكنز قد ذهب، وتقاعد ستولفوز فيما كان كيلجور فى قطر حيث لا يضر أحدا، وكان أثرتون ممسكا بأعنة الأمور مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى.. مع ذلك

فمن الخطأ الافتراض بأن إدارة الشرق الأدنى انصلح حالها تماما بفضل مرحلة نيكسون - فورد - كيسنجر - سيسكو - أثرتون.. لقد كانت دائرة تعيش مرحلة انتقال.. في ذلك العام نفسه، عين «سيل» سفيرا في سورية وعين باركر سفيرا في لبنان.. أما العراق فكان لايزال.. كما سوف تشهد لاحقا، محطا لانظار مخضرمي الاختصاصيين في الشئون العربية.. ويمكن الحكم على طور الانتقال المذكور من خلال تجارب السفير صامويل لويس الذى أصبح في عام ١٩٧٧ سفيرا في اسرائيل.. إن سفراء أمريكا في اسرائيل يشكلون فصيلا غريبا.. فلأن العبرية لاتستخدم إلا في بلد واحد في العالم كله.. جرت العادة أن ليس من الحكمة أن يصبح هذا الدبلوماسي الأمريكي أو ذاك من «المستعبرين» دارسي العبريات.. لذلك ففي ما يكاد يكون جميع الحالات، كان السفير في تل أبيب عنصرا من خارج المنطقة ولم يكن يهوديا قط لسبب وجيه مؤداه أن من شأن سفير يهودى في اسرائيل أن يناله أوتوماتيكيا رذاذ من افتراض كونه منحازاً عاطفيا لاسرائيل.. وربما لأن العلاقات الأمريكية - الاسرائيلية متطورة بعمق، ومن ثم تتسم بقدر من التشابك والتعقيد، فقد جنح السفراء الناجحون إلى أن يحتفظوا

بموقـعـهم هـذا لأجل طويل. مـثـلا: والورث باربور الذى عـينه الرئيس كيندى ظل سـفـيرا فى تل أبيب أحـد عـشـر عـامـا من بدايات الستينات إلى أوائل السبعينات صموبل لويس بقى فى منصبه ثمـانى سنوات من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٥ وعـمل تحت ظل رئاستين: كارتر وريجان و٤ مساعدين لوزير الخارجية: أثرتون وهال سوندرز ونك فليوتس وديك ميرفى.

سام لويس ولد عام ١٩٣٠ فى هيوستن تكساس، أقرب فى رطانة نطقه إلى جيمس بيكر.. تعلم فى جامعة «ييل» واتصف ببرود الأعصاب وصواب الرأى فضلا عما اتسم به مثل هيرمان إيلتس من موهبة يحسد عليها يبدو معها وكأنه يقطر حكمة، وتعقلا، عرف لويس زميله جيم «أكنز» معظم سنى حياته ومن أصدقائه المقربين فليوتس الذى ورث عنه شقته فى نابولى عندما عاد لويس إلى واشنطن وجاء فليوتس إلى إيطاليا، وعندما تقابل لويس فكأنك تقابل أى عنصر من سلك الدبلوماسية الأمريكية فحقيقة أنه خدم فى اسرائيل بدلا من العمل فى بلد عربى لا تبدو واضحة لغير المطلع على جوهر الأمر.. ورغم أن لويس عمل مساعدا للسفير فى أفغانستان المسلمة وخدم فى مواقع عليا ضمن هيئة أركان كيسنجر بالوفد

الأمـريكى لدى الأمم المتـحـدة.. فـإن تخـصـصـه - إن كـان متخصصا - هو أمريكا اللاتينية مع تركيز على البرازيل.. لكن فى عام ١٩٧٧، عندما قـام «اندرو يونج» سـفـير كـارتر الجديد بالأمم المتحدة بتطهير البعثة الأمريكية من عناصر عهد نيكسون - فـورد، عرضـوا على لـويس ثلاث سـفـارات كـتـعـويض: الـهند وجنوب افـريقيا واسـرائيل.. ويهز لـويس كـتفـيه قـائـلا:«لم تكن اسـرائيل قـد تبادرت إلى ذهنى لكن الأمـر بدا مـثيـرا بوضـوح للاهتمام ولذا اخترتها».

نقطة البداية عند لويس بالنسبة لوزن العلاقة بين المستعربين وبين السـفـير الأمـريكى فى اسرائيل.. كـانت حـادثة وقـعت عـام ١٩٦١ بفندق «ليدرا» فى نيقوسـيا، قـبرص.. يومـها كـان لويس مسـاعدا للسفير «شسـتر باولز» مبـعوث الرئيس كيندى الخاص إلى افـريقـيـا وآسـيـا وأمـريكـا اللاتينيـة الذى دعـا إلى اجـتمـاع لرؤسـاء البـعثات فى مـؤتمر يعقـد بقبرص حيث يتاح اجتمـاع كل سفراء أمريكا فى الشرق الأوسط مـع عناصـر البنتاجون وخبراء وكالة المخـابرات المركزية.. وكان علـى كل سفير أن يضـع زملاءه فى صـورة الأوضـاع فـى البلد الذى يعمل فيـه.. لكن لويس يذكـر ولاينسى أنه «عندما قـام «باربور» السفير فى اسـرائيل بالحديث

أمام مخضرمي المستعربين عن الأوضاع في اسرائيل، ساد الجو ازدراء محسوس وتشكك ملموس.. لم يكن «باربور» عضوا بالنادي وكان ذلك واضحا».

لكن عندما رشح لويس سفيرا بعد ذلك بستة عشر عاما لم يكن في الساحة سوى قلة من المستعربين وسرعان ما أصبحت مفاوضات السلام بين مصر واسرائيل هي محور الأحداث - عام ١٩٧٧ شهد زيارة السادات الى القدس.. وهكذا قدر للويس أن ينعم تجربة أفضل من بابور مع زملائه في إدارة الشرق الأدنى.. يقول: «في الإدارة لم يكن ثمة ما يجعلني أشعر أنني مواطن من الدرجة الثانية - وبخلاف ذلك فقد كانوا «هم» مواطنين من الدرجة الثانية».

«هم» يقصد بهم ريتشارد باركر وتالكوت سيل اللذين حيل بينهما وبين عمليات كامب ديفيد لأن لبنان لم يكن له دور ولأن سورية رفضت المشاركة.. وطبقا لما يفيد به لويس فقد كان باركر وسيل يتقلبان على جمر التهميش فيما كان إيلتس بالقاهرة ولويس نفسه في تل أبيب يشاركان الأضواء مع أثرتون ووزير الخارجية «سايروس فانس» وبرغم أن الأردن والسعودية لم يكن لهما دور كبير فيما يجرى.. فإن لويس يشير إلى حسن علاقته مع فليوتس، وكان سفيرا في عمان ومع

جون وست، ثم ريتشارد ميرفى السفيرين فى الرياض.. بل دعانى وست لزيارته فى السعودية.. ولم يكن ميرفى يمثل مشكلة على الإطلاق فى التعامل معه.. وكنت أزور الأردن على فترات قادما من تل أبيب.

لكن عندما طلبت إلى «تالك سيل» أن يرتب لى زيارة الى دمشق قال : إنه لايستطيع حقيقة أن يطلب مثل هذا الإذن من السوريين.. وكان ذلك شيئا مضحكا».

يواصل لويس الحديث : كان لدى مشاكلى مع باركر وسيل وكانت ترتبط بالمسار المتوازن لبرقياتنا.. حيث يطلعان على تقاريرى عن الوجهة الاسرائيلية والاحداث فيما أطلع على ما يبعثان عن لبنان وسوريا.. وكنا ندخل فى مناقشات حامية تصل إلى حد الوقاحة أحيانا.. بدأ باركر متعاطفا بعمق مع مأساة لبنان معاديا للتحالف الاسرائيلى - المارونى الذى كان يقاتل هناك، سيل كان يرسل برقيات كنت أراها تزداد التهابا بالحمى حول أن المنطقة موشكة على الانفجار وأن العرب سوف يحرقون سفاراتنا إذا لم نفعل هذا أو ذاك.. لكن (السفير) «سيل» له ذكريات مخالفة عن برقياته تلك التى كان يبعثها: كنت كمن يترافع فى قضية ولذلك فقد عرضت الأمور على حقيقتها الواقعة.. ولابد من أن «سيل» كان وقتها رجلا وحيدا فى دمشق

فى أعقاب كامب ديفيد.. فلم يكن لويس وحده هو الذى ينتقد برقياته من ميزة وجوده فى تل أبيب.. بل إن «فرانسيس فوكوياما» وهو من التعيينات السياسية للرئيس ريجان فى هيئة تخطيط السياسات فى واشنطن وجد أن كتابات «سيل» كانت مبالغة فى تحيزها لجانب السوريين.. لا عجب إذن أن طفح الكيل بالسفير سيل، فدعا الصحافة فى أغسطس ١٩٨١ إلى انتقاد عملية كامب ديفيد للسلام.. ولم تكن نظرة سيل الى كامب ديفيد يعوزها الحكمة.. لقد شعر ببساطة أن عبارة «كامب ديفيد» كانت تنطوى على أثر سيكلوجى سلبى فى المنطقة، ومن ثم ينبغى الامتناع عن استخدامها بالنسبة لأى جهود للسلام تبذل فى المستقبل.. لقد كان المنظور الذى يطل به من دمشق أو بيروت مخالفا لمنظور تل أبيب أو واشنطن.

هكذا توالت الاحداث مثل رواية محفوفة بالحذر حول الكيفية التى تغير بها التخصص العروبى، وكيف أن الساحة شهدت اندفاع خصائص جديدة إلى مقدمة المسرح.. ومنها مثلا القدرة على التعامل الفعال مع الحقائق الداخلية فى أمريكا نفسها.. كل هذا جعل من مخضرمى حركة الاستعراب، على طريقة الجامعة الامريكية فى بيروت غير ملاءمين للعمل فى هذا المجال فى مستقبل الأيام.

الفصل التاسع

صدمة الحقيقة

تحولت بيروت من عصرها الذهبى فى أول القرن إذ كانت موقعا يجمع بين النبع والخضرة وطابع الريف لكى تصبح مدينة شرقى المتوسط التى تنتفض صخبا وتتلألأ لمعانا وتألقا.. هنالك احتوت بيروت اثنتين من جماعات المستعربين الامريكيين (جماعة الثقافة والبر) التى تدور حول محور الجامعة الامريكية، ثم جماعة السفارة التى تعيش على سياسات الواقع.. ولقد كان «تيرى بروثرو» شاهدا على هذا التحول الكبير. تيرى بروثرو عمل أستاذا لعلم النفس معظم مراحل حياته وتميز بقدرة مدهشة على أن يطل على نفسه وعلى أصدقاء عسره وزملائه القدامى من مسافة مجردة من العواطف وتستند الى الموضوعية، وهو يستخدم أسلوبه المعهود من تواضع أهل الجنوب الأمريكى إذ يحكى آخر ما آلت اليه الجامعة الأمريكية فى بيروت.

«أنا من أبناء (ولاية) لويزيانا التى تعد كما قد تعرف النظير الغربى للدول العربية من حيث مطبخها المتنوع الأصول ومن حيث ما تشهده من أحداث واضطرابات.. بعد الحرب العالمية الثانية قمت بالتدريس فى جامعة ولاية لويزيانا وربما لأننى انحدر من أوساط تنتمى الى حزام البروتستانتية (فى أمريكا) فقد وجدتنى واحدا من خصوم التفرقة العنصرية.. من النوع الليبرالى والمثالى أيضا.. وهذا هو بالضبط الذى دفعنى الى أن أذهب الى لبنان والى الجامعة الامريكية فى بيروت وصلت الى هناك عام ١٩٥١ وبقيت فى هيئة تدريس الجامعة حتى عام ١٩٨٤، وعندما وفدت إليها كان (بايارد دودج) قد غادرها لتوه، وكان ستيف بنروز قد شرع فى الاستقرار رئيسا للجامعة.. ثم يشرح «بروثرو» كيف أن سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية شهدت جالية الجامعة الإمريكية فى بيروت وهى تدرك ببطء «أى وحش ضار كان يجر الخطى نحو بيت لحم» وهو لا يقصد بذلك فقط قيام دولة يهودية فوق جزء من فلسطين.. بل يقصد مجمل الظاهرة المؤسية للقومية العربية إذ جاءت لتوحد نفسها مع قضية فلسطين، يقول «بروثرو» : جاء عام ١٩٤٨ ليشهد هيئة التدريس بالجامعة الأمريكية فى بيروت.. وقد حفلت بمدرسين

فلسطينيين كانوا قد هربوا من ديارهم عشية إنشاء اسرائيل.. وفى الخمسينات أصبحت الجامعة مكانا يقوم فيه الطلاب العرب بتجريب كل ما يعن لهم من ردود الفعل السياسية إزاء التحدى الذى يمثله اليهود فى فلسطين مع ذلك.. فقد ظل المناخ السياسى ساكنا أو كان علمانيا (دون صراع طائفى) بمعنى من المعانى على أقل تقدير، حيث يذكر «بروثرو» أن رئيس جمعية علم النفس كان فلسطينيا راديكاليا، وكان نائب رئيسها شيعيا فيما كان أمين الصندوق يهوديا.

سادت مثالية اللبرالية جامعة بيروت الأمريكية فى عقد الخمسينات.. شهدت فى هذا المشرق السنى من العالم العربى هيئة تدريسية مخلصة تعكف على تعليم الطلاب الأقل حظا من سواهم فإذا تخرجوا فهم يتولون مواقع القيادة فى دولهم التى جرى انتزاعها انتزاعا من بين براثن نظام استعمارى أوروبى عجوز لم يكن لأساتذتهم يد فى ما ارتكبه من أفاعيل.. وبفضل تعدد الدول العربية الجديدة فإن اجتماع ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ كان له الفخر فى أن يشمل عدداً من خريجى الجامعة الامريكية فى بيروت بأكثر من أى جامعة أخرى.

وفى مقالة تستعيد تلك الأيام الحافلة.. بقلم: «مالكولم هوبر كير» طالب الدراسات العليا الذى أصبح استاذا، ثم رئيسا للجامعة يذكر كيف كان هو وسواه من الأساتذه يتعاطفون صراحة مع الطموحات السياسية لأصدقائهم العرب ويقول: «كانت العلاقات بين العرب والغرب هى الموضوع الذى ملك علينا حياتنا وفكرنا، ولم يكن ليتألف فقط من علاقاتنا الشخصية بالتحديد.. بقدر ما انطوى على وعينا بفكر وأعمال شخصيات مألوفة ومستقرة فى الأذهان.. أبطال عاشوا منذ مئات السنين أو (أبطال معاصرون) أمثال فيصل الأول فى العراق أو جمال عبدالناصر.. بل كان لنا كذلك من نعتبرهم أشرارا.. وهنا يعدد «كير» بينهم ديفيد بن جوريون مؤسس اسرائيل فضلا عن المستعمرين البريطانيين، ثم يقول: «وكان لنا أيضا نصوص الأسفار التى نضعها موضع الإجلال ومنها مثلا كتاب (يقظة العرب) تأليف: جورج أنطونيوس، ويكتب «كير» أيضا عن مشاكل علاقات العرب مع الغرب، ومن بينها كما يقول «اغتصاب فلسطين على يد الصهاينة».

كتب «كير» مقالته تكريما لذكرى عبدالحميد شرف رئيس وزراء الأردن الراحل ومضى فى سطورها ليدعو الى اللبرالية الغربية والقومية العربية والنزعة العالمية التى توحد بين

المسيحية والإسلام.. وليفند مايقال فى جوهر الفكرة التى تدور حول تفوق الغرب وسيادته المعنوية على العرب.. تخرج «كير» فى جامعة «برنستون» وكان قد ولد داخل حرم الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٣١ وفوق حرمها أيضا لقى مصرعه عام ١٩٨٤، سافر «كير» فى كل أنحاء العالم العربى.. لكنه جريا على التقليد الذى سبق إليه «بايارد دودج» فضل أن لا يزور اسرائيل إلا من حيث كونها منطلقا لزيارة الضفة الغربية.. وقد أسر يوما الى زميل له بأن زياراته الى اسرائيل كفيلة بأن تصمه بسوء فى العالم العربى.

على أن قوام الحياة العلمية للرجل أمضاه فى جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجلوس حيث استحدث مشاريع بحوث مشتركة بين العلماء العرب والامريكيين.. وصل الأمر الى أن أطلقت بعض الدوائر المعنية بالشرق الأوسط تسمية بالإنجليزية تصف مركز دراسات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا تحت قيادة كير بأنه «لا فلوب» وترجمتها جبهة لوس انجلوس.. لتحرير فلسطين!

«مالكولم كير» كان ابنا بالروح والجسد للجامعة الأمريكية فى بيروت.. ولقد جاءت الخمسينات على حد ما تقول اليزابيث

وارنوك فارينا وروبرت فارينا فى كتابهما: (العالم العربى.. تجارب شخصية) عقدا شهد جيلا من علماء الاجتماع الأمريكيين تحدوهم اهتمامات شرق أوسطية ويدفعهم شغف ينتفض حماسا نحو مايكاد يكون كل شىء فى لبنان إذ كان يشكل بالنسبة لهم دليلا على إمكانية أن يتعايش الإسلام والمسيحية فى سلم ووئام وفى ظل مجتمع حر يأخذ بالرأسمالية.. ويقوم على التعددية.. هم نفس أساتذة العلوم الاجتماعية الأمريكان الذين سيتميز الكثير منهم شغفا وحماسا.. مثل هذه النوعية ممن أصبحوا مبشرين علمانيين سبق وأن وصفهم بدقة (الرحالة الإنجليزى) ريتشارد بيرتون منذ قرن مضى من الزمن عندما تحدث عن الأوهام التى يمكن أن يعيش فيها حتى الأمناء من الرجال.. وعندما قال إن ما لا يمكن أن تدركه هذه النوعيات من أهل التبشير هو أن «العقيدة تعبير فكرى عن هذا الجنس من البشر أو ذاك ولايمكن أن تتقدم بغير تطوير فكرى بين صفوف معتنقيها».

فإذا عدنا الى «تيرى بروثرو» فسوف نجده يقول: أذكر حوارا دار حول قبول «الجامعة الأمريكية» أموالا من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية «ايد».. وقد أدى هذا الى توتر بين

صفوف هيئة التدريس الأمريكية التى لم تكن تريد للجامعة أن تتساهل فى هذا الخصوص.. كانت هيئة التدريس فى بيروت تريد التعليم والديمقراطية والليبرالية وتريد طرح وجهة النظر الغربية وما الى ذلك.. ولم يكن الأمر فى هذا مريحا فى ظل السياسات.. «ومن ثم الأموال» التابعة للحكومة الأمريكية.

بيد أن الأموال جاءت فى كل حال لا من وكالة "إيد" فقط بل ومن مؤسسة "فورد" أيضا مما أدى الى تعزيز مكانة جامعة بيروت الأمريكية وكأنها "عاهلة الشرق" القادرة على تمويل منح دراسية للطلاب فى كل أنحاء العالم العربى - الإسلامى من المغرب وحتى أفغانستان ، ثم جاءت الستينات لتجد نفسك بفضل هيئة السلام "الأمريكية" بإزاء دفق جديد من المثاليين الليبراليين داخل أروقة الجامعة .. وكان تلك طبقا لتقاليد الجامعة فترة مجيدة .

لكن أيام مجد الجامعة انتهت فى يونيو ١٩٦٧ عندما رد الجنود الاسرائيليون على مناورة عبدالناصر فاستولوا على سيناء ومرتفعات الجولان وما تبقى من فلسطين ما أفضى الى إجلاء جماعى ومؤقت للأمريكيين من بيروت . وكما يحكى "بروثرو" وآخرون فقد جاءت حرب الأيام الستة لتشكل الأولى

بين مراحل ثلاث لصاروخ ثلاثى المراحل أدى الى "ردكلة" هيئة تدريس الجامعة الأمريكية ونجم عنه انشقاقات محددة بين صفوف الجالية الأمريكية فى لبنان . وكانت المرحلة الثانية هى فشل حركة أيلول الأسود التى أحبطها الأردن بمساعدة من إسرائيل ونيكسون وكيسنجر مما أرسل موجات جديدة من الفلسطينيين الى بيروت الغربية حيث تقع الجامعة الأمريكية . أما المرحلة الثالثة التى كانت متوازية بمعنى من المعانى مع المرحلتين السابقتين فقد تجسدت فى ردود فعل الجامعة الأمريكية فى بيروت إزاء حرب فيتنام .

يقول "بروثرو" : إن هذه الأحداث وضعت العملية السياسية بالجامعة الأمريكية فى صدر الاهتمامات . كل شىء أصبح أكثر مبالغا فى حجمه . فى جامعات أمريكا نفسها فى تلك الفترة كانت هيئة التدريس معادية للرئيس نيكسون ومعادية للحرب . وعمدت الى تفسير اجراءات الحكومة الأمريكية بالشرق الأوسط على ضوء أخطائها فى جنوب شرقى آسيا وكانوا ينظرون الى إسرائيل بوصفها ذراع الامبريالية الأمريكية فى المنطقة تماما كالنظرة الى حكومة فيتنام الجنوبية . وكانت هيئة التدريس تلمح الى أن واشنطن لم تعمل بما فيه الكفاية على محاولة فهم العرب

بل أن "بروثرو" يذكر إنشاء جماعة مؤيدة للعرب ومؤيدة للفلسطينيين كان معظم أفرادها من أهل الجامعة الأمريكية فى بيروت وأطلق عليها اسم "الأمريكيون ، من أجل العدالة فى الشرق الأوسط" . ومما عزز من جو الراديكالية أيضا تنظيم الاحتجاجات على زيادة المصروفات الجامعية .

فى أواخر الستينات كان كل ما تسمعه فى حرم الجامعة هو "فتح" : نحن سنحرر أرضنا كما فعل الفيتناميون . هذا ما يقوله مراقب كان.موجودا فى الساحة آنذاك . وهو يتذكر أيضا أنه قال لجماعة من الطلاب الفلسطينيين أنهم سيخدمون قضيتهم أفضل بالدراسة لا بالإضراب . فإذا بطالب فلسطينى يبادر برد كالسهم هاتفا : لا تحتكم الى المنطق معى .. وكان بهذا يرفض فى واقع الأمر قرنا بأكمله من التفكير الغربى حاول المبشرون أن يزرعوه فى نفوس أهل المنطقة.

مراقب آخر يقول: هيئة التدريس بمن فيها من أساتذة أمريكيين كانوا مؤيدين للفلسطينيين لأنهم كانوا مؤيدين للقومية العربية وكان القوميون العرب قد جعلوا من فلسطين قضيتهم الأولى. على أن «بروثرو» لايلبث أن يقول: لكن إدارة الجامعة الأمريكية فى بيروت كانت فى صف نيكسون وفى صف الحكومة:

ذلك لأن الإدارة على خلاف هيئة التدريس هى الأدرى على التحقيق بمن يدفع كثيرا من الفواتير.

فى صف الحكومة الأمريكية أيضا كان المستعربون من جماعة السفارة الأمريكية فى بيروت، يقول الدبلوماسى المستعرب «هيوم هوران»: إن الجامعة الأمريكية كانت تجسد رؤية الرئيس ويلسون لأمريكا بكل نقائها ولم يكن بمقدور السفارة أن تستبعد هذا الموقف بحكم واجبها فى التعامل مع عالم الواقع .

★★★

لكن لاينبغى المبالغة فى عرض هذا الانقسام الثلاثى فيما بين الأساتذة أو الإدارة أو السفارة. إن رؤية هذه الظاهرة من أى منظور عميق باستثناء رؤية جماعة المستعربين المؤيدين للعرب، كفيلة بأن تفيد بأن الأمر إنما كان ينطوى على ثلاثة جوانب لعقلية واحدة فى الأساس. إن «السفير» بيل ستولفوز وزوجته جانيت يعمدان في صراحتهما الجليلة إلى توضيح الوضع في تعليقهما بأن الجالية الأمريكية فى لبنان كانت بغير استثناء تقريبا معارضة نفسيا «لقيام دولة إسرائيل». لكن القلة القليلة هى التى عبرت هذا الخط إلى حيث معاداة السامية.

إن القائمين على إدارة الجامعة الأمريكية كانوا ممزقين بالذات بفعل سياسات حرب فيتنام وحرب الأيام الستة، وهم الذين جلبوا

ذلك على أنفسهم، عندما شجعوا علانية تيار القومية العربية والتمسوا جموعا من الطلاب لاتأتى من منطقة الشام الكبرى فحسب ولكن من كل أرجاء العالم العربى بما جعل الجامعة، من حيث لايقصدون، ساحة لتفاعل السياسة العربية، ومما تحول الأمر معه إلى مزيد من الإحباط بل ومزيد من سفك الدماء بأكثر من تخيله يوما الآباء المبشرين الذين أنشأوا الجامعة».★

ويعترف مسئول بالخارجية الأمريكية بأن جالية الجامعة الأمريكية فى بيروت كانت على مودة شديدة مع الفلسطينيين لدرجة أنه عند اندلاع الحرب الأهلية كان معظم مصادرنا من الفلسطينيين فقد كان هؤلاء هم الذين كنا نتعامل معهم فى الغالب الأعم.

أما التدهور فى الحياة الجامعية بعد عام ١٩٧٥ فقد جاء بعبارات «بروثرو» جسيما يحطم القلب فما من عناصر راديكالية فى جامعات أمريكا ذاتها صدمتها الحقيقة الواقعة على نحو ماحدث لعناصر الجامعة الأمريكية فى بيروت: الحرب الأهلية

★ بالمقارنة ظلت الجامعة الأمريكية بالقاهرة تقيد عدد الطلاب المقبولين من خارج مصر بما جعل معظم طلابها مصريين وجنبها التعاطى مع السياسة العربية مما حفظ لها المناخ الجامعى المعتاد.

جعلت شكاوى الأساتذة أو تذمرات الطلاب فى السبعينيات تبدو مضحكة وفى نهاية المطاف بدأت الحرب تجرجر أذيالها ويطول أمدها ويدأ أخذ الرهائن من صفوف الغربيين واغتيل «مالكولم» كير شخصيا وبعدها يقول «بروثرو» لم يعد ثمة سياسة بين الأمريكيين فى حرم الجامعة الأمريكية فى بيروت، كان الأمر الأهم هو مجرد البقاء على قيد الحياة.

جرايم بانر مان، دارس سابق وعضو فى هيئة التدريس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، يصف مشكلة الجامعة على النحو التالى: «كان الجو السائد بالجامعة الأمريكية فى بيروت ديناميا وغربيا، كانت المعارك الأيديولوجية تشتعل حول قضايا الاشتراكية والشيوعية والليبرالية وما إليها، كانت تلك الحوارات عميقة ودقيقة. ولم يكن ثمة شىء سطحى حول المناخ الفكرى السائد، لكن المشكلة تمثلت فى أن المناخ «لم يكن لبنانيا» فقد كان ثمة قلة من الموارنة وقليل من الشيعة، على أن الجامعة الأمريكية فى بيروت أصبح يسيطر عليها عناصر ثلاثة: السنة والروم الأرثوذكس والفلسطينيون».

ومن الناحية السياسية أصبحت الجامعة الأمريكية تحت سيطرة تحالف من القوميين العرب لأن الروم الأرثوذكس ــ شأنهم

شأن الجماعات المسيحية الأخرى فى الشرق الأوسط مع استثناء ملحوظ هو الموارنة - كانوا منذ الحرب العالمية الثانية من بين أكثر العناصر القومية العربية تشددا، جورج أنطونيوس، مؤلف كتاب «اليقظة العربية» كان مسيحيا عربيا وكذلك كان ميشيل عفلق، أحد مؤسسى البعث السورى، وأيضا الزعيمان الراديكاليان الفلسطينيان جورج حبش ونايف حواتمة، كانت القومية العربية بحكم تركيزها على بناء الأمة العربية «الواحدة» تشكل بديلا علمانيا (لا يميز على أساس الدين أو المذهب) بالمقارنة إلى الأصولية الإسلامية التى تهدد غير المسلمين. وعلى ذلك جنح المسيحيون العرب إلى تأييد حركة القومية العربية بحماس خاص لكى يحموا أنفسهم ضد سياسات الاتجاه الإسلامى ويؤسسوا مراكز ثقة لأنفسهم فى إطار المحيط العربى الأوسع. وكان أنجع السبل بالنسبة للمسيحى لكى يدلل لجيرانه المسلمين على أنه عربى بحق هو اتخاذه موقفا متشددا للغاية إزاء الصهيونية (!) وثمة قوى أخرى كانت تدفع الكنائس المشرقية تجاه معاداة الصهيونية وتمثلت فى العناصر التقليدية المعادية للصهيونية للكهنة من الروم الأرثوذكس ثم المنافسة التجارية التى سادت بين هذه العناصر وبين اليهود فى الشرق الأوسط قبيل اشتعال الحرب

العالمية الثانية، كان عداء المسيحيين العرب تجاه اليهود الإسرائيليين قد أشعل أواره المطران هيلاريون كابوت جى، وهو كاهن بالقدس أودعه الإسرائيليون السجن لأنه استخدم منصبه لتهريب المتفجرات إلى الإرهابيين ★ الفلسطينيين.

وكانت القومية العربية، فى إطار تعريفها كمعادية للصهيونية، قد أصبحت مع مقتبل السبعينات قضية لاتتنكر من قضايا الجامعة الأمريكية فى بيروت، برغم البيانات الرسمية التى كانت تصدر عن إدارة الجامعة ومجلس أمنائها للتبرؤ من هذه الأمور على أساس أنهم لا «يتخذون مواقف سياسية». الحرب الأهلية اللبنانية التى أدت إلى تفجير التوترات بين الموارنة والمسلمين السنة جاءت مثل ديناميت اشتعل فى مخزن غلال جاف، ومن ثم كانت أشبه بطوق نجاة للمواقف السياسية لجالية الجامعة الأمريكية التبشيرية، وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلى فى لبنان فى ٦ يونيه ١٩٨٢ الذى نجم عنه دعم الموارنة.

جاء الاجتياح الإسرائيلى للبنان ١٩٨٢ ليزيد من تفسخ لبنان وتعريض سكانه المسلمين للخطر، ثم نجمت عنه نتائج غير مقصودة، ومن المفارقات التى تصل حد الرمز أيضا ، أن أول

★ المقصود بالطبع عناصر المقاومة الفلسطينية «المترجم».

أمريكى أصبح رهينة فى لبنان لم يكن سوى «ديفيد ستيوارت دودج» نجل «بايارد دودج» والحفيد المنتمى إلى الجد الأعلى دانييل بليس (مؤسس الجامعة الأمريكية) والمولود فى بيروت عام ١٩٣٨ حيث تعلم هناك فى المدرسة الأمريكية وبعدها فى أكاديمية ديرفيلد وجامعة برنستون بأمريكا، وقد أمضى سبعا وعشرين سنة يعمل فى أرامكو وشركة خطوط التابلاين العربية، وكان وقت اختطافه قائما يعمل رئيس الجامعة الأمريكية وهو الذى كان أيضا يعرب عن اعتزازه بأن «الجامعة الأمريكية فى بيروت هى التى هيأت مناخا شهد فى ظله مولد القومية العربية وتطورها».

★★★

إن «دودج» يرسم خطوطا متوازية بين اختطافه وبين اغتيال «مالكولم كير» عام ١٩٨٤، يقول «إن الذين اختطفونى والذين قتلوا كير كانوا إيرانيين ولكن يحملون أسلحة لبنانية، ويقول إن الإيرانيين كانوا فى لبنان لأن الإسرائيليين كانوا أيضا هناك ويضيف قوله: لقد اختطفونى فى يوليو ١٩٨٢ فور أن بسط الإسرائيليون سيطرتهم على بيروت».

«وقد أطلق سراحى بعد عام، فى يوليو ١٩٨٣ حيث تمت مبادلتى برهائن من الشيعة، كان حزب الكتائب المارونى (المؤيد لإسرائيل) يحتجزهم لديه».

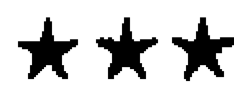
مخطط اختطاف دودج شاركت فيه عناصر سورية وإيرانية، وقد حدث أن تفاوض السفير الأمريكى فى سوريا «روبرت باجانيللى» ومعاونوه بمن فيهم «ابريل غلاسبى» (السفيرة فيما بعد فى بغداد) و«ويليام روخ» صنيعة «هيرمان إيلتس» من أجل الإفراج عن «دودج» الذى قال إن «ابريل وبوب كانا أول من رأيت بعد أن نلت حريتى».

«روبرت (بوب) باجانيلى» حل محل «تالكوت سيل» سفيرا لدى سوريا بعد أن ترك «سيل» منصبه بسبب عملية كامب ديفيد. وكان السفير الجديد بارزا بين الدبلوماسيين الأمريكيين بوصفه أبعدهم عن الشكليات وعن تقاليد الدبلوماسية أيضا. يقول (السفير) فليوتس ضاحكا: أغضب باجانيللى الجميع فيما عدا أصدقاءه المقربين». ويقول السفير هوران: ولكم أحسست بأننى متهافت بالمقارنة مع بوب». ثم يتذكر: «هوران» كيف أهان باجانيللى (الدكتور) زبجنيو بريجنسكى بسبب تعيين جون وست وقد كان حاكما لولاية ساوث كارولينا سفيرا بالسعودية، حيث كان يرى فى وست هذا أشبه بكولونيل بغير ضمير من كنتاكى. «باجانيللى» أهان أيضا (وزير خارجيته) جورج شولتز حول اتفاق ١٩٨٣ بين إسرائيل ولبنان حيث تنبأ بحق أن السوريين سوف يرفضونه،

ويومـهـا قيل بـأن باجانيللى صـاح حـانقـا فى شولتز: «أرجـو أن تعرف أن الاتفـاق سوف ينفجر مرسـلا شظاياه فى وجـهك». وهنا يقول فليوتس وقد كان مساعدا لوزير الخارجية وقتـها: إن شـولتز كان على استـعداد لفصله من الخدمة.. لكننى أخبرت شـولتز أن «ابن الفاعلة هذا هو بالضبط من نريده للتعـامل مع البعثيين فى دمـشق». وكـان فليـوتس على حق فـقـد التـزم باجـانيللى جـانب الخشونة الشديـدة مع السوريين، وكان باجانيللى ـ شأن جيمس أكنز ـ من عتـاة الرافضين للتدخين ولم يكن ليسمح لأى مسئول سورى بالتدخين فى مكتبه، والمهم أنه تم الإفراج عن «دودج» بعد فترة قصيرة وارتاح شولتز لأنه لم يطرد باجانيللى من الوظيفة.

لم ينل أى من الرهائن الأمريكيين ولا حتى «تيدى اندرسـون» ما لقيه «ديفيد دودج» من اهتمام تمازجه المحبة فى إدارة الشرق الأدنى بالخارجية والسبب ببساطة أن «دودج» كان يمثل التجسيد الحى لارستقراطية الاستعراب الأمريكى، أمضى جانبا من اعتقاله كرهينة ثم نشر بين أصدقائه مـا يفيد بأنها تجربة يفضل عدم الخوض فـيـها لا بالسـؤال ولا بالجواب، لهـذا فبدلا من سؤال «دودج» عن تفاصيل سـجنه، سأله زائره عما عساه تعلم سياسيا من واقع التجـربة وعمـا إذا كان قد أثرت على آرائه عن الشـرق الأوسط بأى حال من الأحوال.

سرح «دودج» لحظة ثم قال: «لأننى كنت مأخوذا كرهينة فلقد شعرت أنه ينبغى لنا أن نتذرع بمزيد من الإنصاف لقد تغاضينا عن غزو إسرائيل لبنان ويرجع اختطافى فيما يرجع إلى تصرفات إسرائيل ودعم أمريكا لإسرائيل، أجل إننى أشعر أكثر من أى وقت مضى وبمزيد من الإقتناع بأن سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط ليست منصفة على النحو الكافى». وما كان «دودج» بطبيعة الحال ينفرد دون سواه من الرهائن بهذه الآراء. والواقع إن تربيته الرفيعة جعلته أكثر توخيا للحذر فى تفكيره بأكثر مما كان عليه المغتربون الأمريكان الآخرون الذين وقعوا فى قبضة الراديكاليين المسلمين.



«ديفيد أوين لونج» كان والده واعظا وكان هو مستعربا بالخارجية الأمريكية حيث ولد فى واشنطن بولاية جورجيا فى عام ١٩٣٧، وتعلم فى كلية «دافيدسون» فى نورث كارولينا وهى التى تخرج فيها «دين راسك» وزير الخارجية الأسبق، أصبح «لونج» مفتونا بكل ماهو عربى عندما كان يخدم معاونا لهيرمان إيلتس فى العربية السعودية حيث كان عضوا فى شلة الدبلوماسيين فى جدة فى أواخر الستينات تلك التى كانت تضم «كلوفيريوس»

و«إرنست لاثام» لكن لونج تولد لديه التشكك الصحى إزاء جالية التبشير الأمريكية في لبنان إذ كان يعمل فى وحدة تخطيط السياسات ومكافحة الإرهاب فى وزارة الخارجية فى أوائل الثمانينات، وكان الأمر هنا يتعلق بواحد من الرهائن اسمه «بن وير» المدرس بكلية الشرق الأدنى اللاهوتية فى بيروت وقد اختطف فى ٨ ابريل ١٩٨٤.

ورغم اختلاف المذهب المشيخى الذى كان يعتنقه «وير» وزوجته «كارول» عن مذهب كلية الشرق الأدنى اللاهوتية التى كانت تعد بمثابة مجمع لطوائف البروتستانت المختلفة، إلا أن الكلية كانت تتولى تدريب رجال ونساء للانخراط فى سلك الخدمة بالطائفية البروتستانتية فى العالم العربى. وكان «وير» وزوجته يمثلان حد التطرف بالنسبة لتطور ذرية المبشرين الأمريكان ومغامرة التبشير فى لبنان، أما جامعة بيروت الأمريكية فكانت شيئا مختلفا عن كليته تلك المتواضعة إذ كانت الجامعة تربطها صلات مع كليات القمة فى أمريكا، فضلا عن علاقاتها السياسية والأموال التى تتلقاها من وكالة المعونة «ايد» ومن مؤسسة فورد مما جعل الجامعة المذكورة واحدة من مؤسسات الساحل الشرقى فى الولايات المتحدة أى قلب الفكر الأمريكى النابض، أما الكلية

الصغيرة فقد كانت تفتقر إلى مكانة الجامعة الأمريكية ومن ثم كانت واقعة تماما تحت رحمة البيئة المحلية ولا كانت تربطها علاقات مع الحكومة الأمريكية أو مع مؤسسات معروفة دوليا مما جعل كلية اللاهوت المذكورة، ومن ثم أساتذتها مثل «آل وير» يعتمدون تماما على إرادة الحكومات العربية التى تأتى إلى السلطة فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولك أن تتوقع أن يكون «وير» وزوجته مندمجين فى إطار الثقافة الإسلامية العربية المحلية بأكثر مما كان حتى أهل الجامعة الأمريكية فى بيروت. فى هذا المقام يشكو «ديفيد لونج» قائلا: كان آل وير يعاملوننى ويعاملون وزارة الخارجية وكأننا أعداء رغم أننا كنا بوصفنا حكومتهم نحاول المساعدة على إطلاق سراح «وير»، كانت «كارول وير» وشعب كنيستها قد تولد لديهم شعور «أننا أنبل منكم وأنقى» ـ إزاء حكومة الولايات المتحدة بل لم يرغبوا فى أن تحقق وكالة المخابرات المركزية معه بعد إطلاق سراحه رغم أن مثل هذا الاستطلاع المعلوماتى كان كفيلا بمساعدة رهائن آخرين، بالنسبة لهم لم يكن العدو هو المختطف بل كان العدو هو المخابرات المركزية والإسرائيليين، ويطلق «لونج» على أمثال «وير وزوجته» وصفا يقول إن هذا الطراز «نسيج وحدة من بين المغتربين» طراز

يعرف العالم العربى حق المعرفة لكنه كان يتصف فى الوقت نفسه بقدر لا يصدق من السذاجة السياسية.

★★★

وبعد إطلاق سراح «بن» كتب مع «كارول» كتابا نشرته مطبعة صغيرة في فيلادلفيا بعنوان «الرهينة المقيدة رهينة حرة» وهما يصوران نفسيهما على أنهما زوجان يشعران بالراحة فى العالم العربى أكثر من أمريكا ذاتها من النواحى السياسية والروحية والأخلاقية، بل إن قراءة هذا الكتاب تجعل من الإدعاء بازدواجية الولاء الذى يتهم به مؤيدو إسرائيل من بين يهود أمريكا أمرا هينا لحد السخرية بالمقارنة مع مايقول به المؤيدون العرب فى أمريكا أيضا.

★★★

لقد عاش «بن وير» فى لبنان إحدى وثلاثين سنة قبل اقتياده أسيرا وكانت صغرى بناته على وشك أن تقبل وظيفة للتدريس فى مصر فيما كانت كبراهن تعمل بالسعودية بعد أن سبق لها العمل فى بيروت. «كارول وير» من جهتها تعترف بأنه لا يكاد تربطها أى علاقات بالسفارة «الأمريكية» وأنها لم تكن حتى تعرف اسم السفير «كان اسمه ريجنالد بارثولوميوو الذى، لم يكن من

المستعربين». وإذا كانت ضآلة التواصل مع السفارة أمرا شائعا للغاية بين الأمريكيين فى الخارج، إلا أن السفير هو على الأقل أكثر الأسماء شيوعا فى الدوائر الأمريكية المغتربة، وتغيير السفراء عادة ما يصحبه كلام وحديث، مما يدل على سمة غير مألوفة من التباعد عندما يقال إن هناك من لايعرف اسم السفير، وعندما قال أحد مسئولى السفارة إنهم لايستطيعون حتى حماية موظفيها وأن المطلوب من كل أمريكى لايعد وجوده لازما أن يغادر لبنان، وكان ذلك بعد اختطاف «دودج» ومقتل «كير»، ساعتها ردت السيدة «وير» أن المشكلة ليست فى المختطفين بل إن المشكلة هى فى «سياستنا الخارجية» ولهذا السبب، فإنها لم تشأ ـ كما تعترف، أن تفاتح أحدا فى الأمر فى دائرة مكافحة الإرهاب بالخارجية الأمريكية حيث ذكرت أن كلا من «الزعيم الأمريكى الأسود» جيسى جاكسون والرئيس السورى حافظ الأسد هما اللذان يتحليات بنهج أكثر عقلنة ورشدا فى معالجة أمور الشرق الأوسط بأكثر من الحكومة الأمريكية. ثم وصلت رحلتها العقائدية إلى ذروتها فى مارس ١٩٨٥ خلال لقاء سوريالى مع وزير الخارجية شولتز فى واشنطن عندما وجه شولتز الانتقاد إلى خاطفى زوجها بينما بدت هى ومن معها وكأنهم يدافعون عن

هؤلاء المختطفين على أساس أنهم قوم مخلصون فيما يعتقدون وأن لهم مظالم أسفرت عن مغاضبة مشروعة تجاه الولايات المتحدة، ومن واقع وصف السيدة «وير» لهذا الاجتماع يتضح أن ثمة انفصاما كاملا بين الرؤية التبشيرية التى جاءت بها من بيروت وبين الرؤية الواقعية التى كانت تعتمدها وزارة الخارجية.

★★★

من منظور السيدة «وير» وكذلك (البروفيسور) ديفيد دودج ثم (السفير) «تالكوت سيل» الذى ولد بدوره فى بيروت وعند تقاعده فى عام ١٩٨١ أظهر تبرمه الملحوظ إزاء سياسات بلده باعتبار أن إغضاء أمريكا عن تصرفات إسرائيل يمثل جوهر المأساة الكاملة فى لبنان، كانت المسألة بالنسبة لهم وكأنها مأساة شخصية لا أكثر.. وذلك بحكم تكوينهم الشخصى وصداقاتهم التى أنشأوها وتواريخ عائلاتهم فضلا عن السنوات التى عاشوها فى كنف العرب مفعمة بذكريات عن لبنان الوديع المسالم. وفى ظنهم أنهم كانوا دون سواهم الحريصين كل الحرص على المصالح الأمريكية والقيم الأمريكية بينما كان خصومهم اليهود فى أمريكا هم الذين يعانون من شكل معقد من أشكال الوطنية وما كان بوسعهم أن يدركوا حقيقة أن وطنيتهم بدورها كانت معقدة ولو بطريقة أخرى.

★★★

ولقد نرى فى الهجوم الذى شنه «السفير سيل» من سفارة أمريكا فى دمشق (ضد كامب ديفيد) أو فى مقابلة السيدة «وير» مع وزير الخارجية «شولتز» واقع الأنفاس الأخيرة التى كان يلفظها الحرس القديم من مخضرمى المستعربين قبل أن يغرقهم الطوفان تحت وطأة المتغيرات اللاهثة الخطى التى كانت تطرأ على أمريكا ثم على وزارة خارجيتها بالذات، إن السياسة الخارجية لا فى أمريكا وحدها، بل فى كل بلد فى العالم تمثل انعكاسا لكيفية إطلالة المجتمع فى الداخل على العالم فى الخارج، وكلما تغير المجتمع، تتغير سياسته الخارجية، إن العلاقة التاريخية التى كانت تربط بين مجموعة من الأمريكيين المتميزين وبين شريحة من مثقفى العرب فى منطقة الشام لم تكن ببساطة مما يدرى عنه. ناهيك أن يتواصل معه، المجتمع الأمريكى المتعدد الأعراق الذى تسوده الطبقة الوسطى فيما يتعلق بإسرائيل، فقد تميز أفراد مثل (البروفيسور) دودج أو (السفير) «سيل» أو السيدة «وير» بأنهم دون غيرهم كانوا شهودا على أسوأ جوانب الشخصية الإسرائيلية، فى المقابل كان بوسع الأمريكيين أن يتفهموا بعمق الجوانب الإيجابية من الحياة الإسرائيلية بأيسر مما يفعلون مع أى من جوانب الحياة العربية، وخاصة فى لبنان الذى أريقت فى مسالكه الدماء، لقد كانت لجان العلاقات الأمريكية ـ اليهودية (اللوبى الإسرائيلى) بكل أخطائها وفجاجة أساليبها أقرب نفسيا

إلى الأوساط الأمريكية العادية بأكثر مما كان الحشد فى الجامعة الأمريكية فى بيروت.

مع ذلك، ظلت الجامعة تواصل تأثيرها، إن لم يكن على المسار العادى فى أمريكا فعلى العاملين فى السلك الخارجى ولذلك كان تغيير المواقف الذى بدأ فى إدارة الشرق الأوسط بالخارجية فى حقبة سيسكو - أثرتون بمثابة تطور تدريجى، بل ظلت الإدارة المذكورة تأوى عناصر من «الحرس القديم» حتى بعد عقدين من ذلك التغيير، ولقد كان حضور الجامعة الأمريكية محسوسا من خلال المعهد الميدانى الذى ظل يعلم العربية لأفراد السلك الدبلوماسى حتى عام ١٩٧٥ عندما نقلوه إلى تونس بسبب اندلاع الحرب الأهلية فى لبنان، وكل المستعربين الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب تعلموا العربية فى هذه المدرسة الميدانية فى بيروت، ويفسر الأمر أحد المسئولين السابقين بالخارجية قائلا: كان ثمة موقف فكرى عن العالم فى بيروت الغربية المسلمة يتسم بأنه معاد لإسرائيل وقد اتخذته أجيال من المستعربين، وقد زاد من ذلك حقيقة أن المدرسة الميدانية كانت تقع فى العادة على مقربة من مقر منظمة التحرير الفلسطينية والذى حدث أن كلا من المدرسة ومقر المنظمة أيضا انتقلا إلى تونس من بيروت، كانت تلك مصادفة تدعو للسخرية لكنها حدثت».

★★★

الفصـــل العاشر

هوران العرب (★)

ذات مساء، فى جامعة إكسفورد التقى الشاعر وأستاذ الكلاسيكيات البريطانى روبرت جريفز لأول مرة مع ت. أ. لورانس (المستعرب الشهير) كان ذلك فى عام ١٩٢٠ وكان لورانس قد فاز بمنحة دراسية من كلية «أول سولز» لإنجاز كتابه «أعمدة الحكم السبعة». وفى مذكراته بعنوان «وداعا لهذا كله» يورد جريفز وصفا حيويا لهذا المشهد.. يقول: فى الحال تعلقت بى عينا لورانس.. ثم شرعتا تومضان وتجولان فى أرجاء المكان كأنما لجرد الملابس وتقاسيم الأجسام.. كان لورانس يتحدث إلى أستاذ عن علم اللاهوت على أثر فلاسفة السوريين الإغريق على المسيحية فى عهدها الأول وبخاصة أهمية جامعة جادارا القريبة من بحيرة

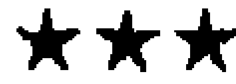
★ على وزن لورانس – العرب . «المترجم»

طبرية وذكر أن القديس جيمس استشهد بواحد من فلاسفة جادارا «أظنه ماناسلكاس» في رسالته. بعد ذلك انطلق لورانس يحكى عن ملياجر وسائر من أسهموا في ذخائر الإغريق من السوريين اليونان الذين كان ينوى نشر أشعارهم مترجمة إلى الانجليزية. ساعتها شاركت في الحديث وذكرت صورة نجم من نجوم الأسحار أوردها «ملياغر» بطريقة رأيتها غير إغريقية. ما كان من لورانس إلا أن توجه نحوى قائلا: «لابد أن تكون جريفز الشاعر. لقد قرأت واحدا من كتبك إذ كنت في مصر عام ١٩١٧ ورأيته كتابا مفيدا للغاية».

سرعان ما أصبح جريفز ولورانس أصدقاء ولم يبادر جريفز أساسا إلى مفاتحة لورانس في موضوع بلاد العرب إذ كان لديهما الكثير مما يتجاذبان حوله أطرافا من حديث، فإلى جانب الشعر اليوناني كان لورانس شديد الاهتمام بالشعراء المحدثين من أضراب زيجفريد ساسون وجون ماسفيلد وتوماس هاردى ثم كانت هناك دواوين جريفز التي ساعد لورانس على إعدادها للنشر، وجاء كتاب جريفز عن «لورانس والعرب» أقرب إلى أن يكون سيرة لقديس منه إلى ترجمة لإنسان، لكن كان من الواضح أن جريفز كان لديه ما يقوله بعمق خاص حول لورانس. وكما

تكشف القراءة المتأنية لكتاب «أعمدة الحكمة السبعة» فإن لورانس كان يستخدم الرموز الجبرية اليونانية لوضع استراتيجية لحرب العصابات.. ومن ثم فلم يكن محور الأمر بالنسبة لذلك الرمز الذى صان الامبريالية البريطانية هو مجرد جسارته العسكرية أو قدرته الجسمانية على التحمل أو حياته الجنسية المعقدة ولا اندماجه كواحد بين صفوف العرب ولا إلى أى شيء من هذا القبيل. فكما كان الحال مع «سلفه الرحالة» «ريتشارد بيرتون» فإن التنوع الثقافى عند لورانس هو الذى يجعله نسيجا فريداً بين معاصريه، ولقد كانت معرفة لورانس باللغة العربية وإحاطته بالبيئة العربية مجرد جانب من جوانب تلك العقلية المشبعة بالفضول، ولهذا السبب استطاع جريفز أن يفهم لورانس بأكثر مما فهمه أنداده فى مكتب الشئون العربية البريطانى.. كيف لا.. وجريفز نفسه هو الذى مضى كى يكتب مؤلفاته بعناوينها الشهيرة «أنا كلوديوس» و«المعبودة البيضاء»، ثم أعظم ترجمة على الإطلاق عرضت «الأساطير اليونانية» فضلا عن ثلاثين كتابا عن أوسع فروع المعرفة.، طبعا كان فى لورانس عيوبه مثل سائر معاصريه من المستعربين البريطانيين: كان أقرب إلى الهاوى الطموح منه إلى المحترف المتخصص، ثم أن طابع نظام التعليم الإنجليزى وفى

مدارس البنين الخاصة فى بريطانيا بالذات أفضى إلى جوانب كثيرة من غرابة السلوك منها الإغراق فى الرومانسية والشذوذ ولم يكن لورانس بعيدا عن هذا كله.



لكن ـ إذا استطعت ـ فتصور لورانس طبعة أمريكية ينحدر من طبقة متوسطة.. وينهج أنماط السلوك الطبيعية وينتمى إلى مرحلة الحرب الباردة بدلا من أن ينتمى مثل شبيهه الانجليزى إلى أيام الامبراطورية البريطانية، شخصا جمع بين الذكاء الفكرى والكفاية العملية.. لم يقدر له يوما أن يعانى من أزمات الهوية لا من الناحية القومية ولا من ناحية السلوك الجنسى: شخصا له بيت فى ضاحية وعائلة يأوى إليها، بلغ من اتزان تفكيره ألا يكتفى بالتحيز لجانب على جانب.. بعبارات أخرى نحن بإزاء لورانس جديد، أشد حداثة وينتمى إلى مرحلة ما بعد الصناعة.

لقد ظل «هيوم هوران» وهو من عنيناه بما سبق من سطور محوما حول أطراف موضوع الكتاب كسائر المستعربين من خريجى معهد تعليم اللغة العربية ميدانيا فى بيروت، ولو سألت أيا من كان فى إدارة الشرق الأدنى عن أعظم مستعربيها من ناحية القدرة الفعلية على طلاقة اللسان «العربى» فإن هى إلا لحظة

ويأتيك بعدها الجواب من كلمتين: «هيوم.. هوران». إنه المستعرب الوحيد الذى أكمل مقرر الأشهر الحادية والعشرين فى مدرسة بيروت ولكن فى ١٢ شهرا لا غيره، وتخرج بأكبر معدل أعطاه على الإطلاق خبراء اللغويات فى السلك الدبلوماسى ممن رأوا فيه أكثر من بليغ تضلع فى العربية وكأنها لغته الثانية الأم. وفى بيروت كان «هيوم هوران» يمضى أمسياته يترجم إلى الإنجليزية رواية محببة إلى العرب هى «نداء المجهول» تأليف محمود تيمور. بعد ذلك فى ليبيا كان يعكف على تدقيق منهج دراسى فى قوانين الشريعة فى إحدى الجامعات الإسلامية. وفى واشنطن سيعكف على تدارس عبرية الإنجيل «من أجل أن أقرأ عاموس، رسولى المفضل فى لغته الأصلية ثم لكى أفهم الإسرائيليين كإسرائيليين وأن أعرفهم من خلال اللغة التى يتكلمونها.. وهى لغة تتخطى حواجز كالجنادل فتردد أصداؤها فى الجبال.. يا الله لا عجب إذن إن كانوا على هذا النحو من الخشونة ثم إن العبرية تسير فى خط متواز مع العربية». هكذا يتدفق «هوران» فى الحديث حيث عيناه تسبحان فى بحر من الحمية ورهافة الحس.. ويود لو كان قد وهب حياة جديدة فوق التى عاشها.

مع ذلك فهو ـ هوران ـ ضليع فى الأسبانية والفرنسية والألمانية.. يستطيع ترديد النشيد الوطنى الأرجنتينى وبمقدوره أن

يلقى على مسمعك فصولا كاملة من جوته (بالألمانية) وكذلك من «الروائى الأمريكى» ادجار الآن بو.. ثم ينتقل بك إلى حديث عن روايات غرب إفريقيا وعن كشوفات شعوب المايا فى أمريكا الوسطى ومن ثم عن أدب الأطفال، يتحدث بتفاصيل مدهشة عن مواضيع من قبيل تاريخ هايتى والمستوطنين الأوائل، فى مقاطعة كيبك «الفرنسية فى كندا»، ولأنه مولع للغاية بأحوال أمريكا، فهو يستعرض على مسمعك دفعة بعد أخرى رحلة «وسلى باولز» الى مصب نهر كلورادو فى عام ١٨٨٩ بل يستطيع أن يستظهر أبيات فى حكم المنسية من أنشودة «الراية تتألق بالنجوم».. ذلك أمرؤ باتت شعلة ذكائه من السلالات المنقرضة فى عصر الإعلام الالكترونى حيث ساعات القراءة أقل مما مضى حتى عند ألمع الأفراد ذكاء وتوقدا.

كان «هيوم هوران» فى عمان نائبا لرئيس البعثة خلال أيلول الأسود عام ١٩٧٠ عندما أمسك كل من نيكسون وكيسنجر وسيسكو بخيوط التطورات التى وقعت على مستوى استراتيجى من واشنطن وخلال القتال استطاع هوران أن ينقذ أحد سكرتيرى السفارة كان فى بناية تعرضت للقصف عائدا به إلى حيث المجمع الدبلوماسى ومخترقا أكثر من حاجز تفتيش مأهول بعناصر من

الفدائيين الفلسطينيين حيث كان يقنعهم بالعربية أنه ممثل للصليب الأحمر! كان السفير الجديد «دين براون» قد وصل لتوه وقت بدايات اندلاع الشرر، وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمام السفير براون لتقديم أوراق اعتماده رسميا هي أن يرسل الملك حسين قافلة مدرعة في السادسة صباحا لإحضار السفير ومعه هوران. وشقت القافلة طريقها مطلقة نيرانها من السفارة إلى القصر.. كان هوران قد بلغ به الجوع لدرجة أبعدته عن القلق فلم يكن يفكر إلا في سؤال وحيد: هل سيقدم لنا الملك إفطاراً «وهذا ما فعله الملك حقا،» لقد أمضى هوران أسبوعين حبيس السفارة التي أثخنها الرصاص يعيش على ربع جالون من مياه الشرب يوميا كان يستقطع منه جانبا لكي يحلق ذقنه ويغسل ياقة وأكمام القميص فما «هوران» إلا المدقق الأريب.

وعندما اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأطلقت المملكة العربية السعودية سلاح البترول من عقاله كان هوران في جدة نائبا لرئيس البعثة وأدار السفارة بمعرفته انتظارا لمقدم السفير الجديد «جيمس أكنز».

وإذ التزم هوران بحبل الكتمان فقد عايش الدراما السخيفة التي نشبت بين «السفير» أكنز والوزير هنري كيسنجر إذ كانت

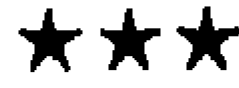
فصولها تتبدى أمام عينيه، وكلما كان كيسنجر يزور المملكة كان هوران هو المنسق على الأرض إذ كان يتعامل مع أهل البلاد من موقع أدق التفاصيل. ولقد أمضى هوران فى السعودية خمس سنوات من عقد السبعينيات نائبا لرئيس البعثة وعاكفا على تصريف أمور السفارة لصالح ثلاثة سفراء متعاقبين.. بيد ان هذه الإحاطة الدقيقة بجوانب المسائل العربية ستكون من عوامل أفول نجمه بعد عقد يأتى من السنوات!

«هيوم هوران» مخلوق متوقد الذكاء لدرجة أن حجم رأسه يبدو غير متناسب مع سائر أعضاء جسمه، تماما على نحو ما كان لورانس، ترمش عيناه كأنما تشربان الضوء ثم تركزان على مساحة من الفراغ بما يعكس سلاما مستكنا بين الجوانح على نحو يروق للفيزيائى أن يتمعن فيه، ذلك أن الأمر يبدو وكأن هوران قد انقسم إلى عوامله الأولية.. فلم يعد أن يكون دماغا فى وعاء.. لهذا تسمعه يدعوك قائلا: تعال الى بيتنا نتكلم.. بل يقول: تعال عندنا ندرس ونتأمل.

ثم هاهو ذا «هيوم هوران» يتأمل: «اللغة العربية! كلم الله، سبقت رسالات بلغت للناس على نحو أو آخر بالعبرية فى العهد القديم أو اليونانية فى العهد الجديد، لكن القرآن ـ الذى نزل عربيا

ليس تاريخا أو سيرة مثل الإنجيل ـ بل هو وحى منزل. ولهذا فالعربية أكثر لغات الأرض وشيجة مع السماء.. وهى بهذا تختلف عن الإنجليزية التى تمثل كاتدرائية متشابكة الأركان ترحب بالقاصدين.. نعم الإنجليزية أكثر اللغات كاثوليكية أما العربية فهى نظام محكم الإغلاق تقاوم استعارة الكلمات.. مثل جهاز جليل يروعك منه المنطق ثم تبهرك سلاسته وسهولة أدواته إذ يبدأ فى الحركة وينتقض بالوجيب. وما أن يتوافر لك معرفة اللواحق والسوابق من الكلمات فتودعها ذاكرتك ومعها الأفعال المجردة، الثلاثية السواكن، يصبح بوسعك أن تشكل أى كلمة تخطر على البال.. يبدو الأمر وكأنه التحام نطفة بأخرى فى إطار يستمد أصوله من معين العقيدة حيث المدد عميقا وكثيفا، أين هذا من الإنجليزية حيث لا سبيل إلى أن تعايش المعانى الأصلية للكلمات إلا إذا درست اليونانية أو اللاتينية؟ والمشكلة الأخرى أن العربية من أجمل ماتسمعه الأذن من إيقاع، ومن ثم تجد نفسك ترتبط بأكثر من سبب مع هؤلاء القوم بحكم أسلوب البللور الذى تتشكل به لغتهم فى فضاء الله الواسع. لهذا أعرف كيف قصر المترجمون الإنجليز عن مجاراة (معانى) القرآن.. من آياته ما يمكن اعتباره استكمالا لتشريعات اللاويين.. لكن.. لله در القرآن:

إنه يأخذك عبر سورة البقرة فى تكرار وئيد.. ثم إذا به يروعك بوحى يتفجر بسرعة البرق.. يفاجئك ويزلزل كيانك بمعدل ثلاثة آلاف قدم فى الثانية الواحدة...».



مازال هوران يسابق اللحظة وهو يعرض الموضوع، لايكاد يتوقف لالتقاط الأنفاس، يقول: «العربية قد لاتكون أكثر عزلة من الصينية أو من أى لغة أخرى غير أوربية بل إن الصينية تستعصى كما قد نقول، على صيغ الفكر الغربى بأكثر من العربية. إن أزمنة الفعل العربى قد لاتكون محددة بصورة قاطعة بين الماضى والحاضر والمستقبل بيد أن الزمن فى العربية له امتداد خطى والصينية ليست كذلك. على أن العرب هم قوم موحدون من أهل الصحراء لم ينل منهم حلم المن والسلوى بعد الدياسبورا ـ الشتات ـ الذى نزل بأهل الغرب.. ولعلهم بهذا عازفون عن الصور الحسية المزوقة بل هم يطوون الجوانح كما يقول لورانس على أنقى وأصلب عقيدة بحيث تصل فى حدودها إلى مستوى الرياضيات. لهذا فهم ينجذبون نحو المجرد وليس الحسى، ولهذا أيضا لم يكن من إبداعاتهم فنون الرسم والنحت وغيره من فنون التشكيل والتجسيم». ومن هنا يقول أستاذ هوران الراحل «سير هاملتون

جيب» إن الوسيلة التي اختيرت أساسا كي يعبر بها العرب عن حس الجماليات لديهم كانت الكلمة واللغة وتلك أروع الفنون فتنة. وهي بالتأكيد أكثرها تقلبا بل وأشدها خطرا وعند ـ الأستاذ ـ جيب فإن الكلام هو أعظم الفنون. والفن كثيرا ما يخدع. ثم يقفز هوران بضع درجات على بوصلة الحوار كيما يلتقط مقولة تتقاطع مع ما كان يشغله من حديث عن فن الكلام يقول: لقد جاء الإسلام وحيا في القرن السادس وسط عالم من الفوضى السياسية والإنحلال الاجتماعي وأصبح من واجب محمد «عليه الصلاة والسلام» على خلاف عيسى «عليه السلام» أن يحمل على عاتقه مهمة لاتقتصر على الدعوة إلى الدين الجديد فحسب بل إلى إقامة نظام اجتماعي وسياسي أيضا. لهذا أقام محمد «صلى الله عليه وسلم» مجتمعا جديدا لايقوم على أصره الدم بل على وحدة العقيدة. وهذا المسرح الاجتماعي الجديد أثبت أنه قادر على الاستمرار. والذي حدث أن مفكري الأمة المسلمة، وقد أبعدتهم السياسة فيما انجذبوا لغويا نحو المثالي والمجرد، شرعوا يركزون الاهتمام فحسب على أصول دينهم وعلى حكم الشرع، وذلك مبحث يصفه هوران نفسه بأنه عالم يبغي انقسام الشعرة والطموح إلى الأكمل بغير حدود.. هنالك تجاهلوا أمر السياسة

ولم يعتمدوا سوابق تضفى الشرعية على وقائع الحياة السياسية على النحو الذى تعيشه حاليا الدول القومية المعاصرة.. كل هذا يتم فى إطار عالم يدور حول مبدأ داروين فى البقاء للأصلح وهو مايجعل الشرق الأوسط موقعا هو من الخطورة بمكان.

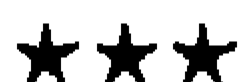
ولد هوران عام ١٩٣٤، ولايزال يتصف بتلك النزعة من الشقاوة والمعابثة والولدنة كأنما ينفس عن طاقة فائقة وحبيسة، أنه يركض ويلعب التنس ولا يمل من ركوب الدراجات وفى أعقاب أحداث أيلول الأسود فى عمان ذهب ضيفا على ولى العهد الأمير الحسن فى إجازة للتزلج على الماء فى خليج العقبة، وإذا أخطأ فى نهاية إحدى القفزات فقد اصطدم بكيس رمال حطم ضلعيه وعدة فقرات وأمضى من ثم شهرا بطوله مستلقيا على ظهره بمستشفى فى عمان.

وها هو هوران الآن وقد عاد إلى الاستلقاء على ظهره من جديد لا بعد حادثة بل حادثتين من حوادث الدراجات ـ لقى لورانس مصرعه وهو يمتطى دراجة بخارية.

طبعا سيشعر هوران بالحرج من هذه المقارنة مع لورانس ولقد سأله يوما أحد مصورى المجلات عن غير معرفة بشخصيته إن كان لديه صورة وهو يرتدى اللباس العربى فما كان منه إلا

أن أجابه لو كان لدى صورة من هذا القبيل لكنت قد أحرقتها .. ذلك لأنه ليس كبير الثقة فى رجال الثقافة المصطنعة والتجمعات الدولية الذين يعمدون إلى حشو شخصياتهم بحضارات أو ثقافات غير مأهولة وكأنهم يتظاهرون بما ليس فيهم . إن هوران لايحب أن يكون مثل لورانس العرب وإن كان لابد فهو يود لو كان مثل «لرونو بتلهايم» الذى كان يطل من عدسته المكبرة متفحصا ومدونا مذكراته عن الأطفال الانطوائيين . ثم يلوح السفير هوران بيمناه بينما يهز عكازه باليسرى إذ يتهيأ لسرد ملاحظاته عن ليبيا التى خدم فيها حيث عاش هو وزوجته نانسى عددا من السنين : نحن هنا بإزاء الصدمة التى انتابت جموع المحرومين حيث الحياة فارغة وقد كانت تعيشها قبائل سيئة الطالع طردتها الظروف خارج مصر وتونس ثم استعمرها الطليان . وفى الحرب العالمية الثانية شهدت تلك الأرض معارك تروح وتجىء إلى أن اكتمل نهبها كى تصبح من بعد أفقر بلد فى الدنيا حتى ليصبح أكبر صادراتها هى المعادن الخردة - سكراب من مخلفات الحرب ثم تنزل صاعقة الثروة بغير تمهيد وبعدها انقلاب سياسى . هنالك تصاعدت أبخرة الثروة إلى الأدمغة فيكره أصحابها سائر البشر ، تسود السلبية وتتفشى الشكوك والعناد والمشاكل

النفسـيـة لكن عليك أن تقطـع أشـواطا طـويلة كى تعـرف الناس هناك . ان هـوران – كـمـا يصـفـه مـسـئـول سـابق بالخـارجـيـة الأمـريكية أشبـه بعلمـاء التلمـود . ويمضى هذا المسئول السـابق الذى قلمـا يمدح أحدا من الدبلومـاسـيين الأمـريكيين ليقول : إن هوران عـالم مـسـتـعـرب كلاسيكى من طراز البـروفـيـسـور برنارد لويس – المسـتـشـرق البـريطانى الأشـهـر والأسـتـاذ بجـامـعـة برنسـتـون – أما جـون كـوليه وهـو من المعـهـد الأمـريكى للدراسـات الدبلومـاسـيـة فـيـقـول : «إذا مـا أدينا واجـبـنـا على النحـو الأكـمل فالنتيجة اسمها هيوم هوران».



لو كـان هـنـاك امـرؤ يحله – السـفـيـر – هـيـوم هـوران مـحل الإجـلال والتـوقـيـر ويسـعى جـاهدا إلى أن يـحـذو حـذوه وينسج على منواله لكان هو المسـتـشـرق الإنجليـزى «هاملتون جيب» .. يقـول هوران : طيلة حياتى كنت أشـعر بضـرورة أن أبذل قصـارى جهدى فى عملى لكى لا أخيب ظن – أستاذى – هاملتون جيب لن أنسى الرجل مـاحـييت .. حـقـيبته الصـغـيرة التى مـا أن يفـتـحـهـا تجـدهـا حـافلة بالآداب – الأدب الحـقـيـقى فى لغـات شـتى ومـا عـرفـه عن الشـرق الأوسط ليس إلا مـوجـة ضـمن تـيـار عـريض هـو مـعـرفـتـه بثقافة بقية العـالم . ان كتابات هاملتون جيب تتردد بين سطورها

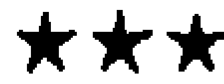
انتقاداته الذكية والعميقة للحضارة العربية ومع ذلك فهو مبغض إلى عدد من العلماء الصهاينة واليهود مثل الراحل ايلى قدورى بسبب تفهمه العميق للجانب الإيجابى من القومية العربية . لهذا تجد قدورى يكتب فى عدد يونيه ١٩٩١ من مجلة - كونترى - وكأنما يغمز من قناة هاملتون جيب حين يشير إلى .شركة السير هاملتون جيب وأولاده المؤسسة العتيقة والمنعزلة التى يرى فيها الإرهاص الأساسى المبشر الخواء العقلى ، مع ذلك تجد عند الطرف الأقصى من المعادلة المفكر العربى الفلسطينى إدوارد سعيد يقول فى كتابه «الاستشراق» : ان تحيزات السير جيب الأساسية تظل عقبة كأداء بالنسبة لكل من يبتغى فهم الإسلام الحديث . على أن السفير هوران الذى عرف هاملتون جيب شخصيا يرى نفسه فى المحل الأوسط المتفرد بين الثقافتين الفرعيتين اللتين يصدر عنهما كل من إيلى قدورى وهو المفكر المؤيد للصهيونية وادوارد سعيد المفكر المؤيد للفلسطينيين ، وهذه العزلة يتقاسمها هوران مع سائر - الأمريكان - المستعربين فبرغم طفولة فى وسط متعدد اللغات وبرغم الليسانس والماجستير من هارفارد فضلا عما تعلمه بخاصة على يد السير جيب فمن الخطأ أن نحكم على هوران أنه ببساطة مجرد إنتاج طبيعى

لنشأة حافلة أو لتعليم مرموق . إن إجادته الفرنسية والألمانية أمر من صنع يديه وكسبه العصامي . تراه يحجل حول مكتبته يتناول بعكازه رواية المانية، ثم يقلب الصفحات معتزاً بأن يستعرض علي مسامع زائره حصيلته القديمة من ذخائر المفردات . في حالة هوران - فإن صفة الاستعراب ماهي إلا جانب من جوانب الاستنارة المشبعة بروح الانسانيات وهومن ثم يشكل رادعا فوريا أمام أي لوبي مؤيد لاسرائيل يفضل الطريق السهل فيشير إلى رجل مثل السفير كيلجور على أنه المثل الحي لحركة الاستعراب في الخارجية الأمريكية .. في هذا السياق يصر السفير هوران على أن السفير لايفترض فيه أن يمثل فقط وزارة الخارجية بل هو يمثل كونجرس الولايات المتحدة والبيت الأبيض والعاصمة واشنطن ثم مجمل الفكرة التي تسمى أمريكا .

قد تكون فكرة هوران عن أمريكا أكثر من واقعية تشهد بهذا مقالة كتبها بوحي اللحظة في عدد مارس ١٩٩٢ من جريدة السلك الخارجي يصف فيها الاحتفالات بفوز فريق - ردسكنز - للكرة في واشنطن وفيها يتجلى هوران لابوصفه مغرورا بمعارفه الدولية بل بوصفه رجلا شعبيا بحق حيث يقول: على مدى ساعة ونصف من يوم ٢٩ يناير لم تكن فترينة العرض

العظمى لأمريكا فى المتاحف بل تجلت أمريكا فى ساحة مول بول حيث تجمع ١٠٠ ألف من مشجعى فريق ردسكنز نصفهم بيض ونصفهم سود يهتفون بحياة الأبطال الذين حصلوا على الكأس رقم ٢٦ .. آه لو رأيت منظر الملابس .. فتاة ترتدي جاكتة ميدان لابد وأن تكون قد سرقتها من ديكتاتور بنما - جنرال نرويجا .. ثم الاساور ذات الشعارات المثيرة .

«كان صباحا لايضم يهودا أو غير يهود بل يضم ألف٠ مشجع يهتفون ويرقصون حيث الأصبع الوحيد الذى يرتفع آنذاك هو السبابة»



التحق هوران بالسلك الخارجى بعد دراساته العليا فى هارفارد وبعد بيروت خدم فى بغداد من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٣ ومن ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦ كان فى «البيضاء» وهى مدينة صغيرة فى شرقى ليبيا ثم عاد إلى واشنطن سنوات قليلة قبل ان يذهب إلى عمان وبعدها إلى جدة نائبا لرئيس البعثة وبفضل أدائه المرموق فى عمان أثناء أحداث أيلول ، وفى جدة أثناء حرب أكتوبر رقى إلى رتبة سفير فى أوائل الأسود الاربعينيات من عمره ، وكان أول مواقع خدمته كسفير فى غينيا الاستوائية والكاميرون وعندما جاء صيف ١٩٨٣ أسند إليه أول منصب سفارة فى العالم العربى وكان فى الخرطوم بالسودان .

الفصـــل الحادى عشر

انديانا جونز★

بسبب عوامل الجغرافيا ، كانت أقطار شمال أفريقيا الناطقة بالعربية (المغرب العربى) تعيش دوما على حواف دراما الاستعراب الأمريكى .

مصر كانت استثناء بطبيعة الحال وكذلك السودان الذى كان بدوره استثناء آخر إذ هو امتداد لمصر إلى الجنوب . بل إن السودان لم يعوزه يوما أن يشهد دراما أبطالها مستعربون وذلك بحكم حجمه الكبير وموقعه المتاخم لكل من مصر وليبيا ثم السعودية عبر البحر الأحمر وهذا ما توضحه القصة التالية :

السفير «باركر هارت» وقد شارف على الثمانين ويتحلى بأرفع اساليب السلوك يضجع فى كرسيه فى صالة نادى «كوزموس» فى واشنطن بجدرانها التى يأتلف على أديمها الأبيض والكريم والذهبى .

★ نسبة إلى مسلسل المغامرات الروائي الشهير «المترجم» .

يتذكر تعيين «هيوم» سفيرا لأمريكا لدى المملكة السعودية فى عام ١٩٨٧ التى كان «هارت» نفسه سفيرا لديها قبل أن يصبح مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى. العربية السعودية تمثل أكثر من حليف استراتيجى رئيسى وحليف مالى لأمريكا فى العالم العربى. صحراؤها القاسية هى المهاد الذى شهد الاسس التى قامت عليها الثقافة البدوية وديانة الإسلام. وبالنسبة لمستعرب فى وزارة الخارجية فلم يكن ثمة موقع اسمى مكانة من وظيفة السفير لدى الرياض . وبالنسبة للسفير هارت لم يكن ثمة مؤهلات ترشح الفرد لمثل هذا العمل بأكثر من المؤهلات التى حملها هيوم هوران .

«هيوم هوران يتكلم العربية بطلاقة» هكذا يضيف السفير هارت وكأنه براهما من حكماء بوسطن. «بعد أن أقسم اليمين كسفير بدأ يلقى أبيات من الشعر العربى يحفظها عن ظهر قلب لست أعرف ما هى لكن كانت عذبة فى الاسماع » .

فى الواقع كانت الأبيات من قصيدة لمحمود سامى البارودى ، السياسى المصرى الشاعر الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر ونفاه البريطانيون الى سيشيل لمدة عامين ★. ويقارن هوران

★ الصحيح إلى سيلان (سرى لانكا) والصحيح أيضا ان النفى دام١٦ عاما (يناير ١٨٨٣ – سبمتمبر ١٨٩٩) المترجم .

نفى البارودى بمنفى اسحق شامير الذى كان البريطانيون قد ارسلوه الى اريتريا★ . أما الشعر المترجم الى الانجليزية فيبدأ بهذا البيت :

يارب قد طال بى شوقى الى وطنى

فأحلل وثاقى وألحقنى بأشباهى ...

وينتهى بهذا البيت :

عسى الله يقضى قربة بعد عودة

فيفرح باللقيا أب ووليد

والواقع ايضا أن هوران عمد الى أن يأخذ بيتين منفصلين من شعر البارودى ويخيطهما معا فى نسق واحد آملا ألا يكون هناك من يلحظ لجوءه هذا إلى استخدام رخصة الشعر وما كان له أن يقلق فى هذا الأمر، فلم يكن أى من الذين شهدوا حفل القسم قد سمع لا عن الشعر ولا الشاعر ولا كان معظم الحاضرين بوسعه أن يفهم العربية أصلا. مع ذلك فالاقتباسات التى اختارها كانت موافقة للمقام. إن هوران بمعنى من المعانى كان كمن يعود الى الوطن أو على الأقل الى قطر عربى كان يعرفه حق المعرفة هو العربية السعودية .

★ هكذا .. ! المترجم .

لم يكن فيما يبدو ثمة فرد فى مجمع الخبراء الأمريكيين أفضل مؤهلات فى تلك المرحلة ليصبح سفيرا لدى العربية السعودية من هيوم هوران : عربيته لم تكن بليغة فحسب، ولكنه كان قد فرغ لتوه من إنجاز ثالث مهمة له كسفير فى السودان وسط نجاح مشهود. فى الخرطوم كان قد أعطى نموذجا يحتذى بحق عن دور السفير بالضبط. وعندما غادر الخرطوم ، اشار مسئول سودانى الى تواطؤ السفير فى تهريب الفلاشا وقال لهوران «لم تكن محبوبا هنا على وجه الدقة، إلا أن هوران أجاب مبتسما : ليس من وظيفتى أن أكون محبوبا ، إن وظيفتى أن أمثل قيم ومصالح الولايات المتحدة. وكان هوران يقصد الولايات المتحدة «ليس مجرد وزارة الخارجية ولكن كونجرس الولايات المتحدة والبيت الأبيض ايضا»، على حد ما قال .

فضلا عن ذلك، كان تعيين هوران لدى الرياض اشارة مقصودة أو غير مقصودة بأن الولايات المتحدة تعلمت درس ايران فى السبعينات عندما سقط الشاه وهو : لا تجعل من علاقة عسكرية واقتصادية مع نظام حكم ما تحول بينك وبين التعرف على المعارضة الداخلية فيه. من هنا فالسنوات الخمس التى أمضاها هوران فى العربية السعودية عندما كان يدير السفارة

عمليا تحت رئاسة ثلاثة سفراء مقرونة بإجادته التامة للغة العربية وشخصيته البارزة ، كل هذا جعله خبيرا بأبعاد المسرح المحلى هنالك . يضحك فليوتس المساعد السابق لوزير الخارجية لشئون الشرق الادني قائلا : لعلك لا تعرف هيوم هو ذلك النمط من الرجال الذين يتحلون بالمودة الشديدة ويستطيعون إقامة صلات محلية كثيرة. فى خمس سنوات فى مكان مثل السعودية اصبح يكاد يعرف كل فرد دون تدخل من مترجم أو غيره، ويقول هوران نفسه : فى السبعينات كنت آكل الدجاج المجهز فى المطاعم البسيطة مع كثيرين ممن كانوا فى شتى مواقع الحكومة السعودية. بل إن صلات هوران لم تقتصر على الأنماط الحكومية ولكنها تعدت الى علماء الإسلام مما أصاب السعوديين بالتوتر العصبى. كانت واشنطن مرتاحة لفترة ما إزاء تعيين هوران سفيرا لكن الحكام السعوديين لم يكونوا كذلك، بل أن هوران كان اسوأ كابوس لديهم الى حد ما . ربما كانت حكاية هوران مع الفلاشا نوعا من الرذاذ الذى كان لايزال يعلق بالرجل فى عيون السعوديين ، لكن آخر شيء كان يريده الملك فهد وحاشيته هو امريكى ذكى فى الرياض يجيد العربية وله اتصالات فى الشارع السعودى، ومن ثم فهو قادر على أن يدحض الصورة الوردية

الوحيدة الجانب التى يتولى بيعها عن العربية السعودية فى واشنطن سفيرها الواسع النفوذ الأمير بندر بن سلطان. من الواضح ان السعوديين كان لهم تجربتهم مع سفراء امريكيين كانوا يجيدون التحدث بالعربية. كان أول سفير على الإطلاق لدى المملكة هو الكولونيل ويليام ايدى وكان نموذجا يحتذى، كذلك كان هناك بيت هارت وهيرمان ايلتس وجيم اكنز وريتشارد ميرفي. لكن مع امكانية استثناء الكولونيل إيدى فإن عربية هوران كانت افضل بكثير من كل هؤلاء الرجال. وعلى خلاف هوران. كان إيدى ابن مبشر وكان معروفا عنه جيدا عواطفه السياسية المؤيدة للعرب. والأهم من ذلك ان كان لهوران سمعة انه ليس «سفير الليموزين» ذلك النوع الذى تقتصر علاقته وصداقته مع الجاليات الاجنبية فيما تقتصر اتصالاته العربية على المواقع الرسمية وعلي الذين يعيشون فى مركز . خدمته . لقد أحب هو ران أن يخرج إلي الشوارع وأن يتحدث الى الناس ...

وكان هناك ايضا مسألة منبت هوران الايرانى . وهذه المسألة لم يكن هيوم يعلنها ولا يبقيها فى طى الكتمان، وربما لم يكن لدي السعوديين حق او منطق فى هذه المسألة . لقد كانت شأنها شأن كراهية اليهود مسائل تبرز أشد الجوانب سلبية فى الشخصية

الوطنية السعودية ، ألا وهو نزوعها إلى تصور اسوأ أنواع المؤامرات وأكثرها بدائية وهى سمة لا تزال عالقة حتى بأكثر السعوديين استنارة . لهذا السبب بالضبط لم تخضع المسألة لأى نقاش على الاطلاق اختارت واشنطن الرجل الذى ارادته وكان لديها الحق فى الا تعتبر ان هذا الموضوع له قيمة وعلى ذلك وافق السعوديون فى صمت ...

لكن هذه العوامل كلها ما كان لها ان تتصاعد لولا تدخل سوء الحظ فى مسار الأمور. فى اواخر عام ١٩٨٧ كان هوران قد بدأ لتوه الاستقرار فى عمله الجديد عندما تعين عليه هو ومعه موظفو سفارته، مستعينين فى ذلك بصور الاقمار الاصطناعية وما خلصت اليه نتائج الاستخبارات الوطنية ان يحل أحدث ألغاز الرمال، مثلا لماذا كان الاطعمة الصينية تختفى بهذه السرعة الفائقة من الاسواق المحلية ؟ وكما عرف موظفو السفارة فيما بعد فإن السبب كان راجعا الى أن الفنيين الصينيين يأكلون هذه الاطعمة . فى الصحراء جنوبى الرياض كان هناك منشآت لصواريخ «سى، إس،إس. التسيارية المتوسطة المدى - القادرة بسهولة على بلوغ اسرائيل والتى كان من شأنها، كما يقول هوران، ان تضع السعوديين فى موقع استراتيجى متميز وجديد،

كان السعوديون قد قطعوا وعدا سريا لواشنطن بعدم نشر هذه الاسلحة لكنها كانت مسألة حساسه . أما الأمير بندر السفير السعودى فى واشنطن ، فقد ابرم على مايقال الصفقة عن هذه القذائف التسيارية بنفسه اثناء زيارته للصين. بندر كان أكثر من مجرد اوسع السفراء الأجانب نفوذا على نهر البوتوماك فى واشنطن . كان شخصية لا تبارى، يمكن أن تكسب الجميع وهى مفعمة بالدولارات والنفوذ وكان يتمتع بعلاقات ممتازة مع مجلس الأمن القومى ومع الرئيس ريجان وزوجته .

مع ذلك، فقد اوعزت وزارة الخارجية الى السفير هوران فى مارس ١٩٨٨ بأن يوضح للملك فهد مدى حنق الولايات المتحدة بسبب نشر تلك الصواريخ . وعندما تلقى هوران التعليمات بلغ من فهمه العميق للسعوديين الى حد أنه كان يعرف ان «تلك مسألة فى غاية الحساسية» وهى كفيلة بسهولة بأن تفقده موقعه كسفير. وعليه ففى صباح اليوم التالى لتلقيه التعليمات اتصل مع واشنطن طالبا إعادة تأكيد للتعليمات وسائلا ادارة الشرق الادنى : هل انتم متأكدون بأنكم تريدونني توصيل هذه الرسالة ؟ وجاء الرد بالايجاب وكان هوران على بينة انه فى مثل هذا الموقف فاز بلاغته فى الحديث الطليق بالعربية تشكل سلبية واضحة لا لبس

فيها . وكما يفسر الامر صديقه فليوتس : تلك هى اللحظة التى لا تريد فيها أن تكون عارفا بالعربية . اللحظة التى تريد من مترجم ان يتفوه بالعبارات الصعبة نيابة عنك ومن ثم لا ترتبط انت شخصيا فى عقل الملك بما قيل فى تلك المواقف . وعليه فبدلا من أن يطلب مقابلة الملك . كتب هوران الاحتجاج على الورق وقام شخصيا بتسليمه الى القصر .

كان يمكن لمثل هذا التكتيك ان يؤدى مفعوله. صحيح ان الرسالة احنقت الملك فهد الذى لم يكن حتى قبل تسلمها قد استقبل هوران فى لقاء خاص على نحو مافعل مع السفراء الامريكيين سابقا ولاحقا. لكن الذى وضع حقيقة السكين علي عنق هوران كان تصرف البيت الابيض فى عهد ريجان . ففى غضون ساعات من تسليم الرسالة تلق هوران برقية من واشنطن تبلغه ان «يوقف الجهود» المتعلقة بصوازيخ «سلك وورم »لأن «رسالة مختلفة» ذهبت مباشرة من واشنطن إلى الرياض ، ويقال إن بندر استخدم قناة خلفية عن طريق اتصالاته بالبيت الأبيض لإلغاء الأوامر التى تلقاها هوران بعد تنفيذها . هكذا أمسك الملك فهد برسالتين فى يديه : واحدة من واشنطن تقول إن نشر الصواريخ مسألة تحتاج مناقشة وربما لا شئ أكثر من ذلك ، ورسالة أخرى

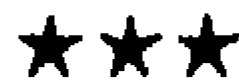
. من هذا السفير الفضولى المتحدث بالعربية نصف العجمى تقول : إن النشر أمر غير مقبول . فى حين أن الأمر غير المقبول فى نظر الملك كان هذه النوعية من السفراء . هكذا أوضح الملك أن هوران الذى لم يمض في الرياض سوى بضعة أشهر لا يمكن أن يكون همزة وصل عملية على الإطلاق .

من هنا استدعت واشنطن هوران وسارعت بإرسال والتر كتلر المعروف باهتمامه بالعموميات سفيرا جديدا لها . وبرغم أن كتلر لم يكن يتكلم العربية إلا أنه نعم بفترة خدمة بعيدة عن المشاكل بل كان يتمتع بإمكانية الوصول الميسور إلى الملك فهد .

على أنه ساد شعور فى دوائر السلك الخارجى بأن هوران لم يظلم فحسب من جانب السعوديين وأصدقائهم المتنفذين فى واشنطن ، ولكن أيضا من جانب كبار موظفى وزارة الخارجية البيروقراطيين لمجرد أنه كان قد بلغ شأو الكمال بوصفه خبير منطقة بمعنى أنه كان يفهم السعوديين بأفضل مما أرادوا أن يفهموا به . لكن هوران يستبعد هذه الوساوس قائلا : «نحن السفراء أقرب ما نكون الى ورق الكلينكس ، نحن مجرد أدوات للاستخدام ولسنا صانعى سياسة . إننا موجودون لكى يلقون باللوم على أكتافنا ثم يطوحون بنا هنا وهناك حتى تستمر العجلة فى الدوران» . فإذا ما تطرق إلى سلوك واشنطن فإن هوران

يكتفى بالقول : «بعد أن أذيعت حقائق إنقاذ الفلاشا وطلبت حكومة السودان الجديدة استبعادى ، قام شيت كروكر (مساعد وزير الخارجية لشئون أفريقيا) بإبلاغ الخرطوم دون موارية أن لو أراد السودان مواصلة التعامل مع واشنطن فينبغى أن يظل هذا التعامل عن طريق هيوم هوران» . ولن أنسى لكروكر هذا الصنيع ما حييت (!) أما عن أسلوب استجابة الوزارة إزاء ممارسة السعوديين ضغطا مماثلا فلنكتف بالقول إن المسألة لم تكن على غرار جزيرة «كوريك دور» (وتلك إشارة إلى المقاومة الباسلة لقوات الولايات المتحدة فوق جزيرة كوريك دور قبيل استسلام الفلبيين أمام اليابانيين فى شهر مايو ١٩٤٢) . بعد استدعائه من العربية السعودية عمل السفير هوران فى عدد من اللجان الرفيعة المستوى وبعدها انتخب من زملائه أعضاء السلك الدبلوماسى رئيسا لرابطة السلك الخارجى الأمريكى ثم عين سفيرا لدى كوت ديفوار (ساحل العاج) وهى أهم بلد ناطق بالفرنسية فى غرب أفريقيا . لكن هذا لم يكن ختاما ناجحا من الناحية الشكلية لحياة دبلوماسية حافلة بالنسبة الى سفير سبق أن عمل فى الرياض وهو أفضل من تكلم العربية فى تاريخ إدارة الشرق الأدنى بوزارة خارجية الولايات المتحدة . بيد أن هوران نفسه لم يكن يوما بالشخصية التقليدية ، ومرة أخرى فثمة مشابهة تقرن بينه وبين

مستعرب بريطانى هو سير «ريتشارد بيرتون» فبرغم أن بيرتون تسلل في أيامه إلى قلب جزيرة العرب ، وبرغم دوره فى اكتشاف منابع النيل التى لا تبعد كثيرا عن جنوب السودان ، فإن الخارجية البريطانية ما لبث أن انتدبته للعمل مبعوثا إلى غرب أفريقيا حيث رشحوه سفيرا فى داهومى المجاورة لساحل العاج ، وكان ذلك فى عام ١٨٦١ .



هيوم هوران أراد يوما أن يصف طائفة المستعربين الأمريكيين من أنداده فقال بلهجته التلقائية التى تنضح سخرية من الذات : «مثلى كمثل زهور أوركيد منقرضة استولدت بذرتها دولة عظمى هى أمريكا . أنا أتصور أن وجود أمثالنا لا يبرره إلا وجود مثل هذه الدولة المنيعة . «ولقد كان هوران أينع زهور الأوركيد وأكثرها تألقا وكان شأنه فى هذا شأن أضرابه ممن عملوا فى خدمة الامبراطورية البريطانية - لورانس وريتشارد بيرتون . على أن هيوم هوران يمثل أكثر أنواع المستعربين تقدما وذلك قبل أن يبدأ هذا الفصيل فى الاضمحلال ومن ثم الانقراض. وكما كان الحال مع «لورانس» . وكذلك مع «ريتشارد بيرتون» ، فإن بيروقراطية موظفى المكاتب لم تعرف حق المعرفة كيف تتعامل مع هذه النوعية من البشر .

رقم الايداع
١٩٩٦ - ٥٢٣٤
I. S. B. N.
977 - 07 - 0480 - 6

الفهـــرس

كلمة المترجم ٥

تمهيـــد ١١

البـــاب الأول

(الحلـم) ٢٩

الفصل الأول :

– لبنان موطننا ٣١

الفصل الثانى :

– أجمل موقع فى بيروت ٦٧

الفصل الثالث :

– الانجليزى مجنون الصحراء ٩٥

الفصل الرابع :

– نهاية الطيف الملون ١٣٩

البـاب الثانى

(على أرض الواقع) ١٧٩

الفصل الخامس :

– الدبلوماسى المحترف ١٨١

الفصل السادس :

– المخضرمون ٢١٧

الفصل السابع :

– لا وقت للراحة ٢٨٥

الفصل الثامن :

– خبراء المنطقة .. ساخطون ٣٢٣

الفصل التاسع :

– صدمة الحقيقة ٤٠٧

الفصل العاشر :

– هوران العرب ٤٣٣

الفصل الحادى عشر :

– انديانا جونز ٤٥١

الهــــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى
يونيو ١٩٩٦ .. تقرأ فيها :

فكــر وثقافــة

التصحر في أرض الابداع .... د. مصطفى سويف
الجنة الضائعة والجنة الأرضية .... د. شكرى عياد
الفكر الاقتصادي المصرى في عصر الانفتاح .... د. جلال أمين
إميل حبيبي، مفارقة الأديب السياسي .... ابراهيم فتحى

مصــر والعالم فى القرن ٢١

جـزء خـاص

مستقبل العالم وصراع الثقافات .... د. احمد عبدالرحيم مصطفى
قراءة في كف مصر في ثلاثينيات القرن المقبل .... د. رشدى سعيد
التعليم والحرية والتطوير العلمي .... د. محمد عبدالفتاح القصاص
التعليم علي مشارف القرن الحادي والعشرين ....
.... د. سعيد اسماعيل على
التكامل العربي شرط الدخول الي القرن الحادي والعشرين ....
.... د . اسماعيل صبرى عبدالله
مستقبل الاسلام السياسى في العالم العربي ....
.... هانى عبدالمنعم خلاف
مستقبل اسرائيل، مأساة الوطن المستحيل .... مصطفى الحسينى
مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين. .... د. صلاح قنصوه

العالم في القرن القادم... ثورة ونظام .... د . عبدالمنعم تليمة
الفن التشكيلي في القرن الواحد والعشرين .... د . صبرى منصور
السينما عام ٢٠٠٠ - قفزة الي الامام .... مصطفى درويش
مفتاح المسرح .... فوزية مهران
عقل عاطفى في المخ .... ليلي الجبالى
صيحة ٢٠٢٥ الأدبية، كتاب الجيب الكومبيوتر .... محمود قاسم

قصة وشعر

أغنية في عيدها (شعر) .... عبدالكريم دندى
لحظة بكاء (قصة) .... حسين عيد

التكوين

لتكن الفلسفة هوايتي، وليكن القانون حرفتي .... د. يحيى الجمل

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء - أقوال معاصرة - من الهلال إلى الهلال - المكتبة - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة — رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد — مصطفى نبيل

روايات الهـــلال

تقـــدم

لا أحد ينام فى الاسكندرية

بقلم

ابراهيم عبد المجيد

تصدر

١٥ يونيه ١٩٩٦

كتاب الهــلال

يقدم

كتابة القصة القصيرة

بقلم

هالى بيرنت

ترجمة

أحمد عمر شاهين

يصدر : ٥ يوليه ١٩٩٦

هذا الكتاب

هذا كتاب بالغ الأهمية، نترجمه وننشره رغم خلافنا الجوهرى مع كاتبه، وعملاً بحق القارىء أن يعرف، وخاصة أنه يتضمن قدرا هائلا من المعلومات المهمة.

ولأول مرة يصبح التخصص ـ عند الكاتب ـ مأخذا يجب التخلص منه، فالمستعربون الأمريكيون الذين درسوا اللغة العربية فى معهد شملان فى لبنان وفى المعهد الذى أقيم في تونس بعد الحرب الأهلية اللبنانية أو في الجامعة الامريكية فى القاهرة، كل هؤلاء يتحيزون للعرب ومعادون للسامية، ليس للعرب ككل بل للعرب السنة وحدهم، واتسمت أعمالهم بسوء التقدير خلال النصف الاخير من هذا القرن، وهو يعنى بذلك تحذيراتهم المتكررة للادارة الامريكية بعدم التحيز لاسرائيل!

وآخر قائمة التهم أن بعضهم يعمل فى العواصم العربية وعينه على الاشتغال بالاعمال التجارية بين بلدان النفط والولايات المتحدة الامريكية.

ويبشر القارىء بظهور نوع جديد من المستعربين موالين لاسرائيل، ينظرون الى العرب على أنهم فسيفساء من السنة والشيعة والعلويين والدروز والمارون والأرثوذكس والكاثوليك ، والنجاحات التى حققتها السياسة الامريكية نتيجة احلالهم محل الجيل القديم، وهؤلاء يعود لهم الفضل فى مشروع التسوية العربية الاسرائيلية (!).

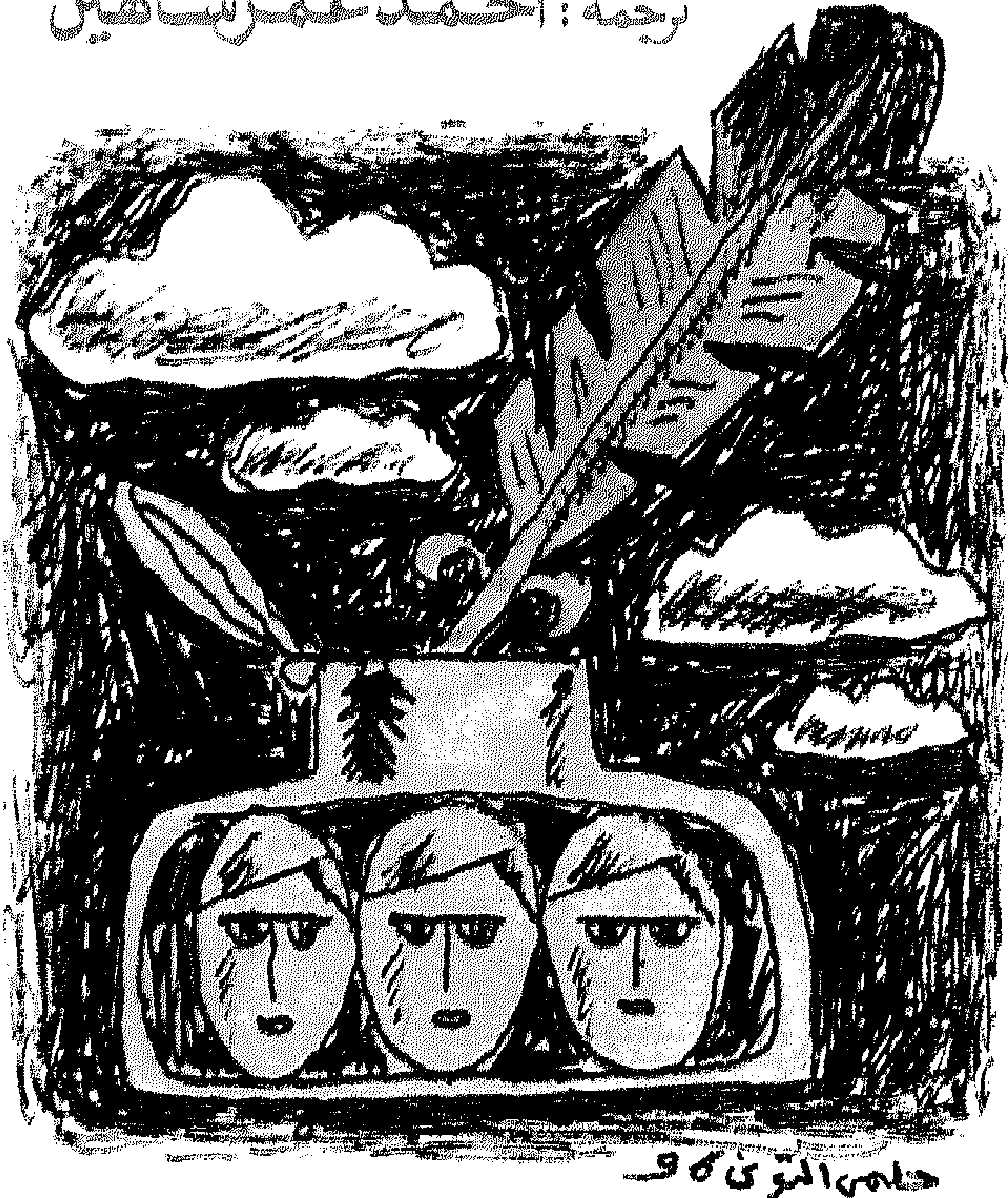
وعلي العكس تماما ، فالمستعربون الجدد الذين يؤيدون مواقف اسرائيل على طول الخط ، هم العقبة الرئيسية فى تحقيق السلام ، وهم الذين يصادرون على امكانية قيام علاقات متينة بين الولايات المتحدة والدول العربية .

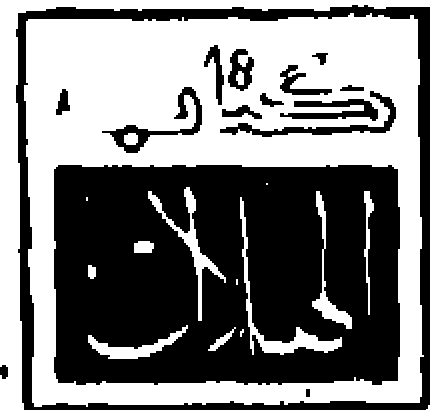
ولا يمكن إلا ويثير هذا الكتاب التقدير بكمية المعلومات التى جمعها المؤلف، والذى قام جزء اساسى فيها على الارشيف الشفاهى للخارجية الامريكية، الذى يسجل كل من عمل فى موقع تجربته وخبرته.

كتابة القصة القصيرة

تأليف : هالي بيرنت

ترجمة : أحمد عمر شاهين





KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٧ – صفر – يوليو ١٩٩٦ No-547 Ju -1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٦٠٠٠ ليرة – الأردن ٢٣٠٠ فلس – الكويت ١٥٠٠ فلس – السعودية ١٠ ريالات

كتابة القصة القصيرة

بقلم

هالى بيرنت

ترجمة

أحمد عمر شاهين

دار الهلال

هذه ترجمة كتاب

On Writing The Short STORY
By: Hallie Burnett
Barnes & Noble Books
U. S A 1985.

الغلاف للفنان
حلمى التونى

تقديم

لماذا كتاب عن القصة القصيرة ؟

يبدو أنه أصبح ضروريا، بين حين وآخر، التأكيد على البديهات، خاصة فى مجال الإبداع الأدبى. فلكل مهنة أصول وقواعد، ولا يمكن ممارساتها إلا بعد درس واجتهاد، ومعرفة البدايات صعودا إلى الوقت الحاضر. وإلا، هل يتخيل أحد أن من الممكن ابداع الكمبيوتر دون معرفة سابقة بالأسس العلمية التى قام عليها؟ لكن فى الأدب – خاصة القصة والرواية والنقد – يبدو من السهل أن يقتحم كائن من كان هذا المجال لمجرد أن يقال عنه أنه كاتب، دون أن يعطى هذه المهنة حقها من الجهد والعمل.

والحقيقة أن ما دفعنى لترجمة هذا الكتاب، مجموعة قصصية قرأتها أخيراً، يخيل إلىّ أن كاتبها لايعرف عن القصة القصيرة أكثر مما يعرف نجار عن مهنة الطب، مع احترامى لمهنة النجارة ، فهى مهنة مبدعة فى ذاتها. تبحث عن الجيد وسط ركام المئات من القصص التى تنشر، فيتأكد لك أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة فى سوق الأدب. والسبب الكسل والاستسهال وشهوة أن يكون المرء كاتبا.

نُشرت عن القصة القصيرة، عدة كتب بالعربية، بعضها مؤلف والآخر مترجم، كل منها يحمل وجهة نظره الخاصة، فى هذا الشكل المرن من الفن. ولا أزعم أن هذا الكتاب يفضلها، لكنه على أية حال، أحدثها فيما أعلم (١٩٨٥)، ثم أن مؤلفته عملت فى مجال القصة القصيرة كاتبة ومشرفة على مجلة «القصة Story » الأمريكية لمدة تقارب الأربعين عاما ، نشرت خلالها آلاف القصص ، واكتشفت عددا لا بأس به من كبار الكتاب المعاصرين. ولاشك أن خبرتها فى هذا المجال لايستهان بها، وهى تعترف بأن القصة القصيرة فن مراوغ، ومحاولة شرحها والتعريف بها، كمحاولة وصف مرآة لشخص همجى لم ير مرآة فى حياته ، وأن الخبرة بالقصة القصيرة تتأتى بالدرجة الأولى بقراءة العمالقة فى هذا الفن، لكن يبقى هناك خط أحمر لايمكن تجاوزه، حتى يمكننا اعتبار ما نقرؤه قصة قصيرة .

خط يتعلق بالأسلوب، والشخصية - دوافعها وحركتها - والبدايات وأهميتها ، ووجهة النظر التى تحملها القصة وماذا تريد أن تقول ، فقصة بلا وجهة نظر مع بناء فنى جيد لا تساوى شيئا كما يقول الناقد «وت بيرنت».

والمؤلفة فى كل ذلك، متفتحة العقل، تستشهد بآراء العشرات من كتاب القصة القصيرة، ولا تتحيز لاتجاه دون آخر، مادامت القصة

جيدة، سواء كتبت بالطريقة التقليدية المسماة بالقصة القوس Arc Story التى تكون ذروتها فى منتصفها ثم يقودنا المؤلف إلى الحل بالتدريج حتى النهاية، أو قصة مكونة من عدد من الذروات كسلسلة جبلية، أو قصة التجلى Epiphany كما أسماها جيمس جويس وهى التى تتبلور فيها الفكرة وتتضح فى الصفحة أو الاسطر الأخيرة من القصة ، أو فيما يسمى بالقصة الحديثة، حيث تكون الفكرة مسيطرة من البداية للنهـــاية المفتــوحة غالبا ، دون ذروة أو تجلٍ ، ويطلق عليها Flat story .

ومازالت القصص تكتب بهذه الطرق الأربع، التى تشكل مراحل تطور القصة القصيرة منذ البدايات حتى عصرنا الحالى.

★★★

وقد اختارت المؤلفة أن تلحق بكتابها ست قصص أمريكية، تطبيقا لوجهة نظرها، بأن قراءة القصة أكثر أهمية للكاتب من التنظير حولها، ولقد سمحت لنفسى أن استبدل بأربعة منها، قصصا موازية مماثلة من بلدان أخرى ، معتمدا فى ذلك على اختيارات مجموعة من النقاد لأفضل القصص التى نشرت فى بلد ما، من السلسلة التى أصدرتها دار «بنجوين» للنشر بعنوان : كتابات جديدة من ....»

وأرجو ألا أكون قد تجاوزت.

والله ولى التوفيق.

المترجم

الفصل الأول

ما هى القصة ؟
وكيف تكون قصاصا ؟

للقصة القصيرة وجوه كثيرة، وحالات وأشكال متعددة، مثل كل شيء إنساني، وهى أول وأكثر الأنواع الأدبية طبيعية واستمرارا، كما أنها أكثر الفنون ديمقراطية ، فكل فرد يمكنه أن يحكى قصة، وإذا كانت قصة جذابة، فلابد أن يصغى إليه شخص ما فالقصة الجيدة تختزل في داخلها جوهر الدراما والخبرة الانسانية عامة ، ولأنها قصيرة، وفى الصميم، فقد تركز على لحظة، أو سنة ، أو حياة كاملة، تقدم من خلالها المواقف المتوترة، أو الساخرة ، المرحة أو المأساوية، البديهية أو المعقدة، وسواء كتبت بالانجليزية أو الفرنسية أو الاسبانية، أو بأى لغة أخرى، فان كاتبها عن طريق التكثيف الدرامي، والذكاء والصدق الفنى، والجدية والسخرية ، يمكنه في زمن وجيز أن يثير ويمتع، يشد ويتحدى، القراء والمستمعين على السواء.

والقصة القصيرة كما نعرفها اليوم ، تطورت من جذور نمت من الاساطير اليونانية وخرافات أيسوب وحكايات تشوسر، والحواديت الفرنسية والايطالية والالمانية، والصور القلمية لواشنطن إرفنج ثم قصص هوثورن وإدجار ألن بو ، وميلفيل، ومارك توين ، وموباسان وتشيخوف وهنرى جيمس ، حتى العصر الحديث كما عند همنجواى واندرسن وفيتزجيرالد وكاترين آن بورتر، وفوكنر ، وجون ابدايك، وجون شيفر، واكونور ومالامود وايودورا ويلتى، حتى وصلت إلى كل هؤلاء الكتاب الجدد الموهوبين الذين تفعم أعمالهم واقعنا المعاصر بالحيوية والفهم.

فما هى القصة القصيرة؟

يعرفها أرسكين كالدويل «بأنها حكاية خيالية لها معنى، ممتعة بحيث تجذب انتباه القارىء، وعميقة بحيث تعبر عن الطبيعة البشرية». ولايهم الاتجاه الذى تقود إليه انتباه قارئها مادامت ممتعة وجذابة، فإن ما يهم القارىء حسب رأى تشيخوف «هل تشده القصة وتصدمه وتمتعه؟ هل تبعث فيه شعورا بأنه قد خاض تجربة أكثر عمقا من تجاربه الخاصة؟».

بينما تعرف الكاتبة الامريكية الشهيرة كاترين آن بورتر القصة من وجهة نظرها ككاتبة «على القصة القصيرة أن تقدم فكرة فى المقام الأول، ثم وجهة نظر ومعلومة ما عن الطبيعة البشرية بحس عميق، وفى

النهاية يأتى الاسلوب». ومع ذلك فان العنصر الاساسى الذى يحدد كل ذلك هو القصة نفسها.

كتب أحد الناشرين ذات مرة، إلى «بول جاليكو» مؤلف قصة «الأوزة البيضاء» وهى قصة شهيرة عن الحرب العالمية الثانية «لا تهمنى خلفيتك مهما كانت إذا استطعت أن تكتب لى قصة جيدة».

ولقد قيل أن كل شخص لديه، علي الأقل، قصة واحدة يرويها، قصته هو، لكن الكاتب لابد أن يكون لديه قصص أكثر بكثير من قصته الخاصة، قصص عن أصدقائه وأقاربه وكل من قابله من الأطفال والكبار والغرباء، ومن خلال التنوع الساحر للعواطف والعقول والأفعال، يمكن للكاتب أن يتحقق، إذا أراد أن يكون كاتبا بالفعل وعن طريق التمرين وشحذ الموهبة، تتحول هذه المادة التى بين يدى الكاتب إلى عمل فنى يجد فى النهاية جمهوره الخاص. إن الكاتب لا يكتب لنفسه فقط، برغم أن الكتابة تشبع ذاته أولا ، إلا أن القصة لا تعتبر كاملة إلا إذا وجدت صلتها بعقل القارىء.

ويذكرنا «سومرست موم» بانه لا شىء يحدث فى حياة الكاتب ولا يمكن استخدامه في القصة . ويمكننى أن أضيف بأن لا أحد من صديق أو عدو أو غريب يرد على وعى الكاتب إلا ويستحق الملاحظة والتفكير . وهكذا فإن نقطة البداية فى البحث عن مادته القصصية تكمن فى

تجاربه الخاصة وعلاقاته. لكن تبقى الموهبة وحدها فقط، هى التى تصوغ عملا فنيا من اللحظات المأساوية أو الفكاهية ، المملة أو التنبؤية التى لاحظها أو شعر بها الكاتب فيما حوله من حيوات.

وقد كشف «شيروود اندرسون» فى حكاياته المبكرة، للعديد من الكتاب ، كيف يمكن استخدام مايبدو لنا متناثرا ولا تربطه أية رابطة فى حياتنا اليومية، فى نسيج قصصى جميل ، من خلال التجارب التى تحدث لنا أو أمام أعيننا وتلك التى تبرق حولها بغير توقع.

كانت التجربة فى قصص «اندرسون» غالبا ما تكون عن صبى ينمو فى محيطه الصغير محاولا أن يفهم نفسه وأقرانه، متصرفا بشكل مزعج فى معظم الأحيان، فيما يقابله من حوادث غير متوقعة فى الحب والحياة. وهى أحداث كان قد لاحظها الكاتب، ثم سجلها بعد ذلك فى قصصه. إن الكاتب الموهوب هو الذى يبدأ مبكراً، وبشكل خاص جدا، بملاحظة مثل هذه الامور، واختزانها ، حتى بلا وعى ، فى بنك ذاكرته، ليستخدمها فى المستقبل.

وهناك قصص قصيرة مؤثرة، نتجت عن الاستخدام الجرىء للخيال المبالغ فيه . وقد كتب «أنتونى ترولوب» فى سيرته الذاتية :

«كنت أبدأ دوما ببناء قلاع ثابتة فى الهواء فى خيالى، لأسابيع أو لأشهر وحتى لسنوات.. وتعلمت من هذه الطريقة أن احتفظ بالاهتمام

بالقصة الخيالية.. ، وأقعد على عمل خلقته منفردا بخيالى الخاص، وأشك أنه لولا تدريبى ذاك.. لما كتبت كتابا واحداً» . وهذا يقودنا، نحن كتاب القصة إلى حقيقة جوهرية لم ينتبه إليها أحد بدرجة كافية، وهى قوة ايماننا بالقصة التى نكتبها. على الكاتب أن يؤمن بعمق بما يقوده إليه خياله، وبما يكتبه، وعليه أن يتدرب بشدة حتى يوقف الشك والارتياب وعدم الإيمان بما يفعل . عليه ألا يهتم بما يكتب فقط ، بل عليه أن يؤمن بلا جدال بأنه يعيد خلق الحقيقة، وأن الحقيقة الخيالية فى قصته هى الحقيقة ذاتها، ولا يدع مجالا لأحد فى أن يرتاب بغير ذلك. إذا كتب المرء قصته بأقصى ما يمكنه من الايمان بعمله، فان القصة ستصل إلى القارىء بالايمان نفسه الذى كتبها به.

هذا الاهتمام الحيوى بالايمان بما نكتب هو نوع من الاتفاق أو المؤامرة بيننا وبين القارىء يبدأ عادة بمعرفة النفس ليمتد بعد ذلك لمعرفة الآخرين، وبشكل عام فإن هذه العملية حتمية فى تقييمنا لكل ما يجرى حولنا، مع ملاحظة أن الحق الذى نعطيه لأنفسنا من مشاعر التعاطف أو الفهم أو الاسف أو التقمص لابد أن يكون فى اعتبارنا، كحق للآخرين أيضا من أصدقاء وأحباء وأعداء ، حين نلاحظهم ونكتب عنهم . فهذه هى الطريقة الوحيدة التى تجعل القارىء يتجاوب مع شخصيات بعيدة كثيرا عن تجربته الفعلية، وبهذا الشكل استطاع كُتّاب

مثل كافكا أو تنيسي وليامز أو تشيخوف أن يكشفوا لنا جميعا أسرار الجنس البشرى وأعمق الحقائق عن أنفسنا.

وإذا كان هذا الانغماس ناقصا فى عملك، فان قصتك ستترك فى القارىء أثرا فاترا، وربما يشعر بالزيف والتصنع فى كل ما تقول، لأنها خرجت منك دون اقتناع عاطفى حقيقى، ويستطيع القارىء بذكائه وادراكه أن يضع يده على هذا البرود فى قصتك، ويحس النقص فى التزامك الحقيقى نحو عملك، بالضبط كما يَجفل الجمهور المتذوق الموسيقى حين سماعه لنغمة شاذة أو فى غير موضعها.

إن الملاحظة التى ابداها الرسام «روبرت هنرى» إلى تلاميذه، تصلح للكاتب أيضا، فقد قال: «لكى يكون الفنان ممتعا للآخرين، لابد أن يكون فى البداية ممتعا لنفسه، وأن يكون قادرا على الشعور المكثف والتأمل العميق، وسواء قصد ذلك أم لا فإن كل ضربة فرشاة هى تسجيل دقيق لحالته فى اللحظة التى يقوم فيها بالعمل».

إن ملاحظة «روبرت هنرى» العميقة، بأنه لا انفصال هناك بين الفنان وعمله، وأن الفنان، بمعنى ما، هو عمله، قالتها بشكل مختلف الممثلة الكبيرة «ايثيل باريمور» إلى الممثلين الشبان: «تعلموا كيف توسعوا أفقكم، يوما بيوم وسنة بسنة، فكلما أحببت أشياء أكثر، واهتممت بأمور أكثر، وتمتعت بمسرات أكبر، وغضبت من أشياء.. فان

ذلك يتيح لك فرصة أكبر للتوحد مع ابداعك.. ويعدك بشكل أفضل لتصبح ممثلا جيداً أو فناناً أو كاتباً، فالأمر هو نفسه بالنسبة للفنان مهما كان الفن الذى يمارسه ، فالحقائق الانسانية التى نبدعها أو نعيد خلقها، والقصة التى نسردها، أو المسرحية التى نمثلها لابد أن تكون حقيقية تماما فى ذلك العالم الخاص الذى نفخر بأن نسميه عالمنا الفنى.

ولقد قال عالم النفس «كارل يونج» الشىء نفسه ولكن بشكل آخر.

فقد قال «إن الافتتان هو المفتاح. فحين تجد نفسك مفتونا تماما بشىء ما فباستطاعتك، إذا كنت مسيطرا على المبادىء الاساسية، أن تستخدمه فى توسيع موهبتك وتجويد ابداعك».

هذا الافتتان لا يتركز عادة على الشىء العادى، أو الذى يمكن فهمه بسهولة، كما فى التجربة التى يخوضها الانسان بنفسه، بل يتركز على الغريب والعجيب الذى يجذب انتباهنا ، ومنه نعمل لتوسيع فهمنا ومداركنا.

بعض الكتاب يضطر مكرها للكتابة عن المرأة، لكن د. هـ لورنس الذى أحب النساء، استطاع أن يكشف خفايا أفكار المرأة وردود الأفعال فى شخصيتها بدقة، وهى التى تصعب على كثير من الكاتبات أن يعبرن عنها إلا فى سيرهن الذاتية، وقد كتبت بعض النساء بفهم ملحوظ عن الرجال، وكثير من الجنسين فشل فى التعبير كتابة عن الجنس الآخر.

وقد يكون عالم الطفولة غريبا عند بعض الكتاب الذين تركوه وراءهم، لكن بعض عمالقة القصة القصيرة استطاعوا أن يسترجعوه ويعيدون خلقه ثانية، كما فعل د. هـ لورنس فى قصته «الفائز بالحصان الهزاز»، أو الكاتبة «كاترين مانسفيلد» في قصصها التى أعادت فيها خلق عالم طفولتها فى نيوزيلندا، وقدمت لنا عالم الاطفال الخيالى ببصيرة نافذة لم تكتب من قبل.

ولقد تخطى «ج. د. سالنجر» حدود العمر والنوع الأدبى بشكل كبير، حتى أن أحد النقاد قد كتب «إنى لا أحب «سالنجر» فهو يخبرنا بأكثر مما يجب، بأكثر مما نريد أن نعرف». لقد قدم لنا بموهبته الفريدة شخصيات طفولية ليس من السهل تمييزها فى عالم البالغين، ومع ذلك نصدقها بدرجة كبيرة.

إن معظم القصص التى نذكرها لأى جيل، سواء القصص القصيرة أو الاكثر طولا فى شكل قصة طويلة، تبدو دائما وقد تطورت تطورا طبيعيا من لحظة مكثفة شاهدناها فسحرتنا وتطابقنا معها شخصيا فى معظم الأحيان، مثل قصة سكوت فيتزجرالد «الجوهرة الكبيرة»، أو قصة «ثلوج كليمنجارو» لهمنجواى ، أو «موت ايفان ايليتش» لتولستوى ، أو قصة توماس مان «الموت في البندقية»، فكل منها لها أصلها أولا فى حساسية الكاتب لربود أفعاله ومشاعره، ثم فى قدرة خياله على البدء

فى الحدس والادراك، وأخيرا تطوير كل ذلك إلى عمل فنى من خلال المهارة والمنطق الخاص بالعمل والعبقرية الفردية.

إن القصة القصيرة الجيدة، تبدو لغير الكاتب، كالزواج المثالى، من السهل تحقيقه، لكنها بالنسبة للكاتب قضية أخرى - من الحب والشك والرغبة والنزاع والعمل والثقة.

قال «روبرت فروست» مرة «كل جنرال يخوض معركة، يود أن يحصل على أكبر قدر من المعلومات قبل أن يتقدم. وكل خسارة أو مأساة تحدث لك أو تواجهها يكون سببها نقص المعلومات».

وهذا يصدق على الكاتب فى كل مرحلة من حياته. فالاستعداد للمعركة لابد أن ينجز أولا، لكن قيادة الهجوم بمهارة، والتغلب على العقبات الأولية، والاستعداد لتقبل النتيجة سواء حققت النصر أو فشلت، فكل ذلك يرجع إليك. فالقصة القصيرة الجيدة هى معركة كسبتها ، وعليك أن تعد بنصر أكبر فى الغد.

إن خطواتك الأولى نحو الكتابة، قد بدأت على الارجح، منذ فترة طويلة قبل اللحظة الراهنة، ربما قبل أن تخط كلمة فوق الورق. والآن، وقبل أن ترهق نفسك بقراءة وصايا من سبقوك من الكتاب الذين نشروا انتاجهم فى المجلات والكتب، أو تنفق نقودك ووقتك فى حضور دورات خاصة أو الاستماع لمحاضرات حول كتابة القصة، تاركا وراءك ربما

زوجة وأولادا .. لابد أن تسأل نفسك بداية هذا السؤال: لماذا أريد أن أكتب؟ ما الذى يدفعنى نحو محاولة خلق عالم خيالى على الورق؟ بدل أن أصبح مدرسا أو مندوب اعلانات أو صاحب مكتبة أو عالم ذرة؟ ففى كل هذه الوظائف يمكن للمرء أن يجد علامات ترشده في طريقه، وأناسا أكثر ودا في مساعدته، ويستطيع أن يعيش حياة عادية معقولة، باختصار لماذا الكتابة ؟.

إن الرغبة وفرص النجاح يسيران معا فى معظم ما يقوم به البشر من عمل وجهد. أحصر كاتبا فى ركن. واسأله الاسئلة السابقة، فربما ردد كلمات روبرت فروست «لأنى لا أحصل على الاقتناع والاشباع الكافى إذا عملت عملا آخر».

إذا استطعت القول ببساطة أن الكتابة تزودك وتمنحك حالة أكثر اثارة للعقل من أى عمل آخر، وأن ما تسمعه من حديث يمتعك أكثر من الموسيقى، وأن للكلمات حين تكتبها أو حتى قبل ذلك، لها طعم الكافيار على اللسان، أو أنك حين تحل معادلات الكتابة ومشاكلها فى عملك فإنك تدمر أو تنقذ الكون.، آنذاك استرخ وخذ نفسا عميقا، واستعد لعمل شاق فى مهنتك المختارة.

قد تعيش حياة جيدة، حتى لو لم تصل كتبك لمعدل أفضل المبيعات وحتى لو لم ير زملاؤك النقد الجيد الذى كتب عنك ، بل النقد الذى

يسىء اليك، وحتى لو سألك أعز اصدقائك أو زوجتك لماذا لا تكتب الروائع فى ساعة أو أكثر قليلا بدل أن تمكث شهرا أو سنة فى كتابة ما تكتبه. ضع قناعا صلبا على وجهك فى مواجهة الاصدقاء والاقارب المنتقدين، خذ التجربة كما تأتى واستمر فى عملك.

ثم هناك البحث عن الحقيقة.

كتبت اليزابيث بووين «كل طفل يولد تقريبا، يرى أن العالم، بشكل ما، يحتاج إلى تفسير، ربما لا يعيش الكاتب حتى يتحقق ذلك الأمل».

فالكاتب ، أولا وأخيرا ، يؤمن بقوة وقدرة الكلمة المكتوبة على الكشف، ورغبته في أن يفسر العالم من خلال اللغة، من النادر أن تتركه.

وقالت جين مالاكويه ذات يوم لنورمان ميلر «إن الكتابة هى الطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة. والوقت الوحيد الذى أعرف فيه أن شيئاً ما حقيقى، هى اللحظة التى اكتشفه فيها أثناء الكتابة. أكتب لاكتشف ما أفكر فيه وما أنظر إليه وما أراه، وما يعنيه هذا الذى أراه، ما أريده وما أخافه، وما الذى يجرى فى هذه الصور التى تدور فى عقلى».

ويذكرنا «فان أوكنور» فى كتابه الجميل حول الكتابة «بأن القصة القصيرة يمكنها أن تجلى الحقيقة بطريقة لاتستطيع الرواية بمجالها الواسع أن تحققه».

لكن .. هل الرغبة فى الكتابة تكفى؟ كيف يمكننى أن أعرف أنى كاتب حقيقى؟

ذلك ما يسأله غالبا أولئك الذين يتحدثون ويكتبون ويحاضرون عن القصة القصيرة.

ما هى الصفات الاكثر جوهرية لأولئك الذين يرغبون فى النجاح؟

وكما فى كل شكل أدبى، فالإجابة السريعة سهلة نسبيا.

أنت لديك الرغبة، وتملك الموهبة، وعلى استعداد للتمرين والتدرب. اذن أضف إلى ذلك الإصرار والعناد فى مواجهة الرفض، وتمتع بعادة النقد الذاتى، والثقة فى النفس.. كل ذلك بشكل متوازن بالطبع. وتذكر دائماً بأن الكاتب إذا كبح ذاته الحيوية وتجاهل شيطان ابداعه الفريد، كما يقول «رديارد كبلنج» فإنه لن ينجح ولن يقرأه أو يذكره أحد. حين يسيطر عليك شيطانك الابداعى لا تحاول أن تفكر بوعى.. الق بنفسك فى التيار وانتظر وأطع كما قال كبلنج أيضاً.

لكن .. لا تلق بنفسك طويلاً ولا تنتظر طويلا، أسرع بالاستجابة لقوة الابداع فى اللحظة التى ترفع فيها رأسها.

الفصل الثانى

البحث عن قصة - الذاكرة والحبكة

اعتاد «وت بيرنت» أن يقول لتلاميذه فى جامعة كولومبيا «لا أعتقد ان بإمكانكم كتابة قصة قصيرة جيدة، دون أن يكون بداخلكم قصة جيدة. وأفضل أن يكون لديكم شىء تقولونه دون بناء فنى، على أن يكون لديكم بناء فنى دون شىء تقولونه» .

إذا افترضنا بأننا نود جذب انتباه القارئ، فالأهمية الأولى بالتأكيد «أن يكون لدينا شىء نقوله» ، وهذا أقل ما ندين له به ، فنحن نطلب منه أن يعطينا ساعة من وقته وتعاطفه أيضاً، فنحن كالممثلين على صفحة بيضاء دون رؤية أو صوت، والحكم النهائى متروك له.

وإذا فشلت قصتنا - أو تمثيلنا - فى أن يمتعه ويشد اهتمامه، ويثير بعض العواطف لديه، فإنه لن يرغب فى قراءاتنا ثانية.

وهكذا فإن المشكلة التى تواجهنا فى البداية: كيف نعرف أن لدينا قصة تستحق أن تروى؟ هل يمكننا التأكد أن القصة أو الشخصية أو الحادثة أو الحالة التى لدينا لها الوزن والمعنى الكافى لتستحق أن تسرد.

لسوء الحظ، لا يمكن التأكد من ذلك تماما ، لكن يمكن القول بأنه باستيعاب تجاربنا وملاحظة أنفسنا وأقراننا من البشر، ثم إدراك حاجتنا لتوصيل ذلك إلى القارىء من خلال القصة القصيرة، واعتنائنا الكافى باللغة بحيث تكون كل كلمة، مقنعة فى موقعها ، حتى قبل أن نضعها على الورق، بمعرفتنا لكل هذه الأشياء، قد نصل إلى درجة معينة من الاقتناع بموضوع قصتنا .

قد يبدو ذلك سهلا، لكنه بالتأكيد ليس كذلك.

فالكاتب الجاد لابد أن يتكلم بصوته الخاص لا بتقليد أحد سبقه، ولابد من أن يعمل لابداع صورة لرؤيته الفريدة، بحيث تبدو كلماته على الصفحة نضرة كالطفل الوليد.

وهذا لايعنى أن تكون الفكرة وبالتالى الحبكة والاحداث وخلفياتها جديدة تماما، فالطبيعة البشرية لم تتغير كثيرا عبر القرون، لكن تجربة كل فرد فى الوجود فريدة فى حد ذاتها، والقصة القصيرة الجيدة لابد من أن تبدو وكأنها تخبرنا بشىء طازج له معنى - دون استعارة ملابس كاتب آخر أو ارتداء ما اشتراه شخص آخر - تأتى بعد ذلك مشكلة تقرير أى الشخصيات والتجارب والأفكار المتراكمة فى العقل المتشوق للعمل.. يمكننا استخدامها؟ أى قصة سنسرد؟ وأين يجب أن نركز اهتمامنا .

الكاتب «أنتونى ترولوب» يعترف بأنه لم يعرف قط أين ستنتهى قصته حين يبدأ ، كما أن الحبكة لا تكون واضحة فى ذهنه تماما قبل الكتابة.

وتحدثت الكاتبة اليزابيث بووين ببلاغة عن «عين الكاتب الطوافة، التى ترى كل شىء بحالة اندهاش وتساؤل دائم. ولذا فليس من الضرورى أن يبحث الكاتب عن موضوعه، فهو كالطفل ، دائماً فى حالة من الحساسية سريعة التأثر بأى شىء، بل أكثر من ذلك فإن الموضوع هو الذى يجد الكاتب. فأى شىء تقريباً قد يجذب انتباه الكاتب ويمسك بخياله ويثير فيض سرده، عبارة سمعها صدفة، صدى حادثة وقعت فى شارع، وجه أو شىء يلح عليه ، أو رد فعل ذاتى ضئيل لحادثة عالمية قريبة.. الخ».

الافتتان مرة ثانية هو المفتاح الأساسى الذى يثير الكاتب فى أية لحظة ليبدأ رحلة الاستكشاف التى تضع القصة القصيرة فى أفضل شكل لها، وإذا كان المشهد المعد يهز الذاكرة للقيام بانشاء العلاقات، فإن مهارة الكاتب الخاصة ولا وعيه وانشغال ذهنه وحواسه بموضوعه، كل ذلك يتولى عملية السرد لتبدأ مرحلة الابداع. فالسرد المسلسل للأحداث لا ينتج سوى الصحافة فقط، لكن إذا تضفر ذلك مع ذاكرة حساسة، فقد يكون الناتج فنا آنذاك.

وحين تبدأ الكتابة تدهشك الذاكرة بنزواتها في تخزينها للصور والعبارات في الذهن. وجه معين ، ومشاهد لا يربطها رابط، وأحداث تبدو خارج الصدد لاهتمامات المرء الحالية ..، وتأمل لأسباب قيام شخص ما بعمل لا يعني له شيئاً، وتساؤل عن حيوات أناس غرباء.. لماذا يطفو كل ذلك فجأة على السطح؟

لا شيء يمر عبر وعي الكاتب دون فحص أو إنعكاس على هذا الوعي.

لا شيء سبق أن صدمك أو أدهشك، آلمك أوسرك، يمكن أن ينسى ببساطة. الوجوه التي تمر بك في الشارع ، لابد أن تتذكر بعضها بوعي أو بلا وعي، وسجلت بعض صفاتها، كشكل الجسم أو طريقة السير، الملامح الخارجية، أو الانطباع بالعصبية أو الهدوء، أى شيء صغير من هذه الومضة الصغيرة العابرة.

ويوما ما ستستعيد ذلك حتى لو لم تكن تقصد، وقد تكون نسيته تماما، لان ذهن الكاتب مخزن ووسيلة من خلالها تتجدد الحياة كل يوم، ومن خلال الربط بين المخزن والوسيلة يبدع الأدب..

وقد تشعر ككاتب أن هناك نوعا من الخطة فى كل هذا، وأن الذاكرة المعنية للكاتب تقصد أن تربط ذكريات مخزونة وصرأعات غير محلولة فى نسيج واحد. بدون هذا النوع الخاص من الوعى بكل ما مر بنا فى

حياتنا، وبدون إدراك لأثره على الحاضر، وبدون هذه الذاكرة النوعية، فمن الارجح ألا يكون الكاتب ناجحا . لم أعرف كم يمكن أن تكون الذاكرة ثمينة حتى لو كانت متقلبة، إلاّ بعد أن بعت قصتى الأولى «الصيف الثامن عشر».

كانت القصة تقوم على حادثة وقعت فى فترة مراهقتى المتأخرة ، وقد بدت لى آنذاك غير مهمة على الاطلاق. ومع ذلك ، بعد أكثر من عشر سنوات ، حين ظننت أنى قد نسيت الحادثة، والظروف التى سببتها، تعرضت لظروف مشابهة، وفجأة انتبهت الذاكرة وطفت القصة على السطح، بل إنها كتبت نفسها تقريبا، وبعمق وعاطفة أكثر مما توقعت. وحين منحت فى ذلك العام جائزة أو . هنرى عن تلك القصة، علّق الناقد الراحل «هارى هنسن» أحد محكمى الجائزة ، بشكل محبب على معالجتي لردود أفعال مجموعة من الشباب تجاه أحزان فتاة صغيرة، مع أننى فى وقت الحادثة الاصلية لم أع جمهور الحفلة على الاطلاق، وفى الواقع أن كل الشخصيات التى ابدعتها لم تكن حاضرة فى الحادثة الأساسية ولكنى سحبتها من الذاكرة لوجوه أخرى لاحظتها فى سنوات لاحقة.

أحيانا نكتب القصة من الذاكرة باعتمادنا على الأحلام، وهذه القصص ليست دائماً ناجحة. فقد رأى زوجى مرة حلما وهو فى المستشفى، فقام فى الساعة الثالثة صباحا ليكتب، وفى وقت متأخر من

اليوم التالى قرأنا ما كتبه فوجده كلاما فارغا . لكن ليس الأمر كذلك فى كل الأحوال ، فلقد كتبت الكاتبة الفرنسية «كوليت» وهى فى الحادية والثلاثين من العمر، قصة عن حلم كان يتكرر عن اختطاف جنسى واجهته فى سن الرابعة عشرة. كانت المادة قوية التأثير حتى أن القصة تطورت إلى رواية ثم إلى مسرحية ناجحة، ومن المحتمل أن «كوليت» مثل غيرها من الكتاب، لاتستطيع القول أين ابتعدت عن الحقيقة وأين سيطر الخيال.

إن ترتيب أجزاء الذاكرة، والابداع والخيال ، وكل ذلك هو الذى يكوّن المادة التى نعرفها جميعا باسم الحبكة، وهى فى الغالب أساسية للقصة . ومع ذلك فإن الحبكة الزائفة أو المصطنعة المقبولة ظاهريا غير مقبولة وتسمى «حيلة قصصية» ، ولسنوات ليست بعيدة، لم يكن أى كاتب جاد ذى ضمير يرضى بأن يقال عنه : أن حبكته مفتعلة . وفى الواقع لقد أصبحت مثل هذه الصفة بغيضة حتى أصبح بعض الكتاب يتجاهلون الحبكة كلية، ويضربون بعرض الحائط بالتسلسل المنطقى للسبب والنتيجة، ودراما التناقض الضرورية لامتاع القارىء، لدرجة تبعث على ضجر المتلقى من واقعية غامضة لاتفيده إطلاقا .

مازالت الحبكة ضرورية للقصة، كالعصب الذى يجرى بطول يرقة الحشرة ، يوجه حركتها وتقدمها نحو هدفها . الحبكة وسيلة للحفاظ

على حركة الشخصيات وشد مشاركة القارىء إلى نهاية القصة، وهى الحبل الذى نعلق عليه حب الاستطلاع والتشويق والدراما والسلوك البشرى والاحساس بالزمن . وبدون الحبكة فمن الارجح ألا يهتم القارىء كثيرا بمتابعة القصة إلى النهاية .

يقول البعض : إن الحبكة تبين قدرة الكاتب على التفكير فى اتجاهات متعددة فى الوقت نفسه ، مما يحافظ على تطور قصته ، وهى تشير أيضاً إلى أن حدود الخيال قد امتدت إلى ما وراء الحقائق والأحداث المعروفة ، وهو ما يميز القصة القصيرة عن التحقيق الصحفى.

هناك بعض القصص قد أخذت كلية عن أحداث حقيقية ، لكن عند السرد فإن موهبة الكاتب قد تخطت المعنى الظاهرى للحدث لتستخلص معنى أعمق ، وتدور بحرية حول الموضوع مستخدمة الخيال لاصدار أحكام على الشخصيات أفضل من حكم أى شخص آخر .

المثل المألوف الدى ضربه أى . أم فورستر «الملك مات ثم ماتت الملكة» هو محصلة بسيطة لحقيقتين ، قد تكون ملاحظة صحفية فى موضوع تاريخى فقط . ومع ذلك ، حيث لا حبكة هناك ، فقد يتحفز كاتب ليفعل ذلك بخياله وحريته فى استخدام موهبته ، فقد يضيف «كانت الملكة بصحة جيدة حتى الاسبوع الماضى ، وكانت ستظل حية

إلى اليوم لو لم يسمم إياجو ذهن الملك تجاهها» وهكذا دخل شخص آخر في اللعبة ، ونريد أن نفهم كيف سمم «إياجو» ذهن الملك المحب للملكة . يذهب الخيال الآن في اتجاه مختلف ، مبحرا في الذاكرة وفي تجارب ماضية . فلابد للكاتب أن يستدعي شخصا غيورا تعذب بدرجة كبيرة بالشك الذى زرعه في ذهنه شخص آخر . وإذا حدث ذلك ، فقد يسأل نفسه ماذا لو تدخل شئ أو شخص آخر ... وإذا وإذا وإذا . وتصبح سلسلة التطور مشابهة لنمام أشر لا يوفر جهدا لإقناع الآخرين بأن القصة التي يرويها صادقة . وهكذا ، بالحبكة والكذب والتغاضي والتظاهر بالعواطف ، أمام أعيننا نحن القراء ، سنعلن اياجو ونقاسي مع عطيل ونرغب في التحرك لنناضل من أجل «ديدمونة» الضحية الجميلة البريئة التي جسدها شكسبير أمامنا ، ولو أخذنا العواطف المجر ¨ العارية في أية حبكة ، فإن أي كاتب يمكنه أن يستقرئ مئات القصص بإعادة ترتيب الأشخاص والأحداث .

يقول «ارنولد بينيت» في مذكراته أنه توقف عن كتابة القصة القصيرة لأنه وجد أنه في كل قصة قصيرة يكتبها ، يتخطى الحبكة ويتوسع ليكتب رواية أو مسرحية . وقد يرى البعض أن كثيرا من الأعمال الكلاسيكية المبنية على قصص قصيرة ، يمكن اختصارها لشكل أبسط من القصة بتخليصها من مرور الزمن الطويل ،

والشخصيات الثانوية المتعددة ، والاستطراد الجغرافى والفلسفى الذى تسمح به الرواية ، ومع ذلك فإن بعض الكتاب استخدموا قصصا قصيرة كفصول أولى فى رواياتهم ، وأكملوا بالخلفية ذاتها والشخصيات نفسها وحبكة أساسية مشابهة تماما للقصة القصيرة .

ولقد كتبت مرة رواية «هذا القلب الصياد» عن قصتى القصيرة «الاحتراق» فلقد بدا لى ان اهتمامات الشخصيات قد امتدت بعيداً عن شكل القصة القصيرة ، وكان لابد من توسيع الموقف الأصلى وتوابعه ، حيث أن الاسئلة التى ثارت كانت معقدة جداً ، ولا يمكن حلها فى قصة قصيرة ، برغم أن القصة كانت تبدو كاملة ومنتهية .

فإذا كانت الرواية تتعلق بنمو الشخصيات أو المواقف ، فإن القصة القصيرة هي لقطة درامية من نمو الشخصية ، أو شريحة من حياة مقتطعة من سياق كامل ، ومع ذلك ، يمكننا القول بأن كل شكل له حبكته .

وقد تكون الحبكة عن أشياء كثيرة ، الشخصية أو الخيال ، السخرية أو المنطق ، وغالبا عن غير المتوقع ، والحبكة لا تدهش القارئ فقط بل المؤلف أيضا . والحبكة الجيدة متعة لكل قارىء .

فما الذى يجعل من الحبكة حبكة جيدة ؟

الأكثر أهمية هنا هو التماسك والمنطق النابع من الحالة نفسها ، ثم وجهة النظر . فنحن لا نقترب من الشخصيات الثانوية المرحة بإجلال إلا إذا كان هدفنا السخرية ، ولا نخلق مشهد موت في جو من المرح إلا إذا كنا نملك موهبة كبيرة كمارك توين أو روسينى ، وليس معنى ذلك أن المعانى العميقة لا توجد فى الكوميديا ، أو أن المواقف المرحة لا تستخدم أحيانا من أجل الترفيه في القصص المأساوية ، لكن كما قال الكوميدى الكبير «ب جى . وودهاوس» إن الحبكة هى التى تحدد الجو الذى تكتب فيه القصة وليس العكس .

قد تأتى الحبكة ، كما قلنا ، من الذاكرة ، أو من ردود الفعل الذاتية للتجارب – فى الواقع لابد أن توجد بعض المشاعر والاحاسيس فى أى سرد خيالى – أو من موقف استفزازى شاهدناه أو قرأناه أو سمعناه (وشاية مثلا) ، وقد توجد الحبة فى الخبر اليومى – ليس فى الاحداث الكبيرة جدا التى تكون قد شبعت سردا وتحليلا – كفقرة صغيرة تتوافق مع بعض الأفكار فى ذهن المرء . أحداث صغيرة مؤثرة ، على حقائقها العارية يمكن أن يعمل خيالك .

لقد قرأت ذات مرة بالمصادفة فقرة صغيرة ، ظلت تعذبنى لعدم كتابتها سنوات ، مع أن امكانياتها كبيرة ، وقد كانت عن سيرك جوال أقام فترة أطول من المعتاد فى مكان ريفى ، وكان هناك عامل يجمع

الأشياء الخشبية غير المستعملة التى تستخدم كبدائل للعب السيرك والمراجيح الدوارة ، مثل الأحصنة والعربات والدمى ، كى يحزمها لتشحن إلى مدينة أخرى ، حين صادف فى العتمة وسط هذه الأشياء جثة رجل متخشبة ، ومن الواضح أنه قتل ، لم يعرف أحد من هو ، ولم يره أحد من قبل ، ولكن شخصا ما ألقاه وسط «كراكيب» السيرك .

مازلت أرى أنى لابد أن أكتب هذه القصة يوما ما ، أو ربما يفعل ذلك أحد القراء فيبدع مأساة ويعيد خلق حياة مؤثرة لرجل ميت . وقد كان كاتب قصص الخيال العلمى الشهير «راد براد برى» مثيرا للاهتمام بدرجة كبيرة وهو يتحدث عن حرفته وتكوين قصصه ، وأسرار صنعته ، وكيفية حصوله على الأفكار التى يمتلئ بها ذهنه ، التى لا تقل استفزازا عن القصص التى يكتبها ، يقول «حين أنظر إلى قائمة القصص القصيرة التى نشرتها ، استطيع تقريبا وبلا استثناء أن ألخص الحادثة التى كانت وراء كل قصة» ..ومثل معظم الكتاب المعاصرين فى شبابهم ، فقد كانت المكتبة العامة هى أفضل مكان يذهبون اليه ، لكن مع «براد برى» كان الأمر مختلفا ، فهو لم يكتف بقراءة واستيعاب ما كتبه العمالقة من قصص ، بل «كنت أطوف بين الكتب ، التقطها عن الرفوف ، أو أقرأ سطرا من هنا ، وفقرة من هناك ، اقتطف ، التهم ، اتحرك ، وغالبا ما كنت أغير النهايات التى كتبها

الآخرون لقصصهم لتناسب ما يدور فى ذهنى» . وحين بدأ يكتب ، أسمى طريقته تلك «الكر والفر والتدرب على القصة القصيرة» وكان ينفعل جدا بما يفعله .

يتضح فى قصص «براد برى» الخيال الصادق الساحر الذى يقيم علاقات غريبة ومذهلة بين الصور والأحداث العادية . انظر إلى قصته «الوحش ذو الأربعين قامة» وكيف واتته فكرتها ، يقول : إنه كان ينظر من نافذة غرفة نومه ذات ليلة ، فرأى على البعد الهيكل العام لقطار من قطارات مدينة الملاهى ، وفى غبشة المساء بدا الشكل مرعبا وشريرا حتى أنه ظن لوهلة أنه شئ آخر ، شئ حى وخطير ، فأوحى له ذلك بقصته عن عامل الفنار الذى يشاهد عنف حب وحش البحر .

ولقد كان تولستوى هو الذى قال : «إن الكاتب الجيد هو الذى يستطيع أن يكتب قصة كاملة من شجار عابر رآه فى الشارع» أو ظل الكاتب متيقظا لنزوات خياله ، فإنه بمجرد أن يشاهد فوضى الشجار ، يمكنه أن يذهب ليكتب قصته دون أن يمكث حتى النهاية . وإذا قرر بينه وبين نفسه كيف ستكون نتيجة قصته ، فإن ذلك قد يحث خياله لابداع بدائل أخرى أثناء الكتابة ، يختار منها الممكن والأكثر إمتاعاً .

لنفرض ان كاتبنا رأى رجلين يتشاجران ، ولهما القوة نفسها ، ويحيطهما جمهور يشجعهما دون تحيز ظاهر لأى منهما . أو يشجع أحدهما لمعاقبة الآخر الذى سرقه مثلا ، أو قد يكون الاثنان محتالين

ويقومان بعراك زائف في شارع مزدحم لالهاء الجمهور ، بينما رجل ثالث أو امرأة ، لم يرها إلا خيال الكاتب ، تدور برشاقة لسرقة الحضور، أو أن سبب العراك هو الغيرة على امرأة ، وقد يتخيلها الكاتب واقفة في حد النوافذ العلوية تصرخ وتولول . مهما كانت النتيجة فإن القارىء يود أن يعرفها ، انها الشخصيات التي تشدنا النهاية .

قال الكاتب جان هجنز «في أعمالي المبكرة وقعت في مصيدة التفكير بالحبكة أولا ، ثم أخلق الشخصيات لتحقيقها . الآن ابدأ بتصور، ثم أخلق الشخصيات وأدعها تقوم بتصرفاتها الطبيعية وعمل الحبكة كما تحدث في الحياة» .

مهما كان مصدر الهامنا ، أو منبع قصصنا ، لابد أن نتأكد أننا نتبع منطق الشخصيات ، ونحافظ على ذلك إلى النهاية .

تقول الكاتبة «اليزابيث بوين» : إن الشخص المتأمل فقط لن يكون كاتبا ، لأن لحظات التأمل لابد لها من مخرج ، فمداومة ملاحظة حيوات الآخرين واستغراقه في مراقبة الرجال والنساء ، وحبهم وآلامهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، لن تتركه وحده .. وستشغل كل وقته ، فلابد للكاتب أن يجلس إلى نفسه ويتمعن في نشاطات خياله الخاص ، ليلعب اللعبة حسب قواعد هذا الخيال .

أنذاك سيجلس إلى مكتبه ليكتب ما يستحق أن يكتب ، ويجد متعة في ذلك أيضاً .

تقول «كاترين آن بورتر» : «إن الكتابة لا تستثنى الحياة الكاملة ، إنها تطلبها» . وهى الطريقة المثلى لأن نؤكد ثانية بأن كتابتنا لابد لها أن تكون فى النهاية ذروة كل التجارب والعواطف التى مرت بنا ، والأفراد الذين عرفناهم .

الفصل الثالث

الشخصيات

كتبت الروائية «ربيكاويست» مرة : «ما أحب أن أفعله حين أكتب هو تأمل الشخصية ، سواء كانت الشخصيات الخاصة التى ابتدعها فى رواياتى وقصصى القصيرة ، المبنية على تجربتى الخاصة ، أو بدراسة التاريخ أو الشخصيات الأخرى التى ابتدعها الآخرون » .

وهو ما يفعله كل كاتب بالطبع ، فما الإبداع الروائى والقصصى إلا دراسة وتأمل لشخصية المؤلف والآخرين ، فى تشابهها واختلافها ، وأحلامها ، ونجاحها وفشلها والأخطار التى تتعرض لها ومصائرها فى النهاية . وسواء كنا نستكشف الحياة على لسان المتكلم والمونولوج الداخلى، أو من وجهة نظر شخصيات أخرى، فإن ما يعنينا قراءته وكتابته، هو الحياة كما تؤثر علينا وعلى الآخرين . وليس هناك مثل القصة القصيرة فى تصوير الشخصية فى أحد حالاتها وفى أقصى لحظات الكشف .

فكيف يمكننا إذن ، أن نستقر على الشخصية التى نقوم ببنائها فى قصتنا؟ أقول الشخصية وليس الشخصيات ، متذكرة تحذير «شين أو فاولين» بأن أية قصة قصيرة تبنى بالدرجة الأولى على الاهتمام بشخص واحد ، والتركيز على دوره المعين فى الحياة . فالشخصية ، كما يرى ، هى التى تشد عواطفنا كالعاصفة » .

ويقول «سومرست موم» : لا أحد يمكنه خلق شخصية من الملاحظة فقط، ولكى تبدو الشخصية حية، فلابد أن تكون ، لدرجة ما، ممثلة لشخصية المؤلف» .

وقد قالها «اندريه موروا» بالشكل التالى: نجد شخصياتنا عادة بواسطة الاوتار المترددة الموجودة داخل كل فنان ، تبدأ فى الاهتزاز حين يرن موضوع مشابه ليوقظها» .

هذا «الرنين المشابه أو المماثل» ينطبق فى البداية على أشخاص عرفهم المرء جيدا ، أحبهم أو كرههم على مر السنين ، وهم بدورهم تردد أصداؤهم ، بشكل ما فى أفراد آخرين ، قابلهم أو لاحظهم ، وفى كل ذلك تتركب الشخصية الابداعية بحيث تبدو كأننا لم يسبق أن شاهدناها ، ولأن كل فرد لا يشبه الآخر فى الحياة، فلابد أن يكون الأمر بهذا الشكل فى العمل القصصى، فتحمل الشخصيات، بطرق صغيرة لاتخطئها العين ، بصمة المؤلف وذاته الفريدة المعقدة.

فالشخصيات الكرتونية الهشة المنسوخة عن الآخر ، أو الرومانسية الرخيصة المبنية على كليشيهات الفضائل والفضائح، لاتستحق أن يكتب المرء عنها ، فهى لاتحتاج مجهودا أو التزاما ما إلا أقل القليل عند كتابتها ، وتجدها فى أفلام الدرجة الثانية أو بتمثيليات التليفزيون المسماة «أوبرا الصابون» ، وهى لاتجد إلا استجابة كسلى فى اللحظات التى تسبق النوم والمرء فى حالة تعب وهبوط .

وعليك أن تثق فى تلك النغمات المترددة، التى تطرق بابك ولم تعرف كنهها بعد ، ففيها يكمن جوهر الشخصيات التى ستخلقها فى رواياتك وقصصك القصيرة ، ولتكن أول نغمة على وترك وجه أنت تسكنه، شخصية تثير اهتمامك بشكل ما ، قد تكون امرأة رائعة من طفولتك بدت لك متوهجة بالجمال والطبيعة الهادئة ، وأضف اليها النغمة التالية، امرأة أخرى لها ملامح ومظهر المرأة الأولى ، واضبطها فى لحظة تتشاجر فيها مع زوجها ، أو تقسو على طفلها ثم أضف النغمة الثالثة ، لامرأة تبدو للوهلة الأولى متناغمة مع المرأتين السابقتين ، لكنك تراها مغمورة وفاجرة فى بار أو حانة، وهكذا تجد أن اللحن كله قد تم ، وحلت المشكلة فى الذهن .

ولقد اعترف «نورمان ميلر» بأن نصف شخصياته الخيالية ، كانت لها نقطة مفارقة مع شخصيات حقيقية ، كما أننى لا أحب الكتابة عن

أناس قريبين مني، فذلك صعب ، فحقيقتهم وواقعهم الخاص يتداخل بشكل كبير مع الواقع الذى يحاول المرء خلقه ، وأفضل ان ارسم الشخصية عن أناس بالكاد أعرفهم ».

فكل الشخصيات لها بداية مافى الواقع الحقيقي، وغالبا ما نعتقد أننا نعرفها ونفهمها ، أو فشلنا فى فهمها ، ونأمل بعملية الكتابة أن نعرفها أفضل ، ومن الطبيعى أننا نكتب بشكل أفضل إذا كتبنا عن محيط أو بيئة نألفها بشكل كبير .

قال «وت بيرنت» لتلاميذه من الكتاب الشباب «ابدأ بملء خزان خيالك بكل ما يمكنك أن تجمعه من شخصيات فى حياتك، لتستخدمها في المستقبل ، وحين يمتلئ الخزان، افتح البوابات ودع الفيضان يسيل لما أنت على استعداد له، وحين تفعل ذلك ، أفعله بجرأة» .

ويقول فلوبير « على الكاتب أن يكون مختفيا فى كل مكان فى عمله ، كالإله فى السموات» وعلى الكاتب أن يرى أكثر ويهتم أكثر بحيوات الآخرين ، من الانسان العادى، بحيث يمكنه أن يرى التشابه فى الشخصيات المختلفة، التي لايبدو عليها ذلك فى الظاهر .

إن الكاتب عادة يكتب عما يعرفه ، فمارسيل بروست كتب عن المجتمع الراقي، وقد كتب مرة «إن تصوير سلوك الملكة كسلوك الخياطة يعتبر خديعة من الكاتب. ان الوسط الأكثر صلاحية لعمل الكاتب الذى

يريد معالجة العواطف والوجدان والمآسى فى تطورها الكامل، هو المجتمع الراقى، ففيه تكمن الأسباب التى تسمح بأن تأخذ هذه الأمور مداها، ثم أن لغة هذا المجتمع غنية بدرجة كافية تجعلهم يعبرون عن أنفسهم بشكل جيد» . بينما اختار جوجول ان يعبر فى معظم أعماله عن الموظفين الصغار الذين عمل معهم، كما اختار «موباسان» العاهرات الفرنسيات اللواتى زودنه بالتسلية والترفيه من وقت لآخر ، واختار «تشيخوف» ان يكتب عن الاطباء والمدرسين الذين يعرفهم بشكل أفضل. ولقد كتب فنانو القصة القصيرة العظام دائما عن مجموعات لاتستطيع التعبير عن نفسها ، وفعلوا ذلك بحمية وجهد، لأنهم يشعرون بتعاطف خاص مع أفراد تلك المجموعات .

وقد كتب تشيخوف يوما لا ينبغى للكاتب أن يكون قاضيا يحكم على شخصياته وحواراتها ، ولكن يجب أن يكون شاهدا غير متحيز .

انظر الى كتابات «فوكنر» تجده لايتحيز ، وتبدو شخصياته على كلا الجانبين مليئة بالحيوية: إن عائلتى سنوبس وسارتورس لايربط بينهما الكثير فيما عدا الجوار ، وكل عائلة ترتكب الأخطاء فى حق الأخرى .

فى قصته الممتازة «حرق الجرن» ينزعج الولد «سارتى سنوبس» من الصراع بين العائلتين ، وهو يشعر أن القيم الأكثر تحضرا لعائلة سارتورس هى الأصح أن تُتبع ، لكنه فى الوقت نفسه يتمزق بالولاء

لأبيه المخمور الحقود الذى يرى أن وسيلته الوحيدة لتأكيد ذاته هى حرق أجران ملاك الأرض الذين زودوه وعائلته بالعمل والمكان الذى يعيش فيه.

في المشهد الافتتاحى لقصة فوكنر ، يبدو «سارتى» مضطربا مترددا ، مشوشا وخائفا ، وفى محاكمة والده لحرق الجرن، يشير الفلاح الضحية من منصة الشهود إلى سارتى قائلا «أريد الولد الصغير للشهادة ، فهو يعرف» . وكان سارتى «يبدو صغيرا بالنسبة لسنه ، نحيلا وقويا كأبيه، يرتدى «جينزا» باهتا مرقعا ضيقا عليه، شعره نافر وغير ممشط ، عيناه رماديتان وحشيتان كالسحب الخفيفة، بدا الرجال بينه وبين منصة القاضى كزقاق طويل من الوجوه الصارمة يقبع فى نهايته رجل عجوز بلا ياقة يلبس نظارات ويشير إليه » .

ومن الآن فصاعدا سيهتم القارىء بهذا الولد وتؤجل المحاكمة ، ويأمر القاضى «آل سنوبس» بمغادرة المدينة . عند الخروج من المحكمة، يشتم غلام والد سارتى، ويتعارك الولدان ، ويوقفهما آل سنوبس ، وكان الوالد «يرتدى معطفا ناشفا أسود، ويمشى متصلبا قليلا بهيئته النحيلة، وعلى بعد منه سجان يحمل بندقية ، كان قد قبض عليه عند فراره على حصان مسروق منذ ثلاثين عاما». فى هذا الوصف للرجل، أعطانا الكاتب دليلا آخر على شخصية الأب بالرجوع إلى الحصان المسروق ،

ونرى فى العربة التى ستقلهم ، والدة «سارتى» تبكى، محاطة بممتلكاتها القليلة البائسة ، وساعة لا تعمل ، تقف عند الثانية وأربع عشرة دقيقة ليوم منسى وزمن مجهول » . وتتضح شخصية الأم البائسة عند مقارنتها بالأختين الضخمتين ، البليدتين ، بشرائطهما الرخيصة المرفوفة ، والعربة تشق طريقها لتجد لهم كوخا آخر فى مزرعة أخرى .

وحين يجدون المكان ، يذهب «سارتى» مع أبيه للتعرف على صاحبة الأرض ، ويمسح الأب قدميه عمدا فى سجادة بيضاء داخل البيت ، ويبدى الخادم الزنجى احتقاره لهما ، وحين تظهر صاحبة الدار «لم يرها سارتى من قبل بهذا الشكل .. فستان رمادى ناعم بدانتلا عند العنق، ومريلة مربوطة على وسطها ، واكمامها مشمرة، وتمسح عجينة بسكويت عند يديها» وأمرتهما بغضب أن يخرجا ويأخذا معهما السجادة لتنظيفها ، أخذ أبوه السجادة ليفسدها فى اليوم التالى بمحلول قلوى رخيص للتنظيف .

فى هذا الوصف المختصر ، انبثقت ثلاث شخصيات بحدة ، الاب الكبير سنوبس الذى نراه الآن يتسبب فى الأذى ثانية حين تتاح له الفرصة، الخادم الزنجى الذى يشعر بتفوقه على الأب، ثم سيدة البيت التى هى على نقيض كامل من والدة سارتى ، بتمثيلها للرشاقة والحياة المدنية .

فى المحكمة ثانية، أمر الاب سنوبس أن يدفع لمالك المزرعة عشرين مكيالا من القمح من أول محصول له ، ويعرف «سارتى» أن أبيه سينتقم حين يقول له «اذهب الى الجرن واحضر صفيحة الزيت التى نزيت منها العربة» . جرى الولد إلى الاصطبل مفكرا «يمكننى أن أجرى وأجرى ولا أنظر خلفى ، فأنا لا أحتاج لرؤية وجهه ثانية لكنى لا أستطيع .. لا استطيع » .

وحين تمرد أخيرا ، كان الوقت قد فات لإنقاذ الجرن من الحرق أو أبيه من الجريمة .

ها هنا شخصية تتطور من خلال صراع داخلى وتراكم الضغوط على ولد مراهق ، بحس متنام من المسئولية تجاه أبيه، وأيضا تجاه الآخرين . ولقد جعلنا فوكنر نفهم هذا الصراع بإظهار الصبى بعدة أبعاد : طاعته العمياء لوالده ، قلقه من نتيجة غضب أبيه ، وثورته ونضجه حين هرب بعد ذلك .

ولقد كتبت كاترين آن بورتر «سر بصحبة شخصياتك كأنك تراها بعين خيالك تعيش وتتطور كأنها فى الواقع ، ثم إحك قصتها بكل الصدق والتعاطف الجدية قدر ما تستطيع » .

وهذا هو كل ما فعله فوكنر فى قصته .

فى قصة شروود اندرسون «موت السيدة فولجر» ، لدينا حبكة تدور حول شخصية مفردة واحدة .

السيدة فولجر لا تؤمن بالحياة بعد الموت ، وزوجها وابنها الواعظ وكل من يحيطونها كانوا يؤمنون بحماس بالآخرة ولكن السيدة فولجر فقط والراوى بضمير المتكلم ، الذى هو المؤلف ، هما اللذان يعتقدان بأن «الحياة تشبه الزهرة أو الشجرة أو البيت أو الكلب» وهذا كل ما فى الأمر . وقاومت السيدة بعناد، حتى آخر حياتها ، كل محاولات عائلتها لتغيير معتقدها .

وكان على «اندرسون» أن يخلق مكانا لهذه الشخصية المشاكسة ، وهكذا أسكنها بيتا فى الضواحى بيتا وراء الكلية عند حافة المدينة، بيتا من الطوب واسعا وقديما ، تمتد أمامه ساحة مليئة بالأشجار وجرن كبير ويعيش بالقرب بعض من اساتذة الجامعة واثنان من المحامين كلاهما غير متزوج، ومحرر فى جريدة وطبيب أسنان عشرة أو اثنا عشر رجلا مع ثلاث أو أربع نساء ، والكل مدرسون ، تحذر السيدة «فولجر» الراوى من واحدة من النساء ، خوفاً عليه من الوقوع فى حب امرأة أكبر منه ، وهذه هى اللقطة المرحة الوحيدة فى فكرة القصة كلها .

اتخذت القصة شكلها النهائي ذات ليلة ، حين دعت السيدة «فولجر» الراوى إلى حجرتها ، سألته فى معرض الحديث هل يؤمن بحياة بعد الموت، ودون أن يكون قد عرف وجهة نظرها ، يقول لها معتذرا ، بأنه لا يؤمن بتلك الحياة، وهكذا أصبحا صديقين ، وتموت السيدة أخيرا

كشخصية قوية، مصرة على معتقداتها حتى النهاية فى قصة مثيرة دافئة عن امرأة في بلدة صغيرة .

وهكذا تسير الأمور مهما كانت جنسية الكاتب، وإذا سبق لك أن عشت فى مجتمع صغير ، فمن الارجح أنك عرفت كثيرا من العجائز اللواتى يشبهن «السيدة فولجر» ، وتحب أن تروى قصصهن ، فملاحظتك جيران عن كثب ، وتذكرك لما رأيته أو سمعته يسّهل عليك وضعهم فى قصة ومواقف تتخيلها لهم .

ونصل هنا إلى موضوع النميمة والقيل والقال ، وإنى أعتقد أن الأصل الحقيقى للقصة القصيرة يوغل بعيدا فى الزمن ، وإلى حبنا جميعا للقصص التى تروى عن جيراننا ومعارفنا أصدقاء وأعداء ، فى القرى والمدن الصغيرة والكبيرة على السواء ، تذكر حكايات «كانتربرى» وحكايات بوكاشيو الشريرة عن أشخاص محترمين فى الكنيسة والدولة، الذين يظهرون غير مايبطنون ، ويبدون على غير حقيقتهم ، وفكر فى افتتاننا المتواصل بحيوات وحب الممثلين والممثلات ، والسياسيين وزوجات الرؤساء السابقين - افتتاننا بمظاهر وكوامن الأفراد أنفسهم.

فى الكتابة الصحفية، من الأفضل أن تكون كلماتنا حقيقية، ويمكن التأكد من صحتها ، وإلا وجدنا أنفسنا فى ورطة قضائية ، لكن فى

العمل الأدبي الخيالي ، لايضرنا أحد أن نروى الحقائق كما هي ، بل كما نراها ونتخيلها معتمدة على تلك الحقائق .

كيف ستبدو قصتنا آنذاك ؟ ذلك يرجع إلى درجة تعاطفنا وفهمنا أو إدانتنا وغضبنا من الأحداث ، ولعبة خيالنا ، فقد نكتب قصة لمجرد الرغبة في الكشف عن الحقيقة الكامنة في موقف ما ، كما قال «روبرت فروست» مرة «لأرى ما أشعر آنذاك » ، ونحن في «صدقنا الفني » قد نزيف أو حتى نشوه الواضح من الأمور ، حيث أن خيالنا يعمل مع لاوعينا وحدسنا ، شوقا لتزويدنا بما وراء الحقائق الظاهرة .

دعنا ، مثلا ، نتناول زَوجة أحد النواب في البرلمان، فنحن نشك منذ فترة أنها مدمنة على الخمر. ولم نعرف قط أنها تحت العلاج، أو تقضي أسابيع في مزرعة كبيرة لتخفض وزنها، وتقول الشائعات أنها شوهدت في عشاء رسمي تقوم بحركات سخيفة لاتصدق ، وفي مقابلة تليفزيونية كانت يداها ترتعشان لا تستطيع السيطرة عليهما، وكان لها سقطات عديدة ، وقد لوحظ في عشاء رسمي أن خدوشا غامضة تغطي ساعديها. وهكذا فإن احتمالات الخيال هنا تبعد كثيرا عن الحقائق ، وقد تتطور لتصل إلى أي اتجاه يريده المؤلف. وسواء كانت الشخصية الخيالية تعامل بتعاطف أو بإدانة ، فذلك من اختصاص المؤلف ، فقد يرى أن لاشئ حقيقي من كل ما قيل ، وأنه «مفبرك» من خصم سياسي

ذكى فى حزب منافس ، وقد تكون هذه هى القصة ، ظلم وقع على ضحية بريئة . وقصة كهذه فرص رفضها من الناشر أو المحرر واردة ، فعدم لوم الشخصية النهاية السعيدة يمكن أن يفسر بأنه خيال سطحى، وأقل اقناعا من النهاية المأساوية ، ولكن ألا يمكن لكاتب آخر أن يرى فى زوجة النائب شخصية مأساوية؟

امرأة حملت فوق طاقتها وخيالها بحيث سقطت فى رمال متحركة لم تستطع تحرير نفسها منها ، أو امرأة تحسد زوجها على نجاحه ، وتغار من تأثيره على الآخرين خاصة النساء ، وبلا وعى كانت تأمل أن تسبب له فضيحة بأعمالها ، فى قصة كهذه قد تكون هناك عدة ذرى - جمع ذروة - صغيرة مبنية على شخصية المرأة وحدها ، ولكى يجعلها الكاتب مقنعة ، فعليه أن يبرز كلامها ومظهرها وتأثيرها على الآخرين ، لابد من خلق شخصية يؤمن القارئ بتفردها ، ولا يخلط بينها وبين شخصية أخرى .

وهناك عنصر آخر فى الشخصية يتعلق باختيار الأسماء .

ولقد كتب اندريه موروا مرة ، « إن الحياة تبدأ بالأسماء» وسيشعر الإنسان بالتأكيد بأنه عريان ومجهول اذا سحب اسمه منه . لكن بالنسبة للكاتب ، فإن الاسم الذى يختاره للشخصية ، ليس هو الاسم الوحيد المناسب لها ، ولقد عرف عن الكتاب أنهم يغيرون أسماء

شخصياتهم فى منتصف العمل مع تطور الأحداث والاتجاهات أثناء عملية الكتابة . فالأسماء المحلية لاتصلح للتعبير عن شخصيات لها سمات أجنبية . كما أن الكتاب يستبعدون الأسماء الخيالية التى تستخدم بشكل رئيسى فى تمثيليات التليفزيون ، حيث على المشاهد أن يتعرف بسرعة على الشخصية التى رسمت دراميا بعجلة أمامه، كذلك يفضل البعد عن الأسماء التى توحى بالثروة والجمال أو القسوة ، ولابد أن تكون الأسماء مناسبة لخلفية قصتك الدينية أو الثقافية المهم أن تجد الاسماء المناسبة لشخصياتك ، واستقر على الاسم الأكثر ملاءمة لصاحبه ، أو لشعورك الخاص بألفتك مع الشخصية ، ولا مانع من الاستعانة بدليل التليفون .

ان تطور الشخصية يرتبط بالطبع بوجهة النظر التى تبنيتها لقصتك فإذا كنت تروى بلسان إحدى الشخصيات ، فالأمر يبدو سهلا فانت تركز على أفكار ومشاعر ذلك الشخص، فنقل احساس شخصية واحدة يبدو سهلا خاصة إذا كنت تروى القصة بضمير المتكلم ، ففى النهاية نحن نعرف أنفسنا أفضل .

ولقد أشارت «ايفى كومبتون» ذات مرة قائلة اعتقد أننا نعرف عن الآخرين أقل مما نظن ، وستكون صدمة كبيرة أن يجد المرء نفسه خلف عين شخص آخر .

ومع ذلك، فإن المدخل الموضوعى لضمير الغائب قد يسمح بمدى أكبر فى الاقتراب من عقول ونيات الشخصيات الأخرى فالسرد بضمير

المتكلم لا يتيح فرصة للرؤية فى كل مكان ، إلا عن طريق السماع ، لكن بدون ضمير المتكلم ، يمكنك أن تغطى وجهات نظر عديدة بما فيها الراوى العليم بكل شئ فى قصتك.

قبل أن تبدأ بالكتابة عن شخصية ما، أية شخصية بما فيها أنفسنا، لا تهم وجهه النظر، بقدر أهمية البحث عن الدوافع والاسباب لتصرفات الشخصية بالحماس نفسه الذى ينتاب كلبا يبحث عن عظمة مدفونة يعرف أنه سيصل اليها. يجب ان تستحوذ علينا الشخصية، ويجب أن نركز ما نعرفه عنها فى السرد، بحيث يشعر القارئ فى نهاية قصتنا أن أى تفسير آخر لما قدمناه لن يكون ممكنا .

ولكى نفعل ذلك لابد أن نتحرك بابداع خلاق فى القنوات التى حفرناها للشخصية، كما قال الفرد كازان عن سنكلير لويس .

ولقد قال إليوت : أفكر فى الشخصية والحوار .. ثم اتطلع بعد ذلك للبناء.

الحوار له أهمية كبرى عند القارئ فالحوار أو الحديث هو ما يميزنا عن الثدييات الأخرى، كما انه هو الذى يميز بين شخص وآخر، اقرأ بصوت عال الحوار الذى تكتبه لشخصياتك، ونغم الايقاع كالممثل على خشبة المسرح، واشعر كيف يمكن للكلمات ان تترابط او تصل وتقطع وتبين الحب والعاطفة والشك وعدم الثقة أو الصداقة ولاحظ بعناية كيفية

ترتيب كلماتك بالطريقة التى تريد أن يكون عليه ايقاعها بعد أن تكون قد استمعت لها جيدا وهى تنطق فى ذهنك . كذلك دع فرصة للصمت والتردد فى حوارك واشطب بلا رحمة الكلمات الزائدة، والبدايات البطيئة جدا، والجمود والتكلف والوعى بذاتك، واليك الملاحظات التالية التى قد تساعد فى بناء الشخصيات وتضيف الى البناء الفنى فى قصتك.

١ - يمكنك اضافة الحيوية والصدق والشرعية على شخصياتك بان تدع شخصيات اخرى تتحدث عنها بشكل جيدٌ أو ردئ بتعاطف أو نفور قبل ان تظهر فى المشهد أو بعده.

٢ - قف خارج شخصيتك وانظر داخلها ثم ازحف وتقمصها.

٣ - انظر الى ردود أفعال شخصياتك وتبريراتها، فى سلوكك انت حاول ان تجد اخطاء او فضائل او عادات مشابهة داخلك، وحاول ان تفهمها جيدا، حتى ولو لادنتها.

٤- جرب هذه الوسيلة الخيالية: ضع صفات شخصية ما فى جسد شخصية أخرى، اعط فستان احدى السيدات لسيدة أخرى، اعط اطفالاً لامرأة لا تنجب الاطفال وانظر كيف يؤثر ذلك على شخصيتها، لاحظ سلوك انسان فقد من يهتم بهم، او واحدة فقدت من كانوا يهتمون بها.

تذكر، قبل كل شئ ان القصة القصيرة يمكن ان تعالج كل شيء : الانسان رجلا أو أمرأة أو اطفلا، الحيوان والطير، وكلما بحثت بصبر أكثر وشحذت انتباهك بحب، ستكون كتابتك أفضل.

قال ترولوب «فى آخر يوم من كل شهر فان كل شخص فى القصة الخيالية لابد أن يكون قد كبر شهرا أيضا».

نحن نمضى مع شخصياتنا حيث تقودنا ، وبما أن الزمن يترك بصمته علينا، فلابد أيضا أن يترك بصمته عليهم.

الفصل الرابع

الأسلوب

يقول «روبرت لويس ستيفنسون» : إن الأسلوب هو أساس فن الأدب . كما يقول الناقد الانجليزى كوينتن كرسب «بالأسلوب تكتشف نفسك ثم تقدمها إلى العالم لتقول ما تريد قوله » .

ولقد حذر أندريه موروا قائلا : « أن تكتب معناه أن تكشف نفسك»، وهذا أكثر ما يخشاه الكاتب الشاب ، لكن عليه أن يقبله بمجرد أن تبزغ طموحاته الأولية للكتابة .

ولقد كتبت كاترين آن بورتر « إذا كانت لك شخصيتك الخاصة فلابد أن يكون لك أسلوبك الخاص » وتضيف «ويتطور هذا الأسلوب بتطور أفكارك وبزيادة معرفتك بحرفتك » .

فالقراءات التى قمت بها، والمشاهدات التى راكمتها واستوعبتها من الحياة نفسها ، تُخزن فى ذهنك بانسجام يعتبر خاصا بك ، ومن هنا فإن أى شئ وكل شئ يصبح جزءا من أسلوبك وطريقتك الخاصة فى

التعبير . كان «ويت بيرنت» الذى كرس حياته لفن القصة القصيرة ، يهتم كثيرا بالأسلوب ، يتعرف عليه مبكرا عند الكُتَّاب الشباب، في محاضراته اليهم ، يحترم أصوله ، ويشجع تطوره ، ويؤكد عليه كأحد العناصر الأكثر أهمية فى حقيبة موهبة أى كاتب ، ولقد قال «إن أفضل الأساليب هو أقلها ملاحظة ، وأفضل من ذلك هو الأسلوب الذى لا يعترض تدفق المادة التى يقدمها الكاتب » .

فى مجلة «القصة Story » التى حررناها معا لفترة طويلة ، كنا نقول «القصة تأتى فى المقام الأول» ، ومع ذلك بفحص أكثر من ألفين من القصص التى نشرت على صفحات المجلة خلال أربعين سنة ، اتضح أن قليلا منها هو الذى نجح ، دون أن يحمل صفات المؤلف الفردية ووجهة نظره الشخصية والفريدة ، أى أسلوبه الخاص ، برغم أنه يكتب بموضوعية شديدة ، فالمطلوب هو أن يترك أسلوبه الشخصى الانطباع الأول على ذهن القارئ ، بايقاعه ودلالاته الخاصة .

فما هو الأسلوب إذن الذى يبدو بمظاهر متعددة لدى كُتَّاب مختلفين؟ ومتى وكيف يطور المرء أسلوبه ؟ وكيف يمكن أن نعرف أننا نكتب كلاما صحيحا لغويا ونحويا ومع ذلك فهو ميت أسلوبيا ؟

لقد كتب أى . بى . وايت «لا يوجد هناك مثل مقنع للأسلوب الجيد ، ولا مرشد ناجع للكتابة الجيدة ، ولا يوجد لدينا ما يؤكد أن الشخص

الذى يفكر بوضوح يمكنه أن يكتب بوضوح ، لا مفتاح لدينا ، ولا توجد قواعد جامدة يمكن للكاتب الشاب أن يشكل بها منهجه ، فعلى الكاتب المبتدئ أن يقترب من الأسلوب بحذر مدركا بذلك أنه يقترب من نفسه وليس من الآخرين» .

ولا يوجد أسلوب صحيح وأسلوب خاطئ ، هناك فقط أسلوب يناسب شخصيتك ومعتقداتك وضربات قلبك ، وبالنسبة لأسلوب سرد القصة ، فلن يفيدك أن تضع فى اعتبارك أذواق وأذان الآخرين إذا أردت أن تطور شخصيتك الفنية الكاملة ، التى هى الأسلوب .

فى كل من القراءة والكتابة ، تعمل الأذن والعين ، فنحن لا نضع الكلمات على الورق فقط ، ولكن نسمعها ، بالمعنى والايقاع ، وباشعاعها العاطفى ، ولابد أن تتحرك كل حواسنا بالكلمات الفريدة الخلاقة الحساسة التى كتبناها أو قلناها منعكسة على الذهن.

ولقد كتب انتونى ترولوب «على الكاتب أن يدرب أذنه بحيث يكون باستطاعته وزن ايقاع كل كلمة بمجرد أن يخطها قلمه ، إن عادة الكتابة الجيدة ، تتوافر للكاتب شديد النقد لنفسه ، والتناسق يأتى من تدريب الآذان » .

ويعترف الكُتّاب والنقاد والمحررون بأن هناك أساليب مختلفة بعدد كُتّاب القصة القصيرة ، ولقد اكتشفنا على مدى السنين بأن كل قصة

نشرناها كان لصاحبها أسلوب مختلف . ولا تظن أننا نتكلم عن فترة معينة ، فنحن بدأنا نتلقى القصص منذ ظهرت مجلة القصة ، وعاصرت سنوات الانهيار الاقتصادى فى الثلاثينات ، ثم النازية والفاشية والحرب العالمية الثانية ، ثم حرب كوريا وفيتنام ، ثم جيل الغضب وتيارات المعاصرة فى القصة القصيرة ، وخلال كل ذلك كنا نستقبل كل أنواع القصص ونهتم بها جميعا ، وكانت هناك أساليب متعددة بتعدد القصص التى نشرناها .

فى الثلاثينات كان لقصة «وليم سارويان» ، «الشاب الجرىء فوق العقلة الطائرة» – وهى منشورة فى نهاية هذا الكتاب – صدمة أثرت فى كثير من أساليب الكُتّاب فى تلك المرحلة ، كان أسلوبه المكتوب ببلاغة خاصة به تتناغم بشدة مع طبول شخصيته ، يبدو جديدا وطازجا على المشهد الأدبى الامريكى ، كتب كيف أن بطله «مشى فى ضوء النهار متيقظا ومنتبها ، يثير ضجة بكعبيه ، مدركا بعينيه الوجود الظاهرى للشوارع والمنشآت ، الحقيقة التافهة للواقع ، وترنم بخور داخل نفسه « عبر الهواء وطار ، بسهولة كالطائرة ، الشاب الجرئ على العقلة الطائرة وضحك من كل قلبه» .

لم يعرف أحد تماما ماذا قصد سارويان بتلك القصة ، لكن القراء استجابوا عاطفيا لاحتفاء الكاتب بالحياة وبأسلوبه القوى الذى وضع الشاب بطل القصة فى موقع مؤثر عند القراء .

إن معظمنا يدين بالكثير لكُتّاب الجيل الاسبق الذين كسروا الحدود، وعبروا عن أنفسهم بحيوية متجددة ، فى القصة القصيرة . إن حرية «ساروريان» فى التداعى ، أصبحت أسهل بعد كتابات «جرترود شتاين» وبعد تحطيم جيمس جويس لعادات الكتابة القديمة ، وبساطة «شروود اندرسون» ، الذين أثروا بسرعة على كُتّاب القصة القصيرة الامريكية ، ومع أن أسلوب ساروريان كان أسلوبا خاصا ، قلب مفتوح وعينان واسعتان، وخيال جامح يفيض حيوية وبلاغة ، لكن لسوء الحظ ، حين كبر وجعلته تجربة حياته يشعر بالمرارة من العالم وسكانه ، فإن انجازاته بدت كأنها تجمدت عند شهرته المبكرة ، حتى أن «هنرى ميللر» كتب يقول « إن تطور ساروريان لا يسير فى الاتجاه الذى تخيله المرء ، لقد قفز الحواجز فى بداياته ، وتوقف عن عبورها فى أواخر أيامه . هو يجرى الآن ، وخطواته رشيقة وسارة ، ولكن كنا نتوقع منه أن يكون وعلا جبليا لا مهرا صغيرا » .

ولقد أصبح ساروريان مهما فى المشهد الأدبى لأنه أدرك مبكرا بأنه بكتاباته «يقترب من نفسه لا من الآخرين» وسجل ذلك فى أسلوبه الخيالى الفريد .

وهناك كاتبة مازالت كتاباتها تعتبر حداثية حتى اليوم كما كانت فى الثلاثينات ، وهى «كاى بويل» ، وقصتها «دواء ناجع» مبنية على فكرة لا

تتجح دائما ، ممثل شاب يقابل ممثلا عجوزا ، والمحرر يسجل ذلك اللقاء بمشاركة وحساسية فوارة ، وهى فكرة من النادر أن تكتب بشكل جيد (فعل ذلك مؤخرا «فيليب روث» فى قصته الطويلة الكاتب الشبح) ، كان أسلوب «بويل» يتميز بدقة الملاحظة وسخرية خفيفة تتطابق تماما مع الموضوع ، ومع مزاج عبقرية تحتضر فى أيامها الأخيرة تحت شمس ايطاليا الرائعة .

فى القصة «يجلس الممثل العجوز فى الشمس يلف نفسه ببطانية ويداه تستلقيان أمامه كفريبين ناحلين» ، كان غاضبا ، انفعاليا ، يعيش حياته باهتمام ، وفى مشاكساته السقيمة ، يأمل بطريقة مقلقة : « إن الشمس ستظل ساطعة حتى تحجبها الأشجار أسفل الممر فى الساعة الرابعة ، مثل شمسيات مفتوحة» وعلى «درابزين» السلم أمامه تبدو السيقان الجافة لنبات زهور الجيرانيوم :

«تحمل زهورها البيضاء متوازنة على أطرافها العليا مثل صف من النساء اللواتى يقمن بالغسيل متعبات ، ينحنين على شفر منحدر على الشاطىء» ، يكاد يقتله القلق وزوجته تثرثر فى الداخل مع المحرر الزائر ويسترجع ذكرى والده المتوفى ، عامل المناجم ، متذكرا كيف تركت آثار الحفر السوداء «بعضا من التجديف فى دمه» وتخرج زوجته مع المحرر ، الذى يبدو وكأن رأسه الرمادى الصلب يسد عين الشمس » لقد احضرا

للسقيم هدية من الحلزون الحي» . ويحتج بقلق بأنه لن يتحمل الحلزون الحي ، ويرتفع التوتر ، وتعود الزوجة الى البيت لتحضر زجاجة شمبانيا باردة ، وتفتحها وهو يراقبها «امرأة قوية ضخمة لن ينساها ابدا ، كما لن ينسى هلالى أبهاميها الرقيقين المدهشين المرنين وتقفز «الفلينة» لتضرب جبهة المحرر الزائر ، ويتغير مزاج السقيم بسرعة «نظرة خجلة حلوة من الحب بدأت ترتسم فى عينيه» ، سرعان ما يتغير مزاجه الطيب، ويهمس بيأس «أبى . أبى . لا أريد أن أموت» .

القصة مبنية بإحكام ، قصة بسيطة متعددة الأصوات ، تعد نموذجا لتكاتف الأسلوب والمادة فى يد كاتبة فنانة .

وقصة أخرى ، بأسلوب آخر ، كانت علامة مسجلة للكاتب «جس ستيوارت» ، ولقد أصبحت قصصه عن الناس العاديين فى «كنكتى» من الكلاسيكيات ، ومع أن هذا النوع من القصص قد يكون خادعا ، حيث يعتمد على الطرافة والحوار الذكي والمصداقية ، لكن فى حالة «ستيوارت» فإن أسلوبه فطرى يتفق مع مزاجه المرح ونظرته المتوازنة للحياة ، فلا تشعر بأن هناك مشهدا واحداً زائفا ، أو فكرة مصطنعة . حتى النقائص الطريفة التى يتعرض لها ، يستخدمها بطريقة جوهرية ويعالجها بصدق حتى ترن فى أذاننا مقنعة تماما .

فى قصته «الملابس تصنع الرجال» ، نقرأ عن الصديقين إيج ، وبيرجز اللذين يقطعان الأخشاب من الغابة للمنشرة فى الوادى ، ويروى

بيرجز كيف أن صديقه بدأ يضرب صدره صارخا «كوحش وحيد وسط المنحدرات الصخرية ، وكان يبدو بالفعل ، متوحشا » . ثم نظر الى الطريق تحته ، حيث تمر عربات كثيرة ، وبدأ يخلع ملابسه ويضرب صدره «بيده الكبيرة التى تشبه جاروف النار» مطلقا صرخات يتردد صداها وسط صخور الوادى البعيدة « كانت عضلات ساقيه كجذور الأشجار المتغضنة ، وقدماه الطويلتان كأقدام العدائين الرشيقة ، وكانت أصابع قدميه وكاحليه ضخمة فظة ، لقد رأيت الكثير من قاطعى الأخشاب ، ولكن لم أر أكثر توحشا من إيج » . ويصرخ إيج فى بيرجز «ترى .. هل رأى أحد فى هذه الانحاء انسانا متوحشا » ثم انتزع عظمة بيضاء من حيوان ميت منذ فترة فى الغابة ، ومضى يشق طريقه الى الطريق السريع صارخا «سأجننهم» . وقد فعل . فقد بدأت العربات تتوقف ، ويقفز منها الرجال صارخين منفعلين ، وكان بعضهم يحمل مسدسات يطلقونها فى اتجاه الهيكل العارى المشعر الذى يجرى على الطريق ، ولحسن الحظ فإن «ايج» عاد إلى الجبل واستطاع ارتداء ملابسه، حين وصل الشريف مع مساعديه . لم يشك أحد فى الحيلة ، وأخبرهما الشريف أن يحملا المسدسات لحماية أنفسهما من الرجل المتوحش، وفى اليوم التالى كانت الصحف مليئة بتفاصيل القصة . لقد استغفل «إيج» كل فرد ، وحين خفت الاثارة ، قال لبيرجز إنه يريد إثارة الأمر ثانية قبل أن تبرد النار .

ومرة أخرى ، خلع إيج ثيابه ، وحمل العظمة ، وجرى ينزل الجبل تجاه الطريق السريع ، وأصاب الذعر الناس مرة ثانية ، وتكرر اطلاق النار تجاهه من أصحاب السيارات ، ولكنه لم يستطع ، هذه المرة ، أن يعود الى الجبل بسرعة ويرتدى ملابسه قبل حضور الشريف ورجاله، وكان «إيج» حاضر الذهن ليقول للشريف : هل رأيته ؟ وسأله الشريف : من هو ؟ فأجاب : الرجل المتوحش الملعون . وزعم إيج أن المتوحش ضربه على رأسه بعظمة كبيرة وسرق ملابسه ، وانتشرت القصة ، والكل يضحك من «إيج» لعدم حمله مسدسه ولسرقته بذلك الشكل .

وهنا ، ثانية ، لدينا أسلوب يناسب حاسة المؤلف الفريدة لسرد القصة فى مجتمع أمريكى .

لقد ذكر أى . ب . وايت فى كتابه «عناصر الأسلوب» ، ذلك الكتاب الصغير المهم الذى كتبه مع وليم سترنك ، يقول :

« قبل أن تبدأ تأليف شئ ما ، اسبر غور مشروعك ومداه ، وابدأ بعمل تصميم مناسب ، يشى بتفاصيل البناء الذى تقيمه سواء كان من الطوب أو الصلب أو الكلمات » .

ولقد سبق أن قال فلوبير «حين يكون الشكل ناقصا ، فلا يعود هناك وجود للفكرة » كما قال «هورتنز كاليشيه» فى مقدمته الجميلة لكتاب «أفضل القصص الامريكية سنة ١٩٨١» : إن كثيرا من كتاب القصة

يبدنّون عصارات فنهم الاساسية فى طنين أجوف يتردد بين الواقع والخيال ، بالقائهم اشكالية القصة «مباشرة الى حجر القارئ المأمول ، ليقوم بتحليلها وفهمها ، وقد لا يشكرك على ذلك ، إلا إذا كان يحمل وجهة نظرك نفسها ».

فهناك كُتّاب اليوم ، يدخلون عالم القصة دون اهتمام واضح بالشكل ويتركون مهمة فهم عملهم للقارئ الذى يتوجهون اليه .

يقول الناقد برنارد بلاكستون «ان الاقتراب الشديد من المادة الخام، التى تشكل عناصر القصة فى عصرنا ، يضع الكاتب الموهوب دعك من العبقرى على شفا حفرة لتمتصه الدوامة ويضيع ، يضيع كفنان» مع أنه يسجل الحقائق والتجارب والمشاهدات بحذر ونظرة دقيقة ، وبلمسة من الشعر ، سعيا لكتابة قصة قصيرة جيدة ، ولا ينجح .

إحدى القصص الفائزة بجائزة أو . هنرى ، هى قصة « حجر بنى» لريناتا أدلر ، تتطابق مع رأى وايت السابق «فلا يمكن للكاتب أن ينغمس فى الواقع بعماء ، ويبدأ يسرد ببساطة الحقيقة وراء الحقيقة عن بطله ، لئلا يفقد الغابة من أجل شجرة ، ولا يوجد نهاية لعمله، فحتى الكتابة المغامرة غير المتريثة سنجد لها عند التدقيق خطة سرية سارت عليها » .

قصة «حجر بنى» ليس لها خطة ذكية ، تبدأ القصة بطيران خيالى ، لا يشبه الطيران فى قصة ساروبان ، فاحداث قصة هذا الأخير تتبع

بعض المنطق باحتفائها بالحياة ، قصة «أدلر» لاتبدو أن هناك علاقة بين أحداثها «طيران سفينة الفضاء أبوللو . الميل ذى الأربع دقائق . كوكب فينوس فى برج العقرب ، سجلات البشر على الارض وفى البحر ، كانت أحداثا فى غاية الأهمية » .

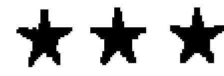
افترض ، أن هذا يعنى ، أن ما يتبع ذلك له أهمية أقل كما تقول الشخصية عن نفسها ، وهى امرأة شابة تذهب الى كثير من الحفلات ، تتصنت للوشايات والنميمة التى تدور هناك . كلام لا يربطه رابط وحكايات مقطعة ، بأسلوب يشبه أحاديث مائدة العشاء ، بين ضيوف لا يتوقع أى منهم أن يرى الآخر ثانية ولا يهتم بذلك . من الممكن أن تكون المؤلفة ضيفة مسلية على العشاء ، أو فى برنامج تليفزيونى ، لكن ، هل يمكن أن نعتبر هذه قصة ؟!

صحيح أن شكل القصة القصيرة قد أصبح مطاطا أكثر وأكثر فى الفترة الأخيرة ، وقد تقدم لنا التجارب الناجحة شيئا جديدا من حساسية الكاتب نحو موضوعه ، فقصة جويس كارول «الميت» تشبه قصة «حجر بنى» بأنها عن العلاقات البشرية فى عصرنا ، لكنها مكتوبة بعمق وعاطفة وبأسلوب مغامر جديد ، يعكس «لغة الطوارئ ، لغة القلق ، اللغة المكتملة بموضوعها» على حد تعبير أناتول بروبارد . إن قصة «الميت» قدمت عملا تجريبيا نجح فى تصوير الحياة الخاصة لفتاة بشكل

فنى . تبدأ القصة بهذه المرأة المتزوجة الشابة ، وهى تبتلع حبوبا من أجل ازالة التعاسة ، وحبوبا ضد الارق ، وحبوبا مخدرة لتسرع فى انجاز عملها ، تتخذ عشيقا هو جوردون ، وتشجع طالبا عصابيا حساسا ليكرس اخلاصه لها دون أن تدرك شدة افتتانه بها إلا بعد فوات الأوان ، « شعرها النحاسى يغطى وجهها بشكل مشوش ، وبشرتها تتخذ أحيانا لونا ذهبيا مشعا بسبب شمس الأصيل التى تتسلل من بين أغصان الشجر فى الجامعة ، أو بسبب انفعالها فى الفصل ، أو التفكير بعشيقها الذى ينتظرها بعد انتهاء الدراسة » .

وتحدث مأساة ، تضطر الفتاة الى الابتعاد ، فيعود العشيق جوردون لزوجته ، وتنطلق من زوجها ، وتكتب كتابا يبيع جيدا ، وتتخذ لها عشيقا آخر فى بلدة أخرى ، وتدعى لالقاء محاضرات فى كليتها القديمة ، وفى حفلة على شرفها تصدم حين تعلم أن الطالب الذى أحبها قد انتحر ، وتقابل «جوردون» عشيقها السابق فى الحفل ، ويذهب معها الى غرفتها كما فى الماضى ، ولكن وهما يقومان بفعل الحب يتراءى لها وجه زوجها السابق ينظر اليها بدهشة وذهول كما لو أنها تخونه ، ثم يختلط وجهه مع وجه التلميذ المنتحر ، ويضغط العشيق وجهه عليها فى الظلام حتى أنها لا تراه ، كان الفراش مكتظا بالناس ، وحين يسألها لا تستطيع الكلام ، وهكذا تنتهى القصة بأسى ذى طبيعة خاصة ، يبدو

للقارئ متوافقا مع العالم الذى نعيش فيه . ولم تكن ستنجح هذه القصة دون إحساس القارئ بأن المؤلف يعرف حدسا التأثير الذى يخلقه ويعتزم أن يخلفه لدى القارئ .



كثير من كُتَّاب القصة القصيرة ، حين يتعاملون مع العواطف، يسقطون فى الكليشيهات أو يبدون عدم الاخلاص ، أو يكتبون كأنهم ينظرون أو يتلصصون على الآخرين . لقد كتب عمالقة القصة ، عن العواطف، والعلاقات بين الجنسين ، وعن الحياة والموت ، قصصا لا تنسى . ولم يكن الأمر بالنسبة لهم مجرد تسجيل للأحداث ، انظر الى د. هـ . لورنس وقصصه المركبة ، وهمنجواى وقدريته وقصصه المصقولة وصدق وصراحة هنرى ميللر ، وحيل التداعى الحر عند چيمس جويس، كل ذلك يعبر عن التفرد الأسلوبى لهؤلاء الكُتَّاب بين أقرانهم.

قصة «الثعلب» لد. هـ. لورنس تحكى عن امرأتين تعيشان معا فى مزرعة ، «بادفورد» عصبية ورقيقة ذات روح دافئة وكريمة ، بينما «مارش» برغم غرابتها وانطوائها على نفسها فإن لديها شهامة غريبة ، ومع العزلة الطويلة ، بدأت كل منهما تضيق بالأخرى وتضجر من وجودها ، كما كانت كل منهما تأمل فى أن تقتل الثعلب الذى يخنق دجاجهما ، وقد استطاعت مارش أن تطلق النار عليه حين « رأته فجأة ، كان ينظر اليها، ذقنه الى أسفل وعيناه تتطلعان اليها، التقت عيونهما ،

وعرفها ، ومضى بهدوء كنسمة هواء ، تبعته بالبندقية عازمة أن تجده».

لكن القارئ يعرف أنها لن تقتله .

وتمر الشهور ، وذات ليلة يهبط عليها شاب ، وتقع «مارش» فى الحال تقريبا تحت سطوة «صوته الناعم الغريب» ، وحين يقول أن هذا البيت كان له منذ خمسة أعوام ، وهو الآن لا يملك مكانا يذهب اليه ، تقترح الفتاتان أن يمكث عندهما فترة ، ثم فجأة «رفع عينيه الزرقاوين الساهمتين ، وبدون تفكير ، نظر مباشرة الى عينى «مارش» ، وارتبك كما ارتبكت ، وتراجع قليلا ، وشعرت «مارش» بالشرارة المعبرة ذاتها ، تقفز من عينيه ، وتسقط فى روحها ، كما سقطت من العينين السوداوين للثعلب » .

وحاربت «بادفورد» بشراسة التجاذب بين «مارش» والفتى ، وحين قتل الثعلب لهما ذات ليلة وعلقه فى الحظيرة لترياه ، تصاعد التوتر بين الثلاثة، واستجابت «مارش» للفتى بلا حول ، وفى الليلة السابقة على رحيله لكندا ، أخذها فى نزهة الى الخارج ، تاركا «بادفورد» لدموعها. وتعلقت الفتاة به حتى لم تعد تفكر فى صديقتها . وحين سافر ، بدا أن «بادفورد» قد انتصرت ويرجع الفتى ذات ليلة ، ليجد المرأتين فى المزرعة تريدان قطع شجرة ، فتقدم ليفعل ذلك برغم معارضة «بادفورد» ولكنه «قرر أن يقتلها ، قوة مرعبة ثارت داخله ، قوة مدمرة » وقال محذرا

«انتبهى لنفسك يا بادفورد» . لكنها رفضت أن تتحرك . «وجاءت لحظة من الرعب الصامت ، وبدا أن العالم قد توقف ، وبدت هيئته كأنها تومض بقوة هائلة مرعبة ، وهو يضرب ضربتين سريعتين متعاقبتين . وانقطعت الشجرة ، استدارت ببطء ولفت فى الهواء بشكل غريب ، وسقطت كظلام مفاجئ على الأرض . لم يعرف أحد ما حدث ، ولم يسمع أحد الصرخة الخافتة الغريبة التى اطلقتها «بادفورد» والطرف الأسود من الفصن ينقض عليها ، لم يرها أحد تنحنى قليلا لتقع الضربة على عنقها ، لم يرها أحد تقع أرضا كتلة تنتفض أسفل السور، ماعدا الصبى ، كان يراقبها بعينين لامعتين حادتين ، كأنه يراقب اوزة اصطادها ليتأكد أجرحت أم ماتت» وكانت «مارش» تحدق فى الأفق «كأنه غير حقيقى ، ثم نظرت اليه نظرة غريبة كنظرة طفل يقاوم النوم دون أن تعى أن «بادفورد» قد ماتت» .

عند الكتابة عن العواطف ، يصبح الأسلوب أكثر فردية ، وتظهر خصوصية الكاتب عند الحديث عن العشق أو الخيانة ، الحياة أو الموت.

ولقد أوضح «همنجواى» بمشاهده العاطفية الخالية من كل ما هو غير جوهرى ، لكثير من الكتاب كيف يصلون الى الأغوار العميقة لتجاربهم ، وكيف يكتبون دون خدع أو خداع . إن همنجواى لا يعطينا

أى أحساس بأننا نخدع ، أو أنه يخفى عنا شيئا من المفروض أن يقوله.
فى قصته «ثلوج كليمنجارو» نقرأ عن الأيام الأخيرة لكاتب كان فى رحلة لافريقيا مع زوجته ، وجرحت قدمه وأصيبت بالغرغرينا، فى هذه الفترة يصاب بالهذيان ، والاسلوب هو أسلوب همنجواى المتفرد .

«ثم جاء الموت وأراح نفسه عند حافة السرير ، واستطاع أن يشم تنفسه ، وقال لزوجته : لا تصدقى أنه بجمجمة ويحمل منجلا ، ربما يكون كاثنين من رجال الشرطة يركبان دراجة ، أو يكون طائرا أو ضبعا ببوز .

وتحرك الموت فوقه ، لم يكن له شكل ، إنه يحتل الفراغ فقط .

– قولى له أن يذهب .

لكنه لم يذهب ، وتحرك مقتربا أكثر ، قال محدثا الموت :

«ما أنتن رائحتك» ، وتسلقه مسافة أخرى ، ولم يستطع التحدث اليه، وحين رآه عاجزا عن الكلام ، اقترب أكثر ، حاول أن يطرده بلا كلام ، لكنه تحرك فوقه وشعر بثقله فوق صدره ، ولم يستطع الحركة أو الكلام وهو جاثم عليه ، وسمع المرأة تقول :

«إنه نائم . احمل السرير برفق الى الخيمة» .

كتب جون جنتر «حتى أكثر الكلمات أو العبارات تفاهة ، يمكنها أن تدعم أو تدمر عذوبة وايقاع الاسلوب» .

وذات مرة قال هارولد بنتر فى مقابلة صحفية «أن على الكاتب أن يشعر بأن كل جملة يكتبها ، هى كتلة واحدة يستطيع أن يحملها بيده ويقول أنها تستحق أن تبقى .. فهى اساسية » .

إن أسلوب همنجواى وحواره يشبه ذلك .

وعلى الكاتب أن يطور احساسا لدى القارئ بالقوة والتنوع فى الحوار ، وفى أسلوب الحديث ، ولقد قامت قصص كاملة على الحديث ، كقصة «دونالد بارثليم» ، الذى يقول ناشره «إنها مجردة من كل شئ عدا الحوار» .

قصة « على درجات معهد الموسيقى » تتحدث عن لقاء بين طالبتين ، «هيلدا» التى رفض المعهد قبولها ، و«ماجى» التى قبلت وتعتد بذلك .

كآبة هيلدا واضحة منذ البداية ، وتقول لها «ماجى» .

– هناك أشياء أخرى فى الحياة يا هيلدا .

– أعرف ذلك . لكنى لا أريدها .

– الذين لم يدرسوا الموسيقى لهم حياتهم أيضا .

– ربما أجد واسطة أو أقدم التماسا .

– فكرة .. فلدينا أكوام من الالتماسات .

– يمكننى أن انتظر طوال الليل على هذا السلم .. حتى اكتبه .

– سأجلس معك .. واساعدك فى صياغة الكلمات .

– هل ينظرون من النوافذ ؟

– اعتقد ذلك . ماذا تريدين أن تقولى ؟

– أريد القول أن حياتى كلها تتوقف على دخول المعهد .. شئ كهذا ..

– أتعرفين أن القانون يمنع المقبولين من مساعدة من هم ليسوا فى المعهد ؟

– اللعنة .. كنت أظن أنك ستساعدينني ... !

وتفترق الفتاتان فى النهاية ، وماجى تقول معتدة :

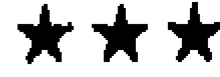
– الزمن يشفى كل شئ .

قصة رقيقة ، دون علامات وقف أو ترقيم تقريبا ، واستخدام حى للحوار ، شخصيتان ، وورطة هل ستحل أو لن تحل ، ارتفاع وانخفاض فى النبرات ، ونهاية تتركنا منغمسين فى القصة حتى بعد انتهاء القراءة.

★★★

كثير من الكتاب لا يولون عناية لعلامات الوقف والترقيم ، وهو أمر جوهرى للأسلوب ، وبعض الكتاب كان يقضى وقتا طويلا ، عند تبييض أعمالهم ، فى وضع فاصلة ثم رفعها بعد ذلك ، قال «اوسكار وايلد» ذات

مرة «كنت أصحح بروفة لاحدى قصائدى طوال فترة الصباح ، وحذفت فاصلة ، وبعد الظهر أعدتها ثانية » .



الخلاصة «إن ما يحدث في القصة القصيرة هو الذى له الاعتبار الاكبر ، وأهمية الأسلوب الناجح أن يقدم الحقائق التى تود أن تقصها ، بتأثير واقناع أكبر » مع الوضع فى الاعتبار أن الأسلوب النثرى ليس شعرا ، لقد قال ذات مرة ، الروائى وكاتب القصة القصيرة مانويل كومروف بأنه حين يجد نثره أخذ بشكل ما ايقاع الشعر فإنه يتوقف فورا ، فذلك يجعل الأمر سهلا ، فليست مهمة النثر أن يكون شعرا .

كما أن الأسلوب الجيد لا يعنى استخدام الكلمات غير الشائعة ، ولكن استخدام الكلمات العادية بطريقة غير شائعة ، وأذكر هنا أن ت . اس . اليوت حين كان يحاضر في جامعة «هارفارد» كان يتوقف أحيانا لمدة خمس دقائق بحثا عن الكلمة التى يريدها بالضبط .

ثم هناك ملاحظة أخرى تتعلق بالتعابير المكررة أو المبتذلة ، وبالطبع لا يمكن تجاهلها أثناء الكتابة لكن التعبير المكرر المبتذل يشبه الشتيمة والاهانة ، ولابد أن يستعمل عن عمد وقصد . المهم أن تكتب ببساطة قدر استطاعتك ، وأن تفكر فى كل كلمة ، وتزنها لتؤدى معناها الحقيقى وتأثيرها ولونها ، وأن تقرأ أفضل ما كتبه السابقون والمعاصرون ، وتتمعن فى القراءة كأنك تجلس الى وجبة جيدة .

لقد عّرف الناقد سدني كوكس الأسلوب بأنه «المحرك الفعال لتقديم وجهة نظرك . إنه نعمة الخيال الحر . إنه ذاتك وأعماقك الغامضة ، وحين تركز ذاتك فى عملك ، دون أن تترك جزءا منك ليقف ناقدا أو معجبا أو مرشدا ، فلا عجب أن كتبت مالا تعرف أنك تملكه .. الأسلوب .. أسلوبك » .

الفصل الخامس:

الكاتب والكتابة

وصف جيه. يى. ماركاند عاداته الكتابية بقوله «أجلس وأفكر فيما أود كتابته، وكلما كان هناك حرية وفراغ أكبر لدى الكاتب للجلوس والتفكير فيما يكتب فذلك أفضل، فالعمل الفعلي للكتابة يعتبر ثانويا بالنسبة للتأمل».

قد يوافق البعض على هذا الكلام وقد يرفضه آخرون. فالتفكير ليس عملا بالنسبة للكاتب، فالمفروض أن هذا هو ما يجيده، لكن أن تجعل المقال يطابق المقام هو الأصعب على حد تعبير سنكلير لويس ، اذا أردنا الوصول الى هدفنا.

تختلف العادات الكتابية من كاتب لآخر، بعضها طريف وبعضها كلام فارغ تماما. وقد دارت مناقشات حادة بينى وبين زوجى حول عادته

فى تفضيل أن يكون ظهره للضوء وهو يكتب، بينما أفضل أن أكتب وأمامى نافذة مفتـوحة أواجه الاشجار والاغصان تحركها نسائم الهواء.

كان همنجواى يكتب واقفا، بينما كتب مارسيل بروست أجمل نثره فى السرير. أما ساعات الكتابة المفضلة فهى مسألة فردية تختلف من كاتب لآخر، «فدون روبرتسون» كان يكتب قصصه ورواياته طوال الليل، بينما «مارى اوهارا» تستيقظ مبكرا كل يوم وتكون أمام آلتها الكاتبة قبل ان يشقشق نور الصباح، أما «بلزاك» الذي كانت ابداعاته تستحثه فى الليل والنهار، فهو يكتب بشكل أفضل بعد فترات قصيرة من النوم فى ساعات غير محددة، متجاهلا الحياة الاجتماعية والعائلية، ويتعاطى فى اليوم أكثر من خمسين فنجانا من القوة، مركزا كل نشاطه على الكتابة حتى ينتهى من العمل، فيخفف توتره بالانهماك المفرط فى الملذات والشهوات، لسوء الحظ، مات صغير السن.

ويمكنك ان تسأل نفسك بدورك: ما هى أكثر الساعات فعالية فى عملك؟ وما هو الموعد الذى اعتدت أن تجلس فيه وتكتب بشكل جيد؟ متى يكون فيضان الافكار أقل تأثرا واعاقة بالمؤثرات الخارجية؟ هل تعمل جيدا فى الصباح أو بعد الظهر أو فى الليل حتى الفجر؟ هل تجلس وراء المكتب أو فى السرير والقلم فى يدك، أو تجلس بصرامة وراء الآلة الكاتبة ؟ .

من السخف طبعا الاعتقاد بأن تقليد عادات كاتب آخر، ينتج آليا عملا جيدا، ومع ذلك لا ضرر من الاستفسار ومعرفة أنسب الفترات المملوءة بالنشاط والخلق عند المرء، فان كلامنا يختلف بشكل كبير فى تركيزه وابتكاره فى فترات معينة من اليوم ، وهذه الحقيقة لها معناها بالنسبة لطبيعة ابداعك. منذ لحظة الميلاد تقريبا، نكون إما نهاريين أو ليليين، ويمكننا ان نتبين ذلك حتى فى اطفالنا، فمنهم من يستيقظ مبكرا بشكل طبيعى، ومنهم من يحتاج الى مجهود لإيقاظه.

وقد أثبتت الابحاث حول «ساعة الجسم البيولوجية» بأن نشاطنا ودرجة استجابتنا تختلف حسب ساعات اليوم المختلفة، حتى الاتجاه الذى نسافر فيه جوا، يؤثر على حالة الجسم فى نهاية الرحلة، ويقول بعض الباحثين أن السفر من الشرق الى الغرب يسبب انهاكا أكبر للجسم من السفر من الغرب الى الشرق. وحين كنا نعبر المحيط بالسفن فى الماضى، كان يقال ان البحر ينعش ابداع الكاتب، ولكن لم يزعم أحد أنه يبدع أفضل عند عبور المحيط بالطائرة.

ما هو تأثير العزلة علينا؟ وهل ننتعش أكثر اذا أحاطنا الآخرون دوما؟

فى دراسة نشرت فى نيويورك تايمز عن مجموعة من البشر عزلوا لمدة ثلاثين يوما فى غرفة بلا نوافذ، لوحظ أن ادراك هؤلاء البشر للزمن

قد تغير بشكل مفاجئ ودرامى بمجرد أن عزلوا عن العالم الخارجى، واختلفت لديهم ساعات النوم والتركيز عما كانت عليه.

يقول الفلكيون : إن ذهنك يكون فى أكثر درجات تركيزه كل يوم فى الساعة التى ولدت فيها! وسواء كان ذلك حقيقة أم وهما، فمن الأفضل أن تعرف ايقاعاتك الخاصة فى وقت مبكر من حياتك، لتستفيد من الأوقات التى يكون فيها نشاطك فى أوجه، وتكون قواك العقلية والخيالية فى أزهى وأحد حالاتها.

ولسوء الحظ ، إن حرية اختيار وقت الكتابة لا يكون متاحاً دائما. كان «هنرى جيمس» يشكو من «مشاغل الحياة الكثيرة وقلة الابداع الفنى» حيث تمنعه الظروف فى الغالب، ان يطيع نبض الكتابة داخله فى لحظة الالهام. وسيساعدك كثيرا لو استطعت ان توفق بين ساعات الابداع ومطالب الحياة الأخرى، وان كان ذلك صعبا فى الغالب، فالتلاميذ لهم ساعات دراستهم، والام لها التزامات تجاه البيت والعائلة، والعمل يفرض مواعيده الصارمة، والمتخصص فى أى حقل من المعرفة يكون معرضا للاستدعاء فى أية ساعة من اليوم دون اختياره .

هل ينتظر المرء الالهام قبل البدء فى الكتابة؟ ويظل ساكنا حتى تشتعل الفكرة فى ذهنه؟

تقول كاترين آن بورتر لا على الكاتب ألا ينتظر الوحى والالهام، بل يعمل على استحضارهما، فالكتابة ليست قضاء وقت فراغ جميل، وهى ليست شيئا يحدث بلا ألم إنها مهنة مرهقة جادة.

ومع ذلك، فالإلهام شئ عظيم، ليتنا نغرسه فى النفس قدر الامكان، فهو حين يوجه قلمنا، فإننا نكتب بشكل أسرع، ويخلصنا من البدايات الزائفة والشكوك، ويلزمنا بدقة أكثر للفكرة والحالة والشخصية، ونكون على ثقة بان القصة تقبع هناك فى متناول يدنا، تحوم فوق رؤوسنا ، تكاد تكتب نفسها.

حين تقرر كتابة قصة، تثور فى الذهن عملية تشجيع معينة ، فإذا كانت الفكرة الأساسية حيوية وذكية وقوية، فإن الحقائق والخيالات الجوهرية المثيرة تبدأ بالالتحام بها، إن المثل الشهير الذى ذكره «ستندال» مشبها التحول الذى يحدث للانسان حين الوقوع فى الحب بغصن عار غمس فى عيون «سيلسيا» الملحية، حيث يحدث تبلورا جميلا ومذهلا فى المحبوب، يبين لنا العملية التى يقوم بها الكاتب بتغطيس فكرة قصته فى خياله، بحيث تزول الجوانب المشكوك فيها، وينعكس الجمال والمعانى فيما وراء الواقع العارى.

حين تلمع الفكرة فى الذهن، بكل امكاناتها، وطبقات تفسيرها، فإن الخيال يضفى عليها من صوره، بحيث حين يحين وقت العمل، ما على الكاتب إلا الالتزام بما يمليه عليه خياله .

كتب تشيخوف ذات يوم «حين ترفرف أجنحة العقل والخيال، فما على إلا أن انطلق».

وقال ارسكين كالدويل «ان الكتابة عادة، نكونها في انفسنا كالتدخين».

في لعبة الكتابة، فان خصمك الرئيسي ليس النقاد الذين ستواجههم، ولا الاصدقاء-أو الناشر، وحتى ليس الوقت المحدود الذي تكرسه لكتاباتك، بل ، هذا الخصم لسوء الحظ، هو أنت. مقاومة خيالك ، وتساؤلك عن جدوى الوقت الذي تنفقه في الكتابة، وعدم ثقتك بنجاحك في توصيل كل ما في ذهنك إلى القارئ. كل ذلك يقف عقبة أمامك . لابد أن تكتب بثقة قد لا تشعر بها، متخطيا كل الحدود بين الفكرة وتنفيذها دون أن تسمح لعقبة أن تعترضك، ودون أن يكون لديك دليل تسترشد به. حتى خيالك لابد أن تناور وتجبره أن يطيع اوامرك، ولكن ليس بصرامة شديدة او بفكر محسوب بدقة . لابد أن تعطي حلمك - الذي هو في جوهره القصة القصيرة ذاتها - هامته، ودعه يقودك إلى ذلك القارئ الذي تفكر فيه، ليس كخصم، ولكن كمحب محتمل وعليك أن تغريه وتجذبه من كل وسائل الالهاء الأخرى من تليفزيون وحفلات ومباريات وعمله الخاص ، وكل اولئك الكتاب الآخرين . لابد أن تنجح في أن تجعل قارئك يود لو يحتضنك أولا. سجلت في كراستي، على مر

السنين، طباع وعادات كتاب كثيرين، ربما لأنها تمثل الصراع الذى نشترك فيه جميعا.

يقول «جنتر جراس» : انه يعمل ويفكر وهو واقف على قدميه ، مثل همنجواى ، حتى أنه يكتب على الآلة الكاتبة واقفا، واذا بدأ العمل فى قصة قصيرة، فإنه يكتبها كاملة، مسودة أولى كاملة. ثم يقرأ ما كتبه، ويعيد كتابته ثانية، ثم يولف بين المسودتين. بعد ذلك يبدأ ثانية فى إعادة الكتابة ويكتب لأربع او خمس ساعات يوميا وبالنسبة لحياته الشخصية، يقول إنه يستغرق وقتا فى إفطار كبير جيد، ولا يتناول الغداء وفى المساء يعد الطعام لأطفاله الخمسة . كثير من الكاتبات سيسعدن بذلك.

أما «ادوارد البى» فيشبه «ماركاند» فى أن عاداته اكثر احتراسا، وأن كتاباته تعتمد «على كثير من والتفكير والتأمل، معظمه بلا وعى» يحدث هذا قبل بداية الكتابة الفعلية، بحيث إذا جلس الى آلته الكاتبة، يعرف بدقة ماذا يفعل . وهو أيضا يكتب مسودة اولى ، ثم يصححها بالقلم الرصاص، ثم مسودة ثانية، وبعدها يكون عمله قريبا من شكله النهائى .

ويعترف «نورمان ميلر» أنه يبدأ الكتابة دون أن يعرف إلى أين سيسير العمل من يوم ليوم، وهو يعتمد على الحيوية التى يثيرها العمل نفسه «أشعر دائما كأنى لست أنا الذى أكتب القصة وأنى خادم لشئ

ذكى يستخدمنى لكتابة الكتاب أو القصة أو المسرحية أو أى عمل يتخيله المرء» .

وكتب «همنجواى»: أظل أعمل حتى أحصل على شئ ما وأتوقف دائما وأنا أعرف ماذا سيحدث بعد، فبتلك الطريقة أضمن بأنى سأكتب فى اليوم التالى.

وهناك منشطات أو مثيرات تساعد فى العمل والكتابة، أولها ان يداوم المرء على القراءة، ويسكن الشكل الذى يكتب فيه، ولايكفى أن تقرأ ما يقع تحت يدك بالمصادفة، بل تفكر وتحلل وترى الشخصيات والافكار والاحداث كما ابدعها كبار الكتاب عبر السنين فى شكل القصة القصيرة، بمعنى أنه لابد أن نرى الحياة فى حقيقتها الخيالية بقراءتنا لعمالقة القصة القصيرة، لا أن نراها فى شكل شعارات او حقائق موثقة او اتجاهات سياسية، يمينية أو يسارية ، ولكن كفن.

إن كتابا مثل نورمان ميلر أو ترومان كابوت يمكنهما تناول موضوعات صحفية ، باضفاء الأبعاد الخيالية عليها، ولكنهما يعرفان ما يفعلان، بالنسبة للكاتب الشاب فمن الأفضل ان يترك للشخصيات الواقعية تزويده بالمنطلق لخياله فى الكتابة.

فى وقت مبكر ، يكتشف المرء أنه مرتبط بالكلمة ، أو غير مرتبط ، يتذوقها ، يستمتع بها، ويتفحصها بدرجة من الاثارة، كالاستجابة الى

الموسيقى أو الرسم أو حتى العلاقات الاجتماعية عند البعض، ومع أن كل فن يساعد على انعاش موهبة الكاتب، وكل علم يغنى العلم الآخر، إلا أن الكاتب بالدرجة الاولى قارئ جيد، ومن الضرورى أن تكتب بقدر ما تقرأ، وإلاّ فقد تصبح ناقدا أو أكاديميا، وتفقد الاحساس بمعنى الاستمرار الذى هو أيضا جزء من روح الكاتب الخيالية.

وقبل ذلك، احترم واغرس حمى الكتابة داخلك، واستسلم لاغراء العمل حالما تبدأ، وما أن تفيض عصائر قريحتك بحرية، لابد لك ، كما في تجربة حب، أن تشعر بالعشق، و إلا فإن الجهد الذى تبذله لايستحق الوقت الذى تعطيه له. وكل عاطفة، تقريبا، يمكن أن تنعشك وتحثك على الكتابة، الحب و الالم ، الظلم والكراهية، الغيرة والود ، حتى الضجر نوع من العاطفة قد يقودنا إلى اتخاذ خطوات غاضبة أو خيره أو محتقرة ، يجبرنا عند الابداع ان نهجر مشاغلنا الداخلية، والبحث خارجها عن حيوات الآخرين ، التى حين تتصل بخيالنا تريحنا بشكل درامي من مللنا. وباستمرارنا في العمل نعيش مع شخصياتنا ونخرج من ذواتنا، بالهروب الى الخيال كالقارئ تماما، لكن هذه درجة واحدة من انفصال انغماسنا في العمل . وبالتركيز على رؤية أكثر واقعية ، بحثا عما هو أبعد من الواضح أمامنا، يحقق الكاتب حالة من الاقتناع تظهر نتيجتها فى كتاباته، حيث يتلون كل شئ بسيطرتنا عليه، وينتابنا شعور

جميل من وضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب على الورق كأننا نهمس بها الى حبيب ، مما يؤدى الى علاقة اكثر متانة وحميمية .

وقد نعى ضربات قلوبنا حين يتعالى خيالنا وهو يقودنا فى المجهول، مسجلا نتوءا على جانب أنف المحبوب، أو عرجا فى قدم راقصة، أو قصورا فى صوت الحبيب ، لكننا نركز دائما على الشئ المهم ، القصة.

بعد ذلك ، فى المراحل الأخيرة يمكننا أن نتفرغ للاعتبارات الأقل طيشا ، وغير المنضبطة فى عملنا، فنصحح أى سوء فهم او حماقة قادنا وجداننا اليها.

قال وليم فوكنر ذات مرة فى مقابلة معه : إنه يعتبر الكتابة ٩٩٪ موهبة، ٩٩٪ نظام ، ٩٩٪ عمل وأضاف: على الكاتب ألاّ يقتنع ابدا بما يعمل وأنه ليس ممتازا بالقدر الذى كان يمكنه أن يحققه» .

احلم دائما ، واجعل أحلامك تصل الى عنان السماء بما يمكن أن تفعله، ولاتهتم بأن تكون أفضل من معاصريك او السابقين عليك حاول أن تكون أفضل من نفسك.

هذا يلخص كل ما قيل فى هذا الفصل، عدا شئ واحد أشار اليه «ويت» ذات مرة إن كثيرا من الناس يرون أنه من الممتع جدا أن يكون المرء مؤلفا على شرط ألا يعمل فى الكتابة.

الفصل السادس :

مراحل القصة ـ البداية

قالت الشاعرة ماريان مور «اذا لم تستطع أن تشد انتباه القارئ منذ البداية ، وتجعله يتعلق بالقصة ، فلا فائدة من الاستمرار» .

كانت «ماريان» شاعرة حكيمة ، بوجه برئ كطفل خبيث ، نموذجا للسيدة الفكتورية ، وبذكاء المحظية الفرنسية ونشاط حطاب فى الغابات، وربما أشهر جملة قالتها ولم تلتزم بها دائما «إذا حصلت على الموضوع، تباهى به» .

واعترفت بقولها «أنا حريصة جدا على الأسطر الأولى ، اكتبها ، انتقدها ، أختبرها ، أقيّمها ، لأن أى شاعر أو كاتب للقصة القصيرة يعرف بأن من هذه الأسطر الأولى سينبثق خياله ويفيض بالعمل الابداعى الآتى » .

المشكلة الرئيسية هى أن تشد انتباه القارىء ، بل وتجبره على متابعتك وأنت تروى القصة ، فالبداية القوية جوهرية للقصة القصيرة ، لاحظ ، على سبيل المثال ، المغنى الخبير وهو يقدم أغنيته ، فهو يلقى المقاطع الافتتاحية بنفس قوى وثقة زائدة ، فيضطر المستمعين بالمشاركة على الفور .

وهكذا الكاتب الجيد أيضا ، فالبداية الضعيفة فى القصة القصيرة، غير مؤثرة ، كتعثر وقصور نفس مغنٍ غير خبير .

ولأن تقنية فن ما يمكن أن تؤدى لفهم أكثر لفن آخر ، فإن «ايزودورا دنكان» التى ابتكرت رقصاتها الفريدة ، كتبت فى مذكراتها «أن نبض الابداع عندها ، يظهر نفسه واضحا جليا فى البداية ، فى الضفيرة الشمسية من جسدها ، وحين تشعر بالتوتر والهياج فى تلك المنطقة من جسمها ، تعرف أن لحظة اطلاق الرقصة الفعلية قد تملكتها». وهكذا الأمر بالنسبة للكاتب ، فى تأثير قصته التى سيكتبها ، على أعضاء جسمه ، ولنضرب مثلا لما يفعله الرسام عند بدء رسم لوحة ما ، إن «روبرت هنرى » حين يواجه قماش الرسم الذى سيرسم عليه ، يحذرنا بقوله «غض النظر عن كل ما ليس له صلة وثيقة بلوحتك» وهذا يعنى ، بالنسبة للكاتب ، ألا يبدأ بالوصف غير المجدى ، أو بالتركيز على شئ غير مباشر لا يتعلق بالقصة ، أو بالحذلقة اللغوية ، أو على

شخصيات ومواقف ليس لها صلة مباشرة بالقصة التى سيكتبها . ويخبرنا «روبرت هنرى» أيضا ، بأن نحتفظ فى ذهننا «بالمساحات التى نود أن نظهر من خلالها التوافق والتناقض فى اللوحة» فبعد أن تضع الاساس فى لوحتك ، يمكنك أن تملأها بالضوء ، والظل والتفاصيل، لكن فى البداية حافظ على كلماتك مرتبة منسقة وفى الصميم .

لو طبقنا ذلك على الكاتب ، فعليه أن يضيف التشبيه والاستعارة والفروق الدقيقة ، والوصف ، والشخصيات الثانوية بعد أن تكون قصته الأساسية قد وضعت على الورق .

إن أول الجمل والفقرات فى القصة القصيرة ، هى الفرصة التى يمكن أن نشد بها انتباه القارئ ونقنعه بأن لدينا ما نقوله ، قبل أن يتوزع اهتمامه بشئ أو شخص آخر ، وكان تشيخوف يقول « فى افتتاحياتنا للقصص ، نحن فى الارجح نكذب» .

وأود أن ألفت نظر الكاتب بألا يتحدث عن قصته قبل كتابتها ، فحين يفعل ذلك ، فإن الكتابة الفعلية لن تحدث أبدا ، فى أغلب الحالات . عرفت حالة واحدة ، حكى فيها كاتب حكاية ، ثم كتبها وكانت جيدة . الكاتب «لودفيج بيملمان» الذى جاء من «بافاريا» ليدرس نظام الفندقة الامريكية ، كان بارعا فى سرد القصص والأحداث الطريفة ، وكان يمتع أصدقاءه بقصص مسلية ذكية عن شخصيات عرفها فى بلاده ،

وقد اقترح عليه «وت بيرنت» أن يكتب ذلك فى شكل قصص قصيرة ، ولقد فعل ، وحين نشرت مزودة برسوماته الطريفة بدت حيوية وجميلة، وهى تعتبر الآن من الكنوز الأدبية .

وتحذير آخر أسوقه لكاتب القصة القصيرة : لا تكتب أبدا قصة حكاها لك شخص آخر ، قد تبدو جديدة وأصيلة حين تسمعها ، ولكنها غالبا لا تكون كذلك ، والكاتب المبتدئ يكون عادة متشوقا للمعرفة والانطلاق ، وأعرف عددا منهم كتبوا قصصا سمعوها من الآخرين ، سواء بسذاجة أو حسن نية ، لكن تهمة الانتحال ستكون شاقة على الكاتب والناشر على السواء .

وليس من الضرورى أن يكون المذنب دائما كاتبا مبتدئا ، لقد وجدنا ذات يوم قصة كنا على وشك نشرها فى المجلة ، قد نقلت مع تعديلات طفيفة عن إحدى قصص «بيملمان» التى نشرت قبل سنوات ، وكان كاتبها غير مبتدئ ويعمل فى الشرطة بمنصب كبير .

لا يمكن بالطبع ، أن تكون القصة التى تكتبها أصيلة تماما، فالطبيعة البشرية تقدم لنا سنة بعد سنة ، أحداثا حقيقية وأساسية متشابهة ، لكن إذا كتب المرء قصته بتعبيراته الخاصة ، ووجهة نظره ، وأسلوبه الخاص ، ففى الغالب ستكون قصة جيدة وفريدة .

نشرنا قصة منذ سنوات ، وكانت قد أرسلت الينا بالبريد ، وهى كالتالى : تزوج جون ودينيس منذ فترة ، وقررا فجأة الذهاب إلى

فرنسا، كان قرارهما من تفكير اللحظة ، فهما من ذلك النوع من الناس الذين لا يهتمون أن تكون الأمور دائما فى نصابها ، ورافقتهما حماة الرجل ، وقرروا أن يقوموا بزيارة سريعة لأسبانيا ، وفى طريق عودتهم، كانت الحماة صامتة ، كانت قد ماتت ميتة طبيعية ، واستمرا فى سفرهما تسيطر عليهما الكآبة ، فهما فى بلد غريب ، لا يعرفان قوانينه ولا كيفية الابلاغ عن وفاة ، وعند الحدود ، اقتنع رجال المرور بأن العجوز نائمة ، توقفا للاستراحة بعد عدة أميال فى فندق على الطريق ، ولتعبهما ناما فترة أطول من المتوقع . اتجها الى العربة ، فلم يجداها ، لقد سرقت من على جانب الطريق والمرأة الميتة داخلها . اتصلا بمحاميهما فى لندن ، فنصحهما بالعودة فورا وعادا دون أن يعرفا شيئا عن العربة أو السيدة المتوفاة .

كانت القصة مثيرة ، وإن كانت ليست جادة تماما ، لكنها مكتوبة بشكل جيد ، وهذا النوع يعجب المحررين أحيانا ، ومع ذلك فبمجرد نشرها ، وصلتنا رسائل من الكثير من القراء ، يزعمون أنه فى مكان ما قد حدث الشئ نفسه ، كما أن كثيرا ممن قابلتهم فى الحفلات كان لديهم حكايات مشابهة مع اختلافات طفيفة لكن من يستطيع أن يزعم أن تلك قصته !

لقد أخبر الكاتب الارجنتينى «جورج لويس بورخس» جمعا من الكتاب ذات يوم «إنه يتحسس الحبكة منذ لحظة البدء فى الكتابة وليس

قبل ذلك » بينما أى . أم . فورستر يزعم أن القصة والحبكة شيئان مختلفان ، ولكن «بورخس» يرى أنهما متداخلتان ، وأنه لا يتأكد أنه قد ملك القصة ،إلا إذا كان واثقا من حبكته من البداية حتى النهاية .

ويقول أيضا «حين ابدأ بالكتابة ، استخدم الطريقة الخاطئة ، أكتب فقرة فقرة ، وأغير ما اشاء وأنا أكتب ، حتى أجد الطريقة المناسبة لسرد القصة ، فانطلق بقدر ما استطيع ، ثم أعود ثانية لأعيد الكتابة ، وشطب ما ليس له لزوم » .

لكل كاتب طريقته التى تختلف عن الآخر ، فكل يقترب من قصته بطريقته الخاصة ، من ذاكرته وعاداته وفهمه الخاص . لكن ما أن تقرر الكتابة ، وتجلس دون مقاطعة ، فإن كل جملة تكتبها لابد أن تحمل فى طياتها الاقناع والحتمية .

فالقصة ، حسب التعريف القاموسى ، «هى سرد لأحداث متخيلة فى العادة ، هدفها امتاع القارئ» .

وإذا أضفت إلى ذلك الحبكة وهى خطة سرية لتحقيق أهداف مجهولة ، أنذاك يمكننا التعرف على الحلم ونبدأ العمل .

والآن ، وقد بدأت القصة ، الجمل الافتتاحية ، والتركيز الواضح على الاتجاه العام للحدث ، ثم الشخصيات ، هناك طريقة واحدة ستمكنك من الوصول الى هدفك ، ضع قدما أمام الأخرى دون أن تفكر

بوعي وأنت تكتب ، فأنت لديك سمتك الخاصة ونجمك الذى يهديك الى الطريق .. إلا قليلا .

ولا يركز الكثيرون غالبا ، على التلقائية وعدم التكلف ، وهما عنصران مطلوبان في كل الفنون (عدا الموسيقى) . فالفن تعبير عن المشاعر ، وحيث توجد المشاعر فلا مجال لشبهة شك بأن المشاعر والأفعال محسوبة ببرود .

ولو تصفحنا بعض البدايات في قصص عدد من الكُتّاب العظام لوجدناها جميعا بدايات مؤثرة ، وكل جملة فيها تنتمي الى القصة دون أية كلمة زائدة .

اقرأ قصص د. هـ . لورنس . ستجدها جميعا تفتتح بمعلومات وصور شارحة واضحة ، لها عمق نفسي تجعل القارئ مشاركا منذ البداية . في قصته «طائران أزرقان » مثلا ، تبدأ هكذا :

«كانت هناك امرأة تحب زوجها ، لكنها لا تستطيع أن تعيش معه ، والزوج من جانبه كان مخلصا ومتعلقا بزوجته ، ومع ذلك لا يستطيع أن يعيش معها . كلاهما تحت الاربعين ، وكلاهما أنيق وجذاب ، ويحترمان بعضهما البعض ، ويشعران أنهما مرتبطان معا إلى الأبد بطريقة غريبة، ويعرفان بعضهما بحميمية أكثر من معرفتهما أى شخص آخر ، ومع ذلك لا يستطيعان أن يعيشا معا .

وتستمر فى قراءة قصة تعتمد على الثلاثى - الزوج والزوجة والسكرتيرة التى تشبه الفأرة وتكسب فى السرير .

وفى قصة «مارك توين» - جنازة فانشو - تبدأ بتندره المعتاد » قال أحد الأشخاص إنك إذا أردت أن تعرف مجتمعا ما ، عليك بمراقبة جنازاته لترى نوع الرجال الذين يدفنهم باحتفال عظيم » وكان لدى فانشو رفيقة منطلقة تدير قاعة احتفالات فخمة ، يمكنه الاستغناء عنها دون رسميات الطلاق ، وكيف تقنع القسيس أن يمنحه «دفنة خيالية» إذا استطاع تغييره أولا .. ، ولكن القارئ يعرف أن القصة تدور حول أكثر من ذلك .

ثم أنظر قصة «ميلان كونديرا» : تبدأ جاء وقت كرهت ماركيتا حماتها» ، وعنوان القصة «الأم» تناقض ساخر منذ السطر الأول ، يعدنا لرؤية امرأة شرسة ، ورطة .. ماذا ستفعل ماركيتا حيالها ؟ وهكذا يقودنا إلى علاقات عائلية بهذه البداية المستفزة ، لكن الحماة تتخذ قرارها الخاص بترك البيت لأن لها حياتها الخاصة التى تود أن تعيشها .

كل هؤلاء المؤلفين ، يعرف إلى أين يتجه ، ويستخدم الأسطر الأولى بقوة مؤثرة حتى أننا نقتنع بتتبع قصته برغم كل العقبات .

ونعود أخيرا إلى «راد براد بورى» الذى يقول «متى استقر بك الأمر على بدايتك الخاصة ، لا تفكر بها ، بل استمر فى خطتك حتى النهاية».

إن الأمر ليس بتلك البساطة بالطبع، لكن إذا كانت جذور القصة فى مخيلتك ، وإذا كان لديك سبب قوى لتكتب عن الأحداث والشخصيات ، وتجد فى ذلك دراما وسلاسة وحضور بديهة ، فلن توجد أمامك مشكلة فى البدايات .

لكن تذكر وأنت تشحذ قلمك وذهنك ، أن الأقل قد يعطى الأكثر ، الكثافة ، وابدأ قصتك بأكثر ما عندك من تصميم كما يفعل المطرب على خشبة المسرح .

قال روبرت هنرى «كل شخص يحترم الرسم ، يشعر بالخوف كلما ابتدأ لوحة » .

الفصل السابع :

مراحل القصة :
المواصلة حتى النهاية

من بين كل الفضائل ، فى العملية الابداعية ، التى لا يُلتفت اليها كثيرا ، على أهميتها ، هى أن يغرس الكاتب فى نفسه القدرة على مواصلة الكتابة وانهاء ما بدأه فى أول ومضة الهام جاءته .

مئات من القصص لم تتعد الفقرة الثانية ، وبعضها لم يتعد العنوان فقط .

قد تكون المادة خصبة ، والفكرة والمعنى واضحان فى ذهنك ، والشخصيات مستعدة لدخول حياتها الخيالية ، وتعرف فى داخلك عما ستدور قصتك ، ولديك الشخصية الرئيسية ، أو الشخصيات ، والجمل التى ستبدأ بها قصتك ، وربما تتخيل مراحل قصتك ونهايتها المؤثرة ،

قد يكون لديك كل الارهاصات لقصة غير مكتوبة ، إلا إذا افتقدت التصميم والعزم لوضعها على الورق .

وقد تكون أيضا قد حددت وجهة نظرك . وخطوات عملك ، وحبكة قصتك ، والمكان الذى تدور فيه الأحداث ، ولديك فكرة ما عن الوقت الذى تستغرقه ، فقد تكون القصة بضع مئات من الكلمات ، أو بطول ستة أو سبعة آلاف كلمة ، وقد تندفع الى الكتابة عند هذه النقطة ، دون أن تفقد لحظة منطق تطور الأحداث، والبؤرة المركزية فى قصتك ، وتبذل جهدك وموهبتك وابداعك لكى تحافظ على قارئك المفترض راكبا معك حتى تصل هدفك ، ولتتأكد أنك ستصل به الى النهاية – وهو مازال قارئا فى علم الغيب – عليك أن تهتم تماما بأن تجعله معك، وان تنتبه بشدة ألا تفقد طريقك .

لا يمكن هنا أن تتأكد تماما ، من أن مصداقيتك عند القارئ تعادل نوعية أو درجة الإيمان التى تبثها فى قصتك ، لكن يمكنك أن ترفع من شأن هذه المصداقية بأن تحافظ بمهارة على المنطق والتوتر فى قصتك ، وأفضل الطرق لفعل ذلك هى ألا تفقد حب الاستطلاع الذى أثرته فى ذهنه ، ليظل يتتبع خطواتك عن طريق التطور الدرامى ، وارتفاع القص وانخفاضه بقواه الذاتية الداخلية .

وقد يتم ذلك عادة بثلاث طرق أساسية : فى البداية كبندقية تطلق عند الفجر وتبدو أنها تمزق العالم ، فى الوسط بارتفاع درجة التكثيف ، ثم بنتيجة محتومة أو على الطريقة الهندية بضربة نهائية تأتى فى نهاية القصة . طريقة فعالة لكنها ليست الطريقة الوحيدة .

الطريقة الأولى لسرد قصتك ، هى أن تبدأ بفوضى ، ثم تعمل بالتدريج لتصل إلى بعض القبول أو الحلول لحيوات شخصياتك ، نضرب مثلا على ذلك بقصة «چون ابدايك» - الحياة العائلية فى امريكا - حيث يفاجأ بطل القصة منذ البداية بشبح مأساة الطلاق ، ولكنه حين يقوم بزيارة زوجته وأطفاله ، فإنه يعود مؤقتا الى الروتين والدفء العائلى المألوف ، ويتبدل انتباه القارئ ، لكنه يعود إلى عشيقته التى يود الزواج منها - يرفض ابنه الصغير الوضع فجأة ، ويتلفن له ليأتى ويأخذه . فيصبح الوضع العائلى الذى خطط له فى شك مرة ثانية . وبعد عدة مأسٍ غير حاسمة يرجع ثانية لزوجته وأولاده ، ولكن منطقيا يتركها ثانية الى الأرض المحايدة لشقته الخاصة «غرفة ونصف ، وسجادة معوجة ، وسرير منكوش ، ونوافذ قذرة ، ودفء مغر» .

الموقف المتفجر فى حياته الزوجية فى البداية ، يتحول الى انغماس لا يرحم فى الوحدة ، فى نهاية القصة المكتوبة بحرفة وذكاء . بينما قصة أخرى قد تبدأ بهدوء ونظام ، وتتقدم بتكثيف متصاعد الى انفجار

فى وسطها ثم تنحدر إلى نهاية بنظام مختلف لا يكون ابدا هادئا مثل البداية .

ولقد نشرنا فى مجلة «القصة» الكثير من القصص المؤثرة ، الرائعة، يتصاعد فيها الحدث بطرق مختلفة - بشكل تقليدى أو معاصر - بشكل مؤثر بحيث تكون النهاية متوازنة جيدا عند القارئ ليتقبل وجهة النظر النهائية للمؤلف .

من بين هذه القصص التى أحببتها بشكل خاص «حصار جسر بروكلين» التى كتبها ريتشارد والتون .

هارى نيلسون لم يذهب الى الحرب ، وكان يشعر بالغيرة حين يستمع فى المذياع الى من يتحدثون عن قصص الحرب التى خاضوها .

«كان يعيش مع زوجته مارى نوع الحياة التى كانت ترغبها، ولم تواته فرصة ليرمى بكل هذه الحياة وراء ظهره ويخرج باحثا عن المغامرة، وكان يعزى نفسه بأن شيئا ما سيحدث يوما .

وفى موعد الغداء ذات يوم ، كان خارجا من مكتبه قلقا، فلمح جسر بروكلين الضخم، بنصبه القوطية المعدنية الهائلة، وكابلاته الضخمة تبدو على البعد كجدائل تنحنى بعطف على النهر. وأدرك ما يجب عليه أن يفعله، ومنذ تلك اللحظة ، بدأ هارى يخطط لتسلق جسر بروكلين «بالضبط كما يخطط المتسلق لغزو جبل ، أو الجندى لخوض معركة» .

وهنا يحدد الكاتب بدقة أبعاد الجسر من طول وعرض وارتفاع، وعدد النصب والكابلات الضخمة وأحجامها، والحواجز السلكية المنتصبة عبر كل كابل لمنع مثل هذه المغامرات.

وكان يخطط يوما بعد يوم، مندهشا بأنه فى انفعاله لايشعر بخوف. وحين جاء اليوم الموعود، قَبّل زوجته مودعا ، قائلا إنه ذاهب فى رحلة عمل . ذهب الى فندق بلازا الفخم، والحديقة المركزية، متناولا «الهامبرجر» فى أرقى المطاعم ، أخيرا فى الساعة الثانية صباحا ، كتب ورقة لزوجته، وابتدأ السير نحو الجسر. «واكتشف بان قلبه يدق بسرعة، ومع ذلك فالهدوء يسيطر عليه ، والنهر مرآة مصقولة سوداء تندفع مع الضوء».

من هنا ، نبدأ قراءة لاهثة مع هارى وهو يتسلق الجسر عن طريق الكابلات ، وحين أصبح على ارتفاع ستين مترا من الماء كان فى ربع المسافة الى القمة.

وبدأ يتساءل لماذا يفعل ذلك . ألم يكن أكثر أمنا لو ظل فى بيته مع زوجته فى السرير . وتصبح الريح أكثر قوة، ثم يهطل مطر غزير «والبرق يضرب أبراج مانهاتن ، والرعد يتحطم حوله» . وتنتهى العاصفة، ويبدو الليل جميلا، واستطاع رؤية السفن العسكرية راسية فى المنطقة الحربية، ومانهاتن تشع بملايين الأضواء ، ويستمر فى

الصعود. ويعد العديد من المخاطر ، صعد عشرات من الامتار فوق النهر، كان يتعلق بنتوء على قمة أحد النصب المقام عليها الجسر وبأصابع أصابها التنميل حاول أن يرفع نفسه، وفشل بعد أن تمايل بشكل مقلقل، وسقط بشدة على كابل معلق. ثم «بعمل يائس أخير أمسك بالكابل بكلتا يديه، وشعر بأن ذراعيه ينفصلان عن جسده وهو معلق هناك على ارتفاع شاهق من الماء ومن نقطة تقاطع كابل مع آخر، شق طريقه الى أن وصل الطريق فوق الجسر. صارع ليضع قدميه على الارض ، بملابس ممزقة وجسم يضج بالألم ، لكنه حي.... «يالهى .. مازلت حيا».

وقبل أن يفعل أى شئ ، «قبل ذهابه الى زوجته فى البيت، أو يذهب الى حانة، أو الى مكتبه، قرر أن يجلس لفترة يرقب شروق الشمس فوق الجسر ... جسره » .

هذه قصة يمكن أن تبدأ - تقريبا - من تفكير عشوائى ، شخص يملك فكرة طائشة كهذه ، ماذا يفعل بها؟ وكيف ستنتهى؟

- سؤال تجيب عنه القصة . والفكرة أصبحت قصة قصيرة مقبولة ، تابعها الكاتب لتصبح كتجربة يمكن أن تحدث فى الواقع، ويمكن أن نصدقها.

مهما كانت وسائلك للسير فى قصتك حتى نهايتها، هناك شئ واحد لابد أن تتأكد منه ، وهو التطور المنطقى لقصتك فأنت بذلك لن تحافظ

على حركة قصتك فقط ، بل ستجد أن القصة تساعد فى كتابة نفسها. التجارب الدفينة و اللاوعى المجهول سيتحدان بشكل ما وتقدم اليك كل أنواع الحلول حين تشق فكرتك طريقها فى مراحلها الاولى ، سترفض بعض الحلول، وتفتح الأبواب لأخرى تحمل من الرؤى، والاحتمالات مالم يخطر ببالك فى البداية. لكن أحيانا يحدث شئ ما فنصل الى توقف مفاجئ ، كما لو أن حماسنا لسبب غير واضح قد هجرنا ، كآلة نفد وقودها . هنا نتوقف عن الكتابة ونلعن الظلام ، لكن ، قد يعود الحماس بعد يوم أو أكثر ، ونتمكن من إنهاء رحلتنا.

لسوء الحظ ، لايحدث الأمر بهذا الشكل دائما ، فقد يحدث أن تسدل الستارة نهائيا على قصة ما ، نتوقف ولا نستطيع الاستمرار ، ويسيطر علينا الذعر . لقد جربت ذلك ، ومعظم الكُتّاب مرت بهم تلك الحالة بين وقت وآخر، يحدث ذلك أحيانا بعد نجاح رائع، او بعد فترة انقطاع عن الكتابة لاسباب خارجة عن ارادتنا، أو بعد اسباب اكثر خطورة ، مهما كان السبب الذى يبدو فى أول الأمر كأنه انقطاع مؤقت، لابد أن ندركه حتي لانصاب بالجمود ..

واذا مسنا الذعر من ذلك ، فالمحلل النفسى هو الذى يستطيع أن ينقذنا ، فربما يكتشف شيئا ما فى قصتنا كانت أمهاتنا قد عاقبتنا عليه، أو يكشف إحساسنا بالذنب ، لأننا فى غمرة سعادة الكتابة أهملنا شيئا آخر كنا نفكر فى عمله .

وحين يغادرنا الجمود ، تنتابنا قوى جديدة ، وننتج فى العادة قصصا أكثر جودة من السابق.

لقد أصبت عدة مرات بفترات انقطاع مؤقتة ، ولقد استطعت التغلب عليها بطريقة بسيطة اكتشفتها بنفسى منذ فترة طويلة ، ومهما كانت بساطتها فى رأيك فهى فعالة : حاول ألا تصاب بالذعر، ولا تجبر نفسك على فعل شئ ، خذ أجازة قصيرة جدا تناول مشروبا أو بعض الطعام انغمس فى محادثة تافهة مع صديق، أو خذ اغفاءة قصيرة ثم حين ينتهى هذا الطيش أو الرعونة ، عد الى مكتبك واندمج فى القصة من جديد، من البداية ، متجاهلا أين توقفت، اكتب بتركيز كامل ثم ارجع لتستكمل ما قد يكون فاتك كأنك تقص على جمهور، فى هذا الوقت يكون الذعر قـد اختفى وتكون القصة قد سارت أفضل من التصور الأول .

ذكر «شين أوفاولين» شيئا مشابها لهذا، بقول:إن الكاتب هو العين التى تكتشف الهدف ، مثل الكاميرا تبدأ فى الحركة من زاوية الى أخرى ، نتراجع مسافة لتلتقط مشهدا كبيرا، وتنزلق بخفة من شخصية الى أخرى ، وفى كل ذلك تركز تماما على الاتجاه الذى نريد . فحين تنحرف عن الهدف قليلا ، فى القصة التى نكتبها، قد نتوقف ، لكن مانلبث أن نعود أخيرا للتطور المنطقى للسبب نفسه الذى اخترناه فى البداية .

الفصل الثامن :

المراحل النهائية

والآن ، هـأنت كتبت قصتك في عشر أو عشرين أو ثلاثين صفحة قد تكون في شكلها النهائي احدى الروائع ، أو للأسف ستظل وليدة لن تري النور لدى أي قارئ ، لا تدع ذلك يضايقك ، فإذا استطعت كتابة قصة ، يمكنك كتابة ألف قصة ، وإذا داومت على الكتابة فستكتب بمهارة ، وسيكون بعض ما تكتبه رائعا .

لا تتمسك بقصة واحدة لسنوات ، فتصبح كأم كرست نفسها لطفل واحد ، بدلا من ذلك ابدأ بكتابة قصة أخرى .

معظم الكُتّاب ، يتركون القصة بعد المسودة الأولى ، ثم يعودون اليها بعد ذلك ، ومن الأفضل أحيانا ، بعد النسخة الأخيرة ، أن تنتظر فترة ، ثم تعيد قراءاتها ثانية بدقة وبعين محايدة . وبالتجربة ، من الصعب على الانسان الحكم على عمله بنجاح بعد الانتهاء منه مباشرة ،

وهو مازال طازجا بآلام الولادة ، أو مصقولا بنشوة المؤلف بالانتهاء منه. لذا من الأفضل ، بل من الضرورى أن تبتعد عن عملك الجديد لمدة يومين على الأقل أو أسبوع على الأكثر ، كما لو كان طفلا لست مستعداً بعد على لتبنيه . ضعه جانبا ، حتى يصفو ذهنك وتتجدد قوة ملكتك النقدية ، ولابد لكاتب القصة أن يكون بعقليتين ، عقلية المغامر المقامر غير الواعى ، وعقلية الناقد . ونجاحك ككاتب يكمن فى فصل الاثنين خلال ممارستك لابداعك . فى المرحلة التالية ، حين يأتى الوقت لتجلس وتعيد قراءة قصتك ، دون قلم فى يدك ، محاولا أن تراها وكأن كاتبا آخر قد كتبها ، فلقد تركتها مدة كافية ، وكما يقول سدنى كوكس «أنت لا ترى ما شعرت به وفكرت فيه أثناء كتابتها ، ولكن ترى ما هو مكتوب على الورق الآن» ، ويمكنك أن تقوم بإطالة الفقرات التى ترى أنها بحاجة لذلك ، وتعيد كتابة البعض إذا أردت ، وعليك أن تحذف وتشطب، بذهن صاف ، الحشو والاستعارات والجمل الزائدة . واصغ الى الحوار الذى كتبته ، اقرأه بصوت عال ، وتخيل الشخصية أو الوجه الذى يقوله، وحاول دائما أن تربطه يجوهر الشخصية وطريقة كلامها وتطور الموقف أو الحبكة ، واكتب حوارا جديدا إذا بدا لك الحوار المكتوب غير مناسب، أو اكتب حوارا إذا لم يوجد هناك حوار ورأيت ذلك ضروريا ، أكمل الوصف وكثف ما تراه مسرفا ، وأضف مقاطع جديدة للتأكيد أو لتطور

الدراما اذا لزم الأمر ، ثم اكتب قصتك كلها ثانية ، لا تتبع ما يفعله بعض الهواة بالاستعانة بصفحات من الكتابة السابقة فى الكتابة الجديدة .

كان «راى برادبورى» فى العشرينات من عمره يكتب قصة كل أسبوع ، مخططا لعمله بالشكل التالى : يكتب المسودة الأولى يوم الاثنين ، والثانية يوم الثلاثاء ، والثالثة يوم الاربعاء ، والرابعة يوم الخميس ، والمسودة الخامسة والأخيرة يوم الجمعة ، ويرسل قصته الى صحيفة أو مجلة يوم السبت ، ويبدأ يوم الأحد بالتفكير بقصة جديدة . بمعنى أنه يكتب القصة خمس مرات فى الاسبوع ، لكن هذا نادرا ما يكون ضروريا إذا ابتعدت عن قصتك فترة ولم تبتعد بخيالك بعيدا عن الموضوع .

من الضرورى ، بالطبع أن تكتب القصة أكثر من مرة لتصل إلى شكلها النهائى ، ومن الأفضل لو كتبها لك أحد على الآلة الكاتبة ، فذلك يبعد قصتك عن استحواذك الشخصى ، ويعرضها لحكم شخص آخر بطريقة لطيفة ، فهناك عقل آخر وعينان مختلفتان يتتبعون منطقك بطريقة قد لا يوفرها لك قارئ صديق تثق به فى هذه المرحلة ، وسيدفعك ذلك للتفكير فى شئ آخر ، فقصتك الآن فى أيدى غريبة ، هل ستبدو لك هى نفسها حين تعود إليك ؟ فالطابع على الآلة الكاتبة ليس شيئا آليا ،

لكنه عين أخرى وفكر آخر ، وقد تود لو تعرف رأيه بطريقة عامة ، ومثل طفل أرسلته الى المدرسة فى أول يوم ، فإن مخطوطتك تواجه شيئا غير رضاك الخاص وحبك ، فقد بدت للعيان .

أخيرا ، ادرس قصتك ككل ، كما لو أنك مازلت قارئا آخر ، هل التتابع طبيعى ؟ والاحداث حتمية ومنطقية ؟ هل سيتجاوب المحرر مع شخصياتك أو على الأقل تستغرقه تصرفاتها كما كتبتها بحيث يأخذ القصة وكاتبها بشكل جدى ؟ هل بداية القصة واسطرها وفقراتها الأولى مؤثرة ومغرية بما فيه الكفاية ؟ بحيث تضطر القارئ أن يستمر فى القراءة ؟ وتثير مهارتك والبناء الفنى لعملك أفكاره الخاصة ؟ هل الوصف متقن ؟ أو هل الجوانب المادية لمشاهدك وشخصياتك تترك القارئ دون فكرة واضحة عن الصور والخيالات التى تريد ايصالها إليه؟ وهل مشاهد الحركة مناسبة وكافية لإحداث الأثر الدرامى ؟ هل يمكن أن تكـون القصة أكثر احكاما وكثافة وأقرب الى عملية التنفس الطبيعى ؟ هل تكتب بأسلوب القصة القصيرة أم أن اسلوبك أقرب إلى الأسلوب الروائى ؟.

منذ حوالى نصف قرن ، كتب شروود اندرسون قائلا : «يكمن الخطر فى خواء كثير من الكلمات التي نستخدمها» فكل كلمة يستخدمها كاتب القصة لابد أن يكون لها معنى ووزن واحساس وخصوصية .

ونأتى أخيرا إلى السؤال المهم : هل يمكن تعلم كتابة القصة ؟

الإجابة : نعم إذا كانت هناك موهبة وإرادة . نعم ، إذا كان المعلم لا يفرض أفكاره الخاصة على طلابه الأكثر هشاشة ، نعم إذا امتزج التعليم بضرورة الحياة والملاحظة والكتابة والعطاء والقبول والمنافسة والعمل والحب . نعم إذا كانت الكتابة مهمة بدرجة كبيرة للكاتب لكى يجعل منها حبه الكبير وربما أهم من أى شئ آخر يمكن أن يتعلق به . وإذا قرأ أعمال الكُتَّاب القدماء والمعاصرين على السواء ، ثم القراءة فى العلوم والشعر وعلم النفس والتاريخ ، وقبل ذلك كله أعمال العمالقة من كُتَّاب القصة القصيرة ، وأن تكون فى متناول يده كاقرب جهاز للتليفزيون ، فالقصة القصيرة هى التى تهمنا أكثر هنا ، والتركيز عليها لا يتأتى بسهولة فى حياتنا المعاصرة ، وتبرير رغبتنا فى التميز ، حين نكرس وقتنا لقراءة القصة القصيرة ، قد يكون من الصعب الحصول عليه ، حيث هناك الكثير من المتطلبات الأخرى التى تشغل معظمنا .

فى حلقات الدورات التدريبية لتعلم القصة القصيرة ، تدور أحيانا مناقشات فظة وليست دقيقة دائما وأحيانا محبطة ، ولكن هناك يمكن أن نجد على الأقل زملاء حرفة يأخذون عملنا بجدية ، ولا يلتفت إلى الأفكار المجردة أو مشاريع القصص ، فلابد أن يكون لديك قصة متكاملة تستحق الاهتمام بها ، وهذه الحقيقة فى ذاتها قيمة ، فإذا كنا

مجيدين ، فسنجد دلائل تشير الى ذلك ، وإذا لم نكن ، فسنرى كيف نجح الآخرون أو ننفض يدنا من الموضوع .

فى الحلقات الدراسية للقصة القصيرة التى قمت بالتدريس فيها ، كنت أعطى مع دروس الكتابة العادية ، قراءة مكثفة فى شكل القصة القصيرة ، فالتشبع بهذا النوع الأدبى لا يقدر بقيمة لمن يعد نفسه ليكون قصاصا ، حتى لو تمرد فى النهاية وحطم كل التيارات والاتجاهات ، ولم يكن هناك سابقة لما يعمله ، فإن قراءته المكثفة هى التى دفعته إلى ذلك .

إن سلفادور دالى فى أصالته وتحطيمه للعادات القديمة ، التى أدهشت العالم قال مرة لحفيدى إذا أراد أن يكون رساما ، فعليه أن يواظب أولا على دراسة واستيعاب كل الطرق التقليدية وأعمال العمالقة ، ثم عليه أن يتعلم كيف يرسم الحياة بصدق ، ليس قبل ذلك قد تتاح له الفرصة أن يصلح العالم ، ويضع رؤيته الخاصة في حقل الفن الذى يعمل به .

الفصل التاسع :

ملاحظات أخيرة

نختار الكثير ، لكن القليل هو الذى نوافق على نشره . الاختيار هو ما يفعله القارئ المختص فى المجلة أو دار النشر ، وهو قارئ ثقة تعرض عليه المخطوطات التى وردت دون أن يطلبها أحد ، أما المخطوطات التى طلبت المجلة أو دار النشر تأليفها ، أو نوقشت مقدما مع المحرر المسئول .. فهى أمر آخر .

والقصص التى يختارها هذا القارئ المختص ، يرفعها إلى المحرر المسئول ، وذلك يقصر طريق اتخاذ القرار بالنسبة لنشرها .

والآن ، وقد كتبت النسخة الأخيرة من قصتك ، مطبوعة بشكل منظم ونظيف ، مع فراغ مزدوج بين كل سطر وآخر ، وهامش واسع على الجانبين ، وصفحات مرقمة ، ودون أن تملأ الصفحة حتى نهايتها كما يفعل البعض ، أو تلصق بعض صفحات قصتك بالصمغ لتتأكد حين

تعاد إليك أن المحرر قد قرأها - فذلك لن يشعرك بالارتياح إذا أعيدت إليك دون أن تقرأ .

من الممكن أن ترسل قصتك بمظروف كبير إذا أردت أن لا تثنى ورقها ، وعليك أن ترفق مظروفا آخر عليه عنوانك وطوابع البريد إذا أردت استعادتها فى حالة الرفض . ثم عليك الانتظار فترة تتراوح بين أسبوعين وشهر حتى ترد عليك المجلة ، او دار النشر إذا كنت قد أرسلت كتابا . وإذا لم تتلق ردا بعد ذلك ، يمكنك أن ترسل رسالة مهذبة أو مرحة إذا أمكن إلى المحرر تسأل عن مخطوطتك ، هذا إذا لم تتحمل أعصابك الانتظار .

عملية الاختيار ، التي لا تراها بالطبع تتم على الشكل التالى ، كما كنا نفعل فى مجلة «القصة» .

حين نتسلم قصتك نسجلها على «كارت» خاص ، ثم فى سجل خاص أيضا ، ونضعها مع كومة القصص الأخرى التى وصلت إلى المجلة دون طلب خاص وذلك ، فى انتظار القارئ المتخصص لقراءتها ، وقد يكون هذا القارىء الخاص لا يعمل بالمجلة ، ويأتى على فترات ، وهو قارئ متحمس ، متفائل ، مواظب ، يحب عمله ، من هنا تبدأ عملية الانتخاب ، فالقصص التي يراها صالحة للنشر ، يرسلها إلى المحرر ، وهذا الأخير سلطاته محدودة لكنه ليس أقل تشوقا من القارئ الأول فى العثور على قصة جيدة .

إن القراءة الثانية هذه لقصتك قد تكون هى سبب تأخير الرد عليك بالأسوأ وهو الرفض . فإذا أعجبت قصتك المحرر أرسلها إلى المحرر المسئول أو رئيس التحرير ، وهذا لا يعتبر قبولا مؤكدا ، فلابد من لقاء عدة أذهان ومناقشات حول مصداقية القصة وأصالتها وحداثتها ومناسبتها للمجلة والسوق الذى توزع فيه ، ومكانها فى مشروع خطة التحرير .

كثير من القصص وصلت المرحلة الأخيرة ، ولكن تم استبعادها ، وقد لا يكون الخطأ فى القصة ، ولكن لعوامل أخرى ليست لها علاقة بقيمة القصة وهى فكرة غير مطمئنة ، لكنها وجهة نظر عليك بقبولها .

حين تقبل قصتك ، ستصلك رسالة حميمة بالقبول ، وبضع كلمات مجاملة حول كتابتك ، وملاحظة عن المكافأة التى ستتلقاها . وهذا يسعد الكاتب الذى لم ينشر من قبل ، والكاتب الذى سبق له النشر أيضا . بالنسبة للأول فأنه يصبح بمقدوره أن يفصح عن هوايته التى ربما كان يخفيها لعدة سنين ، وبالنسبة للثانى فهى تعنى أنه مازال فارسا فى ساحة القصة القصيرة وقادرا على الانتاج والنشر .

وحسب احصاء حديث لنادى القلم الدولى PEN أن مصدر الدخل الأول لكاتب القصة القصيرة هو عمله فى مجال قريب من الكتابة فى التدريس أو المكتبات أو الترجمة ، أو فى إلقاء محاضرات هنا وهناك -

برغم ما تسببه من ضجر فهى مثيرة - وبالنسبة للكاتبات من النساء فهناك ربات بيوت منهن .

تسعة بالمائة من هؤلاء المحترفين - حسب الاحصائيات - يعيشون بدخل متوسط حوالى خمسين ألف دولار فى السنة . و ١٦ ٪ منهم بدخل حوالى عشرة آلاف دولار ، والباقى فى حدود ثلاثة آلاف دولار فى العام .

المكافأة التى تعطى لكل كاتب قصة تنشر قصته ، متساوية للجميع، فالكل سواء إلا إذا كان الكاتب قد منح جائزة كنويل أو بوليتزر أو جائزة الكتاب القومى .. إلخ .

ولقد شكا الينا من ذلك ، فى مجلة القصة فى بدايتها ، وليم فوكنر قبل أن يمنح جائزة نوبل (١٩٤٩) فى رسالة قال فيها : «لقد أصابنى الجنون من محاولة الموازنة بين دخلى ومتطلبات حياتى اليومية . يبدو أن ما اكتبه ويكتبه غيرى لم يعد يساوى أى شئ» .

هناك تعبير مكرر يستخدمه الناشرون ، برغم أنهم قد لا يصدقونه فى قرارة أنفسهم «القصة القصيرة لا تبيع» .

حين نشرت مجموعتى القصصية ، وكانت معظمها قد نشرت فى المجلات قال لى المسئول عن النشر «أننا ننشر مجموعتك .. على أمل أن تستمر فى طبع رواياتك عندنا» وضاع الكتاب في أقسام البيع وسط كتب عن الكلاب والطبخ والكارتون حيث وضعوه هناك .

وقد يجعل هذا الكلام ، اليأس يتطرق إلى نفوس الكتاب أصحاب الموهبة ، التي قد تغير قصصهم القصيرة ، صورة النشر كاملة .

المهم ، هو كيف نرى نحن عملنا ، وكيف نقدم أفضل ما عندنا إلى الآخرين ، ومدى تصميمنا على المحافظة على مستوى القصة ، الذى جعلنا نقع فى حب اكتمالها فى المقام الأول . وسنظل نعمل فى هذه المهنة المبهجة والمطلوبة ، ولن نتوقف عن التعبير عن المآسى الصغيرة للجنس البشرى . وعلى الأقل ، دعنا لا نكون محبين للفن فقط ، أو مجرد كتاب نعيش فى أحلام اليقظة ، ونرغب فى لقب كاتب دون أن ننفعل بالعمل ، دعنا نحترم مهنتنا .

ومن ناحية أخرى ، دعنا لا ننكر على الهاوى استخدام موهبته ، أو حتى الفخر بها ، على أن لا يظل هاويا طوال العمر ويفتخر بأنه لم يتلوث بالاحتراف ، فأنا لا أصدق كلمة كاتب هاو ، فهو إما أن يكون محترفا لم يحقق ذاته بعد ، أو شخصا لا يتوقع أن يعمل بجد وجهد ليحقق هدفا متميزا يستحق النشر .

لسوء الحظ ، فإن اعلانات مثل «وأنت أيضا تستطيع الكتابة» شجعت أعدادا لا حصر لها من الرجال والنساء غير الموهوبين – خاصة النساء – لدخول مجال كتابة القصة القصيرة ، والمقولة الامريكية المتوارثة التى تقول بأن الانسان يستطيع تحقيق أى شئ يضعه فى

ذهنه ، ساعدت على ذلك . فكل ما تحتاجه لتكون رساما أو راقصا أو كاتبا عظيما هو أن تقتنع بذلك ، وهكذا نقع فى دائرة أحلام اليقظة من النوع غير المفيد .

ذات مرة وأنا أقوم بتدريس دورة فى القصة القصيرة فى كلية «هنتر» في نيويورك ، أحضرت لى إحدى الطالبات قصة قالت إن عشرة من المدرسين قد قرأوها ولم تقتنع بتغيير سطر واحد فيها ، برغم أنها القصة الوحيدة التي كتبتها ، وأنها ستكتب القصة الثانية بعد أن تبيع الأولي .

غامرت وقلت لها من الأفضل أن تحاول كتابة قصة أخرى مختلفة وسأقدم لها نقدى ومساعدتى . فاندفعت بعاصفة شديدة إلى عميد الكلية مطالبة بفصلى لأنى لا أتعاطف مع كاتبة موهوبة- حساسة . وأتوقع أنها منذ ذلك اليوم مازالت تحمل قصتها الوحيدة من ناقد الى محرر دون أن تغير كلمة فيها .

علي أية حال . التحق بدورات عن القصة القصيرة إذا أردت ، وخصص قدر ما تستطيع من الوقت للكتابة والقراءة والتفكير بقصص قصيرة . واقبل النصيحة ولكن ارفض النقد الذى تراه غير مناسب لهدفك ، لا تخف من التغيير أو التجريب ، وكن متفتح العقل لطرق القص الجديدة ، اكتب بعشق كامل لما يمكن أن توفره لك اللغة ، لتصل الى كتابة أفضل وأفضل .

ونأتى أخيرا إلى أهم نصيحة يمكن أن يوجهها كاتب إلى آخر ، يأمل فيه أن يكتب أعمالا جيدة .

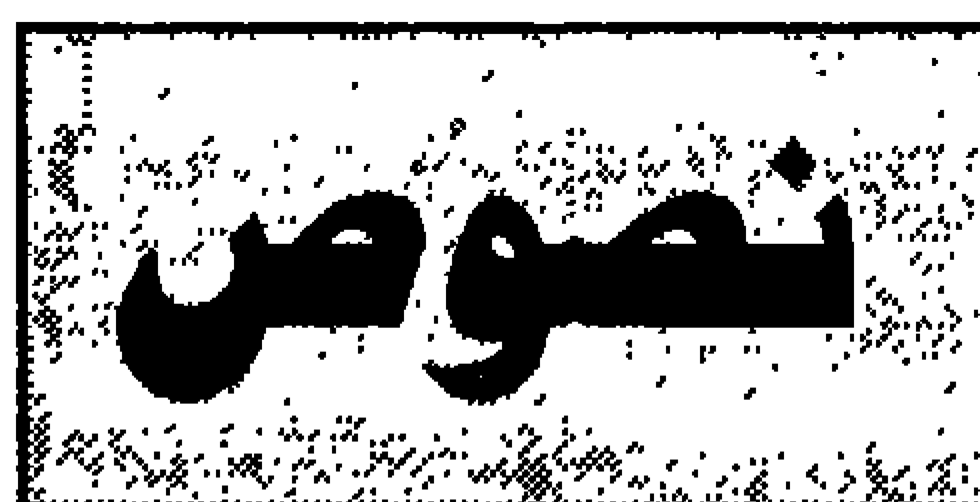
فالقاعدة الأولى مازالت أبسط القواعد وأسهلها فى التنفيذ : إنها ببساطة اقرأ ، أرجع إلى كتاب القصة العظام ، الذين لم تتجاوز أعمالهم بعد ، ربما تجد الموضوع أو الأسلوب له طابع عصر سابق ، لكن حلل لماذا بقيت هذه القصص حتى الآن فى ذاكرة الناس . ثم اقرأ أفضل معاصريك ، وهناك كتب تُنشر فيها أجمل القصص المعاصرة ، واحكم عليها أولا بالمستوى الذى تأمل أن تصل إليه فى كتاباتك ، لكن لا تقلد أحدا حين تكتب .

اقرأ ، لأنى استطيع أن أشرح بلا نهاية ، كيف يمكن أن تكون القصة القصيرة أو لا تكون ، والنتيجة كمن يحاول وصف المرآة إلى رجل همجى لم ير مرآة فى حياته تعكس صورته .

القصة القصيرة هى مرآتنا ، مرآة نفوسنا وهى الحياة كما نعرفها، والعواطف البشرية ومشاكلها كما خبرناها ، وكل الالوان التى يمكن أن نفصلها عن نطاق الطيف في الكون ، انها صورتنا تعود إلينا كما لم نتوقع أن تكون عليه .

لقد قيل إن الابداع ليس إلا دافع لخلق النظام فى الفوضى ، وأضيف بأن ذلك يسمح للكاتب بأن يتناول كل شئ فى قصصه ، فقط

عليه أن يبتعد عن العواطف السقيمة ، والحشو ، والشفقة على النفس ، والوعظ ، والخطأ فى النحو ، والتعصب والكسل ، وبذلك نتجنب الضجر والركود لآخر العمر .


نصوص

الشاب الجرىء على العقلة الطائرة

قصة : وليم سارويان

١ - رقود

وسط فضاء لا نهائى ، أستلقى أرقا ، أمارس الضحك والمرح والسخرية وما شابه ، لروما وبابل ، بأسنان مطبقة ، وذكريات ، وكثير من دفء بركانى ، شوارع باريس ، سهول أريحا ، إنسياب متواصل كإحدى الزواحف تنزلق فى المجرد غير الملموس ، كقائمة عرض لألوان مائية ، البحر والسمك ذى العيون ، سيمفونية ، طاولة فى ركن فى برج ايفل ، موسيقى جاز فى دار للأوبرا ، منبه ودقات رقصة الهلاك ، حوار مع شجرة ، مع نهر النيل ، سيارة كاديلاك تنطلق إلى كانساس ، زئير ديستويفسكى ، والشمس السوداء .

هذه الأرض ، وجه من عاش ، شكل بلا وزن ، بكاء على الجليد ، موسيقى بيضاء ، الزهرة الرائعة بحجم العالم مرتين ، سحب داكنة ،

وحملقة فهد محبوس فى قفص ، فضاء أبدى ، والسيد «اليوت» بأكمام مشمرة يخبز خبزا ، فلوبير وجى دى موباسان ، إيقاع بلا كلمات لصباح باكر ، فنلندا ، رياضيات منشاة تماما تنزلق على السطح كالبصل الأخضر على الاسنان ، القدس ، طريق التناقض .

أغنية الانسان الصعبة ، الهمس الباء ع لشخص لا يرى ، ولكنك تحس بوجوده بغموض ، اعصار فى حقل الذرة ، مباراة شطرنج ، بيت الملكة ، الملك ، كارل فرانز ، التيتانيك السوداء ، السيد شابلن بيكى ، ستالين ، هتلر ، الكثير من اليهود ، غدا الاثنين ، لارقص فى الشوارع ، يا لحظة الحياة الممتعة ، انتهى العرض ، الارض مرة ثانية .

٢ - يقظة تامة

لبس - الذى مازال يعيش - وحلق ذقنه ، ابتسم لنفسه فى المرآة قال : أنيق جدا ، أين ربطة عنقى (وكان يرتدى واحدة) ، القهوة وسماء رمادية ، ضباب المحيط الهادى ، عربة تتهادى فى الشارع ، الناس تذهب إلى المدينة ، نهار آخر ، نثر وشعر ، نزل السلالم برقة ، وبدأ يسير فى الشارع ، خطر بذهنه فجأة أن الانسان يحيا فقط أثناء النوم، هناك فى ذلك الموت الحى، نقابل أنفسنا والاماكن النائية ، الاله والقديسين ، اسماء اسلافنا ، وكثافة اللحظات البعيدة ، هناك تنبثق القرون الغابرة فى لحظة ، ويصبح الرحب ضيقا ، انها ذرة الابدية الملموسة .

مشى في ضوء النهار متيقظا كما ينبغي ، يثير ضجة بكعبيه ، مدركا بعينيه الوجود الظاهرى للشوارع والمنشآت ، الحقيقة التافهة للواقع ، وترنم بخور داخل نفسه «عبر الهواء طار ، بسهولة كالطائرة ، الشاب الجرئ على العقلة الطائرة» .

ضحك من كل قلبه ، كان صباحا رائعاً بالفعل ، صباحاً رماديا باردا ، كئيبا ، يليق بحيوية داخلية ، قال : أين أنت يا إدجار جيست ، كم أتشوق إلى موسيقاك .

رأى قطعة معدنية في أحد شقوق الماء فى الطريق ، كانت بنسا مؤرخا ١٩٢٣ ، وضعه فى راحة يده وتفحصه عن قرب ، متذكرا ذلك العام ، ومفكرا فى «لنكولن» المطبوعة صورته الجانبية على العملة ، لا يوجد ما يمكن أن يفعله المرء ببنس واحد .

فكر : سأشترى سيارة ، وارتدى زى شاب غندور ، وأزور بغيا فى فندق ، أشرب وأتعشى ، ثم أعود كما كنت ، أو اسقط البنس فى فتحة ميزان وأعرف وزنى .

الفقر فضيلة ، والشيوعيون - لكن من المرعب أن تكون جائعا . يالشهية المعدات الجائعة ، وكم هى مغرمة بالطعام .

كم هو محتاج للطعام ! كل وجباته عبارة عن خبز وقهوة وسجائر ، ولم يعد لديه خبز الآن ، والقهوة ، للحق ، دون خبز لا تسد الرمق ، ولا يوجد أعشاب فى الحديقة يمكن طبخها كما تطبخ السبانخ .

لو عرفت الحقيقة ، فهو على وشك الموت جوعا ، وهناك الكثير من الكتب التى عليه قراءتها قبل أن يموت . وتذكر الايطالى الشاب فى مستشفى بروكلين ، موظف صغير مريض يدُعى موليكا ، تذكره وهو يقول بيأس : أود لو رأيت كاليفورنيا مرة أخرى قبل أن أموت وفكر بجدية : على الأقل يجب أن أقرأ «هاملت» ثانية أو ربما «هلكيرى فن» عندما مرت به فكرة الموت ، أصبح فى يقظة تامة ، وهى حالة طبيعية ترافق الصدمة الدائمة ، وفكر : قد يموت الشاب دون زهو ، وهو بالفعل يكاد يموت جوعا . الماء والكلام جميلان ، يشبعان فراغا وهميا ، لكنهما، فى حالته، لا يكفيان . لو كان هناك عمل يقوم به ، يكسب منه ، عمل تجارى تافه ، يجلس إلى مكتب طوال اليوم يجمع ويطرح ويقسم ويضرب أرقاما تتعلق بالتجارة آنذاك قد لا يموت . سيشترى طعاما ، كل أنواع الطعام : أطعمة لذيذة من النرويج وايطاليا وفرنسا لم يسبق له تذوقها ، كل أنواع اللحم ، بقر ، وضأن ، وسمك ، جبنة وعنب وتين وكمثرى وتفاح وشمام ، سيعبد الطعام حين يُشبع جوعه . سيضع عنقودا من العنب الاحمر فى طبق ، وبجانبه تينتان سوداوان ، وحبة كمثرى صفراء كبيرة وتفاحة خضراء وسيمسك بشقة شمام ويقربها من أنفه لساعات ، سيشترى أرغفة بنية كبيرة من الخبز الفرنسى ، وخضراوات من كل نوع ، سيشترى الحياة .

ومن تلة مرتفعة ، رأى المدينة تقف شامخة فى الشرق ، أبراج كبيرة تزدحم بالبشر أمثاله ، لكنه أصبح فجأة خارج هذا كله ، غدا متأكدا تماما أنه لن ينال القبول أبدا ، وأنه بشكل ما قد غامر بالوجود على كوكب آخر ، أو ربما جاء فى غير عصره ، وعليه أن يخرج وهو شاب فى الثانية والعشرين ، لم يكن هذا التفكير محزنا ، قال لنفسه : قد أكتب قريبا طلبا للسماح لى بالحياة ، لقد تقبل فكرة الموت دون شفقة على نفسه أو على البشر ، واثقا أنه على الأقل سينام ليلة أخرى ، فأجرة غرفته مدفوعة لليلة أخرى ، إذن هناك غد آخر . بعد ذلك ، قد يذهب إلى المكان الذى يذهب إليه من لا مأوى لهم . قد يذهب إلى جيش الخلاص – يغنى لله والمسيح ، فينقذ نفسه ويأكل وينام . لكنه كان يدرك أنه لن يذهب ، فحياته لها خصوصيتها ولا يريد أن يدمر هذه الحقيقة ، وأية بدائل أخرى ستكون أفضل .

وترنم «فى الهواء على عقلة طائرة» ، مسلية ومدهشة بشكل عجيب ، عقلة إلى الله أو للاشئ ، عقلة طائرة إلى أبدية ما ، دعا من قلبه ، أن يمنح القوة ليطير برقة .

قال : أملك سنتا واحدا ، عملة أمريكية ، سألمعه فى المساء حتى يتألق كالشمس ، وسأقرأ الكلمات المكتوبة عليه .

إنه الآن يسير في المدينة نفسها ، وسط رجال أحياء ، هناك مكان أو مكانان يمكنه الذهاب اليهما ، رأى انعكاس صورته في واجهات المحلات الزجاجية ، وخاب أمله من مظهره ، لم يبد قويا كما يشعر ، بل جسما عاجزا في كل عضو منه ، رقبته وكتفاه ، ذراعاه وركبتاه وجذعه، لن يجدى هذا ، وبجهد كبير جمع كل اعضاء جسمه المفككة وشد نفسه، ليبدو مظهره الخارجي منتصبا وصلبا .

مر على مطاعم عديدة ذات نظام رائع ، رافضا أن يلقى بنظرة عليها، حتى وصل أخيرا إلى بناية دخلها ، صعد في مصعد إلى الطابق السابع ، ودلف الى قاعة ، فتح باب غرفة فيها ودخل مكتبا لوكالة تشغيل العاطلين ، كان هناك حشد من الشباب ، ووقف في ركن منتظرا دوره . وبعد طول انتظار تلقى المنحة الكبرى بأن تستجوبه عانس نحيفة، مشتتة الذهن في الخمسين من عمرها .

سألته : ماذا يمكنك أن تعمل ؟

ارتبك ، ورد بطريقة مثيرة للعطف : أستطيع أن اكتب .

قالت : تعني أنك خطاط ..

أجاب : نعم ، لكني أعني أني أستطيع الكتابة .

قالت بنبرة غاضبة : تكتب ماذا ؟

أجاب ببساطة : نثرا .

سادت لحظة صمت ، وقالت أخيرا : هل تطبع على الآلة الكاتبة ؟

قال الشاب : بالطبع .

أضافت : لدينا عنوانك وسنتصل بك حين نحتاجك ..

لا يوجد لك عمل الآن .. لا شئ .

وكان الأمر بالمثل فى الوكالة الثانية ، عدا أن الذى استجوبه كان شابا مغرورا يشبه الخنزير .

ومن وكالات تشغيل العاطلين إلى المتاجر الضخمة ، ذات الأبهة الكثيرة ، كان يسأل بتذلل عن عمل ، والنتيجة لا يوجد عمل متوافر .

لم يشعر بالتعاسة ، والغريب أنه حتى لم يشعر بأن كل هذا الجنون يعنيه شخصيا .

هو شاب فى حاجة إلى النقود ليستمر فى الحياة ، ولا طريقة للحصول على النقود إلا بالعمل ، والعمل غير متوافر . مشكلة عبثية تماما ، وتمنى لآخر مرة أن يتمكن من حلها .

بدأ يدرك معنى حياته ، كانت فى معظمها ساذجة ، عدا لحظات قليلة ، ولكنه الآن ، فى الدقيقة الأخيرة ، قرر أن معلوماته عن حياته قليلة أو غير دقيقة .

مر بمطاعم ومتاجر لا حصر لها ، وهو فى طريقه الى جمعية الشبان المسيحيين ، هناك أحضر ورقة وحبرا وبدأ يكتب طلبه .

استمر لمدة ساعة يدبج وثيقته عن حياته ، ثم فجأة بسبب رداءة الجو فى المكان ، وبسبب الجوع ، وهنت قواه ، وبدا كأنه يسبح بعيدا عن نفسه بخطوات كبيرة ، غادر البناية بسرعة ، وفى حديقة المدينة المركزية فى مواجهة المكتبة العامة ، شرب حوالى ربع جالون من الماء ، وعاوده الانتعاش ثانية . وكان رجل عجوز يقف وسط شارع مشجر مسدود ، يحيط به الحمام والنوارس وطائر أبى الحناء ، يغرف حفنات من فتات الخبز من حقيبة ورقية كبيرة ويلقيها للطيور بنظرة ممتنة .

وكاد احساس غائم أن يدفعه لطلب كمية من فتات الخبز ، لكنه لم يسمح للفكرة حتى أن تصل إلى الوعى . دخل المكتبة العامة ، وقرأ «بروست» لمدة ساعة ، ثم حين شعر بأنه يسبح ثانية اندفع إلى الخارج وشرب كمية أخرى من مياه النافورة فى الحديقة العامة ، ثم بدأ مشواره الطويل الى غرفته .

قال : سأذهب لأنام فترة أطول فلا يوجد ما أفعله .

أدرك الآن أنه متعب وضعيف بدرجة كبيرة ولا ضرورة لخداع النفس بأنه على ما يرام ، ومع ذلك فإن عقله مازال يقظا مرنا ، كما لو

أنه كيان منفصل ، مصرا على امداده بالنكات الوقحة عن معاناته الجسدية الواقعية جدا .

وصل غرفته في فترة مبكرة من بعد الظهر ، وجهز القهوة فورا على موقد الغاز الصغير . لا يوجد حليب فى العلبة ، ونصف الرطل سكر الذي اشتراه منذ أسبوع قد نفد .

شرب كوبا من القهوة السادة وهو يجلس على سريره ويبتسم كان قد سرق من جمعية الشبان المسيحيين دستة من أفرخ ورق الرسائل ، أملا فى أن يتم وثيقة حياته عليها ، لكن فكرة الكتابة الآن بدت له مزعجة ، فلا يوجد لديه ما يقال .

بدأ يلمّع قطعة النقود التى وجدها فى الصباح ، ولقد منحه هذا العمل العبثي متعة كبيرة بشكل ما . لا توجد عملة أمريكية يمكن تلميعها بهذا الشكل سوى البنس . كم بنسا يحتاج ليستمر فى الحياة ؟ ألا يوجد شئ آخر يمكن بيعه ؟ نظر فى أرجاء الغرفة الخالية ، ساعته راحت وكتبه أيضا ، كل تلك الكتب الجميلة ! تسعة منها باعها بخمسة وثمانين سنتا ، إنه يشعر بالعلة والخجل لمفارقة كتبه . لقد باع أجمل بدله بدولارين ، لا يهم ، فهو لا يهتم اطلاقا بالملابس ، لكن الكتب أمر مختلف . انتابه الغضب لفكرة عدم احترام من كتبوها .

وضع البنس اللامع على الطاولة ، متطلعا إليه بسعادة بخيل ، قال : ابتسامته جميلة ، ونظر إلى الكلمات دون أن يقرأ : سنت واحد الولايات المتحدة الامريكية .

وقلب البنس ورأى صورة لنكولن والكلمات : بالله نثق ١٩٢٣ - الحرية .

قال : كم هو جميل .

أصبح نعسان ، وشعر بشبح المرض ينتشر فى دمه ، شعور بالغثيان وبتفكك فى جسده ، وقف حائرا بجانب السرير ، لا شئ يمكن أن يفعله سوى النوم ، وبالفعل شعر بنفسه يخطو خطوات واسعة فى سائل الأرض سابحا الى البداية . سقط وجهه على السرير قائلا : على الأقل كان يجب أن أعطى البنس أولا إلى طفل ، فهو يستطيع أن يشترى الكثير به ، ثم برقة وانتظام ، خرج من جسده برشاقة شاب على العقلة ، وللحظة أبدية كان هو كل الاشياء فى أن : الطائر والسمكة والحيوان القارض والزاحف والانسان ، وكان أمامه محيط من أثر الانسان يتموج فى الظلام بلا نهاية . احترقت المدينة ، وتمردت الجماهير المحتشدة ، والأرض تدور مبتعدة وحين أدرك أنه يفعل مثلها ، أدار وجهه الضائع إلى السماء الخالية وأصبح بلا حلم ولا حياة ، لقد اكتمل .

• صيف هندى

قصة : أرسكين كالدويل

ارتفعت المياه ثانية ، فقد ظلت تمطر يومين كاملين ، وامتلأ الجدول حتى حافتيه . ابتدأ الفجر رماديا ذلك الصباح ، ولأول مرة ، فى ذلك الاسبوع ، كان الجو دافئا والسماء زرقاء .

خلع «ليزلى» قميصه ، وفك أزرار سرواله ، لم يكن يهتم بإرتداء ملابس داخلية ، فبمجرد ان يدفأ الجو فى الربيع ويبدأ المرء يسير حافيا ، فإن ليزلى يضع ملابسه الداخلية فى الدولاب لتظل هناك حتى الخريف ، كانت أمه ميتة ، وأبوه لا يهتم أبدا بالملابس الداخلية .

قلت «لو معنا جاروف لنخرج بعض هذا الوحل ، فكلما أمطرت يمتلئ هذا الجحر بهذه المادة ، ولو ذهبت الى البيت لاحضر واحدا فقد يروني ويشغلونني بشئ آخر ولا يسمحون لى بالعودة » .

وبينما كان يعلق قميصه وبنطلونه على أحد الاغصان ، خضت في الماء الاصفر ، وكان الطين فى القاع بارتفاع الكاحل ، وكان هناك مئات

من أفرع النبات مغروسة فى الطين ، انتزعت بعضا من أكبرها ورميتها على الضفة الاخرى بعيدا عن الطريق .

سألنى ليزلى : كيف الماء يا چاك ؟ ما عمقه هذه المرة ؟

خضت الى وسط الجدول حيث يكون التيار اكثر قوة ، وصلت المياه الصفراء حتى كتفيّ . قلت : تقريبا للرقبة . لكن هناك مليون فرع مغروسة فى القاع . أسرع وساعدنى لانتزاع بعضها .

وجاء ليزلى «يطرطش» فى الماء وكانت المياه الموحلة تبقبق وتقرقر حول وسطه .

قال ليزلى وهو يلوى «بوزه» : أراهن أن هناك من يأتى هنا كل يوم ليلقى بهذه الافرع الميتة هنا .. لا أفهم كيف تأتى كل هذه الأغصان هنا .. فإنها لا تقع فى الجدول بهذه السرعة .. هناك شخص يرميها هنا .. وأراهن أنه ليس بعيدا .

قلت : ربما «هوز» العجوز .

– بالتأكيد هو ، وأنا أعنيه بكلامى . أراهن بأى شئ بأنه يأتى كل يوم هنا ليلقى بالأفرع الجافة .

اصطدم بفرع مدبب ، فأمسك بأنفه وأغمض عينيه بشدة وغطس فى الماء وجذبه وخرج .

قال : أتعرف هوز العجوز هذا .. أخبر والدى أننا أخفنا أبقاره السبت الماضى .. وجعلناها تجرى كثيرا حتى أنه لم يستطع حلبها فى المساء . هذا الجدول ليس ملكا له . إنه لا يملك شيئا هنا عدا ذلك المرعى فى الناحية الأخرى من السياج ، ولم نعبر سياجه هذا العام .. أليس كذلك ؟ .

– أنا لم أر بقراته هذا الصيف ، ولو رأيتها لما جريت وراءها .. وهو يتقول علينا لأنه لا يريدنا أن نسبح فى هذا الجدول .

فجأة ظهرت حزمة من الأفرع المكسرة وقطع الخشب تشق طريقها طافية على وجه الماء ، رفعت يدىّ كأنى سأحتضنها ، امسكت بها ورميتها بعيدا .

قال «ليزلى» شيئا وهو يغطس ليخرج فرعا آخر ، كان الوحل فى قاع الجدول كثيفا حتى أنك لا تستطيع أن تخطو خطوة دون أن تنتزع قدميك من الطين اللزج ، ولولا ذلك لوقعنا على وجوهنا .

ورمى «ليزلى» بالفرع الكبير بعيدا ، و قال :

– لو جاء هوز العجوز ونحن هنا .. وطلب منا أن نخرج من الجدول .. فسنلقى عليه الوحل .. أليس كذلك يا جاك ؟ ألا تحب أن تفعل معه ذلك ولو مرة واحدة ؟.

- ذلك ما يجب أن نفعله به .. لكن من الأفضل ألا نفعل .. فسيذهب فورا ليقول لعائلتى ووالدك .

قال ليزلى «لاويا بوزه» : أنا لا أخاف هوز العجوز .. لن يخدعنى ولن يفعل شيئا .. إنه يخاف أن يقول لأحد .. أنه يعرف إننا قد نمسكه يوما ونلطخه بالوحل ..

قلت : لا أعرف ، لقد تقوّل علىّ يوما بأنى ألقيت بذكر البط فى حظيرة الدجاج .

- كان ذلك منذ زمن طويل .

توقف «ليزلى» وأنصت ، هناك شخص يدوس على أفرع الشجر الجافة ، وكان صوت تكسر الخشب عاليا برغم طرطشة وبقبقة الماء فى الجدول .

قال كلانا : ما هذا ، وسألنى ليزلى : من هذا ؟

قلت : اصمت ، اغطس واهدأ .

وكنا نسمع شخصا يسير وراء الاشجار ويدوس الاغصان والاوراق الجافة ، غطسنا فى الماء حتى لم يبق سوى رأسينا فوق الماء .

همس «ليزلى» من هو ؟

هززت رأسى وأنا أمسك بأنفى تحت الماء ، وغطس «ليزلى» حتى لم تظهر منه سوى عينيه وقمة رأسه . وأمسك بأنفه تحت الماء بكلتا يديه .

كان الماء عاليا ، وكان الطين الناعم المختلط به يصدر أصواتا «كالقرقرة» رن صداها من أول لآخر الجدول .

وانشقت أغصان الشجر عن «جين» ، وحين رآها «ليزلى» رفع رأسه فوق الماء ليتنفس ، وأحدثت «البقبقة» ضجة أخافت ثلاثتنا للحظة .

كانت «جين» ابنة هوز العجوز ، وهى فى عمرنا تقريبا ربما أكبر سنة أو سنتين . كانت تنظر إلى ملابسنا المعلقة على أفرع الشجر ، تخزنى ليزلى بكوعه ، وقال بغلظة ليخيفها :

– ماذا تفعلين عندك ؟

قالت : ألا يمكننى القدوم هنا إذا أردت .

– لا تستطيعين القدوم هنا ونحن نستحم .. أنت لست ولدا .

قالت : أحضر وقتما أريد .. يا شاطر .. فهذا الجدول لا يخصكما .

قال ليزلى «لاويا بوزه» : وهو أيضا ليس ملكا لكم . ما رأيك ؟

قالت : إذا كان هذا رأيك يا ليزلى بليك .. فسآخذ ملابسك وأخفيها فى مكان لن تعرفه طوال عمرك .. ما رأيك ؟

اتجهت نحو الملابس ، وأمسكت ببنطلون ليزلى ، وقميصى وملابسى الداخلية ، أمسك ليزلى بذراعى وجرنى الى الضفة ، لم يكن بإمكاننا

الاسراع فى البداية ، لأننا كنا ننتزع أقدامنا من الطين فى كل خطوة نخطوها ، همس ليزلى «لازم نغطسها بالماء ... لازم نعطيها غطسا ممتازا» .

زحفنا ووقفنا على حافة الجدول ، وجرينا لنمسك بجين وهى على وشك الافلات وسط الاشجار حاملة ملابسنا .

أطبق ليزلى ذراعيه حول وسطها ، وأمسكت ذراعيها وشددتها خلفها قدر الامكان .

قالت : سأصرخ إذا لم تتوقفا .. سأصرخ بملء رئتى .. أبى فى المرعى وسيأتى حالا .. وتعرفان ما سيفعل بكما ..

قال ليزلى عابسا ومحاولا اخافتها : نحن لا نخاف أحداً .

وضعت يدى على فمها ، وأمسكتها بذراع واحدة لففتها حول رقبتها وجذبناها معا ، وسحبناها إلى ضفة الجدول .

قال ليزلى : ألا تريد أن تغطسها .. إنها تتقول الاكاذيب عنا عند العجوز هوز .. انها عصفورة ثرثارة .

قلت : سنغطسها .. لكن افرض أنها ذهبت واشتكتنا ؟

– حين نغطسها لن تتقول علينا .. وسنجعلها تقسم بأنها لن تخبر أحدا .. أنها التى تلقى بأفرع الشجر فى الجدول كل يوم أراهن بكل شئ أنها هى التى تفعل ذلك .

كانت جين عاجزة عن فعل أى شئ ونحن نمسك بها ، فليزلى يقبض عليها من وسطها بذراعيه ، وذراعي الأيسر يحاصر عنقها ، حاولت أن تعض يدى الموضوعة على فمها ، ولكن فى كل مرة كانت تحاول ذلك . كنت أضغط على عنقها بشدة فتتوقف .

كنت خائفا من تغطيسها فى الماء ، لأننا فعلنا ذلك يوما بولد ملون اسمه «بسكو» وكدنا نغرقه ، غطسناه عدة مرات حتى لم يستطع التنفس وارتخى جسمه كله ، فجررناه إلى الأرض ودحرجناه عدة مرات، وكانت مياه الجدول الصفراء تتدفق من فمه ، وخفت أن يكون قد مات ، ولا أدرى ما كان سيحدث لو غرق بالفعل .

قلت : أعرف ما سنفعل بها يا ليزلى ؟

قال : ماذا ؟

- دعنا نلطخ جسمها كله بالوحل .

- وماذا سيحدث لو غطسناها فى الماء .. فذلك سيخيفها ويجعلها تتوقف عن القاء الأغصان في الجدول .. والافتراء علينا .

قلت : من الأفضل ألا نفعل أتذكر حين فعلنا ذلك «ببسكو» .. كدنا نغرقه .. لا أحب أن يحدث ذلك مرة ثانية ..

فكر ليزلى قليلا وهو ينظر الى ظهر «جين» التى كانت «ترفس وتخرمش» طوال الوقت ، ولكن دون أن تؤذينا ، فقد كنا نقبض عليها بشدة .

قال ليزلى وهو كذلك .. سنلطخها بالوحل .. فذلك مثل التغطيس على كل حال وسنعلمها درسا يجعلها تتوقف عن الثرثرة .

- «ستفتن» عنا على كل حال .. لذا لابد أن نقوم بعملنا جيدا .. لكن ذلك قد يجعلها تتوقف عن القاء الأغصان .. فى المكان الذى نسبح فيه .

قال ليزلى : لن تفتن عنا .. ولن تخبر أحدا حتى ولا أباها .. التغطيس والتلطيخ بالوحل يمنعان الاولاد دائما من التقول علينا .. إنها الطريقة الوحيدة لمعالجة ذلك .

قلت : هيا نلطخها .. فهى تحتاج لذلك .. ولابد لأحد أن يفعله .. وقد جاءت لأفضل من يستطيع القيام بذلك .. أراهن بأنها لن تضايقنا ثانية بعد أن ننُهى عملنا .

ألقى «ليزلى» بجين على الأرض بجانب ضفة الجدول ، ممسكا بيديها خلف ظهرها ، ورأسها إلى الأرض بحيث لا تصدر أية ضجة .

وكان عليه أن «يفرشخ» ساقيه فوق ركبتيها ليبقيها ساكنة وقال :

- اخلع عنها ملابسها يا جاك .. لقد أمسكتها لك ولن تفلت .

اقتربت لأنزع عنها فستانها ، فرفستنى فى معدتى رفسة رهيبة بقدميها ، وقعت وحين حاولت أن أقوم لم يكن بى نفس فتحت فمى محاولا أن أنادى على ليزلى فلم أستطع حتى الهمس .

قال ليزلي وهو يدير رأسه وينظر اليّ :

– ما الحكاية يا جاك ؟

جلست على ركبتي ، وتحاملت على نفسى ممسكا معدتى بكلتا يدى.

قال : ما الحكاية ؟ هل رفستك ؟

إن ليزلى يعطينى ظهره ، فلم ير ما فعلته بى .

قلت بضعف : هل رفستنى ؟ لقد بدا لى أن بغلا قد رفسنى ..

لقد كادت تزهق روحى .

قال : اجلس على قدميها .. فلن تستطيع آنذاك أن ترفسك

جريت إلى ضفة الجدول ، انتزعت حفنة كبيرة من الوحل أصدرت صوتا مسموعا ، وكانت رائحتها أنتن من رائحة حظيرة خنازير .

كانت رائحة الوحل في الجدول اسوأ من أية رائحة عرفتها ، مع أن كل ما فيه أوراق متعفنة ووحل ، لكن رائحته كالبيض الفاسد مع اشياء أخرى كثيرة .

نزعت عن «جين» فستانها وألقيته على فرع شجرة حتى لا يتسخ بالوحل ، كان ليزلى قادرا على امساك ذراعيها وإغلاق فمها فى الوقت نفسه ، فقد كانت أقل قوة منا .

قلت : إنها ترتدى ملابس داخلية .

قال ليزلى : بالطبع .. كل البنات يرتدين ملابس داخلية .. وهذا ما يجعلهن خوافات .

قلت : هل تقصدنى بذلك ؟ .. لأنك ...

قاطعنى قائلا : أنا أتحدث عنها .. إنك تلبس ملابس داخلية لأن عائلتك تجبرك على ذلك .. لكن البنات يحببن ارتداءها ولا يسرن دونها .. ولذلك هن خوافات .

قلت : «ماشى» لكن لا تحاول أن ترمينى بالكلام .. فإنى ...

قاطعنى : لن تفعل شيئا .. إخرس .. واسرع بانتزاع ملابسها ..

قلت : هل سنعريها تماما!

قال : طبعا .. وإلا كيف سنغطيها بالوحل ..

قلت : افرض أن جاء أبوها ورآنا .

- هوز العجوز لن يفعل شيئا .. سيبصق ويشتمنا .. ثم من يخاف منه على كل حال .. أنا لا أخافه .

بعد أن تصارعنا معها فترة أخرى ، وانتزعنا عنها ملابسها كلها .

قال ليزلى : لقد تعبت من الامساك بها ..

كان ينفخ كأنه جرى خمسة أميال دون راحة .

أمسكت بذراعيها ، ووضعت يدى على فمها وجلست على عنقها وأمسك ليزلى بحفنة كبيرة من الوحل ألقاها عليها ، جاءت الضربة على المعدة محدثة صوتا كضرب الماء بلوح من الخشب ، ثم ألقى بحفنة أخرى تناثرت علينا كلنا .

وبينما ليزلى يسرع الى الجدول لاحضار المزيد من الوحل ، قلبت «جين» حتى يستطيع وضع بعض الوحل على ظهرها ، لم تعد تقاوم الآن، لكنى خفت أن أخفف قبضتي عن ذراعيها أو أرفع يدى عن فمها ، حين قلبتها ، استلقت ساكنة على الأرض دون حتى أن ترفس بقدميها .

قال ليز وهو يحتضن الوحل بذراعيه ويديه : هذا سيغطيها كلها ..

كانت تحتاج هذا منذ زمن طويل حتى تتوقف عن الثرثرة . ألقى بالوحل على ظهرها وجرى ليحضر المزيد قائلا :

– افرد هذا حتى أحضر حملا آخر .. إن ذلك سيمنعها من القاء أفرع الشجر فى الجدول .. أو التقول علينا .

وبيد واحدة بدأت أوزع الوحل على ظهرها وساقيها وذراعيها وكتفيها ، وحاولت ألا يصل شئ منه الى شعرها ، فأنا أعرف كم هو صعب غسل الشعر من الوحل بماء الجدول الأصفر . .

ألقى ليزلى بحمل الوحل بجانبى قائلا : إقلبها .. فما زلنا فى البداية قلبتها ثانية ، ولم تحاول الافلات منى ، وبدأ ليزلى «يفرد» الوحل

عليها ويفركه ببشرتها ، تناول حفنة ونشرها على ساقيها وفخذيها ومعدتها ، ثم أخذ حفنة أخرى ودعكها بكتفيها وثدييها ، ولم تحاول «جين» أن تتحرك برغم أنها «تلوّث» قليلا حين دعك ليزلى الاجزاء الحساسة من جسدها بكتلة من الطين وورق الشجر ، كانت تستلقى ساكنة معظم الوقت كما لو كانت نائمة .

قلت : ذلك عجيب ..

قال ليزلى متطلعا نحوى : ما هو العجيب ؟

- إنها لا تحاول أن تتملص منا الآن ..

قال : لأنها ماكرة .. إنها تنتظر الفرصة لتهرب .. انهض ودعنى أمسكها أخذ ليزلى مكانى ، وجرفت حفنة من الوحل وبدأت ألطخها ، لم يعد الوحل لزجا ، حين بدأت أدعكها به ، كان ناعما وأملس . حين تحركت يداى عليها ، أحسست أن جسدها أكثر نعومة من جسدى ، ثم تلك الاجزاء كانت ناعمة جدا ، وحين غطيت ثدييها بالوحل ، كانا ناعمين حتى خفت أن ألمسهما ثانية . ألقيت نظرة على وجهها فرأيتها تنظر الىّ، ومن نظرتها تلك أدركت انها ليست غاضبة منا ، وفكرت بأنه لو لم يكن ليزلى هنا لتركتنى أغطيها بالوحل كما أريد .

قال ليزلى : ماذا تفعل يا جاك ؟ هذه طريقة عجيبة لنشر الوحل على جسمها .

قلت : لقد لطخناها بما يكفي ، دعنا نتركها تعود الى البيت فقد نالت ما يكفيها .

قال ليزلي عابسا : ما الحكاية ! لم نغط بعد نصف جسدها .. لابد أن نضع طبقة أخرى .

نظرت جين الى أعلى واتسعت عيناها حين قال «ليزلى» ذلك ، ولم يكن عليها أن تتكلم لأعرف ما تريد قوله .

قلت : ذلك يكفي يا ليز .. إنها فتاة ، وذلك يكفى لفتاة .

لا أدرى ، ربما شعر ليز بما شعرت به ، ولكنه لم يرد الاعتراف بذلك ، والآن وقد عريناها ولطخناها بالوحل ، لم ينس أحد منا بأنها فتاة ، لقد عاملناها كما لو كانت ولدا ، لكنها مازالت بنتا .

سألها ليز :: لو تركناك .. هل تعدينا بألا تصرخى . ؟

أومأت برأسها ، فرفع ليز يده عن فمها .

توقعنا أن تقول ماذا ستفعل بسبب ما فعلناه بها .. لكن فى اللحظة التى تحررت فيها جلست بسرعة وحاولت أن تغطى نفسها دون أن تتكلم وبمجرد أن أدركنا أنها لن تنادى على أبيها ، جرينا الى الجدول وغطسنا فى الماء بحيث لم تبد إلا رأسانا ، وبدأنا ندعك الوحل عن جسدينا .

نظرت «جين» لنا ، محاولة تغطية جسدها بقدر استطاعتها ، ولم تنبس بكلمة .

قال ليز : لنرتد ملابسنا ونسرع الى البيت سيمزقنى أبى قطعا إذا أمسكنى هنا معها وعلى هذا الشكل . أغمضت جين عينيها ونحن نندفع من الماء ، ونلتقط ملابسنا ونجرى وراء الاشجار لنلبس ، وسمعنا «جين» تطرطش فى ماء الجدول داعكة الوحل عن جسدها .

كان على ليز أن يرتدى قميصه وبنطلونه فقط ، وكان جاهزا للانطلاق قبل أن استطيع فك تشابك ملابسى وارتدائها . زرر بنطلونه وبدأ يجرى تجاه البيت وقميصه خارج السروال يبحث عن العراوى ليذرره .

كنت فى عجلة للنزول الى الجدول حين جئنا الى هنا ، فتشابكت ملابسى ، كان ليز قد ابتعد أكثر وأكثر .

قال : ما الحكاية ؟ لماذا لا تسرع ؟

– ملابسى تشابكت ..

– تستاهل لأنك ترتدى ملابسى داخلية .

– ليس بيدى وأنت تعرف ذلك ..

– هذه ليست غلطتى ..

قلت : ألن تنتظرنى ؟

قال وهو يسرع : لا أستطيع يا جاك .. لابد أن أصل الى البيت استدار وبدأ يجرى .

صرخت فيه : كنت أظنك لا تخاف هوز العجوز أو أى أحد آخر لكنه لو سمعنى ، فقد تظاهر بأنه لم يفهم ما قلته .

بعد ذهابه ، لم يكن هناك داع للاسراع ، فبالنسبة لى لا يهم الوقت الذى أعود فيه الى البيت ، فستخبر «جين» هوز العجوز بما فعلناه بها .. وسيذهب ويخبر عائلتى بالأمر ، ووددت لو لدى وقت كاف لأفكر بما سأقوله حين اضطر لمواجهة الموقف . خرجت «جين» من الجدول فى الوقت الذى كنت على وشك أن أزرر قميصى ، وكان عليها أن ترتدى ملابسها فقط وتذهب الى البيت .

سألت مبتسمة قليلا : ما الحكاية ؟ لماذا لم تجر مع ليز .

قلت : لم أستطع أن البس بسرعة .

كنت على وشك إخبارها بتشابك ملابسى وبأنى أمضيت الوقت أحاول تخليص بعضها من بعض ، لكنى رأيت ألا أفعل ذلك . اقتربت منى خطوات ، فبدأت أجرى منها .

قالت : الى أين تذهب ؟ لماذا تجرى ؟

توقفت ، استدرت ونظرت اليها ، بدت بعد أن ارتدت ملابسها كما كانت تبدو من قبل ، كان مظهرها هو نفسه ، لكنى كنت أعرف . أنه ليس المظهر ذاته بعدما حدث قرب الجدول ، ولم أستطع أن أنسى الاحساس الذى انتابنى حين كانت يداى ملوثتين بالوحل ولمست نعومة جسدها. شعرت بالاحساس نفسه وأنا أنظر اليها ، فأنا أعرف أنها بدون الفستان والملابس الداخلية فستظل دائما على الصورة ذاتها التى لمستها فيها أول مرة .

قالت : لماذا لا تنتظرنى يا جاك ؟

أردت أن أجرى منها ، وأردت أن أجرى اليها ، فوقفت ساكنا وهى تقترب .

قلت : ولكنك ستحكين .. ألن تقولى عما فعلناه بك ؟ وصلت الى جانبى ، فاستدرت وسرت معها ، مضينا خلال الغابة حتى وصلنا الطريق ، لم يكن هناك أحد على مدى البصر ، ومشينا معا حتى وصلنا منزلها .

وقبل أن نصل الى البوابة ، شعرت بيدى تلمس يدها ، لا أدرى ، ولكن شعورا ما ، سواء كان صادقا أم لا ، جعلنى أعتقد أنها أمسكت يدى بيدها لفترة ، وحين نظرت لأتأكد كانت قد استدارت ودخلت من البوابة .

انتظرت في منتصف الطريق ، حتى صعدت الدرجات الامامية وعبرت الرواق ، وقفت هناك لحظة ونفضت فستانها بيديها كأنها تتأكد بأنه لا يوجد وحل عالق به . عندما فتحت الباب ودخلت كأنها رمقتنى بنظرة من فوق كتفها أو أننى أتخيل ذلك .

على كل حال ، اعتقد أنها فعلت ، لأنى شعرت بأنها تنظر لى ، بالضبط كما أني متأكد من أنها أمسكت يدى للحظة .

قلت وأنا أجرى على الطريق الى منزلى :

- جين لن تتكلم

وظللت أردد ذلك طوال الطريق .

هو والقطة

قصة من جنوب افريقيا

حزقيال مفاليلى

«راجع محامى» ، ذلك ما قاله لى صديقى ، ولم تأت مناسبة من قبل لتقوم بينى وبين المحامين علاقة ، وسيرة المحامين تستدعى إلى ذهنى دائما صور المحاكم والاعتقالات والشرطة ، صور مرعبة ، وبرغم أنى فى مشكلة ، لكنى تساءلت لماذا لابد من محام ليساعدنى فى حلها ، ومع ذلك أعطانى صديقى العنوان .

تفاقمت مشاكلى منذ تلك اللحظة ، قلبتها فى ذهنى ، وفى الليلة السابقة على زيارتى للمحامى ، طفح قلبى بمشاعر الألم ، واحترقت روحى بنار وماء حارق ، وقررت : سأستشير محاميا ، سأخبره بكل ما ضايقنى فى الايام السابقة .

صعدت سلالم بناية عالية ، وكلما قابلت رجلا تخيلت أنه المحامى ، وابدأ فى استرجاع مشكلتى ، عند وصولى قابلت ولدا برأس ووجه

رجل، وبأذنين وشفتين كبيرتين نوعا ما ، أخبرته أنى جئت لمقابلة المحامى ، أخبرنى بلطف أن أدخل غرفة الانتظار مع الآخرين حتى يحين دورى ، أصبت بخيبة أمل ، فقد أردت أن أقابل المحامى وأخبره بكل شئ واتركه ليعالج الامر ، أما أن يُطلب منى الانتظار !

كان الزبائن يجلسون فى غرفة الانتظار وظهورهم إلى الحوائط ، كتلك الدمى التى تنطلق فى دوامة فى حديقة الملاهى ، كانوا حوالى عشرين زبونا . يبدو أنى لن أملك الوقت لاسترجع فى ذهنى كل شئ - كيف بدأ الأمر ونما حتى بدأ يهدد بسحقى - بوجود كل هؤلاء الناس المنتظرين ، كان الولد الذى له وجه رأس رجل وأذنان كبيران ، يدخل الغرفة على فترات لينادى على الزبون التالى . أعرف ما يجب علىّ عمله، استرجع المشكلة كلها فى ذهنى ، حتى يمكننى أن أسردها ثانية بكل تفاصيلها ، فلا يجب أن أخفى عن المحامى أى شئ .

خلال ذلك كانت عيناى تجوبان الغرفة ، الناس والحوائط ، السقف والأثاث .. غرفة عارية غير جذابة ، مساند الكراسى بها خدوش كأنها بفعل دبوس قام بها شخص تعب من الانتظار ، فى المساحة الوحيدة الخالية من الكراسى ، كان يجلس وراء طاولة رجل فى حوالى الخمسين يصمغ بعض الخطابات ، وخلفه على الحائط ، صورة معلقة - الصورة الوحيدة فى الغرفة - لقطة بعينين خضراوين تنظر إلى أسفل كأنها

تشرف على عمله - ولم استطع أن أفهم سبب وجود كرة أرضية صغيرة فوق الطاولة ، تخيلت أن الرجل الذى يصمغ الخطابات قد يبدأ بادارة الكرة ليبين للفصل أن الأرض كروية وتدور حول محورها .

بمجرد أن تحاول التفكير ، فإن ألف شئ يتوارد على ذهنك قد تبدأ بالتفكير في مغامرة ليلة أمس ، لكن سرعان ما تجد صديقتك في الخط الأول من تفكيرك ، ثم تبدأ في تتبع خيط آخر ، ثم تعود - كما أفعل الآن - لتنظر الى القطة امامك ، أو الرجل وراء الطاولة ، أو الزبائن فردا فردا . ولبرهة صغيرة يخيل إليك أن القطة تتحرك ، ثم تعود لتأخذ وضعها السابق ، يخبرك شارباها بعدوانية ، بأنك كنت مغفلا لظنك بأنها تتحرك ، تراقب الحركات الهوجاء المسعورة لذبابة على زجاج النافذة ، مهتاجة للخروج من الناحية العلوية ، مع أن الناحية السفلية مفتوحة ، وتنظر أبعد مما يحيط بك ، الى مباني المدينة ، وحرارة ما بعد الظهر القاتلة حتى أن رأسك يصبح كصندوق يحوى أشياء مشوشة ، ولم تعد تسمع صوت الغلام الذى بوجه ورأس رجل وبأذنين كبيرين وهو ينادى على الزبون التالي ، وتبدو وكأنك تطفو في هواء الغرفة الراكد ، وأنك لست انسانا من لحم ودم ينتظر ، ولكن مخلوق يعيش في لا زمان من المشاعر والافكار .

ويستمر الرجل الجالس وراء الطاولة في عمله الآلى ، ويبدو عليه أنه يريد الهرب من العمل أيضا ، فهو يتحدث مع اثنين أو ثلاثة من الزبائن القريبين منه ، ويضحك كثيرا بخفوت ، كاشفا عن فم بلا اسنان ، ويسعده بأن يتلفظ بمثل أو حكمة بعد كل أربع أو خمس جمل «قال حكماؤنا أن الشئ الوحيد الذى تتأكد من ملكيته هو ما أكلته بالفعل» ويضحك «تبدو المدينة جميلة عن بعد ، لكن إذا اقتربت منها سيخيب ظنك» ويضحك ثانية ، الزبائن يتحدثون فى جماعات منفصلة ، وجد رجل مقتولا قرب بلدة شانتى .. «داسه القطار» ، خذ حالتى مثلا عندى ثلاثة ابناء .. أتظن أن أحدا منهم يفكر بأن يعطينى مليما ، يأكلون ويشربون ولا يهتمون من أين جاء الطعام .

قال الرجل الجالس وراء الطاولة «إنك بمجرد السماح للولد بالذهاب الى الرقص فقد أضعته» .

«حاول أن تمسك بالريح» ، لن يذهب بعيدا سيمسكونه . «تخيل لم يمض على زوجها ستة أشهر فى قبره وتخلع ملابس الحداد ، تلك هى المكافأة التى ينالها الازواج الطيبون» .

«حكماؤنا قالوا القطيع الذى تقوده بقرة يقع فى الخندق» ، «اصغ لها دائما مادمت تعرف أن الكلمة الأخيرة لك» .

«قابلت رجلا ذات مرة .. ، «البطاطس كل شئ أصبح مكلفا هذه الأيام» ، «حتى المرأة أصبحت غالية إذا أردت الزواج»، «الله وحده هو الذى يعلم أين تسير بنا الامور» ، «ألسنا هنا بسبب النقود ؟ ألا نسير فى الشوارع ونركب القطارات والباصات بسبب النقود ؟ أليست النقود هى التى تدفعنا للحركة فى الحياة» .

«الموت داخلنا ، نسير ونحمله معنا» ، ضحكة أخرى .

«أتقول إنك لم تذهب ابدا الى «ماجابا» .. إذن أنت لا تعرف شيئا».

«نساء يبعن الفاكهة ، بلون الأرض التى يقفن عليها، الرجال والنساء متساوون مع التربة الحمراء . لحم مملح يحّمر ليباع ، غبار أحمر كالدوامة يحوم فوق الناس ، يندفع كالشيطان يلسع بالنار .. شئ كالحلم»

ضحك الرجل الجالس وراء الطاولة ثانية قال «لكن القرون التى وضعت لك لن تلصق بك فلا تقلق أو تهتم بالشائعات» .

«تعيش فى أيام نحسة .. الزوجة تضرب حماتها» ، «لأول مرة أسمع ذلك ، قد تلد البقرة حمــارا مادام ذلك قد حــدث» ، «آه كل امرئ يضرب الآخر هذه الايام .. لقد ضعنا ضعنا» ، «لا يمكننا العودة الى الوراء» .

قال الرجل الجالس وراء الطاولة «أعرف أنه حمار وحشى من جلده المخطط» .

«هو يقرأ كثيرا ، قال الأطباء البيض أن مخه يتخمر» ، مثل آخر : «حتى الملاك يهبط إلى الارض» ، «أنت وأنا لم تتح لنا الفرصة للذهاب الى المدرسة لذا يجب أن نرسل أطفالنا ، سيقرأون ويكتبون لنا» . «ألم تسمع ؟ يقولون أن المسكين كان يصرخ ويحاول الهرب قبل أن يموت . كان يصرخ قائلا أن جبلا من الخطايا يقف فى طريقه» ، «حقا لقد وقفت زوجته قرب سريره» وقال لها : اعتن با بنى .. والآن أعطنى شربة ماء لآخر مرة .. لن أطلب منك شيئا بعد ذلك» .

جاء الولد الذى له رأس وجه رجل وبأذنين كبيرين ، ليخبرنا أن رجلين أبيضين دخلا مكتب المحامى . سادت لحظة صمت . هز الرجل الجالس وراء الطاولة رأسه عدة مرات ، وحدقت القطة بعينيها الخضراوين وشاربها شبه النابض بالحياة ، لابد أن الذبابة قد وجدت طريقها الى الخارج ، وأصبحت درجة الحرارة مشكلة لا تعرف عواقبها .

قالت امرأة دون أن توجه حديثها لأحد «كم مرة أتيت إلى هنا» ؟

«أحفادى يتضورون جوعا ووالدهم الذى لا يشفع ولا ينفع لم يرسل لهم نقودا منذ أن طلقه القانون من ابنتى» .

ساد صمت أعمق ، وقطب الحضور وجوههم وهم ينظرون الى المرأة، كما تفعل الطيور حين تهم بمهاجمة بومة ، كما يقولون ، وتظاهر الآخرون بأنهم لم يسمعوا شيئا .

سألها الجالس بقربها «من أين الام العجوز» ..

وبمجرد أن تلفظ بالسؤال ، انخرط فى سيل طويل من الاسئلة ، ليخرجها مما هى فيه . فهكذا يتواسى الناس . خلال ذلك كله ، كنت قد رتبت حقائق مشكلتى فى ذهنى بشكل سليم ، وتخيلت نفسى عدة مرات أمام المحامى ، لابد أنه رجل قصير بعينين متعبتين (أتخيل المحامى دائما صغير الحجم) ، وأنى قد أخبرته بكل شئ . والآن ، أنا جالس فى غرفة الانتظار ادركت بالفعل أنى سأستريح» وأن الحمل سيسقط عن ظهرى بمجرد حديثى الى المحامى ، بل كنت متأكدا بأن الأمر لن يكون غير ذلك .

قل الحديث الآن . فكرت أن هؤلاء الناس بلهاء ، نفوسهم تتألم وتتخثر بآلام ماضية (مثلى) ، أنهم يتوحمون لرؤية محام ليخبروه بمتاعبهم ، ها هم يتظاهرون بارجاء قلقهم ، ويحاولون تمزيق هذه الموجة من الحر وبعثرتها بالحديث الفارغ ، يثرثرون فى موضوعات لا تهمهم ، ليغطوا دوامة مشاكلهم الخاصة ، ترى ماذا وراء هذه الثرثرات والدوامات التى تتراقص وتنفجر فى هذه الموجة الحارة ، ممتلكات

لشخص آخر ، السخرية بالقانون ، عدم الإخلاص ، الشجرة المحرمة .. وذلك الرجل الجالس وراء الطاولة ، من أعطاه الحق باطلاق هذه الحكم والامثال القديمة قدم لغة الانسان ، والتى ابتذلت معانيها كقميص بنى ابيض من القذارة ، ومن الذى أعطاه الحق ليضحك بتلك الطريقة كأنه ينظر إلينا كما ينظر البقال إلى زبائنه .. ، التالى .. التالى .. التالى .

ويقيت وحدى ، أنا والرجل والقطة ، خفق قلبى بشدة حين تذكرت السبب الذى جاء بى هنا ، قال صديقى باقتناع : اعطها لمحامٍ .. ، وكأن علىّ أن اضغط على زر كهربى فقط ، سيساعدك فى التخلص من الوحل – محام جيد لعين ، أعطه أعقد مشكلة وسيخلصك منها ، نعم سأخبره بكل شئ ، بكل ما يزعج يقظتى وساعات نومى ، عندئذ سيصبح كل شئ على ما يرام ، أو ذلك ما شعرت به .

ألقى الرجل الجالس وراء الطاولة بملاحظة قائلا : الرجل الكبير مشغول جدا اليوم .. أليس كذلك ؟

قلت بألية : نعم

وانشد انتباهى ثانية الي المكان ، غرفة بسيطة غير متكلفة كراسي قديمة ، كرة أرضية مدرسية ، كومة خطابات ومظاريف ، الرجل ، وصورة القطة .

سقط مظروف على الأرض ، انحنى ليلتقطه ، راقبت يديه الكبيرتين تتحسسان الأرض بحثا عنه ، ثم حطت يده عليه بثقل أكثر مما تحتاجه ورقة ، وقبل أن يستقيم على كرسيه ، كنت قد أدركت الأمر بوضوح ، كان الرجل أعمى ، أعمى تماما بدأت أدرك التفاصيل بعد أن تشتت ذهني وتخبط ، فها هو رجل يصمغ المظاريف ، يبدو كرسم على سطح أملس ، انسان مسطح كاسطوانة موسيقية ، تافه لا تعوقه حرارة ولا يضجر من الجلوس ساعات يؤدى العمل نفسه ، سواء حضر الكثير أو القليل من الناس .

زوج لا يتغير ، هو والقطة التى تحملق به ، يزدرى آلامنا وأحزاننا والحرارة التى تحيط بنا ، يبدو عليه وكأن بيده الحل لكل قريب لا ندركه أو بعيد لا نراه .

هو .. وأنا
قصة من إيطاليا

بقلم : ناتاليا جنزبرج

هو يحس بالدفء دائما ، وأنا دوما أحس بالبرد ، وفى الصيف ، حين يكون الجو حارا ، لايتوقف عن الشكوى من حرارة جسمه ، وإذا رآنى ارتدى «بلوفر» فى المساء ، سخر منى .

هو يتكلم عدة لغات بطلاقة ، وأنا لا أحسن التكلم بلغتى ، وحتى اللغات التى لا يعرفها يتدبر أمره للحديث بها بشكل ما .

يملك حساً فطريا لمعرفة الاتجاهات ، وأنا لست كذلك ، فهو بعد يوم واحد فى مدينة أجنبية ، يمكنه التنقل فيها كفراشة دون أن يضل طريقه، وأنا أتوه فى مدينتى ، واضطر للسؤال عن الطريق للوصول إلى منزلى . هو يكره أن يسأل عن الطريق ، وحين نتجول بالعربة فى مدن لا نعرفها ، يرفض أن يسأل ، ويطلب منى البحث عن الخريطة ، وأنا لا

أجيد قراءة الخرائط ، أصاب بالحيرة من هذه الدوائر الصغيرة الحمراء ويغضب .

هو يحب المسرح ، والرسم ، والموسيقى ، خاصة الموسيقى التى لا أفهم منها شيئا ، اهتم قليلا بالرسم ، وأشعر بالملل فى المسرح ، شئ واحد فى العالم أحبه وأفهمه ، الشعر .

هو يحب المتاحف ، وأنا أزورها على مضض ، أشعر كأنى أؤدى واجبا ، وينتابنى الارهاق وأحس بالاستياء .

هو يحب التردد على المكتبات العامة ، وأنا أكرهها ، يحب السفر إلى مدن غريبة مجهولة ، وتناول الطعام فى المطاعم ، وأنا أسعد بالبقاء فى البيت وعدم التحرك .

ومع ذلك ، أرافقه فى كثير من رحلاته ، وأتبعه إلى المتاحف والكنائس ودور الأوبرا ، والحفلات الموسيقية حيث استغرق فى النوم ، ولأنه يعرف الملحنين والمغنين ، فهو يحب أن يهنئهم بعد العرض ، فأتبعه فى الممرات التى تقود إلى غرف ارتداء الملابس ، وأصغى إليه وهو يتحدث إلى أناس يرتدون ملابس كالكرادلة والملوك .

هو جرئ وأنا خجولة ، ومع ذلك يصيبه الخجل أحيانا ، خاصة مع رجال الشرطة حين يتقدمون نحو عربتنا وبأيديهم الدفاتر والأقلام .

فهو يشعر آنذاك بأنه مخطئ ، وحتى لو لم يكن كذلك فهو يشعر باحترام نحو كل أنواع السلطة ، أنا أخاف السلطة ، هو لا يخافها لكنه يحترمها وذلك أمر مختلف . إذا رأيت شرطيا قادما نحونا أفكر فورا بالسجن ، السجن لا يخطر على باله ، لكن احترامه للسلطة يجعله يبدو خنوعا ، وهذا ما يجعلنا نتشاجر بعنف أحيانا .

هو يحب لحم الضأن والكرز والنبيذ الأحمر ، وأنا أحب حساء الخضراوات بالمكرونة ، والعجة والشوربة والخضراوات الخضراء ، ودائما يعايرني بأني لا أعرف شيئا عن الطعام وأني أشبه الرهبان السمان الذين يلتهمون حساء الخضراوات في ظلال ، أديرتهم ، بينما هو نواقة بدرجة فائقة ، يجادل السقاه في المطاعم حول النبيذ بلا ملل ، ويضطرهم لاحضار زجاجتين أو ثلاث منه ، يتفحصها مليا ، وهو يربت على لحيته بلطف . في بعض المطاعم في انجلترا ، يقوم السقاه بنوع من الحفاوة بالزبون بصب قليل من النبيذ في كأسه ، وانتظار رأيه بمدى جودة النبيذ ، هو يكره هذه الحفاوة. ويوقف الساقي عن القيام بها ويأخذ الزجاجة منه ، كنت ألومه وأقول له عليه أن يترك كل فرد ليؤدي عمله .

والشئ نفسه يحدث في السينما ، فهو لا يسمح للمرشدة أن تقوده إلى مقعده ، يعطيها البقشيش فور دخوله، ثم يندفع إلى مقاعد غير تلك

التى تشير إليها ببطاريتها ، يجلس فى المقاعد الأمامية قرب الشاشة ، وإذا كنا نصطحب بعض الأصدقاء ، فإنهم يرغبون، كالجميع ، فى الجلوس على بعد عن الشاشة . لكنه يذهب إلى المقاعد الأمامية ، بالنسبة لى لا فرق ، لكن حين نكون مع أصدقاء ، فمن الذوق أن أبقى معهم، وأشعر بالتعاسة إذا استاء منى لعدم جلوسى بجانبه ملتصقة بالشاشة .

كلانا يحب السينما ، ونحن نرحب بمشاهدة أى نوع من الأفلام فى أي وقت من اليوم ، لكنه يعرف تاريخ السينما بأدق تفاصيله ، ويذكر المخرجين والممثلين حتى القدماء منهم ، الذين اختفوا ونسيهم الناس منذ زمن ، وهو على استعداد للسفر أميال إلى ضاحية بعيدة للبحث عن دور عرض تقدم الأفلام الصامتة القديمة لرؤية ممثل أحبه وهو طفل صغير ، ويظهر على الشاشة لثوان . أذكر أنه فى إحدى أمسيات يوم أحد فى لندن ، كان يعرض فيلم عن الثورة الفرنسية أنتج فى الثلاثينات، وكان قد رآه وهو طفل صغير ، وظهرت فيه ممثلة كانت مشهورة أنذاك ، لعدة دقائق ، كانت دار العرض فى ضاحية بعيدة جدا، تقريبا فى الريف ، خرجنا بالعربة للبحث عن الشارع الذى تقع فيه ، كان الضباب منتشرا والجو ممطرا ، تجولنا لساعات فى الضواحى المتشابهة وسط صفوف من البيوت الرمادية والمزاريب

ومصابيح الشوارع والبوابات ، كانت الخريطة على ركبتى ولا أستطيع قراءتها ، وأخيرا اهتدينا إلى السينما ، وجلسنا فى صالة خالية من الرواد تقريبا ، وبعد ربع ساعة . أراد العودة ثانية ، وذلك بعد ظهور ممثلته المحبوبة ، ولكنى بعد رحلة طويلة كهذه أردت أن أرى كيف سينتهى الفيلم ، فلم يحفل بى ، وغادرنا السينما ، وكان الوقت متأخرا على كل حال ، وقت العشاء ، برغم أننا خرجنا فى وقت مبكر من بعد الظهر ، وحين سألته عن نهاية قصة الفيلم ، لم أحظ بجواب مقنع ، فقد قال : أن القصة لا تهم ، وأن ما يهمه تلك الدقائق القليلة التى ظهرت فيها الممثلة بحركاتها وخصلات شعرها ..

أنا لا أذكر أبدا اسماء الممثلين ، ولأننى لا أتذكر الوجوه ، فأحيانا أجد صعوبة فى التعرف حتى على أكثر الممثلين شهرة ، وذلك يزعجه بشدة . ومع ذلك فأنا أحب السينما ، لكنى لم أصبح مثقفة سينمائيا برغم ذهابى إليها لسنوات عديدة .

هو يحاول أن يعرف كل شئ مما يثير فضوله ، وأنا لم أتمكن من تعلم أى شئ حتى عن أكثر الأشياء التى أحبها فى الحياة . تظل الأشياء بداخلى مبعثرة ، تغذى حياتى ، على نحو لا يمكن إنكاره ، بالذكريات والمشاعر ، ولكنها تفشل فى ملء أرض الثقافة الخربة داخلى.

يقول بأن حب الاستطلاع ينقصنى ، وذلك غير صحيح ، فأنا أشعر بالفضول نحو أشياء قليلة ، قليلة جدا ، وحين أعرفها ، فإنى أحتفظ بصور مبعثرة عنها ، ايقاع جملة أو كلمة، وحين تزهر هذه الصور والايقاعات فى عالمى فأنها تظل معزولة عن بعضها لا تتصل ابدا ، إلا بشكل سرى مجهول لا مرئى حتى بالنسبة لى ، وتكون مملة وكئيبة .

بينما عالمه خصب وغنى ، مزدحم بالناس ، أرض محروثة ومروية ومليئة بالغابات والمراعى والحدائق والقرى .

أنا كسولة جدا ، وأى عمل مرهق تماما بالنسبة لى ، متعب وغير مجد ، وإذا أردت القيام بعمل ما ، أقضى ساعات طويلة أتمطى على الكنبة قبل القيام به ، هو لا يتكاسل أبدا ، دائما منشغل بعمل ما ، يطبع على الآلة الكاتبة بسرعة فائقة ، حتى حين يضطجع قليلا بعد الظهر ، يحمل معه مسودات ليصححها أو كتابا يملؤه بالهوامش ، في يوم واحد تجده راغبا فى الذهاب إلى السينما ثم إلى حفلة ثم إلى المسرح ، يرغب فى القيام بعدة أعمال فى اليوم ويريدنى أن أفعل مثله ، وإذا كنت وحدى وحاولت أن أفعل كما يفعل ، لا أستطيع تدبر أمرى ، فإذا أردت الاستراحة لنصف ساعة مثلا أجدنى قد أضعت النهار كله ، أو إذا نزلت المدينة أتوه وأضل الطريق ، أو أقابل آخر شخص كنت أتمنى لقاءه ليجرنى إلى مكان لم أكن أريد الذهاب إليه .

وإذا أخبرته بما حدث لى، يندهش من إضاعتى للوقت ويتضايق ويضايقنى معه ويقول أنه لا فائدة منى بدونه .

لا أستطيع أن أنظم وقتى وهو يستطيع .

يحب الحفلات ، ويذهب إليها بملابس فاتحة بينما الكل يرتدى ملابس سوداء ، لا يخطر على باله أن يغير ملابسه من أجلها ، بل يحدث أحيانا أن يذهب بمعطف المطر وقبعة «مكرمشة» من الصوف اشتراها من لندن تغطى عينيه ، يحب الثرثرة ويحمل كأسه لنصف ساعة ، وهو يتناول الكثير من الكعك الصغير ، بينما لا أتناول منه شيئا تقريبا ، لأنى حين أراه يأكل بشراهة دون مراعاة للذوق ، أحجم عن الأكل ، وبعد نصف ساعة ، حين أبدأ فى الاندماج وأحس بالراحة ، تركبه العجلة ويجرنى خارجا من الحفلة .

لا أستطيع الرقص وهو يجيده ، لا أستطيع الطباعة على الآلة الكاتبة وهو يستطيع ، لا أستطيع قيادة السيارة ، وإذا فكرت فى الحصول على رخصة قيادة يرفض ، ويقول أنى لن أنجح ، أعتقد أنه يريدنى أن أعتمد عليه فى كل شئ.

لا أستطيع أن أغنى ، بينما صوته جهير ولو تدرب على الغناء ، لأصبح مطربا مشهورا ، ولو درس الموسيقى لأصبح ملحنا ، حين يصغى للموسيقى يكتب نوتتها بقلم رصاص ، أثناء طباعته على الآلة

الكاتبة يمكنه أن يرد على التليفون في الوقت ذاته ، هو رجل يستطيع القيام بكل شئ وعلي الفور .

هو يقوم بالتدريس وأعتقد أنه يفعل ذلك بشكل جيد ، فبإمكانه القيام بكل أنوع العمل ، ولكنه لا يأسف على مالايستطيع عمله .

وأنا أقوم بعمل واحد ، واحد فقط وهو العمل الذى اخترته ، وأفعله منذ صغرى تقريبا ، ولم أندم على الأعمال التى لم أقم بها ، وكان يجب أن أفعلها ، وعلى أية حال لم يكن بمقدورى القيام بها .

أنا أكتب القصص ، وعملت لسنوات طويلة عند أحد الناشرين ، لم يكن عملا سيئا ولم يكن حسنا أيضا ، وأدرك أنى لم أكن لأنجح فى العمل فى مكان آخر . تربطنى صداقة برئيسى وزملائى فى العمل ، ولولا هذه الصداقة لما استطعت الاستمرار ولأصبت بالانهيار .

راودتنى لفترة طويلة ، فكرة أنى سأعمل يوما بالكتابة للسينما ، لكن لم تتح لى فرصة أو لم أعرف كيف أبحث عن هذه الفرصة ، وفقدت الأمل فى ذلك .

وهو كتب للسينما مرة واحدة حين كان شابا ، وعمل أيضا عند أحد الناشرين ، وكتب القصص ، عمل كل شئ عملته وأكثر بكثير .

ويستطيع تملق الناس وكان بإمكانه أن يكون ممثلا ، وقد غنى ذات مرة على مسرح فى لندن ، وكنت أجلس فى مقصورة ، أكاد أموت من الخوف، خشية أن يرتبك أو يسقط سرواله ، ولكنه نجح ونال الإطراء.

لو أحببت الموسيقى لكان ذلك باحساسى ، فأنا لا أفهمها ، كما لا أصغى للحفلات الموسيقية التى يدفعنى للذهاب إليها احيانا ، بل أغوص مع أفكارى أو أروح فى النوم .

أحب الغناء ولا أستطيعه ، ولا أتمكن من ضبط النغمات ، ومع ذلك حين أكون وحدى أغنى برقة شديدة ، أعرف أن صوتى نشاز ، فالناس أخبرونى بذلك ، فصوتى يشبه مواء القطط ، لكنى لم ألاحظ ذلك بنفسى واستمتع بغنائى بدرجة كبيرة ، حين يسمعنى يسخر منى ، ويقول أن غنائى اختراع خاص يتعدى الموسيقى ، أثناء طفولتى كنت أغمغم بنغمات اخترعتها ، كانت تبعث الدموع فى عينى.

عدم فهمى للرسم أو الفنون التشكيلية لا يزعجنى ، ولكنى يؤلمنى أنى لا أحب الموسيقى ، فذلك يشعرنى بأن روحى تتألم ، لكنى لا يمكننى فعل شئ تجاه ذلك ، فسأظل أبدا لا أفهم الموسيقى ولا أحبها ، وإذا حدث وسمعت موسيقى أعجبتنى ، فلا أستطيع تذكرها .. فكيف يمكننى أن أحب شيئا لا أستطيع تذكره ؟

حين أكتب أشعر أنى أتتبع لحنا أو وزنا موسيقيا ، ربما الموسيقى قريبة من عالمى ، ولسبب مجهول لا يسمعها .

أنت تسمع الموسيقى طوال اليوم فى بيتنا ، فهو يفتح المذياع طوال النهار ، أو يستمع إلى تسجيلات موسيقية ، أحتج من حين لآخر من أجل فترة هدوء قصيرة أعمل خلالها ، لكنه يقول أن موسيقى بهذا الجمال لابد أن تكون مناسبة تماما لأى عمل .

لقد اشترى عددا كبيرا من الاسطوانات ، ويدعى أنه يملك أحد أروع المجموعات فى العالم.

منذ الصباح ، وهو مازال مرتديا روبه وماء الاستحمام يتساقط عن جسده ، يقوم بفتح المذياع ، ويجلس إلى آلته الكاتبة ، ويبدأ يومه العاصف المزعج المزدحم بالعمل .

هو مفرط فى كل شئ ، يملأ البانيو حتى يفيض ، يملأ براد الشاى والكوب حتى ينسكب السائل منهما ، لديه عدد مهول من القمصان وربطات العنق ، بينما لا يشترى أحذية إلا نادرا .

تقول أمه أنه كان نموذجا للنظام والدقة فى صغره ، وأنه حين عبر ذات مرة، مجرى موحل فى الريف فى يوم ممطر ، وكان يرتدى بدلة بيضاء وحذاء أبيض ، فانه عبره دون أى أثر للطين على بدلته أو حذائه. والآن لا يوجد ما يدل على ما كانه ذلك الطفل المنظم منذ عهد بعيد ، فملابسه دائما مبقعة ، وأصبح فوضويا بطريقة مزعجة ، ومع ذلك فهو مازال يحتفظ بعناية بايصالات شركة الغاز ، فقد وجدت فى أدراجه

ايصالات قديمة لأماكن تركناها منذ عهد بعيد ، ويرفض أن يرميها .

كما وجدت بين أشيائه ، سيجاراً توسكانيا قديما ، وأيضا حاوية للسيجار من خشب الكرز . هو أحيانا يدخن سيجارا توسكانيا بينما أدخن أنا سجائر طويلة دون فلتر .

أنا فوضوية بطريقة مزعجة ، لكن بمرور السنوات أصبحت أحن إلى النظام ، فأقوم أحيانا بترتيب الدواليب بحماسة ، وأفرش كل الأدراج بورق نظيف ، أعتقد أنى أتبع في ذلك طريقة أمى . لكن نادرا ما أرتب أوراقى ، فأمى التى لم تكن لديها عادة الكتابة، لم يكن بالتالى لديها أوراق لترتبها .

سواء كنت منظمة أو فوضوية ، فذلك يملؤنى دائما بالأسى والتبكيت والمشاعر المعقدة ، بينما هو يرى فى الفوضى انتصاراً ، ولديه اعتقاد بأن رجلا مثقفاً مثله لابد أن يكون مكتبه غير منظم .

لم يفعل شيئا ليزيل به حيرتي ، وترددى فى العمل ، واحساسى بالذنب ، لكنه يضحك ويسخر منى ومن كل شئ أفعله مهما صغر .

أحيانا يتتبعنى حين أذهب لأتسوق ، يتجسس على دون أن أراه ، وبعد ذلك يعايرنى بطريقة شرائى ، أو بالطريقة التى أمسك بها البرتقال وأتأمله واختار بعناية أسوأ ما فى السوق (هكذا يقول) ، ويسخر منى لاستغراقى ساعة فى التسويق ، أشترى البصل من مكان ، والكرفس

من مكان آخر ، والفواكه من دكان ثالث ، أحيانا يقوم بالتسويق بنفسه ليريني كيف يمكن الانتهاء منه بسرعة، فيشترى كل شئ من محل واحد دون تردد ، ويتدبر الأمر بحيث يرسلون المشتروات إلى البيت ، ولا يشترى الكرفس فهو لا يطيقه .

وهو يجعلنى أشعر - أكثر من أى وقت آخر - بأن كل ما أفعله خطأ . ولكنى إذا تصادف وأمسكته متلبسا بخطأ ما ، فانى أظل أردد ذلك حتى يفيض به الكيل ، اعترف أني أحيانا أكون مملة بدرجة مزعجة.

له غضبات مفاجئة تفيض كرغوة كأس من البيرة ، ولى أنا أيضا ثوراتي ، لكن غضبه يمر سريعا ، وغضبي يخلف آثارا شديدة وراءه ، وذلك مؤرق جدا ، فانتحب بشدة . أحيانا ، وفى قمة غضبه ، أبكى ، وذلك يجعله أكثر غضبا ولا يهدئه ، يقول إن بكاء النساء تمثيل ، ربما كان على حق ، فأنا أكون هادئة تماما وأنا أبكى وهو فى قمة غضبه .

ذات يوم، ألقيت بالأطباق والأوانى على الأرض فى نوبة غضب ، ولم أعد لذلك قط ، ربما لأنى كبرت وأصبحت نوبات غضبى أقل حدة ، كما أنى لا أجرؤ على لمس الأطباق الآن ، فأنا مغرمة بها فقد اشتريناها من لندن . أثمان هذه الأطباق والأشياء الأخرى التى اشتريناها ، انخفضت بشكل ملحوظ فى ذاكرته ، فهو يحب أن يعتقد أنه أنفق القليل ونال

خصما عند الشراء ، أعرف اثمان طقم المائدة فقد اشتريناه مع لوحة الملك لير المعلقة فى غرفة الطعام من شارع بورثو بيللو ، ونظفنا إطار اللوحة بالبصل والبطاطس ، ويقول أنه دفع ثمنا لها أقل بكثير مما دفعنا بالفعل .

منذ سنوات ، اشترى دستة من الحصر الصغيرة التى توضع قرب السرير ، اشتراها لرخص ثمنها ولأنه اعتقد أنها لابد أن تكون فى حوزتنا ، اشتراها مماراة قائلا أنى لست خبيرة فى شراء الأشياء للمنزل ، كانت مصنوعة من ألياف القصب بلون الخل ، وأصبحت منفّرة فى الحال ، جافة كالجثث ، وقد كرهتها وهى معلقة على حبل الغسيل فى شرفة المطبخ ، واعتدت أن أقذفه بها كمثل للتسوق السيىء ، لكنه يقول أنها كلفته القليل ، والقليل جدا بحيث يمكن اعتباره لاشئ ، وبعد فترة فكرت أن أرميها ، لكنى فى اللحظة ذاتها تساءلت ألا يمكن استخدامها كمماسح ، نحن الاثنان نجد صعوبة فى رمى الأشياء ، بالنسبة لى قد يكون الأمر وراثة ، وبالنسبة له قد يكون دفاعا ضد اتهامه بالاسراف والاندفاع .

يشترى كربونات الصودا والاسبرين بكميات كبيرة، وأحيانا حين يمرض ، يمرض بشكل غامض ، فهو لا يستطيع شرح ما يشعر به ، فيمكث فى السرير يوما بطوله ، يلف نفسه تماما بالأغطية فلا يظهر منه

سوى رأسه وطرف أنفه الأحمر ، ويتناول جرعات هائلة من الكربونات والاسبرين ، ويقول أنى لا أستطيع فهم ذلك ، لأنى دائما بصحة جيدة ، وأنى أشبه أولئك الرهبان الكبار السمان الذين يتصدون للريح دون خطر ، بينما هو الرقيق الدقيق يعانى من مرض غامض ، وفى المساء يكون قد شفى ، ويدخل المطبخ ليعد له وجبة .

حين كان صبيا ، كان نحيفا ، أنيقا ، رشيقا ، بلا لحية ، وبشارب ناعم طويل ، وكان يشبه الممثل روبرت دونا ، هذا ما كان عليه حين قابلته منذ عشرين عاما ، وكان يرتدى - على ما أذكر - قميصا أنيقا جدا من الصوف المقلم - وقد رافقنى ذات مساء إلى الفندق الذى كنت أنزل فيه ، سرنا فى الشارع معا ، شعرت أنى كبيرة جدا ، مثقلة بالخبرة والأخطاء، وبدا لى صبيا بينى وبينه آلاف السنين .

لا أذكر ما قلناه لبعضنا ذلك المساء - لا شئ مهم على ما أظن ، لكن فكرة أن نصبح زوجا وزوجة كانت بعيدة بعدا ساحقا عن تفكيرى . حين التقينا ثانية ، لم يعد يشبه الممثل روبرت دونا ، بل أصبح يشبه بلزاك ، وحين تقابلنا للمرة الثالثة ، كان مازال يرتدى القمصان المقلمة ، لكنها تبدو عليه كملابس رحالة إلى القطب الشمالى ، وكان له لحية ويرتدى قبعة صوفية مجعدة ، كل شئ فيه يجعل المرء يظن أنه على وشك القيام برحلة إلى القطب الشمالى، فهو يرتدى ثيابا توحى بأنه

محاط بالثلج والجليد والدببة القطبية مع أنه دائما يشعر بالحر ، فيبدو كرحالة إلي القطب أو زارع بن برازيلى ولا يشبه أحدا آخر .

وإذا ذكرته بنزهتنا معا ، يقول أنه يتذكر ، وأعرف أنه يكذب ، فهو لايستطيع تذكر شئ، وأحيانا أتساءل هل نحن فعلا الشخصان اللذان سارا معا منذ عشرين عاما ، ثرثرا حول كل شئ ولاشئ ، مثقفان صغيران فى نزهة ، شابان ، مؤدبان ، لاهيان ، يتحدثان بسعادة ، وعلى استعداد لأن يصدر أحدهما الحكم على الآخر بعطف مفقود ، وأن يقول له وداعا وإلى الأبد ، عند غروب شمس ذلك اليوم فى ذلك الركن من الشارع .

على مشارف النوم
قصة للكاتب الفرنسى :
جيه . إم . لوكلوزيو

قبل أن أغلق عينى ، تفحصت الغرفة جيدا . الجدران الأربعة ، الباب والنافذتين ، وألقيت نظرة على المصباح الكهربى المدلى بسلك فى وسط السقف ، وعلى ورق الحائط الرمادى ، والأشياء التى يلفها الظلام: الطاولة ، وقريبا منها صورة جانبية مشئومة تبدو كمنقار مفتوح على ضحكة ساخرة ، الكرسى ، ولاشك أن ملابسى هى المكومة عليه . الضوء يتسرب فى خطوط من مصراعى النافذة المغلقين ، أضواء السيارات ترسم هالات متحركة على السقف ، رأيت كل ذلك ، ثم أغلقت عينى .

عيناى مغلقتان ، خيوط بيضاء تنطبع عليهما ، تُبحر على الشبكية ، خطوط متسللة من المصراعين ، وركن السقف ، وكتلة الطاولة ، والصورة الجانبية المزعجة ، والسلك الكهربى بالمصباح المتدلى من طرفه.

أسمع ضجة العربات تعبر الغرفة ، تنزلق وهى تدور حول المنحنى أسفل المنزل ، زمجرة محركاتها تقترب ، تمر بالمنزل ، ثم تختفى تدريجيا مختلطة مع أصوات أخرى .

كل شئ مربع على شبكية العينين.

ويسود الصمت فى لحظات معينة ، أنذاك يمكنك أن تصغى إلى خرير ماء يندفع من خلال غطاء فتحة طوال الوقت ، وموسيقى تسمع بخفوت من بار أسفل البناية ، كعب حذاء امرأة «يطرقع» على الرصيف بسرعة.

وأرى على لوحة بإطار أبيض ، ربما منبعثة من ذاكرتى عن الغرفة المكعبة الشكل ، ما يشبه القطيع من السمك الصغير الأحمر والأزرق . يسبح بسرعة ، ويتلوى ، بأعداد لا يمكن حصرها .

أشكال غامضة مغبشة ، تتحرك من الجانب البعيد فى فراغ بنى ، من الممكن اعتبارها أشكالا آدمية.

ساعتى على «الكوميدينو» بجانب السرير ، تقرع فراغ الغرفة بانتظام ، فجأة يرتفع الصوت ، يغلظ ، يتمدد ، يتسارع ، يتباطأ ثانية يصبح حادا يدق بكآبة ، يصر ، يزحف ، يتكون له صدى .. من الذى قال أن صوت الساعة رتيب دائما !

رائحة أعقاب السجائر المسحوقة فى المنفضة، لابد أنها على «الكوميدينو» بجانب السرير ، لاذعة ، تمرضنى ، أشعر وكأن حلقى مملوء برماد السجائر . ضجة أخرى ناتجة عن ضخ الدم فى العروق ، اسمعها فى طبلة أذنى المضغوطة على المخدة .

عرق دموى أحمر يتمدد فى عينى ، عنقود من النقاط البرتقالية ينتشر فوق كل شئ وينسحب إلى أسفل ، أحاول أن أتفحصه ، وألاحقه، لكنه ينحل فورا ليحل مكانه عناقيد مختلفة ملونة تشبه الجبال .

دراجة نارية تقترب من بعيد ، من الطرف الاخر للمدينة، أسمعها تقترب ، تعبر مفترق طرق ، تغير السرعة ، ينقطع صوتها فجأة ، ربما استدارت وراء بناية . أتذوق طعما غريبا لمعجون الأسنان فى فمى ، أود أن أبصق .

أفكار مشوشة تتكون فى ذهنى . كما لو أنها قادمة من الجزء الخلفى للجمجمة ، أفكار متراكمة ، تحوم حولها الكلمات ، ولاتستطيع كلمة أن تمسك بفكرة ، وأن تبنى لها عشا ، ليست أفكارا ، إنها رغبات، والغريب أن هناك صورا تسير موازية لها ، لكنها لا تندمج قط ، الأفكار قطار يجرى يستلقى يرتفع ، والصور رجل يرتدى قبعة ، وصراع بالسكاكين ، صاروخ وتمساح ، حلبة مصارعة ووجه ضاحك . وهناك أشياء أخرى أيضا ، شذرات من مقدمات جمل ، كلمات ترن بوضوح

مسموعة تماما ، وفوق كل ذلك ، هناك صوت ما يروى قصة ويقول : «لنفترض أن كل شئ على مايرام ، بعد ذلك نقطع الطريق كله ثانية ، لا، ليس كذلك ، إرجع من حيث بدأت ، استدر عند أول انحناءة على اليمين، واستمر فى سيرك حتى تصل الكنيسة ، وحين ترى القبة ، عليك أن تتجه يسارا» .

ثم لم أعد أسمع ، أو أرى ، أو أحس بشئ ، فقد عاد وعيى بالزمن، وتفسخ البناء كله ، الصوت فوق الكلمات ، والصور تتدافع قبل أن تنتهى الرغبات ، وتظل فترة أطول بعد اختفائها .

إنه الوعى الذى يضع حدا لكل شئ ، يحددنى على السرير ، يحملنى على جناحه ويلقى بى على المخدة ، ويحول كل شئ إلى نوع من الذاكرة.

خطر التبعثر حاضر كل الوقت ، يبدو لى أن كل شئ فى ذهنى يتناثر ، وأنى أتحلل إلى فراغ ، عند ذلك ، وبقوة ثابتة ، يسند ذهنى نفسه، ويعود الانسجام ، وتصبح الأفكار مفهومة ثانية.

الصور والكلمات وشذرات الجمل ، كلها تبدو كنموذج الذرات الممغنطة ، تتجمع حول خطوط النبض ، تخدم وتتحدث وتتركب طوال الوقت .

أحيانا ، أحاصر فى جيوب الفراغ ، ابدأ فى التقلب فوق الفراش ، جسمى خفيف ومملوء بحيوية متصاعدة ، حتى أنى أتوقف عن الحياة كجسد ، أصبح شفافا ، أتلكأ صاعدا فى الفراغ كسحابة من دخان ، لا أمتلك عظاما أو لحما ، أتبخر في الهواء ، يحيطنى غشاء شفاف ولا شئ يوقفنى .

لا أدرى إذا كنت أصعد أو أهبط ، لاشئ يتصارع داخلى ، توقف ضخ الدم ، ولم تعد الاعصاب تؤازرنى ، ويتقلص الغضروف ويزول من موقعه ، وأتخلص أخيرا من الحاجة إلى الصراع والنمو والتمدد بيأس تجاه السماء ، ويقهر السجن الافقى وينتهى . كل شئ فى الذهن يتحرر، أطنان من الحركات تصعد وتنزل وتستعرض نفسها حولى ، وتبدو الأفكار وكأنها تنتشر خارجي ، تنبثق من الأنف والأذنين ، تعمل في الفضاء لتهيئ فراشا لى . الرغبات تتابع فى كرات ، ليست بعيدة عنى ، وفى أعماق كهف كبير مظلم يرتجف نبض ، ينعزل عنى ويمكنني رؤيته . أستطيع أن ألمس كلماتي ورؤاى ، وأنا ، أو ما يسمى أنا ، أصبح لا شئ ، فرغت واسترحت ، ورأسى الضخم يفارقنى ، وعدت حرا ، لم يعد لى اسم ، لم أعد اتكلم لغة ، أنا لا شئ سوى العدم ، أنتمى إلى حياة هى حياة الموت ، أجسد جلال المغادرة، نسمة ، لم يعد لى فكر ، روحى شئ ، استلقى كما لو أنى فى مقبرة .

يفترق جفناى لعشر الثانية ، الظلام الكثيف الآن يتحول إلى زفة من الأضواء المبهرة ، تدخل ظلامى وتضرب كل شئ كومضة البرق ، صورة بللورية ثلجية وحيدة. قفزت للاختباء فى أعمق أعماقى ، صورة نقية واضحة قاسية ، رقيقة التصميم كجناح خفاش ، خطوطها كخيوط العنكبوت ، تظل هناك ثابتة ، شمس حقيقية ، قرص ضخم يسد الأفق ، إنها غرفتى . أعرفها بأثاثها العارى ، بجدرانها وسقفها ، والمصباح الكهربى يتدلى وسط الصورة ، لكنه ليس مصدر النور ، ليس هو الذي يضئ المكان بهذه الطريقة ، فالشمس نفسها لا تعطى مثل هذا الضوء حتى فى أغسطس ، لا مصباح ولا مجمرة ولا أضعاف أضعاف نورهما معكوسا عشرات المرات بمئات المرايا والعدسات ، ولا نار تتفجر كبركان من قلب الظلام ، يمكن أن تقدم مثل هذا النور الأبيض الثابت . ضوء غير محتمل ، ينتشر فى كل الأرجاء ، يتلكأ ، يرقص ، ينبثق ، يتحلل ، يحترق ، ويتكسر ، يأكل بؤبؤ العين ، ويبدو الألم هائلا تحت ضرباته واندفاعه المتواصل ، يتلاحق ويتلاحم ليكون حائطا ضخما مرعبا ، ويخترقنى الضوء بضربة ، فأسقط وأضغط وجهى على الأرض، جسمى كله يهتز ، ودفعات الضوء تدخلنى كنوع من نغمات موسيقية ، يرفعنى ، ويبنى داخل لحمى بناءه الفخم المجرد ، وكل ضربة منه وكل وخزة للأعصاب ، جوهرة ، عمل فنى ، فكرة متناغمة .

ثم يموت الضوء ، يتلاشى بالتدريج ، يتحول من الأبيض إلى الأصفر ، ومن الأصفر إلى النحاسى ثم القرمزى فالارجوانى فالأزرق وأخيرا الأسود . وحين لا يبقى شئ من الصورة ، تتصاعد أشكال أخرى ، أعناق جياد ، بقع سوداء تتسكع بشكل مبهم ، وتتلوى في سيرها . وبينما قوة عسيرة على الوصف ، تمتلك كل ما هو رقيق وحساس فى رأسى ، وتقبض بثبات على النسيج العصبى ، يتمطى فى أعماقى شكل خارق لجسد رجل عجوز ، نحيف كنسر على شعار النبالة، كله عنق طويل ، ينتصب فى أعلاه رأس مدبب حاد يسخر منى بخسة . الرأس والعنق متحركان ، ينظران إلى أعلى ، يرتفعان ببطء فوق الجسد النحيل ، أحملق بشدة ، ففى هذه المنطقة البعيدة حيث جزء من نفسى يعانى فى قبضة مجهولة ، فإن النظرة العميقة تنعكس وترجع إلى بشكل متواصل . الوعى يلتف حول نفسه ثانية ، يذهب ويرجع ويترابط ، وأشعر أنى ، حقيقة ، قد ضعت . دخلت جسد الرجل العجوز، وبينما العنق والرأس يستمران في الصعود ، ينفرد جناحان عملاقان ببطء .

ومرة ثانية ، أصارع شخصا ما ، وبسرعة طرح المنظر نفسه حول ساحة النزاع لسبب لا أدريه ، جبال وجداول وغابات ، وشمس تسطع فى السماء ، وعلى البعد ، عند مدخل الحلق ، وفى كل اتجاه ، رمل

وحجارة وصحراء جدباء ، أكافح ، أضرب وأتقافز ، وفى الوقت نفسه أسمع صوتا آخر يصف المعركة بلا كلمات .

ويرقد كل شئ ثانية ، ترتبك المناظر ، ويبدو لى أن الأشياء تهتز بعنف داخل عينى المتكورة فى الجانب العلوى، كما يحدث فى الأجراس الصغيرة . وانتظر .

فقدت أكواما من الصور ، تنطلق بسرعة قصوى وتبتعد عنى ، تولد فورا ، آلاف الأحاسيس تفقس فى الوقت نفسه ، بالضبط فى اللحظة نفسها ، ألف لغة ، كلها تخبرنى بشئ ما ، بماذا أخبرتنى هذه اللغات التى سحرتنى ، ونسيتها فى التو واللحظة ؟ والصفحات المكتوبة ، رأيت صفحات مكتوبة ، قرأتها ووجدتها جميلة جدا ، ماذا كان بها ؟ ما هذه القصص العميقة متعددة الأبعاد ؟ ما هذه التراتيل القدسية بألفاظها الطنانة ؟ أحقا كانت هناك كلمات مكتوبة أم نقط متتابعة من العلامات التى لا معنى لها ، أيقظت الذاكرة الجمالية فى الذهن ؟

أنا أعانى ، فالوهم شيطانى وشرير ، أتألم فى أعمق أعماقى ، وأحيانا ، معجزة على شكل صورة أو صوت أو عبارات تنطلق من خليط مشوش ، تنعش ما كان ميتا ومنسيا بالفعل ، عشت خلال ذلك كله ، هذه المكعبات من الضوء ، وهذا التتابع من الدوائر . هذه النيران ، وهذه الأجساد النسوية التى تتمرغ على الأرض ولم أعرفها .

والوعي الذي يوقظ صدفة ، فجأة يعيد إلى الوقت بشكل معكوس ، الصور تأتي متزاحمة متراجعة ، ترعد لفترة وجيزة بنظام معين ، أراها، ولكنها تنتمي إلى الماضي ، ففي هذا الفراغ المغلق ، الاحساس بالحياة معكوس ، لا توجد حقيقة ولا اتجاه ، الزمان ، والمكان مجرد صدى ، صدى أبدى حاضر دائما ، منزوع من الفوضى المتزامنة ، لا يمسه التحلل قط ، وأنا الذي كمن أغمد في مجال معزول ، أسبح وسط عناصر الفكر والخيال ، تعود الصور لتخترقني بلا ملل أو تعب ، على شكل دائرة بلا بداية ولا نهاية ولا حركة ، ومع ذلك تتحرك ، فهي وقود الحركة المسكر ، الحركة غير المفهـومة للولب لا نهائي يدلني على الخلود .

وأنا ، في سريري ، عيناي مغلقتان ، انتظر النوم وأعيش في عالم مشابه لذلك الذي على الورق فوق مكتبي ، التواريخ ملقاة هناك : ١٨٦٤ - ١٩٦٤ ، ١٣ أبريل ١٩٤٠ ، ٥٦٨٧ ، ايفان الرهيب جـ١ وجـ٢، (١٩٤٣ - ١٩٤٥) ، فيلم لإيزنشتاين ، الاسماء مكتوبة ، الرسوم مخططة ، الأماكن محددة على الخرائط ، اسماء واسماء ، الاسماء الموجودة خالدة ، مقاطع شجية تحدد هذه الأماكن من الأرض والصخر، هذه الأشجار ، هذه الأكوام من المواد الراسخة ، لا شئ من كل ذلك يسمعني ، حيوات الرجال ستعود بشكل متواصل لتسكننا كالأشباح ،

كل الأشياء ستظل تخلق نفسها وتتجمع ثانية ، سيتساوى الصمت والضوضاء ، وستبقى الزهور والحشرات ، فهنا كل شئ معلق فى دوامة سائلة ، حركتها مليئة بالجنون .

لن ننسى ، وحتى لو نسينا ، فإن كل هذه الأشياء ستظل حاضرة إلى الأبد ، لأنها وجدت حتى قبل أن تستدعى للوجود ، تلك هى القوة الدائمة التى لا تمتلكها أية لغة ، ولم يستطع إنسان أن يخترعها ، الدوام الأبدى الحلو العفيف للوجود .

أمامى الآن ، حانة أفقية ، بعشرات من المراوح الدوارة ، تتوقف عن العمل حين أريد ، لكن تظل هناك دائما مروحة تدور برغم ارادتى . حين أتمكن من ايقافها جميعا دون استثناء . آنذاك قد أجد الهدوء والنوم .

زيارة إلي سجين
قصة للكاتب الإيطالي :
اجنازيو سيلونى

شاهدتهم وهم يقتربون على الطريق الصحراوى المترب ، شرطيان وبينهما رجل ضئيل الجسم ، مقيد اليدين ، حاني القدمين ، بملابس مهلهلة ، يمشى متقافزا كمن يحاول أن يرقص رقصة غير بارعة، قد يكون أعرج منذ ولادته ، أو ربما جرحت قدمه أخيراً ، رؤيته وهو محاصر بدعامتى القانون بملابسهما السوداء فى ضوء الصيف الحاد ، كملابس الجنازات ، بعثت فى ذهنى صورة حيوان وقع فى خندق «يعافر» من أجل الحياة ، كان يحمل على ظهره صرة يصدر عنها صوت «سريع» فى إيقاع يصاحب تقافزه ، يشبه صوت صراصير الحقول .

حين لاحظت اقتراب هذا الشخص المسكين المضحك ، كنت جالسا على عتبة الباب الأمامية ، أضع فى حجرى كتاب الهجاء ، أجاهد ألغاز حروف العلة والسواكن ، التغير غير المتوقع الذى أحدثه فى رتابة يومى

دفعنى إلى القهقهة ، وحين نظرت حولى بحثا عن شخص آخر يشاركنى تسليتى ، سمعت خطوات أبى قادمة من الداخل .

قلت ضاحكا : انظر .. أليس ذلك مسليا !

رمقنى بنظرة صارمة ، أوقفنى على قدمى وجرنى من أذنى إلى غرفته ، لم أره من قبل فى مثل هذا الغضب .

قلت وأنا أتحسس أذنى التى تؤلمنى : ما الخطأ الذى ارتكبته ؟

قال : يجب عليك ألا تسخر من سجين . ابدا . ابدا .

- ولم لا ؟

- لأنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ثم .. لمعلوماتك قد يكون بريئا .. وعلى كل حال هو إنسان يجب أن نرثى له ونشفق عليه .

وغادر أبى الغرفة دون أن يضيف كلمة واحدة ، وبقيت وحدى يسيطر علىّ نوع جديد من الحيرة ، لم تعد حروف العلة والحروف الساكنة والعلاقة بينهما تشد اهتمامى أو تسلينى ذلك المساء ، وبدلا من أن يحملنى أبى إلى الفراش فى الساعة المعتادة ، فعل شيئا غير عادى، أخذنى معه إلى «بيأزا»، وبدلا من أن ينضم إلى أصدقائه فى تجولهم حول مبنى «جمعية المساعدة» كعادته ، جلس إلى مائدة خارج «مقهى السادة» ، حيث بعض من علية القوم فى منطقتنا يتنسمون نسمة باردة بعد يوم شديد الحرارة والرطوبة.

كان يجلس على المائدة المجاورة قاضى المقاطعة يتجاذب حوارا مع الطبيب . سأله أبى .. وقد كان صديقه - عن تهمة الرجل الذى اعتقل اليوم ، فأجاب بأنها السرقة ، سأله عن موطن الرجل وهل هو متشرد أو لا يجد عملا ، فقال القاضى : انه يعمل فى مصنع الطوب ويبدو أنه سرق شيئا ما من مستخدمه .. وبالمناسبة هل سرق منك شيئا ؟..

قال أبى : أمر عجيب .. من شكله الذى رأيته عليه .. حافيا مهلهل الثياب .. ظننت أنه الضحية لا السارق .

فى ذلك الوقت ، كان أمرا شائعا رؤية بعض المخلوقات التعيسة ، مكبلة الأيدى ، محاطة بالحرس ، فى طريق بيتنا ، فالمتهمون الذين يعتقلون فى أى من القرى العديدة ضمن نطاق السلطات القضائية لمنطقتنا ، كانوا مضطرين للمرور من ذلك الطريق ، وحيث لا توجد وسيلة مواصلات ، فكان عليهم القدوم سيرا على الاقدام .

كان الجزء العتيق من قريتنا يربض بحذاء تلة محاطة بآثار قلعة قديمة ، ويتكون من بيوت للفلاحين كخلايا النحل الكبيرة ، وزرائب للبقر والخنازير محفورة فى الصخر ، ومن كنيستين وعدة قصور مهجورة . ولكن مع ازدياد السكان فى العصر الحديث امتدت القرية إلى الوادى على طول ضفتى النهر ، وكان شارعنا هو الشارع الرئيسى الذى يصل القرية بسهل «فوشينو» ، كان شارعا عموميا مملوءا بالضجة والحياة ،

قذرا غير مسوى كقاع مجرى جبلى ، تغطيه المطبات والحفر التى تمتلئ بالوحل والثلج شتاءً ، وبتراب يعمى العيون صيفا . البيوت على الجانبين، وكان معظمها من طابقين، كانت معرضة للغبار والوحل والضجة ، وكل ما ينتجه الحرفيون المنتشرون بشكل كثيف ويساهمون بنشاط فى زيادة الضوضاء .

وفى كل صباح ، وعند أول ضوء للفجر ، يشاهد شارعنا موكبا من الغنم والجديان ومن الحمير والبقر والبغال ، وعربات من كل شكل وحجم، وفلاحين فى طريقهم إلى عملهم فى السهل . وفى كل مساء . وحتى وقت متأخر يشاهد الموكب نفسه من الرجال والحيوانات تكافح مرهقة فى الاتجاه المعاكس ، وخلال ساعات النهار .. يحتل الحرفيون جانبى الشارع ، من نجارين ونحاسين وحدادين وصباغين وصانعى الأحذية والبراميل ومصلحى العربات ، بكل معداتهم وملابسهم ، ووسط ذلك كله يمر طابور طويل لا ينتهى من عربات تجرها البغال محملة بالتراب الأحمر، تراب أحمر يستخرج بطريقة بدائية من محجر فى جبل قريب ، وينقل عبر شارعنا إلى محطة السكة الحديد ، ولا أحد فى القرية كلها يعرف ماذا يصنع بهذا التراب بعد ذلك ، وغالبا ما يحدث خاصة فى الطقس السيىء ، أن تغرز احدى العجلات فى حفرة يكون الوحل قد أخفاها عن النظر ، فيتوقف طابور العربات لساعات وسط صيحات ولعنات السائقين .

كان حدث كبير بالنسبة لى حين وافق أبى أن يصطحبنى معه إلى «فيوشينو» لأول مرة ، شعرت أنى كبرت فجأة . أيقظنى مبكرا جدا ، كان الظلام منتشرا . ولكنه كان قد أطعم وأسقى الثيران ، وجهز العربة أمام الباب ، ودهشت حين سمعت صوت النول اليدوى والمدوس والمكوك، كانت أمى تعمل بالفعل ، لكنها جاءت لتجلس بجانبى وأنا أتناول فطورى من الخبز والحليب ، وتسدئ لى نصائحها الأخيرة ، أذكر أنها حذرتنى بشدة من الجلوس فى الشمس ، قالت : كل فرد تقريبا يصاب بضربة شمس حين يعمل لأول مرة فى الحقول . رافقتنى إلى العربة ، وكل كلمة تقولها تزيد من ذعرى .

بدا لى كل شئ كعلامة للحياة الجادة التى على وشك أن ادخلها ، أجسام الثيران الضخمة فى ضوء الفجر الخافت ، البساطة البدائية للأشياء المحملة على العربة : المحراث : زكيبة التبن ، البراميل الخشبية الصغيرة المملوءة بالماء أو بالنبيذ ، سلة الطعام . صياح الديك المفاجئ والطقس ، كان علينا أن نخرج مبكرين ، فقطعة أرضنا تبعد خمسة أميال ، ومن الحكمة لنا وللثيران أن نصل قبل شروق الشمس.

وكما يعرف الجميع ، فإن العربة التى تجرها الثيران تسير بصعوبة، ربما أسرع قليلا من المشى العادى ، لكن هذا البطء جاء على مزاجى ، مزاج ولد سمح له لأول مرة أن يشترك فى حياة الكبار ،

راقبت الفلاحين أمامنا ووراءنا فى موكب من العربات والماشية ، وحاولت إخفاء مشاعرى ، والتصرف كما يفعلون .

صدمت لأنهم يحيّون بعضهم بإيماءة فقط ، حتى بين الاصدقاء والمعارف ، على كل حال أنه يوم عمل لا مناسبة احتفالية ، ولم أهتم لأن والدى ظل غارقا فى أفكاره ، لا يوجّه لى كلمة واحدة ، وهذا يدل على أنى مازلت طفلا بالنسبة إليه . أما مالم أتوقعه فهو منظر قريتى عن بعد، التفت لأنظر إليها ، لم أرها من قبل بهذا الشكل ، مفروشة أمامى كلها ، بعيدة عنى تطل وتسيطر على الوادى ، خليط مكوم من البيوت فى شق سفح جبل عار ، من الصعب التعرف عليها .

بدأ جمهور الفلاحين والعربات والبغال والحمير يتضاءل ونحن نشق طريقنا فى السهل ، يوزع نفسه نحو اليمين أو اليسار ، حتى بقينا وحدنا تقريبا ، وأنذاك فقط أدرك أبى فجأة أنه نسى أن يحضر تبغه ، من ردود أفعاله أدركت أن هذا أمر خطير . كيف سيقضى يوما بطوله ، شديد الحرارة والرطوبة دون شئ يدخنه ، لا يحلم ، حتى أفقر فلاح أن يحدث له ذلك . كانت الشمس قد أشرقت ، وقد قطعنا مسافة بعيدة ولا يمكن أن نفكر بالعودة.

شعرت بالضيق ، خاصة من الجملة التى استمر أبى يكررها :

«لم أنسه فى حياتى أبدا .. أبدا» ، هل يعنى ذلك أن الغلطة

غلطتي!، ركبني الذعر ، وخيمت سحابة فجأة على اليوم الذى سيكون أحد ذكريات حياتي .

حين وصلنا أرضنا ، حل أبى الثيران من العربة وشدها إلى المحراث دون أن ينطق بكلمة وحتى دون أن يرمقنى بنظرة . كان الشارع الفرعى الطويل المحاط بأشجار الحور مهجورا ، والمساحات التى تجاورنا من الحقول شاسعة ، ولا يوجد أمل فى أن نجد أحد المعارف يمكنه أن يقتسم تبغه مع أبى .

حين أصبح مستعدا لبدء الحرث ، نادانى :

– خذ قطعة النقود هذه وقدمها لأى عابر سبيل لقاء سيجارة أو كمية قليلة من التبغ .

كانت الشمس حارة فى هذا الوقت ، ومن النادر أن يعبر الطريق أحد . خلع أبى سترته ، ورفع المهماز الحديدى وصرخ فى الثيران بصوت غاضب . جلست مغموما على الشاطئ العشبى للقناة التى تفصل الحقل عن الشارع . راقبت أبى ينحنى على المحراث وراء الثيران، يتحرك ببطء إلى الأمام ثم يعود ، ثم يبتعد ثانية، متتبعا فى خط مستقيم أخاديد بلون الرماد فى تربة اسودت ببقية الزرع المحروق بعد الحصاد. كان يحرث بصمت ، محافظا على البطء نفسه ، بل الخطوة نفسها ، برغم أن الشمس أضحت حامية ، ولم تكن هناك نسمة

صغيرة تحرك أفرع شجر الحور العملاق الذى يحد الحقل من كل الجهات ، ومياه القناة الطينية تبدو بلا حركة كأنها مياه راكدة ، وشعرت بأنى على وشك الاختناق برغم جلوسى فى الظل ، غمرنى شعور بالنعاس والدوار وتمنيت لو بقيت في البيت . عند منتصف النهار جفلت على صوت أبى يخرجنى من سباتى ، رأيت رجلا يركب حمارا ويتقدم ببطء فى اتجاهنا ، بدا كأنهما - الرجل والحمار يدفعان بالسحابة الكثيفة المنخفضة من الغبار ، الذى تثيره أقدام الحيوان غير المرئية .جريت تجاهه وأريته قطعة النقود وعرضت عليه الصفقة بصراحة، مشيرا إلي والدي الذى توقف تماما في وسط أحد الاخاديد .

قال الرجل : ليس معى سيجار كامل .. نصف سيجار فقط..

قلت وأنا أسير بجوار الحمار : لا يهم .. خذ النقود واعطنى ما معك .. من فضلك لا ترفض.

سألنى : لماذا أمضى يومى كله دون تدخين .. هل أبوك أفضل منى؟

قلت : بالطبع لا .. الأمر ليس كذلك .. ولكنه سيشعر بالضيق وينقلب مزاجه ولن يكلم أحدا للأربع والعشرين ساعة القادمة.

علق الرجل : «هو فاكر نفسه مين ؟»

مازلت «أتقافز بجانب الحمار ، ولكنى بدأت أيأس ..ماذا علىّ أن أفعل لأحصل على نصف السيجار ، ألقيت نظرة مستغيثة على الرجل ، لكنه تجاهلها بنظرة باردة لم استطع أن أقرر إذا ما كانت توحى بالسخرية أو التعاطف .

لم أر من قبل رجلا نحيلا وذابلا أحرقته الشمس كهذا الرجل .

قلت : لدينا طعام جيد فى تلك السلة يمكنك أن تأخذ نصيبى منه إذا أحببت ، وفى البرميل الخشبى نبيذ بارد من كرمنا .. من فضلك توقف لحظة وتعال أنظر بنفسك .

لكنه استمر على عناده ، وإن بدا كأنه يتسلى بمأزقى ، كنت على وشك البكاء وظللت أكرر : من فضلك .. من فضلك ..

قال فجأة : خذ

وناولنى نصف السيجار : سأهديه لك .

واعترضت : ألن تأخذ النقود ؟!

قال : ليس من أجل نصف سيجار .. المرء لا يبيع نصف سيجار .. أما أن يحتفظ به لنفسه أو يعطيه للآخرين دون مقابل .

لم أصر ، فقد كنت فى عجلة لأزهو ببراعتى أمام أبى .

علق أبى بعد أن أخبرته بمفاوضاتى المنتصرة :

– امر غريب .. كنت على الأقل عرفت اسم الرجل .

مرت عدة سنوات ، وذات مساء كنت أجلس عند عتبة الباب الامامية، وفى حجرى كتاب عن الخرافات اللاتينية ، حين رأيت رجلا مقيدا يمسك به شرطيان من البوليس الحربى ، كان الرجل نفسه صاحب نصف السيجار ، عرفته فورا وبدون تردد ، واصابتنى صدمة حتى أنى شعرت بضربة فى قلبى ، جريت لأبحث عن والدى لأخبره ، لكنه لم يكن فى البيت ، ولا فى الشرفة ولا عند جدتى ، أخيرا وجدته فى الزريبة يسقى الثيران ، ولابد أن مظهرى كان مزعجا ، لأنه بمجرد رؤيتى سألنى إذا كان هناك خبر سيىء ؟ قلت : فى الواقع نعم .. وحكيت له ما رأيته .

كان اليوم التالى يوم أحد ، بعد الخروج من الكنيسة . وجدت أبى منتظرا فى الرواق كما خططنا لنذهب إلى القاضى .

قال أبى : أخبره القصة بنفسك ، فأنت الذى تعرف الرجل لا أنا .

لم يكن هناك الكثير ليقال ، لكنى حشدت فى قصتى كل مايثير الشفقة ، أصغى القاضى بابتسامة ، حين انتهيت قال ان الرجل اعتقل بتهمة السرقة . صعقت . من الممكن أن أتخيل أنه كان عنيفا ، وضرب شخصا فى مشاجرة ولكن ليس لصا .

حاول أبى أن يشرح لى قائلا : لابد أنه فعل شيئا حتى يظن البوليس والقاضى أنه سرق ، ومهما كان مافعله فقد بدا كالسرقة لهم ، ولكن الله وحده هو الذى يعلم حقيقة الامر .

كان القاضى طيبا ، اعطانا تصريحا لزيارة الرجل فى السجن ، وكتب اسمى على التصريح ايضا .

فى طريقنا الى السجن قال ابى : ينبغى ان نحضر له هدية .. لكن ماذا نحضر له ؟

اقترحت على أبى ان افضل شيء نهديه اليه مجموعة من السيجار قال أبى : فكرة عظيمة .

مازلت اذكر تلك الزيارة بكل تفاصيلها ، بالنسبة لسنى الغض ، كانت تلك اول مرة أضع فيها قدمى فى مكان كهذا . فى اللحظة التى تخطيت فيها عتبة السجن ، بدأ قلبى يدق بعنف حتى انه كان يؤلمنى ، قادنا السجان الى غرفة صغيرة ضيقة ، منتنة الرائحة ، ينبعث منها شعاع ضوء ضعيف ، من خلال قضيبين حديدين لنافذة ضيقة .

اشار الشرطى الى فتحة بمستوى العين فى أحد الجدران ، سمح لنا أن نتكلم من خلالها مع السجين الذى طلب منه الحضور . ولكى أراه وقفت على أطراف أصابع قدمى .

تذكرنى تماما من الوهلة الاولى ، وهذا ما أسعدنى جدا .

المشاركون في الكتاب :

– هالى بيرنت : المؤلفة ، وهى روائية وكاتبة قصة أمريكية ، أشرفت مع «وت بيرنت» علىٰ مجلة القصة الأمريكية لفترة تقارب الاربعين عاما . من رواياتها : ساعة على الحائط ، وامرأة ممسوسة . ولها مجموعة قصصية بعنوان : هذا القلب ، هذا الصياد .

– وليم ساروويان : (١٩٠٨ – ١٩٨١) كاتب أمريكى من أصل أرمنى، كتب القصة والرواية والمسرحية ، من أعماله القصصية مجموعة «الشاب الجرئ على العقلة الطائرة» ، ومن مسرحياته من حياتك ١٩٣٩، وأهل الكهف ١٩٥٧ ، ومن رواياته الشهيرة الكوميديا الإنسانية ١٩٤٣ وقد ترجمت إلى العربية .

– أرسكين كالدويل : (١٩٠٣ – ١٩٨٧) روائى وكاتب قصة أمريكى، من أعماله المشهورة طريق التبغ ١٩٣٢ ، أرض الله الصغيرة ١٩٣٣ ، ويد الله القوية ١٩٤٧ . وقد ترجمت هذه الروايات الثلاث إلى اللغة العربية ، كما ترجمت له ثلاث مجموعات قصصية منها الأزهار البرية ، والسجود للشمس ، بالاضافة إلى مذكراته التى صدرت فى كتاب الهلال بعنوان : كيف أصبحت روائيا ؟

- حزقيال مغاليلى : من أبرز كتاب القصة فى جنوب افريقيا ، ولد سنة ١٩١٩ ، ترك وطنه سنة ١٩٥٧ بعد أن ضاقت به الحياة هناك ، وعمل بالتدريس فى نيجيريا ، ثم عمل مدرسا فى جامعة نيروبى سنة ١٩٦٥ ، ثم غادر إلى أمريكا سنة ١٩٦٦ وحصل على الدكتوراه فى الابداع الأدبى برواية قدمها مع بحثه سنة ١٩٦٨ ، عمل فى بعض الجامعات الامريكية حتى سنة ١٩٧٧ ، حين عاد إلى جنوب أفريقيا ثانية ، كتب الرواية والقصة والنقد الأدبى ، من رواياته «التائهون» ، ومن مجموعاته القصصية «الأحياء والأموات» ، التى أخذت منها قصته المترجمة هنا .

- ناتاليا جنزبرج : من أشهر الكاتبات الإيطاليات ، لها أسلوبها الخاص السهل ، باستخدام الكلمات العادية لتعطى تأثيرا كبيرا . وقد ترجمت أعمالها لعدة لغات .

من أعمالها : الطريق إلى المدينة ١٩٥٢ ، الأمس القاتل ٥٦ ، أصوات فى المساء ٦٢ ، أمثال عائلية ١٩٦٦ .

- جيه . إم . جى . لوكلوزيو : روائى فرنسى شهير ، ولد سنة ١٩٤٠، نالت روايته الأولى «الاستجواب» ١٩٦٣ جائزة «رونودو» وهى من أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية ، استوحى روحانيات الهنود الحمر فى روايته «مذكرات الباحث عن الذهب» ، وقرأ البيئة الصحراوية

المغربية فى روايته «صحراء» التى ترجمت إلى العربية وصدرت عن دار المستقبل العربى ، وفى روايته «مخيم عين شمس» كتب عن حياة الفلسطينيين تحت الاحتلال الاسرائيلى .

من أعماله الأخرى : رواية «الفيضان» ومجموعة «الحمى» التى اختيرت منها قصته فى هذا الكتاب .

– اجنازيو سيلونى (١٩٠٠ – ١٩٧٨) : من أشهر الروائيين الايطاليين فى القرن العشرين . من أعماله المشهورة رواية فونتمارا ١٩٣٣ وقد ترجمت إلى اللغة العربية ، من أعماله الأخرى حفنة من التوت ١٩٥٢ ، الثعلب وزهرة الكاميليا ١٩٦٠ ، وقد ترجمت أعماله لأكثر من عشرين لغة .

– المترجم أحمد عمر شاهين : كاتب فلسطينى ولد فى مدينة يافا ١٩٤٠ ، أصدر حتى الآن ثمانى روايات ومجموعتين قصصيتين ، من مؤلفاته توائم الخوف ، الآخرون ، المندل ، حالات . كما ترجم العديد من الكتب ، منها تجربتى فى كتابة الرواية لجراهام جرين ، وأيام من حياتى لهرمن هسه ، وصورة شخصية فى السبعين لسارتر وغيرها .

الفهرس :

ص

- تقديم : ٥
- الفصل الأول : ماهى القصة ؟ وكيف تكون قصاصا ؟ ٩
- الفصل الثاني : البحث عن قصة – الذاكرة والحبكة ٢١
- الفصل الثالث : الشخصيات ٣٥
- الفصل الرابع : الأسلوب ٥١
- الفصل الخامس : الكاتب والكتابة ٧١
- الفصل السادس : مراحل القصة – البداية ٨١
- الفصل السابع : المواصلة حتى النهاية ٩١
- الفصل الثامن : المراحل النهائية ٩٩
- الفصل التاسع : ملاحظات أخيرة ١٠٥
- الشاب الجرئ على العقلة الطائرة وليم ساروريان ١١٤
- صيف هندى أرسكين كالدويل ١٢٤
- هو .. والقطة حزقيال مغاليلى ١٤١
- هو وأنا ناتاليا جنزبرج ١٥٠
- على مشارف النوم ج. إم. لوكلوزيو ١٦٥
- زيارة إلى سجين اجنازيو سيلونى ١٧٥

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

يوليو ١٩٩٦ .. تقرأ فيها :

فـكـر وثقافـة

★ البصمة الوراثية وفك طلاسم الجريمة .... د. أحمد مستجير ٨
★ تخليد عالم رغم أنفه .... د. عبدالعظيم أنيس ١٨
★ العشق في الصحراء(٣) .... د. شكرى عياد ٢٦
★ عباقرة يهود في كل زمان ومكان .... د. عبدالوهاب المسيرى ٣٤
★ لإبداع ونهاية الشوط .... د. مصطفى سويف ٤٤
★ المصريون والسلطة .... د. رؤوف عباس ٥٢
★ (رسالة المغرب) الواقعية والحداثة في ندوة الرواية ....
.... مصطفى نبيل ١٣٨
★ نونة الشعنونة بين الفن والفج .... صافى ناز كاظم ١٤٤
★ شاعر عاف سكون النار .... د. عبداللطيف عبدالحليم ١٥٠

شعر وقصة

★ عشقت الصحاري (شعر) .... سليم الرافعى ١٤٣
★ السخان (قصة) .... أهداف سويف ١٢٦

ماذا حدث للمصـريـين ؟

جزء خـاص

★ متغيرات في الشخصية المصرية .... فاروق خورشيد ٦٢
★ ثلاثة أجيال من النساء المصريات .... د. جـلال أمين ٧٢

★ بين الأمس واليوم .... ألفريد فرج ٨٢
★ نحن المصريون المحدثون .... مصطفى الحسينى ٩٠
★ بانوراما التغيرات الاجتماعية في مصر الحديثة ..... على فهمى ٩٦

فـــنون

★ زينب خاتون.. الكنز والبيت .... أحمد أبوكف ١٠٢
★ السينما بين السقوط والصعود .... مصطفى درويش ١١٠
★ قصيدة الروض وبيت الندي، كرمة ابن هانيء ....
.... ابراهيم داوود ١٢٠
★ عد أفلامك يا جحا .... محمود قاسم ١٧٢

التكوين

★ قهرني سجن الشبراوي ستة أشهر .... محمد عودة ١٧٨

الأبواب الثابتة

عــزيزى الـقــارىء - أقــوال مــعــاصــرة - من الهلال إلى الهلال - المكتبة - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيــس التحريــــر
مصطفى نبيل

كتاب الهــلال القادم

الكتاب العربى المطبوع فى مصر

بقلم

د . محمود الطناحى

يصدر : ٥ سبتمبر ١٩٩٦

هذا الكتاب

تتحدث المؤلفة - هالي بيرنت - في هذا الكتاب عن تجربتها وخبرتها في مجال القصة القصيرة ، كاتبة ومشرفة علي مجلة القصة الامريكية لمدة تقارب الاربعين عاما ، فحصت وأقرت فيها أكثر من ألفي قصة لمعظم الكتاب المعاصرين ، كما كان لها الفضل في اكتشاف عدد من أشهر كتاب هذا القرن مثل ترومان كابوت ، ونورمان ميلر ، وتنيسي وليامز ، ووليم ساروبان، و.ح.د. سالنجر ، وجوزيف هيللر .. وغيرهم ، وهي خبرة لا يستهان بها ، سواء للكاتب المبتدىء ، أو راسخ القدم في هذا المجال .

رقم الايداع

١٩٩٦ - ٥٢٣٦

I. S. B. N.

977 - 07 - 0482 - 2

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

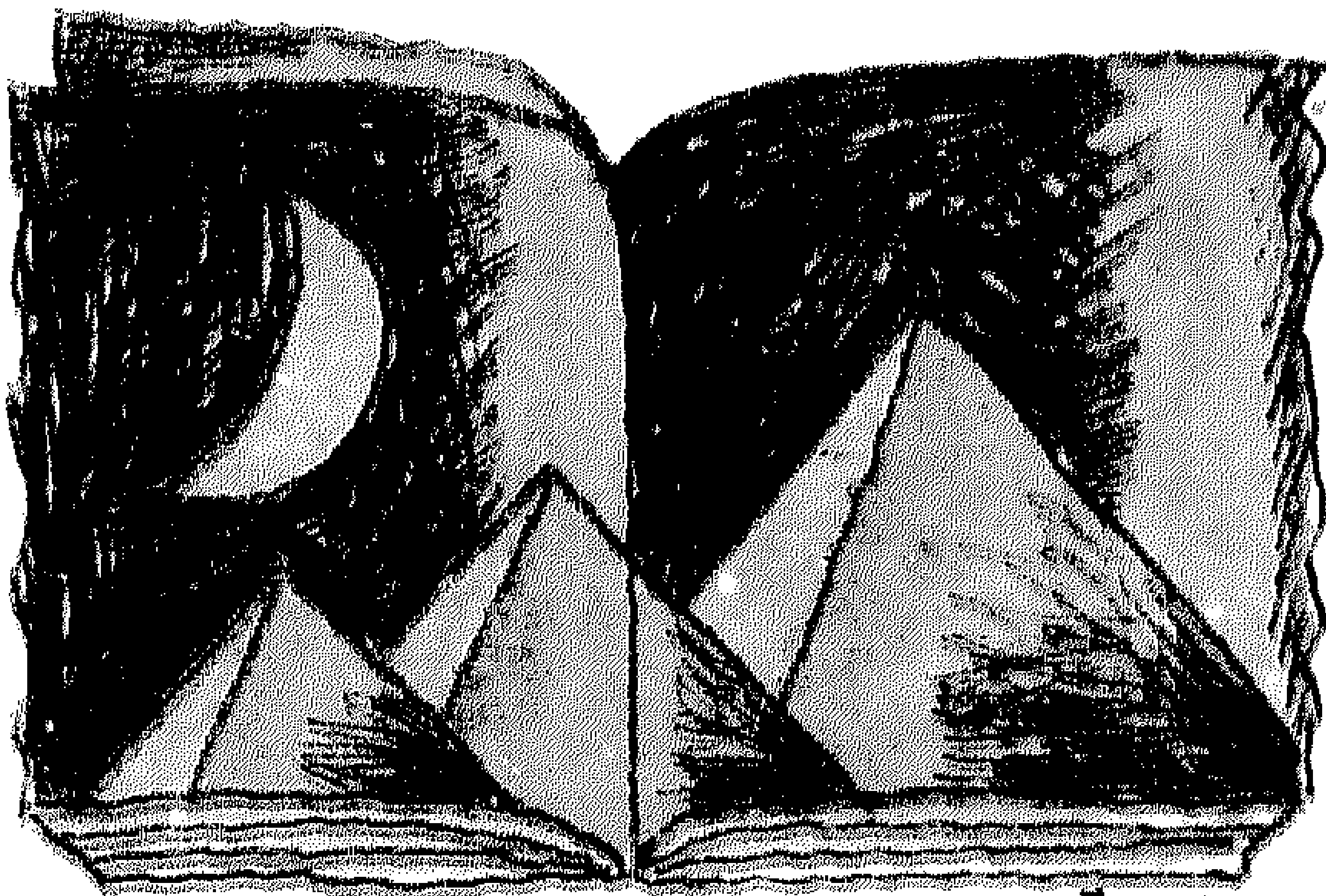
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

الكتاب المطبوع بمصر

في القرن التاسع عشر

(تاريخ وتحليل)

د. محمود محمّد الطناحي





KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٨ ربيع أول - أغسطس ١٩٩٦ No.548-Au-1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٣٠٠ فلس - الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٠ ريالات

الكتاب المطبوع بمصر
فى القرن التاسع عشر
تاريخ وتحليل

بقلم :

الدكتور محمود محمد الطناحى

١٤١٦هـ ١٩٩٦م

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

بين يدى الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد : ففى أواخر شهر جمادى الأولى ، من سنة ١٤١٦ هـ الموافق لأواخر شهر أكتوبر – تشرين الأول – من سنة ١٩٩٥ م ، عقدت بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبىّ – بدولة الإمارات العربية المتحدة – ندوة عن «تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر» . وكان من أهداف هذه الندوة :

* التعريف ببدايات الطباعة العربية فى جميع بلدان العالم .

* إلقاء الضوء على الظروف التى رافقت نشأة الطباعة العربية والصعاب التى واجهتها ، والعوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية المختلفة التى ساعدت على نموها وازدهارها .

* التعريف بالكتب النادرة التى طبعت فى البدايات.

* بيان بأهمية الكتب التى حررت وطبعت في تلك الفترة ، ويعاد طبعها الآن محققة .

* الوقوف على اتجاهات الطباعة العربية فى كل بلد (الأسباب والغايات) .

* تقديم ببليوغرافيا للكتب التى طبعت فى كل بلد حتي نهاية القرن التاسع عشر .

* الوقوف على نوعية الطباعة المستخدمة في البدايات (الورق ، نوع الخطوط ، المطابع) .

* معرفة طرائق التحقيق المتبعة في تلك الفترة .

وقد شارك فى أعمال هذه الندوة نخبة من المثقفين والمهتمين بشئون الكتاب من مختلف بلدان العالم ، وقدمتُ بحثاً عن «تاريخ الطباعة العربية في مصر ، فى ذلك القرن التاسع عشر» .

ولقد كان من صُنع الله لى وتوفيقه إياى أن أرتبط بالمطبعة والطباعة منذ عَقَلْتُ إلى يوم الناس هذا ، فقد نشأت ورَبِيتُ في حى عريق من أحياء القاهرة القديمة «الدرب الأحمر» ذلك الحى الذى يكتنفه تاريخ مصر الإسلامية من قلبه ومن جهاته الأربع ، وعلى مقربة منه يوجد الأزهر الشريف ، ودار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية) فكان حقاً وواجباً أن تنتشر المطابع حول هذين الصرحين الكبيرين من صروح العلم والفكر فى القاهرة المعزية .

ولقد كان من مظاهر اللهو عندى وأنا صبى ، أن أدور أنا وأترابى من الصبيان حول تلك المطابع التى تجاور بيوتنا ، نجمع تلك الحروف الطباعية القديمة المستهلكة التى يلقى بها خارج المطبعة، ونلتقطها ونضم بعضها إلى بعض ، لنصنع منها أسماءنا وأسماء آبائنا ، حتى إذا اجتمع لنا من هذه الحروف عدد وفير صنعنا منه البسملة ، وكان السعيد منا الذى يقع فى يده «كلشيه» قديم ، بقلم أحد الخطاطين الكبار ، مثل نجيب هواوينى ومكاوى ، وعبد العزيز الرفاعى ، وسيد إبراهيم ، وكان لذلك كله أثر فى تحسين خطوطنا ، ومن العجب أن كان لنا صديق في أيام الطفولة هذه ، شغف شغفاً عظيماً بهذه الكلشيهات والحروف التى كنا نلتقطها ، فعنى بجمعها ومحاكاتها ، حتى أصبح خطاطا ماهراً ، وترك التعليم فى المدارس ، والتمس رزقه فى صناعة الخط ، فكان له منها أوفر الحظ والنصيب ، حتى إنه عمل خطاطا بالأهرام ، ودعى إلى كتابة الخطوط ببعض مساجد «جدة» بالمملكة العربية السعودية . ذلك هو الخطاط «عبد العاطى الخولى» .

ثم كان اتصالى الوثيق بالمطابع حين عملت زمن الشباب مصححا بمطبعة عيسى البابى الحلبى ، وهى من أعرق المطابع في مصر ، وتقع بخان جعفر ، قريباً من المشهد الحسينى وخان الخليلى .

وفى هذه المطبعة تجمعت عندى روافد كثيرة عن تاريخ الطباعة فى مصر ، وذلك من خلال كبار المصححين الذين عملوا بالتصحيح بمطبعة بولاق ، وحين أحيلوا إلى التقاعد عملوا بمطبعة الحلبى، وكنت كثير المجالسة لهم والرواية عنهم ، وفى جَعبة هؤلاء كلام كثير عن تاريخ الطباعة . ثم كان لى أيضا من عمال مطبعة الحلبى، وبخاصة المسنون منهم ، زاد وأىّ زاد ، وبعض هؤلاء العمال المسنين الذين أدركتهم قد عملوا بالمطابع القديمة الشهيرة مثل مطبعة المنار للشيخ محمد رشيد رضا ، والمطبعة المنيرية للشيخ محمد منير الدمشقى ، والمطبعة السلفية للشيخ محب الدين الخطيب .

أضف إلى هذا أن منطقة الحسين والأزهر كانت تزخر بالمطابع القديمة ، مثل مطبعة صبيح ، وعبد الحميد حنفى ، وعبد الرحمن محمد كما أن بها كثيراً من الوراقين (باعة الكتب القديمة) مثل محمد العبادى وزكى مجاهد ، وكانت هذه المطابع ومحلات الوراقين ملتقى لمحبى العلم وجامعى الكتب ، يجتمعون ولا حديث لهم إلا عن نوادر المطبوعات وتاريخ المطابع وتاريخ أصحابها ، وكنت أختلف إلى هؤلاء العلماء ، أغشى مجالسهم وأسمع منهم ، وأعلق عنهم الفوائد والنوادر ، وكانوا يعطفون علىَّ كثيرا ، ويقربوننى منهم ، إذ كنت شاباً حدثاً يحب العلم ، ويعشق تاريخ

الرجال ، ومن العلماء الذين عرفتهم فى تلك الأماكن : الشيخ الدكتور محمد الفحام شيخ الجامع الأزهر - وكان محباً للكتب جداً - والمشايخ : السيد أحمد صقر - المحقق العلم - وعبد الغنى عبدالخالق ، وعبد الوهاب عبد اللطيف .

وفى أوائل الستينات اشتغلت بنسخ المخطوطات بدار الكتب المصرية ، وفى قاعة المخطوطات الشهيرة لقيت العلماء من عرب وعجم ، وشافَهْتُهم وأخذت عنهم ، وفى مقدمة هؤلاء عالم المخطوطات الكبير فؤاد سيد ، وحين عملت بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، فى منتصف الستينات ، عرفت محمد رشاد عبد المطلب ، وكان إلى جانب علمه الواسع بالكتاب العربى المخطوط ، عالماً بالكتاب المطبوع ، علماً لا يدانيه فيه أحد ممن عرفت فى ذلك الزمان ، وإلى يومي هذا ، لقد أحب هذا الرجل الكتاب العربى (مخطوطا ومطبوعا) حبا طاغيا ، جرى منه مجرى الدم فى العروق ، وعرفه فى حالتيه كما يعرف الناس آباءهم . ولو عاش هذا الرجل لكان خير تسجيل لنشأة الطباعة العربية فى مصر ، وأطوارها المختلفة . ومن المحزن حقاً أن الناس لم تلتفتْ إلى هذا الرجل فى حياته ، فمات وفي صدره علم كثير ! فانظر كم من الرجال نفقد بأجل الله الذى لا يؤخر ، ولم نقدر مجيئه المحتوم فنستخرج من هؤلاء الرجال علمهم ومعارفهم!

وحين منّ الله عليّ بالعمل في تحقيق التراث ونشره ، كان من أهم عدة المحقق التى تعلمناها من مشايخنا معرفة فرق ما بين الطبعات ، حتى يكون التوثيق والتخريج مستنداً إلى أصول صحيحة ، فزادنى ذلك قرباً من تاريخ الطباعة في مصر وفي غير مصر ، وكان يراودنى حلم دائم : أن يكتب هذا التاريخ ، تاريخ طباعة الكتاب العربى فى مصر - وبخاصة فى بداية الطباعة - على أن تكون العناية الكبرى والمقصد الأعظم من كتابة هذا التاريخ ، هو تاريخ الرجال الذين سلكوا دروبا مضنية ، واحتملوا عناء باهظاً ، فى سبيل طبع الكتاب العربى فى ذلك الزمان ، وهؤلاء الرجال : ناشرون ومنفقون وأصحاب مطابع ومصححون .

لقد قلت فى بحثى هذا : إن ثقافة العالم العربى والإسلامى في ذلك القرن التاسع عشر قد خرجت من عشرة كيلو مترات فى وسط القاهرة - هى تلك المطابع التى قامت فى تلك المنطقة - مضافا إليها تلك الرقعة المحدودة فى رملة بولاق ، على ضفاف النيل ، التى سميت مطبعة بولاق .

وإن الذين يكتبون الآن عن التنوير والتحديث فى مصر فى ذلك القرن التاسع عشر يقفون عند بعض أسماء ، ليست هى - على أثرها وتأثيرها - كل الأسماء العظيمة فى تاريخ مصر فى ذلك الزمان ، وإن من أبرز عيوبنا المتابعة والإخلاد إلى الراحة ، يتابع

اللاحق السابق فى كل ما كتب ، مع إضافة أشياء هينة يسيرة ، لا تقدم فى طريق العلم شيئا ، وسترى أيها القارئ الكريم فى هذا البحث ، عند الحديث عن الترجمة فى مصر أسماء كبيرة غير «رفاعة رافع الطهطاوى» ، ولا أظن أن كثيراً من الذين يمرون أو ينزلون «فايد» فى طريق السويس يعلمون أن هذه المحطة سميت باسم «أحمد فايد باشا» ذلك المهندس العظيم الذى خرج فى إحدى بعثات محمد على باشا إلى فرنسا ، ثم عين فى أوائل سنة ١٨٣٦م فى أعمال الهندسة بالسكة الحديد ، ويقول عنه الأمير عمر طوسون : «وإليه يرجع الفضل فى مد خطوطها فى أكثر أنحاء القطر» .

وكذلك ما أظن كثيراً من الذين يغدون ويروحون بشارع عبد الخالق ثروت فى قلب القاهرة الآن يعلمون أن هذا الرجل كان من عظماء الرجال ، وأنه وقف خلف طبع كتابين من أبرز كتب التراث أولهما : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى وثانيهما : المخصص فى اللغة لابن سيده .

لقد حظى تاريخ الطباعة فى القرن التاسع عشر فى مصر ، بجهود طيبة ، أذكر منها تاريخياً :

١ - تاريخ مطبعة بولاق ولمحة فى تاريخ الطباعة فى بلدان

الشرق الأوسط . للدكتور بى الفتوح رضوان . المطبعة الأميرية - بولاق - القاهرة ١٩٥٣ م .

وأصل هذا الكتاب رسالة ماجستير ، قدمت إلى قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٣٦ م .

٢ - تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ، للدكتور خليل صابات - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

٣ - حركة نشر الكتب فى مصر - دراسة تطبيقية - للدكتور شعبان خليفة . دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٧٤ م .

٤ - الكتب العربية التى نشرت فى مصر فى القرن التاسع عشر . للدكتورة عايدة إبراهيم نصير . قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٠ م .

٥ - حركة نشر الكتب فى مصر فى القرن التاسع عشر . للمؤلفة المذكورة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م .

وهذا الكتاب الأخير هو أهم كتاب فى موضوعه ، ويقع فى (٦٥٣) صفحة ، وقد عالجت فيه المؤلفة الجادة معظم القضايا التى تتصل بالكتاب العربى فى مصر ، فى تلك الفترة ، فالكتاب كما ذكرت مؤلفته فى مقدمته يسعى إلى رصد وتصوير حركة نشر الكتاب المصرى فى القرن التاسع عشر فى حلقاتها

الثلاث المتكاملة : التأليف والترجمة - تصنيع الكتاب - تسويق الكتاب» .

وقد قدمت المؤلفة معلومات جيدة ، وبخاصة في أسماء المطابع الأهلية ، أو المطابع الخاصة ، كما سمتها ، بذكر أسماء المطابع وأسماء أصحابها ، وسنة إنشائها ، وعدد الكتب التي طبعتها .

ومما يدخل في نطاق الكتب التي أرخت للكتاب العربي في مصر في القرن التاسع عشر - ضمناً وليس قصداً - : المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع . جمع وإعداد وتحرير الدكتور محمد عيسى صالحية ، من إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد المخطوطات العربية) القاهرة . صدر الجزء الأول سنة ١٩٩٢ م ، والثاني والثالث سنة ١٩٩٣ م ، والخامس - وهو الأخير - سنة ١٩٩٥ م ، أما الجزء الرابع فقد ضاعت أصوله في أثناء الغزو العراقي لدولة الكويت . إذ كان المؤلف يعمل وقتئذ هناك .

وفي هذه الكتب كلها التي ذكرتها جهود عظيمة في تاريخ الطباعة في مصر ، في القرن التاسع عشر ، أفدت منها كثيرا ، في التصور العام لحركة النشر في ذلك الزمان .

لكن كتابي هذا - على وَجازته واختصاره - يتغيًّا غايات

أخرى ، كنت قــد أبنت عنها فى كتابى : مدخل إلى تــاريخ نشر التــراث العربى (١) . وهى الكشف عن جهود الأفراد والهيئات فى نشــر التــراث العــربى وإذاعــتـه ، وكـان الذى حـرَّكنى إلى هـذا الموضوع ، ورغَّبنى فيـه : تلك الظاهرة الخطيرة التى شاعت فى العقود الثـلاثة الأخيـرة ، وهى ظـاهرة تصوير الكتب المطبـوعة . قـديماً بالأوفسـت (٢) . وهـذه الظـاهـرة قـد اغـتـالت تاريخ هـؤلاء الرجال العظام : نـاشرين ومنفقين وأصـحـاب مطابع ومصـحـحين ، وقد سجلت أسماؤهـم فى أوائل المطبوعات ، أو فى أواخرهـا ، حتى جاء التصوير – وقد بدأ من بيروت – فأسقط الصفحات التى فيها أسماؤهم، ثم أغفل زمـان ومكان الطبع الأول ، بل طمس فى بعض المطبـوعات خـاتم المطبـعـة بالسـواد حـتـى لا يرى ولا يقـرأ ! فـأى جريمة هذه ؟.

إن هؤلاء الرجـال الذين نهـضـوا لنشـر الكتب والإنفـاق عليـها يحـتـاجون إلى دراسات مسـتفيـضـة ، وسـترى أيـها القـارئ الكريم

---

(١) صدر عن مطبعة الخانجى بالقاهرة، سنة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م.

(٢) وللتاريخ أقول: إن الذى فتح هذا الباب ، ودل الناس عليه ، هو الكتبى النابه الخبير قاسم الرجب ، صاحب مكتبة المثني ببغداد ، في أوائل الستينات من هذا القرن العشرين ، لكنا للإنصـاف نقول : إن هذا الرجل كان أمينا كل الأمانة ، وكـان حريصـاً على إخــراج الكتاب بصورته الأولى ، من حيث =

فى كتابى هذا نماذج غريبة من هـؤلاء الرجال : فهذا محـام يبيع «عزبة» لعلها هى كل ما يملك ، لينفق على طبع كتـاب «الأم» للشافعى ، وذلك تاجر يطبع على نفقته أصح طبعة من «صحيح البخارى» وهذا مسيحى فاضل يطبع على نفقته «خطط المقريزى» (٣) .

ذكر محقق الكتاب وناشره ، وزمان ومكان الطبع ، ثم هو لم يأكل حقاً من حقوق الأحياء أو ورثتهم ، والكتب التى قام بتصويرها أشبه ما تكون بالمخطوطات ، لتقادم العهد بطباعتها ، ومعظم ما صوره من نوادر مطبوعات أوربا القديمة ، وبولاق بمصر ، ودائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند ، مثل النقائض لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وشرح المفضليات لأبى محمد القاسم بن محمد الأنبارى ، وديوان ذي الرمة ، وشرح ديوان المتنبى للواحدى، والأنساب المتفقة لابن القيسرانى ، والمصاحف لأبى بكر عبد الله بن أبى داود السجستاني ، والنصف الأول من كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن أبى سليمان داود الأصفهانى ، والكتاب لسيبويه ، وألف ليلة وليلة ، والجمهرة فى اللغة لابن دريد .

وقد قصد قاسم الرجب من تصوير تلك الكتب إلى غايات نبيلة ، هى خدمة الدارسين والباحثين ، الذين يصعب عليهم الحصول على تلك الطبعات التى مضى على طباعتها زمن طويل . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان من خير الوراقين وأنبلهم وأعلمهم فى هذا الزمان ، وقد عرفته فى صدر شبابى ، واستفدت منه فوائد جمة .

(٣) الأول هو . أحمد أحمد الحسينى ، والثانى : محمد حسن عيد ، والثالث : رفائيل عبيد ، وسيأتى حديث كل واحد منهم فى الفقرة الحادية عشرة فى تقييم أعمال مطبعة بولاق .

وفى ذلك القرن التاسع عشر احتشد للإنفاق على طبع الكتاب العربى فى مصر : الهندى والحجازى والتونسى والمغربى والشامى والمصرى ، وهو تجمع عربى إسلامى شامخ ، قبل أن تكون للعرب جامعة ، وقبل أن يوجد للإسلام مؤتمر .

وأيضا فإن طبقة المصححين الذين قاموا على إخراج هذه الكتب يحتاجون إلى دراسة ، فقد أدوا إلينا الكتب على خير وجه من الصحة والإتقان ، وهذا مما يؤكد الثقة بذلك العلم الذى طبع فى تلك الأيام .

ولما كان العالمون بتاريخ الطباعة ، والمحبون للعلم ، العارفون بتاريخ الرجال يتناقصون يوماً إثر يوم ، فلابد من عمل لاستنقاذ هذا التاريخ من بئر النسيان وقرارة الضياع ، وفى ذلك الشأن قدَّمتُ بعض مقترحات، تراها في آخر الكتاب ، حين تأتى قراءتك عليه إن شاء الله .

ومن غايات كتابى هذا الموجز أيضاً : تحليل وإبراز الدوافع التى وقفت خلف طبع الكتب فى مصر فى ذلك القرن التاسع عشر فليست المسألة أن تُصف حروف ، ويبسط ورق ، وتدور ماكينات لقد كانت هناك غايات ضخمة وأهداف عظيمة وراء حركة الطبع ونشر الكتب ، أبنت عنها فى تحليل مطبوعات بولاق ، والمطابع الأهلية التى تأثرتها وركضت خلفها .

ومن غايات كتابى هذا الموجز أيضا : إبراز مدانة مصر فى ذلك الزمان – ليس من باب عصبية البلد ، لكن من باب ردّ الحقوق إلى أصحابها ، وحق هذا الجيل فى أن يعرف تاريخه – نعم كان من غايتى أن أبرز أثر مصر ووفاءها للثقافة العربية ، بما طبعته وأذاعته من الكتب، بتلك الأعداد الضخمة ، فى كل علم وفن ، وفى الميادين الثلاثة : نشر التراث والترجمة والتأليف . وسترى أيها القارئ الكريم أن القائمين على الأمر فى مصر في ذلك الزمان ، كانوا جادين في بناء دولة وقيام حضارة ، لم تكن لمصر وللمصريين فقط ، بل مدت ظلالها لتشمل العالم العربى والإسلامى كله فى ذلك الزمان .

لقد قامت هذه المرحلة من تاريخ الطباعة فى مصر ، على أسس ثابتة ، وجرت على منهج محكم راشد ، من حيث الاختيار والإعداد والطبع ، حتى إذا كان القرن العشرون كانت الثمار قد أينعت ، والأشجار قد تعددت ، ومدت فروعها وأغصانها ، فى مصر ، وفي خارج مصر .

ثم كان من غايات كتابى هذا الموجز أيضا : إبراز أثر مصر فى اجتذاب أصحاب المواهب من الناشرين الشوام والمغاربة ، لقد استقبلت مصر هؤلاء الناشرين النابهين ، فأحسنت استقبالهم ، وأعتدت لهم متكأً ، فأنتجوا وملأوا الدنيا علماً .

فهذا تاريخ وأولئك رجاله ، ينبغى أن يصان ويصانوا ، وربنا المستعان، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

وكتب ذلك

أبو محمد

محمود محمد الطناحى

فى الليلة التى يُسفر صباحها عن يوم الثلاثاء ٣ من شهر رمضان ١٤١٦ هـ

٢٣ من شهر يناير ١٩٩٦ م

بمنزلى ٦ شارع بشار بن برد - المنطقة السادسة

مدينة نصر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

كان إنجازاً حضاريا كبيراً ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادى، على يد يوهان جوتنبرج (١) الألمانى (١٣٩٧ – ١٤٦٨م) ، وكان ذلك هو البديل العظيم للنسخ والوراقة ، اللذين كانا السبيل الوحيد لانتقال المعرفة وذيوع العلم .

ومهما أوتيت بعضُ الكتب حظا من كثرة نُسخها ومخطوطاتها – مثل كتاب العين، للخليل بن أحمد، الذى كان منه نيِّف وثلاثون نسخة فى خزانة العزيز بالله الفاطمى ، ومثل الجمهرة فى اللغة لابن دريد ، الذى كان منه فى الخزانة المذكورة مائة نسخة، وكذلك كان فى خزانة كتب الفاطميين بمصر مائتان وألف نسخة من تاريخ الطبرى (٢) .

---

(١) انظر المحاولات الأولى للطباعة قبل «جوتنبرج» فى : تاريخ الطباعة لخليل صابات ص ١٣ ، وتاريخ مطبعة بولاق لأبى الفتوح رضوان ص ١ ، ٢ ودراسة فى مصادر الأدب للطاهر أحمد مكى ص ٦٧ .

(٢) خطط المقريزى ٢/١٢٧ – ١٢٩ (طبع دار التحرير للطبع والنشر . القاهرة ١٩٦٧ م) .

أقول : مهما كان ذلك فسيظل للمطبعة أثرها الضخم فى انتشار العلم والتقاء الحضارات ، وتبادل الثقافات .

ولقد كان المهد الأول للطباعة العربية في إيطاليا ، منذ أوائل القرن السادس عشر، كما هو معروف ، وكانت أول مطبعة عربية فى مدينة فانو FANO ، وبها صدر سنة ١٥١٤م (٩٢٠هـ) أول كتاب عربى مطبوع ، وهو «صلاة السواعى الصلوات الليلية والنهارية» حسب طقوس كنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية ، وجاء الكتاب فى ٢١١ صفحة.

وقد تبعت إيطاليا بلدان أوربا وعواصمها ، ثم كانت الآستانة (استانبول) عاصمة الخلافة العثمانية أسبق مدن الشرق إلى الطباعة، ويقال : إن إيران (بلاد العجم) هى السابقة ، وبعد ذلك عرفت الطباعة فى لبنان وسائر بلاد الشام .

ويبدأ حديث الطباعة فى مصر بدخول الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م، حيث حمل نابليون معه مطبعة صغيرة لطبع منشوراته وأوامره باللغة العربية، وكانت هذه المطبعة الصغيرة تعمل وهى على السفينة فى عُرض البحر ، وحين اقتحم نابليون ثغر الإسكندرية قام رجال حملته بتوزيع المنشورات السياسية التى أعدوها فى البحر ، وأطلق على هذه المطبعة اسم «المطبعة الأهلية»، ثم نقلت إلى القاهرة ، ووضعت فى بيت السنارى بحى السيدة

زينب ، واستمرت فى عملها إلى سنة ١٨٠١ م ، حيث اندحر نابليون وخابت حملته .

وكان نابليون قد جهز مطبعته تلك بحروف عربية وتركية وفرنسية ويونانية، وطبع فيها إلى جانب المنشورات والأوامر ، أمثال لقمان الحكيم ، ثم طبعت بهذه المطبعة، بالعربية والتركية والفرنسية محاكمة سليمان الحلبى ، باسم «مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل صارى عسكر العام كليبر» ووضع اسم المطبعة على الغلاف هكذا : مطبعة الجمهور الفرنساوى ١٧٩٩ - ١٨٠٠م (١٢١٤هـ) .

ثم طبع نابليون بعض رسائل فى النصائح الطبية وغيرها : استمالة لقلوب المصريين ، واجتلابا لرضاهم ، ولم يزد فى الطباعة على ذلك .

ومرت فترة من الزمان - زهاء عشرين سنة - وليس فى مصر طباعة، ولا مطبعة ، حتى استقر الأمر لمحمد على باشا ، الذى تولى حكم مصر سنة ١٨٠٥م فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية (٣) ، وسميت بالمطبعة الأهلية أيضا، وذلك فى

---

(٣) ويقال : إن محمد على باشا أنشأ مطبعته إنشاء : لأن الحملة الفرنسية حملت مطبعتها معها عند انسحابها من مصر ، وهذا موضع خلاف

سنة ١٨١٩م ، أو ١٨٢١، ثم نقلت هذه المطبعة إلى بولاق ، على ضفاف النيل، فعرفت بمطبعة بولاق ، أو المطبعة الأميرية ، أو الميرية، كما تعرف إلى يوم الناس هذا ، وقد سميت أيضا : مطبعة الحاج محمد على باشا (٤) ، وقد تسمى بالوصف، فيقال :

بين المؤرخين ، فبعضهم يقول : إن مطبعة نابليون بقيت بمصر ، وأقام عليها محمد على باشا مطبعته الشهيرة فى بولاق . وبعضهم يقول:

إن هذه المطبعة أعيدت إلى فرنسا ، على يد حنا – ويقال : جان – يوسف مارسيل ، الذى استطاع بعد تسليم القاهرة، أن ينقذ المطابع الفرنسية ويعيدها إلى فرنسا . انظر : خليل صابات ، تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ص ١٤١ ، وأبو الفتوح رضوان ، تاريخ مطبعة بولاق ص ٢٢ .

هذا ، وقد أخبرنى صديقى العراقى الدكتور قاسم السامرائى الأستاذ بجامعة ليدن بهولندا – أخبرنى أن المطبعة التى جاء بها نابليون إلى مصر ، إنما هى مطبعة «ميدتشى» أخذها نابليون من إيطاليا حين غزوه لها ، وحين دخل الإنجليز مصر ، وأخرجوا من بقى بها من الفرنسيين ، أخذ هؤلاء تلك المطبعة وأعادوها إلى مكانها الأول فى إيطاليا ، كما أخبرني أن بقايا هذه المطبعة لازالت محفوظة بمدينة فرنزة ، فى مقاطعة بروفاونس ، فى إيطاليا .

(٤) كما جاء فى كتاب الكافية فى النحو لابن الحاجب المطبوع بها ١٢٤٧ هـ = ١٨٣١م .

المطبعة العامرة (٥) أو الباهرة ونحو ذلك، وعرفت أيضا : بدار الطباعة الخديوية.

وهكذا كانت بداية الطباعة العربية فى مصر : مطبعة بولاق التى أنشأها محمد على باشا ، ثم تبعتها وجاءت بعدها بعض المطابع الملحقة بإدارات الجيش والمدارس العليا ، وبعد ذلك بدأت المطابع الأهلية .

فهذه ثلاث مراحل فى بداية الطباعة العربية فى مصر، ثم على امتداد القرن التاسع عشر ، ولكل مرحلة قصة وتاريخ :

---

(٥) يأتى هذا وصفا لبعض المطابع الأخرى ، مثل المطبعة العامرة باستانبول ، والمطبعة العامرة العثمانية بمصر .

المرحلة الأولى
مطبعة بولاق

تمثل هذه المطبعة الباب الواسع الذى دخل منه العرب إلى النهضة الحديثة ، كما تمثل فى الوقت نفسه البعث الحقيقى لتراث الآباء والأجداد . ولقد قلت فى بعض ما كتبت : لم يظهر الوجه العربىْ للطباعة إلا فى مطبعة بولاق بمصر، لقد كان إنشاء هذه المطبعة صيحة مدوية أيقظت الغافلين ، ومركز ضوء باهر هدى الحائرين ، وقد تدافعت مطبوعاتها من الكتاب العربى كأنها السيل الذى عناه حنظلة بن مصبح:

أقبل سيل جاء من أمر اللهْ يحرد (٦) حرد الجنة المُغِلَّهْ

ولئن كانت الطباعة العربية قد عرفت فى بلاد أخرى شرقا وغربا قبل مطبعة بولاق ، فإن نشاط هذه المطابع إذا قيس بنشاط مطبعة بولاق فى ذلك الزمان المتقدم، كان ضئيلا محدوداً . جاء فى

---

(٦) حرَد يحرِد : أى قصد يقصد ، ومنه قوله تعالى : (وغدوا على حرد قادرين) القلم ٢٥ ، وانظر كتابى : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ص ٣١ .

مقدمة معجم المطبوعات العربية والمعربة ، فى أثناء الحديث عن مطبعة بولاق : « وقد عدد ما طبع من الكتب من ١٩ مايو سنة ١٨٧٢م (أى ١٢٨٩هـ) إلى آخر ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هـ ، فبلغت عدد النسخ ٣٦١٨١٥ ، قال صاحب التعداد المذكور : وكان قبلا مطبوعا لغاية معرض باريس سنة ١٨٦٧ م : ١٢٨٤ هـ = ٢٤٢٠٧٥ ، فيكون اجمال ما صدر من النسخ ٦٠٣٨٩٠ كتابا لغاية سنة ١٢٩٥ هـ» .

أرأيت إلى هذا العدد الذى يزيد على نصف المليون، فى هذه المدة الوجيزة لإنشاء مطبعة بولاق، وهى مدة يسيرة لاتعد شيئا فى تاريخ الأمم والشعوب، مع ملاحظة ضعف الوسائل الطباعية فى تلك الأيام ، والاعتماد على الجمع اليدوى (الصندوق) وهو يمثل عائقا كبيرا فى سرعة الإنجاز .

وواضح أن المراد من العدد المذكور : النسخ لا الكتب ، فإن بعض الكتب فى طبعات بولاق يصل إلى عشرين جزءا (أى نسخة) مثل كتاب الأغانى ، الذى طبع سنة ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م .

وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أن بعض الكتب قد نشر بهامش كتب أخرى ، وهى ظاهرة عجيبة ، سأتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

★★★

وفى مجال تقييم أعمال مطبعة بولاق تبرز هذه الحقائق :

أولا : كان إنشاء محمد على مطبعة بولاق متزامنا مع إرساله البعثات لتلقى العلم فى أوربا . ومن أعلام هذه البعثات رفاعة الطهطاوى(٧) ، ذلك الشيخ الأزهرى الذى يعد من أركان النهضة العلمية العربية فى العصر الحديث، وهو مؤسس مدرسة الألسن بالقاهرة. وسنرى فى أوائل مطبوعات بولاق كثيرا من المترجمات بقلمه.

ولا يستطيع الدارس أن يغفل العلاقة بين هذه البعثات ونشاط مطبعة بولاق ، فقد عاد الدارسون المصريون من أوربا برغبة عارمة فى الإصلاح والنهوض ، ولم يركنوا إلى الدعة والاكتفاء بمدح الإفرنج والطعن على أمتهم ، والانتقاص من تاريخها وذم علومها ومعارفها ، كما نرى ونسمع الآن (٨) .

ثانيا : إذا كانت مطبعة بولاق قد أنشئت سنة ١٨٢١ م ، فإن

---

(٧) اسمه : رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع الطهطاوى الحسينى الشافعى .

ولد سنة ١٢١٦ هـ = ١٨٠١ م ، وتوفى سنة ١٢٩٠ هـ = ١٨٧٣ م . الأعلام ٣/٥٥ .

(٨) انظر أثر مطبعة بولاق فى خلق النهضة العلمية الحديثة . فى تاريخ مطبعة بولاق ، للدكتور أبو الفتوح رضوان ص ٣٤٩ - ٣٥٣ .

أقدم مطبوع بها هو «قاموس إيطالى وعربى» الذى طبع سنة ١٨٢٢ م ، وقد ألفه القس رافائيل زخور راهب، وفيما تلا هذه السنة ، وفي تلك السنوات المبكرة من هذا القرن نلاحظ غلبة للكتب المترجمة في الشئون الطبية والصحية ، والزراعة والهندسة ، وتدبير المعاش. ونعم قد طبعت فى هذه الفترة المبكرة بعض الكتب في العلوم النظرية ، فى فقه أبي حنيفة، وفى علمى النحو والصرف والشعر والمعارف العامة، ولكنها كانت محدودة بالنسبة إلى الكتب المترجمة . وسألحق في آخر هذه المرحلة قائمة بأبرز هذه المترجمات فى الخمسين عاماً الأولى من نشاط مطبعة بولاق .

على أن من أقدم ما طبعت بولاق من العلوم النظرية : مجموعة متون الصرف، مثل الشافية لابن الحاجب ، والتصريف العزى - بعناية الشيخ حسن بن محمد العطار شيخ الأزهر ، طبعت هذه المجموعة سنة ١٢٤٠ هـ = ١٨٢٤ م .

ثالثاً : إن الذين قاموا على نشر كتب التراث بتلك المطبعة كانوا يستهدفون غاية ضخمة، هى إبراز كنوز الفكر العربى والإسلامى ، فعمدوا إلى نشر الأمهات والأصول فى كل علم، ولم يطغ فن على فن ، شأن المطابع ودور النشر التجارية التى تتحسس حاجة السوق ، وتلبى رغبات عاجلة لخدمة بعض الاتجاهات والنوازع ، فهم قد نظروا إلى التراث نظرة شمولية

كلية، فنشرت مطبعة بولاق: منهاج السنة النبوية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، فى أربعة أجزاء ، ثم طبعت الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربى ، فى أربعة أجزاء أيضا ، وطبعت من تراجم المشارقة : وفيات الأعيان لابن خلكان، ومن تراجم المغاربة قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى . وطبعت تفسير الطبرى والفخر الرازى والآلوسي وإسماعيل حقى البرسوي ، وصحيح البخارى وشرحه لابن حجر، والقسطلانى، ثم طبعت ألف لية وليلة ، طبعتين ، ورجوع الشيخ إلى صباه فى القوة على الباه لابن كمال باشا ، وهو أشهر كتاب جنس فى المكتبة العربية (٩).

فالذين وجهوا حركة الطبع والنشر فى ذلك الزمان كانوا مدفوعين برغبة قوية فى الإصلاح والنهوض ، ثم ملاحقة التطور الأوربى الذى تناهت إليهم أصداؤه وثماره ، من خلال الغزو وإرسال البعثات ، وفى ذلك يقول شيخنا عبد السلام هارون، رحمه الله ، «ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه فكرة قومية ،

---

(٩) مطبعة بولاق ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١ م ، بل قد طبع قبل ذلك بمطبعة شرف ١٢٩٨ هـ = ١٨٨٠ م ، ثم طبع بعد ذلك بالمطبعة الميمنية ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م.

قبل أن تكون فكرة علمية ، فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركي وضغطه كان يأخذ بمخنق العرب في بلادهم ، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم ، في الوقت الذى ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية، فانطلقوا فى هذه السبيل، ينشرون ويحيون ، إذ كانوا يرون أنهم أحق بهذا العمل النبيل وأجدر (١٠) » .

رابعا : تزامن نشاط مطبعة بولاق مع الدعوة إلى العامية التى تولى كِبرها نفر من الأجانب الذين حلوا بمصر ، منهم ولهلم سبيتا ، وكارل فولرس ، وويلكوكس ، وسلدن ولمور ، وزويمر ، وقد جاهد هؤلاء فى الترويج لدعوتهم الخبيثة جهاداً لاهثاً ، يصانعهم ويظاهرهم قوم أغبياء من أهل جِلدتنا (١١) .

ومما لاشك فيه أن طبعات بولاق من أصول التراث العربى ، فى ذلك الوقت ، كانت خير وسيلة للوقوف فى وجه تلك الأفكار والدعوات ، ثم إنها من وراء ذلك قد غذت عقول أرباب العلم وأهل الأدب ، حين وضعت أمامهم زادا شهيا من علوم الأوائل وآدابها ،

---

(١٠) التراث العربى ص ٤٩ .

(١١) راجع كتاب أباطيل وأسمار ، لمحمود محمد شاكر ص ١٥٤ -

مما أمدهم بفيض زاخر من العربية الصحيحة ، أعانهم على ما هم بسبيله من الإبداع والإحسان ، فكان البعث والتنوير الذى حمل لواءه رفاعة الطهطاوى ، ومحمود سامى البارودى والشيخ حسين المرصفى ومن نسج على نَولهم وسار فى ركابهم .

خامسا : أقدمت مطبعة بولاق فى ذلك الزمان المبكر على طبع الموسوعات الضخمة؛ وبعض هذه الموسوعات جاء فى ثلاثين جزءا، مثل تفسير الطبرى ، وبعضها فى عشرين جزءا كالأغانى ولسان العرب، أما الكتب ذات الجزءين والأربع والسبع وما فوق العشر فكثيرة .

سادسا : حرصت مطبعة بولاق فى كثير من منشوراتها على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلى ، أو بآخره لصلة ذلك بالكتاب، أو لمجرد الرغبة فى نشر الكتب على أوسع نطاق ، وهذه الظاهرة لم تعرف قبل مطبعة بولاق إلا أن تكون بعض مطابع الآستانة (إستانبول) . وهذه الظاهرة دالة بوضوح على أن القوم كانوا فى سباق لنشر العلم وإذاعته.

وعلى سبيل المثال فقد طبع كتاب الكامل فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير سنة ١٢٩٠ هـ = ١٨٧٣ م فى اثنى عشر جزءا – بتصحيح إبراهيم الدسوقى الملقب عبد الغفار وبهامشه ثلاثة كتب:

أ- أخبار الدول وآثار الأول ، للقرماني ، من الجزء الأول إلى آخر السادس .

ب - روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر ، لابن الشّحنة، من أول السابع إلى آخر التاسع .

جـ - تاريخ العتبى ، من أول العاشر إلى آخر الثانى عشر .

ومن الطريف حقا أن نرى خمسة كتب مطبوعة فى كتاب ، وفى صفحة واحدة اجتمعت الخمسة الكتب ، فى الصلب والهامش ، مفصولة بجداول ، دون أن تختلط بعضها ببعض ، أو يبغى بعضها على بعض ، وذلك كتاب شروح التلخيص فى علوم البلاغة، ويشتمل على :

١ - شرح سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح ، للخطيب القزوينى .

٢ - مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربى.

٣ - عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السبكى.

٤ - الإيضاح ، للخطيب القزوينى .

٥ - حاشية الدسوقى على شرح السعد .

والثلاثة الأولى طبعت فى صلب الكتاب ، والاثنان الباقيان بهامشه .

وهذه الطبعة بمطبعة بولاق (١٢) ١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م، على نفقة مصطفى أفندى المكاوى المحامى بمدينة الفيوم، والشيخ فرج الله زكى الكردى وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية ، ومن طلبة العلم بالأزهر الشريف - وهو صاحب مطبعة كردستان العلمية - وسيأتى حديثها فى المطابع الأهلية التى تلت مطبعة بولاق ، كما سيأتى بيانه .

أما طبع الكتب بآخر الكتب، فمنها مما أخرجته مطبعة بولاق: الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية - ترجمة الليث بن سعد - وتوالى التأسيس بمعالى ابن إدريس - الشافعى - كلا الكتابين للحافظ ابن حجر العسقلانى ، وقد طبعا بآخر كتابه فتح البارى بشرح صحيح البخارى . بولاق ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م .

سابعا : حظيت مطبعة بولاق بعناية فائقة فى الإدارة والتصحيح والمراجعة ، وقد تولى إدارتها نفر من علية القوم، كان من أبرزهم وأعلاهم حسين باشا حسنى . وخلاصة أمره أنه تعلم بمدرسة الهندسة، ثم عين بها معلما للعلوم الرياضية ، من هندسة وجبر وفنون حسابية ، ثم انتقل إلى المطبعة الأميرية سنة ١٢٦٨

---

(١٢) وقد أعيدت هذه الطبعة كما هى بمطبعة السعادة ١٣٤٣ هـ = ١٩٢٤ م ، ثم كانت طبعة ثالثة بمطبعة عيسى البابى الحلبى ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م .

هـ = ١٨٥١م بوظيفة كاتب ومصحح تركى بالوقائع المصرية ، وفى سنة ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤ م جعل ناظرا على مطبعة بولاق ، وفى سنة ١٢٩٢ هـ = ١٨٧٥م توجه مع الخديوى إسماعيل لمشاهدة معرض باريس ، ثم تنقل فى بعض بلدان أوربا كالنمسا ولندن ، لرؤية إنتاجها من آلات الطباعة ، فاشترى جملة من تلك الآلات . وفى سنة ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م توجّه إلى لندن مرّة ثانية، فأحضر منها فابريقة (مصنعا) للورق، أقامه ببولاق على شاطئ النيل بجوار المطبعة ، وهى (الكاغدخانه) أى دار الورق ، وقد أنتجت هذه الفابريقة ورقا جيدا ، يقول على مبارك فى وصفه : « حتى جاء منها ورق عجيب الشكل كاد يعطل على ورق أوربا ، وكانت جميع مصاريفها وتكاليفها - من ثمن آلاتها وخلافها - من ربح المطبعة ، وذلك باجتهاده وحسن سعيه فى إحكام إدارتها وكثرة ثروتها .. ولم يزل رحمه الله ساعيا فى عموم نفع الناس، ونشر العلوم ، مع إحسان الطبع وجودته على أتم ما ينبغى ، وأبهج ما تشتهيه النفوس وتبتغى ، وقد أحيا روح المطبعة الميرية ، ونشر صيتها فى جميع الأقطار » (١٣) .

(١٣) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ٣٥٢/٢ (طبعة دار الكتب المصرية) ١٩٨٢ م ، وتاريخ الطباعة لخليل صابات ص ١٨٦ ، والأعلام ٢٥٣/٢ ، هذا وللشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقى - أحد مصححى المطبعة وسيأتى - رسالة سماها : مقالة شكرية للحضرة الإسماعيلية على إنشاء دار الوراقة المصرية ، مطبوعة ببولاق سنة ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١ م .

توفي رحمه الله سنة ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٦ م .

أما التصحيح والمراجعة في هذه المطبعة العتيقة الرائدة فشيء بديع معجب حقا ، وإذا تركنا مشاهير المصححين بالمطبعة – إلى حين – فقد كان محررو المطبعة ومصححوها من طلبة الأزهر الذين دربوا لذلك تدريبا خاصًا ، استغرق نحو ست سنوات ، ثم كان إسناد رئاسة تصحيح المطبعة إلى الشيخ نصر الهوريني الأزهري الشافعي آية كبرى على هيمنة الأزهر على هذه المطبعة الكبرى وإلباسها الوجه العربي الصحيح .

وهذا الشيخ نصر الهوريني ، من علماء الأدب واللغة ، تعلم بالأزهر، ثم أرسله محمد علي باشا إلى فرنسا إماما لإحدى البعثات المصرية ، فأقام هناك مدة تعلم فيها الفرنسية ، ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة تصحيح مطبعة بولاق ، فصحح كثيرا من كتب العلم والأدب والتاريخ واللغة ، وصنف كتبا كثيرة ، منها : المطالع النصرية للمطابع المصرية، في أصول الكتابة – الإملاء بالمعنى الحديث ، وشرح ديباجة القاموس المحيط، مع فوائد شريفة في معرفة اصطلاحات القاموس ، وقد جاء ذلك كله في طبعة القاموس التي أصدرتها مطبعة بولاق سنة ١٢٧٢ هـ = ١٨٥٥ م وله تآليف أخرى ، ثم كانت له مشاركات أخرى في غير مطبوعات بولاق ، سيأتي الحديث عنها إن شاء الله .

توفى سنة ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤ م ، ولم يعرف له تاريخ مولد (١٤) .

ومن هذه المشيخة الجليلة ، مصححى مطبعة بولاق : الشيخ محمد بن عبد الرحمن المعروف بقُطَّة العدوى (١٥) ، المتوفى سنة ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ م ، وكانت له عناية بالنحو ، ومن مؤلفاته المطبوعة : فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل ، ومن أشهر تصحيحاته : ألف ليلة وليلة - الطبعة الثانية ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢م، وكانت الطبعة الأولى ببولاق أيضا سنة ١٢٥١ هـ = ١٨٣٥ م بتصحيح الشاعر عبد الرحمن الصفتى الشرقاوى (١٦) .

ومنهم : إبراهيم عبد الغفار الدسوقى ، من أعوان المترجمين فى أيام محمد على وعباس، ولد فى دسوق وتعلم بالأزهر ، وعين مصححا فى مدرسة الطب بأبى زعبل ، ثم بمدرسة المهندسخانة، وقام بتصحيح جميع الكتب الرياضية التى ترجمت فى هذه المدرسة إلى أن أغلقت، فنقل إلى مطبعة بولاق مصححا ، ثم كان

---

(١٤) الأعلام ٢٥١/٨ ، وترجم له الزركلى ترجمة جيدة ، وذكر فى حاشيته أنه أول من ظفر بتمام اسمه .

(١٥) الأعلام ٧٠/٧ .

(١٦) توفى سنة ١٢٦٤ هـ = ١٨٤٨م معجم المؤلفين ١٤٢/٥.

رئيس المصححين فيها، فهو من كبار المساعدين على الترجمة فى عهد الإقبال علي نقل الكتب الأفرنجية إلى العربية (١٧) .

ولد سنة ١٢٢٦ هـ = ١٨١١ م ، وتوفى سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٣ م .

ومن أشهر تصحيحاته : القانون فى الطب لابن سينا ، سنة ١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧ م .

ومنهم : محمد بن محمد البلبيسى الشافعي الحسينى ، وصفه علي مبارك «بالعالم الفاضل ، الأديب الكامل، الأستاذ الكبير، العالم الشهير، مَن كلامه يدل على كماله» (١٨) .

ومن أشهر ما صحح محمد الحسينى هذا : لسان العرب لابن منظور، الذى طبعته بولاق ابتداء من سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢م ، وقد جاء فى عشرين جزءا ، وهو مضبوط بالشكل الكامل ، وتصحيحه وما قيد على حواشيه يدل على علم المصحح وفضله ، وصحح أيضا هذه الطبعة المضبوطة المتقنة من صحيح البخارى ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م .

---

(١٧) الأعلام ٤٠/١ ، ومعجم المطبوعات العربية ص ٨٧٥ ، ومعجم المؤلفين ٤٨/١.

(١٨) الخطط التوفيقية ٣٢٦/٢ ، وأورد له مرثيته فى حسين باشا حسنى السابق الحديث عنه قريبا .

ثم تطالعنا أواخر طبعات بولاق بكوكبة أخرى من أماثل العلماء، منهم : نصر بن محمد العادلى ، وطه بن محمود قطرية الدمياطى ، ومحمد قاسم ، ومحمد الصباغ ، ومحمد عبد الرسول إبراهيم ، ومن أشهر ما صحح هذا الشيخ : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا القلقشندى ، الذى طبع فى بولاق ١٣٣٨ هـ = ١٩٢٠ م ، لحساب دار الكتب المصرية ، التى لم تكن قد أنشأت مطبعتها ، وحين قامت المطبعة فى الثلاثينات كان الشيخ محمد عبد الرسول هذا من عمدها القوية .

وقد كان هؤلاء المصححون العظام يقومون بعملهم فى أمانة تامة وحرص شديد ، فندر فى مطبوعات بولاق : التصحيف والتحريف ، وجاءت النصوص كاملة موفورة ، لا سقط فيها ولا خلل.

وقد طارت شهرة عظيمة لهذه الطائفة من المصححين العلماء ، واقتدى الناس بهم فى فن التصحيح والمراجعة . يقول محمد ذهنى مصحح طبعة صحيح البخارى المطبوعة فى استانبول سنة ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م « وشكر الله مساعى أفاضل العلماء من مصححى المطابع المصرية الأماثل الكرماء ، فإن فضيلة التقدم لهم، وغيرهم حاذٍ فى هذا الأمر حذوهم » .

ومن وراء هذه الطائفة الجليلة من المصححين الأثبات ، لم يكن كبار أهل العلم بمعزل عن مطبعة بولاق ، فهم فى موضع المشورة والفتيا ، يقول الشيخ نصر العادلى مصحح طبعة بولاق من تفسير الطبرى ، فى آخر الكتاب : « وما لم نقف عليه فى مظانه ولم نعثر به فى أمكنته ، شاركنا فيه العلماء والأدباء المشتغلين بفنون اللغة العربية والأحاديث النبوية ، وكنا نستفيد منهم ، ونهتدى بنور أذهانهم وثاقب فكرهم ، وممن كانت لهم اليد الطولى والأثر الحميد الذى لاينكر ، فضيلتلو المغفور له الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وفضيلة الأستاذ الأكبر وعلم اللغة العربية الأشهر الشيخ حمزة فتح الله ، وحضرة من هو بكل ثناء حرى وكيل مدرسة القضاء الشرعى الأستاذ الشيخ محمد الخضرى ، وحضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد المطلب المدرس بمدرسة القضاء أيضا ، وكثير غيرهم ، أكثر الله أمثالهم ، وبلغهم فى الدارين آمالهم » (١٩) .

وهكذا تبلغ الثقة مبلغها حين يُرجع فى تحرير الكتاب وتصحيحه إلى ذلك النفر الكريم من أهل العلم والبيان .

ثامنا : مما يتصل بجمال الإخراج والتأنق فى الطباعة: أن بعض مطبوعات بولاق فى ذلك الزمان المبكر لم تُجمع بالحرف

---

(١٩) تفسير الطبرى ٢٣٢/٣٠ - بولاق ١٣٣٠ هـ = ١٩١١م.

الطباعي المفرد الذى كان يُجمع من الصندوق والذى كانت تجمع به الكتب كلها، وإنما جمعت بالكلمات (الإكلشيهات) بالخط الفارسى الجميل، والمعروف أن (الاكلشيهات) إنما تجمع بها عناوين الكتب أو أبواب الكتاب وفصوله فقط ، أما أن تجمع مادة الكتاب كله بهذا (الاكلشيه الفارسى الجميل) فهذا هو موضع العجب والاستحسان، ومن المؤكد أن ذلك قد أخذ وقتا فى (المسبك) ، وقد رأيت من ذلك ديوانين من الشعر، طبعا ببولاق فى ذلك الزمان المتقدم:

الأول : ديوان ابن عربي تصحيح محمد بن إسماعيل شهاب الدين، آخر جمادى الأولى سنة ١٢٧١ هـ = فبراير ١٨٥٥ م، وكتب عنوان الديوان على الغلاف هكذا: هذا الديوان الأكبر للشيخ محيي الدين بن عربى الحاتمى الأندلسى الطائى، ٤٧٧ صفحة من القطع الكبير.

والثانى : ديوان مجنون ليلى. تصحيح إبراهيم عبد الغفار الدسوقى . آخر الجماديين ١٢٩٤هـ يوليه ١٨٧٧م، واثبت عنوانه هكذا : هذا ديوان العاشق المحب الوامق قيس بن الملوح الشهير بمجنون ليلى العامرية جمع الإمام أبى بكر الوالبى رحمه الله ، ٧٣صفحة من القطع الوسط.

تاسعا : يؤخذ على هذه المرحلة من النشر أن العلماء الذين تولوا تصحيح الكتب والإشراف على إخراجها لم يعنوا بذكر الأصول المخطوطة التى اعتمدوا عليها فى إخراج الكتب ، فنحن لا نعرف تاريخا أو وصفا كاملا للنسخ المخطوطة التى طبع عليها كثير من أمهات كتب التراث في ذلك الزمان، وقد شذ عن ذلك ماتراه فى بعض المطبوعات ، من وصف موجز للأصول الخطية، ومن ذلك ما جاء فى آخر لسان العرب المطبوع سنة ١٣٠٠-١٣٠٨هـ = ١٨٨٢ - ١٨٩٠ م حيث ذكر مصححه الشيخ محمد الحسينى أن هذه الطبعة اعتمدت على نسخة ابن منظور نفسه (٢٠)، كانت فى وقف السلطان الأشرف برسباى (٢١) ونسخة أخرى أحضرت من مكتبة راغب باشا باستانبول.

---

(٢٠) رأى المرتضى الزَّبيدى هذه النسخة وأفاد منها، وكتب اسمه فى أولها، وقال عنها: «وهى النسخة المنقولة من مسودة المصنف فى حياته» تاج العروس ١/٥، والنسخة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم (٤٦ لغة) وقد رأيتها أنا مرارا وانظر وصف هذه النسخة فى كشف الظنون ص ١٥٥٠ .

(٢١) فى اللسان ٢٠/٢٨٨ «برسباى شعبان» وليس فى اسمه «شعبان» وقد ولي برسباى السلطنة بمصر سنة ٨٢٥ هـ وتوفى سنة ٨٤١ هـ، إنباء الغمر ٣/٢٧٠ ، والنجوم الزهراء ١٤/٢٤٢، ، ١٥ /١٠٦، والسلوك للمقريزى ج٤ ق٢ ص٦٠٧، ١٠٥١.

ومنه ما ذكره الشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقي مصحح ديوان مجنون ليلي ، الذى سبق حديثه فى الفقرة السابقة، فقد ذكر أن ديوان المجنون طبع عن نسخة مخطوطة تاريخها سنة ٧٩٢هـ، من خزانة السيد عبد الخالق السادات . ومن ذلك أيضا ما جاء فى صدر الأم للشافعى، الذى صدر الجزء الأول منه ١٣٢١هـ - ١٩٠٣م، وصدر السابع ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م، «اعلم أنه قد حصلت لنا عدة نسخ من الأم ، ومنها بعض أجزاء عتيقة بخط ابن النقيب، منقولة من نسخة بخط سراج الدين البلقينى، تفردت بزيادات مترجمة معزوة لبعض مؤلفات الشافعى رحمه الله ، مثل كتاب اختلاف الحديث، وكتاب اختلاف مالك الشافعى ونحوهما، وربما كان فى هذه الزيادات تكرار لبعض ما اتفقت عليه النسخ، ولكنها مع ذلك لاتخلو عن فوائد ، من فروع وتوجيهات للإمام رحمه الله، ولهذا أثبتنا تلك الزيادة بهامش هذا المطبوع إن اتسع لذلك، وإلا جعلناه فى الصلب بعد عبارة الأم مفصولا بينها بجدول. والله المستعان»(٢٢).

---

(٢٢) أرأيتَ إلى هذا الكلام الجيد النفيس، الذى كتبه - فى غالب الأمر - أحمد بك الحسينى الذى أنفق على طبع الأم- وسيأتى حديثه. والذين صوروا الأم بعد ذلك أسقطوا هذا الكلام، فانظر وتأمل أىَّ جناية جناها هؤلاء الناس . وإلى الله المشتكى!

ومنه أيضا ما جاء فى ختام الطبعة المذكورة – فى الفقرة السابعة – من تفسير الطبرى، من مراجعة التفسير «على ما فى الكتبخانة الخديوية من الأصول المتعددة، وما سقط منها أرسل إلى المكتبة الحميدية بالمدينة المنورة فقوبل هناك، مع التدقيق والعناية».

ومثل هذه الإشارات العامة المطلقة لا تغنى شيئا، إذ أنها قد سكتت عن وصف النسخ المخطوطة وصفا علميا، من حيث تاريخ النسخ ومكانه، ونوع الخط والحبر، وعدد الأوراق والأسطر ، وما قد يكون على المخطوطة من إجازات وسماعات وتملكات وبلاغات، إلى سائر هذه الأمور التى استقر عليها علم المخطوطات والتوثيق.

على أن هذه المطبوعات التى أشير فيها إلى الأصول الخطية على وجه الإيجاز والاختصار، تعد أحسن حالا من تلك المطبوعات التى أبهم أمرها تماما، فلم نعرف عن أى أصول خطية كان الطبع، بل إن بعض الطابعين كان يتخلص من المخطوط نفسه بعد الفراغ من طبعه، فإن العمال أحيانا كانوا يجمعون من الكتاب المخطوط نفسه، فُيستهلك فى أثناء الطبع (٢٣) ولقد رأيت مرة

(٢٣) لعل مما يقوى هذا قول الدكتور فؤاد سزجين – وهو يتحدث عن روايات صحيح البخارى– :

عند بعض الوراقين - باعة الكتب القديمة - أوراقا من كتاب مخطوط، ورأيت آثار يد وأحبار عليها، في غير مكان منها ، فتعجبت من ذلك ، ولكن عجبي زال حين أخبرني ذلك الوراق أن هذه آثار يد الجَمِّيع - يعني عامل المطبعة - الذي كان يجمع من المخطوط مباشرة.

ومع كل هذا الذي قيل فقد رأينا في ذلك الزمان بواكير التحقيق العلمي وإرهاصاته، تحتفظ لنا بها المطبوعات من ذكر رموز النسخ وفروق قراءاتها ، ثم الإشارة إلى الروايات المختلفة، وذكر ذلك كله بالهامش، وأعلى مثال ونموذج لذلك طبعة صحيح البخاري المتقنة التي أشرت اليها في الفقرة السابعة، فقد اعتمدت هذه الطبعة على نسخة الحافظ شرف الدين أبي الحسين علي بن محمد بن أحمد اليونيني(٢٤) البعلي الحنبلي المولود سنة ٦٢١ هـ، والمتوفى مقتولا شهيدا سنة ٧٠١ هـ، وقد حرر اليونيني في هذه

«ولا يعرف حتى اليوم مصير النص الأصلي لليونيني الذي كان موجودا في إحدى مكتبات استنبول ، ثم أرسل بأمر السلطان عبد الحميد لينشر في مصر، ويبدو أن طبعة بولاق سنة ١٣١٣ والتي قامت على أساسه قد احتفظت احتفاظا لابأس به بسمات هذا العمل» تاريخ التراث العربي ١/٢٢٧ .

(٢٤) انظر التعليق السابق ، ثم انظر ترجمة اليونيني في الوافي بالوفيات ٤٢١/٢١، وتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ٢٤٢/١ وما في حواشيهما.

النسخة روايات البخارى وذكر فروقها ثم صنع للرواة رموزا وبذلك يكون قد سبق المحققين فى هذا الزمان الذين اصطلحوا على رموز نسخ المخطوطات . وقد حافظت طبعة بولاق على رموز اليونينى وفروق رواياته ووضعت ذلك كله على حاشية الطبعة، وجاء فى صدر الجزء الأول المطبوع من صحيح البخارى: وجدت فى النسخ الصحيحة المعتمدة التى صحح عليها هذا المطبوع رموز لأسماء الرواة، ومنها ه لأبى ذر الهروى – ص للأصيلى – سـ لابن عساكر – ط لأبى الوقت – هـ للكشميهنى – حـ للحموى – سـ للمستملى – ك لكريمة المروزية ... إلى رموز أخرى للمجاهيل من الرواة وإلى النسخ الأخرى ، وعلامات التضبيب (الشطب) إلى غير ذلك.

ومن وراء ذلك فإن هذه الطبعة البولاقية من صحيح البخارى تعد مثالا لجمال الطبع ونصاعة الحرف وكمال الشكل وصحة الضبط، مما يعجب المرء منه الآن ، فإن ذلك أمر قد تم منذ مائة سنة وسنة، قبل ذلك التقدم الكبير فى وسائل الطباعة، من الجمع الآلى والكمبيوتر وكل منجزات العصر !

ومن بواكير التحقيق العلمى فى مطبوعات تلك المرحلة أيضا: ما نراه فى حواشى لسان العرب – المذكور فى الفقرة السابعة – من ذكر روايات الأصول التى اعتمد عليها صاحب اللسان، مثل

الصحاح للجوهرى، والتهذيب للأزهرى، والمحكم لابن سِيده، والنهاية لابن الأثير.

ثم كان من مظاهر الدقة وأمانة الأداء ما كان يكتبه المصححون على هوامش المطبوعات ، عندما يُشكل عليهم شئ ولا يطمئنون إليه، مثل : «هكذا بالأصل وحرر» أو: «فتنبه» أو: «لايستقيم هذا مع قوله كذا».. وهذه ونحوها إرهاصات علم التحقيق.

عاشرا : مما يؤخذ على هذه المرحلة من الطبع أيضا أن القائمين على طبع كتب التراث - بوجه الخصوص - لم يعنوا بتلك الفهارس الفنية الكاشفة عن كنوز الكتاب المطبوع ، واكتفوا - فى غالب الأمر - بذكر فهارس موجزة لمباحث الكتاب وأبوابه وفصوله، غير أنه قد ظهرت فى تلك الأيام بوادر لتلك الفهارس الفنية، ومن ذلك ما تراه فى طبعة مقامات الحريرى، من فهرس شامل للكلمات اللغوية التي تضمنتها المقامات ، وهذه النشرة صدرت عن مطبعة بولاق سنة ١٣١٧ هـ = ١٨٩٩م.

حادى عشر: إذا كانت مطبعة بولاق حكومية، أنشأها محمد على باشا، ثم رعاها من بعده أبناؤه وأحفاده - فليس كل ما طبع فيها على نفقة الدولة والحكومة ، فقد رأينا جهود الأفراد والأعيان

والجماعات (٢٥) ، وأموالهم وراء كثير من مطبوعات تلك المطبعة العتيقة.

وهؤلاء الأفراد إما أصحاب مكتبات وناشرو كتب، يمولون طبع الكتاب من نفقتهم الخاصة، ثم يكون لهم عائد من الربح، على حسب مواضعات ذلك الزمان، وإما أهل علم محبون له ، راغبون في نشره، وهناك طائفة ثالثة: أهل خير وبر، أفاء الله عليهم المال، فأنفقوه في وجوه البر والإحسان، ثم جعلوا منه نصيبا مفروضا لنشر العلم وإذاعته، ومعظم هؤلاء من التجار.

فمن الطائفة الأولى : السيد عمر حسين الخشاب، صاحب المطبعة الخيرية - من المطابع الأهلية الشهيرة، وسيأتي حديثها - فقد أنفق السيد عمر هذا وابنه السيد محمد عمر، على طبع تفسير الطبري، الذي أشرت إليه من قبل في الفقرة السابعة، ونبه على ذلك مصححه الشيخ نصر العادلي، في خاتمة الجزء المتم الثلاثين.

ومنهم مصطفى الحلبي صاحب المطبعة الميمنية - وسيأتي الحديث عنها - فقد أنفق على طبع الكشاف للزمخشري المطبوع ببولاق سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م، ومنهم فرج الله زكي الكردي

(٢٥) انظر الإشارة إلى جهود الأفراد في النشر، في حركة نشر الكتب في مصر ص ٤٤٣.

صاحب مطبعة كردستان العلمية ، وسيأتى حديثها - فقد أنفق بالاشتراك مع مصطفى أفندى المكاوى المحامى بمدينة الفيوم، وعبد الحميد أفندى الصمدانى، على طبع شروح التلخيص فى البلاغة، وسبق هذا فى الفقرة السادسة.

وأما الطائفة الثانية - طائفة أهل العلم الذين قاموا على نشر الكتب، وصرفوا أموالهم فى طبعها وإذاعتها - فمنهم العلامة صاحب التصانيف الكثيرة: الدين الخالص، وأبجد العلوم. والتاج المكلل، وغيرها - وأحد رجال النهضة الإسلامية المجددين : أبو الطيب صديق (٢٦) بن حسن بن على بن لطف الله الحسينى القِنَّوْجى البخارى، المولود فى قنوج (٢٧) ، من بلاد الهند سنة ١٢٤٨هـ = ١٨٣٢م، والمتوفى سنة ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م ، كان مع اشتغاله بالعلم والتصنيف ميسورا صاحب ثروة، فقد تزوج بملكة

---

(٢٦) هكذا ذكر هو اسمه فى ترجمته لنفسه من كتابيه: أبجد العلوم ٢٧١/٣، والتاج المكلل ص ٥٤١، لكن الزركلى سماه «محمد صديق خان» الأعلام ٣٦/٧، وكذلك كحالة فى معجم المؤلفين ٩٠/١٠، وكذلك جاء فى خاتمة طبع فتح البارى المذكور بعد.

(٢٧) ضبطها ياقوت فى معجم البلدان، بفتح القاف، وذكر صاحب القاموس أنها بالكسر، على وزن سِنَّوْر، وقال الحميرى فى وصفها : «أفخر بلاد الهند اسما وشأنا، وأعظمها صيتا، واقدمها بنيانا» الروض المعطار ص ٤٧٤.

بهوبال، ولقب: نواب عالى الجاه أمير الملك بهادر ، يقول فى ترجمته لنفسه، فى كتابه أبجد العلوم: «وتمول وتولد واستوزر، وناب وألف وصنف ، وعاد إلى العمران من بعد خراب، وكان فضل الله عليه عظيما جزيلا... ثم خوله سبحانه من المال الكثير، والحكم الكبير، والآل السعداء ، والأخلاف الصلحاء، والنسب الحميد، والحسب المزيد ، مايقصر عن كشفه لسان اليرا ع» (٢٨).

(٢٨) أبجد العلوم ٣/٢٧٣، ٢٧٤

وقد كان من فضل الله وإنعامه على هذا الرجل أن وفقه لأن يطبع على ذمته ونفقته أعلى كتاب في شروح الحديث، وهو فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني المصري الشافعي، وهو الشرح الذي قال فيه الإمام الشوكاني، وقد سُئل : أما تشرح الجامع الصحيح للبخاري، كما شرحه الآخرون؟ فقال :

« لاهجرة بعد الفتح » . (٢٩)

وقد جاءت هذه الطبعة في ثلاثة عشر مجلدا ضخاماً، إضافة إلى المقدمة التي جاءت في جزء مستقل، وهي المسماة: هدى الساري لفتح الباري، وقد قام على تصحيحها : المصحح العالم المعروف محمد الحسيني. وكان الفراغ من طبع هذا الأثر الجليل في شهر رمضان سنة ١٣٠١هـ = يونيه ١٨٨٣ م .

ومن هذه الطائفة أيضا: أحمد بك أحمد الحسيني الشافعي المحامي، المولود بالقاهرة سنة ١٢٧١هـ = ١٨٥٤م ، والمتوفى بها سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م .

---

(٢٩) فهرس الفهارس والأثبات ص ٢٢٣.

اشتغل بالمحاماة ونبغ فيها، ثم انقطع للتأليف، فكانت له رسائل، معظمها في الفقه الشافعي (٣٠) .

أنفق هذا الرجل السريّ النبيل على طبع كتاب الأم، للإمام محمد بن إدريس الشافعي، وجاء في سبعة أجزاء، فُرغ من طبع الجزء الأول سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣، والسابع سنة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م، والكتاب بتصحيح الشيخ نصر بن محمد العادلي، والشيخ محمد بن محمد الحسيني .

وطبع بهامشه ثلاثة كتب :

١ - مختصر المزني، من الجزء الأول الى الخامس

٢ - مسند الشافعي، بهامش الجزء السادس .

٣ - اختلاف الحديث للشافعي ، بهامش الجزء السابع .

وقد كتب على صدر الجزء الأول من الكتاب : «طبع هذا الكتاب على نفقة حضرة العالم الفاضل الحسيب النسيب صاحب العزة السيد أحمد بك الحسيني المحامي الشهير - تنبيه : لا يجوز لأحد أن يطبع كتاب الأم من هذه النسخة، وكل من طبعها يكون مكلفا بإبراز أصل قديم يثبت أنه طبع منه ، وإلا يكون مسؤولا عن

---

(٣٠) الأعلام ٩٤/١ (طبعة دار العلم للملايين)، ثم انظر ثبتا بمؤلفاته في معجم المطبوعات ص ٣٨٢.

التعويض قانوناً. أحمد الحسيني». وانظر ماسبق من كلام عن كتاب الأم، في الفقرة التاسعة.

هذا وقد سمعت من مشايخنا، من أهل العلم وعلماء المخطوطات: الأستاذ السيد أحمد صقر، والشيخ عبد الغنى عبد الخالق، والأستاذ فؤاد سيد، والأستاذ محمد رشاد عبد المطلب – رحمهم الله أجمعين – سمعت منهم غير مرة أن السيد أحمد الحسيني هذا باع «عزبة» من أملاكه للإنفاق على طبع كتاب الأم، والعزبة – بكسر العين المهملة وسكون الزاى – فى اصطلاح المصريين المعاصرين تعنى مساحة (٣١) شاسعة من الأراضى الزراعية، لا تقل عن ثلاثين فدانا(٣٢) .

ومن أهل الفضل أيضا : محمد زهران، الذى تكفل بنفقات طبع كتاب الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، من تأليف زينب بنت على بن حسين بن فواز العاملى، السورية مولداً وموطناً، المصرية منشأ ومسكنا، وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق، أواخر شهر رمضان ١٣١٣هـ = مارس ١٨٩٦م ، وقام على تصحيحه

---

(٣١) وذكر المرتضى الزَّبيدى فى التاج أن العزبة بالكسر : اسم لعدة مواضع بثغر دمياط.

(٣٢) وهذا مما لم تذكره كتب التراجم التى ترجمت للرجل، وهذه ثمرة المسموعات والمرويات.

الشيخ محمد الحسيني، وقد قدم زهران للكتاب، فقال بعد الثناء على مؤلفته : «أحببت أن أشاركها في ذلك الفضل فالتزمت بطبعه على نفقتي، قياماً بواجب الإنسانية، ومعاونة لحضرتها على البر، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

ومنهم الخواجا رفائيل عبيد، الذى أنفق على طبع خطط المقريزى المطبوع ببولاق سنة ١٢٧٠هـ = ١٨٥٣م، كما صرح بذلك مصححه الشيخ عبد الرحمن قطة العدوى. ومنهم محمد باعيسى، رئيس تجار الحضارمة بمصر، أنفق على طبع كتاب الغنية لطالبى طريق الحق. للشيخ عبد القادر الجيلاني. بولاق ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١م، وعلى نفقته أيضا طبع ببولاق فى السنة نفسها الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطى . ومنهم محمد حسن عيد التاجر بمصر، الذى أنفق على تلك الطبعة العظيمة من صحيح البخارى، التى أشرت إليها من قبل. فى الفقرتين السابعة والتاسعة .

ولم يقف الأفراد وحدهم لطبع الكتب على نفقتهم، فقد رأينا فى ذلك الزمان قيام جماعات من أهل العلم ومحبيه، لنشر الكتب الموسوعية، وفى نطاق مطبعة بولاق، وفى حدود القرن التاسع عشر جاء عملان كبيران: هما خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،

لعبد القادر بن عمر البغدادى، والمخصص فى اللغة لأبى الحسن على بن إسماعيل الأندلسى المعروف بابن سيده .

أما خزانة الأدب فقد تم طبعه بمطبعة بولاق فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩هـ = مايو ١٨٨٢م، وجاء فى أربعة أجزاء من القطع الكبير، وبهامشه طبع كتاب المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية، وهو المعروف بشرح الشواهد الكبرى، لبدر الدين العينى. وقد قام بالإنفاق على طبع هذا الكتاب الجليل جماعة من محبى العلم، من أهل مكة المكرمة (٣٢).

وهذه أسماؤهم ، كما ذكرها مصحح الطبعة الشيخ محمد قاسم ، قال رحمه الله فى ختام الجزء الرابع : «وكان حسن طبعه وزهر ثمر طلعه على ذمة عصابة أجلة نبلاء، لهم فى نشر العلوم والمعارف اليد البيضاء، فاستحقوا بذلك الثناء الجميل، وهاك مقادير حصصهم على هذا التفصيل: فقيراط ونصف لتاج المفتين، حضرة العلامة الشيخ عبد الرحمن سراج، مفتى بلد الله الأمين، وثلاثة قراريط لحضرة الفاضل الشيخ عبد الرحمن الشيبى، عمدة الأماثل، وقيراط ونصف للسامى الماجد حضرة الشيخ أحمد

---

(٣٢) لم يذكر المصحح أنهم من أهل مكة، ولكنى عرفتهم من خلال إقامتى بالبلد الحرام، ورأيت أسماءهم تتردد فى سلسلة أبنائهم وأحفادهم وعائلاتهم.

المشاط عين الأماجد، وثلاثة قراريط لذى القدر السنى حضرة الحاج عبد الواحد الميمني، وثلاثة قراريط لذى المورد الهنى حضرة الحاج حسين بن عبد الله الميمنى، وستة قراريط لذى المشرب الأدبى حضرة الفاضل الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد الباز الكتبى، وستة قراريط للمستعين بربه الغنى حضرة الحاج أبى طالب الميمنى» .

وأما المخصص فقد بدأ طبعه بمطبعة بولاق سنة ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م، وتم فى سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م، وقام على تصحيحه العلامة المعروف محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى، والشيخ عبد الغنى محمود (٣٤) . وجاء فى سبعة عشر جزءا .

وقد نهضت لطبعه جماعة من علية القوم، يقول عنهم مصحح الكتاب الشيخ طه محمود، فى خاتمة الطبع: «ومن أجل ذلك قام بطبعه لتيسير تناوله وتعميم نفعه جمعية خيرية، من فضلاء المصريين وسَراتهم ذوى الهمم العلية، وفي مقدمتهم حضرة

---

(٣٤) من علماء الأزهر الشريف، ثم من مدرسى مدرسة القضاء الشرعي، وقد تولى مشيخة المعهد الأحمدى بطنطا، وله رسالة موجزة جيدة فى مصطلح الحديث، كانت من مواد دراستنا بالأزهر الشريف، طبعت بمطبعة شرف سنة ١٣٢٩ هـ = ١٩١١م. ثم طبعت ثانية بمطبعة الفتوح الأدبية ١٣٣١ هـ = ١٩١٢م، توفى سنة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨م. الأعلام ١٦١/٤.

العلامة المحقق صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده، مفتى الديار المصرية، وحضرة صاحب السعادة حسن باشا عاصم، رئيس ديوان خديوى، وحضرة الوجيه الفاضل صاحب العزة عبد الخالق بك ثروت، أحد أعضاء لجنة المراقبة القضائية بالحقانية، وحضرة السريّ الأمثل صاحب العزة محمد بك النَّجَّارى أحد قضاة المحكمة المختلطة بالأسكندرية، وهو حفظه الله كان ذا السبق والنهضة الأولى فى تحقيق هذا المشروع الجليل، فإنه بذل همته فى استكتاب هذا الكتاب من نسخة عتيقة مغربية، رأيتها بالكتبخانة الأميرية المصرية ... » .

ولنقف عند رجلين من رجال هذه اللجنة : عبد الخالق ثروت باشا، ومحمد النجارى. أما عبد الخالق ثروت فكان من رجال السياسة بمصر، ومن رجال القانون، عين وزيرا للحقانية (العدل) ثم وزيراً للداخلية فرئيسا للوزراء سنة ١٩٢٢م، ولد سنة ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م، وتوفى فجأة بباريس سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م، ونقل إلى القاهرة فدفن بها .

يقول الدكتور طه حسين فى وصفه : «كان عظيم مصر، رجاحة حلم، ونفاذ بصيرة، وذكاء فؤاد، وسعة حيلة، وتفوقا فى السياسة، فقد اجتمعت له هذه الخلال وخلال أخرى» (٣٥) .

(٣٥) الأعلام ٤/٦٢، والأعلام الشرقية ١/٨٨.

ولم تكن مشاركته في طبع المخصص هي الوحيدة في مجال نشر العلم وإذاعته، فله ثانية تحسب في موازينه، وذلك أنه هو الذى أشار على دار الكتب المصرية بطبع كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردى، جاء في مقدمة الكتاب الذى طبعته دار الكتب المصرية: «ولما كان اهتمام علماء أوربا بنشر هذا الكتاب وطبعه بلغ شأنا كبيرا، لأنه خاص بتاريخ مصر، وهى أكبر دولة شرقية إسلامية، لها من الحضارة والمدنية مالم يبلغه سواها من الأمم الشرقية الأخرى، كان جديراً بحكومة الدولة المصرية أن تقوم بطبع هذا الكتاب على نفقتها، ولذا أشار رئيس الحكومة وقتئذ ساكن الجنان المغفور له عبد الخالق ثروت باشا على دار الكتب المصرية بطبع هذا الكتاب القيم ضمن مطبوعاتها فلبت طلبه وباشرت طبعه (٣٦)» .

وفى قلب القاهرة شارع كبير باسمه، يغدو الناس به ويروحون، ولا يعرفون تاريخ صاحبه.

وأما محمد النجارى : فهو محمد بن مصطفى بن محمد

---

(٣٦) مقدمة تحقيق النجوم الزاهرة ٦/١، بقلم أحمد زكى العدوى، رئيس قسم التصحيح بدار الكتب المصرية. ويلاحظ أنه كتب هذا الكلام بعد وفاة عبد الخالق ثروت، فشبهة تملق رئيس الوزراء منتفية، والصدق لائح ظاهر بحمد الله.

الشابورى. نسبته إلى (كوم النجار) بمحافظة الغربية بمصر، تعلم بالقاهرة وفرنسا. كان قاضيا بمحكمة الأسكندرية المختلطة، له قاموس فرنساوى عربى مطبوع فى أربعة أجزاء ضمنه كثيرا من المصطلحات العلمية والسياسية والطبية، طبع بمطبعة مزراهى بالأسكندرية ١٩٠٣ م.

قال يوسف إليان سركيس : «وبلغنى أن له معجماً عربيا يحتوى خلاصة المعاجم الكبرى، لم يطبع» (٣٧).

وإنما وقفت عند هذين العلمين، لأنهما من رجال الحقوق، ولأنهما من سَراة القوم ووجهاء المجتمع فى ذلك الزمان : رئيس وزراء ، وقاضٍ كبير يسعيان السعى الحثيث لنشر كتب العربية ومصادرها الكبرى ، وفى هذا دلالة على اختلاف الأزمان وتبدل الأحوال ، فإن الاشتغال بالتراث وقضاياه فى أيامنا هذه يكاد يكون مقصورا على طائفة من الناس، معروفة بالاسم والوصف ، فى ركن قصىٍّ من الخريطة الثقافية مشتغلة بنبش القبور ، مهتمة بالرمائم وأكفان الموتى .

هكذا يقولون !

---

(٣٧) معجم المطبوعات العربية ص ١٨٤٤، وانظر الأعلام ٣٢٢/٧، ومعجم المؤلفين ٢٤/١٢.

ومهما يكن من شيء فقد شاعت ظاهرة طبع الكتب على نفقة محبي العلم ، بعد أن عرفت في مطبعة بولاق ، وإن كان ذلك قد جاء في مطالع القرن العشرين ، ولكن هذه من تلك :

فمن ذلك كتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للأدفوى ، فقد طبع على نفقة عبد الرحمن على قريط ، من قبيلة آل على الشرقية من بلدة «أبو كبير» من أعمال محافظة الشرقية بمصر ، طبع الكتاب بمطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤م ، ومن ذلك أيضا: كتاب الأغانى – طبعة دار الكتب المصرية – الذى صدر الجزء الأول منه سنة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧م على نفقة السيد على راتب(٣٨) ، فقد كتب رسالة إلى مدير دار الكتب المصرية ، بتاريخ يوم الثلاثاء ٥ من شوال سنة ١٣٤٣ هـ ، يعرض فيها رغبته فى الإنفاق على طبع كتاب الأغانى، ويقول فى ختام رسالته : «وقد وقع اختيارى للبدء فى تحقيق تلك الأمنية – أمنية إحياء اللغة العربية الشريفة – على كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، فإن أحاديثه شيقة وأسلوبه السهل

---

(٣٨) هو على راتب بن محمد بن أبى بكر باشا راتب، من أعيان مصر، ومن أهل القاهرة. عنى بالأدب. توفى سنة ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥م. الأعلام ١٩٩/٧، وذكره الزركلى فى أثناء ترجمة «محمد على راتب» القانونى المحامى، لتشابه الاسمين واللقبين ووحدة عام الوفاة.

الممتنع ، فالمتأدب يقرؤه للدرس ، والمتعلل يقرؤه فيلتذ وتصح لغته ، فإن اقتنعتم برأيي الذي أدليت ونفعه الذي أملت ، أمرتم من عندكم من المصححين بمراجعته وتصحيحه وضبطه وتفسير مغلقه كاملاً كما وضعه مصنفه ، من غير حذف ولا إبدال، وأنا المتكفل بنفقة الطبع». (٣٩)

وقد أنفق السيد على راتب أيضا على طبع كتاب الأفعال لابن القوطية ، بمكتبة الخانجي ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م ، وقد نوه بذلك مصحح الكتاب الأستاذ على فودة .

ومن أمثلة طبع الكتب على نفقة محبي العلم أيضا : كتاب الأمالي لأبي على القالي، الذي نهض للإنفاق على طبعه السيد إسماعيل يوسف بن صالح بن دياب التونسي ، وقد أنفق هذا السري النبيل على طبع الكتاب مرتين : المرة الأولى بمطبعة بولاق سنة١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م ، والمرة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م ، يقول محمد عبد الجواد الأصمعي في مقدمة طبعة دار الكتب هذه: «ولايسعنا في الختام إلا أن نسدي الشكر الجزيل والثناء العاطر لحضرة المحترم السيد إسماعيل يوسف ، ناشر كتاب الأمالي ، لأنه قام بخدمة أدبية

---

(٣٩) الأغاني ص ٤ – ٦ من التصدير.

كبرى ، بإعادة طبعه في المطبعة الأميرية بدار الكتب المصرية ، الشهيرة بجمال الحروف وجودة الطبع ودقة التصحيح . ومع مابذله حضرة الناشر المحترم ، من الجهود العظيمة في نشر هذا الكتاب الجليل ، بإدخال هذه التحسينات العظيمة عليه ، كان غير مبال بما كابده من النفقات الكبيرة التي لاتنبسط بها أيدى الكثيرين من أغنيائنا ، في مثل إحياء هذه الكتب الأدبية الكثيرة الفائدة ، الجمة النفع، أكثر الله من أمثاله العاملين» (٤٠).

وقد أطلت بنقل هذه المقدمات ، لأنها تمثل تاريخا مضيئا لهؤلاء الرجال العظام ، ينبغي أن يسجل وينوه به ، لعل فيه حافزا وعونا لأثرياء هذا الزمان . وقد أردت أيضاً أن أريك أيها القارىء الكريم كيف جمع حب الكتاب ونشره بين الهندي والحجازى ، والمصرى والتونسى ، وهو تجمع عربى إسلامى شامخ ، قبل أن تكون للعرب جامعة ، وقبل أن يوجد للإسلام مؤتمر .

وبعد ، فهذه مرحلة مطبعة بولاق فى طبع الكتاب العربي ، وفي نشر العلم وإذاعته خلال القرن التاسع عشر ، وقد اندفعت مطبوعاتها في ذلك الوقت : غزارة وتنوعا ، وشمل نشاطها ترجمة الكتب إلى العربية ، ونشر عيون التراث ، وهذه قائمة بأبرز ماطبعته من النوعين :

(٤٠) الأمالى ص (خ) من المقدمة.

أ – أبرز الكتب المترجمة ، مرتبة تاريخيا بحسب زمان الطبع

١ – في قواعد الأصول الطبية المحّررة عن التجارب لمعرفة كيفية علاج الأمراض الخاصة ببدن الإنسان . تأليف فرنسيسقو الشهير بالحكيم – مترجم عن الإيطالية ١٨٢٦ م .

٢ القول الصريح في علم التشريح تأليف بابل الفرنساوي ، مع زيادات لكلوت بك . ترجمة يوحنا عنحورى (٤١) . تصحيح محمد الهراوىّ (٤٢) وأحمد الرشيدى (٤٣) ١٨٣٢م

٣ – تعريب كتاب « المعلم فرارد في المعادن النافعة لتدبير معايش الخلائق »ترجمة رفاعة رافع الطهطاوى ١٨٣٣م

---

(٤١) أحد المترجمين فى عهد محمد علي. معجم المطبوعات ص ١٣٨٩، وفيه مترجمات أخرى له.

(٤٢) محمد عمران الهراوى. أقدم المصححين فى مدرسة الطب، تولى نظارة مدرسة المارستان إلى أن أغلقت سنة ١٨٣٦م، وعكف على تصحيح ترجمة الكتب إلى أن توفى سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤٢م. الأعلام ٧/ ٢١٠.

(٤٣) أحمد بن حسن بن علي الرشيدي. كان من طلبة الأزهر، وتعلم فى مدرسة الطب بأبى زعبل، وأرسلته الحكومة المصرية إلى باريس فأتم دراسة الطب وعاد إلى القاهرة سنة ١٨٣٨م، فعين مدرسا للعلوم الطبيعية بمدرسة الطب، إلى أن أقفلت فى أول عهد الخديوى سعيد ، فانصرف إلى التصنيف والتطبيب والترجمة . له تآليف كثيرة . توفى سنة ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م . الأعلام ١/ ١٠٩ ، يقول عنه يوسف إليان سركيس :«وتمتاز مؤلفاته من غيرها بأنها .. قلما كانت تحتاج إلى تصحيح أو تحرير» معجم المطبوعات العربية ص ٩٣٧ .

٤ – التوضيح لألفاظ التشريح البيطرى تأليف جيرار . ترجمة يوسف فرعون (٤٤) تصحيح مصطفى حسن كساب (٤٥) ١٨٣٣م

٥ – المنحة فى سياسة علم الصحة . تأليف برنار . ترجمه عن الفرنسية جورجى فيدال(٤٦) . تصحيح محمد الهراوى ١٨٣٤م.

٦ – عقد الجمان فى أدوية الحيوان : تأليف آمون الحكيم . ترجمه عن الفرنسية يوسف فرعون. تصحيح مصطفى كساب ١٨٣٤ م.

٧ – مجموع من تأليف كلوت بك (٤٧) بالفرنسية، وفيه : نبذة فى أصول الفلسفة الطبيعية، ونبذة فى أصول التشريح العام، ترجمة إبراهيم النبراوى (٤٨) . تصحيح محمد محرم، ومحمد الهراوى ١٨٣٧م.

---

(٤٤) أحد المترجمين فى أيام محمد على باشا . له مترجمات ومؤلفات كثيرة انظرها فى معجم المطبوعات ص ١٤٤٥ ، ثم انظر معجم المؤلفين ٣٢٣/١٢ .

(٤٥) كان طبيباً ، وله تصانيف طبية . معجم المؤلفين ٢٤٧/١٢ ,

(٤٦) أحد المترجمين فى مدرسة الطب المصرية . معجم المطبوعات ص ١٤٦٩ .

(٤٧) انظر ترجمته وتأليفه فى معجم المطبوعات العربية ص ١٥٦٦ .

(٤٨) طبيب ، نسبته إلى «نبروه» من محافظة الدقهلية بمصر .تعلم الطب فى القاهرة وباريس واختير رئيسا لأطباء مدرسة الطب بمصر . وجعله الخديوى عباس باشا الأول طبيبا له . ترجم عن الفرنسية كتبا . توفى سنة ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م . الأعلام ٧٣/١ .

٨ - الأزهار البديعة في علم الطبيعة : تأليف بيرون. ترجمه عن الفرنسية يوحنا عنحورى ١٨٣٨ م.

٩ - التعريبات (٤٩) الشافية لمريد الجغرافية. مأخوذة عن جغرافية ملطبرون الفرنسية. ترجمة رفاعة رافع الطهطاوى. الطبعة الأولى ١٨٣٤م. والطبعة الثانية ١٨٣٨م.

١٠ - تنوير المشرق بعلم المنطق : تأليف دومرسيه ترجمة خليفة بك بن محمود (٥٠) . تصحيح رفاعة رافع الطهطاوى ١٨٣٨م.

١١ - كنز البراعة في مبادىء فن الزراعة. ترجمة خليل محمود ١٨٣٨م.

١٢ - مشكاة اللائذين فى علم الأقرباذين - تراكيب الأدوية المفردة وقوانينها - تأليف لابتوت . ترجمة محمد عبد الفتاح (٥١) ١٨٣٨م.

---

(٤٩) هكذا بالباء الموحدة فى : قائمة بأوائل المطبوعات العربية ص ٦٨ ، وجاء في معجم المطبوعات ص ٩٤٤ , «التعريفات» بالفاء .

(٥٠) لغوى مؤرخ منطقى ، وهو أحد تلامذة رفاعة الطهطاوى ومدرسى الألسن ، وكان عضوا فى مجلس المعارف فى القسطنطينية أيام إقامته بها . معجم المطبوعات ص ٨٣٤ ، ومعجم المؤلفين ١٠٨/٤.

(٥١) تعلم بمصر وأوربا ، وله مترجمات وتاليف . معجم المطبوعات ص ١٦٧٦.

١٣ - الأربطة الجراحية، وتسمى الأجهزة الجراحية. ترجمه عن الفرنسية إبراهيم النبراوى، وراجعه محمد الهراوى ١٨٣٩م.

١٤ - أصول الهندسة: تأليف ليزاندر (ليجاندر). ترجمة محمد عصمت (٥٢) مترجم من الفرنسية إلى التركية، ومن التركية إلى العربية ١٨٣٩م.

١٥ - غاية المرام فى أدوية الأسقام - فى الطب البيطرى - ترجمه عن الفرنسية يوسف فرعون - تصحيح مصطفى كساب ١٨٣٩م.

١٦ - روضة الأذكيا فى علم الفيسلوجيا - فى الطب البيطرى - تأليف لافارج . المترجم السابق، والمصحح السابق ١٨٤٠م.

١٧ - ضياء النيرين فى مداواة العينين . ترجمه عن الإنجليزية أحمد حسن الرشيدى، من كتاب الجرّاح لورنس الإنجليزى ١٨٤٠م.

---

(٥٢) مترجم ، من أهل مصر ، نقل عن التركية كتبا . الأعلام ٧/ ١٥٠ ، وترجمه يوسف سركيس ، تحت «عصمت افندى» ، وقال : «طبع كتاب الهندسة ، ترجمة عصمت افندى ، من التركية موسوما بالنخبة العزية فى تهذيب الأصول الهندسية تأليف ليجاندر الفرنساوى ، كتب فيه أنه الطبعة الثالثة . معجم المطبوعات ص ١٣٣١ .

١٨ – علم الجبر والمقابلة تأليف ماير، ترجمة محمد بيومي(٥٣) ١٨٤٠م.

١٩ – الأقوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية. تأليف بوبيه الفرنسي، ترجمة أحمد فايد (٥٤) تصحيح إبراهيم عبد الغفار الدسوقي ١٨٤١م.

---

(٥٣) محمد بيومي الدهشوري . نسبته إلى «دهشور» بين القاهرة والفيوم مهندس رياضي ، تعلم في فرنسا ، وتخصص في الهدروليكا – علم قوى المياه – عاد إلى مصر بعد تسع سنوات في فرنسا ، وجعل معلم الدروس الهندسية في مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم نقل إلى السودان ، فمات في الخرطوم سنة ١٢٦٨ هـ = ١٨٥٢ م . له ترجمات ومؤلفات في الرياضيات : الحساب والهندسة والجبر . الأعلام ٢٧٨/٦ ، وذكر يوسف سركيس أنه أرسل في أول بعثة إلى أوربا (فرنسا) وأنه ترك المهندسخانة وجعل ناظر الترجمة بديوان المدارس . معجم المطبوعات ص ٦٢٢.

(٥٤) أحمد فايد باشا : قال الزركلي : مهندس ، من أفاضل مصر، من بعثات محمد علي إلى فرنسا أصله من كياد دجوة بالقليوبية بمصر – تعلم بالقاهرة وباريس ، وعين في أوائل سنة ١٨٣٦ م في أعمال هندسية بسكة الحديد . قال الأمير عمر طوسون : وإليه يرجع الفضل في مد خطوطها في أكثر أنحاء القطر ، وباسمه سميت محطة فايد ، في طريق السويس – وهي مصيف معروف الآن – له تآليف وترجمات في الحساب والهندسة وغيرهما . توفي سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م . الأعلام ١٨٥/١، ومعجم المطبوعات ص ٣٩٤.

٢٠ - الدر اللاّمع فى النبات ومافيه من الخواص والمنافع تأليف أنطون فيجرى. تصحيح محمد بن عمر بن سليمان التونسى(٥٥) وحسين غانم ١٨٤١م.

٢١ - إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا - وهو مقدمة لتاريخ الامبراطور شار لكان (٥٦) ترجمة سوار - تعريب خليفة بن محمود (٥٧) ١٨٤٢م.

٢٢ - تحفة القلم فى أمراض القدم. تأليف جيرار الفرنسى ترجمة محمد عبد الفتاح (٥٨) ١٨٤٢ م.

٢٣ - طالع السعادة والإقبال فى علم الولادة وأمراض النساء

---

(٥٥) ولد فى تونس ، ورحل إلى السودان ومصر . كان واعظا مع إبراهيم باشا فى حملته إلى بلاد المورة ، ولما عاد من تلك الحملة كانت قد أنشئت مدرسة أبى زعبل فتعين فيها مصححا للكتب ، وترجمت فى أيامه كتب كثيرة فى الكيمياء والطب والنبات ، فكان يحررها ويهذب لغتها ، ويأتى لمصطلحاتها بصحيح الألفاظ . توفى سنة ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧ م . الأعلام ٧/٢٠٩ ، ومعجم المطبوعات ص ١٦٨٣.

(٥٦) راجع معجم المطبوعات ص ٨٣٤.

(٥٧) راجع رقم ١٠ .

(٥٨) راجع رقم ١٢ .

والأطفال، تأليف فلبوس الحكيم. ترجمه عن الفرنسية على هيبة(٥٩) وصححه أحمد الرشيدى ١٨٤٢م.

٢٤ - الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية. تأليف بيرون الحكيم. تصحيح محمد الهراوى ومحمد بن عمر التونسى، ودرويش زيدان. ثلاثة أجزاء ١٨٤٢-١٨٤٤م.

٢٥ - رضاب الغانيات فى حساب المثلثات . ترجمه عن الفرنسية أحمد دقلة(٦٠). تصحيح إبراهيم عبد الغفار الدسوقى ١٨٤٣م.

٢٦ - الروضة البهية فى مداواة الأمراض الجلدية. تأليف أحمد حسن الرشيدى(٦١) ١٨٤٦م.

٢٧ - علم تحرك السوائل. تأليف بيلانجه. ترجمة أحمد فايد(٦٢) ١٨٤٨م.

---

(٥٩) طبيب . تخرج بمدرسة قصر العينى بالقاهرة . وأرسل إلى فرنسا فى بعثة ، وعاد سنة ١٨٣٣ م . ترجم عن الفرنسية كتبا . توفى نحو سنة ١٢٦٥ هـ = ١٨٤٨ م . الأعلام ١٨٣/٥ ومعجم المطبوعات ص ١٣٧٠ .

(٦٠) أحمد دقلة بك ، مهندس ، من بعثات محمد على باشا ، أصله من قرية بسيون محافظة الغربية بمصر . أكمل دراسته فى فرنسا وتولى تدريس الجبر وعلم حركة المياه بمدرسة المهندسخانة بمصر . توفى سنة ١٢٧٢ هـ = ١٨٥٦ م . الأعلام ١٢٠/١ .

(٦١) راجع رقم (٢) .

(٦٢) راجع رقم (١٩) .

٢٨ - كشف النقاب عن علم الحساب. ترجمه عن الفرنسية محمد بن شيمى بن عبد الرازق (٦٣) ١٨٥٠م.

وبعد : فهذه أبرز المترجمات التى أذاعتها مطبعة بولاق، فى نحو ثلاثين عاماً فقط، إذ كانت مطبعة بولاق قد بدأت نشاطها نحو سنة ١٨٢٠م كما سبق، فإذا أضفنا إلى هذه المترجمات تلك المترجمات الأخرى التى نهضت بها مطابع المدارس الحكومية - كما سيأتى فى حديث المرحلة الثانية - ظهر لنا بوضوح أن القائمين على الأمر فى مصر فى ذلك الزمان ، والناس جميعا معهم كانوا جادين فى بناء دولة وقيام حضارة، لم تكن لمصر والمصريين فقط، بل مدت ظلالها لتشمل العالم العربى والإسلامى كله فى ذلك الزمان .

وقد اتضح من خلال ذكر هذه النماذج الموجزة أن حركة الترجمة فى مصر كانت نشطة جدا ، وأن رفاعة رافع الطهطاوى - الذى ذهب بالشهرة كلها - لم يكن وحده فى الميدان، بل كان معه نفر من الجادين النابهين من شباب مصر خرجوا إلى أوربا فتزودوا من علمها، ثم عادوا إلى بلادهم ، برغبة قوية فى الإصلاح والنهوض ، فكان لهم ما أرادوا.

---

(٦٣) من علماء الحساب ، تعلم وعلّم فى مدرسة الألسن بالقاهرة ، وعين محاسبا ومترجماً فى مصلحة السكك الحديدية . توفى نحو سنة ١٢٩٠ هـ = ١٨٧٣ م الأعلام ٧/ ٣٠ .

ب - أبرز الكتب الموسوعية التراثية(٦٤) التى طبعتها بولاق مرتبة تاريخيا بحسب زمان الطبع

مع التذكير مرة أخرى بأن نهاية القرن التاسع عشر تقابل سنة ١٣١٧ هـ .

١ - ألف ليلة وليلة. الطبعة الأولى ١٢٥١هـ = ١٨٣٥م، والثانية ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م.

٢ - إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، للقسطلانى. الطبعة الأولى ١٢٦٧هـ = ١٨٥١م، والثانية ١٢٧٧ هـ = ١٨٦٠ م.

٣ - خطط المقريزى ، وهو المسمى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣م.

٤ - القاموس المحيط ، للفيروز آبادى ١٢٧٢ هـ = ١٨٥٥م.

٥ - مقدمة ابن خلدون ١٢٧٤هـ = ١٨٥٧م.

٦ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص - فى علوم البلاغة - للعباسى ١٢٧٤هـ = ١٨٥٧م.

---

(٦٤) ولم أذكر فى هذه القائمة إلا الكتب ذات الأجزاء ، إلا كتابين اثنين، من جزء واحد ، ذكرتهما لأهميتهما العالية ، وهما : رجوع الشيخ إلى صباه ، والتوفيقات الإلهامية .

٧ - الفتوحات المكية ، لابن عربي ١٢٧٤- ١٢٩٣هـ = ١٨٥٧-١٨٧٦م.

٨ - وفيات الأعيان ، لابن خلكان ١٢٧٥ - ١٢٩٩هـ = ١٨٥٨ - ١٨٨١م.

٩ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . للحاج خليفة ١٢٧٥هـ = ١٨٥٨م.

١٠ - مفاتيح الغيب - وهو تفسير الفخر الرازي ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢م.

١١ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . للمقرى(٦٥) ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م.

١٢ - الأغاني ، لأبي الفرج الأصبهاني ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م.

---

(٦٥) بعض الناس يخلِّط في ضبط هذه النسبة ، وهي نسبة إلى «مقرة» من بلاد المغرب ، وفيها ضبطان : فتح الميم وسكون القاف ، وفتح الميم وفتح القاف المشددة . ويقول الأستاذ عبد الوهاب بن منصور : «والأولى أفصح وأشهر» روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . للمقرى - مقدمة التحقيق . ومقدمة تحقيق النفح ص ٥ ، وانظر معجم البلدان لياقوت ٤/٦٠٦ - واكتفى بالضبط الأول - والروض المعطار ص ٥٥٦ .

١٣ – الكامل – فى التاريخ – لعز الدين بن الأثير ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م.

١٤ – العقد الفريد لابن عبد ربه ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦م.

١٥ – القانون – فى الطب – لابن سينا ١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧م.

١٦ – شرح الحماسة ، للتبريزى ١٢٩٦هـ = ١٨٧٨م.

١٧ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادى ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م.

١٨ – لسان العرب ، لابن منظور ١٢٩٩ – ١٣٠٨هـ = ١٨٨٢ – ١٨٩٠م.

١٩ – فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م.

٢٠ – روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى . لشهاب الدين محمود الآلوسى ١٣٠١ – ١٣١٠هـ = ١٨٨٣ – ١٨٩٢م.

٢١ – الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م.

٢٢ – رجوع الشيخ إلى صباه فى القوة على الباه. لابن كمال باشا ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م.

٢٣ – التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين

الإفرنجية والقبطية . تأليف محمد مختار باشا (٦٦) ١٣١١ هـ = ١٨٩٣م.

٢٤ - المخصص - في اللغة - لابن سيده ١٣١٦ - ١٣٢١هـ = ١٨٩٨-١٩٠٣م.

فهذه أبرز المطبوعات التراثية الموسوعية ، التى أخرجتها مطبعة بولاق، خلال القرن التاسع عشر، وواضح - إن شاء الله، أنها تكاد تشمل فروع التراث العربى كله، كما أشرت إلى ذلك فى غير موضع من هذا البحث .

---

(٦٦) يقول عنه الزركلى : «عالم من نوابغ الجيش بمصر» ولد سنة ١٢٦٢ هـ = ١٨٤٦ م بالقاهرة وتلقى الفنون العسكرية ، وقام برحلات كشفية فى بلاد الصومال والسودان ، وكان رئيس أركان الحرب فى الحملة التى أرسلتها الحكومة المصرية إلى هرر ، ونشر أبحاثا جغرافية مفيدة عن رحلته هذه ، له مؤلفات رياضية وفلكية بالعربية والفرنسية . توفى سنة ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م . الأعلام ٢١٣/٧ .

وقال يوسف إليان سركيس : «وله اختراع جميل ، وهو دليل القبلة الإسلامية العام بآلة دقيقة» معجم المطبوعات العربية ص ١٧١٦ .

المرحلة الثانية
مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية

بدأت هذه المطابع نشاطها بعد قيام مطبعة بولاق بنحو عشرة أعوام (١)، وقد دارت معظم مطبوعاتها حول الشئون العسكرية والطبية والرياضية، والجغرافية، مع الإلمام بشيء من العلوم النظرية . ومن أشهر هذه المطابع :

١ - **مطبعة ديوان الجهاد** (الحربية) ، ومن مطبوعاتها : تنبيه فيما يخص الطاعون للأطباء ورؤساء المارستانات . تأليف كلوت بك ١٨٣٥م (٢).

القوانين الداخلية المتعلقة بمشاة عساكر الجهادية ١٨٣٥م

٢ - **مطبعة المدفعية** - أو مكتب الطوبجية بطرة . ومن مطبوعاتها : الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار - وهو

---

(١) انظر تاريخ هذه المدارس ، وحركة الترجمة وأعلام المترجمين ، في تاريخ الطباعة ، لخليل صابات من ١٦٥ - ١٧٢ ، وحركة نشر الكتب في مصر لعايدة نصير ص ٢٤٨ ، ٢٧٨ ، والمراجع التي أحالت عليها ، ثم انظر تاريخ مطبعة بولاق لأبي الفتوح رضوان ٣٥٤ - ٣٧٨ .

(٢) في هذه السنة ظهر الطاعون بالقاهرة ، وكان لكلوت بك جهود بارزة في علاجه ووصفه، راجع معجم المطبوعات العربية ص ١٥٦٦ .

مختصر في الجغرافيا، على السؤال والجواب . تصحيح رفاعة رافع الطهطاوى الطبعة الثانية ١٨٣٤م

وجاء في حاشية معجم المطبوعات العربية ص ٩٤٥ : «طبع في مالطة سنة ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) كتاب موسوم بالكنز المختار في اكتشاف الأرض والبحار ، صححه رفاعة بك ، وقال بآخر طبعة مصر ما يأتي : « وجاءت هذه الطبعة الثانية بالنسبة للعبارة أظرف من طبعة مالطة وأجمل ، ولكن ينبغي أن نقر بأن الطبعة الأولى بمزية الضبط بالشكل أكمل وأجمل » .

كليلة ودمنة ١٨٣٥م (٣).

٣ - **مطبعة الحجر بالقلعة** . ومن مطبوعاتها جامع المبادىء والغايات في فن أخذ المساحات . ترجمه عن الفرنسية محمود فهمى باشا (٤) ١٨٥٨ م

---

(٣) يلاحظ أن كتاب «كليلة ودمنة » طبع قبل ذلك التاريخ بسنتين - ١٨٣٣ م - بمطبعة بولاق ، فكأن هذه الطبعة عملت خاصة لرجال المدفعية .

(٤) مهندس ، قائد ، عالم بالتاريخ ، ولد في «الشنتور» من قرى بنى سويف ١٢٥٥هـ = ١٨٣٩ م وتعلم في مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وعين معلما في مدرسة الهندسة العسكرية فكبيرا لمهندسى قسم الساحل على البحر الأبيض المتوسط ، فبنى ١٧ قلعة ، ساعد الجيش العثماني في حروب الصرب وكان من أنصار الحركة العرابية ، وحكم الإنجليز بإعدامه وخفف الإعدام إلى النفى بجزيرة سيلان فتوفى فيها سنة ١٣١١ هـ = ١٨٩٤ م الأعلام ٥٧/٨ .٥٨ ، ومعجم المطبوعات ص ١٧١٣ .

٤ - **مطبعة مكتب الحربية السلطانية**، ومن مطبوعاتها : مجموع فى النحو والصرف ١٨٦٢ م

٥ - **مطبعة المدرسة الطبية بأبي زعبل** . طبعت أكثر من كتاب، ومن أشهر مطبوعاتها : العجالة الطبية فيما لابد منه لحكماء الجهادية الذين فى الآليات والمارستانات ، والسفن الحربية تأليف كلوت بك ، وترجمة أو غسطين السكاكينى(٥) ، وتصحيح أحمد الرشيدى ومحمد الهراوى ١٨٣٢ م

٦ - **مطبعة مدرسة المهندسخانة الخديوية** ، ومطبوعاتها كثيرة ، منها : المنحة الزهرية(٦) فى الأعمال الجبرية، ترجمه عن الفرنسية محمد حسنى ، المعروف بمحمد مصطفى . تصحيح إبراهيم عبد الغفار الدسوقى ١٨٥١ م

---

(٥) من أسرة السكاكينى المشهورة بدمشق ومصر . وأوغسطين هو ابن جبريال الذى سافر من دمشق إلى باريس بصحبة نابليون بونابرت. وذكر سركيس أن أوغسطين ولد سنة ١٨٠٨ م وتوفى سنة ١٨٥٤ م . معجم المطبوعات ص ١٠٣٥ .

(٦) وطبع بعد ذلك طبعتين ، إحداهما سنة ١٨٥٣ م بنفس المطبعة ، بترجمة صالح مجدى وعطا حسن ، ومحمد مصطفى ، والثانية فى السنة نفسها وبالمطبعة نفسها ، بترجمة محمد مصطفى ، وعامر سعد ، وإبراهيم البياع . راجع : قوائم بأوائل المطبوعات العربية ص ١٣٤ ، ١٤٦ .

وسماه سركيس : المنحة الأزهرية فى الأعمال الجبرية . معجم المطبوعات ص ١٢٦١ .

حسن الصنيعة في علم (أصول) الطبيعة . ترجمه عن الفرنسية على عزت بدوى (7) المهندس المصرى ١٨٥٢ م .

الدر المنثور في الظل والمنظور . ترجمه عن الفرنسية صالح (8) مجدى . مقابلة إبراهيم رمضان (9) ١٨٥٣م

---

(٧) مهندس ، كان مدرس العلوم الرياضية والطبيعية بمدرسة المهندسخانة بالقاهرة، توفي سنة ١٢٨٩ هـ = ١٨٧٢ م الأعلام ١٢٨/٥، ومعجم المطبوعات ص ١٣٦٥ ونسبة ترجمة الكتاب إلى «على عزت» منهما . أما محمد جمال الدين الشوريجي ، فقد نسب الكتاب تأليفا إلى على باشا مبارك ، وقال : ترجمة السيد عمارة . قائمة بأوائل المطبوعات العربية ص ١٤٠.

(٨) محمد بن صالح بن أحمد ، المعروف بصالح مجدى ، ولد في أبي رجوان بالجيزة بمصر سنة ١٢٤٢ هـ = ١٨٢٧م ، تعلم بمدرسة الألسن ، ثم تولى تدريس العربية والفرنسية بمدرسة المهندسخانة ، ثم تحول إلى القضاء في المحاكم المختلطة حتى توفي سنة ١٢٩٨ هـ = ١٨٨١ م ، قال عنه على باشا مبارك : «كان لي المترجم رفيقا ، مع قيامه بوظائفه ، وطالما استعنت بقلمه على تأليف كتب متنوعة في فنون شتى» ترجم عن الفرنسية كتبا كثيرة ، وله ديوان شعر . الأعلام ٣٤/٧ ، ومعجم المطبوعات ص ١١٨٧.

(٩) مهندس ، من بلدة الشبانات ، محافظة الشرقية بمصر ، أرسل في عهد محمد على إلى فرنسا ، فتعلم الهندسة والرياضيات ، ولما عاد عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ، ترجم عن الفرنسية كتبا ، وكان أحد مهندسى قناة السويس ، توفى سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٤ م الأعلام ٣٣/١ ، ومعجم المطبوعات ص ١٦ .

الدرة السنيّة فى الحسابات الهندسية . ترجمه عن الفرنسية صالح مجدى والسيد عمارة ١٨٥٣ م

الروضة السندسية فى الحسابات المثلثية . ترجمة صالح مجدى وعطا حسن(١٠) . صححه إبراهيم عبد الغفار الدسوقى ١٨٥٣ م

بغية الطلاب فى قطع الأحجار والأخشاب. ترجمة صالح مجدى ١٨٥٤م.

مبادىء الهندسة . ترجمة رفاعة رافع الطهطاوى . قابله على أصله برعى أفندى، صححه إبراهيم عبد الغفار الدسوقى ١٨٥٤ م.

---

(١٠) عطا باشا بن حسن بن حسنى . مؤرخ كاتب عارف باللغات العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية . ولد بالقاهرة سنة ١٢٩٨ هـ = ١٨٨١ م ، ولم يعرف له تاريخ وفاة. معجم المطبوعات ص ١٣٣٣ ، ومعجم المؤلفين ٦/٢٨٢ .

المرحلة الثالثة
المطابع الأهلية

سطع نور مطبعة بولاق وتألق ، ثم مد ظلاله على الأفراد والجماعات، فنشط هؤلاء وهؤلاء لطبع الكتاب العربى ، مدفوعين بنفس الروح التى سرت فى مطبعة بولاق ، من حيث نشر النصوص فى كل علم وفن، بالكتب الصغار والأوساط والمطولات : تحقيقا للتراث ، وترجمة لآداب الغرب وعلومه ، وتأليفا من أصحاب القرائح والمواهب ، وهى الدعائم الثلاثة التى تقوم عليها نهضات الأمم : نشر التراث ، والترجمة، والتأليف .

وقد انتشرت عشرات المطابع فى قلب القاهرة (١) ، وبالأخص فى تلك المنطقة المتصلة بالأزهر الشريف ودار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية) ، وهو أمر طبيعى : أن تنشأ المطابع والمكتبات حول دور العلم والفكر .

---

(١) انظر حديث المطابع المصرية الأهلية فى كتاب الدكتور خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ص ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، وكتاب الدكتورة عايدة إبراهيم نصير : حركة نشر الكتب فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ٤٣٤ - ٤٤٦ .

وإذا أنت وقفت فى ذلك الزمان ، فى ميدان باب الخلق (أحمد ماهر الآن) حيث تقع دار الكتب المصرية ، ونظرت عن يمينك وشمالك ، ثم من قدامك ومن وراءك ، ثم سرت فى هذه الاتجاهات الأربع رأيت أعدادا كبيرة من المطابع : فى الأزبكية والفجالة وباب الشعرية وشارع محمد على ودرب الجماميز والخليج الناصرى (بورسعيد الآن) وشارع حسن الأكبر وعابدين وشارع عبد العزيز ودرب سعادة والحسين والأزهر والموسكي والدراسة والخرنفش والجمالية ، ومن دون هذه الشوارع الكبيرة ومن خلالها انتشرت أيضا عشرات المطابع فى حارات القاهرة المعزية وأزقّتها ، مثل حارة الروم والنبوية ودرب الدليل ، تنشر صغار الكتب وكبارها .

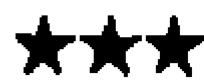
وهذه المناطق التى انتشرت فيها تلك المطابع الأهلية – على ما وصفت لك – لا تزيد على عشرة كيلو مترات مربعة ، فمن هذه المناطق المتجاورة المحدودة من قلب القاهرة : شوارع وحارات وأزقّة ، مع المنطقة الصغيرة التى تقع فيها مطبعة بولاق على ضفاف النيل : خرجت ثقافة العالم العربى والإسلامى فى القرن الماضى . فأىّ ضوء سطع ، وأىّ نور أضاء !



وإذا كان هذا الكتاب يقف بتاريخ الطباعة العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر . فسيكون بحثنا حول تلك المطابع التى نشأت

وباشرت نشاطها فى ذلك الوقت ، ولما كان من العسير والشاق تحديد بدايات تلك المطابع فى ذلك الزمان المحدد ، فلن يكون أمامنا إلا تاريخ الانتهاء من الطبع المذكور فى أول الكتاب ، أو فى آخره مع اسم المطبعة . وسوف يكون من الأوفق أن نتجاوز عن بضع سنوات من بداية القرن العشرين لكى ندخل بعض المطابع الشهيرة فى ذلك الإطار الزمنى الذى يدور حوله الكتاب، فنحن إذا وجدنا كتابا مطبوعا فى سنة ١٩٠٥م، مثلا ، فلن نستطيع أن نقطع أن هذا أول كتاب تصدره تلك المطبعة ، إلا إذا نص على ذلك.

ويلاحظ أن نهاية القرن التاسع عشر الميلادى تقابل من التاريخ الهجرى سنة ١٣١٧ ، على ما جاء فى كتاب التوفيقات الإلهامية لمحمد مختار باشا .



وقد تأخر ظهور المطابع الأهلية المصرية شيئا ما ، فلم تظهر إلا بعد مضى نحو أربعين سنة من إنشاء مطبعة بولاق (٢) .

(٢) هكذا ذكر شيخنا عبد السلام هارون ، رحمه الله ، فى التراث العربى ص ٤٧ ، لكننا نجد فى القائمة التى طبعتها دار الكتب المصرية بأوائل المطبوعات العربية ص ٥٧ : مطبعة حجر ، تسمى مطبعة الأفندى طبعت حاشية الشيخ حسن العطار ، على الأزهرية للشيخ خالد الأزهرى ، سنة

وسوف يقف الكتاب عند أشهر هذه المطابع ، مع ذكر أشهر مطبوعاتها ، ثم الإشارة بعد ذلك إلى تلك المطابع الأخرى التى تأتى دونها شهرة وذيوعا فأول هذه المطابع : **المطبعة الأهلية القبطية** ، التى عرفت فيما بعد باسم : **مطبعة الوطن** . وقد أنشئت سنة ١٨٦٠ م وقد أسسها الأنبا كيرلس، بعد أن تدرب عمالها فى مطبعة بولاق ، بإذن من محمد سعيد باشا خديوى مصر ، وقد نشرت هذه المطبعة عددا من كتب التراث ، منها : الأحكام السلطانية ، للماوردى ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ م، وقوانين الدواوين ، لابن مماتى ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م ، وحلبة الكُميت للنّواجى ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م - وجاء بخاتمة الطبع أن هذا الكتاب هو الثالث من مطبوعات المطبعة - ، والذريعة إلى مكارم

١٨٣٥ م - ١٢٥١ هـ ، أى بعد ظهور مطبعة بولاق بخمسة عشر عاما ، ولعل شيخنا يعني بالمطابع الأهلية المشهورة منها، ثم نجد بعد ذلك بثلاثة أعوام مطبعة عبد الرازق ، تطبع فى سنة ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨ م كتاب تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب ، وهو المعروف بتذكرة داود الأنطاكى . تاريخ الطباعة ص ١٧٥ ، ومعجم المطبوعات العربية ص ٤٩١ ، والمعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ١/١٠٩ .

ومطبعة عبد الرازق من المطابع الأهلية الشهيرة ، وسيأتى حديثها فى ترتيبها الألف بائى .

الشريعة للراغب الأصبهانى ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ (٣)م ، ورسالة حى بن يقظان ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م ، وحسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، للسيوطى ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١م ، وأدب الكاتب ، لابن قتيبة ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢م ، ومطالع البدور فى منازل السرور للغزولى ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م ، والسياسة فى علم الفراسة ، لشمس الدين محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى المعروف بشيخ الَّربوة ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م.

وقد تلت مطبعة الوطن **مطبعة وادى النيل** ، وقد أنشأها سنة ١٨٦٦ م عبد الله أبو السعود أفندى (٤)، وطبع فيها صحيفة وادى النيل، إلى جانب نشر بعض كتب التراث ، منها : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ،

---

(٣) فى معجم المطبوعات العربية ص ٩٢٢ (١٨٩٩م) وهو خطأ . هذا وقد ذكر خليل صابات أن هذه المطبعة الأهلية القبطية - مطبعة الوطن - بدأت عملها سنة ١٨٧٠ م ، وأنها كانت بشارع كلوت بك . تاريخ الطباعة ص ٢٠٢.

(٤) عبدالله - أبو السعود أفندى - بن عبد الله أبى السعود، أول صحفى سياسى فى تاريخ مصر الحديث، ولد فى دهشور - بين القاهرة والفيوم - سنة ١٢٣٦ هـ - ١٨٢٠م، تعلم وأتقن مع العربية الفرنسية والإيطالية، وعين ناظرا لقلم الترجمة، فأستاذا للتاريخ بدار العلوم، أنشأ جريدة وادى النيل، ثم تولى تحرير روضة الأخبار، وفى عام ١٨٧٦ م عين قاضيا بمحكمة الاستئناف. له مؤلفات فى التاريخ والقانون. توفى سنة ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨م. الأعلام ٤/٢٣٤، ومعجم المطبوعات ص ٢١٤، وتاريخ الطباعة فى الشرق العربى ص ٢٠٣.

لعبد اللطيف بن يوسف البغدادى ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م ، والروضتين فى أخبار الدولتين: النورية والصلاحية ، لأبى شامة المقدسى ١٢٨٧ هـ = ١٨٧٠ م ، وكفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ ، لابن الأجدابى ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠م ، والنعم السوابغ فى شرح الكلم النوابغ للزمخشرى ، تأليف سعد الدين التفتازانى ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م ، ورحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م ، وذيل فصيح ثعلب ، لعبد اللطيف بن يوسف البغدادى ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢م، وجواهر الأدب فى معرفة كلام العرب ، للإربلى . تصحيح الشيخ على نائل ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م .

ومطبعة وادى النيل هذه غير **مطبعة النيل** ، فإن هذه كانت تتبع جريدة النيل التى أنشأها حسن باشا حسنى [٥]، ومن مطبوعاتها : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية ،

---

(٥) حسن حسنى باشا بن حسين عارف الطويرانى، تركى الأصل ولد بالقاهرة سنة ١٢٦٦ هـ - ١٨٥٠م، ونشأ بها ، وجال فى بلاد كثيرة. نظم شعرا كثيرا بالعربية والتركية، وأنشأ - جريدة النيل ومجلة الإنسان، ومجلات أخرى . توفى بالقسطنطينية (استنبول) ١٣١٥ هـ - ١٨٩٧م، وانظر أنموذجا من إنشائه فى مقدمة كتاب الدر المنثور لزينب فوّاز. الأعلام ٢٠١/٢، ومعجم المؤلفين ٢١٦/٣، ومعجم المطبوعات ص ١٢٥٢.

بعناية الشيخ فرج الله زكى الكردى – وسيأتى حديثه فى مطبعة كردستان – ١٣٢٢ هـ – ١٩٠٤ م

ومن أبرز المطابع الأهلية التى سرت فيها روح مطبعة بولاق : **مطبعة جمعية المعارف** ، وتسمى أيضا : **المطبعة الوهبية** ، وكانت بباب الشعرية، وقد عرفت بالوهبية ، نسبة إلى صاحبها ومنشئها مصطفى وهبى بن محمد (٦)، وكان رئيس تصحيح التركية بمطبعة بولاق (٧)، ثم كان يباشر تصحيح بعض مطبوعاته، مثل خلاصة الأثر الآتى فى السرد .

وقد اقترن اسم المطبعة الوهبية باسم جمعية المعارف التى كانت تطبع كتبها التى تختارها فى المطبعة المذكورة (٨). وجمعية المعارف هذه أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس

---

(٦) هكذا جاء اسمه بآخر كتاب طراز المجالس، لشهاب الدين الخفاجى، المطبوع بالمطبعة المذكورة سنة ١٢٨٤ هـ – ١٨٦٧م.

(٧) كما جاء بآخر كتاب شهاب الدين الخفاجى أيضا : شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل المطبوع بالمطبعة سنة ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥م.

(٨) وإن كانت جمعية المعارف قد طبعت بعض مطبوعاتها بمطبعة بولاق. ومن ذلك: شرح التنوير على سقط الزند، لأبى يعقوب يوسف بن طاهر الخويى، سنة ١٢٨٦ هـ – ١٨٦٩م. بتصحيح إبراهيم الدسوقى الملقب عبدالغفار – فى جزءين، وشعر السقط مجموع بالشكل الكامل، وطبعت الجمعية بعض مطبوعاتها بمطبعة محمد شاهين.

الأحكام بمصر سنة ١٨٦٨م ، وانضم إلى هذه الجمعية كثير من سَراة القوم ومحبى العلم ، وعددهم (٦٦١) عضوا ، ترى أسماءهم بآخر الجزء الأول من كتاب تاج العروس ، للزَّبيدى ، الذى طبعت منه الجمعية خمسة أجزاء (١٢٨٥ - ١٢٨٧ هـ) - ١٨٦٨ - ١٨٧٠ م ، ثم توقفت عن إتمام طبعه .

وقد لقيت هذه الجمعية العلمية إقبالا كبيرا ، واستجابة سريعة من المثقفين وغيرهم - كما يقول شيخنا عبد السلام هارون(٩) رحمه الله - وكان لأعضائها ميزة فى أن يحصلوا على الكتب بثمن أقل مما يطلب من غيرهم .

وقد طبعت هذه الجمعية طائفة صالحة من الكتب القيمة فى اللغة والتاريخ والأدب ، التى تنسب إليها ، وإلى المطبعة الوهبية ، كما ذكرت من قبل ، من أهمها خمسة الأجزاء من تاج العروس المشار إليها قريبا، وكذلك طراز المجالس وشفاء الغليل ، كلاهما لشهاب الدين الخفاجى ، وقد ذكرتهما فى الحواشى قريبا .

ومنها : درر النحور فى مدائح الملك المنصور - وهى القصائد الأرتقيات - لصفى الدين الحلِى ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦م ، وفى السنة نفسها طبع تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس (ﷺ) للديار بكرى، وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى

---

(٩) التراث العربى ص ٤٧، وانظر تاريخ الطباعة لخليل صابات ص ٢٠٢ وحركة نشر الكتب فى مصر لعايدة نصير ص ٤٢٢ .

١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م ، وتاريخ ابن الوردى ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م ، وديوان ابن خفاجة الأندلسى ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م ، وعنوان المرقصات والمطربات ، لابن سعيد المغربى ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م ، وكتاب الفلاحة اليونانية ، ترجمة سرجس بن هلبا الرومى ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م ، ومجموع شعرى بعناية أمين عمر زيتونة ، تضمن: ديوان النابغة الذبيانى ، بشرح البطليوسى ، وديوان عروة بن الورد ، بشرح ابن السكيت ، وديوان حاتم الطائي ، وديوان علقمة الفحل ، وديوان الفرزدق . سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦م ، وقد طبع هذا المجموع بعنوان «خمسة دواوين العرب» ويحال عليه في المراجع بهذا العنوان . والذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، لسلام بن عبد الله بن سلام الباهلى الإشبيلى(١٠) ١٢٩٨هـ - ١٨٨٠م ، وأساس البلاغة للزمخشرى(١١) ١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م ، وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، لابن أبى أصيبعة ١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م ، وثمرات الأوراق ، لابن حجة الحموى ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢م ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م ،

---

(١٠) فرغ من تأليفه سنة ٨٣٩ هـ . راجع معجم المطبوعات العربية ص ٥٢٢.

(١١) طبع على نفقة يوسف شيت الديرانى البعلبكى. راجع المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ١٠٦/٣.

ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، للراغب الأصبهانى ١٣١٠هـ - ١٨٩٢(١٢)م .

إلى مطبوعات أخرى طبعتها جمعية المعارف هذه ، تراها بآخر الجزء الأول من تاج العروس ، منها الصحاح ، للجوهرى ، والمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير ، وألف باء للبلوى ، وشرح القسطلانى على صحيح البخارى ، والمزهر للسيوطى ، والتعريفات ، للسيد الشريف الجرجانى .

ومن أندر ما طبعته جمعية المعارف كتاب «الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى » وهو - كما يقول شيخنا عبد السلام(١٣) هارون رحمه الله - من أعجب كتب التاريخ ، إذ هو شرح لكتاب تاريخى ، ألفه أبو نصر العتبى(١٤) ، ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى ، فاتح الهند ، المتوفى سنة ٤٢١ هـ .

وهذا الكتاب ألفه أبو نصر بأسلوب أدبى فنى ، وسمّاه : اليمينى ، نسبة إلى يمين الدولة ، هذا وقد تتابع على هذا الكتاب كثير من الشراح، كان أبرزهم وأشهرهم : أحمد بن على المنينى -

(١٢) ذكر صاحب المعجم الشامل ٢٧/٣، أنه طبع قبل ذلك، على نفقة جمعية المعارف، بمطبعة السيد إبراهيم المويلحى، سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠م.
(١٣) التراث العربى ص ٤٨.
(١٤) اسمه محمد بن عبد الجبار العتبى، نسبة إلى عتبة بن غزوان، الصحابى الجليل. مؤرخ من الكتاب الشعراء، توفى سنة ٤٢٧، الأعلام ٥٦/٧.

نسبة إلى مَنين من قرى دمشق - المتوفى سنة ١١٧٢[١٥] هـ وسمي شرحه : الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي طبع سنة ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م .

ومن الجمعيات التي قامت على إحياء التراث في أواخر القرن التاسع عشر : **شركة طبع الكتب العربية** ، وقد ظهرت سنة ١٨٩٨[١٦] م - أي بعد تأسيس جمعية المعارف بثلاثين سنة - ومن أوائل مطبوعاتها : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ،لابن الطقطقي . طبع بمطبعة الموسوعات ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م ، ثم طبعت بعد ذلك : الإحاطة في أخبار غرناطة ، للسان الدين بن الخطيب ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م ، وفتوح البلدان ، للبلاذري ١٣١٩ هـ - ١٩٠١م ، بمطبعة الموسوعات ، وقاموس الأمكنة والبقاع التي يرد ذكرها في كتب الفتوح[١٧] ، لعلي بهجت[١٨] .

---

(١٥) ترجمته في الأعلام ١٧٥/١.

(١٦) ومن أعضائها : حسن باشا عاصم، وأحمد بك تيمور، وعلي بهجت. راجع حركة النشر في مصر لعايدة نصير ص ٤٢٣.

(١٧) قال يوسف إليان سركيس: «وهو معجم لما ورد خصوصا في فتوح البلدان للبلاذري المطبوع بعناية شركة طبع الكتب العربية» معجم المطبوعات ص ١٣٦٠. وقد طبع هذا القاموس بمطبعة التقدم سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦م.

(١٨) علي بهجت بن محمود بن علي أغا. من العلماء الكبار بالتاريخ والآثار. تركي الأصل مصري المولد والنشأة والوفاة. ولد في قرية «بلها العجوز» التابعة لبني سويف بصعيد مصر. سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨م، =

ومن المطابع الأهلية الشهيرة فى ذلك الزمان : **المطبعة الميمنية** ، بحى الكحكيين ، المتفرع من شارع الغورية ، بالقرب من الجامع الأزهر . وقد أسسها مصطفى البابى الحلبى ، وأخواه بكرى وعيسى سنة ١٢٧٦ هـ - ١٨٥٩م(١٩) .

وتمتاز هذه المطبعة على سائر المطابع الأهلية ، بعنايتها الفائقة بطبع الموسوعات ، أو الكتب ذات الأجزاء الكبار ، ومن ذلك مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين المتقى الهندى ، طبع فى ستة أجزاء من القطع الكبير ، سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٥ م ، وإتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للمرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، عشرة أجزاء من القطع الكبير ١٣١١ هـ -

---

= تخرج من مدرسة الألسن ١٨٨٢م فعين معيدا للغة العربية فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية. وشغف بالآثار، وأجاد الفرنسية والتركية والإنجليزية، ورأس قلم الترجمة بوزارة المعارف، ثم كان مديرا لدار الآثار العربية، وهو أول مصرى يتولى عملا كان مقصورا على الأجانب. يرجع إليه الفضل فى استخراج آثار الفسطاط بالقاهرة فقد كشف الغطاء عن حى كبير من أحيائها، واستخرج أشياء نفيسة من دفائنها. سافر وحضر مؤتمرات كثيرة وألف وترجم ، ومن أبرز مترجماته «فهرست مقتنيات دار الآثار بالقاهرة. توفى بمطرية القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م . الأعلام ٧٤/٥، والموضع السابق من معجم المطبوعات العربية.

(١٩) وذكر خليل صابات أنها تأسست سنة ١٨٥٦م، راجع تاريخ الطباعة ص ٢٠٠، وحركة نشر الكتب فى مصر ص ٤٣٥.

١٨٩٣ م ، والدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للسيوطى ، أربعة أجزاء ضخام ١٣١٤ هـ - ١٨٩٦ م ، وتفسير الطبرى ، وبهامشه تفسير النيسابورى ، المسمى : غرائب القرآن ورغائب الفــرقان . واحد وثلاثون جزءا ، سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م

أما ما طبعته الميمنية من الكتب ذات الجزء والجزءين فشيء كثير ، ومن ذلك مثلا : ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م .

وفى أوائل القرن العشرين استمرت هذه المطبعة فى طبع الكتب الكبار ، ومن ذلك مثلا : شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد ، أربعة أجزاء ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م .

وهذه المطبعة الميمنية ، هى أصل مطبعة الحلبى ، التى اقترن اسمها بالأعمال التراثية الجليلة . وقد تفرعت بعد ذلك إلى مطبعتين كبيرتين ، الأولى : **مطبعة مصطفي البابي الحلبي** ، الكائنة بجوار الأزهر الشريف ، بشارع التبليطة ، واتخذت مكان الطبع الآن عند نهاية منطقة الدراسة ، والالتقاء بمنطقة العباسية ، بالقرب من إدارة المرور ، وخصص المكان القديم لبيع المطبوعات .

والثانية : **مطبعة عيسي البابي الحلبي** ، التى تسمت باسم **«دار إحياء الكتب العربية»** ، وتوجد بشارع خان جعفر بمنطقة خان الخليلى ، خلف مسجد الحسين، وقد أمدت هاتان المطبعتان المكتبة العربية بفيض زاخر من نفائس التراث . ولهذه

المطبعة الثانية فضل عليّ ظاهر ، إذ عملت بها مصححا فى صدر شبابى ، فتعلمت الكثير ، وتعرفت على كبار أهل العلم ، ثم طبعت تحقيقاتى الأولى فيها [٢٠].

ومن تلك المطابع الأهلية ذات الأثر الواسع : **المطبعة الخيرية** ، ومقرها حوش عطية بحي الجمالية ، وقد أنشأها عمر حسين الخشاب[٢١]، وولده محمد عمر الخشاب ، ومعهما محمد عبد الواحد الطوبى ، الذى يتردد اسمه كثيرا فى نشر الكتب على ذمته ونفقته .

ومن أجلّ مطبوعات هذه المطبعة وأعظمها : تاج العروس فى شرح القاموس ، للمرتضى الزبيدى ، طبعته هذه المطبعة الخيرية كاملا فى عشرة أجزاء من القطع الكبير ، سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨م ، بعد طبعة جمعية المعارف التي وقفت عند نهاية الجزء الخامس ، كما سبق .

وقد وقف علي طبع هذا الكتاب ، وتحمس لنشره وإذاعته على بك جودت ، أحد نظّار مطبعة[٢٢] بولاق ، والمتولى إدارة

---

(٢٠) راجع كتابي: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ص ٥١، ٥٢.

(٢١) اخبرنى الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب، رحمه الله، أن «عمر الخشاب» هذا هو جد الدكتور يحيى الخشاب، عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة، رحمه الله. وقد سبق أن «عمر الخشاب» هذا قد أنفق على طبع تفسير الطبرى بمطبعة بولاق.

(٢٢) كان ناظرا لمطبعة بولاق فى الوقت الذى طبعت خزانة الأدب بها سنة ١٢٩٩ هـ، كما جاء بخاتمتها. راجع ما سبق عن طبع الكتب على نفقة أهل العلم ص ٥٤.

المطبوعات المصرية ، وإدارة جريدة الوقائع المصرية التركية ، ثم وقف خلفه وآزره فى نشر هذا الكتاب العظيم : وزير تركى محب للعلم ، عالم بالفلك والهندسة ، هو أحمد مختار باشا الغازى(٢٣)، المتوفى بإستانبول سنة ١٣٣٧ هـ - ١٩١٨ م .

ومن وراء تاج العروس طبعت هذه المطبعة كثيرا من الكتب ، أذكر منها هنا ما يدخل فى نطاق القرن التاسع عشر :

سراج الملوك ، للطرطوشى ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م ، وتدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ، للسيوطى ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م، والكتاب الكامل للمبرد ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م ، ومفاتيح الغيب ، وهو تفسير الفخر الرازى ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م ، ومجمع الأمثال ، للميدانى ، وبهامشه جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكرى ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين بن الأثير ، وطبع بهامشه: مفردات القرآن الكريم ، للراغب الأصبهانى ، وطبع بأسفله : الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير للسيوطى ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م .

---

(٢٣) ترجمته فى الأعلام ١/٢٥٥ (طبعة دار العلم للملايين)، والأعلام الشرقية ١/٥٧، ومعجم المطبوعات ص ٣٩٩، ويبقى أن أقول إن هذه المعلومات التى ذكرتها حول من أنفق على طبع الكتاب، ثم من وقف خلفه، أخذتها من خاتمة طبع الكتاب، وكان واجبا على من قدم لطبعة الكويت من تاج العروس: أن يذكر هذه الأمور، حفاظا على تاريخ الناس وجهادهم.

فهذه أبرز المطابع الأهلية فى ذلك الوقت ، ولما كان من العسير هنا حصر تلك المطابع الأهلية التى قامت بمصر فى القرن التاسع عشر : فقد اجتهدت فى ذكر أشهر المطابع آنئذ ، ولم أثبت منها إلا ما عرف بطبع الكتب ذات القيمة والأثر ، ثم إنى رأيت أنه من الأوفق ذكرها مرتبة على الألف بائية ، مع ذكر أشهر مطبوعاتها ، مع التذكير بأن نهاية القرن التاسع عشر الميلادى تقابل سنة ١٣١٧ من الهجرة النبوية الشريفة .

مطبعة إبراهيم المويلحى(٢٤) :

لباب التأويل فى معانى التنزيل ، وهو تفسير الخازن ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠م - وانظر ما سبق من حديث عن المطبعة الوهبية - جمعيــة المعارف ، فهناك شىء من مطبوعات المويلحى .

المطبعة الأدبية المصرية :

جمع الوسائل فى شرح الشمائل النبوية للترمذى ، تأليف مُلاًّ على القارى ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م ، والفِصَل فى الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم ، وبهامشه الملل والنحل ، للشهرستانى ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩م ، وفقه اللغة ، للثعالبى ، ونثر النظم ، له ١٣١٨ هـ -

---

(٢٤) إبراهيم بن عبد الخالق بن إبراهيم. من الكتاب البارزين فى القرن الماضى، تقلبت حياته بين التجارة والصحافة والسياسة. توفى سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٦م، وهو والد محمد المويلحى صاحب حديث عيسى بن هشام . الأعلام ٢٨/١، والأعلام الشرقية ٨/٤.

١٩٠٠ م ، وغرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ، لجمال الدين الوطواط ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م

المطبعة الأزهرية :

مطبوعاتها كثيرة ، منها : الكامل فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير، وبهامشه : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى - ١٢ مجلدا - ١٣٠١ هـ - ١٨٨٣ م ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، لصلاح الدين الصفدى ١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م .

مطبعة الاعتماد :

عيون الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة ، لابن هذيل ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٥ م . وابن هذيل هذا : هو على بن عبد الرحمن الأندلسى ، من رجال القرن الثامن الهجرى ، وهو صاحب كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان ، الذى نشره الأستاذ محمد عبد الغنى حسن - رحمه الله - بدار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ م

مطبعة الأفندى :

وهى مطبعة حجر، طبعت بها حاشية الشيخ حسن بن محمد العطار، على شرح الأزهرية ، للشيخ خالد الأزهرى ١٢٥١ هـ - ١٨٣٥ م ، وبهذا التاريخ تكون هذه المطبعة هى أقدم المطابع الأهلية وأقربها الى بداية الطباعة فى مطبعة بولاق ، وقد أشرت إلى ذلك من قبل .

المطبعة البهية :

مقرها(٢٥) حوش قدم ، متفرع من شارع الغورية ، بجوار مسجد الدردير . ومن مطبوعاتها : الكشاف للزمخشرى ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠م ، وحاشية على خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملى ، تأليف الشيخ محمد حسنين مخلوف(٢٦) ١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م ، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، لأبى العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ (٢٧)م ، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص - فى علوم البلاغة - للعباسى ١٣١٦ هـ - ١٨٩٨ م ، وشرح شواهد مغنى اللبيب ، لابن هشام ، تأليف السيوطى ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م .

مطبعة التأليف :

وهى «غير مطبعة لجنة التأليف(٢٨) والترجمة والنشر ، التى

---

(٢٥) العامة فى مصر ينطقونها هكذا «حوش» بالحاء المهملة، وإنما هى بالخاء المعجمة «خوش» ومعناها بالفارسية : سعد ، فيكون المراد: قدم السعد.

(٢٦) فقيه، عارف بالتفسير والأدب، كان مديرا للمعاهد الدينية، ووكيلا للأزهر. توفى بالقاهرة سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦م. الأعلام ٦/٢٢٦، وهو غير الشيخ حسنين مخلوف، مفتى الديار المصرية المتوفى منذ نحو عشر سنوات.

(٢٧) أعاد ولدا المؤلف طبعه فى تسعة أجزاء بالدار البيضاء سنة ١٩٥٤م وأشارا إلى طبعة القاهرة.

(٢٨) وبعض الناس يخلط بينهما، انظر مثلا : المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ٥/١٤٠ (المقريزى).

أنشأها الأستاذ أحمد أمين ورفاقه ، في النصف الأول من القرن العشرين – ومن مطبوعاتها : نهاية الأوطار في عجائب الأقطار – مترجم – يتضمن رحلة «ستانلى» فى قارة أفريقية ، وترجمته بتنقيح وهبى تادرس(٢٩) بك ، ناظر المدارس القبطية بالقاهرة ١٣٠٨ هـ – ١٨٩٣ م ، والإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . لتقى الدين المقريزى ١٣١٣ هـ – ١٨٩٥ م .

مطبعة الترقي(٣٠) :

أنشأها محمد علي كامل ، وطبع من جمعه : أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ ١٣١٦ هـ – ١٨٩٨ م ، ثم طبع بها أيضا فى العام نفسه مرآة المروءات لأبى منصور الثعالبى ، وأسرار البلاغة، للشيخ عبد القاهر الجرجانى ١٣٢٠ هـ – ١٩٠٢ م ، بعناية الشيخ محمد رشيد رضا ، الذى نشر الطبعة الثانية منه بمطبعته المنار ١٣٤٤ هـ – ١٩٢٥ م .

مطبعة التقدم العلمية :

ومقرها درب الدليل بحى الدرب الأحمر، ومارأيت من مطبوعات هذه المطبعة إلا ما هو فى أوائل القرن العشرين، وأظن

---

(٢٩) راجع معجم المطبوعات العربية ص ٦٧١، ١٩٢٦.

(٣٠) وفى دمشق مطبعة عظيمة، أخرجت كتبا كثيرة، اسمها أيضا الترقى، فلا تخلط بينهما.

ظنا أنها بدأت نشاطها فى أواخر القرن التاسع عشر(٣١)، فإن الكتب التى أخرجتها فى أوائل القرن العشرين من الكتب الكبار، ويبعد أن تبدأ مطبعة عملها بالكتب ذات الأجزاء، فالمظنون أن تكون بواكير أعمالها بعض الرسائل أو الكتب الصغار.

ومما نشرته هذه المطبعة: الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤م، وبعده: الكامل للمبرد ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥م، ثم جاء العمل الضخم وهو كتاب الأغانى، لأبى الفرج الأصبهانى، على نفقة محمد ساسى المغربى، وكان تاجرا بالفحامين، المتفرع من شارع الغورية، بالقرب من الأزهر، ثم تولى الإنفاق على طبع الكتب، ومن ذلك مما طبعه بتلك المطبعة: الأغانى، سنة ١٣٢٣ - ١٩٠٥م وقد أصدره مذيلا بالفهارس. ومكملا بالجزء الحادى والعشرين، وقد ظلت هذه الطبعة هى الأكثر تداولا بأيدى الباحثين والمحققين، حتى أكملت دار الكتب المصرية طبعتها للكتاب، التى جاءت فى (٢٤) مجلدا، وعلى نفقة محمد ساسى المغربى أيضا طبع بهذه المطبعة الأجزاء من ٣ إلى ٧ من كتاب الحيوان للجاحظ ١٣٢٥ - ١٩٠٧م . أما الجزءان الأول والثانى فسيأتى حديثهما عند المطبعة الحميدية.

---

(٣١) ذكرت عايدة نصير أن مطبعة التقدم تأسست خلال الثمانينات. انظر حركة نشر الكتب فى مصر ص ٤٤٠. لكنها لم تذكر كلمة «العلمية» فهل مطبعة التقدم التى ذكرتها هى مطبعة التقدم العلمية؟

مطبعة التمدن :

أو شركة التمدن الصناعية: شمس المعارف الكبرى، للبُونى، ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م وبلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلانى ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢م.

مطبعة جمعية المعارف :

هى المطبعة الوهبية، وسبق الحديث عنها.

مطبعة حسن الطوخي :

تلخيص المفتاح، للقزوينى ١٢٩٧ هـ - ١٨٧٩م، ومجموعة فى القراءات مشتملة على سبعة فنون ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤م.

المطبعة الحسينية :

ديوان ابن النحاس الحلبى ١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م، وشرح الآجرومية، للكفراوى ١٢٩٦ هـ - ١٨٧٨م.

المطبعة الحسينية المصرية :

أنشأها محمد عبداللطيف الخطيب،(٣٢) سنة ١٣٢٣ هـ، كما جاء فى خاتمها الموجود بآخر طبعتها من القاموس المحيط سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٣م، تصحيح الشيخ مصطفى عنانى. وكذلك بآخر تاريخ الطبرى الآتى، وكان مقرها بجوار مسجد الحسين كما جاء

(٣٢) أنشأ ابنه محمد محمد عبداللطيف مطبعة سماها «المطبعة المصرية بالأزهر» ومن أشهر مطبوعاتها صحيح مسلم بشرح النووى (١٨ جزءا) طباعة فاخرة، فرغ من طبعه سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠م. ومحمد عبداللطيف هذا، هو زوج «السيدة مفيدة عبدالرحمن» المحامية الشهيرة وابنة عبدالرحمن محمد، صاحب المطبعة الشهيرة المسماة باسمه، وقد تخصصت فى طبع مصاحف القرآن الكريم.

فى صدر كتاب تفسير سورة الإخلاص لشيخ الإسلام ابن تيمية الذى طبع بها سنة ١٣٢٣ هـ، وهى السنة التى أنشئت فيها، وكانت هذه الطبعة على نفقة محمد أمين الخانجى،. وعنى بتصحيحها السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى.

وقد ذكرتها هنا، مع أنى لم أجد لها شيئا مذكورا فى القرن التاسع عشر، لأفرق بينها وبين «المطبعة الحسينية» السابقة، ومهما يكن من شيء فهذه المطبعة الحسينية المصرية قد اكتسبت شهرتها في العشر الأوائل من القرن العشرين، حين طبعت كتاب طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى، فى ستة أجزاء سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦م على نفقة مولاى أحمد بن عبدالكريم القادرى الحسنى، ثم طبعت بعد ذلك تاريخ الطبرى - أحد عشر جزءا - ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م.

المطبعة الحميدية المصرية:

العلوم الفاخرة فى النظر فى الأمور الآخرة. لعبد الرحمن بن محمد الثعالبى ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩م، ومن أشهر ما أخرجت هذه المطبعة: الجزءان الأول والثانى من الحيوان للجاحظ ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥م على نفقة محمد ساسى المغربى، كما سبق من الحديث عن مطبعة التقدم.

المطبعة الخيرية:

سبق الحديث عنها فى بدء الكلام على المطابع الأهلية.

مطبعة السعادة:

بجوار محافظة مصر، بميدان باب الخلق (أحمد ماهر الآن) ومنشئها محمد إسماعيل. وقد اكتسبت هذه المطبعة شهرة عظيمة في النصف الأول من القرن العشرين، بما أخرجته من نفائس الكتب، ولم أظفر بشيء من مطبوعاتها في القرن التاسع عشر، إلا ما أورده مؤلف المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، فقد ذكر في ترجمة «الواسطي علي بن الحسن بن أحمد» أن له كتابا اسمه: خلاصة الإكسير في سيدنا الغوث الرفاعي الكبير، ثم ذكر أنه مطبوع بالقاهرة، مطبعة السعادة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨م،(٣٣) ولست أُحُقُّ هذا، لأني لم أر لهذه المطبعة شيئا في ذلك القرن التاسع عشر، وقد زاد من الشبهة عندي. أن يوسف سركيس حين ذكر كتاب «خلاصة الإكسير» قال: «مصر ١٣٠٦ هـ» (٣٤) فلم يذكر اسم المطبعة، ولم يتيسر لي رؤية الكتاب المطبوع نفسه.

وشيء آخر في أمر هذه المطبعة، فقد ذكر سركيس (٣٥) أن «ديوان الشماخ» طبع بمطبعة السعادة سنة ١٣١٧ هـ، فيكون ذلك سنة ١٨٩٩م، لكن الذي رأيته على غلاف ديوان الشماخ المطبوع

---

(٣٣) المعجم الشامل ٥ / ٣٢٠.

(٣٤) معجم المطبوعات العربية ص ١٩٠٨.

(٣٥) معجم المطبوعات العربية ص ١١٤١.

بمطبعة السعادة بتصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطى، سنة ١٣٢٧ هـ- المقابلة لسنة ١٩٠٩ م، وكذلك ذكر محقق ديوان الشماخ (٣٦).

ومهما يكن من أمر فقد أخرجت هذه المطبعة كثيرا من الكتب فى أوائل القرن العشرين، منها، المعمّرون، لأبى حاتم السجستاني، تصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطى ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥م، والمحاسن والمساوىء للبيهقى. تصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبى (٣٧). على نفقة محمد كامل أفندى (٣٨) ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦م، والمقصور والممدود، لابن ولاّد،

---

(٣٦) طبعة دار المعارف بمصر ص ٤٦ بتحقيق الدكتور صلاح الدين الهادى.

(٣٧) محمد بن مصطفى بن رسلان، أبو فراس، بدر الدين، كاتب أديب، يقول الشعر، ولد بحلب سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨١م، وتوفى بها سنة ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣م.

نزل بمصر، وأقام فى الأزهر ثمانى سنين (١٣١٠ هـ - ١٣١٨ هـ) وقام برحلة إلى الهند سنة ١٣١٩ هـ . وبعد عام ونصف عاد إلى مصر، فاشتغل بتصحيح الكتب وتأليف الرسائل، ومن أشهر أعماله: شرحه لشواهد المفصل، وصحح كثيرا من مطبوعات الخانجى، كما ساعده فى تأليف منجم العمران، وهو المستدرك على معجم البلدان، كما صحح شيئا من أعمال المطبعة المنيرية لصاحبها الشيخ محمد منير الدمشقى، الاعلام ٧ / ٢٢٥، وكتابى مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ص ٦١.

(٣٨) هل هو «محمد على كامل» منشىء مطبعة الترقى السابق الحديث عنها؟

على نفقة محمد أمين الخانجي ، وأحمد ناجي الجمالي، وبتصحيح محمد بدر الدين النعساني كذلك ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م.

وقد قلت إن هذه المطبعة قد اكتسبت شهرة عظيمة بما أخرجته من نفائس الكتب، في النصف الأول من هذا القرن العشرين، واللهمَّ نعم، فقد خرج من هذه المطبعة في ذلك الوقت جملة من كتب العربية الكبار، منها: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني - ثمانية أجزاء - ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥م، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي النحوي - ثمانية أجزاء ١٣٢٨ - ١٩١٠م، وطبع على نفقة سلطان المغرب الأقصى مولاي عبدالحفيظ (٣٩) بن السلطان الحسن، ومنها البداية والنهاية لابن كثير - ١٤ مجلدا. ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩م. وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي - ١٤ مجلداً

---

(٣٩) كان فقيها أديبا، ولد بفاس سنة ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣م، تقلبت حياته بين العلم والسياسة، ثم عصفت به السياسة أخيرا، وطوحته بعيدا عن بلده، فمات غريبا، سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧م. ثم حمل إلى المغرب، ودفن في فاس . له منظومات مطبوعة في مصطلح الحديث وعلم الأصول، ثم ألف في الفقه المالكي. الأعلام ٤/٥٠ وانظر شيئا عن اشتغاله بالعلم في فهرس الفهارس للكتّاني ص ٦٠٢، ٧٠٦.

قلت: وقد عرف السلطان عبدالحفيظ بالإنفاق على طبع الكتب، فمن ذلك البحر المحيط المذكور، والروض الأنف شرح السيرة النبوية، للسهيلي، المطبوع بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م.

أيضا ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠م، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصبهانى - ١٠ مجلدات ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م.

وكثير من مطبوعات مطبعة السعادة كان على ذمة محمد أمين الخانجى وشركاه.

مطبعة شرف : صاحبها شرف موسى (٤٠) ، كما جاء فى كتاب نجاة الأرواح فى أحكام النكاح - فقه حنفى - لأحمد بن محمد التميمى الدارى ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠م. ومن مطبوعات هذه المطبعة أيضا: ديوان البهاء زهير ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢م، وشحن العربية ببعض اللغات الأجنبية، للشيخ محمد إسماعيل (٤١) الأنصارى الطهطاوى ١٣٠١ هـ - ١٨٨٣م، وشرح ملحة الإعراب، للحريرى ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤م، وإملاء (٤٢) ما منَّ به الرحمن فى إعراب القرآن للعكبرى ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٥م.

---

(٤٠) معجم المطبوعات العربية ص ٦٤٢.

(٤١) جاء اسمه فى معجم المطبوعات ص ١٦٣٧ «أحمد» وهو خطأ لأنه مخالف لترتيبه، لأن فى هذا الموضع من المعجم تراجم المحمدين، والصواب أيضا فى معجم المؤلفين ٩ / ٥٧، وانظر أيضا معجم المطبوعات ص ١٢٢٤.

(٤٢) هكذا طبع الكتاب وعرف بهذا العنوان فى تلك المطبعة وفى غيرها من المطابع، وصواب العنوان: «التبيان فى إعراب القرآن» كما حققه الأستاذ على محمد البجاوى، رحمه الله فى نشرته التى صدرت عن مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م.

المطبعة الشرفية (٤٣)

وتكتب أحيانا على بعض الكتب: العامرة الشرفية، وقد أسسها حسن شرف. سنة ١٨٧٣(٤٤). ومقرها خان أبى طاقية بحى الخرنفش بمنطقة الجمالية، وقد أخرجت هذه المطبعة كتبا كثيرة منها: غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، لجمال الدين الوطواط ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١م، ولطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ويسمى أيضا: أخبار الأول، وتاريخ الإسحاقى ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢م. والأذكياء - أو أخبار الأذكياء - لابن الجوزى ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٦م، وشرح ديوان المتنبى، المنسوب للعكبرى (٤٥) ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠م، ومحاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر لعلاء الدين على دَدَهْ البسنوى ١٣١١ هـ - ١٨٩٣م، على نفقة محمد عبدالواحد الطوبى، ومجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٦م، بتصحيح حسن

---

(٤٣) بالفاء، وتأتى فى بعض الإحالات «الشرقية» بالقاف، وهو تصحيف، فتنبه.

(٤٤) تاريخ الطباعة ص ٢٠٢، وذكرت عايدة نصير أن صاحبها أحمد شرف، حركة نشر الكتب فى مصر ص ٤٣٦.

(٤٥) طبع هذا الشرح فى أكثر من مطبعة بهذه النسبة إلى العكبرى، وهو خطأ نبه عليه قديما الدكتور مصطفى جواد، رحمه الله.، واستظهر أنه لابن عدلان الموصلى المتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٦ هـ. راجع أمالى ابن الشجرى - قسم الدراسة ص ١٥٩ .

الفيومي إبراهيم، وفي نفس السنة طبع كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، باسم الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق.

مطبعة العاصمة:

مقرها حوش الشرقاوى - منطقة تقع الآن على يسارك وأنت فى ميدان باب الخلق تريد شارع القلعة، ومنشئها محمد مسعود بك الإسكندرى، أديب من كبار المترجمين ومن مشهورى الصحفيين، له مقالات ومترجمات كثيرة، من اشهرها حضارة العرب، لجوستاف لوبون، أصدر جريدة الآداب وممفيس، والنظام.

توفى سنة ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م.(٤٦)

ومن أشهر مطبوعات هذه المطبعة: إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم وإثبات أن الدين أساس المدنية، والكفر فساد العمران، لجمال الدين الأفغانى، بالفارسية، ترجمه الشيخ الإمام محمد عبده بمساعدة عارف أفندى أبى تراب الأفغانى ١٣١٢ هـ -

---

(٤٦) الأعلام ٧ / ٣١٧، وانظر ماياتى عن مطابع الإسكندرية (مطبعة الحلمية).

١٨٩٤م، والتعريف بالمصطلح(٤٧) الشريف لابن فضل الله العمرى ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤م.

مطبعة عبدالرازق :

تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس (صلى الله عليه وسلم) للديار بكرى ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤م. والإعلام بأعلام بيت الله الحرام، لقطب الدين النهروالى(٤٨) ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٥م، والمستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٦م.

مطبعة عبدالغني فكري: وهذه المطبعة من المطابع الاهلية القديمة، ومن أقدم مطبوعاتها تذكرة داود الأنطاكى سنة ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨م وانظر ماسبق عن نشأة المطابع الأهلية، وقد طبع بها ديوان ابن سهل الإسرائيلى، جمع الشيخ حسن بن محمد العطار شيخ الأزهر ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ م، وفى العام نفسه طبع تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق لداود الأنطاكى، وفى سنة ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤م، طبع ديوان ابن النبيه.

---

(٤٧) المراد بالمصطلح الشريف هنا: مصطلح الكتابة الديوانية والقوانين التى تراعى فى المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء، أى دبلوماسية المراسلات بين الرؤساء والملوك، وقد ألفت فى ذلك كتب أطلق عليها اسم : «الدساتير» وبعض الناس يظن أن المراد بالمصطلح هنا: علم مصطلح الحديث الذى يعرف به حال الراوى والمروى من حيث القبول والرد، ومايتبع ذلك من كيفية التحمل والأداء والضبط، وهو علم الحديث دراية.

(٤٨) النهروالى، باللام نسبة إلى قرية من الهند، لا إلى النهروان، كما يصحفه بعض الناس. راجع حواشى الأعلام ٦ / ٧ (طبع دار العلم للملايين).

مطبعة عثمان عبدالرازق :

مختصر خليل، في فقه المالكية ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٦م، وريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، لشهاب الدين الخفاجي(٤٩) ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨م

المطبعة العثمانية :

صاحبها عثمان خليفة، ومقرها حارة سوق الزلط بقسم الأزبكية، ومن أبرز مطبوعاتها النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير، طبعة متقنة مضبوطة بالشكل الكامل . في أربعة أجزاء، وطبع على هامشها الدر النثير تلخيص نهاية ابن الاثير للسيوطي، بتصحيح عبدالعزيز بن إسماعيل الأنصاري الطهطاوي ١٣١١ هـ - ١٨٩٣م.

ومن مطبوعاتها أيضا: شرح مقامات الحريري للشَّريشي ١٣١٤ هـ - ١٨٩٦ م على نفقة محمد عبدالواحد الطوبي، وديوان الأبيوردي ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩م (٥٠).

---

(٤٩) وهكذا طبعت الريحانة بمطبعة عثمان عبد الرازق، وليس بالمطبعة العثمانية، كما ذكر أخي الدكتور عبدالفتاح الحلو رحمه الله، في مقدمة تحقيقه لها ص ١٧. وانظر معجم المطبوعات العربية ص ٨٣١، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٢ / ٢٨٩. وكذلك ذكرت عايدة نصير أن المطبعة العثمانية هي مطبعة عثمان عبدالرازق، وهذه غير تلك. انظر حركة نشر الكتب في مصر ص ٤٣٤.

(٥٠) راجع المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ١ / ٢٢.

المطبعة العلمية:

روح الأرواح ، لابن الجوزى، بالتزام السيد عمر هاشم الكتبى ١٣٠٩ هـ - ١٨٩١م.

وديوان ابن النبيه - شرح ألفاظه عبدالله باشا فكرى - ١٣١٣ هـ - ١٨٩٥م، والبيان والتبيين للجاحظ من سنة ١٣١١ هـ - ١٣١٣هـ - ١٨٩٣ - ١٨٩٥م بعناية حسن الفاكهانى، إلى نهاية الكراسة السابعة من الجزء الأول. وباقى الكتاب بعناية محمد الزهرى الغمراوى،. مصحح المطبعة الميمنية الشهير.

المطبعة العمومية:

انشأها يوسف بن همام أصاف اللبنانى، سنة ١٨٨٨م، وأدارها اسكندر آصاف، ويوسف أصاف هذا كان محاميا شهيرا، وله مؤلفات كثيرة، من أشهرها تاريخ سلاطين آل عثمان الذى طبعه بالمطبعة المذكورة سنة ١٨٩١م.(٥١) وقد أعاد نشره بسام عبدالوهاب الجابى، بدار البصائر بدمشق سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

ومن مطبوعاتها الإعجاز والإيجاز لأبى منصور الثعالبى

---

(٥١) معجم المطبوعات العربية، الصفحة الأولى، والأعلام للزركلى ٩ / ٢٣٧، ٣٢٨ ومقدمة تحقيق تاريخ سلاطين آل عثمان الطبعة المذكورة.

١٣١٥هـ – ١٨٩٧م ، وفضائل الأتراك[٥٢] للجاحظ ١٣١٦ هـ – ١٨٩٨م.

ومن أشهر مطبوعات هذه المطبعة ديوان أبى نواس، بشرح محمود واصف ١٣١٦ هـ – ١٨٩٨م، وقد ظلت هذه النشرة أصح نشرات ديوان أبى نواس حتى ظهرت نشرة جمعية المستشرقين الألمانية.

وذكر خليل صابات أن هذه المطبعة كانت بشارع عبدالعزيز رقم ١٨ أمام سراى على باشا شريف.

مطبعة الفتوح الأدبية :

هى غير المطبعة الأدبية المصرية، السابقة فى موضعها. ومطبعة الفتوح هذه كانت بشارع النبوية بحى الدرب الأحمر، بجوار ضريح الجوينى، ولم يقع لى شىء من مطبوعاتها فى القرن التاسع عشر، لكنها نشرت فى أوائل القرن العشرين كتابين من أصول المكتبة العربية، هما الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ١٣٣٢ هـ – ١٩١٣م، والكتاب الكامل للمبرد ١٣٣٩ هـ – ١٩٢٠م، بتصحيح الشيخ إبراهيم بن محمد الدلجمونى الأزهرى، وسيأتى حديث عنه.

المطبعة الكاسْتَلّيّة :

وهى من المطابع القديمة، وقد أنشئت فى حدود سنة ١٨٤٤ م،

(٥٢) نشره شيخنا عبدالسلام هارون فى رسائل الجاحظ، باسم مناقب الترك.

وكانت تسمى: المطبعة التليانية: وصاحبها الخواجا موسى كاستلى، ولذلك يقال لها أحيانا: الموسوية الكاستلية، كما جاء بآخر مقامات الحريرى، المطبوعة بها سنة ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢م، وهذه الطبعة على نفقة الخواجا يوحنا مسرة.

ويقال لها أيضا: مطبعة كاستلى، كما جاء فى كتاب العرائس فى قصص الأنبياء للثعلبى ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠م.

ومن مطبوعاتها: ديوان الشاب الظريف - وهو ابن العفيف التلمسانى - ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨م، بتصحيح العلامة الشيخ حسين بن أحمد المرصفى، وطبع على نفقة عبدالحميد بك نافع، وفى السنة نفسها طبع كتاب القول الأخص فى استخراج الحصص لشمال مصر المحروسة وما ساواها من البلدان، لمحمد ابن عبدالله بن عبدالواحد الأمير الحسينى.

ومن مطبوعاتها أيضا: سنن أبى داود ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣م وفى السنة نفسها: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس، لمحمد دياب الإتليدى،(٥٣) وحاشية الخضرى على ابن عقيل فى شرح ألفية ابن مالك ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥م، ونشر العلم فى شرح لامية العجم، لجمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمى

---

(٥٣) فرغ من تأليفه سنة ١١٠٠ هـ. معجم المطبوعات العربية ص ٣٦٤. ومعجم المؤلفين ٩ / ٣٠٢ .

١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦م، ومنهاج العابدين لأبى حامد الغزالى ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م، وفرائد القلائد فى مختصر شرح الشواهد(٥٤) لبدر الدين العينى ١٢٩٧هـ - ١٨٧٩م.

وهذه صورة لقائمة مطبوعات تلك المطبعة أصدرتها سنة ١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣م، وقد رأيت نشر صورتها كما هى :

---

(٥٤) شرح شواهد شروح الألفية وهذا هو المعروف بشرح الشواهد الصغرى ، أما شرح الشواهد الكبرى فهو المسمى، المقاصد النحوية فى شرح شواهد الألفية، وقد طبع بهامش خزانة الأدب، طبعة بولاق سنة ١٢٩٩، وقد أشرت إلى ذلك من قبل.

هذه

قائمة الكتب

التي طبعت

بالمطبعة التليانية

المعروفة

بالكاستلية

تعلق

الكفلير موسى كاستلي

بمصر المحروسه ١٢٩٠ سنة هجريه

موافق

سنة ١٨٧٣

مسيحيه

تم

الغرر في الأدب
عقرب الساعات
أطوار سيدنا آدم
الفيض الوارد
فرائد الفوائد
القول الحسن
حاشية الأمير على الشذور
حاشية العطار على الأزهرية
حاشية أبو النجا على الشيخ خالد
حاشية الباجوري على البردة
حاشية بانت سعاد للباجوري
حاشية الباجوري على مولد الدردير
حاشية الدردير على قصة المعراج
حاشية السنوسية
حاشية الدسوقي على الدردير الكبير
حاشية البقري على السبط
حاشية الشيخ عليش على البرزنجي
حاشية الصفتي على ابن تركي
حاشية النجاعي على القطر

حاشية السلم
شرح القطر
القصيده العينيه
شرح الحكم للشرقاوي
العزيزي على الجامع الصغير
شرح الفشني على الأربعين
شرح الكفراوي على متن الاجروميه
حصن القدس
روض الرياحين
صلوات البخاري
هجايه لتعليم الاطفال
حاشية الجمل على الهمزيه
حاشية الباجوري على الجوهره
حاشية الكفراوي
حاشية العقباوي
حاشية الامير على ابن تركي
حاشية الامير على السمرقنديه
حاشية الخضري على الفية ابن مالك
حاشية الدمنهوري على القطر



بسم الله الرحمن الرحيم

كشف الغمه عن جميع الامة حديث
تعطير الانام في تفسير المنام للنابلسي
حسن المحاضره في اخبار مصر القاهره
رسالة الصبان في فضل اهل البيت
الكبريت الاحمر
سنن المصطفى لابي داود
مشتهى العقول في منتهى النقول
ايضاح الجواب
تفسير الجلالين
سحر العيون
انشا العطار

انشا مرعي
قصص الانبيا
روضة العزبان
خريدة العجائب
حاشية الباجوري على ابن قاسم
حاشية البرماوي على ابن قاسم
الشفا للقاضي عياض حديث
متن الشمائل
وقاية الابرار
مشارق الانوار
الفتاوي الهنديه
الفتاوي الخيرية
صلوات الدردير
فضائل رمضان
الانوار القدسيه
كتاب العهود للشعراني
درة الغواص في غلطات الخواص
تسليك الدواب الى طريق الصواب
البخاري الشريف

حاشية السمرقنديه للباجوري
الطريقه المحمديه
شرح لامية العجم
شرح ابن عقيل
شرح ديوان ابن الفارض
شرح القصيده الزينبيه
شرح ابن قاسم
شرح ابن تركي
القول النفيس في تفليس ابليس
ابن سيرين
مسائل سيدي عبد الله بن سلام
الجواهر والدرر
اليواقيت والجواهر
احياء العلوم للغزالي
الاتقان في علوم القرآن
منح المنه بالتلبس بالسنه
قصة خضره الشريفه
قصة سعد اليتيم
مدينة النحاس

قصة زهير بن حباب
قصة معاذ بن جبل ووفاة النبي
قصة المعراج
قصة الزبير
قصة فضلون العابد
قصة القط والفار
ديوان ابن معتوق
ديوان الشاب الظريف
ديوان ابن الفارض
ديوان المتنبي
ديوان ابن نباتة خطب
ديوان سيدى عبد الرحيم البرعي
دلائل الخيرات بالشرح على هامشها
دلائل بالحزب الاعظم
دلائل مجرده
انوار البصائر
الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان
النفحات النبويه
درة الغواص في فتاوى الخواص

الميزان الكبير للشعراني
الميزان الخضري
قصة انس الوجود
قصة مسرور التاجر
فتوح البهنسا
قصة دليلة المحتاله
قصة تودد الجاريه
فتوح مدينة خيبر
قصة الحجاج الثقفي
قصة القاضي مع الحرامي
قصة قمر الزمان
ديوان البهاء زهير
ديوان محمود افندي الساعاتي
ديوان النحاس خطب
ديوان البولاقي خطب
قرعة الطيور
قرعة سيدي محيي الدين بن العربي
الطب الشعراني
مجموع السبع عهود

مجموع الجلجلوتيه الكبرى
مجموع البراهين
مجموع المتون
مجموع الشاطبيه
الدور الاعلى
صلوات سيدى احمد البدوى
اسماء اهل بدر
الشجرة النبويه
المستطرف
البدر المنير
مناسك الحج
عنوان البيان
مقامات الحريرى
مقامات السيوطى
الظرايف واللطايف
ترجمان تركى وعربى
ترجمان صفوت
متن الاجروميه
متن العشماويه

متن السنوسية
متن الالفية
قوانين التجارة
نزهة الارواح
نزهة المجالس
ترجيح البيان
حلل الاحسان
ابو معشر الفلكى
مجربات الديربى
مجموع الاوراد
مجموع المزدوجات
منهاج العابدين
دعاء سيدنا عكاشه
حرز الاندرون
حرز الغاسله
ورد سحر
مقدمة ابن خلدون تركى
نسيم الاسحار
شباك فى الفرايض

عدة الامرا والحكام
لوعة الشاكى ودمعة الباكى
اعلام الناس
تاريخ امريكاه
التبر المسبوك فى نصيحة الملوك
القاموس العربى
متن ابو شجاع
متن الجوهره
بسط الطريق
متن الاربعين حديث
متن الباجورى
النووى على مسلم
الزرقانى على الموطا
مناقب السيد البدوى
الاسعاف فى احكام الاوقاف
شيخ الاسلام فى الوقف والابتدا
علم حال تركى
مناجات سيدنا موسى وغرق فرعون
ترغيب المشتاق

بدائع الزهور
مجربات الديربي وبهامشها مجربات السنوسي
فرس العقيلي
ولادة سيف اليزن
تنبيه الغافلين
تاج العروس
تحفة اولى الالباب
تحفة السائل
تحفة الاخوان
مولد البخاري
مولد المدني
مولد البرزنجي
مولد العزب
نوادر القليوبي
نوادر جحا
نوادر ابو نواس
الدر المنظوم
حرز الاماني
اليتيمه الفاخره

قلائد العقبان
فرائد الفوائد
غاية الشهوات
خير البشر
نخبة المقاصد
الخطيب الشربيني فقه
كتاب الحرف للحكيم هرمس
توسل الرجال المسمى بحبل الوصال
شموس الانوار
بغية الطالب في معرفة الضمير للمطلوب والطالب
الجلجلوتيه والصلوات الكبرى
وصية النبي للامام علي
التحفة المرضيه
تحفة المنان في فضائل شهر شعبان
تحفه تركى
تحفة الحسنيه
فتوح الشام
فتوح مكة المشرفه
فتوح مصر للاموى

فتوح اليمن
نور اللمعه فى خصائص الجمعه
نور العين فى مشهد الحسين
سفينة الشيخ شهاب
الشماس قبطى وعربى
كتاب بولس
الف نادره ونادره
البرده وخواصها على الهامش
رحلة ابو زيد الهلالى
مجربات السنوسى
مطلع البدرين
مسائل الراغبين
حياة الحيوان الكبرى
ريادة ابو زيد الهلالى
طبقات الشرنوبى
الشيخ خالد
صلوات جليله
سهام الاصابه
شرح الكنز للطائى

صلوات الدردير
المنح السنيه
الاخبار القدسيّه
هداية المبتديات
الدلالات
اختلاج الاعضا
الدره الفاخره
العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ
الكنز الثمين
مسك سلس
الوردة البيضا
ديوان جعفر الصادق
ديوان الملوانى
تمرين المبتدئين
رموز اوقاف القرآن
نوادر ابو النواس
فتاوى الحامديه

عن بيان الاسنب الجاري فيها الطبع

الفتاوى الحامدية
جامع الفصولين
مستطرف
دلائل
متن المنهج
سيرة البدر نار
سيرة سيف اليزن
ذو الهمة
القواعد الكشفية
قصة سيدنا يوسف
ترجمان تركي وعربي
حاشية ابن عابدين على الدر المختار
السنوسي وابن الحكيم طحطاح
حاشية الدسوقي على السعد
مجموع الاوراد ودلائل الخيرات
شرح الجامع الصغير
الديار بكري

مطبعة كردستان العلمية :

أنشأها فرج الله زكي الكردى ، بدرب المسمط بحي الجمالية ، بالقرب من بيت القاضي ، نحو سنة ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨ م ، لكنه بدأ نشاطه في النشر قبل ذلك ، فقد أنفق بالاشتراك على طبع شروح التلخيص في البلاغة بمطبعة بولاق سنة ١٣١٧ هـ - كما أشرت إلى ذلك من قبل - ولما كانت سنة ١٣١٧ هـ تقابل سنة ١٨٩٩م وقد مرَّ بك هذا كثيرا - فإن هذا الكتبي يكون قد بدأ نشاطه فى آخر القرن الماضى - موضوع كتابنا هذا .

وهذا فرج الله زكي الكردى كان يصف نفسه فى أوائل بعض مطبوعاته بهذه الصفات : «وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالية الإسلامية ، من طلبة العلم بالأزهر الشريف» وهو أحد أركان البهائية بمصر . ولد فى بلاد الأكراد جهة جبال العراق الشمالية ، ونشأ بها ، ثم هاجر إلى مصر ، وأقام بالقاهرة ، والتحق بالأزهر الشريف ، لكنه طرد منه بعد سنوات ، بسبب اعتناقه مذهب البهائية . ومن الكتب التى ألفها وطبعها لترويج مذهبه كتاب سماه «بشرى العالم بترك المحاربات واتفاق الأمم» يتضمن البشارات الإلهية والبراهين العقلية بقرب حصول السلام بين الأنام . طبع هذا الكتاب سنة ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م.

ويقول يوسف إليان سركيس ، تعليقا على مضمون ذلك الكتاب: لم يمض زمن طويل من ظهور هذا الكتاب حتى شبت

الحرب الكونية (العالمية) فأخطأ المؤلف مرماه ، ولا يعرف الغيب إلا المولى سبحانه وتعالى ، وكان المؤلف زعم أن انتشار البابية (وهى أصل البهائية) فى الكون سيئول إلى اتفاق الأمم(٥٥).

ومهما يكن من أمر ، فقد اشتغل هذا الرجل - فرج الله زكى الكردى - بتجارة الكتب ، ونشر المخطوطات العربية ، وكانت له مكتبة بالصنادقية بالأزهر ، وأخرى بحوش عطا بالجمالية ، لبيع الكتب والاتجار بها . وقد توفى سنة ١٣٢٩ هـ = ١٩٤٠ م تقريبا(٥٦) .

وقد نشر بمطبعته هذه طائفة من كتب التراث ، على منهج علمى مقارب ، منها : كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م ، بتصحيح علامة العراق محمود شكرى الآلوسى ، صاحب بلوغ الأرب فى أحوال العرب ، والضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر. ومن مطبوعات كردستان أيضا : الدرر اللوامع(٥٧) على همع الهوامع للسيوطى ، تأليف أحمد بن الأمين الشنقيطى ، على نفقة أحمد ناجى الجمالى ، ومحمد أمين

---

(٥٥) معجم المطبوعات العربية ص ١٥٥٤

(٥٦) الأخبار التاريخية فى السيرة الزكية ، لزكى محمد مجاهد ص ١٢٣

(٥٧) هكذا كتب على صدر عنوان الكتاب أنه طبع بمطبعة كردستان العلمية ، لكن كتب فى الصفحة الأخيرة ص ٢٤٢ «وكان تمام طبعه بالمطبعة الجمالية الكائنة بحارة الروم فى مصر المحمية ختام سنة ١٣٢٨ هـ» فلعل

الخانجي ، سنة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ، وفتاوى ابن تيمية ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م.

المطبعة المحروسة :

انظر ما يأتي من حديث الصحف والمجلات التي كانت تنشر كتبا .

مطبعة محمد شاهين(٥٨) :

نشرت هذه المطبعة كثيرا من الكتب ، منها : مجموعة لأبي حامد الغزالي ، منها الأدب في الدين ، وبداية الهداية ١٢٧٧ هـ = ١٨٦٠ م ، ومغازي الواقدي ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م ، وفي العام نفسه : المشرب الوردي في حقيقة المهدي ، لملاّ على القاري ،

الملازم الأخيرة من الكتاب هي التي طبعت بمطبعة الجمالية .. ومطبعة الجمالية هذه من المطابع المصرية التي كان لها شأن في مطالع القرن العشرين ، ومقرها عطفة التترى بحارة الروم ، بحي الغورية ، وقد أنشأها الكتبي العظيم محمد أمين الخانجي ، وابن خاله أحمد ناجي الجمالي وأحمد عارف . ومن أشهر مطبوعاتها :: الروض الأنف ، للسهيلي وسبقت الإشارة إليه وهي أصح طبعاته، وكتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، للأدفوي ، وسبق أيضا، وكتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول ، لابن الديبع الشيباني ١٣٣٠ هـ = ١٩١١ م بتصحيح الشيخ محمد هارون والد شيخنا عبدالسلام هارون رحمه الله .

(٥٨) كان محمد شاهين هذا طابعا بالمقاولة في مطبعة بولاق . ولما ضعفت مطبعة بولاق بعد وفاة محمد على فكر هذا في إنشاء مطبعة تحمل اسمه . راجع حركة نشر الكتب في مصر ص ٤٣٥ .

وإنسان العيون في سيرة الأمين(٥٩) المأمون ، لعلى بن برهان الدين الحلبى ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٣ م ويعرف أيضا بالسيرة الحلبية، وطبقات الشيخ أحمد الشرنوبى ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ م وشرح ديوان امرىء القيس ، لأبى بكر البطليوسى ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م.

مطبعة محمد مصطفى(٦٠) :

نشرت هذه المطبعة كتبا ذوات عدد ، منها : صحيح البخارى ، وبهامشه حاشية نور الدين محمد بن عبدالهادى السِّندى ، وتقريرات من شرحى القسطلانى ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ١٢٩٩ هـ = ١٨٨١م والمستطرف من كل فن مستظرف

---

(٥٩) الأمين المأمون : هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ويأتى فى بعض الكتب «الأمين والمأمون» بإقحام الواو ظناً أن المراد الخليفتان العباسيان وهو خطأ . والكتاب فى السيرة النبوية وقد سماه المحبى فى خلاصة الأثر ١٢٣/٣ ، تسمية تخرجه من هذا الإشكال . قال «وألف المؤلفات البديعة ، منها السيرة النبوية التى سماها : إنسان العيون فى سيرة النبى المأمون» .

(٦٠) ذكرت عايدة نصير أن هذه المطبعة أسست فى أوائل الستينات . حركة نشر الكتب فى مصر ص ٤٣٥ .

ومعكوس هذا الاسم يذكر برجل كان له باع طويل فى نشر الكتب : تأليفا وتحقيقاً، وهو محمد مصطفى ، صاحب المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي من ناحية العتبة ، أمام سوق الخضار - هكذا كانت - ورأيتها وأنا صبى، ولكن منشورات هذا الرجل النشيط كانت فى القرن العشرين وكثير من كتب الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد النحوى الكبير كانت على نفقة هذا الرجل ، وباسم مكتبته .

للأبشيهي ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م ، وعرائس المجالس في قصص الأنبياء، للثعلبي ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م ، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي ، تأليف الفيومي ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤م، والتصريح بمضمون التوضيح ، للشيخ خالد الأزهري ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧ م ، والفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية ، للترمذي، تأليف محمد بن قاسم جسوس ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م ، وإنسان العيون - السابق في مطبعة محمد شاهين ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م ، وتاريخ الدولة العلية العثمانية(٦١) لمحمد بك فريد ، رئيس الحزب الوطني المصرى ١٣١١ هـ = ١٨٩٣ م ، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للعباسي ، وبهامشه بدائع البدائه ، لعلي بن ظافر الأزدى ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م .

مطبعة محمود الملطيلي(٦٢) :

مطبعة حجر ، من مطبوعاتها : مقطعات الأبيوردى ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م .

---

(٦١) كتب عنه الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى كلمة بالجزء الأول من موسوعة عصر التنوير الذى أصدرته دار الهلال ١٩٩٢م.

(٦٢) راجع قائمة بأوائل المطبوعات العربية ص ٢٢٠ ، وانظر مقدمة تحقيق ديوان الأبيوردى ص ٣٢ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق وسمتها عايدة نصير «مطبعة ملاطية لي محمود» راجع حركة نشر الكتب في مصر ص ٤٣٥ .

المطبعة المحمودية :

شرح ملاّ مسكين على كنز الدقائق(٦٣) - فى فقه الحنفية - ١٣١٢ هـ = ١٨٩٤ م ، ورسالة إمام أهل المدينة (مالك بن أنس) إلى هارون الرشيد ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م .

مطبعة المدارس الملكية :

أو المدارس الحكومية ، ومقرها درب الجماميز (شارع بورسعيد الآن) . ومن أشهر مطبوعاتها : الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية ، للشيخ حسين بن أحمد المرصفى ١٢٨٩ هـ - ١٢٩٢ هـ = ١٨٧٢ م - ١٨٧٥ م والنهجة(٦٤) المرضية فى شرح

---

(٦٣) راجع كشف الظنون ص ١٥١٥ .

(٦٤) هكذا بالنون - وهو الصواب - ويقال طرق نهجة : أى واضحة ، وقد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة ، كلها «البهجة» بالباء ، وهو تصحيف ، وكذلك جاء بالباء مصحفاً فى كشف الظنون ص ١٥٢ ، ٢٥٩ وفى هذا الموضع الثانى إشارة إلى «النهجة» . وكذلك جاء مصحفاً بالباء فى ترجمة السيوطى لنفسه فى حسن المحاضرة ٣٤٣/١ ، وفهرست الكتب النحوية المطبوعة ، للدكتور عبدالهادى الفضلى ص ٥١ ، والمعجم الشامل ٢٨٩/٣ . وجاء فى حواشى معجم المطبوعات ص ١٠٧٦ : «كتب أحمد باشا تيمور فى فهرست خزانته مايأتى : الظاهر أن صواب الاسم «النهجة المرضية» بالنون ، لا بالباء ، ولكن فى حسن المحاضرة للسيوطى ، وفى عقود الجوهر لجميل بك العظم كتب «البهجة» بالباء لا بالنون» .. قلت أنا محمود الطناحى، وللسيوطى أيضا : النهجة السوية فى الأسماء النبوية ، مذكور فى كشف الظنون ص ١٩٩٣ .

الألفية ـ ألفية ابن مالك ـ للسيوطي ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤ م ونفحة الآداب علي ملحة الإعراب ، للحريرى ، تأليف الشيخ حسين والى ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦ م .

مطبعة مصطفى شاهين :

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، للقسطلانى ، شهاب الدين أحمد بن محمد ، شارح البخارى ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ م .

مطبعة المنار :

مقرها درب الجماميز (شارع بورسعيد الآن) ، وهى اسم مجلة ، أنشأها العالم المصلح الكبير الشيخ محمد رشيد رضا ، سنة ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م ، أى فى آخر القرن التاسع عشر ، وقد نشر بمطبعتها كثيرا من كتبه هو ، وكتب غيره ، من أهل العلم قديماً وحديثاً، وجل مطبوعات هذه المطبعة فى النصف الأول من القرن العشرين .

ومن أشهر ما أذاعه الشيخ رشيد رضا : المغنى ، لابن قدامة (١٢ مجلدا) ، ثم وقف على طبع هذه الكتب : تفسير ابن كثير ، والبغوى ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، كلاهما للشيخ عبدالقاهر الجرجانى ، وشرح عقيدة السفارينى ، لابن قدامة ، وقد طبع الشيخ حسين والى كتابه الشهير فى الإملاء بهذه المطبعة ، سنة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م .

مطبعة الموسوعات :

مقرها باب الخلق ، وقد أنشأها إسماعيل حافظ ، الخبير بالمحاكم الأهلية . ومن مطبوعاتها: الفخرى فى الآداب السلطانية لابن الطقطقى ١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م ، لحساب شركة طبع الكتب العربية ، وقد سبق حديثها ، وتاريخ دولة آل سلجوق ، للعماد الأصبهانى الكاتب ، اختصار الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م ، وفى نفس السنة طبع إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، لمحمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى ، والإنصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الخلاف بين المسلمين فى آرائهم ، لابن السيد البطليوسى ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م ، والحماسة السنية الكاملة المزية فى الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية ، للعلامة محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م ، ومختصر جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر. والمختصر هو : أحمد بن عمر المحمصانى البيروتى الأزهرى ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م ، وفتوح البلدان ، للبلاذرى ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م لحساب شركة طبع الكتب العربية ، وسبق حديثها، وتشنيف السمع بانسكاب الدمع ، لصلاح الدين الصفدى ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م ، وفى السنة نفسها طبع الفتح(٦٥) القسى فى الفتح القدسى ، للعماد الأصفهانى الكاتب . على ذمة مصطفى فهمى الكتبى بجوار الأزهر .

---

(٦٥) هكذا جاء العنوان «الفتح» بالتاء، والصواب «الفيح» بالياء، ومعناه السَّعة والانتشار. راجع مقالة للدكتور صلاح الدين المنجد بمجلة معهد المخطوطات. المجلد الثانى ص ٨٥، ٨٦ .

مطبعة الهلال (٦٦) :

بالفجالة . أسسها إبراهيم زيدان - من أبناء عمومة جورجي زيدان - سنة ١٨٩٤ م . ومن مطبوعاتها : نظام التعليم ، لبطرس حنا ، المدرس بالمدارس الأميرية ، ومحرر جريدة الراوى ١٣١٤ هـ = ١٨٩٦ م ، وإلياذة هوميروس ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م ، وطبع إبراهيم زيدان هذا على نفقته : الفخرى فى الآداب السلطانية ، لابن الطقطقى بمطبعة الرحمانية ١٣٤٠ هـ = ١٩٢١ م .

مطبعة هندية :

صاحبها أمين هندية ، ومقرها الموسكى، ومن مطبوعاتها : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، للشهاب محمود ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧م، وأسباب نزول القرآن الكريم للواحدى ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م ، وكثر إنتاجها فى القرن العشرين ، ومن ذلك رسالة الغفران ، لأبي العلاء المعرى ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م . صحح سبع عشرة ملزمة منه الشيخ إبراهيم اليازجى ، ثم توفى . وديوان البحترى ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م ، بتصحيح الشيخ عبدالرحمن البرقوقى ..

---

(٦٦) لازالت موجودة إلى الآن . ومررت عليها في شهر أغسطس من هذا العام ١٩٩٥ م . فقابلني زوج ابنته ، فسألته : هل عندك علم بمطبوعات صهرك القديمة ؟ فأجاب بالنفى ، فقلت له : هل لدى السيدة زوجتك شيء من مطبوعات أبيها القديمة ؟ فأكد لى أنها لا تعرف شيئا عن ذلك البتة .

وسيأتى حديث آخر عن مطبعة هندية ، فى الفقرة الرابعة من الملاحظات حول تقييم أعمال المطابع الأهلية .

مطبعة والدة عباس الأول :

الذى عرفته من مطبوعاتها يبدأ فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، ولعل شيئاً مطبوعاً سبق لم أعرفه .. فمن ذلك : تهذيب الأخلاق ، لابن مسكويه ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م ، وديوان مسلم بن الوليد (صريع الغوانى) ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م ، وبلاغات النساء ، لابن طيفور ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م

فهذا ماكان من أمر أشهر المطابع الأهلية المصرية فى القرن التاسع عشر، وكل ماسبق إنما كان فى مدينة القاهرة ، وهى عاصمة الديار ، وفى كتاب الدكتورة عايدة نصير «حركة نشر الكتب فى مصر» معلومات أخرى جيدة عن نشاط المطابع الأهلية، فانظره ص ٤٣٤ – ٤٤٣

وقد قامت بعض المطابع فى العاصمة الثانية الأسكندرية ، وقد كانت الأسكندرية ـ كما علمنا ـ أول من شهد المطبعة ، لأن نابليون إنما أدار مطبعته هذه أول مرة فى عرض البحر على شواطئها، ومن أشهر مطابع الأسكندرية فى ذلك القرن :

مطبعة الأهرام :

ومن مطبوعاتها : ديوان أبى الحسن التهامى ١٣١١ هـ =

١٨٩٣ م ، وفى السنة نفسها أصدرت المطبعة نبذة من ديوان سليم بك تقلا، وهذه المطبعة هى مطبعة الجريدة - جريدة الأهرام الشهيرة التى أسسها سليم تقلا بالأسكندرية سنة ١٨٧٥ م ، وسأتحدث قريبا عن مطابع الجرائد والمجلات التى باشرت بجانب صحفها ومجلاتها نشر الكتب.

المطبعة التجارية :

المنتحل ، لأبى منصور الثعالبى . تصحيح الشيخ أحمد أبو على الأزهرى ، أمين مكتبة البلدية بالأسكندرية ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣م .

مطبعة الحلمية :

المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الأسكندرية . لمحمد أفندى مسعود ، المحرر الفنى بنظارة الداخلية ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م وانظر ما سبق عن : مطبعة العاصمة .

المطبعة الخديوية :

دعوة الأطباء ، لابن بُطلان ، ومعه تكملة الحديث فى الطب القديم والحديث ، للدكتور بشارة زلزل[٦٧] ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م.

---

(٦٧) بشارة بن جبرائيل زلزل ، طبيب باحث ، من أهل لبنان ، تعلم فى الكلية الأمريكية ببيروت ، له تآليف طبية مطبوعة ، وتآليف لازالت مخطوطة بمكتبة البلدية بالأسكندرية، وكانت وفاته بالأسكندرية سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م . الأعلام ٢/٥٢ (طبعة دار العلم للملايين) ، ومعجم المطبوعات العربية ص ٤٨ ، ٩٧٢ .

مطبعة شركة المكارم :

حسن الوفا لإخوان الصفا ، وهو فهرس أو ثبت للمحدث فالح ابن عبد الله الظاهرى المدنى(٦٨) ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٥ م .

مطبعة معوض(٦٩) فريد :

المدخل(٧٠) ، لابن الحاج الفاسى ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤ م .

المطبعة الوطنية :

سبيل الرشاد إلى نفع العباد ، للدمنهورى ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١م ، تصحيح رمضان حلاوة ، ونسيم الصبا ، لابن حبيب الدمشقى الحلبى . تصحيح محمود العلاف ، على نفقة معوض

---

(٦٨) توفى بالمدينة النبوية سنة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ، وهو من شيوخ عبدالحى الكتانى ، وقد ترجمه ترجمة حافلة فى فهرس الفهارس ص ٨٩٥ ـ ٨٩٨ ، وسماه الزركلى فى الأعلام ٢١٧/٧ : محمد فالح .

(٦٩) هكذا يذكر سركيس فى معجم المطبوعات ص ٧١ مطبعة باسم «معوض فريد» طبع فيها كتاب المدخل، وأظن أن معوض فريد هذا ليس صاحب مطبعة، وإنما طبع الكتاب على نفقته فقط ، فقد كانت له مشاركات فى ذلك ، كما ترى فى الكتاب التالى ، وكما سترى فى جريدة البرهان الآتية .

(٧٠) سماه صاحب كشف الظنون ص ١٦٤٣ «مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة» ، وكذلك جاء فى معجم المطبوعات ص ٧١ ، لكن المؤلف نفسه يقول فى مقدمة كتابه «وسميته بمقتضى وضعه كتاب المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التى انتحلت وبيان شناعتها وقبحها» .

فريد ، وعبدالفتاح الفقى ١٢٨٩ هـ = ١٨٧٢م، وسراج الملوك ، للطرطوشى ، تصحيح رمضان حلاوة ، على نفقة أنطون غندور ١٢٨٩ هـ = ١٨٧٢ م ، والطبعة الثانية ١٢٩٩ هـ = ١٨٨١ م ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، الصفدى ، وبهامشه سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ١٢٩٠ هـ = ١٨٧٣ م ، والمدخل ، لابن الحاج ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦ م ، وفى نفس السنة نزهة الأبصار والأسماع فى أخبار ذوات القناع ، لبدر الدين الدمامينى(٧١) النحوى .

---

(٧١) هكذا نسب الكتاب إلى الدمامينى فى المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ٢/٢٤٣ ، ولم أجد أحداً من الذين ترجموا للدمامينى ذكروا له هذا الكتاب ، ولم يذكر صاحب كشف الظنون هذا الكتاب أصلاً ، لكن إسماعيل باشا البغدادى ذكره فى الذيل على كشف الظنون ٢/٦٣٤ ولم ينسبه للدمامينى ، لكنه قال «قيل لبدر الدين الصديقى» قلت : ولم أعرف نور الدين الصديقى الآن .

ويبقى أمران ، الأول أن يوسف إليان سركيس ذكر هذا الكتاب فى آخر معجم المطبوعات ص ٢٠٢٣ ، تحت عنوان : الكتب المطبوعة المجهول أسماء مؤلفيها .

والثانى : أن الكتاب فى تراجم النساء ـ كما يظهر من عنوانه ـ ومع ذلك لم تذكره زينب فواز العاملى فى مراجعها لكتابها الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ! والأمر بعد ذلك يحتاج إلى تحقيق.

مطبعة ينى لاجوداكس :

كشف الأسرار عما خفى عن الأفكار ، لشهاب الدين أحمد بن عماد الأقفهسى . تصحيح الشيخ أحمد أبو على الأزهرى ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م .

وبعد : فهذه أشهر وأبرز المطابع الأهلية بمصر - القاهرة والأسكندرية - فى القرن التاسع عشر .

وقد لاحظ القارىء الكريم أننا تسامحنا أحيانا فى بضع سنوات قليلة من بداية القرن العشرين لنُدخل بعض المطابع التى عرفنا مطبوعاتها فى العشر سنوات الأولى من ذلك القرن ، وكان تقديرنا أن مثل هذه المطابع ، فى أغلب الظن ، قد بدأت نشاطها فى أواخر القرن التاسع عشر ، والشأن قريب إن شاء الله .

وهذه بعض النظرات التحليلية والملاحظات حول نشاط تلك المطابع الأهلية ، وسماتها :

أولا : ساهمت دور الصحافة مساهمة ظاهرة فى طبع الكتب وإذاعتها ، فكثير من مطابع الجرائد والمجلات كانت تحرص بين الحين والحين على أن تجعل من نشاطها نصيبا مفروضا لطبع الكتب ، لكن ذلك لم يكن فى غالب الأمر إلا فى حدود الرسائل الصغيرة أو الكتب الصغار .

وليس يخفى مكان هذه المجلات والصحف على الخريطة

الثقافية : المقتطف والمؤيد والهلال واللواء والمنار . وقد سبقت الإشارة إلى مطبعة الأهرام بالأسكندرية ، والأهرام من أقدم الصحف العربية .

وهذه إشارة ـ من باب الانتقاء وليس الحصر ـ لبعض الصحف والمجلات التى ساهمت فى نشر الكتب ، مع ذكر أبرز مطبوعاتها: (٧٢)

الآداب : وهى مجلة أسبوعية ، أنشأها الشيخ على يوسف(٧٣) سنة ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٥ م ،

---

(٧٢) انظر نشاط مطابع الصحف فى نشر الكتب ، فى حركة نشر الكتب فى مصر ، لعايدة نصير ص ٤٣١ .

(٧٣) هو : على بن أحمد بن يوسف البلصفورى ، نسبة إلى بلصفورة التابعة لمركز سوهاج ، بصعيد مصر ولد سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٨١ م ، وتوفى بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م . تعلم فى الأزهر . ويعد مؤسس الصحافة الإسلامية العصرية بمصر ، يقول يوسف سركيس : أنشأ أولا مجلة الآداب سنة ١٨٨٥ م ، بالاشتراك مع الشيخ أحمد ماضى ، واتفق ظهور جريدة المقطم سنة ١٨٨٩ م ، وخطتها احتلالية ، فأحس أدباء المصريين بحاجتهم إلى جريدة تمهد السبيل إلى إنقاذ مصر من الاحتلال ، فوقع اختيارهم على محررى الآداب ، فأصدرا المؤيد ، فنصرها الوطنيون ماديا وأدبيا .. وبعد قليل توفى الشيخ أحمد ماضى ، واستقل الشيخ على بالمؤيد ، وثبت فى تأييده ، وبذل فى ذلك ما لايقدر عليه رجل واحد ، حتى بلغ ما بلغ إليه من الشهرة والنفوذ وسعة الانتشار فى العالم الإسلامى ، وخطته الدفاع عن المسلمين وحقوقهم حيث ما كانوا .. معجم المطبوعات العربية ص ١٣٧١ ، وانظر الأعلام ٥/٦٧ .

عاشت ثلاث سنوات ، ثم أصدر جريدة المؤيد ، يومية ، سنة ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م ، فصارت مطبوعات هذه المطبعة تنسب إلى الآداب مرة ، وإلى المؤيد مرة أخرى، وهذا هو الأعَمّ الأغلب .

ومن مطبوعاتها : الإيجاز في دراية الإعجاز ، لفخر الدين الرازى ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، وفى نفس العام أصدرت : التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، لأبى حامد الغزالى ، ومصر والاحتلال الإنجليزى ، للزعيم مصطفى باشا كامل ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م ، والمسألة الشرقية ، له أيضا ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م .

ومما طبع منسوبا إلى مطبعة المؤيد فقط : الحسبة فى الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠م ، وله أيضا : رسالة إلي السلطان الملك الناصر فى شأن التتار ١٣١٩هـ = ١٩٠١م ، والإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديئها ، وغشوش المدلسين فيها ، لأبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م.

وقد ظلت مطبعة المؤيد شَطرا كبيرا من القرن العشرين تنشر الكتب، وممن نشر بها كتبا الكاتب الإسلامى الكبير محب الدين الخطيب المتوفى سنة ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م ، وكان قد عمل بها محررا ، سنة ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م ، قبل أن ينشئ مطبعته الشهيرة السلفية .

الأعلام : وهى جريدة يومية ثم أسبوعية ، أنشأها محمد (بيرم الخامس) بن مصطفى ، وهو عالم رحالة مؤرخ ، من علماء تونس ، هجرها حين استولى عليها الفرنسيون سنة ١٢٩٨هـ ، وتوجه إلي الآستانة ، ثم انتقل إلى مصر سنة ١٣٠٢ هـ ، وأنشأ هذه الجريدة (٧٤)، ثم طبع فى مطبعتها كتبا ، منها : النجم من كلام سيد العرب والعجم ، لأبى العباس أحمد بن مَعَدّ(٧٥) بن عيسى التجيبى الأندلسى الأقليشى ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ، والمضنون به على أهله ، والمضنون به على غير أهله ، كلاهما لأبى حامد الغزالى ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م ، وفى نفس العام طبعت من كتب الغزالى أيضا : المنقذ من الضلال . وشرح التنوير على سقط الزند لأبى العلاء المعرى ، تأليف أبى يعقوب يوسف بن طاهر الخويى ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م (٧٦) ، والبيان فى التمدن وأسباب العمران ، لرفيق بك العظم ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م . وفى سنة

---

(٧٤) الأعلام ٣٢٢/٧

(٧٥) يتصحف فى بعض الكتب «محمد» .

(٧٦) ذكر ناشرو شروح سقط الزند فى المقدمة ص (ز) أن «شرح التنوير» هذا طبع فى المطبعة الإعلامية سنة ١٣٠٤ هـ ، ثم ذكروا فى الهامش أن اسم المطبعة ورد خطأ في معجم المطبوعات برسم «الأعلام».

قلت : ولم أعرف المطبعة الإعلامية هذه ، ولم أر شيئا من مطبوعاتها ، أما مطبعة الأعلام فهى معروفة ، ومطبوعاتها كثيرة . وراجع ما سبق عن نشاط جمعية المعارف ، فقد كان من مطبوعاتها «شرح التنوير» هذا .

١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م أصدرت هذه المطبعة مجموعة من تأليف آل بيرم التونسيين ، من علماء القرن الثالث عشر الهجرى (٧٧) .

البرهان : جريدة بالأسكندرية ، نشر بمطبعتها معوض محمد فريد (٧٨)، على نفقته كتاب لسان الحكام فى تعريف الأحكام ، لابن الشِّحنة ، بتصحيح رمضان حلاوة ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م .

الجامعة : وهى مجلة بالأسكندرية ، من مطبوعاتها : المجلد الأول من كتاب تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والإنسان وتفاوت الأمم فى المدينة والعمران ، للدكتور الطبيب بشارة زلزل (٧٩) ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م.

الجريدة : صحيفة كان يحررها أحمد لطفى السيد باشا - رئيس مجمع اللغة زمنا طويلا ، والملقب أستاذ الجيل (٨٠) ، طبع فيها ديوان محمود سامى باشا البارودى ١٣٢٧ - ١٣٢٩هـ =

---

(٧٧) انظر هذه المجموعة من مطبوعات آل بيرم فى معجم المطبوعات ص ٦١٢ ، ٦١٣ .

(٧٨) راجع الحديث عن مطابع الأسكندرية .

(٧٩) راجع ما سبق من الحديث عن المطبعة الخديوية ، من مطابع الأسكندرية .

(٨٠) توفى سنة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م . المجمعيون فى خمسين عاما ص ٦٠، والأعلام ١/ ٢٠٠ (طبع دار العلم للملايين) .

١٩٠٩ - ١٩١١م ، ثم طبعت فيها أيضا مختاراته في نفس الوقت.

جريدة مصر : طبع بها منتخب كتاب بهجة المَجالس وأنس المُجالس ، لابن عبدالبر ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م ، وقد طبع «بهجة المجالس» نفسه بالدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م ، ولم يشر محققه رحمه الله ، إلي ذلك المنتخب ، كأنه لم يره .

الظاهر : جريدة سياسية يومية ، أنشأها محمد بك أبو شادى (٨١)، وهو محام صحفي ، تعلم بالأزهر ، واشتغل

---

(٨١) توفى سنة ١٣٤٣هـ = ١٩٢٥م . الأعلام ٣٢٣/٧ ، و«محمد أبو شادى» هذا هو والد الطبيب الشاعر أحمد زكى أبو شادى ، منشئ مجلة أبولو الشعرية ، وترجم له الزركلى فى الأعلام ١٢٧/١ (طبع دار العلم للملايين) ترجمة زكية جدا ، وضعه فيها فى مكانه الحقيقى ، ورحم الله الزركلى ، فإن لتراجمه مذاقا خاصا .

هذا وقد أورد الزركلى من شعر الوالد «محمد أبو شادى» شعراً هو عندى أنا أرق من شعر ابنه ، وهو قوله :

عليل دمعه دمه ... فمالك لا تكلمه
سرى فيه الضنى حتى ... بدت للناس أعظمه
فلا إن ناح تعذره ... ولا إن باح ترحمه

بالمحاماة ، وأصدر جـريدة الأيام ، أدبية أسبوعية سنة ١٩٠٥م، ثم جريدة الظـاهر ، وكان من محرريها البارزين محمد لطفى جمعة (٨٢) .

ومما نشرته مطبعة هذه الجريدة : ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، لأبى منصور الثعالبى – بعناية محمد أبو شادى نفسه – ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م ، وطبع بها أيضا الجزء الأول من كتاب التصحيف والتحريف (٨٣) ، لأبى أحمد العسكرى ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٨م .

الكوكب الشرقي : جريدة بالأسكندرية ، كان من محرريها الشيخ حمزة فتح الله ، صاحب «المواهب الفتحية» ، وقد صحح بها طبعة من المفصل للزمخشرى – على نفقة إبراهيم شوقى وسليمان حافظ – ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م ، وفى العام نفسه طبع بها

---

(٨٢) من كبار الكتاب والخطباء والمترجمين ، مؤلفاته ومقالاته كثيرة، ومن أشهر ما كتب : الشهاب الراصد ، رد على كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين . توفى سنة ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م . الأعلام ٧/٢٣٨ .

(٨٣) طبع بعد ذلك كاملا باسم : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف – بتحقيق عبدالعزيز أحمد – بمطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م، وقد أشار المحقق إلى طبعة محمد أبو شادى هذه ، على أنها بمطبعة السعادة بالظاهر ، فأوهم أن «الظاهر» هنا هو اسم الحى المعروف بالقاهرة . وهذا خطأ ، فالكتاب لم يطبع بمطبعة السعادة ، وأيضا فإن مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر بباب الخلق ، كما سبق .

أيضا : جواهر الإكليل في مفاخر دولة الخديوى إسماعيل ، لأحمد ابن إسماعيل البرزنجي الحسيني الموسوى (٨٤) .

المحروسة : جريدة كانت في أول أمرها بالأسكندرية ، اشتراها يوسف أصاف - صاحب المطبعة العمومية التي سبق ذكرها - سنة ١٨٨٦م مشاركا بها عزيز زَنَد - ترجمته أسفل - ثم نقلا إدارتها مع مطبعتها سنة ١٨٨٧م إلى القاهرة . وكان لها نشاط في طبع الكتب ، منه : قصة «علم الدين» لعلى باشا مبارك ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، ولزوم مالايلزم ، لأبي العلاء المعرى ، بشرح عزيز زند(٨٥) ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م ، وديوان ابن المعتز في العام نفسه ، بشرح عزيز زند أيضا ، كما نشر بها أيضا كتابه : القول الحقيق في رثاء وتاريخ الخديوى المغفور له محمد باشا توفيق ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م .

ومن مطبوعاتها أيضا : فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان ، المنسوب إلى الواقدى ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م، وأعجب ما كان في الزق عند الرومان(٨٦) ، للزعيم مصطفى كامل باشا ١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ م ، ألفه عندما كان طالبا بمدرسة الحقوق .

---

(٨٤) معجم المؤلفين ١٦٤/١ ، ومعجم المطبوعات ص ٥٤٨ .

(٨٥) كان مديرا لجريدة المحروسة ورئيس تحريرها . توفي سنة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م ، معجم المؤلفين ٢٨١/٦ ، ومعجم المطبوعات ص ٩٧٨ .

(٨٦) انظر نوادر المخطوطات ٣٤٢/١ ، وسماه الزركلي : حياة الأمم والرق عند الرومان . الأعلام ١٤٠/٨ .

المؤيد : جريدة يومية ، عظيمة الشأن كبيرة الأثر ، أنشأها الشيخ على يوسف لتقف أمام توجهات المقتطف ، راجع ما سبق من حديث عن مجلة الآداب .

الهلال : فى يوم الخميس أول صفر الخير سنة ١٣١٠هـ = ٢٥ من أغسطس سنة ١٨٩٢م ، صدر العدد الأول من مجلة الهلال المجلة العربية الوحيدة التى ظلت تتابع إصدار عددها الشهرى ، ولم تتوقف شهرا واحدا منذ صدورها فى ذلك التاريخ إلى يوم الناس هذا .

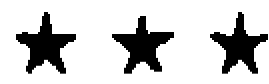
وقد صدرت مجلة الهلال من مطبعة متواضعة - شأن جمهور المطابع فى تلك الأيام - فى دكان صغير بشارع الفجالة فى القاهرة ، ومع مرور الأيام وتعاقب الرجال العظام تحولت دار الهلال إلى صرح شامخ من صروح الفكر والعلم والثقافة ، فبجانب مجلاتها المعروفة : الهلال والمصور والاثنين والكواكب وحواء وطبيبك الخاص .. وسائر تلك الدوريات ، حرصت دار الهلال على نشر الكتاب ، بمختلف فنونه ومعارفه : تحت دورية ثابتة ، مثل كتاب الهلال الشهرى ، الذى صدر عدده الخمسمائة ، فى شهر أغسطس ١٩٩٢م ، أو فى نشرات مستقلة ، لها طابعها الخاص وحجمها المتغير .

وقد نشرت دار الهلال لرجال الفكر والأدب فى مصر ، على اختلاف مدارسهم وتوجهاتهم ، كمصطفى صادق الرافعى ،

ومصطفى لطفي المنفلوطي ، وعباس محمود العقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، وإبراهيم عبدالقادر المازني ، وأحمد أمين ، ومحمد فريد أبو حديد ، وسلامة موسى .. إلى سائر رجال هذا الجيل ، إلى جانب نشر مؤلفات منشئ الهلال : چرجي حبيب زيدان (٨٧).

ثم كان لدار الهلال فضل آخر ، وهو إعادة بعض الأعمال الجيدة ، التى طبعت قديما فى غير مطبعتها .

ولازالت دار الهلال إلى الآن تواصل نشاطها المحمود فى نشر الكتب وإذاعتها .



فهذه أبرز الصحف والمجلات التى عُنيت بإصدار الكتب وإذاعتها ، بجانب نشاطها الصحفى .

وليس يخفى حسن الاختيار والانتقاء فى تلك المطبوعات ، لأن القائمين على صحف ومجلات ذلك الزمان ، كانوا أصحاب فكر وبيان ، وكانت لهم رؤيتهم النافذة ، وبصيرتهم الواسعة (٨٨) .

---

(٨٧) ولد جرجى زيدان ببيروت - لبنان - سنة ١٢٧٨هـ = ١٨٦١م ، وتعلم بها ، ثم رحل إلى مصر ، وأصدر الهلال ، وتوفى بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م

(٨٨) انظر تلخيصا جيدا وتحليلا طيبا للصحف والمجلات المصرية ، في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، في سجل الهلال المصور ٦٠٦/١ ، مع صور تاريخية لأقطاب الصحافة . صدر هذا السجل سنة ١٩٩٢م .

ثانيـا (٨٩) : عُنيت هذه المطابـع الأهليـة بطبـع بعض الموسـوعات ، مـثل «مسند الإمام أحـمد بن حنبل» الذى طبـعته المطبـعة الميمنية فى سـتـة أجزاء ، و«تاج العـروس فى شـرح القاموس» للمرتضى الزَّبيدى ، الذى طبعتـه المطبعة الخيرية، فى عشرة أجزاء ، و«الكامل» فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير ، الذى أخرجته المطبعة الأزهرية ، فى اثنى عشر جزءا ، لكن هذه المطابع الأهلية توسعت فى طبع الكتب الصغيرة ،والرسائل ، وهذا فرق ما بينها وبين مطبعة بولاق ، فإن مطبوعات هذه – فى الغالب – كانت من الكتب الطوال والأوساط .

ثالثا : سرت روح مطبعة بولاق فى تلك المطابع الأهلية ، من حيث اختيار الكتب ، فى كل علم وفن، ثم العناية بالترجمة ، وإنَّ تأمل عنوانات الكتب التي طبعت في تلك الأيام يدل على أن الناس كانوا مشغولين بوضع أسس الحضارة والتقدم ، أو التنوير ، كما يقال فى هذه الأيام .

وقد سرت روح مطبعة بولاق أيضا فى تلك المطابع ، من حيث العناية بالإخراج ، ثم فى الشكل الطباعى (طبع الكتب بهامش الكتب) ، ثم العناية الفائقة بالتصحيح ، وإذا كنا قد وقفنا فى

---

(٨٩) من النظرات التحليلية والملاحظات حول نشاط المطابع الأهلية .

مطبعة بولاق عند هذا النفر من المصححين العلماء ، من أمثال المشايخ : نصرالهوريني ، ومحمد قطة العدوى، ومحمد محمد الحسيني ، وإبراهيم الدسوقي ، الملقب عبدالغفار ، وطه محمود قطرية الدمياطي ، ومحمد قاسم ، فإننا نجد أيضا عند هذه المطابع الأهلية نفرا من العلماء المصححين ، من أمثال : الشيخ محمد الزهرى الغمراوى ، الذى كان يتولى التصحيح بالمطبعة الميمنية ، وكانت تتقدم اسمه في ختام المطبوعات هذه العبارة : «يقول راجي غفران المساوى مصححه محمد الزهرى الغمراوى» ، والشيخ إبراهيم بن محمد الدلجمونى الأزهرى ، وقد صحح جزءا من «البيان والتبيين» للجاحظ ، طبعة الجمالية ، كما صحح طبعة من «الكامل» للمبرد ، نشرتها مطبعة الفتوح الأدبية ، التى أشرت إليها من قبل .

وعن هذا الشيخ الدلجمونى يقول شيخنا عبدالسلام هارون ، رحمه الله ، «كان غفر الله له من أعلام أدباء الأزهر ، وقد تلمذت له عاما فى الأزهر سنة ١٣٤٠هـ ، ومن آثاره شرح ديوان الحماسة المنسوب للرافعى ، ونشرة من كامل المبرد » (٩٠) .

بل إن بعض هذه المطابع الأهلية قد حظيت بتصحيح مشاهير مصححى بولاق ، ومن ذلك طبعة «شفاء الغليل فيما فى كلام

(٩٠) مقدمة تحقيق البيان والتبيين ص ١٩.

العرب من الدخيل» للشهاب الخفاجي ، التى أخرجتها المطبعة الوهبية ، صححها شيخ التصحيح ببولاق نصر الهورينى ، وكذلك صحح الشيخ نصر طبعة من الإتقان فى علوم القرآن ، للسيوطى ، أصدرتها المطبعة الكاستلية سنة ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م .(٩١)

وكذلك طبعة «تاج العروس» بالمطبعة الخيرية، تولى تصحيحها الشيخ محمد قاسم ، أحد مصححى بولاق ، وكذلك صحح هذا الشيخ نشرة المطبعة الأزهرية من «الكامل» لابن الأثير – وأشرت إلى ذلك من قبل – وصحح أيضا طبعة من «مروج الذهب» للمسعودى ، أخرجتها المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٣هـ – ١٨٨٥م .

ويبدو أن هذا كان أمرا شائعا : أن يشارك مصححو مطبعة بولاق فى نشاط المطابع الأهلية ، وقد أدركت أنا شيئا من ذلك : ففي أوائل الستينات كنت أعمل مصححا بمطبعة عيسى البابى الحلبى ، وكان يعمل معنا بالتصحيح شيخ واعٍ مدرَّب ، هو الشيخ عبدالرزاق البهائي، وكان مصححا بمطبعة بولاق ، فكان يعمل

---

(٩١) يقول الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم – رحمه الله – فى مقدمة تحقيقه للإتقان ص ١٠ – طبعة مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني – عبدالحميد حنفى – ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م ، يقول : «وأصح هذه الطبعات طبعة الكاستلية ، امتازت بما ألحق بها من تصحيحات وتعليقات من وضع الشيخ نصر الهورينى، وتقع فى ١٢ صفحة» . وانظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ٢/٢٧٤

بعض الوقت بمطبعة الحلبى، حتى إذا أحيل إلى التقاعد انصرف كل الوقت إلى مطبعة الحلبى .

ولقد كان من سمات المطابع فى القرن الماضى وشَطر كبير من هذا القرن العناية الفائقة بالتصحيح والمراجعة ، فكان المصححون من العلماء (٩٢) المتميزين ، وكانوا يقومون بما يقوم به المحققون الآن، وإن لم يضعوا أسماءهم فى صدر الكتب ، وهذا مما يؤكد الثقة بهذا العلم الذى طبع فى تلك الأيام ، فقد أداه إلينا هؤلاء المصححون بكل أسباب العناية والحيطة .

وحين استقر علم تحقيق النصوص ، وتحددت طرائقه ،لم يفقد المصحح مكانه ، بل ظل له قدره ومكانته ، حيث كان عونا وظهيرا للمحقق ، فى استدراك ما فرّط منه ، أو نَدَّ عنه . وقد أدركتُ طائفة من المحققين الكبار كانوا يرعون حق المصحح ، ويفسحون له فى مجالسهم، وذلك الذى ربط بينى وبين هؤلاء المحققين

---

(٩٢) على أن هذا المصطلح كان يراد به قديما أهل العلم ، من الرواة العدول الضابطين ، وقد استعمله بهذا المعنى ابن سلام ، قال فى طبقات فحول الشعراء ص ٢٦ : «ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقى بأيدى الرواة المصحِّحين .....»

قلت : والتصحيح والتحقيق كلاهما من واد واحد ، تقول اللغة : الإحقاق : الإثبات ، يقال : أحققت الأمر إحقاقا : إذا أحكمته وصححته .

الأعلام: السيد أحمد صقر ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وحسن كامل الصيرفي ، رحمهم الله أجمعين ، إذ كنت أصحح تحقيقاتهم التي كانوا يطبعونها في أوائل الستينات بمطبعة الحلبي .

ومن طريف ما أذكر الآن : أني كنت أصحح بالمطبعة المذكورة كتاب «طيف الخيال» للشريف المرتضى ، وكان محققه الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، وفي أثناء التصحيح وقفت على هذا البيت، في حواشي ص ٥٦ ، منسوبا لمسلم بن الوليد (صريع الغواني) :

فإذا تنبه رُعته وإذا غفا   سلت عليه سيوفك الأحلام

وقد نقله محقق ديوان مسلم : الدكتور سامي الدهان ، عن شرح ديوان المتنبي المنسوب للعكبري ، وفي ذلك الوقت كنت أصحح بمطبعة الحلبي أيضا كتاب «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي بتحقيق أخي وعشيري الدكتور عبدالفتاح الحلو ، رحمه الله ، وفي ص ٨٤ ، وجدت ذلك البيت منسوبا لأشجع السلمي ، وقبله بيت يخاطب فيه الشاعرُ هارونَ الرشيد .

وعلى عدوك يا ابن عم محمد   رصدان ضوء الصبح والإظلام

فأخذتُ نسبة البيت هذه، وذهبت بها فرحا مزهوًا إلى الأستاذ الصيرفي فأثبتها في ص ١٤٠ من طيف الخيال ، ومنذ ذلك اليوم صارت لي مكانة عند الأستاذ الصيرفي ، فأدناني من قلبه ، وفسح لي في مجلسه، وبسط لي علمه ، وفتح لي بيته ، وأفاض عليَّ من

خلقه ، فاستفدت منه الكثير ، وعرفت فى بيته أدباء وشعراء ومحققين ، رحمه الله رحمة سابغة .

ولقد كان مصححو المطابع فى أواخر القرن الماضى ، والقرن الحالى ، من طلبة الأزهر ودار العلوم ، الذين التمسوا أرزاقهم فى تصحيح الكتب بالمطابع ، وكان منهم أيضا طائفة من المعلمين ، الذين مارسوا هذه المهنة ، مع القيام بأعباء التدريس ، وأعرف أناسا ذوى أقدار الآن عملوا زمانا فى مهنة التصحيح ، بل إن شيخا جليلا من شيوخ الأزهر ، عمل مصححا بدار الكتب المصرية (٩٣) خمس سنوات ، وهو الشيخ محمد الخضر حسين ،

---

(٩٣) انظر مقدمة تحقيق كتاب الأغانى ص ٥٩ – الطبعة الثانية ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م والشيخ محمد الخضر حسين ، عالم من كبار علماء الإسلام ، ومن متقدمى الباحثين ، ولد بتونس سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م ، تخرج بجامع الزيتونة ودرس به ، وتقلبت حياته بين السياسة والعلم ، وكان له فيهما شأن كبير ، زار بلادا كثيرة حتى استقر بمصر ، وألف بها كتبا كثيرة ، ثم ولى مشيخة الأزهر وتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨م . الأعلام ١١٢/٦ (دار العلم للملايين) .

هذا ؛ وإن في تولى هذا العالم التونسى مشيخة الأزهر دليلا على أن مصر لاتعرف التعصب والبلدية فهو العالم الوحيد الذى تولى هذا المنصب الدينى الرفيع من غير أبناء مصر .

العالم التونسى الكبير ، وشيخ الأزهر فى أول قيام الثورة المصرية - ١٩٥٢م .

ومما يُستطرف ذكره هنا أن الشيخ الشهيد حسن البنا ، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين كان بسبيل الاشتغال بهذه المهنة مهنة تصحيح الكتب ، ولكن حالت شواغل الدعوة دون أن يمضى فى ذلك الطريق ، وحديث ذلك ذكره الدكتور سامى الدهان ، حيث أشار فى مقدمة تحقيق ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغوانى) إلي الطبعة المصرية من الديوان التى أنفق عليها محمد أحمد رمضان المدني ، صاحب مكتبة المعاهد العلمية بالصنادقية بمصر، وقد ذكر على الورقة الأولي من هذه الطبعة : «نقحه وصححه وعلق عليه الأستاذ الجليل حسن أفندى أحمد البنا ، المدرس بالمدارس الأميرية» ، ثم ذكر على الورقة الأخيرة منه : «تم طبع ديوان صريع الغوانى ، وقد قام بتصحيح بعض أصوله قبل تقديمه للطبع الأستاذ الجليل حسن أفندى أحمد البنا، المدرس بالمدارس الأميرية ، ورئيس جمعية الإخوان المسلمين ، وقد حالت أشغاله دون تصحيحه أثناء الطبع» .

ويعلق الدكتور سامى الدهان على ذلك فيقول : «ولعل الأستاذ الجليل قد شغلته الدعوة ، فانصرف عن «مسلم» إلى المسلمين ، وتعلق بشرح الدين وتقويم النفوس ، فترك تقويم الديوان لغيره ،

يخرجه على هذا الشكل في مصر ، ولم نقع للمرحوم البنا على كلمة فى «مسلم» تبين رغبته فيه أو حكمه عليه ، ولكننا نرى فى عمله له ، وسعيه وراء نشره حبا بالشاعر وحدبا عليه ، وتعلقا بالشعر الصحيح الجزل الفصيح ، خدمة للناطقين بالضاد والمسلمين» (٩٤) .

رابعا : اكتسبت بعض هذه المطابع الأهلية شهرة لدى بعض المستشرقين ، الذين آثروها على غيرها من مطابع أوربا (٩٥) ، أو سواها من البلدان ، فطبعوا بها تحقيقاتهم ، وبخاصة فى مطالع القرن العشرين ، مثل مطبعة هندية بالموسكى ، فقد طبع فيها المستشرق الإنجليزى مرجليوث معجم الأدباء لياقوت الحموى - من تحقيقه - من سنة ١٩٠٩ - ١٩١٦م ، على نفقة تذكار لجنة جب ، وكذلك طبع بها المستشرق الألمانى بولس برونله ، كتابين جليلين ، تحت عنوان «آثار اللغة العربية»، الكتاب الأول : شرح غريب السيرة النبوية لابن هشام ، تأليف أبى ذر الخشنى

(٩٤) مقدمة تحقيق ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغوانى) ص ٥٧ ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٧م .

(٩٥) علم الله ، بعد أن كتبت هذا الكلام فى المسودة ، وقبل أن أخرجه إلى المبيضة ، وقفت على كلام يشبهه ليوسف إليان سركيس ، يقول فى مقدمة كتابه معجم المطبوعات : «ثم اعتنى أهل الشرق لتحسين الطباعة ، وإتقان أشكال الحروف ، حتى أصبح المستشرقون الغربيون يؤثرون طبع الكتب العربية فى المطابع الشرقية على مطابعهم فى الغرب» .

١٣٢٩هـ = ١٩١١م ، والكتاب الثاني : نظام الغريب ، لأبى محمد الربعى (٩٦) ١٣٣٠ هـ = ١٩١٢م .

وكذلك مطبعة الرحمانية بالخرنفش ، وصاحبها عبدالرحمن موسى شريف - طبع بها المستشرق الإنجليزى أرثر جفرى كتاب المصاحف ، لأبى بكر عبدالله بن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى سنة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م ، على نفقة مطبعة بريل بمدينة ليدن ، مع شهرة مطبعة بريل فى ذلك الزمان وإخراجها لنفائس التراث العربى ، كما هو معروف من تاريخها (٩٧) .

ومن ذلك أيضا : مطبعة السعادة - المذكورة من قبل - طبع بها المستشرق الألمانى ج . براجستراسر (٩٨) كتاب طبقات

---

(٩٦) الربعى هذا : هو أبو محمد عيسى بن إبراهيم ، من أهل أحاظة باليمن، توفى سنة ٤٨٠هـ ، وهو غير الربعى النحوى اللغوى ، من تلاميذ أبى على الفارسى، واسمه أبو الحسن على بن عيسى . توفى سنة ٤٢٠هـ ، وبعض الناس يخلط بينهما .

(٩٧) وينبغى التنبه إلى أنه قد كتب على غلاف هذا الكتاب (المصاحف) من اليسار : «مطبعة بريل بليدن» فيظن ظان أنه طبع بتلك المطبعة ، مع أنه طبع بالمطبعة الرحمانية بمصر . وهذا مصطلح عند المستشرقين ، يكتبون على الغلاف : مطبعة كذا ، وهم يريدون أنه طبع على نفقتها وبتمويلها ، وليس أنها هى التى طبعته . ومن ذلك كتاب «مغازى» الواقدى» تحقيق المستشرق الإنجليزى مارسدن جونز ، طبع بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦م ولكن كتب على الغلاف «مطبعة جامعة اكسفورد» أى أنه من إصداراتها وبتمويلها ، فيجب التنبه لهذا الأمر فى قائمة المراجع .

(٩٨) مات قبل إتمامه ، فأتمه المستشرق برتزل . راجع كتابى : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ص ٢٥٨

القراء لابن الجزرى ، المعروف باسم : غاية النهاية ، سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م بمشاركة مكتبة الخانجى .

وبجانب اكتساب المطابع المصرية هذه الشهرة ، اكتسب الطابع المصرى أيضا تلك الشهرة ، حتى استعين به فى تشغيل مطبعة ببلاد المغرب الأقصى ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، وذلك ما ذكره علامة المغرب الشيخ محمد المنونى ، حفظه الله ، فى قصة دخول المطبعة الحجرية بلاد المغرب ، قال : «وصلت المطبعة الحجرية للمغرب فى شعبان سنة ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م - ١٨٦٥م وكان دخولها يتسم بشكل فردى ، حيث جاء على يد قاضى تارودانت محمد الطيب بن محمد السوسى التملى الرودانى ، الذى اشتراها من الشرق لما حج ، ثم أتى بها للمغرب ، ومعه طبِّيع مصرى ليشتغل بها» (٩٩) .

وقد أورد الأستاذ المنونى صورة العقد المبرم بين القاضى الرودانى والطابع المصرى، ونحن نورد نص ذلك العقد ، لطرافته ودلالته التاريخية ، وهو : «إنه لما كان فى يوم الأربعاء المبارك ١٤ يوم خلت من شهر ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ ، اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الرودانى ، ابن المرحوم السيد محمد

---

(٩٩) مظاهر يقظة المغرب الحديث ٢٠٥/١ - مطبعة الأمنية بالرباط ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م .

الروداني ، من أهل مدينة رودان «مغرب» مع الفقير إلى الله تعالى كاتب الأحرف : الفقير محمد القباني المطبعي ، ابن المرحوم إبراهيم ، من أهالي مصر المحروسة ، على أنه يتوجه برفقته إلى مدينة رودان بأرض المغرب ، ويشتغل عنده على مطبعة حجرلو ، عدة سنة كاملة ، ابتداها (كذا) شهر ربيع الأول سنة ١٢٨١ هـ وانتهاها (كذا) شهر صفر الخير سنة ١٢٨٢هـ وله نظير ذلك راحته مما جميعه (كذا) (١٠٠) من أكل وشرب وكسوة ، على طبق مراده ، وفي كل شهر يعطى له مئتان غرش مصروف لجيبه ، وقد رضى الفقير محمد القباني بذلك ، ومن بعد وفاء السنة المذكورة إذا أراد الفقير محمد القباني بأن يرجع إلى بلده مصر المحروسة بأن يرحله العمدة السيد الطيب إلى حد بلده على طرفه ، وقد رضى السيد المذكور بذلك».

وكانت هذه المطبعة التي أدارها الطابع المصري نواة لغيرها من المطابع التي تدرب عمالها على يد ذلك المصري ، بمدينة فاس .

---

(١٠٠) هذه الكلمة تعني شك كاتبها في الكلمة السابقة . لكن هذا التعبير «مما جميعه» لايزال مستعملا على ألسنة الناس في مصر ، ويعني راحة الشخص من جميع الوجوه .

ومع شيوع تلك المطابع الحجرية وقيامها بنشر الكتب وإذاعتها، رأينا السلطان المغربي محمد الرابع يحاول تطوير الطباعة المغربية، وتأسيس مطبعة عصرية بالحروف ، إلى جانب المطبعة الحجرية ، وقد أرسل لذلك أحد الطلبة المغاربة إلى مصر ، ليتدرب على الطباعة العصرية . وهذه رسالة من إسماعيل باشا خديوى مصر، إلى محمد الرابع سلطان المغرب ، تتضمن الترحيب بذلك المغربى الموفد ، وتاريخ هذه الرسالة شهر شوال سنة ١٢٨٣هـ ، الموافق شهر فبراير سنة ١٨٦٦م ، تقول رسالة الخديوى إسماعيل :

«....... هذا وقد سررت بورود مشرفكم الكريم ، المتضمن لزوم المطبعة لذلك الجناب الفخيم ، وما يحتاجه المخصوص الوارد بشأنها ، من مزيد التمرين والتفهيم ، وذلك لما فيها من الإعانة على طلب العلم الشريف وتعليمه ، وتسهيل السبيل فى نشره بين البرايا وتعميمه ، وصيانة كتبه الشريفة من تحريف الكاتبين ، وتقريب تناولها إلى أيدى الطالبين والراغبين ، وهذا دليل ظاهر ، وبرهان باهر على مزيد عنايتكم فيما فيه المصلحة العامة ، ورعايتكم لما يعود على الناس بالفائدة التامة، واهتمامكم بأمر العلم الكريم وأهله ، وقيامكم بما يجب من حق فضله ، فمتع الله ببقائكم الملك

والعليا ، ونفع بوجودكم وسعودكم الدين والدنيا ، وقد أرسلنا الومى إليه إلي دار الطبـاعة (١٠١) ، وأكـدنا على مأمورها بإراعته كل ما يلزم لهذه الصناعة ، والاعتناء بتمرينه على استعمال أدواتها ، وتوقيفه على كيفية إدارة آلاتها ، وسائر كيفياتها» (١٠٢) .

خامسا : اتجه بعض أصحاب هذه المطابع الأهلية إلى طبع بعض الكتب في مطابع أخرى غير مطابعهم ، ولهذا دلالة : أن القوم كانوا في عجلة من أمرهم ، وأنهم كانوا يريدون طبع الكتب على أوسع نطاق ، وكأنهم في سباق مع الزمن ، إذ رأوا أن مطابعهم الخاصة تضيق عن استيعاب نشاطهم ، وتحقيق طموحاتهم .

فهذا مصطفى البابي الحلبي ، صاحب المطبعة الميمنية - السابق ذكرها - ينفق على طبع كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور

---

(١٠١) يعني مطبعة بولاق .

(١٠٢) المرجع نفسه ص ٤٥ ، ٢١٢ ، وقد أفاد الأستاذ المتوني في حاشية ص ٤٤ أن هذه الرسالة الخديوية من إنشاء الكاتب المصري الشهير عبدالله باشا فكري ، ناظر المعارف المصرية إذ ذاك ، وأنها قد وردت في كتاب : الآثار الفكرية ص ٥٤ - ٥٦ ، وانظر كتابي : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ١٩٥ .

الثعالبى ، بالمطبعة العمومية ، سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م ، وكذلك ينفق على طبع «الكشاف» للزمخشرى بمطبعة بولاق سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م .

وكذلك عمر حسين الخشاب ، صاحب المطبعة الخيرية ، أنفق على طبع «فتاوى قاضى خان» فى فقه الحنفية ، بمطبعة بولاق سنة ١٣١٠هـ = ١٨٩٣م ، وأنفق أيضا على طبع تفسير الطبرى ، بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٠هـ = ١٩١١م .

ومحمد عبدالواحد الطوبى - شريك عمر الخشاب فى المطبعة الخيرية - أنفق على طبع «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» لعلاء الدين على دده البسنوى (١٠٣) بالمطبعة الشرفية سنة ١٣١١هـ = ١٨٩٣م، وعلى طبع «شرح مقامات الحريرى» للشريشى ، بالمطبعة العثمانية سنة ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م .

وفرج الله زكى الكردى ، صاحب مطبعة كردستان العلمية ، أنفق - بالاشتراك - على طبع «شروح التلخيص» فى البلاغة ، بمطبعة بولاق سنة ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م .

---

(١٠٣) نسبة إلى «البسنة» هذه التى يدور حولها الصراع الآن .

ثم أما بعد :

فهذا حديث الطباعة العربية فى مصر ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، سقته على سبيل الوَجازة والاختصار ، لكني قد حرَصت على أن أبرز – من خلال الحديث عن المطابع والناشرين وعنوانات الكتب – الأفكار التى كانت توجه الطباعة والنشر ، فلم تكن القضية أن تدور ماكينات الطبع بما يملأ الأوراق ويسود الصفحات ، لقد كانت هناك – كما قلت من قبل – رغبة عارمة فى الإصلاح والنهوض من عوائق التخلف ، للحاق بركب الحضارة الذى أخذت أوربا تجنى ثماره ، فى تلكم الأيام .

وإذا كانت مطبعة بولاق قد بدأت نشاطها نحو سنة ١٨٢٠م ، ثم تبعتها المطابع الأهلية بعد نحو أربعين عاما ، وإذا كان القرن التاسع عشر ينتهى عند تمام سنة ١٨٩٩م ، فإن المرء يعجب لغزارة الإنتاج وفيض الكتب الذى جادت به مطبعة بولاق والمطابع الأهلية ، فى كل علم وفن، بالكتب الصغار والأوساط والكبار ، في الميادين الثلاثة : الترجمة والإحياء والتأليف .

ولنا أن نقدِّر أن مطبعة بولاق لم يشتد عودها ، ولم يستقر الأمر لها، فى الطبع والنشر إلا فى نحو سنة ١٨٥٠م ، ومعها بعد ذلك المطابع الأهلية ، وإن خمسين عاما فى تاريخ الأمم والشعوب

تضيق عن استيعاب هذا العدد الضخم من الكتب العربية المطبوعة، وإن أردت أن تعرف صدق هذا فتأمل ذلك الكتاب التجميعي العظيم «معجم المطبوعات العربية والمعربة» الذى جمعه ورتبه يوسف إليان سركيس ، من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩هـ ، الموافقة لسنة ١٩١٩م ميلادية ، وسترى غلبة لطبع الكتاب العربى فى مصر ، على كل ما طبع فى أوربا وبلاد العجم والهند ، ومختلف البلدان العربية والإسلامية ، وقد قدمت فى صدر هذا البحث إحصاء سركيس بما طبع من الكتب حتى سنة ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م ، وقال سركيس عقب هذا الإحصاء: «غير أن من يمعن النظر اليوم فى كثرة ما صار إليه عدد المطابع والكتب المطبوعة فى عاصمة القطر المصرى لا يلبث أن تتولاه الدهشة والانذهال من هذه النهضة العلمية ، بانتشار المطابع والكتب إلي ما ينوف حد الإحصاء ، وقس على ذلك كثيرا من البلاد السورية والهندية والإيرانية والمغربية» (١) .

لقد قامت هذه المرحلة من تاريخ الطباعة في مصر على أسس ثابتة، جرت على منهج محكم راشد ، من حيث الاختيار والإعداد والطبع ، حتى إذا كان القرن العشرون كانت الثمار قد أينعت ،

---

(١) الصفحة الأولى من مقدمة معجم المطبوعات العربية والمعربة .

والأشجار قد تعددت ، ومدت فروعها وأغصانها ، في مصر ، وفى خارج مصر .

وفى مصر بوجه الخصوص نشطت حركة النشر الواعى الدقيق ، ولم يتم العقد الثالث من هذا القرن (١٩٣٠) حتى كان الأمر قد استقر تماما للطباعة العالية المتقنة فى مصر .

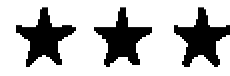
ولقد كان من أبرز مظاهر النهضة الطباعية فى مصر في أوائل هذا القرن العشرين أنها اجتذبت عدداً من الناشرين النابهين ، الذين استقبلتهم مصر ، وأعتدت لهم متكأ ، فأنتجوا وملأوا الدنيا علماً ، ومنهم الناشر المغربى محمد ساسى ، وكان تاجراً بالفحامين المتفرع من شارع الغورية بالقرب من الأزهر ، وأنفق على طبع كتب كثيرة ، من أشهرها كتاب الأغانى ، كما سبق . ثم الناشرون الشوام العظام محمد أمين الخانجى ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد منير الدمشقى ، وحسام الدين القدسى :

فقد أنشأ الأول : المطبعة الجمالية ، إلى جانب نشره فى مطبعة السعادة ، والثانى : السلفية - وشاركه فى تأسيسها عبد الفتاح قتلان، وهو دمشقى أيضا - والثالث : المنيرية . أما الرابع فهو قصة وحده ، فقد كان ينسخ ويجمع ويصحح بيده ، ومن دكان

له صغير بحارة الجداوى بدرب سعادة خلف دار الكتب المصرية خرجت كتب وموسوعات.

وقد فتح هؤلاء الشوام فتحا في تاريخ الطباعة العربية .

ثم جاءت مرحلة مطابع دار الكتب المصرية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ودار المعارف ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وسائر دور النشر فى مصر ، مما هو معروف ومذكور(٢) .



ولم يبق إلاّ بعض المقترحات :

أولا : لقد حظيت المخطوطات فى العقود الأخيرة بعناية كبيرة فى التعريف بها وفهرستها ودراستها ، والبحث فى مختلف شئونها ، وأرى أن قد آن الأوان لنبذل عناية مساوية بالمطبوعات : درساً وإحصاء ، وأماكن طبع ، وأسماء مطابع ، وأسماء ناشرين.

وإذا كان من أقدم المطبوعات العربية كتاب الكافية فى النحو لابن الحاجب ، الذى طبع في روما بإيطاليا سنة ١٥٩٢م والقانون فى الطب لابن سينا ، الذى طبع فى روما أيضا سنة ١٥٩٣ م :

---

(٢) ترى هذه المراحل كلها فى كتابى : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى .

فإن هذه أربعمائة سنة فى تاريخ الطباعة العربية ، مرت بها تلك الطباعة بمراحل ، وخضعت لاتجاهات ، وهذه وتلك تحتاج إلى درس وتحليل وإحصاء .

ولعل أول ما ينبغى عمله فى هذا المجال : هو إحصاء دقيق بأسماء المطابع التى تولت طبع الكتاب العربى فى مختلف البلدان، ثم إحصاء بمطبوعات كل مطبعة .

نعم إننا بحاجة إلى معرفة ما طبع وأماكن طبعه ، لقد صنع يوسف إليان سركيس كتابه الجيد «معجم المطبوعات العربية والمعربة» من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ هـ الموافقة للسنة الميلادية ١٩١٩ م ، مع ذكر أسماء مؤلفيها ، ولمحة من ترجمتهم ، وقد أبلى فى ذلك بلاء حسنا ، وقد جاءت بعده جهود ، لتكمل المسيرة ، ولكنها جهود فردية ، وفيها ثغرات كثيرة.

إن هذا الذى أقترحه الآن يحتاج إلي جهود هيئة كبرى ، تعمل وفق منهج محكم دقيق ، لكثرة ما طبع من الكتب وتعدد جهات النشر .

إن كثيراً من المطبوعات قديما ، تعد الآن فى حكم المخطوطات، من حيث ندرة وجودها وصعوبة الوصول إليها ، ومعرفة حقيقة أمرها .

لقد أشرت من قبل إلى أن كثيراً مما طبع في مراحل الطبع الأولى ، لا تعرف طبيعة الأصول الخطية التى طبع عنها . فالذى يريد تحقيق كتاب مخطوط الآن : عليه بعد أن يجمع مخطوطاته المتاحة له من الشرق والغرب ، أن يبحث أيضا عن مطبوعاته القديمة إن كان قد طبع من قبل ، فهذه المطبوعات القديمة بمثابة أصول أخري للكتاب المراد نشره وتحقيقه ، فلعل هذا المطبوع قد قام على أصل مخطوط جيد لا نعرفه .

ثانيا : لقد ثبت أن حركة نشر الكتب وطباعتها في القرن التاسع عشر ، قد وقف وراءها نفر من عظماء الرجال : ناشرون ومنفقون وأصحاب مطابع ومصححون ، وهؤلاء الرجال قد بذلوا جهداً كبيراً ، واحتملوا عناء باهظا ، وقد سجلت أسماؤهم فى أوائل المطبوعات وأواخرها ، حتى جاءت ظاهرة الكتب بالتصوير (الأوفست) فاغتالت تاريخ هؤلاء الرجال العظام اغتيالا ، حين أغفلت زمان ومكان الطبع ، وتمادت فأسقطت أواخر المطبوعات ، التى كان ينص فيها على اسم مصحح الكتاب ، واسم ناشره ، واسم من أنفق على طبعه ، وطمس خاتم المطبعة بالسواد ، كما ترى فى آخر «المخصص» لابن سيده المطبوع بمطبعة بولاق سنة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م فقد أصدر منه المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ببيروت طبعة مصورة ، منذ نحو عشرين عاماً ، وترى فى صفحة ١٦٩ من الجزء السابع عشر ، وهو آخر الكتاب ،

ترى ضرباً بالسواد الكثيف على خاتم المطبعة الأميرية ببولاق ، فإذا رجعت إلى الأصل المصور عنه ، وجدت عبارة الخاتم هكذا: (دار الطباعة الميرية بولاق) .

بل انتهى الأمر إلى إسقاط اسم المحقق ، وإليك بعض الأمثلة من هذه الجرائم :

أ - كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ليحيى بن حمزة العلوى اليمنى ، طبع بعناية دار الكتب المصرية ، فى ثلاثة أجزاء ، بمطبعة المقتطف سنة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م ، وقد حظيت هذه الطبعة بتصحيح إمام من أئمة العربية فى هذا العصر ، هو العلامة الشيخ سيد بن على المرصفى ، ثم جاءت دار الكتب العلمية ببيروت ، فأصدرت مصورة من هذه الطبعة سنة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م ، أسقطت منها اسم هذا الشيخ الجليل .

ب - كتاب لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ، صدر بتحقيق محدث العصر الشيخ أحمد محمد شاكر ، سنة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م ، بالمطبعة الرحمانية بمصر ، لحساب مكتبة لويس سركيس بالفجالة : رأيت منه مصورة بيروتية ضالة أسقط منها اسم الشيخ الجليل ، محقق الكتاب .

جـ - كتاب أخبار القضاة ، لوكيع ، نشرته المكتبة التجارية

بمصر ، بمطبعة الاستقامة سنة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م ، صدرت منه مصورة عن عالم الكتب ببيروت ، بدون تاريخ - أسقطت اسم مصحح الكتاب ومخرِّج أحاديثه عبد العزيز مصطفى المراغى (٢)

وهكذا حيل بين أبناء هذا الجيل وبين معرفة جهاد أسلافهم الذين مهدوا الطريق ، وسلكوا دروباً مضنية .

ولما كان العالمون بتاريخ الطباعة ، والمحبون للعلم ، العارفون بتاريخ الرجال يتناقصون يوماً إثر يوم : فلابد من عمل وجهد ، لاستنقاذ هذا التاريخ من بئر النسيان وقرارة الضياع ، وذلك يكون بعمل ببليوجرافيات (قوائم) إحصائية بأسماء المطابع ، وأسماء أصحابها ، ثم أسماء الناشرين ، وأسماء المصححين ، في هذه المرحلة المبكرة من الطباعة . كما قلت فى مقترحى السابق .

ثالثاً : قلت إن مرحلة طبع الكتب فى القرن التاسع عشر قد شهدت ظاهرة طبع الكتب بهامش الكتب ، وهذه الكتب المطبوعة

---

(٢) وهناك لون آخر من السرقة والنصب والاحتيال ، يبتعد عن التصوير ، ولكنه يقوم على الطبعة القديمة . ومن ذلك كتاب المعانى الكبير ، لابن قتيبة ، صدر عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد - الهند سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م ، بتحقيق المستشرق الإنجليزى كرنكو ، والشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى . ثم أخرجت منه دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م طبعة صفت بحروف جديدة ، ولكنها التزمت أرقام طبعة حيدر أباد المذكورة، وسلخت تعليقاتها ، وأغارت على فهارسها .

على هوامش الكتب يغفُل عنها الناس أحيانا ، وبعضها طبع مستقلاً ، وبعضها لم يطبع غير تلك الطبعة بهامش الكتاب الأصلي ، ومن ذلك كتاب شرح الشواهد الكبرى ، لبدر الدين العينى ، طبع بهامش خزانة الأدب للبغدادى ، بمطبعة بولاق ، كما سبق ، ولم يطبع غير تلك الطبعة .

فيقترح هنا عمل قوائم بهذه الكتب التى طبعت بحواشى الكتب، في القرن التاسع عشر .

رابعا : توصية الباحثين والكاتبين بتسجيل المعلومات التامة الدقيقة ، فى قائمة مراجعهم ومصادرهم ، من حيث ذكر عنوان الكتاب كاملاً ، واسم مؤلفه واسم مصححه ، وعدد أجزائه ، وتاريخ الطبع بالهجرى والميلادى ، واسم المطبعة ، واسم الناشر ، إذا لم يكن هو صاحب المطبعة ، واسم المنفق على طبع الكتاب .

خامسا: توجيه نظر أصحاب دور النشر – وبخاصة فى بيروت، وهم أول من نقب النقب وفتح الباب ، حين أخلدوا إلى الراحة ، وطلبوا الغنيمة الباردة ، بتصوير أعمال السابقين ، توجيه نظرهم إلى أن يتقوا الله ويبقوا على أسماء المطابع القديمة والمحققين والمصححين ، وسائر أصحاب الحق القديم .

وبذلك نحفظ للتاريخ حقه ، وللناس جهودهم .

والله من وراء القصد ، وهو ولى التوفيق .

مراجع البحث

- أباطيل وأسمار لمحمود محمد شاكر . مطبعة المدني بمصر. الطبعة الثانية ١٣٩١ = ١٩٧٢ م .

- أبجد العلوم – ويسمى الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم (١) لصديق بن حسن القنوجي – الجزء الأول : أعده للطبع ووضع فهارسه عبد الجبار زكار ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق ١٩٧٨ م .

والجزءان الثاني والثالث : طبع دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تحقيق وبدون تاريخ .

- الإتقان في علوم القرآن . للسيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني (عبد الحميد حنفي) القاهرة ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧ م .

- الأخبار التاريخية في السيرة الزكية . لزكي محمد مجاهد . دار الطباعة المحمدية بالأزهر . القاهرة ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م .

- الأعلام لخير الدين الزركلي . الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧٣

---

(١) هذا هو اسم الجزء الأول . والجزء الثاني اسمه : السحاب المركوم الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم . والثالث : الرحيق المختوم من تراجم أئمة العلوم . وهذه كلها تسميات المؤلف .

هـ = ١٩٥٤ م ، والطبعة الرابعة - دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩ م .

- الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية - من سنة ١٣٠١هـ إلى سنة ١٣٦٥ هـ ١٨٨٣ - إلى سنة ١٩٤٦ م ، لزكى محمد مجاهد . الجزء الأول بمطبعة دار الطباعة المصرية الحديثة بالقاهرة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م . والجزء الرابع ، وهو الأخير ، بمطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣ م .

- الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى . دار الكتب المصرية ١٣٤٥ هـ ١٩٢٧ م .

- أمالي ابن الشجرى . تحقيق محمود محمد الطناحي . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .

- أمالى أبى على القالى . دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م .

- إنباء الغُمر بأنباء العمر ، لابن حجر العسقلانى . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . تحقيق الدكتور حسن حبشى - القاهرة ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م .

- إيضاح المكنون = الذيل على كشف الظنون

- البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجى . القاهرة ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠ م .

- تاج العروس من جواهر القاموس . للمرتضى الزبيدى . وزارة الإعلام بالكويت ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٠ م .

- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول . لصديق حسن القنوجي تصحيح وتعليق الدكتور عبد الحكيم شرف الدين . المطبعة الهندية العربية بمباى ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣ م . طبع على نفقة الشيخ على بن عبد الله آل ثانى حاكم قطر .

- تاريخ التراث للعربى . للدكتور محمد فؤاد سزكين . نقله إلى العربية الكتور محمود فهمى حجازى ، وراجعه الدكتور عرفة مصطفى . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م.

- تاريخ الطباعة فى الشرق العربى . للدكتور خليل صابات . الطبعة الثانية . دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .

- تاريخ مطبعة بولاق ، ولمحة فى تاريخ الطباعة في بلدان الشرق الأوسط . للدكتور أبو الفتوح رضوان . المطبعة الأميرية . القاهرة ١٩٥٣ م .

- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه . لابن حبيب الحلبى . تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ، ومراجعة الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦م.

- التراث العربي . لعبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر (سلسلة كتابك) العدد ٣٥ - ١٩٧٨ م .

- تفسير الطبري . بولاق ١٣٣٠ هـ - ١٩١١ م .

التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية . لمحمد مختار باشا . بولاق ١٣١١ هـ = ١٨٩٣ م .

- حركة نشر الكتب في مصر . للدكتورة عايدة إبراهيم نصير. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٤ م .

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . للسيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٧٨ هـ = ١٩٦٨ م .

- الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . لعلي باشا مبارك . طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م .

- خِطط المقريزي - وهو المسمى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة ١٩٦٧ م ، طبعة مجموعة اعتماداً علي طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م .

- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . للمحبي . دار

صادر – بيروت . مصـــورة عن طبعة المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م .

– ديوان الأبيوردى . تحقيق الدكتور عمر الأسعد . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .

– ديوان صريع الغوانى (مسلم بن الوليد) تحقيق الدكتور سامى الدهان . دار المعارف بمصر ١٩٥٧ م .

– الذيل على كشف الظنون – وهو إيضــاح المكنون – لإسماعيل باشا البغدادى . استانبول ١٩٤٥ م .

– دراسة فى مصادر الأدب . للدكتور الطاهر أحمد مكى . دار المعارف بمصر . الطبعة السابعة – ١٩٩٢ م .

– الروض المعطار فى خبر الأقطار للحميرى ، تحقيق الدكتور إحسان عباس . مكتبة لبنان . الطبعة الثانية ١٩٨٤ م .

– روضة الأس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . للمقرى. نشر عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية بالرباط . المغرب الأقصى ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤م .

– السلوك لمعرفة دول الملوك . للمقريزى . تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة . الطبعة الثانية . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٦ م . وأكمل تحقيقه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م وما بعدها.

- شروح سقط الزند . لأبي العلاء المعرى . لجنة إحياء آثار أبي العلاء دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م .

- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل . للشهاب الخفاجي ، تصحيح الشيخ نصر الهوريني . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م .

- طبقات فحول الشعراء . لابن سلام . قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤م.

- طراز المجالس . للشهاب الخفاجي . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م .

- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات . لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني . باعتناء الدكتور إحسان عباس . دار الغرب الإسلامي . بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .

- فهرست الكتب النحوية المطبوعة . للدكتور عبد الهادي الفضلي. مكتبة المنار - الأردن - الزرقاء ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م .

- قائمة بأوائل المطبوعات العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية حتى سنة ١٨٦٢ م . جمع وتصنيف محمد جمال الدين الشوربجي. مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م .

- القاموس المحيط . للفيروزابادى . المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . للحاج خليفة . استانبول ١٩٤١ م .

- لسان العرب . لابن منظور . بولاق ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م .

- المجمعيون في خمسين عاماً . للدكتور محمد مهدى علام . مطبوعات مجمع اللغة العربية . الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

- مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى . لمحمود محمد الطناحى. مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

- مظاهر يقظة المغرب الحديث . لمحمد المنونى . الرباط - المغرب الأقصى - مطبعة الأمنية ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٣ م .

- معجم البلدان . لياقوت الحموى ، تحقيق المستشرق الألمانى وستنفلد. ليبزج ١٨٦٦ م .

- المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع . جمع وإعداد وتحرير الدكتور محمد عيسى صالحية . مطبوعات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .

- معجم المؤلفين . لعمر رضا كحالة . دمشق ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧م .

- معجم المطبوعات العربية والمعربة . ليوسف إليان سركيس . نشر مكتبة الثقافة الدينية ، بالعتبة بالقاهرة ، بدون تاريخ . مصورة عن طبعة مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م .

- موسوعة عصر التنوير (أهم مائة كتاب في مائة عام) دار الهلال بمصر ١٩٩٢ م .

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . لابن تغرى بردى . دار الكتب المصرية ١٩٣٢ م .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . للمقرى . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨م.

- نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام محمد هارون . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م .

- الوافى بالوفيات . لصلاح الدين الصفدى . الجزء ٢١ تحقيق محمد الحجيرى . النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية. شتوتغارت ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .

فهرس الموضوعات

	ص
بين يدى الكتاب	٥
بداية الطباعة	١٩
مراحل الطباعة في مصر :	.
المرحلة الأولي : مطبعة بولاق	٢٥
أبرز الكتب المترجمة	٦٣
أبرز الكتب التراثية الموسوعية	٧١
المرحلة الثانية : مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية	٧٥
المرحلة الثالثة : المطابع الأهلية	٨١
الصحف والمجلات التى ساهمت فى نشر الكتب	١٢٩
مقترحات بشأن تاريخ الطباعة فى مصر	١٥٥

فهرس أسماء الأعلام ★

(أ)

أرثر جفرى	١٤٦
إبراهيم البياع	٧٧
إبراهيم رمضان	٧٨
إبراهيم زيدان	١٢٣
إبراهيم شوقى	١٣٤
إبراهيم عبد الغفار الدسوقى	٣١، ٣٤، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٦٧، ٦٩، ٧٧، ٧٩، ١٣٩
إبراهيم عبد القادر المازنى	١٣٧
إبراهيم بن محمد الدلجمونى الأزهرى	١١٢، ١٣٩
إبراهيم النبراوى	٦٤، ٦٦
إبراهيم اليازجى	١٢٣

★ لم أفهرس لأسماء أعلام التراث لكثرتها مما يؤدِّى إلى تضخم حجم الكتاب، وأيضا فإن الغاية من كتابى هذا : هى ذكر تاريخ رجال القرن التاسع عشر الذين وقفوا خلف طبع الكتاب العربى فى مصر : أصحاب مطابع وناشرين ومنفقين ومُصَحِّحين ومترجمين.

أحمد أحمد الحسينى	١٥، ٤٢، ٥٠، ٥١، ٥٢
أحمد أمين	٩٩، ١٣٧
أحمد بن الأمين الشنقيطى	١٠٤، ١١٦
أحمد تيمور	٩١
أحمد حسن الرشيدى	٦٣، ٦٦، ٦٩، ٧٧
أحمد دقلة	٦٩
أحمد زكى أبو شادى	١٣٣
أحمد عارف	١١٧
أحمد بن عبد الكريم القادرى الحسينى	١٠٢
أحمد أبو على الأزهرى	١٢٥، ١٢٨
أحمد فايد	١١، ٦٧، ٦٩
أحمد لطفى السيد	١٣٢
أحمد محمد شاكر	١٥٨
أحمد مختار الغازى	٩٥
أحمد المشّاط	٥٤
أحمد ناجى الجمالى	١٠٥، ١١٦، ١١٧
إسكندر آصاف	١١١
إسماعيل باشا (خديوى مصر)	٣٤، ١٤٩
إسماعيل حافظ	١٢٢
إسماعيل يوسف بن صالح التونسى	٦٠

أمين عمر زيتونة ٨٩
أمين هندية ١٢٣
أنطون غندور ١٢٧
أوغسطين السّكاكيني ٧٧

(ب)

براجستراسر ١٤٦
برعي أفندى ٧٩
برونله = انظر : بولس
بسّام عبد الوهّاب الجابى ١١١
بشارة زلزل ١٢٥، ١٣٢
بكرى البابى الحلبى ٩٢
بولس برونله ١٤٥

(ت)

توفيق الحكيم ١٣٧

(ج)

جان يوسف مارسيل = انظر : حنّا
جفرى = انظر : آرثر
جوتنبرج (يوهان) ١٩
جورجى حبيب زيدان ١٢٣، ١٣٧
جورجى فيدال ٦٤

(ح)

حسام الدين القدسى ١٥٤
حسن أحمد البنا ١٤٤
حسن حسنى ٨٦
حسن شرف ١٠٧
حسن عاصم ٥٦. ٩١
حسن الفاكهانى ١١١
حسن الفيومى إبراهيم ١٠٧
حسن كامل الصيرفى ١٤٢
حسن بن محمد العطار ٢٨
حسين بن أحمد المرصفى ٣١، ١١٣، ١٢٠
حسين حسنى ٣٣، ٣٧
حسين بن عبد الله الميمنى ٥٥
حسين غانم ٦٨
حسين والى ١٢١
حمزة فتح الله ٣٩، ١٣٤
حنا يوسف مارسيل ٢٢

(خ)

الخانجى = انظر : محمد أمين
الخشاب = انظر : عمر حسين

خليفة محمود ٦٥، ٦٨
خليل صابات ★ ١١٢
خليل محمود ٦٥

(د)

درويش زيدان ٦٩

(ر)

رافائيل زخور راهب ٢٨
رفائيل عبيد ١٥، ٥٣
رشاد عبد المطلب = انظر : محمد رشاد عبد المطلب
رفاعة رافع الطهطاوى ١١، ٢٧، ٣١، ٦٣، ٦٥، ٧٠، ٧٦، ٧٩
رمضان حلاوة ١٢٦، ١٢٧، ١٣٢

(ز)

زكي مجاهد ٨
زويمر ٣٠

(س)

سامى الدهان ١٤٢، ١٤٤
سبيتا = انظر : ولهلم

★ جاء اسمه كثيراً فى الحواشى مقترنا باسم كتابه : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى .

سرجس بن هلبا الرومى ٨٩
سعيد باشا = انظر : محمد سعيد (خديوى مصر)
سلامة موسى ١٣٧
سلدن ولمور ٣٠
سليمان حافظ ١٣٤
سيد إبراهيم (الخطاط) ٧
السيد أحمد صقر ٩، ٥٢، ١٤٢
سيد بن على المرصفى ١٥٨
السيد عمارة ٧٩

(ش)

شرف موسى ١٠٦
الشنقيطى = انظر : أحمد بن الأمين
: محمد محمود

(ص)

صالح مجدى ٧٧، ٧٨، ٧٩
صدِّيق بن حسن بن على القِنَّوجى ٤٨

(ط)

أبو طالب الميمنى ٥٥
طه حسين ٥٦، ١٣٧
طه محمود قطريّة الدُّمياطى ٢٨، ٥٥، ١٣٩

(ع)

عارف أفندى أبو تراب الأفغانى ١٠٨
عامر سعد ٧٧
عايدة إبراهيم نصير(★) ١٢٤
عباس باشا (خديوى مصر) ٣٦
عباس محمود العقاد ١٣٧
عبد الحفيظ بن السلطان الحسن (سلطان المغرب) ١٠٥
عبد الحميد الصمدانى ٤٨
عبد الحميد بن عبد المجيد (السلطان العثمانى) ٤٤
عبد الحميد نافع ١١٣
عبد الخالق ثروت ١١، ٥٦، ٥٧
عبد الرحمن البرقوقى ١٢٣
عبد الرحمن سراج ٥٤
عبدالرحمن الشيبى ٥٤
عبد الرحمن الصفتى الشرقاوى ٣٦
عبد الرحمن على قريط ٥٩
عبد الرحمن قُطّة العدوى = انظر : محمد عبد الرحمن
عبد الرحمن محمد ١٠١

(★) أتى اسمها كثيراً فى حواشى الكتاب، مقترناً باسم كتابها : حركة نشر الكتب فى مصر فى القرن التاسع عشر. وهو كتاب جيد جدا.

عبد الرحمن موسى شريف ١٤٦
عبد الرزاق البهائى ١٤٠
عبد السلام محمد هارون ٢٩، ٨٣، ٨٨، ٩٠، ١١٧،
١٣٩
عبد العاطى الخولى (الخطاط) ٧
عبد العزيز بن إسماعيل الأنصارى الطهطاوى ١١٠
عبد العزيز الرفاعى (★) (الخطاط) ٧
عبد العزيز مصطفى المراغى ١٥٩
عبد الغفار الدسوقى = انظر : إبراهيم عبد الغفار
عبد الغنى عبد الخالق ٩، ٥٢
عبد الغني محمود ٥٥
عبد الفتاح الفقى ١٢٧
عبد الفتاح قتلان ١٥٤
عبدالفتاح محمد الحلو ١١٠، ١٤٢
عبد الله أبو السعود ٨٥
عبد الله فكرى ١١١، ١٥٠
عبد الله بن محمد الباز ٥٥

(★) هذه شهرته، واسمه : «محمد عبد العزيز الرفاعى» من أشهر الخطاطين الأتراك المتأخرين ، كتبت عنه فى الهلال (ديسمبر ١٩٩٤م).

عبد الواحد الميمنى ٥٥

عبد الوهاب عبد اللطيف ٩

عثمان خليفة ١١٠

عزيز زَنَد ١٣٥

عصمت أفندى = انظر : محمد عصمت

عطا حسن ٧٧، ٧٩

على بهجت ٩١

على جودت ٩٤

على راتب ٥٩، ٦٠

على عزت بدوى ٧٨

على فودة ٦٠

على مبارك ٣٤، ٣٧، ١٣٥

على محمد البجاوى ١٠٦

على نائل ٨٦

على هيبة ٦٩

على يوسف ١٢٩، ١٣٦

عمر حسين الخشاب ٤٧، ٩٤، ١٥١

عمر طوسون ١١

عمر هاشم الكتبى ١١١

عيسى البابى الحلبى ٩٢

(ف)

فالح بن عبد الله الظاهرى المدنى ١٢٦

فؤاد سزجين = انظر : محمد فؤاد سزجين

فؤاد سيد ٩، ٥٢

فرج الله زكى الكردى ٣٣ ، ٤٧ ، ٨٧ ، ١١٥ ، ١١٦، ١٥١

(ق)

قاسم الرجب ١٤، ١٥

قاسم السَّامرَّائى ٢٢

قُطَّة العدوى = انظر : محمد عبد الرحمن

(ك)

كارل فولرس ٣٠

كيرلس (الأنبا) ٨٤.

(م)

محبّ الدين الخطيب ١٣٠، ١٥٤

محمد أحمد رمضان المدنى ١٤٤

محمد إسماعيل ١٠٣، ١٠٦

محمد بن إسماعيل شهاب الدين ٤٠

محمد أمين الخانجى ١٠٢. ١٠٥، ١٠٦، ١١٦، ١١٧، ١٥٤

محمد باعيسى الحضرمى ٥٣
محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥
محمد بيرم الخامس بن مصطفى ١٣١
محمد بيومى الدهشورى ٦٧
محمد حسن عيد ١٥، ٥٣
محمد حسنى ٧٧
محمد الحسينى = انظر : محمد محمد البلبيسى
محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر) ١٤٣
محمد الخضرى ٣٩
محمد ذهنى ٣٨
محمد الرابع (سلطان المغرب) ١٤٩
محمد رشيد عبد المطلب ٩، ٥٢، ٩٤
محمد رشاد رضا ٩٩، ١٢١
محمد زهران ٥٢، ٥٣
محمد الزهرى الغمراوى ١١١، ١٣٩
محمد ساسى المغربى ١٠٠، ١٠٢، ١٥٤
محمد سعيد باشا (خديوى مصر) ٨٤
محمد أبو شادى ١٣٣، ١٣٤
محمد شاهين ١١٧
محمد بن شيمى بن عبد الرازق ٧٠

محمد بن صالح بن أحمد = انظر : صالح مجدى
محمد الصباغ ٣٨
محمد صدّيق خان = انظر : صدّيق بن حسن بن علي
محمد الطيب بن محمد السوسى
التملي الروداني (قاضى تارودانت) ١٤٧
محمد عارف ٨٧
محمد العبّادى ٨
محمد عبد الجواد الأصمعى ٦٠
محمد عبد الرحمن ، المعروف بقُطّه العدوى ٣٦، ٥٣، ١٣٩
محمد عبد الرسول إبراهيم ٣٨
محمد عبد الغنى حسن ٩٧
محمد عبد الفتاح ٦٥، ٦٨
محمد عبد اللطيف الخطيب ١٠١
محمد عبد المطلب ٣٩
محمد عبد الواحد الطوبى ٩٤، ١٠٧، ١١٠، ١٥١
محمد عبده (الإمام) ٣٩، ٥٦، ١٠٨
محمد عصمت (عصمت أفندى) ٦٦
محمد على باشا (والى مصر) ١١، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٧،
٢٥، ٣٦، ٤٦، ١١٧
محمد على كامل ٩٩

محمد عمر الخشاب ٤٧ . ٩٤
محمد بن عمر بن سليمان التونسى ٦٨، ٦٩
محمد فؤاد سزجين ٤٣
محمد الفحام (شيخ الأزهر) ٩
محمد فريد أبو حديد ١٣٧
محمد أبو الفضل إبراهيم ١٤٢
محمد قاسم ٣٨، ٥٤، ١٣٩، ١٤٠
محمد القبانى بن إبراهيم المطبعى ١٤٨
محمد كامل ١٠٤
محمد لطفى جمعة ١٣٤
محمد محرم ٦٤
محمد محمد البلبيسى الحسينى ٣٧، ٤١، ٥٠، ٥١، ٥٣،
١٣٩
محمد محمد عبد اللطيف ١٠١
محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى ٥٥
محمد محيى الدين عبد الحميد ١١٨
محمد مسعود الإسكندرى ١٠٨، ١٢٥
محمد مصطفى = انظر : محمد حسنى
محمد مصطفى بن محمد النَّجَّارى الشابُورى ٥٦، ٥٧
محمد المَنُّونى ١٤٧، ١٥٠

محمد منير الدمشقي ١٥٤
محمد هارون ١١٧
محمد الـهراوى ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٦٩، ٧٧
محمود سامي البارودى ٣١
محمود شكرى الآلوسى ١١٦
محمود العلاف ١٢٦
محمود فهمى ٧٦
محمود واصف ١١٢
مرجليوث ١٤٥
مصطفى البابى الحلبى ٤٧، ٩٢، ١٥٠
مصطفى جواد ١٠٧
مصطفى حسن كسّاب ٦٤، ٦٦
مصطفى صادق الرافعى ١٢٧
مصطفى عنانى ١٠١
مصطفى فهمى ١٢٢
مصطفى لطفى المنفلوطى ١٣٧
مصطفى محمد ١١٨
مصطفى المكاوى ٣٢، ٤٨
مصطفى وهبى بن محمد ٨٧
معوّض محمد فريد ١٢٦، ١٣٢

مفيدة عبد الرحمن ١٠١
مكاوى (الخطاط) ٧
موسى كاشَنْستِلىٍ ١١٣

(ن)

نابليون بونابرت ٢٠، ١٢٤
النَّجّارى = انظر : محمد مصطفى
نجِيب هواويني (الخطاط) ٧
نصر بن محمد العادلى ٣٨، ٣٩، ٤٧، ٥١
نصر الهورينى ٣٥، ١٣٩، ١٤٠

(و)

ولهلم سبيتا ٣٠
وهبى تادرس ٩٩
ويلكوكس ٣٠

(ى)

يوحّنا عنجورى ٦٣، ٦٥
يوحّنا مسرَّة ١١٣
يوسف آصاف ١١١، ١٣٥
يوسف إليان بسركيس ٥٨ ، ٥٩ ، ١١٥ ، ١٥٢ ، ١٥٦
يوسف شيت الديرانى البعلبكى ٨٩
يوسف فرعون ٦٤، ٦٦

فهرس أسماء المطابع والمكتبات ودور النشر

دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن :
الهند ١٥٩
دار إحياء الكتب العربية = انظر : مطبعة
عيسى البابى الحلبى
دار الطباعة الخديوية = انظر : مطبعة بولاق
دار الكتب العلمية ببيروت ١٥٨، ١٥٩
دار المعارف ١٥٥
الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية
الإسلامية = انظر : مطبعة كردستان
شركة طبع الكتب العربية ٩١، ١٢٢
عالم الكتب ببيروت ١٥٩
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٥٥
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدُبىّ ٥
مطبعة الآداب ١٢٩
مطبعة إبراهيم المويلحى ٩٠، ٩٦
المطبعة الأدبية المصرية ٩٦

المطبعة الأزهرية ٩٧، ١٤٠
مطبعة الاستقامة ١٥٩
مطبعة الاعتماد ٩٧
مطبعة الأعلام ١٣١
مطبعة الأفندى ٨٣، ٩٧
المطبعة الأميرية = انظر : مطبعة بولاق
مطبعة الأهرام ١٢٤
المطبعة الأهلية القبطية (مطبعة الوطن) ٨٤، ٨٥
المطبعة الأهلية = انظر : مطبعة الحملة الفرنسية
مطبعة البرهان ١٣٢
المطبعة البهية ٩٨
مطبعة بولاق ٨، ١٠، ١٥، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٥، ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٧٠، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٩٤، ٩٧، ١١٥، ١١٧، ١٣٨،

١٤٠، ١٥٠، ١٥١،
١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠
مطبعة التأليف ٩٨
المطبعة التجارية ١٢٥
مطبعة الترقّى ٩٩
مطبعة التقدّم العلمية ٩١، ٩٩، ١٠٠
المطبعة التليانية = انظر : المطبعة الكاستلية
مطبعة التمدن ١٠١
مطبعة الجامعة ١٣٢
مطبعة الجريدة ١٣٢
مطبعة جريدة مصر ١٣٣
مطبعة الجمالية ٥٩، ١٠٥، ١١٦، ١١٧،
١٣٩، ١٥٤
مطبعة جمعية المعارف (المطبعة الوهبية) ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١،
٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٢١،
١٤٠
مطبعة الجمهور الفرنساوى = انظر : مطبعة
الحملة الفرنسية
مطبعة الحجر بالقلعة ٧٦
مطبعة حسن الطوخى ١٠١

المطبعة الحسينية ١٠١
المطبعة الحسينية المصرية ١٠١، ١٠٢
مطبعة الحلمية ١٠٨، ١٢٥
مطبعة الحملة الفرنسية ٢٠
المطبعة الحميدية المصرية ١٠٠، ١٠٢
المطبعة الخديوية ١٢٥
المطبعة الخيرية ٤٧، ٩٤، ١٠٢، ١٣٨، ١٤٠، ١٥١
مطبعة دار الكتب المصرية ٣٨، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ١٠٠، ١٤٣، ١٥٥
مطبعة ديوان الجهاد (الحربية) ٧٥
مطبعة الرحمانية ١٢٣، ١٤٦، ١٥٨
مطبعة السعادة ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٦، ١٥٤
المطبعة السلفية ٨، ١٣٠، ١٥٤
مطبعة شرف ٢٩، ٥٥، ١٠٦
المطبعة الشرفية ١٠٧، ١٥١
مطبعة شركة التمدن الصناعية = انظر : مطبعة التمدّن
مطبعة شركة المكارم ١٢٦

مطبعة صبيح ٨
مطبعة الظاهر ١٣٣
مطبعة العاصمة ١٠٨
المطبعة العامرة الشرفية = انظر : المطبعة الشرفية
مطبعة عبد الرازق ٨٤، ١٠٩
مطبعة عبد الرحمن محمد ٨
مطبعة عبد الغنى فكرى ١٠٩
مطبعة عثمان عبد الرازق ١١٠
المطبعة العثمانية ١١٠، ١٥١
المطبعة العلمية ١١١
المطبعة العمومية ١١١، ١١٢، ١٥١
مطبعة عيسى البابى الحلبى ٧، ٩٣، ١٠٦، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
مطبعة الفتوح الأدبية ٥٥، ١١٢، ١٣٩
المطبعة الكاستَلِّيَّة ١١٢، ١٤٠
مطبعة كردستان العلمية ٢٣، ٤٨، ٨٧، ١١٥، ١١٦، ١٥١
مطبعة الكوكب الشرقى ١٣٤
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ٩٨، ١٥٥

مطبعة المؤيد ١٣٠، ١٣٦
مطبعة المحروسة ١١٧، ١٣٥
مطبعة محمد شاهين ٨٧، ١١٧، ١١٩
مطبعة محمد مصطفى ١١٨
مطبعة محمود الملطيلي ١١٩
المطبعة المحمودية ١٢٠
مطبعة المدارس الملكية – أو الحكومية ١٢٠
مطبعة المدرسة الطبية بأبى زعبل ٧٧
مطبعة مدرسة المهندسخانة الخديوية ٧٧
مطبعة المدفعية ٧٥
مطبعة مزراهى (مزراحى) ٥٨
مطبعة المشهد الحسينى (عبدالحميد حنفى) ٨، ١٤٠
المطبعة المصرية ١٠١
مطبعة مصطفى البابى الحلبى ٩٣، ١٣٤
مطبعة مصطفى شاهين ١٢١
مطبعة معوّض محمد فريد ١٢٦
مطبعة المقتطف ١٥٨
مطبعة مكتب الحربية السلطانية ٧٧
مطبعة مكتب الطــوبجية = انظــر : مطبعة المدفعية

مطبعة المنار ٨، ٩٩، ١٢١
المطبعة المنيرية ٨، ١٠٤، ١٥٤
مطبعة الموسوعات ٩١، ١٢٢
المطبعة الميمنية ٢٩، ٤٧، ٩٢، ٩٣، ١٢٨، ١٣٩، ١٥٠
مطبعة النيل ٨٦
مطبعة الهلال (مؤسسها إبراهيم زيدان) ١٢٣
مطبعة دار الهلال (مؤسسها جورجي زيدان) ١٣٦
مطبعة هندية ١٢٣، ١٤٥
مطبعة وادى النيل ٨٥، ٨٦
مطبعة والدة عباس الأول ١٢٤
مطبعة الوطن = انظر : المطبعة الأهلية القبطية
المطبعة الوطنية ١٢٦
المطبعة الوهبية = انظر : مطبعة جمعية المعارف
مطبعة ينى لا جوادكس ١٢٨
المكتب التجارى للطباعة والنشر ببيروت ١٥٧
المكتبة التجارية الكبرى ١١٨، ١٥٨
مكتبة الخانجى ١٤، ٦٠، ١٤٧
مكتبة لويس سركيس ١٥٨
مكتبة المعاهد العلمية ١٤٤

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

أغسطس ١٩٩٦ .. تقرأ فيها :

فكـــر وثقافـــة

★ البصمة الوراثية وفك طلاسم الجريمة .... د. أحمد مستجير ٨
★ تخليد عالم رغم أنفه .... د. عبدالعظيم أنيس ١٨
★ العشق في الصحراء(٣) .... د. شكرى عياد ٢٦
★ عباقرة يهود في كل زمان ومكان .... د. عبدالوهاب المسيرى ٣٤
★ لإبداع ونهاية الشوط .... د. مصطفى سويف ٤٤
★ المصريون والسلطة .... د. رؤوف عباس ٥٢
★ (رسالة المغرب) الواقعية والحداثة في ندوة الرواية ....
.... مصطفى نبيل ١٣٨
★ نونة الشعنونة بين الفن والفج .... صافى ناز كاظم ١٤٤
★ شاعر عاف سكون النار .... د. عبداللطيف عبدالحليم ١٥٠

شعر وقصة

★ عشقت الصحاري (شعر) .... سليم الرافعى ١٤٣
★ السخان (قصة) .... أهداف سويف ١٢٦

ماذا حدث للمصريين ؟

جزء خاص

★ متغيرات في الشخصية المصرية .... فاروق خورشيد ٦٢
★ ثلاثة أجيال من النساء المصريات .... د. جلال أمين ٧٢

★ بين الأمس واليوم .... ألفريد فرج ٨٢

★ نحن المصريون المحدثون .... مصطفى الحسينى ٩٠

★ بانوراما التغيرات الاجتماعية في مصر الحديثة ..... على فهمى ٩٦

فنون

★ زينب خاتون.. الكنز والبيت .... أحمد أبوكف ١٠٢

★ السينما بين السقوط والصعود .... مصطفى درويش ١١٠

★ قصيدة الروض وبيت الندي، كرمة ابن هانيء ....

.... ابراهيم داوود ١٢٠

★ عد أفلامك يا جحا .... محمود قاسم ١٧٢

التكوين

★ قهرني سجن الشبراوي ستة أشهر .... محمد عودة ١٧٨

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء - أقوال معاصرة - من الهلال إلى الهلال - المكتبة - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهـــلال تقـــدم

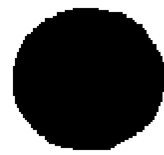
عشيقة الضابط الفرنسى

تأليف

چون فاولز

ترجمة

عبد الحميد فهمى الجمال



تصدر

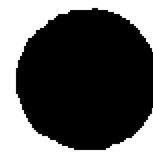
١٥ أغسطس ١٩٩٦

كتاب الهـــلال القـادم

المدينـــة العربيـــة

بقـــلم

د. جمال حمدان



يصدر

٥ سبتمبر ١٩٩٦

رقم الايداع
٩٦/٤٠٥٩
I. S. B. N.
977- 07- 0472- 5

هذا الكتاب

يتغيًا هذا الكتاب الموجز غايات شتَّى ، منها الكشف عن جهود الهيئات والأفراد فى نشر الكتاب العربى وإذاعته فى القرن التاسع عشر ، ومنها : تحليل وإبراز الدوافع التى وقفت خلف طبع الكتب فى مصر ، فلم تكن المسألة أن تُصفَّ حروف ويُبسط ورق وتدور ماكينات ، لقد كانت هناك رغبة عارمة من رجال مصر فى اللحاق بركب الحضارة ، وملاحقة التطور الأوربى الذى تناهت إليهم أصداؤه وثماره ، ومن هذه الغايات إبراز أثر مصر ووفائها للثقافة العربية بما طبعته وأذاعته من الكتب فى الميادين الثلاثة : نشر التراث والترجمة والتأليف ، ولقد كان الرجال جادّين كل الجِد فى بناء دولة وقيام حضارة لم تكن لمصر والمصريين فقط ، بل مدّت ظلالها لتشمل العالم العربىّ والإسلامىّ كله فى ذلك الزمان .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

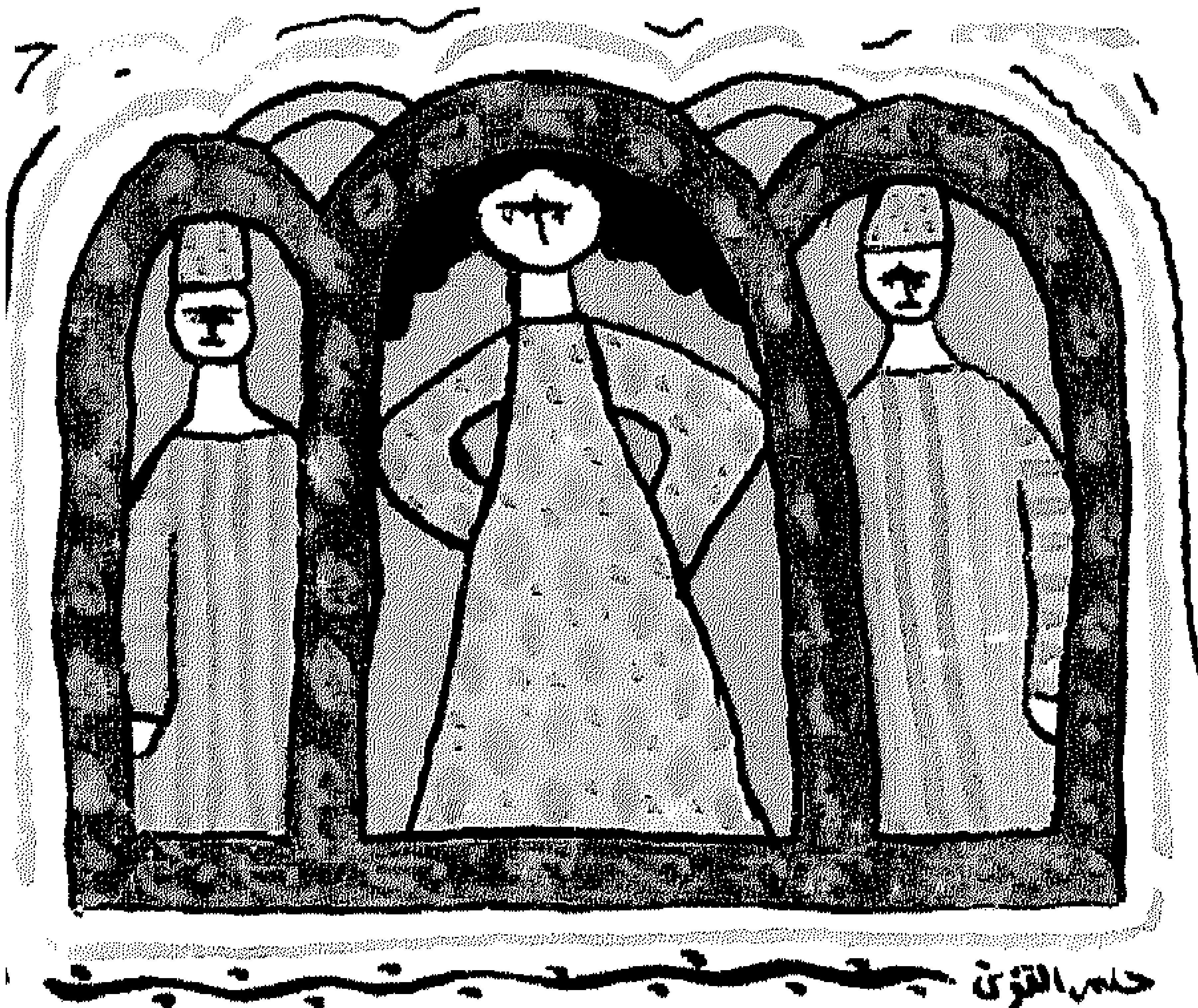
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

المدينة العربية

د. جمال حمدان





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٩ – ربيع ثانى – سبتمبر ١٩٩٦ NO-549- SE-1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٦٠٠ قرشاً

سوريا ١٨٥ – لبنان ١١٥٠٠ ليرة – الاردن ٤٥٠٠ فلس – الكويت ٢٥٠٠ فلس – السعودية ٢٠ ريالاً.

المدينــة العربية

بقلم :

دكتور جمال حمدان

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مقـــدمة

للمدينة دور غير عادى فى الحضارة العربية . فهناك من الأدلة ما يوحى بأن حضارة العرب كانت أساساً حضارة مدن ، فلقد كانت المدينة بلا مغالاة مصنع ، الحضارة العربية . بينما فيما بعد فى عصورنا المظلمة أصبحت المدينة مستودع البقية الباقية من حضارة الإسلام الرائعة – أصبحت «متحف» الحضارة العربية . ولئن كانت أنهار العرب تمثل «تاريخا سائلا» كما يقولون ، فإن مدننا الكبرى «تاريخ محفوظ» . أما فى عصرنا الحديث فقد تحددت نقطة التماس الحرجة فى عملية الاحتكاك الحضارى بين الشرق والغرب فى المدينة أساساً ، وبذلك صارت «بوتقة» الحضارة العربية الجديدة . وهكذا : من مصنع إلى متحف إلى معمل كان تطور دور المدينة العربية الحضارى . والمدينة العربية تعيش اليوم عصر نهضتها risorgimento بحق لتأخذ مكانة مرموقة بين أنماط المدنية فى العالم . وهى فى كل هذا تكاد تكون اختزالا بليغا للشخصية الإقليمية العربية ، ومفتاحاً لمنطقة حضارية متميزة Kulturkreise بالمعنى الأنثروبولوجى . فهى بكل وضوح بؤرات للتطور الحضارى وبلورات من التحضر ؛ هى أجهزة الاستقبال

والإرسال المادى والعملى ، ومراكز الاستقطاب الفكرى والإشعاع الثقافى . وهى فى أكبر صورها بوتقة للانصهار الحضارEmelting-† pot وفى نفس الوقت جبهات للتصادم الجنسى : مشاتل للتخمر السياسى ومواطن للوعى القومى . بينما هى فى أصغر صورها حبوب اللقاح الحضارية التى تبث التغيير والتطوير فى تضاعيف الريف وخلايا الأقاليم .

إذا كان هذا هو الدور الحيوى الذى تمارسه ومارسته المدينة العربية ، فهل يتناسب معه اهتمامنا العلمى وجهدنا الأكاديمى ؟ إن الذى يدرس المدينة الأوروبية لاشك واجد أن مشكلته هى كيف يستوعب تلك المكتبة العامرة العارمة التى تبدأ على سبيل المثال من المدينة القديمة La Cité Antique لفيستل دى كولانج وتتقدم إلى عمل لافيدان الضخم عن العصور القديمة والوسطىHistoire de l'Urbanisme† إلى رائعة ديكسون «الموسوعية» الكبيرة†West European City†.. إلخ عدا - حرفياً - آلاف من المونوجرافات والأبحاث التفصيلية . أما مشكلة الباحث فى المدينة العربية فهى بلا تردد كيف يبدأ من لا شىء وكيف يعمل من نقطة الصفر . ليست ثمة إلا بضع مونوجرافات - دراسات منفردة - عن بعض المدن وخاصة العواصم العربية ، أكثرها من أقلام غير عربية وأقلها ما ظل محتفظاً بجدته . أما عن الدراسات الإقليمية فليس منها إلا بعض محاولات حديثة محدودة لا تغطى إلا جزءاً صغيراً

من العالم العربى . وأسوأ من هذا أن الخامة الأولية للدراسة قد تكوت فاقدة تماما فى بعض الحالات، سواء فى هذا الإحصاءات أو الخرائط . إن المدينة العربية باختصار تكاد من وجهة البحث العلمى تكون أرضا مجهولة .

وفى البحث الحالى محاولة أولى لعمل مسح إقليمى متكامل للمدينة فى إطار منهجى محدد وفى حدود معينة التزمها . فأولا هو لا يتعرض للناحية التاريخية ، فذاك وحده يمكن أن يكون موضوعا لدراسة مفصلة شيقة وإن تكن شاقة . وقد آثرنا أن نبدأ من الوضع الحالى مباشرة فى حدود الفترة الحديثة . وعلى كل فقد سبق أن عالجنا هذا البعد التاريخى للمدينة العربية فى أكثر من مكان آخر (١) .

ثم إن هذا البحث ثانياً لا يتعرض لما يسمى جغرافية المدينة الداخلية بل يقصر نفسه على الدراسة الإقليمية الخارجية . وهى فى ذاتها جانب مهمل إهمالا مثيراً فى جغرافية المدن . كما أن الدراسة الداخلية تحتاج إلى الأبحاث الحقلية المباشرة ، وأكثر من ذلك إلى عمل حياة برمتها ! فى هذه الحدود إذن يبدأ هذا العمل بدراسة أصولية

---

(١) جمال حمدان . جغرافية المدن . القاهرة ، ١٩٦٠ . ص ٦٠ – ١٣٤ ،
G. Hamdan, The Pattern of Medieval Urbanism in the Arab World, Geography, April, 1962, pp.121-134.

systematic مقارنة نتتبع فيها تباعا الانفجار المدنى الحديث فى العالم العربى ، ثم نحلل المدن الكبرى فالعواصم فالمدن الجديدة ، وأخيراً نحاول تصنيفاً وظيفياً عاما لمدن العرب . ثم يأتى الباب الثانى إقليمياً فتدور فصوله مع قطاعات شبكة المدن العربية كل حسب وحداته الجغرافية الطبيعية دون أن نغفل وحداته السياسية تماماً . وفى هذا الباب الأخير محاولة لبلورة وتطبيق منهج جديد موحد فى معالجة الشبكة المدنية . منهج يحلل هيكل الشبكة إلى محاور وخطوط عضوية أكثر منه إلى نقط أو بقع عفوية . ولابد هنا أن ننبه إلى أمرين أولهما يختص بفلسطين المحتلة ، فقد أنتهينا إلى أن علينا أن ندرس ما فعله العدو بها كجزء من واجبنا من معرفة عدونا الأكبر . ثانيا لم تعالج مصر فى الدراسة الإقليمية اكتفاء هنا بما سبق لنا من معالجة لها فى مكان آخر (١) .

ويود المؤلف هنا أن ينتهز هذه الفرصة ليقدم كل شكره وعميق تقديره للصديق الفنان الأستاذ إدوارد إبراهيم سعد المدرس الأول بوزارة التربية والتعليم على تفضله برسم خرائط هذا الكتاب فجاءت بهذه الدقة وهذه الإجادة .

(1) G. Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, Cairo,1959.

الباب الأول

دراسة أصولية

الفصل الأول

حضارة المدن

تطور المدنية

أتى على المدينة العربية حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا . ففى القرون الخمسة الماضية ، حين كانت أوربا قد خرجت من عصورها المظلمة وأخذت تتواثب وتتفجر حول العالم ، كان العالم العربى قد ودع عصره الذهبى ودخل عصوره المظلمة فى فترة طويلة من «البيات الشتوى» الحضارى . ومع اقتصاده وحضارته وسكانه ، ذبلت مدنه وتدهورت . ولم ينعكس الاتجاه إلا مع القرن التاسع عشر حين بدأ «الاحتكاك الحضارى» مع الغرب ، وبدا كما لو أن العالم العربى – هو الذى كان مهد المدينة الأول التى منها انتشرت إلى أوروبا – قد أخذ يقترض حياة المدن ضمن بقية مركبات الحضارة الحديثة من تلك القارة ولكن هذه الاستعارة لم تكن قط خلقا وإنما بعثا كانت . وقد تجرثمت منذ بداية القرن ١٩ بوادر «ثورة سكانية» اشتد عودها منذ منتصفه واكتملت قواها منذ بداية القرن الحالى . وليس ثمة أرقام يقينية عن هذه

البداية ، ولكن تقديرات ١٨٠٠ الاجتهادية تعطى مصر والجزائر نحو ٢,٥ مليـــون لكل ، ومليـــونا للعراق ، ٨٠٠ ألف لســوريا ، ٣٠٠ ألف لفلسطين (١) أى نحو ٧ ملايين لهذه الوحدات الخمس فإذا كانت هذه الوحدات تمثل اليوم - ١٩٦٠ - نحو ٥٥٪ من كل سكان العالم العربى ، فيمكن بصورة تقـريبية جدا أن نقدر ســـكان العالم العربى فى ذلك التاريخ - ١٨٠٠ - بنحو ١٣٫٠ مليونا . ولما كان عددهم اليوم حوالى ١٩٦٠ هو بغير كســور ٨٩ مليونا ، فمعنى ذلك أن العالم العربى الآن ٧ أمثال ما كان عليه حينذاك ، أى أنه زاد بنسبة ٦٠٠ ٪ فى نحــو قرن ونصف . تلك إذن ثورة ديموغرافية ، عارمة لا شك فيها .

ومن أسف أننا لا نستطيع أن نقدر القطاع المدنى فى جسم السكان منذ بداية تلك الفترة ، ولكن كل الدلائل تشير إلى أنه كان ضئيلا . حقا لقد ورث العالم العربى عن تاريخه الألفى الحافل شبكة مدن يمكن أن تعد شيئاً بالقياس المحلى . ففى مصر مثلا كانت نسبة سكان المدن ١٩٪ (١٨٠٠) ، بينما عن العراق يقول بلا نشار :

"... nombre relativement élévé des villes dans un pay-

(1) A. Bonné, Economic Development of the Middle East, Lond., 1945, p.10.

aussi miserable et aussi peu peublé ..." (1)

ومع ذلك فبالمقياس العالمى الجديد لا شك أننا بدأنا الفترة الحديثة بتخلف مدنى محقق .. ثم مع تجمع خيوط الثورة السكانية بدأت حركة تمدين وئيدة ولكنها أكيدة . على أن حركة التمدين لم تواكب طفرة السكان العامة زمنيا ولم تناظرها حجما . ففى مصر مثلا تخلفت موجة المدنية عن موجة السكان وظل معدل نمو المدن أقل من معدل نمو السكان العام حتى نهاية القرن الماضى ، ثم انعكست العلاقة بعد ذلك وبتزايد مطرد حتى أصبح المعدل المدنى فى العقدين الأخيرين نحو أربعة أمثال المعدل السكانى (٢) . ومن الطبيعى أن تتخلف بداية التمدين عن بداية النمو السكانى ، لأن المدينة إنما تستمد خامتها ومادة جسمها من الريف ، فكان طبيعيا أن ينمو الريف أولا وبعده تنمو المدن . ولكن إن صح هذا فى البداية ، فإن عاملا آخر تدخل فى النهاية ليعوق انطلاقة المدينة بالنسبة لانفجار السكان . هذا هو الاستعمار الذى فرض التوجيه الزراعى ليئد الصناعة وأداً ، ومن ثم إذا لم يكن قد عرقل نمو السكان العام فقد وضع تحديدا مباشرا وصارما على إمكانيات نمو

(1) R. Blanchard, L' Asie Occidentale, t. VIII, Géog. Universelle,1929.
(2) I. A. Farid, Population of Egypt, Cairo, 1948, P.20; G. Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, 1959, P.12.

المدن . ولهذا لم تنطلق المدينة حقا إلا منذ تقهقر الاستعمار وتقدم التصنيع مع الحرب الأخيرة . وعلى هذا يمكن أن نميز ثلاث مراحل فى تطور المدنية الحديثة فى مصر : مرحلة أولية تغطى القرن ١٩ كله فهى طويلة بطيئة شاقة تقل فيها سرعة الزحف المدنى عن المد السكانى ؛ ثم مرحلة تكوينية من بداية القرن الحالى حتى الحرب العالمية الثانية وفيها تغلب معدل نمو المدن على معدل نمو السكان العام كثيرا وارتفعت نسبة المدنية العامة إلى أقل من $\frac{١}{٤}$ مجموع السكان ؛ أخيرا مرحلة انفجارية منذ الحرب الأخيرة وفيها أصبح معدل نمو المدن عدة أضعاف معدل نمو السكان العام وارتفعت نسبة المدنية العامة إلى أكثر من $\frac{١}{٣}$ مجموع السكان .

وبطبيعة الحال ، لا تنطبق هذه الدورة التطورية تماما على سائر أجزاء العالم العربى . فقد تخلفت بداية الدفع المدنى فى أجزاء كثيرة منه بدرجة أو بأخرى ، فهى لم تتضح فى المغرب والشام والعراق إلا منذ النصف الثانى من القرن الماضى ، بينما تأخرت حتى الحرب الثانية فى بقية الأجزاء . ففى المغرب بعامة كان الاستعمار السكنى ضابطا مذبذب الأثر : فهو فى البداية قد شل نمو السكان والمدن على السواء بحروب الإبادة والطرد إلى الصحراء والجبال ، ثم بعد ذلك دفعه بالإحلال الأجنبى الذى تركز أساسا فى المدن كما دفع نمو المدن

بانتزاع الملكيات الزراعية من الوطنيين فتحولوا بالهجرة إلى بروليتارية مدنية . وبوجه عام ، لا تتخلف مراحل دورة التمدين فى المغرب عنها فى مصر تاريخياً إلا بعقود قليلة على الأكثر . وبالمثل فى الشام حيث كان الموقع وكانت تجارة المرور دائما دعامات المدنية . بل إن عملية التمدين هنا بسبب ضآلة حجم السكان العام تقدمت بسرعة كبيرة حتى وصلت الآن إلى نسب تزيد عما بمصر كما فى لبنان مثلا . وقد كان تطور فلسطين يسير تقريبا فى خط سوريا إلى أن دهمها الخطر الصهيونى الذى تركز فى المدن تحت الإنتداب ثم تحولت فلسطين المحتلة على أيدى إسرائيل إلى مخلوق شاذ مدنياً فى أقل من عقد . ولقد تأخر العراق عن الشام بضعة عقود ولكن لا شك أنه الآن ومنذ العقد الأخير فى مرحلته الانفجارية مدنيا . أما فى الجزيرة العربية فقد كان البترول منذ الحرب الأخيرة هو المحرك الأول والأخير لنمو السكان والمدن على السواء . ومعنى هذا أن بداية التمدين قد تأخرت جداً ، ولكنها فى بعض الحالات عوضت بأن انتقلت مع المرحلة الأولية إلى المرحلة الانفجارية دفعة واحدة وبلا تدرج كما فى الكويت بالذات . على أن السعودية وبقية وحدات الجزيرة مضافا إليها السودان وليبيا لا تزال بدرجة أو بأخرى فى المرحلة الأولية ولم تدخل بعد المرحلة التكوينية .

النمط الجغرافى للمدنية

وعلى أساس هذه الفروق الزمنية فى دورة التمدين . يمكننا أن نعرض لدرجة التمدين كما هى الآن فى مختلف أجزاء العالم العربى . على أن المشكلة المزمنة تقليديا هى صعوبة المقارنة بين نسب المدنية العامة بين الوحدات المختلفة لا لاختلاف المقياس العددى للمدينة الذى تتخذه كل وحدة فقط ، وإنما كذلك لاختلاف المفهوم الحقيقى للمدينة من وحدة إلى أخرى ، بل داخل الوحدة الواحدة . المشكلة باختصار هى أين تنتهى القرية وتبدأ المدينة ، وكيف نفصل سقف الريف عن أرضية المدينة ؟ ويتوتر الخيط الرفيع الذى يفصل بينهما فى كثير من أجزاء العالم العربى بسبب طبيعة السكنى الريفية . فهى قد تدعو إلى الحلات النووية الضخمة سواء خارج المزروع ضمانا للحماية والدفاع أو داخله ضمانا للحماية من الفيضان كما فى مصر أو فى العراق حيث يعرف الأخير ظاهرة نادرة فى العالم العربى – قد يمكن أن نسميها نيجيرية أو مجرية – وهى أن كثيرا من فلاحى الاقطاعيات الزراعية كانوا يفضلون السكنى فى المدن المجاورة مع الرحلة يوميا إلى الحقل على

السكنى فى الريف المكشوف غير الآمن (١) . كما أن إفراط السكان فى ذاته يتخم أحجام القرى حتى تبدو «مدنا إحصائية» وعدا هذا فقد أصبح من الحديث المعاد أن نسبة المدنية على الأساس العددى تختلف عنها على الأساس الشكلى اللاندسكيبى أو على الأساس الفعلى الوظيفى .

ولكن المهم أن ندرك أن كل النسب المئوية للمدنية العامة ليست مقياسا حقيقياً ولا دليلا حاسما على درجة المدنية الفعالة . ولهذا فنحن نوردالجدول الآتى على علاته ومع هذه التحفظات (شكل ١) .

الوحدة	السنة	نسبة سكان المراكز الإدارية ٪	نسبة سكان المحلات + ١٠ ألفا ٪
مصر	١٩٤٧	٣٢	٣٣
مصر	١٩٦٠	-	٣١ (٢)

(1) Blanchard, op. cit.

(2) D. Sadek, "Medium - Sized Towns in the Urban Pattern of Modern Egypt," Bull. Soc. Géog. d'Egypte, 1961, p.115.

الأردن	١٩٥٢	٣٧,٧	٢٨,٧
فلسطين المحتلة	١٩٥٨	–	٧٥,٩ (١)
سوريا	١٩٥٢	٢٧	٢٤,٦
لبنان	١٩٤٧	–	٤٣,٤ (٢)
العراق	١٩٤٧	٣٣	٢٦,٧
العراق	١٩٥٧	–	٣٦ (٣)
السعودية	١٩٦٠	–	٩
السودان	١٩٥٦	–	٨ (٤)
تونس	١٩٥٢	٣٧	–
الجزائر	١٩٥٢	–	٢٠
المغرب	١٩٥٢	–	٢٣,٥

(1) D.H.K. Amiran & A. Shahar, "The Towns of Israel," Geog. Review, July, 1961, p.319.

(٢) لبنان فى عهد الاستقلال . المؤتمر الثقافى العربى الأول : الحكومة اللبنانية .

(٣) جاسم الخلف . محاضرات فى جغرافية العراق . القاهرة ١٩٥٩ ص ٤١٤ .

(٤) سعد الدين فوزى . جوانب من الاقتصاد السودانى ص ٢٤ .

ومن الخطأ أن نحلل معنى هذه الأرقام بدقة أكثر مما تستحق . ولكن لنا أن نأخذ بتوجيهها العام . وعلى هذا الأساس يمكن أن نصنف العالم العربى إلى ثلاثة أنماط رئيسية من المدنية العامة : قاعدى ، وبدائى ، وشاذ ، فالنمط القاعدى هو الذى يسود الجزء الأكبر من المنطقة ويمثل العمود الفقرى للمدنية العربية ، وفيه تتراوح النسبة بين الثلث والربع ، وهذا يشمل مصر وسوريا والعراق وتونس والجزائر والمغرب . وهذا النمط يدل بعامة على قدر معقول من التمدين لا هو الآن بالمفرط ولا هو بعد بالمفرط . وهو ينبعث عادة من قدر متوازن من الزراعة والتصنيع والنشاط التجارى . وهو يعنى بالقطع «انفجاراً مدنيا» ، ولكن لا يمكن أن نتكلم فيه عن «ثورة مدنية» بالمعنى الصحيح . وسيلاحظ أن هذه هي أكثف وأغنى أجزاء العالم العربى سكانا وانتاجا: هى دول «النواة» أو الدول «القديمة» . وثمة حالة خاصة تمثل تطورا لهذا النمط دون أن تصل إلى النمط الشاذ ، وهى لبنان . فهنا تتعدى النسبة الثلث بكثير وتقترب من النصف ، كما أن نحو ١٤ ٪ من مجموع السكان يعيش فى الريف ولكنه يمارس فيه حرفة غير الزراعة ، عدا أن الكثير من سكان الجبل يهاجرون موسميا إلى أسفل خاصة إلى بيروت وأكثر من هذا فإن نمط القرى اللبنانية وتركيبها يجعلها كلها مدنية بدرجة أو بأخرى بسبب الطبيعة الجبلية والوظيفة السياحية .

أما النمط البدائى فيمثل حالة متخلفة قطعا من التمدين . ويشمل السعودية والسودان وليبيا ، وكلها دول جديدة نسبيا فى ميدان التنمية الاقتصادية والانتاج ، وتمتاز بالمساحة لا الكثافة ، فاثنتان منها دول صحراوية والثالثة دولة صحراء وسفانا . ومع ذلك فينبغى ألا نقبل هذه النسب الشديدة الانخفاض بلا تمحيص . فكما قد يشك فى أن نسب المدنية فى الدول الزراعية السابقة أو بعضها قد يكون مبالغاً فيها بحكم كثرة القرى المتورمة بها (١) ، فهنا فى دول الرعى والصحراء ربما كان العكس محتملا . فمنذ القدم ، والقطاعات الصحراوية فى العالم العربى ترتبط ارتباطا وثيقا بتجارة المرور بدرجة لا تقل عن ارتباط قطاعاته الساحلية الزراعية . فقد كان البدوى هو الواسطة الحقيقية بين جانبى العالم العربى . ولذا شاركت واحات الصحراء فى الوظيفة التجارية وفى مكاسبها . وعدا هذا فإن نمط حياة المدن فى الصحراء له لونه الخاص، فالواحة بالضرورة ريف الصحراء وحضره فى وقت واحد . فبحكم العزلة ، تحتم الواحة الزراعية على سكانها أن يمارسوا وظائف المدينة لها من تجارة ودفاع وإدارة ... الخ . وهكذا تحمل الواحة فى صميم تركيبها جرثومة حياة المدن . إنها كالسفينة فى البحر يجب أن تحمل

---

(1) P. Birot & Jean Dresch, La Mediterranée et le Moyen- Orient, t. II, Paris, 1956. p.414.

مـاءها مـعـهـا . ولئن كـانت المدن الكبـيـرة نسـبـيـا قليلة في المناطق الصحراوية ،، فإن العبرة بالوظيفة لا بالحجم . ولهذا فنحن أميل إلى الاعتقاد بأن هذه النسب الممعنة فى الانخفاض التى تحملها أرقام المدنية في الوحدات الصحراوية هي - كخداع أرسطو - مضللة إلى حد ما . ولو أن هذا لا ينفى أن وحدات كالسعودية أو ليبيا أو السودان تظل تقع فى النمط البدائى من أنماط المدنية .

النمط الشاذ لا يمثل حالة طبيعية وتطورا بل طفرة وثورة لأسباب دخيلة مفروضة أو صدفة عشوائية، وفى الحالين يعنى هذا عنصرا اصطناعيا كامنا فى كيان الوحدة . ويشمل هذا حالتين : الكويت وفلسطين المحتلة . فأما الكويت فقد خصتها الصدفة الجيولوجية - كدولة جيب - بشذوذ خاص جداً جعل السكان فيها والمدن مرادفاً واحداً ، ونكاد نقول إن نسبة المدنية هنا ١٠٠ ٪ . والواقع أن البترول أعاد فى العصر الحديث خلق «دول المدن» الوسيطة ، والكويت «دولة مدن» بكل معنى الكلمة . أما فى فلسطين المحتلة فالسرطان الإسرائيلى سرطان مدنى تماماً . فكأمة - بل طائفة - خلاسية من «طفيليات المدن بلا جذور بيئية ، أتى الاستعمار الصهيونى السكنى لفلسطين ظاهرة مدنية بدرجة صارخة ، فليس يعرف العالم دولة قزمية يعيش ٧٥,٩٪ من سكانها فى المدن إلا فى إسرائيل . فهى بهذا ثالثة دول العالم فى نسبة

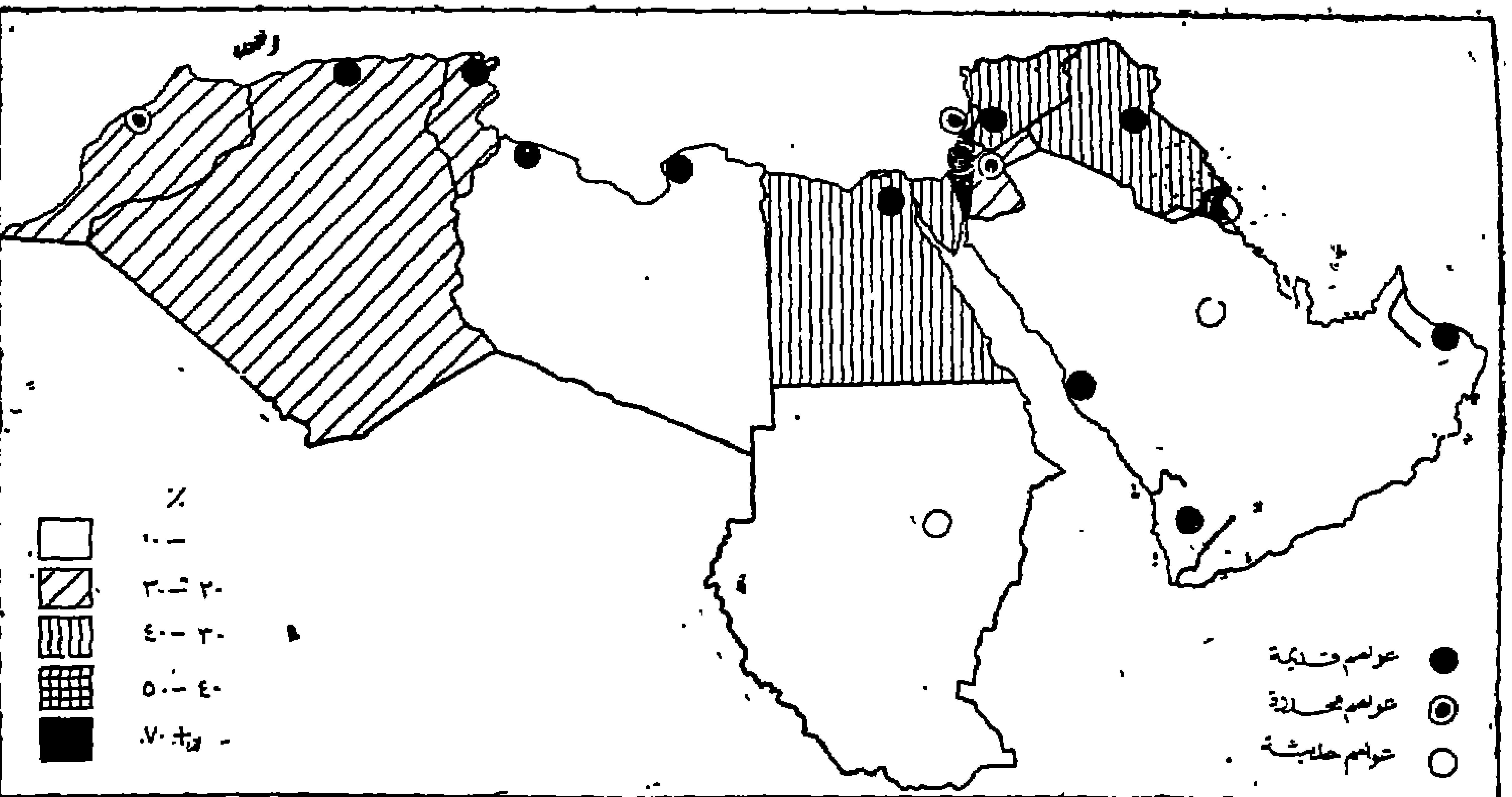
المدنية بعد اسكتلندا ثم انجلترا وويلز . وهذا وحدة يدمغ إسرائيل بالشذوذ والاصطناعية . بل إن نسبة المدنية بين اليهود فى إسرائيل أعلى من نسبتها العامة : ٧٧,٤٪ وقد ارتفعت هذه النسبة أخيراً إلى ٨٤٪ ، مقابل ٢٣٪ من غير اليهود فى إسرائيل يعيشون فى المدن . أى أن تورم المدنية بين اليهود يتحقق جزئياً على حساب العرب الذين تفرض عليهم حياة الريف . وتتأكد هذه الحقيقة بصورة أخرى إذا علمنا أن الـ ٣٣ وحدة التى يزيد حجمها على ١٠ آلاف تضم ٧٦٪ من يهود إسرائيل ، بينما أن ٦٨٪ من العرب يسكنون فى وحدات أقل حجما من ١٠ آلاف . وبوجه عام قدر أن ٦١ ٪ من كل سكان إسرائيل توجد فى ١٩ حالة من فئة + ٢٠ ألفا ، وأنه إذا أضيفت الحالات الـ ١٥ التى تتراوح بين ١٠ - ٢٠ ألفا فإن المجموع الكلى يرتفع إلى ٧٠ ٪ من كل السكان (١) .

ومعنى كل هذا ببساطة أن إسرائيل - من وجهة وعلى أساس جغرافية المدن - ليست فى الحقيقة إلا مدينة شيطانية ضخمة تجمعت فيها «حثالة مدن» العالم ، والمدينة الإسرائيلية ليست إلا استقطابا «لحارة اليهود» فى العالم ابتداء من «الملة» المغربية إلى «القاع» اليمنى

---

(1) Alexander Berler "Urbanization Process in Israel", U. N. Conference on the Application of Science and Technology for the Benefit of the Less Developed areas Geneva , 1962. p.8.

ومن حـارة اليـهـود Judengasse الألمانيـة إلى «الجـيـتـو» الأوربى .
وإسرائيل بهذا ليست فى مجموعها إلا «دولة الجيتو» . وهذا الاختلال الشنيع بين سكان المدن والريف إنما يتم على حساب القاعدة الريفية وما كان ليمكن لولا اقتصاد مزيف يعتمد أساسا على الحقن الاصطناعى من الخارج . أى أن إفراط المدنية وحده يلقى ظلالا كثيفة بما فيه الكفاية على الكيان السياسى لإسرائيل ، ويدمغها ابتداء بالشذوذ والاصطناعية .



شكل ١ ـ نسبة المدنية العامة وأعمار العواصم

ثورة أم دفعة مدنية ؟

ولنا بعد هذه النظرة التحليلية أن نحاول نظرة عامة تركيبية على العالم العربى ككل . إن حياة المدن تقليد قديم متوطن وأصيل فى العالم العربى ، وحضارة العرب في جوهر كيانها حضارة مدن . وقد كانت القاعدة الزراعية العريضة الغنية دعامة أولى فى بناء المدنية العربية ، ولكن إلى جانبها أضيف منذ فجر التاريخ جرعة ودفعة لها خطرها هى التجارة . وظل هذان العنصران الزراعة والتجارة ، أو قل بالتعبير الجغرافى الموضع والموقع ، وراء التراث المدنى العربى معاً أو على التناوب . ولكن فى العصور الوسطى المتأخرة تداعى هذا التراث مع انهيار هذين المقومين . ثم مع الفترة الحديثة والحضارة الجديدة عاد النمو والازدهار . واليوم يمكن أن نقدر أن ثلث العرب من أهل المدن . قد تزيد نسبة المدنية عن هذا هنا أو تقل هناك ، ولكنها فى المتوسط تتراوح حول الثلث . وهذا النمو المدنى يعنى أننا نتقدم حضاريا ، فتوسع المدن – فى حدود معينة – ظاهرة صحية يرحب بها كدليل على التطور والنمو المادى والاقتصادى وغير الاقتصادى . وإذا كان وراء هذا النمو بعض عوامل عشوائية كالبطالة المقنعة فى الريف أو إفراط

السكان الريفيين (١) فليس معنى «الخروج الريفى» أن مدننا مجرد طفح سكانى لا وظيفى ، مجرد فقاعات وزبد الريف تراكم فى إرسابات مدنية غير هادفة . وإنما هو يعنى زيادة فى كفاءة الزراعة وتوسعا فى حاجاتها الحضارية ، وزيادة فى قدرة المدن ونمواً فى إمكانياتها وخدماتها .

وهناك نظرية واسعة الانتشار فيما يختص بمدن الشرق العربى يرددها أغلب من يكتبون عنه ، وأغلب الظن أن مصدرها الأول هو جاك ويلرس فى كتاباته عن جغرافية سوريا ومدنها . وهذه النظرية تضع المدن فى واد والريف فى واد آخر ، وتصورهما كعالمين منفصلين متعارضين . مثلا :

"La ville traditionnelle est, au Moyen-Orient, un noyau parasitaire enkysté dans le pays... elle n'a pas de rapports humains et peu de rapports économiques avec la région qui l'entoure. La population urbaine est formée d'hommes souvent différents de celle de leur milieu... La ville fabrique peu, et rien pour le paysan." (1)

(1) Birot & Dresch, op. cit' p.414.

ومن الثابت أن فى هذا كله ظلا من الحقيقة ، ولكن ظلا من الحقيقة فقط . ولهذا فليس من التوازن فى شيء أن نبالغ فيها إلى هذا الحد . وإذا كان من الصحيح إلى حد ما أن كثيرا من مدننا قد بدأت أو ترعرعت على أصول واقتصاديات طفيلية على حساب الريف وذلك فى ظل الاقطاع والاستعمار التركى أو الأوربى وما تعنى من ملكيات غيابية واستنزاف للريف ودخوله [٢] ، فإن الوضع قد تغير كثيرا فى العقود الأخيرة . فلم تعد المدينة العربية مجرد عالة على الريف الزراعى ، بل هى تتحول بسرعة إلى منتج حضارى ومادى فعال لا سيما مع التصنيع . ولذلك فكل توسع فى حياة المدن ، هو بلا شك ارتفاع فى حضارة العرب بوجه عام . بل إننا ليمكننا بلا تردد أن نقيس مدى تقدم العالم العربى اليوم بمقياس اختزالى وحيد ولكنه بليغ ، وهو نسبة المدنية . كذلك إذا كان جزء من السبب فى ارتفاع نسبة حياة المدن فى العالم العربى تقليديا كثرة ما به من الأقليات الأجنبية – وهى كقاعدة

(1) Jacqueline Beaujeu- Garnier, L'Economie du Moyen-Orient, Qoll. Cue Sais- Je?, Paris, 1951, p.35.
(2) Birot & Dresch, op. cit., p. 327; Jean Tricart, Cours de Géog. Hum., Fasc. II, Habitat Urbaain, Paris, 1958, PP. 231 - 2; J. Weulersse, Antioche, un type de cité d'Islam, Comptes Rendus, Congr. Intern de Géog., Varsovie, 1934, t. III, pp. 255-6; L. Dubertret & J. Weulersse, Manul de Géog Syrie, Liban et Proche- Orient, Beyrouth, 1940, p.95.

سكان مدن – من شرقية وغربية ، لاجئين أو مستعمرين ، أكراد وأرمن وشركس أو فرنسيين ويونانيين وقبارصة وطليان وانجليز ... الخ ، فإن هذا عامل محدود فى النهاية ، وقد صفى أخيرا إلى حد بعيد دون أن يترك أى تأثير سلبى على حركة التمدين العربية هذا أول .

أما إذا قارنا بين نمو السكان الحديث ونمو المدن ، فلا جدال أن بينهما فارقا حجميا كما أن بينهما فارقا زمنيا . ففى الفترة الحديثة إذا كان العالم العربي قد ضاعف سكانه نحو ٧ الأمثال ، فإن مدنه لم تتضاعف بالقطع بشىء مثل هذا المعدل . وإذا كان ثمة «ثورة ديموغرافية revolution démographique » فليس ثمة إلا «دفعة مدنية Poussée urbaine†å . وبالمقارنة بأوربا مثلا لا تقل ضخامة ثورتنا الديموغرافية عنها نسبة ، ولكن بينما عرفت أوربا د رة مدنية كاملة قد تكون أخطر من ثورتها السكانية العامة ، فان النسبة مختلة كثيراً بينهما فى حالة العالم العربى . وجزء كبير – لعله الأكبر – من السبب يرجع إلى الإستعمار الأوربى للعالم العربى . فالاستعمار كمناسبة للاحتكاك الحضارى أو بالأحرى الاحتكاك كمطية للاستعمار ، قد مكن أو لم يمانع فى ثورة سكانية عامة تقدم الأيدى العاملة لاستغلاله للموارد الزراعية . بمعنى آخر لقد رحب الاستعمار بثورة سكانية «ريفية» فى العالم العربى كما فى كل المستعمرات . ولكن حين

كان الأمر يعنى تنمية الموارد الصناعية ، أى التصنيع ، حارب الاستعمار كل نمو ممكن ، وبالتالى أجهض الثورة المدنية الممكنة .

وحتى اليوم فى حالة البترول تؤدى السياسة الاحتكارية الأجنبية إلى توجيه بترول العرب وجهة خامية بحتة ويسلبها إمكانياتها الصناعية ويظل البترول تعدينا لا صناعة . وعلينا أن ندرك هنا أن ثورة البترول فى العالم العربى تعنى مدنا أولا وقبل أن تعني سكانا بالمعنى العام . فمن أهم الحقائق البشرية المعاصرة فى منطقتنا أن الثورة العمرانية التى حركها البترول فى العالم العربى كانت ثورة مدنية أولا ثم ثورة سكانية في المحل الثانى . فالطفرة المثيرة حتى الآن لم تكن نمو السكان العام ولكن نمو المدن ، سواء منها الجديد البكر أو القديم الذى يتجدد . ومع ذلك فالحجم العام المطلق لهذه الطفرة المدنية محدود فى النهاية . وأخطر من ذلك أن البترول كله يمثل ثورة منقوصة سلبها الإقطاع فى الداخل والإستعمار فى الخارج أغلب فاعليتها المدنية - وغير المدنية - الممكنة . ولذلك فنحن نخلص إلى أن دور البترول في دفعة المدن فى العالم العربى وإن كان مؤكدا فإنه أقل من أن يتناسب مع ضخامة الثورة البترولية نفسها .

والمحصلة العامة لهذا كله هى أن الإستعمار السياسى والاقتصادى اللذين تعاقبا على المنطقة إذا كانا قد دفعا الثورة الديموغرافية بصورة

أو بأخرى فقد دافعا الثورة المدنية في أكثر من صورة . لهذا جاءت الموجة المدنية فطيرة بقدر ما جاء المد السكاني خطيراً . ومن الناحية الأخرى حول الاستعمار إمكانيات التمدين العربى – كما فى بقية أجزاء العالم الثالث Le Tiers Monde لحسابه هو فى أوربا ، وليست العلاقة العكسية بين إفراط المدنية over - urbanisation فى أوربا وإفراط سكان الريف فى العالم العربى rural over - population علاقة عشوائية أو محض صدفة ، بل هى العلاقة بين السبب والنتيجة ، بين الجمع والطرح ، وإن بدت غير مباشرة لأول وهلة . والعالم العربى كجزء من الشرق يخضع فى هذا للمعادلة الآتية التى يلعب الاستعمار فى طرفيها دور القاسم المشترك .

الغرب = ثورة سكانية + ثورة مدنية

الشرق = ثورة سكانية – ثورة مدنية (١)

وقد بدأت بوادر التغيير فى هذا الوضع منذ بدأ الاستقلال والتصنيع منذ الحرب الأخيرة . ولنا على هذا الأساس أن ننتظر فترة خصبة من الانفجار المدنى الطليق فى العقود القليلة المقبلة فى العالم العربى ، بدأت إرهاصاتها من قبل فى كثير من أجزائه خاصة فى مصر. ولن يمضى طويل وقت حتى يكون نصف العرب سكان مدن . ولن يكون هذا اتجاها نحو علامة الخطر كما قد يخشى المتشائمون من

(1) Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, p. 11.

أعداء المدن . بل هو يتفق مع الاتجاه العام العالمي فى ظل الحضارة المعاصرة التى تتجه بلا مراء إلى أن تصبح حضارة مدن أولا وقبل كل شيء . ولا يمكننا أن نختتم هذا الموضوع دون الإشارة إلى إدعاء الاستعمار الأوربى الملح بأنه صاحب الفضل فيما وصل إليه العالم العربي من عمران ، من سكان ومن مدن . ففى زعمه أنه هو الذى نمى بحضارته «وبرسالته» كل تلك القوى التي شكلت الكيان العربى بيولوجيا وعمرانيا ، وهو زعم طالما ردده الفرنسيون فى المغرب عامة والجزائر خاصة ، ورجع صداه الانجليز فى المشرق عامة ومصر خاصة . هذه - على سبيل المثال - جاكلين بوجيه جارنييه تتساءل فيما يختص بمصر:

"... n'est- ce pas la technique brittanique qui c'est appliquée á l'irrigation du pays ?

ثم تضيف "et les bénéfices que I'Egypte, siége d'armées au cours des deux recentes guerres, a réalisés lui ont permis d'accomplir déjá certaines transformation économiques..."(1) وردنا على هذا الادعاء

(1) L'Economie du Moyen- Orient, Coll. Que Sais, -Je? Paris 1951, P.70.

أن من المحقق على المستوى الديموغرافى العام والمدنى الخاص، أن الاستعمار لم يفعل سوى أن سلب المنطقة خير إمكانياتها وطاقاتها ، وأن ثورتنا السكانية ما جاءت منقوصة ولا دفعتنا المدنية فطيرة إلا لعامل واحد بالذات هو النزيف المادى والاقتصادى الذى أحدثه الاستعمار .

الفصل الثانى

المدن الكبيرة

نمو المتربوليتانية

نسبة سكان المدن الكبيرة أو المائة ألفية - وهى التى تسمى بالمتربوليتانية تمييزا لها عن المدنية العامة - مقياس دقيق لحضارة المدن الحقيقية . وفى الإطار الحضارى المعاصر للعالم العربى لاشك أن المدنية الكبيرة هى الموطن الحقيقى لحياة المدن الكاملة . وحتى منتصف القرن الماضى لم يكن بالعالم العربى إلا بضعة قليلة من المدن الكبيرة لا تعدو القاهرة (٢٥٤ ألفا) والأسكندرية (١٣٤ ألفا) ودمشق (١٥٠ ألفا) ، الأولى منها فقط هى التى كانت تصل إلى علامة ربع المليون . وحتى نهاية القرن لم تكن الزيادة فى عدد المدن الكبرى زيادة خطيرة ، وعنده أخيرا ظهرت أول مدينة نصف مليونية فى العالم العربى - القاهرة (٥٨٩ ألفا فى ١٨٩٧) . وحتى فترة ما بين الحربين وقبل الحرب الأخيرة لم يزد عدد المدن المائة ألفية العربية عن عشر إلا قليلا كما يتضح من الجدول الآتى .

الدولة	١٩١٠ (١) نسبة المدن الكبرى من مجموع السكان ٪	١٩٢٧ – ١٩٣٠ (٢) عدد المدن الكبرى			١٩٣٢ – ١٩٣٧ (١) مجموع سكان المدن الكبرى بالألف	
		عدد المدن الكبرى	مجموع سكانها بالمليون	نسبتهم من مجموع السكان٪	مجموع سكان المدن الكبرى بالألف	نسبتهم من مجموع السكان ٪
سوريا ولبنان	٢٠,١	٢	٠,٣١	١٥,٥	٦٠٩	٢٠,٣
فلسطين	–	–	–	–	٢٦٥	٢٠,١
العراق	٧,٢	١	٠,٢٥	٨,٩	٣٠٠	٩,١
مصر	٩,٢	٣	١,٧٤	١٢,٢	٢,١٢٣	١٣,٣
تونس	–	١	٠,١٩	٨,٥	–	–
الجزائر	–	٢	٠,٣٨	٦,٢	–	–
مراكش	–	٢	٠,٢٦	٤,٨	–	–

(–) أرقام غير متوفرة

وهكذا لم يأخذ النمو صورة ثورية إلا مع الحرب الأخيرة حين اشتدت الهجرة إلى المدن الكبرى . والجدول الآتى يعطى الصورة عند منتصف القرن وفى الوقت الحالى .

---

(1) Bonné, p. 12 .
(2) Mark Jefferson, "Distribution of World's City Folk," Geog . Review, July, 1931 .

الوحدة	١٩٥٠ (١)	١٩٦٠ (٢)			
	عدد السكان	عدد المدن	مجموع سكانها	مجموع سكان الدولة	النسبة المئوية
المغرب	٦ (٣)	٦	١,٥٩٠,٠٠٠	٩,٠٠٠,٠٠٠	١٧,٧
الجزائر	٤	٥	١,٦٧١,٠٠٠	١٠,٤٨٤,٠٠٠	١٥,٩
تونس	١	١	٦٨٠,٠٠٠	٤,٠٠٠,٠٠٠	١٧,٠
ليبيا	١	١	١٨٤,٠٠٠	١,٠٩٢,٠٠٠	١٦,٧
مصر	٨	١٦	٧,٣٤٧,٠٠٠	٢٦,٠٠٠,٠٠٠	٢٨,٢
السودان	٢	٢	٢٠٦,٠٠٠	١٠,٢٦٢,٠٠٠	٢,٠
سوريا	٣	٤	١,١٥٦,٠٠٠	٤,٤٢٠,٠٠٠	٢٦,٤
لبنان	١	٢	٦٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠,٠٠٠	٤٣,٠
الأردن	١	٢	٣٤٩,٠٠٠	١,٦٠٠,٠٠٠	٢١,٨
فلسطين المحتلة	٣	٣	٧٩٤,٠٠٠	٢,٠٣١,٠٠٠	٣٥,٥ - ٥٠,٦(٤)

تابع الجدول السابق

الوحدة	١٩٥٠ (١)	١٩٦٠ (٢)			
	عدد السكان	عدد المدن	مجموع سكانها	مجموع سكان الدولة	النسبة المئوية
العراق	٣	٤	١,٢٤٩,٠٠٠	٦,٥٣٨,٠٠٠	١٩,١
السعودية	٢	٤	٥٢٠,٠٠٠	٦,٠٠٠,٠٠٠	٨,٦
عدن	١	١	١٣٨,٠٠٠	٦٦٠,٠٠٠	–
الكويت	١	١	٢٥٠,٠٠٠	٣٢١,٠٠٠	٨٠,٠
إفريقيا العربية	٢٢	٣١	١١,٦٧٨,٠٠٠	٦٠,٨٣٨,٠٠٠	١٩,١
آسيا العربية	١٥	٢١	٥,١٣٥,٠٠٠	٢٨,٣٤٥,٠٠٠ (٥)	١٨,١
العالم العربى	٣٧	٥٢	١٦,٨١٣,٠٠٠	٨٩,١٨٣,٠٠٠ (٥)	١٨,٨

(١) عزة النص . أحوال السكان فى العالم العربى . القاهرة ١٩٥٥ . ص ١٤٦

(٢) محسوبة من أرقام Statesman,s Year Book, 1960

(٣) يشمل طنجة

(٤) باعتبار حدود المدن الشكلية ثم حدود المجمعات الفعلية .

(٥) يشمل قطر والبحرين ومسقط عمان .

ونرى من هذا أن العالم العربى كان يملك من المدن الكبيرة فى منتصف القرن العشرين ٣٧ مدينة يزيد مجموع سكانها عن ١٠ ملايين أو ما يعادل ١٣٪ من مجموع العرب ثلثهم فى آسيا والثلثان فى أفريقيا. ثم فى عقد واحد طفر العدد إلى ٥٢ مدينة بمجموع سكانى قدره نحو ١٧ مليونا تمثل أقل قليلا من خمس مجموع العرب الذين يبلغون لأول مرة علامة التسعين مليونا . ومتوسط حجم المدينة العربية الكبيرة بهذا يبلغ نحو ١/٣ مليون . وهناك بعد هذا كوكبة كاملة من المدن على تخوم المائة ألف تتأهب لتضاف إلى القائمة بعد قليل ، وتشمل وجدة وتطوان ومستغانم وستيف وتلمسان وبنغازى والنجف . ومعنى هذا أنه فى السنوات القليلة القادمة سترتفع المدن المائة ألفية العربية إلى ٦٠ مدينة. وحتى نأخذ فكرة عن هذا الموقف بالمقياس العالمى ، ينبغى أن نذكر أنه فى ١٩٥٠ كان بالعالم كله ٨٧٥ مدينة مائة ألفية ، تبلغ نسبة سكانها ١٣٪ (١) . أى أن مستوى متروبوليتانية العالم العربى أعلى بعض الشئ عن مستوها فى العالم ككل . ومعنى هذا أن العالم العربى لم يعد متخلفا فى أى مبعنى من حيث حضارة المدن ، ولكن يقف موقفا وسطا معتدلا . كذلك أذكر أن عدد مدننا الكبيرة يقارب نظيره فى دولة كألمانيا الغربية (٥٩ فى ١٩٥٥) رغم أن عدد السكان فى الأخيرة ٥١ مليونا

(1) Gordon Ericksen, Urban Behavior, N. Y., 1954 P. 60.

تقريبا . هذا بينما اليابان التى تكاد تناظر العالم العربى سكانا (٨٩ مليونا فى ١٩٥٥) لا تزيد كثيرا فى عدد مدنها الكبيرة عن العالم العربى (٦٠ مدينة) (١) . ولكننا ينبغى ألا ننسى الفارق فى المحتوى السكانى لهذه المدن .

أنماط المتروبوليتانية

أما من الداخل فلعل أول ما يسترعى الانتباه ويستدعى التعليق هو أنه رغم أن آسيا العربية تضم ٣٠,٥ ٪ من مجموع سكان المدن الكبيرة فى العالم العربى مقابل ٦٩,٥ ٪ فى أفريقيا العربية ، فان درجة ونسبة المتربوليتانية فيهما متقاربة للغاية .

والشئ المثير أن توزيع حصص سكان المدن الكبيرة بين شطرى العالم العربى الرئيسيين يتفق تماما مع توزيع حصص السكان عامة بينما وهى ٦٨,١٪ ، ٣١,٩٪ للقطاع الأفريقى والقطاع الأسيوي على الترتيب . أما تقارب درجة المترويوليتانية بينهما فدليل على تجانس حضارى عام وتقارب فى مرحلة النضج المادى بوجه عام . ولكن الفروق

(1) Oxford Atlas, 1957, pp. 31, 40 .

تظهر - بشدة - بين الوحدات المختلفة . والواقع أن هنا كما في نسبة المدنية العامة يمكن أن نصنف البلاد العربية إلى نفس المجموعات الثلاث السابقة القاعدى والبدائى.

والشاذ .ففى النمط القاعدى لا تقل نسبة المتروبوليتانية عن ١٦٪ من مجموع السكان وتتأرجح غالبا على جانبى العشرين . وهذه المجموعة تشمل العراق وسوريا والأردن ثم مصر ووحدات المغرب الأربع بزيادة ليبيا هذه المرة . ولكن النسبة هذه المرة أكثر تفاوتا بين أعضاء المجموعة منها فى حالة المدنية العامة . وهى تكاد تتقارب بين وحدات المغرب الأربع حيث لا يستلفت النظر هنا إلا ليبيا التى تعنى أن أغلب حياة المدن فيها مركزة أساسا فى المدينتين الكبيرتين وذلك رغم أن عدد سكان المدن الكبرى المطلق فيها هو أقل ما فى وحدة سياسية عربية . أما العراق حيث كانت النسبة ٧,٢ ٪ فى ١٩١٠ ، ٩,١٪ فى ١٩٣٧ فقد قفز إلى ١٩,١٪ فى ١٩٦٠ وهذا هو نفس رقم مصر فى ١٩٤٧ (١) . على أن درش يعطى سكانا أكبر من أرقامنا للموصل (٤٣٠ ألفا) وكركوك (١٤٨ ألفا) والبصرة (٢٠٦ آلاف) وبذلك يرفع نسبة سكان

---

(1) G. Hamdan, Studies in Egyptian . Urbansim, Cairo, 1949, p. 19 .

المدن الأربع الكبرى فى العراق إلى ربع سكانه(١) . ثم تلى الأردن بنسبة عالية ٢١,٨ ٪ تناهز نسبة فلسطين قبل النكبة ويفسرها تيار اللاجئين الفلسطينيين على المدن الكبرى من ناحية ومن ناحية أخرى سيادة البيئة شبه الصحراوية التى تفرض على الاستقرار أن يتركز فى عدد قليل من النقط الضخمة . ثم تلى سوريا حيث ربع السكان جميعا يتركز فى المدن المائة ألفية . وهذا يؤكد مرة أخرى تأصل ورسوخ المدنية الكبيرة فى التقاليد والبيئة الشامية التجارية . والواقع أن كل منطقة الشام كانت منذ الثلاثينات تسجل أعلى نسب للمتروبوليتانية فى العالم العربى حيث كانت ٢٠٪ فى كل من سوريا وفلسطين فى الوقت الذى كانت فيه ١٤ ٪ فى مصر . ويصل الوضع إلى قمته فى لبنان، حيث يعيش ٤٣ ٪ من كل السكان فى المدن الكبرى ، وتكاد بذلك تؤلف نمطا خاصا بها . أما مصر التى قفزت من ٩,٢ ٪ فى ١٩١٠ إلى ١٣,٣٪ فى ١٩٣٧ إلى ١٩,١ ٪ فى ١٩٤٧ تشمل الآن أكثر من ربع سكانها فى المدن الكبرى . وهى بهذا تأتى قبل سوريا وبعد لبنان فى نسبة المتربوليتانية . ولكن هذا ينبغى أن ينبهنا إلى النقص الكامن فى الدراسات النسبية . فالمدن الكبرى فى مصر تضم وحدها من السكان أكثر من كل سكان المدن الكبرى فى كل آسيا العربية أو أقل قليلا من

(1) Birot & Dresch, La Mediterranée etc. p. 416 .

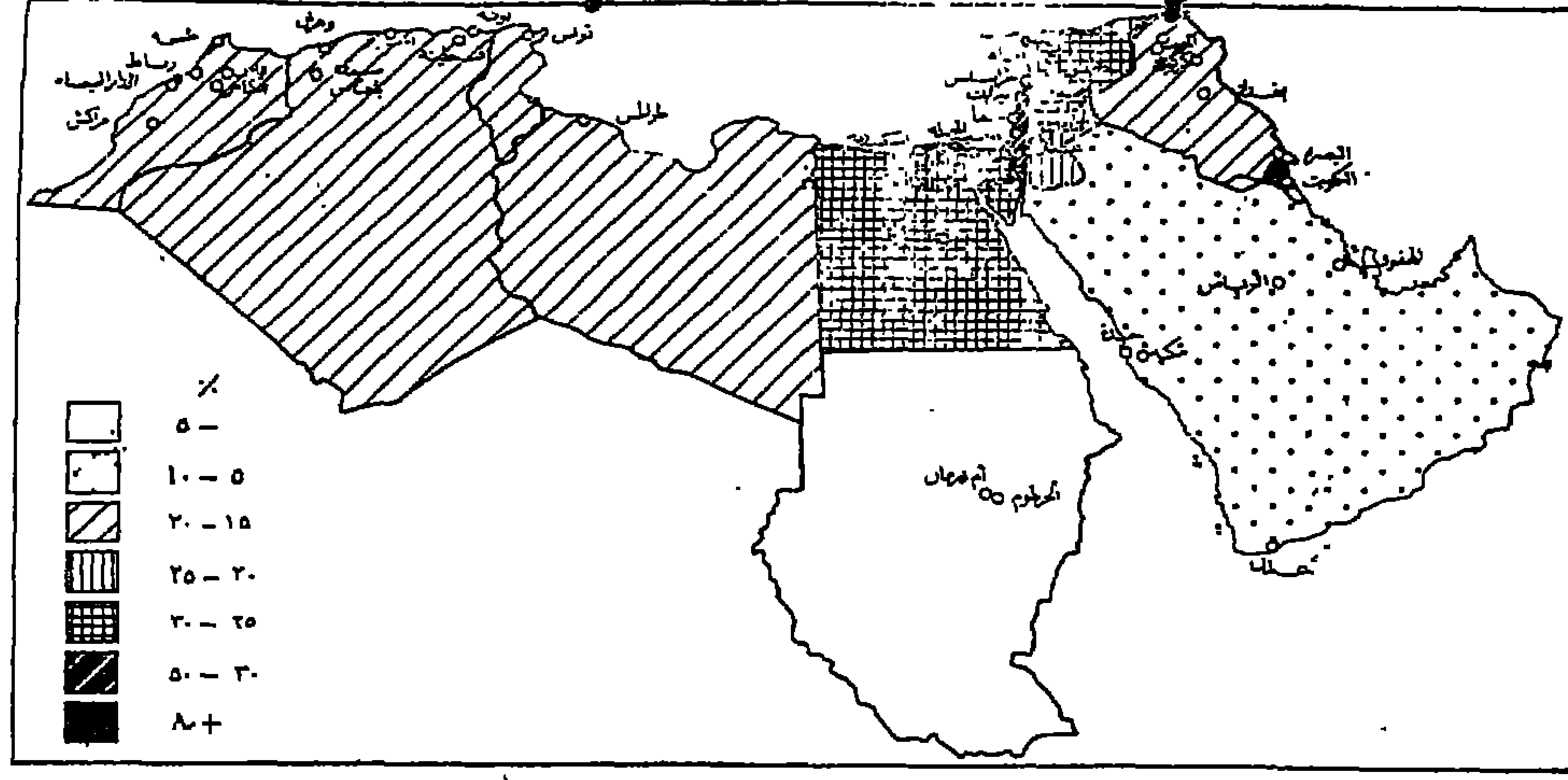
نصف مجموع سكان المدن الكبرى فى كل العالم العربى ، وبصورة أخرى تعادل أكثر من مجموع سكان العراق عامة أو سوريا ولبنان والأردن معا .

أما النمط البدائى فيشمل السودان والسعودية ويتراوح بين ٢٪ ، ٩٪ . وهذا يمثل فى الحقيقة بداية حركة التمدين التى تشق طريقها بصعوبة . والسعودية بهذا تمر فى المرحلة التى كان فيها العراق تقريبا فى ١٩١٠ ، بينما يمكننا أن نقرر الآن بسهولة أن السودان هو أقل وحدات العالم العربى مدنية سواء بالمعنى العام أو بالمعنى المتروبوليتانى. وباستثناء ليبيا ، يمتاز السودان بأقل عدد مطلق من سكان المدن الكبرى فى أى جزء من العالم العربى . إن قطاع المدن فى جسم السكان فى السودان ليس أكثر من قطرة فى بحر .

النمط الشاذ – أخيرا – هو عينه فى تصنيف المدنية العامة . فليس السكان هنا سكان مدن أساسا فقط ، ولكنهم سكان مدن كبرى أولا وقبل كل شئ . وهذا يعنى فى الكويت أن الدولة ببساطة ليست إلا مدينة واحدة ، تضم ٦/٧ السكان جميعا (١) . فلا هرم أحجام مدنية ولا هيرارشية . وإنما ثمة حجر ضخم وحيد monolith يقوم على حيات الرمال مباشرة – حقيقة ومجازا . أما فى فلسطين المحتلة فتجمع غريزة

---

(1) S. H. Longrigg Oil in the Middle East, Lond , 1961



شكل ـ ٢ نسبة المتروبوليتانية والمدن الكبيرة

القطيع المغتصبين الصهيونيين فى المدن الكبرى أساسا حيث ترتفع النسبة إلى ٢٥,٥٪ إذا اعتبرنا حدود المدن الشكلية وإلي ٥٠,٦٪ إذا اعتبرنا المجمعات المدنية الحقيقية (١) . أى أن نصف سكان إسرائيل يتركز فى ٣ نقط محددة . وعدا ما يعنى هذا من تهديد للأراضى الزراعية - خاصة الجيدة - فى رقعة ضئيلة أصلا بسبب هذه «القوارض الزراعية»، فإن هذه حقيقة مدنية هامة جدا للجغرافى السياسي وللاستراتيجى العربى من حيث قيمتها فى جغرافية التحرير الفلسطينى. فهى تعنى أن نصف إسرائيل ليس إلا ثلاث فقاعات مدنية متبلورة يسهل وينبغى تدميرها من الجو بالحرب الخاطفة Blitzkrieg قبل أن يبدأ الزحف الأرضى . وقد تضاعف مغزى هذه الحقيقة منذ دخلت مصر عصر الصواريخ بعيدة المدى .

التوزيع الجغرافي

لننتقل بعد دراسة النسبى إلى دراسة المطلق ، لنرى كيف تتوزع المدن الكبيرة جغرافيا فى العالم العربى . فى المغرب العربى الكبير ١٢ مدينة أو إذا أضيفت ليبيا ١٣ . وهذا يقترب من مجموع الشام حيث نجد ١١ مدينة فى سوريا ولبنان والأردن وبما فى ذلك فلسطين المحتلة .

(1) Amiran, op. cit.

وتضم الجزيرة العربية ٦ مدن . ولكن مصر وحدها تضم ١٦ مدينة أى أقل من ثلث المجموع وهى بهذا تمتلك أكثف كوكبة من المدن الكبرى العربية لأنها بجانب تفوقها العددى تتزاحم فى أصغر رقعة مماثلة فى العالم العربى . وهنا نلاحظ أن كلا من مصر والمغرب الكبير ككل تكاد تتساوى فى حجم السكان بل لقد تواكب فيهما نمو السكان عبر التعدادات الحديثة بصورة ملفتة للنظر . ولكن هذا التناظر الديموغرافى العام لا يؤدى إلى أى تكافؤ فى أعداد المدن الكبرى أو أحجامها فى كل من المنطقتين . كذلك نلاحظ أن الشام بعد مصر هو بالنسبة لرقعته العامة ولعدد سكانه يعد أكثف أجزاء العالم العربى وأغناها فى شبكة المدن .

السؤال الثانى : الساحلى والداخلى ؟ رغم أن توزيع السكان فى العالم العربى يجنح بوضوح تام إلى النطاق الساحلى من الرقعة العامة، فإن العدد الأكبر من المدن العربية الكبرى داخلى الموقع وليس ساحليا . فهناك ١٩ مدينة ساحلية فقط منها ١٤ على ساحل البحر المتوسط ، ٥ على الأحمر والخليج . وإذا قارنا ساحلى البحر المتوسط الشمالى والجنوبى ، الأوربى والعربى ، وجدنا مقابل الـ ١٤ مدينة العربية ٢٦ أوربية من نفس الحجم . وثمة فى المغرب الكبير ٥ مدن داخلية مقابل ٧ ساحلية ، بينما فى الشام ٧ داخلية ، ٤ ساحلية ، وفى

الجزيرة العربية ٣ من كل . وأكبر عدد من المدن الداخلية يوجد في مصر . وهناك حالتان لدول لها سواحل ولكن ليس لها مدن ساحلية كبيرة : سوريا والسودان .

فئات الأحجام

أخيرا يبقى توزيع فئات الأحجام . والجدول الآتي يقدم أساسا للمناقشة ، وسنرى من هذا أنه إذا كانت الدول الصحراوية أو شبه الصحراوية ، والدول البترولية أو الجديدة ، تشارك في الفئات الصغرى من الحجم ، فإن الفئات العليا حكر على الدول القديمة ودول النواة . فهنا أخذت تظهر في العالم العربي ظاهرة مدنية هامة وجديدة هي المجمعات المدنية Conurbations التي تنمو فيها مدينة نموا كبيرا حتى تبتلع المدن المجاورة ويتحول المركب إلى «إقليم مدني» متصل أو نحو ذلك . وهناك من هذا النمط ٨ حالات تبدأ ببيروت وتونس والدار البيضاء مضافا إليها بفعل الاستعمار الصهيوني تل أبيب - يافا ثم تأتي الجزائر وبغداد - رابعة وثالثة مدن العرب على الترتيب - وأخيرا المدينتان المليونيتان القاهرة والاسكندرية . وهنا سنلاحظ أن مدن العرب الثلاث الأولى تقع في أفريقيا لا في آسيا . وقبل أن تتفوق بغداد على الجزائر

فئات الحجم	عدن	الكويت	السعودية	العراق	سوريا	لبنان	الأردن	فلسطين المحتلة	السودان	مصر	ليبيا	تونس	الجزائر	مراكش	المجموع
١٠٠– ٢٥٠ ألفا	١		٤	٣	٢	١	١	١	٢	١٢	١		٣	٥	٢٦
٢٥٠– ٥٠٠ ألفا		١			٢		١	١		٢			١		٨
٥٠٠– ٧٥٠ ألفا						١		١				١		١	٤
٧٥٠ – مليون				١									١		٢
+ مليون										٢					٢

كانت المدن الخمس العربية الأولى فى الواقع إفريقية . وتلك كانت أيضا كبرى مدن القارة الإفريقية إلا أن جوهانسبرج قد تغلبت أخيرا على الجزائر ، والكاب على الدار البيضاء و وديان على تونس .

أما عن المدينة المليونية فهى ظاهرة حديثة نسبيا فى العالم العربى – ونادرة أيضا . فالقاهرة قد أعطت العرب مدينتهم المليونية الأولى فى الفترة الحديثة منذ ١٩٢٧ فقط حين كانت قد بلغت ١,٠٦٤,٠٠٠ بينما – للمقارنة – كانت لندن قد أصبحت مدينة العالم المليونية الأولي فى ١٨٠١ فى حين لم تصل نيويورك إلى المرتبة المليونية إلا فى ١٨٦٠ . ولم تكتمل للعرب مدينتهم المليونية الثانية إلا منذ ١٩٤٧ حين أصبحت الاسكندرية ٩١٩ ألفا . واليوم تضم المدينتان المليونيتان ٣,٣٤٦,٠٠٠ ، ١,٥١٣,٠٠٠ على الترتيب أى ٤,٨٥٩,٠٠٠ معا أو ١٨,٧ ٪ من سكان مصر . وليست القاهرة أكبر مدن العرب أو أفريقيا فحسب ، ولكن قل منا من يدرك أنها أضخم مدينة فى نطاق كامل يشمل أيضا أوربا جنوب الألب والدانوب ، وآسيا غرب السند والهملايا . وهى تأتى من حيث الترتيب الخامسة عشر بين كبريات مدن العالم . كذلك أصبحت الاسكندرية الآن كبرى موانى البحر المتوسط بعد أن كانت تقليديا على قدم المساواة مع مرسيليا (١) . وبوجه عام فإن نصيب العالم العربى من المدن المليونية

---

(1) Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, pp. 17-8

فى العـالم ضـئيـل إذا تذكرنا أن منها فى ١٩٥٥ نحـو ٨٣ ينتظر أن ترتفع إلى علامة المائة فى القريب العاجل (١) .

أمـا عن التطورات المقبلة ، فـمن المحـقق أننا فى غـضـون السنوات القليلة القـادمة سنرى ٥ مدن مليونيـة فى العالم العربى لأول مرة ، وذلك بفضـل بغداد والجزائر وكذلك الدار البيضـاء وثلاثتها تزحف الآن حثيثا نحـو عـلامـة المليـون . وبذلك أيضـا سـتكون بغـداد - إن لم تكنهـا الآن بالفعل - أول مدينة مليونية فى آسيا العربية . ومن الصـعب أن نتصـور غير بغداد مـدينة مليونية فى آسيا العربيـة في القريب لأن دمشق بعيدة كل البعد ، بينما بيروت قاربت أن تستنفد إمكانيات دولتها الصـغيرة الضـئيلة من النمو . وفى مصـر لن تظهر مدينة مليونيـة ثالثة حتى وقت بعيد جدا بسبب الهوة السحيقة التى تفصل بين المدينة الثانية والثالثة من حيث الحجم . ومثل هذا يقـال عن المغرب والجزائر بعد أن تحقق الدار البيضـاء والجزائر هدف المليون ، بينمـا تشبـه تونس بيروت من حيث أنها استـهلكت من قبل أكبر قدر من امكانيـات النمو فى وحدة محدودة السـكان . ومعنى هذا كله أنه بعد أن يتحـقق للعـالم العـربى مدنه المليونية الخمس المنتظرة يرجح أنه سيتوقف عند هذا العدد لفترة طويلة نوعا .

---

(١) حمدان ، جغرافية المدن . ص ٣٨٦ .

هرم الأحجام

لا يكفى أن نعرف توزيع أحجام المدن المطلقة ، بلْ لابد أن نرى كيف تنتظم فى أنماط وأنواع بعينها ، فهذا ما يعطى مجتمع المدن فى كل وحدة شخصيته وطبيعته . ومنهجنا فى هذا أن نحدد أقدار المدن الكبرى فى كل دولة بالنسبة لبعضها البعض ، وذلك بطريقة «المدينة الأولى» Primate city التى وضعها جفرسون . فنستخرج قيمة المدينة الثانية والثالثة باعتبار الأولى ١٠٠ ثم نصنف النتائج إلى أنواعها وأنماطها التى تقع بطبيعتها فيها ، مع العلم بأن المعدل العادى كما وجده جفرسون للغالبية العظمى من بلاد العالم يتبع بدرجة أو بأخرى المتتالية ١٠٠ : ٣٠ : ٢٠ (١) .

	المدينة الأولى	المدينة الثانية	المدينة الثالثة
المغرب [	الدار البيضاء ٧٠٠,٠٠٠	مراكش ٢٢٠,٠٠٠	فاس وطنجة ١٨٠,٠٠٠
	١٠٠	٣١,٤	٢٥,٧
العراق [	بغداد ٧٨٤,٧٠٠	الموصل ١٧٩,٦٠٠	البصرة ١٦٤,٦٠٠
	١٠٠	٢٣	٢١

---

(1) M. Jefferson, "The Law of the Primate City" Geog. Review, April, 1939. p. 227 .

فلسطين	تل أبيب يافا ٦١٧,٠٠٠	حيفا ٢٥٤,٠٠٠	القدس ١٦٠,٠٠٠
المحتلة	١٠٠	٤٠,٨	٢٥,٩
الجزائر	الجزائر ٨٠٦,٠٠٠	وهران ٣٨٩,٠٠٠	قسنطينة ٢٢١,٠٠٠
	١٠٠	٤٨,٢	٢٧,٤
مصر	القاهرة ٣,٣٤٥,٠٠٠	الاسكندرية ١,٥١٣,٠٠٠	بورسعيد ٢٤٥,٠٠٠
	١٠٠	٤٥,٢	٧,٣
ليبيا	طرابلس ١٨٤,٠٠٠	بنغازى ٨٠,٠٠٠	درنة ٢١,٥٠٠
	١٠٠	٤٣,٤	١١,٦
سوريا	دمشق ٤٥٤,٦٠٠	حلب ٤٥١,٤٠٠	حمص ١٤٦,٠٠٠
	١٠٠	٩٩,٣	٣٢,١
السودان	أم درمان ١١٣,٧٠٠	الخرطوم ٩٣,٠٠٠	الأبيض ٥٢,٠٠٠
	١٠٠	٨٢,٣	٤٦
السعودية	مكة ١٥٠,٠٠٠	الرياض ١٥٠,٠٠٠	جدة ١٢٠,٠٠٠
	١٠٠	١٠٠	٨٠
البحرين	المنامة ٦١,٨٠٠	المحرق ٣٢,٢٠٠	؟
	١٠٠	٥٢,١	؟

اليمن { صنعاء ٥٠,٠٠٠	الحديدة ٣٠,٠٠٠	تعز ١٢,٠٠٠
١٠٠	٦٠	٢٤
الكويت { الكويت ٢٥٠,٠٠٠	الأحمدى ٨,٣٠٠	؟
١٠٠	٩,٥	؟
تونس { تونس ٦٨٠,٠٠٠	صفاقس ٦٥,٠٠٠	سوسة ٤٨,٠٠٠
١٠٠	٩,٥	٧
لبنان { بيروت ٥٠٠,٠٠٠	طرابلس ١٠٠,٠٠٠	زحلة ٣٠,٠٠٠
١٠٠	٢٠	٦,٥

وسيبدو بوضوح كيف أن الجدول يحدد أربعة أنماط من أهرام الحجم فى العالم العربى : الهرم المدرج ، والناقص ، والمفلطح ، والمقلوب. فأما المدرج فهو الانتشار العادى الذى يقترب من متتالية جفرسون التقليدية . وفيه تتالى المدن فى تدرج منتظم من المدينة الأولى، حتى الثالثة وما بعدها بصورة تدل على قدر معقول من التركيز النسبى فى المدينة الأولى وانحدار تدريجى إلى أسفل . وفى هذه المجموعة تأتى المغرب أولا ثم العراق ثم إلى حد ما فلسطين المحتلة ، والجزائر إلى حد أقل . وإذا كانت فلسطين المحتلة هنا تمثل حالة من الهجرة الفجائية ، فإن النمط أدخل فى باب البلاد الزراعية الغنية النامية نسبيا والقديمة

نسبيا فى تنميتها مع اتساع معقول فى الرقعة الأرضية وقدر معقول غير متطرف من المركزية الجغرافية ، وسيلاحظ انعكاس أثر التشتيت الجغرافى الشديد الكامن في تركيب الجزائر كشريط ضيق طويل مقطع إلي جيوب صغيرة كحبات العقد إذا قورن بالتشتيت الجغرافى الأقل فى المغرب حيث يتداخل السهل والجبل في تعقيد حقا ولكنه يترك رقعة سهلة كبيرة تسمح نسبيا بمزيد من البؤرية والمركزية . أما فلسطين المحتلة فرغم ما يبدو رقميا من اتزان وتدرج في هرم المدن الكبرى فيها ، فالواقع أن تركيبه الداخلى يؤكد ما سبق أن رأيناه من شذوذ فى كيانها الجغرافى . فنمو المدن الإسرائيلية وتراتبها يتعارض مع المنطق الجغرافى فى أغلب حالاتها ، ولا يفسر ذلك إلا الحتم السياسى . فأكبر المدن تل أبيب ليست أصلح ميناء بل هى ميناء اصطناعية بينما حيفا هى أعظم ميناء طبيعية ، وإنما نميت تل أبيب لدوافع سياسية وعنصرية بحتة .

أما الهرم الناقص فهو يتدرج بشكل ما من القمة إلى المدينة الثانية ولكنه بعدها ينحدر فجأة وعموديا إلى المدينة الثالثة - وبالتالى إلى الرابعة وما بعدها . أى أن هناك هوة عميقة بين الطبقة العليا والسفلى من الأحجام : لا طبقة وسطى في مجتمع المدن بمعنى آخر ، والبروفيل الذى يرسمه هذا الهرم الناقص يشبه أيضا هيكل الخيمة والوضع كله دليل على تركيز جغرافى عنيف بدرجة أو بأخرى إذا ما قورن بالهرم المدرج . تحت هذا النمط تندرج مصر وليبيا - الأولى كخيمة كبرى

والثانية كخيمة صغرى ؛ الأولى كهرم وحداته من الحجارة الضخمة والثانية من القوالب الضئيلة .

أما الهرم المفلطح ففيه تناطح المدينة الثانية الأولى وتكاد تنطحها بينما لا تبتعد الثالثة كثيرا عن الثانية . فهنا تقارب عام في الاحجام الكبري يجعل الهرم واسع القاعدة ضئيل الارتفاع ، بل إن قمته تكاد لا تبين أو هي تتضع وتتدهور إلى بروفيل مزدوج الرأس . وهنا تصل المركزية ودرجة التركيز إلى أدناها ، بل قد يعني الوضع التشتيت الجغرافي كما في سوريا شبه الجبلية بقطبيها الشمالي والجنوبي التقليديين حيث يمكن أن نميز نوعا «عاليا» من الهرم المفلطح ، ونقول عاليا باعتبار ضخامة الأحجام المطلقة في أحجار الهرم . ولكن الهرم المفلطح أشد التصاقا وارتباطا بالبلاد الحديثة التنمية ، الفقيرة أو المحدودة الموارد التي لم تنم بعد مركزا مدنيا أو اثنين سائدين . ولهذا نجد أن أغلب أعضاء هذه المجموعة هي من التي تمتاز بأحجار ضئيلة الحجم كالسودان والسعودية والبحرين واليمن . وهذا يؤلف نمط الهرم المفلطح (الواطي) الذي يدل لا على عدالة توزيعية أو لا مركزية جغرافية بقدر ما يدل على فقر عام حضاري ومادي ومن ثم مدني : تراب مدني .

أما الهرم المقلوب ، أخيرا ، فهو ذلك الذي يمتاز بتركيز عنيف

صارم فى المدينة الأولى ، نهوى منه بغتة وعموديا حتى نصل بعد لأى إلى مدينة ثانية هزيلة . والهرم المقلوب يتحول بهذا فى الحقيقة إلى «مسلة» قائمة كالعلم المفرد أو الحجر الشامخ وعند أقدامها بضعة من حصى وتراب من المدن . هنا تصل المركزية إلى قمتها وإلى حد التطرف ونجدنا إزاء «دول المدينة الواحدة» أو «دول المدن» . وهذا يدل أساسا على ضآلة ابتدائية فى رأس المال الحضارى العام المتاح بحيث يلزم حشده وتركيزه برمته فى نقطة واحدة ضمانا لفاعليته . وقد كان هذا الوضع ألصق بالدول الصغيرة الحجم أو الموارد مع موقع تجارى حساس مثل لبنان وتونس ، حيث كانت الأخيرة تقليديا أشد وحدات العالم العربى تركيزا مدنيا وحيث لازالت فى هذا الصدد أشد وحدات أفريقيا القارة التى لا تعرف حالة مماثلة تبلغ فيها المدينة الأولى ١٠ أمثال المدينة التالية لها . على أن هذا النمط يصل الآن إلى قمته فى العالم العربى فى حالة الكويت حيث النبت المدنى حديث جدا لا يزيد عمره الحقيقى عن عقد أو نحو ذلك ، ولذا فهو انفجار مدنى بمثل ما هو انفجار بترولى فى أساسه . ومعنى هذا أن دولة الكويت ليست إلا مدينة الكويت ببساطة وأن هنا أكبر مثل لدول المدن الجديدة التى خلقها البترول .

الفصل الثالث

عواصم العرب

البعد التاريخي

أكثر من عاصمة فى العالم العربى يمكن أن تدعى أنها «أم المدن» . ومن الناحية الأخري بعض العواصم العربية يتعاصر فى نشأته مع أحدث مدن العالم الجديد فى «الغرب الأوسط أو الغرب الأقصى» الأمريكى . من ثم لابد لنا من تصنيف تاريخى لعواصمنا العربية : عواصم قديمة ، وعواصم مجددة ، وعواصم حديثة .

العواصم القديمة تشمل الأغلبية الساحقة من عواصم العرب ، وهذا طبيعى فى منطقة من أقدم مناطق الاستقرار والحضارة فى العالم . ولكل منها تاريخها الألفى الحافل . ففى الجزيرة منها مسقط وصنعاء الحميرية الأصول ومكة الجاهلية النشأة ، وفى الشمال بغداد الساسانية ودمشق والقدس الآراميتان . وفى أفريقيا القاهرة التى تكاد تتعاصر مع بغداد من حيث البداية العربية (الفاطمية والعباسية) ولكنها النسل المستمر المباشر لعواصم قديمة فرعونية . ثم هناك بنغازى وطرابلس

نواتا الأصول الفينيقية والقرطاجنية ، وبالمثل تونس الفينيقية النشأة والتى تأكدت جذورها مرة أخرى فى العصر العربى ، وأخيرا تأتى الجزائر البربرية الأصل والتى أصبحت عاصمة منذ العصر العثمانى فقط . ولقد قدر أن أى عاصمة عربية قديمة فى أفريقيا تزيد فى عمرها على مجموع أعمار كل عواصم أفريقيا جنوب الصحراء حيث أغلب المدن من أصل استعمارى حديث (١) . وعواصم العرب القديمة هذه لاشك خير معبر - وبعمق - عن الشخصية التاريخية والكيان القومى : إنها بالنسبة للعرب «تاريخ محفوظ» تجسد . ومن المحتمل ألا نبعد عن الحقيقة كثيرا إذا قلنا إن مجموع أعمار عواصم العرب القديمة قد يعادل مجموع أعمار بقية عواصم العالم مجتمعة .

أما العواصم المجددة فهى مدن قديمة النشأة أصلا ولكنها لم تتخذ عواصم رئيسية إلا فى فترة حديثة نسبيا . والواقع أن هذا يعنى بالتحديد عصر الاستعمار الأوربى حين خلق وحدات سياسية جديدة فى المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى . فى هذه الفئة ثلاث هى بيروت وعمان والرباط . فبيروت فينيقية قديمة حقا ولكنها كمدينة حديثة ليست إلا بنت القرن الماضى وكعاصمة سياسية هامة ليست إلا بنت القرن الحالى .

---

(1) G. Hamdan, "Capitals of the New Africa", forthco - ming in Econ̄omic Geog., U. S. A.

أما عمان فجذورها تضرب فى التاريخ إلى العصور الكلاسيكية أيام الرومان بينما كمدينة هامة ليست هى إلا وليدة الحرب العالمية الثانية . أما الرباط فترجع نشأة إلى دولة المرابطين فى العصور الوسطى ولكنها لم تختر عاصمة سياسية إلا على يد الإستعمار الفرنسى بعد الحرب الأولى أيضا .

العواصم الحديثة - أخيرا - جديدة تماما كمدن وكعواصم . فلا تاريخ لها أكثر مما لسان فرنسسكو أو سولت ليك سيتى مثلا . وهى بهذا ظاهرة طفرية شاذة نوعا فى منطقة من أقدم مناطق العمران . ولكن . الواقع أنها هنا ترتبط بحالات خاصة تتراوح بين التعمير الجديد أو الخلق السيـاسى الجـديد . والواقع أنهـا تقع بالذات فى النطاق الصحراوى أو السفانى ، وبهذا تمثل - كعواصم - جبهة ريادة Pio- neer Fringe ومناطق حدية بطريقة ما . المجموعة تضم ثلاث عواصم : الخرطوم والرياض والكويت . فأما الخرطوم فنواتها من وضع محمد على ثم أعاد الاستعمار تأسيسها كعاصمة استعمارية شأنها فى هذا شأن عواصم إفريقيا المدارية إلى حد بعيد . أما الرياض فقد نشأت كعاصمة دينية جديدة للوهابية لترث عاصمة قديمة خربها محمد على هى الدرعية . وهنا نلاحظ كيف أن عاصمتين من عواصم العرب الجدد ترتبطان فى نشأتهما إن مباشرة أو غير مباشرة بأصول سياسية واحدة مصدرها من مصر . أما الكويت فقد تأصلت كمدينة حماية والتجاء

قبلية ضد أطماع عاصمة جديدة أخرى هى الرياض . وسيرى من هذا أن متوسط أعمار العواصم العربية الجديدة لا يزيد عن ١٥٠ عاما . وينبغى أن نضيف أخيرا عاصمة معينة Capital - designat هى أحدث عواصم العرب : البيضاء فى ليبيا . فقد وقع عليها الاختيار لتكون عاصمة اتحادية (الآن قومية) جديدة لليبيا لتحل مشكلة ازدواج العاصمة فيها .

تعدد العواصم

بالعالم العربى عواصم أكثر مما به دول . فباستثناء الجنوب العربى بتعقيداته السياسية ، هناك ١٦ وحدة سياسية فى العالم العربى ، بينما أن هناك ٢٠ عاصمة سياسية تقابلها ، وأكثر من ذلك فى الواقع (٢٥) إذا اعتبرنا العواصم غير السياسية (!) والأصل بطبيعة الحال هو وحدة العاصمة ، ولكن الثنائية أو التعدد تأتى من ظروف خاصة قد تكون جذورها طبيعية تاريخية ولكنها فى الأعم الأغلب تدل على عدم نضج سياسى إن لم تمثل حالة من حالات الشذوذ السياسى السافر Politi-cal Anomaly . وفى العالم العربى بالذات سيلاحظ أن أغلب هذه الحالات تتعلق بعواصم جديدة زمنيا أغلبها من المقياس الصغير حجميا. وعلى أية حال فإن هذا الوضع يسبب كثيرا من المتاعب والصعوبات الإدارية وفى أجهزة الحكم وينتهى ماديا إلى عملية غير اقتصادية .

وحالات الازدواج فى العالم العربى أربع هى ليبيا والسعودية واليمن والبحرين . فحتى قريب كان فى ليبيا عاصمتان سياسيتان رسميا طرابلس وبنغازى ، وهذا كان يعكس مباشرة تركيب الدولة - الوحيد حينئذ من نوعه بين العرب - الاتحادى لا الوحدوى ، ولكنه يعكس نهائيا الثنائية الجغرافية المتأصلة فى كيان ليبيا العمرانى كجزيرتين بشريتين يفصلهما برزخ عريض من اللامعمور . أما فى السعودية فالثنائية رمز للصراع بين توجيه العامل الجغرافى العمرانى والعامل السياسى الدينى. فالرياض عاصمة دينية فى قلب الصحراء لأنها مهد الوهابية الحاكمة ، أما مكة فعاصمة سياسية لأنها فى النواة النووية ومركز الثقل العمرانى فى الدولة . وهنا يبدو التناقض فى أن مكة - بكل محمولها الدينى - ليست العاصمة الدينية ، بينما الرياض رغم أصلها السياسى حقيقة ليست العاصمة السياسية ! أما فى اليمن فثمة صنعاء أساسا ، ولكن تعز اتخذت فى الفترة الأخيرة عاصمة كانحرافة إمامية. ولا يمكن للطبوغرافيا الجبلية المضرسة أن تبرر هذا الازدواج لأن الرقعة السياسية بعامة ليست شديدة الاتساع. وقد عادت صنعاء مرة ثانية لتكون العاصمة الحقيقية وإن احتفظ لتعز بلقب عاصمة ثانية. وإذا كانت المساحة السياسية الضخمة مبررا أو بعض مبرر للثنائية العاصمية فى ليبيا أو السعودية فإن فى البحرين - جزيرة الجيب - وضعا غريبا. فهنا

عاصمتان المنامة والمحرق. ومع ذلك فالحقيقة أنهما مدينتان توأمتان أو جانبان من مدينة واحدة.

وهناك أخيرا حالات من التعدد غير السياسى، تقوم فيها إلى جانب العاصمة السياسية الرسمية عواصم أخرى لأسباب عاطفية أو تاريخية أو غيرها، قد يكون لها حيثية رسمية وقد لا يكون. ولعل المغرب والسودان هما خير مثال. فالمغرب عاصمته سياسيا الرباط ولكنه له - رسميا - خمس عواصم تسمى أحيانا «العواصم الملكية» يتجول بينها الملك على مدار السنة: فاس عاصمة دينية، مراكش تاريخية، الدار البيضاء عاصمة اقتصادية، بينما أضيفت أخيرا عاصمة صيفية ولعل هذه الخماسية Pentapolis المحدثة لا تعكس فى حقيقتها كما تعكس الطبيعة الجغرافية المشتتة للاند سكيب المغرب حيث تنقصه تماما بؤرة مركزية طاغية (١) أما السودان فله «عاصمته المثلثة»: «طرابلس» النيل إن شئت: الخرطوم عاصمة سياسية عصرية، ولكن أم درمان هى عند الشعب رمز لكيانه القومى العميق - هى العاصمة «الوطنية» بامتياز، أما الخرطوم بحرى فضاحية أحدث للخرطوم الحديثة.

مواقع العواصم

«مركزية أم هامشية؟» هذا هو السؤال الذى طرحه سور ليكون

(1) Hamdan, ibid .

مفتاحا وبداية لكل دراسة عن مواقع العواصم (١). ونبدأ الإجابة بسؤال آخر: ساحلية أم داخلية؟ من عواصم العرب السياسية ٩ داخلية (١٠ إذا اعتبرنا نزوة عاصمة عمان)، مقابل ١٠ ساحلية. وبينما نجد كل عواصم المغرب العربى ساحلية نجد كل عواصم الشام إلا واحدة داخلية، كما أن كل العواصم الداخلية توجد فى المشرق العربى. وليس فى العالم العربى دولة داخلية حرفيا، ولكن ثلاث دول على الأقل - الأردن، سوريا، العراق - شبه داخلية من الوجهة الفعالة. وعلى هذا فكل العواصم الداخلية تنتمى بصفة عامة إلى دول لها سواحل. بل إن العواصم فى دولتين من ذوات العواصم المتعددة تقع جميعا فى الداخل رغم أن لهما سواحلهما. ورغم أن الاستعمار لعب فى كثير من جهات العالم دورا بارزا فى توجيه المستعمرات وجهة بحرية وبالتالى وجه عواصمها نحو توقيع ساحلى، فإن هذا لم يحدث فى العالم العربى إلا فى حالة واحدة هى مراكش حيث انتقلت العاصمة نهائيا من الداخل سواء من فاس أو مراكش إلى الساحل فى الرباط (٢).

وليس من السهل بعد هذا أن نربط بين الموقع والحجم، فبعض

---

(1) Max. Sorre, Fondements de la Géog. Humaine, t. III, Habitat, Paris, 1952, p. 228 .

(2) G. Chabot, les Villes, Paris, 1952. p. 84 .

العواصم الداخلية كبير الحجم وبعضها صغير، وبالمثل العواصم الساحلية. وأكبر العواصم حجما القاهرة داخلية. أما من حيث الموقع العرضي فقلة فقط من عواصمنا - أغلبها أسيوى - هى المدارية، وكلها من أصغر عواصم العرب حجما. على أن ثمة حقيقة هامة تحكم مواقع أغلب عواصم العرب: فهى عادة تقع حيث يتم زواج جغرافى سعيد بين موقع حيوى وموضع خصيب. ولكن هذا يستدعى منا أن نحلل مواقع عواصمنا تحليلا مفصلا. ثمة زوايا ثلاث يمكننا منها أن ننظر إلى موقع العاصمة: «الموقع السياسى» أى بالإشارة إلى موقعها من رقعة الدولة، ثم «الموقع العمرانى» أى لاعتبار توزيع الكتل البشرية والسكانية الكبرى داخل الوحدة الشكلية، وأخيرا «الموقع الطبيعى» أى بالنظر إلى عامل «العقدية» الجغرافية فى اللاندسكيب. وكل نظرة من هذه تمثل إطارا للإشارة متفاوت المساحة، إطارا يتضاءل بعامة على الترتيب السابق. فلنبدأ لذلك من البداية.

الموقع السياسى. أغلب العواصم العربية تبدو على الخريطة السياسية متطرفة هامشية Eexcentric . فبغداد العراق وإن توسطت بين الشمال والجنوب بدقة نادرة، إلا أنها تجنح بشدة نحو الأطراف الشرقية. ودمشق الشام «عاصمة حدود» كما قد نقول فهى تتطرف بعنف نحو الركن الجنوبى الغربى من الرقعة السياسية تاركة الجزء

الأكبر منها بعيدا كل البعد. ومثلها ولكن فى الوضع العكسى عمان فى الأردن، فهى تعشش فى الركن الشمالى الغربى الأقصى من الرقعة. والقاهرة لاشك بعيدة هندسيا عن التوسط: فطول الدلتا ١٧٠ كم بينما يمتد الصعيد نحو ٨٠٠ كم إلى الجنوب. وكل عواصم المغرب أبعد؛ كلها على الساحل - ليس هذا فحسب، وإنما يتضخم التطرف هنا مع المساحة الشاسعة خاصة فى ليبيا وبالأخص فى الجزائر. وليس يخفف ازدواج العاصمة فى الأولى كثيرا من تطرفها بالنسبة للأطراف الجنوبية، بينما لا تقل المسافة بين مدينة الجزائر وأقصى الجنوب عن ١٢٠٠ ميل أى كالمسافة بين باريس والبحر الأسود، مضافا أن أغلبها حاجز مركب من الجبال ثم مفازة من الرمال (١). وربما كانت الخرطوم أشبه فى درجة توسطها ببغداد، ولكنها على العموم تقع من الشمال إلى الجنوب بنسبة ١:٢ ولعل عاصمتى السعودية أقرب عواصم الدول الكبيرة المساحة إلى التوسط: سواء ما بين الشمال والجنوب، أو الشرق والغرب، يساعد فى ذلك الازدواج العاصمى. ولكن التوسط الهندسى الكامل لانجده بعد هذا إلا فى لبنان وفلسطين واليمن - ولكن، كما يتفق، تلك بعينها أصغر الوحدات مساحة حيث التوسط أقل مايكون ضرورة وخطرا.

(1) Hamdan . "Capitals of the New Africa", op. cit.

وعلى هذا فالخلاصة أن أغلب عواصم العرب هامشية فى حدودها السياسية لاسيما فى أضخم الوحدات السياسية مساحة. وهذا بلا ريب له متاعبه العملية فى «الضبط والربط» وفى التماسك الداخلى وسرعة التجاوب والإشراف ويضعف من المركزية الإدارية وقبضة العاصمة على الأطراف القصية خاصة فى بيئة تسودها الصحراء الكاملة. على أن العالم العربى لحسن الحظ يخلو من تلك العوامل التى يمكن أن تخلق مضاعفات سياسية لهذا التطرف الجغرافى. فالاقليم متجانس جنسيا ووحدة حضارية واحدة. ومع ذلك فثمة حالات ثانوية من أقليات أكثر ثانوية على الحدود قد لا يسهل تطرف العاصمة المكانى الإشراف الدقيق اللازم عليها: الطوارق على هوامش الجزائر، التبو على حدود ليبيا، وإلى حد ما الأكراد فى أطراف العراق، ولكن أساسا النيلوتيين فى جنوب السودان حيث تدس نزعات الانفصال بايعازات من الخارج فى حين تبدو العاصمة بعيدة نوعا عن الاحتكاك المباشر معهم وحيث تبدو لا مفر «عاصمة شمالية».

وقبل أن نغادر الإطار السياسى ونخرج منه ينبغى أن نلاحظ فى العواصم الداخلية المدارية أو دون المدارية ميلا واضحا إلى أن تقع فى العروض الأكثر شمالية من رقعة دولها. هذا قطعا فى القاهرة، وبارز فى الخرطوم، ويمكن أن نقوله عن عمان. هذا بينما العكس صحيح فى حالة سوريا الوحدة الشمالية المتطرفة. فهل هناك ضابط خفى وراء هذا؟ أهو

المناخ الحار المرهق فى الوحدات المدارية وشبه المدارية من ناحية، والمناخ البارد نسبيا فى الوحدات الشمالية من الناحية الأخرى؟ لقد لوحظ ميل عام بين العواصم فى العالم إلى أن تجنح وتتحيز إلى القطاعات والعروض الجنوبية الأدفأ فى الدول الشمالية الباردة (لندن ، أسلو، ستوكهلم، أوتاوة .. إلخ) وإلى تلك الشمالية الأكثر تلطفا فى الدول الجنوبية الحارة (دلهى، ريو وبرازيليا، لورنسوماركيز .. إلخ) (١).

الموقع العمرانى. إذا غيرنا إطار الإشارة من الحدود الشكلية إلى حدود المعمور (الاكيومين)، وجدنا أن تطرف العواصم العربية أقل فى الحقيقة مما يبدو على السطح. وأغلب عواصمنا تقع فى موقع وسط بالنسبة لكتلة المعمور الفعالة فى دولها حيث تتركز الحياة البشرية وتمور وحيث يضطرم الانتاج ويشتد الترابط. فبغداد تتوسط القطاع الحى من العراق، وبذلك تتوسط «الميدلاند» العراقى. وإذا كان المعمور فى كل من سوريا والأردن هو نطاق طولى ضيق فى أقصى الغرب فإن دمشق وعمان إن لم تتوسطاه تماما فهما يتوسطان قلبه «ونواته النووية». وإذا كانت الرياض تقع خارج أكيومين الدولة الصحراوية، فإن مكة تتوسط القلب العمرانى الأصلى فيها كما أن التطورات السكانية التى أحدثها البترول خلقت

---

(١) حمدان : جغرافية المدن . ص ٢٤٧ .

على الضلع الآخر من الدولة جناحاً آخر من المعمور قلل من تطرف الرياض، أما القاهرة فتتوسط بين الدلتا والصعيد حيث تعوض الأولى عن قصرها بمساحة زراعية - فانتاجية - ضعف ما للصعيد، بينما أن الاثنين يتعادلان تقريبا من حيث عدد السكان، ثم إن القاهرة تمثل قمة طبيعية لزحف كثافة السكان الصاعدة النظيمة ابتداء من أطراف الدلتا فى الشمال وأطراف الصعيد فى الجنوب في شكل هرم مدرج تحتل هى سطحه وتتوسط بذلك أكثف قطاع فى الدولة - النواة النووية - وتعد خير ضابط إيقاع بين الشمال والجنوب . والخرطوم تتوج رأس ذلك المثلث الذى يعد قلب الاقتصاد السودانى الحديث: الجزيرة التى بدورها تتوسط نطاق السفانا أو ثلث السودان الأوسط الذى هو بدوره القاعدة العريضة للعمران فيه. وفى المغرب يتألف المعمور أساسا من شرائح ونطاقات ساحلية ضحلة تعد العواصم الساحلية بالضرورة قلبا لها: بنغازى وطرابلس فى جزيرتى برقة وطرابلس الساحليتين، وتونس فى قلب «تونس الخضراء»، الجزائر فى وسط «التل»، والرباط فى وسط السهول الساحلية الأطلسية.

الموقع الطبيعى. إذا ضيقنا بؤرتنا قليلا لنتفحص التفاصيل الدقيقة لمواقع عواصمنا فى إطاراتها الطبيعية كما تبدو فى صفحة الأقليم وعلى وجه اللاندسكيب الطبيعى، فسيمكننا أن نصنفها إلى أنماط ثلاثة: مواقع الرءوس والخلجان ومواقع ملاقى الأنهار،

ومواقع هوامش الصحراء. فالعواصم الساحلية تمتاز أساسا بمواقع الرءوس والخلجان Cape - and - bay Situations بينما تتحاشى تماما مواقع المصبات والدالات. فليس من عاصمة ساحلية للعرب على نهاية نهر كبير. فالرباط وإن كانت تقع على بورقرق المدى الصغير فإنها تتحاشى سبو الكبير، والجزائر لا علاقة لها بالشلف ولكن تحتمى فى خليجها، بينما تونس تبتعد عن نهرين متقاربين المجردة ومليانة وتنتخب بينهما ومن دونهما خليج تونس الكبير. وبيروت وإن وقعت على نهر بيروت القزمى فهى بوضوح عاصمة رأس وخليج: رأس بيروت Promontory وخليج سان جورج. وهكذا بقية العواصم الساحلية على الخليج العربى. ومن الواضح أن هذا النوع من المواقع يتعمد الابتعاد عن المصاب النهرية ليتحاشى مشكلة الإطماء والضحولة وكذلك مستنقعات ومضاحل المسطحات الطينية Mud - Flats الملارية. وسيلاحظ من حيث العقدية أن تونس هى أبرز هذه العقديات فهنا عقدية طبيعية نادرة : هنا «خاصرة» البحر المتوسط أولاً، ثم مجمع تونس - تونس الفعالة Utile أو «تونس الخضراء» - حيث يلتقى الساحل الشمالى بالجنوبى بوادى المجردة. أما الجزائر فأقل عقدية وصرامة تحديد. فخطوط اللاندسكيب الطبيعى هنا - كما فى شيلى مثلا - ليست إلا شريطا طويلا مختنقا بين البحر والجبل لا تبرز فيه بؤرة سائدة محددة. ورغم بعض عقدية كامنة فى سهل

متيجة الذى تتوسطه، فميزتها أقرب إلى التوسط والمركزية منها إلى العقدية التضاريسية بالمعنى الصحيح. ولبيروت أيضا نصيب كبير من العقدية ولكنها مكتسبة بقدر ما هى طبيعية، فقد غدتها السكك الحديدية إلى جانب الممرات والفتحات الجبلية التى تقع خلفها وتؤدى إلى دمشق.

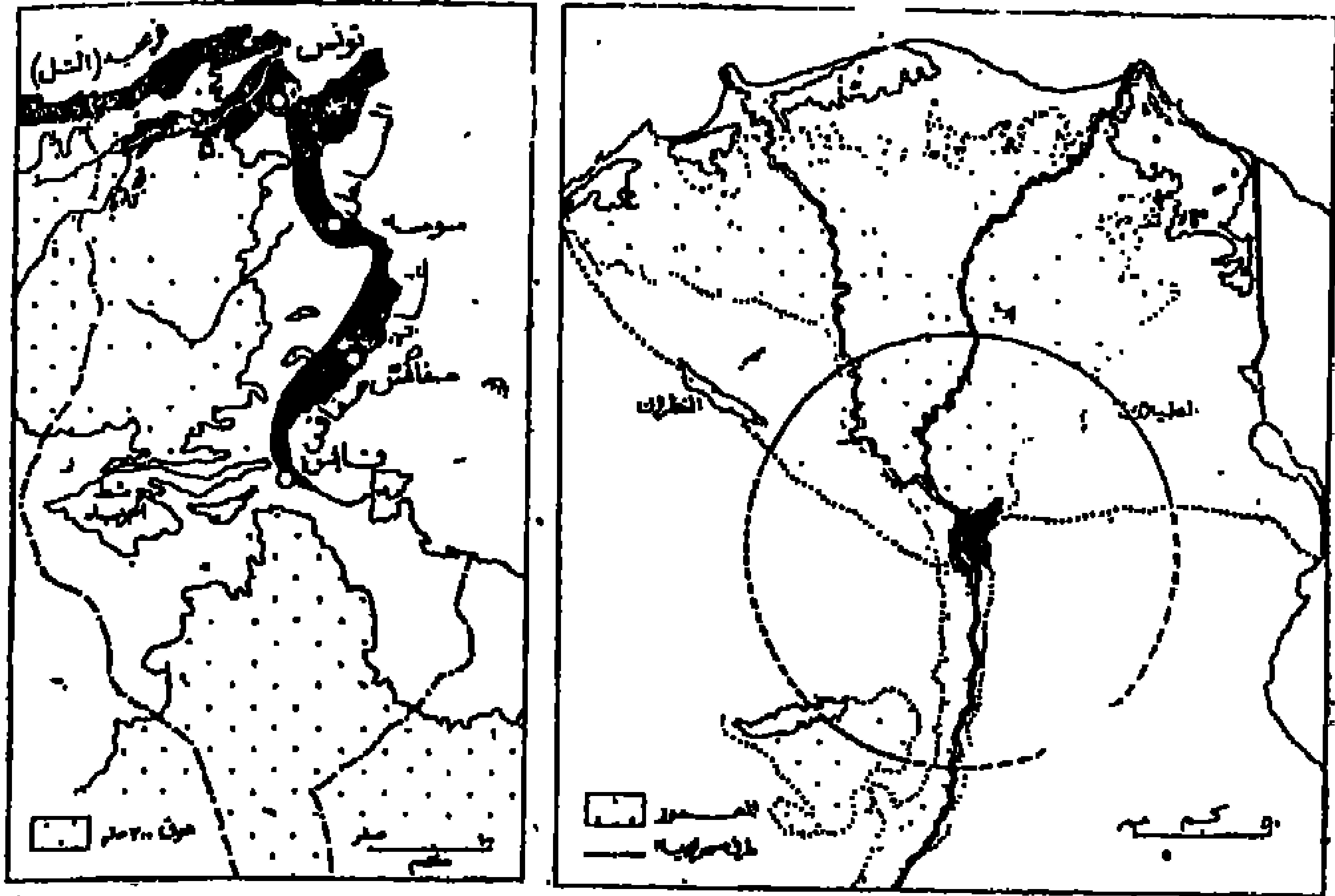
أما إذا انتقلنا إلى العواصم الداخلية فهناك مواقع ملاقى الأنهار confluence situations حيث تتكون عقديات هيدرولوجية ممتازة. والقاهرة وبغداد والخرطوم فى هذا عائلة واحدة. فالقاهرة تمتاز بعقدية طبيعية محققة تمثل عنق الزجاجة بين الدلتا والصعيد «زر ماسى يمسك مروحة الدلتا ويد الصعيد». ولا يقتصر ذلك على حرف Y المائى الذى يرسمه النيل، ولكن هناك أيضا إشعاع وصلة الفيوم من ناحية ووادى الطميلات من الناحية الأخرى، وقديماً جعلت صعوبة اختراق الدلتا شرقا بغرب لكثرة مجاريها المائية جعلت المواصلات العرضية الساحلية تنثنى جنوبا قاصدة القاهرة بطريق وادى النطرون. وبهذا لا تكون القاهرة «خاصرة» النيل فحسب بل وخاصرة الصحراء كذلك. إنها باختصار وكما يعبر ركلى تبدو كموقع «اختارته الألهة» . أما بغداد فهى فعلا وإن لم تكن شكلا موقع ملقى أنهار، فهى رأس الدلتا الحقيقية للرافدين بل إن عقديتها الهيدرولوجية هي من نمط حرف X لا Y . وعلى أية حال فهى بوضوح «خاصرة» العراق حيث يتقارب النهران أكثر

مـايتـقـاريان، وهى كـالقـاهـرة تعين بداية الأرض الصلبـة بعـد مسطحات الدلتا الرخوة وتمثل بذلك أفضل نقطة للعبور بين الشرق والغرب. أما الخرطوم فإلى جانب عقديتها الهيدرولوجية فى حرف Y مقلوبة على رأس أخطر وأغنى «دلتا داخلية inland delta » فى الصـحـراء الكبـرى، فـهى أيضـا نقطة حـاسـمـة على خط التـحـام الصـحـراء والسـفـانا، وتمـثل مـدينة هـامـة على خط لابلاش الشـهـير لمدن هوامش الصحراء فى العالم القديم(١).

وهـذا ما ينقلنا إلى النمط الثالث وهو مـواقع هـوامش الصـحـراء. فدمشق وعمـان ومكة والرياض هى أساساً نقط حرجة على جبهة الالتحام بين الرمل والطين، بين الاستبس والمزروع، بين اللامعمور والمعـمـور. وبالفـعل تسـمى كتلة العـمـران فى سـوريـا السـاحليـة «بالمعمورة» فى العرف الدارج، بينمـا تظهر مكة والرياض كحبات فى عقد خط لابلاش المذكور . وكلها بهذا مواقع واحية استراتيجية تستمد أهميتها من قاعدة موضـعية غنية على طريق موقعى جيوى فـهى من مـدن القـوافل caravan cities بالموقـع وبالموضـع علـى السواء. وإلى هذه العائلة تنضم القدس، وإنما كمدينة قمة تل - hill Top Town لا كمدينة واحة أو غوطة.

---

(1) Hamdan, "Capitals Of the New Africa," Op. cit.



(شكل ٣) موقع القاهرة وتونس

قطر الدائرة ٧٥ كم وتضم ربع سكان مصر فى ثمن المساحة.
أما فى تونس فتضم محاور للمعمورة الرئيسية الثلاثة نحو ثلثى سكان الدولة

أحجام العواصم

فئات الحجم . يصنف الجدول الآتى عواصم العرب إلى فئات حجمية بالألف(١).

عواصم قزمية	عواصم	عواصم	عواصم	عواصم
_ ٥٠ ألفا	صغيرة	متوسطة	كبيرة	ضخمة
مسقط ٥	_ ٢٥٠ ألفا	٢٥٠ _ ٥٠٠	٥٠٠ -	+ مليون
الدوحة	صنعاء ٥٠	ألف	مليون	القاهرة
	المنامة ٦٢	الكويت ٢٥٠	بيروت ٥٠٠	٣،٢٤٥
	بنغازى ٨٠	دمشق ٤٥٤	تونس ٦٨٠	
	الخرطوم ٩٣		بغداد ٧٨٤	
	مكة ١٥٠		الجزائر	
	الرباط ١٦٠		٨٠٦	
	طرابلس			
	١٨٤			
	عمان ٢٤٥			
	المثلثة ٢٤٥			

وسيبدو لأول وهلة كيف تتفاوت عواصمنا بشدة فى الحجم من نحو ٤ آلاف (قرى لا شك) إلى نحو ٤ ملايين! ولكن حالات التطرف هى الأقل حدوثاً، بينما العاصمة الصغيرة هى العمود

(٢) لا يشمل القدس .

الفقرى فى عواصم العرب. والعواصم الكبيرة فى توسع ونمو ولكن عاصمة واحدة هى الضخمة المليونية. ويترتب على ذلك أن مجموع عواصم العرب لا يزيد إلا قليلا عن ٧٫٨٤٨٫٠٠٠ نسمة أى بنسبة تتراوح حول ٩٪ من مجموع السكان. وبمعنى آخر فإن عواصم العرب مجتمعة تقل فى حجمها عن أى من تلك العواصم المجمعات الكبرى مثل نيويورك أو لندن أو طوكيو. كذلك سيرى أن ٥٫٣٤٨٫٠٠٠ من المجموع يذهب إلى إفريقيا العربية، ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ إلى آسيا العربية أى بنسبة ٦٨٫١٪، ٣١٫٩٪ على الترتيب. وسنذكر هنا توا أن هذه النسب الأخيرة هى بعينها نسب توزيع السكان العامة بين الشطرين الأفريقى والأسيوى.

ولكن تبقى بعد هذا سلسلة مفارقات تبرز فى انتشار أحجام عواصمنا بدرجة تثير أقلنا حباً للاستطلاع. كيف يمكن أن تكون بيروت أكبر من دمشق رغم أن سوريا أكثر من ٣ أمثال لبنان سكانا ؟ لماذا تتساوى عمان مع العاصمة المثلثة – ودعك من الخرطوم على حدة – مع أن الأردن ١٫٦ مليون والسودان ١٠٫٣ ملايين؟ لماذا تكون صنعاء أقل من مكة والرياض فى حين يتساوى البلدان سكانا؟ وتونس : تكاد تقترب عاصمة من الجزائر، مع أنها لا تزيد على ثلثها كدولة إلا قليلا؟ ودعك من المقارنة بين تونس والخرطوم وبين تونس والسودان! ما الذى يجعل القاهرة ثلاثة أضعاف عواصم المغرب العربى مجتمعة رغم أن مصر والمغرب

الكبير يتعادلان فى مجموع السكان - اليوم وعبر التعدادات الحديثة بإصرار غريب؟ بل ما الذى يجعل القاهرة ضعف روما حجما مع أن إيطاليا ضعف مصر سكانا؟ لماذا تكون الكويت العاصمة ضعف الرياض فى حين أن الكويت الدولة ١/١٨ تقريبا من السعودية سكانا؟ لا شك أن هناك - ابتداء ومنطقا - علاقة بالقوة بين حجم السكان العام وحجم العاصمة، ولكن هناك عوامل أخرى تعدل من هذه العلاقة البسيطة المباشرة. ثمة العامل التاريخى أى عمر المدنية ولكنه أيضا ليس كل شىء؛ هناك العامل الجغرافى أى نمط اللاندسكيب الطبيعى والموقع الجغرافى وما يفرضان من مركزية أو تشتيت؛ كذلك مستوى الحضارة والتقدم المادى والتنمية الاقتصادية. وحجم العاصمة النهائى وظيفة لكل هذه العلاقات المعقدة ونستطيع بدراسة أنواع العواصم أن نحللها بعض الشىء.

أنماط الحجم. من العواصم ما هو طاغ أو سائد وما هو ضعيف أو ضئيل، وذلك باعتبار دوره فى دولته من حيث الحجم والأهمية والتركيز. وفى العالم العربى تتمثل كل هذه التدرجات والتطرفات. ويمكننا أن نحددها بمقياسين : نسبة سكان العاصمة من سكان الدولة، ثم نسبة سكان العاصمة إلى سكان المدن الكبرى الأخرى. فمن حيث النسبة الأولى تقع عواصمنا فى عدة فئات مئوية :

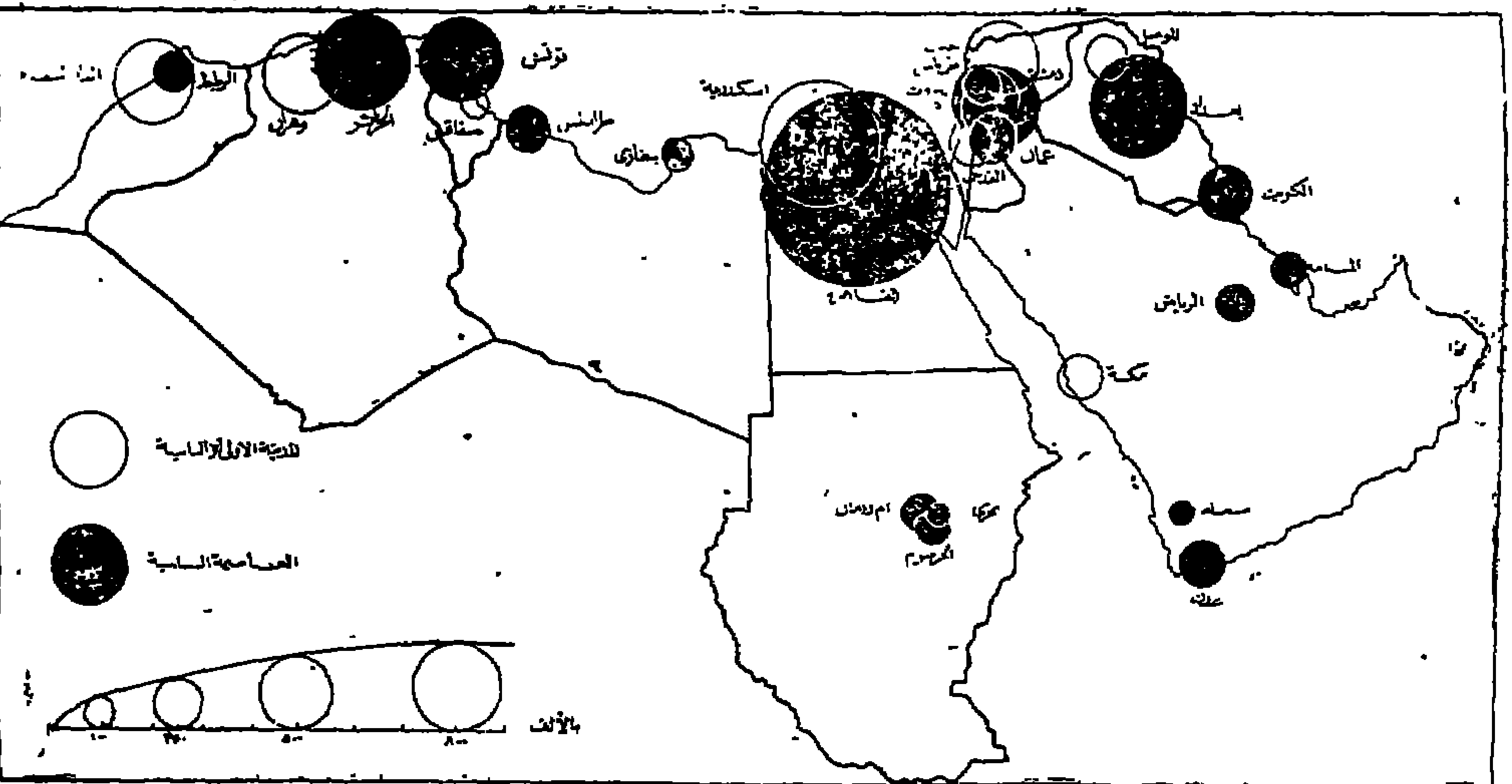
ضئيلة – ٥	متوسطة ٥ – ١٠	كبيرة ١٠ – ٢٠	ضخمة + ٢٠
الخرطوم ٠.٩	بنغازى ٧.٣	٢٠	بيروت ٢٦ - ٥٠
مسقط ١ر٠	الجزائر ٧.٧	دمشق ١٠.٢	البحرين ٤٣.٧
صنعاء ١.١	مكة ٨.٦	بغداد ١١.٢	الكويت ٨٠
الرباط ١.٧		القاهرة ١٥.٠	
المثلثة ٢.٣		عمان ١٥.٣	
		تونس ١٧.٠	

وواضح بلا شك أن هناك فروقا واسعة المدى فى نسبة حجم العاصمة من الدولة - من ١/١٠٠ فى السودان إلى ٨٠/١٠٠ فى الكويت! ولا شك أيضا أن جزءا من هذا المدى يرجع إلى المقام أكثر مما يرجع إلى البسط - أى إلى الفروق فى أحجام الدول أكثر من الفروق فى أحجام العواصم . ولولا هذا التحفظ لقلنا إن المجموعة الأولى ترادف عمليا «الدول بلا عواصم»، وإن المجموعة الأخيرة لا تختلف كثيراً فى الواقع عن «العواصم بلا دول». ومع ذلك فمن الصواب أن بعض الحالات تقترب من هذا التشخيص، فالسودان وعمان يكاد يكون كل منهما جسما بلا رأس، بينما أن تونس وبيروت أشبه «بأقزام ضخام الرءوس macrocephal From Lilliput »، أما البحرين والكويت فهى بلا تردد رءوس بلا أجسام. وقد تدل هذه الصورة أو تلك على قدر كبير من المركزية الجغرافية أو السياسية أو على العكس من التشتيت الجغرافى أو السياسى،

ولكنها في أغلب الحالات تدل على قدر ما قل أو كثر من عدم النضج السياسي إن لم يكن الشذوذ السياسي إن في التركيب الجغرافي للدولة.

أما عن نسبة حجم العاصمة إلى المدن الكبرى الأخرى فقد عرضنا لها من قبل في دراسة المدينة الأولى، ولكننا نخصص هنا أن على هذا الأساس تقع عواصمنا في أنواع أربعة: ضئيلة وضعيفة وسائدة وطاغية. فأما العواصم الضئيلة Inferior capital فهي التي ليست بالمدينة الأولى في دولتها. والقاعدة بطبيعة الحال أن تكون العاصمة هي المدينة الأولى. ولكن شذوذ العاصمة الضئيلة يشمل في العالم العربي الرباط، الخرطوم، مسقط. وتقترب الأوليان من تقليد العاصمة الضئيلة المتبع في الولايات المتحدة ودول الكومنولث حيث يفصلون عمداً وكمبدأ تخطيطي بين العاصمة السياسية والاقتصادية (١). ولكن غالبا ما تعود العاصمة السياسية فتحتكر من النمو ما يرفعها إلى مرتبة الأولوية والخرطوم في هذا تؤذن بأن تتغلب على أم درمان، بينما أن الرباط لا أمل لها مطلقا في ذلك فهي لا تعدو أن تكون المدينة الخامسة في المغرب. أما مسقط فقد تغلبت عليها أخيراً مدينة أخرى هي مطروح. وعدا هذه الحالات الثلاث الراهنة، فإلى وقت قريب كان ثمة حالتان أخريان :

(1) E. E. Bergel, Urban Sociology, 1955, p. 158, D. Whittlesey, Earth & State, Wash. 1944, p. 250



شكل ٤ — أحجام العواصم العربية

دمشق والرياض. فحتى سنوات كانت حلب تقليدياً أكبر من دمشق، ولو أنه ليس من الصحيح أن هذا كان الوضع دائما ففى ١٨٨٠ مثلا كانت دمشق هى الكبرى[١]. كذلك كانت الرياض قبل البترول أصغر من بضعة مدن أخر فى السعودية منها جدة والهفوف. وأخيرا فلا ننسى أن الصهيونية قد نقلت - كمناورة سياسية - عاصمتها المزيفة من المدينة الأولى تل أبيب إلى المدينة الثالثة القدس.

أما العواصم الضعيفة weak capitals ففيها لا تزيد العاصمة عن المدينة الثانية إلا قليلا، فلا تقل النسبة بينهما عن ٦٠٪ مثلا. وهنا تأتى دمشق والرياض وصنعاء . وسيلاحظ أن الأوليين تطورتا عن عواصم ضئيلة عن قريب. أما العواصم السائدة domindnt فهى التى يتأكد فيها وزن العاصمة بالنسبة للمدن الأخرى وتظهر عليها بوضوح حاسم وتطفى شخصيتها فيها. وعادة تتراوح نسبة المدينة الثانية إليها بين ٣٠، ٤٠٪. هنا نجد القاهرة والجزائر وطرابلس وعمان. وإذا كانت هذه السيادة تدل فى بعض الحالات على التبلور السياسى والكيان العضوى القوى، فإنها فى البعض الآخر لا تدل إلا على الفقر الحضارى والمادى العام. أما العاصمة الطاغية over - dominant ففيها تتطرف

(1) Bonné. Econ. Development of the Middle East, p. 12.

السيادة إلى حد الحالة المرضية وتدل غالبا على كيان جغرافي. شاذ. وهنا تأتي بيروت وفوقها تونس وفوق الجميع الكويت. هنا «الدولة هي العاصمة» أو العكس، ولا تزيد الدولة عن أن تكون مجرد ضاحية شاسعة للعاصمة.

الفصل الرابع

المدن الجديدة

ليس سهلا أن نحصر المدن العربية الجديدة التى نشأت فى الفترة الحديثة. فكثير من المدن المعاصرة بدأ صغيراً جداً فى أول هذه الفترة بحيث يكاد يبدو جديداً فى كيانه الحالى رغم أن جذوره قديمة للغاية. ويكفى أن الاسكندرية الألفية العريقة قد بدأت الفترة الحديثة بتعداد قدره ٨٠٠٠ نسمة ! ولكننا إنما نعنى هنا المدن الجديدة تماماً بغير ما أصول أو جذور تاريخية مسجلة، أو تلك التى حلت محل قرى ضئيلة أو أصول ميكروسكوبية ثم نمت بمعدلات شاذة، أو تلك المدن التى خلقها التخطيط العامد الواعى. كذلك قد يختلط الأمر علينا في مناطق الاستعمار السكنى مثل المغرب بأجزائه. فالذى يطالع خريطة العمران اليوم فى الجزائر أو المغرب أو ليبيا واجد توا عشرات من أسماء الأماكن والمدن الأجنبية مثل موليير وأمبير ولوى جنتى ومثل جرازيانى وماركونى وفور لامان وفور ماكماهون.. إلخ. وقد تخدعنا هذه الأسماء إلى الظن بأنها غرس مدنى جديد من صنع الاستعمار. ولكن الحقيقة

أن أغلبها مدن قديمة وطنية حرف الاستعمار أسماءها ليطمس عروبتها، وأن أقلها قرى ومستعمرات زراعية جديدة ولكنها ليست مدنا بمعنى الكلمة كما فى الأبعاديات الايطالية فى طرابلس. مثلا پورليوتى هى القنيطرة، وپتى جان هى سيدى قاسم، لوى جنتى هى كشطاط، بينما أن بونه هى عنابة، وفيلبيفيل هى سكيكيدة، وانفيدافيل هى النفيضة.. إلخ. فإذا استبعدنا هذه المزالق، وجدنا أن محصلة المدن الجديدة حقا فى عالمنا العربى محدودة فى النهاية ولا تمثل كإضافة إلى الشبكة القاعدية القديمة إلا كسرا ضئيلا من مجموع المدنية العربية. وهذا أمر طبيعى فى منطقة قديمة عريقة فى حضارة المدن. وإذا كان ثمة ثورة مدنية حديثة، أو بالأصح دفعة، فهى قد اتخذت من المدن القائمة نوى لها أكثر منها عملية صناعة مدن بكر .

والمدن الجديدة بدأت تظهر فى أوائل القرن الماضى ثم تتابعت بعد ذلك فى موجات ترتبط بدرجة أو بأخرى بفترات معينة كما ترتبط كل واحدة منها بضوابط ووظائف معينة إلى حد ما. وكما أن هذه الموجات لم تنقطع حتى الوقت الحالى، الذى يعد فى الحقيقة موجة انفجارية بالنسبة للمدن الجديدة، فكذلك هى لم تقتصر على قطاع أو نطاق معين من العالم العربى. وإنما نال كل قطاع تقريبا قدراً من المدن الجديدة. ولنا أن ننتظر جيلا كاملا من المدن الجديدة فى أجزاء كثيرة من العالم العربى فى المستقبل القريب :

فى برارى الدلتا بمصر على التحقيق، وفى أجزاء من العراق والجزيرة فى سوريا على وجه الاحتمال. ومن الممكن أن نصنف مدننا الجديدة على أسس التتابع الزمنى والتاريخى، كما يمكن أن نميز بين مجموعتين أساسيتين «مدن الاستعمار» والمدن الوطنية وهذه تفرقة هامة حقا. لكن لعل من الخير لنا أن نتبنى الأساس الوظيفى. فالوظائف هى الضابط النهائى فى أصول المدن، وهى جديرة أكثر من أى اعتبار آخر بأن تلقى الضوء على المدن الجديدة بالذات. ويمكننا فى داخل التصنيف الوظيفى أن نعتبر التتابع التاريخى أو التوزيع الجغرافى أو الأصول الاستعمارية. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نميز بين عائلات المدن الجديدة الآتية : مدن النقل، مدن التجارة، المدن السياسية، المدن الزراعية، مدن الصناعة وأخيرا مدن التعدين .

مدن النقل

ولعل مدن النقل هى أولى فئات المدن الجديدة نشأة وأقدمها فى الظهور. فالعالم العربى بموقعه الجغرافى كممر بين القارات وحلقة وصل فى قلب العالم القديم وكمنطقة كانت تبدأ احتكاكها بالحضارة الحديثة، كان مهتما فى بدء الفترة الحديثة بإنشاء ومد طرق المواصلات الحديثة لا سيما القطار - ولكن أيضا القنوات الملاحية. وإذا كان القطار قد رج قيم المواقع المدنية القائمة وأسر من بعضها أهميتها كلها أو بعضها فقد خلق هو بدوره قيما موقعية

جديدة ومعها عقديات ومدن جديدة، ومن المفيد أن نلاحظ أن كل هذه الطبقة الجديدة من المدن تتجمع في قلب العالم العربي بالذات: في حوض النيل خاصة في مصر. فقد كانت مصر (١) سباقة في إدخال شبكة السكة الحديدية، وأدت انتخابية الوسيلة الجديدة إلى تبرعم بضع مدن جديدة كان من أولاها كفر الزيات التي أسست كمدينة نموذجية مخططة على يد محمد على الذى لم تكن توجد قبله ثم جاء خط القاهرة - الاسكندرية الجذرى ليكون العمود الفقرى في اقتصاديات قطن التصدير الجديدة وليعبر فرع الدلتا عند كفر الزيات ويؤكد أهميتها ويضمن مستقبلها إلى الأبد. ففي ١٨٩٧ كانت كفر الزيات قد وصلت إلى ١٠ر٢٣١ وهي الآن حوالى ٢٥ ألفا.

إلا أن أكبر دفعة للمدن الجديدة في مصر أتت من قناة السويس فقد خلقت معها سلسلة من المدن الجديدة التي تعد أساسا من مدن النقل. فثمة بورسعيد، وضاحيتها بورفؤاد على الجانب الأسيوى، كمدخل للقناة وميناء ترانزيت بكل معنى الكلمة. ثم تلى الإسماعيلية التي نشأت أصلا كقاعدة للأعمال الهندسية لشق القناة ثم تحولت بعد ذلك إلى ميناء مرحلة على القناة وبوابة لها على الوادى. ولكنها ظلت حتى وقت قريب أقرب إلى مضاربات المدن وأبعد ما تكون عن النمو الواثق المطرد. أما على الطرف الجنوبى فإن القناة وإن كانت قد منحت السويس دفعة حياة قوية،

(1) Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, PP. 28 - 30.

إلا أن الأمر هنا ليس خلقا ولكنه بعث، فالسويس من أقدم موانينا التاريخية. وعلى هذا فمدن القنال هدية القنال إلى مصر، ولكنها أيضاً هدية النيل إلى القنال، لأنها تقوم فى صحراء مطلقة وتعتمد فى وجودها كله على الترعة الحلوة. بمعنى آخر: إذا كانت القناة أم هذه المدن، فإن النيل أبوها ببساطة. وسيلاحظ أن مدن القنال على حداثتها المطلقة قد انتزعت لنفسها ببورسعيد المرتبة الثالثة بين مدن مصر من طنطا التاريخية وحققت لنفسها مدينة ربع مليونية وأخرى مائة ألفية وجعلت منطقة القنال بذلك أشد رقعة فى مثل مساحتها من حيث درجة المدنية فى مصر.

وخلف القناة فى شرق الدلتا يعود القطار تحت تأثير القناة الوليدة إلى خلق مدينة جديدة هى الزقازيق. فالزقازيق مدينة جديدة تماما لا تظهر فى خرائط الحملة الفرنسية ولم يسمع عنها قط قبل محمد على. وإنما هى بدأت كمعسكر مؤقت للأشغال العمومية وعمال التراحيل القائمين بحفر الترع الصيفية والقناطر الجديدة التى كانت ترتبط بالتحول حينذاك من الرى الحوضى إلى الدائم. ولكنها تلقت دفعة حياتها بعد شق القناة التى نقلت توا مركز الثقل فى شبكة النقل الحديدى إلى شرق الدلتا فجعلتها عقديتها الجديدة هذه بوابة الوطن الأم إلى منطقة القنال ورغم هذه الحداثة فقد قفزت الزقازيق بسرعة لتصبح كبرى مدن شرق الدلتا بعد المنصورة، ومدينة مائة ألفية تمثل أهم عقدة مواصلات فى

شرق الدلتا الفسيح. ولقد أفادت الزقازيق بعد هذا من مشاريع استصلاح الأراضى فى وادى الطميلات. كما كان فى قيامها السريع تدهور وتراجع بلبيس المدينة التاريخية القديمة ولم تلبث أن ورثت دورها الموقعى. وسنلاحظ هذا الفارق الكبير بين نجاح الزقازيق الحاسم ونمو كفر الزيات البطىء المحدود. هذا فى مصر حيث تجمعت أكبر نسبة من مدن النقل العربية الجديدة.

ولكن السكة الحديدية خلقت خارجها فى بداية القرن الحالى عقدية جديدة فى السودان قفزت عليها مدينة هامة جديدة هى عطبرة. فهذه المدينة نشأت لأول مرة كمجرد مخزن ومستودع وإدارة لأعمال السكة الحديد أثناء إنشاء خط البحر الأحمر ١٨٩٨ – ١٩٢٤، ولكنها بعد أن انتهى الخط لم تلبث أن أصبحت المركز الرئيسى لمخازن وصيانة السكك الحديدية السودانية. وهى لاتزال مدينة نقل أساسا. وكما أديل من بلبيس إلى الزقازيق فى مصر، أديل من بربر ذات الدور التاريخى إلى عطبرة بنت السكة الحديدية. وكوستى بالمثل مدينة جديدة تماما خلقها الخط الحديدى على الأبيض عند خير موضع لعبور النهر وإقامة كوبرى عليه. وقد نمت لتصبح عقدة مواصلات حديدية من ناحية ونهرية من ناحية أخرى ولتصبح بذلك المصب التجارى للجنوب السودانى والمجمع الاقتصادى لغرب السودان. وكان هذا جديراً بأن يجعلها من كبريات مدن السودان. حيث تحقق حجما قدره نحو ٢٣ ألفاً، انزوت فى ظله المدينة القديمة الدويم.

المدن التجارية

من مدن النقل ننتقل إلى عائلة أخرى تربطها بها علاقة نسب : المدن التجارية، بل قد يعد البعض مدن النقل السابقة فرعا من شجرة المدن التجارية، وأغلب هذه المجموعة موان بحرية لا مدن داخلية. كما سنلاحظ أن الاستعمار لعب دوراً كبيراً فى خلقها ونشأتها لأنها فى الحقيقة كانت ضرورية لخدمة أغراضه من السيطرة على اقتصاديات مستعمراته. ومنها ما قفز إلى قمة الأحجام، ومنها ما ظل على مقياس متواضع. وكلها ثلاثة تنتثر – بعكس مدن النقل الجديدة – كل واحدة منها فى ركن من أركان العالم العربى: بورسودان، الدار البيضاء، القامشلى. وليست أخطر هذه المدن أقدمها بالضرورة. فالدار البيضاء تاريخها الأول غامض ولكنه لا يزيد عن قرية صيد صغيرة ترجع إلى القرن ١٨ على الأكثر ولم تتعد ٧٠٠ نسمة فى ١٨٣٠. إلى أن اختارها الاستعمار الفرنسى لتكون قاعدته الاقتصادية فى مراكش وذلك رغم أنها لا مرفأ طبيعى لها. إلا أنها الوحيدة على الساحل الأطلسى التى تخلو من ظاهرة الإطماء. وقد قدر للدار البيضاء بعد هذا أن تصبح مدينة شيطانية mushroom city بكل معنى الكلمة فانفجرت فى النمو بسرعة العاصفة حتى أصبحت اليوم ٧٠٠ ألف أى ثانية مدن المغرب العربى كله. وميناء مراكش الأولى وورثت فى هذا طنجة إلى حد بعيد. وإذا كانت الدار البيضاء عربية الموقع، وفرنسية الصنع، فإنها أمريكية

المظهر، وهى فى النهاية أكبر مدينة خلقها الاستعمار فى أى مكان فى العالم العربى.

أما بورسودان فهى أقدم هذه المجموعة، فقد خلقت خلقا من لا شىء تماما فى ١٩٠٥ لترث سواكن التى بعد أن كان لها ماض حافل فى ملاحة البحر الأحمر لم يعد مرفأها عميقا بما فيه الكفاية ليستقبل البواخر المحيطة الحديثة لا ولا خالياً من الشعب المرجانية الخطرة. ولهذا هجرت سواكن هجرا وخلقت بورسودان خلقا على مرسى الشيخ برغوت لتصبح مخرج السودان إلى العالم ومبناءه الأساسية وإحدى مدنه الكبرى (٤٧٫٥٠٠). وسيلاحظ هنا أنه كما كان خلق الدار البيضاء مقصودا به توجيها بحريا معينا لمراكش يبعد بها عن الداخل المغربى؛ فكذلك كان خلق بورسودان وتدعيمها مقصودا به التوجيه البحرى الذى يبعد بها عن الداخل النيلى والانحدار المصرى. لم يكن الأمر مجرد خلق مدينة جديدة بل كان كلاهما أداة ورمزا لإعادة توجيه يقلب البلد «بطنا لظهر» حتى يعطى ظهره للوطن الأب الكبير Fatherand . وأخيرا هناك من المدن التجارية الجديدة القامشلى التى ظهرت قرب الحدود السورية التركية فى «جزيرة» بعد الحرب الأولى لتكون قاعدة اقتصادية لسهوبها النامية. والقامشلى أحدث وأصغر المدن التجارية الجديدة فهى اليوم لا تعدو ٣٠ ألفا.

شكل ٥ - المدن الجديدة فى العالم العربى

المدن السياسية

ولقد خلقت الوظيفة السياسية أو الإدارية مجموعة من العواصم العربية الجديدة القومية أو المحلية فى موجتين إحداهما من أقدم موجات المدن الجديدة، والثانية من أحدثها بالتأكيد. فإلى الموجة الأولى تدين الكويت والرياض والخرطوم بنشأتها منذ نحو ١٥٠ عاما. وكما رأينا ارتبط هذا بظروف التكوين السياسى فيما هو بالنسبة للعالم العربى جبهة ريادة حقيقية، كما رأينا كيف أن اثنتين من هذه العواصم ارتبطتا بصورة ما بحوافز مصرية. وكعواصم سياسية، ظلت الكويت والرياض مدنا ضئيلة جدا حتى جاءت دفعة البترول فانصبت فى كل منهما صافى عوائده ور ' ـه مما قفز بهما إلى أحجامهما الحالية. وهما فى هذا مدن بترول ـير مباشرة بقدر ما هما عواصم سياسية: هما باختصار «عواصم بترول»، وإذا لم تكن هذه العواصم من كبريات عواصم العرب حاليا، فإنها على الأقل من أهم وأكبر المدن الجديدة العربية.

ويمكن قبل أن ننتقل إلى الموجة الحديثة أن نذكر مدينة صغيرة محلية أنشئت مبكرا نسبيا لتكون قاعدة إدارية هى منشأة صبرى فى مركز قويسنا بمنوفية مصر. فهى مدينة مخططة جديدة لم يرد ذكرها إلا فى تعداد ١٩١٧، وقبله لم توجد. وقد أصبحت فيما بعد – هى وليس مدينة قويسنا القديمة – عاصمة مركز قويسنا، وتفوقت حجما ولكنها لا تزيد فى النهاية عن مدينة قزمية. أما الموجة الحديثة فضئيلة جدا وتختص بها ليبيا الحديثة منذ الاستقلال. فقد بدأت بإنشاء سبها

عاصمة لمقاطعة فزان وذلك من لا شيء إطلاقا، وهى لا تزيد اليوم عن ٧ آلاف. أما المدينة الثانية فمشروع حتى الآن لم يبدأ منه إلا الحجر الأساسى: البيضاء التى اختيرت لتكون عاصمة جديدة لليبيا. وهى تنشأ هنا فى موضع بكر وكمدينة جديدة تماما. وعلينا أن ننتظر لنرى إلى أى مدى ستنجح.

المدن الزراعية

ثمة بعد هذا مجموعة من المدن الجديدة لعلها أقلها وزنا ولكنها لا تخلو من مغزى. هى المدن الزراعية التى يمكن أن نحصر منها ثلاثا: بوفاريك فى الجـزائر وانفيـدافيل (النفيضة) فى تونس وكوم أمبو فى مصر. فالأوليان هما نموذج للمدن الاستعمارية الزراعية التى خلقها الاستعمار السكنى الفرنسى فى المغرب. فكلاهما يرتبط أساساً بعملية نزع الملكية الوطنية وطرد الوطنيين ووضع يد «المعمرين» colons من أبناء المتروبول. وكلاهما يقوم فى أجود وأخصب رقع زراعية بوفاريك فى سهل متيجة قلب «التل» الجزائرى، وانفيدا «النفيضة» على رأس «الساحل» التونسى على خليج الحمامات. وكلاهما المركز المدنى المخطط – على النمط الهندسى والعمارة الأجنبية – لحقل زراعى أو بالأحرى لحديقة كروم: كلاهما من مدن العنب والنبيذ أساسا. ولكن من حيث الحجم لم تحقق أى منهما عددا كبيرا فلا تزيد بوفاريك مثلا عن ٣٠ ألفا، إلا أن أهميتها هى فى كونها نماذج للمدن الاستعمارية.

أما فى كوم امبو فالصورة مختلفة وترتبط بالاستصلاح الزراعى

على يد شركات كان يسيطر عليها رأس المال الأجنبي ولكن جسم السكان فيها كان وطنياً بحتاً. فكوم امبو مدينة زراعية جديدة خلقت في ظل الاستعمار الاستغلالي لا السكني كما هو الحال في نموذجي المغرب. والمدينة، التي لم يرد ذكرها في تعداد ١٩٠٧، تظهر فجأة في تعداد ١٩١٧ بعدد قدره ١٨٥ر٢٠، وهي الآن فوق الـ ٤٠ ألفا. فأصلها يرتبط باستصلاح واستثمار «شركة وادي كوم امبو» لحوض كوم امبو - دراو وتحويله إلى غابة حقيقية من قصب السكر. ولهذا فإذا كانت بوفاريك وانفيلد «النفيضة» مدن كروم ومعمرين، فإن كوم امبو مدينة قصب «ومدينة شركة». ويجوز لنا هنا ما دمنا نتكلم عن كوم امبو أن نذكر مدينة جديدة جدا، زراعية أيضا، قامت أخيرا في نفس المنطقة غير بعيد عن كوم امبو لتكون عاصمة اقتصادية مخططة لمجتمع النوبة المهجر نتيجة لإنشاء السد العالي. وبالمثل نذكر المدن الصغيرة الجديدة التي يخلقها الإصلاح الزراعي في مديرية التحرير غرب الدلتا في مصر. وربما أمكن أن نضيف إلى القائمة مدينة انشاص التي خلقها استصلاح وادي الطميلات كمدينة فواكه.

مدن التعدين

مدن التعدين الجديدة في العالم العربي قليلة إذا استبعدنا منها عائلة مدن البترول التي يحسن أن تعالج على حدة. ففي المغرب العربي لم يخلق الفوسفات والحديد مدنا جديدة بمعنى الكلمة وإنما نمى بعض الحالات القائمة مثل الونزة وجفصة. وقد كان من أهم أسباب هذا أن

مناجم الحديد وحقول الفوسفات الأطلسية تمتاز بتمزقها وتبعثرها فى وحدات عديدة ولكنها ضئيلة مما لم يسمح بقيام مدن ولا موان جديدة خاصة بأى منها (١) ولا يستثنى من ذلك إلا خوريبجة فى مراكش فقد أنشئت عام ١٩١٣ ويلغ حجمها الآن أكثر من ٥٠ ألفا. وفى مصر كان لموقع المعادن الجبلى الصحراوى إلى جانب ضآلة الإنتاج وتفتته جغرافيا نفس الأثر فلم تزد النتيجة عن معسكرات تعدين مؤقتة لا مدن بالمعنى الصحيح وقد يمكن أن نعد ميناء أبو زنيمة وأم بجمة فى سيناء من ثمرات تعدين المنجنيز، كما أن مهد الذهب فى الحجاز ثمرة مبكرة عطبت بعد قليل. ولعل خوريبجة لهذا هى أهم وأكبر مدن التعدين غير البترولية الجديدة فى العالم العربى.

مدن البترول (٢)

لعب البترول فى تشكيل اللاندسكيب الحضارى فى مناطق العالم العربى الصحراوية دورا يناظر دور الماء فى مناطقه الزراعية. فهو حيث يتفجر يخلق نقط السكنى والاستقرار ويبذر مدن التعدين، وحيث يجرى خطوط الحركة والنقل ويبث على طولها الحياة. وتأخذ كل هذه الأشكال العمرانية نمطاً مدنياً أساسا، بينما لا تكاد الزراعة وما لها من ثوابت حضارية تبين فى اللاندسكيب بل إن تتابع السكنى Sequent Occu-

(1) W. Fitzgerald, Afrca, Lond, 1955 .
(2) Longrigg, Oil in the Middle East,
انظر أيضا جمال حمدان . بترول العرب: دراسة فى الجغرافيا البشرية . تحت الطبع.

pance هنا يمثل طفرة تقفز من النقيض إلى النقيض، وترمز ببلاغة إلى عملية الاختزال الحضارى العنيف الذى أحدثه البترول من مضارب الخيام وحلات البوص والطين الى أرقى وأحدث مدن البترول والتعدين دون أن تعرف قرى الزراعة بمعنى الكلمة. أى أن بيئة المدن هنا تظهر بلا أو قبل الريف، وقد «يظهر» الريف بعد المدن حيث يبدأ استصلاح وزراعة بعض رقع مجاورة لتغذية المدينة. ومثل هذا الترتيب العمرانى المعكوس معروف في كل مناطق الريادة والتعدين والكشف الجديد (١). بمعنى آخر إنه طفح مدني لا عضوي ذلك الذى يمجه البترول على صفحة الصحراء. ولهذا فإذا لوحظ ارتفاع نسبة المدنية ارتفاعا شديداً في هذه المناطق فإن هذا شذوذ مفهوم يفسره البترول. وقد رأينا كيف أن الثورة العمرانية التى حركها البترول فى العالم العربى كانت ثورة مدنية أولا ثم ثورة سكانية فى المحل الثاني. فإذا أضفنا أن امكانيات استثمار البترول فى الصحراء ترقد فى الصناعة أكثر منها فى الزراعة، تأكدت لدينا الصفة الخاصة للنتائج البشرية للبترول. وإذا كانت أهم مظاهر النشاط البترولى فى المنطقة استهلاكية لا إنتاجية، فان أهم صناعة خلقها البترول فى الدول العربية خاصة الصحراوية هى «صناعة» المدن. هكذا إذن يصبح الأثر الرئيسى للبترول على اللاندسكيب مقصورا على شبكة من مدن البترول منسوجة فى شبكة من

---

(1) Maurice Ie Lannou, Le Geog. Humaine Paris, 1949, P 178.

الطرق تعد بدورها من «مشتقات» البترول – طرق الأسفلت، وذلك دون وراء سكانى قاعدى. ولهذا تبدو تلك المدن قائمة فى فراغ عمرانى كالمدن «المسلات» لا كالمدن «الأهرام» التى تتدرج من فرشة matrix سكانية كثيفة.

وعدا تأثيره على المدن القديمة القائمة، فالمدن الجديدة التى خلقها البترول، وهى أكثر حدوثا فى المناطق الصحراوية البحتة التى لم تكن معمورة تقريبا كالحسا فى السعودية وساحل البحر الأحمر فى مصر واقليم سيرتيكا فى ليبيا، تقع فى فئات ثلاث هى مدن الحقول، ومدن المحطات، وموانى البترول. فأما مدن الحقول، فإلى جانب «واحات الماء» قد أضاف البترول عدداً من «واحات الزيت» التى تعلوها أبراج البترول derericks كما تظلل آجام النخيل واحات الماء، حتى لتبدو كأنها غابات الصحراء الجديدة. وتتحول هذه الواحات البترولية بالضرورة إلى مدينة – «مدينة عمال» على الأقل تضم المساكن ومزرعة الصهاريج thnk farm ومن الأمثلة مدينة الأحمدى التى أنشئت فى ١٩٤٦ وبلغت فى ١٩٦٠ نحو ٧ آلاف وهى الآن ٨٣٠٠ نسمة وتعد المركز الإدارى لشركة الكويت. والمقوع مدينة أخرى من مدن الحقول. وكذلك الدخان فى قطر، وعوالى فى البحرين وقد بدأت تتجرثم منذ ١٩٣٨. وفى السعودية نجد أبقين وعين دار، بينما نشأت حديثاً مدينة جديدة فى منتصف حقل الغوار العظيم هى العضيلية لتكون مركزاً صناعيا وسكنيا. وثمة النعيرية وثقبة ورحيمة وكلها مدن سكنية صغيرة جديدة تنتثر بين حقول

الحسا. والزبير الجديدة قرب البصرة مدينة من مدن الحقول خلقها البترول أخيراً. وقد تقع مدن الحقول على السواحل مباشرة فتكون أيضا من موانى البترول كما فى الغردقة ورأس غارب وبقية مراكز البترول حول خليج السويس. ومن الواضح أن هذه المجموعة تحقق عادة أكبر الأحجام بين المدن الجديدة، ولكنها تتفاوت بشدة فيما بينها بحسب أهمية الحقل، ومع ذلك فهى بعامة مدن قزمية شأن أغلب مدن التعدين. أما مواقعها فتتحدد بمواقع الحقول أى بالجيولوجيا، ولذا فهى من «المواقع المواضع».

أما مدن المحطات فحين يخرج البترول من واحته تؤلف الأنابيب هيدرولوجية الزيت وتناظر الأنهار ولكنها مغطاة. وهى لهذا لا تصبح مجرد خط خامد من الصلب مدفون فى الرمال، بل تبث الحياة على طولها. فالأنبوب يتحرك فيتحرك معه الطريق وخطوط المواصلات، لأن القاعدة هى أن طرق السيارات الجديدة وخطوط التليفون والتلغراف تمد عادة على جانبى الأنبوب. ثم ينقط الأنبوب محطات المضخات التى لا تلبث أن تتحول إلى واحات جديدة فى قلب الصحراء تدق فيها آبار الماء وتتدفق عليها جماعات الرحل وتنشأ فيها مدينة كاملة من مساكن العمال والمكاتب والمكتبات والأندية وسائر المرافق الضرورية. وبديهى أن مواقع مدن المحطات يحددها مسار الأنبوب وعامل التباعد المعقول على طوله، ولذا فهى من مدن المراحل Villes etapes بالضرورة، وهى بالطبع لا تحقق أحجاما كبيرة ولا تزيد عن بضع مئات فى الغالب. وتشمل هذه

المجموعة سلسلة محطات أنابيب العراق والتابلاين.

أما موانى البترول فلابد على نهايات الأنابيب من أن تنشأ مدينة ميناء إذا لم تكن قائمة من قبل. وإذا لم يكن هناك خليج طبيعى لزم إعداده اصطناعيا وتعميقه وتطهير مدخله. ثم تتركز أجهزة الشحن والأرصفة ونهايات الأنابيب المائية ومزارع الصهاريج وكذلك المصافى، ثم تتجاذب حولها المرافق الضرورية ومنشآت الخدمات. من الأمثلة رأس تنورة فى السعودية. وفى الكويت خلق التصدير ميناء مؤقتة فى الفحيحل فى ١٩٤٦، إلى أن أنشئت الميناء الدائمة على نهاية الأنابيب وهى ميناء الأحمدى فى ١٩٤٩ التى أصبحت ميناء البترول الرئيسية في الكويت بل أصبحت أعظم موانى تصدير البترول فى العالم. وفى السنين الأخيرة ظهرت ميناء عبد الله فى الكويت أيضا، كما ظهرت فى المحايدة ميناء سعود. وهناك كذلك أم سعيد فى قطر، ومرسى البريجة ورأس السدرة فى ليبيا، وكلها من موانى نهايات الأنابيب الجديدة تماما. وسيلاحظ أن أحجام هذه الفئة من مدن البترول الجديد تتفاوت كثيراً فى أهميتها بحسب حجم نشاط التصدير منها.

هذه هى مدن البترول الجديدة. وهى جديدة أيضا فى تركيبها الداخلى، فهى بنت البترول نشأة وتركيباً. فنجدها فى الأعم الأغلب من صنع الشركة – «مدن الشركات Company towns » – أى تحمل طابع الحضارة المدنية الغربية تماما فى تخطيطها، فتكون هندسية الخطة، شوارعها واسعة، الوحدة السكنية السائدة فيها هى الفيلا العصرية،

وتتعدد فيها طرز العمارة الحديثة بشكل عالمى يجعلها تتنافر فيما بينها ومع الإطار الإقليمى بصورة صارخة. وهنا نلاحظ أن البترول يختلف عن الفحم تماما فيما خلق من مدن. فمدن البترول عامة مدن جديدة عصرية أنيقة من أحدث طراز، بينما مدن الفحم كالحة قبيحة متحجرة. وغالباً ما تأخذ مدن البترول الصحراوية العربية شكل الجاردن سيتى بفضل رقع بساتين الخضروات داخلها وحولها، فتبدو كواحات الغرب الأمريكى "a lamericaine" ولهذا كله تبدو أنماطا منقولة مفروضة غريبة على البيئة، خلقتها الجيولوجيا من أسفل وشكلتها السياسة من أعلى، دون أن تكون على علاقة مع الجغرافيا بين الطرفين. إنها أشبه بين المدن على صفحة اللاندسكيب الحضارى «بالصخور الضالة» على صفحة اللاندسكيب الطبيعى. وكثيراً ما تحاول الشركة - كما تفعل أرامكو - أن تتجنب إنشاء مدن الشركات لتتفادى مشاكلها ومسئولياتها الاجتماعية وروح «الأبوة» التى تسيطر عليها، والعشش التى لا تلبث أن تنمو حولها وتحولها إلى «مدن العشش «Villes, shan-ty townsbidon - كما حدث فى عبدان. ولهذا فهى تشجع عمالها على أن يقيموا مساكنهم لأنفسهم أو على إنشاء قرى توابع جديدة مثل النعيرية وعين دار وثقبة ورحيمة وأبقيق ، أو إنشاء أحياء جديدة فى المدن القائمة. إلا أن هذا ليس القاعدة السائدة.

أما من حيث الحجم، فالواقع أن كل مدن البترول الجديدة فى العالم العربى قزمية الحجم جداً إذا ما قورنت بالمدن التى خلقها الفحم مثلا

فى غرب أوربا. ولو جمعت كلها معا فقد لا تزيد عن حجم مدينة إقليمية متوسطة مثل كارديف أو بوخم. والحقيقة أن البترول بعكس الفحم تماما لا يخلق مدنا ضخمة. فالفارق تكنيكيا بين تعدين الفحم والبترول هو أن دور الإنسان فى الأول هو «كالقوارض» بينما دوره فى الثانى هو «كالماصة»، ولذا فالأول يحتاج إلى قوة عاملة ضخمة لا إلى رأس مال كبير لتعدينه، بينما يأتى رأس المال فى المحل الأول فى البترول ويتضاءل دور العمل كثيراً. ثم إن صعوبة نقل الفحم الصلب تكاد تلزم بالصناعة محلياً in situ، بينما البترول السائل ينتقل بعيدا ورخيصا كالكهرباء بحيث يمكن للتبعثر. ولهذا فإن هذه المدن البترولية هى مدن تعدين لا مدن صناعة. ويمكننا أخيرا أن نضيف أن مصير هذه المدن رهن بمستقبل خزان الزيت الذى تقوم فوقه، ولهذا لا يمكن أن ينتظر لها عمر طويل أو مستقر والواقع أن مدن البترول - ككل بل أكثر من كل مدن التعدين - أقرب في نشأتها إلى المدن الشيطانية. mushroom c وأقرب فى نهايتها إلى المدن الأشباح ghost towns . إنها بين مدن العرب كالشهب والنيازك بين النجوم ضئيلة الجرم تلمع فجأة وفى ... وتخبو مباشرة بلا ضجة. ومن قبل قد أصبحت جمسة مدينة ميتة من المدن الأشباح

المدن الصناعية

المدن الصناعية بلا تردد أضعف حلقة فى سلسلة المدن الجديدة فى العالم العربى. ولعل تأخر التصنيع وتواضعه فى الجزء الأكبر من المنطقة هو السبب الرئيسى فى هذا. ولكن سببا آخر أن الصناعة الحديثة تجمعت فى أو حول المدن الكبيرة القائمة من قبل ولم تغامر بعيدا، فلم تخلق لذلك مدنا جديدة إلا فى القليل النادر. يضاف ويضاعف من هذا أن البترول حين أتى لم يحدث ثورة صناعية حقيقية: بل ظل صناعة استخراجية وحرفة أولية، ولم يخلق لذلك مدن صناعة وإنما على الأكثر مدن تعدين. ولهذا فنحن نبحث عبثا عن مدن صناعية جديدة تماما فى المنطقة. ولا نكاد نجد إلاّ مثلا واحداً هو كفر الدوار التى كانت قرية آسنة عددها ٨٥٠ حتى ١٨٨٢ وظلت ١٩٨٠ حتى ١٨٩٧. ثم اختيرت مركزا للصناعة النسيجية أثناء الحرب الأخيرة وسجلت فى ١٩٤٧ نحو ١١ ألف نسمة نمت بعدها كثيراً. ولا شك فى أن كفر الدوار فى مصر هى «المحلة الثانية» أو هى بالأحرى «المحلة الصغرى».

مدن الاستعمار

لقد عرضنا حتى الآن للمدن الجديدة على أساس التصنيف الوظيفى. ولكن من الخير لنا أيضا أن نضيف أساسا خاصا هو الاستعمار. وعلى ضوء نوع الاستعمار يمكن أن نلخص مدن الاستعمار فى ٣ فئات. فالاستعمار الاستغلالى والاستراتيجى كان أقلها خلقا لمدن

الاستعمار، وحتى المدن الجديدة التي ظهرت في ظله لم يكن دوره فيها أكثر من دور رأس المال أو المخطط ، بينما ظل جسم المدينة والسكان وطنيا . هذا يمكن أن يقال عن بورسودان وعطبرة. أما الاستعمار السكني فكان دوره أخطر، فقد أنشأ عددا أكبر وأضخم من المدن الاستعمارية. ففي مراحل الاستعمار الأولى أنشأ قواعد للإخضاع كما هو الحال في «فورناسيونال» التي أنشأتها فرنسا الإخضاع منطقة القبائل في منتصف القرن التاسع عشر. ثم بعد ذلك وضعت فرنسا في الجزائر مشروعها «للتعمير الرسمي Colo nisaton officielle الذي تضمن إنشاء وبناء ٣٠٠ قرية جديدة لتكون جاهزة لاستقبال المعمرين(١). وكثير من تلك القرى نجح وأصبح مدنا أعطيت أسماء فرنسية مثل Saint - Denis du Sig التي تضم الآن بضعة عشرات من الآلاف، وأهم منها وغير بعيد عنها بيريجو Perregaux التي كانت أوفر نجاحا (٢). وبالمثل فعل الاستعمار الإيطالي في ليبيا . ومع ذلك فقد ظلت الأغلبية العددية دائما للوطنيين، ثم جاء الاستقلال ومعه «الخروج الأبيض» فصفى المدن الاستعمارية وبدأ يحولها إلى مدن وطنية. تلك قصة الدار البيضاء وبوفاريك وإنفيدا «النفيضة» وخوريبجة في المغرب.

---

(1) W. Fitzgerald, Africa, Lond., 1955.
(2) R. Tinthoin, Un bourg de colonisation en Alfgrie : Saint - Denis du Sig, C. Rong. Intern. Ge'og. Varsovic, 1934, t.III, p. 98.

أخيراً هناك الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلة، وهو ليس استعمارا سكنيا بالمعنى المعروف، ولكنه استعمار ديني عنصري سكني، ليس احتلالا ولكنه إحلال وإذا كانت أنواع الاستعمار الأخرى وباء خطيراً، فهذا سرطان مدمر. هو أخطر استعمار عرفه العالم العربي من كل ناحية - بما فيها المدن. فلقد شوه تماما صورة المدينة العربية بما خلق من مدن دخيلة جديدة تطورت إما عن قرى قائمة ومستعمرات مثل الخضيرة وبتاح تكفا ورحبوت وريشون لزيون مدينة الخمور، وإما من لا شيء مثل نهاريا وناثانيا التي أسست في ١٩٢٩ وأصبحت الآن مركزا للصناعة الخفيفة خاصة قطع الماس، ومثل هرتزليا. ولكن تل أبيب هي كبرى تلك المدن الجديدة فقد بدأت كضاحية يهودية ليافا في ١٩٠٩ ثم فاقتها حجما وابتلعتها وأصبحت الآن ٣٨٠ ألفا ترتفع إلى ٦١٨ ألفا إذا اعتبرناها كمجمع مدني (١). وهي بذلك كبرى مدن الاستعمار الصهيوني الجديدة وثانية مدن الاستعمار عامة في العالم العربي بعد الدار البيضاء. وعدا هذا فإن للصهيونية مشاريع للتخطيط المدني تقوم على التوسع في السكان وفي درجة التمدين تستهدف أن يكون السكان داخل الحدود الحالية ٥ر٢ مليون على أن يكون نصف مليون منهم فقط سكان ريف والمليونان سكان مدن أي بنسبة ٨٠٪. ثم توزع الخطة مليوناً من هؤلاء المدنيين في مدن صغيرة ومتوسطة تتراوح بين ٢٠٠، ٥٠ ألفاً، بينما يتركز المليون الآخر في المدن الثلاث الكبرى تل أبيب، حيفا،

(1) Amiran, 0p. cit.

القدس (١). ومن الواضح أن العرب كما صفوا مدن الاستعمار السكنى في المغرب، فإن تصفية مدن الاستعمار الصهيونى هى الآن التحدى الأكبر للتحرير العربى.

(١) عزة النص . محاضرات عن جغرافية المدن العربية، معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩، ص ٤٥ «بالآلة الكاتبة».

الفصل الخامس

تصنيف وظيفى

يمكن لدراسة التصنيف الوظيفى للمدن أن تتردى أو تتورط فى عدة مزالق علمية. أولها بلا شك ذلك الفرض الضمنى الساذج من أن لكل مدينة وظيفة محددة سائدة «تشتهر» بها. ذلك فرض تبسيطى أكثر من اللازم ؛ لأن الحقيقة أن أغلب المدن متعددة الوظائف، لا لأن «الوظائف تتداعى» قانون جوهرى فى ميكانيكية نمو المدن، ولكن أيضا لأن المدينة المنوعة هى الأصل فى فكرة المدينة كخادم إقليمى. وفى العالم العربى يصدق هذا أكثر منه فى منطقة كأوربا أو الولايات المتحدة. فالمدن العربية المتخصصة حقاً قليلة نسبياً لأن الانقلاب الصناعى لم يبدأ إلا أخيرا وجزئيا. وإذا كانت ثمة طبقة من المدن الحديثة المتخصصة كمدن التعدين والبترول، فسيلاحظ أنه تخصص فى حرف أولية استخراجية، لا فى حرف ثانوية تحويلية. أى أن القلة من مدننا المتخصصة مدن خامات أكثر منها مدناً صناعية. ثم يتبقى بعد ذلك أغلبية ساحقة من مدن منوعة تتراوح بين الخدمات والتجارة.

الخطر الثانى الذى يهدد التصنيف الوظيفى هو أن ينزلق عن غير وعى إلى دراسة تاريخية، ويفقد القدرة على التمييز بين الأصول الأولى والأوضاع الحالية. فكثيرة هى المدن العربية التى بدأت بأصول وظيفية محددة ومعروفة، ولكنها انقرضت - ربما منذ قرون - من تركيبها الحديث أو المعاصر. فالمنصورة والصالحية والبصرة والكوفة من مدن العرب الحربية لا علاقة لها اليوم بالوظيفة الحربية فى شىء، والرباط الآن لا رباط بينها وبين أصلها الدينى. وبغير تحديد الإطار الزمنى بوضوح يتحول التصنيف الوظيفى فى مثل هذه الحالات إلى نوع غير علمى من «التورية العلمية».

أخيرا ليس يكفى أن ننتزع وظيفة ما من المركب الوظيفى للمدينة ونطلقه عليها كسمة تخصصية فقط لأن لها شهرة خاصة أو طبيعة غير شائعة. فمثلا حلوان فى مصر قد تصنف على أساس الشهرة الشائعة على أنها مدينة حمامات من مدن العيون الصحية. وإنها لكذلك - إلى مدى. ولكن هذه الوظيفة لم تعد تمثل فيها إلا جانبا واحدا من جوانب عدة لضاحية سكنية أقرب فى حقيقتها إلى مدن الخدمات العامة أو المدن المنوعة ثم غزتها أو غذتها الصناعة. الفيصل إذن فى تصنيف مدينة ما وظيفيا لا ينبغى أن يكون غير الأساس الإحصائى الدقيق. ولكن لما كان مثل هذا الهدف مستحيل التطبيق على النطاق الكامل للعالم العربى فسنكتفى هنا بالتحليل الوصفى على علاته دون الرقمى.

وفى حدود هذه التحفظات يمكننا أن نبحث بين مدن العرب عن مدن

تجارة ونقل وصناعة وتعدين، وسياسة، ودفاع ، ودين وصحة، وترفيه إلا أننا لن نعرض هنا للوظيفة السياسية بعد أن عالجنا العواصم بالتفصيل علي حدة لأهميتها، كما لن نعرض لمدن البترول حيث أنها كما تدخل فى هذا الفصل تدخل تحت باب المدن الجديدة التى قد عقدنا لها فصلا خاصا. ومن المفهوم بعد هذا كله أن المدن المتخصصة بصرامة قلة معدودة، والتنوع هو الأعم الأغلب، ولهذا فقد تدخل المدينة الواحدة تحت أكثر من فئة وظيفية.

الوظيفة التجارية

وفى البدء بها أكثر من منطق، لأنها بالقطع تمثل أقدم أنواع المدن فى كل الدنيا بعامة وفى العالم العربى بخاصة. ثم هى بلا جدال أكثر فئات المدن انتشارا وتمثل الفرشة الأساسية matrix فى شبكة المدن العربية، وذلك علي كل المستويات ابتداء من مدينة السوق المحلية القانعة القابعة فى أحضان الريف العميق حتى المتروبوليس «المدينة الأم» التى تسيطر على إقليم مضطرم برمته . ويفسر هذا موقع العالم العربي الحساس بين عوالم انتاجية مختلفة، بين المعتدلات والمداريات ، والغربيات والموسميات . هو إذن «ممر تجارى» – «قافلة ثابتة» – فى العالم القديم، وحداته هى المدن التجارية المتراصة. ولعل هذه الصفة أبرز فى المشرق العربي حيث كان الشرق الأوسط ولايزال هو الشرق الوسيط، ولعلها أبرز وأبرز فى الشام بالذات حيث يمكن بسهولة أن نطبق ما قيل عن بريطانيا من أنها «أمة من التجار "a - nation of

"shopkeepers ولكن ينبغي أن ندرك أن فى هذا الدور تتداخل الوظيفة التجارية بمعناها المباشر مع وظيفة النقل بمعناها الخاص. وينبغى أن نيمز ابتداء بين المدن التجارية الداخلية والموانى التجارية.

١ - **المدن التجارية**. هذه تتفاوت فى الحجم والضخامة كما نميز فى نوع العملية التجارية التى تقوم عليها. وثمة منها أنواع أساسية ثلاثة متجر الظهير، ومدينة المستودع، ونقطة التجميع (١). فأما متجر الظهير hinterland emporium فهو الذى يخدم إقليما محيطاً بالتصدير منه والاستيراد له معا. وتتراوح أحجام هذه المدن كثيرا كما تتراوح مجالاتها، ولكن تظل فى طبيعتها شيئا واحدا. ففى أسفل السلم نجد مدن الأسواق التقليدية المتواضعة market towns التى تنتشر فى ثنايا الريف، والتى تؤدى إلي مدن الأسواق الإقليمية الكبيرة مثل «بنادر» مصر (التى تقابل boroughsbourgs في فرنسا وانجلترا) والتى تعد غالباً العواصم الإقليمية كشبين الكوم وبنها ودمنهور وبنى سويف.. إلخ ومثل واد مدنى فى الجزيرة والأبيض والفاشر فى غرب السودان ومثل تيهرت والكاف وستيف فى المغرب. وأحيانا يدل اسم المدينة على وظيفة المتجر: مثلا أبو تيج فى الصعيد اسم تطور عن تحريف قبطى لكلمة يونانية بمعنى المخزن apotheka وهى نفسها التى أصبحت في الفرنسية boutique وفى الأسبانية بودجا bodega.وبعض

(1) Niles Carpenter, Sociology of City Life, Longmans, 1932, pp. 50-3.

من هذه الأسـواق ترقـد تحت أصول كثـير من المدن الأكبـر مثل طنطا وأسيوط وأم درمان. وأخيرا علي القمة نجد العواصم الكبرى التى تمثل مدن المتجر العالمى لدولها كالقاهرة والخرطوم ودمشق وبغداد. إلخ. هذا داخل مناطق الاستقرار والسكن ولكن فى قلب الصحراء وعلى هوامشها تكثـر أيضـا الأسواق ـ أسـواق البادية . التى تعد مصـحـحا ضـرورياً لأخطاء حـيـاة البداوة والتـرجل . فيـهـا ينصب فـائض الانتـاج الرعوى التقليدى ومنها يشترى البدو حاجاتهم الحضارية والتموينية . وكل مدن الفرات فى العراق، وكل مدن هامش الشام ابتداء من حلب حتى معان هى من أسـواق البـادية ومـوانـىء الصـحـراء. وأغلب الواحـات فى قلب الصحراء سواء فى نجد أو ليبيا أو الجزائر . . إلخ هى فى ذاتها مدن أسواق صـحراوية. وكلمة السوق نفسـها تخرج من صميم حياة البدو فهى المكان الذى إليه «تساق» الماشية. كما أنها تظهر فى أسماء كثير من المدن العربية مثل سوق الأربعاء وسوق الخميس في تونس وسوق أهراش فى الجزائر وسوق الأربعاء فى مراكش.

ثم هناك مدينة المستودع enterpot ، وإذا كانت مدينة المتجر تقوم بوظيفتها داخل الاقليم الواحد intra - regional ، فإن مدينة المستودع همزة وصل بين أقاليم مختلفة inter - regional وذلك لأنها تمتاز بموقع وتنمى من المزايا والتسهيلات ما يجعل التجارة المحيطة تفضل أن تمر بطريق أقـصـر مـبـاشـر خـلال مـدينة أخـرى أقل قيمـة. أى أنهـا تمتـاز بنشـاط ضـخم فى الترانزيت والمصـارف والشحن والعمليات

المالية.. إلخ . ولهذا فغالبا ما تسود فيها وظيفة الاستيراد أكثر من التصدير، وقد يجعلها هذا تبدو ذات ميزان تجارى خاسر ولكن تعقد العمليات التجارية والمالية غير المنظورة تعوض وزيادة . ومن الصعب أن نجد أمثلة متخصصة لمدن المستودع خارج الموانى، ولكن كل المدن الكبرى العواصم وأشباه العواصم فى العالم العربى تلعب هذا الدور بالنسبة لدولها أو أقاليمها : فإليها ترد أغلب الطلبات الأجنبية من وسائل الحضارة أو الصناعة وتتولى هى بعد ذلك التوزيع القومى.

أما النوع الثالث فهو نقطة التجميع التى تعد نقيض مدينة المستودع فلا توجد إلا فى المناطق الأقل تنمية وتطوراً وأغلب الإنتاج فيها أولى تصديرى، بينما الحاجات المحلية متواضعة لا تشجع على كثرة الاستيراد. ولهذا فمدن التجميع مدن تصدير أساسا . ويمكننا أن نجد أمثلة لها فى مدن الصمغ العربى فى كردفان ودار فور أمثال بارا والنهود والرهد، وأيضا فى إقليم الجزيرة مثل السوكى وبركات وواد مدنى وغيرها . والمدن الاقليمية الصغرى فى مصر أدخل فى هذه الفئة حيث تعد أساسا نقطا لتجميع وإعداد القطن بالحلج ابتداء من زفتى وبلقاس وتلا إلى طما و أخميم. إلخ. وقديما كان مشروع الرق مثلا «نقطة تجميع» للرقيق. وما مدن هضبة الشطوط القزمية فى الجزائر كلها إلا نقط تجميع للحلفا البرى .

وقد يكون من الخير لنا أن نضيف هنا إلى المدن التجارية مدن النقل كنوع رابع تابع، وذلك لشدة ارتباط النقل بالتجارة. وأغلب مدن التجارة هى مدن نقل بدرجة أو بأخرى، بينما أن مدن النقل البحتة قليلة الحدوث.

ولعل أقدم فئة من مدن النقل فى العالم العربى هى «مدن القوافل» المشهورة التى اتخذت عادة من واحات الصحراء مواطىء لخطاها ومراحل لرحلتها (١). وأغلب خطوط مدن ما عبر الصحراء هي من مدن القوافل، سواء على المحور العرضي في صحراء العرب، أو على المحور الرأسى فى الصحراء الكبرى؛ بما فى ذلك «موانى الصحراء» على الجانبين حيث تمثل نهاية العقد. ولن نعدد هنا عشرات الأمثلة على جانبى الهلال الخصيب أو الجزيرة العربية أو بين المغرب والسودان، ولكن تدمر والبتراء، ومرزق وغدامس هى من أهم الأمثلة . وقد أحدث النقل البحرى والحديدى الحديث أسراً نقليا لطرق الصحراء ترك هذه المدن فى زوايا النسيان أو فى طريقها إلى التدهور. وفى مصر كانت أسيوط ميناء صحراوية بقدر ما هى ميناء نهرية (طريق درب الأربعين). أما النقل الحديث سواء الحديدى أو السيارات فقد خلق مدنه الجديدة أو انتخب مدنا قديمة للنمو. ففى الشام نجد سلسلة من مدن «الوصلات» الحديدية (وأحيانا الجوية) بين جانبى المعمور فى الساحل وهوامش الصحراء: مثل جسر الشغور عقدة المواصلات التاريخية على العاصى بين اللاذقية وحلب، ورياق وصلة السكة الحديدية بين بيروت ودمشق، واللد – الرملة وصلة السكة الحديدية بين يافا والقدس. وفى مصر رأينا الزقازيق و«كفر الزيات» من مدن النقل الحديدى الجديدة، بينما الواسطى هى أساسا وصلة السكة الحديد إلى الفيوم. وفى السودان رأينا كيف رج الخط الحديدى التوازنات المدنية القائمة فاستحدث مدنا جديدة وغير القيم القديمة.

(1) M. Rostovtzeff, Caravan Cities, Oxford, 1932.

٢ - **الموانى التجارية** [١] .: على مدى الأربعة عشر ألفا من الكيلومترات [٢] التى تمثلها سواحل العرب ، تتناثر أكثر من مائة من موانى العرب . إلا أن أغلب هذه الموانى ضئيل لايكاد «يرعى» إلا الساحل المحلى المباشر ،والقليل منها هو الفعال الذى يظهر فى ميدان التجارة والملاحة الدولية ، والأقل هو الذى يسجل بضعة ملايين من الأطنان من حيث الحركة التجارية . ولكن حمولة الحركة وحدها ليست مقياسا كافيا للأهمية المينائية ، فموانى البترول كما فى الخليج العربى والمعادن فى المغرب مثلا متخمة بالحمولة ولكن قل أن تبلغ من الأهمية أهمية الموانى التجارية كالاسكندرية أو بيروت .. الخ . وليس هناك أساس وحيد لتصنيف الموانى . فهناك أولا مدى الارتباط بالساحل . وبديهى أن ليس هناك ميناء لاترتبط بدرجة ما بالساحل من حيث هو ساحل أو تعدم وظيفة «ساحلية» ، ومع ذلك فهذه قضية نسبية . وإنه من هذه النسبية يبدأ التصنيف الوظيفى للموانى .

فيمكن كبداية أن نتكلم عن «موانى الموضع» و«موانى الموقع» فالأولى لا تستغل من الساحل إلا موارده المحلية المباشرة كالصيد أو البترول البحر أو البلاجات أما الثانية فتستثمر الموقع وتوظفه فى

---

(١) راجع فى هذا الموضوع

F . W . Morgan, ports & Harbours, Lond., 1952..

(٢) داود صليبا ، مصطفى الحاج إبراهيم العالم العربى . دمشق ١٩٥٨ ص٨ .

التجارة أو النقل . أساس آخر : نوع الساحل . فثمة قطاعات «ميتة» عمرانيا من الساحل – صحراوية غالبا – ولكن تحتم اعتبارات الموقع أو التجارة قيام موانى عليها فى بيئة ضد – مدنية : تلك إذن «موانى الضرورة» مثل كل موانى العرب على الأحمر ابتداء من عدن وبورسودان وجدة حتى القصير والحديدة ورابغ .. الخ . وعلى العكس من ذلك فى القطاعات الحية الفعالة من السواحل قد تنتثر الموانى بلا وظيفة ساحلية مقنعة فتكون «موانى الصدفة» . ومن أمثلتها دلس وشرشال فى الجزائر وصور وصيد حاليا وإلى حد ما رشيد ودمياط . الأولى تعانى من الصعوبات الطبيعية والبشرية من حيث النقل أو التموين أو حتى المياه ، بينما الثانية تمثل فرصا طبيعية مضيعة . ثم هناك موان للبضائع فقط مثل أغلب موانى المعادن والبترول ، وأخرى للركاب والبضائع معا كما هو الغالب . ثمة بعد هذا التفرقة بين موانى الاستيراد والتصدير . فالأخيرة تكثر فى العالم باعتباره منطقة تصدير خامات وانتاج أولى أساسا ، وخامات معدنية فى الصف الأول . وأغلب موانى البترول والمعادن تأتى هنا . أما موانى الاستيراد فقط فأقل انتشارا فى العالم العربى ، والسائد هو موانى الاستيراد والتصدير معا .بعد هذا تأتى السلعة الرئيسية كأساس للتصنيف : موانى بترول ، موانى فوسفات ، حديد ، قطن ، حبوب .. الخ . ولكن سيلاحظ أن أغلب هذه التصنيفات تتداخل كثيرا أو قليلا ، ثم هى تظل جزئية فى النهاية . ولعل خير

تصنيف يجمع بينها هو التصنيف الوظيفى النوعى : موانى التجارة ، موانى النقل ، موانى الصناعة ، موانى الصيد . وعلى هذه الرباعية سندير مناقشتنا لتصنيف موانينا ، مع ملاحظة أن أغلب موانينا الكبرى ليست متخصصة بصرامة بل تجمع بين أكثر من وظيفة معا ، ومن ثم قد تظهر الميناء الواحدة فى أكثر من فئة وظيفية . وإذا كان ثمة تخصص فداخلى بالأحواض .

موانى التجارة .يقصد بها موانى المتجر emporiump التى تمثل مركبا كاملا من التصدير والاستيراد ، البضائع والمسافرين معا ، وتخدم ظهيرا كبيرا قد يشمل وحدة سياسية كاملة أو أكثر ، وتعد النافذة الحقيقية لها على العالم الخارجى . وطبيعى فى هذه الحالة ألا يكون تخصص سواء بالسلع أو بالعمليات التجارية ، بل تكون الميناء منوعة جامعة فى نشاطاتها . ويكاد يكون لكل وحدة عربية ميناؤها الرئيسية التى تحتكر أغلب تجارتها الخارجية . كالدار البيضاء والجزائر وتونس وطرابلس والاسكندرية وبيروت وبورسودان والبصرة .. الخ. ويضاعف من تركيز أهمية هذه الموانى أن التجارة الخارجية البرية لأغلب الدول العربية ضئيلة ، وأن الجبهة المائية لبعضها محدودة كالعراق والسودان .على أن بعض الحالات شبه الداخلية تعدم مثل هذه الميناء المفتاح كالأردن وكسوريا قبل اللاذقية حيث تحاول أن تخلق ميناء مفتاحا اصطناعية تمتص تجارتها الخارجية . وحيث تترامى الجبهة

البحرية أو تتعدد ، قد يظهر أكثر من ميناء نافذة ، كما فى السعودية بساحليها أو ليبيا بقطاعيها العمرانيين فى طرابلس وبرقة . وقد يؤدى التشتيت الجغرافى الكامن فى طبيعة الساحل إلى المركزية مينائية وتعدد في الموانى النوافذ كما فى الجزائر حيث تساهم وهران وبونة مساهمة غير عادية فى التجارة الخارجية بجانب ميناء الجزائر ،وعلى هذه الأسس مجتمعة يتحدد مدى احتكار ميناء التجارة . وهنا تقع الدار البيضاء وتونس والأسكندرية وبيروت وبورسودان فى مجموعة الموانى الطاغية التى تحتكر أكثر من ٨٠٪ من كل التجارة الخارجية [١] . أما الجزائر وطرابلس وبنغازى وجدة فتدخل فى باب الموانى المعتدلة أو الضعيفة .

موانى النقل . عائلة وحدها ، ليس للميناء فيها تجارة أو إنتاج فى ذاته ، ولكنها همزة وصل بصورة أو أخرى على طريق ملاحى طويل مهم كشريان العالم العربى البحرى . وكثيرا ماترتبط هذه الموانى بالاستعمار البحرى فى صورة ما . فيحتفظ بها تحت سيطرته ليضمن مواطىء أقدام ومحطات على شرايينه الملاحية ولهذا فليس من الصدفة أن تتحول أحيانا إلى «موانى مقتطعة» أى من زوعة سياسيا من ظهيرها الطبيعى كجيوب أو أسافين لا قوام جغرافى لها ولكنها أقرب إلى «الموانى المفتوحة» الحرة التى تتعدى فيها التسهيلات الاقتصادية

(1) Fitzgerald, Africa.

والحرية المالية حدود السلامة القومية وقد تصل إلى حدود العلميات اللاأخلاقية اقتصاديا وبشريا كالتهريب والتزييف والجاسوسية والدعارة .. الخ . وبطبيعة الحال ليس من الضرورى أن تتبدى كل هذه الملامح فى كل حالة ، ولكن طنجة وعدن وربما بيروت - كانت أو كادت - أمثلة صارخة فى العالم العربى . ولهذه العائلة فروع ثلاثة : موانى التموين ، والتوصيل ، والمستودعات .

فأما موانى التموين Ports of call فرغم صعوبة تعريفها أو إمكان قيامها وحدها ، فهى تلك التى تلعب فيها خدمة الملاحة العابرة من تموين بالمياه العذبة والغذاء الطازج والوقود أو المحروقات الدور الرئيسى فى كيانها الوظيفى . والعالم العربى بموقعه الاستراتيجى على مفرق أو مجمع العالم القديم ، جدير بأن يؤدى هذه الوظيفة فى أكثر من نقطة وعلى أكثر من ناصية فيه . وكل من طنجة وتونس وبيروت وعدن تلعب هذا الدور ضمن وظائفها ، ولكنه فى بورسعيد بالذات يرتفع إلى الدور الأساسى . فبورسعيد كميناء من خلق القناة وكنقطة انقطاع فيزيولوجى فى الحركة ليست إلا محطة بحرية أساسا على طريق طويل شاق تسترد فيها الحركة أنفاسها وتعيد الامتياز revictualling بالماء والغذاء والوقود بما يكفيها حتى عدن - وإن كانت تستطيع أن تلتقط بعض المياه العذبة بعد السويس فى بورسودان . وقد كان التموين بالوقود يعنى حتى الحرب الأخيرة الفحم bunkering، ولكن منذ ثورة البترول

ومصفاة عدن والسويس تحول التفحيم إلى تزييت . وبعد أن كانت بورسعيد تستورد الفحم من أوربا لهذا الغرض يأتيها البترول الآن من أنبوب السويس ، وبالمثل يعمل مصفى عدن على خام الكويت .

أما موانئ التوصيل transship ment فيمكن أيضا أن نسميها موانى الترانزيت ، لأنها هي التى تقوم بنقل السلع من مصادر مختلفة لا لتستهلكها هى ولكن لحساب موانى أصغر مجاورة لايمكن أن تنتهى إليها السفن لضآلة أهميتها . وهذا معناه غالبا موانى استيراد أكثر منها موانى تصدير . فمثلا السلع التى ستنتهى إلى موانى مراكش (المغرب) تأتى أولا إلى جبل طارق أو طنجة ثم منهما تأخذها السفن الصغيرة إلى الموانى المحلية المختلفة . وكذلك تفعل تونس . وأخشاب الأثاث اللازمة لدمياط مثلا تأتى أولا إلى الأسكندرية ثم منها تأخذها سفن صغيرة إلى دمياط . وبيروت تعمل بالمثل بالنسبة لساحل الشام وأكثر من ذلك بالنسبة لظهير الشام فى الأردن والعراق والجزيرة العربية حتى إيران . والواقع أن بيروت أهم مثال لموانى التوصيل أو الترانزيت فى العالم العربى ، بل إن هذه العملية هى عصب حياة المدينة. وإذا كان قد قيل إن كوبرى لندن «هو نواة لندن ولبها» (١) فإن ميناء بيروت ليس نواة ولبها فحسب بل ولبنان كله كذلك . وتعد عدن كذلك ميناء توصيل لكل موانى الجنوب العربى والقرن الافريقى ، بينما

(1) H . J . Mackinder, Britain & British Seas, p . 204..

كانت البحرين تلعب نفس الدور بالنسبة لساحل الحسا السعودى فى بداية تنمية هذا الساحل وقبل أن يستكمل موانيه الخاصة .

أخيرا موانى المستودع .cntrcpot هى كموانى التوصيل ولكن أكثر تعقيداً وتنظيماً . فتستورد السلع لحسابها ثم تعيد بيعها كتجارة مستقلة بعد أن تشكلها قليلا أو تصنعها أو تصنفها ، وهى بهذا شكل من موانى الترانزيت . والأغلب أن نفس موانى التوصيل هى أيضا موانى مستودع .

موانى الصناعة [1] . أما عن الصناعة ، فليس فى العالم العربى «موانى صناعية» ولكن «صناعات موانى» . وهذا جزء من حقيقة أوسع وهى أن ليس لدينا «مدن صناعية» وإنما «صناعات مدن» . ودرجة التطور الصناعى هى المسئولة عن هذا . إلا أن الموانى كمصب للخامات أو نصف المصنوعات أو الوقود من الداخل أو الخارج تجد نفسها فى موقف يؤهلها لكثير من الصناعات ، لاسيما منها ما يسمى صناعات الموانى ، وهى أساسا صناعات بسيطة وعامة تعتمد على قدر من تصنيع وتنقية الخامات والمواد الغذائية المستوردة . وبعض السلع تحتم تصنيعا مينائيا ، والبعض الآخر يمكن أن يتم قبل الميناء . فمن حيث الصادرات كانت صناعة كبس القطن بعد حلجه وقبل تصديره حكرا مطلقا للاسكندرية منذ البداية . أما عصر نبيذ الكروم فليس بالضرورة صناعة مينائية فى الجزائر . أما على الواردات فطحن الغلال الواردة

(١) حمدان . جغرافية المدن . ص ٢٧٦ – ٢٧٨ .

إلى دقـيق صناعـة مـينائيـة في الاسكندرية. وبالمثل في السـجـائر والشكولاته التى ترد خامتها من الخارج ، نجدها مركزة فى الاسكندرية . ومع بدء صناعة تجميع أجزاء السيارات فى بعض البلاد العربية كانت الموانى بطبيعة الحال هى المكان الطبيعى لها : كبيروت والاسكندرية ومع بداية صناعة السفن أخيراً كان طبيعيا أن تلعب بورسعيد دورها . هذا عدا أن صناعة السفن الصغيرة منتشرة من قبل فى أكثر موانى العرب خـاصـة فى الخليج وعدن (dhows) . وبالمثل صناعـات حـفظ الأسـمـاك والسردين ... إلخ خـاصـة فى موانى مراكش الأطلسية وطرابلس والآن فى دمياط وبورسعيد فى مصر . أمـا تكرير البترول سـواء من إنتاج مـحلى أو بالاستـيراد فـهـو صناعـة مـينائيـة جداً بالطبع ، بل صناعة أرصفة مباشرة dockside industry- على الأقل لأن جزءاً كـبيـراً من الإنتـاج يوزع كوقود لناقلات الزيت الخام أو السفن الملاحية العابرة ... ولهذا فكل مصافي العرب ، وعددها الآن نحواً من ٢٥ مينائية .

موانى الصيد . أغلب الموانى تمارس قدراً من الصيد بطبيعة الحال. ولكن موانى الصيد الحقيقية فى العالم العربى قليلة، ولعل خير قطاعات نبحث عنها فيها هى جبهة مراكش الأطلسية حيث يفسر التقاء التيار البحـرى الدافىء بالبـارد مصايد الأسـمـاك المهـمـة ، وتعد بذلك النهاية الجنوبيـة لمصـايد غـرب أوربا الكبـرى . وهناك تعـد آسـفى Safi خاصة ميناء صـيد أسـاسـيـة للحوت والسردين تـعمل فى تصنيـعـهـا وتعليـبـهـا

للتصدير . وفى موانى ليبيا المهمة يلعب الصيد دوراً لا بأس به . وبالمثل في مصر . لكن موانى الجنوب العربى كالشحر والمكلا وكمسقط وموانى ساحل المعاهدات أقرب من غيرها إلى فكرة ميناء الصيد لفقر ظهيرها الداخلي وضرورة الاعتماد على البحر كثيراً .

الوظيفة الحربية

من السهل أن نجد الوظيفة الحربية عنصراً في كيان مئات من المدن العربية وأن نجد عشرات من المدن الحربية الخالصة أو من حيث النشأة – وذلك إذا قصدنا الجغرافيا التاريخية . ولكنا حين نصل إلى الفترة الحديثة فلن نجد إلا شبحاً للوظيفة الحربية فى عدة مدن فى أجزاء معينة من العالم العربى ، أما المدن الحربية الحقة فلن تجد منها إلا بضعة معدودة . إن الوظيفة الحربية اليوم هى بالقطع أقل وظائف المدن أهمية فى العالم العربى كما فى كل العالم – تماما بعكس ما كانت عليه فى الماضى ولنفرق منذ البداية بين المدن الحربية والموانى الحربية .

المدن الحربية . من الصعب أن نجد مدينة حربية كاملة فى العالم العربى اليوم وإنما يوجد الطابع الحربى أو العنصر الحربى بدرجة أو بأخرى . فثمة أولا المناطق الصحراوية والجبلية المتخلفة التى امتدت فيها حياة العصور الوسطى بقبليتها وعشائرها حتى قلب الفترة الحديثة ككل هوامش الصحراء فى أفريقيا العربية والجزيرة العربية واليمن . ففى الصحراء «The land of insolence» كل مدينة ، واحة أو قرية ،

هي قلعة محصنة بالضرورة ضد غارات «وغزوات razzia» البدو . ولذا فكلها مسورة بالحائط التقليدى البوابات وربما بالبروج . كذا كل مدن نجد واليمن والحجاز وواحات مصر الغربية والمغرب بعامة . وقد يدل الاسم على الصفة الحربية «القصر» في واحاتنا كقصر الفرافرة وقصر الداخلة ، «والقصور» ksour الشهيرة فى المغرب ، أو القلعة كقلعة المدورة على الحدود بين الأردن والسعودية ، El - Golea فى صحراء الجزائر ، أو البرج كبرج العرب ... إلخ . وكذلك «القصبة» kasbah الشهيرة في كل المغرب . وقد أضاف الاستعمار الفرنسي في المغرب عددا من النقط العسكرية «وجراثيم» مدن حربية إما فى المناطق المأهولة المقاتلة لتكون قاعدة outpost للإخضاع والتوغل مثل فورناسيونال فى Fort National فى منتصف القرن الماضى[1] ، وإما فى مناطق الصحراء لتكون قواعد لعملية pacificationمثل فور فلاترز فور Flatters ماكماهو فور لالمان F.Lallemand.

ثم يلى هذا طبقة أخرى من الوظيفة الحربية هى مدن الحدود الاستراتيجية الحرجة . ففى مثل هذه القطاعات تأخذ المدن طابعا عسكريا وتتحول إلى مدن معسكرات وقد تخضع حتى للحكم العسكرى . وحدودنا في سيناء واضحة حيث رفح أقرب شيء إلى المدينة العسكرية، وقد أضيفت غزة إلى القائمة منذ الصهيونية وأغلب النقط

(1) Chabot. Les Villes. p. 24..

المدنية في سيناء كالنتيلا والقصيمة ... إلخ هي معسكرات حربية أساساً .. وللمستعمرات الصهيونية في فلسطين المحتلة (الكيبوتز kib-butz) – كحلات عدوانية دموية – صفة حربية مخططة عن قصد لتكون كل وحدة منها خلية سكنية إنتاجية حربية كاملة في حالة الخطر . بينما يمكن أن نعد كل «القرى الأمامية» في الضفة الغربية من الأردن ذات طابع حربي بالضرورة الآن. وعلى حدود العرب – تركيا ، ابتداء من زاخو حتى راجو ، سلسلة كاملة من مدن الحدود ومخافر الدفاع . وقد رأينا على حدود الأردن – السعودية المتنازعة قلعة المدورة مدينة مخفر . وعلى حدود مصر – ليبيا أقام الاستعمار مدن القواعد العسكرية مثل فورت كابورتزو بقصد واضح : أن تكون رأس حربة لغزو مصر . وعلى حدود السودان – الحبشة المضطربة سلسلة من المدن البيدمونتية المحصنة والنقط العسكرية . كالقلابات والرصيرص وفازوغلي ، ولكن كسلا أشهرها وقد بدأت أساساً كقاعدة حامية عسكرية في القرن الماضي. أخيراً في داخل المناطق المغمورة من البلاد العربية تنحصر الصفة الحربية في أحياء عسكرية معينة من المدن الكبرى كالعواصم أو في معسكرات حولها كما في القاهرة والاسكندرية ، وفي قطنة والقابون ودوما حول دمشق ، والرمادي وجلولاء قرب بغداد . هذا بينما منقباد في قلب الصعيد مدينة معسكرات كاملة .

المواني الحربية : قليلة هي جدا في منطقة تعد قوة بر أساسا . ثم

هي ترتبط أساسا بالاستعمار البحري الذى سيطر على المنطقة . بل أن بعضا منها كان السبب المباشر أو الكامن خلف قدوم الاستعمار ، ولازال السبب المباشر أو الكامن خلف تشبثه . فعدن أول وأطول ماخبر الاستعمار فى العالم العربى وذلك لقاعدته البحرية الحاسمة فى حدود مجال ضخم يمتد من الهند حتى مدغشقر . وفي وهران كانت المرسى الكبير من أكبر الموانى الحربية لفرنسا تقابل طولون على الساحل اللفرنسي . بينما كانت بنزرت هى المغناطيس الحقيقى للاستعمار الفرنسى فى تونس كما أعلن رئيس وزرائها إذ ذاك .ولعل بنزرت هى المثال الوحيد فى العالم العربى على ميناء حربية كاملة تامة فى ذاتها كمدينة وليست مجرد جزء من مدينة . والسبب فى ذلك بحيرتها العميقة التى تطوقها الجبال ، وتحولت المدينة فى حماها إلى ترسانة بحرية ضخمة . ومما له مغزاه أن الاستعمار الفرنسى بعد أن أرغم على الخروج تشبث أساساً بكل من المرسى الكبير وبنزرت لمدة (١٥) سنة ولكنه أخرج من الأخيرة قبلها، ثم فى مصر كانت السويس هدف الاستعمار البحرى البريطانى فى البداية وتكأته بعد ذلك وموضع استماتته فى النهاية . فهنا ظهرت عدة موانى حربية موزعة بين بورسعيد والسويس عبر الاسماعيلية وفايد ، تؤلف فى مجموعها ترسانة بحرية كبرى تدعمها على الأرض الأم عدة مدن معسكرات حربية كالتل الكبير والقصاصين .

ومع تصفية الاستعمار السياسى وعودة هذه الموانى البحرية إلى العرب ، ظهر مع «الاستعمار الاقتصادى» أو «الاستعمار الجديد» نوع جديد من الموانى الحربية يرتبط بالقواعد الجوية «المستأجرة» كالظهران فى السعودية وهويلس فى طرابلس والقنيطرة فى المغرب ، وكل منها يوصف بأنه «مدينة داخل المدينة» على أن من الواضح فى كل هذا أن الدور المدنى لهذه الموانى محدود ، فهى إذن لم تكن أكثر من حى فى مدينة ، فهى لاتقيم إلا مدينة قزمية ضئيلة ، وفى الحالين لاتمتاز بالاستقرار فى السكان أو الاتزان فى الكيان .

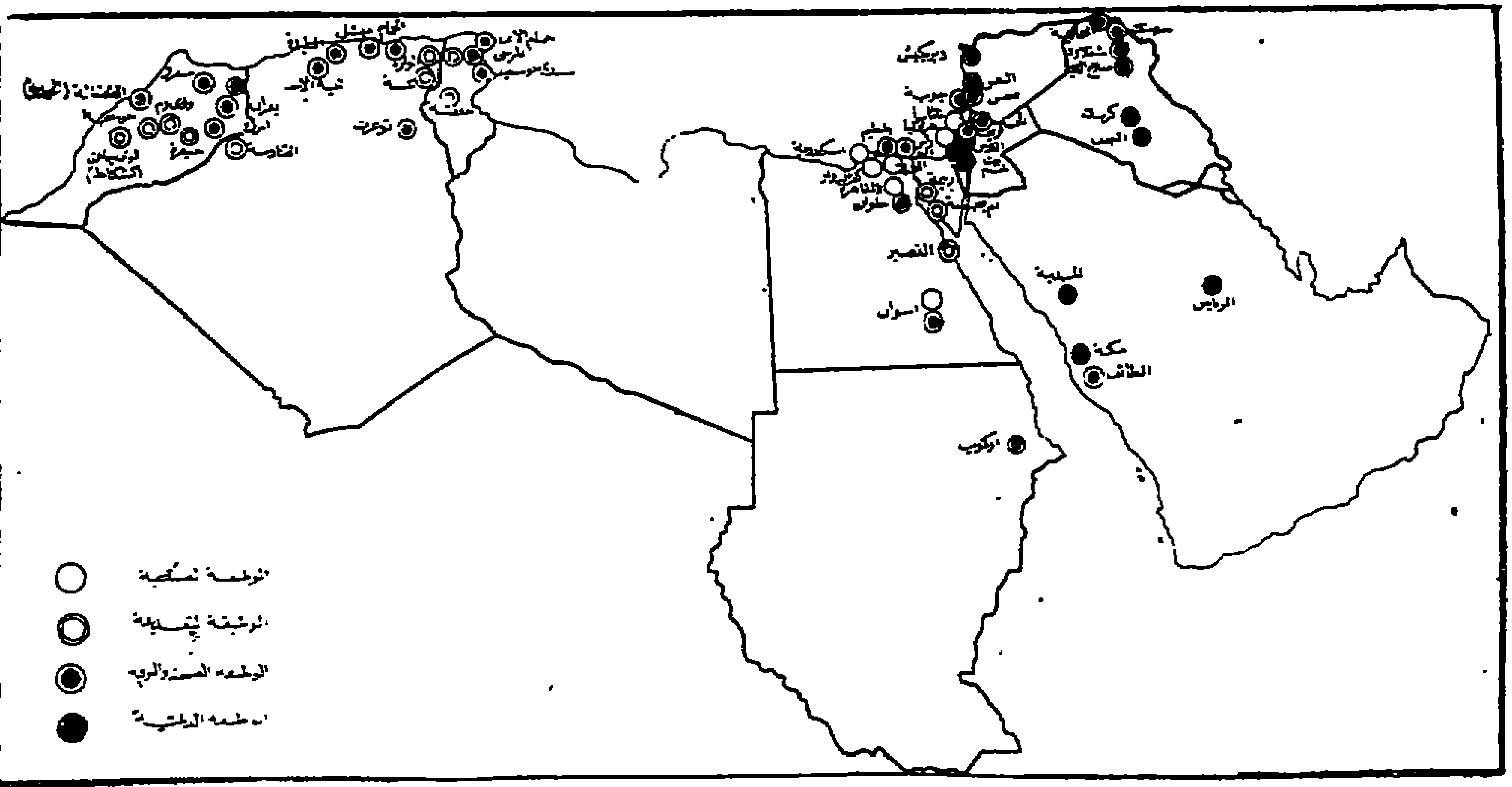
الوظيفة الدينية (١)

وهل فى غير أرض الرسالات الثلاث يمكن أن تكون المدينة مدينة للدين فى أوضح صورة وأكملها ؟ ففى العالم العربى ربما أكثر منه فى أى منطقة أخرى ، كان الشيوخ والأنبياء ، وليس فقط الملوك والحكام ، من زرعة المدن ند خلقت الوظيفة الحربية مثلا أضعاف ما خلق الدين من مدن ، ولكن بينما تحولت الأولى إلى وظائف أخر أو تدهورت ضمن الدين لمدنه القليلة الخلود . فكانت الأولى من المدن البائدة، والثانية ضمن المدن الخالدة ، وبطبيعة الحال فإن لمدن الدين فى أعلى مراتبها سقفا حجميا محدودا، وربما لا تضم المدن الدينية العربية

(١) راجع في هذا : حمدان . جغرافية المدن ص ٣٢٦ - ٣٣٤ .
P. Deffontaines, Geog. et Religion, Paris 1948, : chabot, op cit: Bergei, loc. cit .

اليوم فى مجموعها أكثر من مليون من السكان . ولكن لها من الناحية الأخرى أهميتها الخاصة التى التى تعطيها دورا أكبر من مجرد حجمها . وكمنبع للديانات الثلاث كان طبيعيا أن تتمثل كل أنواع المدن الدينية فى العالم العربى : فثمة مدن الحكم الدينى ، والمدن التذكارية ، ومدن الأضرحة ، ومدن الزوايا والأديرة ، ومدن الحج .

ولعل أبرز أمثلة مدن الحكم الدينى المعاصرة فى أى مكان فى العالم الرياض التى أنشأتها الوهابية حتى إذا نجحت سياسيا أصبحت هى العاصمة الدينية فى دولة تقع فيها مكة والمدينة، ومن هنا كانت هذه المتناقضة . والأصح أن يقال إنها عاصمة ملكية من مدن القصور والبلاط Residenzstadt تحولت أخيرا إلى عاصمة من عواصم البترول . وهذا وحده الذى يمكن أن يفسر حجمها الحالى (١٥٠ ألفا) . أما المدن التذكارية memorial والرمزية symbolic فتذكار يرمز إلى دور دينى هام مثل مدن فلسطين منزل المسيحية القدس وبيت لحم والناصرة، وثلاثتها تؤلف الدائرة التى رسمتها حياة المسيح وهى تدخل أيضا فى باب مدن الحج . ومثلها الخليل أو خليل الرحمن حبرون) مولد إبراهيم . ولعل الصفة التذكارية أقرب إلى الواقع فى حالة القيروان وفاس حيث كانت كل منهما «مكة الغرب» ولعبت دورا دينيا هاما فى حياة المغرب . أما مدن الأضرحة shrine cities فواسعة الانتشار فى العالم العربى ولكنها براعم مدن على الأكثر أو جراثيم مدن . فنواتها قبر شيخ



شكل ٦ – بعض وظائف المدن العربية

لايلبث أن ينجذب إليه الناس فتقوم المدينة . ومن الأمثلة الهامة سلسلة المدن الصغيرة الساحلية على حدود مصر الغربية التى تكونت حول مدافن بعض الأولياء والشيوخ الذين ماتوا فى طريقهم من المغرب إلى الحج – مثل سيدى برانى وسيدى منصور قرب صفاقس . وربما أمكن اعتبار طنطا من مدن الأضرحة كما هى من مدن الحج . على أن أهم وأخطر مدن الأضرحة العربية هى بلا شك النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية فى العراق حيث مدافن على والحسين والعباس والإمام الكاظم وكذلك سامرا حيث مدفن على الهادى والحسن العسكرى . وكلها من مدن الحج الهامة .

أما مدن الزوايا ، ويقابلها فى المسيحية مدن الأديرة ، فتتمثل بنوعيها فى العالم العربى . والأصل فيها شيخ أو راهب ينشد العزلة للتعبد والتصوف بعيدا عن زحمة الحياة فى خلوة أو صومعة فى الصحراء أو الجبل ولكن لايلبث الأتباع والمريدون أن يتبعوه ويتكاثفوا حوله فى نواة ما تلبث أن تصبح مدينة فى بيئة أبعد ما تكون عن حياة المدن .ولعل زاوايا السنوسية فى الجغبوب وسيوة والكفرة أوضح أمثلة مدن الزوايا . ومثلها مدن الرباط فى المغرب والمحرس فى تونس ، ولو أنها الآن لا تمثل مدنا دينية حقيقية . أما مدن الأديرة فلدينا منها على أطراف مصر المتطرفة فى عزلة الصحراء أو الجبل : أديرة وادى النطرون وسانت كاترين حيث لاتزيد الحلة الدينية عن جرثومة مدن .

وفى الشام كذلك عدد من مدن الأديرة الصغيرة المبعثرة فى الجبل مثل جبل سمعان أو جبل لبنان .

أما مدن الحج فهى بلاشك أهم فئات المدن الدينية وأبعدها خطرا ، وإن كانت أقلها عددا . والحج فى العالم العربى ظاهرة واسعة النطاق . ولكنها لاتخلق دائما وبالضرورة مدنا . فالجغبوب مثلا ليست مدينة حج هامة . ولكن الأغلب أن الحج يخلق مدنه . ومنه تيارات ضخمة حقاً. فإلى مكة يحج نحو ٣٠٠ ألف سنوياً ، ومثلها بالطبع إلى المدينة . والقدس وتوابعها تستقبل أيضاً طوفانا كبيرا في عيد الميلاد من كل البلاد . والنجف وكربلاء هما مكة ومدينة ثانيتان للشيعة ، وقد قدر أن طنطا – مكة مصر – تستقبل سنوياً فى الوقت الحالى نحو ربع مليون نسمة في أسبوع المولد . فالحج إذن ينتظم حركات سكانية ضخمة ، ولا تتناسب ضخامة التيار عكسيا مع المسافة بالضرورة ، بل أحيانا العكس : فمن تحليل أرقام مكة يتضح أن أبعد الجهات هى أكثرها إرسالا ، فأكثر الحجاج إلى مكة من طرفى العالم الإسلامى جاوة والسودان الغربى . وإذا كانت هذه التيارات تمثل طوفانات من السكان العابرين pop flottante فإن أحجامها الدائمة أقل من ذلك عادة . فمكة ١٥٠ ألفا والمدينة ٦٠ ألفا ، بينما النجف ٨٩ ألفا وكربلاء ٦١ ألفا .. ولعل القدس هى كبرى مدن الحج والمدن الدينية عامة فى العالم العربى حيث تبلغ فى مجموعها نحو ربع المليون ، ولكن لا ننس

فى كل هذا أن النواة الدينية تجذب حولها وظائف أخرى كالتجارة والخدمات حتى لتكاد تصبح الوظيفة الدينية هامشية كما فى طنطا حيث لايمكن أن تعد مدينة دينية بالمعنى الصحيح . وقد تتحول المدينة الدينية إلى سياسية كالقدس مما يفسر تضخم السكان .

وعدا اللاندسكيب الدينى الطاغى الذى يميز مدن الحج والذى يجعل منها غابات حقيقية من المساجد والزوايا ، فإنها تمتاز بأن نسبة كبيرة من السكان المقيمين من رجال الدين . وغالبا ما يكون التركيب الجنسى أو القومى عالميا سواء فى السكان العابرين أو الدائمين كما فى مكة حيث يقدر أن غير العرب الذين استقروا من هنود وجاويين وزنوج وصوماليين وسودانيين أكثر من العرب . وبالمثل القدس . وقد يخلق هذا أحيانا أسافين قومية مثل النجف وكربلاء التى هى إلى حد بعيد جيوب فارسية فى المحيط العراقى السنى ، وكان يدخلهما سنويا نحو ١٠آلاف طالب دينى إيرانى وقد يكون السكان من دين واحد أو أكثر . فالقدس ملتقى الأديان الثلاثة ، أما الأراضى المقدسة مكة والمدينة فمحرمة على غير المسلمين وكذلك مدينة المولى إدريس فى المغرب حيث تعد مزارا محرما على غير المسلمين وقد يتأثر التركيب البيولوجى للسكان فيأخذ خطا غريبا شاذا : فيسود العجزة والشيوخ المسنون والمرضى من كل نوع ممن يأملون الشفاء ، وبعضهم يقصد الموت فى المدينة المقدسة بالذات ! كما قد ترتفع نسبة العناصر الطفيلية من السائلين . أما

وظيفيا فالمدينة تعتمد أساسا علي حرفة الضيافة والفنادق ، حيث قد ينصرف حي كامل أو كل بيوت المدينة إلى هذه التجارة المربحة . والمدينة عدا هذا مغنطيس للتجار دائما ، فتتحول مدينة الحج إلى سوق تجارية نشطة جداً كمكة والقدس . وفى هذه التجارة تكثر تجارة وصناعة الهدايا والتذكارات الدينية . إلا أن المشكلة الحقيقية هى التموين ، فمعظم هذه المدن يقع فى بيئات ضد – مدنية . ولذا لاتواجه الطوفان البشرى فى الموسم إلا باستيراد كل الحاجيات تقريبا من الأطعمة إن لم يكن من الماء كذلك ولذا فالغلاء سمة مميزة ، تشترك فيها مدينة الحج مع نظيرتها وظيفيا المدن الترفيهية والصحية .

الوظيفة الصحية والترفيهية (١)

وفى الجمع بينهما أكثر من منطق ، لأن أماكن العلاج قد تكون أيضاً أماكن عطلات ، ومراكز الإستشفاء مراكز سياحة . وكل منهما ظاهرة جديدة نسبياً فى العالم العربى ولم تنتشر بعد انتشاراً يقاس بما بلغته فى الخارج في أوربا أو أمريكا مثلا . وذلك رغم أن الموقع الجغرافى والإطار التاريخى والمناخ – وثلاثتها الخامة الأساسية لهذه الوظائف – إنما تعطى الأفضلية المطلقة للعالم العربى ولاشك أن مرجع هذا إلى المستوى الحضارى والمعيشى المتواضع للسواد الأعظم فى

(١) حمدان . جغرافية المدن ص ٢١٠ –٢٢٥ Chabot, pp54 - 72 Sorre النص . محاضرات في جغرافية المدن العربية ص ٥١ ـ ٥٩ .

منطقة كبتها الإقطاع حتى قريب ، ولم تعرف التصنيع الثقيل إلا منذ قليل والواقع أن المدن الصحية والترفيهية كمنشآت أقرب إلى الترف المدنى ، لاينتظر أن تكون خطيرة المدى أو شديدة التخصص فى عالمنا العربى . ولكن مع التقدم المادى والحضارى والاتجاه نحو الديموقراطية الاشتراكية ستزداد أهميتها ولاسيما منها الأنماط الأكثر شعبية وموسمية .والمدن الصحية والترفيهية بأنواعها المختلفة أقرب فى طبيعتها إلى المدن المؤقتة ، ولذلك فهى تعيش «الموسم» وإذا كانت متخصصة تماماً فإنها تعانى من «الفصل الميت» Saison morte بعد ذلك . وهى لهذا كله مدن صغيرة الحجم كثيراً ، فيما عدا الطوفان الموسمى من الغرباء .وفيما عدا إذا لم تكن من المدن المتخصصة تماما وقد تشترك المدينة الواحدة فى أكثر من نوع من فروع هذه الوظائف . ويمكننا أن نصنف الصحية إلى مدن العيون المعدنية ومدن المصحات ، والترفيهية إلى مدن المشاتى والمصايف والسياحة .

المدن الصحية : فأما مدن العيون المعدنية Spas فقليلة حقاً بالعالم العربى إذا ما قورنت بأوربا ، ولعل مناخنا المعتدل الدافىء هو الذى حد من أهميتها ولم يدفع الأقطاع العربى إليها ليجعل منها ما جعلته الارستقراطية الأوربية من مدن العيون والأستشفاء وتوزيع مدن العيون العربية جيولوجى بالطبع ، يرتبط بالموضع لا الموقع ، ويكثر خاصة على هوامش الألتواءات أو الإنكسارات ، ولكن الموقع قد يحدد فى النهاية

مدى نصيب العين من النجاح والشهرة . فتجد الحمة ، مدينة من مدن الشتاء ، مدن العيون والفنادق ، على اليرموك قرب الحدود السورية الأردنية . وعلى الجانب الآخر طبرية على البحيرة ولو أن مياهها شديدة الملوحة . وفى نفس الإطار الجيولوجى وغير بعيد نجد النعس قرب بكفيا فى جبل لبنان ثم ديريكيش فى العلويين بسوريا . وحلوان هى المثل المصرى المعروف الذى أعادت إحياءه الأوتورقراطية الحاكمة فى القرن الماضى تقليداً لتقليد الارستقراطية الحاكمة في أوربا . ورغم جودة مياه العين صحياً، فإن الدفعة الكبرى التى نالت حلوان إنما تأتى من موقعها فى حدود مجمع عاصمى حافل كالقاهرة . ولعل هذا أيضا هو الحظ الحسن الذى واتى حمام الألف (حمام الليف على الخرائط الفرنسية) فى تونس . فهى تقع جنوب خليج تونس قرب العاصمة حتى كانت - بنفس الموضة المقلدة - مشتى للباى والطبقة الغنية . هذا بينما كان نصيب مدينة الحمام فى الجزائر بين بجاية وستيف أقل شهرة رغم مياهها الكبريتية الحارة جداً ، وبالمثل عشرات المواضع التى تقرن بكلمة حمام وتدل على نقط العيون المعدنية في ثنايا أو هوامش الألتواء الأطلسى . فنظراً لمواقعها بالنسبة للمواصلات ولكل السكان يظل أغلبها نكرات جغرافية .

أما مدن المصحات Villés sanatoria وهى أدنى من مدن العيون إلى أن تكون «مدن المرضى» المثالية فنادرة فى عالمنا العربى لأن

للحرارة والشمس تلغى الحاجة إليها ، كما أن الفقر العام لايشجعها . وقد يمكن أن نعد حلوان من مدن المصحات حيث يشترك الكنتور والنبع والحر والشمس . ثم هناك مدينة مصحات جبلية فى لبنان هى بحنس[1].

المدن الترفيهية

مدن المشاتى إذا كانت مدن العيون هى مدن الجيولوجيا والموضع فإن مدن المشاتى هى مدن المناخ والموقع وهى تعتمد أما على خط عرض أو على خط الكنتور ، وقد تكون داخلية أو ساحلية . وإذا كانت مدن المشاتى من أبرز ملامح أوربا الباردة ، فإنها فى العالم العربى تتضاءل كثيراً فى دورها ، رغم أن أبرد نقطة عندنا قد تكون أدفأ من أى نقطة فى أوربا ... ولاشك أن سببا إضافيا هو أن مدن المشاتى أقرب إلى مدن السياحة منها إلى أى شيء آخر ، بمعنى أنها للقلة الغنية المترفة ، باهظة ، غير شعبية ورغم أن كثيراً من مدن الساحل تحاول أن تجذب إليها جمهور شتاء إلى جانب جمهور الصيف - كالأسكندرية والسويس والغردقة - فإن مدن الشتاء الساحلية تندرفى العالم العربى . منها جونية على خليج جونية والمعلتين [1] شمال بيروت فى لبنان ، وحمام الأنف فى تونس وأهم منها مدن الشتاء الكنتورية والعرضية. فمن الأولى أريحا أوطأ نقطة في غور فلسطين حيث يعدل الانخفاض من درجة البرودة . ومن الثانية أسوان على مدار السرطان

(1) Jecques Edde, Manuel de Geog . Liban, Beyrouth,1958, p.2

فى أقصى جنوب مصر حيث يحيل خط العرض الشتاء إلى ربيع بلا خماسين . ولولا الرحلة المترامية وفقر الموضع عمرانياً لكانت أسوان من كبرى عواصم الشتاء فى العالم .

مدن المصايف : هى كمدن المشاتى من مدن المناخ والموقع ، ولكنها بعكسها ليست من مدن الشمس والجفاف ، بل البرودة والرطوبة . وقد انفجرت مثل هذه المدن فى أوربا الصناعية المعاصرة فى ثورة كاملة حيث أصبحت بلاجات البحر «عبادة» أكثر منها تقليدا أو عادة . وفى حرارة صيف العالم العربى قد ننتظر هذا وزيادة ولكن الواقع أننا نتخلف فى هذا كثيرا «للفارق فى المستوى المعيشى والحضارى أساسا. ولكن البداية قد بدأت من قبل ، ولنا أن ننتظر أنفجار المدن الشواطىء والبلاجات مع تزايد التصنيع والاشتراكية وبالأخص مع البترول وما أحدثه من ثروة ومن ثورة اجتماعية فى مناطق حارة منخفضة من العالم العربى – لاسيما أن مدن المصايف أقرب فى طبيعتها إلى مدن العطلات الشعبية الرخيصة منها إلى مدن السياحةالباهظة المغلقة . وكمدن الشتاء ، ولكن فى وضع عكسى ، تنقسم مدن المصايف إلى كنتورية وعرضية. الأولى ترادف المحطات الجبلية hill stations ، والثانية مدن الشواطىء والبلاجات أساسا ، الأولى أقرب إلى مدن السياحة ، والثانية إلى مدن السباحة .

فأما المصايف الجبلية فمنتشرة بحسب انتشار الجزر الجبلية فى العالم العربى . ففى شمال العراق فى جبال كردستان مصايف متعددة مثل شقلاوة والعمادية وسرسنك ولكن يحد من أهميتها تطرفها نوعا عن كتلة السكان فى الوسط والجنوب من العراق . وفى الجزيرة تعد الطائف مصيف مكة ومصحاً لها ، فهى بارتفاعها الموضعى «حديقة معلقة» تعلو خط النخل الدائم بقدر ماهى «غوطة منقولة» فى قلب الصحراء . وكثيرا ماتصبح عاصمة الصيف فى السعودية . وقد لاتزيد عادة عن بضعة آلاف من السكان ، ولكنها تتورم بالمصطافين فى الموسم . وعلى الجانب الآخر من البحر الأحمر ، وعلى عرض لايختلف كثيرا ، تقوم إركويت على مرتفعات البحر الأحمر فى السودان كمصيف يتيم فى القطر المدارى المطلق ! وهى هنا من خلق الاستعمار ، كانت تنتقل إليه الإدارة البريطانية صيفا على غرار سملا فى الهند . ولكنها ليست على ارتفاع شديد يعدل كثيرا فى درجة الحرارة ، ومن ثم فجاذبيتها ضعيفة لاسيما مع منافسة السياحة الخارجية ، والبليدة على منحدرات أطلس التل تعد مصيفا قريبا لمدينة الجزائر وفى تسميتها «بمدينة الورد» إشارة بليغة إلى طبيعتها وجمالها . وفى الجزائر كذلك ميشلى على منحدرات الجرجرة مدينة سياحية ممتازة ، بينما ثنية الأحد مركز اصطياف وأرز فى الونشريس . ولكن المصايف الجبلية إنما تجد وطنها

الطبيعى فى الشام . هناك صفد - نقيض أريحا - فى فلسطين حيث تعد أعلى نقطها وتعمل كمصيف للقدس القريب ، لولا أن قلة موارد مياهها عائق خطير . وأفضل منها حظا رام الله . وفى سوريا كوكبة متألقة من مصايف الجبال : صلنفة فى العلويين ، بلودان وبقين ومضايا فى لبنان الشرقي ، وعرنة فى حرمون ، ويبرود فى القلمون (١) . ولكن القمة المطلقة لبنان حيث «الصيف فى قدميه يغتسل فى ماء البحر ، والربيع على كتفيه ، والشتاء على رأسه» ، ولنتذكر هنا أن لبنان من لبن الآرامية - أم العبرية (٢) - بمعنى البياض إشارة إلى الثلج الذى يعطيها بمعنى آخر أن جبل لبنان كما يقول جاك إدة هو «مون بلان» الشرق الأوسط فهنا إذن يجتمع الموقع الجغرافي العقدى ، والمناخ شبه الألبى ، وروعة اللاندسكيب الطبيعى ، مع براعة الطبع القومى ، لتجعل من لبنان فندقا كبيرا يتاجر فى المناخ ويبيع الشمس ويحترف الضيافة . هنا تتحول السياحة إلى صناعة ، والصناعة الأولى فى الدخل القومى لأنها لاتستهدف الاستهلاك المحلى وحده . وعلى مختلف الكنتورات تنتثر مدن المصايف الجبلية بشكل يكاد يجعل كل قرية فيه مدينة ، وكل مدينة مصيفا ، ولا غرابة بعد ذلك أن يكون «مون بلان» العرب هو «سويسرة الشرق الأوسط» . وتبدأ شبكة هذه المصايف فى الشمال

---

(١) النص السابق ٥٤ .

(2) Edde p. 70..

بزغرتا ، سير، حصرون ، اهدن ، بشرى ، الأرز ، تنتقل فى الوسط إلى بيت الدين ، عالية ، سوق الغرب ، جمدون ، صوفر ، بكفيا ، باسكينتا ، ضهور الشوير ، مروج ، متين ، بيت مرى ، برمانا ، بعبدات ، وبيت الدين والأخيرة كانت مقر أمراء لبنان ومصيف الرئيس حاليا . وتنتهى المجموعة فى الجنوب بجزين وزحلة .

أما مدن الشواطىء والسباحة فتنتشر على طول سواحل العرب خاصة المتوسطية - بشرط ألا تحتضن الجبال الساحل فتتركه مشبعا بالبخار الحار الثقيل muggy كما عند بيروت [١] وفيما عدا هذا المواضع الرملية النقية الصالحة موفورة ، ولهذا فالعامل الفيصل هو الموقع - الموقع بالنسبة لكتل السكان الكبرى . من هنا نجد أهم مدن الشواطىء والبلاجات قرب الموانى الكبرى أو العواصم الساحلية . فثمة حول مدينة تونس كوكبة من مدن الشواطيء أهمها الشواطىء المرسى وسيدى ! وسعيد والفضالة (أوالمحمدية الآن) لاتبعد عن مجمع الدار البيضاء إلا بضعة أميال وتمثل مدينة بلاج وشواطىء نشطة . وبالمثل علي ساحل الشام . ولكن أكبر وأهم مجموعة هى المصرية . فالإسكندرية تجد بلاجاتها عند أطراف أصابعها وتملك شاطئا طويلا ممتاز ، وتعد المصب الأول لرحلة الصيف من كل أجزاء المعمور المصرى

"1" W.B.FISHER,P.46

الكثيف الحار . وإذا كان هذا يصب فيها دم الحياة بغزارة فى الموسم ، فالمشكلة تبقى الفصل الميت فى الشتاء . ولعل الأسكندرية فى هذا خير مثال لمشكلة كل المدن الترفيهية المزمنة . وبورسعيد أكثر تطرفا عن كتلة السكان فى مصر وشاطئها أقل إغراء ولكنها مصيف منطقة القنال الأول قبل السويس أو الإسماعيلية . أما رأس البر ففريدة فى نوعها ، لأنها مدينة الصيف والشاطىء المطلقة : فمبانيها عشش فصلية غير دائمة تختفى تماما وتهجر بعد الموسم ، وبلطيم جرثومة مدينة بلاج على الأكثر ، تذكر بأول أصول رأس البر ، ولكن الفارق هو أن رأس البر تمثل رأس حربة لمعمور الدلتا ، بينما بلطيم جزيرة مقتطعة يعزلها نطاق البرارى عن المعمور ولذا فالأولى تتصل مباشرة بالوادى وبسهولة ، وترقد دمياط خلفها كالمحرك الموتور حتى ليمكن أن تعد رأس البر بمثابة «دمياط على البحر» بينما لن يكون لبلطيم مستقبل إلا بعد استصلاح وتعمير البرارى . وثمة خارج ساحل المعمور مرسى مطروح ذات البلاج النادر ومثلها ، الغردقة . لكن هذا الموقع البشرى المعزول يسلبها مزايا الموضع ، ويكاد يقصرها على بعض الأغنياء والأجانب .

مدن السياحة وهذه تستهدف السياحة الخارجية أساسا وقبل الداخلية .. ويمكن أن نميز فيها بين السياحة الجغرافية والسياحة التاريخية (١) . ولاشك أن العالم العربى بموقعه أولا وبكل بعده التاريخى ثانيا جدير بأن يحتل مركزا بارزا فى هذه الفئة من المدن . وإنه لكذلك .

(١) النص . السابق : ص ٥٧

فأما عن مدن السياحة الجغرافية فهى أكثر ارتباطا «بالموضة» التى قد تسعى إلى الجبال بالتزحلق أو التسلق ، أو إلى الصحراء بالمخيمات والقوافل ،فمن الأولى مناطق الأرز فى لبنان حيث تتحول المصايف الجبلية إلى مشاتى جبلية ، وبهذا تحل بعض مشكلة الفصل الميت . ومثل ذلك فى جبال الأطلس الكبير فى المغرب حيث أيضا غابات الأرز وبحيرات الثلج ، وحيث تعمل مدينة مراكش كمركز الأساس headquarters resort وتمثل مدن الجبال صفرو ويفران وأزرو وايترز وغيرها مراكز الأهداف objective resorts أو المراكز الجانبية . ومن النوع الثانى الصحراوى لاشك أن تغرت فى جنوب الصحراء الجزائرية قد أصبحت رمزاً لهذا اللون الجديد من الغزو السياحى ، ومثلها إلى حد ما بسكرة .

على أن مدن السياحة التاريخية فى العالم العربى أهم – ولا عجب وهى أقرب إلى التخصص عن غيرها من المدن الترفيهية . من الأمثلة فى المغرب شالة الرومانية Sala colonia ، ومدينة وليلى الرومانية أيضا ، ثم هناك تمجد ولامبيز نواتا الآثار الرومانية الهائلة فى شرق الجزائر وفى مرتبة تالية تأتى أطلال مدينة جميلة الرومانية قرب العلمة (سان أرنو) فى شرق الجزائر أيضا ثم مدينة الجم فى تونس بين المهدية وصفاقس حيث تقوم أنقاض مدينة رومانية قديمة

أيضا هي Thysadrus. وفي الشام أيضا يسود العنصر الروماني في المركب السياحي التاريخي . فثمة بعلبك (هليوبوليس) في البقاع اللبناني بمدرجاتها وقلاعها .. إلخ ، مهرجانها السنوي إلا وسيلة لجذب السياحة إليها . وهناك تدمر (بالميرا) في وسط الصحراء السورية وبالمثل البتراء (سلع) في جنوب الأردن حيث تمثل محطة سياحية هامة . وربما كانت السياحة التاريخية أخطر ماتكون في مصر حيث ترتفع النغمة الكلاسيكية إلى الطبقة الفرعونية ولذا يزداد نداؤها للسياح حدة . والأقصر – جمع قصور – تستمد اسمها من كثرة الآثار فيها ، بمثل ماسميت مدينة الأصنام بهذا في الجزائر (أورليا نفيل) والمدينة متحف حي الطيبة القديمة . أما أسوان ففي الإطار التاريخي الجافل أيضا إلا أن صفة المشتى عليها أغلب . والاثنتان في النهاية مدن فنادق وسياح . ولكنهما تعانيان من الفصل الميت في الصيف ، ولكن غالبا ماينتقل طاقم الخدمة بكامله إلى مدن المصايف للعمل فيها ، راسما بذلك رحلة الصيف والشتاء التي تحقق نوعا من «الترانس هيومانس» الوظيفي بكل معنى الكلمة .

الوظيفة الصناعية (١)

المدن الصناعية بلا تردد أضعف حلقة في سلسلة المدن العربية . ولاشك أن تأخر التصنيع وتواضعه في الجزء الأكبر من المنطقة هو

(١) حمدان جغرافية المدن ص ٢٧٨.

السبب الرئيسى فى هذا . ويمكن أن نقول إن المدينة العربية بوجه عام لازالت مدينة سابقة للصناعة pre - industrial city ولعل هذا هو الفارق الأكبر بين مدنية الغرب ومدنية العرب حتى الآن ومن الصعب أن نجد مدناً صناعية بحتة عندنا إلا القلة المعدودة . وهناك حقيقتان رئيسيتان في هذا الصدد . فالصناعة الحديثة تجمعت في أو حول مدننا الكبرى القائمة من قبل ، وخاصة العواصم ، ولم تغامر بعيدا إلا فى القليل النادر ، والنتيجة أن لدينا فى الحقيقة «صناعات مدن» ولكن ليس «مدن صناعة» وصناعات المدن بالضرورة صناعات متنوعة أغلبها خفيفة استهلاكية بسيطة ، وقطاع كبير منها ليس أكثر من «صناعات مجتمع» كالخدمات الصناعية من تصليح وصيانة وبناء ... إلخ أو «صناعات البلديات» . كالغاز والكهرباء والمياه ... إلخ ، وكذلك بالتأكيد «صناعات عواصم» كالطباعة والأزياء .. إلخ ، وأغلب مدن العرب الكبرى تغلفها الآن شرنقة كثيفة أو خفيفة من مثل هذه الصناعات «والمصانع الخضراء» usines vertes (1) التى كانت بالشك دافعا قوياً فى نمو هذه المدن . والقاهرة والاسكندرية والدار البيضاء وبغداد ودمشق وحلب أمثلة واضحة على أن الصناعة فى أغلب هذه الحالات تمثل ضاحية واسعة أشبه بمدينة داخل - أو بالأحرى خارج - المدينة . ويكفى أن نذكر شبرا الخيمة وحلوان فى القاهرة ، والسيوف فى الاسكندرية ،

(1) Michel philipponneau, Geog. et Action, paris, 1962..

والقابون فى دمشق . وتكاد الصناعة النسيجية تكون قاسماً مشتركا أعظم فيها جميعا ، ولو أن الصناعة الثقيلة ظهرت أخيراً حول القاهرة وتتجه الصناعة الآن ، بجانب توسعها العام ، إلى الانتشار فى أكبر عدد من المدن الاقليمية العربية كما هو الاتجاه حالياً فى مصر خاصة حيث توشك أسوان أن تبرز كمدينة صناعية ثقيلة من مقياس جديد فى العالم العربى .

أما الحقيقة الثانية فهى أن القلة المحدودة من «المدن الصناعية» هى أساسا مدن استخراجية لاتحويلية : مدن تعدين أكثر منها مدن صناعة وهذا يعنى توا أن صناعتنا لازالت فى جوهرها صناعة أولية خامية ، وبالتالى أن مدنها أقرب إلى المعسكرات الصناعية منها إلى المدن الحقيقية مدن «خام» كيفا ، وضئيلة الحجم كما . وعبثا نحاول أن نجد من المدن الصناعية الكاملة غير المحلة الكبرى وشقيقتها الصغرى كفر الدوار وكلاهما من نسيج الصناعات النسيجية . أما المدن الصناعية الحديثة فى فلسطين المحتلة من مثل ناثانيا (شطف الماس) وهر تزليا وغيرهما فكلها ظاهرة طارئة – وعلى الأرجح عابرة – وبالتأكيد ضئيلة الحجم جدا فى المتوسط وأما المدن التى التي تجمع إلى جانب التعدين صناعة تحويلية كإعداد الفوسفات أو تكرير البترول فقليلة نادرة وفى الغالب تسود فيها الصفة الأولى على الثانية .

الحقيقة الثالثة والأخيرة أن مدن التعدين التى تمثل العمود الفقري

فى المدن الصناعية العربية هى بدورها تبتلعها فئة واحدة أساسا : مدن البترول . فرغم أن مدن البترول هي أحدث مدن التعدين فى العالم العربى وتقع جميعا في مجموعة المدن الجديدة ، فإنها الآن تمثل الأغلبية الساحقة . أما مدن المعادن الأخرى الأقدم نسبيا فأقلية معدودة ونستطيع أن نميز منها بين مدن الفوسفات والمنجنيز والفحم والحديد . وقد كان لتبعثر حقولها وتمزقها فى وحدات عديدة ولكنها ضئيلة ، وقلة رصيدها سواء فى مرتفعات الأطلس بالمغرب أو سيناء - البحر الأحمر بمصر . أثر كبير فى عدم نموها إلى أحجام تذكر غالبا فمن مدن الفوسفات تذكر القصير ذات التاريخ الألفى السحيق والتى كادت تندثر لولا الفوسفات . وفى تونس نذكر المتلوى والرديف وفيليب طوماى فى منطقة جفصة والكاف ، وفى الجزائر تبسة ، أما كوكبة مراكش فتشمل لوى جانتى (كشكاط) ، وبن جرير والبروج ووادى زم ، ولكن خوريبجة هى بلاشك «عاصمة الفوسفات» فى العالم العربى . هى مدينة جديدة أنشئت فى ١٩٢٣ ولكن حجمها الآن يصل إلى أكثر من ٥٠ ألفا . أما من مدن المنجنيز فنذكر موانى أبوزنيمة وأم بجمة في سيناء أما مدن الفحم العربية فلا تعنى فى الحقيقة إلا القنادسة فى أقصى جنوب غرب الجزائر على حدودها مع المغرب والتى تفسر امتداد الخط الحديدى من الساحل إلى منطقة كلم بشار ، ثم خنيفرة مدينة الفحم المراكشية على نهاية أطلس المتوسط من الجنوب . أما مدن الحديد فأهمها الونزة فى شرق الجزائر قرب الحدود التونسية .

الباب الثانى

هيكل شبكة المدن العربية

فى المنهج

من المتفق عليه فى جغرافية المدن أنه بينما قد تطورت دراسات المدن المنفردة فى مونوجرافات تفصيلية وغيرها تطورا بعيد المدى ، لا زالت الجوانب الاقليمية لتوزيع المدن متخلفة الى حد كبير (١) ولئن كانت طريقة «جغرافية الروس والخلجان» البدائية التى تسرد المدن فى الاقليم كالتواريخ فى العصور قد بادت تماما ، فإن منهجا محددا أصوليا له تكنيك واضح لم يتبلور بعد فى هذا المجال . وليس من المقبول الآن أن ننتزع بضعة من مدن إقليم ما ونفردها ونسردها بعد أن نلقى بعض تعميمات عائمة أو مائعة على الملامح والخصائص العامة لمدن المنطقة التى ندرس . والدراسات الاقليمية «النوعية» Specific التى تنتخب طبقة معينة أو فئة بعينها كالعواصم أو الموانى مثلا ، رغم ضرورتها وأهميتها ، لا تحل قضية جغرافية المدن الاقليمية الكاملة . ولهذا فإن مشكلة الدراسة الاقليمية للمدن لازالت مشكلة منهج أساسا . وعندنا أن جذر المشكلة هو طبيعة التوزيع النقطى - Punctiform

---

(1) Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, P.5' Alex, Melamid, Economic Development & Urban Geography, Geog. Review. Jan, 1961, P. 139 .

Punktal للظاهرة المدنية : أنها تتعامل مع نقط لا نطاقات ويقع لا مناطق ، أى أنها ظاهرة غير متصلة شديدة التقطع . فإذا أضيف تفاوتها الشديد السريع فى الأهمية والثقل نظرا لاختلافات الأحجام ، أصبحت مشكلة الانتخاب والاستثناء فى التعميم والتقنين مشكلة معقدة .

على أن من الممكن حل هذه المشكلة عن طريق فكرة «الخطوط المدنية Lignes Urbaines » التى يقترحها سور كخطوط القوة الحقيقية فى مجتمع المدن فى الأقليم (١) . Lignes de force وهى فكرة خصبة ثرية ولكنها لم تطبق حتى الآن تطبيقا مثمرا . فخط المدن يجمع سلسلة متصلة بدرجة أو بأخرى من نقط المدن جمعا وظيفيا لا عفويا ، فالأغلب أن كل خط يمثل «رد فعل جغرافى» لبعض الضوابط الأولية فى الاقليم سواء تضاريسية أو جيولوجية أو حيوية أو اقتصادية ، ورغم أن ضوابط اللاندسكيب الطبيعى كثيرا ما تسود فى هذه العلاقة ، فليست خطوط المدن فى النهاية خطوط تضاريس ، بل الأصح أنها دراسة فى الموقع الجغرافى بمعناه الواسع . وعلى طول كل محور من هذه المحاور يمكن بسهولة أن نتتبع تفاوت الأحجام والأثقال من ناحية وتناوب التقارب والتباعد من ناحية أخرى . وبهذا تستكمل فكرة التوزيع الجغرافى عناصرها

(1) Fondements, op. cit, d. 205 .

الأولية الثلاثة من موقع وحجم وتباعد . وكلما زادت الأحجام كان معنى ذلك زيادة أهميات المواقع ، فيمكن حينئذ أن نفصل في تحليل هذه المواقع الحرجة التي تعمل كالمسامير المحوية تثبت الخط في مكانه وتمثل نقطة التبلور ومراكز الثقل فيه - وذلك دون أن تقطع استمرار دراستنا للخط المدني الذي تقع عليه ويمكننا ونحن نتحرك على طول الخط أن نسجل العنصر الدينامي فيه ، أي التحركات التاريخية في مراكز الثقل والأهمية عبر العصور كما يمكننا أن نعمق الفكرة أكثر بأن نحدد طبقات من خطوط المدن : أولية وثانوية وثالثة . وكل مجموعة متلاحمة من الخطوط تمثل محورا مدنيا رئيسيا . وحيث تتلاحم هذه الخطوط تنتج لنا «عقد» مدنية . بينما قد تقع خارجها مدن منعزلة كالجزر أو كالكوكبات أو الأرخبيل كما يعبر فينيد (١) .

وبديهي في كل هذا أنه من مجموع محاور المدن التي حددناها في الاقليم يتألف هيكل الشبكة المدنية بينما تحدد المواقع الحرجة فيها أركان الشبكة . وبديهي كذلك أن هذه الشبكة جزء لا يتجزأ عضويا من النسيج القاعدي Matrix العمراني في المنطقة ، ولهذا لا يصح أن تفصل أو تعزل عنه في الدراسة . والشبكة بعد هذا تمثل في مجموعها

(1) Walenty Winid, The Scope Of Urban Geog, Comptes Rendus, Congres, Intern Geog, Varsovie 1934, t. III, p. 172

الهيكل العظمى فى جسم المعمور ، بينما الخط الرئيسى فيها هو العمود الفقرى . إنها قمم اللاندسكيب الحضارى وأعلى مرتفعاته – وعلى هذا الأساس ينبغى أن نعالج .

وليس التعرف على خطـوط الشبكة عملية ميكانيكية أو مباشرة ، بل هو يحتاج إلى بصيرة ورؤية جغرافية وحـاسة اقليمية نـفاذة تشبه ما يحتاج إليه الجيـولوجى فى الحقـل حين يتمثل خطوط التكاوين ومحـاور الطبقات على أوسع نطاق . والواقـع أن هذا المنهج والتكتيك يقترب بجغـرافية المـدن الاقليمية من طبيعة شبكة النقل فى الاقليم ومن منهج دراستها ، وبهذا يرسم نمطها الاقليمى ويجسم علاقـاتها الاقليمية بصـورة مقنعة وبطريقة تستقر فى الذاكرة بلا عناء ولا عنت ، ولا يخـلو هذا الاقتراب من طبيعة جغـرافية النقل الشبكية من مغزى منهجى . فبعض من أصحاب مدرسة «الجغرافيا الاقتصـادية» – لاسيما بمفهومها الأمريكى – تتسع شـهيته العلمية ليبتلع جغرافية المدن كجزء من جغرافيـة النقل التى هـى بدورها جزء من الطبـق الرئيسى . وبصرف النظر عـن هـذه الشـهية المفرطـة التى لم تعد مقبولة فى أى معنى ، فإن الجمـع التقليدى والتلقـائى بين المـدن والنقـل لا شـك يعنى عـلاقة ما خاصة تجمع بين طبيعتيهما . فـإذا عـادا والتقيـا الآن على منهج الشـبكة التى يتـألف نسيجها من

محاور وخطوط ، فلا يدل هذا إلا على سلامة وضرورة هذا المنهج لتطوير الدراسة الاقليمية لجغرافية المدن وصبها في قالب موضوعي تكاملي . وما دراستنا هذه عن العالم العربي إلا تطبيقا لهذا المنهج .

النمط الإقليمي للشبكة

لما كانت الشبكة المدنية هي هيكل جسم المعمور فإنها تأخذ إلى حد بعيد شكل ذلك المعمور وتعكس بدرجة كبيرة نمطه الإقليمي العام . والمعمور العربي يمثل قطاعا صغيراً من رقعة الاقليم الذي يسوده الجفاف والصحراء ، ولهذا يبدو كنواة مركزة واضحة - أحيانا صارمة - الحدود ، وفي خطوطه العريضة يتنضد هذا المعمور في نمط بسيط (١) فثمة في المشرق العربي «حلقة سعيدة» تطوقه على امتداد الهلال الخصيب شمالا ، وعلى طول سواحل الجزيرة العربية جنوبا ، وبين الاثنين تغلق مصر الدائرة من جهة الغرب . ومن ثم يخرج من ضلوعها ذراعان واحد نحو الجنوب في السودان ، وآخر نحو الغرب في المغرب العربي ، وقد يمكن أن نخفف من حدة بؤرتنا فنجد أن المعمور في إفريقيا العربية يرسم هلالا خصيبا واسع القطر يمتد من السودان إلى مصر إلى ليبيا إلى المغرب مطوقا الصحراء الكبرى من الشمال على

---

(١) جمال حمدان ، دراسات في العالم العربي . القاهرة ١٩٥٩ . ص ١٢ - ١٤ .

محاذاة البحرين الأحمر والمتوسط ، وكما يتقطع الهلال الخصيب الأسيوى قليلاً فى وسطه عبر الصحراء السورية ، فكذلك يدق الهلال الخطيب الافريقى بشدة فى ليبيا .

وفى هذا الإطار الواضح يتحدد نمط الشبكة المدنية العربية إلا أن خطوط الشبكة تزداد تعددا وتعقدا فى بعض القطاعات بينما ينكمش اتساعها أو كثافتها فى قطاعات أخرى . ففى المغرب تتعدد الخطوط المدنية لتعقد اللاندسكيب الجبلى كما تتفرع فى أجزاء وتتجمع فى أجزاء حتى إذا دخلت ليبيا تحولت إلى خط واحد رئيسى تقريبا يوصلنا بصعوبة إلى خط آخر رئيسى فى مصر ولكنه شديد التكاثف والثقل والخط المصرى أشبه بالنخلة الصعيد ساقها الطويلة التى تتوجها عدة خطوط متشعبة كالسعف فى الدلتا بينما يتدلى فرع من الثمار فى الفيوم ، فإذا اقتربنا من السودان بدأنا بخط واحد يكمل المحور المصرى ولكنه لا يلبث إذ يترك الصحراء ويدخل السفانا أن ينفسح بل ينساح إلى شبكة مروحية شديدة الانفراج شديدة التباعد حتى لتضيع فيها أو تكاد معالم الخطوط المدنية وتتدهور إلى تراب من المدن منتثر poussiere de Villes فصورة الشبكة فى السودان ومصر طرفا نقيض .

فإذا عدنا والتقطنا نهاية الشبكة المصرية فى الشمال وجدناها تتوصل بمشقة إلى شبكة الشام التى تكرر - على تصغير وفى استطالة - نمط المغرب العام - فتتشعب إلى عدة خطوط متوازية ومترابطة بشكل مثير ، ومرة أخرى يرقد اللاندسكيب الطبيعى خلف هذا التشابه ، وتفقد هذه الخطوط المدنية الواضحة نفسها فى أرخبيل متواضع من المدن فى شمال الصحراء السورية حتى يعود تعدد الخطوط ووضوحها فى العراق ولكن تحت ضبط العامل الهيدرولوجى المباشر وفى ترتيب ثلاثى مختلف وهنا نلاحظ التباين الأولى فى الهيكل بين مصر والعراق رغم تجانس البيئة الفيضية :

فالأول وحيد المحور ، والثانى ثلاثى المحور ، والواقع أن العراق يقع هذا الصدد فى موقع وسط بين نمط مصر الململوم ونمط السودان المنساح . أما فى الجزيرة العربية فالشبكة ساحلية وتزدوج خطوطها على السواحل الغربية على ضلعى السلسلة الجبلية حتى تتعقد وتتعدد فى اليمن ، ولكنها أساسا وحيدة الخط على الساحل الشرقى إلى أن يتعدد فى عمان .

هذا فى خطوطه العريضة هو هيكل الشبكة المدنية العربية ولكنه بطبيعة الحال لا يضم كل حملة مدنية فى المنطقة ، فهناك خطوط ومحاور ثانوية خارجة تصل غالبا ما بين قطاعاته المتباعدة فثمة فى

الصحراء الكبرى خط مدنى واحى عرضى يضم واحات جنوب مراكش والجزائر وليبيا ومصر . بينما يختط القلب الميت داخل الحلقة السعيدة فى المشرق مجموعة خطوط عرضية واحية تحددها الأودية الصحراوية ولكن هذه الخطوط الثانوية لا تزيد عن ظلال أو أشباه ظلال للهيكل الأساسى الفعال .

الفصل السادس

المغرب العربى

كتلة هضبية جبلية متفردة دعاها العرب - كما دعوا شبه جزيرتهم، ولنفس الأسباب - جزيرة المغرب : فهناك بحر الماء من الشمال وبحر الرمال من الجنوب (١) وأنها لكذلك من حيث المدن : جزيرة من الريف تحيط بها المدن من كل الجهات ، وفى هذا النمط الأساسى تتداعى العلاقة بين ضوابط التضاريس فالمناخ فالانتاج فالعمران كسلسلة ايكولوجية مترابطة الحلقات ، فتوزيع السكان والمدن هنا هو توزيع المطر، وتوزيع المطر هو توزيع التضاريس . والمنطقة فى مجموعها هضبة متغضنة Corrgated plateu داخل إطار جبلى حائطى وتأخذ شكل متوازى أضلاع Quadrilateral يضيق فى الشرق كثيرا عنه فى الغرب (٢) . والأقليم فى ذلك كله يذكرنا توا باقليم

(1) J. Fairgirvve, Geog.& World power, LOND,1941, p.70.
(2) Fitzgerald, AFrico .

الشام ، فهما نظائر جغرافية بارزة فى العالم العربى رغم الفروق الثانوية والمحلية .

وبهذه الصورة الطبيعية تتحد شبكة المدن . فثمة إطار من المدن - موانى البحر وموانى الصحراء - يطوق المنطقة على طول ساحل البحر وحافة الصحراء .. ولكن سمك هذا الاطار ووزنه يتفاوت كثيرا من قطاع لآخر بحسب اتساع السهل الساحلى «التل» ونصيبه من المطر . فعلى الجانب الأطلسى فى المغرب تتسع السهول الساحلية كثيرا بتراجع الحائط الجبلى إلى الداخل فتظهر ٤ خطوط مدنية : خط الساحل وخط ظهير الساحل ، وخط الهضاب الوسطى ، وخط سفوح الأطلس ، بينما على جانب البحر المتوسط تكاد الجبال تحتضن الساحل فتختزل المد إلى خطين : خط الساحل وخط التل ، أما جنوبيا فليس ثمة إلا خط واحد هو خط أقدام الهضبة - حافة الصحراء ، هذا عدا خط الواحات في قلب الصحراء ، وأما داخل الهضبة نفسها فلا تنتشر المدن جزافا بل تأ أيضا فى خطين بيدمونتيين واحد على أقدام أطلس التل أو البحرية والثانى عند أقدام أطلس الصحراء ، يضاف إليهما خط بينى رفيع وخطوط الشبكة جميعا تتباعد أكثر ما تتباعد فى المغرب الأقصى وتتقارب حتى لتكاد تندغم معا فى «عقدة مدن» فى أقصى الشر فى تونس . وهى فى القطاع الذى تتقارب فيه تبدى علاقـا

ليفية وتناظرا مترابطا ، بمعنى أنه تظهر مدن نظائر على خط البحر خط الصحراء ، موانى الساحل وموانى الصحراء ، نمت بينها علاقات تاريخية فى النقل والمواصلات ، ويمكننا بلا تردد أن نقول ن أهميات وأثقال هذه الخطوط تقل بعامة كلما اتجهنا من لساحل إلى الداخل – فى الغالب فجأة وبلا تدرج . فالعمود لفقرى فى الشبكة برمتها هو محور التل الذى يحتكر أكبر عدد من المدن وكل الأحجام الكبرى . ولو قارنا حجم الميناء البحرية بنظيرتها لصحراوية لوجدناها عدة أضعافها على الأقل . ولقد تأكدت أولوية الساحل المطلقة وتضاعفت منذ الاستعمار الأوربى للمنطقة لأنه قلبها بطنا لظهر « Inside out » وأعاد توجيهها لتتطلع إليه على الجانب الآخر من البحر المتوسط فأدى هذا إلى تدهور مدن الداخل نسبيا لمصلحة مدن الساحل ، ولئن كان هذا لا يبرز بشدة فى تونس والجزائر حيث كان الداخل دائما فقيرا فإنه أوضح ما يكون فى مراكش حيث كانت نواة العمران فى الداخل الفسيح ، فجذبها الاستعمار إلى الساحل .

وعند هذا الحد سنرى فارقا جوهريا بين نمط المدن فى إقليم المغرب ونظيره المصغر إقليم الشام . فخط الداخل فى الشام يعادل خط الساحل أهمية إن لم يضارعه أحيانا ، والأسباب متعددة ،

فضخامة وعرض المغرب تحبس المطر عن الداخل جدا ، بينما يمكن للمطر أن يتسلل إلى داخل الشام الضيق بدرجة معقولة ، ولهذا فلا تقارن - مثلا - «أغواط» الجزائر المتواضعة «بغوطات» سوريا الرائعة .

ثم إن الموقع الجغرافى حاسم فى هذه التفرقة ، فخلف المغرب وعبر الصحراء الكبرى لا تقارن تجارة غرب افريقيا المدارية بتجارة آسيا الموسمية خلف الشام وعبر الصحراء السورية، فتجارة المرور كطرف فى معادلة المدن أهم بكثير فى الشام منها فى المغرب ، والفارق أشد ما يكون تبلورا فى خط مدن نهايات طرق القوافل فى خط الداخل .

ومن الأفضل لنا فى دراستنا هذه أن ندرس خطوط مراكش معا ومستقلة عن بقية كتلة المغرب نظرا لمحاورها الخاصة ابتداء من الساحل حتى أقدام الأطلس الكبير والمتوسط ، على أن نرجئ ساحل الريف إلى حين تبدأ دراسة إقليم «التل» على طول ساحل البحر المتوسط . ثم تتابع خطوط المدن على الهضبة ثم أقدام الصحراء وأخيرا خطوط الواحات الصحراوية الداخلية ، ولعل لنا فى هذا الجزء أن نستعمل كلمة مراكش بدل المغرب حين يهدد السياق بالخلط بين المغرب الاقصى والمغرب الكبير .

مراكش

خط الساحل

السهل الساحلي الأطلسي لمراكش هو أخصب جهاتها تربة وزراعة وأكثفها سكانا . ولهذا فرغم أن الساحل نفسه يكاد يخلو من الخلجان الجيدة أو المرافىء المحمية ويتعرض في طوله للإطماء الشديد برواسب أنهاره، فإن خط المدن هنا هو خط القاعدة في شبكة مدن المغرب الأقصى ، لاس سيما منذ التوجيه البحرى الاستعمارى . وتكثر في الخط المدن الحديثة النشأة نسبيا مما أسس البرتغاليون في القرن ١٦ أو السلاطين بعدهم أو الفرنسيون أخيرا . وأغلب الموانى تتحاشى مواضع نهايات الأنهار بطميها «ورحباتها» «مستنقعاتها» وضحولتها. وتتمشى أهمية قطاعات الخط مباشرة مع قيمة وخصوبة الظهير السهلى ، فأضعفها هو الجنوب شبه الصحراوى بينما القطاع الأوسط هو قطب الرحى فيه .

فنبدأ جنوبا بسيدى إفنى «أو سى يفنى» قاعدة إسفين إفنى البرتغالى . وعلى مصب السوس تقع أغادير وهى ميناء تجارية كبيرة ومخرج لسهل السوس الكبير وقاعدة سياحية رئيسية للجنوب . ولإقليم السوس مفهوم يعنى أكثر من وادى السوس ، ويعده البعض بمناخه

الصحـــراوى ونهره الوحيد «مصر مراكش» (١). والمدينة قديمة فى التــاريخ ، ولكن أعيــد بنــاؤها أخيــرا بعــد أن دمــرها الزلزال . ثـم تلى تمنـــار على منتصف الطـريق إلى الصـــويرة «أو موجادور» على الــرأس المشهور بهذا الاسم . والصـويرة مدينة حديثة نسبيا أنشأها مولاى عبد الله فى القرن ١٨ لكى تنافس أغـادير ، ولكن بلا نجـاح ، وهى اليـوم لا تزيد على ٢٠ ألفـا «؟» وتشـتـهـر بالصناعـات التقليدية خاصة الأثــاث والخشب كما تستمد أهميتها من دورها كمخـرج لمدينة مراكش الداخلية . وإلى الشـمـال من مصب التنسفت قليلا فى سهل عبدة تقع أسفى Safi التى أنشـأها البرتغـاليون أولا ثم كادت تذوى بعد انسـحابهم . ولكنها استرجعت أهميتـها مع استثمار الفوسفات فى مناجم كشطاط «لوى جنتى» فـأصبحت ميناء مـعـادن تتصل بالداخل بخط حديدى مباشر ، كما هى ميناء صيد أساسى للحوت والسردين ، وتصل آسفى اليـوم إلى نحو ٥٠ ألفا ، وإلى الشـمـال قاعدة سهل دكالة الوليـدية تليها على رأس السهل الخصيب وبعيـدا عن مصب أم الربيـع تقـوم الجـديدة «مزغان» التى ترجع إلى أصـول رومـانية بـادت إلى أن أسسها البرتغال من جـديد فى القـرن ١٦ حتى انسحبوا منها فى القرن التالى وأعاد

---

(١) بسام كرد على ، مصطفى شاكر وأنور الرفاعى ، جغرافية البلاد العربية، دمشق ١٩٤٩ ، ص ٦٥٣.

عمرانها – وتسميتها – السلاطين . وقد ظلت الجديدة أهم موانى مراكش حتى قيام الدار البيضاء ، ولعل توسط موقعها التام على الساحل هو الذى يفسر هذا . لاسيما أن إلى الشمال منها قليلا على مصب أم الربيع تقع مدينة أزمور الصغيرة التى كانت عاصمة دكالة قديما .

إلى الشمال على رأس سهل الشاوية حيث تربة التيرس السوداء الشهيرة الخصيبة نجد الدار البيضاء التى كانت قرية مجهولة الأصل قاست خطر الاغراق من أمواج المحيط فى منتصف القرن ١٨ ، وظلت حلة ضئيلة لم تزد حتى ١٨٣٠ عن ٧٠٠ نسمة. وحتى أوائل القرن الحالى كانت لا تزال ميناء راكدة لا تزيد عن ١٠ آلاف وصلت فى ١٩٠٧ إلى ٢٥ ألفا. ثم تغير مصيرها حين اتخذتها فرنسا أولا قاعدة حربية ثم حين خططتها لتكون ميناء مراكش التجارية الأولى وذلك رغم أنها بلا مرفأ طبيعى . ولكن ميزتها الحاسمة أنها – وهى التى لا تقع على مصب نهر – الميناء الوحيدة على الساحل الغربى التى تنفرد بالخلو من ظاهرة الاطماء. كما أن موقعها غير بعيد عن وسط الساحل، مما سهل الاتصال بسهول الساحل: «الغرب» شمالا والشاوية ودكالة جنوبا وبسهول وهضاب الداخل سبو ومزيتا« نجد» مراكش، وقد

وقد تكلف خلق الدار البيضاء الحديثة أعمالا هندسية معقدة لإنشاء ميناء اصطناعية ، وأصبحت قطب الاقتصاد المغربي الحديث وعاصمته الاقتصادية التي تسيطر على المالية والتجارة الخارجية وكل الصناعة النامية الحديثة، فنحو ٨٠٪ من كل التجارة الخارجية تحتكرها الدار البيضاء ، وفيها تتركز الصناعات الاستهلاكية الخفيفة كالغذائيات والسكر ومواد البناء والخمور والفوسفات ، ولقد نما هذا بها إلى أكثر من ٧٠٠ ألف أي أنها أصبحت أكبر مدينة في المغرب الاقصى وثاني مدينة في كل المغرب العربي وخامسة مدن العرب بعد القاهرة والاسكندرية وبغداد والجزائر ، وتؤذن قريبا بالوصول إلى علامة المليون. وتضم وحدها أكثر من ربع سكان المدن في كل مراكش (١) «نشرت أخيرا أرقام تتعدى بها المليون» وهي بهذا أكبر مثال في العالم العربي للمدن الشيطانية Mushroom Cities فهي كما يقول بيير جورج «خلق من الخارج وليس تعبيرا ما للحياة المراكشية التقليدية» (٢) لاسيما أنها في مورفولوجيتها أقرب إلى المدينة الأمريكية الحديثة منها إلى المدينة الفرنسية التقليدية ، فخطتها مربعات هندسية ، مسرفة الاتساع في الشوارع والحدائق حتى ليحتمل أن مساحتها اليوم تعادل

(1) Pierre George, La Ville, Le Fait Urbain a travers le Monde, Parts, 1952, P. 282.
(2) Id, P. 285.

مساحة باريس ذات الملايين الخمس ! بل الواقع أن الفرنسيين كانوا يأملون أن تكون الدار البيضاء بالنسبة لافريقيا مثل بوينوس آيريس بالنسبة لأمريكا الجنوبية (١) . وبطبيعة الحال كانت مركز الاستعمار السكني الأول في مراكش فبلغ عدد الأوربيين بها نحو ثلث السكان ، ولكن «الخروج الأبيض» منذ الاستقلال صفى هذه الأقلية كثيرا .

بعد الدار البيضاء تتوالى المدن بسرعة متقاربة في كوكبة واضحة تظهر فيها بعض التوائم المدنية . فهناك أولا فضالة «المحمدية» التي كان التجار الأوربيون يترددون عليها في القرن ١٤ والتي أصبحت الآن مدينة من مدن الشواطئ والبلاج . ثم على مصب نهر أبو رقراق «بورجرج» الذي يغزوه المد بعيدا تقوم رباط وضاحيتها سلا Salé وغير بعيد أيضا ميناؤها القنيطرة . ولرباط تاريخ قديم حيث بدأت «كرباط» عسكري - قلعة دينية - للمرابطين سميت رباط الفتح وظلت مدينة للعلم والدين تشتهر ببواباتها الكبيرة إلى أن اختيرت - لحسن موقعها الذي يسهل الاتصال بجميع أجزاء القطر - لتكون عاصمة سياسية لمراكش الفرنسية . وأصبحت بذلك من «المدن الملكية» وقد اهتم بها ليوتي اهتماما خاصا وأنشأ فيها حيا أوربيا فخما وتحولت إلى مدينة حدائق ، يتمم إطار اللاندسكيب فيها على الأفق غابة المعمورة الشهيرة وبقايا

(1) S Ibidp,. 288.

مدينة شالة الرومانية Sala Colonia التى كشفت فى ١٩٣٠ فقط . كذلك أنشأ ليوتى لها قرب مصب السبو ميناءها القنيطرة «بور ليوتى» الذى لم يكن لا مجرد قصبة «قلعة» حتى ١٩١٣ والذى يقوم كتوأم مدنى للهدية . وقد وصلت رباط فى تعدادها إلى ١٥٧ ألفا فى ١٩٥٢ وتقدر حاليا بنحو ١٦٠ ألفا كان منهم نسبة من الأوربيين ، وسيلاحظ أن رباط مثل «للعواصم الضئيلة» فى العالم العربى . وإذا كانت الرباط مدينة الحدائق ، فإن سلا مدينة الاضرحة ، والمدينتان التوأمتان شهيرتان بالحرف التقليدية الجلدية والنحاسية والسجاد إلى جانب الحصر فى سلا . وإذ تعبر السبو تبدأ سهول الغرب الفسيحة الخصيبة التى تتلاشى فى سهل سبو حيث نجد بضع مدن داخلية ثم نعود إلى الساحل مع العرايش Larache على مصب اللوكوس والتى تؤدى بنا إلى طنجة .

تحتل طنجة واحدا من تلك المواقع الاستراتيجية الخالدة فى العالم العربى خلد معه المدينة منذ "tingi" الرومانية ، فهى توأم جبل طارق كمدخل للبحر المتوسط .

ولهذا ظلت طنجة تاريخيا وتقليديا أهم موانى المغرب الأقصى حتى أوائل القرن الحالى حين أصبحت موضع منافسات ومؤامرات الدول الكبرى لتوازن القوى فى غرب البحر المتوسط ، وقد انتهى هذا الصراع

بتدويلها : تحكمها القوى باسم السلطان . وقد أدى تدويلها هذا إلى سلخها عن مؤخرها الطبيعي في مراكش الخليفية «الاسبانية» وفي «الغرب» مما هدد كيانها وتركها رأسا بلا جسم وجعلها واحدة من تلك «الموانى المقتطعة» التى تتكرر في العالم العربى ، وزاد الخطر حين خلقت فرنسا الدار البيضاء ميناء مراكش الشريفية «الفرنسية» هذا عدا منافسة جبل طارق المواجهة وسبته القريبة (١) ، فتدهورت طنجة بهذا كميناء مقتطعة إلى مركز للتجارة والنشاطات غير الشرعية وغير الأخلاقية كالتهريب والدعارة والجاسوسية – خاصة الصهيونية أخيرا . وتعد السياحة عنصرا هاما في اقتصاديات الميناء ، كما أن بها بعض الصناعات ، ولكن النشاط المصرفى وودائع الذهب كانت الأساس ، ولكن هذا كان يعطيها دائما ميزانا تجاريا خاسرا ، لولا الصادرات غير المنظورة ، بينما أن ودائع الذهب هاجرت منذ الاستقلال ، كما أن تدويلها زاد من خاصيتها العالمية في تركيب السكان ، فهى «بابل» على باب المغرب ، فقد كان آخر تقدير للمنطقة الدولية ١٨٤ ألفا أكثر من نصفهم في المدينة ونسبة كبيرة منهم من غير الوطنيين ، تشمل نحو ٥٢ ألفا من الأوربيين أكثر من ثلثهم من الأسبان ، هذا عدا ١٥ ألفا من

(1) Nevill Barbour, North - West Africa "The Maghrib", O.U.P. 1959, P. 178.

اليهود (١) وينتظر الآن للمدينـة مستقبل جديد بعد أن ربطت بفاس بخط حديدي وبعـد عودتها مع مراكش الاسبانية إلى مراكش الأم ، ومن قبل قد أضيفت رسميا إلى عواصم المغرب الملكية «كعاصمة صيفية» ومع ذلك فعلينا أن نلاحظ تطرفها بالنسبة لكتلة المعمور فى المغرب رغم موقعها الاستراتيجى الفذ . فبينما تتوسط الدار البيضاء كتلة المعمور وقلب الانتاج تعد طنجة على هامشه ، وهى فى هذا تختلف عن تونس التى تناظرها فى الموقع البارز موقع عنق الزجاجة ، فبينما تستقطب كل أقاليم الحياة والانتاج فى تونس ، نجد أحد ضلعى طنجة اقليما فقيرا هو الريف بينما الضلع الآخر المنتج على الأطلسى بعيد متطوح (٢) .

خط الظهير الساحلى

لا تنحدر سلاسل جبال أطلس إلى الساحل فى مراكش انحدارا فجائيا بل تدريجيا عبر سلم من المرتفعات والهضاب عريض . والجزء الأكبر من هذه الهضاب يتلاشى بتدرج وئيد فى السهول الساحلية ويؤلف جبهة التحام عريضة بينهما . وعند نهايات هذه الهضبة التدريجية وبداية السهل البحرى العريض تقوم سلسلة من المدن تلعب

(1) Ibid, p. 176 - 7.
(2) Graham H. Stuart, The International City of Tangier, Stanford, 1955.

دور مدن الأسواق المحلية لنطاقها الزراعي الخصيب أولا ثم دور وصلات المواصلات الحديدية أو الطرق بين الهضبة الجبلية فى الداخل بثرواتها المعدنية خاصة والموانى الساحلية كمنافذ للتصدير . ولهذا فإن الخط لا يعتبر من خطوط المدن الهامة بقدر ما يعد من خطوط المدن البينية .

يبدأ الخط في الجنوب بجوليمين خارج جيب افنى مباشرة وقرب نهاية أطلس الصغير «الصحراوى» وجبل بانى وهى توصف بأنها ميناء بانى الصحراوى حيث تمثل نهاية لخط قوافل وسوقا كبيرة للابل والواقع أننا فى هذه النقطة عند ملقى عدة خطوط مدن : خط أقدام الهضاب وخط ضلوع الجبال وخط هوامش الصحراء - وربما أيضا خط الساحل . وإلى الشمال يستمر خط مدن الهضاب بتيزنيت وهى مدينة حديثة النشأة على حافة وادى السوس ونهايات أطلس الصغير ، وهى مثل جوليمين واحية شبه صحراوية وتعمل كمحطة إلى أغادير ، ثم يضم الخط شيشاوة التى تقع فى منتصف المسافة بين مدينة مراكش والصويرة كما تشتهر بالسجاد «الزرابى» . ثم نعبر التنسفت لنجد لوى جنتى Louis Gentil «كــاشكات» التى تمثل وصلة السكة الحديدية بين مدن فوسفات الداخل فى بن جرير وميناء التصدير آسفى على الساحل ، ثم تلى سيدى بو النور ثم على أم الربيع فوكو -Fou

Cauld وإلى الشرق منها قليلا سطات على هضبة سطات وهي تمثل وصلة حديدية هامة بين الخط الرئيسي مراكش – الدار البيضاء وبين مدن التعدين في الداخل خوريبجة وواد زم . وإلى الشمال يستمر الخط في عدة مدن صغيرة مثل بيررشيد ثم مارشان في خميسة، Khemisset على أطراف الهضبة من الغرب . وفي حوض سبو الأدنى [illegible] مدينة وصلة السكة الحديد سيدي قاسم «بيتي جان Petitjean» ثم سوق الأربعاء . وينبغي أن نضيف هنا من المدن الحفرية الرومانية القديمة مدينة وليلي ، ومن المدن المقدسة المولى إدريس التي أسست في القرن ٨ م وأصبحت الآن مزارا للمسلمين لا يدخلها غيرهم . وبعد ذلك وعلى الحافة الشمالية لحوض سبو وعلى نهاية أقدام أطلس الريف تقع وزان حديثة النشأة التي أسست في القرن ١٨ ، وهي مدينة سوق وهمزة وصل بين الريف الرعوي و«الغرب» البحري وسبو الزراعي . وهي تناظر شفشاون Xauen على ضلوع الريف الشمالية كما تناظر مراكش تارودانت على ضلعي أطلس الكبير.

خط الهضاب الوسطى

في منتصف المسافة تقريبا بين بدايات الهضاب قرب الظهير الساحلي وبين أقدام سلسلة جبال الأطلس ، يعتلي ظهر الهضاب الوسطى خط واضح من المدن ، والنطاق الهضبي نفسه أقل خصوبة من

الظهير الساحلى ، ومتوسط المطر فى ذاته وهو إلى الرعى أقرب ولكنه غنى بطرق المواصلات بين شمال وجنوب مراكش ، كما تقطعه الأنهار العرضية التى تبدأ من النظام الجبلى . ويحمل الخط فى طرفيه فى الجنوب والشمال مجموعة من المدن الهامة التاريخية لاسيما فى الشكال ، بينما فى الوسط ترصعه مجموعة من المدن الحديثة أو الجديدة من مدن التعدين تمثل أهم قطاع تعدينى فى المغرب «مراكش» والخط بلاشك من خطوط الدرجة الأولى ، ولو أن طفرة مدن الساحل الحديثة قد سلبته كثيرا من أهميته وامكانياته ويبدأ الخط على نهر السوس . فعلى نهر السوس نفسه حيث ينتقل من السهل إلى سفوح المرتفعات نجد تارودنت المدينة التى تستمد أهميتها من ممر تزينتست الذى يقطع عبر أطلس الكبير إلى مدينة مراكش . والواقع أن المدينتين تتناظران على نهايات أقدام السلسلة من الشمال والجنوب كما تتناظر «تيرنوفو وكازان ليك على جانبى جبال البلقان أو بلاد القوقاز وتفليس على جانبى القوقاز» «لا بلاش» على الخط بين المدينتين نجد إيمى تانوت Imin, Tanout Amizmiz .

أما مدينة مراكش نفسها فتقع على بعد ٣٠ كم من سفوح أطلس الكبير على الهضاب الوسطى التى تسمى محليا بالجبيلات ، وتشرف على نهر تنسفت الذى يسقيها ، والمدينة من تأسيس المرابطين «يوسف

بين تاشفين» في القرن ١١ ، أي أنها ثانية عواصم المغرب الملكية قدما بعد فاس ، وهي تسمى «جوهرة الجنوب» حيث كانت عاصمة لكثير من الدول التي قامت في جنوب المغرب . وقد جعلها موقعها هذا طوال تاريخها منهمكة في حماية مراكش الجنوبية من قبائل الصحراء والأطلس وهي تقليديا مدينة وساطة تجارية وسوق عظيمة للتبادل بين حاصلات الصحراء والبحر المتوسط ، وسوقها شرقي قديم مقسم بحسب الحرف والمهن ، وهي قبلة أهل الجبال والصحراء ، والمدينة المسورة تقوم وسط غابة ضخمة من النخيل ، وترسم صورة رائعة مستمدة من التباين بين وراء جبلي تلمع الثلوج على رأسه ، وسهل أمامي يترامى إلى الأفق ، ولهذا فللمدينة اليوم دور سياحي هام كمشتى وحلبة للانزلاق على الجليد ، وهي تأتي الآن ثانية مدن المغرب بعد الدار البيضاء بتعداد قدره ٢٢٠ ألفا لم يكن للأوربيين فيه أكثر من بضعة آلاف ، والمدينة ، التي تقع على نفس خط طول الدار البيضاء ، تتصل بها بخط حديدي مباشر .

وإذا تتبعنا هذا الخط الحديدي فإنه يحدد لنا تتمة خط مدن الهضاب الوسطى ، فإلى الشمال من مدينة مراكش في هضبة الرحامنة التي تتدرج إلى سهول دكالة تقع بن جرير . والواقع أننا ابتداء من هنا ندخل في نطاق الفوسفات الذي يمتد بعرض الهضاب حتى وادي زم

شمالا ، ونصبح إزاء سلسلة من مدن التعدين ، فبن جرير تتوسط حوضا رئيسيا للفوسفات ، يخرج منها إلى ميناء التصدير آسفى وصلة حديدية من خط الدار البيضاء ، مراكش ، وشمال قوس نهر أم الربيع تتدرج الجبال إلى هضبة تادلة أولا ثم إلى هضبة سطات قبل أن نصل إلى السهل الساحلى . فعلى أم الربيع الأوسط تقوم مدينة الفوسفات البروج ، ثم شمال النهر نجد مدينتى التعدين خوريبجة ووادى زم وتخرج منهما وصلة حديدية تتصل بخط الدار البيضاء - مراكش عند مدينة سطات ، ولاشك أن خوريبجة هى أهم هذه الكوكبة التعدينية بل هى «عاصمة الفوسفات» فى العالم العربى برمته رغم أنها لم تبدأ إلا منذ ١٩٢٣ ، فقد بلغت الآن ٥٠ ألفا من السكان ، بعد هذا تستمر الهضاب ممثلة فى مزيتا مراكش أو نجد مراكش التى تتدرج شمالا وغربا إلى حوض سبو . فنجد بعض المدن الصغيرة ولكن المهم هى مكناس وفاس على اطرافها من الشمال وعلى الحافة الجنوبية لحوض سبو الخصب الغنى المثلث الذى يمثل فى الواقع كوكبة مدن غنية تجمع بين مدن الهضبة والساحل . والمدينتان عاصمتان من «المدن الملكية» بينما على الجانب الآخر من الحوض وإزاء فاس تقع عين عائشة .

فأما فاس فهى أقدم المدن الملكية ، حيث بناها الأدارسة فى القرن التاسع سنة ٨٠٨ وهى تحتل موقعا استراتيجيا منيعا على رأس مثلث

حوض سبو ويسيطر على خط الحركة الرئيسية بين مراكش والجزائر عن طريق فتحة تازة – وجدة – التا 'الجزائرى . كما أنها بفضل جارتها مكناس تقع على الطريق المباشرة إلى الساحل الغربى لمراكش ، فإذا أضفنا إلى هذا الموقع الممتاز مواد الموضع المائية الغزيرة التى تعد أكثر ضمانا وثباتا منها فى مدينة أخرى بالاقليم ، أدركنا سبب الاستمرارية المزمنة فى أهميتها ودورها ، وأولويتها المطلقة فى فترة ما من تاريخ المغرب ، ولقد بدأت فاس أولا كمدينة تجارية ولكنها منذ المرينية أصبحت قبلة دينية وبؤرة علمية – أصبحت بفضل جامعة القرويين «مكة المغرب» ، ولقد نمت المدينة حتى أمتد العمران إلى نواة أخرى جديدة بنيت فى القرن ١٣م ، وأصبح هناك فاس القديمة وفاس الجديدة . وقد بلغت فاس أوجها أيام الموحدين فى القرن ١٢ – ١٣م ، وقيل أن سكانها وصلوا حينئذ إلى ٤٠٠ ألف ، فكانت بذلك من أمهات مدن الإسلام فى العصور الوسطى ، ولكنها تعرضت بعد ذلك لهجمات البربر المتكررة ، كما شهدت نزاع أسرات متعددة للاستيلاء عليها ، ثم تلقت تيارا من الأندلوسى «الموريسكو» اللاجئين ، وفى الفترة الحديثة اهتزت فاس نوعا وبدا كأنها تتدهور شيئا بالقياس إلى مدن الساحل الجديدة الظافرة ، ولكنها لاشك ستحافظ على مركزها لأن الطبيعة والجغرافيا

في صفها إلى حد كبير [1] . وهى اليوم عاصمة الشمال إداريا، وعاصمة الدولة الدينية وعدا هذا فلها صناعاتها الشهيرة الحرير ولبجلود الفاسي والموزايكو، وهى تناظر طنجة سكانا (١٨٠ ألفا) ولكن على العكس يندر فيهم الأجانب.

أما عن مكناس فلها تاريخ طويل بربرى قبل الإسلام ولكن جدد بناءها السلطان فى القرن ١٧ بعدد هائل من القصور الملكية والحدائق حتى سميت فيما بعد «فرساى مراكش» أو «مدينة الرياض»، والمدينة تحتل موقعا ممتازا يسيطر على الحركة إلى حوض سبو وسهل الغرب، إلا أن مواصلاتها مع الجنوب قد تنقطع شتاء بالثلوج والمدينة تمتاز بمناخها الجيد مما جعلها مركزا للاستشفاء، وقد أدى هذا الموقع وهذا المناخ إلى التفكير فى حين ما فى اتخاذها عاصمة عامة لمراكش، ويبلغ تعدادها الآن ١٥٠ ألفا، وتشتهر بالفنون البربرية خاصة السجاد والتطريز والأخشاب المصبوغة [2].

حلقة مدن المحور الجبلى

يستقل نطاق جبال أطلس فى مراكش فى محوره وارتفاعه ومظهره عن النظام العام فى المغرب العربى، فهو يقوم كحائط عظيم فوق سطح الهضبة القاعدية الممتدة شرقا وغربا، بزاوية انحراف تكاد تتقاطع مع

---

(1) Fitzgerald, Africa.

(2) Alice Garnett, "Capitals Of Morocco, Scot. Geog. Magazine. Jan 1928

الاتجاه العام الشرقي - الغربي لها ، وبموقع وارتفاع يجعله أغزر أجزاء النظام الأطلسي مطراً ومائية - ولكن أيضا وعورة وعزلة. فالمحور الجبلي في مراكش خزان مياه أو كما يعبر الفرنسيون «قصر المياه Chateau d'eau »الحقيقي في المغرب العربي. ولكنه مع ذلك ليس إلا «كوخا» من حيث العمران. فهو إذ يمنح مياهه للسهول والمنخفضات يكاد يحرم نفسه من الحياة والسكان - إلا من قلة من رقع مخلخلة من البربر الرعاة. ولذا فحياة المدن فيه هامشية وقعاً وموقعاً: فلا تزيد عن حالات صغيرة أو قزمية منعزلة كمحطات جبلية للمواصلات أو محطات السياحة الجبلية والتزحلق ازدادت أهميتها أخيراً بصورة تذكر بجبل لبنان، وإلا كمعسكرات تعدين جديدة. وأغلب هذه المراكز تقع على سفوح الجبال أو على أقدامها عند التقائها بالهضبة شرقا وغربا، وبهذا ترسم خطين واضحين على جانبي السلسلة يؤلفان معا حلقة بيدمونتية دقيقة الحبات محددة كالسيجار. والخط الغربي المطير من الحلقة أكثر أهمية وأكبر أحجاما من الخط الشرقي ظل المطر شبه الصحراوي، ولكن الحلقة في مجموعها لا تزيد عن خطوط الدرجة الثالثة، وإذا كانت الأسماء الأجنبية الطارئة من برتغالية وفرنسية تكثر على خط مدن الساحل، فإن الأسماء البربرية المتوطنة تتواتر هنا بوضوح معبر. ولنبدأ في تتبع حلقات هذه السلسلة بضلعها الغربي من الشمال.

جبهة الالتحام بين أقصى شمال المتوسط وأقصى جنوب الريف خانق غائر بين فتحة تازة الاستراتيجية التاريخية المشهورة. هنا أولى مدن الحلقة: تازة حيث تجتمع مزايا الموقع والموضع معا. فهي تسيطر

على الطريق الرئيسية بين قلب مراكش الاقتصادى فى سبو والساحل، وبين التل الجزائرى الخصيب الكثيف. أما موضعا فهى قرب نهر إتاون قلعة تشرف على ، وتتحكم فى ، بوابة عرضها ١.٥ ميلا وارتفاعها ٢٠٠٠ قدم. هى إذن باختصار «ترومويل» مراكش . من ثم تاريخها الطويل : فلها أصول قديمة، بينما المدينة الإسلامية قد أسست فى القرن ٨م. وإذ نتحرك على طول بيدمونت أطلس المتوسط غربا نصل إلى صفرو الياحسية التى تقع إلى الجنوب الشرقى من فاس: ثم بعدها يفران وهى مدينة حديثة النشأة ومركز رئيسى للاصطياف الآن فى منطقة الأرز كما هى محطة للتزحلق على الجليد. ثم يلى بعد بضعة أميال مركز آخر للاصطياف هو أزرو. ثم نصل إلى خنيفرة مدينة تعدين الفحم التى تقع على نهاية أطلس المتوسط الجنوبية كما تحددها منابع أم الربيع وتفصلها عن بداية أطلس الكبير. وإلى الشرق من خنيفرة وعلى متن السلسلة الجبلية تقوم محطة إيتزر كممر جبلى فى نقطة تقسيم المياه بين الملوية شرقا وأم الربيع غربا. أما على ضلوع الأطلس الكبير الغربية فنبدأ بقصبة تادلة متوسطة هضبة تادلة التى تفصل بين أطلس المتوسط والكبير وإلى الشرق منها قليلا القصيبة. ثم هناك جنوبا Azilal (الظلال) وإلى الغرب منها بتطرف يكاد يخرجها عن سفوح الجبال تقع مدينة القلعة. وبعد دمنات وآسنى تقل المدن الهامة على سفوح السلسلة لا سيما حين نصل إلى الأطلس الصغير (الخلفية) الأكثر جفافا حيث لا تستحق الذكر إلا تافراوت التى تعد قاعدة محلية. على أن خط مدن الهضبة لا يكاد يتميز هنا عن خط مدن الجبال إلى أن تدور حول نهاية الأطلس الصغير فنجد على أقدام الجبال وهامش

الصحراء إيشت وغير بعيد عنها فم الحسن (فوم لحسن). وإذ نستدير شمالا مع الضلوع الشرقية للجبال نجد عقا وأميتر وطاطا وأغادير تيسنت ثم فم زكيد وكلها حلات قزمية محصنة - قصبات - شبه صحراوية بقدر ما هى جبلية. والمواقع أنها لا تبتعد عن «طريق القصبات» الصحراوى الذى يحاذى وادى درعة. وإلى الشمال تقوم Tazenakht ثم مدينة وارزازات الهامة التى تقوم فى الخليج embayment الواضح الذى يفصل بين الأطلس الصغير والكبير وتعمل كعاصمة محلية ترتبط بمدينة مراكش على الجانب الآخر من السلسلة عن طريق ممر جبلى رئيسى يمر بتلويت Telouet. ومع أطلس الكبير تستمر حلات القلاع مثل سكورة وقلعة مكونة إلى أن نصل إلى يومالن ثم تينغير وتينجداد ثم جولمينة وقصر السوق ثم الريش وجوراما وتالسينت Talsint وأخيرا ميدلت على النهاية الشمالية للأطلس الكبير. وكل الحلات شبه المدينة السابقة تمثل مراحل على طريق المواصلات حول الجبال الذى يعبرها عند ميدلت وايتزر إلى الأطلس المتوسط وإلى الشرق من أطلس المتوسط يستمر الخط بقصابى ثم ميسور على أعالى ملوية الذى يحف بأقدام السلسلة.

التـــل

بعد أن انتهينا الآن من خطوط المدن التى تستقل فى مراكش بمحور خاص عن الامتداد العام لإقليم المغرب، يمكن أن نتتبع الخطوط العرضية الكبرى على أن نبدأ بالتل بمعناه الجغرافى الواسع أى شاملا إلى جانب التل الجزائرى الصحيح امتداده الطبيعى فى ساحل الريف غربا و«الساحل» التونسى شرقا .

فإذا بدأنا بالريف وجدنا أفقر قطاعات الخط حيث يقل المطر حتى يصبح ظل مطر فى شرقه ويقل معه العمران . أما إلى الشرق فالتل الجزائرى لفظ مركب يشمل السهل الساحلى الذى تتركه جبال أطلس التل (أو البحرية) على البحر كما يشمل المنحدرات والسفوح الشمالية لهذه الجبال نفسها. ويتفاوت اتساع التل بهذا المعنى تفاوتا كبيرا بتقارب أو تباعد البحر والجبل. كما قد تقوم فى وسط السهل الساحلى سلاسل محلية منفصلة عن خط أطلس التل كبالبروزات outcrops ولكنها لا تقطع استمراريته وإن حددت فيه أحواضا واضحة أحيانا. والتل برمته فيما عدا قطاعه المراكشى «ريفيرا» متوسطية ضخمة (١)، بل هو أعظم ريفيرا على البحر المتوسط. وهو قلب المغرب الاقتصادى والعمرانى الذى وحده يضم ٨٥٪ من السكان فى الجزائر على مساحة لا تزيد عن ٧٪ من الرقعة السياسية، كما يشمل نحو ثلثى السكان فى تونس (٢) . وهو أيضا موطن الاستعمار السكنى المزمن الذى انهار أخيرا. هنا إذن العمود الفقرى فى شبكة مدن المغرب عامة والمغرب الأوسط والأدنى خاصة. فالتل يحمل ٧ مدن مائة ألفية من ١٢ فى كل المغرب العربى. وتبلغ درجة كثافة المدن وتقاربها هنا أننا نلقى خطين كاملين يتزاحمان فى هذه الشقة الضيقة. فثمة خط الساحل أو التل الأسفل وخط الداخل أو التل الأعلى Hâut Tell على السفوح البحرية لأطلس التل. والثقل كله يذهب أساسا للخط الساحلى المباشر فله ٥

(1) J,Klein, La Tunisie. Coll. que Sais - Je.Patis, 1949. P. 5.
(2) Ibid. P.17.

مدن مائة ألفية مقابل ٢ للخط الداخلي .

وهناك ظاهرتان هامتان في القطاع الجزائرى من الخطين : أولا توزيع الثقل المدنى على طولهما توزيعا أقرب إلى التوازن منه إلى التركيز . فالثقل المدنى يتحدد في ثلاث بؤرات : الوسط وأقصى الطرفين. فنجد في الغرب دائرة تجمع وهران وسيدى بلعباس وتلمسان ومجموع وزنها ٥٦٧ ألفا. وفي الوسط دائرة تشمل الجزائر وبليدة والمدية وتزن نحو ٩٠٠ ألف. وفي الشرق دائرة تضم قسنطينة وعنابة وسكيكيدة وتزن ٤٤١ ألفاً . فرغم أن الدائرة الوسطى تبلغ ضعف الدائرة الشرقية، بينما تأتى الدائرة الغربية بين بين، فإن هذا التوزيع الهندسى النمط أقرب إلى التوازن منه إلى الاختلال. ويرجع هذا أساسا إلى النمط الجغرافي للاندسكيب كشريط ضيق طويل attenuated تعوزه بؤرة مركزية طاغية أو عقدية محددة. ولهذا ففيما عدا التوسط الهندسى البحت فإنه أدعى إلى التشتت الجغرافى منه إلى التركيز. الظاهرة الثانية هى العلاقة العكسية داخل هذه الدوائر الثلاث بين الخطين. فحين تطفر مدن الخط الساحلي تتضاءل مدن الخط الداخلي، والعكس، بصورة مطردة توضح الأثر التحديدى للمدن الكبرى على جاراتها الصغرى. فالبليدة (٦٩ ألفا) والمدية (٣٠ ألفا) أقزام بجانب طغيان الجزائر (٨٠٦ آلاف) بينما سيدى بلعباس (١٠٥ آلاف) وتلمسان (٧٣ ألفا) أكثر تماسكا أمام حجم وهران المعقول (٣٨٩ ألفا)، بينما تحقق عنابة (١٥٠ ألفا) وسكيكيدة (٧٠ ألفا) أحجاما أكبر إزاء قسنطينة الأكثر تواضعا (٢٢١ ألفا) .

وأغلب مدن التل ترجع إلى أصول قديمة فينيقية أو بربرية كثيراً ما

أعيد تأسيسها أو تجديدها على يد الأندلوسى. كما نقابل هنا ظاهرة ازدواج الأسماء بما فرض الاستعمار الأوربى من تسميات دخيلة. كما أن ثمة مدناً ينقلب فيها ميزان الأجناس كما ينقلب ميزان الجنس، فتصبح الأغلبية للأوربيين المستعمرين، ولكن الاستقلال قد تكفل بتصفية هذه المدن غير العربية على الأرض العربية. وأخيرا فلنذكر أن أحجام المدن فى الجزائر كما هى معطاة هنا إنما تمثل الحالة الاستاتيكية قبل حرب التحرير، وقد تعرضت بعض هذه المدن لتغيرات عنيفة فى سكانها.

خط التل الساحلى

حقيقتان جغرافيتان هامتان يمتاز بهما توقيع المدن الساحلية على طول التل. فهى أولا وكما فى معظم موانى حوض البحر المتوسط تتحاشى مصاب الأنهار والنهيرات لأنها تمثل سيولا خطرة فى فصل المطر وتحيل سيف البحر إلى مضاحل طينية رديئة. ثم هى ثانيا ترتبط بالخلجان الصغيرة الصخرية فى خط الساحل ولكن على جانبها الغربى خاصة وذلك للحماية من الرياح الشمالية الغربية من ناحية ومن تيار مضيق جبل طارق الساحلى المتجه شرقا من الناحية الأخرى. ومع ذلك فكل الموانى (المراسى) بوجه عام تحتاج إلى الحماية الصناعية وخطوط تكسير الأمواج. وإذا قامت موان على الجانب الشرقى من الخلجان فإنها تكون ضئيلة لا تزيد عن موانى صيد فى الأعم الأغلب. ومن حيث شكل المدينة فهو غالبا مستطيل بشدة له جبهة واسعة ولكن لا عمق له. كما أن الواجهة البحرية من المدينة تكون عادة المدينة الأوربية، بينما

ظهير المدينة الخلفى هو الحى العربى مرتكزاً على قلعة «القصبة» القائمة على كنتور مرتفع.

يبدأ الخط بسبتة التى تعدها اسبانيا للآن قطعة منها (!) والتى كانت تضم فى كردونها ٦٠ ألفا فى ١٩٥٠. والمرفأ جيد ولكن الميناء تعانى من وقوعها فى ظل طنجة وجبل طارق، ولهذا فأهميتها التجارية محدودة، وليس بها صناعة تذكر، بل تعيش أساساً على صيد الأسماك وتعبئتها وتصديرها. وليس على الساحل مدينة ذات بال قبل مليلة سوى الحسيمة Alhucemas التى يعرفها الأسبان بفيلا سان جورجو Villa Sanjurjo. أما مليلة على الجانب الأيمن للسان ناتىء من الساحل فهى كسبته من الجيوب التى مازالت تملكها أسبانيا وتدعى أنها جزء منها، كما أنها مثلها ميناء حرة. ودورها التاريخى بحكم موقعها أقل أهمية من سبتة، وسكانها ٨١ ألفا منها طائفة يهودية قللتها الهجرة أخيراً. وهى تعيش على صيد الأسماك وتصديرها كما تصدر حديد الريف (١). وبعدها لا نجد عن مصب الملوية أى ميناء.

حين يدخل الخط الجزائر (٢) لا ينتهى الاستعمار الأسبانى بل يظل العنصر السائد فى المستعمرين الأوربيين فى أغلب مدن مقاطعة وهران التى لا تمثل معقلاه الآن فحسب وإنما منذ بضعة قرون. فنبدأ بمدينة الحدود الغزوات (نيمور Nemours) بعيداً كثيراً عن مصب الملوية،

---

(1) Nevili Barbour, op. cit. pp. 185 - 8.

(٢) راجع فى مدن الجزائر أحمد توفيق المدنى: جغرافية القطر الجزائرى، الجزائر، ١٩٥٢، هذه هى الجزائر، القاهرة، ١٩٥٦.

A. Bernard, L'Afrique du Nord, Geog, Universelle.

تليها بني مصاف Beni بعيداً عن مصب نهر تافنة . وإلى الداخل قليلا عين تموشنت مركزا استعمار اسبانى فرنسى هام في وسط حقل زرعى غنى ، ثم يتسع السهل الساحلى كثيرا إلى سهل مليتة فنصل إلي وهران ثانية مدن الجزائر ورابعة مدن المغرب العربى (٣٨٩ ألفا) والتى تكاد تعادل نصف مدينة الجزائر حجما . وهذا الحجم الضخم يثير التساؤل نظراً لموقعها المتطرف قرب الحدود . ولكن اللامركزية الجغرافية والتشتت الخطى المتأصل فى الجزائر المعمورة "L'Algerie "utile هو الذى يفسره كما يفسر ضخامتها النسبية بالمقارنة بالعاصمة نفسها . ولقد يمكن فى الواقع أن تعد وهران عاصمة الاستعمار بمعناه السكنى لا السياسى في الجزائر – ويمكن أن نضيف : الاستعمار السكنى الأسباني بالتحديد . فرغم أن عدد الأوربيين فى مدينة الجزائر أكثر منه فى مدينة وهران ، فإن نسبة الأوربيين من مجموع السكان فى وهران هى أعلى ما فى المغرب العربى كله . ورغم أن كثيراً من الأسبان هنا اكتسبوا الجنسية الفرنسية فإن لهم الأغلبية الحقيقية بين الأوربيين . وبحسب السكان كانت وهران أقل المدن عربية فى المغرب العربى حيث لا تزيد نسبة المسلمين عن ثلث أو ربع السكان على الأكثر أى تتحول إلى أقلية – إلى مجرد «حارة» إسلامية كبيرة ، وهى لهذا تبدو مدينة زوربية عصرية تماما ، والواقع أن جذور الأسبان هنا قديمة فالمدينة بربرية الأصل – كانت تسمى إيفرى – ثم استوطنها وعمرها «الأندلوسى» العائئون في القرن ١٠ ، وصارت ميناء هامة تجارية وحربية تحت بنى زيان ، ولكنها بعد ذلك سقطت لمدة ثلاثة قرون كاملة في يد الاحتلال الأسبانى ثم لعبت دورا هاما كخط أمامى فى رحتلال

مـراكش . ووهران الآن من زهـم مـراكـز الصناعـة الحـديثـة والتـجـارة الخارجية فى الجزائر . وتتنافس مدينة الجزائر بشدة وتسيطر على كل تجارة غرب الجزائر . وهى نهاية خط حديد كلم بشار أطول خط يتغلغل فى الصحراء ، كما أنها أقرب نقطة اتصال بين فاس وفرنسا ، كذلك تعد وهران الميناء الحـربيـة الأولى في الجزائر وذلك بقاعدتها المرسى الكبير التي تشبث الاستعمار الفرنسي بالبقاء فيها ١٥ سنة بعد الاستقلال .

ونترك وهران ولكن يستمر اتساع السهل الساحلى حتى خليج ارزيو Arzew حيث نجد على جانب الخليج الغربى ميناء أرزيو التى ينتظر أن تصبح نهاية أنابيب الغاز الطبيعي الجزائرى وبداية الأنبوب الغاطس إلى الساحل الأسباني . وقبل أن نصل إلى مصب الشلف بمسافة كافية تقوم مستغانم . ومستغانم تحريف لإسمها الأصلى «مشتى غانم» . والمدينة أسسها المرابط يوسف بين تاشفين كمدينة تكنات ، ثم اتسعت كثيرا تحت بنى زيان ومرين والأتراك . .وهى الآن تبلغ ٨٠ ألف وبذلك تكون زكبر مدينة فى الجزائر خارج المدن المائة ألفية . ثم تأتى مدينتان متشابهتان فى التاريخ والحجم والتباعد ك تنس المياه الصغيرة التى أنشأها مهاجرو الأندلس من مدرسية على أنقاض مدينة فينيقية لتكون منفذا لإقليم الضهرة ، وشرشال Cherchel التى أسسها الأندلوسى أيضا على أنقاض أيول الفينيقية ثم قيصرية الرومانية وتحدد شرشال البداية الغربية لحوض سهل متيجة العظيم الخصب والإنتاج والذى أصبح قطب الاستعمار الفرنسى ومشتله الأكبر فى الجزائر والذى تحول على يديه إلى حقل هائل للكروم ومصنع للنبيذ

. وتتوجه ، بارتفاع يتناسب مع إمكانيته الكثيفة ، المدينة العاصمة الجزائر .

والمدينة تقوم على أنقاض مدينة فينيقية قديمة أسسها الصنهاجة كعاصمة محلية . وكانت تقوم على عدة جزر إزاء الساحل تسمى جزائر بني مزغنة . ومنذ ١٢٥٠ اتخذها الأتراك - بربروس خير الدين - عاصمة للقطر نظرا لموقعها البحرى الأستراتيجى . وردم ما بين الجزر ووصلت بالساحل ولكنها ظلت تحتفظ بالاسم الجغرافى الأول الذى زطلق أيضا على كل القطر . ولعل هذا يفسر التناقض الحالى anachronism بين الاسم الجزرى والواقع القارى للجزائر . ومنذ ذلك الحين وهى العاصمة . وقد نمت الجزائر (١) قفزاً حتى أصبحت كبرى مدن المغرب العربى الآن ٨٠٦ آلاف رابعة مدن العرب .. ومن السهل أن ندرك لماذا . فهنا تجتمع مزايا الموقع والموضع كخير ما تجتمع فى الجزائر . فمن حيث الموضع ، يعد سهل متيجة أكبر وأخصب وأكثف رقعة زراعية متصلة فى التل (١٠٠ × ١٥ كم) ويمثل قلبر الانتاج الاقتصادى الحديث فى الدولة . وفى وسطه من الجنوب تنفتح أطلس التل عن ممر جبلى يؤدى إلى الداخل فى يسر. ومن حيث الموقع يتوسط السهل التل الجزائرى تماما . ومع ذلك فإن أولوية وسيادة الجزائر بين مدن الدولة ليست مطلقة بل هى أقل ما فى المغرب العربى. فالمدينة الثانية نصفها حجما بينما النسبة فى المغرب (مراكش) بين الثلث والربع ، دعك من تونس حيث النسبة العشر ! ولهذا فإن مدينة الجزائر

(1) J. Pelletier. Alger, 1955, Essai d'une Geog. socjâle, Paris, 1959.

لا تسيطر على التجارة الخارجية للدولة سيطرة الدار البيضاء فى المغرب ، فنصيبها من الصادر والوارد أقل من النصف . ولقد رأينا كيف أن *النمط الخطي للمعمور الجزائرى إذا* كان يمنحها التوسط الهندسى فإنه يجحدها العقدية والبؤرية. وميناء الجزائر أعظم ميناء بحرية فى المغرب العربى، لها مرفأ واسع ولكنه محمى صناعياً. وهى مركز هام للتموين بالفحم bunkering. وكانت الجزائر تعد ثانية موانى «فرنسا» بعد مرسيليا فى الحركة الملاحية بحسب الحمولة، كما كان نموها مرتبطا ومواكبا إلى حد كبير لتطور مرسيليا. ومن حيث السكان كانت مدينة الجزائر أكبر جزيرة للاستعمار السكنى على الساحل الجزائرى، ففيها وحدها كان ٢٥٪ من كل الأوربيين فى الجزائر، ولكن نسبتهم إلى الوطنيين كانت دائما أقل منها فى وهران. وسيتضح قريباً أثر تصفية الاستعمار على حجم السكان وتركيبهم، ولكن من الممكن أن نجزم بأن التيار الأجنبى الخارج سيعوضه تيار وطنى من الداخل ، وقد ينجلى الموقف نهائيا عن الجزائر مدينة مليونية كاملة.

وحول الجزائر تتقزم المدن فى مدى دائرة واسعة، فهى بقامتها الشماءتئد نمو المدن حولها داخل متيجة وخارجه وهى مدن أغلبها من إنشاء الأندلوسى على أنقاض فينيقية. فأما داخل السهل فهناك القليعة التى أسسها الأندلوسى والأتراك فى القرن ١٦ ، ثم بوفاريك مدينة التخطيط الجديدة التى تمثل نموذج الاستعمار السكنى فى الجزائر. فهى من خلق الاستعمار تماما تحتل وسط السهل كمركز زراعى وصناعى للكروم والنبيذ. وتبلغ نحو ٣٠ ألفا. أما خارج السهل فإذا كانت شرشال ومارنجو (بورقانة) هما طرف السهل غربا فإن البليدة -

«مدينة الورد» – ومصيف الجزائر التى أسسها الأندلوسى فى القرن ١٦ على سفوح التل تحدده جنوبا بينما تمثل دلس نهايته الشرقية وأكبر هذه المدن البليدة لا تزيد عن ٦٩ ألفا . وربما جاز لنا أن نعد تيزى أوزو من أطراف السهل المتطرفة وإن كانت تقع فى الداخل خلف دلس فى لسان من تضاعيف جبال القبائل الكبرى (جرجرة). وهذه المدينة البربرية السكان تزيد كثيراً عن الخمسين ألفاً وتمثل مدينة أسواق ومدينة زراعية .

وإذ تعود إلى الساحل تأخذ الخلجان الجيدة فى الكثرة وأولها أفضلها – خليج بجاية التى تقوم فى غربة ميناء بجاية Bougie الهامة التى كان لها دور تاريخى كبير حين كانت عاصمة بنى حماد والتى تقوم الآن بنشاط كبير فى الاستيراد والتصدير ويبلغ حجمها ٤٨ ألفا . وبفضل ممر جبلى خلفها هو باب الحديد الذى يقطع فى جبال البيبان من سلسلة أطلس التل ثم بفضل فتحة طولقة – مسيلة المناظرة فى أطلس الصحراء، اتخذت بجاية نهاية الأنبوب البترول الجزائرى أخيراً مما زاد فى أهميتها . وبعد أن نمر شرقا بمرسى جيجل نصل إلى مرسى سكيكيدة (فيليبفيل) التى تتوسط خليج سكيكيدة وتقع على نهاية وادى الصفصاف، وهى ميناء تجارية نشطة تبلغ ٧٠ ألفاً كانت ترتفع فيهم نسبة الأوربيين كثيراً . ثم تتلو عنابة (بونة) غرب خليجها وقرب وادى سيبوس فنجد أكبر مدن الساحل الشرقى للجزائر، فهى تسجل ١٥٠ ألفا كان منهم نسبة خطيرة من الأوربيين لأنها كانت مركزا لاستمارسكنى متغلغل فى سهل عنابة الخصيب الواسع حولها والذى يفسر أهمية المدينة وحجمها . وقد لعبت عنابة دورا هاما فى التاريخ

القديم باسم بونة. وإذا كانت بجاية هى ميناء البترول فإن عنابة هى من قبل ميناء الحديد والفوسفات الأول فى الجزائر. فبحكم الموقع هى المخرج الطبيعى وقرب الحدود. وبعد عنابة ليس ثمة إلا مدينة الحدود القالة La Calle آخر موانى الجزائر والتى تقابلها من الجانب التونسى طبرقة .

يبدأ القطاع التونسى إذن بطبرقة التى يقع خلفها عير درهم إلى الداخل قليلا. والتل التونسى «أفريقية Friguia »محليا - ضيق فى بدايته جيث تخنقه جبال خمير Kroumerie ومجود Mogods ولذا تقل فيه المدن حتى ينفتح فجأة باتساع كبير ابتداء من بنزرت التى تعلن بداية أهم قطاع مدنى فى تونس . فأما بنزرت فلها أصول تاريخية قديمة منذ الفينيقيين كما كانت إحدى المدن الإسلامية الهامة أيام الحكم العربى - لأنها تمثل موقعا خالداً إذ أن لها قيمة استراتيجية عظيمة موضعا وموقعا : فبفضل خليج بنزرت المنيع الذى يتألف من بحيرة عميقة واسعة تتخلص من الرواسب فى حوض Geraa - Ichkeul تتصل بالبحر بعنق يسهل ضبطه وتطوقها المرتفعات Lockedland التى تحميها من ناحية اليابس ، تمتلك الميناء خير مرفأ طبيعى على أشد مواقع البحر المتوسط حساسية وحرجا وهو «الخاصرة». ويكفى أنها هى التى أغرت فرنسا باحتلال تونس كلما أعلن رئيسها جيل فيرى Jules Ferry بلا موارية : (١) .

"C est Pour Bizerte que J'ai pris la Tunisie"

وسرعان ما حولتها فرنسا إلى ترسانة بحرية وميناء حربية أصبحت

---

(1) W.G East, Mediterranean Problems, Lond. 1949.

ثانية قواعدها البحرية فى المتوسط بعد طولون. والمدينة والمعسكر تقوم على غرب مدخل عنق الخليج ورغم أن الوظيفة الحربية فيها قد عاكست طويلا نمو الصناعة والتجارة ، فقد بلغت نحو ٤٧ ألفا وتأتى رابعة مدن تونس (١). وعلى الطرف الجنوبى للبحيرة تقوم مدينة منزل بورقيبة (فيريفيل سابقا Ferryville) الترسانة البحرية التى تسجل ٢٤ ألفاً والتى إلى الجنوب منها قليلا تقوم مدينة أخرى هى ماطرة Mateur على سفوح خمير الشمالية. هذا بينما تقع على زاوية الساحل شرقا بورتو فارينا Porto - Farina التى يشير اسمها إلى أصلها الأندلوسى حيث لعب المهاجرون الأندلسيون دورا هاما فى تعمير واستصلاح التل التونسى، ثم ندخل خليج تونس الذى يحدده نهران مجردة من الشمال ومليان من الجنوب فيتحدد قلب التل التونسى الواسع الفسيح رغم كثرة المستنقعات الملارية على ساحله. وأول ما يلفت النظر هنا خلو مصبى النهرين من المدن : فبورتو فارينا تقع إلى الشمال من المجردة لا عليه، بينما تونس تقوم بين النهرين. وبعد هذا فإن مدينة تونس نفسها هى التى تتطلب وقفة طويلة.

هنا مشتل مدنى خالد : قرطاجْنة الفينيقية (= قرطة حدثت = القرية الحديثة) التى أسست فى ٤٨٠ ق. م وأوتيكا Utica الرومانية ثم Tynes منذ خربت قرطاجنة فى عام ٦٩٨ ثم أخيراً ومنذ القرن ١١ تونس العربية التى ورثت تنس جسما واسما وبنى جزء منها بمخلفات وبقايا قرطاجنة. ولقد نمت تونس الحفصية بهد ذلك حتى أصبحت قطب الرحى فى «افريقية» وحتى قدرت بنحو ٢٠٠ ألف ١٥١٧ وكانت بذلك من كبريات مدن الاسلام. وحتى وقت قريب كانت تونس كبرى مدن المغرب

(1) Klein, op. cit., p. 32.

العربي بما في ذلك مدينة الجزائر والدار البيضاء! وهي الآن تسجل ٦٨٠ ألفاً. ولهذا أكثر من معنى خطير. فهي - أولا - تضم بذلك ١٧٪ من مجموع سكان الدولة وهي أعلى نسبة بين الدول غير القزمية في العالم العربي أو في أفريقيا. وهي لا تدل إلا على مركزية جغرافية وسياسية مفرطة، تتأكد إذا اعتبرنا الحقيقة الثانية وهي أن تونس تعادل عشرة أمثال المدينة التالية لها في الدولة وهي صفاقس، وهي نسبة لا مثيل لها كذلك بين دول العالم العربي غير القزمية. لسنا نبعد عن الحقيقة إذن إذا قلنا إن تونس رأس ضخم كاسح ينوء به جسم ضيئل كسيح - ولا نقول إن دولة تونس هي العاصمة! وما قاله جوتييه حين كانت تونس نصف ما هي عليه الآن يصدق اليوم أكثر من أي وقت مضى "Toute Ia Tunisie est accrochee a cette ville monstre (1)"

على أن السؤال الآن هو لماذا هذه الضخامة والأولوية الطاغية؟ لاشك أن أصابع الطبيعة ومؤشرات اللاندسكيب تشير بكل إلحاح في هذا الاتجاه، فهنا تجتمع مزايا الموقع والموضوع كأحسن ما يكون في العالم العربي. فعقدية تونس الطبيعية متعددة الأطراف والأبعاد: وهي خارجيا عنق زجاجة وخاصرة للبحر المتوسط، داخليا مجمع تونس وركن الزاوية فيها حيث تستقطب أقاليمها الحيوية الثلاثة: التل أو «أفريقية» ـ وهو حديقة الكروم الأوربية ـ من الغرب، وادي مجردة الزراعي الصخيب بما فيه أعلاه «الداخلة» التي تعد «صومعة غلال تونس» و«الساحل» جنوب «الضهرة» التونسية Dorsale

(1) Pierre George, La Ville, P. 274.

والذى يعد حقل الزيتون الوطنى. أما الموضع فيجمع بين الحماية والاتصال فتونس لاتقع على ساحل البحر مباشرة ولكن بين بحيرة ساحلية Lagoon تحميها من القرصنة شرقا وبين سبخة مستنقعية تحميها من البدو غربا، ولكى تتصل بالبحر طورت تونس لنفسها ميناء أمامية هى حلق الوادى «لاجوليت La Goulette » ثم عادت فشقت أخيرا قناة صناعية عبر البحيرة تصلها بالبحر مباشرة ، ومع ذلك فثمة نقط ضعف فى موضع تونس : ضيق المساحة، زفير السيروكو من الصحراء، وبخار البحيرة المنافعية . من هنا انشطرت براعم الضواحى: على الساحل مثل المرسى وقرطاجنة أو «كفر سايات» تونسية مثل باردو وحمام الأنف «الليف» (٢٢ ألفا) تلك هى مزايا تونس التى جعلتها عصب الحياة الاقتصادية فى الدولة تحتكر أغلب تجارتها الخارجية ومعظم صناعاتها الحديثة النامية وأجهزتها الإدارية والحضارية بما فيها جامعة الزيتونة المشهورة. أما فى تركيب السكان فتمتاز تونس بأنها فى حين ما كانت أكبر مدينة فى المغرب العربى بين المدن التى تنتقل فيها الأغلبية العددية لغير المسلمين، فكانوا نحو الثلثين . كما كانت لحين أكبر مدينة فى المغرب العربى بين المدن القليلة التى يسود فى العنصر الأوربى فيها عبر الفرنسيين: فكان الطليان ثلثى الأوربيين ، ولكن هذه النسب تغيرت بعد ذلك إلى أغلبية وطنية بعامة وإلى أغلبية فرنسية بين الأجانب (١) .

(1) Klein, pp. 32-3.

من تونس ندلف إلى «الساحل» عن طريق ثلاث مدن بوابات : مجاز الباب غربا على المجردة حيث ينتقل من المرتفعات إلى السهل، واسمها يلخص وظيفتها ، ثم زغوان جنوبا حيث تسيطر على الفتحة الهامة فى «الضهرة» فتربط بين وادى مليان وخليج الحمامات، وأخيرا ترنبالية Gronbalia فى وسط عنق شبه جزيرة رأس بون (دخلة المعاوين) حيث تصل بين مدينة تونس وخليج الحمامات ، ومن هذا الخليج تبدأ سلسلة مدن «الساحل» التى تمتاز عامة بنمط يتكرر من الموضع ينحصر بين بحيرة ساحلية تحمى من القراصنة وسبخة داخلية تحمى من البدو، فعلى قاعدة شبه جزيرة دخله المعاوين نجد نابل التى تستمد اسمها من Neapolis الكلاسيكية أى المدينة الجديدة والتى استمدت دفعة كبيرة من الأندلوس والتى تشتهر بالسجاد والخزف. ثم بالقرب منها تقوم الحمامات التى أعطت اسمها للخليج، والتى كمدينة من مدن العيون المعدنية تعد اسما على مسمى - ثم تلى انفيدافيل Enfidaville (النفيضة) مدينة الاستثمار الزراعى الحديث التى خلقها الاستعمار كلية كمدينة شركات - شركة انفيدا - والتى تعتمد على زراعة وتصنيع الكروم خاصة والتى يمكن أن نعدها بوفاريك تونس. ثم ندخل إلى سوسة ثالثة مدن تونس (٤٨ ألفا) وعاصمة «الساحل» ومنفذه، ومن المحقق أن قربها من تونس وأدها وخنقها إلى حد بعيد . وإلى الخلف من سوسة تقع القلعة الكبيرة، بينما تلى المونستير التى لاتقل عن سوسة

حجما. أما المهدية فأول من أنشأها الفاطميون - الذين تحمل اسمهم - فى ٩١٦م لتكون عاصمة لهم لنشر مذهبهم وسلطانهم ولكى تكون قاعدة لتقدمهم نحو مصر. ولكن أهميتها انحدرت بعد انتقالهم وهى الآن أكثر من ١٠ آلاف تعيش على الزراعة والصيد. وفى الداخل على بعد ٣٠ ميلا تقوم القيروان خلف هذه الكوكبة الساحلية من المدن فى واد غير ذى زرع : فليس ثمة نهر ملاحى فوادى الزرود المجاور ليس إلا مجرى موسمى داخلى ، ولا هى مفرق طرق برية ، واقليمها استبس فقير قاحل . فالجغرافيا الطبيعية كما يقول ديبوا لا تعللها وإنما تعللها الجغرافيا التاريخية . فقد أنشأها العرب الفاتحون بعيدا عن عمد عن الساحل الذى لا قبل لهم به وبأخطاره حينذاك لتكون مدينة معسكر لهم (قيروان = خيمة) وكقاعدة حربية للتوغل فى الداخل فيما بعد ، ولقد أصبحت القيروان بعد هذا مركزا دينيا هاما، لكنها خربت فى موجة بنى هلال وسليم فى القرن ١١ كلية فورثت تونس دورها، ولكنها عادت بعد ذلك لتكون «فاس تونس» ، وهى تعيش على قوة اندفاع الماضى أكثر منها على رخاء الحاضر، فهى مركز لنسج السجاد والبرانس ولا تزيد عن ٤٠ ألفا (١) ، وعلى بداية خليج قابس وإزاء جزر قرقنة نصل إلى صفاقس عاصمة الجنوب وميناؤه وثانية مدن تونس (٦٥ ألفا) ، والمدينة تتوسط أكبر منطقة زراعية فى تونس وواحدا من أكبر حقول الزيتون فى حوض

---

(1) J. Despois, "Kairouan" , Anndles dr Géoge. Mars,1930.

البحر المتوسط - حقل «الساحل» . وهى لهذا عاصمة الزيتون زراعة وصناعة وتجارة وتصديراً ثم هى ميناء فوسفات قفصة وحلفا الاستبس واسفنج الخليج . كل هذا يفسر أهميتها . ومع ذلك تظل قزما بالقياس إلى تونس فلاتزيد عن عشرها حجما . وهى ما كانت لتصل إلى هذا الحجم لولا بعدها النسبى عنها مما حررها من نفوذها الطاغى الذى تعانيه سوسة مثلا. ويعد صفاقس تقل المدن الهامة فليس ثمة إلا المحرس التى يدل اسمها على وظيفة الحماية - فالمحرس فى تونس مرادف للرباط فى المغرب. ثم نصل إلى قابس (٢٥ ألفا) التى - بموقعها على بداية «أرض الجفار» - هى بوابة للصحراء كما هى بوابة للبحر . ويمكن أن نضيف إلى الداخل قليلا مدن طلائع الصحراء الحمة على طرف لسان شط الفجيج ثم مارث ومطماطة ومدنين وبعدها على البحر جربه فى الجزيرة وزرزيس إزاءها ثم بن قردان قرب الحدود الليبية .

خط التل الأعلى (١)

يبدأ الخط فى أقصى الغرب بتطوان على ضلوع الريف الشمالية فى منطقة الجبالة حيث تعد سوقها الرئيسية وتبلغ ٨٥ ألفا . ثم تلى شفشاون (شاون) Xauen على الضلوع الشمالية لكتلة غمومارة ، وسيلاحظ أن كلا من تطوان وشاون تناظر عبر جبال الريف القصر

---

(١) راجع فى هذا الموضوع وبقية خطوط مدن المغرب المصادر السابقة للمدنى برنار وكلاين .

الكبير ووزان على الترتيب . ويعد شاون تقل المدن على الريف وتبدأ المرحلة الفقيرة حقا فيه ، تلك التى طردت السكان من قديم إلى البحر والقرصنة . إلى أن نصل إلى الملوية ولهذه حيث يمكن أن نعتبر جرسيف Guercif وتاوريرت متممة للخط على فتحة متوغلة من التل ، ثم تلى وجدة مدينة الحدود الشهيرة وحلقة الوصل بين حوض سبو والتل الجزائرى وعقدة السكة الحديد بين الخط الساحلى وفرع بشار. كما أنها مدينة السوق للقبائل المحيطة. ولهذه المزايا تبلغ وجدة ٨٥ ألفا رغم أن النطاق الذى تقوم فيه ظل مطر شبه صحراوى .

وتلمسان بعدها هى أول حلقة جزائرية فى السلسلة وتعين بداية كوكبة متألقة من المدن الهامة منظومة خلف وهران ولكنها تقع فى ظلها. وتاريخ تلمسان أعظم من حاضرها بكثير فقد أسسها الأدارسة على أنقاض مدينة بوماريا الرومانية ثم ضاعفها المرابطون ثم أصبحت تحت بن زيان من أعظم عواصم الإسلام تنافس القاهرة وبغداد وقرطبة. ولكنها تدهورت بعد ذلك وقاست من حملات الإسبان. والمدينة اليوم وطنية تاريخية تبلغ ٧٣ ألفا فقط، تشتهر بالصناعات اليدوية القديمة من نسيج وتطريز وسجاد. وإلى الشرق منها وخلف وهران تقوم سيدى بلبعاس (١٠٥ آلاف) التى كانت تعد من معاقل الاستعمار بالجزائر والتى تمتاز بتخطيط عصرى حديث وكانت المقر الرئيسى للفرقة

الأجنبية حتى سميت «باريس الصغيرة» وهى من المدن التى كانت كفة الأوربيين فيها ترجح الوطنيين عددا بصورة تقليدية ، ثم تلى معسكر (٤٠ ألفا) التى لعبت دورا تاريخيا هاما كقاعدة عسكرية - من هنا الاسم - ضد الاسبان وكانت عاصمة لفترة عابرة من الزمن والمدينة تقوم وسط سهول غريس المرتفعة الخصبة بالكروم والزيتون، ولها شهرة بالبرانيسى الغريسى، كما تقع قريبا منها آبار البترول المتواضعة التى كانت أهم ما تملك الجزائر منه قبل بترول الصحراء . وإلى الشمال قليلا تقع بيريجو perregaux . وهى مدينة جديدة من صنع الاستعمار الفرنسى، ولكن غليزان Relizane إلى الشرق أهم (٢٥ ألفا) . وهى تقع على وادى مينا رافد الشلف كمركز زراعى وتجارى هام ، كما يقع بجوارها بعض آبار بترول ما قبل الصحراء. وهى اليوم مرشحة لتكون محطة ضخ على أنبوب الغاز المنتهى إلى أرزيو على البحر .

وتلى عدة مدن صغيرة مثلا زمورة وعمى موسى وحمادنة (St. Almé وانكرمان Inkermann وأخيرا بوقفيز (Malakoff) قبل أن نصل إلى مدينة الأصنام (أورليانفيل) على الشلف الأوسط والتى تقوم على أنقاض مدينة كاستيلوم الرومانية التى من كثرة تماثيلها وبقاياها استمدت اسمها العربى مدينة الأصنام ، والمدينة مركز زراعى كبير يشتهر إقليمه بالقطن خاصة لوفرة الرى من النهر والحرارة من الموقع .

وتبلغ الآن نحو ٣٠ ألفا . ونستمر مع الشلف فنصل قرب دخوله الهضبة إلى مليانة التى تتوسط سهول خميس مليانة الغنية بالحبوب والفواكه ، والمدينة من بناء صنهاجة ، وتكثر حولها الحمامات المائية الكبيرة، كما يقع قربها مناجم هامة للحديد. ثم نترك وادى الشلف إلى المدية التى أسستها صنهاجة أيضا كمدينة ثكنات تسيطر على فتحة هامة فى أطلس التل تؤدى من الجزائر إلى الهضبة ثم أصبحت عاصمة محلية لحين ، ويكثر بها سلالة الجيش التركى. وإلى الشرق بالسترو مدينة الفتحة الجبلية المشهورة ، ثم على منحدرات الجرجرة تقوم ميشلى على ارتفاع كبير يجعلها سياحية ممتازة، وغير بعيد نجد بويرة وبنى منصور من المدن الصغيرة التى تقل بعد ذلك لمسافة طويلة حتى نقابل قسنطينة خلف سكيكيدة .

والمدينة قسنطينة تضرب بجذورها فى التاريخ الفينيقى منذ قرطة (القرية) ، ثم كانت مهد الاستقلال البربرى فى دولة توميديا الشهيرة، ثم احتفظت بأهميتها فى العصر العربى حين كانت من مشاعل الإسلام الكبرى. وهى اليوم ثالثة مدن الجزائر حجما (٢٢١ ألفا) وكبرى مدنها الداخلية بل كبرى مدن المغرب العربى الداخلية جميعا ، ولعل عامل الحمايّة هو الذى يفسر الموقع الداخلى ثم الموضع الصخرى الوعر الذى تحتله معلقة على جانبى وادى الرمل العميق. وكعاصمة لشرق الجزائر

تتركز فيها الصناعات الرئيسية والنشاط التجارى كما تمثل عقدة مواصلات حديدية هامة يخرج عندها فرع الواحات من خط الساحل الرئيسى ، وإلى الشرق من قسنطينة عدة مراكز صغيرة تتأرجح حول ٢٠ ألفا وتمثل مدن أسواق تجارية نموذجية في مناطق زراعية غنية مثل القالة Guelma (٢٠ ألفا) على وادى سيبوس ، وعلى الحدود التونسية سوق أهراس (٢٥ ألفا) . ويمكننا أن نتتبع خطنا فى مدن «الداخلة» الوادى الأعلى للمجردة الذى يعد جزءا من التل الأعلى ، فهنا فى «صومعة حبوب تونس» تكثر مدن الأسواق الشهيرة ابتداء من غار ديماو على الحدود إلى سوق الأربعاء فسوق الخميس ثم باجة (٢٣ ألفا) . وعند تستور ينثنى خط مدن التل الأعلى مع انثناء المرتفعات ولكن تقل المدن وتتباعد لسيادة الاستبس وندخل أضعف قطاع فى الخط فلا نجد إلا مراكز ضئيلة مثل جفور ثم حاجب العيون ومكناسى Maknassy، بينما ابتداء من جفصة نلتحم مع خط مدن آخر هو خط أقدام الأطلس الصحراوية .

هضبة الشطوط

سهل مرتفع altiplano يتراوح بين ٨٠٠، ١٠٠٠ متر، محصور فى إطار جبلى intermontane أطلس التل والأطلس الصحراوى والأطلس الكبير، يحقق شكل زاوية حادة تبدأ فى الغرب بعرض ٢٥٠ كم وتنتهى فى الشرق بالالتحام فى عقدة جبلية فى تونس. على السطح تندفع بعض الجزر الجبلية الثانوية من ناحية وتتكون بعض البحيرات الداخلية

السبخة – الشطوط أو الزاغز – فى بطون المنخفضات المحلية من ناحية أخرى. والهضبة ككل ظل مطر: استبس فقير لا تغطيه إلا الحلفا البرية التى تغزر فى الغرب عنها فى الشرق. وبهذا النمط الطبيعى يتشكل نمط المدن: مجتمع مدنى قزمى أغلبه أقرب إلى القرى ويعمل كمراكز لتجميع الحلفا للتصدير، مخلخل شديد التباعد، يتنضد فى خطوط مدن من الدرجة الثالثة أو أقل. ولكن المغزى الجغرافى لتوقيع هذه الخطوط هو المهم. فهناك ثلاثة خطوط على الهضبة. خط على أقدام أطلس التل يناظر أقدامها البحرية موقعا وإن لم يكن أكثر من شبح لها وزناً، وخط مقابل على أقدام الأطلس الصحراوى سنرى له نظيره على أقدامها خارج الهضبة. ولا شك أن هذا التوقيع يفسره وفرة المياه نسبيا فى مخارج أودية الحائطين الجبليين وفى الصفة الاستراتيجية لبعض الفتحات والممرات فيها وهذان الخطان يلتحمان فى عقدة مدن متداخلة فى أقصى الشرق فى تونس. أما الثالث فخط – أو خيط – دقيق يخترق وسط الهضبة ويمثل أساسا «مدن مراحل» بين إطاريها الجبليين يفرض وجودها اتساع الهضبة لاسيما فى الغرب. والخطوط الثلاثة تندغم فى نهاياتها الغربية فى حلقة مدن الأطلس الكبير التى هى أيضا مدن أقدام جبلية.

الخط الشمالى

يبدأ فى الغرب فى مراكش ببرغنت Berguent ثم العريشه فى

الجزائر ثم بودو Bedeau ومرشوم جنوب جبال الضايه وكلها إلى القرى أقرب. ثم نجد سعيدة جنوب جبال سعيدة وهى أول مدينة حقيقية فى الخط تتوسط منطقة زراعية غنية كما تشتهر بالصناعات النحاسية وتصل إلى نحو ٢٥ ألفاء ثم تلى فرندة ثم تيارت المدينة الهامة التى تزيد على ٢٥ ألفا. وأهمية تيارت تاريخية كما هى جغرافية. فهى وريثة تيهرت أولى العواصم الاسلامية المستقلة بالجزائر ومركز الدولة الرستمية. أما جغرافيا فهى أنشط مدن الأسواق فى الجزائر لأنها تتوسط منطقة السرسو الزراعية الغنية التى يرويها نهر واصل رافد الشلف والتى تقع فى ظل جبال الونشريس أغنى غابات الجزائر. ثم تلى مدينة ثنية الأحد مركز الاصطياف والارز فى الونشريس ثم قصر البخارى وشمالها مباشرة بوغار على الشلف حيث يخترق سلسلة الأطلس جبال الونشريس غربا وتيطرى شرقا. وكل منهما بهذا مدينة ممر تؤدى إلى وهران. ثم تلى سور الغزلان وسيدى عيسى. وجنوب جبال البيبان يستمر الخط ببرج عويرج، ثم جنوب جبال بابور بسطيف وإلى الشرق منها العلمة (St. Arnaud) وثاجنانت على أعالى وادى الرميل. وسطيف هى بلا تردد كبرى مدن الشطوط (٧٤ الفا) ، فهى قاعدة زراعية تجارية هامة كانت قديما عاصمة موريتانيا السطيفية أما العلمة (٢٥ الفا) فمركز زراعى أيضا كما هى مركز تاريخى حيث يوجد بقربها أطلال مدينة جميلة الرومانية. ثم نصل إلى عين مليلة جنوب قسنطينة ثم

سدراته Sedrata وبعدها نعبر الحدود إلى الكاف ومقطر Maktar في تونس وهما من المدن القلاع Villes - fortresses المحصنة في أعالي الجبال طلبا للدفاع قديما. وسنلاحظ أن واحدة منهما لا تقع على المليغ رافد مجردة وإنما على جانبه، ولكنهما الآن مدن أسواق كما أن الكاف تشتهر بمناجمها.

الخط الأوسط

هو أضعف خط مدن في المغرب، وهو الخط الشطوط بامتياز حيث يقع على محورها وبين بحيراتها أو عليها. وهو يبدأ من الشرق بتالة Thala وقلعة السن في الضهرة التونسية وهي أقرب إلى القرى المعلقة Villages perches منها إلى المدن الطلقة. ويستمر في الجزائر بالعين البيضاء قرب شط الطرف ثم بالمسيلة شمال شط الحضنة. وللمسيلة موقع استراتيجي خاص فهي تقع على حافة لسان منخفض يقطع في الأطلس الصحراوية ويتعمق في الهضبة حاملا الصحراء معه إلى قلب الشطوط ولكنه يحمل أيضا طريقا طبيعيا فريدا عبر الهضبة لعب دوره التاريخي كما يلهب دوره البترولي اليوم في شكل أنبوب الصحراء. ثم تلي الوسخ بين زاغز الغربي والشط الشرقي ثم مدينة الحلفا Alfaville جنوب الشط الشرقي ثم تلي مشرية بين الشط الشرقي والغربي، ثم أخيرا في مراكش تندرارة ومطرقة.

الخط الجنوبى

بدايته فى الغرب بوعرفة فى مراكش على خط حديد بشار وفى وسط سهل تاملت Tamlelt المرتفع. ثم تلى عين الصفراء فى الجزائر التى هى واحه على الشطوط عند الاقدام الشمالية للاطلس الصحراوية (جبال القصور) وليست واحة صحراوية كما قد يظن البعض. وعين الصفراء مركز إدارى له دور تاريخي بربرى أكبر من واقعه. ثم نصل إلى البيض (جريفيل Geryville) وأفلو Aflou شمال جبال عمور، ثم إلى جلفة شمال جبال أولاد نائل ونهاية خط السكة الحديدية الضيقة إلى مدينة الجزائر. ثم على النهاية الشمالية الشرقية لجبال أولاد نائل وعلى حافة انخفاض شط الحضنة المرى تقوم بوسعادة بينما يناظرها على الجانب الآخر من الفتحة وعلى الحافة الغربية لجبال أوراس كل من القنطرة فى الجنوب وباتنة فى الشمال. وثلاثتها مدن ممرات هامة كما هى واحات غنية. والواقع أنها بوابة الشطوط من الجنوب تتبعها سكة حديد قسنطينة – بسكرة . ولا يقل عدد سكان باتنة عن ٢٥ ألفا، كما تقع بجانبها آثار مدينة تمجد الرومانية الشهيرة التى كانت من أكبر مستعمراتهم فى المغرب . وكما تقع باتنه على الأطراف الشمالية الغربية لأوراس تقع خنشلة على أطرافها الشمالية الشرقية . تليها شرقا تبسة مدينة الفوسفات . وكل نهاية سكة حديد عبر الهضبة. وإذا عبرنا إلى تونس وجدنا القصرين وسبيطلة على الخط مباشرة بينما لا تبعد فريانة كثيرا .

الصحراء

هذه منطقة مدن الواحات التى ترتبط لا بالمطر ولكن بالماء الباطنى . والواحات ريف الصحراء وحضرها فى نفس الوقت بالضرورة . ومن السهل أن نتعرف على خطين متميزين من مدن الواحات خط عند أقدام الأطلس الصحراوية الخارجية أى على جبهة الالتحام بين المرتفعات والرمال، وهو يناظر خط مدن الأقدام الشمالية لنفس السلسلة بل إن من السهل تحديد أزواج من المدن النظائر على طولها ، أما الخط الثانى ففى قلب الصحراء وهو يرتبط بالأودية الصحراوية التى تنحدر من الأطلس نحو الجنوب وتختفى تحت الرمال حتى تعود إلى الظهور فى المنخفضات على شكل آبار أو عيون ، ومن المهم أن نلاحظ أن أغلب هذه الواحات تتوقع على حافات الغطاءات الرملية أو بحار الرمال المعروفة هنا بالعرق كالعرق الشرقى الكبير والعرق الغربى الكبير ، وهذا الخط يبدأ فى الشرق قريبا من جبال الأطلس لكنه يبتعد عنها كثيرا فى الغرب، وهو كذلك – وربما لذلك – أغنى فى الشرق منه فى الغرب ويخرج عن نطاق الخط بعض واحات متطوحة فى قلب الصحراء الكبرى يمكن أن نربطها بخطوط الواحات فى ليبيا .

خط أقدام الأطلس

نبدأ من حيث انتهينا بخط الشطوط الجنوبى : فى تونس حيث نجد جفصة والمتلوى على نهاية الكتلة الهضبية، وكل منهما من مدن تعدين

الفوسفات الهامة ثم تلى فركان Ferkane فى الجـزائر ومنهـا إلى مجموعة واحات الزيبان الغنية الشهيرة التى تقع على أقدام أوراس وجبال الزاب التى أعطتها اسمها العام ، والمجموعة بهذا تتوزع على جانبى فتحة شط الحضنة في سلسلة الأطلس وتأخذ بذلك موقعا ممريا يضاعف من أهميتها كمواضع غنية بالمياه والنخيل وتغذيها بالمياه والحياة مجموعة من الأودية، وتستقطب المجموعة حول بسكرة ، ولكنها تبدأ شرقا بخنقة سيدى ناجى ثم سيدى عقبة ثم بسكرة التى تليها ليشانة وطولقة ثم أولاد جلال . ولعل بسكرة وطولقة وحدهما هما المدن الحقيقية فى هذه الكوكبة ، وسيلاحظ أن بسكرة التى هى من أهم الواحات في الجزائر تقع موقع النظير لباتنة عبر سلسلة الأطلس الصحراوية ، وهى تسمى «ملكة الجنوب ومدينة النخيل وعاصمة التمر» فى الجزائر كما هى مركز سياحى يجمع بين ساحة الجبال والصحراء ، وبالمثل تقع الواحة التالية فى الخط – الأغواط Laghouat – بالنسبة لجلفة . والأغواط التى تشتق اسمها من الغوطة تستمد حياتها من وادى جدى أو مزى الذى ينبع من جبال عمور وتعتبر باب الجنوب وتعمل فى الصوف والحرير . ثم تتلوها غربيا واحة برزينة Brezina التى تناظر البيض (جريفيل) عبر السلسلة الجبلية . أما عين الصفراء فتناظرها مجموعة متقاربة من الواحات هى فجيج وبنى ونيف اللتان تعتمدان على وادى زوزفانة، بينما على مسافة قريبة جدا تناظر بشار (كلم بشار

(Colomb Bechar) والقنادسة اللتان تعتمدان على وادى بشار واحة بوعرفة عبر الحائط الجبلى .

ولهذه الكوكبة أهمية خاصة فهى نهاية خطين حديدين عبر الهضبة إلى وهران ووجدة . والقنادسة أصبحت منجم فحم ثمين يمثل ثروة معدنية تقع على الحدود السياسية بين الجزائر والمغرب (مراكش) ، ولهذا كانت لازالت مصدر احتكاك سياسى بينهما على ملكيتها ، ويستمر الخط فى جنوب مراكش مارا بمريجة Mérifja ثم إرفود والريصانى اللتين تؤلفان معا واحة بيدمونتية هامة تحدد موقع واحة سجلماسة وتافيلالت المشهورة فى التاريخ القديم والوسيط كمحطة لقوافل الذهب من السودان والتى بادت ولم يبق منها إلا أطلال قرب الريصانى، وهذه المواقع جميعا تقع على بداية وادى درعة، الذى يؤدى بنا بعد ذلك إلى قلعة سكورة Zagora ، مكونا فى كل ذلك «طريق القصبات» المشهورة أى الحلات المحصنة التى تتالى على طول أقدام الجبال وطلائع الصحراء ، والتى تلتحم فى النهاية بحلقة مدن أقدام جبال الأطلس فى مراكش .

خط واحات الصحراء

نبدأه فى أقصى الغرب بواحة تندوف الجزائرية المنعزلة التى تفصلها حمادة درعة عن وادى درعة فى الشمال والتى هى الآن موضع

نزاع بين الجزائر والمغرب ، ثم بعد بضعة مئات من الأميال نعبر فيها العرق الغربى الكبير نجد على حافته الشرقية مدينة القرارة Gourara فى الجنوب والقليعة El - Golea (لنيعة) فى الشمال ، وإلى الشمال كثيرا وعلى مجموعة من الأودية أهمها وادى مزاب تقوم واحات الشبكة موطن المزابيين الإباضيين ومركزها المدنى الحقيقى هو الغرداية بينما بنى يزقن ومليكة والقرارة واحات أقل أهمية . وإلى الشرق وغير بعيد عن الحافة الغربية للعرق الشرقى الكبير نجد واحة ورقلة (بنى وارجلان) التى تعتمد على وادى إيغرغر الذى ينبع من جبال الحجار فى الجنوب ، وعلى وادى أريغ الذى هو الامتداد الشمالى لوادى ايغرغر تقوم واحات أريغ التى تستقطب حول تغرت المشهورة والتى تلعب الآن دورا متزايدا كمدينة سياحة صحراوية ، وإلى الشرق منها مباشرة مجموعة أخرى من الواحات المشهورة بحرب الرمال هى واحات سوف التى مركزها كوينين ، وأخيرا نصل عبر أطراف العرق إلى منخفض شط الجريد فى تونس حيث نجد حياة مدن قوية فى توزر ونفطة على الشاطئ الشمالى الغربى للشط .

الفصل السابع

ليبيا

لعل هذه – حلقة الوصل بين المغرب والمشرق – أضعف حلقة فى سلسلة المدن العربية ، وهى – كورائها السكانى – تخضع لظاهرة «الجزرية» فى توزيعها . فثمة جزيرتان بشريتان رئيسيتان إزاء الساحل – طرابلس وبرقة – تكاد تنفصلان عن بعضهما البعض إلا من خيط دقيق واه على الساحل نفسه وذلك لأن الصحراء تتقدم إلى سيف البحر تماما فى سيرتيكا Sirtica على طول خليج سدرة لمسافة ٦٠٠ كم . وبعيدا فى الداخل خلف طرابلس ومنفصلا عنها أرخبيل منثور أكثر منه منظوم من مدن الواحات فى حوض فزان ، هو فى حقيقته جزء من محور مدن الصحراء الكبرى الذى يبدأ فى صحراء الجزائر . أما الربع الجنوبى الشرقى فهو «الربع الخالى» الليبى عن جدارة . والثقل العمرانى كل الثقل ، سكانا ومدنا ، يذهب إلى طرابلس ، ثم بعد مدة تأتى برقة، أما فزان فليست عمرانيا إلا حاشية وتذييلا بينما ليست الكفرة إلا نقطة مطلقة فى قلب «الربع الخالى» فطرابلس وحدها نصف ليبيا وزيادة : ٨٠٠ ألف من ١,٠٩٢,٠٠٠ ، وبها وحدها المدينة المائة

ألفية الوحيدة فى ليبيا : طرابلس (١٨٤ ألفا) ، وهى وحدها التى ترسم شبه شبكة مدن وتعرف صورة من هيرارشية مدنية ، إنها باختصار «النواة النووية» في ليبيا ومركز الثقل المدنى بها ، أما برقة فأقل من الثلث ٣٢٠ ألفا ، وبها على الأكثر بضعة خطوط مدن، وقمتها المدنية تقصر – على الأقل بحسب أرقام تعداد ١٩٥٤ – دون علامة المائة ألف : بنغازى ٨٠ ألفا ، أما فزان فحفنة من تراب مدن أكبرها لايزيد عن حجم القرى، عن بضعة آلاف ، وكلها أقل بكثير من بنغازى وحدها (٥٥ ألفا) .

ومن الطريف أن نلاحظ عمق جذور حياة المدن فى كل من طرابلس وبرقة خلال التاريخ. فمنذ العصور الكلاسيكية والمدن على الساحل تمثل مراكز الحضارة الحياة والسياسة فيهما ، ونضيف : كوكبات المدن بالذات: فى برقة المدن الخمس Pentapolis وهى كرنة (قيرينى أوسيرين Cyrene) وأبو للونيا وبراكا Braca وطوكرة ويوسفريدس ، وهي الآن على الترتيب الشحات ومرسى سوسة والمرج وطوكرة وبنغازى (١) وفى طرابلس المدن الثلاث Tripolis وهى أويا Oea وصبراتة Sabrata وليبتس ماجنا Laptis Magna وهى الآن على

---

(١) نقولا زيادة : محاضرات فى تاريخ ليبيا . القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٢٢ .

الترتيب مدينة طرابلس وصبراته والحمص (أو الخمس) (١) وفى الحالين سيلاحظ أن كلا من الأقليمين يستمد اسمه من مدينة أو مدن معينة فيه: فى العربية برقة من براكا ، وفى الأوروبية سيرانيكا من سيرين ، والأصل فى طرابلس مباشر .

وتختلف «جزيرة» طرابلس عن جزيرة برقة : فالأولى هى الوحيدة فى ليبيا التى يتغلب فيها الاستقرار والزراعة على الرعى والبداوة بصورة حاسمة، بينما للرعى والبداوة اليد العليا تماما فى برقة ، ولهذا فإن حياة المدن أبعد مدى فى طرابلس ، كما أنها أكثر عصرية وتأثرا بالغرب من برقة . قد خبرت مدن كل منهما عملية امتلاء وإخلاء أكثر من مرة بالجاليات والجيوش الأجنبية ، ولكن مدن برقة اليوم كلها عربية السكان ، بينما تكثر الجالية الإيطالية فى مدن طرابلس لو أن جزءا كبيرا منها زراع وسكان ريف . ولقد كانت برقة وطرابلس من مسارح الحرب الأخيرة الرئيسية التى خضعت لحركة شد الحبل - Tug - of - war بين المتحاربين أشبه بما عرفت بلندة فى شرق أروبا ، وكمدن بولندة تعرضت مدنهما للتغير الكلى أو الجزئى بصورة خطيرة ، ولكن نصيب برقة فى هذا كان أفدح : فطبرق تهدمت كلية فى الحرب ، بينما دمر أكثر من ٦٠٪ من بنغازى . (قارن هذا بوارسو التى دمرت بنسبة ٨٥٪) وقد جاء زلزال المرج أخيرا ليذكر بزلزال أغادير على الطرف الآخر من المغرب وليؤكد هذه الظاهرة النكبائية فى برقة ، وإذا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

كانت شبكة المدن فى طرابلس أغنى منها فى برقة ، فإن نسبة سكان المدن فى برقة لايستهان بها أيضا ، فيقدر أن ربع السكان سكان مدن ، وهى نسبة مرتفعة ترجع إلى فناء نسبة كبيرة من قطعان الرعى أثناء الحرب ضد الاستعمار وتحول أصحابها من البداوة إلى سكنى المدن .

أما فزان فهى كمجموعة واحات فى قلب الصحراء ، إلى القرى أقرب ، ولكنها لنفس السبب أيضا لابد - كالسفينة فى البحر تحمل معها ماءها - لابد أن تحمل فى طياتها جرثومة مدنيتها . وفى ليبيا ككل إذا اعتبرنا الحجم وحده ، فستختزل حياة المدن الحقيقية إلى نقطتين طرابلس وبنغازى ، نهوى بعدهما مباشرة إلى أحجام قزمية فنجد درنة ٢١,٥ ألف والمرج ١٠ آلاف وسبها ٧ آلاف ، ولكنا فى ظل الإطار الحضارى العام لابد أن نعتبر مدينة كل حلة نووية مستقرة تتجرثم فيها براعم حياة المدن من تجارة أو صناعة .

وسيلاحظ عند هذا الحد أن الثنائية العمرانية التى تفرض نفسها فرضا على كيان ليبيا تنعكس انعكاسا مباشرا وحاسما فى ثنائية العاصمية فيها ، فالمدينتان الكبيرتان الجديرتان فى ليبيا هما طرابلس وبنغازى ، وليس خيرا منهما فى العالم العربى مثالا «للاحتكار الثنائى» المدنى duopoly فما عداهما مدن حقيقية فى ليبيا . وقد كان الثقل

الغلاب لطرابلس بطبيعة الحال ، ولكن البترول بدأ أخيرا يغير من قصة المدينتين قليلا وفى صف بنغازى إلى حد ما ، على أن حيرة ليبيا - الاستعمارية من قبل والاتحادية من بعد - بين المدينتين وصلت إلى أن أعتبرت كلا منهما عاصمة : بينهما تتوزع أجهزة الحكم ومؤسسات الإدارة ، أو تنتقل بينهما من وقت لآخر . والنتيجة فى الحقيقة «نصف عاصمة» هنا ونصف عاصمة هناك فى الحالة الأولى ، أو هجرة فصلية للعاصمة فى الحالة الثانية ! كأنما لتتأكد سيادة الترحل فى ليبيا الرعوية «بعاصمة رحل» أيضا ! على أن هذا الوضع انتهى بعد أن بدأ إنشاء البيضاء كعاصمة جديدة - فيدرالية أولا ثم قومية الآن - فى برقة .

تلك هى الصورة العامة للمدنية فى ليبيا ، إلا أن للبترول فصلا أخيرا يضيفه إلى القصة ، فرغم حداثة الإنتاج - منذ ١٩٦١ فقط - فإن إرهاصات البترول كانت كفيلة بأن تحرك قوى اجتماعية وعمرانية تنعكس جميعا فى المدن كبيرها والصغيرة (١) ، إن ظاهرة الخروج الريفى والهروب من الصحراء ظاهرة مزمنة فى ليبيا الصحراوية الرعوية عرفتها قبل البترول وحتى قبل الطليان فقد كانت سنوات الجفاف تقليديا سنوات طرد تلقى بالبدو فى زحمة وتحت رحمة المدن.

---

(1) John I. Clarke "Oil in Libya : Some IMplications," Economic Geography, vol. 39, no, I, Jan. 1963, pp. 53 - 56.

ولكن كما ان انتزاع الطليان للأراضى الصالحة لفظ أبناءها إلى المدن كبرولتارية هائمة على وجهها ، فكذلك أتى البترول ليجذب إليها مزيدا من أبناء الريف أو الصحراء ، وكما فى بقية دول الصحراء أتى البترول فى ليبيا ليتخم الوظائف الثالثة Overtiarisation (أى التجارة والخدمات) دون الثانية (الصناعة) وبالتالى على حساب الأولى (الزراعة)، ولهذا أخذ البترول من سكان الريف والبادية ليعطى المدن ، ثم هو لم يعط كل المدن بل أعطى للمدن الكبرى - فى هذه الحالة المدينتين الكبيرتين - دون المدن الوسطى وربما على حساب المدن الصغرى، فظلت هذه فى جمود إن لم يكن فى تناقص وتركزت كل الهجرة إلى المدينتين الكبيرتين ، أى أن أثر البترول أضر بالزراعة والريف كما أساء إلى المدن الصغرى والضعيفة . فمن «الجبل» تقاطرت الهجرة الريفية إلى طرابلس ومن أنحاء برقة انصبت فى بنغازى، ولذلك فآثار البترول المدنية تتركز فيهما رغم أنهما ليسا من مدن البترول بالمعنى المباشر. وكل منهما الآن مدينة فى ثورة عمرانية عارمة أهم صناعة فيها هى صناعة البناء والتشييد والمضاربات العقارية والمعمارية بصورة تضخمية إن لم تكن جنونية، فقد اتجهت كل مكاسب البترول والبورجوازية المنتفعة الناشئة إلى الاستغلال العقارى، ولهذا فالغلاء

الفاحش سمة ونتيجة طبيعية ، هكذا قلب المدينة «المدينة» العربية والقطاع التركي والفص الإيطالي كله يتجدد بالهدم والعمارات والناطحات التي تغير خط السماء كلية . بينما على الأطراف تنمو مدن العشش بصورة شيطانية خطيرة وتتفاقم مشكلة الإسكان الاقتصادي وغيره كما تنساح ضواحي الفيللات الغالية الأنيقة .

وسيبدو من هذا أن كل النمو المدني تركز في المدن القائمة أكثر منه في مدن جديدة . وهو ما ينقلنا الي المدن التي عرفت ليبيا منها في السنوات الأخيرة عددا لابأس . فأولا هناك مدن جديدة خلقتها السياسة مثل سبها عاصمة فزان ثم أخيرا البيضاء عاصمة الدولة الجديدة وهما من الحالات النادرة من مدن صغيرة تنمو بسرعة ونشاط، ثم هناك مدن البترول ولكنها من المقياس القزمي ، ثمة منها موانى البترول مرسى البريجة وميناء السدرة ، ومدن الحقول مثل زليتين ، وأخواتها .

طرابلس

ربما جاز لنا أن نتكلم هنا عن شبكة مدنية تتألف من ثلاثة خطوط واضحة تعكس بأمانة خطوط التضاريس الرئيسية وتأخذ شكلها . فثمة أولاً خط «الساحل» ثم خط «الجفارة» وأخيرا خط «الجبل» وثلاثتها استمرارات للخطوط المدنية المشابهة في جنوب تونس . وهي تبدأ متباعدة في الغرب على الحدود ، ثم تتقارب كثيرا الى الشرق من مدينة

طرابلس ثم تنفسح فجأة بتباعد شديد يزداد جدا كلما شرق . وأهميتها المدنية تقل بسرعة من الساحل الى الداخل .

خط الساحل

هذا أهم وأكثف خط مدنى فى ليبيا جمعاء . وهو يحتل النطاق الساحلى من سهل الجفارة أو بالدقة الشريط الذى يعرف منه «بالجفارة الصغرى» . يبدأ بقطاع مستنقعى تستفيد منه الحدود بين تونس وليبيا وتقع علي حافتيه بن قردان فى تونس وزوارة فى ليبيا والأخيرة رشحت فى حين لتكون النهاية لأنبوب بترول الصحراء الجزائرية ولكن تغلبت عليها قابس التونسية فى النهاية .. تتلو زوارة الزاوية ثم على مسافة مماثلة طرابلس التى تقع فى أغنى قطاع زراعى من سهل الجفارة فى حقل غنى بالحبوب والفواكه والخضر . والمدينة على توسط حجمها تقف كالعملاق وسط مجتمع من المدن الأقزام .

هى كبرى مدن ليبيا ومدينة حقيقية بالمعنى الحديث . وقد تواثبت بالنمو منذ الحرب الأخيرة وتفجرت به منذ تفجر البترول ، فمن ١٠٨ آلاف قبيل الحرب ارتفعت إلى ١٢٥ ألفا بعدها ، وفى تعداد ١٩٥٤ سجلت ١٣٠ ألفا ترتفع مع ضواحيها وتوابعها إلى ١٨٤ ألفا ، والمقدر أنها الآن تزيد على ١٩١ ألفا ، أى هى أول مدينة ليبية تصل إلى خمس المليون ، وهى الميناء الرئيسية فى ليبيا والوحيدة العميقة فيها (باستثناء طبرق المتطرفة الموقع) ، تحتكر من قديم أغلب تجارتها وأسرت منذ

البترول أغلب النمو فى هذه التجارة وهو لايستهان به . ففى الفترة ١٩٥٤ – ١٩٦٠ وحدها تضاعف عدد وحمولة السفن التى دخلت طرابلس ، ومعظم الصناعات القليلة فى ليبيا بدأت فى طرابلس . أما عمرانيا فهى أكثر مدن ليبيا «أوروبية» وتحضرا : بها من الأجانب نحو ٤٠ ألفا بما فى ذلك جالية ايطالية كبيرة ، ولها إلى جانب الطابع العربى طابع تركى ، كما تكثر بها الآثار الرومانية ، وفى توسعها الحديث السريع برزت لها ضاحية جميلة راقية فى الغرب هى -Gior gimpopoli ، كما برزت لها مشكلة العشش التى حاولت أن تحلها بالمساكن الشعبية مثل مشروع باب عكارة Bab Accara فى المنطقة التى أغرقها فيضان وادى Megenin فى ١٩٥٧ (١) .

إلى الشرق من طرابلس نقابل الخيار ثم الحمص أو الخمس ثم زليتين وأخيرا مسراطة على رأس مسراطة حيث ينثنى الساحل جنوبا تحفه سبخة طيلة هى سبخة طاورجا التى يساعد على تكونها اجتماع عدد من أودية الساحل فيها . وحول السبخة يتحول خط المدن الساحلى إلى خط داخلى يحتضن السبخة ويتمثل فى طاورجا ثم الجدالية ويعود إلى الساحل عند نهاية السبخة فى الجنوب مع بويرات الحسون ، ومع هذه الأخيرة تبدأ سيرتيكا صحراء الساحل المقفرة التى تخلو من حياة إلا من مواطئ خطى ونقط مراحل الضرورة مثل سدرة (سيرت) نفسها

(1) Clarke, Op. cit., pp.53-55.

وبوهادى ثم النوفلية حتى نصل إلى العقيلة فى كوع الخليج وعلى بوابة برقة . وقد بدأ البترول يغير هذه الصورة ، فكما في الجزيرة العربية يتصادف أن البترول فى ليبيا يظهر هنا فى أفقر قطاع صحراوى من الساحل ، وبهذا أصبح من المحقق أن ما كان عامل الفصل الأكبر فى المعمور الساحلى سيصبح همزة الوصل الحرجة بين قطاعيه ، ولعل مرسى البريجة ميناء الزيت الجديدة هى أول مظاهر هذا التغير وهى ميناء اصطناعية خلقها البترول كنهاية لأنبوب حقل زليتين والبيضاء ، وهناك أيضا ميناء رأس السدرة نهاية الأنبوب الآخر . ولكن لابد أن ننتظر لنرى مدى الأثر المدنى للبترول هنا نهائيا .

خط الجفارة

فى منتصف المسافة بين الساحل وحافة «الجبل»، أى فى قلب سهل الجفارة ، وبتحديد أدق فى «الجفارة الكبرى» ، يمتد هذا الخطر المدنى الذى يتألف من مراكز خدمات وتجارة لهذا الوسط الريفى الزراعى الذى يعتبر أغنى حقل فى ليبيا (١) ، هى مدن زراعية إذن ، ونبدأها خارج ليبيا بمدينين ثم فى داخلها بالعصا ثم العزيزية جنوب مدينة طرابلس ثم كاستل بنيتو من المستعمرات الإيطالية النموذجية الجديدة ثم ترهونة ، وبعدها ينثنى الخط جنوبا ليتوسط الشقة الواسعة التى تمثل المنحدرات الوئيدة بين الجبل والساحل والتى تختطها عدة أودية

(1) Birot & Dresch, Mediterranée ete., p.455.

موسمية طويلة ، وغالبا ما تتحدد مواقع المدن فيه على أواسط هذه الأودية ، فنجد بنى وليد تليها شمك Shemek على وادى سوفجين، ثم سدادة ثم بونجيم على وادى بى الكبير . وبعد انقطاعة طويلة يمكن أن نغد مردة جنوب العقيلة امتدادا أخيرا لنفس الخط .

خط الجبل

«الجبل» اسم علم يطلق فى طرابلس على حافة الكويستا التى تحدد الهضبة الخلفية في الداخل (وتسمى القبلة Guibla) والتى تطل كالحائط على سهل الجفارة ولما كان ظهير القبلة ينتهى إلى مرتفعات صحراوية فقيرة هى «الحمادة الحمراء» فى الغرب وجبال السودا فى الشرق ، فإن الحياة تتركز أساسا على الحافة الأمامية «الجبل (١)» . ولذا فإن هذا الخط المدنى هو فى حقيقته خط بيدمونتى ، وهو أيضا يبدأ فى تونس على سفوح جبال مطماطة بمطماطة والدويرات وغيرها ثم يبدأ فى طرابلس بمدينة الحدود نالوت ثم نستمر فى يفرن ثم غاريان جنوب طرابلس المدينة ، ولغاريان شهرتها المعروفة بالمساكن المحفورة تحت الأرض (حوش - جروتو) ككهوف اصطناعية منخفضة مربعة الشكل على عمق بضعة أمتار فى أسفلها سراديب عديدة وطرق ملتوية لها أبواب سميكة ، وعلى جانبى السرداب تحفر «الغرف» المزدوجة بمعنى غرفة داخل غرفة . فغاريان مدينة كهوف اصطناعية Troglodyto تذكرنا بالنجف فى العراق وبيلودان ذات الغرف المزدوجة فى لبنان ، والفكرة فى ذلك كله خلق بيئة عازلة تلطف من حدة تطرف المناخ القارى

(1) Ibid.

على مشارف الصحراء (١) بعد غاريان ومع انحناء الكتلة الجبلية ينحنى الخط إلى الجنوب حاملا مزدة ، على أعالى وادى سوفجين ثم على بعد الشويرف Shweref على أعالى وادى بى الكبير . بعد ذلك وفى أحضان جبل السودا نصل إلى واحة الجفرة حيث نجد مدن هون والسخنة وودان ، وأخيرا تتمم زلة - وربما أيضا زلتين بئر البترول الجديد - الخط غير بعيد عن نهاية خط الجفارة فى مردة .

هذا ولا تخلو المرتفعات الداخلية من بضع بقع واحية مسكونة ولكنها لا تؤلف خطا مدنيا وإنما نقط الانتقال من طرابلس الحقيقية إلى فزان ; ففى ظهير الحمادة الحمراء وعلى الحدود مدينتا سيناون ثم غدامس على بعد ٥٠٠ كم من الساحل ، والأخيرة أهم واحات طرابلس الداخلية وهى مدينة حدود بكل معنى الكلمة لأنها تقع فى النقطة الحرجة التى تلتقى فيها حدود ليبيا وتونس والجزائر ، ونواتها مجموعة من الينابيع الغنية جعلتها منذ القدم مركزا هاما لطرق القوافل ، الواحة تعيش في عزلة موحشة وسط الصحراء توزع المياه فيها بقنوات مغطاة مما يحفظ الرطوبة ويلطف جوها . وتمتاز طرقها بالضيق الشديد ، ومبانيها عديدة الطبقات معدومة النوافذ، وكل هذا تفاديا للحر ، ولهذا تبدو الواحة ككل أشبه بقصر ضخم من قصور العصور الوسطى . هذه هى غدامش التى تقف كالعلم الفرد فى الغرب ، هذا بينما فى أقصى الشرق من الاقليم فى جُبال السودا تقع مدينة الفقهاء إلى الجنوب الغربى من زلة .

---

(٢) كرد على وزملاؤه ص ٥١٨ .

برقة

في برقة شبه الجزرية خطان مدنيان فقط . خط الساحل ابتداء من خليج سدرة حتى خليج السلوم ، وخط داخلي بيدمونتي في الحقيقة يحيط بهضبة الجبل الأخضر التي تقوم كالجزيرة المرتفعة إزاء الساحل، وكما أن خط الساحل أضعف ما يكون في نهايته شرقا وغربا ، فكذلك حلقة الداخل أضعف ما تكون في قطاعها الجنوبي المطل على الصحراء، هذا بينما أغني قطاعين فيهما يتقاربان كثيرا حتى يكادا أن يلتحما وعدا هذين الخطين فهناك خط واحات صحراوي داخلي خارج «شبه جزيرة » برقة بالمعنى الجغرافي ، وهو في الحقيقة جزء من خط صحراوي يمتد من خليج سدرة حتى وادي النطرون .

خط الساحل

يبدأ السهل الساحلي حول خليج سدرة واسعا يأخذ شكل المثلث ما بين العقيلة وأجدابية والزيتونة ، ولكنه مع ذلك أفقر قطاع في برقة : هو «برقة البيضاء» التي تستمد اسمها من تربتها الجيرية التي تركها الجفاف بيضاء اللون ، ولا مدن هامة هنا إلا نقط ساحلية كالعقيلة والبريجة وإلى الداخل قليلا أجدابية ثم الزيتونة ، ولا أهمية لأهمها سوى الدور التاريخي في الحرب الأخيرة ، ثم إلى الشمال من الزيتونة يبدأ السهل الساحلي يضيق ولكن التربة تنفرج امكانياتها فتتحول مع فعل المطر المتزايد إلى تربة حمراء Terra rossa : فتكون «برقة

الحمراء» الخصبة التى تصلح للزراعة لاسيما فى الروابى الحمر التى تسمى محليا «الضهور الحمر» (١) ولهذا نجد مدينة السلوق فى الداخل قليلا ، ولكن بنغازى هى القمة التى تتوج برقة الحمراء .

فى كبرى مدن برقة ارتفعت من ٦٥ ألفا إلى ٨٠ ألفا بعد الحرب ، وتقدر الآن بأكثر من ١٢٠ ألفا ، وبهذا أصبحت مدينة مائة ألفية وثانى مدينة من نوعها فى ليبيا ، وقد كانت متخلفة عن معدل نمو طرابلس حتى قريب ولكنها الآن أسرع منها نموا وذلك بفضل تحرك مركز الثقل فى انتاج البترول من غرب إلى شرق ليبيا ثم إنشاء العاصمة الجديدة البيضاء غير بعيد ، والمدينة تقع فى أوسع جزء من السهل الساحلى ومعظم اقليمها مزروع ، وهى وسهلها المحيط تضم أكثر من نصف سكان برقة جميعا ، وميناء بنغازى جيد نوعا ، ولو أنه ليس عميقا تماما كما أنه مفتوح للرياح الشمالية الغربية التى تسود شتاء . وهى إذا كانت تحتكر ٧٥٪ من كل حمولة موانى برقة ، فإن هذه الأخيرة لا تعادل إلا ما يتراوح بين ٤٥٪ ، ٢٢٪ من حمولة طرابلس ، وكانت الميناء قد أصيبت بشدة أثناء الحرب ، ولكن طهرت ، وبدأ الآن مشروع ضخم حقا لتوسيعها ، وتؤذن بأن تصبح منافسا خطيرا لطرابلس ، وهناك خط حديدى يصل إلى اقليم مدينة برقة (المرج) الخصيب ، وهى بعد المخرج الرئيسى لشمال وغرب برقة الغنى نسبيا ، وإذا كانت طرابلس

(١) كرد على وزملاؤه ، ص ٥٣ .

أكثر «أوربية» فإن بنغازى أكثر «عربية» فى طابعها وتركيبها ، وفى توسعها الحديث نشأ فى جنوبها الشرقى حى الفيلات الراقى الفويحات بينما تمددت على كثبانها الرملية المتماسكة فى شمالها مدينة العشش الرئيسية الصبرى .

وثمة فارق آخر بين العاصمتين ، فطرابلس تتوسط أغنى وأخصب أجزاء منطقتها ، ولكن بنغازى تقع نوعا ما على هامش Offiside أغنى وأكثر مناطق برقة انتاجا ، وتقل بنغازى حجما عن نصف طرابلس ، وعدا هذا فإن درجة أولوية بنغازى النسبية كمدينة فى برقة أقل بكثير من مثيلتها فى طرابلس . فبنغازى لا تمثل إلا ٧,٣٪ من مجموع سكان برقة مقابل ١٦,٧٪ لطرابلس ، وبينما توجد فى برقة بعد قمة بنغازى مدن تصل إلى ٢٠ ألفا مثل درنة ، نهوى من طرابلس الشامخة إلى مدن قزمية لا يصل أكبرها إلى ٥ آلاف تقريبا .

بعد بنغازى يدق الشريط الساحلى إلى خيط رفيع متقطع يعرف «بالساحل» تنقطه عدة مسطحات ملحية تحدد استغلاله الزراعى ، ويحمل الساحل عدة موان أهمها طوكرة ثم طلميته (بطلمايس القديمة) ثم مرسى سوسة (أبوللونيا القديمة) وأخيرا درنة ، والملاحظ أن كل المدن القديمة هنا هى اليوم قرى صغيرة ، أما درنة فمرفأ ردئ صعب الاتصال بالداخل إلا أنها واحة ساحلية خصبة جدا رغم صغرها ولهذا تسجل ٢١,٥ ألفا من السكان .

ينتهى الخط الساحلى أخيرا بقطاع «برقة البحرية» أو مرمريكا (أو البطنان) ابتداء من خليج البومبة حتى خليج السلوم . ومرمريكا أقل ارتفاعا فمطرا فانتاجا من سيرنيكا ، ولذا تقتصر المدن على بعض موانى تقبع فى الكوات والفجوات الساحلية مثل البومبة وطبرق والبردية وأخيرا فورت كابوتزو التى أنشأتها الفاشستية كحامية حدود إزاء السلوم المصرية ، وتعد طبرق مخرج منتجات مرمريكا الرعوية الفقيرة ، وكانت نهاية الخط الحديدى من الاسكندرية حتى مد إلى درنة ، وكانت طبرق قد تهدمت تماما فى الحرب وأعيد بناؤها بينما لازال خليجها الصغير مسدودا بحطام نحو ١٠٠ سفينة حربية ، وتكاد تكون طبرق الميناء الوحيدة التى تنافس ميناء طرابلس فى العمق ، إلا أن موقعها المتطرف أضاع من هذه الميزة (١) .

خط الداخل

الجزيرة الجبلية الناتئة كاللسان التى تؤلف نواة برقة يمكن أن نسميها فى مجموعها «برقة الخضراء» مقابلة لبرقة البيضاء والحمراء من قبل. فهى أغنى أجزاء برقة مطرا وانتاجا لارتفاعها ، وهى ترقى بشدة من «الساحل» فى سلمتين أساسيتين ، تعرف الأولى فى شرقها «بالعرقوب» وهى شديدة التقطع والتحريج ، وفى غربها تتسع إلى سهل

(1) Clarke, op. Cit., p.53.

مدرج مكشوف يسمى «بالوسيطة» أطلق عليه الطليان اسم سهل برقة (بارتشى) أى المرج . أما السلمة العليا فتسمى «الظاهر» أو الجبل الأخضر (١) ، ورغم أن أكبر امكانيات السكنى تقع فى السلمة العليا ، فإن أغلب المدن الحالية تتوقع على السلمة الدنيا ، فنجد الأبيار ثم مدينة المرج أو برقة – التى كانت العاصمة فى العصر العربى – على سهل الوسيطة فى الغرب ، وقد دمر الزلزال أغلب مدينة المرج أخيرا فى ١٩٦٣ . ثم نجد قرينة (سيرين القديمة) والقبة على أرض العرقوب فى الشرق. وكما أن طوكرة هى ميناء المرج ، فإن سوسة هى ميناء قرينة . ويستمر الخط فى شكل حلقة مع السفوح الجنوبية الفقيرة للجزيرة الجبلية فنجد المخيلى فى الشرق ومسوس فى الغرب .

الخط الصحراوى

ما بين برقة البيضاء فى الشمال وهوامش بحر الرمال العظيم فى الجنوب ، تمتد سلسلة من الواحات المنفرطة المتباعدة التى تبدأ قرب خليج سدرة ولا تنتهى إلا خارج ليبيا فى مصر ، وقد كانت هذه الواحات المنخفضة الضئيلة مواطئ الخطى التى حددت طريقا تاريخيا هاما للانتقال بين المغرب ووادى النيل ، ويبدأ من الوادى الفارغ قرب العقيلة عند خليج سدرة ، ثم يشمل واحة أو جلة – جالو ثم يتتبع

---

(١) نقولا زيادة :ص ٢ – ٣ ، Fisher, p.485

الهوامش الشمالية لبحر الرمال العظيم حتى يضم واحة الجغبوب - سيوة التى تشطرها الحدود السياسية والتى تمثل أهم حلقات السلسلة. ويعد وادى النطرون نهاية الخط شرقا .

الصحراء

فزان

بضع حقائق بسيطة فى اللاندسكيب الطبيعى تفسر نمط العمران والمدن فى فزان ، فهى أولا حوض صحراوى كالصحن شبه دائرى يستمد ماءيته لا من التساقط وإنما من التسرب - تسرب المياه الباطنية فى الطبقات المسامية من السودان . ثانيا هى صحراء من نوع «صحراء الحمد والارج Hamada and Erg » فتتألف من ثلاثة فصوص رئيسية من الصحراء الرملية تعرف فى مجموعها بايدهان Idehan (الدهناء؟) تحدها أو تتخللها وتفصل بينها عدة أصابع من الصحراء الصخرية هى حمادة تنغرت فى الشمال وحمادة ذغر فى الغرب وحمادة مرزق فى الوسط وأخيرا سرير تبستى فى الشرق . ولما كان مصدر المياه الباطنية من الجنوب ، فإنها تظهر فى شكل آبار متقطعة أو على طول بطون أودية تمتد على هوامش الفصوص الرملية أو بالتالى على حواف الأصابع الصخرية البينية . وأهم هذه الأودية ما يتوسط الحوض على جانبى حمادة مرزق : وادى الشيتى فى الشمال الشرقى ، ووادى الآجال (الوادى الغربى) ، ووادى الشاطئ (الوادى

الشـرقى) ، ويتـرتب على ذلك منطقـيـا أن كل واحـات فـزان تقع حـول هوامـش الفـصـوص الرمليـة ، وبالتـالى أن أغلبـهـا يقـع على هـوامش المنخـفض كله لا فـى داخله حيث يقـتـصـر الشـذوذ على جانبى حـمادة مـرزق . بمعنـى آخـر إن نمط السكنى يأخـذ شكل حلقـة دائرية يقطعـهـا وتر قطرى .

وبالفـعل تبدأ الحلقـة فى الشـمـال الغربى على الحدود بواحـة الغـار على حـواف حـمادة تنغـرت ، ثم نتـحـرك جنوبا شـرقـا عـلى طول حـافـة صـحـراء الرمل فنـجـد الحـاسى وإدرى ولكن براق أهـم . ثمـة بعـدهـا أم العبيد فسبـهـا العـاصـمـة الحـالية الجـديدة لفزان التى تبلغ الآن سـبـعـة آلاف ، ثم نعبر جسـر الصـحـراء الصـخرية لنجد زويلة على رأس الفص الرملي الثالث تليهـا القطرون ثم تيجرحى والوجه الكبير غير بعيد ، فإذا استكملنا دورتنا جنوبا كانت أناى ثم غـات فى أقصى الجنوب الغربى على الحـدود وأخـيـرا برج التـارات فى نتـوء آخـر من الحـدود . أمـا عن الوتر الذى يرسم قطر الدائرة فيمتد من غات إلى سبها مارا بسـرداليس وأوبارى على الوادى الغربى ومرزق على الوادى الشـرقى والأخيرة كانت العـاصـمـة الايطالية ، وقـد كـانت أغلب واحـات فـزان ، ولكن واحـات هـذا الوتر القاطع خاصـة ، تشارك حـتى القرن الماضـى فى حركة القوافل بين السودان والبحر المتوسط وتستمد منها كثيرا من ثروتها . ولكنها جميعا أفلت مع أسـر هـذه التـجـارة عبـر الصـحـراوية . ولا يمكن فـى النـهـاية أن

نزعم أن كل هذه الحالات مدنا ، بل العكس هو الأصح ، ومع ذلك ففى أغلبها جرثومة مدينة ميكرسكوبية .

الكفرة

شذوذ محلى بحت يتوسط قلب الربع الخالى الليبى ، وإن دائرة نصف قطرها ٣٠٠ كم ومركزها الكفرة ترسم عالما تاما من اللامعمور المطلق ، ويتماس محيطها فى ليبيا بواو الناموس وواو الكبير فى شرق فزان وجالو - أو جله والجغبوب فى برقة - وفى هذا الإطار لم تكن الكفرة إلا موطأ خطى فى طرق القوافل عبر الصحراوى ، ولا تزال تعيش فى عزلتها هذه . والواحة منخفض شبه دائرى قلبه الجوف وحوافه عدة واحات أخرى كالتاج وربيانه وبزيمة وتازربو وبشارة وجميعها لاتجمع أكثر من ٥ آلاف .

الفصل الثامن

السودان

نمط توزيع السكان والمدن فى السودان هو النقيض المباشر لما هو عليه فى مصر ، فإذا كانت مصر قمة التركيز والكثافة ، فإن السودان قمة التشتت والمساحة ، هذا لأن السودان - وحده بين البلاد العربية - هو الذى يستمد عموده الفقرى من السفانا الواسعة المترامية بطبعها ، ومعه ينفتح نمط العمران فى فرشة خفيفة جدا ولكنها مترامية جدا ، ولكن ليس معنى هذا أن هذه الفرشة الغطائية تغطى كل المساحة السياسية أو تمثل متصلا عمرانيا لاتقطع فيه ، فالواقع أن للعمران فى السودان محورين حيويين يمثلان كل خطوط القوة فى كيانه : محور عرضى ومحور طولى ، فأما العرضى فإن السودان بعامة يقع فى ثلاثة نطاقات طبيعية مناخية نباتية : شمال صحراوى من اللا معمور تقريبا هو «الثلث الخالى» وجنوب شبه غابى مناقعى أقرب إلى اللامعمور ، فلا

يتبقى إلا الثلث الأوسط السافاني الذى هو أساس المعمور ، ومن حسن حظ السودان أن هذا النطاق يقع حيث يصل السودان إلى أقصى اتساعه وعرضه ، كما يلاحظ أنه فى قطاعه الشرقى ينحرف تحت توجيه كتلة الهضبة الحبشية نحو الشمال الشرقى حتى يشمل جبال البحر الأحمر ، أما المحور الطلى فهو محور النيل الذى يتعامد على النطاقات الطبيعية العرضية الثلاثة ليخفف من فقرها حيث الفقر ويكثف من غناها حيث هى غنية ، ولهذا فإنه يختط فى الثلث الشمالى خطا دقيقا من الحياة يجعل من هذا الثلث استمرارا - متدهورا - للنمط المصرى سواء بمعموره أو باللامعمور . بينما هو فى الثلث الجنوبى يمثل شبكة مفتوحة ولكنها ضعيفة جدا وممزقة مهلهلة من العمران تنتشر فى تضاعيف «السد» وتجاويفه ، أما فى النطاق السفانى فهنا يتم الزواج السعيد بين المطر والهيدرولوچيا ، بين المرعى والمجرى ، فتكون الثمرة خصوبة طبيعية بشرية فريدة تمنح السودان قلبه الاقتصادى ونواته النووية (١) ، فهنا ينفسح النهر إلى «دلتا داخلية» - فى الواقع عدة دالات داخلية مركبة تمثل أكبر وأغنى الدالات الداخلية فى كل أفريقيا المدارية تتوجها الجزيرة حيث يرقد مركز السودان لا

---

(1) G. Hamdan, "Some Aspects of the urban Geog. of the khartoum Complex," Bull. soc. Géog. d'Egypte, t. xxxll 1959. p.89.

الحديث فحسب وإنما خلال العصور الوسطى كذلك . وإذا ذكرنا أن نصف سكان السودان حاليا يتركز فى ١٤٪ فقط من كل المساحة السياسية وأن مديرية النيل الأزرق وحدها تضم أكثر من مليونين أو ٢٠٪ من مجموع السودان (١) عرفنا توا أين يرقد هذا القطب العمرانى (٢) .

بهذا النمط العمرانى الصريح يتحدد هيكل شبكة المدن السودانية ، فهناك ابتداء «صليب» أساسى يتوسط الرقعة السياسية ويتألف من المحورين السابقين ويكاد وزن كل قطاع فيه يتناسب مع وزن قطاعات العمران فيهما وكل محور من المحورين ينتظم عدة خطوط مدنية واضحة بدرجة أو بأخرى ، وتقاطع المحورين ليس رأسُ السودان موضعا فحسب ولكنه أيضا قلبه موقعا : فمن حسن الحظ أن هذا التقاطع يتم حوالى الوسط الهندسى للدولة ، وبهذا تتأكد وتتضاعف أهميته البشرية، وهنا يتمركز قطب المدن فى السودان فإننا إذا مارسمنا دائرة مركزها كوستي ونصف قطرها ٢٢٠ كم لانتظمت الغالبية العظمى من كل مدن السودان ، ولكننا إلى جانب هذا الصليب الداخلي من المدن، سنلاحظ أنه لما كانت أطراف المحور العرضي تصل إلى الحدود شرقا وغربا ،

(١) سعد الدين فوزى . جوانب من الاقتصاد السودانى. القاهرة ١٩٥٨ ص ١٨ .
(٢) عبد العزيز كامل . توزيع المراكز الحضرية فى السودان ، أعمال المؤتمر الجغرافى الأول. القاهرة يناير ١٩٦٢ ص ٧ .

بينما أهم مظاهر المدنية المحدودة فى الجنوب تتركز على الحدود أيضا على طول خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو ، فمعنى ذلك أن هناك على طول القوس الجنوبى الهائل للحدود السياسية للسودان «هلالا» من المدن قد يتراخى أو يتقطع هنا أو هناك لكنه حقيقة ، وإن تكن خفيفة - لاشك فيها بصورة عامة هذا بينما على الجانب الآخر من الحدود وفيما بين تضاعيف الصليب الأساسى فراغ أو شبه فراغ مدنى ، وبهذا يصبح النمط العام لشبكة المدن فى السودان مؤلفاً من صليب أساسى فى الداخل يستقر داخل هلال ثانوى على الأطراف الجنوبية ، ويرى عبد العزيز كامل فى نفس النمط صورة أخرى معبرة : صورة السهم والقوس : «السهم هو المحور النيلى ، ووتر القوس المحور الرعوى ، وعود القوس» تمثله مدن الجنوب (١) .

وفى كل هذه الشبكة يمكننا من البداية أن نعتبر المدن فى شمالها من حالات النقط الرطبة Wet - point settle ments والعكس في جنوبها حيث تسود حالات النقط الجافة dry- point . كذلك قبل أن نمضى إلى تحليل خطوط هذه الشبكة لابد أن نذكر أنها بامتدادها قد توحى بثراء مدنى كبير ، ولكنها في الواقع من أفقر شبكات المدن فى العالم العربى ، فالغالبية العظمى من نسيجها تتألف من خيوط شبه مدنية أو شبه ريفية ، أما المدن الحقيقية فمحدودة للغاية ، الواقع أن

---

(١) المرجع المذكور ص ١١ .

نصف كل سكان المدن فى السودان – ونسبة هذا الكل ٨٪ تسكن المدن الكبرى والنصف الآخر فى المدن الصغرى . ونحن فى تتبعنا للخطوط المختلفة لامفر سندخل بعض القرى المتضخمة أو المدن النصف ، فهنا أكثر من أى مكان آخر فى العالم العربى تتدهور خطوط المدن بالضرورة إلى خطوط عامة للعمران .

محور النيل

من بلد المياه pays de riviéres وبيئة السد الرطبة فى أعالى النيل، إلى أرض الدالات الداخلية بين الأبيض والعطبرة التى يمكن بأنهارها الخمسة أن تعد «بنجاب» السودان ، إلى النيل النوبى ، يتحول المحور بالتدريج من عديد الشعب إلى وحيد الخط محققا بذلك النمط الشجرى الذى تشتهر به مورفولوچية النيل وسنبدأ نحن من الشمال مع النيل الرئيسى ثم النيل الأبيض ، ثم نتتبع النيل الأزرق فالعطبرة، وأخيرا نعود إلى النيل فى السودان الجنوبى ، وسيلاحظ فى منطقة الدالات الداخلية أن السكنى تكاد تكون قاصرة بصرامة علي خطوط المياه الدائمة بينما أراضى مابين الأنهار Interfluves توشك أن تخلو من المدن إن لم يكن من القرى ، والسبب فى هذا صعوبة الحصول علي المياه فى تربتها الصلصالية الثقيلة ، وفى هذا تختلف أراضى مابين الأنهار فى «بنجاب» السودان عن أراضى «الدواب Doab المناظرة فى بنجاب الباكستان (١).

---

(1) L.D.Stamp, Integediate Geog, Lond, 1941, PP.51 - 2.

خط النيل الرئيسي

أفقر قطاعاته بالمدن هي أولها على طول النيل النوبي. فالوادي يختنق هنا كثيرا باقتراب حافتي الصحراء الصخرية أو الرملية كما يتقطع بالجنادل المتتابعة وتتحول السكنى إلى جيوب وأحواض منعزلة قزمية على هذه الضفة أو تلك . والحياة تعتمد على زراعة السواقى أو الطلمبات ، الأحواض أو الدائم ، والمجموع يقترب من نمط السكنى والانتاج في «الجنوب الأقصى» من مصر . والحلات تتوقع على طول الوادي فى تباعد منتظم نوعا أو بالإشارة إلى مواضع الجنادل أو اتساع الأحواض ، ولكنها فى أغلبها ريفية الطابع ، بينما تقتصر المدن على حلفا وكرمة ودنقلة والثنائى كريمة - مروى . وتبدو حلفا - بالمقياس السودانى - بداية كبيرة نسبيا على الحدود مباشرة (١١ ألفا) والواقع أنها أكبر مدينة حتى نصل إلى عطبرة لأنها فى الحقيقة نقطة انقطاع ممتازة break - of - bulk : انقطاع نهرى حيث تقع شمال الشلال الثانى كنظير لأسوان شمال الشلال الأول ، وبينهما علاقة وظيفية مباشرة هى الخط النهرى الذى يتفادى الشلالين كما أن كلا منهما بداية السكة الحديدية شمالا أو جنوبا . ثم هى انقطاع سياسى كمدينة حدود ومدخل وبوابة للسودان من الشمال يتعامل فى نحو ١٠٪ من

تجارته الخارجية وهى أيضا انقطاع عمرانى لأن خزان أسوان يغرق الأرض إلى الشمال منها بقليل وتقف هى على رأس الشريط الانتاجى الدقيق ، وينتظر حلفا الآن ميتة طبيعية بعد إتمام السد العالى حيث سيكون موقعها جزءا من بحيرة ناصر المقبلة . وهكذا بعد أن كانت أسوان وحلفا نظائر مدنية عبر الحدود وعبر الجنادل ، تترابط وظيفيا ولا تتفاوت كثيرا حجميا ، ستتحول الأخيرة إلى مدينة غارقة ، إلى مدينة مفقودة ، بينما ستتحول الأولى إلى عملاق صناعى ضخم ، على أن من المحتمل أن تقوم مدينة جديدة على بداية بحيرة ناصر قرب شلال دال لترث حلفا ودورها مضاعفا حيث أن البحيرة ستقدم وسيلة مواصلات فعالة بين مصر والسودان كما أن نهضة أسوان صناعية ستخلق إمكانيات تجارية أكبر بين البلدين ، وعندئذ سيلزم إعادة توقيع خط حديد العطمور إلى النهاية الجديدة ، وبهذا تصبح المدينة ضابط الطريق وليس العكس ، ومعنى السد العالى فى النهاية أن هنا مدينتين من مدن مواقع الشلالات ستتحولان إلى مدن مواقع نهايات البحيرات .

أما كرمة ودنقلة فتقعان أعلى الشلال الثالث ، على نهايتى حوض زراعى هام نسبيا هو حوض كرمة ، وفى منتصف الرحلة النهرية تقريبا بين حلفا وكريمة – مروى ، وقد لعبت دنقلة (٣٣٠٠) دورا تاريخيا مذكورا. أما قطاع الدبة – أبو حمد الذى يختنق بين العطمور وبيوضة ففقير بوجه عام زراعيا وليس من مدن إلا التوأم كريمة – مروى (٦٠٠٠ ، ١٦٠٠) . وهما تقعان بعكس الثنائى السابق أسفل الشلال – الشلال الرابع ، وقد أصبحت كريمة الآن نهاية الوصلة الحديدية من أبو حمد.

أما أبو حمد نفسها فأهميتها أنها موقع «كوع» نهرى بارز ، وأصبحت عقدة حديدية إلى الشمال إلى حلفا وإلى الغرب إلى كريمة وجنوبا إلى عطبرة فالخرطوم . ولكن هذا لم يجعل منها مدينة ذات حجم لفقر القطاع نتاجيا ، ولا نجد بعد هذا إلا بربر أعلى الشلال الخامس وعند بداية أغنى قطاع فى النيل من حلفا حتى الخرطوم، وقد كانت من المدن الهامة حتى القرن ١٩ إلى أن برزت جارتها المنافسة عطبرة وتغلبت عليها وتركتها اليوم فى مثل حجم حلفا تقريبا (١١ ألفا) . وليس لبربرة فرصة للنمو إلا إذا زاد الاستغلال الزراعى فى الأراضى الجيدة المجاورة .

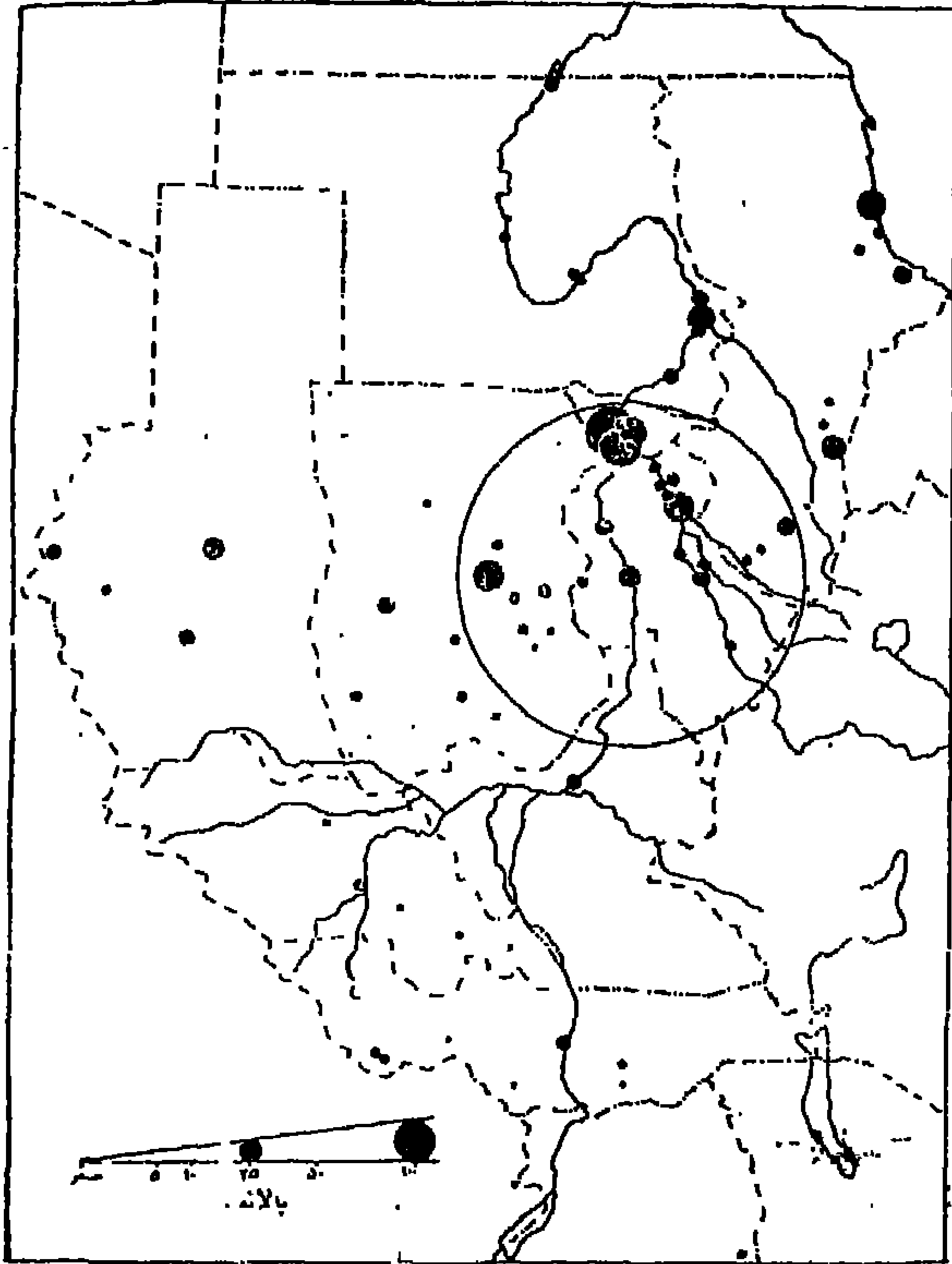
أما عطبرة فمدينة حديثة من خلق السكة الحديد . فقد كانت قرية نكرة حين تقرر اتخاذها مقرا لإدارة الأعمال والانشاءات فى مد السكة الحديدية إلى البحر الأحمر ثم بعد ذلك مركزا رئيسيا لكل مصالح السكة الحديدية السودانية ومصانعها وورشها .. إلخ .. وقد جعلها هذا مدينة موظفين وعمال تبلغ ٣٦ ألفا منهم أكثر من ٦ آلاف يعملون فى السكة الحديد . والمدينة فى أكثر من ناحية تشبه موقع الخرطوم بحرى فهى تقع على الضفة الشمالية للعطبرة حيث يلتقى بالنيل الرئيسى ، مع الفارق أنها تمتاز بأنها أقرب إلى موانى الأحمر وأنها تعانى من أن خانق سبلوقة (الشلال السادس) يخنق الملاحة أعلى النهر ، ومن حيث الموقع تلخص مزايا عطبرة فى أنها مدينة مقرن بين النيل والعطبرة ومدينة عقدة مواصلات حيث أنها أكبر نقطة فى ثنية النيل شرقية ولذا كان طبيعيا أن تخرج منها وصلة البحر الأحمر . أما ناحية الضفة

الجنوبية للعطبرة فتقوم الدامر التى قد يكون لها أهمية تاريخية ودينية ولكنها الآن غير مهمة اقتصاديا (٥٥٠٠) . وإذ نترك ملقى العطبرة بالنيل تختفى المدن حتى نصل إلى شندى على الضفة اليمنى شمال الشلال السادس سبلوقة . ولقد كان لشندى دور تاريخى كبير ، وهى الآن عاصمـــة مركز ومدينة تكنات (١١ ألفا) . وعلى الضفة المواجهة المتمة (١) . ولا يفصل بينهما وبين العاصمة المثلثة إلا الخانق .

وقبل أن ننتهى من هذا القطاع من النيل الرئيسى ينبغى أن نذكر تعميمين هامين . فأولا سنلاحظ كيف أن مواقع المدن – فيما عدا مدن الملاقى – تتحدد بالتناوب بالإشارة إلى الشلالات الستة ، واحدة جنوب الشلال والأخرى شماله : وادى حلفا شمال الثانى ، كرمة – دنقلة جنوب الثالث ، كرمة – مروى شمال الرابع ، بربر جنوب الخامس ، وأخيرا شندى شمال السادس ، ولا شك أن هذا التناوب يسهل تفادى الشلالات ويضمن ربط أجزاء الأحباس الحرة من النهر ، أما الملاحظة الثانية فهى أن كل المدن بين أبو حمد وشندى تقع إلا واحدة على الضفة اليمنى – لا شك تحت تأثير امتداد الخط الحديدى على هذه الضفة.

---

(1) K. M. Barbour, The Republic of the Sudan, Lond., 1961, PP. 135-140; R. hodgkin, Sudan Geog,1952, pp. 150 ff.,



. أحجام المدن في السودان
قطر الدائرة ٧٥٠ كم ومركزها كوستي
(عن باربر)

العاصمة المثلثة (١)

على رأس النيل الأبيض وحيث يلتقى بالأزرق لابد لنا من وقفة عند العاصمة المثلثة . فهنا قلب السودان موقعا وموضعا . وقد كان هذا هو الموطن المزمن للعاصمة فى السودان منذ قرون : فسواء في الدامر أو فى شندى أو سنار – ولن نذكر حلفاية الملوك أو سوبا – كانت العاصمة تدور فى فلك هذا الموقع . أما الخرطوم فبدأت كمعسكر حربى مصرى فى ١٨٢٠ فقط ثم استقرت فى ١٨٣٠ لتكون قاعدة للسودان ولم تكن حينذاك تقارن بكبريات مدن السودان كشندى وسنار وواد مدنى . وقد تعرضت بعد ذلك لكثير من الأزمات والتناقص والأوبئة وكثيرا ما فكر فى نقل العاصمة منها بل نقلت فعلا لفترة إلى شندى . وقد قدرت فى ١٨٤٠ بنحو ٣٠ ألفا وفى ١٨٦٠ بنحو ٦٠ ألفا – ربما مبالغة – وعادة فهبطت إلى ٢٠ ألفا فى ١٨٧٠ ، وفى ٥ – ١٨٨٦ خربتها المهدية تماما وأقامت عاصمتها جديدة فى أم درمان ، ولم تعد الخرطوم إلى الحياة مرة ثانية إلا مع «الاسترداد» في ١٨٩٨ ، كمدينة استعمارية مخططة ، وبعد قليل بدأ إنشاء ضاحية لها مقابلة على الأزرق هى الخرطوم بحرى. كذا كانت البداية الحديثة جدا «للعاصمة المثلثة» – أو «طرابلس النيل» إذا أردت .

---

(1) Hamdan, op. cit., pp. 89-94' ,Geog . The Growth & Func tional structure of Khartoum" , Geog. Review, jan. Eckistic june,s راجع أيضا تلخيصا للبحث الأخير في مجلة 1960, pp.21 - 4. 1960, pp 393-8.

ولم تنطلق المدن الثلاث حقيقة إلا منذ الحرب الأخيرة . واليوم تبلغ أم درمان ١١٣ ألفا والخرطوم ٩٣ ألفا وبحرى ٣٩ ألفا . أى أن أم درمان وليست الخرطوم هى كبرى مدن السودان ، بينما أن المجمع المدنى كله يبلغ ٢٤٥ ألفا - قل ربع مليون - وتقارب بهذا مدينة كبور سعيد فى مصر أو جاكسونفيل فى فلوريدا بالولايات المتحدة ، ولئن بدا هذا ضئيلا بالمقياس العالمى ، فهو بالمقياس الأفريقى يضع المثلثة كأكبر مجمع مدنى فى نطاق السفانا - السودان - فى النصف الشمالى من القارة بما فى ذلك داكار (٢٣٤ ألفا) . وهنا يلاحظ أن اقتصاديات القطن فى الجزيرة لم تؤثر التأثير الكامل على المثلثة بنفس الدرجة التى أثرت بها اقتصاديات القطن فى مصر مثلا على القاهرة ، ولعل جزءا من السبب أن نظام الملكية الغيابية فى ظل الاقطاع فى مصر أدى إلى المركزية العاصمية بدرجة لم تعرفها الخرطوم حيث لم يخلق نظام مشروع الجزيرة ملكيات ضخمة غيابية . والمثلثة رغم هذا هى أعظم حقيقة مدنية فى السودان ، ومركز الثقل المدنى فيه تضم وحدها المدينتين المائة ألفتين الوحيدتين به .

ولا ريب أن هذا الاحتشاد الفريد يدعو إلى التساؤل ، ولا شك أن الموقع الحاسم هو التفسير الحقيقى . فبصرف النظر عن مزايا الموضع المحلى من جبهة مائية عريض منعشة ، فمزايا موقع المثلثة لا تتكرر فى أى مكان آخر فى السودان ، فهنا عقدية هيدرولوجية مثلثة على شكل

حرف Y مقلوب : هى «المقرن» بلمتياز – و – «مقرن» الخرطوم جدير بأن يصبح اسم نوع كما هو اسم علم . ثم هى تقع على بداية المعمور بعد رحلة الصحراء القاحلة أى على جبهة الالتحام بين الصحراء والسفانا ، وبهذا تحتل نقطة حرجة من خط لابلاش الشهير الذى يجمع عائلة ضخم من مدن العالم القديم على حواف الصحراء والاستبس ، والذى يبدأ فى افريقيا من داكار وينتهى إلى بور سودان . ثم يضاف إلى ذلك أنها رأس الجزيرة : أعظم وأغنى دلتا داخلية فى افريقيا المدارية ، ورأسمال السودان الحديث ونواة المعمور فيه . إن الخرطوم باختصار تتوج ما يمكن أن يعد «الميدلاند» السودانى على أن هذا الموقع الممتاز جغرافيا قابل للمناقشة السياسية فطالما كان السودان رقعة محدودة تحت الحكم المصرى كانت الخرطوم عاصمة متوسطة إلى حد كبير – كانت كما يقول ووكلى «تقريبا آخر حدود الحكم المصرى كما كان» . ولكن منذ توسع السودان وزحف الحدود جنوبا إلى البحيرات أصبحت الخرطوم تقع بنسبة ١ : ٢ ما بين الشمال والجنوب ، أى قلت مركزيتها وتوسطها نوعا ، خاصة إذا تذكرنا بعض الاتجاهات المدسوسة فى الجنوب . كما ان بعض السودانيين يرى فى سنار عاصمة الفونج التاريخية وريثا شرعيا للعاصمة السودانية . على أنه لا شك أن المثلثة بعامة قد اكتسبت من الحجم والثقل والمكانة ما يؤكد مستقبلها إلى الأبد .

وفى داخل المثلثة تعد الخرطوم العاصمة السياسية الحديثة بالمعنى الصارم ، ولكن أم درمان فى نظر الوطنيين هى العاصمة الوطنية بامتياز . على أن من الناحية العملية لا شك أن المدن الثلاث مجمع واحد وكائن متفاعل مترابط تمثل فيه الخرطوم العصرية الحديثة بصناعاتها وإدارتها «الرأس» وأم درمان بجرمها الثقيل وطابعها الوطنى «الجسم» والخرطوم بحرى بصناعاتها الخفيفة «والثقيلة» النامية «الأطراف» . أو هى على الترتيب بحسب الوظائف المكتب والمسكن والمصنع ، ولا يقلل من هذه الوحدة والتكامل الوظيفى ذلك القدر من التشتيت والانسياح المورفولوجى الذى تفرضه الجبهة المائية وطبيعة النسيج المدنى فى المجمع وتسيطر الخرطوم على كل الوظائف والنشاطات الحديثة فى السودان من استيراد وتصدير وتمويل ومواصلات ، فهى الجهاز العصرى لكل السودان الحديث فى علاقاته مع العالم الخارجى ، وتقف بور سودان بالنسبة لها موقف الوكيل من العميل ورغم أن بور سودان هى المنفذ – الميناء الخارجية للجزيرة فإنها نهائيا بمثابة الخرطوم على البحر Khartoum- by - the - Sea وقد أصبحت الخرطوم أخيرا مركزا حيويا هاما خاصة بعد التغيرات الاستراتيجية فى أفريقيا جنوب الصحراء . أما أم درمان فلازالت كما كانت دائما أكبر سوق – بازار – أفريقية في القارة وتختص بالتجارة الوطنية ، وهى تمتص كل تجارة

غرب السودان والنيل وتمثل السوق بالنسبة لزراعها والرحل ، تجمع حاصلات الصحراء والسفانا : الجلود ، الصوف ، اللحوم ، الصمغ - مقابل الحبوب والمنسوجات من الوادى إلا أن عدم وصول السكة الحديدية إليها يحرمها من فرص التصنيع . ومنذ الاستقلال بدأت كثير من وظائف أم درمان تتدفق على الخرطوم التى لن يمضى طويل حتى تكون قد تفوقت حجما كما هى وقعا .

النيل الأبيض

لا تتكاثف السكنى أو المدن بشدة حول النيل الأبيض رغم أنه خط ماء أساسى فى منطقة الدالات الداخلية ، وذلك لسببين : بشرى وهو أن القطاع الأكبر منه ظل طويلا ينقصه عامل الحماية ويتعرض لأخطار الرحل كما أنه حتى كوستى شمالا كان من إقليم الدنكا والشلوك حتى القرن ١٩ . أما السبب الآخر فطبيعى وهو أن الأبيض نهر عريض تتدرج ضفتاه ببطء شديد مما يجعل خط الماء يتفاوت مع الفيضان والتحاريق تفاوتا قد يصل إلى ميل على كل جانب ، ومن ثم يصبح توقيع المدن خطراً (١) ، وتقل عددا وحجما بشكل ملحوظ إذا ما قورنت بالأزرق وهى لا تلتزم ضفة معينة من النهر بنوع خاص .

وباستثناء القطنية التى هى أقرب إلى القرية ، فإن أول مدينة منذ أم درمان هى الدويم على الضفة اليسرى (١٢,٣٠٠) . وقد كانت الدويم

(1) K. M. Barbour, p.181 .

النافذة التقليدية لغرب السودان على النيل ومجمع تجارته ولكن حين تقرر مد السكة الحديدية من الأزرق إلى الأبيض وجد أن الدويم ليست أفضل موضع لإقامة كوبرى على النهر ، وإنما يتحقق هذا فى موضع إلى الجنوب من جزيرة ابا ، حيث مد الخط فنشأت مدينة جديدة بكر هى كوستى التى - بالمناسبة - تستمد اسمها من تاجر يونانى من أوائل معمرها (١) ، وبها انكمشت أهمية الدويم التاريخية وورثت دورها مضاعفا كوستى المحدثة - تماما كما أديل من بربر إلى عطبرة ومن سواكن إلى بور سودان ، وكوستى بهذا ملقى مواصلات نهرية وحديدية : عقدة السكك الحديدية بين غرب السودان وشرقه ، وميناء نهرية تمثل رأس الملاحة فى النيل الأبيض جنوبا إلى أعالى النيل . ولهذا فهى الآن أكبر مدينة على النيل الرئيسى ابتداء من المثلثة (٢٢,٧٠٠) .

وبعدها لا نجد إلا عدة حلات صغيرة مثل الجبلين والرنك على الضفة اليمنى ثم الثنائى ميلوت وكاكا ثم كودوك التى كانت تعرف بفاشودة فى القرن الماضى والتى ارتبط ذكرها بالحادثة الاستعمارية المشهورة . أما الملكال فهى المدينة الكبيرة الوحيدة فى هذا القطاع ، وهى تقع على الابيض عند ملقى السوباط على حافة منخفضة على الضفة اليمنى تعطى موضعا يكفى بالكاد للمدينة ومطارها ولكنه

(1) Id, p. 199' Hodgkin, p.137.

يحميها من الفيضان . أما موقعها فمتوسط فى مديرية أعالى النيل التى هى عاصمتها ، فتتصل بسهولة نسبية بطريق السيارات شمالا فى الفصل الجاف وبالملاحة النهرية شمالا وجنوبا فى الفصل المطير ، ولكن المدينة فى النهاية لا تزيد عن ٩٧٠٠ نسمة لأن الشلوك - وكانت عاصمتهم التاريخية - لا يتخلون بسهولة عن حياة الرعى أو يقبلون على التمدين (١) .

النيل الأزرق

إذ نترك الأبيض لا نكاد نلقى فى قلب الجزيرة إلا المنافل حتى نصل الأزرق وفيه نجد - حتى باستبعاد المثلثة - أغنى مجرى نهرى فى السودان بالمدن وأكثفها بالسكان ، ويكفى أن حول هذا العمود الفقرى قامت دولة الفونج أقوى الممالك السودانية قبل العصر الحديثه ، ورغم أن بعضا من المدن كان كبيراً فى القرن الماضى مثل سنجا والرصيرص قبل السكة الحديد وقطن الجزيرة ، فإن أغلبها بدأ من قرى صغيرة ونما مع مشروع الجزيرة وعليه . ومع ذلك فإن الرصيد المدني هو أقل من أن يتناسب بعامة مع ثروة المشروع ، وهذا يرجع إلى صرامة نظام الشركة

(1) Id., pp.104,244.

الاقتصادية والدورة الزراعية الذى لا يترك فرصا أو إمكانيات مادية كبيرة للفلاحين (١) رغم أنه يمنع قيام إقطاع زراعى أو ملكية غيابية ، وأغلب المدن تقع على الضفة اليسرى التى يتبعها أيضا الخط الحديدى، ولكنها على الضفتين ترتبط أساسا بنطاق معين من التربة هى أراضى Kerrib وهى شريط من الصلصال يتلو شطوط النهر العالية ويعانى من التعرية التى تركته غير صالح للزراعة ، ولكنه ببعده عن مستنقعات ورطوبة النهر المباشرة من ناحية وجودة الصرف فيه من ناحية أخرى يمثل النطاق الأمثل للسكنى والمدن (٢) . كذلك يلاحظ أن المدن تقل وتتضاءل وتتباعد فى الجزء الأعلى من النهر لا لعامل طبيعى من نقص فى الماء أو غيره وإنما فقط لأننا نقترب من حدود الحبشة التى كانت تقليديا من مناطق لاضطراب وقلة الأمن .

أما عن سلسلة المدن نفسها فتبدأ بالكاملين (٤٣٠٠ نسمة) ثم الحصاحيصا (٦٦٠) التى تواجه رفاعة (٩١٠٠) ، ثم المسلمية (٢١٠٠) ، وكلها مراكز إدارية محلية ، ثم نصل إلى واد مدنى كبرى مدن الجزيرة (٥٠ ألفا) وعاصمة مديرية النيل الأزرق ويجانبها كشبه ضاحية بركات المركز الرئيسى لإدارة المشروع . وواد مدنى مدينة ملقى : عندها يصب

(1) Id., p.207.
(2) Id. pp.206,189-190.

الرهد فى الأزرق ، وبعد الحاج عبد الله نصل إلى سنار (٨١٠٠) عاصمة الفونج التاريخية وعقد المواصلات الحديدية الحديثة حيث يلتقى خط الأزرق بخط الشرق والغرب . وإلى الجنوب قليلا نشأت حلة ضخمة من الغربيين Westerners الذين يعملون في الجزيرة هى مايورنو Maiurno (١٤ ألفا) ولكنها قرية أكثر منها مدينة (١) . وغير بعيد تقوم السوكى (٧٤٠٠) أما سانجا فهى من المدن القديمة الهامة والكبيرة نسبيا حاليا (٩٤٠٠) ، وليس بعدها مدينة هامة على الازرق إلا الرصيرص (٤٠٠٠) بعيدا إلى الجنوب ولكن أيضا بعيداً عن الحدود وأسفل مندفعات دمازين . وتمتاز الرصيرص بأنها الآن نهاية سكة حديد الأزرق . أما فما كاو فازوغلى وكرموك (١٦٠٠) من مدن الحدود القديمة التى لعبت دورا فى تجارة الرقيق فأهميتها الآن محدودة ، وكلها مدن بيدومونتية بوضوح ، وأخيرا وقبل أن نترك الأزرق ينبغي أن نلاحظ كيف يخلو رافده الدندر والرهد من أية مدن هامة عدا المفازة على الرهد التى كانت ولا تزال متجرا للبطانة وسوقا للماشية والحبوب ومحط على الطريق إلى الشرق رغم أن الخط الحديدى قد تخطاها وأختار بدلا منها الحواتة (٤٠٠٠) إلى الشمال قليلا والتى تحولت من قرية إلى معبر للسكة الحديدية .

العطبرة

أما إلى الشرق من الرهد حتى العطبرة فالبطانة شبه الصحراوية

---

(1) P.105.

فقيرة سكانا ومدنا لعدم وجود موارد مياه دائمة ولا يذكر منها إلا أبو دليج في الشمال وقلع النحل (٣٠٠٠) في الوسط وهي تدين بوجودها إلى مجموعة التلال التي تقوم عليها وتستمد ماءها منها ، وكذلك إلى الشرق القضارف التي تقوم على الطرف الشمالي لحافة بازلتية هامة هي حافة القضارف التي تبرز من الكتلة الحبشية ، والمدينة تدين بقيامها إلى عدة آبار مضمونة ، وقد نمت إلى سوق هامة ومدينة قلعة وحامية وبلغت الآن ١٧,٥٠٠ نسمة وبدأت تتجاوز إمكانياتها المائية .

أما العطبرة نفسه فرغم أنه يمتاز بنفس النظام النهرى كالأزرق ، فإنه يختلف عنه تماما في العمران ، فهو أقل الأنهار الثلاثة الكبرى هنا سكانا ومدنا . فباستثناء العطبرة على مصبه في النيل لا نجد إلا بضع حلات قليلة متباعدة أقرب في مجموعها إلى القرى مثل قوز رجب في الشمال وخشم القربة في الوسط والشوك (٢١٠٠) عند ملقى ستيت بالعطبرة بينما في الجنوب على الحدود تماما تقترب القلابات من مجرى النهر لكن دون أن تقع عليه تماما ، وسيلاحظ على هذه الحلات كيف تعبر على الترتيب عن طبيعة اللاندسكيب والموقع على طول مجرى النهر ، فقوز رجب تدل على الوسط الرملي السائد في البطانة ، وخشم القربة هي نموذج لحلات «فم الماء boca del agua » الشهيرة على مخارج الأنهار من المرتفعات إلى السهول ، بينما تمثل القلابات نقطة من خط مدن البيدمونت على ضلوع الكتلة الحبشية .

نيل السد

خط السوباط - بحر الغزال - بحر العرب خط تقسيم ميسور من حيث المدن كما هو من حيث نواحي أخرى كثيرة في جغرافية السودان، والمثلث الجنوبي الذى ينحصر بينه وبين الحدود يمكن أن نسميه من قبيل التأكيد «نيل السد» ، رغم أن السد لا يستوعبه كله وإنما يحتل قلبه فقط . والمنطقة في مجموعها هي «أرض الأنهار (١)» ووسط اسفنجي بامتياز . وإذا كانت قلعة الحبشة المجاورة هي أعلى قصر من «قصور الماء» في افريقيا ، فإن السد أخطر «تيه من الماء» Labyrinth فيها . والحقيقة الهيدرولوجية هنا تحكم كل ما عداها من الحقائق الطبيعية . والبشرية . وإذا كانت الهيدرولوجيا تؤلف شبكة معقدة كثيفة زئبقية ، فإن العمران أبعد ما يكون عن صفة الشبكية ، ويقتصر على تراب شتيت متطاير من «رحل المستنقعات» معلق أساسا وكقاعدة على الرقع «والجزر» المرتفعة نسبيا عن مستوى المستنقعات، أما الاستقرار المدني فأقل من نادر، ولا يزيد متوسطه في المديريات الثلاث التي تكون المنطقة ـ أعالي النيل، بحر الغزال، الاستوائية ـ عن ٠,٥٪ من مجموع السكان «٢» وهو بعد شنوذ طارىء ، لم تلق بنوره إلا حديثا في مدن صغيرة أو قزمية متباعدة منعزلة ، أكثر سكانها ليسوا من

---

(١) محمد عوض محمد .نهر النيل . القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٨ .
"2" barbour , P. 104

الأهالى المحليين بقدر ما هم من التجار و الموظفين والإداريين من الشمال الآن ومن الأوربيين حتى قريب. المدينة هنا باختصار نبت جديد لا يكاد يجد مكانه في هذه البيئة المائية البدائية ويوشك أن يختنق وسط نبت السد الطبيعي.

ونحن لا نستطيع أن نتكلم عن مدن بمعنى الكلمة وإنما عن براعم مدن إن لم يكن عن بذور مدن فى أغلب الحالات، فكلها لازالت «محطات» خطرة فى جبهة ريادة. ولعل أهم جانب فيها ليس وظائفها أو أحجامها ولكن مواقعها. ففى هذه الظروف الطبيعية الطاردة الصعبة يتحتم انتخاب مواقع تستفيد من المجارى المائية باعتبارها خطوط المقاومة الدنيا وشرايين المواصلات الوحيدة فى آجام بل غابات البردى. ولكن فى نفس الوقت ينبغي أن تكون مواضعها فى حمى من العنصر الطبيعى الحطم ـ الماء. ولهذا نجد أن هناك عدة خطوط محددة من المدن وأشباه المدن فى المنطقة يمكن أن نجمعها فى نمطين: حلقة مثلثة داخلية تطوق قلب السد وبطنه فتحف به دون أن تدخل إليه، وخط خارجى أطول أبعادا مركب على شكل رقم ٧ يحيط بالحلقة الداخلية من الخارج على طول الحدود.

فالحلقة الداخلية ترتبط بهوامش قلب السد من ناحية وآخر أقدام الهضبة الجنوبية من ناحية أخرى. أى أنها «موان مستنقعية» (١) تقع

---

(١) عبد العزيز كامل، المرجع المذكور ص ١١

على جبهة الالتحام بين الأرض الهشة الرطبة المنخفضة المغلقة وبين الأرض الصلبة الجافة العالية المكشوفة التى توازى الحدود وتمتد بطولها تحت اسم هضبة الحجر الحديدى ironstone plateau وبهذا يمكن أن تعتمد على المجارى السفلى العريضة من شبكة الأنهار فى الاتصال بالشمال، وفي الوقت نفسه تقع بمنأى عن الجوانب السالبة فى السد. وداخل هذه الحلقة فراغ مدنى تقريبا إلا من أدوك على بحر الجبل كما لو فى «عين» السد، ولنتبع هذه الحلقة من الشمال بعد الملكال.

فثمة أتار Atar قبل مصب السوباط بقليل ثم تونجا قبل مصب الزراف على البر الشمالى بينما تتوغل فنجك جنوبا على الزراف. وبعد بحيرة نو نجد Bentiu على بحر الغزال ووانج كاى Wang kai (غابات العرب) عند اتصاله ببحر العرب، بينما تتقدم مشرع الرق إلى الداخل كثيرا لتحدد نهاية الملاحة المنتظمة حين تتعذر مواصلة الرحلة فى المجرى الأعلى إلى واو. وهى بهذا تعد ميناء خارجية out-pcrt لواو.وليس على بحر العرب ـ وقيمته الملاحية طفيفة ـ إلا حلة واحدة تذكر هى Abyei قبل اتصاله بالغزال. بينما على الغزال بعد المشرع هناك جورجيال Gorgial ثم أويل (٢٤٠٠) ثم نياملل Niamlell على اللول.

ثم تنثنى الحلق جنوبا لتمر بواو (٨ آلاف) على ملقى الواو وسويح

Sue ونهاية رحلة البواخر الموسمية والآن نهاية السكة الحديدية الجديدة التى تخترق السد لأول مرة متفرعة من خط غرب السودان، ولاشك أن هذا الخط الحديدى جاء عاملا حاسما فى مستقبل واو، ولنا أن ننتظر لها نموا غير عادى فى هذا النطاق اللا مدنى. هذا ومن واو يتجه خط المدن بانتظام نحو الجنوب الشرقى ليضم تونج (٢٠٠٠) على التونج، ثم رومبيك (٣٠٠٠) قرب نهر النعام ثم بيرول (١٩٠٠) قرب الياى، وبعدها نصل إلى بور وجونجلى وغابة شمبى، الأولين قبل اجتماع الجبل والزراف والأخيرة عنده، واختيار جونجلى لتكون بداية مشروع قناة جونجلى لتفادى السد يحدد مباشرة طرف السد نحو الجنوب، ويمكننا أن نتم دورتنا مع الحلقة الداخلية بعد هذا بوات Waat التى تقوم منعزلة فى السهل المترامى بين السوباط والجبل على بقعة عالية نسبيا ترفعها فوق مستوى المستنقعات. ومن وات نتجه إلى أبوونج على السوباط الأدنى حيث تغلق الدائرة.

خط تقسيم المياه

أما الخط الخارجى الذى يواكب حدود السودان تقريبا على شكل ٧ مفتوحة فيمثل أساسا ضلوع هضبة الحجر الحديدى ولكن له ملحق خارجى على الحدود مباشرة. فالأول يوازى بعامة قاعدة الحلقة الداخلية. ويمتاز ببعده عن مستنقعات السد الحقيقية وبارتفاعه الذى

يلطف من مناخه نوعا وبتربته الجيدة التى تصلح للطرق البرية وبكثافته النباتية المعقولة التى تفتحه إلى حد ما للعالم الخارجى. هكذا يبدأ الخط بحفرة النحاس على أعلى بحر العرب وبجوارها غير بعيد كافيا كنجى، ثم على اللول نجد راجا Rega تليها ديم الزبير. ثم بعد رحلة طويلة نلقى أمادى على منتصف الياى. وهى تؤدى بنا مباشرة إلى القطاع الأعلى من بحر الجبل حيث تتقارب كوكبة من المدن النهرية بصورة نادرة فى الجنوب . فثمة منجلا فى الشمال تليها جنوبا لادو وغندكرو ثم جوبا والرجاف شمال شلالات بدن. ومن المهم أن نلاحظ أنه فى خلال المائة سنة الأخيرة تذبذبت العاصمة الإدارية الإستوائية كثيرا بين منجلا ولادو وغندكرو والرجاف ودوفيلة لأسباب طبيعية أو عسكرية أو سياسية، ولكن أهم أن ندرك أن كل هذه ليست إلا مواضع محلية مختلفة فى إطار موقع إقليمى واحد أساسا.

وجوبا (١٠,٦٠٠) هى العاصمة الإدارية اللاستوائية منذ الثلاثينات وتمثل رأس ملاحة بحر الجبل وتمتاز موضعا بأنها تقع على لسان ناتىء مرتفع يحميها من الفيضان والرطوبة، وموقعا بأنها ملقى الطريق النهرى الشريانى مع الشمال من كوستى بالطرق البرية الوحيدة التى تتبع أطراف هضبة الحجر الحديدى حتى أويل غربا، على أنها كميناء نهرية تقاسى من أن البواخر لا تستطيع الوصول إليها فى التحاريق

وإنما إلى منجلا فيلزم إعادة التفريغ والشحن منها إلى جوبا. وأمام جوبا مستقبل لبعض النمو، ولو أن البارى القبيلة المحيطة لا تميل كثيرا إلى الاستقرار فيها (١). وإذ نعبر بحر الجبل شرقا يستمر الخط المدنى ممثلا فى توريت (٢٣٠٠) شمال منحدرات الايماتونج ثم كابويتا شمال منحدرات الديدنجا، ويمكننا أن نتتبع الخط بعد هذا شمالا خلال بيبور بوست على ملقى البيبور والفيفينو، ثم خلال أكوبو بوست على ملقى البيبور والبارو، ثم أخيرا جمبيلا على البارو عند أقدام هضبة الحبشة إذ تلتقى بالسهل وداخل حدود أثيوبيا فعلا حيث احتفظ السودان بهذا الموقع منذ ١٩٠٢ حتى ١٩٥٧ كمحطة بوليس وجمارك (٢).

أما عن خط الحدود الملحق فهو أشد التصاقا بقمم هضبة الحجر الحديدى منه بضلوعها، ولذلك فهو فى الواقع خط تقسيم المياه الفعلى بين النيل والكونغو أو هو كما يمكن أن ننسبه بشريا خط الزاندى ولكنه لا يمثل إلا قطاعا صغير الامتداد، وبفضل الموقع التبادلى على الحدود إلى جانب المزايا الطبيعية النسبية تطور هذا الإقليم اقتصاديا فى الزراعة ثم الصناعة على أساس القطن فى مشروع الزاندى، وأصبح هناك خط طرق جيد يختطه شرقا بغرب. ولهذا نمت فيه عدة مراكز مدنية حديثة بعضها مخطط تخطيطا هندسيا وبلغ حجما يعد من أكبر

"1" Babour, pp. 262 - 3
"2" Barbour,p. 245

ما فى الجنوب باستثناء العواصم الإدارية . ثمة منها طمبورة وموبا، ولكن الأهمية كل الأهمية الآن هى للمدينتين الجديدتين يامبيو (٣٩٠٠) ونزارا (٣٠٠٠) حيث تعد الأخيرة مصنعا حديثا للغزل والنسيج. ثم تلى مريدى (٩٠٠) على أعلى الجبل Gel بينما تحتل ياى (٨٠٠) أعلى الياى. وتسلمنا الأخيرة إلى كاجوكاجى قرب بحر الجبل ثم إلى نيمولى على ثنية مشهورة عليه أمام شلالات فولا وإزاء دوفيلة خارج الحدود، وبين نيمولى وجوباتشل الشلالات الملاحة فيستعاض عنها بطريق السيارات.

محور السفانا

الثلث الأوسط من السودان هو محور السفانا الذى يمثل قطاعا من نطاق هائل عبر القارة بين السنغال والبحر الأحمر، وهو دهليز قارى على مقياس ضخم Durchgangsland يمثل خط الحركة الرئيسى فى النصف الشمالى من إفريقيا حصورا بين الصحراء والغابة، وهو أيضا نطاق السكنى الأساسى، حيث يمكن المطر الفصلى للرعى كقاعدة وللزراعة كعنصر مساعد وفى السودان لا يلزم هذا النطاق الاتجاه الشرقى الغربى الصارم بل ينحرف فى شرق السودان إلى الشمال الشرقى تحت توجيه كتلة الحبشة الجزرية. وهذا الميل يخلق فروقا ثانوية بين قطاعاته فى غرب السودان وفى شرقه، ففى غربه ينقسم أساسا إلى

نطاقين عرضيين: شبه صحراء في الشمال ورمال «القوز» في الجنوب. أما في شرقه فتسوده شبه الصحراء وحدها وهكذا يبدأ قطاع السفانا في شرق السودان جنوبا حيث ينتهي قطاعه في غرب السودان شمالا، ومعنى هذا ابتداء أن غرب السودان أغنى بالعمران من شرقه . أما بين الشرق والغرب فإن محور السفانا يتخلل حور النيل نظريا في نسيج متشابك تشابك السدى واللحمة، ولكن عمليا يزيغ المحور الأقوى محور النيل المحور الأضعف محور السفانا، وهكذا يتقطع النطاق إلى جناحين بلا قلب ـ أو بقلب «صناعي». وكلا الجناحين يمتاز بإطار جبلي في أقصى الشرق في جبال الأحمر وفي أقصى الغرب في جبل مرة، وبقاعدة جبلية أخرى على حدود الحبشة في الشرق وجبال النوبا في الغرب. ولهذا كله فبينما تتعدد خطوط المدن الفرضية في غرب السودان نجدها تقل كثيرا في شرقه، ومن المفيد لنا من الناحية العملية أن ندرس كل قطاع على حدة.

غرب السودان

تترامى السفانا بين عرضي ١٥ ، ١٠ شمالا، أي بين عرض الخرطوم وخط بحر الغزال ـ بحر العرب. والنصف الشمالي منها ـ أو أقل قليلا ـ هو سفانا شبه صحراوية يسودها الرعي والترحل، وهي أفقر عمراناً ونادرة المدن، أما النصف الجنوبي أو يزيد قليلا فهو

السفانا الحقيقية الأغنى مطرا ونباتا والتى يختطها نطاق السكان الرئيسى وتنقطها أغلب المراكز المدنية، ولما كانت القيزان - أى التكوينات والكثبان الرملية - تغطى الجزء الأكبر من النطاق الجنوبى فهو نطاق «القوز». وسواء فى شبه الصحراء أو القوز فإن الاستقرار يتوقف على الماء الضابط الأول للعمران، وكل نقط الاستقرار وخطوط الحركة ترتبط «بالنقط الرطبة « Wet Point settlement» ولمصادر الماء أشكال أربعة هى الآبار التى تعتمد على الماء الباطنى والتى تزيد كلما اقترب المستوى من السطح ولذا تسود فى شمال ووسط القوز وخاصة فى بطون الأودية والخيران (الأخوار). ثمة بعد هذا «الحفير» أو الفولة(١) وهى الصهاريج السطحية التى تحفر لتلقى واختزان الأمطار، وهى تكثر فى جنوب القوز حيث المطر أكثر ولكن خاصة حيث يغطى السطح طبقة صلصالية غير منفذة كما فى جبال النوبا. وهناك السدود التى تقام على الأودية حيث الأرض صلبة كما فى هوامش كتلة جبل مرة، وأخيرا هناك شجرة التبلدى وهى خزان حى للماء، ولو أن قيمته كضابط للسكنى قد قلت نوعا ما أخيرا. وكقاعدة عامة كلما زادت هذه المصادر غنى وعددا زاد إمكانيات التحميل بالسكان والتركيز فى مدن (٢). ويترتب على هذا أن القوز هو الأكثف سكانا نسبيا، وبخاصة وسطه، أما شبه الصحراء وأطراف القوز الجنوبية على مشارف إقليم السدود فأفقر عمرانا، كما أن كردفان أغنى سكانا ومدنا من دار فور

"1" Hodgkin, Sudan Geog, p. 32.
"2" hodgkin , p. 34.

بصورة حاسمة، وتبلغ نسبة المدنية فيهما على الترتيب ٥ر٦٪ ، ٤٪ .

وفى داخل هذا الإطار تلعب المواصلات دورا آخر، فمنطقة القوز صعبة المواصلات للغاية ولهذا كانت الرحلة بين كردفان ودار فور شاقة مثبطة، وإذا كان هذا يفسر عزلة وانطوائية دار فور فإنه يفسر أيضا ذلك الانقطاع العمرانى الواضح فى نطاق السفانا بين قطبى كردفان ودار فور، وعدا هذا فإنه لما كانت المواصلات قبل العصر الحديث هى المواصلات البرية التى تعتمد على الجمل أساسا ولما كانت البيئة الشبه صحراوية هى الوسط الطبيعى لهذا الوسيط. فإن أهم طرق الحركة شرقا بغرب كانت تجنح إلى أطراف القوز الشمالية حيث يمكن لثروة القوز الاقتصادية أن تستدق دون أن تبتعد كثيرا عن بيئة الجمل المثلى، وتلك حقيقة فى ذاتها مهمة لأنها ستفسر متناقضة تركيز المدن المهمة فى الجانب الأفقر من القوز بينما فى القوز الجنوبى حيث يزداد المطر تتضاءل الأحجام بالنسبة للشمال (١). إلا أن هذا مد الخط الحديدى من الفاشر إلى نيالا حديثا ثم مده بوصلة إلى واو أخيرا ليعطينا أول خط عبر صحراوى transsaharan حقيقى فى إفريقيا، سيقلب هذه الأوضاع فى المستقبل، ويبشر جنوب القوز بتنمية اقتصادية وعمرانية مهمة.

وفى ضوء هذه الضوابط والأنماط العامة مجتمعة يمكن أن نتعرف

"1" Barbour,p. 105

على عدد من خطوط المدن نتتابع من الشمال إلي الجنوب، فأولها وحيد في نطاق شبه الصحراء ولهذا فهو من أفقر الخطوط ولا يضم أحجاما مهمة وإنما أغلبه «محطات» صحراوية. وفيه تلتئم كتم على الهوامش الشمالية الشرقية لكتلة جبل مرة كنقطة بيدمونتية بسوديرى (١٨٠٠) بأم سيالة بعدة حلات ثانوية أخرى. ثم يلى أول خط فى القوز على حواف شبه الصحراء، ليجمع بين الجنينة والقبقبية والفاشر وأم كدادة وبارة، فأما الجنينة (١٢ ألفا) فبوابة السودان الغربية ونافذته على السودان الأوسط (الفرنسى سابقا) وهى تكاد تقع على خط تقسيم التجارة بين بورسودان وبورت هاركرت فى نيجيريا. أما الكبكبية فتقع فى الوادى المسمى بهذا الاسم والذى يربطها بالجنينة. أما الفاشر فتضع قدما فى القوز وقدما على الجبل ـ كتلة مرة: هى ميناء صحراوية ومدينة بيدمونتية. أما موضعها نفسه فتقوم على حافتين رمليتين يفصلهما واد مزروع، والفاشر عاصمة تاريخية لملكة دار فور التى شهدت مجداً كبيرا حتى بداية العصر الحديث، ولكنها الآن تعانى من عزلتها فى موقعها الداخلى، فهى أكبر أبعد مدينة عن كل سواحل افريقيا شرقا أو شمالا أو جنوبا، وحتى قريب كانت الفاشر تلعب دور المتجر entrepôt الوسيط بين كل دار فور والعالم الخارجى فإليها تأتى كل واردات دارفور وتوزع منها وفيها تجمع كل صادراتها ومنها تشحن. والعلاقة الضرورية بينها وبين الأبيض يعاكسها ٤٠٠ ميل من رحلة «مخيفة» عبر

القوز، ولا تزيد المدينة اليوم عن ٢٦ ألفا أي تاسعة مدن السودان، وربما كانت أكبر من هذا في الماضي، وربما لن تزيد كثيرا في المستقبل لأن خطا حديديا أنشيء إلى الجنوب إلى نيالا سيحدث لا شك أسرا نقليا على حساب الفاشر. وككل مدن غرب السودان يكثر الغرباء في الفاشر من «الجلابة» العرب والشوام والفزانيين، أما إذا انتقلنا إلى أم كداذة فلا نجد إلا مجرد نقطة مرحلة على الطريق، بينما تدين بارا (٤٩٠٠) بأهميتها النسبية إلى قرب مستوى الماء الباطن من السطح (٣ أمتار وأقل) في المنطقة المحلية المجاورة التي تعرف باسم (الخيران) (١). مما يسهل حفر الآبار وتعددها، ويمكن أن نجد في الدويم همزة الوصل بين هذا الخط وبين خط النيل الأبيض.

الخط التالي هو الخط الفقري في القوز وفي كل غرب السودان، وهو أقرب خطوطه إلى أن يتفق مع قوس مدن لا بلاش الشهير بين الصحراء والسفانا والاستبس في العالم القديم. وهو يجمع بين الزالنجي والنهود وخوي والأبيض والرهد وأم روابة وتندلتي ويلتحم بالمحور النيلي عند كوستي ؛ فزالنجي (٢٣٠٠) على رافد لوادي عزوم تعد من مراكز غرب دار فور المهمة. وبعدها يمكن أن نضيف إلي الخط دبيس Dibbis جنوب جبل مرة وسوني Suni شرقه. ولكن رحلة طويلة تنتظرنا بين دارفور وكردفان حتى نصل إلى النهود التي تحدد بداية أهم قطاع

"1" Barbour , p. 162 . 3

اقتصادى وعمرانى فى غرب السودان، فالمحور النهود ـ الأبيض ـ أم روابة هو أغنى مناطق الهشب ـ شجرة الصمغ العربى ـ كما أنه أكثف خط سكانى فى المنطقة كلها، عدا أن سكة حديد كوستى ـ الأبيض تتبعه وتغذيه، والنهود تستمد اسمها من نتوءات قوية فى اللاندسكيب من الحجر الرملى النوبى وسط القوز، وتعد من المدن المهمة (١٦,٥٠٠)، ولكن من المحتمل أن مد الخط الحديدى إلى نيالا فى القوز الجنوبى سيؤثر عليها كما سيؤثر على الفاشر. أما خوى فتستمد أهميتها من أنها تتوسط غابة من التبلدى جعلتها غاصة بأبراج الماء الحية (١).

أما الأبيض عاصمة كردفان فكبرى مدن غرب السودان وثالثة مدن السودان عامة (٥٢ ألفا)، وترجع أهميتها موضعيا إلى كثرة موارد المياه فيها وحولها حيث أنها تقع فى منخفض ضحل تجتمع المياه الباطنية فيه، بل إن البدو والريفيين فى الجيزة يأتون المدينة فى الفصل الجاف طلبا للماء وللعشب حتى إن المدينة بدأت تشعر بالقلق من ناحية نمو السكان بالنسبة لموارد المياه ومن ناحية تعرية السفانا الخضراء المحيطة مما دعا إلى تخطيط نطاق أخضر urban perimeter حولها سمكه ٣ كم يحرم فيه الرعى ويحمى المدينة من غبار الرياح أما موقعاً فالأبيض قلب إقليم الهشاب وقطب كثافة السكان ورأس الخط الحديدى إلى كوستى ـ والآن إلى نيالا. ولهذا فهى تحتل مكانة احتكارية شديدة تسود بها كل منطقة غرب السودان بشكل طاغ، فهى بحكم أنها نهاية

"1"Barbour, p. 158.

السكة الحديد ـ أو كانت ولضرورة تغيير وسيلة النقل عندها trans-shipment تجمع كل تجارة دارفور وغرب القوز وشمال جبال النوبا.
وهى أعظم سوق فى العالم لتجارة الصمغ العربى، ولذلك تصب فيها كل حركة تجميعه. ثم هى سوق مهمة للماشية تصدر منا مئات الآلاف سنويا، هى إذن مركز لتجارة منوعة: الجمال من الشمال، الحبوب والصمغ من الشرق والغرب، القطن والماشية من الجنوب، ورغم هذا فإن امتداد الخط الحديدى أخيرا إلى نيالا قد يقلل من سيطرة الأبيض الطاغية وقد لا يكون هذا فى ذاته شيئا سيئا كما قد يبدو لأول وهلة (١). أما بعد الأبيض فهناك الرهد (٦٧٠٠) ثم أم روابة (٧٨٠٠) وتندلتى (٧٥٠٠) وكلها مراكز متوسطة الحجم تشارك فى الوقـــوع على خط الكثـــاف العظمى وخط الهـشـاب الرئيـسـى وخط الســكة الحديدية الوحيد.

إلى الجنوب من الخط السابق يقع خط رابع أقل أهمية يبدأ بنيالا ويمر بدلنج ودلامى ورشاد . فأما نيالا فتحتل موقعا أشبه بموقع الفاشر عند أقدام كتلة مرة حيث تلتقى بالقوز ـ وإنما ناحية الجنوب، وهى ثانية مدن دار فور حجما (١٢,٣٠٠) ، وقد أصبحت الآن ومنذ ١٩٥٩ نهاية الخط الحديدى الذى يبدأ من كوستى والذي يجرى أغلبه الآن فى جنوب القوز أى فى القطاع الأغنى منه مطرا وإمكانات إنتاجية ولهذا ينتظر نيالا وكل مدن الخط مستقبل جديد . أما ابتداء من دلنج فنحن

"I 'Barbour, pp. 168 - 9 Hodkgin,p.35

ندخل منطقة جبال النوبا . وفيها لا تعد المدن نبتا انبثاقيا من الداخل بل فرضا من الخارج على وسط ريفى غير مدني بالطبع . كما أن أغلب هذه المدن لا تقوم على السهول الصلصالية بين كتل الجبال الجزرية لعدم وفرة موارد المياه الدائمة فيها ، ولكنها ترتبط بأقدام تلك الكتل خاصة الأودية التى تنحدر عليها . هكذا نجد ديلنج (٥٦٠٠) المدخل الغربى للمنطقة تقع على خور هام يصرف شمال الجبال هو خور أبو حبل الذى يسهل أيضاً اتصالها بالرهد شمالا . أما دلامى فتحتل موقعا وسطا بين ديلنج ورشاد وبين الأبيض وتالودى [١] . ورشاد نفسها (١٧٠٠) تؤدى إلى الرنك على النيل .

الخط الخامس والأخير قليل الأهمية إذ يقترب من أطراف القوز وإقليم السد . وهو يبدأ من تولوس Tulus فى الغرب جنوب نيالا ويمر بالمقلد (٣٧٠٠) ثم بكادوجلى (٤٧٠٠) وهيبان ثم ينفرج جنوبا ليدور حول أقدام جبال النوبا ويضم تالودى (٢٧٠٠) التى تؤدى إلى كاكا وميلوت على النهر .

---

(1) Ibid., PP 173 ff.

شرق السودان

فى هذه المساحة المحدودة بالمقياس السودانى ، يقتصر القطاع الفعال على شريحة فى الجنوب بطول الحدود الأثيوبية تنتهى إلى الجبهة البحرية فى الشمال الشرقى ، والماء هنا أيضا هو الضابط المسيطر على توزيع وتوقيع المراكز المدنية . وتمتاز مديرية كسلا بنسبة مدنية من أعلى ما فى السودان : ١٥,٨ ٪ أى ضعف المعدل القومى ، والسبب هو تأثير عدد قليل من المدن الكبيرة . وتتداخل خطوط المدن هنا مع المحور النيلى بصورة أقوى مما هى الحال فى غرب السودان . وليس بالمنطقة إلا خطان مدنيان خط جنوبى من الدالات الداخلية البيدمونتية التى تنقط أقدام الهضبة الحبشية ، وخط شمالى شبه صحراوى من نقط المراحل بين النيل والبحر الأحمر .

فأما الخط الجنوبى فيمكن أن نتتبعه فى الحقيقة منذ القلابات والقضارف ولكنه يتمثل فى كسلا وأرومل وطوكر وترنكيتات . وبقدر ما يدين الخط بوجوده للسفانا كبيئة إيكولوجية يدين لخط السكة الحديدية التى غذته وبعثته فى كثير من نقطه (١) . فأما كسلا فتقع على رأس دلتا القاش ، ووظيفتها الأساسية أنها مدينة حامية على الحدود الإرترية

(1) Hodgkin, p.63.

المشاغبة . والذى يؤكد الوظيفة الحربية فيها وفرة موارد المياه من الجاش والموضع الحصين الذى يتمثل فى النهر وجبل كسلا المتحدر ، وهى كذلك عاصمة مديرية كسلا والسوق الرئيسية فيها بالضرورة كما أنه محطة هامة على الطريق الحديدى وكانت تخرج منها وصلة عبر الحدود إلى ارتريا مدت الآن إلى البحر مارة بأسمرة إلى مصوع . ولكنها تعانى من العواصف الرملية الهبباى حتى كانت الإدارة إلى قريب تنتقل منها صيفا إلى سنكات على تلال البحر الأحمر شمالا . والغريب أن نمو ورخاء كسلا المدينة لا يرتبط كثيرا بزراعة الدلتا ، أما السكان فخلط يجمع بين البجا المحليين والأحباش واليمنيين ... إلخ . وتبلغ كسلا الآن ٤٠,٦٠٠ بما يجعلها سادسة مدن السودان ، وهى أخيرا معقل الختمية الدينى الرئيسى .

وقد نشأت مدينة حديثة على الجانب الغربى من دلتا الجاش تمر بها السكة الحديدية أيضا هى أروما (٣٥٠٠) . وإذا كان اللاندسكيب الريفى هنا بزراعة «السواقى» والرى الدائم يشبه اللاندسكيب فى مصر الوسطى وإذا كان جبل كسلا يذكر بهضبتى النيل كما يقول باربر (١)، فيمكن أن نضيف أن موقع كل من كسلا وأروما بالنسبة لدلتا الجاش هو إلى حد ما كموقع القاهرة والاسكندرية بالنسبة للدلتا فى مصر .

---

(1) P. 224; Hodgkin, pp.63-5.

أما طوكر على دلتا خور بركة فتقع على الساحل في شقة واسعة منه ، ولكنها مقيدة فى إمكانياتها ونموها بدلتاها الزئبقية التى تتأرجح من جانب إلى جانب كل سنة فتجعل إنتاج القطن - وبالتالى كيان المدينة - غير مضمون . والمدينة نفسها تبلغ ١٦,٨٠٠ ، ولكنها تبدو شيئاً ضئيلاً مفلطحا يعاني من زحف الكثبان الرملية ومن العواصف الرملية . وأما الموانى الثانوية المحيطة بها مثل ترنكيتات وعقيق فأكثر ضآلة ، وقد كان هناك خط حديدى بين طوكر وترنكيتات إلا أنه نزع لعدم اقتصاديته . وقبل أن نغادر خط الجنوب إلى خط الشمال ، يمكن أن نضيف بينهما خطا ثانويا للغاية يجمع ما بين أبو دليج فى شمال البطانة وقوز رجب على العطبرة ودرودب على الخط الحديدى كسلا - حيا .

أما الخط الشمالى الذى يجرى وسط شبه الصحراء فيمكن أن نتتبعه ابتداء من عطبرة إلى مسمار وحيا وسنكات وجبيت واركويت ثم سواكن وبور سودان . وإذا كانت مشكلة المياه والغذاء فى الخط الجنوبى محلولة نوعا ، فإنها هنا معقدة غالبا . وليست مسمار إلا نقطة مرحلة على الخط الحديدى ، بينما حيا وصلة هامة بين خطى كسلا وعطبرة تقع مباشرة قبل أن نرقى جبال البحر الأحمر . وعلى متن السلسلة تقع ثلاثية سنكات وجبيت واركويت . فأما سنكات المركز الإدارى لتلال البحر الأحمر فتحتل موقعا استراتيجيا هاما على أسهل

طريق من النيل إلى البحر . وموارد المياه جيدة موفورة ، والمدينة تبلغ ٥٢٠٠ نسمة . أما اركويت فكانت تنمى خلال الحرب الأخيرة كمصيف جبلى ، إلا أن ارتفاعها ليس كافيا فهو لا يزيد عن ١٠٠٠ متر ، ولهذا انقطع تيار الموظفين والمصيفين عنها بعد الحرب وسهولة السياحة الخارجية . أما جبيت فمنذ التاريخ المصرى القديم وحتى قريب كانت منجم ذهب مشهور .

أما الثنائي سواكن - بور سودان فهما ميناءا السودان الرئيسيان التى ورثت إحداهما الأخرى فى تتابع له مغزاه . فسواكن الميناء الهامة على الأحمر التى ترجع على الأقل إلى القرن العاشر الميلادى والتى وصفت بأنها منافس خطير للشبونة فى القرن ١٦ ، تحتل موضعا جزرياً يتوسط ذراعا أو خليجا من البحر يصلها عبره باليابس رصيف صناعى . وهذا الموضع الآمن الحصين - معا من قراصنة البحر وغارات البر - يشبه نوعا ما موضع ممبسة على جزيرتها . وقد كانت سواكن ملقى للتجارة ابتداء من الصين حتى البرتغال ، كما كانت ميناء الحج لا لسودان النيل بل لسودان افريقيا برمته ، أما ظهيرها التجارى فكان يترامى حتى دار فور ووادای غربا وواو جنوبا . وكانت سواكن من مدن السودان القليلة التى تفخر بتعدد الطبقات فى مبانيها على غرار «ناطحات سحاب» جنوب البحر الأحمر . وفيما عدا ذلك كانت مدينة

«مصرية روحا ومظهراً» (١) . وقد ظل خليج سواكن صالحا لأغراض الملاحة عبر الشعاب المرجانية الخطيرة التى توازى الساحل والتى تنقطع أمام مياه الوديان والأخوار العذبة العكرة التى لا تصلح لحياة المرجان . ولكن مع الملاحة المحيطية العميقة أصبحت شعاب سواكن خطرا بالغا ، كما أن ميناءها لم يعد كافيا لاستيعابها . ولهذا فمنذ بداية «الاسترداد» تقرر استبدال سواكن بميناء جديدة تخلق من البداية لتكون نافذة السودان البحرية على العالم . من هنا بدأت بور سودان فى ١٩٠٥ على خليج واسع عميق مفتوح من الشعاب المرجانية هو مرسى الشيخ برغوت إلى شمال سواكن بنحو ٤٠ ميلا . ومع مد السكة الحديدية إلى النيل – العطبرة – أخذت بور سودان تنمو بسرعة وبقوة ، وبنفس السرعة والقوة هجرت سواكن هجرا وأصبحت مدينة قائمة ولكنها بلا سكان – «مدينة أشباح» إلا من قلة من الحجاج فى موسم الحج . وكما يقول الصياد كان إنشاء بور سودان «حكما بالإعدام» على سواكن (٢) . ولم يكن يعوق بور سودان فى نموها إلا مشكلة المياه خاصة ، ولو أن الغذاء أيضا لابد أن يجلب من بعيد : اللحم من غرب السودان ، والحبوب من سهول الجزيرة ، والخضر والفاكهة من كسلا . أما الماء فكان أولا «يصنع» بالتكثيف من مياه البحر ، ولكن منذ ١٩٢٥

(١) محمد محمود الصياد . اقتصاديات السودان . القاهرة ١٩٥٧ ص ١٦١ .

(٢) المرجع السابق .

وهو يجلب بالأنابيب من خور أربعات فى تلال الشمال على بعد عدة أميال مما حل أزمة الماء ومكن لبور سودان وحدها بعد السويس على الأحمر من أن تغذى السفن العابرة بالمياه . واشتد النمو . ففى ١٩٣٠ وصلت إلى ٢٠ ألفا ، وهى الآن ٤٧,٥ ألف أو خامسة مدن السودان . والوظيفة الأساسية لبور سودان أنها ميناء السودان الأولى والأخيرة للصادر والوارد فتحتكر ٨٨٪ من التجارة الخارجية . وهذا التركيز الضخم يوحى بتوجيه بحرى مخطط لأغراض سياسية ، من المحقق أنها كانت فصم العلاقة الاقتصادية داخل النيل مع مصر كما رأينا من قبل . على أن نمو بور سودان فى المستقبل رهن بالتنمية الاقتصادية للسودان كله . أما مستقبلها الصناعى فضعيف : فالجفاف والحرارة لن تشجع أو تجتذب الصناعة على الأرجح ، ولا تزيد الصناعات المحلية حاليا عن تجفيف الملح للاستهلاك السودانى والتصدير إلى جانب مشروع مصفاة لخام البترول المستورد تقرر أخيراً لتغطية الاستهلاك المحلى . والمدينة تنفرد بين مدن السودان بمورفولوجيتها التى تمتاز بتعدد الطوابق ومتانة البناء ومواد البناء المرجانية والبيوت المرفوعة على قوائم والفراندات وأكشاك السطوح (١) .

(1) Barbour, pp. 227 et seq.; Hodgkin, pp. 142 ff.

الفصل التاسع

الشام (١)

الملامح العامة

يكرر الشام فى مورفولوجيته العامة صورة المغرب إلى حد بعيد . فكل منهما جزيرة جبلية : جزيرة بين بحر الماء وبحر الرمل ، تتألف من هضبة جبلية من النوع الذى يعرف باسم الهضاب المتغضنة . Corru-gated plateaus وعدا فارق المقياس والحجم والارتفاع ، فهناك فروق أخرى تنعكس على الشبكة المدنية فى الإقليمين فثمة الأخدود الانكسارى الذى يشطر الشام بعمق لا يدانيه انخفاض هضبة الشطوط فى المغرب رغم الصرف الداخلى المشترك بين أجزاء منهما . ثم هناك الوضعية الجغرافية العامة لكل من الإقليمين التى تحكم توزيع المطر فالحياة العضوية . فاتجاه الرياح الأساسية واحد ، ولكن الامتداد العرضى للمغرب يترك الإطار الداخلى للاقليم جافافليل العمران ، بينما المحور الطولى للشام يسمح بتساقط فعمران أكبر على الحافة الداخلية ولكن ربما كان أكثر خطرا الموقع الاقتصادى : فالمغرب وإن كان منطقة

---

(١) المراجع الأساسية فى الشام هى Blanchard, Asie Occidentale, Weulersse, op. cit, Fisher, كرد على وزملاؤه .

اتصال بين المتوسط والسودان إلا أن هذه العلاقة التجارية لا تقارن البتة بموقع الشام الفذ بين المتوسط والموسميات ، بين أوربا وآسيا . فالدور التجارى هنا يكاد يجعلنا نقول إن الشام برمته مدينة تجارية واحدة ، مدينة سوق هائلة بين الشرق والغرب يوشك الريف حولها وفى تضاعيفها ألا يزيد على ضواحيها المترامية وحدائقها المتداخلة . ولهذا فالتقليد المدنى هنا قديم قدم التاريخ ، ويمكن الشام أن يعد نفسه من أقدم وأعرق أجزاء العالم بحياة المدن ، ويمكن لأكثر من مدينة فيه أن تدعى أنها «أم المدن» . ومعنى هذا أن شبكة المدن فى الشام هى نسبيا أكثف وأخطر – كما هى أقدم – منها فى المغرب . وبينما يتضاءل كثيراً وزن وأهمية خط المدن الداخلى فى المغرب بالقياس إلى الخط الساحلى ، نجد الخط الداخلى يناظر بل يناطح الخط الساحلى وقد يرجحه . تلك هى الفروق الجوهرية بين النمط الإقليمى لشبكة المدن فى الشام والمغرب . وفيما عدا هذا فالنمط يظل يتألف كما فى المغرب من عدة خطوط مدن متوازية بدرجة ملحوظة ، ومتناظرة بدرجة أكثر إثارة . فعلى محاور كثيرة فى الإقليم تترابط أكثر من سلسلة من المدن على كل الخطوط ترابطا وظيفيا وتاريخيا تحدده مواقع الفتحات الجبلية التى تتعامد على النظام الجبلى كله . والواقع أن هذه «المدن المترابطة correlated towns » تكاد تكون من «النظائر المدنية» المثالية فى

جغرافية المدن ، وتمثل بلا شك أركان الشبكة ، وبها فى الحقيقة تأخذ الشبكة نمطا تكعيبيا trellised pattern يمنحها سمترية ونظاما بسيطا . إلا أن من الملاحظ أن الشبكة التى تضيق فى الشمال «تتفلطح» فى الجنوب كثيراً مع نمط اللاندسكيب الطبيعى .

والشبكة فى مجموعها تمتاز باستمرارية فريدة خلال العصور . فإذا قامت مدينة ثم زالت الأمة التى أنشأتها فإنها تظل باقية ويندر جداً أن تهجر ، وإذا دمرها عامل طبيعى أو بشرى لم تهمل وتدرس وإنما تقفز إلى الحياة ثانية . والسبب فى هذه الاستمرارية أن مدن الشبكة قد توقعت بعوامل جغرافية قوية ربطت جذورها ربطا لا مفر منه بهذه المواقع . ففى مدن الداخل كان الضبط الجغرافى - فى صورة عامل الماء - صارما ، فالنطاق صحراوى ولا مجال لقيام مدن إلا كواحات . وكل مدن الداخل هى مدن واحات نموذجية ، ويكفى أن نتذكر أن مصدر اسم الشام قد يكون من الشامات - رقع الواحات السوداء المبعثرة التى تبدو على صفحة الرمال كالشامات على الوجه . أما مدن الوسط فتحددت بالمنخفضات المحلية والأودية . وأما مدن الساحل فقد تحررت من ضبط العامل المائى ولكن تحددت بضبط عامل آخر هو الدفاع والضرورة الحربية فمعظمها فى الدرجة الأولى ملاجىء منيعة . وإذا كانت غالبية مدن الداخل ترجع إلى عصر الآراميين ، فإن معظم مدن

الساحل من صنع الفينيقيين . ثم استكمل الرومان فالعرب ملء الشبكة بصورة عامة .

ورغم الاستمرارية العامة للشبكة ، فلم يخل تاريخها الطويل المضطرم من أخطار تهددتها بعامة أو أجزاء منها خاصة . وهذا يفسر تعدد «المدن الأشباح» في المنطقة كالبتراء والمدن التي كانت لها دور وشهرة تاريخية كبيرة بينما لا تزيد اليوم عن آن تكون ظل نفسها قديما – مثل ثلاثية صيدا صور عكا وسط الساحل ورباعية العواصم القديمة أنطاكية وبعلبك والرملة وقيسارية . فثمة خطران رئيسيان يبرزان عبر التاريخ : التدمير نتيجة الزلازل ، والتخريب نتيجة الغزو . فأما الزلازل فلأن منطقة اللفانت عموما منطقة سيسمية . وأما الغزو فلأن المنطقة أساسا طريق وشريان عبوري حيوي بل جسر معلق بين الرافدين وما خلفهما في الشرق من ناحية والنيل وما وراءه في البحر المتوسط من ناحية أخرى . ورغم أن مدن الشام كله قاست من هذين العاملين عامة ، إلا أن هناك تركزاً واضحا لكل منهما في قطاع خاص من المنطقة . فخطر الزلازل كان أشد وأقوى في الشمال ، بينما خطر الغزو استشرى في الجنوب . فالمدن الشمالية الآتية تهدمت مرة أو أكثر بالزلزال : اسكندرونة ، انطاكية ، اللاذقية ، جبلة ، طرطوس ، حماة ، الصالحية على الفرات ؛ بينما في الجنوب هدم الزلزال نابلس فقط . أما

أخطار الحرب فتواترت فى الجنوب أكثر كأيام الصليبيين والمغول وفى الوقت الحالى الصهيونيين . أما فى الفترة الحديثة فالعامل السياسى هو أبرز الضوابط التى أدخلت تعديلات ثورية فى أثقال الشبكة . فقد تأثر القطاع الجنوبى من الشبكة تأثراً ثورياً سواء فى الداخل أو على الساحل : فى الداخل بعد خلق شرق الأردن ثم الأردن كدولة اصطناعية، وعلى الساحل بعد زرع إسرائيل كدولة دخيلة أشد اصطناعا فقد ضخم هذا أحجام كثير من المدن فى هذه الوحدات السياسية الجديدة تضخما غير طبيعى ، وبعد أن كان للقطاع الشمالى من الشبكة كل الأهمية المدنية زادت الأثقال النسبية للقطاع الجنوبى بدرجة أو بأخرى .

وعدا هذه التوازنات المختلفة المتعاقبة داخل الشبكة ، ورغم السيادة المطلقة لخطى مدن الساحل والداخل ، فإن هذين الخطين كانا دائما أشد أجزاء الشبكة تذبذبا وتعرضا للهزات العنيفة . فهما عبر العصور أكثرها امتلاء وإخلاء ، وأشدها نموا ثم تناقصا . والسبب فى ذلك صفتهما الميناتية الأساسية - Portality موانى البحر وموانى الصحراء . فقد ضاعف هذا الموضع من حساسيتها بكل الذبابات التى تعرضت لها تجارة المنطقة أولا وجغرافيتها السياسية ثانيا يضاف الى ذلك عوامل أخرى ـ كما فى

المغرب – هى أخطار الغزوات الهامشية : القرصنة البحرية على الساحل وغزوات البدو الرعاة فى الداخل.

أما الشبكة نفسها فتتألف من ٥ خطوط مدنية تتراوح بين الدرجة الأولى والثانية والثالثة . فهناك خط الساحل يليه خط المرتفعات الغربية ثم خط الاخدود ثم خط المرتفعات الشرقية وأخيرا خط هامش الصحراء . والخط الساحلى وخط المرتفعات الشرقية هما أخطر واثقل خطوط الشبكة ، قد تأرجح التوازن بينهما تاريخيا بحسب التوجيه الجغرافى الذى ساد المنطقة من عصر إلى آخر ، فالمنطقة عامة قد تكون متوسطية أكثر منها أسيوية ولكنها تذبذبت فى توجيهها بين الداخل والساحل ما بين عصر وآخر ، والمهم أنه لوحظ أنه كلما كان التوجيه إلى الخارج كما فى ظل الفينيقية أو فى ظل قوة أجنبية كالاغريق والرومان – والصهيونية حاليا فى فلسطين – ظهرت أحجام المدن الساحلية على أحجام المدن الداخلية ، وبالعكس كلما كان التوجيه إلى الداخل إلى بلاد العرب كلما برزت أحجام المدن الداخلية كما فى أيام الأموية والحمدانية ويمكن أن نلخص هذا التناوب فى انتقال العاصمة من أنطاكية فى سوريا وقيسارية فى فلسطين أيام الرومان إلى دمشق والرملة على الترتيب أيام العرب ، وأيا ما كان فينبغى أن ندرك أن المدن الكبرى الرئيسية فى الشبكة ظهرت دائما على أطرافها وليس فى

داخلها ، ويرجع ذلك إلى فقر وسط الأقليم الجبلى من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى صعوبة اختراقه ، فهو ليس ممرا أو طريقا ، ليس عتبة بقدر ما هو عقبة ، بعكس الهوامش التى تبعتها دائما طرق المواصلات الرئيسية التى عرفها الإقليم ، ولن تجد مدينة كبرى فى قلب أو داخل الاقليم إلا القدس ولكن لأسباب خاصة جدا لا تكسر القاعدة الجغرافية.

وسيلاحظ أخيرا أن أهم قطاع فى الخط الداخلى هو الشمالى ، بينما هو فى القطاع الساحلى الجنوبى ، كذلك تبدى المدن الكبرى فى سوريا شذوذا توزيعيا خاصا ، فمدن سوريا الكبرى الأربع دمشق وحلب وحمص وحماه تقع كلها على المحور الداخلى من نواة المعمور السورى . ولكنها تتوزع عليه فى نمط غير عادى . فقطبا المدن فى سوريا دمشق وحلب يقعان قرب الحدود شمالا وجنوبا فى مواقع متطرفة هامشية ، بينما وسط المحور تقوم المدينتان الصغريان حمص وحماة وتفسير هذا الوضع المقلوب جغرافى وتاريخى معا ، فجغرافيا يتفق أن أكبر وأغنى واحتين فى سوريا هما الهامشيتان . أما تاريخيا فطالما كانت سوريا خاضعة للاستعمار التركى كانت حلب تحقق مركزية وتوسطا واضحا بين سوريا وتركيا ، بينما طالما كانت سوريا الطبيعية موحدة ومستقلة كانت دمشق هى القلب المركزى بلاشك ، والآن فى سوريا سياسية مبتورة لم تعد دمشق ولا حلب فى موقع مركزى بل على

الهوامش والحدود (١) . ولعل الثنائية التقليدية بين دمشق وحلب تقلل نوعا من أثر تطرف كل منهما فى جسم الدولة .

خطوط الشبكة

خط الساحل

فى أغلب فترات التاريخ – خاصة فى فترات التوجيه البحرى – كان هذا الخط هو العمود الفقرى فى الشبكة ، ربما كان كذلك اليوم لاسيما بعد تطورات المدن فى فلسطين المحتلة ، والخط سلسلة متصلة من المدن من أبرز خصائص مواقعها أنها – أو على الأقل الأهم منها – يتحاشى مصاب الأنهار الصغيرة التى تقطع الساحل التى لاتصلح للملاحة ولكن تشجع الملاريا ، وعلى العكس تسعى إلى مواقع الخلجان العميقة أو الروءس البارزة headlands الصخرية التى تقدم مرافئ محمية عميقة لاسيما إذا برزت كلسان من الجنوب نظرا لأن الرياح السائدة هى الجنوبية الغربية . فإذا وجدت إزاء هذه الروءس بعض الجزر الصخرية زادت قيمة الموقع، وقد توصل الجزر باليابس ليزداد الميناء أهمية كما فى بيروت طرابلس ، والساحل نفسه صخرى ضيق فى الشمال واسع طميى رسوبى فى الجنوب يعانى من رواسب دلتا النيل التى يحملها

(1) W.B. Fisher, p.410.

تيار البحر المتوسط الجنوبى . والأنهار قصيرة فى الشمال طويلة فى الجنوب ، ولهذا فإن هناك فارقا حاسما فى الوزن المدنى للشمال والجنوب، فكل الثقل يذهب إلى النصف الشمالى حيث لعبت موانيه أدوارا تاريخية حافلة ، بعكس الجنوبى الذى تغلب على موانيه صفة الاصطناعية والضرورة ، ويكفى أن أغلب علاقة مدن داخل فلسطين كانت ابتداء من سليمان وعبر التاريخ مع موانى الساحل الشمالى أكثر منها مع موانى الساحل الجنوبى المواجه المباشر (١).

وتبدأ السلسلة بالإسكندرونة على كوع خليج الاسكندرونة العظيم وإزاء فتحة جبلية هامة هى ممر أو شعب بيلان الذى يخترق سلسلة الأمانوس ويعتبر المدخل الحقيقى التاريخى من آسيا الصغرى إلى الهلال الخصيب . وهكذا تتضح أهمية موضع وموقع الاسكندرونة ويلى جنوبا على مصب العاصى ميناء السويدية الذى يشله الضحولة والإطماء ، ولهذا كانت إنطاكية فى الداخل على ثنية النهر هى المدينة المهمة التى تسيطر على الفتحة الجنوبية المهمة التى تفصل بين الابنوس والأقرع وتودى الى سهل العمق الى حلب . ولهذا فانطاكية وحلب مدينتان مترابطتان . لهذا أيضا فانطاكية تشارك الاسكندرونة فى

(1) S.A.S. Huzayyin, Les villes septentrionales de I'Orient Arabe. C. R. Vongrés . Intern. Géog. Varsovie, 1934, t. I I I, p.252, Arabia & the Far East, Cairo,1942, pp.10-11.

الموقع الاستراتيجي على رأس اللفانت كمدخل إلى الهلال الخصيب ، كما تشاركها في تاريخها الخطير ، ويكفي أن انطاكية كانت عاصمة الشام الرومانية والبيزنطية وبلغت إذا ذاك ثلاثة أرباع مليون نسمة أي أكثر من سكان دمشق وبيروت والقدس اليوم (١) ! وأخيرا تشترك الاسكندرونة وانطاكية في الانحدار الشديد الذي أصابهما في الفترة الحديثة ثم في ضياعهما معا لتركيا ، وهي اليوم ليست أكثر من «مدينة نائمة في ظل تاريخها» ومساحة انطاكية الآن ثلاثة أرباع ما كانت عليه قديما وكانت لاتزيد حتى قرن مضى عن عشرة آلاف ارتفعت في ١٩٣٠ إلى ٣٠ ألفا ، بينما أخذت تركيا تضخم في الاسكندرونة بدافع سياسي أكثر منه اقتصادي لأنها هامشية تماما بالنسبة لتركيا ، ينعكس الانتاج الزراعي في الريف المحيط في صناعة الصابون والحرير في المدينة (٢).

وأهم حلقة في سلسلة المدن الساحلية تقابلنا بعد هذا هي اللاذقية التي تقع على رأس ابن هانيء غير بعيد عن النهر الكبير الشمالي ، ولهذا فهي ميناء اصطناعية طميية ضحلة لم تنم إلا أخيرا للضرورة السياسية لتكون مخرج سوريا البحري - خاصة شمال سوريا - بعد إذ سلبت الاسكندرونة في الشمال وانفصلت بيروت في الجنوب ، فهي

(1) W.B. Fisher, The Middle East, p.133.
(2) J. Weulersse, Antioche, un typ de cité d'lsam, C. R. Congrés Intern. Géog., varsovie, t I I I, pp.255-8.

أشبه في ذلك بجدينيا في ظل دانزج في بولندة ، وقبل هذا كانت أهميتها في غناها الزراعى لاتساع السهل الساحلى حولها كحقل فواكه وطباق كبير، وكانت لاتزيد عن ٤٠ ألف نسمة ولكنها وصلت إلى ٥٩ ألفا في ١٩٥٨ (١) ويلى بعد ذلك موان ضئيلة مثل جبلة وبانياس وطرطوس فأما جبلة فميناء صغيرة تقف النصيرية خلفها عقبة فى اتصالها بالداخل أما بانياس فاستمدت أهميتها أخيرا بعد تحويل أنبوب بترول حيفا إليها فأصبحت ميناء بترول ، وتستفيد بانياس فى هذا من موقعها إزاء فتحة مصياف فى جبال النصيرية التى تؤدى إلى حماة ، أما طرطوس فتقع أمامها جزر أرواد وخلفها فتحة صافيتا التى تؤدى إلى حماة أيضا ، وقد اختيرت الآن لتنمى كميناء جنوبية لسوريا .

وطرابلس - التى تستمد اسم المدينة المثلثة من المستعمرات الثلاث التى أنشأها فيها أهل صور وصيدا وأرواد (٢) - هى أول محطة لبنانية فى السلسلة الساحلية ، وهى تتألف من المدينة والميناء يفصلهما ٣ كم، وتقع على رأس يمثل نهاية خليج عكار وكان هذا الرأس جزيرة منفصلة اتصلت باليابس ، وليس موضع الميناء ممتازا فخلفها يصب نهر قاديشا لكن المدينة تمتاز بأنها رأس لسهل مثلثى فسيح هو سهل بقيع - عكار - طرابلس أعطاها غوطة ضخمة غنية بالزراعة والفواكة حتى سميت

(1) Statesmans Year Book,1961.
(2) Eddé,p.55.

«الفيحاء الصغرى» مقابلة لدمشق «الفيحاء الكبرى» . أهم من هذا الموقع : فالسهل يؤدى إلى الفتحة الجبلية الأساسية بين العلويين وجبل لبنان : فتحة طرابلس - حمص ، مما جعلها المخرج الطبيعى لجنوب سوريا ، ولهذا كانت النهاية الطبيعية لأنبوب بترول كركوك مارا بسهل بقيع - عكار تفاديا لجبال لبنان فى حالة بيروت . كمصب لبترول حمص وقطنها معا ، كان طبيعيا أن تتحول إلى صناعة النسيج وعصر بذرة القطن التى أخذت المدينة تتوسع معها . وهى الآن عاصمة الشمال فى لبنان وحتى قريب كانت ٨٠ ألفا وصلت الآن إلى علامة المائة ألف (١) ، على أنها بضواحيها تضم أكثر من ١٢٠ ألفا (٢) وخلف طرابلس فى سهل عكار - طرابلس عدة مدن صغيرة مثل تل كلخ فى سوريا وحلب وأميون فى لبنان .

وبين طرابلس وبيروت لا نجد إلا عدة موان ضئيلة كالبترول(Borys قديما) ثم جبيل ثم جونيه . وجبيل هى بيبلوس القديمة عند الإغريق وأول مدينة فى التاريخ كما ذكروا (٣) وبفضل أخشابها اشتهرت بالورق حتى استمد كتاب التوراة اسمه منها (Bidle) (١) وجونيه مشتى ساحلى جميل . أما بيروت فتقع على خليج سان چورچ (مار جرجس) الذى هو

(1) Statesman, s, Year-Book.1961.
(2) Eddé, p.55.
(3) Eddé, p.62.
(1) W. B. Fisher, p.125.

لسان جبلى ناتئ نحو الشمال بحيث يحمى من الرياح الجنوبية الغربية . وتحتل المدينة من منطقة الخليج رأس بيروت الذى كان قديما جزيرة منفصلة اتصلت باليابس بالرواسب التى جلبها نهر بيرت ولازالت آثار الشواطئ القديمة ترى فى شرق المدينة . والمدينة قديمة جدا منذ Be-rytu، ولكنها ظلت صغيرة محدودة الأهمية حتى إنها فى ١٨٢٠ كانت ٨ آلاف ! وليس السهل الساحلى حول بيروت بفسيح بدرجة خاصة . وإنما رأسمالها الحقيقى الموقع ، فهى تقع أمام أهم فتحة جبلية تتوسط أعلى سلسلة جبلية فى الشام : ممر ظهر البيدر الذى يحدد فتحة بيروت – دمشق . وما دمنا قد قلنا دمشق فقد قلنا بغداد أيضا : لأن هذا هو طريق القوافل التاريخية بين العراق والبحر المتوسط ، وعدا هذا فإن بيروت تكاد تتوسط ساحل الشام تماما ، ولهذا آلت إليها وظيفة المخرج الطبيعى الأول للشام وظهيره فى الهلال الخصيب ، وقد كانت العقبة الحقيقية فى وجه بيروت دائما تأتى من الداخل لا من الخارج : ونعنى صعوبة المواصلات فى الظهير الجبلى الحائطى ، ولكن بمجرد مقدم المواصلات الحديدية كان لابد أن تبرز بيروت إلى مرتبة أولى موانى الشام ، وهكذا كان .

وشى لم نبدأ عهدها الحديث إلا منذ ١٨٦٠ أى أن المدينة كظاهرة حديثة هى بنت القرن الأخير فقط ، ففى ١٨٨٠ كانت نحو ٧٥ ألفا ،

وحتى نهاية الحرب الأولى كانت ٩٠ ألفا ، ثم تضاعفت تماما فيما بين الحربين ، ومنذ الحرب الثانية طفرت طفرة هائلة حقا . ففى ١٩٥٢ قدرت بنحو ٢٥٠ ألفا وفى ١٩٥٦ بنحو ٤٠٠ ألف ، ولا تقل الآن عن ٦٠٠ ألف، وهى تمتاز بهجرة موسمية واسعة النطاق تأتيها من الجبل وترفع سكانها مؤقتا (١) ، وقد توسعت رقعتها إلى مجمع مدنى متشعع يصل شمالا إلى بساتين انطلياس وجنوبا إلى حدائق الشويفات ، ولاشك أن هذا الحجم يسترعى النظر فليس سواها فى لبنان مدينة مائة ألفية عدا طرابلس . أى أن درجة أولويتها فى لبنان تصل إلى ٥ أضعاف المدينة الثانية على الأقل ، ثم هى وحدها تمثل ٣٦٪ من سكان لبنان جميعا وتقديرهم ١,٤ مليون ، وقد تزيد النسبة إذا اعتبرنا «بيروت الكبرى» فتصل إلى نصف سكان لبنان (٢) .

فهى على أحسن تقدير ، وحتى لانقول إن بيروت هى لبنان ، رأس ضخم لجسم قزم . ثم سيلاحظ بعد هذا أن بيروت أكبر حجما من دمشق أو حلب رغم أن سوريا ثلاثة أمثال لبنان سكانا ، وهذا دليل على تطرف المركزية الجغرافية لبيروت . فباستثناء تل أبيب الصهيونية تعد بيروت كبرى مدن الشام وعواصمه .

---

(1) Id., p.410; said chehabe Ed- Dine, Géog. Humaine de Beyrouth, Beyrouth,1960.
(2) Eddé, p.66.

وواضح أن القاعدة الاقتصادية التى تستمد منها بيروت مقوماتها أوسع بكثير من حدود لبنان ، فهى تعيش على الوساطة التجارية الحرة الواسعة النطاق وتعتمد على بيع الخدمات والسمسرة والتوكيلات والاستيراد والسياحة والفنادق – ولكن الترانزيت هو المفتاح . ولهذا كان «للميناء الحرة» فيها دور هام ، فهى تشغل نصف مساحة ميناء بيروت وتكتظ بالصناعات الإعدادية والخفيفة . كما تعد بيروت ثانية سوق للذهب فى العالم بعد مكاو (١) كذلك أخذت تنهض أخيرا كقاعدة حيوية للمواصلات الجوية ، وكعاصمة ثقافية مفتوحة لمختلف الجامعات تحفظ شهرتها كمركز علمي منذ بيزنطة ، وهي تتطور إلى جانب ذلك كمركز صناعى للصناعة الخفيفة الاستهلاكية كالنسيج وحفظ الأغذية ، وهى بعد ذلك لاتبعد إلا نصف ساعة عن أهم مراكز الاصطياف والمشاتى فى الجبل . لكن بعد كل هذا يظل الترانزيت هو المفتاح الاقتصادى ، وقد تأثر هذا الدور فى أكثر من اتجاه مع التطورات السياسية الحديثة ، فانفصال لبنان عن سوريا وتنمية اللاذقية سحب من بيروت تيارا اقتصاديا كان هاما ، لكن من الناحية الأخرى أتى نمو الأردن سكانا بعد ضياع فلسطين وقفل طريقها بتيار جديد من الترانزيت إلى بيرت ، ثم كانت ثورة البترول فى العراق والخليج العربى

---

(1) Hddé, P.68.

بداية تيار آخر أضخم من تجارة المرور ينصب في بيروت ، ويصف هوسكنز بيروت فيقول :

".. a noisy, restless, modern city possessing all of the amenities and not a few of the vices which can be drawn from the west to embllish its natural charms as a cosmopolitan center""1" .

بعد هذه القمة المدنية بيروت تهوى بشدة إلى سلسلة من المدن القزمية تشمل الدامور وصيدا ثم صور ، وهي في ظل بيروت الطاغية أقرب إلى المدن الأشباح التي لها تاريخ هائل يتناقض مع واقعها المتواضع ، فصيدا وصور رغم دورهما التاريخي لاتزيدان اليوم عن ٣٥ ألفا ، ٢٠ ألفا على الترتيب منهم نسبة كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين(٢) ، ورغم مرفأيهما المتازين المهجورين لاتمثلان أكثر من موانى صيد آسنة ، وقد كانت صيدا تستمد أهميتها من فتحة صيدا - مرجعيون التي تصلها بالداخل ، ولعل هذا ما جذب أنبوب بترول السعودية إليها ، وهو الأنبوب الذي صب بعض الحياة فيها ، ورغم ضآلة هذه المدن فإنها تؤكد أهمية خط المدن الساحلي في حياة لبنان خاصة ، فنصف السكان على الأقل يتركز على طوله حتى اقد شبه السهل الساحلي بشارع رئيسي يصل ما بين لبنان والعالم .

---

(1) Halford L Hoskins, The Middle East, N. Y.1954. p.250.
(2) Eddé, p.73.

وسع عكا ويافا يدخل الخط فلسطين (١) ، وهنا نجد أن القطاع الفلسطيني من الخط هو الذى تلقى أكبر هزة تلقتها شبكة مدن الشام في أى جزء منها فى الفترة الحديثة ، وذلك مع الاستعمار الصهيوني ، فهذا الخط يضم اليوم أكبر عدد من المدن فى فلسطين المحتلة كما يمتاز بأضخم المدن فيها ، ويبدأ الخط بعكا التى كان لها دور تاريخى كبير منذ العصر العباسي (يفسر طابعها العسكرى الوسيط) إلى أن ورثت حيفا دورها فى العصر الحديث ، والواقع أن عكا وحيفا بحكم الموقع كان لابد ان يكونا مدينتين متنافستين ، فكلاهما يقع على الخليج البحرى الصخرى العميق المحمى الوحيد فى فلسطين - خليج عكا الذى يدين بوجوده للسان ناتئ من المرتفعات الغربية هو جبل الكرمل ، فكلاهما يشترك فى الموضع الممتاز وكذلك فى الموقع ، فكلاهما يقع فى السهل الخصب الكبير الذى يقع بين كتلتى الجليل ويهودية ويتألف من سهل عكا ومرج ابن عامر ولهذا يسهل الاتصال بداخل الشام ، وقد كانت الأهمية طوال الفترة التاريخية هى لعكا لا لحيفا إلى أن تحدد المصير بإنشاء الميناء الحديثة فى حيفا حوالى ١٩٣٠ فأخذت الأهمية تتركز بتزايد فى حيفا حتى أصبحت قبل النكبة أولى موانى شرق البحر

(١) راجع فى مدن فلسطين إلى جانب مراجع الشام العامة السابق ذكرها.
Amıran & Shahar, op. cit.

المتوسط ينزل فيها ضعف ما ينزل فى بيروت من البضائع . ومع ذلك فقد كان يعيب حيفا دائما ويعوقها أولا تطرف موقعها من فلسطين ثم تضرس الظهير الفقير القاحل فى الجليل والسامرة ، وقد عوضت دائما بفتحة مرج ابن عامر حتى جذبت بها أنبوب بترول كركوك الجنوبى مما ممكن للصناعة فيها : معمل التكرير الضخم أولا ثم الصناعات الاستهلاكية التى تجد وقودها بسهولة ، ولهذا راحت المدينة تنمو حتى كانت ١٤٥ألفا قبل النكبة (مقابل ١٣ ألفا فى عكا!) وأخذت منبسطات خليج عكا الملارية تغطى بالمنشآت الصناعية ، وكان الاعتقاد أن حيفا ستصبح بمواهبها الجغرافية المركز الأول فى فلسطين فى التجارة الخارجية وفى الصناعة . حتى كانت إسرائيل ، وهنا أدى غلق الحدود إلى انكماش حركة حيفا فى تجارة المرور أولا ، كما أوقف بترول الأنبوب ثانيا ، ومع ذلك فقد تضخمت حيفا على الهجرة الصهيونية حتى أصبحت ميناء الدرجة الأولى الوحيدة فى إسرائيل والمدينة التى فيها يلعب الميناء الدور الرئيسى فى اقتصادها ، كما حافظت على تقليدها الصناعى فهى مركز الصناعة الثقيلة والصهر الرئيسى فى اسرائيل . وقد أخذت حيفا تزحف على القرى المجاورة وتبتلعها حتى تكونت «حيفا الكبرى » التى تضم عددا كبيرا من القرى والكفور السابقة (Kfar, Kiryat) وأوشكت أن تتصل بعكا فى الشمال ومن المحقق أنها ستبتلعها عما قريب ، ويبلغ مجمع حيفا الكبرى اليوم ربع

مليون نسمة (٢٥٤ ألفا) أى $\frac{1}{8}$ سكان إسرائيل ويشكل ثانى مجمع مدنى فى فلسطين المحتلة بعد تل أبيب - يافا .

ولم يكن على الساحل من مدن هامة بين حيفا ويافا إلا مدن قديمة فقدت أهميتها التاريخية مثل قيسارية التى كانت عاصمة فلسطين الرومانية وبلغت فى أوجها مائة ألف نسمة ولكنها اليوم أقرب إلى قرية ، وبالمثل عتليت ذات الدور الصليبى ، ولكن مع الهجرة اليهودية ظهرت هنا مدن جديدة تطورت إما عن قرى قائمة ومستعمرات مثل الخضيرة (Hadera) ويتاح تكفا (بطاح الأمل) ورحبوت وريشون لى زيون مدينة الخمور ، أو من لاشى مثل نهاريا وناثانيا †Nathania التى أسست فى ١٩٢٩ وأصبحت الآن مركزا للصناعة الخفيفة خاصة قطع الماس ومثل هرتزليا ، وأغلب هذه المدن يقع شمال يافا - تل أبيب .

أما يافا - تل أبيب فتكرر - مع فروق - قصة المدينتين التى سبقت بين عكا وحيفا فثمة لم يكن فى الأصل إلا يافا التى كانت أهم موانى فلسطين - أهم حتى من عكا ، والواقع أن موضع يافا (أو تل أبيب) لايقارن مطلقا بموقع عكا (أو حيفا) الممتاز . فيافا تقوم على تل صغير على الساحل عند بروز يصلح فقط لمدينة محصنة وميناء صغيرة ، ولكن ميزة يافا هى الموقع : فهى تتوسط ساحل فلسطين تماما ، وبالذات سهل صارونة حقل الموالح الأساسى فى حياة واقتصاد فلسطين ، ثم هى تقع إزاء القدس العاصمة الداخلية ولهذا كانت تقليديا ميناء القدس

عن طريق وصلة اللد – الرملة ، وكان هذا أساس نمو يافا فى مطلع القرن ، ولكن فى ١٩٠٩ أسست الصهيونية تل أبيب (= تل الربيع) «كجاردن سيتى» يهودية قرب يافا ولكن خارج حدودها الإدارية لكى لاتخضع لسلطة البلدية العربية (١) ، وتدفقت عليها الهجرة حتى كانت قبل حرب فلسطين المدينة اليهودية الصرفة الوحيدة فى فلسطين ، وجاء وقت كانت فيه كل يافا عربية وتل أبيب يهودية ، ولم تلبث منذ حوالى ١٩٣٠ أن صارت أكبر من يافا الأم . ثم تركزت عليها الهجرة وتكدست فيها الأجهزة الصهيونية كالهستادروت واتخذت عاصمة لإسرائيل ، ولاشك أن مزاياها التى منحتها هذا النمو هى مزايا يافا التى ورثتها عنها ، والتى تعد النواة الأولى للمجمع المدنى الضخم الذى صارت إليه تل أبيب ، فقد أخذت تل أبيب تنمو بتدفق الهجرة حتى ابتلعت كثيرا من المستعمرات والمدن المحيطة وكونت مجمعا مدنيا هو أكبر مجمع مدنى فى فلسطين المحتلة بل وفى إقليم الشام كله ، فقد بلغت تل أبيب – يافا فى ١٩٥٨ نحو ٣٨٠ ألفا ترتفع إلى ٦١٧ ألفا إذا أضيفت الضواحى المجاورة توا ، ومعنى هذا أن ٣٠٪ من كل سكان إسرائيل يتركز فى مجمع تل أبيب – يافا ، فإذا عرفنا أن حلقة كاملة من المدن تشمل هرتزليا وبتاح تكفا واللدو الرملة ورحابوت لاتبعد عن تل أبيب أكثر من ٢٠ كم وأن بعضها لايفصله عن أطرافها إلا كيلومتر

---

(1) Birot & Dreschm La Mediterranée ete, p.414 .

واحد، لوجدنا أن ٤٠٪ من سكان إسرائيل يتركز في ٥٪ من مساحة الدولة، وهي حقيقة خطيرة من الناحية الحربية وخاصة بالنسبة للحرب الجوية والصواريخ العربية الجديدة، فإذا أضفنا أن المزايا الجغرافية الحقيقية للنواة ضئيلة حتى أن ميناء تل أبيب ميناء زوار Lighterge ولا يلعب البحر في اقتصادها دورا هاما بل تكاد «تعطى ظهرها للبحر» أدركنا أنها نبت غير طبيعي ونمو شاذ لا يفسره إلا الحتم السياسي ولا يدين إلا كيان إسرائيل الجغرافي.

إذا تركنا تل أبيب - يافا، فإن أهم المدن في خط الساحل هي اللد والرملة إلى الداخل قليلا، وهما يتوسطان إقليما زراعيا غنيا بالفواكه وصناعاتها، ولكن أهميتها الأساسية هي أنهما حلقة الوصل بين يافا والقدس، ومطار اللد الذى كان تقليديا من أكبر مطارات الشرق الأوسط، يؤكد هذا الدور.. ولقد كانت الرملة التي أسسها سليمان بن عبدالملك عاصمة فلسطين العربية وورثت بذلك العاصمية من قيسارية الرومان.. أما على الساحل فينبغي أن نذكر أسدود (أشدود) بين تل أبيب وعسقلان.. فنظراً لضعف تل أبيب كميناء، ولعدم وجود ميناء صالحة في جنوب فلسطين المحتلة خاصة مع مشاريع استغلال معادن النقب (= الجنوب) فقد بدأت اسرائيل في تمهيد ميناء عميقة في أشدود.. أما عسقلان فمدينة تاريخية قديمة، حلت محلها اليوم في الحقيقة المجدل فقد بنيت على مقربة من أنقاض عسقلان القديمة بعيدا

عن الساحل بنحو ٥ كم، ولذا تسمى أحيانا مجدل عسقلان.. أما غزة فكانت حتى القرن الماضى من كبريات مدن فلسطين - ثانيتها بعد القدس - وذلك بموقعها كرأس لطريق قوافل وميناء حبوب.. ولكن دورها كميناء محدود لفقر مرفئها، ويفصلها عن الساحل ٣ كم من الكثبان الرملية.. والواقع أن غزة تمثل آخر رقعة خضراء فى المعمور الفلسطينى ناحية الجنوب، وقد أخذت غزة تتراجع فى مرتبتها مع بروز المدن الكبرى الحديثة، ولم تزد قبل النكبة عن ٣٥ ألفا، وبعدها تحولت غزة إلى مدينة للاجئين وتضخمت بالدف Population Parrement بشكل مصطنع يشبه في مظهره تل أبيب ولكنه يناقضه تماما فى سببه، وآخر مدينة فلسطينية هى خان يونس التى تؤدى بخط المدن الساحلى إلى رفح التى تؤلف فى الحقيقة توأمين واحد فى فلسطين والآخر فى مصر عبر الحدود (١) وتوصلنا بذلك بشبكة المدن المصرية.

خط المرتفعات الغربية

هذا خط مدنى من الدرجة الثانية.. تقل عليه المدن عددا وتتضاءل حجما، ولكن هناك فروقا محلية هامة تقسمه الى ٣ قطاعات متمايزة تتفق مع التقسيم السياسى، فالقطاع السورى أفقرها بشريا وأفقرها مدنيا لأنه شديد الوعورة حتى أن الطرق القليلة تدور حول جباله ولا

---

(١) محمد صبحى عبد الحكيم ، سكان شبه جزيرة سيناء . المقال الثالث موسوعة سيناء بالمجلس الأعلى للعلوم . القاهرة ١٩٦٠ . ص ٦٠.

تخترقها، بينما تندر الممرات، والمدن القليلة فى القطاع هى أساس من مدن القلاع أى أن لها صفة حربية، فليس فى الأمانوس إلا مدينة بيلان على الممر التاريخى إلى حلب.. بينما الأفرع إسم على مسمى نباتيا وعمرانيا.. أما النصيرية (العلويين) فتحمل فى جنوبها مصياف وصافيتا على ممرين جبلين فتصل الأولى بين بانياس وحماه والثانية بين طرطوس وحمص.

أما القطاع اللبنانى فأغنى - لاسيما على سفوحه الغربية - بالمياه والحياة و«بالمدن المعلقة» التى تناظر «العيون المعلقة» التى تميز جبل لبنان، وهذه المدن المعلقة تتراوح بين كنتورات ٨٠٠، ١٥٠٠ متر بين «الجرود» العالية والسفوح القاحلة حيث تتركز طبقات الصخور المسامية التى تدين لها العيون المعلقة بأصولها.

ولكن هذه المدن صغيرة دائما أقرب الى القرى حجما ولكنها مدن وظيفة، وقد بدأت أصلا كمدن التجاء وحماية وأقليات، ثم تحولت حديثا الى مدن سياحة واصطياف.. وتلك هى الصفة المميزة لهذا القطاع، وأهم هذه المدن بشرى فى الشمال عند ممر صغير يربط طرابلس ببعلبك وهناك إهدن الشهيرة بغابة الأرز، ثم الحصرون وعلى السفوح حول بيروت سلسلة من المصايف الصغيرة الشهيرة أهمها عالية مدينة الاصطياف الأولى والفنادق.. ثم بحمدون وصوفر وبكفياو وصهور الشوير وبرمانا وبيت مرى.. أما فى جنوب الجبل فجزين أهم المدن

المصايف.

ولعل القطاع الفلسطيني من المرتفعات الغربية هو أهمها مدنيا لأن التضاريس هنا تعتدل فالارتفاع يقل كثيرا وتتسع السلسلة وتتفلطح الى هضبة عريضة، يكثر تقطعها بالأودية وممرات الحركة التاريخية.. ولكن المطر الكافي في الشمال يتناقص بسرعة في الجنوب.. ومعه تتناقص حياة المدن.. وكما أن مدن القلاع هي الصفة الأساسية في القطاع السوري، ومدن السياحة هي الصفة الأساسية في القطاع اللبناني، فإن مدن الدين والحج هي الصفة الأساسية في القطاع الفلسطيني، وهنا تتبلور صفة الاستقرار والثبات في مصاير مدن هذا القطاع بفضل موقعها الداخلي المحمي بعكس مدن القطاع الساحلي المناظر، ولعل أهم حقيقة في مواقع هذه المدن أنها تحددت بطريق مواصلات رئيسي تاريخي يعتلي ظهر الهضبة من الشمال إلى الجنوب تنتظم المدن على طوله كالعقد النظيم في تباعد متساو بدرجة مثيرة.. فالمدن الكبرى فيه تتباعد بفاصل قدره نحو ٤٠ كم هي على الأرجح مدى رحلة السفر في اليوم الواحد، أما مواضع هذه المدن على الخط بالدقة فتتحدد عند تقاطع هذه الطريق التاريخية بطرق المواصلات العرضية بين الساحل ونهر الأردن.

ويبدأ الخط بصفد في الجليل حيث لاتبعد كثيراً عن جبل الجرمق أعلى قمم فلسطين ولذلك فهي أعلى مدن فلسطين.. وكان يمكن لهذا

وللاندسكيب الغابى الجميل أن تكون مصيفا هاما إلا أن قلة موارد المياه منعت ذلك.. أما الناصرة Nazarth فأهم مدن جنوب الجليل، على مشارف مرج ابن عامر، وبذلك تتوسط الطريق الجغرافى بين حيفا والأردن، ولكن الواقع أنها ليست على الطريق المباشر وإنما تقع قريبا من تل طابور، ولهذا فالذى يفسر أهميتها التاريخية الكبيرة هى الوظيفة الدينية كمدينة من مدن المسيح، ولذلك كانت من مدن الأديرة والكنائس.. إلخ ، وإذا عبرنا مرج ابن عامر إلى السامرية وجدنا أن أغلب مدنها لايقوم على مواضع تلية للحماية وإنما فى الأودية الكثيرة التى تقطع الهضبة ولذا تمتاز كل واحدة منها بأوملاند زراعى غنى.. كذا تقوم جنين فى أودية جانبية للمرج وسط منطقة زراعية فاكهية غنية، ومثلها طولكرم فى فجوة واد من أطراف الهضبة غربا.. أما نابلس فهى المثال التقليدى: فهى كبرى مدن السامرة على أكبر أوديته العرضية وأعمقها، ظهيرها غابة مترامية من الزيتون الذى قامت عليه شهرتها فى الصابون.

أما فى هضبة يهودية فالظروف الطبيعية أقل غنى ويسرا مما فى السامرية، وتصبح مواضع الحماية ملمحا واضحا فى مدنها المحصنة التى تتقدمها القدس أضخم مدن داخل فلسطين بل داخل الشام كله، وموقع القدس كما لاحظ كثيرون هو نقطة التقاء طريق الحركة التاريخى من الشمال إلى الجنوب على طول الهضبة الوسطى بالطريق العرضى

الرئيسى ما بين يافا وأول نقطة تصلح لعبور الأردن شمال البحر الميت، أما موضعها فقد بدأت - كحلة قبلية - على قمة تل مذيع، وتلك كانت ميزة هامة فى الماضى.. ولكن ضد هذه المزايا الجغرافية المحدودة تبدو نقط ضعفها واضحة جدا، فهى تقع فى إقليم جاف غير منتج، مياهها لاتكفى إلا لحلة صغيرة وتعتمد أساسا على صهاريج المياه الصخرية كما تجلب الماء الآن من عيون بعيدة فى الشمال والغرب بالأنابيب والمضخات.. أنها باختصار قامت فى «واد غير ذى زرع».

ولهذا فليس فى الجغرافية الطبيعية ما يفسر قدمها - ٢٠٠٠ سنة وزيادة - ولا حيويتها النادرة: فقد تخربت فى حياتها ١٦ مرة كانت تقفز كل مرة من أنقاضها إلى الحياة ثانية فى استمرارية تتحدى التاريخ وإن كانت فى بعض الفترات قد حلت محلها Gibeon إلى الشمال على طريق أسهل بين الشرق والغرب.. أما هذا الذى يفسر ذلك هو العامل الدينى: فهى وحدها بين المدن الدينية مدينة كل الأديان الثلاثة، ومن ثم فهى مدينة حج عالمية وقبلة الأرض، وهى لهذا تحمل الطابع العالمى فى سكانها ومؤسساتها وزوارها، وكل حياتها تدور حول الخدمة لهذه الوظيفة: من فنادق وترفيه وصناعة الهدايا والتذكارات الدينية الخ.. وعلى هذا الأساس ظلت القدس عاصمة ألفية فلسطين وكبرى مدنها حتى بدأت الهجرة الصهيونية ترجح عليها كفة تل أبيب - يافا فى الثلاثينات، ثم حيفا فى الأربعينات.. وكانت قد بلغت ١٦٥ ألفا قبل

اسرائيل، وكان الاستيلاء على القدس من أهم أهداف الاغتصاب الصهيوني، وهي التي تفسر ذلك النتوء البارز الذي يندفع من حدود اسرائيل الحالية في قلب يهودية، ولكن لم تستطع أن تسلب إلا نصف المدينة التي أصبحت مدينة مقسمة مشطورة: القدس القديمة في الأردن والجديدة في اسرائيل، والقطاع الأول ١٠٤ الاف نسمة، والثاني ١٦٠ ألفا، أي المجموع ٢٦٤ ألفاً أي ربع مليون - قدر حيفا والقدس الجديدة لم تتبرعم من المدينة الأم إلا منذ قرن واحد ولكنها الآن تتفوق مساحة وسكاناً معاً، وتهدف الصهيونية إلى أن تصل بها قريبا إلى ٢٥٠ ألفا(١)، وقد حاولت اسرائيل أن تنقل عاصمتها إليها كمناورة سياسية تستغل الجانب الديني.. ولكنها فشلت في هذه الحركة.. هذا ويدور في فلك القدس المدني عدة أقمار دينية صغرى هي بيت لحم مولد المسيح في الجنوب ورام الله في الشمال وبيت جالا في الغرب.. وكلها تقع وسط الزيتون والكروم وتعمل في صناعات الهدايا والتذكارات الدينية.

وفي جنوب يهودية، في صحراء يهودية القاحلة Wilderness of Judeo ليس ثمة إلا الخليل (حبرون) أو خليل الرحمن، مولد ابراهيم، ولذا فهي مدينة دينية للحج أيضاً.. وهي تقوم في بقعة غنية نسبيا من صحراء يهودية، بفضل غزارة المطر المحلي نتيجة لارتفاع حافة شفاله

"1" J.Cherniavsky "Housing & Development in New Jeru-

(شفا الله) الواقعة غرب يهودية.. ولذا فالخليل كانت دائمة مدينة زراعية، وإلى الغرب منها بيت جبرين على ضلوع شفا الله، وإلى الجنوب منهما وعلى أطراف المعمور الفلسطيني وهوامش طلائع صحراء النقب تقوم كالواحة بير السبع (بير سبأ أصلا) ولذا فهى مركز للتجارة مع البدو ورأس للمواصلات إلى مصر عن طريق السلوم فالعوجة والقصيمة إلى الاسماعيلية، وبهذا يلتحم خيط آخر من خيوط شبكة مدن الشام بأطراف شبكة المدن المصرية.

خط الإخدود

لعل هذا الخط الذى يحتل قاع الشام هو أيضا قاع الإقليم مدنيا، فالمدن فيه قليلة العدد ضئيلة الحجم غالبا شديدة التباعد فى مجموعها، وضعف العمران هنا بعامة لا يرجع إلى عدم خصوبة التربة بقدر ما يرجع إلى الهيدرولوجيا، فالصرف هنا شبه داخلى أو داخلى، والمنافع والملاريا هى أساس اللاندسكيب.. ولهذا نلاحظ أن كثيرا من مدن هذا الخط تقع بعيدا نوعا عن النهر أو المنخفض وتفضل المواقع البيدمونتية أو مواقع السفوح، وعلى العكس من الخطين السابقين تقل أهمية هذا الخط مدنيا كلما اتجهنا جنوبا.

وفى القطاع السورى لا يتحدد الإخدود بوضوح بل هو هنا أخدود كاذب falserift تنقصه الحافة الشرقية المحددة.. ولكنه أهم قطاع فى الخط مدنيا، ولا تكاد تظهر مدينة تذكر قبل حارم فى منخفض العمق أو

بالأحرى على هامشه وهى تستمد أهميتها من موقعها المتوسط بين أنطاكية وحلب.. ويلى جنوبا جسر الشغور على العاصى فى منطقة الروج وأهميتها استراتيجية أيضا كحلقة الوصل بين اللاذقية وحلب.. بل كانت منذ القدم عقدة الطرق الرومانية فى المنطقة، وعلى طول منخفض الغاب المناقعى الملارى لا نلقى مدينة حتى نصل إلى حماه على ضفتى ثنية العاصى، وهى Apame القديمة واحدى مدن أربع فى سوريا تزيد عن المائة ألف وهى بحكم موقعها من أقل مدن سوريا تأثراً بالحضارة الغربية كما أنها سوق للبادية المحيطة يسوق فيها البدو إنتاجهم الرعوى، بينما تقوم هى بصناعة المنسوجات القديمة والحديثة، وهى تعتمد على مياه النهر الغائرة برفعها بالنواعير كما تستمد مزيدا من المياه من «ساقية» حمص وينتظر حماه مستقبل كبير بعد إتمام مشروع الغاب، وفى منتصف الطريق بين حماه وحمص قرية الرستن التى انشىء عندها سد الرستن ولهذا ينتظر لها نموا مدنيا قريبا.. أما حمص فتقع على النهاية المقابلة لثنية العاصى بعيدا قليلا عن الضفة الشرقية وإلى الشمال قليلا من بحيرة القطينة، وتمتاز بأنها أوسط مدن سوريا بين البحر (سهل طرابلس) والبادية، ولهذا كانت عقدة مواصلات حديدية هامة إلى جانب أنها مركز مدنى فعال لحقل القطن الغنى المحيط ومن ثم مركز صناعى نسيجى هام عدا أنها سوق للبادية المجاورة.. وقد زادت أهمية حمص منذ مد أنبوب كركوك إلى طرابلس

خلالها وقيام صناعة تكرير البترول بها، ثم منذ تم «مشروع الساقية» من بحيرة قطينة وعلى أساس توفر الخامات الزراعية من المشروع والوقود من المعمل بدأت نهضة صناعة في السكر والحبوب والنسيج.. ولهذا فإن حمص ثالثة مدن سوريا وتصل إلى ١٣٢ ألفاً.

ويتحدد الأخدود بشدة في القطاع اللبناني بين سلسلتي لبنان ولبنان الداخلية باسم البقاع ويبدأ الخط المدني هنا بالهرمل يليها بعلبك (= إله السهل) التي تعد أعلى مدن الأخدود حيث تقع على خط تقسيم المياه بين العاصي والليطاني، وأهميتها الأولى أثرية فهي هليوبوليس الرومانية ومن ثم مركز سياحي هام أشهر ما يكون بالاثار الرومانية، كما أن حولها بعض الزراعات، ولكن هذا كله لايمنحها حجما اكثر من نحو ١٥ ألفاً.. وفي منتصف الأخدود اللبناني يقوم التوأم زحلة ورياق الذي يستمد أهميته من موقعه الحاسم على الممر الرئيسي بين بيروت ودمشق الذي يمتد من ممر ظهر البيدر في جبل لبنان وسهل الزبداني في جبال لبنان الداخلية، وزحلة هي كبرى مدن البقاع (٣٥ ألفا) وشهرتها السياحية الترفيهية على الضلوع الشرقية لصنين معروفة، هذا عدا أنها مدينة زراعية.. أما رياق فهي وصلة السكك الحديدية السورية اللبنانية، وغير بعيد إلى الجنوب تقع شطورة عقدة المواصلات الهامة ومركز الاصطياف الشهير.. وفي جنوب البقاع على سفوح حرمون تقع راشيا وحاصبيا، بينما على ثنية الليطاني تقوم مرجعيون كبرى مدن

جنوب لبنان الداخلية.

ومع الغور الفلسطيني يبدأ أضعف قطاع في الخط حيث تزداد التربة ملوحة ومستنقعات وملاريا، فتبدأ بلدة المطلة على الحدود، ثم طبرية على البحيرة من الغرب وهي لانخفاضها مشتى نشط مشهور بالحمامات المعدنية، كما تعتبر ميناء صيد وسكانها نحو ١٢ ألفاً، بينما سمخ على مخرج النهر من البحيرة كما تقع فيق على الضفة السورية، وعند التقاء وادي الأردن بمرج ابن عامر في غور أو سهل بيسان الخصيب تقوم بيسان المدينة الزراعية القديمة التي تتوسط حقل محاصيل دافئة ككل مدن الغور.. ولا يحد من نموها إلا المناقع الملارية المحيطة وشدة الحرارة صيفاً.. فلا تزيد عن ٥ آلاف.. وهناك أخيراً أريحا Jericho التي تقوم كنقطة مرحلة عند أول نقطة تصلح لعبور الغور شمال البحر الميت ما بين يافا والقدس وعمان، وهي تقع تحت مستوى سطح البحر وتعتبر أوطأ مدن فلسطين (عكس صفد) بل وأوطأ مدن الشام، ولهذا فأنها هي المشتى الأول (بينما صفد المصيف الأول) كما تشتهر بالموالح والبواكير.. وفيما عدا أريحا فإن حوض البحر الميت برمته نطاق ميت بشريا ومدنيا كما هو ميت بيولوجيا.. فليس ثمة مدينة واحدة على طول الغور منذ بيسان حتى العقبة – أيلة (أيلات) على رأس خليج العقبة.. وهنا يمكننا مرة ثالثة أن نعتبر أن خط واحات أقدام هضبة التيه في سيناء ابتداء من الكنتيلا والثمد ونخل حتى السويس بمثابة الحلقة الواهية التي تصل خط مدن الأخدود الشامي بشبكة المدن المصرية من ناحية، كما أن هنا تبدأ شبكة المدن الشامية تتصل بشبكة

الجزيرة العربية من الناحية الأخرى.

خط المرتفعات الشرقية

المرتفعات الشرقية أكثر سلاسل النظام الشامى تعقيدا، فهى فى الشمال أقرب إلى الهضبة المقطعة غير محددة المعالم بصرامة، بينما فى الوسط والجنوب تتعقد بسلاسل وامتدادات تخرج منها شرقا. ومع ذلك فخطوط المدن تظل تتبع خطوط اللاندسكيب بدرجة أو بأخرى. ونظرا لارتفاعها بعد انخفاض الأخدود تعود الأمطار غزيرة مرة أخرى بحيث يزداد تكاثف الحياة البشرية والاقتصادية ولهذا نجد خطا رئيسيا من المدن يناظر الخط الساحلى لاسيما فى قطاعه الأوسط.

ويبدأ الخط شمالا براجو على سفوح كرد داغ على الممر الوحيد فى هذه السلسلة بين حلب وأضنه. وثمة كذلك عفرين على نهر عفرين إلى الشرق من كرد داغ والذى يصب فى منخفض العمق. ويمكن أن نضمن الخط عنيتاب Gazianter التركية حاليا. وإلى الشرق من نهر عفرين وعلى جبل سمعان تقع كلس وإن كانت تابعة لتركيا ثم إعزاز التى كانت دائما قلعة تخوم حربية هى التى وقعت بقربها موقعة مرج دابق وأهم مدينة بعد هذا هى إدلب فى الفتحة ما بين جبل باريشا فى الشمال والزاوية فى الجنوب وتعد الممر الرئيسى بين اللاذقية وحلب عن طريق جسر الشغور وسهل الروج. وهى تتوسط حقلا زراعيا كبيرا من فواكه البحر المتوسط والحبوب والقطن - لكن الزيتون والقطن هما الأساس - وتبلغ أكثر من

٣١ ألفا. وإلى الجنوب من إدلب وعلى سطح كتلة جبل الزاوية تقوم معرة النعمان (آرا القديمة) وهي مدينة آثار في الصف الأول وزراعة في المحل الثاني، وتبلغ ١٥ ألفا. وينحرف خط المدن بعد هذا مارا بالحمدانية ليصل إلى السليمية جنوب شرق حماه وعلى أطراف الهضبة. وهي مدينة قديمة وواحة قطن ومركز الاسماعيلية في سوريا. وتبلغ أكثر من ٢٠ ألفا.

وتتحول الحواف الهضبية إلى جبال حقيقية بعد مسافة كبيرة حين نصل إلى جبال لبنان الداخلية، وفيها تندر المدن على السلسلة نفسها إلا في الممرات والانخفاضات المحدودة فيها التي أهمها ممر سر غايا الذي يقابل ممر ظهر البيدر في جبل لبنان الساحلي ويفصل بين سلسلة لبنان الداخلية وحرمون (الشيخ) بواسطة نهر بردى. وفي هذا الانخفاض تظهر عدة مدن مصايف مثل الزبداني وبلودان. على أن هذه المدن الجبلية لاتقاس بنظيرتها في جبل لبنان الغربي عددا أو أهمية ولكن الواقع أن خط مدن المرتفعات الشرقية هنا يلتصق بأقدام السلسلة أكثر منه بظهرها. والسبب أن ظاهرة العيون المعلقة التي تخلقها جيولوجية جبل لبنان الغربي تختفي هنا وتتحول الهيدرولوجيا إلى نهيرات قصيرة تنتهي الى واحات بيدمونتية متفاوتة الأهمية تقوم عليها مدن بيدمونتية مثل النبك في الشمال وجيرود والقطيفة في الوسط وقطنه وبانياس والقنيطرة (١٠ آلاف) في الجنوب حيث يتمم الخط مدينة عزرا ودرعا، ولكن لاشك أن دمشق هي النمط الأمثل.

فدمشق واحة بيدمونتية كونها نهر بردى الذى نشطت تعريته للمرتفعات الشرقية حتى فصل شمالها عن جنوبها حرمون وبفضل رواسبه الضخمة خلق أكبر واحة في الشام - أكبر «شامة» على خد الصحراء السورية: غوطة بردى: غوطة دمشق الفيحاء. فقد وفرت هذه الغوطة القاعدة الأرضية لمدينة ضخمة خالدة، تمتاز بالقدم والاستمرارية وتفخر بأنها أقدم عاصمة فى العالم دون انقطاع. فبفضل الغوطة توفرت لها كفايتها من مياه الرى والمواد الخام المحلية كالحرير والقطن والصوف والحديد والخشب. والواقع أن دمشق القديمة والحديثة تدين بكثير لانتاجيتها الزراعية التى ترتكز على الاستغلال الكثيف للغوطة. ولذا كانت دائما كسوق للتبادل بين البدو والزراع أهم حتى من حلب. ورغم موقعها فى الغوطة فإن دمشق أعلى المدن السورية الكبرى ارتفاعا (٦٩٠ مترا).

ولكن دمشق لاتستمد أهميتها من مزايا الموضع فقط. فقد دخلت التاريخ أساسا عن طريق الموقع. فهى ركن الزاوية والعقدة الرئيسية فى أهم محورين للحركة التاريخية والتجارية فى إقليم الشام وهما المحور الطولى البيدمونتى على طول أقدام المرتفعات الشرقية ابتداء من آسيا الصغرى حتى الجزيرة العربية إلى اليمن. والمحور العرض المرى الذى يتوسط الشام موقعا ويحتل أخطر فتحة جبلية موضعا وهو فتحة بيروت

– دمشق التى تسهل الاتصال بالساحل والداخل عن طريق ممر جبلى هو ظهر البيدر – سرغايا. ومن هنا كانت ميناء صحراوية هامة منذ وقت مبكر، وكانت بحق بوابة صحراء الشام وصحراء العرب. وبوابة بغداد بوجه خاص. وهى فى هذا كله كانت مدينة القوافل المثالية. ومن ثم كانت التجارة عنصرا محوريا فى نشأتها وازدهارها بنفس درجة الصناعة والزراعة. وقد شجع اتصالها السهل بالبحر نموها كمركز سياحى أكثر احتكاكا بالغرب، وهى فى هذا تختلف عن حلب.

أما من حيث الموقع السياسى فبعد أن كانت أيام العثمانيين تحتل موقعا هامشيا على حافة الامبراطورية بعكس حلب، انعكس الموقف بعد الاستقلال عن تركيا فأصبحت دمشق أقل تطرفا من حلب. اما اقتصاديا فتعتبر دمشق سوق سوريا الوسطى الداخلية لجميع المنتجات الزراعية، كما أنها مركز صناعى هام لمصانع الأسمنت والنسيج والمحفوظات والدباغة والزجاج والخزفيات، كما تشتهر بصناعات خاصة ترتبط بالوظيفة السياحية الهامة كالبر وكار والحفر والتصديف إلخ.. وربع الصادرات السورية تقريبا تخرج من دمشق.

وطبيعى بعد أن تكون دمشق من مدن العرب الكبرى. ففى أغلب العصور كانت المدينة الأولى فى الشام، بل إنها – كالقاهرة فى مصر – كثيرا ماتسمى فى العرف الدارج بالشام رمزا لمدى ثقلها وخطرها فى الإقليم. وحتى قريب جدا كانت دمشق أقل سكانا من حلب نتيجة لأثر

الجغرافيا السياسية. على أن هذه الظاهرة ليست قديمة كما قد يظن. فالأرقام المتوفرة عن أواخر القرن الماضى تعطى الأولوية لدمشق. وها هى ذى الآن تعود اليها فى السنين الأخيرة. على أنه من الناحية الأخرى لم تعد المدينة الأولى فى الشام ليس فقط لتضخم بيروت الحديث ولكن أيضا منذ أن تورمت تل أبيب بالهجرة الصهيونية إلى درجة مرضية.

والقطاع الأردنى من المرتفعات الشرقية يمتاز بأنه أكثر ارتفاعا من نظيره من المرتفعات الغربية فى فلسطين. وكانت لهذه الحقيقة نتيجة وقيمة بشرية كبرى. فقد عاد المطر هنا إلى الزيادة فانتشرت القرى والمدن لاسيما فى الكتلة الشمالية جبال عجلون التى تعد أخصب أجزاء سلسلة شرق الأردن وتضم أكبر مجموعة من القرى فيه، وأهم حقيقة مدنية هنا بوجه عام هى وجود خطين مدنيين واضحين جدا ومتقاربين جدا، الأول يرتقى سطح المرتفعات والثانى يتشبث بأقدامها. وكلا الخطان بحكم الموقع من مدن التخوم وقلاع الحدود، ولهذا فكلها حصون قديمة تاريخية وبجميعها آثار رومانية كثيرة. ويبدأ الخط الأول بإربد قرب الحدود السورية وهى مركز زراعى، ومثلها عجلون التى تليها جنوبا. ثم جرش التى تفضلهما بوفرة موارد المياه وكثرة الزراعة كما كانت ذات أهمية كبرى أيام الرومان JERASA كما تدل الآثار الرومانية المثيرة فيها . وهذه المدن الثلاث هى أهم مدن منطقة عجلون التى تنحصر بين وادى اليرموك والزرقا وبعدها ندخل كتلة البلقاء أو

السلط التي تقع بين الزرقا ووادى الموجب. وتمتاز مدنها بأنها مسيحية فى الغالب. فالسلط فى غرب عمان مركز لزراعة الكروم وتصنيعها. وهى من المدن الكبرى فى الأردن تبلغ ٢٥ ألفا ثلاثة أرباعهم من المسيحيين. ويلى جنوبا مأدبا إزاء أريحا وهى كالسلط مدينة مسيحية أساسا. أما الكرك فهى المدينة الوحيدة فى كتلة الكرك أو مؤاب التى تنحصر بين وادى الموجب والحسا. وتحتل موضعا استراتيجيا حصينا هو هضبة تحف بها الأودية. ولهذا اختارها المؤابيون قديما لتكون عاصمتهم وتكثر بها القلاع والأبراج. أما وظيفياً فهى سوق صحراوية للبدو تبلغ ١٢ ألفا. ويستمر الخط بعد ذلك بمدينتى الطفيلة إلى الجنوب الشرقى من البحر الميت والشوبك،. وهما مدينتان جبليتان حقا وتعملان كمدن أسواق للبادية. وينتهى الخط جنوبا بمدينة حفرية هى البتراء أى المدينة الصخرية (= سلع = الرقيم) وكان لها دور تاريخى خطير كمركز أساسى من مراكز طرق القوافل وتجارة المرور عبر الهلال الخصيب وبين الشام والعرب ولذا تعرف «بتدمر الجنوب»، كما كانت عاصمة النبط، وهى تقع فى وادى موسى منحوتة بيوتها فى الصخر - من هنا الاسم - ولكنها اليوم من المدن الأشباح المهجورة تماما إلا من السياح. هذا هو خط سطوح المرتفعات.

أما الخط الثانى فى الأردن فهو خط مدن أقدام المرتفعات. وقد يمكن أن نعدها أيضا من مدن هوامش الصحراء، ويؤكد وحدتها

الموقعية أن خط سكة الحديد يجمعها فى سلسلة واحدة. والخط يبدأ فى الشمال بالمفرق قرب الحدود السورية وهى عقدة مواصلات مهمة كوصلة لطريق السيارات بين دمشق وبغداد أى أنه حلقة الوصل بين عمان وكل من دمشق وبغداد. وهناك بعد ذلك الزرقا وهى بمثابة ضاحية شركسية لعمان. وعدا عمان نفسها فليس ثمة إلا مدن واحات متطوحة فى أقصى الجنوب هى معان المدينة القديمة التى كانت سوقا للرقيق والتى تمثل اليوم نهاية خط حديد الحجاز والمركز الادارى للجنوب وسوقا للبادية. ثم أخيرا المدورة على الحدود السعودية وهى بقلعتها الشهيرة ليست أكثر من محطة حدود حربية.

أما عمان فمدينة قديمة جدا بالتاريخ ولكنها حديثة جدا بالعمران. فكانت عاصمة العمونيين باسم رباب عمون، وصارت عند البطالسة فيلادلفيا ثم احتلها السلوقيون فالأنباط، والآثار الرومانية فيما توضح خطورة البعد التاريخى فيها. ولكنها تدهورت بعد ذلك إلى حلة تافهة حتى كانت الحرب العالمية الأولى حين استوطنها المهاجرون الشراكسة ثم تجار دمشق ونابلس فأخذت تنمو حتى كانت كعاصمة لإمارة شرق الأردن تبلغ ٢٥ ألفا. ولكنها نمت بعد ذلك كثيرا خاصة منذ نكبة فلسطين حين تضاعفت باللاجئين حتى أصبحت الآن كمدينة شيطانية. فتقدر فى ١٩٥٩ بنحو ٢٤٥ ألفا أى أنها تضاعفت عشرة الأمثال فى نحو ٤٠ عاما. ومعنى هذا أنها رغم قدمها التاريخى هى - أكثر من

بيروت - بنت القرن العشرين بكل معنى الكلمة. وليس مثلها مدينة ولا عاصمة فى الشام فى حداثتها وفى معدل نموها باستبعاد تل أبيب الدخيلة. والواقع أن تضخمها يرجع إلى حد كبير كما هو الحال فى بيروت - إلى إفراط السكان الريفيين Rural Averpop وهى بذلك تعادل القدس بقسميها سكانا، كما أنها بذلك تضم ١٥,٣٪ من سكان الأردن البالغين ١,٦ مليون. وهذا التورم العاصمى الذى يعد نمطا شائعا فى العالم العربى لايفسره هنا إلا العامل السياسى أساسا. وقد خلق النمو الانفجارى مشاكل الاسكان والتموين الملحة. ونواة المدينة تحتل بطن واد مستطيل بينما زحف النمو الحديث على التلال المحيطة. ووظيفيا لاتمتاز المدينة إلا بوظائف العواصم التقليدية بما فيها صناعات العواصم. ويتحدث هوسكنز عن التناقض الكبير بين العاصمة والريف .

"To an even grealer extent in Lebanon, the utter Contrast between Life in the barren hills and that in thriving Amman, embacing one - sixth of the total population ..."

ويرى فيه جذور مشاكل التنمية والتخطيط فى الأردن كله (١).

خط هوامش الصحراء

قد يود البعض أن يضم هذا الخط مدن المرتفعات الشرقية أو أن تضم أجزاء من هذا الأخير اليه. والواقع ان بينهما قدرا من تداخل.

"1" The Middle East, p.25.

ومع ذلك فسنحدد هذا الخلط بغلبة الصفة الصحراوية عليه حتى ولو شارك في صفة المرتفعات. وبهذا يصبح الخط أشد خطوط المدن الشامية انفصالا وبعدا عن كتلة المعمور. كما يصبح أقصرها حيث يكاد يقتصر على سوريا كما يعد أكثرها تقاطعا. وهو يتألف من بضعة من واحات متباعدة متفاوتة فى الأهمية. وهو يبدأ فى الشمال «بأرخبيل» من الواحات ينتثر بين كتلة «المعمورة» في الغرب والفرات فى الشرق مرتكزا حول حلب. فثمة منبج قرب النهر (هيروبوليس قديما) وهى اليوم مدينة صغيرة. اما الباب على نهر الذهب فأكبر كثيرا (٢٢ ألفا). وإلى الشمال من حلب وعلى نهرها تقع المسلمية. أما حلب نفسها فتحتل غوطة أصغر وأفقر من غوطة دمشق - هى غوطة قويق. وهى تمدها بالمياه والخامات اللازمة لكن موقعها ربما كان الأهم. فهى تقع عند ملتقى أربعة أقاليم جغرافية مختلفة. فشمالا آسيا الصغرى الجبلية بفتحة بوابة قيليقيا. وشرقا هناك الأودية العليا للفرات والدجلة. وجنوبا ثمة واحات حماة وحمص ودمشق ولبنان بموانيه البحرية، وأخيرا هناك فى الجنوب الشرقى استبس صحراء الشام الرعوى والهلال الخصيب وخلفه العراق وإيران. وبالتالي فإن حلب تعمل سوقا مشتركة لكل هذه الأطراف توزيعا وتجميعا. فهي سوق هامة للصوف والماشية والجلود من الاستبس والحبوب والفواكه من الواحات. والمصنوعات من الموانى والمدن الداخلية، والخشب والفحم النباتي والمعادن من آسيا الصغرى.

ويترتب على هذا أن الصناعة فيها تجد كل أركانها وعناصرها. فكانت تقليديا أكبر مركز صناعي في سوريا، ولقد تطورت الصناعة فيها أكثر وأكثر في الفترة الأخيرة كتعويض عن تقهقر التجارة نسبيا، وأهم هذه الصناعات هي النسيج والغزل والخيوط القصبية والكحوليات والصابون والأحذية.

وعدا مزايا الموقع الاقليمية، فقد كان لحلب موقع خطير على المستوى العبوري البعيد المدى. فبفضل موقعها على رأس الشام عند أضيق عنق بينه وبين العراق، أي حيث يقترب البلدان أكثر مايقتربان، سيطرت حلب على كثير من التجارة القارية عبر اللفانت، وكان لها في ذلك الأفضلية على طريقي دمشق في الوسط والبتراء في الجنوب. ففي أيام القوافل لم يكن ثمة منافس لحلب. ومنذ السكة الحديدية وهي أهم عقدة حديدية في الشام تتفرع منها عدة خطوط في كل الاتجاهات. ولكن سلخ لواء الاسكندرونة عنها حديثا حرمها من منفذها ورأسها الطبيعي وأصبحت جسما بلا رأس تقريبا. كما أن تحويل الاتراك لمياه قويق سلبها كثيرا من مائيتها، وقد أثر هذا نوعا في نشاطها التجاري فحاولت أن تعوض عنه بمزيد من النشاط الصناعي.

كذلك من الوجهة السياسية كانت ثانية مدن الامبراطورية العثمانية منذ انحدار بغداد العباسية. وامتازت بمركزية نادرة بين نواة الدولة في الأناضول وبين إقليم الشام. ولكن في الإطار السياسي الجديد، ثم

أكثر منه مع ضياع الاسكندرونة، اشتد تطرف حلب فى الدولة. ومع ذلك فهى فى كل معنى عاصمة الشمال أو القطب الشمالى الذى يضارع القطب الجنوبى فى دمشق. على أن حلب تختلف حضاريا عن دمشق فى أنها لاتزال من أقل أجزاء الشام تأثرا بأوربا. والدور السياحى فيها محدود. كما أنها جغرافيا أبرد وأمطر من دمشق. واذا كانت حلب قد تفوقت سكانا لفترة ما، فقد انتهت تلك الأولوية، كما أن عناصر السكان فيها أكثر تنوعا وأقل اندماجا منها فى دمشق، وهذا أصدق مايكون عن العناصر الأرمينية والتركية.

وبعد حلب تسود الصحراء حتى نصل الى تدمر (بالميرا الرومانية) وهى واحة تتوسط بادية الشام وتمثل نقطة المرحلة الوحيدة بين سوريا والعراق. بين دمشق وبغداد. ومن هنا جاءت أهميتها الاستراتيجية ودورها التاريخى القديم. وقد احتكرت تجارة المرور بين الشرق والغرب طويلا حتى كانت مركزا حضاريا ممتازا خاصة أيام الزباء (زنوبيا). وهى الآن عقدة المواصلات الرئيسية فى بادية الشام ويمر بها أنبوب بترول كركوك. وهناك بعد هذا جنوبا بغرب القريتين وهى أقرب الى مدن الصحراء منها إلى مدن أقدام المرتفعات. ثم يلى كوكبة جبل العرب (جبل الدروز) – الذى يقوم كجزيرة جبلية فى وسط الصحراء – وهى شهباء والسويداء وبصرى وصلخد، وكلها مدن ذات أصول قديمة وبلغت أوجها فى الفترة الرومانية ولهذا تكثر بها آثارهم جدا. ولكنها مدن

قزمية حاليا. فأما شهبا (فيلبوبوليس الرومانية) فعلى سفوح الجبل الشمالية ولاتزيد اليوم عن ألفى نسمة. أما السويداء (ديونيزس قديما) فعلى السفوح الغربية وتبلغ ٦ آلاف. أما بصرى فلا تزيد عن شهبا حجما ولكنها أيام الرومان كانت عاصمة سوريا الجنوبية كلها ولهذا فإن آثارها المترامية مثيرة حقا. أما صلخد (سلكا التوراة) فعلى السفوح الجنوبية وتشبه بصرى وشهبا حجما. ويمكننا أخيرا أن ننهى خط مدن هوامش الصحراء بمحطة صغيرة هي قصر الأزرق فى شرق الأردن.

الفصل العاشر

العراق [1]

هيكل مدني بسيط في مجموعه، يتبع بدقة توزيع السكان العام نمطا وضوابط. إلا أن صورة العراق لاتخلو من ملامح لا نقول شاذة ولكن غير عادية، فالدلتا تبدأ من بعيد جدا، من قبل «خاصرة» النهرين - بالتحديد ـ منذ بلد جنوب سامرا في الدجلة والرمادي في الفرات، ومع ذلك فليس ثمة دلتا بالمعنى «الإغريقي» للدلتا: فبعد أن ينفرج الرافدان - دون أن يلتحما - ويبدآن شكل الدال يعودان فيتقاربان حتى ينتهيا إلى مصب خليجي (استواري) هو شط العرب. وأهم من هذا انه رغم اتساع رقعة السهل الفيضي والدلتا من ناحية ووفرة الحصيلة المائية للرافدين من الناحية الأخرى، فإن السكنى الحقيقية مركزة بشدة على جانبيهما بسمك محدود: في الشمال في «الجزيرة» لشدة عمق المجرى بالنسبة لمستوى السهل الهضبي، حيث يبدو كالخندق الغائر. وفي الجنوب في «السواد» القديم لفرط ضحولة المجرى بالنسبة لمستوى السهل الرسوبي حتى يتحول الى المناقع والأهوار الشهيرة. وهكذا

(١) المرجع الأساسي في العراق جاسم الخلف ـ محاضرات في جغرافية العراق القاهرة ١٩٥٩.

يصبح كل من النهرين كعقد منظوم من الحلات والمدن التى تتجاذب على طوله كما تتجاذب برادة الحديد على قضيب مغناطيسي. ولاتقتصر جاذبية النهر على العامل الهيدرولوجي،، وإنما كذلك على عامل النقل، فالنهر هنا طريق متحرك، منذ فجر التاريخ وشارع رئيسي تحاول كل مدينة أن تطل عليه ففى الحالين تصبح كل المدن مدن ضفاف فإن شذت حالات وظهرت مابين Interfluves الضفاف فهى غالبا ظاهرة «نقطية» مرتبطة بجزر الجبال فى الجزيرة مثل تلعفر ويلدسنجار، بينما هى فى الجنوب تمثل مواقع ضفاف «حفرية» هجرها النهر فى تغيرات مجراه التاريخية العديدة هنا مثل كربلاء والنجف، وفى النتيجة تصبح أرض مابين النهرين أقرب إلى اللامعمور منها إلى المعمور، ويصبح من الأصح أن نتكلم عن بلاد النهرين Duopotamia أكثر من بلاد مابين النهرين mesopotamia . والواقع أن نمط السكنى والعمران عامة والمدن بخاصة فى العراق أقرب إلى حد ما فى هيكله الى زوجين متجاورين من صعيد مصر منه إلى واد ودلتا. ونظرا لشدة تقاربهما عند الخاصرة فإن الخطين يكاد يبدوان كمحورين متقاطعين على شكل حرف × ويلاحظ أن مدن الضفاف قد تقع مرة على الضفة اليمنى ومرة على الضفة اليسرى بلا تحيز واضح وإنما بمنطق الموضع. فليست الضفتان دائما على مستوى واحد من الارتفاع فى كل نقطة وهنا تفضل المدينة – خاصة فى حالة دجلة الأكثر تعرضا لخطر الفيضان – أن تتوقع على الضفة الأعلى محليا سواء يمنى أو يسرى.

لكن هذا النمط إنما ينصـرف الى صلب الرافـدين وحـده حـيث الضـابط الطبيعى الأول هو الهيدرولوجيا، أما فى هضبة آشور الجبلية المرتفعـة إلى الشرق من الدجلة فـالضـابط الاساسى هو التـضـاريس. فاسـاس الحيـاة هنا ليس النهـر ولكنه المطر، والزراعة مطرية لا زراعة رى. ولهذا فإن نمط العمران ليس خطيا محليا ولكنه غطائى عالمى - وإن كان أخف بكثير مما فى نطاق الرافدين، ولذا فهنا تتحرر المدن من ضبط الماء كماء ولكنها مع ذلك ترتبط بالأودية ككنتور . ومن ثم تظل فى صورة خطوط واضحة وإن كانت حباتها متباعدة. وكل من هذه الخطوط يرتبط بسلسلة من الأحـواض الزراعية المعلقة أو المغلقة الصـغيرة من ناحية، وبجبهة التحام بين أقاليم انتاجية مختلفة انتاج السهل والجبل ومن ناحية أخرى، وبخطوط المقاومة الدنيا فى الحركة من ناحية ثالثة. ولهذا ارتبط كل منها بطريق التجارة التاريخى الكبير القديم بين ايران وتركيا كما ارتبط أحدهما بثروة اقدام الجبال الالتوائية الحديثة البترول.

المحصلة النهائية إذن أربعة خطوط مدنية محددة : خطان نهريان خط الفرات ، وخط الدجلة وخطان جبليان خط أقدام الهضبة وخط سقف الجبال .

وعلينا الآن أن نقارن بين شبكة المدن أولا فى كل من الشـمـال والجنوب من العراق وثانيا بين خطوط المدن المختلفة. فأولا من حيث

الشمال والجنوب. نجد أن السهل الرسوبى الفيضى فى الجنوب الذى يغطى أولوية بغداد والكوت والحلة وكربلاء والديوانية والعمارة والناصرية والبصرة والرمادى وديالى ينتظم حوالى ٦٩٪ من سكان العراق ويضم وحده ١٩ مدينة من ٣١ اعتبرتها الاحصاءات الرسمية المدن الكبرى فى العراق.، أو بمعنى آخر هو يضم ٦٦٪ من مدن العراق الكبرى، هذا مع ملاحظة انه يحتكر أكبر المدن العراقية حجما. كذلك وجد أن هذا السهل يضم ٢٧ مدينة من ٣٤ فى العراق تزيد كل منها عن ١٠ آلاف. ٢٣ مدينة من ٣٥ تتراوح كل منها بين ٥ – ١٠ آلاف، ٩١ حلة من ١٤٤ تزيد كل منها عن ألف نسمة. هذا بينما الشمال الذى يغطى ألوية الجبال والهضبة الموصل واربيل والسليمانية وكركوك ويمثل مساحة تساوى مساحة الجنوب بالتحديد السابق لايضم الا القلة الباقية من المدن الكبرى والصغرى (١).

أما عن الاوزان النسبية لكل خط من خطوط المدن الأربعة فى العراق نستطيع ان نقيمها بالاشارة الى توزيع المدن الكبيرة من فئة +٢٠ ألفا. وهى وحدها تمثل ٧٥٪ من كل من مدن العراق.، فأما خطا النهرين فهما بالطبع خطا القاعدة، ولكن لاشك ان خط الدجلة هو العمود الفقرى فى الشبكة رغم انه من ١٧ مدينة + ٢٠ ألفا مجموعها ١,٧٨٩,٦٠٠ فى ١٩٥٧ فى العراق لم يكن يقع عليه إلا ٤ مدن، بينما

(١) جاسم الخلف ص ٤٠٣ ـ ٤٠٧.

اختص الفرات بثمانية. ولكن العبرة بالحجم لا العدد. فمدن الدجلة الاربع تضم ١,١٤٤,٢٠٠ نسمة أو ٦٣,٣٪ من مجموع سكان المدن الحقيقية فى العراق، مقابل ٣٥١,٤٠٠ أو ١٩,٥٪ للفرات. وصحيح أن الدجلة أطول فى حدود العراق من الفرات. ولكن النتيجة لا تتغير اذا اضفنا سكان المدن الكبيرة على الفرات فى سوريا (كدير الزور ٧٤ ألفا) لا ، ولاهى تتغير إذا اضفنا لكل من النهرين مدن روافده فى آشور وفى الجزيرة على الترتيب. والخلاصة أن الفرات وان تميز بتعدد المدن المتوسطة الحجم، فإن الدجلة - رغم انه أكثر تعرضا لأخطار الفيضان الجامح - يحتكر الاحجام الضخام ويكفى انه يملك المدينتين الأوليين فى العراق بغداد والموصل. واذا كانت المدينة الثالثة البصرة مشتركة بين الاثنين فإن الرابعة كركوك تقع أيضا على رافد للدجلة. وعموما فإن الخطين النهريين يحتكران معا ١٢ مدينة من مدن العراق السبعة عشر فئة + ٢٠ ألفا أو ٨٢,٨٪ من مجموع سكان تلك المدن. أما خط البيدمونت فمن الدرجة الثانية فعليه مدينتان من فئة العشرين ألفا. إلا ان إحداهما هى رابعة مدن العراق حاليا كركوك مدينة البترول - مما أعطى للخط ٨,٧٪ من مجموع سكان مدن العراق + ٢٠ ألفا. وخط سقف الجبال من الدرجة الثالثة على الأكثر فلا يملك الا مدينة واحدة من هذا الحجم.

وثمة فروق أخرى بين النهرين. فهناك أولا الناظر العكسى فى

الاهمية المدنية بين قطاعى كل من النهرين. فالفرات الأعلى الغائر شبه الصحراوى أقل مدنا من الفرات الأدنى، والعكس فى الدجلة. الدجلة الأعلى أكثر وأخطر مدنا من الدجلة الأسفل المتعرج الكثير المستنقعات والنتيجة أن الفرات الأعلى أقل وزنا فى شبكة المدن من الدجلة الأعلى بينما الدجلة الأدنى أقل أهمية من الفرات الأدنى. ولعل مسار الشبكة الحديدية العراقية يلخص بايجاز هذه القيم المدنية المتغايرة لقطاعات النهرين. فهى تتبع الفرات من البصرة حتى بغداد ثم تلزم الدجلة من بغداد حتى الموصل، وأخيرا فإن الدجلة كنهر جبلى يمتاز كثير من مدنه بأنها أسواق للتبادل بين السهل والجبل، بينما الفرات كنهر صحراوى تمتاز أغلب مدنه بأنها مدن أسواق للبدو.

وأخيرا وقبل أن نمضى فى تتبع كل خط على حدة ينبغى أن نشير الى أن أغلب هذه الخطوط تستمر خارج حدود العالم العربى الشكلية فى تركيا. فخط ا ـلة تتمه ديار بكر (آمد) وخط الفرات تتممه ملطية. بينما خط أقدام الجبال الذى يقع إلى الشرق منهما فى العراق ينثنى غربا قاطعا عبر خطى النهرين وتابعا أقدام هضبة الاناضول التى يحددها بوضوح خط السكة الحديدية الشهير حتى ساحل البحر المتوسط فى رأس اللقانت، ليحمل سلسلة من المدن يتوقع كل منها فى حوض مغلق صغير، وكانت لها دائما صفتان: جبهة التحام اقليمين طبيعيين متباينين فى الانتاج - الجبال والسهول - وبالتالى منطقة

تبادل تجاري. ثم هي من ناحية أخرى منطقة تخوم حدية Marchland بين الشرق والغرب وبين قوميتين العربية والتركية. ولهذا كان لها دائما صفة استراتيجية حاسمة وكانت مسرحا فيصلا تحددت فيه معارك تاريخية كبرى: بين روما والبارثيين - بين روما وفارس - بين بيزنطة والخلافة. والنتيجة أن هذا الخط كان سلسلة من «مدن الثغور» أو «العواصم» كما كانت تسمى رغم أنها ليست بثغور موانى ولا عواصم سياسة وإنما مدن حربية وقلاع حدود الى جانب وظيفتها التجارية. من هذه المدن نصيبين (نزيب) وماردين وحران وأورفا (الرها - إذاسا) Edessa وعينتاب Jaziantep ومرعش . ومما يلاحظ ان بعض هذه المدن أصبح اليوم من المدن المزدوجة التوائم على جانبى الحدود الحالية: فالقامشلى السورية تقابل نصيبين التركية توا، ورأس العين لها مقابل تركى Resulayn ومعنى هذا كله أن اقليم المدينة العربية ينتظم هنا كل حوض النهرين تاريخيا. وأن هذه السلسلة من المدن السلبية هى الجسر الذى يربط المدينة العربية فى الشام بالمدينة العربية فى العراق.

وأخيرا إذا نظرنا الى شبكة مدن العراق بصفة عامة فلن نخطىء التعرف - أولا - على بعض ملامح وظيفية خاصة سائدة فى كل قطاع منها. ففى الشمال خاصة تسود مدن القلاع والثغور بينما فى الوسط تكثر مدن البلاط والقصور ثم فى الجنوب تتبلور ظاهرة مدن الحج والقبور. كذلك لن نخطىء فى مجال المدن الكبرى تلك الظاهرة التوازنية النادرة التى تتميز بها المدن الثلاث الأولى. فمن حيث الموقع والحجم،

تبدو ثلاثتها كميزان دقيق حساس. مركز ثقله الواثق الوثيق يتوسط البلد في بغداد، بينما كفتاه الموصل والبصرة على أطراف الجانبين يتعادلان بدرجة ملحوظة. إن توزيع الاثقال الكبرى هذا لايمكن الا أن يذكرنا بالنمط النقيض في سوريا حيث المدينتان الكبريان (دمشق وحلب) هامشيتان بينما المركز الأوسط لايملك الا مدينتين متوسطتين نسبيا (حمص وحماه). ولعل هذا الفارق وحده يلخص في ايجاز بليغ الفارق بين طبيعة المعمور العراقي والسوري، فالأول غطائي وفرشة عامة متدرجة، وبين الثاني رقعي واحي لا يخضع للتدرج بل للصدفة الطبيعية.

خط الفرات

في قطاعه السوري تتباعد المدن على هذا الخط كثيرا ومعظمها صغير الحجم، ولكن الأهم أن نموها هنا حديث للغاية بدافع تعمير الجزيرة بعد الحرب الكبرى الأولى ولو أن أصول المدن قديمة. ونبدأ على الحدود السورية بجرابلس (قرقميش) قديما [1] حتى نقابل مسكنة على «كوع» النهر . بينما تقع الرقة عند ملقى البلخ ، وغير بعيد على الضفة اليمنى تقوم أطلال الرصافة المدينة القديمة ويمضي النهر نحو ١٥٠ كم قبل أن نصل الى مدينة أخرى – دير الزور (٧٤ ألفا) عاصمة الجزيرة

"1" Dubertret & Weulersse, Monuel de Geog. Syrie liban et proche - or ient Beyruth, 1940, p. 112.

السورية وكبرى مدن الأسواق فى بادية السهوب الصحراوية فتتعامل فى منتجات المراعى من لبن وسمن وجلود وصوف. كما تمثل عقدة مواصلات هامة بين الجزيرة والشامية (بادية الشام) وبين سوريا والعراق. وهى سادسة مدن سوريا وثانية مدينة على الفرات بعد النجف فى العراق. وبعد دير الزور يستقبل النهر رافده الخابور عند البصيرة وغير بعيد من الميادين. ولكن أهميته هى فيما يحمل من مدن تنقط الجزيرة: رأس العين والقامشلى والحسكة. فأما القامشلى فمدينة حديثة تماما انشئت بعد الحرب الأولى بعد ضياع نصيبين وكبديل ونظير لها. والمدينة تقع على نهر جفجغ رافد الخابور حيث يتقاطع مع خط الحدود السياسية وخط السكة الحديدية وأقدام هضبة الاناضول. وقد نجحت المدينة كثيرا ونمت إلى ٣٠ ألفا. أما الحسكة (١٣ ألفا) فمدينة مقرن تتوسط الجزيرة وتتحكم فى جذر منطقة لسان الدجلة المعروفة بمنقار البطة Bec de canard .

وإذا عدنا الى مجرى الفرات فعلى جانبى الحدود السورية - العراقية تتقارب أبو كمال والقائم وكلاهما مدينة «كوع» وبالمثل بعد قليل عانة التى يضيق عندها النهر ويختنق فتصلح مدينة كبارى والواقع أن أغلب هذه المدن القليلة على الفرات لأعلى تتحدد بالمواضع الصالحة لعبور النهر العميق الغائر (١) ثم تلى الحديثة التى تقع قريبا من نهاية

S.A.S. Huzayyin , les villes septemtrionales de L" orient Arabe , C.R cong , Intern . Geag. Varsovie, I I I P.251.

وادى حوران والتى أصبحت مفرق أنابيب البترول غربا بموازاة طريق قوافل تدمر وجنوبا بغرب بموازاة وادى حوران حتى الرطبة. ثم هناك هيت التى تمثل رأس الدلتا القديمة (١) والتى تعد من أقدم مدن العراق وتكثر حولها المياه المعدنية وتسربات القار. وبعدها يتحدد موقع مدينة الرمادى بنقطة الالتقاء بين تكوينات ارضية مختلفة. فهنا يبدأ السهل الفيضى الرسوبى للفرات وننتقل من المجرى الخانقى الى نهر فسيح متسع. والفلوجة (٢٠ ألفا) بعد أن تمثل أقرب نقطة للفرات من الدجلة، فهى «مدينة خاصرة» وتناظر بغداد عرضا وموقعا – مع الفارق الحجمى الهائل! ولهذا تقع على طريق بغداد – دمشق ومع مدينة المسيب تتكرر ظاهرة مدن المقرن كما تكثر المدن الكبيرة الحجم نوعا والمدن التاريخية الهامة والدينية المقدسة. فالمسيب تقع على نقطة تفرع النهر الى فرعيه شط الحلة فى الشرق وشط الهندية فى الغرب. وعلى الأول تقع مدينة الحلة ويقربها أطلال بابل القديمة وهى من أكبر مدن الفرات فى العراق (٥٤ ألفا) بعد أن جدد سد الهندية شبابها. ويليها مدينة الهاشمية وأخيرا الديوانية (٣٣ ألفا) كما تقع عفك؛ على فرع ثانوى منه. أما شط الهندية فتقع عليه مدن الهندية (طويريج) والكوفة وأبو صخير وأخيرا الشنافية عند ملقاة بأحد فروعه. وموقع الكوفة الآن هو إرث الماضى العسكرى للفتح العربى. فقد اختيرت كقاعدة حربية

"1" I bid .

على حافة الصحراء مصدر الغزو وعلى نهاية واد صحراوى يمتد تجاه الجزيرة العربية هو وادى الخور. ولكنها الآن مدينة آسنة لاتزيد عن مصيف للنجف.

وإلى الغرب قليلا من شط الهندية وعلى بحيرات مقتطعة تتصل به بجداول أو أنابيب للشرب والرى تقوم مدينتا الشيعة المقدستان «مكة الشيعة ومدينتها» كربلاء فى الشمال والنجف فى الجنوب – العتبات المقدسة – كمدن قبور وأضرحة Shrine Cites – الحسين والعباس فى كربلاء وعلى فى النجف – تحولت الى مدن حج ومزار. وسنلاحظ فيهما أولا موقع هوامش الصحراء الذى يفسر مناخهما القائظ الذى خلق سكنى الكهوف– «السراديب» وثانيا انها تمثل كوكبة متلاصقة متألقة من المدن الهامة التى ترث فى مواقعها كوكبة أخرى من المدن القديمة مثل الأنبار والحيرة والحلة. ولايفسر هذا التركيز قديما أو حديثا إلا ان هنا اول شقة هامة من النهر تتحرر من منافع وأهوار الجنوب حيث كانت طرق القوافل الصحراوية الآتية من الجنوب تنثنى نحوها شمالا لتتفادى المناقع (١) . ولكن الحجم يلفت النظر أيضا. فالوظيفة الدينية هنا قد نمت هاتين المدينتين نموا كبيرا، فالنجف ٨٩ ألفا وكربلاء ٦١ ألفا. وبهذا تكون النجف خامسة مدن العراق وكبرى مدن الفرات.

"1" Huzayyin, Ibid, Araba & the far est, cairo, 1942 P.11.

هذا عدا تيار الحج الذى يصب بين مايصب اكثر من ١٠ آلاف ايرانى كل سنة. بل إن كثيرا من الايرانيين يقيمون هنا اقامة دائمة حتى وصفت المدينتان بأنهما شبه اسافين ايرانية فى محيط عراقى. فالسكان العابرون هنا Pop. Flottonte لاتقل أهمية عن السكان المقيمين Resi- dent pop كذلك يمكن ان نقول انه الى جانب كل من المدينتين المقدستين «مدينة موتى» قد تزيد عن مدينة الأحياء حجما وسكانا فالآلاف من المؤمنين يوصون بأن يدفنوا فيهما او يأتون فى نهاية العمر ليموتوا فيهما! وعدا الوظيفة الدينية الطاغية فلكربلاء صناعة نسيج وخزف وصياغة المعادن الكريمة وإذا عدنا اخيرا للفرات فسنجد الماوة قرب ملقى شطى الحلة والهندية. تليها الناصرية المدينة الحديثة التى تتوسط رقعة خصبة وتمثل بحكم موقعها قرب نهاية شط الغراف عقدة مواصلات هامة بين مدن الفرات والدجلة. وآخر مدن الفرات هى سوق الشيوخ على رأس هور الحمار. ومجموعة هذه المدن الأخيرة تمثل ايضا شقة من النهر تحررت من الأهوار وتقع إلى الجنوب منها بمثل ما أن مجموعة النجف – كربلاء تقع إلى الشمال منها (١) .

خط الدجلة

الدجلة الأعلى قطاع يتلقى روافد، بينما الدجلة الأسفل قطاع يرسل فروعا. ولما كان النهر مهد الفيضانات الجامحة الفجائية، فإن ملاقى

"1" HU Zayyin , Ipid .

الروافد العليا أشد تعرضا للخطر ولهذا تتحاشاها المدن بوضوح. فسواء على ملقى الزاب الأكبر أو الأصغر أو الشط العظيم أو ديالى - بغداد ليست على ملقى الديالى كما يظن وانما شماله بمسافة - لن تجد مدينة ما. وانما بعيدا عنه وغالبا فى اتجاه المنبع اى قبل - لابعد - نقطة احتشاد الماء المتدفق وعلى العكس فى نقط تفرع الدجلة الأدنى التى تعد صمامات أمن تفرق تدفق الفيضان تقوم المدن بلا حرج. تلك قاعدة عامة لابد أن نذكرها قبل أن نتتبع خط مدن النهر.

يبدأ الخط فى الشمال بمدينتى الحدود جزيرة ابن عمر السورية وفيشخابور العراقية. وبعد قليل يمر بعين زالة التى بدأت تنمو مع استثمار الزيت قريبها. وخارج النهر فى بادية الجزيرة تقع غير بعيد تلعفر (تل أعفر) ثم إلى الغرب منها بمسافة بلد سنجار. والمدينتان من مدن مابين الضفاف التى ترتبط بالأمطار المحلية خاصة فى بلد سنجار التى تقع على السفوح الجانبية لجبل سنجار. وتصل تلعفر الى ٢٥,٥ ألف. واذا عدنا الى الوادى مباشرة فسنجد الموصل. عاصمة الشمال. والموصل تقع على الضفة اليمنى - الأعلى هنا - للنهر لتتحاشى خطر الفيضان. ولكن أهمية الموصل إنما هى فى موقعها. ودليل هذه الاهمية انها قد ورثت فيه نينوى عاصمة أشور القديمة التى تحتل الموضع المقابل على الضفة اليسرى. اى أننا هنا ازاء موقع جغرافى خالد.

والسبب انه ملقى أربعة اقاليم جغرافية متفارقة. سهل آشور الزراعى الكثيف السكان. جبال كردستان الرعوية، استبس الجزيرة الزراعى الرعوى، وأخيرا مرتفعات سنجار الرعوية الزراعية، وهى لهذا عقدة مواصلات كبرى على الخط الحديدى الى سوريا وتركيا . أما اقليمها المباشر فزراعى خصيب غنى بالفواكه والزهور بفضل مناخها الجبلى الشمالى حتى سميت «أم الربيعين» وشهرتها فى الزهور تذكر بكيزانليك في بلغاريا . اما صناعيا فقد اندثرت صناعة الموسلين القديمة وحل محل النسيج دباغة وصناعة الجلود نظرا للموقع الرعوى. اما سكانا فقد بلغت فى تعداد ١٩٥٧ نحو ١٨٠ ألفا وهى بذلك ثانية مدن العراق. ونظرا للموقع الجامع فإن التركيب الجنسى مختلط.. فإلى جانب الأغلبية العربية اقليات هامة كردية ويهودية ويزيدى ونصارى بل أنها عاصمة الكلدان النصارى.

وبعد الموصل وحتى بغداد لن نجد الا مجموعة من المدن الصغيرة. فازاء ملقى الزاب الأكبر ولكن الى الغرب من النهر فى الجزيرة مجموعة من المدن الصغرى قصب وجوان ونجمة ورمانة والقيارة التى تمتاز جميعا برواسب بترولية لكن من نوع ثقيل الكثافة النوعية مما جمد استثمارها . فاذا امكن استغلالها فإن المستقبل لهذه المدن. وعلى الدجلة قبل الزاب الأصغر مدينة شرقاط، (آشور القديمة) بينما ليس على ملقى الزاب الأصغر نفسه اى مدينة. وبعد الملقى بمسافة تقع الفتحة التى يدل اسمها على مغزاها الجيومورفولوجى. فهى تقع على الفتحة المائية Wa-ter gap التى يخترقها النهر بين سلسلتى جبال حمرين ومكحول. وقد تأكدت اهميتها البشرية كممر تاريخى منذ بترول كركوك. ففيها يمر الأنبوب فى طريقه الى الحديثة على الفرات. وازاء الفتحة على الضفة

اليمنى للنهر مدينة اخرى هى بيجي التى اصبحت محطة دفع للبترول، ثم يلى جنوبا تكريت ثم سامرا وكلاهما من العواصم التاريخية التى ظهرت مع ظهور النفوذ التركى في الدولة العباسية فكانت سامرا مدينة بلاط Court City فخمة بينما تكريت بقلعتها المشهورة كانت مدينة قشلاق للجند الاتراك بعد أن ضاقت بهم بغداد. ولكن المدينتين الآن متواضعتان ولو أن لسامرا وظيفتها الدينية كمدينة أضرحة (الهادى والعسكرى) ثم نصل الى بلد جنوب سامرا وشمال مصب العظيم ولموقعها مغزاه الجيومورفولوجي اذ عندها ينتقل الدجلة من مجراه الأعلى ليدخل دلتاه او *سهله الفيضى الرسوبى* فهى فى هذا قرين الرمادى على الفرات. وعلى ديالى قبل أن يصب فى الدجلة مدينة بعقوبة.

أما بغداد فتقع على الدجلة نفسه قبل مصب الديالة بعدة كيلومترات تفاديا لمضاعفة خطر الفيضان. ولكن المهم فى بغداد هو موقعها اولا وقبل كل شيء هذا الذى توضحه الجغرافيا ويؤكده التاريخ. فموقعها لا منافس له فى العراق . لانها تحتل القلب الهندسى والعمرانى للدولة معا. فهى أولا تتوسط بين الشمال والجنوب تماما فى قطاع من الوادى اقرب الى الاستبس الشمالى الصلب منه الى الطين الهش جنوبا. وهذا جعلها ابتداء فى أفضل منطقة للعبور بين البحر المتوسط وايران (١) ثم هى *تتوسط العراق* (١) *من الشرق الى الغرب* بفضل وقوعها على

"1" J.H.G. Lebon, "Site & Modern Development of Baghdad" . Bull. Soc . Geog. Egypte, t. . XXIX , 1956, pp. 8 - 9 , W.b. Fisher, Middle East, p.367

«خاصرة» الرافدين. وموقع الخاصرة هذا وهبها الحماية الطبيعية قديما ومكنها من استعمال مياه النهرين معا حديثا. هو بمعنى آخر يجعلها بؤرة العراق ويمنحها عقدية نادرة هيدرولوجيا ونقليا. ولكن مركزية وتوسط بغداد تمتد أيضا الى الغطاء البشرى «فخريطة سكان العراق - كما يقول ليبون - توضح أن بغداد الآن تقوم فى وسط أهم تجمع مدنى فى القطر. كشمس وسط أقمارها (١) وهى تقع فى مركز الثقل الديموغرافى بين أهم كتلتين سكانيتين فى العراق: فى الشمال الشرقى كتلة آشور المتوسطة الكثافة لكن الكبيرة المساحة، وفى الجنوب كتلة الدلتا السواد القديم الأقل مساحة ولكن الأكبر كثافة. فالكتلة الأولى التى تشمل ٥ ألوية هى الموصل واربيل وكركوك والسليمانية وديال تضم (١٩٥٧) نحو ٢ مليون نسمة، بينما تضم الكتلة الثانية فى ٧ ألوية هى الحلة وكربلاء والكوت والعمارة والديوانية والناصرية والبصرة نحو ٢,٦ مليون. وهكذا تقوم بغداد بين كفتين متكافئتين تقريبا لتحفظ التوازن العمرانى بينهما. وهى بعد تتوسط العراق دينيا وسياسيا: فهى تحتل موقعا حساسا يحفظ التوازن الدقيق بين الشيعة فى الجنوب والسنيين فى الشمال - ونكاد نضيف أيضا بين الأقلية الكردية فى الشمال الشرقى والأغلبية العربية فى الجنوب.

بغداد إذن موقع حتمى بالجغرافيا، وكذلك ولذلك خالد بالتاريخ فلبغداد وراء تاريخى ألفى يسبقه مدينة ابوجعفر المنصور، وهى وريثة

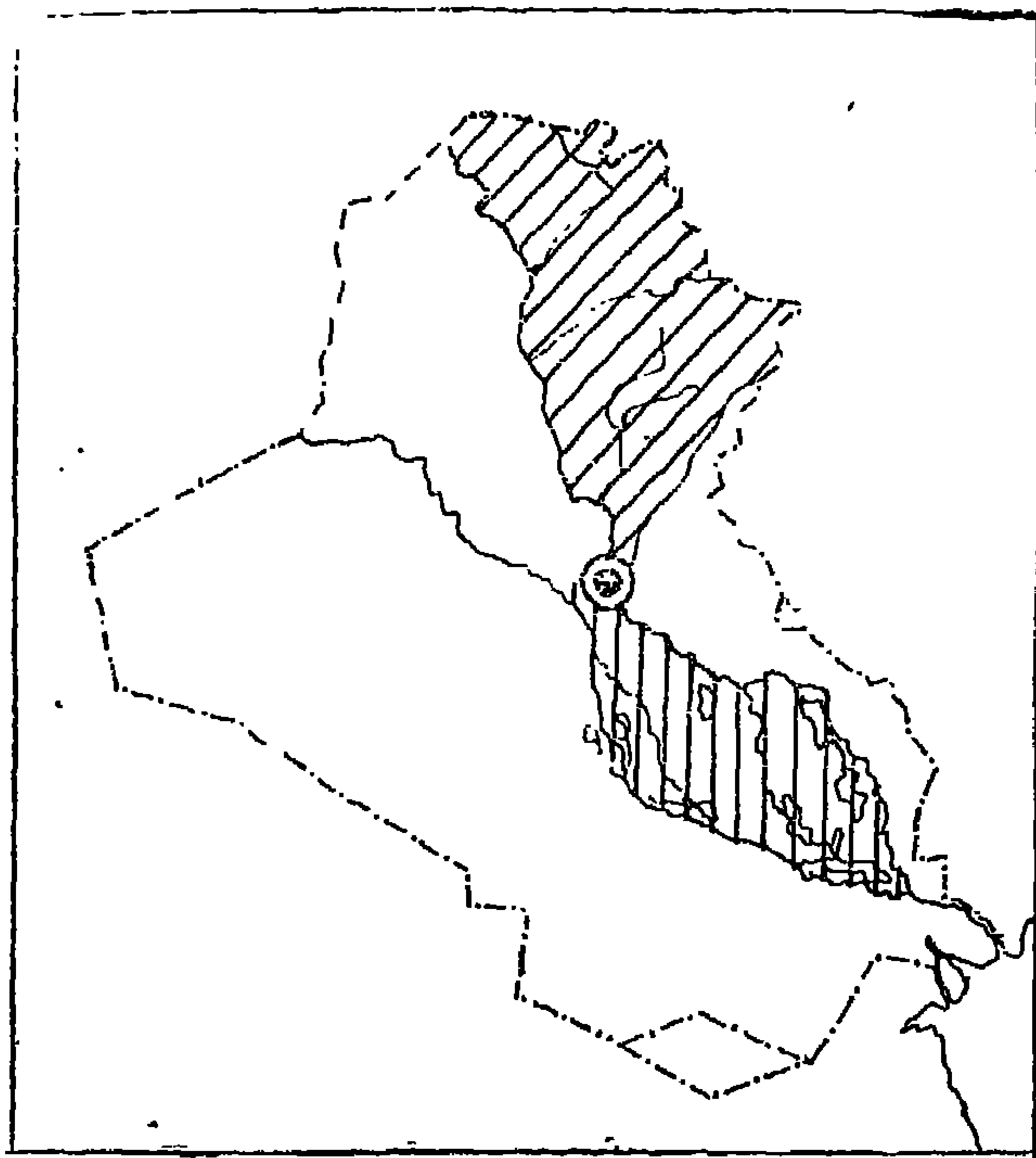
"1" p.8.

بابل القديمة وقطيسفون (مدائن كسرى) الساسانية، وثلاثتها تمثل مواضع مختلفة فى اطار موقعي واحد هو خاصرة العراق وقد قدر البعض انها بلغت مليونين فى عصرها الذهبى وبعد تخريب المغول «الوندالى» نفضت بغداد عن نفسها غبار التتار وقفزت الى الحياة مرة ثانية وبلا انقطاع. وفى الفترة الحديثة أخذت تنمو بسرعة، وجاءتها دفعة البترول الذى انصبت معظم مكاسبه فيها. كما أزال مشروع الثرثار عقبة اخطار الفيضان التى كانت تحد نموها. ولهذا دخلت اخيرا ومنذ نهاية الحرب الثانية فى مرحلة نمو انفجارى حقيقة (١) ولعل ظاهرة نمو المدن بتدفق الريفيين الفقراء فى مدن العشش والاكواخ Tintowns لاتتمثل فى العالم العربى كما تتمثل فى بغداد بالذات حيث اصبحت مشكلة بلدية بل سياسية حقيقية! وبحسب ١٩٥٧ بلغت ٧٨٥ الفا. ولاشك ان «بغداد الكبرى» التى تضم «المدن التوابع» مثل المدينة الدينية الكاظمية شمالها والخادمين تصل اليوم كما يقدر البعض الى المليون(٢) وهى بهذا تكون ثانية عاصمة عربية حديثة تصل الى علامة المليون. وثالثة مدن العرب حجما بعد القاهرة والاسكندرية. ومعنى هذا انها تضم الآن بين خمس وسدس سكان العراق ونحو ثلث سكان المدن فى العراق (البالغين ٢,٤٣٨,٠٠٠) بينما لاتزيد الموصل المدينة الثانية بعدها عن ٢٣٪ منها مما يدل على درجة اولوية مرتفعة، وطبيعي ان تتركز أقليات عدة فى بغداد كعاصمة، فثمة احياء يتجمع فيها الكلدان والنساطرة. الخ. ولكن لاشك ان اليهود كانوا اخطرها عددا ودورا. فمنذ

---

(١) ليبون ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) جاسم الخلف ص ٣٢٤.



موقع بغداد المتوسط بين كتلتي العراق

نحو عقد فقط، كانت الطائفة اليهودية وحدها نصف مجموع السكان الكلى! وتسيطر على التجارة.. ولكن الهجرة الى اسرائيل حوالى ١٩٥٠ صفت أغلبيتها (١) واخيرا فإن بغداد مدينة ضفتين Ville - A - Cheval والكرخ فيها كالجيزة فى القاهرة.

بعد بغداد يبدأ القطاع الأدنى من الدجلة الذى هو أقل مدنا من القطاع الأعلى نظرا لكثرة الأهوار والمستنقعات الدائمة والمؤقتة يمينا وشمالا التى تخنق السكنى وتئد المدن، والمدن المحدودة المتباعدة التى تظهر تقوم عادة فى أكبر الرقع الخالية من المستنقعات أو التى تنقطع فيها الأهوار، فالمرحلة من بغداد حتى مدينة الكوت (كوت العمارة) أو نحو ٣٠٠ كم تكاد تخلو من المدن ذات الشأن، لأن النهر هنا شديد التعرج والانحناءات جدا حتى لتطغى المياه على مساحات كبيرة على الجانبين. فلا تزيد حلات الصويرة والعزيزية والنعامية عن مدن قروية. اما كوت العمارة فتقع على نقطة تفرع شط الغراف كمدينة اسواق هامة تمتاز بمناخ جيد وتفيد من سد الكوت الذى انشىء فى ١٩٢٦ وتصل الى ٢٦,٥ ألف. والغراف نفسه يحمل عددا من المدن التى تحاصرها الأهوار من الجانبين واهمها كوت الحى وقلعة سكر. اما على الدجلة فهناك مدينة الشيخ سعد تليها مدينة على الغربى على كوع انثناءة النهر جنوبا. وقبل أن نصل إلى العمارة نقابل مدينة الكميت.

---

(١) ليبون ص ٢٠.

أما العمارة نفسها فعقدة مواصلات تتوسط حقلا كبيرا من الأرز وبستانا واسعا خالصا نسبيا من الأهوار وهى كبرى مدن المجرى الادنى من الدجلة فتبلغ ٥٣٫٢ ألفا . ثم نلقى مدينة قلعة صالح إلى أن نصل القرنة التى هى - كالمقرن فى السودان - مدينة مقرن ، أو هكذا كانت . فحتى ٦٥ سنة مضت كان الدجلة والفرات يلتقيان عندها شمال هور الحمار ولو أنهما يلتقيان اليوم جنوب الهور فى شط العرب .

أما شط العرب وإن كان ينتمى إلى كل من الدجلة والفرات فيمتاز بكوكبة صغيرة من المدن ولكنها هامة ونامية . فعلى رأسه وعلى جدول منه تقع البصرة التى تقع نواتها القديمة بعيدا عن الشط بضعة كيلو مترات ولكن نموها الحديث يزحف حثيثا نحوه . والبصرة عاصمة الجنوب وثالثة مدن العراق (١٦٥ ألفا) هى النظير الجنوبى المكافىء للموصل فى الشمال . وهى تؤلف معها ميزانا مدنياً دقيق التوازن حجما وتباعدا يرتكز على بغداد . وهى بعد ميناء العراق الوحيدة ونموها كميناء أمر حديث العهد نسبيا ، ولكن مشكلتها الكبرى هى الإطماء الدائم . إلا أنها تستفيد من حركة المد والجزر الفريدة فى شط العرب فى فتحها للعابرات المحيطة الكبيرة . ولقد كانت ثروة البصرة المحلية التقليدية هى التمر - فهى تتوسط أكبر غابة للنخيل فى العالم حتى ليمكن أن يقال إنها عاصمة التمر فى العالم ! ولكن جاء البترول حديثا جدا إلى جوارها ليمنحها دفعة أخرى من النمو والأهمية ومن قبل

قد أصبحت مدينة حقول البترول الزبير (٩ر٢٨ ألفا) مدينة كبيرة وهى والشعيبة من توابع البصرة مدنيا . والبصرة التى تتعامل بالضرورة فى الجزء الأكبر من كل تجارة العراق الخارجية لم تعد صادراتها تقتصر على البلح والحبوب وإنما أيضا تشمل البترول . وفيما بين بداية ونهاية شط العرب فليس ثمة مدن [عدا خورام شهر (المحمرة) وعبدان على الجانب الإيرانى] إلا أبو الخصيب جنوب البصرة بنحو ٢٠ كم وهى مدينة تمر أيضا . أما الفاو على نهاية الشط فظلت مشتل النخيل الفحل إلى أن أصبحت الآن الميناء الأمامية لبترول البصرة التى يربطها بها أنبوب كبير .

خط المرتفعات شبه الجبلية

إلى الشرق من الدجلة وعلى محور شمالى غربى - جنوب شرقى سلسلة من المرتفعات شبه الجبلية تترامى بين الزاب الأكبر وديالى وعبر مجاريها الوسطى ممثلة منطقة انتقال بين وادى الدجلة وبين المنطقة الجبلية فى أقصى شمال شرق العراق أو طلائع النظام الجبلى الألبى . والسلسلة لا تزيد فى متوسطها عن ١٠٠٠ مترا ارتفاعا . ولا تنتهى شمالا عند الزاب الأكبر وإنما تنثنى غربا مستمرة عبر الدجلة فى صورة جبال تل أعفر وسنجار . وتتألف هذه السلسلة من ثلاثة خطوط تحصر بينها سهولا مرتفعة ضيقة . وعلى السلسلة ككل تتعامل شبكة مجارى روافد الدجلة الأربعة فى نمط تكعيبى trelised مثالى

وتقطعها بعمق فى ثغرات وخوانق وفتحات مائية Water-gapsوقليلا مافى فتات هوائية Wind-gapsتمثل مواقع استراتيجية هامة لا يمكن إلا أن يكون لها رد فعلها المدنى ،لأنها تمثل المنافذ الطبيعية بين المنطقة الجبلية - سلة خبز العراق - والوادى - بطن العراق - من ناحية ، كما تمثل من ناحية أخرى محطات الطريق التجارى التاريخى بين الشمال الغربى والجنوب الشرقى من تركيا (وأوربا) وإيران (وآسيا) . كما أن هذه المواقع المنيعة لها دورها العسكرى الهام حيث تمثل المفاتيح التى تسيطر على مداخل العراق من الشمال الشرقى . وأخيرا وليس آخرا فقد جاءت ثروة العراق غير المنظورة وكنزها الدفين - البترول - ليتركز بالصدفة الجيولوجية فى هذه السلسلة . والواقع أن كل هذه المزايا تستقطب من السلسلة فى خطها الأوسط بالذات ، ولهذا فإنه هنا خط المدن بامتياز . ومن الأصح أن نقول نصف خط إذا ما قارنا بالخطين النهريين - ونصف خط من مدن الفتحات gap-townsإذا أردنا التحديد . وبديهى أن هذه المدن ستتحدد عند نقطة تعامد الرافد النهرى العرضى على محور المرتفعات الطولى . وطبيعى أيضا أن أحجام هذه المدن التجارية الحربية التعدينية لا يمكن أن تتعدى سقفا معينا باستثناء ما يفرضه «الحتم البترولى» . كما أن هذا الخط - كنظيره الجبلى إلى الشرق - يمثل مدن الأقليات بالضرورة ، فهنا منطقة الخلط بين العرب والأكراد والأتراك ، بل إن العرب فى

بعضها تصبح الأقلية ، كما أن أسماءها تكشف عن الأصل أو العنصر التركى فيها مرة أو لكردى مرة أخرى . وأخيراً فإن الخط يكاد يرادف خط سكة حديد كركوك الضيقة التى تبدأ من بغداد وتنتهى إلى إربل .

يبدأ الخط شمالا بمدينة الكوير على أدنى الزاب الأكبر حيث تنتهى سلسلة جبال أوانة داغ أولى قطاعات خط المرتفعات الأوسط والتى تمتد بين الزابين . ثم تلى مدينة ديبكة التى تقع على ضلوع وسط أوانة داغ وتشرف على سهل ديبكة الزراعى الرعوى . وعلى عروض ديبكة وإلى الغرب منها مدينة مخمور . وهى مع ديبكة تمثل مراحل الطريق بين إربيل وشرقاط على الدجلة . ثم نعود إلى صلب الخط فى ألتون كوبرى مدينة الفتحات المثالية التى تقع على الزاب الأصغر حيث يقطع بعمق جبال أوانه داغ عن جبال كانى دومان . وتليها كركوك التى تقع على الرافد الشمالى للشط العظيم على الفتحة الجبلية التى تفصل جبال كانى دوملان عن جبال على داغ وبابا جرجر - والأخيرة هى قبة الزيت الهائلة التى جعلت من كركوك عاصمة البترول فى العراق . وقد غير البترول كركوك من مدينة ريفية هادئة ومركز زراعى للحبوب والطباق والألياف إلى مدينة تعدين عارمة . وحتى ١٩٤٧ كانت ٦٩ ألفاً . وقد قفزت المدينة مع نمو الانتاج وتعدد الأنابيب حتى أصبحت رابعة مدن العراق وتعدت علامة المائة ألفا (٦ر١٢٠ ألفا) وانتشرت حولها مدن العمال والمدن التوابع سواء فى كركوك القديمة (الصواب الكبير) أو

كركوك الحديثة (القرية) . وقد تضاعف حجم كركوك عامة ست مرات خلال ٣٥ سنة . والمدينة تعدينية أكثر منها صناعية ، وتمثل عقدة مواصلات هامة تتوسط قلب مرتفعات شمال شرق العراق برمتها . وهى لها بمثابة «المدينة الأم» (المتروبوليس) .

ويعد كركوك جنوباً تقوم مدينة طاووق على الرافد الثانى للشط العظيم حيث يفصل جبال على داغ عن جبل الطوز ، التى تنفصل بدورها عن جبال كفرى داغ جنوبا بواسطة مجرى العظيم نفسه . وفى الفتحة الناشئة تقع مدينة طوز خورماتو . ونتجه جنوبا فنجد بين الشط العظيم وديالى سلسلتين هما كفرى داغ فى الشمال وأقمار فى الجنوب، وفى الفتحة الهوائية بينهما تقوم كفرى . وأخيراٍ وعلى رافد جنوبى لديالى تقع مدينة الحدود والبترول خانقين التى يسهل اتصالها ببغداد مباشرة عن طريق وادى الديالى مارا بيعقوبة وتصبح لهذا حلقة اتصال على الطريق الرئيسى بين بغداد وطهران . وغير بعيد تقع على الحدود تماما مدينة نفط خانة مدينة البترول التوأم لنفطى شاه الإيرانية .

وإذا كان خط مدن الفتحات شبه الجبلية ينتهى عند نفط خانة . فإن من الممكن أيضا أن نعد هذه المدينة بداية تذييل صغير للخط المدنى ولكن فى إطار جيوموفولوجى مختلف . فعلى طول القطاع مابين ديالى وكوع الدجلة الأدنى وقريبا من الحدود السياسية تنتشر سلسلة من الدالات المروحية الداخلية inland deltasأو الدالات المعلقة -hang

†ing deltasالتى خلفتها الروافد والجداول الجبلية التى تتأصل من سلسلة بوشتى كوه الإيرانية حين تهوى فجأة إلى سهول الدجلة المنخفضة . وتبدو هذه الدالات الخصبة كالجزر الزراعية المنبثة على طول الحدود السياسية بصورة تذكر بقوة بدلتا الجاش وبركة على حدود السودان السياسية . هكذا نجد مدينة مندلى جنوب نفط خانه وفى عروض بغداد ثم مدينة بدرة إلى الجنوب بمسافة . وكل مدينة زراعية ومدينة حدود .

خط الجبال

خط كردى فى أساسه ، ولكنه أقل خطوط المدن العراقية وزنا وأهمية وإن كان أكثرها ارتفاعا .. فمن سلسلة المرتفعات شبه الهضبية ترقى كردستان بسرعة إلى هضبة عالية منبسطة نسبيا تمثل التواء مقعرا بين ثنايا النظام الالتوائى وغنيا بالرواسب الطميية الخصبة . ولكن الهضبة الزراعية الرعوية إلى حياة الريف أقرب منها إلى حياة المدن . فلا تكثر بها المدن الهامة ولا نكاد نجد إلا إربل فى الشمال وجمجمال فى الجنوب . فأما إربل فتتوسط سهل إربل الواسع الخصيب الشهير بزراعاته المطرية الديم إلى جانب رى الكهاريز (الفجاجير) والواقع بين الزابين . والمدينة تمثل أيضا نهاية سكة حديد كركوك الضيقة وتعد من كبريات مدن المرتفعات (٣٤٫٧ ألف) . أما جمجمال فتقع تماما على منبع الرافد الأوسط للعظيم وتمثل مدينة سوق ومدينة

زراعية . وفيما عدا هذا فإن المدن لا تتكاثر إلا إلى الشرق فى تضاعيف السلاسل الجبلية الحقيقية فى أقصى شمال شرق العراق .

فالى الشرق من الهضاب السابقة يبدأ النظام الجبلى الحق الذى ينقسم إلى محورين رئيسيين : محور مزدوج فى الغرب ومحور معقد على الحدود فى أقصى الشرق ، وبين الإثنين تنحصر فى ثنية مقعرة سهول عليا أو هضاب معلقة تختطها غالبا المنابع العليا لروافد الدجلة . وسلاسل المحورين شرقا وغربا معقدة وبسيطة خلو من المدن - إلا من بعض المحطات الجبلية والمصايف الجبلية مثل بنجوين على الحدود شرقا وغربا شقلاوة وسر سنك من المصايف وكوينسجق وعقرة ودهوك من المحطات الجبلية . أما المدن الحقيقية فتقتصر على هضاب المقعر الذى بينهما . فهنا فى هذه الهضاب مابين الجبلية intermontane piateausتظهر الزراعة والرعى كقاعدة اقتصادية تقوم عليها المدن الجبلية العالية . وليست هذه الهضاب العليا بعريضة أو بمتصلة بل هى شرائح ضيقة منعزلة ولكنها تمثل قاعدة عمرانية معقولة لتقيم مدينة زراعية من مدن الأسواق الجبلية . فثمة من الشمال سهل السندى أو سهل زاخو الذى يصرفه إلى الدجلة وقريباً منه كثيرا نهر الخابور الذى تقوم على وسطه مدينة زاخو . وللسهل ومدينته أهمية خاصة غير الإنتاج الزراعى : هما المدخل الطبيعى بين العراق وتركيا عبر ممر جبلى استراتيجى . ومن ثم فإن زاخو مدينة بوابة ومدينة حدود . ثم يلى

جنوبا بشرق سهل العمادية الذى تتوجه مدينة العمادية كما تشرف على حوافه مصايف السولاف وسرسنك . وعلى المنابع العليا للزاب الأكبر تقوم رواندوز كقلعة كردية شماء . ثم نصل إلى سهل رانية حيث تقوم مدينة رانية على مضيق جبلى هام شقه الزاب الأصغر . وأخيرا وعلى الحدود الإيرانية وفى حوض أعالى ديالى نجد سهل شهرزور الطولى الذى تقوم السليمانية فى شماله وسط حقل تبغ يجعلها مدينة تجارية هامة وصلت إلى ٥ر٤٨ ألفاً أى كبرى مدن المرتفعات بعد كركوك ، بينما تقوم حلبجة فى جنوب السهل كمدينة حدود تقليدية .

الفصل الحادى عشر

الجـزيرة العربية (١)

كخرقة بالية حواشيها من الذهب ، يتوزع العمران فى الجزيرة العربية على الهوامش والسواحل تاركا القلب الجغرافى أقرب إلى القلب الميت بشرياً .ومن ثم. ولا يستثنى من ذلك إلا نطاق معين في نجد يتألف الهيكل الأساسى من إطار ساحلي يخطه محور طولي فى الوسط. وبذلك تكون السواحل والمرتفعات الغربية محورا أول ، ونجد محوراً ثانياً ، والسواحل الشرقية محوراً ثالثاً ، والسواحل الجنوبية محوراً رابعاً وأخيراً . وكل منها تغلفه شرنقة سميكة من الصحارى. وتاريخياً وتقليدياً كان أولها أهمها ، وربما كان المحور الشرقى أخفها وزناً حتى ثقلت - أم نقول رجحت ؟ - كفته أخيراً بالبترول. ومن المرجح أن البترول قد وسع من رقعة محور الوسط وحوله من محور طولى إلى عرضى يصل مابين الساحلين الغربى والشرقى بدرجة أو بأخرى. ويتألف كل محور من هذه المحاور العريضة من خط أو أكث

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على المراجع الآتية :
The Middle East, A Palitcal & Economic Survey, Roy Inst. Intern . Affairs, Loid., 1958, pp. 73 - 194, W.b. Fisher pp. 427- 449.
عزة النص . أحوال السكان في العالم العربى ص ٦٢ ـ ٦٧ كارل تويتشل ، المملكة العربية السعودية. مترجم . القاهرة ١٩٥٥ ، كرد على وزملاؤه ، صليبا والحاج ابراهيم.

من خطوط المدن . ومن هذا المجموع تتكون الشبكة العربية : مترامية فى أبعاد شبه قارية ، ونسيجا ممزقاً بالصحارى فى كل تضاعيفه ، وأخيرا خفيفة فى وزنها العام إلى حد بعيد .

محور السواحل والمرتفعات الغربية

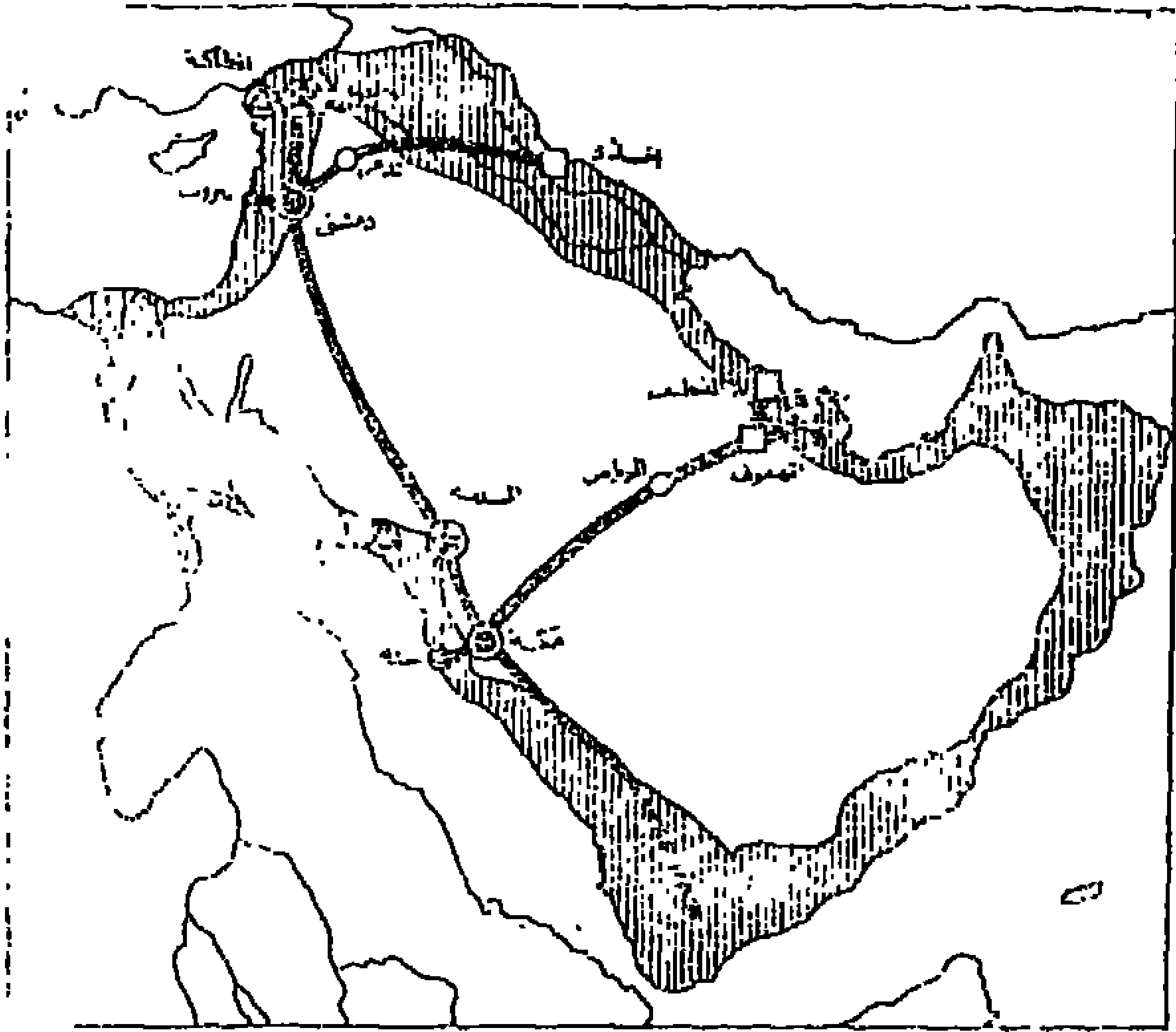
خـط تهامــه

هذا الخط استمرار لخط مدن الأخدود فى الشام والذى ينتهى بالعقبة . ويمكن أن نسميه خط تهامه وهو الاسم الذى يطلق على الشقة الساحلية الضيقة المنخفضة الحارة الرطبة على طول شواطىء الجزيرة العربية . وأول قطاعاته هو قطاع تهامة مدين وهى النصف الشمالى من الحجاز ، وهو أضعفها مدنيا . فالمطر القليل هنا ينحدر على سفوح السراة الشرقية التدريجية وينتهى إلى أقدامها بينما يندفع فى أودية سريعة قصيرة على السفوح الغربية الشديدة الانحدار فتذهب بددا دافقا run-off إلى البحر وتظل تهامة جافة صحراوية بلا سكان بلا مدن ، كما تنعدم على الساحل الضيق نفسه لمناخه الحار الرطب القاسى . ولهذا فليس ثمة إلا «موانى الضرورة» التى أهمها مويلح وضبا والوجه ، والأخيرة يقع عند نهاية وادى الحمض ويمتاز بمرفأ عميق . وكلها موانى تافهة أقرب إلى قرى الصيد وكانت تمثل فى الماضى نقط مراحل وحماية على طريق الحج من مصر .

وقطاع تهامة - النصف الجنوبى من الحجاز - هو النقيض المباشر

لقطاع مـدين . فـهـو أثمن حلقـة فـي الخط كله ، ويعـد «بوابة الجـزيرة العربية» بلا جدال والمدخل الطبيعى إلى وسطها . ويرجع هذا إلى أن تهامة - أولا - حوض سهلى نسبيا يأخذ شكل قوس كبيريتخلف عن تراجع جـبـال سـراة الحـجـاز إلى الداخل فى هذا القطاع . ثم هى - ثانيا- تعد موقعا «خاصرة الجزيزة العربية» حيث تصل المسافة بين البحر الأحمر والخليج العربى إلى أدناها . فهى موضعا نطاق زراعى غنى بالماء والأرض نسبيا ، وهى موقعا مركز تجارى رئيسى يسيطر على تجارة القوافل عبر الجزيرة ويشارك فى الوساطة التجارية . هذا عدا أنها قبلة الحج ووطنه . ولهذا تشتد كثافة السكان وتتعدد المدن الهامة سواء من الموانى أو المدن البيدمونتية إلى الداخل قليلا . والمتأمل لموقع ودور تهامة الحجاز فى الجزيرة العربية واجد بصورة ملحة إقليميا يشبه فى كثير منطقة بيروت - دمشق فى الهلال الخصيب . فكل منها يتوسط المعمور على الساحل الغربى الجبلى من إقليمه ، بينما يقع خلف كل منهما فاصل صحراوى كبير يليه إلى الشرق إقليم معمور هام . وإذا كانت بيروت هى بوابة الشام ، فكذلك جدة بوابة السعودية . وكما تترابط دمشق وبيروت ترابطا عضويا كمدينتين متناظرتين تترابط مكة وجدة ترابط الرأس والجسم . وكما كانت تدمر نقطة مرحلة كبرى عبر الصحراء فكذلك الرياض الآن ، وكما تؤدى الأولى إلى العراق الخصيب تؤدى الثانية إلى الحسا البترولى . وفى هذا التناظر الاقليمى تأخذ

المدينة فى السعودية بلا تردد مكان حلب فى الشام موقعا ودورا : فكما أن حلب بوابة الشام - الأناضول فكذلك المدينة بوابة الجزيرة - الشام، وكما كانت حلب العاصمة والمدينة الأولى حتى قريب كانت المدينة أهم وأكبر من مكة حتى قريب .



بعض المدن النظائر على جوانب الحلقة السعيدة

ولنتتبع الآن خط تهامة بالتفصيل . تبدأ سلسلة الموانى بالحنك ثم أم لج (أملج) وهى قرية صيد ثم ينبع ورابغ . وتقدر ينبع بنحو ١٠ آلاف وهى ميناء المدينة ولكن المسافة بينهما طويلة صعبة . وهى ميناء الحجاز الثانية بعد جدة ، ومرفأها عميق جيد لكن مياه الشرب عقبة رغم الصهاريج والمكثفات (لكنداسة) . وينبع حلتان توأمتان : ينبع البحر» وهى الأساس ، وإلى الشرق منها «ينبع النخيل» وهى واحة زراعية من عدة قرى يطل عليها من الشرق جبل رضوى . وآخر موانى تهامة الحجاز أهمها : جدة .

وجدة (١٢٠ ألفا) تقع فى منتصف ساحل البحر الأحمر تقريباً كميناء لمكة التى تبعد عنها ٩٠ كم . ميناؤها خطرة لكثرة الشعاب المرجانية فيها والجزر المرجانية حولها . بيوتها من الحجر . وتنقصها موارد المياه ولذا تبنى السقوف مائلة لينحدر عليها ماء المطر إلى صهاريج خاصة تحتها بطريقة تذكرنا بالمجامع الرومانية .Roman impluvia . كذلك كان الماء ينقل إليها من آبار بعيدة محيطة ومنذ القرن الحالى أنشئت مصاف لتقطير الماء العذب من ماء البحر ، فلم يعد الماء عامل تحديد سكانى . وقد كانت جدة الميناء الوحيدة على البحر الأحمر فى القرن الماضى ، ولذا كانت مزدهرة ناجحة . ولكن إنشاء بورسودان إزاءها على الساحل الإفريقى سلبها كثيرا من تجارتها وأهميتها . ولكنها عادت إلى أهميتها بعد قيام الدولة السعودية

حيث أصبحت الميناء الرئيسية التي تتلقى نحو ٩٠٪ من حركة الحج وتستورد السلع الغربية للجزيرة ، كما أفادها تركز كل الهيئات السياسية الأجنبية فيها نظرا لتحريم دخول غير المسلمين في الأراضي المقدسة بمكة والمدينة . ولعلها الآن ثالثة موانى البحر الأحمر حجما بعد السويس وعدن .

خلف موانى تهامة خط من المدن البيدمونتية يشمل فى الشمال بدر حنين وزيد ولكنها لا تزيد عن قرى ، ولكنه ينتهى جنوبا بمكة التي تبلغ من ١٢٠ إلى ١٥٠ ألفا . وتقوم «أم القرى» فى واد غير ذى زرع لقلة رواسبه الطميية ، وهى فى هذا أقل حظا من غيرها من مدن الحجاز . الأساس الدينى البحت في قيامها واضح ، والأساس الدينى خلف ذلك الأساس هو بئر زمزم . والحماية الطبيعية فى الوادي تجعلها مدينة غير مسورة . إلا أن بيوتها - ككل مدن النطاق الصخرى فى بلاد العرب - كلها حجرية . وأما مناخها فحار لانخفاضها ، إذ لا ترتفع عن سطح البحر إلا ١٠٠ متر . والإنتاج الزراعى المحلى لا يكفى إلا خمس السكان فقط . وطوفان الحج السنوي ، الذى يرفع سكان المدينة مؤقتا إلى ثلاثة أمثال السكان المقيمين ، طوفان شديد التنافر انثروبولوجيا . ومنه يستمد جزء كبير من سكان مكة وجدة بعد أن استوطنوا وعملوا فى التجارة . ولذا فتركيب السكان عالمى بشدة cosmopolitan، ومكة هى العاصمة السياسية الحالية للسعودية ، ولكنها ليست العاصمة

الدينية ، وهو كما أشرنا سابقا ما يبدو تناقضا فذا . ولكن الوهابية تصر على استبقاء الرياض مهدها عاصمة دينية للدولة. على أن الوظيفة السياسية الإدارية جعلتها مدينة موظفين مما ساهم في إنعاشها الإقتصادى وجعلها تتفوق على المدينة وتصبح مع الرياض أكبر مدن السعودية .

تهامة عسير جافة رملية نصفها الساحلى خال من السكنى تقريبا وأهم منه النصف البيدمونتى ولذا نجد من الموانىء الليث في الشمال والقنفذة فى الوسط وجيزان فى أقصى الجنوب . والقنفذة ٥ آلاف وهى لتوسطها ميناء عسير ، ومشكلتها أيضا المياه التى تجلب من بعيد . أما جيزان فعاصمة تهامة عسير وكانت ميناء الأدارسة حين كانت صبيا – خلفها – عاصمتهم . وهى تقع على رأس خليج يكتنفه المد والجزر العنيف حتى ليكاد يجعلها جزيرة . وتمتاز منطقتها بثروة معدنية من الملح الصخرى . وموقع جيزان يعطيها اتصالات ومعاملات نشطة فى عدة اتجاهات : مع صبيا وأبو عريش فى ظهيرها ، ومع جزر فرسان فى مواجهتها ، ومع موانى اليمن فى جنوبها . أم عن مدن تهامة البيدمونتية فهي فى الجنوب أساسا حيث تتسع الشقة الساحلية . فنجد صبيا وأبو عريش وحرض . وصبيا المدينة المحصنة الغنية التى تبلغ ١٠ آلاف كانت عاصمة الأدارسة . ولا تقل أهمية وشهرة عنها أبو عريش .

أما مدن تهامة اليمن فلها شخصية جغرافية خاصة . فالسهل يتسع هنا كثيرا . ولكن يحف بالساحل مستنقعات رديئة ، ثم يسود الرمل

والحصباء والجفاف وترتفع الحرارة والرطوبة إلى درجة الطرد . والمياه القليلة الصالحة للشرب تجمع لا للآستهلاك المحلى بل لتزويد السفن المارة . ولهذا ففقر تهامة طرد السكان إلى الجبال بينما تكاد هى تخلو منهم أو بالأحرى ليس فيها منهم إلا قلة محدودة لا تعتمد على الزراعة الموضعية وإنما على الوساطة التجارية بين الهضبة والسراة وبين البحر . أى أن السكنى الوحيدة هنا هى سكنى مدن ولكنها مدن تقوم فى فراغ عمرانى أى أن هذه المحطات والموانى هى مخارج لتجارة الداخل وليس لها علاقة أو ارتباط بظهيرها المباشر فى التهائم الجرداء ، وبدون الهضبة ماكانت لتقوم إطلاقا . ولهذا سيلاحظ أن أكثر مراكز تهامة هى البيدمونتية الداخلية لا الموانى الساحلية . كما أن نسبة هامة من سكان هذه الموانى ليست من عرب اليمن الأصليين وإنما من السواحل الإفريقية المقابلة كالدناقلة والصوماليين والأحباش . وتبدأ سلسلة الموانى بميدى على الحدود مع السعودية . ثم اللحية التى تواجه جزر قمران كرنتينة الحجاج ثم الحديدة التى تتوسط ساحل اليمن ولذا كانت كبرى موانيها رغم أن مرساها ضحل معرض للرياح الجنوبية (دون الشمالية) . لذلك فأكثر مراكب الحجاج الهندية التى تدهمها الرياح الجنوبية تلجأ إلى ميناء الحديدة حيث يستبدل الحجاج بها مراكب للذهاب إلى جدة . وأكثر واردات وصادرات اليمن من الحديدة التى تأتى بعد عدن مباشرة ، وتقف فيها السفن المحيطية العابرة بين أوربا وآسيا.

وبين الحديدة وصنعاء طريق سيارات معبد . أما المدينة فمسورة ، بها أسواق صغيرة عديدة ، وبيوتها من الحجر البركاني الأسود ، وبيوت الفقراء أكواخ . وعلى عكس إقليم المناطق الساحلية الأخرى ، فإن مناخ المدينة صحي وإن كان حارا وفي الوقت الحالي يخرج معظم البن (القليل) الذي يصدر من الحديدة لا من مخا . وقد تم أخيرا تحويل الحديدة إلى ميناء حديثة عصرية . وفي أقصى جنوب الساحل مخا (٨ آلاف) التي كانت أعظم موانى اليمن قديما واشتهرت بالبن حتى سمي بإسمها نوع منه . لكنها انحدرت لكثرة الاضطرابات ، وانتقلت قيمتها البحرية إلى الحديدة . والمدينة المسورة ذات البوابات تستمد ماء الشرب من بعيد . أما المراكز البيدمونتية فتشمل الزيدية وباجل وبيت الفقية وزبيد وحيس . وزبيد (٨ آلاف) مدينة تاريخية مسورة تقع على ارتفاع ١٤٠ مترا فوق البحر ، والماء فيها قريب من سطح الأرض بحيث يسهل استخراجه ولذا فهي مدينة زراعية غنية .

خط أقدام السراة

هذ الخط استمرار مباشر لخط أقدام المرتفعات الداخلية في الشام ، ويشبه في أصوله ومورفولوجيته إلى حد بعيد . فمرتفعات غرب الجزيرة العربية أو سلسلة السراة كما تسمى بوجه عام هي امتداد مكبر جدا لخط المرتفعات الداخلية في الشام . وكمصدر للأمطار القليلة في الشمال والتي تتزايد جنوبا ، تصرف السلسلة مجموعة كبيرة من

الأدوية أقلها وأقصرها ما ينحدر غربا ولكن أهمها وأطولها هو الذى ينحدر على سفوحها الشرقية حتى تنتهى عند أقدام السلسلة على شكل عقد منظوم أو منفرط من الواحات المروحية أو خط من الوديان الطولية الغنية بالمياه فالحياة . فإذا أضفنا إلى أقدام السراة تمثل فى جزء كبير منها هامش الصحراء وحدود «النفود» من ناحية ، وأن السلسلة تقع بين قطبى إنتاج المشرق العربى اليمن الموسمى فى الجنوب والشام المتوسطى في الشام بينهما تجرى «رحلة الشتاء والصيف» ، عرفنا الدور المدنى الذى ينتظر هذا الخط . هكذا طوال التاريخ كانت أقدام السراة من الوجهة التضاريسية البحتة ومن الناحية الحيوية العمرانية خطا من خطوط القوة الرئيسية فى اللاندسكيب الحضارى : خط استقرار وخط حركة . خط استقرار يتألف من أودية زراعية وواحات مدنية من النمط البيدمونتى أو هوامش الصحراء . وخط حركة يتألف من طريقين تاريخيين «طريق الحج» في الشمال ، «طريق البخور» فى الجنوب .

يبدأ الخط على ضلوع وأقدام سراة مدين من قلعة المدورة الأردنية متتبعا واديا طوليا هو أهم أودية الحجاز : وادى القرى الذى يمتد من الشام حتى المدينة . ويلاحظ أن الوادى الذى يحتضن الأقدام الشرقية لسراة مدين يتحول إلى الأقدام الغربية لسراة تهامة ، وذلك لتقوس السراة إلى الداخل فى عروض تهامة مع ثبات استمرار محور الوادى .

ورغم أن المطر هنا على المنحـدرات الشـرقـيـة لمدين أقل منه على منحدراتها الغربية إلا أن الأودية الطولية أقدر على الاحتفاظ بالمياه وخزنها، لاسيما مع الخزانات الحجرية التى يشيدها السكان . ولهذا تترادف الزراعة والسكنى فى سلسلة من الواحات التى تحتل بطون الوادى : تبوك ومدائن صالح والعلا والحائط والحويط (فدك) وخيبر وأخيرا المدينة . وبينما تقع تبوك إلى الشرق من الجبال تقع بقية المدن غربها ابتداء من مداين صالح حيث أن تغير محور الجبال عبر الوادى يتم بينهما حيث يتعامد الوادى على السراة فتختفى المدن إلا من بضع قلاع حربية . وهذا المسار فى مجموعة يكاد يتفق مع خط سكة حديد الحجاز (خط الحج) الذى توقف منذ الحرب الأولى . وكانت هذه الواحات محطات عليه كانعلا (٣ آلاف) وكلها مراكز للتجارة الصحراوية المحلية مع البدو أى مدن أسواق صحراوية .

وتمتاز خيبر بأنها تقوم على حرة مرتفعة من الحارات البازلتية التى تكثر فى المنطقة ، وكانت موطنا لليهود قبل الإسلام حتى أجلوا عنها بعده ، ومناخها غير صحى طارد رغم وفرة عيون الماء .

أما المدينة فهى نهاية وادى القرى وبداية وادى العقيق الذى يكمله إلى مكة . والمدينة التى تزيد عن ٥٠ ألفا تقع شمالى مكة بنحو ٥٠٠ كم. وهى بالقياس إلى مكة واحة كبيرة المساحة تطوقها الحدائق . كذلك مناخها أفضل لأنها أكثر ارتفاعا (٦١٩ مترا) ومواصلاتها أسهل . ومع

ذلك فهى اليوم أصغر بكثير من مكة . ولكنها حتى قبل الحرب /الكبرى الأولى كانت أكبر مدينة فى الجزيرة كلها حيث كانت نهاية خط سكة حديد الحجاز (خط الحج) . ولكنها الآن تقهقرت كثيرا من حيث الحجم خلف مكة وجدة والهفوف ، هذا عدا عدن والكويت ... الخ . والسبب فى هذا هو خراب الخط الحديدى وتوقفه ، وتخريب الحرب فى الحجاز لجزء منها ، ثم تخريب الوهابية لكثير من آثارها الدينية . فمع قلة الحج إليها بالقياس إلى مكة وانحدار التجارة أصبح حجمها تقريبا وظيفة لمواردها المحلية الزراعية فقط . بل إن لديها فائضا إنتاجيا دائما يصعب تصريفه لصعوبة المواصلات وبعدها عن مكة . ومن المدينة يظل وادى العقيق محتضنا الأقدام الغربية للسراة حتى مكة ، ولكن لا تقوم فيه إلا واحات محدودة منها مهد الذهب التى كما يدل اسمها كانت من مدن التعدين حتى نفذت مناجمها وأصبحت مدينة مهجورة من مدن الأشباح.

وابتداء من عسير ولزيادة الإرتفاع والمطر تختفى الأودية الطولية وتسود الأودية العرضية التى تأخذ من الهضبة الجبلية وتنحدر شرقا إلى الصحراء – كل بواحته . فثم أولا شمال العسير وادى تربة الذى ينتهى إلى مدينة تربة المحصنة المنيعة بالجبال والتى تقع جنوب شرق الطائف وتعادلها حجما ، وتمثل نقطة مرحلة هامة بين نجد واليمن . وفى وسط العسير وادى بيشة الذى يتحد مع وادى جنوب العسير وادى

التثليث وادياً أكبر هو وادى الدواسر المشهور . ففى الوادى الأول تقوم مدينة بيشة (٥ آلاف) على نقطة هامة بين وادى الدواسر ومكة ، وتعمل كمفتاح اليمن الشمالى . وعلى الثانى تقوم مدينة قروية هى حمضة Hamdha . وأخيراً وعلى حدود اليمن تقريبا يمتد وادى نجران حيث مدينة نجران التى هى فى الواقع وككل مدن الواحات هنا مجموعة قرى زراعية متجاورة يتوسطها المركز الإدارى وأجهزة الدفاع ، وتستمر ظاهرة الأودية العرضية على ضلوع اليمن الشرقية ، وأهم مدن واحاتها هى الجوف التى تطل على منخفض الجوف ، ومأرب مدينة السد القديم التى تطل على رمال الأحقاف ، ويتمم الخط فى المحميات بثلاثية بيحان التى تتألف من ثلاثة من مدن الواحات فى وادى بيحان هى من الشمال بيحان سيلان ثم بيحان القصب ثم بيحان الدولة. وهناك شبوة إلى الشرق من بيحان ، ثم أخيرا واسط ونسب Nisab إلى الجنوب من بيحان .

خط سقف المرتفعات

رأينا أنه ابتداء من عسير تأخذ سلسلة المرتفعات الغربية فى الجزيرة فى الإرتفاع والاتساع مع التعقيد ، وكذلك مع زيادة مطردة فى المطر . وبهذا يتكون سقف عريض لا مثيل له على العمود الفقرى لسراة الحجاز ، سقف مموج أو معقد ، ولكنه يقدم قاعدة أرضية فسيحة صالحة للسكنى والإستقرار والإنتاج الزراعى . ويزداد هذا السقف

اتساعا كلما اتجهنا جنوبا حتى يمثل الجزء الأكبر من مساحة هضبة اليمن حيث يحدد «سقف العرب» بامتياز . وبهذا يبرز خط مدن غني هام - خط عريض مركب يتوسط بين خط تهامة على الساحل غربا وبين خط الأقدام على الصحراء شرقا ، خط لا نظير له في الحجاز . وإنما يقتصر على العسير واليمن حيث يصبح هيكل شبكة المدن ثلاثيا .

ويمكن أن تعد الطائف بداية الخط في الشمال ، فهنا في الحقيقة تقترب الخطوط المدنية الثلاثة أشد ما تقترب : سلسلة جدة - مكة ، الطائف ، تربة . فهي تقع جنوب شرقي مكة على ارتفاع ١٥٠٠ مترا فوق البحر مما رق معه مناخها حتى إن النخيل لا ينمو فيها لشدة بردها شتاء . والمدينة الحجرية المسورة كثيرة المطر لارتفاعها . وهذا هيأها لزراعة الفواكه والورود فاشتهرت بها من قديم وسميت «بستان مكة» ، وشبهها بعض العرب قديما بأنها قطعة من غوطة دمشق نقلت إلى الصحراء . وقد جعلها مناخها المصيف الطبيعي للحجاز سواء للأغنياء أو للحكومة بل إنها بالفعل «عاصمة الصيف» في الحجاز . ولذلك يتفاوت عدد سكانها كثيرا بين الصيف والشتاء .

وفي شمال عسير تتعدد الحلات على السقف الأوسط ولكن المدن الهامة تظهر في الجنوب خاصة . فهناك محايل مدينة داخلية تمثل عقدة مواصلات هامة في عسير . ومثلها ولكن أكبر وأهم أبها وخميس مشيط في الجنوب فأما أبها فتبلغ ١٥ ألفا وهي حاليا العاصمة السعودية

لعسير وترتفع ٧ آلاف قدما عن البحر تتوسط حقلا زراعيا مصطبا واسعا وكوكبة من القرى الغنية . أما خميس مشيط فمن كبر المدن الداخلية وفى منطقة خصبة أيضا ومركز لتجارة التمر . على أن الخط يتبلور فى اليمن حيث تتحول السراة فى نصفها الشمالى إلى هضبة كالسهول العليا هى التى تعرف بهضبة اليمن gemcni Plotlau ، تندفع على سطحها سلاسل الجبال باسم «السروات» بينما تفصل بينهما فى تعقيد شديد شبكات الأدوية باسم «القيعان» . وفى هذه القيعان تقوم المدن فى وسط زراعى من ناحية وفى حماية السروات المتحدرة من ناحية أخرى فتظهر كوكبة من «المدن المعلقة» التى تعد من على مافى العالم العربى . فنبدأ بصعدة وهى مدينة حدود ومن ثم محصنة جدا ، تليها حجة وفى وسط رقعة اليمن نلقى صنعاء العاصمة التقليدية وكبرى مدن اليمن (٧٠ ألفا) .

صنعاء على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم ولعلها بذلك كبرى أعلى مدن العالم العربى . تتوسط منطقة خصبة تزرع الحبوب والفواكه والخضر على الرى من الآبار والصهاريج . وعلى مثل ارتفاعها هذا لا ينبت النخيل نظرا للبرودة . والفواكه هنا فواكه البحر المتوسط ، كما تكثر الماشية والغنم والإبل . تقع المدينة في سطح جبل نيقوم أو نقم فى جبال السراة الشرقية ، وتكتنفها جبال شاهقة من جميع الجهات كما تحيطها أسوار محصنة . تكثر المبانى عديدة الطبقات - سبع أحيانا - مما تبدو معها على الربا كناطحات السحاب العربية . والبيوت من الحجر البركانى

الأسـود ، تطلى الأطراف والنوافـذ والأبواب بالجـيـر الأبيض ، فـيكون المنظر قـوياً . وعدا هذا فـالبيـوت من الطين ، أقل ارتفـاعـا ، تفـصلها شوارع ضيـقة . أما السكان فكان ثلاثة أرباعـهم مسلمين معظمـهم من الشـيعة والزيود ، وأقليـة من السُنة . أمـا الربع الآخـر فكان من اليـهود الشـرقـيين الذين يتـركـزون فى جنوب غـرب الجـزيرة العـربيـة منذ أيام الانتشار diaspora . ويعرف حـيـهم - كمـا فى بقـيـة مـدن اليـمن - بالقاع (١) وهو منفصـل ، كما أن لهم مسـتـعمـرة خارج صنعـاء . وكثير من اليهود كان يشتغل عمالا مهرة فى الحجارة - بنائين وزجاج ومعادن ونسيج وحلى مقصبة ومذهبة وأسلحة ... ألخ . ولكن عددا كبيرا منهم قد هاجر منذ صنع إسرائيل . أما أغلب بساتين صنعاء ومزارعها فالذى يملكها هم العرب ولهم قصور خاصة فى مصايف صغيرة نشأت حديثا خارج المدينة تسمى الروضة .

وإلى الجنوب الغربى من صنعاء تقوم المناخة التى تتوسط أهم إقليم تبـقى للبن فى اليـمن حيث الموقع على السـفـوح الغـربيـة يزيد الرطوبة ويحسن الصـرف . أما جنوب صنعاء فتقوم ذمـار (٥ آلاف) وهـى مـدينة أثرية كثيرة الحصـون والقلاع القديمة وكانت المركز الرئيسى للزيدية ولكنها فقدت أهميتها الآن . ويلى جنوبا يريم ثم إب التى بحكم ارتفاعها تقع في منطقة القات الذى يتطلب كنتورات بين ٥ - ٩ آلاف وتعتمد على اقتصادياته . ولكن تعز إلى الجنوب الغربى هى قاعدة القات بمثل ما أن

(١) أحمد فخرى . اليمن . القاهرة ١٩٠٧ . ص ٣٥.

المناخة قاعدة البن . ولذا فهى مركز هام لتجارة رأسية غربية تصدرها الكنتورات العليا إلى الكنتورات السفلى . والمدينة التى تبلغ ٢٠ ألفا كانت فى السنوات الأخيرة عاصمة لليمن بدل صنعاء أو بالأحرى مقر الإمام. ولكنها أخيرا حددا كالعاصمة الثانية بعدها وهى فى الحقيقة لا يمكن أن تكون عاصمة لليمن لا حجما ولا موقعا فهى ضئيلة بالقياس إلى صنعاء . كما أنها متطرفة جدا فى الرقعة السياسية بل تكاد تكون مدينة حدود . وتعز تقع في واد عميق مرتفع عن سطح البحر ، مسورة ذات بوابات ، لها سوق كبيرة . وقد أدت كثرة الاضطرابات فى القرن الماضى إلى تهدم كثير من مبانيها . وهى تجلب ماء الشرب من نبع قريب عن طريق أنابيب ممتدة تحت الأرض .

محور الساحل الجنوبى

لعل هذا أضعف خطوط المدن الساحلية فى الجزيرة العربية كما هو أبسطها تركيبا . فالمعمور هنا شريط ضيق متقطع تخنقه الجبال فى الغرب والصحراء في الشرق ، وتقل مساحته ومطره وانتاجيته كلما اتجهنا شرقا . لهذا فإن خط المدن هنا ساحلى وحيد إلا من ذراع داخلي يتبع وادى حضرموت كما أن المدينة تتدهور فى نوعيتها بسرعة من الغرب إلى الشرق . فيقع خط المدن الوحيد في ثلاثة قطاعات : فى الغرب مدن زراعية وتجارية وصناعية ، وفى الوسط مدن زراعية وتجارية فقط ، وفي الشرق مدن صيد أو بالأحرى قرى صيد .

فغربا يبدأ الخط بعدن [ويتبعها الشيخ عثمان] وهى لا تقع على

باب المندب بالضبط كما يشيع أحياناً ، بل إلى الجنوب الشرقى منه بمسافة . والموضع شبه جزيرة صخرية أصلها مخروطا بركانين خامدين ملتحمين ، ويتصل بالقارة ببرزخ رملى مستطيل طوله ٧كم (١). والموضع مجدب تماما لا ماء فيه ولا نبات ، ولكن رأسمالها الجغرافى والتاريخى حقا هو الموقع الفريد : فهى بوابة البحر الأحمر الجنوبية وعنق زجاجة استراتيجى فى طريق الملاحة بين البحر الأحمر والهندى قديما وبين الأطلسى والموسميات حديثا . فهى بذلك المعنى ميناء من «موانى الضرورة» ومن أقدم المدن وأكثرها خلودا . وقد عرف اليمانيون القدماء قيمتها كمركز بحرى ممتاز فحاولت كل دولهم القديمة معين وسبأ وحمير السيطرة عليها ، وكان الحميريون هم الذين بنوا صهاريج لجمع ماء المطر- ربما بعد انهيار سد مأرب وكان العرب تسميها «دهليز الصين». وكانت مركزا تجارة البخور والمر واللبان والذهب والجواهر . وقد أغرى بها موقعها هذا كل القرى التى ظهرت على مسرح بحر العرب أو الهندى ، ولذا فما أكثر الأيدى التى تداولتها أو حاولت منافستها : الرومان الذين فشلوا فى الاستيلاء عليها فأنشأوا برنيس Berenice على الساحل الأفريقى المواجه لمنافستها وأسر تجارة الهند ، الأحباش ، الفرس . وبعد العرب حاول البرتغال اغتصابها بلا جدوى حتى جاء الأتراك وفى حكمهم حاول السيطرة عليها الهولنديون ثم الانجليز .

"1" Birot & Dresch, Mediterranee etc., p. 232 Morgan, Portrs & Harbours, Lind., 1952, p. 37.

وقد حاول الانجليز أن يجدوا لها بديلا فى جزيرة سوقطرة مرة وفى جزيرة بريم مرة أخرى وفى مدينة الشحر مرة ثالثة وفى المكلا رابعة وفى جزيرة صيرة التى تقع إزاء عدن مباشرة مرة خامسة (!) دون جدوى – فى أغلب الحالات لانعدام المياه . إلى أن وقعت عدن فى أيديهم فى ١٨٣٩ وبدأت وظائفها الاستراتيجية تتحقق واحدة بعد الأخرى . فقد أصبحت قلعة حربية وقاعدة بحرية أساسية أو «جبل طارق البحر الأحمر» ، ثم كانت ميناء تفحيم bunkering وتموين ، وصارت اليوم ميناء تزييت بعد انشاء مصفى البترول فى «عدن الصغرى» بطاقة ٥ ملايين طن كبديل لعبدان بعد ضياعها . وهى فى هذه الوظائف أصبحت اليوم الوريثة اليتيمة لإمبراطورية بحرية تقلصت فى الشرق الأوسط : فهى بتروليا قد ورثت عبدان ، وحربيا قد ورثت السويس وعن قريب نيروبى . هذا يفسر زيادة أهميتها وسرعة نموها أخيرا ، كما يفسر استماتة بريطانيا عليها . وهى بعد هذا «ميناء توصيل entrepot » وترانسيت ووساطة لكل المنطقة المحيطة فى الجنوب العربى والقرن الأفريقى . وهى لهذا ميناء حرة بلا جمارك حتى جذبت تجارة البن من اليمن والبخور من ظفار وحضرموت والحبوب والفواكه من الهند ، والخشب للمنازل والسفن من الهند الشرقية وبورما . أما الانتاج المحلى ففاقد من الوجهة العملية ، فليس ثمة إلا بعض صناعات استهلاكية وبناء السفن التقليدية (السنابك dhows) وتبخير الملاحات التى يصدر أغلب إنتاجها إلى الهند .

ومن هذا التركيب الوظيفي نرى بوضوح أن مدينة عدن مدينة «مصنوعة» بكل معنى الكلمة : ماء وغذاء وخاما وسكانا . فالماء يأتي من مصادر أربعة تقطير ماء البحر ، صهاريج المطر القديمة ، الآبار القديمة العميقة جداً ، والآبار الارتوازية الحديثة . أما الغذاء فكله مستورد من الظهير اليمني أو النظير الأفريقي أو النطاق الهندى . كذلك الخامات : البترولية من الكويت والأخشاب من جنوب شرق آسيا . وأخيرا السكان(١) . فحتى ١٨٣٩ لم يكن عددهم يتجاوز ٦٠٠ نسمة ، أصبحت بعد ٣٠ سنة نحو ١٥ ألفا ، قدرت في ١٩٥٠ بنحو ١٠٠ ألف بزيادة ٢٠ ألفا في ٤ سنوات منذ ١٩٤٦ ! وهى حسب تعداد ١٩٥٥ تبلغ ١٣٨٥٠٠. فهي مدينة هجرة أساسا . وهى بذلك أكبر مدينة – المدينة المائة ألفية الوحيدة – فى الجنوب العربى وأكبر ميناء فى منطقة القرن الأفريقي . وهذا فى ذاته موضع للغرابة يذكر بوضوح بهونج كونج إزاء الساحل الصيني . فهذه المدينة – النقطة أضعاف عواصم دولة برمتها فى ظهيرها مثل اليمن . وليس يقل غرابة تركيب السكان . فهناك ١٠٣ر٨٠٠ عربيا من اليمن أساسا أغلبهم كانوا لاجئين من شراسة وتأخر حكم الأئمة ، ١٥ر٨٠٠ هنديا أغلبهم مسلمون من الهند أو باكستان ، ١٠ر٦٠٠ صوماليا – هذا عدا بضع مئات من اليهود تبقوا بعد الهجرة إلى إسرائيل ومثلهم من الأوربيين ... إلخ .

"1" Statesman"s Year Book . 1961.

وبهذا يتضح التركيب الجنسي الخلاسي لعدن «كمدينة مفتوحة» . مما يذكر بجبل طارق . وهذه سياسة متعمدة لتخليط عروبة المدينة تأكيدا لبترها عن ظهيرها . وعدن في مظاهر الشذوذ المدنى هذه تمثل ببلاغة نمطا من الموانى التى خلقها الاستعمار البحرى على ضلوع البلاد الاستراتيجية الموقع والذى نسميه «الموانى المتقطعة» التى تحقق أولا أحجاما ضخمة لا علاقة لها البتة بمواردها المحلية أو ظهيرها الطبيعى وثانيا تشكل خليطا جنسيا معقدا يتنافر مع وسطه الطبيعى كما تمارس ثالثا وظائف غير شرعية كثيرة كالتهريب والجاسوسية والتزييف والرذيلة .. الخ.

والانتقال على الساحل الجنوبى بعد عدن يمثل انحدارا حادا الى حلات مدنية متواضعة بعضها أقرب الى القرى الساحلية مثل شقرة وأهوار . ولكن ثمة مدينة داخلية خلف عدن ذات أهمية خاصة : لحج - وتسمى أيضا الحوطة . وهى أهم مدن المحميات الغربية أو المحميات التسع ، وتتوسط واحة زراعة خصبة غنية . كذلك تمتاز المحميات الشرقية وهى حضرموت ومهرة بتقليد مدنى أصيل أساسه التجارة والصيد ، ففى حضر موت الميناءان القديمتان المكلا والشحر . فأما المكلا (١٠ آلاف) فكبرى موانى حضرموت ، تقوم بين خليجين ميناء حديثة ومدينة قديمة يفصلهما ٣ كم . والمدينة مسورة ذات أبراج ، شريطية بطول الساحل تحفها الجبال من الخلف .، وليست الرقعة المحيطة (الأوملاند) خصبة كأكثر المدن العربية بل قاحلة مجدبة ،

ولكن المكلا تستمد قيمتها من أنها المكان الوحيد على طول الساحل الجنوبي بين عدن ومسقط الذى يمكن أن يصلح لرسو السفن لذا كانت محطة للبواخر ومركزا تجاريا هاما والمدينة التى هى عاصمة امارة القعيطيين عديدة الطوابق جدا . أمـــا عن الشـــحر (٨ آلاف) فميناء قديمة تابعة لسلطان المكلا تشتهر بتصدير البخور والعنبر الشحرى ، ويشتغل بعض سكانها بصبغ الأقمشة وصنع الأسلحة والصياغة والحدادة .

والى الشرق على نهاية وادى حضرموت تقع سيهوت يليها القشن أهم مركز فى مهرة وعاصمتها ، ولكن قبل أن نتقدم شرقا الى ظفار وعمان لابد أن نعرج الى الداخل مع وادى حضرموت فى زاويته القائمة التى يغص ضلعها الأعلى بالعمران والمدن التى تتابع كاواحات المنظومة فى عقد الوادى . فثمة من أسفل تريم (١٠ آلاف) وهى مركز حرفى وعلمى قديم ، ثم هناك سيون وهى مثل تريم من مراكز الثقافة الاسلامية المتقدمة فى الجنوب العربى كما أنها عاصمة إمارة الكثيرين الداخلية ، وهناك أخيرا شيبام من أهم مدن الوادى وتمتاز كمدن اليمن القريبة بالمبانى الشاهقة . فاذا عدنا الى الساحل وجدنا حياة المدن تتدهور فى ظفار وعمان حتى رأس الحد الى حلات صيد على الأكثر . فهناك ومرباط فى مهرة ثم مصيرة على جزيرتها إزاء ساحل عمان .

محور الساحل الشرقى

كان هذا الساحل تقليديا من أفقر مناطق الجزيرة العربية مدنا ولكن نالته في قطاع كبير منه ثورة مدنية حقيقية حديثا . والساحل في مجموعه يمتاز بخطين مدنيين ، ساحلي ، وداخلي ، ولكن هذه الخطوط تنقسم على أساس الجغرافيا الطبيعية والتاريخ الحضارى الحديث الى قطاعين متمايزين عمان والخليج . فجغرافيا لعمان خط ساحلى وخط جبلى ، أما الخليج فخطاه سهليان . أما تاريخيا فبعد أن كان القطاعان متجانسين مدنيا تلقى الخليج انقلابا مدنيا جذريا مع البترول جعل منه نقيضا مدنيا لزميله القديم . ومن الطريف أن حركة البترول تبدو متجهة بخطى وئيدة من الشمال الى الجنوب : فقد أخذت «أعراض» الزيت الجيولوجية و«مضاعفاته» الحضارية تظهر على ساحل المعاهدات - كأنما الزحف المدنى الذى بدأ فى الشمال فى قطاع الخليج ينبىء بالاستمرار نحو القطاع الجنوبى .

عمـــــان

وينعكس فقر عمان فى شبكة مدنها . فهى وإن كانت تناظر اليمن وتشبهها فى نواح . إلا أنها أصغر مساحة وأقل مطرا وانتاجا وسكانا بكثير . ولهذا نجد خطين من المدن المتواضعة مقابل ثلاثة فى اليمن . وخط تهامة عمان الذى يعتمد اقتصاديا على سهل الباطنة الضيق يتألف من عقد واه منفرط واسطته موقعا

وحجما هو التوأم المدنى مسقط - مطرح ، بينما يتناظر على طرفية فى تباعد متجانس وفى حجم متكافىء تقريبا مدينتا صور فى الجنوب قرب رأس الحد وصحار فى الشمال ، وكل منهما ف مرفأ ظهيره ويعيش على التجارة والملاحة ، وخط مدن الساحل فى مجموعه يمتاز بالتوجيه البحرى أساسا ومنذ القدم نظرا لفقر الظهير الطارد . ولهذا كان سكانه - بعكس ريف الداخل- على اختلاط جنسى كبير ، فيدخل الى جانب العرب عناصر من الزنوج الافريقيين ، والايرانيين والهنود والبلوخستانيين . بل أن العرب فى التوأم الرئيسى مسقط - مطرح هم الأقلية بينما الأغلبية للبلوخيين والهنود والزنوج بنسب متساوية ..

ولسقط مغزى جغرافى كبير . فهى مدينة تاريخية قديمة فى موضع حصين تغلفه - دون أن تغلقه - الجبال ، وتشرف على خليج فيوردى جيد . أما موقعها فيجعلها مفتاح خليج عمان والخليج العربى : أنها عدن الخليج العربى . ولهذا فهى ليست الميناء التجارية الرئيسية فحسب ، وإنما تأتى أهميتها أولا من الناحية الاستراتيجية ، وقد اتضحت هذه الأهمية منذ عصور الكشف الجغرافى حين أصبحت مطمع القوى البحرية الاستعمارية ، ولهذا طالما سقطت فى أيديها : البرتغال أولا ثم الفرس ثم الانجليز الذين أصبحت عندهم بالنسبة للهند مثل عدن بالنسبة لشرق افريقيا . على أن أهمية مسقط اهتزت أخيرا مع ضياع الهند . ولايبقى لها

إلا الدور التجارى . فهى تعمل فى التجارة مع بومباى وإيران وبلاد الخليج العربى حيث تصدر اللؤلؤ والعاج والجلود والزبيب والبلح ، ولكن يعوقها كمركز مدنى مقر ظهيرها وصعوبة مواصلاته . ولهذا فرغم تاريخها وحيثيتها كعاصمة لسلطنة مسقط فإنها لاتزيد سكانا عن ٥٥٠٠ أى مالا يزيد عن ١٪ من مجموع سكان عمان الجغرافية البالغين ٥٥٠ ألفا . ولكن البعض يقدرها بنحو ١٢ الفا الا أنها تظل أشد عواصم العرب ضآلة على الأرجح . أما مطرح فتقع الى الشمال توا من مسقط ، ولم تكن شيئا مذكورا حتى قريب حين بدأت تجذب اليها طريق المواصلات من الداخل حتى أخذت تتفوق على مسقط فسجلت ٨٥٠٠ نسمة والأغلبية فى الحالين كما رأينا ليست للعرب .

أما خط عمان الداخلى فأشد فقرا من الساحلى : فرغم زراعات ومراعى الجبل الأخضر ومنحدرات «الحجر الغربى» تظل المنطقة رعوية متخلفة أساسا . فليس ثمة إلا نزوى عاصمة إمامة عمان الداخلية على الضلوع الغربية للجبال . يناظرها فى الشمال عبرى ، بينما يمكن أن تعد البوريمى تتمة بيدمونتية للخط فى الشمال على التخوم بين السعودية وعمان وشبياخات المعاهدات . وهى تتوسط واحة تكالف من ٨ قرى .

وعلى ساحل المعاهدات - أو ساحل البنات أو القرصان سابقا - خط متقطع من الحلات الزراعية التى هى فى الحقيقة واحات

ساحلية تصل الصحراء فيما بينها الى سيف البحر غالبا . وهذه الحلات أقرب الى قرى الصيد منها الى موانى المدن . إلا أنها بدأت أخيرا تأخذ طابعا مدنيا مع الاتصالات الخارجية واحتمالات البترول ، لاسيما أن كلا منها «عاصمة» لشياخة وأغلبها يقع على أخوار أو خلجان محمية أو أشباه جزر ناتئة . ومعظم هذه المدن ترجع بأصولها الى القرن أو القرنين الأخيرين فقط وتتراوح كل منها حول بضعة آلاف لايزيد سقفها عن ١٠ آلاف ونيف. ومنها مايعتمد على الصيد البحرى أو البرى أساسا ، ومنها ماعماده الزراعة ، وبعضها يعمل فى الصناعات الحرفية القديمة المنقرضة والبعض فى التجارة البحرية والترانسيت لأجزاء من عمان أو السعودية ، ويبدأ العقد من الشرق بالفجيرة التى تقع وحدها على خليج عمان جنوب رأس مسندم ، يليها على ساحل البنات رأس الخيمة ثم أم القوين فعجمان ثم الشارقة فدبى وأخيرا أبو ظبى ، وأهمها هى رأس الخيمة والشرقة وأبو ظبى.

نطاق الخليج

هذا «ساحل الزيت» بالضرورة . وهنا حدث واحد من أكبر الانقلابات العمرانية والمدنية فى الجزيرة العربية بل فى العالم العربى . ولم يكن النطاق يختلف كثيرا عن عمان فى توجيهه البحرى ونشاط التجارى فى الترانزيت واللؤلؤ وفى نسيجه البشرى وكيانه المدنى . فعلى وراء يكاد يكون من المعمور كان ثمة مجموعة

مخلخلة ضعيفة من مدن الصحراء والواحات الساحلية التى هى كقاعدة عامة نصف ريفية – نصف مدنية على الأكثر . ولكن ثروة البترول أدت الى ثورة مدينة أكبر من صغيرة . فقد انقلب اساس الحياة هنا من النقيض تماما الى النقيض : من الرعى الى التعدين ، دون ان يعرف مرحلة وسطى من الزراعة ، وأصبحت «بلاد العرب البحرية Maritime Arabia » هى «بلاد العرب الزيتية» أصبحت «بلاد العرب السعيدة» الجديدة . ومع هذا الانقلاب تأرجح نمط العمران من حضيض البداوة الى قمة الاستقرار بلا تدرج . وهكذا قفزت من أفقر الحلات والمدن القروية أغنى وأحدث المدن الكاملة وأصبح ساحل الزيت ساحل المدن . وتم هذا اما بتمدين الحلات القديمة او بخلق مدن تماما . كما تمت هذه الطفرة عن طريق الهجرة فى الدرجة الأولى : فنحن هنا ازاء مدن هجرة أساسا .

وقد انتهى هذا الانفجار المدنى الى أن أصبحت المنطقة تمتلك أكبر كوكبة من المدن والمدن الضخمة فى كل الجزيرة العربية وتضم أكبر مدينة فيها على الاطلاق . أى أنها أصبحت مركز الثقل المدنى فى الجزيرة بل وعلى كل سواحل الخليج العربى . ورغم ان عدد هذه المدن وأحجامها لايقارن بما فى أجزاء أخرى من العالم العربى ، الا ان درجة المدنية تصل هنا الى نسبة مئوية لاتعرفها أى رقعة مماثلة فى المساحة فى العالم العربى ربما باستثناء فلسطين المحتلة . وواضح أن السبب لايرجع بطبيعة الحال الى العدد أو الحجم المطلق

للشبكة المدنية الوليدة ، وانما ببساطة الى انه ليس ثمة نمط آخر من العمران هنا إلا المدن . فهى فيما عدا نقط المدن المنفردة تمثل صحراء من اللامعمور فاقدة للقاعدة السكانية أو الفرشة matrix العمرانية الطبيعية . وهى بهذا من «المدن المسلات» لا «المدن الأهرام» ويمعنى آخر إن جغرافية السكان هنا تتحول تماما الى جغرافية مدن . وبديهى أن هذه الحياة الجديدة تعتمد كلية على الاستيراد: فجميع عناصرها مستورد قطعة قطعة من الخارج البعيد أو القريب : البناء والغذاء بل الماء والسكان . هى مدن مصنوعة - وبأمر الزيت . وهى لهذا تمتاز بخلط شديد فى السكان ، حتى إن أغلبية العرب فى بعض منها مهددة بالزوال .

خط الساحل

يبدأ الخط على الساحل الشرقى فى قطر بمدينة صغيرة من مدن نهايات الأنابيب هى ميناء بترول أم سعيد ، ثم تلى الدوحة (وتسمى أيضا البيضاء) ولم تكن أكثر من حلة صيد وتجارة داخل سور من الطين - «عاصمة قرية» كما يعبر لونجريج - فأتى البترول وغير جلدها بل وجسمها الى عاصمة حديثة نامية . والى الشمال على مسافة مساوية لبعد أم سعيد تقوم حلة شبه مدينة صغيرة أخرى هى الخور . أما الساحل الغربى يبدأ بالزيارة التى كانت أهم بلدان قطر قبل البترول ويلى جنوبيا من مدن الحقول دخان ومن مدن محطات الأنابيب أم باب . أما فى البحرين فهناك

المنامة (أو البحرين) العاصمة على الجزيرة الرئيسية البحرين (أوال قديما) فى أقصى الشمال الشرقى . وقد كانت دائما المركز الملاحى لحرفة الصيد اللؤلؤ فى الخليج ومركزا لتجارة ساحلية وصيد وحرف تقليدية ومحطة بحرية هامة فى وسط الخليج ترتبط بانتظام بالبواخر بالهند وإيران والعراق وهذا عدا موقعها الاستراتيجى فى وسط الخليج مما جعلها مطمعا للقوى البحرية توالت عليه البرتغال والفرس ثم الانجليز .

ولكن البترول حولها الى مدينة عصرية حديثة نامية فأصبحت ألفا أى أنها١١٥) حين كان مجموع سكان الأرخبيل ١٩٥٢ ألفا (٤٥ كانت تضم أكثر من ثلث سكان الإمارة وهى الآن (تعداد) . وقد١ ٪ (٤٣,٧ ألفا بنسبة ١٤٢ ألفا من مجموع قدره ٦٢) ١٩٥٩ ساعد على تركيز النموفيها أن عمال البترول يفضلون الاقامة فيها مع الرحلة الى العمل على الاقامة على الحقول وذلك بفضل شبكة حديثة من طرق السيارات تربطها مع معظم القرى . ولقد كانت ضحولة المرفأ تحتم على البواخر الرسو بعيدا عنها ، ولكنها الآن عمقت ومدت بالارصفة . والى جانب اللؤلؤ والجلود والبلح والحبوب ، فالمنامة الآن مركز تصدير الزيت المحلى الى جانب زيت السعودية الآتى فى أنبوب تحت الماء . بل إنها مركز لكثير من صادرات وواردات السعودية – ميناء توصيل يعنى – مما كان مصدر دخل كبير . وفى المدينة نسبة كبيرة من الايرانيين والهنود .

"1" Stotlsmqns yeor Book 1961 .

أما المدينة الثانية في البحرين فهى المحرق على جزيرة المحرق في مواجهة المنامة ، بل إنهما تتصلان برصيف صناعى -cause way يحمل طريقا للسيارات يجعلهما مدينتين توأمتين تجمعان ٩٤ ألفا من مجموع السكان البالغ ١٤٢ ألفا أو ٦٦,٢٪ أى ثلثى الإمارة . والرصيف يترك بين المدينتين خليجين جيدين يغزو هما المد والجزر مما يساعد على اقتراب السفن وتنظيف الميناء . ولقد كانت المحرق مدينة لؤلؤ وسمك وملاحة . وتبلغ الآن ٣٢,٥ ألف كلهم - عكس المنامة - من العرب الخلص . وهى عاصمة ثانية للإمارة تقيم فيها الاسرة الحاكمة أغلب شهور السنة لاعتدال مناخها . وعلى الركن الشمالى الغربى من جزيرة البحرين مدينة ثالثة هى البديع تبلغ ٨ آلاف وتعمل في اللؤلؤ .

إذا عدنا الى اليابس فالعقير أولى ميناء على الساحل السعودى، ولكنها ليست مدينة ولا قرية : وانما نقطة جمارك ومستودعات وخانات لأن المرفأ هو أصلح موضع على الساحل السعودى ولهذا فإليه ترد معظم بضائع جنوب الحسا ونجد . والى الشمال من العقير وعلى شبه جزيرة صغيرة تقوم ثلاثية الخوبر - الدمام - الظهران : الخوبر والدمام على الساحل ، والظهران ٥ أميال الى الداخل . والأوليان ميناءان صغيرتان قديمتان جدا ، بينما الظهران مدينة حديثة تماما خلقها الزيت منذ ان تفجر هنا لأول مرة في السعودية وأصبحت قاعدة أرامكو فهى بذلك من مدن الحقول .

وتضم هى والضواحى القريبة عدة آلاف من السكان والظهران من ناحية اللاندسكيب المدنى مدينة أمريكية مزروعة على أرض عربية ، وقد زادت أهميتها منذ أن أصبحت قاعدة جوية هامة . أما الدمام - التى خربت فى القرن الماضى - فقد أخذت فى العمران منذ ١٩٢٠ حتى أصبحت من زهم موانى الخليج العصرية وتصدر نحو ثلث خام السعودية . والخبر أقرب الى الظهران موقعا ولكنها أقل أهمية من الدمام .

والى الشمال من المثلث المدنى السابق نجد ثنائية القطيف - رأس تنورة . والاثنان موانى على الساحل الا ان القطيف ميناء قديمة تاريخية هامة منذ كانت تسمى Giparro وتستقبل عطريات الهند لتنقل بالقوافل الى البحر المتوسط ، بينما رأس تنورة من خلق الزيت تماما . والقطيف فى الواقع إحدى واحتين عظميين فى الأحساء : هى على الساحل والهفوف فى الداخل . فالقطيف غابة من الينابيع والنخيل - زادت أخيرا ٣٠٠ ألف نخلة - وحقل زراعى مترام للفواكه والأرز والبرسيم والحبوب ، وهى أخيرا مصنع لتعبئة وتصدير البلح . ولهذا كانت قبل البترول من أهم مراكز العمران فى الأحساء ، وأكبر سوق للتجارة على الخليج فى السعودية . ومقر الحكم المحلى وقد ازدادت حجما ونشاطا منذ البترول ، فكثير من تجارة الأحساء تمر بها ، ولو أن السفن الكبيرة لاتستطيع الوصول الى شاطئها . والمدينة تزيد اليوم على ١٥ ألفا ، أغلبها

من الشيعة رغم وقوعها فى أرض الوهابية المتزمتة . أما رأس تنورة فتقع على طرف لسان ناتيء وتمثل ميناء الزيت الرئيسية فى السعودية فهى مركز التكرير فيها ، كما تتصل بالأنبوب الغاطس بالبحرين . والى الشمال من القطيف - رأس تنورة لاتوجد مدن بمعنى الكلمة الا موانى بترول قزمية مثل أبو حدرية ومنيفة والسافنية وميناء سعود فى المحايدة ، وكلها على الأقل مستعمرات عمال ونوبات مدن المستقبل .

أما فى الكويت ففى جنوب الساحل رباعية من المدن الجديدة تماما خلقها البترول . فعلى الساحل ميناءان ميناء عبد الله وهى نهاية أنبوب المحايدة ، وميناء الأحمدى التى حملت محل ميناء الفحيحل المؤقتة منذ ١٩٤٩ وأصبحت ميناء البترول الرئيسى بل أعظم موانى تصدير البترول فى العالم . وخلف الميناءين وفى قلب أعظم حقل منفرد للبترول فى العالم - البرقان - تقع مدينة الأحمدى . فهى كالظهران فى السعودية مدينة حقول وهى مثلها مركز الشركة . أنشئت فى ١٩٤٦ من لاشيء وبلغت فى ١٩٦٠ نحو ٧ الاف وهى الآن ٨٣٠٠ نسمة . والى الخلف من مدينة الأحمدى مدينة حقول أخرى هى مدينة المقوع التى تتوسط حقلا بهذا الاسم على ان هذه الكوكبة قزمية فى أحجامها اذا ماقارنا بمدينة الكويت نفسها .

والكويت تقع على الجانب الجنوبى من خليج الكويت الذى تقع على رأسه ميناء أخرى هى الجهرة . وهى تحتل بذلك موقعا فريدا فى

الخليج العربى . فهذا الخليج الطبيعى المحمى العميق هو الشذوذ الوحيد على طول ساحل الإحساء ومع موقعه الاستراتيجى على مقربة من العراق والسعودية وايران كان مركز الصراع الاستعمارى منذ القرن الماضى . ورغم هذا الموقع الممتاز فقد ظلت الكويت طويلا مدينة ضئيلة وسط صحراء من اللامعمور . والواقع أنها بدأت كمدينة التجاء وحماية ولم تنشأ إلا حديثا نسبيا - ١٥٠ سنة فقط حين أرادت بعض القبائل ان تهرب من ضغط جيرانها فاختارت لها موضعا بلا ماء وسورته بحائط ضخم مرتفع احتمت بداخله كمدينة من الطين أو اللبن أو الصخور البحرية تعتمد على بعض آبار للشرب محلية وداخل هذا الاطار عاشت الكويت على البحر أكثر منها على البر : اللؤلؤ والتجارة (تجارة المرور) والملاحة وبناء السفن ، مع جلب الماء من شط العرب وعلف الماشية من البصرة ! أى أنها لم تكن حتى واحة ساحلية . ومع ذلك كانت شبكة علاقاتها البحرية تصل بعيدا الى الهند وايران وشرق افريقيا ، بل كانت تنافس البصرة فى نواح وتأسر جزءا من تجارة جنوب غرب العراق وشمال شرق الجزيرة العربية . ولكنها فى كل هذا كانت تحت رحمة هذه العلاقات والموارد الخارجية . وحتى ١٩٤٠ كان حجمها أقل من ٤٠ ألفا وتمثل فى الحقيقة الأغلبية الساحقة من سكان الإمارة .

ثم أتى البترول لينصب داخله انصبابا فى المدينة لتصبح أكبر

بؤرة للهجرة على الخليج وقطبا لحركة جاذبة مركزية ولتجعل منها النموذج المثالى لمدينة البترول ومدينة الهجرة ففى ١٩٤٠ وصلت الى ٨٠ ألفا وقفزت الآن الى نحو ربع مليون ، أى أنها ضاعفت نفسها فى ٢٠ عاما نحو ٦ أو ٧ مرات وهو معدل لامثيل له بالتأكيد بين كل العواصم العربية (بما فى ذلك عمان) وهى بهذا قد أصبحت كبرى مدن الجزيرة العربية برمتها وأكبر ميناء على الخليج العربى بجانبيه . وهى بذلك قمة نمط المدن «المسلات» وهى بعد مثال المدينة المصنوعة التي جمعت أجزاؤها من كل أطراف العالم غذاء وبناء وماء وسكاناً ، وتشخيص حى « للحتم البشرى» عن طريق «الحتم البترولى» ! فالماء بالتقطير الباهظ (الكنداسات) طالما أن العامل السياسى يمنع قناة أو أنبوبا للماء من شط العرب العراقى . والغذاء معلبات من أقصى الأرض وطازج بالطائرات ، وأما جسم المدينة التى انفجرت مكتسحة سورها القديم فجماع الفن الحديث فى أغلى وأروع صوره ، ولكن فى تنافر خلاسى عجيب لايعدله الا تنافر السكان .

فمنذ عدة سنوات كان عدد الأجانب نحو ٢٩٠٠ ألفا من الايرانيين والهنود والباكستانيين اى نحو ١/٨ السكان . ولكن التيار الأجنبى المتدفق قلب الميزان تماما منذ ذلك الحين . فقد اصبح غير الكويتيين فيها ضعف الكويتيين او يزيد قليلا ! ولعل هذا هو المثل الوحيد فى العالم العربى خارج فلسطين المحتلة الذى يتحول فيه

أصحاب البلد الى أقلية . وليس أقل شذوذا بعد هذا أن مدينة الكويت تضم وحدها نحو ٦/° سكان الإمارة كلها . وهذا لايعنى الا ان دولة الكويت ليست سوى مدينة الكويت والا انها رأس بلا جسم. إننا هنا إزاء أكبر حالة من حالات «دول المدن» فى العالم العربى . ولعل هذا هو الذى يفسر كيف ان وحدة سياسية صغيرة كالكويت استطاعت ان تنمى عاصمة أكبر مما استطاعت وحدات أخرى أكبر كثيرا كاليمن والسعودية . وقد ساعد على هذه المركزية العنيفة صغر مساحة الدولة ككل وشدة انتشار السيارات الخاصة من ناحية وصعوبة تعدد المراكز المدنية الكفء فى البيئة الصحراوية الفقيرة.

خط الداخل

هذا الخط يتمم نظريا الخط الداخلى فى عمان ولكن على ارضية سهلية لاجبلية . وهو خط ثانوى يقع فى منطقة الظل بالنسبة لخط الساحل ، ويجمع قليلا من الواحات - واحات الماء وواحات البترول . ويبدأ فى الجنوب بعيدا عن الساحل ولكنه يقترب منه باطرد كلما تقدم شمالا حتى يكادا يلتحمان فى النهاية . فثمة فى البداية واحة يبرين (وبار قديما) وهى واحة منعزلة فى جيب بين الدهناء غربا ولسان من الربع الخالى هو لسان الجفورة شرقا . والى الشمال منها حرض وهى مدينة حقول بترول . ثم الى الشمال فى منتصف حقل الغوار العظيم أنشئت أخيرا مدينة جديدة تماما هى العضيلية لتكون مركزا صناعيا وسكنيا . ولكن الى الشمال الشرقى وخارج محور

حقـول البـترول تقع أقـدم وأكبـر حلقـات هذه السلسلة المدنيـة : الهفوف (أو الحسـا) عـاصمـة الاحسـاء . وهـى تتـوسط أعظم واحـة زراعيـة فى شرق الجزيرة العربيـة . وبعـد الحرب الأخيـرة قدرت الواحة كلها بنحو ١٥٠ ألفا منهم ٤٠ ألفا فى المدينة نفسـها . وهذه المدينة القديمـة الطينية والحـجرية كانت مـسورة ذات قـلاع وخندق جاف . وقد أصبحت بعد البترول مزرعـة ومطعم المدن الجديدة ونمت لذلك الى ٦٥ ألفا فى الخمـسينات (١) وتقـدر الآن بنحـو ١٠٠ ألف (٢) وهـى بهذا كبرى مدن الإحساء السعودية .

وعلى بعـد ٣ كم شـمـال الهـفـوف تقع المبرز (١٠ آلاف) التى تعـد توأمـا بل امـتـدادا للهـفـوف رغم سـورها الذى تهـدم . وهـى أيضـا مدينة واحات ومدينة أسواق والعقير هـى الميناء التقليدية لهما . وفى ثنائى الهفوف – المبرز يختلط السكان مابين عرب وايرانيين وأتراك ، وترتفع نسبة الشيعة الى نحو ربع المجموع بعد هذه النواة القديمة تعود الى مـحطات البترول ومسـتعمرات الحقول مثل بقيق وعين دار وبعيدا الى الشمال الفاضلى وأبو حدرية والنعيرية إلخ . ولكن هذه ليست جميعا بمدن حقيقية بل معسكرات تعدين ميكروسكوبية ومـحطات أنابيب ، الى ان يصل الخط الى المقـوع فى غـرب الكويت وهـى من مـدن الحقـول الجديدة ، وربما اوصلنا الخط الى الروضـتين فى شمال الكويت حيث بدأت مدينة حقول أخرى تتجرثم أخيرا .

"1" MiddlE,east, R.I.I.A.
"2" Stotesman's year Book 1961.

محـور نجـد

تلعب المرتفعـات مع الرمـال الدور الاسـاسـى فى توقـيع المدن فى نجد وفى تشكيل شبكتها . وما من مدينة هنا إلا واحة ، وبالتالى زراعية فى اصلها - وكثيرا ما فى تركيبها ، ولهذا ففكرة المدينة هنا لاترتفع كثيرا عن فكرة القرية . ومع ذلك فالواحات الكبرى لاشك فى مدينتـها . ولقد تبدو واحـات نجـد شتيتـا منثـورا بلا خطة ، كأرخبيل مدنى أو «كنهر مجرة» الجزيرة العربية . ولكن الواقع ان هناك نمطا اقليميا محددا بل بسيطا وان عقده تداخل الضابطين الطبيعيين الأوليين هنا وهما خطوط المرتفعات وخطوط الرمـال . ولعل أهم حقيقة طبيعية فى قلب الجزيرة هى تلك العلاقة البارزة بين نمط المرتفعـات الغربيـة ونمط الصـحـراء الشـرقـيـة . فـالمرتفـعـات الهـضـبيـة والجبلية الغربية التى توازى البحر الأحمر من مـدين تتقوس فى عروض تهامه الى الداخل حيث تنفسح وتتفلطح الى هضبة أقرب الى الاستواء هى - كما يعنى الاسم - نجد . وهى لارتفاعها هذا تنال قدرا من مطر يجعلها أقرب الى الاستبس والسهوب منها الى صـحـراء الحمادة الحـقيقية . وتخـتطهـا من الأودية تنبع من الغرب وتنحـدر نحـو الشـرق . ثم تعود المرتفعات فتنثنى نحـو البر ثانية حيث تساحله ابتداء من عسير .

وهذا النمط القوسى يفرض شكله مباشرة على رقعة الصـحـراء فى الجزيرة . فالى الشرق من خط المرتفعات تنعدم أو تكاد الأمطار ، وتعطى السـهوب مكانـها للصـحـراء الرملية - النفود - بمثل مـاتعطى المرتفـعـات مكانـها للسـهـول . ولهـذا فإن الى الشـرق من المرتفـعـات ،

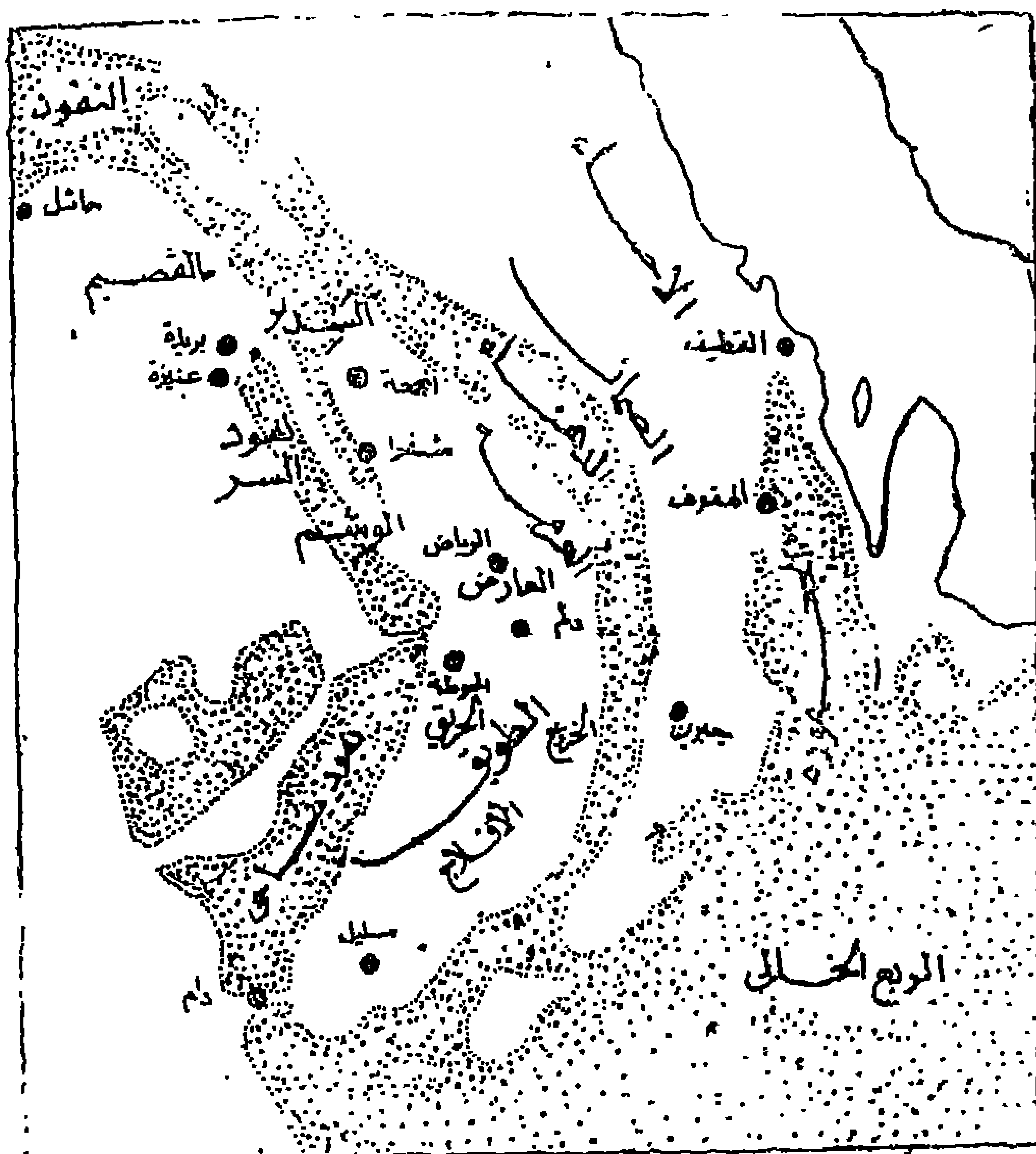
وعلى نمط مماثل لنمطها تماما ، قوسا هائلا من النفود بأخذ شكل حرف د ، رأسه هو «النفود» أو النفود الكبير شمال نجد ويتلاشى في بادية الشام ، ووسطه النحيل يدق الى خط ضيق طويل يفصل مابين نجد غربا والحسا شرقا ويعرف «بالدهناء أو النفود الصغرى». اما جذعه فهو ذلك المحيط الرملى الهائل الذى يصل - أو بفصل ! - مابين اليمن غربا وعمان شرقا ويحتل - كما يدل اسمه - ربع الجزيرة «الربع الخالى» وبهذه الصورة يتحدد محور العمران فى نجد : فهو جزيرة من الواحات وسط بحر من الرمال تتوقع عند جبهة الالتحام بين اطراف أقدام مرتفعات نجد وحدود النفوذ الرملية لأن هنا تكون أمطار ووديان نجد قد تجمعت كلها من الغرب من ناحية ، وتفجرت عيونا أو اقتربت آبارا من السطح فى قيعان وبطون المنخفضات الرملية من الناحية الأخرى . وبمعنى أخر فإن توزيع مدن الواحات فى نجد يصبح ببساطة حلقة بأطراف الصحارى الرملية من الناحية الأخرى . وبمعنى أخر فإن توزيع مدن الواحات فى نجد يصبح ببساطة حلقة تحيط بأطراف الصحارى الرملية من جميع الجهات .

ولكن الصورة التفصيلية تتعدل وتتعقد محليا ، تتعدل - لأن الواحات على ضلوع وهوامش الدهناء الشرقية تقل كثيرا عنها على الهوامش الغربية لأن الغرب مصدر المطر ومنتهى الأودية ، ولهذا فان حلقة المدن المذكورة تتعدل ابتداء الى حلقة غير كاملة تنقطع فى الشرق وتتعقد نظرا لتداخل المرتفعات مع الرمال خاصة رمال الدهناء . فليست الدهناء خطا ضيقا واحدا بل تتشعب منها عدة

أصابع وألسنة تفصل بينها ألسنة وسلاسل من مرتفعات نجد ولهذا التداخل تتحلل جبهة الالتحام بين المرتفعات والرمال الى عدة جبهات صغرى معقدة فمثلا تفصل هضبة العرمة الدهناء عن عدة ألسنة من أهمها نفود السر فى الغرب ، بينما فى الجنوب تفصل جبال الطويق – التى تطوق نجد من الجنوب – تفصل نفود الضاحى عن الدهناء وحيث ان لسان نفود السر يكاد يتصل بلسان نفود الضاحى فان الدهناء تصبح فى الحقيقة أشبه على صفحة الجزيرة العربية ببحيرة من الرمال تتوسطها جزيرة مقتطعة من هضبة نجد ، وعلى أطراف هذه الجزيرة تتوزع بعض مدن الواحات بينما تقع البقية داخلها على هوامش ألسنة النفود الثانوية .

والنقط الحرجة فى اطار هذه الجزيرة وهى نهايات أو تقاطعات الأودية الكبرى وكلما كان الوادى كبيرا زادت أهمية المدينة لزيادة قيمة الموقع بظهور المواصلات والتجارة كعنصر حيوى فى اقتصاد الواحة . هذا وسيلاحظ ان كل المدن تقع فى منخفضات من بطون الأودية على عكس مدن قمم التلال فى أوربا مثلا . ولكن لأنها مدن دفاع وقلاع بحكم إحاطة بدو الصحراء فكلها مدن مسورة بأسوار سميكة من اللبن ترصعها الأبراج المشيدة التى تشبه قلاع العصور الوسطى . تلك هى الضوابط الطبيعية وذلك هو النمط العمرانى العام فى نجد ولنتبع الآن حلقة مدنه بالتفصيل .

فى أقصى الشمال على حافة رأس النفود الكبير تماما تقع الجوف، وهى دومة الجندل قديما ولاتزيد عن بضعة آلاف ،



مدن نجد

[عن النص]

ولكنهـا أكبر مدينة في نطاق كبير لأن موقعها الجغرافي يجعلها عقدة مواصلات هامة . فهي على رأس النفود وبهذا تقع في منتصف الطريق بين الفرات والحجاز أو بغداد والعقبة . ثم هي على نهاية وادى سرحان الذى يؤدى شمالا بغرب الي الاردن ومن ثم تربط سوريا بالاحساء . ويتبع الجوف جغرافيا واحتانْ الى الشرق قليلا هما سكاكة وقارة . وكل من الثلاث يتألف من مجموعة من القرى الزراعية الصغيرة . واذا بدأنا دورتنا حول النفود الكبرى وجدنا تيماء على هوامشها في أقصى الغرب . وهى واحة مثل حجم الجوف غنية بالمياه والزراعة ، ومحطة لطرق القوافل على طريق بين الفرات والحجاز . واذا استأنفنا دورتنا حول النفود الكبير وجدنا ، على هوامشها الجنوبية حيث تلتقي بجبال شمر ، واحة هامة هى حائل ، وهى أكبر حجما من سابقاتها فتصل الى ١٠ آلاف (١) وتمثل مدن الواحات في كل خصائصها كمدينة زراعية تجارية وهى عاصمة اقليم شمر الآن عاصمة الرشايدة من قبل وتقع فى منخفض من وادى عقدة بين جبلى أجا وسلمى .

وحين نستدير جنوبا ونتجه مع الدهناء فعند جذر اول لسان منها – نفود السر – نجد كوكبة من الواحات الهامة فى اقليم القصيم . ثمة أولا قصيبة ، ولكن الى الجنوب قليلا وعلى الوادى الهام وادى

(١) تويتشل ص ٨٤.

الرمة نجد مدينة الرس (٥ آلاف) الشهيرة فى حملة ابراهيم . على ان مركز الثقل هو عند ملقى الوادى بالنفود فهنا المدينتان التوأمتان الشهيرتان بريده وعنيزه اللتان تتناظران على جانبى الوادى . وقد جعلها موقعها على الوادى الذى يبدأ قرب الحجاز ولاينتهى الا قرب الفرات ويمثل شريان المواصلات الرئيسى فى هذا الاتجاه بجعلهما من مدن القوافل والتجارة الأولى فى قلب الجزيرة . ولهذا فان لهما اتصالات واسعة بالعالم الخارجى ، وسكانهما أكثر اختلاطا من المعتاد . واذا كانت بريده أعظم سوق للابل فى العالم كما يظن ، فإن عنيزة - بتعبير تويتشل - هى «باريس نجد ـ(؟) (١) . ومع اجتماع الموضع الزراعى الغنى بالموقع التجارى الحاسم ، نجد أحجاما كبيرة . فبريده ٣٠ - ٥٠ ألفا ، وعنيزة ٢٥ - ٤٠ ألفا (٢) . والأولى عاصمة إقليم القصيم . وتتم كوكبة مدن القصيم بالمذنب الى الجنوب قليلا ، وهى مدينة قديمة جدا وبهذه الكوكبة تنتهى سلسلة المدن التى تقع على الجانب الخارجى من «بحيرة» الصحارى» الرملية .

أما بعدها فتتركز الواحات على الجانب الداخلى من تلك البحيرة أو بمعنى آخر على جوانب «الجزيرة المقتطعة» التى تتوسطها والتى تنقسم الى أقاليم تبدأ فى الشمال بالسدير ثم بالوشم ثم بالعارض وبعدها الخرج والحريق فى خط عرض واحد وأخيرا الافلاج ثم الدواسر . ففى السدير نجد واحة الزلفى والمجمعة ، وفى الوشم شقرة . وكلها على الجانب الغربى للجزيرة المقتطعة .

(١) تويتشل ص ٨٣ .
Statesman's. 1961(2).

بينما تقوم فى وسط العارض الرياض ، أما في الخرج فالمركز المدنى هو الدلم (٦ آلاف) بينما عاصمة الحريق هو الحوطة . وواحة الافلاج الرئيسية هى ليلى ، بينما يجد فى الدواسر واحتى دام والسليل . وكل هذه المدن الواحات تقريباً تقع في وسط الجزيرة الهضبية المقتطعة أقرب الى جبال الطويق منها الى هوامشها الرملية .

وبطبيعة الحال ليس في هذه المدن شبه الريفية القزمية مايستوقفنا الا الرياض تلك التى قدر لها ان تصبح مركز الثقل المدنى لا فى نجد وانما فى السعودية كلها على الأرجح . والمدينة حديثة الأصل وتعد وريثة الدرعية التى لا تبعد إلا قليلا الى الغرب وكانت عاصمة الوهابية وتخربت أثناء حملة ابراهيم عام ١٨١٨ والتى أعيد بناؤها وأصبحت الآن ضاحية من ضواحى الرياض . ومن الواضح ان لموقع الرياض مغزاه . فهى تقع فى وادى حنيفة فى أخصب قطاع فى منتصف أقصر طريق بين الحجاز الغنى والاحساء القديم – اى خاصرة الجزيرة العربية وهى بالنسبة لها كتدمر بالنسبة للهلال الخصيب ، وقد ظلت الرياض كعاصمة للوهابية مدينة متواضعة . وحتى ١٩٤٠ لم تزد عن ٢٠ ألفا (١) ولكنها بعد ان تحولت الى عاصمة الدولة اسرعت الخطى فى النمو ولكنها ظلت من العواصم الشواذ التى لاتكون العاصمة فيها هى المدينة الأولى .

الى ان جاءت ثورة البترول فطفرت الى ١٥٠ ألفا واصبحت

"1" Dubertret et Weulersse . P143.

كبرى مدن السعودية على الأرجح وجعلها عصر البترول كتدمر في عصر الزباء فقد تحولت من النقيض - من مدينة دينية من مدن الزوايا المتزمتة الى مدينة علمانية متطرفة من «مدن البلاط Residenzstadte بكل ماتحمل الكلمة من معنى كما لو كانت فرساى السعودية او بوتسدام الجزيرة - ولنذكر فقط ضاحيتها مدينة الناصرية مدينة قصور الملكية والاقطاع التى تعد مدينة كاملة لأميال خارج المدينة والتى تعيد الى الأذهان مدن الباروك الأوتوقراطية تحولت من مدينة واحات تعتمد على الكفاية الذاتية الى «مدينة بترول» - بطريق غير مباشر - تعيش كلية على الاستيراد . وثمة متناقضة أخرى لاتقل اثارة وهى ان الرياض ليست العاصمة السياسية بل الدينية ، بينما مكة مهد الاسلام هى العاصمة السياسية ! ومن ناحية الموقع فلاشك ان الرياض أقرب الى الوسط الهندسى للدولة ، ولكنها على الأقل حتى ماقبل البترول كانت خارج المعمور الحقيقى فى الدولة - الحجاز . على أنها الآن تتوسط قطبى المعمور السعودى فى الحجاز الدينى والحسا البترولى - ولكن دون ان تتوسط هى قلبه الفعلى أو مركز ثقله المباشر ، والواقع ان البترول اذ ينصب دخله أخيرا فى نجد قد خلق جسرا عرضيا من المعمور والمدن بين الخليج العربى والبحر الأحمر بحيث أصبحت شبكة المدن فى السعودية تأخذ بصفة عامة شكل حرف T مائل ضلعاه هما خط المرتفعات الغربية والجسر العرضى (١).

(١) حمدان ، بترول العرب ، سبق ذكره .

المراجـــع العربيـــــة

احمد توفيق المدنى : جغرافية القطر الجزائرى. الجزائر ١٩٥٢.

———— : هذه هى الجزائر . القاهرة ١٩٥٦ .

أحمد فخرى : اليمن . القاهرة ١٩٥٧ .

الحكومة اللبنانية : المؤتمر الثقافى العربى الأول، لبنان فى عهد الاستقلال . بسام كرد على ، مصطفى شاكر، أنور الرفاعى : جغرافية البلاد العربية دمشق ١٩٤٩ .

جاسم الخلف : محاضرات فى جغرافية العراق . القاهرة ١٩٥٩

جمال حمدان : دراسات فى العالم العربى القاهرة ١٩٥٩

جمال حمدان : جغرافية المدن . القاهرة ١٩٦٠ .

———— : بترول العرب : دراسة فى الجغرافيا البشرية.

داود صليبا، مصطفى الحاج ابراهيم. العالم العربى. دمشق ١٩٥٨.

سعد الدين فوزى : جوانب من الاقتصاد السودانى. القاهرة ١٩٥٨

كارل تويتشل : المملكة العربية السعودية. مترجم . القاهرة ١٩٥٥.

نقولا زيادة : محاضرات فى تاريخ ليبيا . القاهرة ١٩٥٨

عبد العزيز كامل : توزيع المراكز الحضرية فى السودان. أعمال المؤتمر الجغرافى العربى الأول. القاهرة ١٩٦٢ .

عزة النص : أحوال السكان فى البلاد العربية. القاهرة ١٩٥٥.

ــــــــ : محاضرات عن جغرافية المدن العربية. القاهرة ١٩٥٩ «بالآلة الكاتبة» .

محمد صبحى عبد الحكيم : سكان شبه جزيرة سيناء. المقال الثالث. موسوعة سيناء . المجلس الأعلى للعلوم . القاهرة ١٩٦٠.

محمد عوض محمد : نهر النيل . القاهرة ١٩٤٨ .

محمد محمود الصياد : اقتصاديات السودان. القاهرة ١٩٥٧ .

Amiran, D. H.K, Shahar, A., "The Towns of Israel", Geog. Rev., July, 1961.

Barbour, K.M., The Republic of the Sudan, Lond., 1961.

Barbour, Nevill, North - West Africa "The Maghrib" O.u. P., 1959.

Beaujeu-Garnier, Jacqueline, L'Economie du Moyen Orient, Coll. Que Sais-Je ?, Paris. 1951.

Bergel, E.E., Urban Sociology, 1955.

Berler, Alexander, "Urbanization Process in Israel", U.N. Conference on the Application of Science and Technology for the Benefit of the Less Developed Areas, Geneva. 1962.

Bernard, Augustin, L'Afrique du Nord, Géog. Universelle.

Birot, P.; Dresch, J., La Méditerranée et le Moyen-Orient, t. II, Paris, 1956.

Blanchard, R., L'Asie Occidentale, t. VIII, Géog. Universelle, 1929.

Bonné, A., Economic Development in the

Middle East, Lond., 1945.

Carpenter, Niles, Sociology of City Life, Longman's, 1932 Chabot. G., Les Villes, Paris, 1952.

Chehabe Ed-Dine, Said, Géog. Humaine de Beyrouth, Beyrouth, 1960.

Cherniavsky, J., "Housing & Development in New Jerusalem", Eckistics, June, 1960.

Clarke, J.I., "Oil in Libya : some Implications", Econ. Geog., vol . 39, no.i Jan., 1963.

Deffontaines, P., Géog. Et Réligion, Paris,1948.

Despois, J., "Kairouan", Ann. de Géog., Mars, 1930.

Dubertret, L, Weulersse, J., Manuel de Géog. Syrie, Liban et Proche - Orient, Beyrouth, 1940.

East, W.G., Mediterranean problems, Lond., 1949.

Eddé, jacques, Manuel de Géog. Liban. Bey-

routh. 1958.

Ericksen, Gordon, Urban Behavior. N.Y., 1954.

Fairgrieve. J., Geog. & World Power, Lond., 1941.

Farid. A.I., The Population of Egypt. Cairo. 1948.

Fitzgerald. W. Africa, Lond., 1955.

Fisher, W.B., The Middle East, Lond., 1950.

Garnett, Alice, "Capitals of Morocco", Scot-Géog. Magazine, Jan., 1928.

George, Pierre, La Ville. Le Fait urbain à travers le Monde, Paris, 1952.

Hamdan, G., Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, 1959.

----------, "Some Aspects of the Urban Geog. of the khartoum complex", Bull. Soc. Géog. d'Egypte, t. XXXII, 1959.

----------, The, Growte & Functional Structure of Khartoum", Geog. Rev:, ejan., 1960.

-----------, "The pattern of Medieval Urbanism in the Arab World", Geog., April, 1962.

-----------, Capitals of the New Africa", Econ. Géog. 1964.

Hodgkin, R, Sudan Geography, 1952.

Hoskins, H.H., The Middle East, N.Y., 1954.

Huzayyin, S.A.S., Les Villes septentrionales de l'Orient Arabe, C.R., Congrés Intern. Géog. Varsovie, 1934. t.III.

------------, Arabia and the Far East, Cairo, 1942.

Jefferson, Mark, "Distribution of World's City Folk", Geog. Rev., July, 1931.

------------, "The Law of the Primate City," Geog. Rev., April, 1939.

Klein J., La Tunisie, Coll. Que Sais-Je? Paris, 1949.

Lebon, J.H.G., "Site & Modern Development of Baghdad", Bull. Soc. Géog. D'Egypte, t. XXIX, 1956.

Le Lannou, Maurice, La Géog. Humaine, Paris, 1949.

Longrigg, S.H., Oil in the Middle East, Lond. 1961.

Mackinder, H.J., Briain & the British Seas, Lond.

Melamid, Alex., Economic Development & Urban Geog, Geog. Rev., Jan . 1961.

Morgan, F.W., Ports & Harbours, Lond. 1952.

Philipponneau Michel, Géog. et Action, Paris, 1962.

Rostovtzeff, M., Caravan Cities Oxford, 1932.

Royal Institute of International Affairs, The Middle East.

A Political & Economic Survey. Lond., 1958.

Sadek, D., "Medium - Sized Towns in the

Urban Pattern of Modern Egypt", Bull. Soc. Géog. d'Egypte, 1961.

Sorre, Max., Fondements de la Géog. Hamaine, Habitat, Paris 1952.

Stamp, L. Dudley, Intermediate Geog., Lond., 1941.

Stuart, Graham H., The International City of Tangier, Stanford, 1955.

Tinthoin, R., Un bourg de colonisation en Algérie: Saint-Denis du Sig, C.R., Cong. Intern. Géog., varsovie, 1934, t. III.

Tricart, j. Cours de Géog: Humaine, Fasc. II, Habitat Urbain, Paris, 1958.

Weulersse, J., Antioche, un type de cité d'Islam, C.R., Congrés Intern. Géog., Varsovie, 1934 t. III.

Whittlesey, D, The Earth and the State, Wash., 1944.

Winid, Walenty, The scope of Urban Geog. C.R., Congrés. Intern. Géog. Varsovie, 1934. t. III.

الفهـرس

مقدمـــة ٥

الباب الأول : دراسة أصولية ٩

الفصل الأول – حضارة المدن ١١

الفصل الثانى – المدن الكبيرة ٣٣

الفصل الثالث – عواصم العرب ٥٧

الفصل الرابع – المدن الجديدة ٨١

الفصل الخامس – تصنيف وظيفي ١٠٥

الباب الثانى : هيكل شبكة المدن العربية ١٤٥

الفصل السادس – المغرب العربى ١٥٥

الفصل السابع – ليبيا ٢٠٥

الفصل الثامن – السودان ٢٢٥

الفصل التاسع – الشام ٣٦٧

الفصل العاشر – العراق ٣١١

الفصل الحادى عشر – الجزيرة العربية ٣٣٩

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

سبتمبر ١٩٩٦ .. تقرأ فيها :

رجاء جارودى - جزء خاص

محنة جارودى أم محنة الاعلام ؟ .... بهاء طاهر

رجاء جارودى وحدود الخطاب الحضارى الغربى ....

.... د. عبد الوهاب المسيرى

فكر وثقافة

غرناطة (القفز على الأشواك) .... د. شكرى محمد عياد

دفاع عن الشخصية المصرية .... د. أحمد ابو زيد

اصلاح النظام القانونى والشخصية المصرية .... على فهمى

«مضغة» الدخول إلى القرن الواحد والعشرين .... مصطفى الحسينى

كيف يرى الشرقيون الغرب ؟ .... د.يوسف زيدان

نجيب محفوظ : كتبت السيرة الذاتية فى لحظة ضيق وملل .... عاطف مصطفى

أرنولد توينبى . وإعادة كتابة التاريخ .... د. السيد أمين شلبى

زكى مبارك قلب شاعر وعقل مفكر .... سيد خميس

المدن المتفجرة فى العالم ....

الكاتب كالبحر .. كلاهما لا يموت .... محمود قاسم

النحو العربى والحمى المستباح .... د. محمود الطناحى

ظاهرة أهداف سويف فى الأدب العالمى .... د . ماهر شفيق فريد

ساحر الصحراء .... سعيد كفراوى

أدب الاظافر الطويلة .... نجوى صالح

دائرة حوار

مستقبل المشروع العربي القومي .... هاني عبد المنعم خلاف

فـــــنون

تحية حليم . فنانة مصرية اصيلة .... د. صبرى منصور
هوليوود مراقبة .... مصطفى درويش
الفعل المسرحى في ملاعيب ابو نضارة .... حازم شحاته

شــعر وقصة

قربان إلى الطبيعة (شعر) .... محمد محمد السنباطى
الطيور (قصة قصيرة) .... أحمد الخميسى
أنا والليل ووحدتى (شعر) .... جليلة رضا

التكويــن

ليس هناك أسوأ من يسارى سيىء .... محمد عودة

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء - أقوال معاصرة -

من الهلال إلى الهلال - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيــس التحريــر
مصطفى نبيل

روايات الهـــلال

تقـــــدم

ترانيم فى ظل تمارا

تأليـف:

محمد عفيفى

تصـــدر

١٥ سبتمبر ١٩٩٦

كتاب الهلال
القادم

الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى

بقلم:
د. رشدى سعيد

يصدر
٥ أكتوبر ١٩٩٦

رقم الايداع
٩٦ / ٨٨٤٨
I.S.B.N
977-07-0497-0

هذا الكتاب

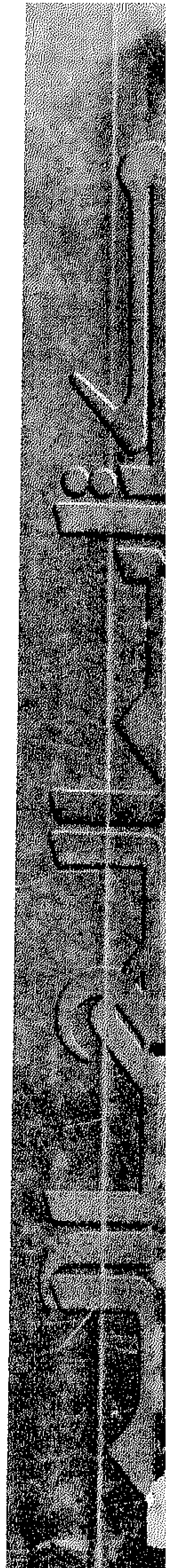
- آلت دار الهلال على نفسها إحياء ذكرى د. جمال حمدان، والذى لايكون بمجرد الحديث عنه، وانما بنشر تراثه العلمى، وإلقاء الضوء على الدرب الذى يدعو إليه ، والعمل على تحويل أفكاره ونظرياته إلى واقع.

وهذا الكتاب صدر فى منتصف الستينيات، وبالتحديد سنة ١٩٦٤، وهو كتاب بالغ الأهمية وغير مسبوق، وهو جزء من ثلاثية جمال حمدان، الذى يحتل العالم العربى فيه الدائرة الثانية، تسبقها دائرة مصر وتليها دائرة العالم الاسلامى. فمن الوطن انتقل إلى القرية ثم إلى العقيدة.

فللمدينة العربية دور غير عادى فى الحضارة العربية، فهذه المدينة انتقلت من كونها مصنعا إلى متحف وأخيرا إلى معمل ، فحضارة العرب كانت أساسا حضارة مدن، فالمدينة هى «مصنع» الحضارة العربية، غدت بعد التمزق والانهيار العربى «متحف» الحضارة العربية ، فمدننا الكبرى «تاريخ محفوظ» وهى نقطة التماس الحرجة فى عملية الاحتكاك الحضارى بين الشرق والغرب، والمدن العربية عند جمال حمدان جبهات للتصادم ومشاتل للتخمر السياسى ومواطن للوعى القومى، بينما هى التى تبث التغيير والتطوير فى كل أنحاء البلاد.

إنه كتاب مهم لا يخاطب الأجيال الحالية وحدها، إنما يخاطب التاريخ بلغة الجغرافيا، وهو كتاب يكشف عن عبقرية جمال حمدان، وقدرته الفذة على النفاذ الى التفاصيل الصغيرة ويصنع منها بناء متكاملا، وسياقا منطقيا متجانسا. وهو يكتب بحماس العاشق، وموضوعية العالم، وبصيرة الصوفى.

إن هذا الكتاب أهم دراسة علمية عن «المدينة العربية» التى كانت من وجهة نظر البحث العلمى أرضا مجهولة.





أحمد
بهاء
الدين

..وتحطمت
الأسطورة
عند الظهر!



KITAB AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٥٠ – جماد أول – أكتوبر ١٩٩٦ – ON.550-OC-1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

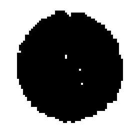
أسعار بيع العدد فئة ٤٠٠ قرش

سوريا ١٣٠ ليرة – لبنان ٨٠٠٠ ليرة – الأردن ٣٠٠٠ فلس – الكويت ١٥٠٠ فلس – السعودية ١٥ ريالا.

وتحطمت الاسطورة عند الظهر

قصة حرب اكتوبر ١٩٧٣

أحمد بهاء الدين



دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

إهـــــداء

إلى الذين قاتلوا .. ثم صمدوا.. ثم قاتلوا
ومازالوا صامدين !

أحمد بهاء الدين

تقديم

بقلم : مصطفى نبيل

يصدر هذا الكتاب المهم فى مناسبتين ، الأولى الذكرى الثالثة والعشرون لحرب أكتوبر ، والثانية ذكرى الأربعين لرحيل الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين.

ويحاول الكاتب فى هذا الكتاب أن يضع إنتصار أكتوبر ١٩٧٣ وهزيمة يونيو ١٩٦٧ في إطارهما الصحيح، ويقوم الكتاب علي الوقائع الثابتة ، ويقدم صورة متكاملة لمسيرة الحرب من البداية حتى وقف إطلاق النار.

يسجل الكاتب بدقة أبعاد ووقائع الصراع العربى الاسرائيلى ،حتى لاننسى وتطوى الأيام تلك البطولات.

مع حسٍ عالٍ بحركة التاريخ ،في حرب هي أعظم الحروب التى خاضها الانسان المصرى في العصرالحديث .

ويقوم كتابه على تحليل رفيع المستوى ، وفى ذات الوقت غنى بالمعلومات الدقيقة، ويجمع الكتاب بين الرؤية العلمية والتفاصيل الدقيقة .

ونري فى هذا الكتاب ملامح أحمد بهاء الدين كاتباً ومفكراً وصاحب رسالة ، تدعو للحرية والتقدم ، ويقف بحق إلى جانب عمالقة الفكر محمد عبده ولطفى السيد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم .

وإذا كان بهاء يتميز بالسرعة الشديدة فى القراءة، فهو يتميز أيضاً بالسرعة فى الكتابة ، وقد أنجز هذا الكتاب بعد حرب أكتوبر خلال عشرة أيام ..

ويروى أحمد بهاء الدين قصة هذا الكتاب فى كتابه «محاوراتى مع السادات» الذي صدر عام ٨٧ ..

«إنتهت حرب أكتوبر نهايتها المعروفة ، ولا أظننى فى حاجة إلي وصف حالة الفرحة المثيرة ، والابتهاج العام التى كانت تسودنا جميعاً فى كل مكان خصوصاً فى الصحف ، حيث كنا نقيم آناء الليل وأطراف النهار لمجرد إحتمال سماع خبر جديد آت من الجبهة . .

وبعد وقف إطلاق النار بأيام زارنى فى مكتبى فى الأهرام الناشر الكبير المعروف الأستاذ محمد المعلم صاحب «دار الشروق» .

وقال لى : هل تذكر كتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر؟» .

قلت : كيف لا أتذكر ..؟ فبعد هزيمة ١٩٦٧ نشطت المخابرات الأمريكية والإسرائيلية وبعض المخابرات العربية ، وجهات سياسية كثيرة ذاقت مرارات الهزيمة على يد جمال عبد الناصر من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٧ ، وتحركت كل تلك الأجهزة التى طالما أصدرت الصحف وطبعت الكتب وأقامت الإذاعات طوال اثنى عشر عاماً مجندة أحياناً أكبر الأقلام والأسماء ، ودافعة الأموال والرشاوي لرؤساء دول ورؤساء وزارات، للنيل من جمال عبد الناصر دون جدوى، تحركت الجهات ودبت فيها الروح بعد أن أصبح الأسد جريحاً ومصر ملقاة علي الأرض ، وتفتحت خياشيمها لرائحة الدم ، وأغرقت الأسواق العربية بمئات الكتب والصحف التى تحاول جعل الهزيمة ضربة قاتلة نهائية، ولم تترك شيئاً من آثار ثورة ٢٣ يوليو إلا تحاول تجريحه ، ولم تترك وسيلة لإثبات عدم جدارة الإنسان المصري بالأحلام التى طافت بمخيلته زمناً، إلا حاولت تدميرها.

كتب تغمر الأسواق بغير مؤلف واضح ولا ناشر معروف .. كلها طبعت في مطابخ المخابرات الدولية والعربية . وكان أقساها وأكثرها إيلاماً وتجريحاً كتاب اسمه «وتحطمت الطائرات عند الفجر» محوره الأساسى

ضربة الطيران الإسرائيلي وتدميره للطيران المصرى والمطارات المصرية فى ساعات قليلة فجر الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، ودور الجاسوسية الناجحة فى هذه الضربة .

ويمضى بهاء فى حكايته ..

كان الناشرالصديق محمد المعلم يمارس نشاطه فى النشر وقتها فى بيروت ، وكنت كلما ذهبت إلى بيروت وجدت كميات جديدة من هذا الكتاب الذي يباع بثمن رمزى مكدسة علي كل رصيف في بيروت حتى لا تفوت أحدا قراءته .

قال لى محمد المعلم : إذا كنت تذكر بشاعة ذلك الكتاب وما كان يسببه لنا من آلام ، فإننى أطلب إليك طلباً محدداً . هو أن تكتب لنا كتابا مضاداً واقترح أن يكون عنوانه رداً على ذلك العنوان «وتحطمت الأسطورة عند الظهر» إشارة إلى عبور الجيش المصرى القناة وتدمير خط بارليف ظهر ٦ أكتوبر١٩٧٣ ..... وأخذ يكرر إن السرعة هنا بالغة الأهمية وان أى كتاب سيظهر الآن من كاتب مصري مثلي عن الحرب سيقرؤه كل عربى .

قلت له : السرعة شىء عظيم لسعة الانتشار

والتوزيع ، ولكنها ليست كل شيء ، إنني مستعد لأن أكتب لك كتابا تحت هذا العنوان خلال عشرة أيام ، ولكنه سيكون كتاباً سياسياً لا وثائقياً ولا معلوماتيا، لن تكون فيه معلومة واحدة زيادة عما نشر فى صحف مصر وإسرائيل والعالم الخارجى ، ولكنه فى أحسن الحالات سيكون كتابا تحليلياً يضع حرب أكتوبر بتفاصيلها التى نعرفها حتى الآن فى إطارها التاريخى الصحيح، والتى قامت كنتيجة لإصرار ولد عقب هزيمة ٥ يونيو مباشرة على رفض الهزيمة وعدم الإستجابة لكلمة ديان الشهيرة .. «لقد إنتهت مرحلة بأكملها ، وأنا جالس بجوار تليفونى مستعد للرد على أول مكالمة من أول عاصمة عربية تريد أن تأتى إلينا» ، وما تلا الهزيمة - بعد أيام من معركة رأس العش كإعلان عن الاصرار على المواجهة ، ثم إغراق البارجة الإسرائيلية إيلات بعد أسابيع من الهزيمة، فإعادة التسليح، فحائط الصواريخ فحرب الإستنزاف ، فقرار الهجوم والعبور.

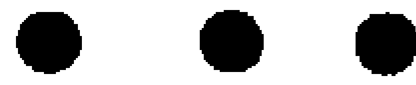
قال المعلم متحمساً : هذا ما أريده بالضبط، لا أريد أكثر من ذلك، ولكنى أريد أن أصنع كتابا من هذا

العنوان حيث مازالت معروضة بقايا كتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر» على الأرصفة.

وبالفعل كنت أنجز عملى فى الجريدة وأهرع إلى البيت لأعمل فى الكتاب حتى أنجزته فعلا فى عشرة أيام » .

ويعيد أحمد بهاء الدين ، الاعتبار لحرب الاستنزاف التي بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف إطلاق النار فى ٧ أغسطس ١٩٧٠.

والتى تعرضت مؤخراً لحملة ظالمة .



وإذا بحثت عن سر أحمد بهاء الدين ، أو سعيت للتوصل إلى مفتاح شخصيته، وسبب جاذبيته والقبول والمصداقية التى تتمتع بها كتاباته ، فستجد أنه ذلك المزيج بين الوطنية والمعرفة ، المزيج بين الحس الوطني العالى والقدرة الفائقة على التحليل والنفاذ، مع مسحة إنسانية، وهى كلها بادية للعيان فى شخصيته وأعماله ..

ولم يكن غريبا لمن شجت رأسه فى حادث كوبرى عباس يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ ، خلال مشاركته فى مظاهرة تطالب بالجلاء ، أن يكون أول مانشره من

كتب ، كتاب عنوانه «الإستعمار الأمريكي الجديد» ، والذى صدر فى منتصف يونيه سنة ١٩٥١ ، ويكتب قائلاً..«كنا قرأنا تاريخ بلادنا وعرفنا أن الحرب العالمية الأولى أعقبتها الثورة المصرية الأولى على الإستعمار الانجليزى، ثورة ١٩١٩ ، واقتنعنا بأن هذه الحرب العالمية الثانية لابد أن تعقبها ثورة أخرى نخوضها ونكون وقودها..»

وظلت المسألة الوطنية – طوال حياته على رأس اهتماماته ومركز كتاباته.

واحتل مكانته فى الحياة الفكرية والصحفية كالشهاب ، معتمدا على قدراته ومواهبه ، ففى مايو عام ١٩٥٦ ، تقدم «كتب للجميع» بهاء فى كتاب بعنوان «مباديء وأشخاص» ، وأيامها كان عمره تسعة وعشرين عاماً، ورئيس تحرير مجلة «صباح الخير» ، ونشر بالفعل أربعة كتب هى «الإستعمار الأمريكي الجديد» ، و«فاروق ملكا» و«أيام لها تاريخ» و«شهر فى روسيا» وترجم عن الزعيم الهندى نهرو كتاب «الثورات الكبري» ، وهذا لا يدل على موهبة فقط ولكن يدل أيضاً على أن مصر عام ١٩٥٦ ، كانت تفتح ذراعيها لأولئك الذين يملكون الموهبة ، وتغلب علي

المجتمع روح التشجيع والإحتفاء، من جيل قائم بأجيال جديدة ، وهذا عكس مانشاهده اليوم .

حقا .. إنه من القلائل الذين يملكون شجاعة فكرية كبيرة ، ومن الذين لا تزحزحهم تقلبات الدنيا ، ولا يتنكر لرؤيته وفكره . وعرف عنه أنه الكاتب الذى لا يحركه الهوى ، ويمثل الضمير العام بكل النقاء والإخلاص ، وهو يكتب قصة أكتوبر بقلم فنان وعاطفة شاعر ، وعقلانية عالم .

وها هو ذا الكتاب الذى خط منذ اثنين وعشرين عاما، مازال كتابا حيا متوهجاً، ومن أفضل الكتب التى يجب أن تطلع عليها الأجيال الجديدة .

ويذكرنا بهاء فى مؤلفه أن دافع اسرائيل الحقيقى لقبول التسوية السياسية، هو مالمسته من قدرة الجيش المصرى .

مقدمة

«وتحطمت الطائرات عند الفجر »

لعل عشرات الآلاف من المواطنين العرب مثلى ، ظل هذا العنوان طوال سنوات يبعث القشعريرة فى أبدانهم وأعصابهم ..

كان هذا عنوانا لكتاب لقيط، اسم مؤلفه مزور، واسم مترجمه مجهول، ولكنه كان لا يكف عن غمر الأسواق العربية، مكدسا سنة بعد سنة على أرصفة المدن العربية.. واحدا من تلك الكتب التى دبجتها الدعاية الصهيونية ودستها على العرب بعد هزيمة ١٩٦٧، وكأنها تلاحقهم بالهزيمة ليس على الأرض وحدها، ولكن حتى داخل أعمق أعماق نفوسهم ..

«أدب» كثير وغزير، ظهر فى أعقاب النكسة، فى كل كتاب قليل من الحقيقة وكثير من الخيال والتلفيق والتزوير.. يريد أن يحطم فى العربى كرامته، ومعنوياته، وبقايا أمله.. فأرضه أمام إسرائيل [illegible]اء، وأسراره لعملائها مكشوفة، وقدرته على القتال أمام عدو [illegible]ى غير موجودة ..

وكان هذا العنوان «تحطمت الطائرات عند الفجر» عنوان واحد من هذه الكتب، وربما أشهرها، حتى سار رمزا على هذه الأكداس من المؤلفات المدسوسة... خصوصا وأنه كان يستمد عنوانه من حقيقة مرة: فقد تحطمت الطائرات فعلا، بعد الفجر بقليل ....

وكان ذلك بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة بحوالي شهر عندما ذكرني صديق بكتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر».

كيف لا أذكر ؟

وكان الاقتراح: كتاب سريع، يعيد بعض الأمور إلى نصابها، بعد أن ارتفعت الرءوس التي ظلت منكسة لسنوات .

فقد تحطمت الأسطورة عند الظهر، عندما أصدر أنور السادات قراره التاريخي بإطلاق الشرارة !

وكان لابد أن تمر فترة تردد. فالأحداث مازالت قريبة والحرب لم تنته هذه المرة بعد، وأسرارها بالتالي ليست مفتوحة كما حدث بعد ١٩٦٧.

ثم بدأت المحاولة، وكان لابد لها من عنصرين : الايجاز والسرعة .

لماذا السرعة ؟

لأن أداة إسرائيل الدعائية بدأت تعمل لمحاولة التقليل من قيمة العمل الذى قامت به قواتنا المسلحة، بتصوير انتصارها كنوع من الصدفة والايحاء بأنه لو استمر القتال، لأحرزت إسرائيل انتصارا جديدا.

وليس هذا كتاب مغامرات «جيمس بوندية» مزيفة مثل الكتب التى أشرت إليها.. ولكنه محاولة لوضع هذه المرحلة من الصراع العربى الإسرائيلى بحلوها ومرها فى إطارها التاريخى الصحيح .. ولهذا كان الاعتماد فى أماكن كثيرة على مصادر إسرائيلية وغربية ثابتة .

ان حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة قد هزمت الهزيمة .

وهذا ما ستحاول هذه السطور السريعة أن تشرحه .

أحمد بهاء الدين

حرب ١٩٦٧

لا يمكن الكتابة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتقدير حجم الانتصار الذى حققته، دون الاشارة في ايجاز إلى حرب يونيو ١٩٦٧، وما خلفته !.ذلك أنهما في حقيقة الأمر قتالان فى مسار حرب واحدة. وكل ما حدث فى حرب يونيو ١٩٦٧ كان له انعكاس فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، من أسلوب العمل السياسى والعسكرى، حتى أعمق وجدان الجماهير (ألم نستمع كلنا إلى البلاغات العربية الأولى فى أكتوبر ١٩٧٣ فى تحفظ واشفاق شديدين،.لأن أفئدتنا كانت لاتزال مثقلة بالبلاغات الأولى لحرب يونيو ١٩٦٧ ؟) .

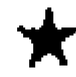
ومع ذلك، فانه من الممكن القول أن بعض عناصر النظرة الشاملة والتقييم الأخير لحرب يونيو ١٩٦٧ مازالت ناقصة : لأن الكثير مما قيل كان غير صحيح. ولأن الدعاية الصهيونية دفعت بالهزيمة – التى كانت أعباؤها عميقة بالفعل – إلى أبعاد أكثر مبالغة، ولأن الأطراف لم تتكلم بعد .

ومع ذلك فلا بد من القاء نظرة أو محاولة اجراء تقييم مبدئى لحرب ١٩٦٧، التى ما زلنا فى النهاية نعيش آثارها القائمة أو صفحاتها التى لم تنطو بعد.

والعبرة التى يجب أن نخرج بها من حرب ١٩٦٧، بالغة الأهمية.

فلا يجوز من جهة أن نستسلم للحرب النفسية التى شنت علينا بمئات الكتب وآلاف المقالات محاولة أن تجعل للهزيمة أبعادا أكثر من حقيقتها، أى أن تثبت أن أسباب الهزيمة أبدية وأزلية وكامنة فى طبيعة شعبنا وقدراته. كما أنه من ناحية أخرى لا يجوز مطلقا محاولة التقليل من العوامل التى قادت إلى الهزيمة، ولا الاعتذار عنها بأى شكل من الأشكال.

هناك منطقة وسط بين تعذيب النفس وبين دفن الرأس فى الرمال، هى المنطقة التى يجب أن نقف فيها، ونستخرج منها الدروس الصحيحة، التى يتعلمها شبابنا وأبناؤنا. فبهذه السلسلة المتصلة من الهزائم والانتصارات، يتواصل تاريخ كل شعب فى العالم. انما المهم دائما هو استخلاص النتائج الصحيحة .



من هذا المنطلق أبادر فأقول أننى من الزاعمين بأن حرب ١٩٦٧ كانت فخا منصوبا لنا، واستدارجاً تفتحت مراحله أمامنا بإحكام استدرجنا إليه مغمضى العينين .

وليس معنى هذا أننا أبرياء من مسئولية الوقوع فى الشرك ...

ذلك أن السياسات الدولية، خصوصا ما يتصل منها بالحرب والسلام، مليئة بالشراك والأفخاخ. ولكن هذه الشراك والأفخاخ لا تنصب ولا يتم عملها بإحكام، من فراغ. انما تستمد عناصرها من الظروف والملابسات الواقعية .

ان من ينصب لخصمه شركا فى عالم اليوم : يدرس هذا الخصم جيدا، ويتعرف على مواطن ضعفه وقوته، ويبحث ردود فعله السياسية والعسكرية بكل دقة. ويختار لنصب هذا الشرك اللحظة السياسية والعسكرية، المحلية والدولية، المادية والمعنوية، المناسبة له، بحيث تؤتى خطته ثمارها .

وفى عصر اشتهرت فيه اصطلاحات The Game of Nations والـ Gamesmanship كاد هذا الأسلوب فى السياسة أن يكون علما قائما بذاته.

لم يعد واردا فى عالم اليوم أن تعتمد فى أحكامك أو خططك السياسية على الالهام أو الارتجال، أو على حسابات سريعة محدودة. ولكن القرارات السياسية الآن محصلة خبرة العسكرى والسياسى والمهندس والعالم والاقتصادى وكل طاقات البلد العلمية والعقلية. العالم صار معقدا. وأجهزة الدول معقدة، وردود فعل أى حدث، خصوصا اذا كان حرباً معقدةٍ فلم يكن جائزا مواجهة هذا كله بتبسيط للأمور أو بالاستسلام للحماسة غير

المدروسة، أو للخلط بين الرغبات وبين الظروف المحيطة بامكانية تحقيق هذه الرغبات.

وهذا القول ينطبق أكثر ما ينطبق بالنسبة لخصم مثل دولة إسرائيل.

لمـاذا ؟.

لأن إسرائيل، من هذه الزاوية التى نتحدث عنها، لها عدة خصائص معينة :

أولا - أنها دولة أساس فلسفتها التوسع . على الأقل التوسع إلى أن تضم حدودها ذات يوم (١) كل ما تسميه هى «أرض إسرائيل التاريخية Eretz Israil » (٢) كل أو معظم يهود العالم (٣) ولأن «أرض إسرائيل التاريخية» قد لا تسمح مواردها الطبيعية بمستقبل مضمون لكل أو معظم يهود العالم فهى محتاجة أيضاً إلى اضافات معينة إلى هذه الأرض، مثل منابع الأنهار مثلا فى جنوب لبنان ....

إذن فهناك سببان أساسيان يجعلان التوسع جزءا فى سياسة الدولة الإسرائيلية .

العنصر الأول هو عنصر العقيدة الذى قامت عليه الدولة، والذى يجب بمقتضاه أن تضم الدولة كل أراضى إسرائيل

التاريخية .

العنصر الثاني هو العنصر العملي، العنصر السياسي – الاقتصادي – والديمغرافي : فازاء هذا العالم العربي الواسع لابد للدولة الصغيرة من دفاع يتمثل في حدود أوسع وأقوى – ومساحة تستوعب المهاجرين المتوقعين، وعناصر طبيعية مهمة لاقتصاد أي دولة على المدى البعيد حتى تجعل «المشروع الإسرائيلي» قائما على أسس صحيحة ...

ويكفي أن نضرب مثلا على ذلك : موضوع المياه فقط ...

فمن أكبر مشاكل النمو التي تواجهها إسرائيل مشكلة المياه وهي تريد أن تضع يدها على ما حولها من أنهار ومصادر مياه لهذا السبب. لأنه كما قال مناحم كنتور مدير مصلحة المياه في إسرائيل يوم ١٩٧٣/٧/٦ «ان المحافظة على معدل النمو المقبول اقتصاديا معناه طلب متزايد على المياه» وموارد إسرائيل بعد عشر سنوات لن تكفيها في المياه للصناعة والزراعة والشرب حتى ولو نجحت الأبحاث العلمية في استخدام مياه المجاري بعد تنقيتها...

وفي بحث الحلول يطرح عادة استغلال روافد نهر الأردن والحاصباني والوزاني وتحلية مياه البحر «وإسرائيل لم تستطع

قبل حرب ١٩٦٧، جعل الروافد تصب فى إسرائيل، ولكن حرب الأيام الستة قضت على المشروع العربى لتحويل روافد نهر الأردن، وأصبح نهر بانياس والجزء الغزير من الحاصبانى (ينابيع الوزانى) تحت السيطرة الإسرائيلية.. واقيمت مشاريع مياه فى مرتفعات الجولان ونفذت أعمال حفر فى جبال الضفة الغربية من أجل التغلب على النقص فى المياه».

ولكن هذا كله لا يحل مشكلة إسرائيل. فقد نشر «اليشع كلى» مدير شعبة التخطيط البعيد المدى للمياه ، بحثا قال فيه أن هذه الحلول كلها لن تكفى مع نهاية القرن. والحل الوحيد فى رأيه، بعد الاستفادة من الأنهار العربية المجاورة، وهو الاستفادة من مياه نهر النيل».. فنهر النيل ينتج نحو مائة ضعف أكثر من الليطانى مثلا. وهو يختلف عن الليطانى إذ ليس فيه مشكلة فيضانات الشتاء الخطرة. كما أن النقل منه إلي وسط مناطق الاستهلاك المستقبلة فى إسرائيل (قطاع غزة، المنقب الشمالي الغربى، مدن النقب) بواسطة قناة مكشوفة عبر سيناء، وأنابيب تحت قناة السويس، قد يكون رخيصا جدا».

ثم يستطرد قائلا «أنه من الصعب، طبعا، التفكير فى استغلال مياه النيل فى إسرائيل دون التفكير فى الوضع الجغرافى - السياسى الحالى، لكن ربما يستطيع من هو مستعد لإستخدام

خياله تصور أوضاع سياسة مختلفة تماما عن الوضع الحالى، الاستعانة بحقيقة أن النيل سيظل يمد مصر كل عام بنحو ٨٠ مليار متر مكعب . ومن شأن مشكلات المياه فى إسرائيل أن تحل على المدى البعيد باستخدام ١٪ فقط من إنتاج النيل دون المساس بنظام استهلاك مياه النيل فى البلد الذى يتدفق فيه» (١).

فالتوسع، وهذا موضوع يستحق كتابا بمفرده، جزء مركب فى نظرة إسرائيل الحالية إلى مستقبلنا .

ولا أريد أن استطرد هنا لاثبات عقيدة إسرائيل التوسعية، حتى لا نبعد كثيرا عن أصل الموضوع .

يكفى أن نذكر أن إسرائيل تعمدت أن لا تنص فى دستورها حين قامت على حدود دولتها .

ويكفى أن نذكر حديث بن جوريون مع ديجول، الذى رواه بن جوريون نفسه فى خطابه المفتوح إلى ديجول بعد حرب يونيو، حين هاجم ديجول موقف إسرائيل .

لقد روى بن جوريون أنه فى آخر لقاء له مع ديجول فى فرنسا، وهما يتمشيان فى حدائق قصر الأليزيه مع مرافقيهما - قبل حرب يونيو - أن ديجول جذبه من ذراعه بعيدا عن أسماع

(١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٦ سبتمبر ١٩٧٣.

المرافقين وسأله «ولكن ما هي الحدود التي تريدها إسرائيل فعلا» ورد بن جوريون بدهائه «لو سألتني قبل ربع قرن لقلت لك نهر الأردن شرقا ونهر الليطاني شمالا . ولكننا الآن نريد السلام».

فهو بلباقة قد أبلغ ديجول ماذا يريدون، دون أن يقول له غير المقبول سياسيا، من أنه ينوى ضم هذه الأراضي بالقوة .

وقبل ذلك، نذكر كيف أن الحركة الصهيونية ناضلت أثناء مؤتمر فرساي، وخلال تقسيم الشرق الأوسط بين فرنسا وانجلترا لكي تضم «فلسطين» شرق الأردن وجنوب لبنان، حتى يصبح كل هذا ساحة لتطبيق وعد بلفور القاضي باعطائهم «وطنا قوميا في فلسطين» .

ثانيا – أنها دولة تعرف أنها لا يمكن أن تحقق أى توسع إلا على حساب العرب، وبالتالى لا يمكن أن يتم أى توسع إلا بالحرب.

ثالثا ـ أنها دولة صغيرة الحجم محدودة السكان والموارد، مهما تدججت بالسلاح وبالتالى فأملها في تحقيق هذا التوسع الذى لابد أن يكون بالقوة، لا يمكن أن يتم إلا في لحظات معينة، تكون كفة القوة بينها وبين الدول العربية مائلة لحسابها، وتكون الظروف الدولية مواتية، وتكون في الدرجة الأولى معتمدة على

حليف أو على حلفاء خارجين أقوياء .

ومعنى ذلك : إن إسرائيل لا يمكن أن تذهب إلى قوة خارجية كبرى، وتقترح عليها مساعدتها لكى تشن حربا على العرب وتقتطع من أرضهم جزءا تضمه إلى دولتها. ولكن عليها :

١ - أن تعمل عملا سياسيا وإعلاميا دءوبا، خلال عشرات المواقف المتوالية، لكى يكون لها مثل هذا الحليف ، وتقيم معه علاقة حميمة خاصة .

٢ - أنه لابد لها من تمهيد الأرض لكى تقنع هذا الحليف المنتظر بأن هناك تطابقا أو توافقا بين مصالح إسرائيل ضد العرب وبين مصالح هذا الحليف .

٣ - أن تبقى بعد ذلك فى انتظار لحظة تدهور العلاقة بين العرب وبين هذا الحليف، وفى ظل كل ما مهدت به الأرض مسبقا، تقوم إسرائيل بهجومها الخاطف، من مدخل انتظار الفرصة، لغرض توسع جديد تحقق به خطوة فى استراتيجيتها البعيدة المدى وأهدافها المذهبية والحياتية معا ...

كان هذا هو الشأن فى حرب ١٩٥٦، التى صارت كل أسرارها مكشوفة الآن.

لقد اتخذت إسرائيل قرارها بضرورة توجيه «ضربة وقائية» ضد مصر، تحت تأثير عاملين : أولهما جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس، وثانيهما عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة السوفيتية الشهيرة مع الاتحاد السوفييتى. ذلك أن هذين العنصرين كانا يقللان من حرية إسرائيل فى توجيه الضربات التأديبية التى كانت تقوم بها ضد الدول العربية المحيطة بها - مصر والأردن وسوريا . ولكنها بقيت تنتظر اللحظة المناسبة بالمعنى الذى ذكرناه منذ قليل.

كانت تنتظر تجمع العاصفة فى عواصم أخرى قوية ضد مصر، لكى توجه ضربتها، ولكى تخرج منها بغنيمة جديدة .

وكان ذلك فى بداية المد بالنسبة لتيارات كثيرة تزعج العالم الغربى وتلعب فيها مصر دورا قياديا : حركة التحرر فى الوطن العربى ومقاومة الأحلاف العسكرية وأشهرها حلف بغداد، وحركة التحرر فى العالم الثالث، وحركة دول عدم الانحياز.

على أن انجلترا وفرنسا كانتا غاضبتين بشكل خاص. انجلترا بسبب حرب عبدالناصر ضد مشروع حلف بغداد. وفرنسا بسبب مساعدة مصر لثورة الجزائر. وكانت أمريكا غاضبة لغضب أهم حليفتين لها، وصادف ذلك أوج الحرب الباردة فى عهد وزير

خارجيتها جون فوستر دلاس. ثم جاءت أزمة السد العالى وتأميم قناة السويس : لقد أراد دلاس عقاب مصر، وشاركه فى ذلك انطونى ايدن، فأعلن جون فوستر دلاس سحب عرض أمريكا تمويل السد العالى وأعقبه أيدن بسحب عرض انجلترا وأعلن على التليفزيون، فى تبرير ذلك، افلاس مصر، معتقدا أنه يوجه بذلك ضربة قاصمة للثورة في مصر. ورد عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس.

ساعتها قررت انجلترا وفرنسا القيام بعمل عسكرى ضد مصر: السبب المباشر هو استرداد قناة السويس، والسبب الأعمق هو ضرب حركة المد الثورية التى كانت تقوض الوجود البريطانى فى الشرق الأوسط والوجود الفرنسى فى شمال أفريقيا .

ومن مراجعة كل ما كتب عن أسرار حرب السويس التى كشفت بعد ذلك نفهم لقاء انجلترا وفرنسا وإسرائيل فى الحرب .

.. كانت إسرائيل، حقا، قد لجأت قبل ذلك إلى فرنسا لشراء الأسلحة التى توازن بها السلاح السوفييتى الذى بدأ يرد إلى مصر. وأخذت الاتفاقات العسكرية السرية تنفذ بين فرنسا وإسرائيل من قبل تأميم القناة، بدافع من التقاء رغبة إسرائيل فى الاستعداد لتوجيه ضربة إذا سنحت الفرصة مع رغبة فرنسا فى

اضعاف العاصمة التى تمد الثورة الجزائرية بالمال والسلاح والدعم السياسى .

وكانت فرنسا قد اقتنعت ان إسرائيل، إذا سنحت الفرصة، مستعدة فعلا لتوجيه ضربة عسكرية إلى مصر ....

ولكن الذى حدث بعد تأميم القناة، هو أن القيادات الفرنسية والانجليزية وضعت فى البداية خطة للهجوم على مصر عن طريق غزو الاسكندرية ثم شق الطريق إلى القاهرة. ولكن القيادة السياسية «الانجليزية والفرنسية» وجدت أن هذا الطريق بعيد عن قناة السويس، التى هى حجة التدخل، وبالتالى قد لا تبدو الحملة مقنعة فى أسبابها، فتقرر وضع خطة أخرى للهجوم على بورسعيد لاحتلال القناة مباشرة، لأن هذا سيكون أسهل فى تبريره إزاء العالم .

وفى هذه اللحظة قفزت إسرائيل إلى ذهن القيادات العسكرية الفرنسية والمجموعة السياسية التى كانت متحمسة لاخضاع ثورة الجزائر. وأبلغت فرنسا حليفتها انجلترا لأول مرة عن اقتراح اعطاء إسرائيل دور ما فى العمليات العسكرية، أولا لدوافعها السياسية الخاصة بها، وثانيا لموقعها الجغرافى الذى يسهل الهجوم على منطقة القناة إلى حد كبير.

وتقول المراجع أن انجلترا ترددت طويلا فى قبول ادخال

إسرائيل فى الخطة. فهى بدرايتها الأكبر بالعالم العربى تعرف ان اشتراك إسرائيل كاف لكى يجعل كل العرب يقفون إلى جانب مصر، الأمر الذى قد يهزم الحملة كلها سياسيا. وانقضى وقت ثمين فى هذا التردد وهناك خطتان منفصلتان : خطة فرنسية إسرائيلية، وخطة فرنسية انجليزية، مع محاولات فرنسية متصلة لجمع الخطتين فى خطة واحدة . وأخيرا قبل الانجليز، بشرط السرية التامة، وان لا يجتمع الانجليز والإسرائيليون معا، خشية انكشاف السر ذات يوم .

ولكن الذئب العجوز دافيد بن جوريون صمم على ألا يشترك إلا بعد لقاء مباشر مع الطرف الانجليزى. وبعد أخذ ضمانات محددة من انجلترا وفرنسا أهمها : ضرب المطارات المصرية، وحماية الجو الإسرائيلى حماية كاملة. ورضخت انجلترا وتم توقيع الاتفاقية «سيفر» السرية بين بن جوريون وجى موليه عن فرنسا والسير جلادوين جيب مندوب انجلترا .

ولعلنى استطردت فى قصة بات معظمها معروفا. ولكن الهدف كان القاء الضوء على أسلوب إسرائيل الذى حاولت ايجازه فى «أولا وثانيا وثالثا» من أن إسرائيل لا تهجم إلا من خلال دراسة لظروف كثيرة معقدة، وتحت مظلة ضمانات دولية محددة، وطبقا لخطة ليست هى الطرف الوحيد فيها .

وقد لخص ذلك موشى ديان، كما روى فى كتابه عن حرب سيناء، حين شرح خطة الهجوم لضباطه وأركان حربه المندهشين (وكانوا لا يعرفون أن الهجوم ستكمله انجلترا وفرنسا) وأراد أن يطمئن وساوسهم فقال لهم فى غموض : «لن نكون وحدنا .. سنكون كراكب الدراجة الذى يمسك بيده سيارة لورى مسرعة، فتجره معها بسرعتها الأكبر» .

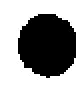
ويكمل هذه الفكرة الأساسية فى فهم السلوك الإسرائيلى، الأهداف التى كانت تكشف عنها بعد كل قتال : والتى تتعدى تماما كل ما يقولونه فى رغبة فى السلام أو رغبة فى الحصول على صلح مع العرب أو رغبة فى مجرد حدود آمنة ....

ففى صباح اليوم الذى انتهت فيه حرب ١٩٥٦، وقف بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل فى الكنيست يعلن عن نواياه فى استثمار الانتصار أو عن نصيبه من الصفقة لأول مرة. رفض فى هذه الخطبة أن يعتبر أن ما أخذته إسرائيل كان مملوكا لمصر. وبدأ يعامل سيناء على أنها أرض غير مصرية. قال : «ان قواتنا لم تطأ أرض مصر ولم يكن هذا فى حسابها. لقد كانت عملياتنا الحربية قاصرة على شبه جزيرة سيناء وحدها» وفى نهاية هذا الخطاب قال : «ان اتفاقية الهدنة بين إسرائيل ومصر قد ماتت ودفنت ولن تبعث بعد ذلك أبدا . وبموت اتفاقية الهدنة تلاشت وماتت خطوط الهدنة ».

وأعاد بن جوريون رسم الخريطة ! قال ان سيناء «صحراء غريبة عن مصر» وأشار إلى شرم الشيخ باسم «شلومو» وذكر تيران باسم «بوتفات Y0tvat » وتحدث في بعض أحاديثه عن اعادة مملكة سليمان!

وأشار بن جوريون إلى أن «إسرائيل لم تنتصر بالصدفة والفضل للاجراءات الخاصة التى اتخذت لحماية سماء إسرائيل من الطيران المصرى» وأهم من ذلك قوله «ان أزمة قناة السويس التى انفجرت منذ شهور لم تكن هى التى جرتنا إلى هذه العاصفة. ولكنه منع المرور من وإلى إيلات» وتحدث عن «تحرير ذلك الجزء من وطننا الذى يحتله الغزاة».

وطوال مباحثاته بعد ذلك أو مواجهاته مع حكومة ايزنهاور التى قامت بضغط عنيف للانسحاب، حاول، مراوغا ، أن يستخدم كلمة «مصر» بتعريفه المحدود السابق لها، أى بدون سيناء. وبعد سنوات طويلة قال لصديقه ومؤرخه «ميشيل بارزوهار» : « ان قراره بالانسحاب من سيناء كان أصعب القرارات التى اتخذها فى حياته وأكثرها إيلاما» أما المعارضة فكانت تقول أنه ليس من حق أحد الانسحاب من جزء من الوطن .



فى السنوات التى قادت إلى تاريخ ٥ يونيو ١٩٦٧ كان يبدو وكأن السيناريو الذى سبق حرب ١٩٥٦ يعيد نفسه من جديد.

كانت علاقة مصر وجمال عبد الناصر بالغرب تتدهور بانتظام، بسبب الأحداث التى كانت تجتاح المنطقة العربية، بل والعالم كله..

كانت أمريكا غاضبة على مصر بسبب موقفها فى الكونغو وسياستها فى أفريقيا بوجه عام، فى فترة كانت القارة السوداء تتفتح فيها على الاستقلال وبالتالى على الصراع الدولى بين الشرق والغرب.

ثم زاد غضب أمريكا بسبب ذهاب القوات المصرية إلى اليمن، إذ وجدت فى ذلك تدخلا من مصر فى شئون غيرها، وتشجيعا لعناصر خطرة قريبة من منابع البترول الثمينة .

وبدأت أمريكا تمارس ضغطها على مصر منذ أواخر عهد كنيدى، أولا بطلب ايقاف صناعة الصواريخ فى مصر ثم بعقد أمريكا لأول صفقة مباشرة مع إسرائيل لتزويدها بصواريخ هوك. ولما اغتيل كنيدى زاد ارتياب مصر فى نوايا أمريكا بتولى ليندون جونسون رئاسة الجمهورية. فهو الرجل الذى قاد المعارضة سنة ١٩٥٦ ضد ايزنهاور فى قراره بالضغط على إسرائيل للانسحاب، فضلا عن عنجهيته وجهله بالسياسة الدولية وتفضيله للجوء إلى

سياسة القوة. وبالفعل لم يلبث أن أوقف اتفاقيات القمح مع مصر في وقت كانت مصر تمر فيه بأصعب مراحل التنمية الاقتصادية التي كانت تستهلك كل ما لديها من عملة صعبة .

وأحرق طلبة الكونغو مكتبة السفارة الأمريكية في مظاهرة صاخبة في مصر واسقطت المدفعية المصرية المضادة للطائرات طائرة تابعة لشركة بترول أمريكية خرجت عن ممرات الطيران المقررة . وتصاعد التسليح الأمريكي المباشر بوجه عام لإسرائيل وصارت أمريكا هي ذات العلاقة الخاصة بإسرائيل ...

وبالنسبة لانجلترا، كان الخليج العربي يطرح مشكلة مستقبله السياسي. وانفجرت في اليمن الجنوبية الثورة المسلحة. وبعد أن كادت مشكلة اليمن تحل، جاء هارولد ويلسون على رأس حكومة العمال بسياسة قمع في اليمن الجنوبية ومحاولة الوصول إلى حل بريطاني، وبعد أن أعلن أن الوزير البريطاني جورج تومسون قادم إلى مصر ليتفاهم مع عبدالناصر، أعلنت انجلترا بعد وصوله إلى مصر وقبل موعده مع عبدالناصر، تجميد الدستور في عدن وطرد الوزارة واستلام السلطة مباشرة، فشعر عبد الناصر أن هذه كانت خطوة محسوبة في توقيتها، فرفض مقابلة تومسون. وازاء فشل كل محاولات حل مشكلة اليمن أعلن أن القوات المصرية لن

تترك اليمن قبل أن يترك الانجليز اليمن الجنوبية. ثم قررت دول أفريقيا قطع علاقاتها الدبلوماسية مع انجلترا لموقفها من مشكلة روديسيا وقطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع انجلترا بوصفها دولة أفريقية ...

وبالنسبة لألمانيا الغربية، كان قد انكشفت صفقة سرية قدمت ألمانيا بمقتضاها ٢٠٠ دبابة من طراز «ليوبارد» إلى إسرائيل. وكان من رأى عبد الناصر الرد على ذلك بالاعتراف بألمانيا الشرقية ولكن بعض الدول العربية فضلت على ذلك قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية، فقطعتها مصر وبعض الدول العربية .

وفى الوقت نفسه كانت العلاقات العربية الداخلية قد بلغت مرحلة من أسوأ مراحلها فالحملات عنيفة بين مصر والانفصاليين فى سوريا. وبين مصر وسوريا والأردن. وبين العراق وسوريا. وبين الكثير من هذه الدول والمملكة العربية السعودية. وذهبت قوات مصرية مرة إلى بغداد لحماية حكم عبدالسلام عارف ومرة أخرى إلى الجزائر خلال أزمة الحدود بين الجزائر والمغرب .

فلما أعلنت إسرائيل أنها ستبدأ فى تحويل ٧٥٪ من مياه نهر الأردن إلى إسرائيل، دعا عبد الناصر إلى مؤتمر القمة الأول الذى تلته مؤتمرات. ولكن الصراعات فى تلك المؤتمرات كانت أبرز من

الاتفاق. وكانت هذه الصراعات تؤدى إلى الاحراج المتبادل البعيد عن المصلحة العامة، وتبادل التهمة الشائعة وهى مهادنة إسرائيل. قال رئيس دولة عربى أن القضاء على إسرائيل لن يستغرق أكثر من ثلاث ساعات. وبدأت نغمة مهاجمة مصر لأنها تترك قوات الطوارىء الدولية فى شرم الشيخ وعلى الحدود بين مصر وإسرائيل .

كانت الفكرة الأساسية لدى عبد الناصر من مؤتمرات القمة «أولا» البدء فى خلق كيان فلسطينى تبلور فى منظمة التحرير الفلسطينية «ثانيا» إقامة قيادة مشتركة تمهيدا لخلق قوة عسكرية مشتركة تبدأ بحماية مشروعات عربية مضادة لمشروع إسرائيل لتحويل نهر الأردن .

ولكن الهدف الأول لم يتحقق بجدية لأنه ولد فى وجه معارضة من الأردن ولأن كيانا فلسطينيا لا يمكن أن يتم «تعيينه» بقرار، وكان عليه أن ينتظر حتى ٦٧ ليقيم نفسه بنفسه، بقتاله ودمه.

أما الهدف الثانى ، وهو القيادة المشتركة، فقد ظلت حبرا على ورق. إذا كان مستحيلاً أن تقوم وحدة عسكرية بين دول متناحرة إلى الدرجة التى كانت الأمور قد وصلت إليها .

أكثر من ذلك أن مؤتمرات القمة كشفت عن أن الدول العربية

ليس لديها فى الحقيقة أى استعداد عسكرى لدخول معركة حربية مع إسرائيل، رغم أن التصريحات العلنية كانت كلها تهدد بذلك وأحيانا تحرض عليه.

ولم يكن مستغربا، فى إطار هذه الظروف، فيما يتعلق بالفلسطينيين أن تولد منظمات سرية للمقاومة، تبدأ فى ممارسة نشاطات متفرقة، ضد إسرائيل. وكان لابد أن ترد إسرائيل على ذلك بعنف .

وفى نفس تلك السنوات تم عزل سوكارنو، وإسقاط نكروما، ويروى انتونى ناتنج الوزير البريطانى السابق أنه حين قابل عبدالناصر قبل حرب ٦٧ وجد عبد الناصر غير راغب فى الحرب قط، ولكنه شاعر فى الوقت نفسه أن تحرك إسرائيل فى هذه الظروف كان بداية مؤامرة تفاصيلها خافية عليه، ولكنها أشبه بمؤامرة حرب السويس سنة ١٩٥٦.. ولكنه لم يتصرف لتجنب الشرك المنصوب .

ذلك أن إسرائيل كانت قد بدأت تتحرك، تطبيقا لنفس الفكرة القديمة: عقيدتها التوسعية، التى تنتظر فقط المناسبة المواتية لها لكى تضرب ضربتها ، فى ظل الشروط التى سبق ذكرها من قبل.

ونحن نستطيع اليوم بعد تفجر أزمة الطاقة فى العالم على هذا

النحو، أن نشير إلى أن البترول كان عاملاً أساسياً بغير شك وراء حركة الاستدراج إلى حرب ١٩٦٧ ...

واستأذن القارىء فى أن أعود إلى حديث كتبته قبل سنوات، ولكن بعد حرب ١٩٦٧، مشيرا إلى هذه القضية .

فالاهتمام بمصادر البترول وإن كان قد تغير أخيرا بصورة أساسية، فإنه قديم قبل حرب ٦٧. وبالتحديد، منذ ظهرت حاجة العالم إلى الطاقة، وسياسة انجلترا فى الانسحاب من شرقى السويس، وبحث أمريكا عن وسائل أخرى لابقاء سيطرتها هناك .

«فبالاضافة إلى أن البترول مازال هو المخزون الرئيسى للطاقة فى العالم، خصوصا لليابان شرقا وغرب أوروبا غربا .. فقد ظهر عنصران جديدان أولهما أنه ثبت أن أمريكا تتزايد حاجتها إلى استيراد البترول والغاز من العالم العربى لاستهلاكها المحلى. فلم •تعد مصلحتها فيه مصلحة مالية وتسويقية فقط، ولكنها مع سنة ١٩٨٠ ستصبح معتمدة على البترول والغاز العربيين لاستهلاكها المحلى وللاحتفاظ باحتياطى استراتيجى كاف داخل أراضيها أطول وقت ممكن .

كما ظهر أن الاتحاد السوفييتى قد يصبح بدوره دولة مستوردة وبالتالى منافسا فى مساحة البترول، بعد أن كان دولة مصدرة .

«أن هذا الوضع البترولى قد نقل مركز التوتر من السويس إلى شرقى السويس، ومن البحر الأبيض إلى الخليج .

ولكن مصر تظل مع ذلك «مطلوبة» و «مستهدفة» !

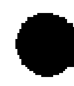
من وجهة نظر الغرب – أوروبا قديما وأمريكا حديثا – كانت مصر غنيمة مطلوبة لذاتها كانت بالنسبة للغرب أكبر مزرعة قطن، وأكبر سوق بشرية للتجارة والاستثمار، وكانت بسبب وجود قناة السويس فى أراضيها صاحبة أهم مركز استراتيجى. هكذا دار الصراع فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن على احتلالها وامتلاكها. حتى قيام إسرائيل ذاتها بررته مذكرات الحلفاء فى معاهدة فرساى سنة ١٩١٩ بإقامة نقطة حراسة قرب قناة السويس .

ولكن ظهور البترول، وسبق إغلاق قناة السويس، جعل الغنيمة الأساسية هناك شرقى السويس، وظهرت قيمة إسرائيل كعازل بين مصر وسائر العالم العربى، يقلل من تأثيرها القوى فى المنطقة ويبقى أن مصر ظلت مطلوبة لا لذاتها بالمعنى الاقتصادى ولكن لنفوذها فى المنطقة بالمعنى الاستراتيجى والقيادى والمعنوى.

ولكن يمكننا أن نقول اليوم أن السحر قد انقلب على الساحر. فان أمريكا لم تقدر مدى انتشار فكرة القومية العربية واستقلالها

ووصولها إلى درجة صارت لها مقوماتها الذاتية التى لا تحتاج إلى تحريض. فبدأت دول البترول بعد ١٩٦٧ تدعم مصر ودول المواجهة، وترفع الأسعار وتلوح بقبضتها فى وجه الدول صاحبة الامتياز خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى اتخاذها موقفها الشهير من الضغط البترولى ...

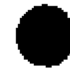
ولكن هذا لا ينسينا أنه حين تفاقم الجدل والصراع حول البترول بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣، أبرزت إسرائيل وجودها المنتصر فى المنطقة كرادع فى هذا المجال. وأنها إذا كانت قد اقيمت لحماية قناة السويس فهى اليوم قادرة على حماية البترول من أصحابه. ومازال يرن فى الأذهان تصريح أحد الجنرالات الإسرائيليين خلال تعثر المفاوضات بين دول البترول والشركات «إن إسرائيل تستطيع احتلال الكويت وضمان البترول فى ساعات . فليس بين جيش إسرائيل وبين الكويت سوى صحراء خالية !».



قال جدعون رفائيل فى ذكريات نشرها بعد الحرب بسنوات «وصلت نيويورك يوم ٢ مايو ١٩٦٧ لأباشر عملى الجديد كرئيس لوفد إسرائيل الدائم فى الأمم المتحدة. وكنت قادما لتوى من موسكو. فقد كان أبا ايبان وزير الخارجية يعتقد أنه يجدر بممثل

إسرائيل الجديد لدى الأمم المتحدة الذى يلم الماما جيدا بالمجال الأمريكى أن يطلع أيضا على تفكير السوفييت وأن يشرح للمسئولين السوفييت بصراحة تامة وجهة نظرنا حول الوضع الخطير فى الشرق الأوسط .

«على هذا الأساس، أجرت محادثاتنا فى وزارة الخارجية السوفييتية ، حاولت اقناع سيمونوف نائب وزير الخارجية المتولي لشئون الشرق الأوسط، بأن السياسة السوفيتية المؤيدة تأييدا تاما لسياسة الانتقام العربية تنطوى على أخطار جسيمة .... ولكن سيمونوف وزملاءه قالوا أن شركات البترول الأمريكية التي تسعى لاسقاط الحكومة السورية هى التى توجه السياسة الإسرائيلية وقال بصراحة مفاجئة أنه من المحتمل أن تكون إسرائيل قد تورطت دون وعى فى هذه المؤامرة التى دبرتها الدول الكبرى ».



كتب المؤلف الأمريكى كينث لاف (١) :

«كان قرار إسرائيل بشن حرب أخرى ضد العرب ، وضد مصر بالذات، قرارا قائما لم يتغير.

---

(1) Suez : From War fo War

«لقد استخلصوا من حرب ١٩٥٦ دروسا كثيرة، بعضها عسكرى، ليس هذا مجال سرده ولكنه ظهر فى تخطيطهم لحرب ١٩٦٧، وبعضها سياسى. العبرة الأساسية التى خرجوا بها سياسيا من حرب ١٩٥٦ هى: ضمان موقف الولايات المتحدة بالذات بصفتها إحدى القوتين الأعظم، وعد العمل خارج دائرتها أو من وراء ظهرها كما فعلوا سنة ١٩٥٦، اعتمادا على دول أقل قوة».

وفى الكتابات الإسرائيلية الكثيرة التى كتبت بعد حرب ١٩٥٦، نجد أنهم يختلفون فى تقدير الأخطاء، ولكنهم يتفقون على غلطة واحدة هى : أنهم سمحوا بخلق موقف وقفت فيه أمريكا وروسيا معا تطلبان بالانسحاب حتى ولو من منطلقات مختلفة. لقد أدركوا من تجربة ١٩٥٦ أحد حقائق العالم الجديدة وهى ضآلة قوة الامبراطوريات القديمة إذا قيست بسطوة القوتين الأعظم. أما والاتحاد السوفييتى مع العرب، فلابد من التركيز أولا على الولايات المتحدة ونقل «العلاقة الخاصة» التى تهم إسرائيل من أوروبا إلى الولايات المتحدة. خصوصا وأن الظروف مهيأة لذلك بقوة الضغط الصهيونية الهائلة الموجودة داخل الولايات المتحدة. ولابد «ثانيا» من العمل باستمرار على زيادة الاستقطاب فى منطقة الشرق الأوسط : بحيث يصبح ترجمة «العرب» فى الخارج هى روسيا وترجمة إسرائيل هى أمريكا .

دروس ١٩٥٦ لم يكن من بينها قط عدم الحرب. بالعكس، لقد ظلت القناعات الإسرائيلية الأساسية فى هذا المجال كما هى :

– إن إسرائيل لم تكتمل. وبالتالى فالرسالة لم تتم. ولا يوجد أسلوب لاتمامها سوى الحرب. المهم فقط هو حسن اختيار اللحظة، وانتهاز الفرصة المواتية، والاحتماء بقوة كبرى .

– إن ازدياد قوة العرب خطر، وتفاهمهم خطر، والوحدة العربية بأى درجة هى الخطر الأكبر ولذلك لابد من انتهاز فرصة التفكك العربى لتوجيه الضربة .

– إن إسرائيل ليس أمامها مجال من الزمن لتحقيق حلم خريطتها الكاملة إلا قبل أن يتم نمو العرب وتحضرهم بالدرجة التى قد لا يكون هناك بد منها.

وأنقل هنا اشارات هامة من كتاب للمؤلف الأمريكى «كينيث لاف» .

يقول : إن بن جوريون حتى بعد ١٩٥٦ بزمن طويل كان يرى أنها حرب حققت أهدافا هامة لإسرائيل. كان يرى أن غزو سيناء رغم الانسحاب منها بعد ذلك والدراما التى أحاطت بذلك كله، أدى خدمة إعلامية لإسرائيل «لم يكن يقوم بها ألف أبا ايبان» على حد تعبيره. كان يرى أن العالم «قد بدأت تتكون لديه أفكار» حول هذا

الموضوع : يقصد أن سيناء لم تعد فى ذهن العالم مصرية بما لا يقبل الشك، بل موضوع آخر متنازع عليه. وليس مثل هذا دليل على أن فكرة الحرب التالية بدأت مع نهاية حرب ١٩٥٦ وإلا كيف يمكن أن تأخذ إسرائيل سيناء ؟...

الأمر الآخر الذى ظل يقوله بن جوريون أنه يعتقد أن حرب ١٩٥٦ أضعفت قيادة عبدالناصر «إن خوفى المستمر هو أن يظهر بين العرب رجل مثل رجالهم الذين ظهروا فى القرن السابع أو مثل أتاتورك الذى ظهر فى تركيا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية: يرفع معنوياتهم، ويغير شخصيتهم ويحولهم إلى أمة مقاتلة. ومازال هناك حتى الآن خطر أن يكون ناصر هو نفسه ذلك الرجل».

وإذا كان عبد الناصر قد ارتفع اسمه بعد حرب ٥٦ وأحرز انتصارات سياسية كبيرة، فذلك مدعاة لتحفز أكبر وليس أقل .

ثم يقول كينيث لاف «إن عبد الناصر وجنرالاته لم يتعلموا من أخطاء ١٩٥٦ العسكرية بينما تعلم الإسرائيليون. وفى سنة ١٩٦٧ أعاد الإسرائيليون استخدام الأساليب التى نجحت سنة ١٩٥٦ بينما هجروا الأساليب التى لم تنجح. لقد درس الإسرائيليون كل المعارك التى دارت فى هذه المناطق حتى تلك التى خاضها

أسلافهم من ألفى سنة وبين جنرالات إسرائيل خبراء آثار مثل بيجال يادين وموشى ديان الذين انصب اهتمامهم على مواقع المعارك القديمة التى ستكون حتما ساحات لمعارك الغد. فخبرة يادين فى هذا المجال مكنته من أن يسلك طريقا لهجوم مفاجىء فى أول حرب على حدود سيناء سنة ١٩٤٨. وقادة حرب ١٩٦٧ كانوا نفس الضباط الذين حاربوا فوق نفس الأرض وسلكوا نفس المحاور سنة ١٩٥٦. فمنذ اللحظة التى عرفت فيها إسرائيل أنها سوف تنسحب سنة ١٩٥٦ أدركت أن سيناء ساحة سوف تخوض القتال فوقها مرة أخرى ذات يوم. خطط الحرب التالية بدأ وضعها فور انتهاء الحرب السابقة، وظلوا يطورونها يوما بعد يوم دون انقطاع.

«إن البريجادير جنرال موردخاى هود، الذى قاد الهجوم الجوى المفاجىء الذى حطم الطيران المصرى فى الساعات الثلاث الأولى من حرب يونيو ١٩٦٧ قال لونستون تشرشل وأبوه راندولف بعد الحرب أنهم لم يقضوا عشر سنوات فقط بل ست عشرة سنة فى الاعداد لهذه الضربة «كنا نعيش مع الخطة وننام مع الخطة حتى صرنا نحن الخطة. وكنا نحسنها ونزيد من دقتها بلا انقطاع» والشىء نفسه قاله عازرا ويزمان نائب رئيس الأركان من وجهة نظر إسرائيل كانت ١٩٥٦ بمثابة (بروفة) حرب ١٩٦٧. سنة

١٩٥٦ كانت الخطة عمرها سنة فقط حين جربت على الطبيعة أما سنة ١٩٦٧ فان عمرها كان ١٢ سنة. لم يكن ينقصها ، مثل سنة ١٩٥٦، إلا الظروف المواتية، والقرار السياسى للبدء فى تنفيذها.

«وفى سنة ١٩٦٦ كما كان الحال سنة ١٩٥٥ كان الوضع الاقتصادى فى إسرائيل متدهورا . كان حزب الماباى مازال هو الحاكم ولكنه تمزق إلى فئات. ومع ربيع ١٩٦٧ كانت الهجرة إلى إسرائيل قد هبطت إلى درجة الصفر. ونتيجة لخطة اقتصادية لمقاومة التضخم والغلاء هبط الإنتاج وتحول ١٠٪ من الأيدى العاملة إلى متعطلين. وفى مارس ١٩٦٧ قامت أول مظاهرات للعاطلين عن العمل فى تل أبيب وقذفوا مقر بلديتها بالحجارة. ومثل هذه الظروف تشجع نزعة المغامرة لتحويل الأنظار لدى أى حكومة. فالسياسة يرسمها بشر. وحين تتوتر الأعصاب تكبر المخاطر. وقد كان جزءا أساسيا من حياة بن جوريون وفكره وأسلوبه. اقتناعه العميق بأن أى عمل ايجابى يجلب الأنظار حتى وقد أساء إلى صورة إسرائيل إلا أنه أحسن من نسيانها واهمالها . فالعنف يجذب أنظار العالم إلى مشاكل إسرائيل ويضاعف تأييد اليهودية العالمية لإسرائيل ولأهدافها حتى ولو انتقدوا سياستها .

«وكما أن حرب السويس سنة ١٩٥٦ لها جذورها التى ترجع أيضا إلى الغارة على غزة سنة ١٩٥٥ كذلك فان حرب ١٩٦٧ لها جذور فى تلك الهجمات والهجمات المضادة التى بدأت بالغارة الإسرائيلية على قرية «السموع» الأردنية. ففى هذه الغارة قتل الإسرائيليون ١٨ عربيا وجرحوا ١٣٤. ومثل الغارة على غزة لم يكن هناك أى مبرر مقنع للغارة الإسرائيلية على قرية «السموع». لقد قال الإسرائيليون أنهم قاموا بهذه الغارة ليس ردا على الأردن ولكن على تسلل سورى ولكنهم اختاروا السموع لأنها آوت المتسللين. وكما كانت غارتهم على غزة قبل ١٩٥٦ أكبر حجما من الاشتباكات العادية، كان الهجوم على قرية السموع مختلفا بوصفه أول هجوم شامل، فى وضح النهار، وأول هجوم من نوعه تستخدم فيه الدبابات والطائرات وسائر الأسلحة .

«وقد أصدر مجلس الأمن فى ٢٥ نوفمبر أقوى قرار له ضد إسرائيل منذ عشر سنوات، قائلا أن مثل هذه الغارات «لا يمكن السكوت عليها» وانذر «باتخاذ خطوات أخرى أكثر فاعلية».

ولكن لم يكن لمثل هذا القرار أى فاعلية أكثر من القرارات التى سبق وأصدرها فى سنتى ٥٥ و ١٩٥٦ .

«وقد بدا وقتها أن إسرائيل اختارت أن ترد على الأردن بدلا

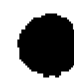
من سوريا، حتى لا تخاطر بتحريك اتفاقية الدفاع المشترك المعقودة حديثا بين سوريا ومصر وبالتالى تشعل حربا ينجر إليها الاتحاد السوفييتى. ذلك أن اتفاقية الدفاع السورية المصرية التى تم توقيعها فى ٤ نوفمبر كانت تقضى بأن أى هجوم على احدى الدولتين يعتبر هجوما على الدولة الأخرى وقد ظن بعضهم وقتها أن إسرائيل بهجومها على الأردن كانت تريد دفع الأردن إلى الدخول فى هذا التحالف وبالتالى تعيد استخدام أحد الحجج الأساسية التى استخدمتها فى تبرير حرب ١٩٥٦، حجة «الطوق الحديدى الذى يحاصرها» .

«وكان بن جوريون قد قال مرة أمام الكنيست : منذ أصبحت مسئولا عن أمن إسرائيل وضعت قاعدتين، إحداهما ايجابية والثانية سلبية. القاعدة الايجابية هى أن جيش الدفاع الإسرائيلى يجب أن يكون دائما قويا بدرجة تسمح له بهزيمة كل الجيوش العربية مجتمعة ، والقاعدة السلبية ألا تصل إلى وضع يجعل الجيش الإسرائيلى يحارب ضد أى قوة أوروبية أو أمريكية أو سوفييتية .

وبعد ذلك بقليل، أظهرت إسرائيل تحديها لاتفاقية الدفاع المصرية السورية فى يوم ٧ ابريل ١٩٦٧ حين اشتبكت الطائرات الإسرائيلية بالطائرات السورية فى العمق السورى فوق دمشق

وأسقطت ستة منها. وفى اليوم التالى أعلنت إسرائيل ترقية قائد طيرانها ، الكولونيل موردخاى هود إلى رتبة بريجادير جنرال «تقديرا له». على أن إسرائيل لم يكن ينقصها سبب لهذا الاستفزاز. فمنظمات الفدائيين الفلسطينيين، خصوصا المنطلقة من سوريا كانت تزداد جسارة، وكانت الحكومات العربية تواجه صعوبة أكبر فى تهدئتها، لعدم شعبية مثل هذا الاجراء.

ويلفت النظر أن السفير الأمريكى فى الأمم المتحدة «تشارلز يوست» نشر مقالا فى مجلة الشئون الخارجية الأمريكية FOreign Affairs فى يناير ١٩٦٨ قال فيه إن إسرائيل قد «خلقت بذكاء وحنكة الأزمة التى مهدت لهجومها على مصر». وقال: «انه من الصعب أن نتصور كيف يمكن لأى زعيم إسرائيلى ألا يعرف أن مثل هذه الهجمات والتحديات المتواصلة لابد لها وأن تضع قائد التجمع العربى فى موقف لابد له فيه من الرد». إن هناك ظروفا كثيرة تشير إلى أن اسرائيل قد سعت فعلاً سنة١٩٦٧: كما سعت١٩٥٦ إلى خلق موقف مهيأ للحرب، خصوصا لمن يتابع سلسلة الأعمال الإسرائيلية التى استهدفت استدعاء رد الفعل العربى المتوقع، ولا شك أن أهدافها التوسعية، كجزء من خطتها العسكرية العامة، كانت مرسومة قبل الأزمة بوقت طويل .



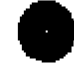
يقول انتونى ناتنج فى كتابه المشار إليه : «طوال هذه السنوات العشر من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٧، كانت الفكرة الثابتة لدى إسرائيل انه يجب تدمير عبد الناصر، أو على الأقل تدمير سمعته لدرجة لا يمكنه معها استرداد مكانته فى العالم العربى».

وفى رأى ناتنج أيضا - نفس الكتاب صفحة ٣٩٨، أن الإسرائيليين بدأوا يرسمون لنا الفخ، الذى سرنا إليه تماما كما توقعوا.

وكانت خلاصة خطة هذا الفخ : انتهاز كل هذه الظروف المواتية لهم لكى يبدأوا فى سلسلة استفزازات متصاعدة نحو العرب بوجه عام، ومصر بوجه خاص ، استفزازات تتصاعد بها إلى الدرجة التى تدفع العرب إلى ردود فعل متصاعدة، تصل بهم إلى حالة الحرب معها، فى وقت كانت تعرف فيه أنها مستعدة تماما، بسلاحها وحلفائها، فى حين أن الدول العربية ليست مستعدة لها، بخلافاتها وانعدام استعداداتها وعدم التنسيق بينها.

أخذت إسرائيل تنصب هذا الفخ بتصعيد الاستفزازات فى ايقاع محسوب، عارفة من جهة بردود فعل العرب المتوقعة بسبب حياة للصراع والشقاق والمزايدات، ومتجنبة من جهة أخرى أخطاء سنة ١٩٥٦ التى حرمتها من الثمرة المطلوبة، وهى ضم أراضى

جديدة .... بينما توجهنا نحن إلى الفخ مغمضى العيون، يصم آذاننا ضجيج عال من صياحنا. غير مستفيدين من أى درس من دروس سنة ١٩٥٦ ....



كانت إسرائيل، بناء على معلومات مخابراتها ومعلومات المخابرات الأمريكية، تعرف أنها أقوى عسكريا، وأنها قادرة على خطف انتصار سريع، وان كانت ستحتاج قبيل القتال إلى امدادات معينة من أجهزة وأسلحة أمريكية خاصة.

ولكنها كانت حريصة على ثلاثة أمور :

أولا - خلق الملابسات التى تعطيها أمام العالم مبررا لشن القتال، وتأييدا معنويا دوليا، الأمر الذى يجعل فى مقدورها بعد ذلك الاحتفاظ بثمار النصر.

ثانيا - أن تنسق مع أمريكا إلى آخر الحدود، وتعمل بالتفاهم معها لأنها القوة التى تمدها بالسلاح وأيضا لكى تساعدها كذلك على الاحتفاظ بعد المعركة بثمار النصر .

ثالثا - أن تقاتل بمفردها، أى أن تحول دون تدويل الصراع بينها وبين العرب لأن هذا مرة ثالثة، أساس للهدف الجوهرى الذى ستقاتل من أجله وهو : الاحتفاظ بعد المعركة بثمار النصر...

وكان الصخب العربي قد وصل إلى إحدى ذرواته، عندما شنت إسرائيل في نوفمبر ١٩٦٦ هجومها المسلح على قرية السموع الأردنية، في تحد عملى سافر للعرب. وكان يجب أن يلفت النظر أن هذا الهجوم كان أكبر كثيرا من ضرورة الردع العادية ضد عمليات الفدائيين المحدودة. فقد تم الهجوم بالدبابات والطائرات وفصائل المشاة، وفي وضح النهار، مخلفا وراءه عددا كبيرا من القتلى والجراحى. وسارت في الوطن العربي مظاهرات وتبودلت اتهامات، وطالب كل نظام غيره بتأديب إسرائيل !

وبعد عقد معاهدة الدفاع المشترك بين سوريا ومصر لأول مرة منذ الانفصال، غطت الطائرات الإسرائيلية سماء دمشق وما حولها في أعداد كثيفة ، واسقطت ست طائرات سورية مرة أخرى بحجة حوادث الحدود.

وأدى هذا الحادث أيضا إلى نفس ردود الفعل ونفس الشكوك والاتهامات. سوريا أرادت تدخل مصر . ومصر فسرت معاهدة الدفاع المشترك بأنها التزام بالحرب إذا شن هجوم شامل على سوريا. وطلبت القيادة المصرية نقل قوة دفاع جوى وطيران مصرى إلى سوريا. واختلفت الأطراف على التفاصيل أو على الأسس، وتركت حزازات الانفصال والحملات السابقة مازالت في النفوس .

كان واضحا أن إسرائيل تصعد استفزازها للعرب. وتكشف فى الوقت نفسه نقط ضعفهم وتتعرف على نوع ردود فعلهم.

ومع مايو، تحولت إسرائيل فجأة إلى حملة تهديدات صريحة ضد سوريا ، مصحوبة باجراءات لاتترك شكا فى أنها تمهيد للهجوم الشامل.

كتب أنطونى ناتنج يقول «رغم أن الأردن وسوريا قد تم عقابهما ، ألا أن ناصر لم يلمسه شىء بعد .. وطالما أن قوات الطوارىء الدولية هناك فمن الصعب إدخاله فى معركة من هذا النوع . وبتحذير بن جوريون الذى يرن فى آذانهم طول الوقت ، كانوا مصممين على إخراج ناصر من خندقه لتدمير صورته نهائيا، كزعيم للعالم العربى . وكان التزام مصر الجديد بالحرب إلى جانب سوريا هو المفتاح نحو هذا كله . ولذلك أعلن الاسرائيليون عندما هاجموا قرية السموع أنهم لم يقصدوا عقاب الأردن ، بل سوريا ، التى يعمل «مخربوها» من وراء الحدود . ولكن عبدالناصر لم يستدرج إلى هذا الفخ الواضح .. ولما فشلت سلسلة أخرى من الغارات الأقل حجما أن تستدرج العرب إلى أكثر من الاحتجاجات الغاضبة ، رضخ أشكول لضغط القوى التى كانت تطالب بضربة أكبر . وفى أبريل مع تحذير واضح للعرب بأن اسرائيل تستطيع أن تعتمد دائما على مساندة أمريكا التى لم

يبعد أسطولها السادس قط عن شواطىء سوريا ومصر ، أرسل أشكول الطيران الاسرائيلي فى هجوم كثيف على الجو السورى ردا على عمل قامت به مجموعة منظمة فتح ، حيث أسقط ست طائرات ميج سورية» .

ولم يتأخر الوقت طويلا قبل أن يعلن متحدث عسكرى اسرائيلى أن اسرائيل قد تضطر إلى احتلال دمشق لأنهاء التسلل السورى والفلسطينى داخل اسرائيل . وفى ١١ مايو أعلن الجنرال اسحق رابين رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية : «إن طريقة الرد التى أنتهجت ضد الأردن ولبنان أنما تلائم تلك الدول غير المعنية بأعمال التخريب التى تجرى على الرغم منها ،أما فى سوريا فالقضية تختلف لأن الحكم القائم هو الذى يستعمل المخربين ، لذلك فان هدف العملية فى سوريا يختلف عن عمليات ضد الأردن ولبنان» . وأدلى ليفى أشكول بتصريح سجل فيه التزام الأسطول السادس الأمريكى بالعمل إلى جانب إسرائيل فى حالة الحرب . وفى ١٣ مايو قال إن إسرائيل قد تتخذ أعمالا لاتقل خطورة عما فعلته يوم ٧ أبريل .. وانتشر وزراء إسرائيل فى أنحاء البلاد يرددون نفس الاتهامات «كما قال ميشيل مارزهار مؤرخ بن جوريون» .

●

منذ قامت إسرائيل بهذه الاستفزازات ، وبدأت حشودها على الحدود السورية بدأت الأحداث تتحرك بسرعة .

اسرائيل تحاول أن تحركها فى اتجاه الحرب .

وعبدالناصر يحاول أن يحركها فى اتجاه يردع إسرائيل عن الإقدام على الحرب .

هذا بصرف النظر عن الأخطاء التى سهلت لإسرائيل مهمة النجاح فى الشرك المنصوب .

لقد أكدت معلومات وثيقة كثيرة أن هناك حشودا إسرائيلية تصل إلى ١٢ لواء عند حدود سوريا ، وأقترن هذا بالتهديدات السابقة .

وقول إسرائيل أن هذه الحشود لم يكن لها وجود ، قول لا قيمة له ، أولا لانه كان لدى الجانب العربى ما يؤكد وجودها . ثانيا ، أن نظام إسرائيل العسكرى يسمح لها باخفاء هذه الحشود . فحين دعت السفير السوفييتى لزيارة الحدود ، رفض السفير لسبب بسيط ، هو انه ليس أسهل من تضليله عن أماكنها . وثالثا ، لأنه فى النهاية المهم هو «الأنطباع» الخطير الذى تتركه قصة الحشود على الأطراف الأخرى ، وهذا الانطباع هو المقصود أساسا من العملية - إثارة رد فعل لدى الخصم - وهذا انطباع

تعمدت إسرائيل أن تغذيه بتصريحات الرسميين المحددة عن احتلال دمشق ، بعد الغزو الجوى الفعلى الذى قامت به فوق دمشق .

وحدث رد الفعل الذى لابد منه : أرسل عبدالناصر قواته فى صورة مظاهرة علنية لدرجة أنها اجتازت شوارع القاهرة فى وضح النهار ، إلى سيناء ، التزاما بمعاهدة الدفاع المشترك ، والعلنية هذه كانت مقصودة لاشعار العالم أن هناك أزمة زاحفة وخطرا منتظرا ، ومن المستحسن أن تتدخل الأطراف الدولية للحيلولة دون قيام إسرائيل بالهجوم .

ولكى يكون هذا «الردع» جديا ، أبلغ القائد العسكرى المصرى قائد قوة الطوارىء الدولية أنه أمر القوات المصرية المسلحة «بالإستعداد لعمل ضد اسرائيل ، إذا ومتى قامت بعمل عدوانى ضد أى دولة عربية . وبناء على ذلك احتشدت قواتنا على حدودنا الشرقية فى سيناء . ومن أجل سلامة جنود قوات الطوارىء ، أطلب منك أن تأمر بسحب هذه القوات من المراكز على الحدود ، وتركزها فى قواعد القطاع» .

خطاب لم يشر قط إلى «سحب قوات الطوارىء» من مصر . ولم يشر قط إلى شرم الشيخ . وسجل بوضوح أن الهدف من التحرك دفاعى محض .

ولو توفرت النوايا الحسنة ، لأمكن فض القضية بسحب التهديدات الاسرائيلية رسميا ، أو بأى صيغة أخرى .

ولكن عجلة الدعاية الإسرائيلية ، التى لاتنفصل عن عجلتها السياسية ، كانت قد دارت بكل قوتها فى الاتجاه المرسوم : مصر تريد تدمير إسرائيل . العرب يريدون تدمير إسرائيل .. إسرائيل مضطرة للدفاع عن نفسها .

وفى جو عربى محموم ، من التظاهر والجدية والمزايدة والرغبة فى التوريط معا ، ساعدت تصرفات وتصريحات عربية كثيرة فى تزويد الدعاية الإسرائيلية بوقود كثير ..

وكانت بعض الأصوات تنادى بأن هذه حيلة من مصر . وأن التحدى الحقيقى والواجب القومى هو طرد قوات الطوارىء واغلاق خليج العقبة .

والأهداف حتى المشروع منها إذا طرحت فى غير أوانها تكون قاتلة ولكن الصراع العربى كان قد جعل المزايدة والضغط ، والتجريح المتبادل هو أسلوب الحياة الوحيد لنظم كثيرة .

وقد كمل يوثانت المهمة دون أن يدرى .

فكر ، وهو الأمر الطبيعى فى البداية ، أن يتدخل ، أو أن يرد رداً مختلفاً أو أن يمارس دوره كأمين عام للأمم المتحدة فى حل

المشـــاكل لا فى دفعـهـا إلى التـدهور . ولكن دكـتـور رالف بانش دخل عليه غاضبا . لدوافع مشكوك فيها ، وطلب منه أن يكون الرد أما البقاء الكامل أو الأنسحاب الكامل .

أشـار رالف بانش بذلك ، وهو الخـبـيـر القـديم بـهذه القضـيـة بالذات ، والذى يعـرف انه لن يكون هنـاك رد إلا طلب الانسـحـاب الكامل .

وان يكون العرب ، وعبدالناصر بالذات ، قد هـزموا بغير قتال . وان الانسـحـاب الكامل مـعناه اغـلاق خليج العقبـة ، أى اثارة أزمـة كبرى ، أكبر بكثير من الأزمة فى حجمها حتى ذلك الوقت .

وباعـلان اغلاق مضايق خليج العقبـة ، صـارت فى يد اسرائيل الورقـة المطلـوبة . وكـان غـريبـا أن لا نعـرف أننا نعطيـهـا الورقـة المطلـوبة عالميا !

وكـمـراقب سـيـاسى ، قلت لكل مــن كانــوا مـعى وقـتـهـا فى مؤتمـر فى الجـزائر ، بمجرد سـمـاعنا النبأ أن الحرب واقـعة لا محالة ، وفى خلال أيام .

ذلك أن أى دارس لاسـرائيل يجب أن يعــرف أن الحــرب والتوسع ثم الحـرب والتوسع ، مقوم أسـاسى من مـقـومات الدولة فى وضعـهـا الراهن . الأمر الذى يقتضى الحساب ، والاستعداد ،

وجعل القتال حين يقع يكون فى الظروف التى تناسبنا ولا تناسبهم .

*

لم يكن خافيا على اسرائيل أن مصر أرسلت قواتها لمحاولة ردعها عن مهاجمة سوريا ، وليس للبدء بمهاجمة اسرائيل . وأنها بالتالى ذهبت فى مهمة دفاعية ، وانه حتى حين ذهب الاسرائيليون إلى الولايات المتحدة يطلبون نجدتها أول الأمر ، قالوا لهم فى وزارة الخارجية الامريكية : أن كل معلومات البنتاجون والمخابرات الامريكية تؤكد أن القوات المصرية منتشرة فى صورة دفاعية ظاهرة .

ولكن عجلة السياسة والاعلام والعسكرية الاسرائيلية بدأت تدور معا فى أحكام شديدة ، وصارت لها أهداف محددة :

١ - اظهار العرب فى صورة المعتدين الذين يريدون إبادة اسرائيل ، كغطاء لهجومها «الوقائى» فيما بعد . وكطريقة لأخذ أحدث المعدات الالكترونية بالذات والخبراء والمتطوعين من دول شتى . وقد تحقق لها الهدفان معا . اجتاحت العالم موجة من العطف على اسرائيل والعداء للعرب . وفتحت المخازن أمام اسرائيل وتقاطرت الطائرات عليها تحمل الاسلحة الدقيقة والفنيين.

٢ – إبقاء التوتر قائما حتى تستكمل عدتها ، دون أن تضيع خلال ذلك فرصة الحرب .

٣ – التنسيق الكامل مع أمريكا ، خصوصا فى مجال حمايتها سياسيا وعسكريا ، وفى التزامها بعدم السماح بحرمانها من ثمار النصر ..

من كتاب ميشيل بارزوهار ، العليم بالأسرار ومؤرخ حياة بن جوريون ، نجد هذه الوقائع :

– عندما عرض العسكريون خطة الهجوم كاملة على بن جوريون ، الذى كان متقاعدا منذ مدة ، وافق بعد تردد ، قائلا أنه يعتقد أن مصر لا تنوى الهجوم قط (ولكنهم كانوا يعرفون) .

– عندما قال ديجول لابا ايبان «لا تبدأوا الحرب» رد ايبان ردا مدروسا غامضا «ليس أمامنا إلا أمرين: الاستسلام أو المقاومة وقد عزمنا على المقاومة» .

ويعلق المؤلف الاسرائيلى قائلا أنه اختار كلمة «المقاومة» بدلا من الحرب ، بقصد تضليل ديجول ، دون الكذب الصريح عليه .

– عندما سأل الضباط الاسرائيليون ليفى اشكول رئيس الوزراء متى يبدأ الحرب رد عليهم قائلا «يجب أن نضمن الجيش تحت ضغط سياسى من الخارج»

رد دقـيـق يحـــدد تمـــامـــا العــلاقــة بين النشـــاط السـيـاسى والاعلامى وبين الهدف العسكرى !

– فى الحـديث عن التنسـيق بين أمريكا واسرائيل قال يوجين روسـتو ، وكيل وزارة الخارجيـة الامريكيـة لسـفيـر اسرائيل فى واشنطن «اذا شئتم أن نكون معا أثناء الهبوط فعليكم أن توافقوا على وجودنا معكم ساعة الاقلاع !».

هذه الكلمة «المفتاح» كانت هامة جدا فى تلك اللحظات ..

ومـا كانت تريده اسرائيل ، فوق تأييد «الرأى العام العالمى» ، هو ضمان موقف أمريكا بالذات ، التى كان تحالفها مع اسرائيل وتزويدها لها بالسـلاح فى عـهـد جـونسـون قد صل إلى قـمـتـه ، وخلافـهـا مع عبدالناصـر فى ذروته ، وكانت هى الدولة الكبري المؤهلة لأن تعطل أى حركة للاتحاد السوفيتى ، وتحقق لاسرائيل الحـمـاية داخل الأمم المتـحـدة من أى قـرار – كـمـا قـال أشكول لجنوده – «قـد يوقف عـمليـات الجـيش تحت ضـغط سـيـاسى من الخارج» ..

وكان لدى أمـريكا اقتـراح مـحـدد لمواجـهة قرار اغـلاق خليج العقبة عند مضيق تيران هو أن تتوجه قوة بحرية دولية إذا أمكن ، وأمريكية إذا لم يمكن تشكيل هذه القوة ، وتخترق المضايق ذاهبة

إلى إيلات ، متحدية بذلك القرار .. وكان ماكنمارا وزير الدفاع فى ذلك الوقت ودين راسك وزير خارجيته قد قدما لجونسون مذكرة تخيره بين اختراق المضايق ، أو ترك اسرائيل تتصرف «وأثر جونسون تجربة الاقتراح الأول» .

وفى البداية اتصلت أمريكا بدول عديدة لمشاركتها فى تكوين هذا الاسطول ليتخذ صفة دولية ، ووافق هارولد ويلسون باسم انجلترا ، واتصل بكندا لاقناعها ، وامتنعت ايطاليا .

وليس لدينا كل التفاصيل ، ولكن القدر الثابت هو أن الولايات المتحدة اتخذت بنفسها هذا القرار وان البنتاجون طلب التفكير فى احتمال نشوب مقاومة من جانب مصر ، فطلب البيت الأبيض من قيادة الجيش وضع خطة انزال واحتلال وقتال فى سيناء عند شرم الشيخ ، وتم وضع هذه الخطة .

وحاولت أمريكا فى البداية اقناع اسرائيل بذلك وطلبت منها المهلة المعقولة لتنفيذ هذا القرار . وكان رأى أمريكا أن انزال هزيمة سياسية بعبدالناصر يساوى الهزيمة العسكرية فى أثرها . قال يوجين روستو للسفير الاسرائيلى وابا ايبان «سنمر بلا مقاومة ، فيكون هذا كالإبرة التى تنفس البالون» .

ولكن تفكير اسرائيل كان مختلفا ، فماذا عن الأرض ؟ ماذا

عن فرصة التوسع التى لا تتم الا بالحرب والاحتلال ؟

لذلك عارضت اسرائيل بكل قواها هذا الاقتراح ، بحجة إن اعداده سوف يستغرق وقتا طويلا .

كان قرار اسرائيل هو نفسه ما رتبت له الحرب . ولكنها محتاجة إلى تجربة سلوك أمريكا معها إذا حاربت . واجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلى وقرر عمل حيلة غريبة «للاختبار» . وأرسلت برقية عاجلة إلى واشنطن تبلغها أن القوات المصرية تجركت وانها على وشك الهجوم على اسرائيل خلال ايام . وانها مضطرة للعمل .

وتنبهت كل مراكز صنع القرار فى أمريكا . ولكن المخابرات ، ومراكز التجسس الآلية وغيرها من الأجهزة أجمعت على أن الخبر غير صحيح . وأنه لا توجد أى بادرة تدل على أن مصر سوف تهجم على اسرائيل ..

ومع مضى الأيام واستمرار حالة التعبئة فى اسرائيل ، رجح الرأى القائل «بترك اسرائيل تتصرف» . وطار ايبان مرة أخيرة إلى امريكا ليتأكد من أهم الأمور كما روى بنفسه فى مقابلة صحفية بعد سنوات من الحرب ، وهو «أنه اذا صدر من مجلس الأمن قرار بوقف اطلاق النار لا يقترن بذلك

النص التقليدى الآخر الذى يطلب من الأطراف المحاربة الانسحاب إلى خطوطها السابقة على القتال» .

وكان هذا هو جوهر القضية كلها ..

والباقى معروف ..

لقد نفذت يوم ٥ يونيو الخطة العسكرية الموضوعة منذ ست عشرة سنة ..

تماما كما نفذت سنة ١٩٤٨ الخطة العسكرية التى وضعت قبل ١٢ سنة فى حديث للجنرال يادين ، ثانى رئيس أركان حرب للجيش الاسرائيلى ، نشر فى جريدة معاريف يوم ٦ - ٥ - ١٩٧٣ بمناسبة مرور ٢٥ سنة على قيام دولة اسرائيل قال بالحرف الواحد «إن حرب ١٩٤٨ بدأت فعلا سنة ١٩٣٦ . ولولا الاستعدادات التى تمت وقتها لما كان باستطاعة الجيش الاسرائيلى الوقوف أمام الجيوش العربية . وقد استكملت الخطة سنة ١٩٤٢ ، إلا أنه لم يبدأ تنفيذها إلا قبل إعلان الدولة بقليل ، وقد تم تنفيذها كاملة» .

«وهذا ، في المرات الثلاثة ، فى وجه «لا خطة عربية» .

على أن القول بان حرب يونيو ١٩٦٧ كانت شركا منصوبا، وأن عناصر الاستدراج الاسرائيلى كانت واضحة

فيــه .. لا يجــوز أن يعني بأى حال من الأحوال أن نعفى أنفسنا من المسئولية ونريح ضمائرنا بالتهرب منها ..

ان تعليق مســئولية اخطــائنا على شــماعات الآخــرين عادة شــائعــة . وهـى عــادة ذمــيـمــة . وأســوأ مــا فـى هذه العــادة الذهنيــة هى أنها تضــللنا عن معـرفة نواقصــنا . وبالتالى نضيع على أنفسنا فرصة علاجها .

ان الشعوب تتعلم من هزائمها أكثر مما تتعلم من انتصاراتها .

وقد جـربنا ، مثلا ، منذ زمـان طـويل على القــاء مســئولية كل عيب أو تخلف لدينا على عاتق الاسـتعمار . ولاشك أن أحد حقائق الحيــاة العـربية الراهنــة - بل وحياة العالم الثالث كله - تركة الاستعمار الثقيـلة التى خلفـها وراءه بعد قرون من السيطرة والاســتـغلال والتـحكم فى تشــكيل حـياتنا . ولكن مـعظم بلادنا امتلكت زمام نفسها خلال ربع القــرن الأخير ، وصار فى مقدورها اتخاذ القــرارات التى تمــس حيــاتها بملء ارادتها : فيمـا عدا القدر الذي يراعى فيـــه عــلى سـبـيل اليقــين عـلاقـات الـقـوى وبقــايا النفـوذ الخــارجى . وهو وضـع يشــمل دول العــالم كلهــا كبيـرها وصغيرها . فعالم اليوم المتشابك لا يســمح بحرية عمــل مطلقــة لأى دولة . ولكن يبـقى الكثيــر الكثير مما تستطيع الدول والمجتمعات أن تخططه وترسمه لنفسها ، وتختاره لحياتها ..

ان اقامة الشرك ، والتمهيد له ، والأعمال المدروسة التى يقدم عليها العدو لاستدعاء رد فعل معين منا ، كل هذا صحيح . ولكن الوقوع فى الشرك ، والانقياد له فى الزمان والمكان المحددين من العدو ، لا يمكن أن يتم إلا بمساهمة منا ، والا كنتيجة لمحصلة حياتنا السياسية وتصرفاتنا فى شتى المجالات .

ولو شئنا بناء على ذلك أن نحلل أسباب هزيمة ١٩٦٧ ، لاحتاج الأمر منا أن نحصى كل ما هو سلبى فى حياتنا العربيةالمعاصرة . ولكن فضلا عن أن هذا قد يجنح بنا إلى المبالغة ، والظن المدمر بأن مجتمعا ما ، لا يمكن أن يكسب الحرب إلا إذا كان مجتمعا كاملا لا تشوبه شائبة ، فان هذا ليس موضوع الكتاب .

على أن هناك أسبابا وثيقة الصلة بما نحن بصدده ، بحيث لابد من تسجيل أبرزها ..

أولا – عدم فهم اسرائيل فهما عميقا . ان القارئ العربى اليوم قد يجد السوق مكتظا بالكتب والمؤلفات والمجلات عن اسرائيل . ولكن الغريب أن هذه ظاهرة جديدة صاحبت هزيمة ١٩٦٧ وكانت من نتائجها . قبل ذلك لم يكن يوجد إلا القليل النادر من الكتب الموضوعية حول هذا الموضوع ، موضوع اسرائيل ، رغم أنه أخطر ما يواجه مجتمعنا العربى من موضوعات .

ولا أضع في الحساب هنا كتب الدعاية والمجادلات والمناظرات . إن هذا بند آخر له مهمة أخرى . ولكننى أقصد الدراسة المعمقة لاسرائيل من الداخل ، بكل مقوماتها وعناصرها والقوى والمبادئ التى تشكل محركاتها وتستمد منها اسرائيل ديناميكيتها الخاصة بها .

وليست هذه مؤلفات فكرية ولا أبحاث تقف قيمتها عند حدود العمل الاكاديمى ولكننى أقصد أثر ذلك على تكوين فكر القادة العرب أنفسهم ، وكل الأجهزة المدنية والعسكرية التى تساهم فى صنع القرارات السياسية آخر الأمر .

لو كانت لدينا هذه المعرفة وبهذه الأبعاد ، عن اسرائيل ، لكنا أدركنا الحقيقة الجوهرية وهى أن كلمة التوسع التى ننسبها إلى اسرائيل ليست مجرد وصف ذميم لها ولكنها كلمة تصف مجمل فكرها ، وعقيدتها ، وأساسها الاجتماعى والاقتصادى ، والعوامل المتحكمة فى سلوكها داخليا وخارجيا . ولادركنا أن سعى اسرائيل هو إلى الحرب وليس إلى السلام . وانها لكى تشن الحرب ، من منطلقاتها التى سبق ذكرها ، تعتمد أساليب محددة وظروفا لابد أن تهيئها .

أى بايجاز : لو كنا دارسين لها كما هى دارسة لنا ، لعرفنا تفسير تصرفاتها وردود أفعالها ، كما تعرف هى تفسير

تصرفاتنا ، وردود أفعالنا ، ولعرفنا كيف ندير لعبة الشطرنج الاستراتيجية ضدها كما عرفت هى منذ قامت كحركة صهيونية تريد بناء دولة .

وليست محصلة هذا الفهم هى أن نعرف كما قد يتبادر إلى ذهن البعض «كيف نتجنب المواجهة العسكرية مع اسرائيل» لأن هذا شبه مستحيل ازاء خصم يرى أنه لا مفر له من التوسع ولا مفر من الحرب لتحقيق هذا التوسع، ولكن محصلة هذا الفهم هى أن نعرف كيف ومتى ندخل فى المواجهة العسكرية مع اسرائيل .. لا أن نمنحها فرصة القتال فى أى وقت تشاء هى ، بلا ترتيب ولا توقيت .

ان القتال محصلة جهد واعداد ودراسة وتهيئة ظروف استراتيجية عليا واسعة ، يبدأ بعدها القتال . وليس الأسلوب أبدا هو أن يبدأ القتال ، ثم نبدأ فى البحث عن الترتيب والتنسيق ورسم الاستراتيجية العليا والمباشرة والاستعداد وتهيئة الظروف .

ومن يراجع الشريط السريع لاحداث أواخر ١٩٦٦ وأوائل ١٩٦٧ يجد أننا كنا قد دخلنا بالفعل إلى المنطقة التى لابد أن تنتهى بالقتال ، دون أن تكون كل هذه الشروط السابقة متوفرة لدينا بأى معنى من المعانى .

ثانيا - الاستهانة بالخصم ، وهذا جزء من الجهل بحقيقة هذا الخصم ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك . ولكن هذا فى نفس الوقت بعد آخر من أبعاد عدم المعرفة والدراسة .

البعد الذى تحدثنا عنه فى بند أولا هو عدم معرفة كيف نواجهه ، أما هذا البعد ، أى الاستهانة به - فهو نوع من الكسل الذهنى والراحة المعنوية التى كنا نشتريها لانفسنا بالكلمات .

إن الجدل السياسى بين الخصوم يتسع لقاموس كبير . ونحن نستخدمه ضدهم وهم لديهم قاموسهم الاعلامى ايضا ضدنا . ولكن هذا لايجوز أن يصبح أساسا لمعلوماتنا وتفكيرنا .

حين نقول دولة العصابات وشذاذ الآفاق .. إلى آخره ، هذا شئ ، ولكن حين نتجاهل ما يقيمونه ويفعلونه ، والجهد الضخم المبذول لا لاقامة دولة قوية متقدمة ، ولكن فى الدرجة الأولى لتحويل الخليط المتنافر من المهاجرين من شتى أنحاء الأرض إلى قومية جديدة ، متعصبة ، يربونها على الشعور الدائم بالخطر ، وعلى أنه «لا هزيمة ولا مرة واحدة» وعلى «نقل المعركة دائما إلى أرض العدو» ، وعلى أنهم «شعب الله المختار» هذا كله كان كفيلا أن يجعلنا نعرف عناصر قوة العدو : ابتداء من المال المتدفق عليه ، إلى

عون الصهيونية العالمية له سياسيا واقتصاديا إلى تفاهم الدول الاستعمارية الكبرى ، فى مراحل تاريخية شتى ، إلى درجة التقاء مصالح هذه الدول مع مصالح اسرائيل فى المنطقة ... إلى آخره .

إن التقييم الحقيقى لقوة الخصم العسكرية والسياسية وعمق اتفاقاته ومحالفاته ، كل هذا يعتبر شرطا أساسيا فى التفكير الاستراتيجى لأى دولة كانت .

وهذا أمر يختلف تماما عن ما كنا نراه من قول رئيس دولة عربية فى مؤتمر للقمة كما سبق ذكره : إن القضاء على اسرائيل لا يستغرق سوى ثلاث ساعات .

وانقلاب الصورة من الاستهانة قبل ١٩٦٧ إلى الأسطورة المبالغ فى قوتها بعد ١٩٦٧ ، ظاهرة من أهم الظواهر التى تستوقف النظر وتحتاج إلى علاج ، كظاهرة نفسية وفكرية ..

البديل عن هذا وذاك هو التقييم الموضوعى ، والحساب الدقيق والفهم : ساعتها لا نقع فى مخدر الاستهانة ولا فى وهم الأسطورة المخيفة .

ثالثا : العلاقات العربية العامة . والحديث عن المرحلة التى تفصل بين حربى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، من زاوية العلاقات بين البلاد

العربية ، وبين الأحزاب العربية ، وبين القوى والتيارات السياسية والعقائدية العربية ، حديث يطول . وهى فترة سوف تحظى باهتمام عدد كبير من المحللين والمؤرخين . ولا مجال هنا لبحثها .

ولكن يمكن القول من جهة ، أن هذه المرحلة التى وصل فيها الصراع بين القوى والنظم والتيارات العربية أحيانا إلى درجة تشبه الحروب الأهلية ، كانت إلى حد ما مفروضة علينا بحكم المرحلة .

فالبلاد العربية كلها خارجة من ليل استعمارى طويل، وعلى كاهلها تركة تخلف ثقيلة ، ثم انها دول متفاوتة فى درجات نموها الاجتماعى والثقافى والحضارى ، وتعدد المستعمرين فيها شتت نظرتها ومزق عوامل الوحدة فيها . واختلاف المشاكل الاجتماعية من قطر إلى قطر ، وبالتالى اختلاف النظرة والحلول الممكنة ، اصطدم فى نفس الوقت برغبة عارمة فى التوحيد والتجميع تحت صور وأشكال شتى .

يضاف إلى ذلك ان كل ثورات القرون الماضية هجمت علينا دفعة واحدة فالثورة الاجتماعية والثورة العلمية والتكنولوچية وثورة السلع الاستهلاكية والآمال الفردية ، كلها تدق الأبواب وتتزاحم على الدخول فى نفس الوقت .

وأخيرا فقد وقع هذا كله فى عالم تسوده الحرب الباردة وصراعات القوى والتنازع على مناطق النفوذ .

جزء كبير من مظاهر هذه المرحلة كان مفروضا علينا . كانت مرحلة مخاض أليم لأمة لها هذا الاتساع وهذا التنوع فى الظروف . مع الرغبة العارمة فى التوحد .

وسيبقى سؤال مستمر ، هل كان ممكنا فى خضم هذا كله رسم استراتيجية موحدة ازاء اسرائيل أم لا . ولكن المؤكد هو أن اسرائيل ، كانت ترى فى هذه الظروف سببا أدعى لكى تسرع فى مراحل «الحرب فالضم فالتوقف فالضم» ، قبل أن تتغير الصورة العربية كما لابد سوف تتغير ذات يوم .

على أن الشئ الذى لا يمكن أن يغفر أبدا ، إذا أمكن أن نفهم هذه الظروف كلها وما ساقت إليه من صراعات هو أن تكون اسرائيل والقضية الفلسطينية ورقة للمزايدة : أو للايقاع ببعضنا البعض .

ولكن هذا ما حدث . لم يكن هناك فقط الشقاق الذى دام ربع قرن فى صور شتى «الوحدة أولا ثم اسرائيل أم العكس» و«التقدم العربى أولا ثم اسرائيل أو العكس» .. إلى آخر هذه الموضوعات التى ظلت محل مناظرات مستمرة .. ولكن كان الأسوأ من ذلك أن

تكون اسرائيل مجرد بند في كل وثيقة اتهام من حكم إلى حكم ومن حزب إلى حزب وأن تكون ورقة في يد كل انقلاب يجئ بعد انقلاب ... أو موضوعا لمناورة من دولة ضد دولة لاثبات ايهما أكثر وفاء للقضية الفلسطينية .

لقد أدى هذا الوضع المحموم إلى خلق ضباب كامل في الذهن العربي يحجب أي أسلوب لمعالجة القضية . وكما أنه أتاح الفرصة لكي يتنصل المتنصلون ، ويزايد المناقصون فانه قد أربك حتى المخلصين في اتخاذ قراراتهم .

رابعا - إن انعكاس هذا على الأوضاع الداخلية لكل قطر عربي في حد ذاته أمر معروف وشائع .

وإذا نظرنا فقط إلى زاوية واحدة من زوايا هذه الانعكاسات ، زاوية بناء الجيوش كقوات محاربة ، فسوف نجد المقارنة فاحشة .

لقد أدت الانقلابات العسكرية المتوالية وانصراف عدد من قادة الجيوش من العسكرية الحرفية إلى القيام بادوار سياسية ، وإلى شغل هذه الجيوش عن مهمتها الاساسية . كما أنها أدت إلى تسريحات متوالية في العناصر العسكرية ، التي انفقت بلادها عليها الملايين من الأموال والسنوات الطويلة من الوقت لكي تكتسب الكفاءة والخبرة والممارسة اللازمة.

هذا بينما نجد أن اسرائيل ، بالمقابل ، رغم تشابك المؤسسة العسكرية بجهاز الدولة في صورة خاصة بها ، إلا أن «الاستمرارية» المطلوبة فى الجهاز العسكرى كانت متوفرة إلى أقصى حد. فمعظم قادة الجيش الاسرائيلى ووحداته فى المستويات العليا والمتوسطة هم أنفسهم الذين حاربوا جنودا فى فرق الهاجاناه قبل قيام الدولة ، ثم فى الجيش الانجليزى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم فى حروب ٤٨ ، ٦٧ ، ١٩٧٣ . ونظام الاحتياطي هناك مرتب بطريقة تسترجع إلى صفوف الجيش ساعة القتال كل قياداته حتى التى تركته إلى الحياة المدنية ، ولانها تجعلهم حتى وهم فى الاحتياطى لهم مناصب ساعة القتال ولهم شهور تدريبية كل سنة ، ولهم دراية بالخطط الموضوعة وبتطويرها المستمر بناء على المعطيات الجديدة أو الأسلحة الحديثة .. وخطة للحرب عمرها ١٦ سنة ، وتطويرها باستمرار لم يكن ممكنا بغير هذا الاستمرار .

هذا بينما كان الضباط العرب المسرحون بالآلاف ، والمئات منهم علي مقاهى بيروت وأوروبا ..

كذلك فان اعتماد عنصر «الأمن الداخلى» والصداقات وأبناء

«الدفعة الواحدة» وغير ذلك من العلاقات المتخلفة فى مجتمع آخذ فى التطور ، لم يكن دائما يعطى المنصب للكفاءة وحدها . الأمر الذى تكون له عادة انعكاسات خطيرة ليس على كفاءة القوات المسلحة وحدها ، ولكن على روحها المعنوية بوجه عام .

خامسا – ولعلى أبقيت هذا العنصر حتى النهاية ، رغم أنه كان يستحق أن يكون فى البداية لاهميته .

هذا العنصر هو : عدم وجود تصور عربى مدروس أو متكامل أو حتى شبه متكامل لاستراتيجية عامة فى مواجهة المشكلة الفلسطينية ، وبالتالى فى مواجهة اسرائيل ..

إن الحرب – كما قال الخبراء مرات كثيرة – هى استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى .

أى أنه لا توجد حرب مجردة . لا توجد حرب للحرب . ولكن الحرب الناجحة تنطلق دائما من اطار استراتيجية سياسية عليا ، نجد أن انجاز هدف لها فى مرحلة معينة ، أو افساد هدف للعدو ، لا وسيلة له سوى الحرب . وبعد ذلك: كل حرب لابد أن تنتهى ، عند هدفها المحدد أو أكثر أو أقل ، لكن المهم ، مع الحرب ، أن يكون جاهزا فى ذهن القيادة السياسية العليا : ماذا بعد الحرب ؟ .

اسـرائيل لديها اسـتراتيجية سـياسية عـليا بما فيها سلاح الحـرب .. كمـا ذكرنـا من قبـل ، هـدفـها الأعلى هـو التوسـع ، والتوسـع بانتهاز الفرصـة ، وتهيئـة الظـروف ، ثم شن ضـربة سـريعة تضم بها أرضا جـديدة . وهـذا يقتضى منها استعدادا عسـكريا دائما أولا لتكـون جاهـزة لانتهـاز الفرصـة الهجـومية إذا سـنحت فى أقـصـر وقـت . وثـانيـا أن تكـون جـاهزة إذا تعـرضت هى للهجـوم بالرد السـريع ونقـل القتـال فـورا إلى أرض العدو ، نظرا لأرضها المحدودة ..

فمـاذا كان هدف السياسة العربية الاستراتيجية ازاء اسرائيل في ربع القرن الماضى ؟

لو كان الهدف إزالة اسرائيل حقا ، لوجدنا ترتيبات واعدادات وأولويات سياسية وعسكرية غير ما رأينا .

ولو كان الهدف ردع اسرائيل عن العدوان فقط ، حتى تتحول الصورة الدولية ، وتقوى الصورة العربية ، فقد كان هذا يستلزم اجراءات سياسية وعسكرية من نوع آخر ...

ولو كان الهـدف فى حـالة الحـرب انتهـاز الفرصـة والحـاق هزيمة محـدودة باسـرائيل هى كل ما تسـمح به ظروف علاقات القـوى المحلية والعـالمية : كتدمير الجيـش الاسـرائيلي والحـاق

خسائر فادحة به فحسب ، أو كدفع حدود اسرائيل إلى خطوط تقسيم سنة ١٩٤٨ ، مع كل انعكاسات هذا أو ذاك على كيان اسرائيل وفلسفتها ، وعقيدة تفوقها ، وتوسعها ، وتدفق المهاجرين عليها ، إلى آخره : لو كان هذا هو الهدف ، لكان يستلزم سياسة عسكرية وسياسية من نوع ثالث ..

ولكن يمكن القول باطمئنان ، أنه على المستوى العربى فى عمومه ، لم تكن هناك أى استراتيجية محددة متفق عليها من هذا النوع .

وبالتالى لم يكن هناك أى تصور لكيفية تطوير قضية الشعب الفلسطينى ، بوصفها حجر الأساس فى أى استراتيجية من هذا النوع ..

وكل العوامل السلبية التى ذكرناها سابقا عن الموقف العربى العام بين سنتى ١٩٥٦ و١٩٦٧ ، أدت إلى الفقدان التام لمثل هذه الاستراتيجية الموحدة ولو فى خطوطها العريضة ..

ولقد كنت أتساءل ، ساعة أن تنادى العرب بارسال قواتهم على عجل إلى الجبهات المختلفة . حين أصبح القتال وشيكا : ترى هل لدى هذه القوات المختلفة تعليمات واضحة تنبع من استراتيجية عليا ؟

إذا انتصرت ... ماذا ستنوى فعله بهذا النصر ، وكيف تتصرف به ؟

لا أظن أنه كان هناك شئ من ذلك . لقد تحرك العرب ساعة الخطر بغريزة درء الخطر وبكوامن الوحدة فيهم ، ولكن ليس بالخطة المسبقة والحساب .

هكذا سيرت جيوشنا إلى ساحة القتال سنة ١٩٦٧ ...

ليس هناك ادراك كامل بابعاد رد الفعل الاسرائيلى ، فمن بعد أن تأكد أن الحرب واقعة ، ظلت معظم تقديرات الأجهزة العربية تعتقد أن اسرائيل ستشن حربا بقصد فتح خليج العقبة : أما بالاستيلاء على المضايق وعدم الانسحاب إلا بعد ضمان فتحها، وإما الاستيلاء على قطاع غزة ثم المساومة على الانسحاب منه بفتح المضايق وربما بالاعتراف أو بأى كسب سياسى آخر .

ليس هناك استعداد عسكرى كاف بخطط سياسية عسكرية منوعة على جبهة من الجبهات .

مشاعر متناقضة من التخوف والتحسب فى جهات ، إلى الظن بأنها نزهة عسكرية فى جهات أخرى .

صـيـاح مـن كل مكان ، ومطـالبات شـتى ، الكثير منها ينطلق من دوافـع واعـتـبـارات لا صلة بينـهـا وبين قـضـيـة فلسـطين كنواة ، أو قضية المواجهة العربية الاسرائيلية كاطار شامل .

وكـان الذى ظلم هـو الضـابط المصـرى والجندى المصـرى ، والضابط العربى والجندى العربى .

فـالحـروب اليـوم ، ومنـذ قـرون ، ليـست حـروب قـبـائل ، سلاحها الأول هـو الشـجاعـة والبطـولة والتضـحية . ولكنـهـا حـرب مـعـقـدة سـلاحـهـا التنظيـم ، والاعداد الطـويل ، على السـاحتين السياسية والعسكرية معا .

ولقـد يقـول قـائل : ولكن هـذه كلها ظروف تسبق الاشتباك القتـالى ذاته ، والذى يفتـرض فـيـه أن القـوات المسـلحة ، مهما كانت الظـروف التى سـاقتها إلى القتـال تظل قادرة على خوض معركة قتالية أقل ما يقال فيها أنها تختـلف عن الانهيـار الشامل الذى حدث فى يونيو ١٩٦٧ .

وهو قول فى محله ..

ولكن مـجمـوع الظروف السـابقة ، والتى تحـسم فى الحقـيقة نتيجة المعركة قبل بدايتها أدت إلى الأحداث التى باتت معروفة ، ولم تعد سرا على أحد ...

فالسرعة التى تمت بها تعبئة القوات فى سيناء ، لخوض معركة مصيرية ، أدت إلى وضع القوات المسلحة فى أدنى استعدادها وليس فى أعلاه ، كما يفترض . كانت نسبة الاحتياطى غير المدرب عالية جدا ، للرغبة فى التأثير على العدو .. «بحجم القوات» فى حين أنه لم يكن ممكنا خداع العدو بهذا الاسلوب .

وكانت خطط الدفاع المرسومة من قبل سنوات قد أهملت تماما ، اقتناعا من القيادة أنها معركة سياسية وليست عسكرية ، وبالتالى فالطابع الاستعراضى و«اظهار ما لدينا» غلب على طابع الحرب الحقيقى الذى يلزمه التربص ، والتخفى ، والخداع .

والقوات النظامية كانت موزعة بين اليمن ومصر ، وكان بعضها يصل بالسفن بعد رحلة بطول البحر الأحمر ويتجه فورا إلى مواقع له فى سيناء .

والبلبلة فى تقارير المعلومات عن احتشادات العدو ، والتقدير السياسى أنها على الأغلب ستكون حربا محدودة ، جعل هذه الحشود من القوات تصدر لها أوامر متوالية ومتناقضة ، بالتركيز على الجنوب حيث سينزل الاسرائيليون فى شرم الشيخ ، أو -

بالاتجاه شمالا حيث سيهاجمون قطاع غزة . الأمر الذى أرهق القوات المدرعة بالذات واستنفد طاقة عجلاتها التى لها أميال معينة لا يجوز أن تقطعها قبل القتال ، وطاقة الوقود الذى تسير به ،. واربك الامدادات فى كل شئ من الذخيرة إلى الطعام لهثا وراء قوات تتحرك باستمرار وأحيانا غير معروف مكانها .

ثم الغلطتان التاريخيتان اللتان لا يكاد المرء يجد تفسيرا لهما:

الأولى – منع التصدى لأى طائرة فى الجو في صباح يوم ٥ يونيو بالذات ، لأن قائد عام القوات المسلحة ومعظم أفراد قيادته كانوا ذاهبين إلى مطار متقدم فى سيناء ، وكانت تلك الساعة هى التى وصلت فيها الموجات الأولى من الطيران الاسرائيلى إلى معظم المطارات المصرية ودمرتها ..

والثانية – صدور أمر الانسحاب بعد أقل من ٢٤ ساعة من بدء القتال . وقد صدر أمر الانسحاب شاملا لكافة القوات ، بأن تعود إلى غرب القناة وصدر رأسا إلى القوات فى مواقعها ، دون حتى إبلاغ قيادات الميدان المسئولة . الأمر الذى يكفى لبعث الفوضى واليأس والاضطراب فى صفوف أحسن الجيوش وهى في غبار المعركة فى غيبة عن معرفة الصورة كاملة .

وليس أدل على جو عدم الاستعداد للقتال فى السنوات السابقة، وعدم أخذ نوايا اسرائيل العدوانية التوسعية مأخذ الجد ، مما أعلن رسميا بعد ذلك ، من انه لم يكن لدينا يوم القتال أكثراً

من ١٢٥ طيارا مستعدا للقتال فورا ، في الوقت الذى كان معروفا فيه تركيز اسرائيل الشديد على سلاح الطيران ، وبعد تجربة دور الطيران الحاسم فى حرب ١٩٥٦ ، وما هو معروف من قدرة اسرائيل على حشد عدد من الطيارين أكثر مما لديها من طائرات، مما يضاعف عدد الطائرات الموجودة فى سماء المعركة .

ولأنه لم يكن المعيار الوحيد فى اختيار القيادات هو الخبرة العسكرية والكفاءة - والاحتراف العسكرى ، وتوهم أن الأمر مظاهرة سياسية أو نزهة عسكرية ، تولي بعض القيادات فى آخر لحظة عدد من الضباط الذين تنحصر صفاتهم فى أنهم «من المقربين» ، ربما انتظارا لساعة توزيع الأوسمة والنياشين ..

ولكن هذا كله لم يمنع الضباط والجنود - كلما أتيحت لهم الفرصة من التعليمات الثابتة والقيادة السليمة والعتاد والذخيرة ، من أن يقاتلوا قتالاً باسلا ، ولم يمنع من أن يخترق لواء مدرع حدود اسرائيل ذاتها ثم يعود طبقا لأمر الانسحاب غير المفهوم الذى صدر إليه ، ولم يمنع أن قادة ألوية ووحدات وكتائب فضلوا الاستشهاد فى مواقعها تأمينا لانسحاب جنودهم .

ولعله قد آن الأوان ، وقد فات ما فات ، أن ينشر سجل هذه الأعمال البطولية ، وتسجل أسماء أبطالها ، فليس أهم لأى قوات مسلحة من تراث تفخر به من الأسماء التى ضحت والمواقف التى يجب أن تظل نموذجا ومثالا لمن يجيئون بعدها ..

عناصر الأسطورة

كان الانسان دائما عبر تاريخه يخاف المجهول .. المجهول الذى لا تفسير له . وبالتالى ينسج حوله الأساطير .

كان الإنسان الأول مثلا يخاف الزلازل والبراكين والأمطار . ويعبد الشمس . ذلك أنه لم يكن يعرف تفسير هذه الظواهر ، فحولها إلى مظاهر من غضب الآلهة أو رضا الأرباب .

وقد حاولت اسرائيل أن تجعل من نفسها أسطورة معاصرة . بهذا يحبها الناس أو يكرهونها ولكنهم في كل الحالات يخافونها . يظنون أنها دولة خارقة بين الدول . ومجتمع لا سابق له بين المجتمعات وانها فى نهاية الأمر لا تقهر .

وكانت هذه من ناحيتها خطة نفسية مقصودة ، فتكون من ناحية محل اعجاب وتأييد تلقائى ومطلق من مجتمعات كثيرة فى العالم ، بوصفها الدولة الحلم ، الدولة المعجزة . ولتكون من

ناحية أخرى شيئا مخيفا بالنسبة لاعدائها ، انها كيان لا يغفو ولا يقهر ، ولا يمكن اللحاق به .

ولم يكن هذا الاختيار غريبا على شعب اختار لنفسه أن يقوم كيانه وتبنى عقيدته على أساس أسطورة أخرى قديمة وهى أنه «شعب الله المختار» .

وقد ساعد الكثيرون منا على تجسيد هذه الصورة الأسطورية سواء بالاحتماء وراء الجهل باسرائيل ، والجهل هو أكبر مولد للأساطير ، أو بعدم التدقيق فيما تقدم اسرائيل من أعمال أو معلومات ، أو بالفرار إلى الغيبيات فى تفسير هزائمنا وانتصاراتها ، فرارا من مشقة البحث العلمي للموضوع ، الذى إذا عرف سبب هطول المطر توقف عن الخوف منه ، وبحث فى وسيلة لاتقائه ومواجهته أو لاستخدامه .

ولذلك ، فنحن حين نحاول أن نحلل عناصر الأسطورة ، نحاول شيئا آخر تماما غير مجرد الحاق كل النقائص والعيوب بالخصم. لأن هذا أيضا ضد التأمل العلمي والموضوعى . ولأن الاستهانة المطلقة بالخصم والتى شاعت على أقلام وألسنة كثيرة ، كانت سببا ، عندما فوجئنا بصدمة ١٩٦٧ الهائلة ،

فى تغذية هذه الأسـطورة ورد ما حدث لأسـباب غيبية ، إذ بدا انتصار دولة صغيرة صـورناها على أنها ممـزقة مهلهلة ضـعيفة شـيئا يعلـو على التفسـير ، شيئا كـأنه مـن ظواهر الطبـيعة التى لم يكشـف العـلم عن أسرارها بعد .

دحض عناصر الأسطورة إذن ليس معركـة اعلاميـة هدفـها الاستهانة بالعدو . ولكن معناه استخدام سلاح الفهم والتحليل فى فـهم عناصر هـذه الأسـطـورة . ساعتـها يـزول عنهـا السـحـر ، ونعرف الوهم من الحقيقة ، ونستطيع أن نتعامل مع هذه الحقيقة ونجد الاسلوب لمواجهتها ، مهما بلغ من جبروتها ..

انهـا مـثل ذلك السـاتر الرملى الذى أقـامتـه اسـرائيل على حـافـة قناة السـويس مباشـرة وحاولت أن تقـول أنه حـاجز لا يمكـن اخـتراقـه ، ولغـز لا يمكن تفسـيره . ولكن الذى حـدث أن العسكرية المصرية ، بأجهـزتها الفنية والعلمية عكفت على التحليل والتجربة والتفكير ، حتى وجدت الحل لاختراقه .. الحل الذى بدا بالنسبة لاسرائيل لغزا غريبا ..

اننا لا يجـب أن نقـلل من شأن العدو . بمعنى أننا لا يجب

أن نســتهين بالعناصـر الديناميكيـة التى تحـركـه ، وتدفعـه إلى العـمل ، وبذل الجـهـد ، والتـمـاسك المطلق سـاعـة الخـطـر ، والاسـتماتة فى الدفاع عن البقاء ..

فـمنذ يولد الطـفل فى اسبـرائيل ، ومنذ يبدأ فى الذهاب إلى المدرسـة ، وفى قراءة كتب الأطـفـال ، يوضـع فى طقس نفسى معين حتى يخرج فى القالب الذي أرادته له قيادته ..

انه منـذ الطفـولة يربى - دينيا - على أسطورة أنه شعب الله المختـار ، وأن الله قد ميـزهم عن سـائر الشعوب فى الصفات والمواهب وفى الحقوق ، وفى مقدمتهـا حقـهم فى الأراضى التى يسـمونها أرض اسـرائيل التاريخـية ، والتى لو تـرك لهم العنان لضموا إليها كل أرض سـارت فوقـها قبيلـة عبرانية فى المنطقـة منـذ ألفـى سنة إلى الآن ..

ويربى هذا الطفـل على أنه صـاحب رسـالة فذة ، ولذلك فهو كشـعب كان مـحل اضطهاد دائم من كل الدول والشـعوب عبر القرون ، وأن هنـاك نبـوءة دينية تاريخـية ببعثـهم ، وعودتهم إلى السيطرة من جديد .

ويربى الطفل على أن اليهودى له طقوس وعادات ، ولا يعترف بيهوديته إلا من كانت أمه يهودية ، ضمانا لنقاء الدم وبالتالى فهم «قبيلة واحدة» وسلالة واحدة سواء كانوا فى جبال اليمن أو سهول أوكرانيا .

ولأنه من شعب مختار ، كتب عليه أن يكون قليل العدد ، محسودا فى أحسن الأحوال ومضطهدا فى أسوئها من الآخرين ، فكل الآخرين ، كل الآخرين ، بالنسبة له أغراب . وعليه بالتالى أن يسعى للتفوق دائما على الآخرين : أن يكون الأغنى أو الأدهى أو الأذكى أو الأقوى .

ثم انهم يعززون هذا كله بالانجاز الفذ الذى حققته الحركة الصهيونية . فمن شتات فى أنحاء العالم ، ومن خلال ظروف دولية شتى ، ومن خلال نضال دام سبعين عاما ، تحول الحلم الذى كان أسطورة وهو قيام دولة لاسرائيل فى أرض الميعاد إلى حقيقة، فلماذا إذن لا تصح سائر الأساطير ، ولماذا لا يضعون زعماءهم فى تلك الحقبة في مصاف أنبياء العهد القديم .

ألا يعنى هذا ، في لغة ما ، أن ثمة ما يشبه القوة المنظورة ، والقدر الذى لاراد له ، يساعدهم فى مشروعهم بالاضافة إلى كل ما يبذلون من مجهود ، أو يعنى فى لغة أخرى، ان حركة

التاريخ فى اتجاه حركتهم ، وأن الفكرة الصهيونية صحيحة فى اطار منطق التاريخ الراهن ولذلك فهى تتحقق ؟ أو فى القليل أنهم فعلا لديهم كفاءات ليست لغيرهم وقدرات ومواهب أعلى من سواهم ؟ ..

وفوق هذا الأساس ، تنبنى كل تفاصيل الأسطورة ، وتمتد فروعها . حتى تصبح غاية كثيفة من الأساطير ؟ ..

على أننا ونحن لسنا بصدد تحليل الحركة الصهيونية أو دولة اسرائيل ، لابد لنا من أن نقف ولو بسرعة عند الوجوه الثلاثة المعاصرة للأسطورة ، الوجه السياسى ، والوجه التعميرى ، والوجه العسكرى . وذلك فى ايجاز شديد يقف عند مجرد ذكر «جذور» القضية ، دون التطرق إلى فروعها ..

بالنسبة للوجه السياسى فان جوهر النجاح الاسرائيلى كان فى الحركة الصهيونية وجدت منذ البداية أن هناك عالما غربيا مختلفا فى أواخر الظلام العثمانى الذى ساد قرونا طويلة وأن أوروبا القوية النامية الاستعمارية فى مرحلة امتدادها الاستعمارى ، هى التى ستكون الوارثة الحقيقية لهذه الامبراطورية العثمانية العجوز ..

وفى نفس الوقت كانت مشكلة اضطهاد اليهود فى أوروبا قد ألقى عليها الضوء أكثر وأكثر لسببين ، الأول تزايد هذا الاضطهاد فى شرق أوروبا ، والثانى انتشار حركة التنوير فى غرب أوروبا وانحسار عهد التفرقة والتعصب الدينى بالتدريج .

وكان أمام اليهود أما حل الاندماج فى مجتمعاتهم وأما حل الهجرة وتأسيس كيان خاص بهم يصبح مع الزمن دولة ..

ونلاحظ أنهم حتى الآن مازالوا موزعين بين الحلين ، أو بالأحرى يحاولون الجمع بين الحلين : فالأغلبية من اليهود اختارت البقاء في الخارج والاستفادة من مزايا مجتمعاتها ، ولكنها فى نفس الوقت تشجع قيام دولة لها فى مكان ما تكون سندا لليهود اينما كانوا ..

ولكن المهم أن الحركة الصهيونية ، التى نشأت فى رحم أوروبا ، مستفيدة من التقدم الأوروبى ، قدمت حل الوطن القومى لأوروبا وهو حل مريح لها ، ورسمت سياستها من البداية على التمسك بذيل الدولة الاستعمارية القوية التى ستكون لها السيطرة على تلك المناطق المتأخرة ، أى على أن تركب قطار هذه الدولة الاستعمارية فى رحلتها إلى حيث تريد .

هكذا ، لم تكن الحركة الصهيونية من البداية وحدها ضد العرب ، ولكنها كانت مع أوروبا وانجلترا بالذات ضد العرب ، ثم مع أمريكا ضد العرب .

وكان طبيعيا أن يكون العالم القوى الاستعمارى معها ضد العرب ، وهى أولا تعرض خدماتها عليه ، وتقنعه بأنها ستكون القلعة التى تؤمن مصالحه فى المنطقة ، فى حين كان العرب وقتها أشبه بقبائل وعائلات تابعة لامبراطورية متآكلة ، وأبناء تراث بدا وكأنه يندثر ، ومع ذلك فان يقظتهم معناها قيام وجود قوى منافس للقوى الأخرى وقادر على الاستقلال عنها، فى حين أن اسرائيل مهما نمت فستظل غير قادرة على هذا الاستقلال الخطر على الدولة الاستعمارية الكبرى .

صحيح أن الحركة الصهيونية ناضلت فى فلسطين منذ سبعين سنة ، وانها أقامت المستعمرات وعمدت إلى سياسة خلق الحقائق الانتاجية والسكانية الجديدة ، ولكن هذا كان بقرارات صدرت في لندن وباريس وواشنطن ونيويورك . لقد قام وايزمان وبن جوريون بأدوارهم ولكن الذين أقاموا الدولة هم لويد جورج وتشرشل وروتشيلد وترومان وغيرهم .

ليس فى الأمر إذن أسطورة . ولكن فيه معنى المرحلة التاريخية التى كانت فيها الغلبة مطلقة للدول الاستعمارية ضد العالم العربى ..

وحين أخذ العالم العربى يستقل بالتدريج ، ويقوى بالتدريج ، واخذت العلاقات الاستعمارية تشحب فى العالم بوجه عام ، بدأ العرب يجدون لأول مرة أصدقاء لهم فى العالم وحلفاء .

فالمرحلة التاريخية التى كان فيها قدر المنطقة يرسم كله فى عواصم أخرى ، تلك المرحلة التى أقامت اسرائيل ، قد انتهت وبدأت مرحلة تمرد ، صار فيها دور العرب فى رسم مستقبلهم يزداد تدريجيا بالنسبة إلى دور هذه القوى الخارجية . وبالتالى لابد أن يكون لهذا انعكاسه فى مستقبل المواجهة العربية الاسرائيلية .

وبالنسبة للوجه الخاص بالتعمير والبناء والتنمية واقامة الدولة ...

لقد خلقت اسرائيل فى هذا المجال أسطورة أخرى . فكأنهم نوع آخر من البشر يلمس التراب فيتحول إلى تبر . والكتب والأفلام والمقالات والدراسات الاسرائيلية لا آخر لها عن الأرض الخراب التى تحولت إلى مدن .. والمستنقعات المملوءة

بالأوبئة التى تحولت إلى مزارع خضراء . ومعدلات النمو الهائلة . والتكنولوچيا التى وصلت إلى صناعة الأسلحة والطائرات والألكترونيات المعقدة .

لاشك أن اسرائيل قد حققت نتائج ضخمة فى مجالات التقدم كلها . ولكن العناصر المساعدة التى مكنتها من ذلك لم تتوفر لأى قطر آخر على الأرض ..

وهى لم تبدأ من حيث بدأت الدول النامية ، كما تحاول أن تزعم حين تجعل نفسها مثلا فذا لم تحققه أى دولة نامية .

انها لم ترث تركة ضخمة من الأمية والتخلف ، لأنها قد استوردت شعبا بكامله من المناطق المتقدمة نسبيا من العالم .

ثم انها لم تغتصب أرضا خرابا ولكنها اغتصبت أغنى مناطق فلسطين الزراعية المشهورة بزيتونها وحمضياتها وسائر زراعاتها ، ومع ذلك فهى بعد سبعين سنة من الاستيطان ، وربع قرن من قيام الدولة ، مازال أهم بند فى صادراتها هو الحمضيات وسائر المواد الزراعية .

وإذا كانت التنمية وقودها رأس المال ، فقد تدفقت على اسرائيل من الخارج أموال لم يتدفق مثلها قط على أى بلد فى مرحلة البناء والتنمية : آلاف ملايين الدولارات من اليهودية

العالمية .آلاف الملايين الآخرى من التعويضات الألمانية ، آلاف ملايين من المساعدات الأمريكية وغير الأمريكية فى صور شتى مباشرة وغير مباشرة . فحظ الفرد الاسرائيلى من المال الآتى من الخارج لا يقل عن عشرة أمثال حظ أى فرد فى أى بلد فى مرحلة التنمية .

ولم يكن لدى العرب ، قبل البترول ، وفى السنوات الأخيرة بالذات ما يمكن أن يكون «مالا» وعملات صعبة توازى ما يتدفق على اسرائيل بأى معيار خصوصا إذا أخذنا فى الحساب عدد السكان العرب المحتاجين إلى عمل ، وتعليم ، وخدمات ، ومرافق ، وغيرها .

لا تقاس معجزة التقدم الزراعى الاسرائيلى ازاء المال والآلات والخبرات المتدفقة عليه بمعجزة الفلاح الفلسطينى الذى طرد من الأراضى الزراعية الخصبة فى فلسطين سنة ١٩٤٨ إلى المناطق الرملية والصخرية ، فدفعته حاجة الحياة إلى أن يستصلحها بأظافره ويحولها إلى مزارع زيتون وبيارات برتقال وحدائق فاكهة جديدة .

وكما نجحت اسرائيل سياسيا فى أن تمسك بذراع الدول الأقوى سياسيا ، فكذلك فعلت منذ نشأتها فى

المجـــال العلـــمي . وسـاعـدها على ذلك إلى حــد كـبــيـر وجـود الخـبـرات اليــهـودية مــن ذوى الولاء المزدوج فــي كل مــجـــالات التخصص العلـمي المتقدم فى الخارج .

وعندما نراجع الأبحاث العلمية المشتركة التى تجريها أمريكا بأموالها وخبراتها فى العالم الخارجي ، خصوصا فى المجالات ذات الصلة بالجانب العسكرى ، نجد أن اسـرائيل تأتى بعـد انجلترا مباشرة فى عدد المشروعات العلمية الأمريكية التى تجرى بالاشتراك مع دول أجنبية .

ومن يراجع ميـزانية اســرائيل ، وعجـز ميزانهـا التجـارى ، ونسـبة ديونها ، يكاد لا يجد لها مثيلا بالنسـبة لأى دولة أخرى فى العالـم : ذلك أن الاعتماد الأكبـر حتى الآن مازال على المال الخـارجي والتبـرعات الأجنبـية يهـودية وغير يهودية . وذلك بعد أكثر من ربع قرن من قيام الدولة .

بل أن اســرائيل قـبيل حرب ١٩٦٧ كـانت على أبواب كـارثة اقتصـــادية بكل أبعـادها ، من بطالة وهبـوط فى معدل التنمـية وعـجـز وديون وهبوط فى الهجرة اليهـا وتصـاعـد فى الهـجـرة منها ، لســبب رئيـسى هــو أن عشــر سنوات من السكوت قللت من الحماس الخـارجي لها ، ومــن نزعـة الخــوف على مصـيرها

المهـدد ، وحـين تقـابل ذلك بمعـدل نمـوها بعـد الحرب ، نجـد إلى أى حـد هى تسـتفيد من الحـرب واسـتمرار التوتر ، ونفهـم معنى كلمـة بن جـوريون أن اسـرائيل محتـاجة إلى خمسـين سنة من التوتر حتى تتمكن من البقاء ...

أمـا عن الأسـطورة العسكـرية ، فـقـد كـانت أخطر هذه الأسـاطير جميعـا ، وأكثـرها فـاعلـية فى تدميـر النفـس العـربيـة فـى بعـض الظـروف وأشـد أسـلحـة الحـرب الاسـرائيلية النفسـية فتكا ...

وفى البـداية يجـب أن نسـجل أن التفـوق العسـكرى ليـس معنـاه بالضرورة التفـوق الشـامل فى كل شئ ، وإن كان أثـره كبيـرا ، لأن الصدام العسـكرى بطبيعـته دراما انسـانية كبرى تسـتنفد كل مـواهب الأمـة وطاقـاتها وتجـعلهـا تجـتـاز أقسى امتحاناتها ، وتتقـرر فيهـا أمور الحياة ، البقاء والفناء وما تحدثه الحـرب فى أيام تتـأثر به سـائر العناصـر من سـيـاسـة واقتصـاد واجتماع لعشرات السنين ..

ولكن يحـدث أحـيانا أن تبدو المقابلة بين مـجتـمعين فى غيـر حجمها الطبيعى ، خلال فترة معينة لأسباب خاصة ..

فحـين يركز مجتمـع أكبر قدر من قواه واستعداداته وموارده

وتنظيم حياته لحرب معينة يفاجئ بها مجتمعا آخر لم يرتب نفسه على نفس النمط فان المجتمع الأول يتمكن من احراز نصر عسكرى باهر ..

فعلت هذا ألمانيا الهتلرية مثلا ، فمنذ تولى هتلر السلطة وقرار ألمانيا الحقيقى هو الحرب ضد الأعداء الأوروبيين ، وبالتالى دارت كل عجلة فى ألمانيا فى هذا الاتجاه : نظام الدولة السياسى ، طرق مواصلاتها ، نوع صناعاتها ، مجالات البحث العلمى فيها ، تدريب الأفراد وتهيئتهم ، التعبئة النفسية والفكرية والتعليم فى المدارس ... كله كان يصب فى نهر واحد هو الحرب . هذا فى الوقت الذى كانت فيه سائر دول أوروبا مشغولة بخطر الحرب ربما ، ولكن انشغال من يظن أن هذا الخطر قد يأتى وقد لا يأتى ، وبالتالى كان انشغالها أكبر ممارسة شتى وجوه حياتها ، بأولويات مختلفة تماما ..

ونتيجة لهذه المقابلة تمكنت ألمانيا من سحق كل خصومها من الدول الكبرى فى سنوات قليلة .

ولكن هذا لم يعكس كل علاقات القوى الكامنة فى المعسكرين انعكاسا حقيقيا فى حجمه الحقيقى .

فالقوى الصناعية والبشرية والعلمية والجغرافية وغيرها الكامنة لدى الحلفاء ، كانت أكبر بكثير . ولكنها لم تكن كلها موجهة فى اتجاه واحد ، كقبضة اليد حين يضمها صاحبها ويوجه بها ضربة ، مستخرجا أقصى قوته .

ولذلك حين أفاق الحلفاء من الصدمة ، وتمكنوا من استيعابها ثم بدأوا يستخدمون كل قواهم الكامنة ، لم يكن صعبا التنبؤ بالنتيجة وهى هزيمة المغامرة الألمانية .

اذن : فالعنصر العسكرى فى لحظة معينة أحيانا يكون ترجمة صحيحة لمجموع عوامل القوة والبقاء فى مجتمعين متقابلين ، فساعتها تكون لهذا النصر آثاره الباقية . وأحيانا يكون ترجمة للحظة معينة ، لا تعبر عن حقيقة علاقة القوى فى مجملها بين الطرفين فلا تكون ترجمة صحيحة ويصبح من الممكن تغيير كفة الميزان التى اختلت .

وقد وجهت اسرائيل كل ضرباتها العسكرية للعرب فى مثل هذه الظروف :

مجتمع حرب بكل معانى الكلمة وأدقها بأى مقياس لأى مجتمع فى التاريخ ، يعاجل خصمه - وهو مجتمع غير مستجمع نفسه للحرب - بضربة يسبقها إعداد وإحكام وترتيب وتصميم ..

وقد كان هذا ممكنا لسببين (وهنا نسترجع بعض ما ذكرناه من قبل) أحدهما كل مشاكل النمو ومخاض التقدم والخروج من التخلف الذى مازال العرب خارجين منه ، وهو وقت يغرى اسرائيل بالاسراع فى توجيه ضرباتها ، كما تفاجئ النائم الذى يستيقظ ، وهو مازال بين اليقظة والمنام ، فتنال منه مالا يمكن أن تناله حين يستكمل يقظته .

وثانيهما أن العرب رغم قناعتهم اللفظية ، لم يدركوا فى قرارة نفوسهم تماما أن جوهر السياسة الاسرائيلية لابد أن يكون قائما على أساس «حرب كل جيل ، أو كل فرصة» حتى تتم لها حدودها .التي تريدها ، وكيانها الذى تطمح اليه ، وحتى تتبدد مخاوفها التى تؤرقها من لحظة «تمام اليقظة العربية» التى تشعر انها آتية ذات يوم .

هكذا قال جنرالات اسرائيل أنفسهم أن حرب ١٩٤٨ بدأ الاعداد لها من سنة ١٩٣٦ ... وأن حرب ١٩٥٦ بدأت منذ زمن وبالتواطؤ مع فرنسا وانجلترا .. وأن حرب ١٩٦٧ خطتها موضوعة قبل ١٦ سنة ولم تكن حرب ١٩٥٦ إلا بروفة لها ..

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن بعض ما كان يستنفد طاقة العرب فى تلك السنوات ..

وإذا كانت النكتة التى تقال عن اسرائيل انها ليست دولة لها جيش ولكنها جيش له دولة فالنكتة صحيحة بمعنى معين هو المعنى الكامل لمجتمع الحرب .. أو بالأصح مجتمع الحرب المستمرة .

لا تقام مستعمرة فى اسرائيل ، ولا يتقرر اختيار منطقة لاقامة قرية أو مدينة ، ولا يشق طريق مواصلات ، ولا ينشأ مصنع إلا ويخضع هذا لذلك التعبير ذا المحتوى العسكرى «اعتبارات الأمن» ولا ترسم خطة تنمية صناعية مثلا إلا وعينها على الصناعات ذات المردود العام بالنسبة للحاجات العسكرية أيضا .

ونفس الشئ يقال عن نظام التعليم والعمالة والمنظمات والمؤسسات ، ولم يعد سرا ارتباط هذا كله بنظام فذ لاستدعاء الاحتياطى ، الأمر الذى يضع ١٠ ٪ من مجموع السكان تحت السلاح خلال ٤٨ ساعة .

ويرتبط بالقوات المسلحة في إطار الهجوم أو الردع أو الأمن - جهاز المخابرات ، الذى لعب دورا أساسيا فى حياة اسرائيل .

فكما أن ضباطها بدأوا جنودا فى جيوش انجلترا منذ

أواخــر الحــرب العالميــة الأولى ثم الحــرب العـالميــة الثـانية ، فـان أجـهزة مخـابراتها قد تربت فى أحـضـان أعـرق أجـهزة المخابرات فى العالم . ولضيق مســاحة اسرائيل ، كانت تعتبر أن جواسيسها هم «أهم أجـهزة الانـذار المبكر» لديها ، أى الذين يحيـطونها علما بالحركات العربية قبل أجهزة الرادار والأقمـار الصـناعية وطائرات التجـسس . واستفـادت اسرائيل من تعدد الجنســيات التى ينتـمى إليـها اليـهـود الموالون لـها من عـرب وأوروبيــين وأمريكيــين وروس .. فاستطاعت أن تختـرق مالا يمكن أن تخـترقه غيرها من أجـهزة المخــابرات العادية ، وأســست علاقــات خـاصــة بينها وبين كل جهـاز مـخـابرات لديه ما يريد أن يعرفه عن العــالم العــربى . ونجاحات كبرى مثل جاسوسـها «لوتز» الذى اشــتغل بتــوريد الســلاح زمنا للجيش المصـرى . ومنيــر روفا الذى هــرب من العــراق بطائرة ميـج قبيل حــرب ١٩٦٧ وايليا كوهــين الذى وصــل إلى مركز ثقة رفيع فى سوريا وباع إسرائيل كل أسرار تحصــينات الجـولان .. من الأمثلة التى تخطر مباشرة على البال ..

هـذا المجتمـع ، مجتمـع الحـرب المسـتمرة ، هو الذى أحرز انتصـار ١٩٦٧ فى مواجهة مجتمـع ليس مجتمـع حـرب كما سبق أن ذكرنا .

ولكن الدعاية الاسرائيلية التى تمثل سلاحا من أخطر اسلحتهم ، حاولت أن تصور حجم هزيمة ١٩٦٧ بأنها الحجم الحقيقى للمسافة بين الاسرائيليين والعرب . وان تكرس من هذه اللحظة صورة لوضع دائم أو مستمر إلى أجيال كثيرة على الأقل ...

صار كل جنرال اسرائيلى أسطورة عسكرية لم يسبق لها مثيل . وكل جندى اسرائيلى بطل . وكل مواطن اسرائيلى جيمس بوند .. فالاسرائيلى هو «السوبر مان الجديد» فى كل مكان ..

والعربى هو الساذج المتخلف العاجز عن اللحاق بالعصر أو عن فهم تعقيداته .

وظهرت الكتب والأفلام والمقالات والروايات فى هذا المجال بالمئات ، ونجحت هذه الحملة الهائلة فى اقناع أوسع القطاعات فى الرأى العام العالمى بحقيقة الأسطورة التى لا تقهر ، وتسربت من هذا السم جرعات كثيرة إلى النفسية العربية ذاتها ، وكانت هى المستهدفة بالذات .

وقد ساعدهم على ذلك نوع من أدب النكسة التى ظهر فى بلادنا ، وبأقلام منا ، فكما أظهرت النكسة أدب التحليل والفهم

والدراسة والمقاومة ، أظهرن أدب النكسة المشرب بسموم الدعاية الاسرائيلية .

كان خط دفاع اسرائيل الذى اقامته أمام خط بارليف ، هو هذا الحاجز النفسى ، قبل الحاجز الترابى ، الذى صار يوهم العرب بأن مقارعتهم الاسرائيليين فى أى مجال مستحيل فى السياسة أو الاقتصاد ومن باب أولى وبالدرجة الأولى فى الحرب .

كان خط أمنهم الأول ، أن ينمو شعور الهزيمة فى النفس العربية حتى يصبح حاجزا منيعا بينهم وبين محاولة خدش الأسطورة ..

ولم يخطر على بالهم أن هذه الأسطورة سوف تتحول بالنسبة لهم إلى خمر تسكرهم ، وأنهم حين يصدقونها هم أنفسهم سوف يصبحون يوما ما من ضحاياها ..

حرب الاستنزاف
أو الرحلة الطويلة قبل العبور

تم لاسرائيل تدمير القوات المسلحة المصرية فى سيناء على نحو لم يكن يخطر على بالها ولا يطوف بأحلام قادتها ، ولم تر اسرائيل فيما حدث شيئا غير طبيعى ، بل أنها ، سكرى بخمر الأسطورة التى سجلت أكبر منجزاتها ، اعتقدت أن مهمتها ازاء مصر قد انتهت ..

لقد دمرت كل الطيران المصرى تقريبا وأكثر من ٨٥ ٪ من السلاح المصرى وتبعثرت القوات من الناحية البشرية تماما . وها هو مجرى القناة الضيق لا يوجد مايفصلها عن سائر مصر سواه . وها هى العاصمة الكبرى بملايينها الست لا توجد مائة دبابة يمكن أن تقف فى الطريق إليها .

وكان طبيعيا أن تتوقع اسرائيل الاستسلام . حتى أنها لم تفعل ما يفعله غالبا المنتصرون من أن يرسلوا أو يعلنوا شروطهم ، بل قال موشى ديان أنه – فقط – جالس بجوار تليفونه فى انتظار أول مكالمة من أول عاصمة عربية ...

أى أن المهزومين عليهم أيضا أن يطرقوا هم الباب سائلين عن شروط المنتصر ..

وقد أخذتهم المفاجأة ساعة أعلن عبدالناصر استقالته الشهيرة، فهبت جماهير الأمة العربية فى القاهرة وكل عواصم العالم العربى خارجة فى جوف الليل ترفض الهزيمة وتستنكر الاستسلام وتطلب الصمود والمقاومة .

وقال المتحدث الاسرائيلى انها ظاهرة عربية أخري غير مفهومة..

ولكنهم فهموها على أى حال على أنها أحد الانفجارات العربية العاطفية العابرة ، وأنها الرقصة الأخيرة لطير مذبوح من الألم ، لابد أن يفيق من بعدها إلى واقعه الذى لا حل له ..

ولعلهم لم يدركوا أن هذا الرفض الشعبى الشامل كان نابعا من أعماق بعيدة فى وجدان الجماهير ، إلا بعد أسبوعين تقريبا من وقف إطلاق النار ...

ففى أثناء اجتياح القوات الاسرائيلية لسيناء كلها ، لم يتجهوا لسبب أو لآخر عن اهمال أو عن احساس فى أغلب الظن بأن الأمر فى متناول يدهم أى وقت - لم يتجهوا شمالا فى الشريط الضيق الموازى لقناة السويس والمؤدى إلى بور فؤاد ، النصف المتمم لبور سعيد ، شرقى القناة .

وكان طبيعيا أن يرسلوا طابورا مدرعا لأخذ هذا الجزء المتبقى غرب القناة فى نزهة تستغرق عدة ساعات...

ولكنهم ، وكان ذلك يوم أول يوليو ١٩٦٧ ، فوجئوا بالطابور المدرع تنطلق عليه قذائف مدفعية مصرية من الضفة الغربية وتشتبك معه فتمنع تقدمه .. ثم وجدوا أمامهم مباشرة على نفس اللسان الضيق فى الضفة الشرقية قوة من الصاعقة تسد الطريق بأسلحتها الخفيفة وأيضا بأجسادها وتصميمها الذى كان أكثر مما في أيديها من سلاح ..

وأرسلوا إلى طابورهم تعزيزات ، ولكن الساعات مضت وقد تحول «الاشتباك» إلى معركة حقيقية . ولعلهم عندما وصلت خسائرهم إلى ثلاث دبابات بأطقمها وست سيارات نصف جنزير وعربات ذخيرة وقتلى وجرحى ، لم يكونوا يعرفون أن القوة التى تواجههم على اللسان لا تزيد على ثلاثين رجلا ، وأن المدفعية التى تضربهم من غرب القناة لم تكن لديها ذخيرة كثيرة ، أو أن بعض متطوعى المقاومة الشعبية اشتركوا فى القتال المفاجئ ... فانسحبوا ....

ثم جرب الاسرائيليون تجربة أخرى أمام عدو يرونه مطروحا على الأرض ، فحاولوا انزال قوارب آلية فى قناة

السويس ، حتى ينقلوا خط وقف اطلاق النار إلى منتصف مجرى القناة ، فتصدت لها المدفعية المصرية وأغرقتها ... فحاول الاسرائيليون مرة ثانية مستخدمين مدفعيتهم هذه المرة مع طيرانهم في قصف مدن القناة . ولكن المدفعية المصرية مرة أخرى تمسكت بموقفها ، وأغرقت ثلاث لنشات بل ونزلت قواتنا إلى الماء فأسرت لنشين آخرين وأسرت اثنين من جنود العدو ..

وكأن الظروف شاءت – وقرار مجلس الأمن الشهير ٢٤٢ في نوفمبر ٦٧ لم يصدر بعد ، والمناقشات محتدمة فى مبنى الأمم المتحدة – لعل الظروف شاءت أن تثبت كل الأسلحة وجودها .

فقد جاء يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ ، وهو يوم عيد القوات الجوية ، ولما يمر علي وقف اطلاق النار شهر .. وقررت القوات الجوية – أو ما تبقى منها ، أن تتعرض للخطر ، لكى تثبت جدية الوقفة ... فقامت بأعدادها القليلة ، وبطائرات ميج ١٧ بهجمات انتحارية على مراكز تجمع دبابات العدو وسياراته المصفحة فى سيناء وتصدت لها طائرات الميراج الاسرائيلية وخاضت معها معركة جوية .

لكأن طيارينا بالقليل القليل الذى لديهم أرادوا فى عيدهم أن يسقطوا قنابلهم على أرض سيناء مشيرين بذلك إلى رمز كبير أن هذه أرض مصرية . وأن مصر ليس فى نيتها وهى فى أشد حالات تجردها من السلاح أن تتخلى عنها ...

ثم جاء حادث المدمرة ايلات لكى تسمع قواتنا البحرية صوتها للعالم.

إذا كانت المدمرة ايلات احدى مدمرتين يزهو بهما السلاح البحرى الاسرائيلى ، وكانت - مرة أخرى تحت الاحساس بعدم وجود السلاح المقابل - تحاول أن تحك أنوف المصريين بالاقتراب والتجول فى المياه الاقليمية خارج مناطق احتلالها لسيناء .. ومياه بور سعيد بالذات ..

وفى مساء ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ رسمت زوارق الطوربيد المصرية خطتها وتصدت للمدمرة بصواريخ بحر - بحر ، لم تلبث أن أغرقتها ومعها عشرات من الضباط والجنود الاسرائيليين ، ظلت طائرات الهليكوبتر تبحث عنهم طول الليل ونهار اليوم التالى ، وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الحروب تصاب فيها مدمرة بهذا النوع من السلاح إصابة قاتلة ...

وفى غمرة جنونهم من هذا التطاول من الطرف المهزوم ،

حشدوا مدفعيتهم تصب نيزانها على المرافق الصناعية الواقعة على حافة القناة وخصوصا مصفاة البترول في السويس ، وعلى الأهالي المدنيين في مدن القناة .

ولست أنسى هذا المشهد الذى رأيته بعيني بين الاسماعيلية والسويس . وكنا قد توقعنا بعد اغراق ايلات عملا انتقامياً اسرائيليا من حجمه . وفي الطريق من القاهرة مررنا بمقر القيادة المصرية وكانت مشغولة باصدار الأوامر باخلاء ميناء السويس من السفن والناقلات متوقعين أن يكون الرد الاسرائيلي هناك ..

وهذا ما حدث بالفعل . فقبل الفجر انهمرت قنابل الغيظ «والعقاب» على السويس ..

ولعل الاسرائيليين في ذلك الوقت ادخلوا هذا كله في بند محاولات يائسة لاثبات الوجود خلال المناورات والضغوط السياسية والدولية العنيفة قبل صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . ولكن شيئاً آخر ادهشهم ، رغم أنه لم يكن ينطوى على قتال ، ولكن دلالته كانت بالغة الأهمية .

لقد صدر قرار باخلاء منطقة القناة من سكانها ...

قرار أليم . باهظ التكاليف . ولكن معناه كان واضحا لهم .

أولا : أن وجود الأهالي مكدسين في المدن بالذات كان يقلل حرية قواتنا في الاشتباك ، إذ كان الرد الاسرائيلي يستسهل

ضرب المدنيين . وثانيا أن هذا معناه أننا قررنا ألاّ نبقى أهالينا رهائن فى أيديهم تحت رحمة مدفعيتهم وأننا قد حولنا هذه المنطقة العزيزة إلى ساحة قتال وأن أمتنا وقواتنا قد فقدت أسلحتها ولكنها لم تفقد روحها وأعصابها .

وفى أغلب الظن أن اسرائيل بعد هذه الشهور القليلة من الهزيمة ومصر بالذات ثم سائر البلاد العربية ، تمر بأحرج أوقات حياتها ، قد بدأت تدرك لأول مرة جدية الشعار الذى طرح فى مصر تحت عنوان : مرحلة الصمود ....

فرغم صدور قرار مجلس الأمن ٢٤٢ إلا أن كل دارس يعرف أن القرارات الدولية هى قصاصات ورق لا تنفذ طالما شعر أحد الجانبين بقدرته على عدم تنفيذه وكان من مصلحته تجاهله ، كما أنه لا يفسر - كأى نص على الورق - إلا طبقا للتفسير الذى تعكسه علاقات القوة الحقيقية على الطبيعة .

كانت مرحلة الصمود غايتها كسب فترة من الهدوء على الجبهة وكانت الأحداث التى سبقت تثبت أنه ليس الصمود الخانع ، ولكنه كان هدوءا مطلوبا لثلاثة أسباب :

أولا - التقاط الأنفاس والخروج نفسيا ومعنويا بالأمة العربية كلها من ذهول الهزيمة ، من صورة اللحظة القريبة التى أراد العدو أن يجعلها صورة ثابتة للعلاقة العربية الاسرائيلية ،

والرجوع تدريجيا إلى صورة أكثر قربا من الطبيعة .

ثانيا - بناء خط دفاع مصرى قوى جديد فتكون البداية أن تصل العدو رسالة ، فحواها «لا خطوة إلى الوراء» قبل أن يمكن الحديث جديا عن التحرك إلى الأمام ، وبالتالى تتم حماية كافة الجسور العربية من الانهيار تحت وطأة الضغوط السياسية والمادية والمعنوية .

ثالثا - اعادة بناء القوات المسلحة ...

وهذه الجملة ذات الكلمات الأربع ليست بمثل هذه البساطة فى ترجمتها العملية ..

كان هناك جسر جوى وبحرى ضخم ممتد من الاتحاد السوفيتى يحاول تعويض السلاح الذى فقدناه بأسرع ما يمكن ، وكان السلاح ينزل فى الموانى والمطارات المصرية ويتخذ طريقه رأسا إلى أيدى الجنود فى خطوط القتال الجديدة [1] ولكن لم يكن هذا كل شىء ..

---

(١) يوم أول يوليو قال الجنرال حاييم هيرتزوج المعلق العسكرى الاسرائيلى وأول حاكم عسكرى للضفة الغربية تعليقا على تسليح الجيش المصرى أن الصواريخ السوفيتية الجديدة «مجرد وسيلة أخرى لنقل المتفجرات من مكان إلى آخر وتسييرها أعقد على المصريين من استخدام الدبابات والطائرات وأن هدف ارسال الاسلحة ليس أكثر من استخدامها فى الاستعراض العسكرى القادم يوم ٢٣ يوليو» .

إن الجيش ليس مجموعة من الرجال وكميات من السلاح فحسب ...

وقد سمعت الجنرال بوفر قائد الجيش الفرنسي في حملة السويس يقول بحق في تلخيص دقيق للقضية «فرق بين أن يكون لديك طائرات وطيارين وبين أن يكون لديك سلاح طيران .. وفرق أن يكون لديك دبابات وبين أن يكون لديك سلاح مدرعات» ..

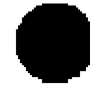
لم تكن القضية إذن في «اعادة بناء القوات المسلحة» حشد أكبر عدد من الرجال والمعدات . فليست هذه هي الحرب الحديثة وقد كان هذا هو الدرس الأكبر من يونيو ١٩٦٧ .

ولكن القضية كانت اعادة بناء القوات المسلحة «بمفهوم جديد» للقوات المسلحة : بدءا من الروح المعنوية العامة وانتهاء بالتدريب وكفاءة الجنود والضباط وتلاحمهم ، ونوعيتهم، وتسلسل القيادات، والدراية بالمهمات القتالية المحددة بكافة ظروفها المحتملة ، أي خلق أداة حرب عصرية» بكل ما تحمله هذه الكلمة من محتوى ، معقد بدرجة تعقيد أسلحة الحرب الحديثة وأحجام الجيوش الكبيرة وتكامل الأسلحة المختلفة ، ووسائل الاتصال والتشويش الدقيقة .

ولم يكن هذا كله يجري على مهل أو في حالة سلام ، إنما كان يجب أن يتم بسرعة وتحت سمع العدو وبصره واحتمالات

مباغتاته. ومن خلال الاشتباكات التى لا مفر منها ، وبعد كل شىء : تحت سمع العالم كله وبصره ، العالم الذى ملأته الشكوك حول جوهرنا ومعدننا الحقيقى وقدرتنا على استيعاب درس الحياة الحديثة القاسى ، وأجهزته السياسية – العسكرية – الاقتصادية المعقدة ...

كان علينا أن نتحمل من الداخل تمزقاتنا النفسية القاسية ، ومن الخارج نظرات الاشفاق وكلمات الشك أو العزاء .. وقواتنا تخوض حربا صامتة لكى تسترد هيبتها ووجودها وسمعتها لدى الصديق والعدو على السواء ...



يمكن القول أن هذه المرحلة التى تميزت بالدفاع المحض وتقوية عود خط الدفاع المصرى كأول حاجز فى وجه الارادة الاسرائيلية التى كانت ترى فى الفراغ العسكرى فرصة لاملاء شروطها .. يمكن القول أن هذه المرحلة التى اصطلح على تسميتها «بمرحلة الصمود» قد انتهت فى أغسطس ١٩٦٨ ، إذ نجد أنه مع سبتمبر ١٩٦٨ بدأت مرحلة جديدة اصطلح على تسميتها باسم «مرحلة الردع» ..

أنها مرحلة من الدفاع النشيط أو الدفاع الايجابى . ومعناه التصدى لأى عدوان أو تحرش اسرائيلى بمثله أو بأكثر من مثله اثباتا لارادة التحدى ولزعزعة العدو فى محاولاته للاستقرار شرق القناة . اثباتا لارادة التحدى التى استطاعت أن تظهر نفسها بعد اكتساب درجة القوة والاستعداد اللازمة لها .

وتميزت هذه المرحلة بمعارك المدافع الكبيرة ، إذ كانت المدفعية المصرية أحيانا تقصف مواقع العدو على طول الجبهة ، تدمر مراكز تجمعاته وتشتت قواته . وكان طبيعيا أن تتحمل قواتنا عبء رد العدو عليها بنيران مدفعيته ودباباته وصواريخه وسلاحه الجوى الذى كانت لا تزال له سيطرة كاملة على الجو ....

كان على قواتنا أن تواجه هذا القتال الأكثر عنفا وتقدما ، فى نفس الوقت ، لكى لا ننسى ، الذى كان عليها فيه أن تتدرب وتستوعب الأسلحة الجديدة ، وتزيد من بناء قوتها العسكرية ..

.. وأن تبدأ تجارب «عبور» على نطاق محدود ...

ففى ٢٧ أغسطس ١٩٦٨ صدر أول بيان اسرائيلى يشير إلى عبور مقاتلين مصريين لقناة السويس ودخولهم سيناء :

«تل أبيب فى ٢٧ أغسطس - أعلن متحدث عسكرى اسرائيلى فى تل أبيب اليوم أن اثنين من الجنود الاسرائيليين قتلا واختطف

ثالث فى كمين نصب لسيارة عسكرية على الضفة التى تحتلها اسرائيل لقناة السويس فى الليلة الماضية . ولم يحدد ما إذا كان الكمين يتألف من جنود مصريين نظاميين أو من رجال المقاومة . وقال أن سيارة الجيب مرت فوق لغمين زرعا فى طريق غير مرصوف تجاه الاسماعيلية وأضاف المتحدث أنه عندما انفجر اللغمان تعرضت سيارة الجيب لوابل من الرصاص من رجال منبطحين على جانبي الطريق .

«ومضى المتحدث العسكرى يقول أن جنديين قتلا وفقد ثالث ويبدو أنه سحب نحو الضفة الغربية للقناة .

«وقالت مصادر عسكرية أن هناك أدلة على أن فريق الكمين قد عبر القناة فى قوارب» .

«وقالت الوكالة الفرنسية من تل أبيب أن الجنرال موشي ديان وزير الدفاع الاسرائيلى اجتمع اليوم بالجنرال أدوبول كبير المراقبين الدوليين وأبلغه الخطورة التى تعلقها اسرائيل على الحادث .

«وقد اجتمع ديان بالجنرال أدوبول ، ثم خرج من الاجتماع يقول أن رد مصر غير مرض . وأن عدم اعترافها بالحادث غير مقنع . وأضاف أنه سيقدم تقريره إلى مجلس الوزراء عن هذه

«الغارة الجريئة» وقال أن أسرائيل تستخلص لنفسها النتائج بعد أن رفضت مصر أية مسئولية عن الحادث . وصرحت مصادر عسكرية اسرائيلية بأنها «تتوقع حدوث أى شىء فى أى وقت وأن نقطة الغليان قد زادت فجأة عند منطقة قناة السويس» (١) .

وفى يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٦٨ صدرت الصحف العربية تحمل أنباء هجوم شامل بالمدفعية على طول الجبهة .

قالت جريدة الأهرام :

«وجهت قواتنا المسلحة أمس ضربة قاصمة إلى العدو دمرت فيها قواعد الصواريخ التى حشدها فى مواجهة مدينتى السويس والاسماعيلية . وكان العدو قد أخذ فى حشد هذه القواعد وتجميعها منذ معركة المدافع فى شهر سبتمبر الماضى حتى تكون المدينتان تحت رحمته . وقد بدأت المعركة بعد أن وجه العدو فى الساعة الرابعة وخمسين دقيقة قذائفه إلى بور توفيق فدمر بعض المنازل» .

وصدرت عن القيادة العامة للقوات المسلحة البلاغات التالية :

البيان رقم ١

قام العدو فى الساعة ٤,٥٠ دقيقة بعد ظهر اليوم بتدمير عدة

(١) الاهرام ٢٨ أغسطس ١٩٦٨ .

منازل فى مدينة بور توفيق وقد استخدم العدو فى عدوانه اللا انسانى الصواريخ من الأرض للأرض من عيار ٢١٦ ملليمتر ، والتى أعدها من قبل فى مواجهة مدن القناة لهدم المنازل وقتل المواطنين الابرياء وعلى أثر ذلك كلفت التشكيلات الميدانية المتركزة فى منطقة القناة بالتعامل مع العدو الاسرائيلى وتدمير صواريخه.

البيان رقم ٢

فى تمام الساعة ٤,٥٠ قامت جميع أسلحة الرمى الخفيفة والثقيلة من تشكيلاتنا الميدانية فى منطقة القناة بقصف مركز ونيران تدميريه ضد صواريخ العدو وعلى قواته المسلحة بقصد اسكاتها وتدميرها . ويحاول العدو الآن مواصلة اطلاق النيران ولكن نيران مدفعيتنا أعجزته عن إتمام ذلك ولا تزال الاشتباكات مستمرة .

البيان رقم ٣

فور قيام العدو باطلاق نيران الصواريخ على مدينة بور توفيق قامت قواتنا المسلحة بقصف تدميرى على جميع مواقع صواريخ العدو على طول الجبهة ثم تم تراشق فردى من بعض الأسلحة ردا على نيراننا . وقد أوقفت النيران من الجانبين فى الساعة السادسة مساء اليوم .

البيان رقم ٤

خسائر العدو : تدمير ١٩ دبابة و ١٤ عربة مدرعة نصف جنزير و ١٠ مواقع صواريخ و ٢٨ دشمة مدفع ماكينة و ١٦ نقطة ملاحظة أرضية و ٣ مراكز قيادة و ٦ مخازن وقود وذخيرة و ٣ مدافع عيار ١٠٦ ملليمترات ، كما تم اسكات الوحدات التالية :

٣ مواقع بطارية مدفعية متوسطة و ٧ مواقع بطارية ١٠٥ ملليمترات وموقعى مدفعية مضادة للطائرات وموقعى مدفعية هاون . كما تم احراق عدد ٦ مناطق شئون ادارية شوهدت والنيران مشتعلة فيها وتمت رؤية هذه الحرائق لسكان مدينتى السويس والاسماعيلية .

وقد كانت خسائر أفراد العدو عددا كبيرا من القتلى والجرحى واستخدم العدو عددا كبيرا من طائرات الهيلوكوبتر فى إخلاء هذه الخسائر من المواقع الخلفية له .

وكانت الحقيقة تنطوى على أكثر مما اكتفت البلاغات العسكرية بالاشارة إليه ...

فقد قامت وكالة الاسوشيتدبريس من تل أبيب فى اليوم التالى ما نصه «أن قتالا دار فى داخل سيناء بين القوات المصرية مع القوات الاسرائيلية عند ما كان تبادل اطلاق نيران المدفعية عبر القناة فى ذروته» .

وقال يوسف تيكواه ممثل اسرائيل الدائم فى الأمم المتحدة فى خطاب إلى رئيس مجلس الأمن «أن قوة مصرية عبرت قناة السويس إلى سيناء حيث اشتبكت مع القوات الاسرائيلية قرب ممر ميتلا ، كما أن قوة مصرية أخرى حاولت عبور القناة» .

وكان لهذا التصعيد آثاره فى التهاب الشعور واحياء الأمل فى الأراضى المحتلة فقد قالت وكالات الانباء فى نفس اليوم من تل أبيب «أعادت السلطات الاسرائيلية حظر التجول الشامل فى كل من الضفة الغربية وغزة بعد اندلاع المظاهرات فيهما من جديد كأعنف ما تكون ، فى أعقاب رفع حظر التجول اليوم لمدة قصيرة جدا ، وقالت وكالة الانباء الفرنسية أن معارك القناة ألهبت الموقف فى كل الأراضى المحتلة» .

«وقد سارت اليوم الجماهير الغفيرة فى مسيرات كبيرة تأييد للمقاومة الفلسطينية وهى تهتف باسم مصر . وسارعت القوات الاسرائيلية إلى اطلاق الرصاص فى بعض المدن وخاصة مدينة رام الله التى حاول آلاف من سكانها التجمع فى الميدان الرئيسى . وقد استهدف حظر التجول الكامل اليوم تفادى المظاهرات من ناحية ومحاولة وقف الهجمات المسلحة لرجال المقاومة من ناحية أخرى . فقد انزل رجال المقاومة خسائر كبيرة فى الاشتباكات

التى جرت فى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، كما نسفوا خطا لسكة الحديد عند رفح . واعلن متحدث عسكرى اسرائيلى عن قتل جنديين اسرائيليين ، وإصابة آخرين بجراح أثناء اشتباك وقع بين مجموعة من رجال المقاومة وقوة اسرائيلية على بعد كيلو متر من شمالى مستعمرة «دان» قرب خطوط لبنان .

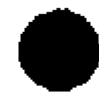
وفى يوم الجمعة ٣١ أكتوبر قامت الطائرات الاسرائيلية بالتسلل إلى العمق المصرى فى محاولة لضرب ثلاثة أهداف مدنية : قناطر نجع حمادى والجسر الذى يوصل معبد دندره ، ومحطة المحولات الكهربائية التى تقع قرب المنطقة .

ومع عنف الردع المصرى وتصاعد خسائر الاسرائيليين انتهى أملهم فى أن تكون الجبهة التى أمامهم جبهة ساكنة مستسلمة وانتهى أملهم فى أن تكون الحرب قد انتهت ، لذلك عمدوا إلى خطوتين جديدتين :

الخطوة الأولى . هى تحصين أنفسهم على الضفة الغربية ، ازاء قوة النيران المصرية المتزايدة ، ومن هنا ولدت فكرة بناء ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بخط بارليف الأول : سلسلة تحصينات على طول خط المواجهة .

والخطوة الثانية ، القيام بعمليات جوية فى العمق المصرى ، أشهرها محاولتهم نسف خزان نجع حمادى ، إذ تسللت طائراتهم مرة والقت قنابل من التى تسبح مع تيار النهر حتى تصطدم بالخزان وتنسفه ولكن المحاولة فشلت . وكان ملفتا يومها أن الطيارين الذين قاموا بالمهمة ابلغوا عن نجاحها دون التأكد من ذلك ، فأصدرت اسرائيل بيانات رسمية تعلن فيها غرق مساحات تبلغ مئات الآلاف من الافدنة فى الصعيد نتيجة لنسف الخزان ، ثم اضطرت اسرائيل إلى سحب هذه البلاغات فى اليوم التالى وتبرير ذلك بخطأ فني . ولكن هذا كان كاشفا عن هدفهم الحقيقى من الهجوم .

وكانت هذه المعارك بالمدفعية ، ولجوء الاسرائيليين إلى تحصين مواقعهم بحيث تحمى جنودهم من القنابل ثم إلى هذه الأعمال فى العمق المصرى ايذانا ببدء مرحلة جديدة ، كانت أخطر مراحل المواجهة بين يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣ تلك المرحلة التي سميت : حرب الاستنزاف ..



.. ولو أن هذا الكتاب ليس موضوعه سائر جوانب الصراع العربى الاسرائيلى ، وبالتالى ليس موضوعه المقاومة الفلسطينية

المسلحة إلا أنه لا يمكن المرور على هذه المرحلة دون ذكر المقاومة الفلسطينية .

فكما أن أول ردود الفعل الايجابية بعد الهزيمة كان رفض الجماهير العربية لها ، واتاحة الفرصة للجيش المصرى والسورى بالذات فى اعادة البناء والاستعداد للمواجهة ، فقد كان رد الفعل الآخر البارز هو مولد المقاومة الفلسطينية المسلحة ، أو بالأحرى مولد الشخصية الفلسطينية .

فمنذ ١٩٤٨ كانت هذه الشخصية تائهة ، معرضة للانقراض ..

وقبل الحرب بسنوات برزت فكرة منظمة التحرير كاطار للبدء فى استرجاع هذه الهوية ، ولكن هوية شعب ما وكيانه لا يولدا بقرارات ولو من كل الملوك والرؤساء العرب ، وارادته لا توجد بتعيين ممثلين لهذه الارادة .

وقد ولدت بذور المقاومة قبل الحرب . ولكن الهزيمة جعلت الجماهير الفلسطينية تعود إلى نفسها ، وتحمل سلاحها وتبرز قياداتها ..

وكانت معركة الكرامة التى صمدت فيها المقاومة الفلسطينية – مواجهة – لهجوم اسرائيلى شامل عليها فى الأردن ، رغم الثمن الفادح الذى تحملته من خسائر فى الأرواح ، كانت فوق كونها

نصرا عسكريا ، نصرا سياسيا كبيرا .. إذ أنها وضعت المقاومة الفلسطينية على الصفحات الأولى فى صحف العالم بأكمله ، وأنها دفعت أفواجا من الفلسطينيين .. من الفلاح المعدم إلى الشاب الذى ترك دراسته الجامعية ليحمل السلاح : وفى الشهور الاليمة لصمت المدافع العربية كانت أسلحة المقاومة البسيطة هى العزاء لكل عربى ، هى الخبر الذى يقرأه كل صباح ليشعره أن هذه الأمة تنبض وأن الرفض العربى للغزو الاسرائيلى له شكل ايجابى غير الخطب والمذكرات .

وقد مرت المقاومة بطريق طويل محفوف بالمكاره . وتوالت البطولات والأخطار على حد سواء ، وتعرضت للتصفية الشاملة فى مذابح ايلول ولكن حتى نكستها العسكرية كانت انتصارات سياسيةلها .. لأن هذا الثمن الفادح من الدم هو الذى وصل إلى اقناع العالم بأن هناك شعبا هو الشعب الفلسطينى وأن هذا الشعب له الحق فى تقرير مصيره كأى شعباً آخر فى المنطقة أو فى العالم كله ...

ولم يكن نشاطا لمقاومة مقطوع الصلة بالقتال على الجبهات بين الجيوش النظامية ...

كان بدوره استنزافا لاسرائيل ..

وكانت العلاقة واضحة بين الجبهات النظامية والمقاومة : فحين كانت الجبهة المصرية مثلا تنشط كان أزر المقاومة يشتد ، فى الخارج والداخل ...

فقد قاومت غزة مقاومة بطولية كلفت اسرائيل الكثير ...

وقاومت الضفة الغربية ، خصوصا حين كان القتال يشتعل ضد الجيش الاسرائيلى فى جبهة القناة ...

ففى خلال مرحلة الردع كنا نجد مثل هذا النموذج من الأصوات فى الداخل .

القدس ١٩ أغسطس ٦٨ .

«عاشت مدينة القدس ليلة من الفوضى والاضطراب والذعر بعد الانفجارات المتوالية التى هزت المدينة لساعات بدأت من التاسعة مساء وامتدت إلى ما بعد منتصف الليل .

وقالت الاسوشيتدبريس أن سلسلة من الانفجارات أحكم تدبيرها فى ليلة القنابل حالة من الفوضى لم تشهدها القدس طوال عشرين سنة، سقط فيها الكثيرون جرحى عدد غير قليل منهم فى حالة خطيرة ، وأدت إلى حدوث أعمال تخريب على نطاق واسع فى القدس العربية ، حيث قام مئات من الاسرائيليين بغزو قلب المدينة .

وقد وضعت هذه القنابل فى مواقع متفرقة وحدات خاصة من قوات المقاومة العربية ردا على العدوان الاسرائيلى الجوى على المدنيين في مدينة السلط منذ اسبوعين . وكانت قوات العاصفة - وهي الجناح العسكرى لمنظمة فتح قد اصدرت بيانا عقب هذا العدوان أعلنت فيه أنها ظلت حتى ذلك الوقت تقصر هجماتها ضد العدو على المواقع والأهداف العسكرية ولكن المنظمة بعد ضرب الطيران الاسرائيلى للمدنيين فى السلط بقنابل النابلم الحارقة وبعد ذلك العدوان الاستفزازى أصبحت فى حل من الانتقام من المدنيين فى اسرائيل» .

«وقد وقع الانفجار الأول فى الساعة التاسعة وعشر دقائق فى محطة اتوبيس مزدحمة عند تقاطع شارعى الملك جورج واللنبى (شارع يافا القديم) ، وقد سقط فى هذا الانفجار ما لا يقل عن عشرة أشخاص نقل ثلاثة منهم إلى المستشفى فى حالة خطرة . وبعد ذلك بعشرين دقيقة اكتشفت قنبلتان عند سينما «رون» أحداهما فى مدخل السينما حيث يزدحم الناس حول شباك التذاكر والثانية على بعد ٢٠٠ متر فى دورة مياه بحديقة عامة . وعلى مدى أكثر من ساعتين بعد ذلك توالت انفجارات أخرى فى محطة بنزين بالقرب من محطة السكة الحديد وفى محطة اتوبيس

بشارع رئيسى . وبينما الانفجارات تهز المدينة اذاعت وزارة الداخلية بيانا دعت فيه السكان إلى ابقاء النوافذ مفتوحة تخفيفا لنتائج الانفجارات . وفى نفس الوقت سارعت قوات ضخمة من البوليس والجيش إلى الشوارع حيث قامت بأوسع حملة اعتقالات بين السكان العرب وقالت الأنباء أن عدد المعتقلين يصل إلى أكثر من ٦٠ عربيا . بينما قامت قوات أخرى بأغلاق البوابات السبعة الكبرى بين القدس العربية والاسرائيلية لمنع أى عربى من العودة إلى المدينة القديمة . ووقفت قوات البوليس المختصة بمقاومة المظاهرات عند مداخل المدينة العربية وقد لبسوا الخوذات وتسلحوا بالهراوات .

«وفى تلك الاثناء تدفق مئات من الشباب الاسرائيلى على شوارع المدينة العربية ، وساروا فى جماعات مسلحة بالعصى والهراوات وقطع الأحجار وأخذوا يدمرون ويحرقون كل ما هو عربى . وقدر البوليس عدد السيارات العربية التى تحطمت بأكثر من ٥٠ سيارة احترق بعضها ، غير عشرات المتاجر التى تحطمت واجهاتها وسلبت بضائعها .

«وقامت جماعات أخرى بضرب العرب فى الشوارع . وقد سقط عدد كبير من العرب جرحى ..

سوقال المسئولون الاسرائيليون أن الانفجارات التى هزت المناطق الاسرئيلية من مدينة القدس ليلة أمس وضعت خطتها فى القسم العربى من المدينة وأن الفدائيين العرب الذين تحميهم السيدات فى القدس العربية هم المسئولون عن هذه الانفجارات . واضاف المسئولون الاسرائيليون أن هناك أدلة متزايدة على أن السيدات العربيات يقدمن الحماية والمأوى لعدد غير قليل من رجال المقاومة».

كانت حرب الاستنزاف تكاد تكون مرحلة قائمة بذاتها ، بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف اطلاق النار الذى كان جزءا من مشروع روجرز ٧ أغسطس ١٩٧٠ ..

صحيح أنها كانت متصلة بما سبقها من مرحلتى الصمود ثم الردع، ولكن درجة التصعيد وصلت بها إلى درجة من الفرق الكمى والكيفى عما سبقها بالنسبة للجانبين : كانت ذروة المواجهة بينهما بين يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ ..

كانت هذه الحرب مظهرا يدل على أن القوات المسلحة المصرية قد وصلت إلى درجة من الثقة بنفسها تجعلها تشعر أنها قادرة أولا على الدفاع عن نفسها وعن الوطن . وثانيا على الحاق ضربات أكبر وأوسع مدى بالعدو ، وثالثا على احتمال واستيعاب الضربات التى لابد أن يوجهها العدو ضدها ...

ويمكن القول أن الأهداف التى كانت تريد مصر تحقيقها من حرب الاستنزاف هى :

١ - استنزاف العدو ماديا وعسكريا ومعنويا بتدمير قواته والحاق أكبر قدر من الخسائر البشرية به ، وبالتالى رفع الثمن الذى يتحمله طالما بقى احتلاله .

٢ - عدم ترك الفرصة للعدو لكى يثبت مواقعه ويعمق تحصيناته ، وقد بدأ فى اقامة ما يسمى بخط بارليف الثانى الذى كلفه مئات الملايين من الجنيهات ..

٣ - التدريب العملى للقوات المسلحة فى ساحة القتال الفعلية والقيام بعمليات عبور منوعة ، تزداد فى الحجم وفى القيمة استعدادا لساعة التحرير .

٤ - اقناع العالم واقناع العدو ، والمناورات السياسية التأجيلية مستمرة فى الساحة الدولية ، أن مصر لا تنوى تحت أى ظرف من الظروف التخلى عن حقها فى استرداد سيناء وحق الأمة العربية فى تحرير أراضيها المحتلة .

ولذلك كان أسلوب مصر فى الاستنزاف يعتمد على عنصرين :

أولا - ضرب المدفعية لتدمير خط بارليف ومنعه من الاكتمال وفتح ثغرات فيه أمام قواتنا .

ثانيا – عمليات عبور تقوم به قوات أكبر حجما بتدمير أسلحة وأفراد العدو ، فى المواقع الحصينة التى لا تدمرها قذائف المدفعية الثقيلة.

وكان الاقدام على هذه الحرب التى تستهدف استنزاف العدو ، تحمل معها مخاطرة المواجهة بالحرب الشاملة . فإنك حين تختار أسلوبا من القتال ، لا يترتب على ذلك أن يتقيد العدو بنفس الأسلوب ، ولكنه يمكن أن يرد بحرب من نوع آخر يرى أنها مناسبة له ...

ولكن العدو لم يختر ، كما كان يهدد دائما ، القيام بهجوم عسكرى شامل برى وجوى على الجبهة المصرية خلال حرب الاستنزاف ، انما فضل أن يرد على الاستنزاف باستنزاف مقابل.

الرد على المدفعية بالمدفعية .

استخدام تفوقه الجوى فى ضرب الجبهة المصرية إلى أقصى ما يتمكن من قوة .

ثم ، لما لم تفلح هذه الردود فى ايقاف حرب الاستنزاف من جانبنا ، صعد عملياته الجوية إلى ضربه العمق المصرى ، الأهداف الحربية والاقتصادية والمدنية على السواء ..

لقد اختار العدو إذن مقابلة الاستنزاف . وفى مقابل أهدافنا كانت أهدافه هى :

أولا – محاولة احباط عمليات قواتنا بحيث يقنع قواتنا المسلحة بعدم جدوى أى محاولة كبرى لعبور القناة .

ثانيا : تدمير طاقتنا الدفاعية ومواقع استعدادنا غرب القناة حتى يبقى مطمئنا إلى عدم قدرتها على العبور ، وتبديد أملها فى القيام بهجـوم تقيم فيه رءوس كبارى شرقى القناة وتنقل قوات ثابتة إلى سيناء .

ثالثا – منع اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات التى كان يعرف أنها لو اكتملت فستكون قيدا على حرية سلاحه الجوى وحماية لعمليات أرضية أوسع فى عمق سيناء .

رابعا – ضرب العمق المصرى لاهداف سياسية ومعنوية فى الدرجة الأولى ، متوقعا أن تنكسر روح المقاومة والصمود لدى الشعب وأن يضعف هيبة القيادة لدى المواطنين .

وهو إذا حقق هذا داخل مصر فكأنه قد حققه إلى حد بعيد فى انحاء الوطن العربى كله ..

كان هذا منطق الطرفين فى حرب الاستنزاف المريرة والطويلة التى دامت سبعة عشر شهراً متواصلة .

ففى يوم ٨ مارس بدأت القوات المصرية أكبر عمليات القصف الشديد بالمدفعية على طول خط الجبهة بقوة كانت ايذانا ببدء مرحلة جديدة خطيرة ..

وكأن هذه المرحلة قد شاء لها القدر أن تبدأ بداية تشير إلى استبسال ضباطنا وجنودنا الصابرين فى الجبهة ، إذ ذهب الفريق عبد المنعم رياض إلى أكثر المواقع تقدما من العدو ليرى بنفسه آثار بدء هذه العملية فأصيب بقنبلة مباشرة وقضى شهيدا.

وكانت جنازة عبد المنعم رياض فى القاهرة مظاهرة جماهيرية شعبية من أكبر ما رأت شوارع القاهرة : طريقة عبرت بها الجماهير عن استعدادها للصمود ولدفع ثمن المعركة وعن تقديرها للذين يبذلون أرواحهم فى هذا السبيل .

ولم تمض أسابيع حتى أخذ هذا الاستنزاف حجم الحرب الكاملة ، وصارت عناوين الصحف فى مصر والعالم تحمل يوميا أنباء القتال الدائر على ضفتى القناة ..

وقد كانت بعض العمليات فى البداية تنسب إلى «منظمة سيناء العربية» التى كانت تقوم بعمليات داخل سيناء .

فى ٤ ابريل ١٩٦٩ مثلا :

«أعلنت منظمة سيناء العربية مسئوليتها عن ثلاث عمليات

جريئة قام بها فدائيوها فى سيناء وهذه العمليات هى :

أولا – نسف محطة وقود بمنطقة أبو رديس العسكرية وقد أحدث الانفجار حريقا كبيرا كما أحدث ذعرا بين الاسرائيليين ، نظرا لقرب المحطة من مكتب الحاكم العسكرى ووجودها فى قلب مدينة أبو رديس .

ثانيا – نسف ثلاث عربات عسكرية اسرائيلية مما نتج عنه مقتل واصابة عدد كبير من الجنود الذين كانوا فيها ، وقد استخدم العدو الهيلوكوبتر فى نقل قتلاه وجرحاه .

ثالثا – قامت مجموعة من فدائى المنظمة بقصف منطقة شئون ادارية للعدو بالصواريخ الثقيلة . وتقع هذه المنطقة شرق «كرمة سلام» على بعد عشرة كيلو مترات شرقى الدفرسوار .

وفى نفس اليوم نشبت معركة عنيفة بالمدافع الثقيلة بدأت كما قال البلاغ العسكرى «فى الساعة العاشرة والنصف صباحاً» وقال المتحدث الاسرائيلى أن المدفعية المصرية ركزت نيرانها على القوات الاسرائيلية الموزعة فى منطقة متلا .

ويوم ٩ ابريل اذاعت رويتر من تل أبيب أن متحدثا عسكريا اسرائيليا أعلن عن نشوب قتال من أعنف ما رأته الجبهة منذ ٥ يونيو . وقال أن المصريين فتحوا نيرانهم فى الساعة الثامنة

والنصف صباحاً فى منطقة بور توفيق بالجزء الجنوبى من قناة السويس وبعد حوالى ١٥ دقيقة امتدت نيران المدفعية المصرية شمالا حتى البحيرات المرة . وأضافت اليونايتدبريس أن هذا هو ثانى قتال بالمدفعية عبر القنال خلال ٤ أيام وأنه فى أعقاب عدة معارك فى الشهر الماضى أطلق فيه الجانبان ما يزيد على ٤٠,٠٠٠ قذيفة من مدافع الميدان والهاون .

وفى الساعة ١٢ أعلن متحدث باسم الجيش الاسرائيلى فى تل أبيب أنه فى الساعة العاشرة تقريبا اقترح مراقبو الامم المتحدة وقف اطلاق النار فكفت القوات الاسرائيلية عن اطلاق النيران ولكن نيران المدفعية المصرية استمرت . ونظرا لأن المصريين لم يوقفوا اطلاق النار فقد استأنفت القوات الاسرائيلية اطلاق النيران فى الساعة العاشرة والثلث تقريبا . وفى الساعة الواحدة والربع قالت اليونايتدبريس من القدس : أن مراقبى الامم المتحدة فشلوا حتى الآن فى ايقاف القتال ... وقالت أن ستار النيران هو استمرار فيما يبدو للعمليات التى بدأت يوم ٨ مارس الماضى .

وفى اليوم التالى قالت الاهرام «تجدد القتال على طول خط المواجهة مع العدو فى منطقة القناة من السويس إلى القنطرة، بعد أربعين ساعة من توقف آخر عملية حربية فى المنطقة . وقد بدأ القتال من الجانبين بالأسلحة الثقيلة من أول لحظة واستعملت فيه

المدفعية البعيدة المدى والصواريخ وفى لحظات كانت الجبهة على امتداد ١٠٥ كيلو مترات مشتعلة فى معركة بالغة العنف ، تكبد العدو فيها خسائر كبيرة وأصيب فيها ٦٥ من جنوده وضباطه» ..

وفى اليوم التالى مباشرة اذيع أن القتال تجدد بصورة أكثر عنفا ، وقالت وكالات الأنباء من القدس «أن معركة المدفعية الثقيلة فى جبهة قناة السويس أمس كانت من أعنف معارك الجبهة . وأن المدفعية المصرية ظلت تهدر بعنف عبر القناة وتقول الأنباء التى تلقتها دوائر المراسلين الأجانب فى القدس أن عددا من قوات القطاعات الاسرائيلية فى سيناء قد أصيبوا بجراح أثناء الضرب . وأضافت هذه الأنباء أن هؤلاء الضباط الكبار كانوا مجتمعين فى أحد المواقع فى الخطوط الأمامية ساعة بدء القتال ثم فاجأتهم دفعات قوية ومركزة من نيران المدفعية المصرية» .

وبعد يوم ١١ أبريل ٦٩ أصدر الجيش الاسرائيلى بيانا أعلن فيه أن واحدة من الكوماندوز تسللت من الضفة الغربية لقناة السويس وهاجمت معسكرا اسرائيليا فى شمال سيناء بقذائف البازوكا ووصفت وكالة الاسوشيتدبريس العملية بأن الكوماندوز المصريين قد «انزلقوا» عبر المستنقعات المالحة والمعروفة باسم «ملاحات بور فؤاد» ربما بواسطة الزوارق وأن هذه أول مرة تتعرض فيها قوات اسرائيل شمال سيناء للهجوم ، هذا فى نفس

الوقت الذى تجدد فيه القتال للمرة الثالثة فى ثالث يوم على التوالى فى منطقة طومسون والاسماعيلية .

واستمر القتال على هذا النحو حتى أمكن الجانب المصرى أن يعلن أنه تم تدمير جزء كبير من تحصينات العدو «فى خطه التكتيكى الأول» .

وبعد أيام اتسع القتال وبدأ العدو يشترك فى المعركة بأعداد متزايدة من طيرانه ، وشمل الجبهة كلها من السويس إلى بورسعيد وبدأت طائرات العدو تركز هجماتها على قواتنا على طول الجبهة وتسقط قواتنا عدد من طائرات العدو ...

وجاء يوم أربعين الشهيد عبد المنعم رياض - ١٧ أبريل - والمتحدث العسكرى المصرى يقول بأن «اشتباكا بالمدفعية والدبابات وأسلحة الضرب المباشر بدأ فى الساعة العاشرة على طول خط المواجهة من السويس إلى البحيرات المرة وقد تم فى هذا الاشتباك تدمير معظم مواقع العدو الحصينة ومواقع صواريخه ومدفعيته كما تم تدمير جميع العربات التى كانت تحاول الوصول إلى مواقع العدو» .

وفى ٢٠ أبريل بدأ القتال المصرى يتخذ بعدا جديدا : فبعد عمليات التدمير بالمدفعية وتسلل قوات الكوماندوز ، بدأت عمليات عبور لقوات مصرية لتؤدى مهمات جديدة .

«قالت الاهرام يوم ٢١ أبريل :

«شهدت جبهة القتال عملية عسكرية من نوع جديد ، عبرت فيها وحدة من القوات المصرية الخاصة قناة السويس واقتحمت أحد المواقع الحصينة للعدو واشتبكت مع أفراده فى قتال مباشر . وقد سيطرت القوة المصرية على هذا الموقع سيطرة كاملة لمدة ساعتين ولم تتركه إلا بعد أن نسفته وقتلت وأصابت كل من فيه من الضباط والجنود . وقد عادت القوة سالمة إلى الخطوط المصرية وراء القناة ومعها علم الموقع وبعض الأسلحة الاسرائيلية الخفيفة» وقد ذكر البلاغ المصرى الرسمى فوق ذلك أن القوة اشـــتبكت أثناء ذلك مع مـجـموعــــة من دبابات العدو حاولت أن تتدخل فى الموقع ونجحت قواتنا فى تدمير إحدى الدبابات» .

كانت هذه نقطة تحول أخرى فى حرب الاستنزاف . وكانت أول مرة تنشر الصحف صور اسلحة وأعلام اسرائيلية حملها جنودنا من الضفة الشرقية بعد قتال ..

وشعرت اسرائيل بأن هذه المعركة قد تكون بداية مرحلة جديدة فى حرب الاستنزاف فقدم مندوبها فى الأمم المتحدة شكوى رسمية إلى مجلس الأمن فى اليوم التالى لهذه العملية طالبا من مجلس الأمن الزام مصر باحترام وقف اطلاق النار .

وفى نفس اليوم نقلت وكالة الأنباء الفرنسية صورة من داخل اسرائيل : «.. صرحت المصادر العسكرية المطلعة بأن الغارات التى بدأت تشنها القوات المصرية على القوات الاسرائيلية عبر قناة السويس، قد تدفع اسرائيل إلى عمل مضاد قوى تستعيد به عنصر المبادرة . ويعتبر المسئولون الاسرائيليون الهجمات المصرية التى اتخذت أسلوبا جديدا عبر خطوط وقف اطلاق النار اكثر من مجرد انتهاك لاتفاق وقف اطلاق النار . ومضت هذه المصادر تقول أن المصريين لم يحاولوا حتى التستر على انتهاكاتهم لخطوط وقف اطلاق النار فى بياناتهم واذاعاتهم، ومع أن هذه المصادر لم تشر إلى الشكل الذى قد تتخذه أية محاولة قد تقوم بها اسرائيل لاستعادة عنصر المبادرة فى منطقة القناة، إلا أن المراقبين اعتبروا الهجوم الجوى الاسرائيلى على محطة الرادار المصرية فى الأردن جزءا من هذا الاتجاه» .

ومن القدس كتب فى نفس اليوم جيمس فيرون مراسل جريدة نيويورك تايمز «احتفلت اسرائيل بذكرى مرور ٢١ عاماً على انشائها . وقد بدأت هذه الاحتفالات مساء بالرقص والغناء ثم سيطرت عليها حالة التوتر والوجوم التى تسود البلاد . وكانت اسرائيل عندما احتفلت بهذه المناسبة ذاتها هى العام الماضى ، على غير هذه الحال . إذ كان يسودها شعور البهجة والانشراح .

أما هذا العام فإن شعورا بخيبة الأمل قد خيم على الاحتفالات . وكان الناس الذين خرجوا للاحتفال يتجمعون حول أجهزة الراديو للاستماع إلى أنباء خطوط القتال وما يذاع عن عدد القتلى والجرحى ، وهو عدد يتزايد يوما بعد يوم مما يجعل لهذه الخسائر وقعا شديدا بين الناس . وهناك إلى جانب الخسائر فى الجنود مبعث آخر للقلق يتمثل فى الموقف بالنسبة للأمن عند خطوط وقف القتال ، فهو موقف يتفاقم بصورة مستمرة من حيث عدد الحوادث وعنفها . ويقرأ الاسرائيليون كل يوم عن الغارات التى تشنها القوات المصرية عبر قناة السويس . والرأى السائد أن المصريين قد أصبحوا قادرين على أن يعبروا القناة دون أن يتعرضوا لما كان العسكريون يصفونه «بالعقاب» فى منطقة تحتلها القوات الاسرائيلية» .

وكان الرد الاسرائيلى هو أن يمتد الضرب الجوى المستمر من الجبهة إلى داخل العمق المصرى ، ولكن عدم وصول هذا الضرب فى العمق المصرى إلى تحقيق أى نتيجة فى المعنوية المصرية أو فى استمرار القتال وتصاعد عمليات العبور على القناة جعلت مراسل الاسوشيتدبريس فى اسرائيل يكتب يوم ٥ مايو ٦٨ بعد أن فقدت العمليات الاسرائيلية الانتقامية فعاليتها - مثل الهجوم على منطقة نجع حمادى - وأصبح المصريون لا يبالون بها

ويمضون في طريقهم التي رسموها لأنفسهم ، بدأت اسرائيل تتحدث عن الحرب . إن الذين كانوا منذ شهور يعتبرون أن نشوب حرب جديدة هو وهم وخيال أصبحوا يتحدثون عن هذا الاحتمال الآن جديا . وقد قال مصدر اسرائيلي مسئول : أن المصريين وصلوا إلى نقطة يجدون معها أن مجرد الثأر لا يفيد ولا يفزع أحدا ولا يوقف شيئا ، واعتقد أن حربا كبيرة ستقع من جديد» .

وفي ١٣ مايو ألقى موشي ديان خطابا هاما قال فيه «إن مشكلتنا الأولى الآن بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة الحرجة هي أن نحصن أنفسنا على طول خط القناة وأن نصمد في مواجهة عمليات الانهاك والاستنزاف المستمرة . ولكن ينبغي علينا أن نتساءل : هل في وسعنا الاستمرار في الصمود تحت ضغط الخسائر اليومية ؟».

أن هذا وصف موجز للثلاثة شهور الأولى لحرب الاستنزاف . وبعدها بدأت عمليات العبور ونسف تحصينات خط بارليف الأول من الداخل تصبح أحيانا يومية .. تلك الحرب التي استمرت بعد ذلك خمسة عشر شهرا أخرى تصاعدت فيها جهود العدو لردعنا في صورة قصف جوي امتد إلى المدن والقرى وضواحي القاهرة بالإضافة إلى القصف الجوي المركز على مواقع قواتنا غرب القناة احيانا ٢٤ ساعة متوالية كل يوم :

ووصلت عمليات عبورنا إلى العبور بقوات كبيرة فى وضح النهار وتدمير المزيد من خط بارليف حتى أعلنت مصر أن أكثر من ٦٠٪ منه قد تم تدميره فعلا ...

ووقعت معارك لسان بور توفيق والجزيرة الخضراء وشدوان ...

وقامت الضفادع البشرية المصرية بعمليتها الجريئة فى ميناء ايلات : حين اقتحمت مياه الميناء رغم الموانع والالغام البحرية وهاجمت ودمرت قطعا بحرية اسرائيلية ومنشآت كثيرة فى الميناء نفسه ...

ولعل أخطر صراع بين الارادتين كان يدور حول تصميم مصر على اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات وبين تصميم العدو على منع ذلك بأى ثمن مستخدما سلاحه الجوى ليل نهار ...

وفى هذه المعركة اشترك الجنود والضباط والمهندسون والقطاعات المدنية مع العسكرية والعمال وأهالى القرى رجالا ونساءواطفالا ...

كانوا مصممين على اقامة هذه الشبكة مهما كانت الخسائر فى الأرواح ، وتلك وحدها قصة تحتاج إلى كتاب بمفرده ...

وكان النصر لارادتنا . وشعر العدو بذلك حين بدأت الصواريخ تعمل: وكان أكثر الأيام فى تلك الفترة سوادا فى تاريخ الطيران

الاسرائيلى يوم ٣٠ يونيو حين أسقط دفاعنا الجوى أربع طائرات للعدو فى يوم واحد : طائرتان فانتوم وطائرتان سكاى هوك ، وسقط ثلاثة من طيارى العدو أسرى فى أيدينا .. ثم لم تلبث أن تصاعدت خسائر اسرائيل إلى إحدى عشرة طائرة فى اسبوع من واحد إلى ٧ يوليه ١٩٧٠) .

ولم تعد الفانتوم ذلك الشبح المخيف ، أو تلك الطائرة التى قالت عنها جيروزاليم بوست الاسرائيلية «أنها طائرة محصنة ضد أحدث أجهزة الدفاع الأرضية» .

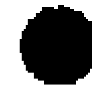
وكان سقوط الطائرات الاسرائيلية بهذا المعدل من أهم مراحل حرب الاستنزاف .. وصفتها اسرائيل «بأنها خلقت موقفا جديدا تماما» وقالت وكالات الانباء أن تل أبيب تلح على واشنطن من أجل الحصول على شحنات عاجلة من الفانتوم والسكاى هوك لأنه لابد أن يكون لديهم احتياطى من الطائرات يسمح لهم بالمخاطرة بعدد كاف منها فى الغارات على الخطوط المصرية .

وقال مصدر اسرائيلى مسئول : «إذا استمر تساقط الطيران الاسرائيلى على الجبهة المصرية بالمستوى الذى حدث خلال الأيام القليلة الماضية فإن اسرائيل قد تطلب اسهاما امريكيا «أكثر نشاطا» .

وعقد الجنرال بارليف يوم ٧ يوليو مؤتمرا صحفيا فى القدس اعترف فيه بأن بطاريات صواريخ سام ٢ أرض جو فى الجبهة يعمل عليها المصريون وحدهم ، ونشر رئيس الأركان الاسرائيلى على الصحفيين خريطة لمنطقة القناة حدد فيها ١٢ موقعا باللون الأحمر قال أنها لبطاريات صواريخ سام ٢ ، وقال أن هدف المصريين من إنشاء هذه الشبكة الجديدة هو تدمير التفوق الاسرائيلى الجوى فى الجبهة وبالتالى تمكين القوات المصرية من البدء بعمليات هجومية .

واعلنت امريكا عن تعويضها لكل طائرات اسرائيل التى تتساقط.

وقد ظلت تتساقط أمام دفاعنا الجوى ، ثم أمام طيراننا ، حتى أعلن قبول مبادرة روجرز ووقف اطلاق النار .



إن هذا لم يكن محاولة لحصر كل العمليات العسكرية التى قام بها الطرفان خلال حرب الاستنزاف ، كما أن الكثير مازالت تحتفظ به القيادات لنفسها ، إلا أننا ونحن نحاول فى هذا الكتاب أن نضع الأحداث فى اطارها التاريخى لابد أن نتساءل ماذا حققت حرب الاستنزاف من وجهة نظر الطرفين ، قبل أن يتوقف اطلاق النار مرة أخرى فى ٧ أغسطس ١٩٧٠ .

وفى تقديرى أن التحليل الموضوعى يكشف أن حرب الاستنزاف حققت من الأهداف التى توخاها الجانب المصرى أكثر مما حققت من أهداف الجانب الاسرائيلى ...

إن الذين قاسوا حرب الاستنزاف بأنها لم تؤد إلى جلاء اسرائيل عن سيناء ، وبالتالى حكموا عليها بأنها لم تحقق غرضها، إنما أصدروا حكمهم هذا فى الواقع بناء على هدف لم يكن من أهدافها لأن معركة دفاعية محضة وعلى جبهة واحدة لا تخرج عدوا مثل اسرائيل من مواقعه ، خصوصا وأنها لا تطلب شروطا أقل من الاستيلاء على الأراضى بكاملها أو معظمها فى أقل تقدير.

« .. ولكن مصر نجحت من حيث أنها جسدت قوتها الحربية الجديدة فى أعز صورها ، واعطت العالم والعدو صورة عن قوتها الحربية النامية جعلت أمريكا تتحرك إلى محاولة تدارك الموقف بطرح مشروع روجرز وجعلت مصر تقبل وقف اطلاق النار من مركز قوة لا من مركز ضعف (١) » .

«ففى سنة ١٩٧١ كانت تدور مناقشة حادة فى اسرائيل حول

---

(١) دراسة أحمد سامح الخالدى عن حرب الاستنزاف فى Journal of Palestine Studies

هذا الموضوع ، إذ أعلن الجنرال ما تيتياهو بيليد (الذى كان فى هيئة أركان الحرب الاسرائيلية فى حرب يونيو) علنا فى الصحافة العبرية أن سياسة الجنرال ديان قد أدت إلى هزيمة اسرائيلية فى حرب الاستنزاف وقد سجل زيف شيف محرر جريدة هاأرتز العسكرى آراء الجنرال بيليد كالآتى :

«من الوجهة العسكرية ، فشل الجيش الاسرائيلى فى حرب الاستنزاف ، وبالتالى فقد كانت هذه أول مرة يهزم فيها الجيش الاسرائيلى فى الميدان منذ قيام دولة اسرائيل لدرجة أننا فى اسرائيل أسرعنا إلى التشبث بأول قشة ألقيت الينا . وهى وقف اطلاق النار .. لماذا ؟ .

«واستطرد بيليد يعطى الأسباب التالية :

أولا - لأننا لم ننجح فى اسقاط النظام المصرى عن طريق الضرب بالطائرات فى العمق المصرى .

ثانيا - لأننا فقدنا سيطرتنا على الأجواء المصرية .

ثالثا - لأننا فشلنا فى منع الروس من زيادة التزامهم بتسليح مصر ومساعدتها فى الدفاع عن نفسها .

رابعا - لأننا فشلنا فى التوصل إلى ايقاف اطلاق نار نهائى

وحاسم «مشيرا بذلك إلى مضى مصر فى اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات بكثافة بعد وقف اطلاق النار» ..

ورد زيف شيف على بيليد قائلا أن اسرائيل لم تخسر حرب الاستنزاف بهذه الدرجة لأن الهدف لم يكن السيطرة على الأجواء المصرية بل الاحتفاظ بالمواقع الاسرائيلية على خط القناة وهذا ما تم ساعة وقف اطلاق النار .

ولكنه اعترف بفشل سياسة ضرب مصر جوا فى العمق «ذلك أننا قمنا بهذه الغارات دون تحديد واضح للهدف منها وبالتالى دون اطار محدد لدرجة ومدى هذا الضرب ، كما فشلنا فى أن نواكب الضرب الجوى بالعمل السيكولوجى اللازم» .

وقد صار الكثيرون يستشهدون بمقال زيف شيف فى مجال الدفاع عن سياسة القيادة الاسرائيلية (١) . لقد قال أن الهدف كان التمسك بخط القناة ولكنه مع ذلك اعتراف بأن اسرائيل أخطأت فى ضرب العمق المصرى دون خطة متكاملة واعترف بأنها أخطأت فى طريقة الهجوم التى اتبعتها ضد الصواريخ المصرية وبالتالى لم تدمرها ، وفى أنها لم تحدد شروط وقف اطلاق النار بدقة . ثم

---

(١) المرجع السابق .

قال أن المكسب الرئيسى من وقف اطلاق النار كان اختفاء قوائم القتلى الاسرائيليين من الصحف يوميا .

والواقع أن زيف شيف لم يرد تماما على ملاحظات الجنرال بليد . فهو كان يتجنب الرد المباشر حين فرق بين هدف السيطرة على الجو المصرى وهدف الاحتفاظ بخط القناة رغم أن الاثنين مرتبطان . ثم أنه اعترف بعدم وضع خطة محددة للضرب فى الأعماق وهذا غير صحيح فقد كان الهدف المحدد المعلن هو انهيار مصرى من الداخل عن طريق نقل الحرب إلى كل مصرى ، الأمر الذى لم يتحقق . ثم أنه يكشف نفسه حين يقول أن اسرائيل قبلت وقف اطلاق النار لأسباب أخرى ثم يسجل من هذه النتائج اختفاء قوائم القتلى الاسرائيليين من الصحف كل يوم» .

«ثم أن حرب الاستنزاف هى فى الدرجة الأولى حرب أعصاب . فهى ليست مواجهة شاملة تحشد لها كل الطاقات . وبالتالى ترتفع خلالها المشاعر إلى أقصى حد . لقد تعودت اسرائيل على أن تحقق نتائج سريعة وحاسمة فى كل حرب مع العرب . فلما واجهتها حرب من نوع آخر ظلت مستمرة يوما بعد يوم ، وكل بلاغ يسجل مكاسب وخسائر ولكن دون نتيجة واضحة ، كان الأثر التراكمى لهذا على الشعب الاسرائيلى واضحا ..» .

ولكننا إذا تركنا هذه المناقشات جانبا فإننا نسجل بالنسبة لآثار حرب الاستنزاف ما يلى :

أولا – لقد تم تدمير ما يقرب من ٦٠٪ من خط بارليف خلال هذه الحرب ورغم أن الوقت قد اتسع أمام اسرائيل بعد ذلك لإعادة بنائه وتدعيمه ، إلا أن التجربة التى استفادتها القوات المصرية فى العبور والالتحام بالعدو ، لا تقدر بثمن ، بالنسبة لروح القوات ذاتها وبالنسبة للخطط التى تم وضعها بعد ذلك فى صمت لمهاجمة الخط كله واحتلاله سنة ١٩٧٣ .

ثانيا – لقد كان لهذه الحرب دور كبير فى تطوير قواتنا المسلحة أكثر وأكثر ، وتدعيم ترابطها وعملها المشترك .. كما أنه رفع سمعتها لدى نفسها ولدى مواطنيها .

ثالثا – أن هدف اسرائيل من تدمير روح الشعب المصرى من الداخل لم يتحقق بل أثبتت الدراسات عكسه تماما . وتأكدت قدرة الشعب المصرى على الاحتمال مع قواته المسلحة .

رابعا – إن الهدف العسكرى المباشر هو تدمير شبكة الصواريخ أو خلخلة مواقعنا الدفاعية والهجومية معا ، لم يتحقق بدليل أن صواريخنا اسقطت أربع طائرات فانتوم فى آخر يومين قبل وقف اطلاق النار ، وأن قواتنا استمرت فى اقامة شبكة

الصواريخ وتكثيفها بعد وقف اطلاق النار دون خشية من استئناف الغارات الاسرائيلية التى لو أنها وجدت الأمر فى مصلحتها لاستمرت فيه .

خامسا - أن كل استفتاءات الرأى العام على مر السنين منذ سنة ١٩٦٧ كانت تثبت أن الصقور فى اسرائيل تزداد قوتهم حين تسكن الجبهات العربية ويصبح الاحتلال زهيد الثمن . فى حين كان دعاة الاعتدال يجدون تحولا واضحا نحوهم من الرأى العام الاسرائيلى حين يبدأ الاسرائيليون فى الاحساس بوطأة القتال وفداحة الثمن الذى يدفعونه من أفرادهم .

ولم ترتفع الأصوات بين ٦٧ وأكتوبر ٧٣ مطالبة بالبحث عن حل ، مثلما ارتفعت خلال حرب الاستنزاف .

ففى خلال حرب الاستنزاف كتبت جريدة دافار بعنوان «متى تأتى النهاية» تقول : «من الحماقة أن نضحى بالروح المعنوية العامة فى سبيل تكتيكات سياسية . فالى متى نستمر فى التمسك بأهداف لن تتحقق فى زمن بعيد ؟ لقد قال ديان أنه إذا استمرت حرب الاستنزاف فستضطر اسرائيل إلى انهائها عن طريق تحويلها إلى حرب شاملة ، أليس الأحسن من ذلك بالنسبة لاسرائيل أن تعلن أنها مستعدة للتفاوض مع الفلسطينيين أنفسهم مباشرة ؟ ..

وكتب الجنرال عوزى ناركيس ، حاكم الضفة الغربية يقول :

«إن التغير فى اتجاه بندول معنوياتنا هو ولا شك أكبر كارثة حلت بنا منذ الأيام الستة . ولكن ليس هذا أخطر ما فى الأمر . فقد بدأ الناس يتهامسون متسائلين عما إذا كان لدينا من القوة الكافية ما يمكننا من هزيمة العدو فى مواجهة أخرى . لقد وصل كثير من الناس إلى درجة صاروا فيها محتاجين إلى جرعات تقوى معنوياتهم وتحميها من انهيار مفاجىء فى ثقتها فى قواتنا المسلحة» .

وكتب يورى أفنيرى قائلا أن خسائر اسرائيل بلغت أقصى درجاتها منذ الحرب .. وهاجم سياسة اسرائيل القائمة على أساس «لا سلام» لمجرد التهرب من مواجهة مشاكل داخلية قد يجلبها عليها مثل هذا السلام «إلى أين يقودنا كل هذا ؟ إن السؤال مشروع . فلا يوجد شعب يمكن أن يعيش فى حالة حرب مستمرة لا تنتهى . إن مثل هذه الحالة هى التى دمرت دولة الصليبيين من الداخل وهم مازالوا يحاربون بالدرع والسيف» ..

وبعض المعلقين قالوا أن مشروع روجرز وما تلاه من وقف اطلاق النار قد انقذهم «فلنقبل وقف اطلاق النار ساد شعور بأنه لا يوجد أى مخرج وبدأ كثيرون يقولون «اذا كنا سنضطر للقبول فلنقبل الآن قبل أن يرتفع الثمن من الخسائر والأرواح» .

ونشرت دافار مقالا بعنوان «لقد قاسينا من حرب الاستنزاف» قالت فيه «من الخطأ أن ندفن رءوسنا فى الرمال ولا نعترف بقسوة ما تحملناه ، وان كان هذا لم يظهر على سطح حياتنا . ان خسائرنا عالية جدا اذا قيست بنسبة عدد السكان الى خسائر أمريكا فى الحرب العالمية . أو حرب كوريا . أو حرب فيتنام» ..

٦ أكتوبر ١٩٧٣

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ ، كان يوم الذكرى الثالثة لوفاة جمال عبد الناصر ، وكعادته ، وجه الرئيس انور السادات حديثا الى الأمة . وقد تحدث عن امور سياسية كثيرة داخلية وخارجية ولكنه ربما لأول مرة لم يتحدث عن الحرب . ففى ختام مقتضب لحديثه قال «أيها الأخوة والأخوات ، لعلكم لا حظتم أن هناك موضوعا لم أتعرض له . ولكننا نعرف هدفنا ونحن مصممون على تحقيقه . لن ندخر فى هذا السبيل جهدا أو نبخل بتضحية ولن أتحدث اليوم عن هذا طويلا . ولكننى فقط أقول ان تحرير الأرض كما قلت مرارا هو المهمة الأولى التى تواجهنا وسوف نحقق هذا الهدف بإذن الله. إنها ارادة هذا الشعب . بل انها ارادة الله» .

ولم يعرف أحد وقتها أن أنور السادات كان قد أعطى أمر المعركة بالفعل . وأن الأداة الحربية الضخمة التى تستعد منذ سنوات قد وصلت فى استعداداتها الى الذروة ، وأن الهجوم الكبير سيبدأ بعد أسبوع ..

هل يمكن حقا أن تكون اسرائيل قد أخذت على غرة ، بمخابراتها التى جعلتها أسطورة لا تدب دابة على الأرض العربية الا بمعرفتها ، وبالمخابرات الأمريكية التى لا تكف عن مراقبة المنطقة وتبادل المعلومات معها .. ؟

ان قضية «المفاجأة » من أول واكبر القضايا التى تثيرها حرب أكتوبر ١٩٧٣ : هل كانت هناك حقا مفاجأة ؟ وما هو مدى هذه المفاجأة؟

بالتأكيد كانت هناك مفاجأة . ولكن إلى أى حد كانت هذه المفاجأة ؟ هل لم يعرف الاسرائيليون بالهجوم - مثلا - إلا ساعة اطلاق الطلقة الأولى ؟ أم أنهم عرفوا قبل ذلك بأيام ؟

وأهمية هذه الوقفة الأولى عند أول قضايا المعركة وهى عنصر المفاجأة، هام ، لسبب أراه جوهريا .

فالحرب الإعلامية الإسرائيلية بعد أن أفاقت من صدمة أكتوبر، تحاول أن تعيد بناء الأسطورة من جديد وذلك بالتقليل من أسباب الانتصار المصرى وتصويره وكأنه نوع من «المصادفات البحتة» .

وهم فى هذا يستندون إلى محورين أساسيين :

الدعوى الأولى أنه لولا المفاجأة وحدها لما حدث ما حدث .

والدعوى الثانية : أنه لولا وقف اطلاق النار لأجهزوا على
القوات العربية كما فعلوا فى حروب سابقة ـ وسيأتى أوان هذ
القضية فيما بعد .

وعندما نتأمل عنصر المفاجأة الذى نجحت فى توفيره القياد
المصرية، نجد أنه كان ناجحا بغير شك. ولكن مبالغة الاسرائيليي
فيه أمر آخر.

إن المفاجأة عنصر من عناصر أى حرب . وخصوصا فى أ
هجوم. حتى فى غمار حرب مستمرة، تنطوى أى مبادرة هجومي
على قدر من التضليل والخداع والمفاجأة ..

وفى حالتنا كان توفير عنصر المفاجأة أمرا صعبا ..

فنحن بلاد محتلة والمنطق يقول أنه من التصلب الإسرائيلي
لابد من نشوب القتال ذات يوم .

وفى نفس الوقت كان هذا القتال لتحرير الأراضى المحتلة ه
الهدف المعلن للدولة والذى يردده رئيس الجمهورية نفسه فى ك
خطاب هام. وليس كمفاجأة ١٩٦٧ مثلا، أو ١٩٥٦ ، حين نشبت
الحرب دون أى مقدمات وبناء على خداع طويل .

ومع ذلك فقد تمكنت القوات المصرية من تحقيق المفاجأة ..

قال الفريق أول أحمد إسماعيل على قائد عام القوات المسلحة المصرية (١) :

– فى كل حرب هناك خطة العمليات وهناك خطة الخداع أعتقد أننا نجحنا ، فلقد وضعنا خطة الخداع على المستوى التعبوى والاستراتيجى ووضعت لها جداول وتوقيتات سارت جنبا إلى جنب مع خطة العمليات وتوقيتاتها بجداولها .. ولقد وصلنا فى الكتمان إلى درجة أن يوم «ى» لم يكن معروفا بعد تحديده مبدئيا إلا لاثنين : الرئيس وأنا .

«وحتى عندما بدأنا العد التنازلى من يوم «ى» بالناقص وكان ذلك قبل شهر من بدء العملية «ى» ناقص ٣٠ ، «ى» ناقص ٢٩ ، «ى» ناقص ٢٨ وهكذا فإن السر ظل محصورا .

«وعندما بدأنا الحشد وأنا أعرف أن العدو يستطلع كل يوم لقد كنت أدفع إلى الميدان بلواء مثلا .. وأعود فى الليل بكتيبة ، لكى يشعر العدو أن القوات التى ذهبت كانت فى مهمة تدريبية أدتها وعادت منها .

ولقد أخرت إرسال معدات العبور إلى أقصى حد ممكن ، فقد كان مؤكدا أن خروج هذه المعدات من مخازنها كفيل بتنبيه العدو

(١) فى حديث مع محمد حسنين هيكل ، الأهرام ١٩٧٣/١١/١٨ .

إلى نوايانا، وقد صنعنا لبعض هذه المعدات صناديق خاصة لا يشعر أحد أن اللوارى الضخمة التي تحملها لوارى مهندسين ، ثم رتبنا لهذه المعدات حفرا على جانب القناة نزلت إليها فور وصولها ليلا .

«كانت الخطة خلال هذا كله بالطبع قد اكتملت إلى آخر التفاصيل ، بل إلى تفاصيل التفاصيل ، وكان ذلك طول الوقت بالتنسيق مع سوريا .

وقبل أيام قليلة من يوم «ى» كانت تفاصيل الخطة تنزل من قادة الجيوش إلى قادة الفرق ثم قادة الألوية ثم قادة الكتائب ..

« بعض الجنود من طلائع الهجوم عرفوا قبلها بثمان وأربعين ساعة وبعضهم عرفوا يومها في الصباح» ..

«ولقد تتذكر أننا تعمدنا تسريب بعض الأنباء لصرف الأنظار تماما عن نوايانا : أذعنا مثلا أن وزير دفاع رومانيا قادم فى زيارة لى يوم ٨ أكتوبر . وطلبنا منكم فى الأهرام مثلا نشر خبر بأننى فتحت الباب لقبول طلبات الضباط والجنود الراغبين فى أداء العمرة» .

والقيادة المصرية تحتفظ حتى الآن بكثير من أسرار عمليات الخداع، التى وصلت إلى ٦٥ بندا للخداع فى المعركة ، ووصلت

هذه البنود إلى أصغر التفاصيل حتى أن جنودا أمروا أن يسبحوا فى مياه القناة دون سلاح، الساعة الواحدة ظهرا ، أى قبل ساعة الصفر بساعة واحدة كما تعودوا أن يفعلوا فى بعض الأيام ، حتى يقل شعور العدو بالاستعداد .. وقد قام هؤلاء بذلك وهم يعرفون أن القتال سينشب بعد ساعة وأنهم فى وضعهم هذا قد يكونون من أول الضحايا ..

وفى هذا الجزء الذى ينصب على ردود فعل اسرائيل قبيل المعركة، وشكوكها ومدى معرفتها سأرجع أساسا إلى الصحف الأجنبية، والكتاب الذين كانوا فى الجانب الاسرائيلى ، وما ظهر بعد الحرب من حقائق ..

أنه يمكن القول بأن إسرائيل قد ضللت نفسها استراتيچيا ، حين اقنعت نفسها بأسطورتها التى لا تقهر ، وأقنعت نفسها بأن العرب قد اقتنعوا بهذه الأسطورة ، وبالتالى فانهم لن يحاربوا .

ومن هذا المنطلق النفسى لم تر إسرائيل فى التحركات السياسية العربية للرئيس السادات طوال السنة التى سبقت الهجوم شيئا جديدا أو لم تشأ أن ترى فيها شيئا جديدا ..

تقول جريدة الصنداى تايمز فى تحقيق شامل لها عن الحرب كان أول أسباب هذا العمى الإسرائيلى عمليا ، فخلال السنوات

السابقة كانت المخابرات الإسرائيلية مشغولة إلى أقصى د
بمطاردة المقاومة الفلسطينية ، خصوصا في الخارج . ولما كا
الطاقة الإسرائيلية البشرية محدودة فقد اضطرت إسرائيل إلى ا
تسحب كثيرا من عملائها في البلاد العربية - خصوصا سو
ومصر - وكانت النتيجة كما وصفها دبلوماسى انجليزى بعد ذ
غلطة تقليدية للمخابرات - حتى تعرف « قدرات» العدو ولكن تد
عن إدراك نواياه » .

«هذا الانشغال الشديد بمطاردة الفلسطينيين قاد إسرائيل إ
الغلطة الثانية : عجزها عن إدراك أن العرب يمكن أن يخوض
حرب العصابات وحربا تقليدية عسكرية في وقت واحد . فقد
الجنرال ديان وزير الدفاع ، وكل رؤساء أركان الحرب المتوا
يرددون اقتناعهم بأن العرب يمكن أن يمارسوا حرب العصاب
ولكنهم لايجسرون على مقابلة الإسرائيليين فى معركة حربية و
لوجه . وهكذا عجزت إسرائيل عن معرفة أخبار تصاعد الاستعد
العربى العسكرى» .

ولعل السبب الأول - سحب المخابرات الإسرائيلية عملاءها
منطقة إلى منطقة - هو العذر الذى تقوله المخابرات الإسرائيلي
اليوم لرؤسائها ولكنه سبب واضح الهزال والسخف . ولكن السب

الثاني هو الذى ساهم فعلا فى تضليلها استراتيجيا ، وهو ثقتها الى مناعتها المطلقة وفى عجز العرب المطلق .

هكذا لم تفهم إسرائيل اتصالات الرئيس أنور السادات المتوالية بأطراف عربية كثيرة ، ولم تفهم إسرائيل تنويع العرب لمصادر تسلحهم، ومحاولاتهم الحصول فى السوق العالمى على بعض ما ينقصهم ، ولم تفهم مظاهر التنسيق العسكرى الواضح بين سوريا ومصر بالذات ، والزيارات العسكرية المتبادلة على أعلى المستويات، ثم لم تفهم محاولة اصلاح الموقف بين سوريا ومصر من جهة والأردن من جهة أخرى قبل الحرب بشهور قليلة ..

ونعود إلى الصنداى تايمز لنجد أنها تنقل عن الجانب الإسرائيلى أنه توقع حدوث الحرب أكثر من مرة قبل أكتوبر ١٩٧٢ ولكن توقعاتهم لم تصح . ففى ٢ مايو اشتعل قتال حاد بين المقاومة الفلسطينية وقوات الجيش اللبنانى فى بيروت . وكان عملا اسرائيليا هو الذى فجر الصدام ففى ١٠ أبريل دخلت قوات من الكوماندوز الإسرائيلية فى ثياب مدنية إلى قلب بيروت ، واغتالت ثلاثة من أبرز زعماء المقاومة الفلسطينية فى بيتهم (الشهداء كمال ناصر ويوسف النجار وكمال عدوان) . وسقطت الحكومة اللبنانية وانفجرت الاشتباكات التى دامت تسعة أيام فيما يشبه الحرب الأهلية الصغيرة .

«وتوقعت المخابرات الإسرائيلية أن يمتد الاشتباك إلى خارج لبنان ، وخوفا من خطابات السادات التى كانت تهدد بالحرب خافت إسرائيل أن تكون سوريا على وشك القيام بتدخل عسكرى لصالح الفدائيين. ومثل هذا لو حدث كان سيجر إلى مضاعفات لابد أن تصل إلى إسرائيل. وكانت فى سوريا حالة استعداد عسكرى ، وأعلنت حالة الطوارئ بين القوات الإسرائيلية التى بدأت تقوم بمناورات ظاهرة فوق مرتفعات الجولان » .

«كان هذا انذارا كاذبا ، ولكنه يلقى الضوء على المشاكل التى أربكت إسرائيل بعد أربعة شهور ، ذلك أن الانذار الذى أعلن فى مايو ، كما قال الجنرال دافيد العازار رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى، كان بناء على معلومات عن استعدادات عربية للحرب أكثر اقناعا من الظواهر التى لاحظها الإسرائيليون بعد ذلك بشهور ، ويومها كلفت حالة التعبئة الجزئية (فى مايو) إسرائيل ما يقرب من خمسة ملايين جنيه استرلينى، الأمر الذى لا تتحمله الخزانة الإسرائيلية مرة كل انذار، والذى كان أحد أسباب التردد حين جاءت بعض النذر فيما بعد».

«وقد كان شهر مايو شهراً حرجاً كذلك بالنسبة لحارسة إسرائيل النهائية ، أمريكا ، والمخابرات الأمريكية تشمل عدة أجهزة مستقلة ، أعمالها تتداخل أحيانا وتقع بينها منازعات

كثيرة، وإن كانت أشهرها هى الـ CIA أو إدارة المخابرات المركزية ، وأصغر هذه الأجهزة هو مكتب المخابرات والأبحاث التابع لوزارة الخارجية الأمريكية : الذى له اتصال مباشر بسائر أجهزة المخابرات دون أن يكون له عملاؤه الذين يعملون لحسابه مباشرة ، وبالتالي فمهمة هذا المكتب هى تحليل المعلومات التى يتلقاها من سائر الأجهزة » .

«وحين راجع هذا المكتب أزمة مايو، والنذر الخاصة بتسارع استراتيچية أنور السادات وجد المكتب أنه من المتوقع فعلا أن تقع الحرب ولكن في الخريف ، وأطلع وقتها جهاز المخابرات المركزية على هذا التقدير فوافق عليه ولكنه لم يوافق على تحديد موعد بهذه الدقة .

«أحد هذه العناصر فى تقديرات الأجهزة الأمريكية كانت حقيقة تراكم الأسلحة بكميات كبيرة لدى العرب التى بدأوا يتلقونها من روسيا مجددا ، وكانت شحنات السفن الروسية من الدبابات الثقيلة ت - ٦٤ إلى مصر وسوريا لم تقلق إسرائيل كثيرا . ولكن فى ٣ مايو قام الرئيس حافظ الأسد برحلة لمدة ٢٤ ساعة إلى موسكو عاد منها بوعد من الاتحاد السوڤييتى باقامة شبكة صواريخ سام و ٤٠ طائرة ميج ٢١ .

«وبينما كانت سوريا تتسلح كانت المفاوضات لتحقيق استراتيجية مصرية وسورية موحدة تمضى فى طريقها ، وفى اجتماع فى دمشق تم يوم ١٢ يونيو ، اتفق الرئيس الأسد على خطة السادات فى الحرب .

«وفى يوم ١٠ سبتمبر اجتمع فى القاهرة الملك حسين والرئيس الأسد مع الرئيس السادات ، ولاشك أن أمورا كثيرة قد سويت فى هذا الاجتماع . وإن كان موعد الحرب قد ترك تقريره للرئيس السادات .

وتستطرد الصنداى تايمز فتقول « ولا أحد يعرف إذا كانت إسرائيل قد أرادت فى تلك اللحظة أن تثير حربا مع سوريا أم لا.

لقد رفض رئيس الأركان الإسرائيلى فيما بعد أن يعترف بأى نية من هذا النوع ، ولكن ما الذى كانت تفعله أربع مقاتلات إسرائيلية بتحليقها فوق الشواطئ السورية شمالا عند البحر الأبيض ؟ يقول بعض الإسرائيليين أنها دورية عادية ويقول آخرون أنها حيلة جربها الإسرائيليون من قبل ، على أى حال، فقد حققت الحيلة غرضها، فاستدرجت طائرات سورية إلى الاشتباك معها ، وما حدث بعد ذلك ، أيضا فيه قولان ، قول أن إسرائيل أسرعت بإرسال قوات جوية كبيرة وقول آخر أن القوة الجوية الكبيرة كانت

هناك في الجو فعلا – في فخ جوى . على أى حال فقد دارت معركة جوية سقطت فيها ثماني طائرات سورية .

وتقول الجريدة أن هذا الحادث كان القشة التى عجلت بقرار الحرب – ولكن الأرجح أنه عزز قناعة أنه لا مفر من القتال . ولكن قرار القتال نفسه أو تحديد موعده لايمكن أن يحدد بناء على هذا التحرش الإسرائيلي وحده – مهما كان استفزازيا .

وحين بدأت المدرعات المصرية تتجمع فى الأسبوع الأخير من سبتمبر لم ينزعج كثير من الاسرائيليين ، فطوال السنوات العشر الماضية – باستثناء سنة ١٩٦٧ بالطبع – كان الجيش المصرى يجرى مناوراته فى نفس الموعد تقريبا ، صحيح أن هذه المناورات خلال السنوات الثلاث السابقة كانت تزداد قربا من القناة، وتتكرر عدة مرات فى السنة الواحدة ، ولكن القادة الاسرائيليين لم يهتموا بما رأوا – حتى بالتحصينات والمواقع الجديدة على حافة القناة إذ اعتقدوا أنها مجرد عمليات لشغل القوات .

« ولكن حوالى ٢٤ سبتمبر بدأت المخابرات الأمريكية قلقها من أن هذه أول مرة يجرى فيها المصريون مناورات بهذا الحجم، مستخدمين تشكيلات عسكرية فى مستوى الألوية والفرق . ثم أنهم كانوا يخزنون ذخيرة أكثر من المعتاد ، ويجمعون أكبر قدر من

المعدات المساعدة التى شوهدت حتى ذلك الوقت . وأكثر إثارة للقلق من ذلك أنهم كانوا يقيمون شبكات ميدانية للاتصال أكثر مما تحتاجه المناورات في العادة . وقد التقطت الاختبارات التى جرت لهذه الشبكات اللاسلكية بواسطة وكالة الأمن الوطنى فى أمريكا المختصة بالتجسس الالكترونى فى أنحاء العالم والتى تتسمع على الشرق الأوسط من محطة سرية جدا فى جنوب إيران وبمجرد أن التقطت أمريكا هذه الاشارات أرسلت تنبه اسرائيل ، وتقول مصادر المخابرات الأمريكية الآن إن إسرائيل فى الواقع قد سئلت فعلا وعلي أعلى المستويات عما إذا كانت لاترى فى هذا دلالة على قرب هجوم مصرى تتوقعه بعض الأجهزة الأمريكية منذ الربيع ولكن إسرائيل رفضت هذه المخاوف .

«وتماما كما توقع مخططو المعركة في مصر ، كانت إسرائيل مشغولة بأشياء أخرى، كان الساسة فى إسرائيل مشغولين بالانتخابات التى بدأت معركتها فعلا . وفوق ذلك كانت الحكومة ذاتها مشغولة بقضايا محلية وخارجية : فى نيويورك بدأت دورة جديدة للأمم المتحدة ، وكانت إسرائيل تشعر أن هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا الجديد يريد أن يبدأ فى محاولة التوصل إلى حل لمشكلة الشرق الأوسط ، أهم من ذلك أن جاذبية إسرائيل كانت تقل وتخبو حتى بين يهود العالم الخارجى، والهجرة اليهودية

من الدول الغربية صارت صفرا ، ولم يعد يصلها مهاجرون «بيض» إلا من الاتحاد السوفييتى ، بل أن حملات التبرع اليهودية السنوية بدأت تقصر عن الوصول إلى الأرقام المحددة لها .

«ويبدو أن التحركات السورية أيضا بدأت حوالى ٢٤ سبتمبر ، لم تكن هناك حركة كبيرة نحو الجبهة ، ولكن فى هدوء وبترتيب ، كانت الدبابات والمدفعية تتجمع حول خطوط الدفاع الثلاثة التى أقامها السوريون بين الجولان ودمشق ، وقد كان من أسباب هذا القلق والانتباه فى واشنطن ، ذلك التوافق الزمنى بين المناورات المصرية قرب القناة وما سمته المصادر الأمريكية «الطبيعة المريبة للحشود السورية فى نفس الوقت » .

«وبعد يومين كان موشى ديان أول من اعترف بقلقه ، ففى يوم ٢٦ سبتمبر قام وزير الدفاع بجولة تفتيشية على قواته فى الجولان فى جولته الروتينية قبل يوم السنة اليهودية الجديدة . وقد عاد يقول «على طول الجبهة مع سوريا ، هناك مئات من الدبابات والمدفعية السورية تقف على مرمى خطوطنا ، فضلا عن شبكة دفاع جوى كثيفة شبيهة بتلك التى أقامها المصريون عند قناة السويس » ..

كان ديان قد بلغ قلقه إلى درجة جعلته يقوم سرا بأمرين . ففى نفس اليوم أعلن حالة الطوارئ بين القوات الإسرائيلية على

الجبهتين ، وبعد أيام ، خلال أيام العطلة الثلاثة ، أمر بتقوية القوة المدرعة الإسرائيلية على الجولان بأن أضاف اليها اللواء السابع المدرع الذى يعد من خيرة القوات الإسرائيلية المدرعة ، وكان قد سبق سحبه إلى مركز تجمع القوات المدرعة جنوبا عند مدينة بئر سبع ، ولعل هذا كان من أهم قرارات الحرب. فلولا هذا اللواء المدرع السابع لخسرت إسرائيل الجولان كله فى الحرب ولكنه فعل هذا كله فى سرية تامة .

وحين تسربت أنباء هذه التحركات العسكرية بعد عطلة الأيام الثلاثة، قال الرسميون «أنها إجراءات عادية تتم فى فترات العطلة، ورفضوا منع السواح من الذهاب إلى الجولان » .

ولم يذكر أحد أنه فى يوم ٢٧ سبتمبر أى بعد زيارة ديان للجولان بيوم أطلق الأمريكيون من قاعدة فاندنبرج العسكرية فى كاليفورنيا أحد أقمار التجسس الصناعية من طراز «ساموس» فى مدار فوق الشرق الأوسط ، ولاشك أن السبب هو أن الأمريكيين شعروا أنه هناك فى المنطقة ما يستحق المراقبة واطلاق سفينة التجسس الفضائية خصيصا لهذا الغرض ،

وفى اليوم التالى كانت خطبة السادات يوم ٢٨ سبتمبر ..

ولكن اليوم الثالث، جاء باحداث جديدة : فقد هاجم بعض

الفلسطينيين الذين قالوا أنهم ينتمون إلى منظمة نسور الثورة الفلسطينية قطارا على الحدود النمساوية يحمل عددا من المهاجرين اليهود قادمين من موسكو فى طريقهم إلى إسرائيل ، وأخذوا خمسة يهود وموظف جمارك نمسوى كرهائن، وطالبوا النمسا بأن تغلق مركز تلقى المهاجرين اليهود فى فيينا المعروف باسم قلعة شوناو ، وقبل رئيس جمهورية النمسا اليهودى برونوكرايسكي الطلب وأطلق سراح الرهائن وقامت قيامة إسرائيل .

وليس من المبالغة القول أنه منذ ذلك اليوم حتى بدء الهجوم لم يكن لدى إسرائيل مصدر للهم والغيظ إلا هذا الحادث ، وقد غرقت فيه تماما الحكومة الإسرائيلية ورؤساء مخابراتها ، وكان ذلك غريبا ، ففى نفس هذا اليوم، ٣٠ سبتمبر بدأ وزير خارجية أمريكا نفسه هنرى كيسنجر يقلق من التقارير عن الاستعدادات العربية . ولكن المخابرات الأمريكية كانت قد تعودت أن تستمع آخر الأمر إلى تقديرات المخابرات الإسرائيلية فى هذه الأمور .

قال كيسنجر فيما بعد «لقد سألنا مخابراتنا كما سألنا المخابرات الإسرائيلية ثلاث مرات منفصلة خلال الأسبوع الذى سبق نشوب القتال غن تقديرهم للموقف وما قد يحدث وكان ردهم

جميعا أنه لا يوجد أى احتمال قط لنشوب القتال» ولكن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك .

فمن الناحية الفنية كانت المعلومات ممتازة : فمن أجل تسجيل الاستعدادات المصرية يوجد لدى إسرائيل أجهزة استماع فى سيناء أمريكية الصنع ويديرها أمريكيون . وإذا كانت شبكة صواريخ سام قد عرقلت قدرة الطيران الاسرائيلى على التصوير الجوى، فان القمر الصناعي «ساموس» الأمريكى كان يقوم بسد الثغرة حتى نهاية سبتمبر وقد اعترف كيسنجر بأنه من حيث المعلومات فى حد ذاتها لم يكن هناك أى خطأ . ولكن معرفة المعلومات عادة أسهل من معرفة «النوايا» ، كان خطأ إسرائيل فى أن «يتوقعوا هذه الاستراتيجية العربية . وهناك من ينكرون ذلك ».

فقد قال الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلى السابق والذى سمى باسمه خط بارليف «لم يكن هناك نقص فيما يعلن بمعرفة نوايا العرب ولكن ضابط مخابرات إسرائيلى آخر قال «كل ما توصلنا إليه وتوقعناه هو أن العرب سيشنون الحرب ذات يوم قريب ، ولكننا أخذنا فى الموعد على غرة» .

وفى المعلومات الخاصة التى كان الإسرائيليون يعطونها للصحفيين الأجانب، طوال العشرة أيام السابقة على القتال كان

الزعماء السياسيون يؤكدون أن العرب غير مستعدين للمعركة وأن العرب «ربما يسيئون التقدير» ويشنون هجوما ، ولكنهم لو فعلوا فسوف يهزمون فورا، وقال زعيم إسرائيلى فى ثقة «إسرائيل ليست مهتمة بالحرب – ولذلك ليس على العرب أن يهتموا بذلك ».

ويبدو أن المخابرات الأمريكية وصلت رغم معلوماتها إلى نفس الاستنتاج، ففى يوم ٣٠ سبتمبر وبناء على طلب من هنرى كيسنجر أرسلت كل من المخابرات المركزية ومكتب مخابرات وزارة الخارجية تقديرا للموقف بعد هذه الحشود العربية واتفق الاثنان على أنه رغم كل شئ «فمن المشكوك فيه» أن يبدأ العرب بأى هجوم.

قال رجال المخابرات الأمريكيين «كانت غلطتنا أننا اعتمدنا تقدير الإسرائيليين فى النهاية ». ولكن المخابرات الأمريكية كانت عينها أيضا فى قبول هذا التقدير السياسى ، على ما يدور فى أمريكا ذاتها : وعلى الدورة الجديدة للأمم المتحدة فى نيويورك بالذات، وكان كيسنجر نفسه متأثرا فى حكمه بما يدور أمامه فى نيويورك .

فقد قابل كيسنجر وزراء خارجية الدول العربية ووزير خارجية إسرائيل ، وأعلن للجميع من موقف الرجل الذى سيتسلم جائزة نوبل للسلام « أن أمريكا مستعدة للبدء فى عمل إيجابى لتحقيق

تسوية سلمية في الشرق الأوسط ، وكان الغداء الذى أقامه للوزراء العرب يوم ٢٥ سبتمبر خطوته الأولى فى هذا الاتجاه (وكان قد تحدث فى الواقع مع الإسرائيليين قبل ذلك . وظن كيسنجر أنه أحرز تقدما ، قال موظف أمريكى كبير «لقد بدأ الوزراء العرب أكثر راحة وثقة في النفس » . واتفق سرا على أنه يمكن أن تتم لقاءات بعد نوفمبر أى بعد الانتخابات الإسرائيلية للبحث الجدى عن طريق نحو هذه التسوية .

هكذا خدع محللو المعلومات «كان اهتمام العرب بالجانب الدبلوماسي كبيرا لدرجة قللت من حسابنا لقيمة الحشود العسكرية ، كانت لدينا المعلومات ولكننا أخطأنا فهم أولوياتهم» . كذلك ظن كيسنجر أن العرب سيعطون دبلوماسيته الخاصة فرصة أكبر .

فى نفس ذلك اليوم ، ٣٠ سبتمبر الذى وصلت فيه المخابرات الأمريكية إلى اقتناع قلق بأن الحرب لن تقع كان الفريق أحمد إسماعيل يرسل أول تعليماته إلى القيادة السورية التابعة له .

أنه لم يحدد لهم بعد ساعة الصفر . ولكنه أخطرهم أن الهجوم يمكن أن يبدأ فى أى لحظة وان «العد التنازلى» سيبدأ بمجرد اعطاء الاسم السرى للعلمية «بدر» .

وفى الصباح الباكر ليوم الاثنين أول أكتوبر بدأت الدبابات والمدفعية الثقيلة السورية تتحرك من مواقعها الخلفية إلى مواجهة المواقع الإسرائيلية ، وهناك ، لحمايتهم ، كانت شبكة الصواريخ التى حذر منها ديان والتى صارت الآن متراصة فى نظام محكم على طول الجبهة .

وفى سيناء لاحظ المراقبون الإسرائيليون الموجودون فى حصون خط بارليف نشاطا متزايدا خلف الساتر الرملى على الشاطئ الغربى للقناة. وفى يوم ١ أكتوبر ذاته شوهدت بطارية صواريخ تدخل مدينة الاسماعيلية . وأحيانا كان يمكن سماع صوت طوابير من الدبابات المصرية تتحرك ، كما كان الضباط المصريون يشاهدون فوق حافة القناة وكأنهم يفحصون ويناقشون، وبعد أيام وصلت مجموعات مصرية تجر معابر إلى حافة القناة، وجرافات تمهد لها الأرض ، ولكن لاشئ من هذا كله أثار أى دهشة .. ففى كل مكان على القناة كان المصريون حريصين على أن تكون تصرفاتهم عادية تماما ، كان ثمة جنود يجلسون على حافة الماء ، وأقدامهم فى المياه بلا سلاح والجرارات ظلت تمارس نشاطا يبدو دفاعيا لتعزيز الحواجز وعمال الحدائق ظلوا يعتنون بحدائق البيوت المهجورة على شاطئ مدينة الاسماعيلية ، ولم يكن باقيا على ساعة الصفر سوى خمسة أيام .

كذلك بالنسبة للمراقبين الاسرائيليين فوق مرتفعات الجولان ، لقد تصرف السوريون بذكاء فحشدوا دباباهم فى تشكيلات دفاعية، داخل الحفر ومدافعها منكسة ومدفعيتهم فى الخلف وكأنها للدفاع عن سوريا وليس للهجوم ، حتى حين سحب السوريون بعض قواتهم من حدود الأردن وأحضروها إلى مواجهة الجولان ظن الإسرائيليون أن هذه حركة مصالحة نحو الملك حسين بعد اجتماع القاهرة وإعادة العلاقات.

وفى اليوم التالى ٢ أكتوبر ، استدعت سوريا الاحتياطى ، ورأى مراقبو الأمم المتحدة الضباط المصريين على طول القناة يعطون جنودهم تعليمات ، لقد أبلغت التعليمات للجميع وكان اليوم يوم ٣ أكتوبر .. بناقص ثلاثة أيام ..

وفى نفس هذا اليوم ، الأربعاء ٣ أكتوبر اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلى فى القدس فى اجتماعه الأخير قبل اجازة عيد يوم التكفير ، وخصص الاجتماع لدراسة حادث الفدائيين فى النمسا واغلاق معسكر شوناو . كذلك جولدا مائير عائدة لتوها من ستراسبورج حيث مزقت خطبتها التى أعدتها عن الصراع العربى الإسرائيلى لتلقيها أمام المجلس الأوربى والقت بدلها خطابا عن حادث النمسا ، وقد عادت الآن إلى إسرائيل عن طريق فيينا حيث قابلت المستشار كرايسكى فى محاولة لاقناعه بالعدول عن قراره .

وكان على مجلس الوزراء الاسرائيلى أن يتناقش حول ما الذى يمكن عمله بشأن هذه المشكلة ، ولم يأت قط ذكر للحشود العربية، كان الأمر معروفا فقط لتلك المجموعة الخاصة من الوزراء التى تضم أولئك الذين تثق فيهم جولدا مائير . .

وإلى جانب عمليات التضليل العسكرية البارعة التى قام بها المصريون (سيأتى ذكرها فيما بعد) فقد القى المصريون ورقة خداع أخيرة : إذ سربوا إلى الدبلوماسيين الأجانب معلومات تقول ان مصر تستعد لمواجهة هجوم يفكر الإسرائيليون فى القيام به ، انتقاما لحادث النمسا ، وقد بدا هذا معقولا ، بل أنه يكاد يكون صحيحا ، فالمعلومات المتوفرة تقول ان الجنرال العازار اقترح بالفعل شيئا من هذا القبيل.

وفى يوم الخميس - ٤ أكتوبر - كان لدى المخابرات الأمريكية فرصتها الأخيرة ، فقد اجتمع ممثلو الأجهزة المختلفة فى مقر المخابرات المركزية فى «لانجلى» بولاية فرجينيا ليناقشوا سؤالا واحدا : هل هناك حرب ستقع ؟ فمنذ تقارير ٣٠ سبتمبر وكيسنجر يسأل يوميا عن الأخبار والمعلومات وفى هذا اليوم ، الخميس ، طلب كيسنجر تقريرا آخر .

ولكن بينما ساد هذا الاجتماع الأمريكى بالذات جو من القلق، ظلت إسرائيل على اقتناعها بأن العرب لن يحاربوا .

كان الحشد العسكرى العربى هو القضية الأولى ولكن أقرب أجهزة المخابرات تعاونا إلى إسرائيل - المخابرات العسكرية الأمريكية - ظلت تنازع فى جدية الحشود (وقد تم بعد الحرب نقل المسئولين الثلاثة عن الشرق الأوسط فى هذا الجهاز) ، وفى نهاية اليوم أرسلت الأجهزة المختلفة خلاصة رأيها : لا حرب ..

وإذا أخذنا فى الاعتبار فرق التوقيت بين مصر وأمريكا - ست ساعات ، فمعنى ذلك أن هذا التقرير وصل إلى كيسنجر مساء الخميس، حيث كان الوقت فى مصر فجر يوم الجمعة وبالتالى كانت النذر قد زادت : إذ بدأ هذا الصباح اجلاء عائلات الخبراء الروس من مصر وسوريا وبدا أن القوات السورية تغير مراكزها الدفاعية إلى اتخاذ مراكز هجومية . كان هذا صباح يوم ٥ - ناقص يوم .

لقد بقيت ثلاثون ساعة حاسمة على بدء الهجوم ، ومع ذلك فالغموض حول هذه الساعات مازال قائما .

هذا الصباح - الجمعة - حاولت القوات الإسرائيلية أن تستعد كانوا فى حالة تأهب على الجولان منذ تسعة أيام . أى منذ اصدر ديان أمره بذلك . اليوم ، الجمعة ، الساعة الحادية عشرة صباحا أصدر الجنرال العازار رئيس الأركان أمرا بحالة التأهب القصوى وألغى كل الأجازات وبدأ يجهز إجراءات استدعاء الاحتياطى .

وأخطر بالأمر بعض البارزين من قواد الاحتياطى ، فاستدعى الچنرال إرييل شارون من مزرعته فى بئر السبع إلى قيادة الجبهة الجنوبية فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، وكان شارون قائدا للجبهة الجنوبية فى سيناء حتى الصيف، فلما عين العازار رئيسا للاركان بدلا منه ، قدم استقالته ، ولكنه طبقا للنظام الإسرائيلى بقى – فى حالة نشوب الحرب – قائد القوات من الاحتياطى فلما رأى الصور الجوية للحشود المصرية ومعدات العبور قال «ستقع الحرب فى يوم أو اثنين » .

على أى حال، كان الجيش الإسرائيلى قد بدأ يستعد فعلا ، فماذا كانت الحكومة تفعل ؟ ..

لا أحد يعرف ماذا كانت تفعل حكومة مائير حتى مساء الجمعة.. وحتى فى مساء الجمعة رفضت الحكومة قرارا باستدعاء الاحتياطى .

ان مجلس الوزراء لم يجتمع ، ولكن مجموعة الوزراء الأقوياء – كالحال فى أى مجلس وزراء – اجتمعوا صباحا على الأغلب وكانوا هم الذين اعطوا الإذن باتخاذ هذه الإجراءات . وفى الساعة الخامسة والنصف أى مع الغروب وبدء عيد يوم التكفير اجتمعت جولدا مائير فى مقر الحكومة بتل أبيب مع أربعة : نائبها

ايجال آلون ، وزير الدفاع موشى ديان ، الوزير القوى بلا وزارة إسرائيل جاليلى ، والرابع مازال غير معروف ولكنه من أهم الشخصيات المؤثرة فى إسرائيل ، ثم انضم إليهم وزير التجارة ورئيس الأركان السابق حاييم بارليف ورئيس الأركان الحالى دافيد العازار . وطلب العازار ، دعوة الاحتياطى ، ولكن المجتمعين رفضوا ، وقال العازار فيما بعد «لقد اتخذ القرار على أعلى مستوى سياسى عسكرى» .

ومازال دور ديان فى هذا الاجتماع غامضا ، ولكن جولدا مائير فى حديث لها يوم ١٥ نوفمبر أشارت بلباقة إلى موقفه حين قالت «حين اقترح الشخص المخول بطلب دعوة الاحتياطى ذلك ، وافقت على الفور» وهذا الشخص هو بالطبع ديان . « وقد دافع ديان عن نفسه أمام اجتماع غاضب للضباط يوم ١٤ نوفمبر قائلا: «لم أكن الوحيد الذى اتخذ هذا الموقف ولم أسمع أحدا يقول أن الحرب واقعة غدا » .

وهذا صحيح . كان هم الإسرائيليين تحليل مغزى جلاء الروس وليس مغزى الحشود ولم يطلب العازار إلا اتخاذ بعض إجراءات احتياطية .

ولكن هذا الوهم تمزق الساعة الرابعة صباح السبت ، فقد التقطت أجهزة التصنت الأمريكية والاسرائيلية معا الاشارات

اللاسلكية التى لم يشك أحد فى أنها الترتيبات الأخيرة للهجوم ، وهنا اقترح العازار أن يقوم الطيران الإسرائيلى بضربة مسبقة مع الفجر .

ورفضت مائير الاقتراح ، خوفا من رد الفعل الأمريكى وقالت لهم «من سيبقى معنا من الأصدقاء لو فعلنا ذلك ؟» وقد جادلها بارليف والعازار . ولكن ضربة ١٩٦٧ الجوية فاجأت الطيران المصرى مرصوصا فى المطارات ، أما هذه المرة فأى ضربة لن تحدث نفس الأثر إزاء عدو مستعد ، له حماية قاتلة من الصواريخ، أكثر ما كان يمكن أن تحققه مثل هذه الضربة ارباك الهجوم ساعات قليلة مقابل خسائر فادحة فى الطيران الإسرائيلى .

وأكد ذلك السفير الأمريكى فى اسرائيل حين أوقظ فى السادسة صباحا ليقابل جولدا مائير ، قال لها «إذا عدلت اسرائيل عن الضربة الأولى، وأوجدت بذلك الدليل القاطع على أن العرب هم الذين بدأوا القتال ، فان أمريكا ستكون ملزمة بمساعدتكم » .

وصدر أمر استدعاء الاحتياطى ، فى نفس الوقت طلبت إسرائيل من كيسنجر أن يحيط العرب علما أن هذا ليس معناه نية أى هجوم من جانب إسرائيل .

كان هذا في نيويورك منتصف ليلة السبت وكان البنتاجون قد غير رأيه واقتنع بأن هناك حربا ستقع ، ولكن كيسنجر، متأثرا بالتقارير السابقة عن استبعاد الحرب، لم يجد داعيا للقلق ولكنه أبلغ الرسالة إلى السفراء العرب على أى حال . وذهب لينام فى جناحه فى فندق والدورف استوريا فى نيويورك متوقعا أن يبدأ اليوم التالى عطلة آخر الأسبوع ، كانت الساعة وقتها فوق سيناء السابعة صباحا ، كان يوم الهجوم ..

ورغم كل استعدادات الأيام الأخيرة كانوا فى إسرائيل مطمئنين نسبيا بسبب مناعة خط بارليف على شاطئ القناة . لم يكونوا يعرفون أنه فى ساعات الظلام قبل الفجر بقليل كانت قوات كوماندوز مصرية قد عبرت القناة وعطلت مواسير خط بارليف التى كان مفروضا أن تصب النار الملتهبة فوق سطح القناة عند أول اشارة : كان أول سلاح سرى لإسرائيل ضد الهجوم قد تعطل: لم يعد ممكنا إشعال النار فى قناة السويس ..

إن خلاصة هذه المعلومات المتوفرة عن «المفاجأة» وعن هذه الفترة الحرجة فى حياة إسرائيل ، لتلقى الضوء على أشياء كثيرة هامة : فلاشك أن ترتيبات التضليل الاستراتيجية والتكتيكية التى اتبعها الجانب المصرى، كانت ناجحة إلى حد ليس له مثيل ، إذ أنها أخرت إحساس الإسرائيليين بذلك حتى آخر لحظة ممكنة ..

فحشـود بمثل هذا الحجم لم يكن ممكنا الاحتفاظ بعملية دفعها إلى الجبهة وأخذ مواقع الهجوم إلى ما قبل الهجوم بأيام قليلة .. إلا بدرجة عالية من الاتقان فى دراسة كل تفاصيل التحرك العسكرى المعقد ..

ثم إن هذا لم يكن هجوما عسكريا على جبهة عادية ولكنه – فى الجبهة المصرية – كان يواجه حاجزا مائيا عويصا ، يتلوه خط دفاع قوى مدروس (سيأتى ذكره تفاصيله) ، يطرح مئات المشكلات الفنية .. الأمر الذى يضيف إلى عملية القناة وحشد قواتها وأسلحتها عمليات أخرى فنية معقدة، لها معداتها وأجهزتها التى تحتاج أيضا إلى إعداد ضخم يصعب إخفاؤه ..

ولكن القيادة المصرية نجحت فى هذا التضليل الاستراتيجى ، وأخرت احساس العدو بالخطر إلى آخر لحظة ممكنة ..

على أن كافة التقارير تشير إلى أن إسرائيل توفرت لديها معلومات كافية عن نوايا عدوها وذلك عن طريق أقمار التجسس الأمريكية فى الدرجة الأولى ، وسائر وسائل الاستطلاع ، وذلك قبل الهجوم بوقت كاف ..

قبل الهجوم بوقت كاف على الأقل بالنسبة لإسرائيل ..

لأن إسرائيل تزهو – فى الجانب العسكرى– على العالم

بسرعتها القياسية في تعبئة جيوشها واستدعاء الاحتياطى إذ أن جيشها له وضع خاص هو أن معظمه يعد من الاحتياطي.» ..

ونظام استدعاء الاحتياطى الإسرائيلى يقتضى: أن تتم تعبئته كاملا خلال ٧٢ ساعة من لحظة أول انذار : ٥٠٪ من الوحدات تكون جاهزة في يوم التعبئة ذاته - ٧٥٪ من الوحدات تصبح جاهزة بعد ٤٨ ساعة - ١٠٠٪ من الوحدات تتم تعبئتها ، وفي أماكنها القتالية المعدة لها ، خلال ٧٢ ساعة أى فى آخر اليوم الثالث من لحظة بدء الانذار [(١)].

---

(١) أنظر كتاب «المذهب العسكرى الإسرائيلي» بقلم هيثم الكيلانى صفحة ١٧٧ وما بعدها «تتبع إسرائيل في تعبئة قواتها وتوجيهها إلى مواقعها القتالية احدي طريقتين : التعبئة بواسطة الإذاعة ، أو التعبئة الصامتة ، وتقوم الطريقة الأولى على إذاعة سلسلة من الرموز يشير كل منها إلي وحدات احتياطية معينة ويلي ذلك اشارات تحدد المكان والزمان اللذين يجب على أفراد تلك الوحدات التجمع فيها . أما الدعوة الصامتة وكالتى استخدمت عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ فتشتمل على عدة مراحل تبدأ الأولى بتوجيه رسالة من الضابط آمر الوحدة الاحتياطية . وحالما يتلقي هذا الآخر الرسالة يوجه بواسطة عدد صغير من الرجال المنتخبين أوامر شخصية إلى كل فرد من أفراد وحدته ويدعوهم فيها إلى التقدم خلال ٢٤ ساعة إلى مركز التعبئة المحدد... وبعد أن يصل الأفراد إلى مركز التعبئة توزع عليهم التجهيزات الميدانية والأسلحة والذخائر وتقدم إليهم وسائل النقل التى جرت تعبئتها في الوقت ذاته وهكذا تتحرك الوحدة جاهزة للقتال إلي المكان الذى تعينه القيادة .

وقد سبق ذكر كيف أن موشى ديان اشتبه فى الحشود السورية منذ يوم ٢٦ سبتمبر على الأكثر وأمر باستدعاء أهم لواء مدرع اسرائيلى من بئر سبع - جنوب اسرائيل عند مدخل النقب .. لاتخاذ مواقعه فى الجولان . وكيف أن أمريكا اطلقت فى اليوم التالى مباشرة ٢٧ سبتمبر قمرا صناعيا من طراز «ساموس»

«وقد اقتبست اسرائيل أسس نظام التعبئة السويسرى ، وأدخلت عليه تعديلات تناسب ظروفها ، ففى سائر البلاد حينما ينهى الشباب خدمتهم العسكرية يعودون الى بيوتهم ويقطعون صلاتهم بوحداتهم التى أدوا فيها الخدمة الالزامية أما فى سويسرا أو اسرائيل فإن كل سرية احتياطية تبقى جهازا عضويا حيا له مهنته الدائمة ولا يجوز لهم التخلى عن واجباتهم حين ينصرفون إلى حياتهم المدنية .. ويستنفر الفرد الإسرائيلى خلال العام الواحد عدة مرات ، سواء للتدريب أو بتبليغ تعليمات جديدة ولا يحمل الإسرائيلي سلاحه إلى بيته ولكنه يحمل بزته العسكرية .

« .. ويحتفظ كل فرد احتياطي فى دفتره العسكري ، خلف صورة الهوية بقصاصة ورق تشير إلي «كلمة التعارف على التعبئة» أما مكان التجمع فانه يسجله في ذاكرته . وليس هذا المكان ثكنة أو معسكراً ، ولكنه مكان غير معرض للاستطلاع في مزارع البرتقال مثلا وغابات الصنوبر أو الملاعب الرياضية» .

«وفى حرب ١٩٦٧ ، صرفت القيادة عددا كبيرا من الجنود إلى بيوتهم بغية التعمية والتضليل بعد استنفار دام خمسة عشر يوما تم استدعاؤهم خلالها بالطريقة الصامتة ، وفى صبيحة ٥ يونيو استدعيت الوحدات عن طريق الإذاعة ، إذ ظل المذيع يقرأ ألغازا غريبة لاتتيح لاحد تحديد هوية الأسلحة أو الوحدات المدعوة» .

أخذ مداره فوق الشرق الأوسط ليتجسس على كل التحركات المصرية والسورية وأن ما أرسله من معلومات كان مثيرا للقلق . ثم توالت النذر بعد ذلك كما سبق ذكره ..

هل يمكن القول بان رد الفعل الإسرائيلي هو مجرد إهمال من بعض الأفراد ؟ ..

إن «لجنة التحقيق في الحرب» التي شكلتها اسرائيل بعد الحرب لتهدئة الرأى العام ولايقاف حملات الاتهام المتبادلة بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين على السواء، تستمع الى كثير من الاقوال وما يتسرب منها قليل. ولكن بعض ما تسرب غير مقنع تماما .. وان كان يدخل في باب القاء كل طرف المسئولية على الآخر خصوصا وان هذا كان قبل الانتخابات العامة فكون ايجال آلون كان في قريته لم يصل الا متأخرا في اجتماع مجلس الوزراء الحاسم أو كون بنحاس سابير لم يتم استدعاؤه ولا اخطاره بالمعلومات مقدما ولكنه لاحظ حركة التعبئة في الطريق فأسرع الى مكتب جولدا مائير والقول بانهم ضغطوا التعبئة من ٢٤ ساعة إلى ٦ ساعات ادى الى درجة من التراخي كما قال ونستون تشرشل المؤرخ المتحيز لاسرائيل في مؤلفاته عن حرب ٦٧، فيما كتبه عن حرب ٧٣ .. أو قوله «انه حدث تفكك كبير في سلسلة القيادة فبالرغم من أن مقر القيادة كان في حالة تأهب تام الا ان

الجبهتين لم تبلغا بشىء، ولم يكن هذا فقط بالنسبة للجنود الذين كان اول ما عرفوه من مظاهر الحرب هو ستار المدفعية الحاشد وانطلاق طائرات الميج فوق رؤوسهم فى هجوم فعال.. بل كان الامر كذلك بالنسبة للجنرالات انفسهم»... كل هذه تفاصيل لا تحجب الحقائق الكبرى..

ان العناصر التى يمكن ان تكون ساهمت كلها او معظمها فى رد الفعل الاسرائيلى يمكن إجمالها فى التالى:

أولا - نجحت القيادة المصرية رغم اكتشاف العدو لحركة القوات غير العادية، فى ابقاء نواياها النهائية غامضة وهل هى الحرب، ام الضغط، أم المناورات، أم الاستعداد للرد.

ثانيا ـ إن إسرائيل كانت أكبر من خدع نفسها ، فهى كانت كما قال معظم المعلقين الأجانب بعد ذلك - ضحية الأسطورة التى خلقتها عن قوتها التى لا رادع لها على الاطلاق ، والأسطورة الثانية التى أوهمت بها العالم وأوهمت نفسها عن أن العرب لن يحاربوا قط ، لقد حفل كل الأدب الاسرائيلى السياسى والفنى والعسكرى منذ ١٩٦٧ بأنواع التهويل من كفاءة الاسرائيلى وعجز العربى ، كجزء من الحرب النفسية ضدنا ونحو العالم كله، وكتصعيد لوضعها واغراء حلفائها بمساعدتها ويهود العالم

بالتبرع لها والهجرة اليها ولكنها صدقت هذا فى النهاية ، ولعب هذا دورا كبيرا فى بقائها حتى وقت متأخر معتقدة أن العرب لا يمكن أن يشنوا الحرب فعلا .

ثالثا - مناعة خط بارليف جنوبا وهضبة الجولان شمالا ، فقد انفقت على هذه التحصينات بحيث كان من حقها أن تطمئن إلى أنه حتى فى حالة الهجوم المفاجئ ، تستطيع هذه الخطوط الدفاعية أن تصد أى هجمات وقتا كافيا حتى تستدعى هى كل قواتها - أكثر من ١١٪ من مجموع السكان اليهود - وترد الضربة وتسحق العدو .ويعترف وينستون تشرشل فى كتاباته بعد أن زار إسرائيل عقب حرب ١٩٧٣» .. بعد نجاح حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ تملك الاسرائيليون احساس بالزهو والغطرسة ، وقد قال لى أحد كبار القادة الإسرائيليين «إذا كنا على مسافة ساعتين زمنيا من دمشق و ٣ ساعات من القاهرة ، فمن من كان فى حاجة إلى أن يحمل هجوم العدو على محمل الجد ؟» ..

ولولا استهانتهم الشديدة بالعرب لاستنتجوا العكس تماما وهو: أنه مع وجودهم على بعد ساعات من القاهرة ومن دمشق كان لابد لمصر وسوريا من أن تحاربا ..

رابعا - أن ادراك إسرائيل لعزلتها الدولية وانكشاف موقفها

كدولة معتدية بالإضافة إلى ثقتها المطلقة فى النفس ورغبتها فى أن تخوض الحرب الجديدة من موقف «المعتدى عليه» كل هذا ساهم فى اتخاذها ما وصفه دافيد العازار بأنه «قرار على أعلى مستوى سياسى وعسكرى» بعدم توجيه ضربة مسبقة حتى بعد أن تأكد لها أن هناك هجوما ما ..

خامسا - إننى اطرح هنا احتمال أرى أن هناك كثيرا من الظواهر التى تؤيده ولكن الأيام وحدها هى التى سوف تؤكده أو تنفيه وهو : أن إسرائيل بكل عوامل غرورها السابقة كانت «تريد» هذه الحرب .. لأنها كانت تتوقع نتائج أخرى تماما !!

فمنذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٣ كان هناك إحساس لدى كثيرين من العناصر القيادية الاسرائيلية بان حرب ١٩٦٧ حققت النصر العسكرى «دون النصر السياسى المطلوب» ، وكان هناك فريق قوى يرى أنه لا مفر من «حرب أخرى وأخيرة» تفرض فيها شروطا للتسوية فرضا على العرب ، وفريق آخر يرى أنه «طالما أن العرب لن يحاربوا فلا داعى لأن نبدأ حربا جديدة . أما الازعاجات العسكرية المحدودة فيمكن العيش معها زمنا حتى تستنفد طاقتها وتذبل » .

ولا استبعد أنه فى اتخاذ هذا القرار السياسى العسكرى على أعلى مستوى بعدم توجيه ضربة مسبقة ولو فجر يوم القتال أتخذ

بخلفية مشتركة من هذه الثقة بالنفس والازدراء للعدو ، وباتفاق الفريقين على أنه : إذا كانت هذه مظاهر لن تؤدى إلى الحرب فعلا فنحن باقون في سلام .. وإذا كانت هى الحرب .. فلنترك العرب يبدأونها ، وسوف نسحقهم بسرعة ، وساعتها لايكون لديهم أى عذر» ..

وهذا لم يمنعهم كما سبق ذكره من البدء فى اتخاذ ترتيبات كثيرة من بينها استدعاء الاحتياطى قبل الحرب ..

كانت المفاجأة ناجحة ، ولكنها لم تكن وحدها سبب النصر . وتركيز الإسرائيليين وعملائهم من الكتاب والمحللين فى الغرب على عنصر المفاجأة وحده ، يستهدف ابقاء الأسطورة ، من أن هزيمتهم كانت عارضة ، وتستهدف التقليل من الكفاءة القتالية العربية ، حين بدأ القتال فعلا ، ودورها الباسل والأساسى فى تحقيق ما حققته .

فى الجانب العربى ، كيف حددت ساعات الصفر ؟

إن الاعداد والحساب والتقدير الذى أدى إلى هذا التحديد يعطى وحده فكرة عن أن النصر جاء نتيجة الكفاءة التخطيطية والقتالية معا ..

يقول الفريق أول أحمد إسماعيل فى حديثه مع محمد حسنين هيكل (الأهرام ١٨ نوفمبر ١٩٧٣) :

لقد كان تحديد يوم «ى» عمليا علميا على مستوى رفيع ، وحين نطرح وثائقنا كلها للدراسة التاريخية فإن هذا العمل سوف يأخذ حقه من التقدير وسوف يدخل التاريخ العلمى للحروب كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الأمين :

كان لابد أن يتحرك الموقف من وجهة نظر التقدير السياسى سنة ١٩٧٣ بعد وصول التأييد العربى والعالمى لنا فى كل المجالات إلي الذروة العالية التى لا مجال بعدها لاضافة إلا لاضافة نضعها نحن بقوة السلاح ..

هذا من وجهة نظر عامة ..

ومن ناحية التحديد فقد كنا نريد ما يلى :

١ - ليلة مقمرة يتصاعد فيها القمر معنا فى الساعات الحاسمة.

٢ - ليلة يكون تيار القناة فيها مناسبا للعبور من ناحية السرعة.

٣ - ليلة يكون عملنا فيها بعيدا عن توقعات العدو .

٤ – ليلة لا يكون فيها العدو نفسه مستعدا للعمل .

هذه المميزات كلها حددت لنا يوم ٦ أكتوبر من قبلها بشهور :

فالحسابات الفلكية تعطينا فى تلك الليلة قمرا ينمو فى أول الليل ثم يغيب فى آخره .

وعلماؤنا فى القوات المسلحة درسوا تقارير هيئة قناة السويس لسنوات طويلة سبقت لكى يحسبوا سرعة التيارات فى كل يوم من أيام السنة وكان يوم ٦ أكتوبر أكثرها مناسبة .

ـ العدو لايتوقع منا العمل فى شهر رمضان .

ـ العدو مشغول بمناسبات مختلفة بينها انتخاباته العامة التى تشد اهتمام الجميع .

ـ لقد كان شهر رمضان هو الذى أوحى لنا باختيار الاسم الرمزى لعملية الهجوم كان الاسم الرمزى هو «بدر» تيمنا بغزوة بدر .

كان الرئيس السادات من وجهة نظره السياسية يسميها عملية «الشرارة» وأما الاسم الرمزى فى كل خططنا العسكرية فقد كان «بدر».

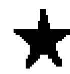
ذلك كل ما أستطيع أن أقوله الآن عن تحديد يوم «ى» .

وأما عن تحديد ساعة «س» ـ فلقد ظل الموعد الى أيام قبل بدء القتال موضوع مناقشة بيننا وبين إخواننا فى سوريا .

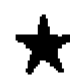
كان السوريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس معهم وضد العدو يفضلون العمل مع أول ضوء فى الفجر . وكنا نحن ـ لعدة أسباب من بينها الى جانب اتجاه الشمس ، وضرورات العبور ونصب الكبارى وفتح الطريق لدخول المعدات الثقيلة كالدبابات فى ظلام الليل ـ نفضل العمل فى آخر ضوء فى المساء.

وكنت بوصفى قائدا عاما للجبهتين قد بعثت إلي السوريين يوم ٣٠ سبتمبر إشارة التحذير بأن العملية محتملة فى أى وقت ـ وهنا باشارة تقول : «بدر» ..

وسافرت بنفسى إلى سوريا يوم ٢ أكتوبر وتناقشنا حول الساعة ، وبعد دراسة تفصيلية صدق عليها الفريق حافظ الأسد تحددت الساعة الثانية بعد الظهر موعدا «للساعة س» .



لم يكن الاختيار إذن ليوم ٦ أكتوبر سببه أنه «يوم عيد التكفير» فاجازات اليهود التى لايعملون فيها كثيرة ، ولهم يوم كل أسبوع ، ولا توجد دولة تأخذ كلها ، خصوصا جيشها ، يوما أجازة .



وصف المحلل العسكرى العربى المقدم هيثم الأيوبى «مجلة شئون فلسطينية عدد نوفمبر ٧٣» خط بارليف وصفا مفصلا دقيقا كالتالى :

عقب وقف اطلاق النار فى حرب ١٩٦٧ اقامت القيادة العسكرية الإسرائيلية مجموعة من المراكز الدفاعية الخفيفة العادية علي طول القناة . ولكن عندما بدأت المدافع المصرية فى أكتوبر ١٩٦٨ تمارس دفاعا ايجابيا فى مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية علي مدن القناة وخاصة بعد أن تعززت قواها بوصول مئات من قطع المدفعية الجديدة من الاتحاد السوفييتى شعرت القيادة الإسرائيلية أن هناك ضرورة لمواجهة احتمال ممارسة مصر للضغط عن طريق القصف المدفعى المركز الذى يهدف الي حرمان اسرائيل من حق الوجود المستمر الهادىء على الضفة الشرقية للقناة ، عن طريق إقامة خط دفاعى قوى نسبيا يقلل من حجم القوات اللازمة للسيطرة على ضفة القناة وهو هدف سياسى أساسا ـ ويقلل فى الوقت نفسه من الخسائر التى يمكن أن نلحق بها نتيجة لقصف المدفعية ورصاص القناصة المصريين .

ولذلك شنت القيادة الإسرائيلية عمليات ردع غير مباشرة فى مؤخرة الجبهة المصرية البعيدة بواسطة وحدات فدائية محمولة جوا

«الغارة على محطة كهرباء قرب نجع حمادى وعلى جسر نجع حمادى» حتى تربك القيادة المصرية وتجبرها علي إيقاف قصف المدفعية بعض الوقت وتتيح بذلك فرصة إقامة الخط المذكور .

وكان المشكلة العسكرية والفنية المطروحة علي القيادة الإسرائيلية وقتئذ فى ظل فترة رئاسة الجنرال حاييم بارليف للأركان وهى كيف يمكن التوفيق بين اعتبارين متعارضين أولهما ضرورة وجود قوات كافية للسيطرة علي خط القناة معرضة بشدة لتركيز المدفعية داخل تحصينات منيعة توفر لها الحماية والمقدرة على تغطية القناة بالنيران الرادعة للمصريين حتي لايفكروا فى عبور القناة مع ماتفرضه هذه الضرورة من تثبيت حركة قوات كبيرة داخل مواقع ثابتة وعدم جدوى هذه المواقع الأمامية فى حالة عدم وجود عمق دفاعى مكمل لها وبين ضرورة الاحتفاظ بقوات احتياطية رئيسية متحركة للقيام بالهجمات المعاكسة تتفق وأسلوب حرب الحركة الذى درب الجيش الإسرائيلى على ومارس قتاله العملى وفقا له دائما فى حرب ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .. بمعنى أن إقامة خط دفاعى ثابت يتطلب أن تكون شبكة المواقع الدفاعية المقامة على طول القناة ذات عمق كاف وإلا تعرضت للاختراق نتيجة تركيز قوة متفوقة فجأة عند أى نقطة فى الخط مدعومة بقوات محمولة جوا بطائرات الهليكوبتر يجرى إبرازها فى مؤخرة الخط

والانقضاض عليه من الخلف. وهذا يفترض حشد قوات كبيرة ـ فضلا عن النفقات المالية الضخمة للمنشآت الدفاعية ـ وتثبيت حركتها في الوقت نفسه وكلا من الأمرين لا يتوافقان مع إمكانات إسرائيل من حيث الطاقة البشرية ومن حيث ضرورة أن تكون قواتها الرئيسية متحركة حتى تستطيع أن تناور بها على الخطوط الداخلية بين الجبهات المختلفة بمرونة وسرعة .

وكان الحل الممكن واقعيا هو إنشاء مجموعة من النقاط الدفاعية القوية التحصين علي مقربة شديدة من القناة بلغ عددها ٣٥ نقطة قوية تبدأ من أول الكيلو متر ١٠ شمالا حتى بورتوفيق جنوبيا ، وهي مسافة قدرها ١٢٣ كيلو مترا أى بمعدل نقطة حصينة لكل أربعة كيلو مترات ، باستثناء منطقة البحيرات المرة ، تدعمها في المؤخرة قوات مدرعة ميكانيكية تمثل القبضة الضاربة المتحركة المساندة للنقط الدفاعية التي كان يفترض أن تعوق عمليات العبور المصرية المحتملة لحين تحرك القوى المتحركة وتحديد اتجاهات العبور الرئيسية وبطبيعة الحال اعتبر الطيران هو القوة الضاربة الأساسية المساعدة وقد تم إنشاء مجموعة النقط القوية هذه بحيث تتسع كل منها لقوة كتيبة تقريبا عند الاقتضاء ، ويفصل بين كل نقطة وأخرى بضعة كيلو مترات قليلة يمكن تغطيتها بالنيران الصادرة من النقط المتعاونة مع بعضها

البعض ووضعت هذه النقط على مقربة شديدة من ضفة القناة لتستطيع أن تراقب الحركة عليها وتغطيها بنيرانها المباشرة والمؤلفة من الرشاشات والبنادق والأسلحة المضادة للدبابات بالإضافة الي نيران المدفعية والهاونات الموضوعة فى مواقع خافية . وقد تم سقف الملاجىء والدشم التى تضم الأسلحة المستخدمة داخل النقط الدفاعية فى بداية إنشاء الخط الدفاعى المذكور الذى حمل اسم قائد الأركان الإسرائيلى حايم بارليف في أواخر عام ١٩٦٨ وبداية ١٩٦٩ بكتل من القضبان وفلنكات السكك الحديدية وبكميات كبيرة من أكياس الرمل لتقليل النفقات المالية .

ولكن ثبت ضعف هذه البنية الهندسية فى مواجهة قصف مدفعية الميدان المصرية من عيارات ١٢٢مم، و ١٦٠مم.. وذلك عندما بدأت حرب الاستنزاف بالقصف المدفعى ، الشهير يوم ٨ مارس ١٩٦٩ والذى أدى إلى تدمير ٦٠٪ من دفاعات الخط خلال الشهريين التاليين . ولذلك جرى بعد ذلك وخاصة بعد اطلاق النار عام ١٩٧٠ اعادة بناء النقط الدفاعية وتجهيزها بشكل أقوى وأحدث وسقفت المخابىء والدشم المحفورة تحت الأرض بكتل سميكة منيعة من الأسمنت المسلح أن تتحمل الاصابات المباشرة من قذائفه المدفعية وقنابل الطائرات التى زنتها ألف رطل . وجهزت المخابىء بكل وسائل الراحة التى تمكن الجنود من الحياة

دون التعرض لخطر القصف المدفعى بما فى ذلك دورات المياه غير المألوفة ميدانيا ووجود مخزون كبير من المياه والمؤن والذخيرة ونقط مراقبة تلسكوبية لعدم تعريض المراقبين لنيران القناصة وبلدوزر لإعادة فتح طرق المواصلات عند الضرورة بين الرمال نتيجة للقصف وطبيب مقيم . كما ربطت كل نقطة دفاعية بشبكة الاتصالات التليفونية العسكرية المتصلة بالشبكة المدنية حتى يستطيع كل جندى الاتصال ببيته كل يوم إذا رغب فى ذلك لرفع معنويات الجنود وعدم شعورهم بالعزلة هذا وقد أحيطت النقط القوية من كل اتجاه بحواجز قوية من الأسلاك الشائكة والألغام وبمختلف وسائل الانذار ، ومدت أنابيب المياه إلي أقرب أماكن ممكنة من النقط وبحيث تكون الأنابيب غير مكشوفة من الجو قدر الأماكن «أى تحت الأرض» كما ـ درب الجنود العاملون فى النقط الدفاعية علي العمل كمراقبين أرضيين مساعدين للطيران لتسهيل التعاون بين النقط ولدعم الجوى المباشر لها. وكذلك للعمل كمراقبين معاونين للمدفعية ذاتية الحركة والدبابات المحتشدة في العمق التكتيكى كاحتياطى متحرك والتى كان يجرى ، تحريكها باستمرار من موقع لآخر معنا لتحديد مواقعها بصورة ثابتة دائمة للمدفعية المصرية التى تقع داخل القناة أمام مرماها البعيد .

هذا كما أقيم على امتداد ضفة القناة أمام النقط الدفاعية حاجز رملي يبلغ ارتفاعه مابين ١٢ و ٢٠ مترا عن سطح الماء بواسطة الجرافات الضخمة وذلك لإعاقة الآليات البرمائية المصرية عند محاولتها عبور القناة وتسلق الضفة الشرقية . وجهز هذا الساتر الترابي بين النقط القوية بخزانات مملوءة بمواد ملتهبة ومواسير خاصة تصل لسطح القناة لعمل ستارة من النيران فوقها.

وقد قدرت جملة نفقات الخطة المالية بنحو ٢٣٨ مليون دولار ، وشبه الكاتب العسكرى الأمريكى المقدم أرفينج هيمونت خط بارليف هذا بخط «مينيسوتا» الدفاعى الأمريكى الذى أقيم خلال المراحل الأخيرة من الحرب الكورية . ولكن الجندى المصرى والتخطيط العسكرى المصرى الجيد الذى وصل الى حد إقامة نماذج للخط وتدريب الجنود عليها حطمها أسطورة خط بارليف الذى قيل إنه لايقهر يوم ٦ أكتوبر المجيد» .

وفى أبريل ٦٩ ، وصف الجنرال ابراهام دان مدير المدرعات الإسرائيلى خط بارليف أيضا فقال : «إن الاستحكامات التى أقامتها اسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة والمسماه بخط بارليف قد غيرت الموقف العسكرى تماما لصالح إسرائيل» .

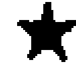
وقال الجنرال بارليف نفسه فى ابريل ٧١ «إننى متأكد من أن مصر إذا استأنفت القتال لن تتمكن من تحقيق أى عبور لاستحالة اجتياز خط الدفاعات الإسرائيلى المقام على امتداد الضفة الشرقية للقناة كما أن قواتها لن تتمكن على الاطلاق من عبور قناة السويس بسبب ما يشكله هذا الخط الحصين من القوات التي قد تحاول العبور» .

وكنت قد سمعت بارليف على التليفزيون الأمريكى فى سنة ١٩٧٠ يقول : «إن المصريين لايعرفون أى جحيم سينصب عليهم بمجرد أن يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة .

ووصف المراسلون الذين زاروا خط بارليف بعد سقوطه بأن تحصيناته مكونة فى الواقع من ثلاثة طوابق ، الطابق السفلى يضم مخازن الطعام والذخيرة ، ووسائل توليد الكهرباء والتهوية والمياه الجارية والطابق الثانى مخصصص لحياة الجنود .. من غرف ودورات مياه مجهزة بكل شىء بما فى ذلك قاعة صغيرة لعرض الأفلام والطابق الثالث هو المخصص لمباشرة القتال منه وهو محصن فوق الأرض ، بأسقف وجدران لاتخترقها القنابل .

أما موشى ديان فقد قال: إن خط بارليف أكثر تحصينا وتنظيما من أى خط مشابه وأنه منيع لدرجة تسمح لنا بالاحتفاظ به الى الأبد .

وقد قال موشى ديان بعد ذلك عندما استولت قواتنا على خط بارليف هذا أنه كان كقطعة الجبن المليئة بالثغرات ، تهوينا من ضربه وتدميره والاستيلاء عليه ، ولكنه في الواقع لم يصبح حقا كقطعة الجبن إلا بعد أن اقتحمه جنودنا واستولوا عليه بأكمله .



كيف يمكن وضع تصور لخطة عسكرية إزاء هذا الوضع ؟

أعود الى حديث القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل :

كانت المشكلة بالنسبة لقواتنا أن الظروف فرضت عليها أن تعيش ست أو سبع سنوات فى الدفاع .. معظما فى الدفاع الجامد ، والقوات على هذا النحو ، أى قوات فى الدنيا ، معرضة لما نسميه فى العسكرية «بمرض الخنادق» . كان لابد أن نتخلص من تأثير مرض الخنادق وعقده وركزت فى تلك الفترة «فترة الاستعداد للمعركة» على مجموعة ضرورات رأيت أننا بغيرها لن نستطيع عمل شيء ..

أول هذه الضرورات أن تقتنع القوات بأنه لا مفر من القتال ولا حل بدونه .

وقمت بزيارات للقوات المسلحة في مواقعها أشرح الظروف للرجال وأقول لهم: إن الوقع الذى نحن فيه لابد من تغييره ، واذا

لم نغيره نحن فان العدو قد يفرض علينا التغير ، ومعنى ذلك إننا اذا لم نبدأ القتال فان العدو سوف يبدأ هو بالقتال لأن حالة اللاسلم واللاحرب غير قابلة للاستمرار الي مالا نهاية .

وكانت الثانية بين الضرورات أن يأخذ الرجال ثقة فى سلاحهم، وكنت أريد تغيير المفهوم القديم ، بأن الرجل بالسلاح والحقيقة أن السلاح بالرجل .. اذا لم يكن واثقا من نفسه فلن يحميه أى سلاح واذا كان واثقا فان كل سلاح في يده يحميه .

ربما نستطيع أن نفهم فى التطبيق العملى اذا تذكرنا أن طائرة من طراز ميج ١٧ تمكنت أثناء القتال من اسقاط طائرة فانتوم، وهذا ما أقصد بأن السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح.

وثالث هذه الضرورات وهى تتصل بذلك مباشرة : أن يكون التدريب كثيفا فأن كان السلاح بالرجل فذلك يعنى أول مايعنى قدرة الرجل علي استيعابه والسيطرة الكاملة عليه .

وكانت الرابعة بين الضرورات ، أن نجعل قوات أدركت حتمية القتال، وعرفت قيمة سلامها وأحسنت التدريب عليه ـ ترى رأى العين ماسو تواجهه وتكسر الرهبة مابينها وبينه ، وهكذا بدأنا نختار للتدريب ميادين قريبة الشبه الى أقصى حد بظروف وطبيعة المهمة التى سوف تقوم بها القوات وأولها عبور القناة ، إخترنا

مناطق للتدريب فيها مجار مائية ، بعمق القناة تقريبا ، وعليها سواتر بارتفاع سواتر القناة وفيها تيارات بقوة تيارات القناة . بل إننا فى بعض المرات أجرينا تدريباتنا على القناة ذاتها فى منطقة فيها تمتد فى فرعين أحدهما الى ناحيتنا وكان تحت السيطرة الكاملة لقواتنا .

فى ذلك الوقت كانت الخطة العامة لما سوف نقوم به تختمر وتتبلور .. تهظر ملامها شيئا فشيئا بالدراسة المستمرة والتطوير.

ثم بدأت الخطة ذاتها تتبلور وتستقر عند منطلقاتها الأساسية، ثم تفاصيلها ..

يقول القائد العام :

«كيف يمكن وضع تصور لخطة عسكرية إزاء هذا الوضع»؟

«وكان تقديرى بالنسبة للعدو أنه يملك أربع ميزات أساسية :

ـ تفوقه الجوى .

ـ مقدرته التكنولوجية .

ـ تدريبه الدقيق .

ـ اعتماده علي معاونة سريعة من الولايات المتحدة الأمريكية ، تكفل له امداد مستمرا .

ولكن هذا العدو كانت له عيوبه الأساسية إلى جانب ميزاته الأساسية :

ـ خطوط مواصلاته طويلة كما أن هذه الخطوط علي الجهات المتعددة ممتدة يصعب الدفاع عنها .

ـ أوضاعه البشرية لاتسمح له بتحمل خسائر كبيرة .

ـ ظروفه الاقتصادية تمنعه من قبول حرب طويلة الأمد .

ـ ثم هو عدو أصابه الغرور .

وكان علينا أن نحاول قدر ما نستطيع تلافى نقط امتيازه واستغلال نقط ضعفه . ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل كل ما فعلناه لتحقيق هذا المنطق ولكن سوف أركز على نقطة واحدة لعلها تشرح هـذا المنطق .

لقد اخترت مثلا أن يكون هجومنا عل خط المواجهة .. علي خط يمتد ١٨٠ كيلو مترا ، بطول القناة من بورسعيد ، فى الشمال إلي السويس فى الجنوب وكان ذلك فى إطار منطق تلافى نقط امتيازه لأن الهجوم علي طول المواجهة بهذا الشكل سوف يفرض علي العدو مايلى :

١ ـ سوف يكون مرغما على توزيع ضرباته الجوية المضادة على قواتنا .

٢ ـ بسبب هذا التوزيع فإن هذه الهجمات المضادة فى كل مكان سوف تكون ضعيفة فى كل مكان لأن المواجهة متسعة .

٣ ـ بسبب هذا الاتساع فان العدو لن يستطيع مبكرا اكتشاف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا المهاجمة وبالتالى فإنه لن يستطيع التركيز عليه .

وعلى سبيل المثال فلقد تصورنا وخططنا ونفذنا بالفعل عندما بدأت العمليات مجموعة كبيرة من الكبارى ورءوس الكبارى ، وكان ما نفذناه أكثر مما نحتاجه فعلا وكنت مستعدا لاحتمال تدمير بعضها ولكنها جميعا نجحت وفشل العدو فى تدمير أى منها .

٤ ـ بسبب هذا الاتساع نفسه فان العدو سوف يتأخر فى رد فعله بالهجمات المضادة على الأرض ، لأنه سوف ينتظر لكى يكتشف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا وبعده يتحرك .

ولقد أحسست مع تقدم مراحل التخطيط بأنه يتحتم علينا أن نقوم بعملياتنا من قاعدة وطيدة.. وأحسست أن دفاعاتنا فى القناة ينقصها التحصين الكافى ، وهكذا بدأنا نبنى دفاعاتنا استعدادا للهجوم : كان علينا أن نبنى ونرفع مواقع قادرة على التحكم في الشاطىء الغربى للقناة وفى الشاطىء الشرقى أيضا : كان خط بارليف أمامنا يكشف مواقعنا ، ورحنا نبنى ونرفع ونكشف الضفة

الشرقية ونتحكم فيها . وكان ذلك عملا صعبا غاليا في تكاليفه ولكنه كان ضروريا حتى أستطيع مساعدة قواتي ، وهى تعبر من الغرب إلى الشرق ، ثم حتى استطيع حماية قواتى للحشد واخفاءها قبل التقدم كمفاجأة للعبور .

كان ذلك يعطينا ثباتا فى الموقع ثم أنه يعطينا ميزة فيما لو أحس العدو بنوايانا وحاول القيام بضربة إحباط أو ضربة اجهاض .. فيمكننا صده وتدميره ..»

هذا عن التصور العام للخطة ..

ولكن إعداد الدولة للحرب وإعداد مسرح العمليات وإعداد الجيش للعمليات الرهيبة المقبل عليه كلها عبارات تخفى وراءها آلاف من التفاصيل نجد لمحات منها في الأقوال التي أدلى بها قادة الأسلحة المختلفة لقواتنا المسلحة :

قال اللواء جمال محمد على مدير سلاح المهندسين :

وراء النجاح العظيم الذى حققته قواتنا المسلحة بقفزتها الباسلة عبر القناة واجتياحها الجارف لخط بارليف كانت جهود المهندسين العسكريين المصريين وكانت ابتكاراتهم الفذة وحلولهم العملية للمشاكل التى كانت تواجه عبور القوات فوق المانع المائى «قناة السويس» ثم المانع الآخر المتمثل في السد الترابى الذى أقامه الإسرائيليون بارتفاع ٢٠ مترا من حول خط بارليف .

وقبل ذلك كله كانت هناك جهود المهندسين العسكريين طوال السنوات الست الماضية من أجل التجهيز الهندسي لمسرح العمليات والذى امتد بطول سواحل مصر دعما لسلاحنا البحرى وبطول جبهة القناة دعما لقواتنا التي كانت تنتظر قرار العبور وبعمق مصر كلها فى المطارات العديدة التى تم تجهيزها فى العمق المصرى تفاديا لضربة مفاجئة من العدو .

ـ استطاعت ابتكارات المصريين فى بناء دشم الطائرات أن تكون نموذجا أخذ به بعد ذلك خلف غرب أوربا «الاطلنطى» .

ـ استطاعت ابتكارات المصريين فى بناء قواعد الصواريخ أن تكون نموذجا عدلت على أساسه أساليب بناء قواعد حلف وارسو.

ـ استطاع الجهد المصرى أن يقلل المدة الزمنية لبناء كبارى الاقتحام عبر القناة من ٢٤ ساعة الى ٥ ساعات واستطاع المهندسون العسكريون بمعاونة المؤسسات الصناعية فى مصر أن يصنعوا محليا نصف معدات العبور .

ـ استطاع المهندسون العسكريون بعد تجارب عديدة أن يتغلبوا علي مشكلة السد الترابى باستخدام طلمبات المياه التوربينية التى تدفع المياه بمدفع مائى ومن خلال ٣٠٠ تجربة علمية بدأت أولها بمعاونة من المهندس صدقى سليمان أيام كان

وزيرا للسد العالى استطاع المهندسون العسكريون أن يصنعوا المفاجآت التى أذهلت العدو .

ظهرت أيضا مشكلة اصلاح الممرات بعد قصفها بقنابل الطائرات فى وقت قصير قياسى حتى لايؤثر ذلك على حبس الطائرات وتقليل كفاءة القوات الجوية وقد تمت أبحاث فى هذا الموضوع استغرقت حوالي ٦ شهور مع وزارة البحث العلمى من خلطة أسفلتية مخزنة وأسمنت سريع التصلب وخرسانة عادية وأخيرا وصلنا إلى ألواح صلب خاصة تم تصنيعها محليا .

كما أن مشكلة ازالة القنابل التى لاتنفجر وخاصة الزمنية منها كانت مشكلة كبرى أمكن التغلب عليها بتدبير الأجهزة الحديثة للتعامل معها والتى يفاجئنا العدو بأنواع مختلفة فى كل حرب من حرويه وقد شكلت وحدات ودربت فى المطارات وزودت بالأجهزة اللازمة لهذا الغرض .

وكان إنشاء المواقع فى منطقة القناة معركة تحدى فيها سلاح المهندسين الطيران الإسرائيلى والتحم فيها القطاع المدنى بشركاته بكتائب المهندسين العسكريين اذ كانت الوحدة المنفذة تتكون من شركة من القطاع العام ومعها كتيبة مهندسين وقد ظهرت أهمية وجود القطاع العام بالدولة وشاركت المرأة رجلها فى

تنفيذ هذه المواقع وقدم الشعب شهداء أبرياء في هذه المعركة مدنيين وعسكريين وكان للسرعة فى الإنشاء أثر أذهل العدو وكان العمل يتم ليلا فقط وتحت تأثير غارات العدو الجوية والقنابل الزمنية وتشمل إنشاءات الدفاع الجوى كتائب الصواريخ والرادارات ومراكز السيطرة .

أيضا استطاع سلاح المهندسين إنشاء أعمال وقائية لجميع أسلحة الدفاع الساحلى من مدفعيات وصواريخ وغيرها وكذلك تم إنشاء مراكز القيادة ، وكل ذلك كان يجرى فى مرحلة الاستنزاف.

وكدراسة لتقدير الحجم المطلوب من وحدات المهندسين اللازمة لعملية العبور من الوحدات السابقة ، ظهرت الحاجة الى تطوير مهمات الكباري المتيسرة لتكون كبارى اقتحام تنشأ فى ٥ ساعات بدلا من ٢٤ ساعة ، وذلك بالتصنيع المحلى فى جميع شركات الصناعات المعدنية ، وذلك استكمالا لعدد الكبارى التى وصلت من الاتحاد السوفييتي ، وكذا تصنيع القوارب الخشبية فى أحد المصانع الحربية ، وچاكتات النجاة وغير ذلك من مهمات العبور ، فقد وصل التطوير والتصنيع المحلى حجما يعادل ما وصل من الخارج .

وكانت مشكلة الساتر الترابى قد ظهر بشكل أكبر بعد إيقاف النيران فى أغسطس سنة ١٩٧٠ ، بإنشاء خط بارليف المكون من

حوالى ٢٧ قطعة قوية على طول القناة بواقع نقطة كل ٤ كم تقريبا، تم توصيلها بساتر ترابى يتراوح ارتفاعه بين ١٢ ـ ٢٠ مترا ، وهذه النقط الحصينة تم إنشاؤها علي الهيئات الحاكمة على المحاور الرئيسية فى المناطق الصالحة للعبور ، وتبلغ مساحتها فى المتوسط ٢٠٠ × ٣٥٠ مترا ، ومحاطة بأسلاك شائكة وحقول ألغام بعمق ٢٠٠ متر في المتوسط ، وبها جميع مرابض نيران الأسلحة المختلفة من رشاشات ومدفعيات وهاونات ودبابات فى شكل دفاع دائرى بمدخل واحد ، وبها ملاجيء للافراد من طوابق مختلفة وبدرجة وقاية عالية جدا ، اذ تقاوم قنابل الطائرات زنة أكثر من ١٠٠٠ رطل ، وزودت بأجهزة تهوية وتنقية ضد الغارات وأسلحة التدمير الشامل ، وبها وحدات إنارة وتكييف هواء وغير ذلك من المرافق الصحية ، وقد تكلف خط بارليف ، حسب تقدير الإسرائيليين ٢٣٨ مليون دولار ، والذى يعد من أقوى الخطوط الدفاعية وقته فى أنه يرتكز علي المانع المائى قناة السويس التى بلغ طولها حوالى ١٦٣ كيلو مترا ، ويتميز القطاع الجنوبى منها بسرعة التيار الذى يبلغ ١.٥ م/ث ، وارتفاع المد والجزر يصل إلى ١.٥ م ، كما يتميز المانع المائى بتكسية حجرية وستائر معدنية على جانبيه .

ونتيجة لذلك ظهرت مشكلة التغلب على الساتر الترابى وعمل فتحات به لعبور الدبابات ومركبات القتل ، مع تركيب الكبارى لتلحق بالمشاة التي تتسلق هذا الساتر ، وقد تم عمل تجارب عديدة للتغلب على هذا الساتر بإنشاء ميادين على فروع النيل بالعرض الطبيعى لقناة السويس ، وإنشاء ساتر ترابى بالحجم الطبيعي للتجارب والتدريب .

وقال قائد سلاح الامداد والتموين :

«الامداد والتموين قد لاتظهر فى صورة مباشرة كقتال لتلاحم مع العدو ، ولكنها تقف باستمرار خلف الجندى المقاتل ، مزودة اياه بكل ما يحتاجه من ذخائر للمدفع ووقود للدبابة أو للطائرة أو للقطعة البحرية اينما كانت فى مضيق المندب أو في البحر الأبيض.

تقف وراء الجندى تمده بما يحتاجه من غذاء ومن ماء فى مسرح صحراوى تندر فيه الموارد المحلية ، تمده بملبسه وبما يحتويه ملبسه من عتاد ، كما تقوم بمهمة النقل بوسائله المختلفة بجميع أنواع الاحتياجات، سواء كانت احتياجات ادارية أو معدات حربية لأجهزة أخرى ، كما تقوم بمهمة كبيرة وهى الخدمة الطبية.

وهناك مهام أخرى ، ولكننا اخترنا هذه المهام لارتباطها المباشر بمهمة القتال فى المعارك التى دارت فى ٦ أكتوبر .

طبعا الامداد يمثل شقا من مهام الامداد والتموين ، وهناك شق آخر لايظهر ، وهو التدبير ، وهنا برز الاعداد في اتجاهين : اعداد لجبهة القتال ، الجيوش الميدانية والبحر الأحمر ، وهذا ماسمى بتجهيز مسرح العمليات ، واعداد آخر فى العمق .

وأنا سأدمج الموضوعين فى بعضهم ، منعا أو تلافيا للتكرار .

الهدف للموضوعين هو تجهيز مسرح العمليات ، وخلق أفضل الظروف للمعاونة الادارية والطبية في المعركة الهجومية ، يلخص هذه المشروعات فى الآتى :

تم تطوير جميع محطات السكة الحديد فى الجبهة .

أنشئت المراسى فى الممرات المائية فى الجبهة ، ده من ناحية النقل، من ناحية الوقود ، كان لابد لتأمين الوقود باعتبار أن خزانات الوقود الكبيرة هدف من الأهداف الحيوية التى تتعرض لقصف العدو، فأنشئت في عمق الدولة سعات وقود مأمونة تحت الأرض ، تسع مايكفى لاستهلاك العملية ، بل مايكفى لاستهلاك عمليتين أو أكثر .

بالنسبة للمياه ، أنشئت سعات تخزين تبدأ من بورسعيد شمالا وفى مواجهة الجيشين ، وفى البحر الأحمر ، فى كل

القطاعات ، بحيث نأمن لكل قطاع على حدة مايكفى لاستهلاك ٣٠ يوما كيفما كانت ظروف العمليات وتطوراتها .

كما أنشئت أطوال من خطوط الانابيب للمياه في كل المحاور، وتخدم الاتجاهات من أول بورسعيد شمالا حتى برنيس جنوبا .

.. تم تجهيز اعداد من الأسرة فى المستشفيات المدنية ، بحيث تستوعب اعداد الجرحى المقدرين للعملية ، وطبعا الاعداد الحقيقية كانت أقل كثيرا جدا من المقدر .

تم تجهيز عربات لنقل الدم ، بحيث يصل الدم لغاية مستوى الفرقة وتجرى العمليات الجراحية «الجراحة المؤهلة» حتى مستوى الفرقة بامداد متواصل من الدم .

كما جهزت قطارات الجرحى وأنشئت غرف عمليات جراحية تحت الأرض فى غرب القنال تسمح بأن الأطباء يجروا هذه العمليات وهم فى ظروف مؤمنة علي قدر الامكان .

عندما بدأت العمليات فى ٦ أكتوبر ، في الواقع ، بالنسبة لتجهيز المسرح ولمهمة الامداد والتموين ، كان جزء كبير من العمل قد تم ، وأننا كنا جاهزين لادارة المعركة بالامكانات التى تم بناؤها خلال ٦ سنوات ونصف .

وكل هذا أدى إلى انتظام الامداد وانتظام الاخلاء الطبى دون أدنى خلل أو قصور ، وإنما أود بالإضافة الي انتظام هذا الامداد، أن أبرز بعض الجهود الواضحة .

حجم النقل فى هذه الفترة كان حجما كبيرا جدا وبمختلف وسائل النقل ، راعيت أننا نشرك كل الوسائل ، نقل بالعربات سواء كانت عربات عسكرية أو مدنية معبأة ، اشتركت كذلك السكك الحديدية، اشترك النقل المائى لغاية قناة السويس .

الموضوع الثانى الذى أحب أن أبرزه هو خطوط الأنابيب للوقود والمياه اعتبارا من ٨ أكتوبر كانت هناك معابر للوقود والمياه موجودة بالنسبة لكل رأس شاطىء من رءوس الشواطىء .

ثالث نقطة أود أن أبرزها هى ما حققته الخدمة الطبية بنجاح، ويمكن أن نوضح بأن أول الجرحى فى المعركة وصل الى المستشفى في القاهرة، هنا فى كوبرى القبة ، خلال يوم ٧ أكتوبر أى خلال ٢٤ ساعة من الإصابة ، بعد أن تلقى الاسعاف الأولى والعلاج المؤهل فى مستشفيات الجيش .

ولاشك أن مما ساعد على أن تكون الخدمة الطبية جيدة ، هو قلة عدد الخسائر ، مما أتاح للمستشفيات أنها تقدم العلاج بدرجة عالية .

وقال اللواء سعد الدين مأمون مساعد وزير الحربية :

«اتخذ السيد الرئيس قرار المعركة وهو يقدر تماما أن هذه المعركة ستؤثر على مستقبل مصر لأجيال مقبلة إلا أنه فى الحقيقة كان يثق في القوات المسلحة وراجع الخطط .. وقدر صعوبة التنفيذ إلا أنه كان واثقا من النجاح .

اتخذ القرار ثقة فى التخطيط .. ثقة في القوات المسلحة المصرية التى واجهتها مشاكل كان لابد من حلها :

أول مشكلة : العدو محصن فى خط بارليف الحصين الذى لايمكن تدميره بنيران المدفعية لأن نيران المدفعية لا تؤثر فيه بمنتهى البساطة .

ثانيا : لايمكن استخدام الطيران ضده من الناحية العملية لأنه على مسافة ٢٠٠ متر من قواتنا .

أنشأ علاوة علي المواقع الحصينة والنقط الحصينة ساتر ترابى بارتفاع من ١٠ أو من ١٢ الى ٢٠ مترا بنأخذ المتوسط ١٥ مترا .

أدى المنظر اللى قدامنا من الناحية التانية ، بالنسبة لقواتنا ده معناه أيه ببساطة .. هل عندنا هليكوبترات كفاية تشيل قواتنا من هنا الى الناحية التانية ؟ كان بقى الموضوع فى منتهى السهولة .

مـاعندناش. وده اللى قـدره الـعـود تمامـا وهو حـقـيـقى حنضطر كقوات مـسلحة مـصرية لعبور القناة بالمشاه فـقط أو بمعنى أصح مترجلين سواء كانوا مشاه أو بالمدفعيات أو نقط ملاحظة مدفعية . وأقصد بكلمة مشاه أى واحد مترجل يكون مسلح حنعبر بالمشاه فقط . مـسلحين بإيه.. بالأسلحة الصـغيـرة مسلحين بإيه بالمدافع المضادة للدبابات قصيرة المدى وهى التى يمكن حملها حتى وزن ٣٥٠ كيلو الـ b.11 أقصى مرمى لـهذه الأسلحة أيها السادة ٦٠٠ متر ضد دبابات العدو وعدد محدود جدا للسرية لا أقوله من بعض الصواريخ المضادة للدبابات ذات المدى الأطول .

طيب حنضطر إذن وفى قوارب مطاط يروحوا يعبروا يتسلقوا الساتر الترابى وأجزاء أخرى تهاجم خط بارليف وتعدى الناحية التانية وتقاتل..تقاتل أد أيه بالحساب .. يا مهندسين وبكل وسائل الحساب لايمكن فتح ثغرة حتى بدون تدخل ونهارا أو ممرات فى الساتر الترابى قبل سبع أو تسع ساعات .. العدو إذا أدخل فى الاعتبارات أن الليل .. وهو بالتأكيد متصور أننا هنهجم ليلا فحندخل كعامل على الأقل ١,٥ ضعف ثم تدخل النيران سواء بالطيران أو من نيران المدفعية حتتضاعف هذه المدة .

وفى الوقت نفسه ليست هذه هى المهمة فقط بل من ضمن المهمة تصفية والاستيلاء علي خط بارليف والنقط الحصينة مش

حتى لمجرد أنه مجرد أمر .. لا .. لأن هذا أمر واجب ليه لأن النقط الحصينة متحكمة فى جميع الاتجاهات السليمة اللى ننزل فيها المعابر والمعديات وفى الوقت نفسه نتخذها فى هذه الحصون الغير معقولة اللى حاطط فيها ضباط يديروا نيران الطيران والمدفعية .. يعنى بيصحح النيران تماما على صدور أبنائنا اللى بتعبر وعلى هذا كان من الواجب أيضا من ضمن الخطة أننا نهاجم خط بارليف في الوقت نفسه .

طيب مشكلة تانية فى منتهى البساطة هذا الساتر كلمة بسيطة كده لكن تعنى الكثير .. الساتر الترابى اللى حابس أسلحتنا ثم الذخيرة اللى إحنا راح نديها للأسلحة أسلحة صغيرة أو مضادة للدبابات أو ، أو كافية ؟ علشان تقاتل لحد ما الحملة تشيل باقى الذخيرة وتروح الناحية التانية والدبابات تروح الناحية التانية ..؟ كلام غير حقيقى يعنى يدوبك تقضينا ثلاث أربع ساعات .. الله طيب ولما أحنا هناك الكبارى ماتتعملش ولا المعديات ولا .. ولا .. ولا ونعمل هجمة مضادة العدد اتنين زى ما أحنا مقدرين تلاتة .. نعمل ايه مانلاقيش ولا طلقة واحدة مع الأسلحة .. طيب وايه الحل أدى حاجة في منتهى البساطة .. اضطرينا نعلم كلام بدائى لكن أفلح .. عملنا عربيات جر صغيرة ، بتتجر بالعسكرى .

مثلا مهاجمة خط بارليف حوائط حصينة فظيعة أسلاك ألغام فظيعة بكميات رهيبة غير معقولة .. حصينة فظيعة تتهاجم من الخلف أو بالمواجهة من قناة السويس .

المنطق العسكرى أقول لحضراتكم: أحنا اختلفنا كثير جدا على كل المستويات لكن المنطق الواحد يقول يهاجمها من الأجناب والخلف قعدنا نوازن بمنتهى العمق من أول مستوى القيادة العامة لغاية أقل الناس وقررنا أن نهاجمها من الأصعب لاحقاق المفاجأة وفيه حاجات أخرى راح أقولها لحضراتكم برضه مش سر .. قررنا مهاجمتها من الأمام . ننزل من الضفة الغربية .. نركب القوارب ويتطلع علي النقط القوية ونخش جواها ونقتل العدو .

أولا .. الابتكار الأول طيب احنا نفتح ازاى الثغرات فى هذه الحصون .. الناس قدرت وضباط صغيرين مش كبار هم اللى قدروا ولكن احنا بنستفيد من جميع الآراء أننا نقدر نفتح الثغرات مادامت المسافة ٢٠٠ متر بالمدفعية بتاعة الضرب المباشر علي هذه النقطة حنروح فاتحين ثغرة فى الألغام والأسلاك كلما نفتح اثنين فى ثلاثة القوات حتنزل وتعدى ولا ندور وننتظر الدبابات تيجى لأن من ورا ٢٠٠ متر حقول الألغام ما تتشالش .. نعلم أن خط بارليف لاتؤثر فيه المدفعية ولا الطيران كانت النتيجة أننا قلنا

نكتفى باطلاق النيران علشان العساكر بتوع العدو تخش تحت وتستخبى أثناء هذا بنضرب الطلقات الضرب المباشر وبعدين بننزل ونطلع نهاجمهم .

طيب ونيران المدفعية بنرفعها ١٠٠ متر قبل قواتنا راح تصيبها الشظايا بتاعتها .. طيب نستعيض عنها بإيه بقنابل يدوية حطينها فى حاجة اسمها كاسات اطلاق علي البنادق ونفضل نضربها تنزل تكمل العملية تستر آخر فترة الناس تدخل جوه .. عندئـذ يبقى يا قاتل يا مقتول .. العساكر دخلت النقطة والعدو جوه والقتال المتلاحم بالقنبلة اليدوية بالسونكى بالطلقات وهذا ما تم فعلا وكانت المفاجأة للعدو لأنه لايتصور أن ده بيحصل .

موضوع تانى فى التخطيط قيل بمنتهى البساطة .. انتخاب الساعة اثنين الظهر .. جميع العقائد يا أما الصبح بعد أول ضوء بساعة .. اثنين يا أما آخر ضوء .. يا أما قبل آخر ضوء بساعة علشان نضرب مدفعيته .. أما الساعة اثنين ده لم يرد فى التاريخ من قبل ومع هذا التقدير العام اتوزن وقررت القيادة العامة أن ده يكون الساعة اثنين وهذا أيضا كان مفاجأة ويل الروس والأمريكان نفسهم والإسرائيليين نفسهم لم يكن متصورين أن مثل هذا التوقيت يمكن يكون هو ساعة بدء الهجوم .

دى عينات من بطولة التخطيط والتفكير البسيط .

قررنا رغم أن ده يكون ضد كثير جدا من مبادىء الحرب أن قادة الكتائب وقائد الكتيبة مقدم أو عقيد .. ده يعدى مع الجنود بعد ١٥ دقيقة من بدء القتال .. يكون علي الناحية التانية بقارب مطاط مع العساكر قائد اللواء بعد ٤٥ دقيقة يكون علي الناحية التانية مع قواته .. قائد الفرقة العميد أى مايساوى مدير عام .. تصوروا مديرى العموم بعد ساعة ونص يلاقى نفسه الناحية التانية فى الضفة الشرقية علي القناة مع كل وسائل السيطرة القانونية وكان قرارا جريئا لكن هو ده اللى حصل القادة في الأمام مع الجنود فكان لها فعل السحر فعلا في المعركة ، أدى مثل للروح المعنوية والتصاق القادة بالجنود .

هؤلاء الناس والقادة عبروا تماما زى الجنود على قارب مطاط معاه أسلحته وطلع الساتر الترابى ١٥ مترا .

مثال ثاني .. ولعله سر وهذا ما لا أريد أن أذكره ولكن لازم أقوله .. خسائر القادة بتاعتنا علي كل المستويات والضباط فى هذه المعركة رغم أنها قليلة جدا وغم أنها لم نكن نقدر أن هذه الخسائر تكاد تصل الى عشر الخسائر اللى كنا متصورينها هى أعلى نسبة فى الخسائر فى أى حرب فى العالم حتى الآن .. ليه .. لأن القاة كانوا فى الأمام دائما ..

وقال اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية المصرية :

«من الحقائق المعروفة عن حرب ٦٧ أن العدو قد تمكن فى ضربة جوية مركزة ضد القوات الجوية المصرية من إحداث خسائر كثيرة بها ، الأمر الذى جعل القوات وقتئذ غير قادرة على تنفيذ مهامها أو القيام بواجباتها أثناء العمليات .

إن القوات الجوية لم يكن بها إلا عدد محدود من المطارات غير المحصنة وغير المحمية تتمركز بها الطائرات فى العراء وفى غير دشم محصنة مما يعرضها للخسائر الكثيرة في الهجمات الجوية.

حقيقة حرب ٦٧ كانت منطلقا لنا لبناء القوات الجوية وأعطتنا خبرة كبيرة وخرجنا بدروس مستفادة منها حتى ننشىء قوات جوية حديثة تمكنها من تنفيذ مهامها حيال الوطن .

بعد حرب ٦٧ وبعد دراسة الموقف للقوات الجوية وجدنا أنه لابد من إكثار عدد الطيارين بالقوات الجوية حتى تتمكن من أداء مهامها . إعداد الطيارين كما هو معروف مسألة وقت والطيار لايشترى وإنما الطيار يدرب ويحتاج إلى وقت كبير فى التدريب من أربع الى خمس سنوات .

أنشأنا فى المطارات ممرات كثيرة حتى أن ده يصعب علي العدو اذا جه علشان يدمر مطار حايدمر ممر، إن دمر واحد مش

حايدمر الثانى أو حايدمر الثالث، عملنا دشم حصينة عشان نحط فيها الطيارات وافتكر مدير المهندسين امبارح تكلم عن موضوع الدشم .

عندنا حالات استعداد بصفة مستمرة فى أنحاء الجمهورية يعنى طائرات جاهزة للاقلاع خلال من دقيقتين ونص إلى ثلاثة لاعتراض أى هدف معادى ، يظهر على شاشات الرادار أو يبلغ عنه بالمراقبة بالنظر. دى مهمة مستمرة من بعد ٦٧ لم تنته وإلى الآن . جت حرب الاستنزاف . كل ده حمل زائد علي القوات الجوية أثناء تجهيزها وبنائها وتدريب طياريها وأطقمها للعمليات طبعا كنا مابين حالات استعداد وما بين تدريب ومابين قتال جوى حاجات كثيرة جدا فى وقت واحد إلا أن احنا أمكننا أننا نجتاز هذه المرحلة ولتصميمنا علي أن المعركة آتية لا مفر منها فكرنا لابد أن نستمر فى البناء بأى شكل كان كان .

القوات الجوية فى أى عملية هجومية وأى قوات جوية فى أى عمليات هجومية لها مهام رئيسية تنفذها فى هذه العملية مهمة .

من مهامها أن القوات الجوية تقوم بضربة مركزة أو ضربة رئيسية أو ضربة كبيرة زى ماتسميها ضد أهداف العدو مطاراته حتى لا تؤثر على هجوم القوات علي قيام القوات البرية بالعمليات الهجومية .

كان على وسائل الدفاع الجوى وصواريخه الحماية ضد هجمات العدو حتى لا تؤثر علي طياراتنا عندما تقوم بمعاونة الجيش وضرب مركز السيطرة بتاعتنا ، يعنى المركز الرئيسى اللى بيدير الطيران بتاعه، يوجه الطيران بتاعه تضربه وتشل فاعليته يقوم بربكة في استخدام طيرانه ولو لفترة ما الى أن تنفذ أول مراحل العمليات اذا كان له محطات شوشرة تشوشر على محطات الرادار التي تؤثر علي الدفاع الجوى وعلى القوات الجوية فى عملياتها دى برضه من مهامه . إذن الضربة الرئيسية هى ضربة رئيسية كبيرة بقوة كبيرة من الطيارات لتؤثر أو تشل أو تدمر هذه الأهداف بسرعة حتى تمكن القوات البرية أو قوات الدفاع الجوى من إمكان تنفيذ مهامها وكذا القوات الجوية .

القوات الجوية لها مهمة أخرى وهى الاشتراك مع قوات الدفاع الجوى فى حماية الأهداف الحيوية لأى دفاع وكذلك قواعدها الجوية .

القواعد الجوية والأهداف الجوية فى الدولة حاجة مهمة جدا لابد من تأمينها وحمايتها .

القوات الجوية برضه بتضرب احتياطيات الجيش المعادى كلما تقدم فى اتجاه قواتنا أثناء تقدمها . أيضا القوات الجوية تشارك القوات البرية فى معاونتها أثناء عملياتها تعاون القوات البحرية .

القوات الجوية تقوم بصد الهجمات الجوية أيضا المعادية بالاشتراك مع قوات الدفاع الجوى .

القوات الجوية أيضا عليها مهمة الاستطلاع الجوى . ومهمة أخيرة للقوات الجوية عموما هى التعاون مع قوات الابرار يعنى انزال قوات الابرار ، قوات الصاعقة اللى بتنزل فى أوقات معينة علشان عمليات تخريب أو علشان تعطيل ..إلخ .. اللى بتقوم بنقلها وتنفيذها هى القوات الجوية عمليات الانزال اذا كان فيه انزال من طيارات للمظليين اللى بتقوم بها القوات الجوية .

قبل أن أبدأ فى سرد أحداث أكتوبر ١٩٧٣ من وجهة نظر الدفاع الجوى أود أن أوضح دور الدفاع الجوى فى مواجهة وسائل الهجوم الإسرائيلى ، والمهام التي تؤديها قوات الدفاع الجوى فى السلم والحرب، إذا تصورنا أن لدى اسرائيل حوالى ٥٠٠ طائرة قتال تستطيع أن تلقى فى طلعة واحدة حوالى ٢٠٠٠ طن من المتفجرات أى تستطيع فى خلال ثلاثة أيام قتال أن تلقى فوق الجبهة مايعادل أول قنبلة ذرية ألقيت فوق هيروشيما .

هذه القوة الجوية الكبيرة والتي كان العدو يفخر بقدرتها ويعتبرها سلاحه الرئيسى الذى لايقهر .. سلاحه الرئيسى اللى بيقوم به بتأديب أى دولة تسول لها نفسها تحرير أراضيها المغتصبة .. هذا السلاح الذى مكن اسرائيل من العربدة فى

المنطقة ، كما قال قائدنا الأعلى ورئيسنا أنور السادات ، تلك القوات هى التى كان على قوات الدفاع الجوى أن تواجهها وأن تحمي أهدافنا الحيوية ضدها ، كما كان عليها أيضا توفير الحماية للقوات البرية والبحرية والجوية ضد الهجمات الإسرائيلية.

إذن كان علي قوات الدفاع الجوى أن تكون على درجة استعداد عالية باستمرار سواء في فترة اللاسلم واللا حرب أو مع اندلاع الحرب لحماية الأهداف الحيوية الرئيسية في الدولة بالإضافة الى حماية القوات البرية والبحرية والجوية ، لصد الهجمات المعادية وإنزال أكبر خسائر فى طائرات العدو .

احنا حققنا نصر، ونصر كبير كدفاع جوى ، هذا النصر ليس وليد ساعة أو وليد تجهيز أسبوع وأنا مباقولش سر اذا كنت بأقول يمكن أن هوه أقوى نظام صواريخ ودفاع جوي موجود فى منطقة الشرق الأوسط. طيب إزاى احنا من أين لنا هذا كدولة نامية ؟ علشان كده أنا بأقول هذه المقدمة لأن عايز أرجع بحضراتكم ، إلى المدى البعيد شوية ، الخلفيات بتاعة إنشاء الدفاع الجوى ، لأنه كله مفاخر ، وتاريخ ، عندنا قاعدة عريضة ابتدينا عليها ، ابتدينا علي الرجل السليمة وكانت عندنا القوة الدافعة ، وكانت عندنا خبرة المعارك السابقة وعلشان كده قررنا نعد فى أقصر وقت ممكن اللى مقدرتش تعده أى دولة نامية أخرى .

والنكسة بقدر ما كانت مؤلمة .. بقدر مما كان لها فضل كبير جدا على الدفاع الجوى .. حائط الصواريخ كان قدامنا وجهة نظر، بنقول إن احنا نقفز نجيب حائط الصواريخ ونقفز به مرة واحدة للأمام لمنطقة الجبهة ، وجهة النظر الثانية بتقول إن احنا نعمل عدة نطاقات وننتقل ببطء وبنسميه الزحف البطيء، وكل نطاق بنبنيه وبنحتله فى حماية النطاق الذى سبقه، كل وجهة نظر لها مزايا ولها عيوب ، وأخذت نقاشا كبيرا على أعلى المستويات ، واستقر الرأى والمفاضلة على أنا نأخذ بالنظرية الثانية اللى هيه الزحف البطيء وفعلا تم إنشاء مواقع النطاق الأول وتم احتلالها خارج مدينة القاهرة دون أى رد فعل من اسرائيل .

استغلالا للنجاح قررنا إنشاء ثلاث طاقات فى منتصف المسافة بين القاهرة وبين الجبهة ووضعت خطة دقيقة وطموحة فعلى مدى ليلتين فقط كان علينا ان احنا ننشيء تحصينات بتاعة حوالى ٢٤ موقعا ، نجهز مراكز القيادة بالمواصلات وخلافه ، نمهد الطريق والمدقات ، نحرك بطاريات الصواريخ وتحتل مواقعها مع وسائل الدفاع م.ط المباشر عنها، ووسائل الانذار المختلفة اللازمة لها، تدفع مجموعات من مهندسى الالكترونيات علشان تضبط وتختبر وتجهز هذا العدد الكبير من المعدات اللى كان عليه

يجب أن يكون جاهزا للقتال فى خلال ساعات قليلة من وصوله الي مواقعه .

كل الأعمال دي يجب أن تتم بنجاح وتعمل ليلا وليس نهارا حتى تتم المفاجأة للعدو ، وفعلا تم تنفيذ العملية فى تناسق كامل ، وتم تنفيذ هذه الأعمال فى التوقيت المحدد وبدقة مثالية كسمفونية لا نشاز فيها ، وفى صباح يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٧٠ حصل إيه ؟ فوجئت الطائرات الإسرائيلية المغيرة بالصواريخ المصرية ، وتكبدت خسائر لم تكن تتوقعها ، وتكررت المحاولات بمزيد من الطائرات ومزيد من أسلحة الاعاقة ومزيد من التكتيكات المضادة للصواريخ ومزيد من أعمال الخداع والنتيجة كانت إيه؟ مزيدا من الخسائر ومزيدا من الأسرى الطيارين الإسرائيليين .

وبدأت اسرائيل تتباكي ولا أنسى فى هذا المجال تصريح أبا ابيان لما قام فى الكنيست وقال «لقد بدأ الطيران الاسرائيلى يتآكل» وكانت خسائر العدو الجوى فى الفترة من ٣٠ يوليو الى ٨ اغسطس ١٩٧٠ طبقا للبلاغات الرسمية اللى صدرت من جانبنا عدد ١٦ طائرة.. هذا العدد كان عددا متواضعا من ناحيتنا زي المعتاد ، لأن كل مانوقع طيارات ، سيادة الوزير يقول لى لتجيب لى الطيارة لمحسبهاش لك ، ففعلا كان عددا متواضعا لأن بعد

وقف اطلاق النار «بيرجس» المشرف علي رعاية المصالح الأمريكية أبلغ أحد كبار المسئولين المصريين .. أننا قللنا جدا من الخسائر التي أنزلناها بالطيران الإسرائيلى ويعزز ذلك ماصدر فى إحدى المجلات الأمريكية «مجلة أفييشن ويك» بتاريخ ١٦ نوفمبر حيث قدرت خسائر اسرائيل بعدد ٥١ طائرة ، دمر منها ١٧ وأصيب ٣٤ وقد استعاضوا هذه الطائرات بواسطة أمريكا يعنى معظم الخسائر بتاعتهم حصلت فى آخر عشرة أيام .

وكانت لنتيجة نجاح خطة الخداع أثر كبير علي العدو ، وبرز ذلك فى قول مائير : «ان كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب المشئوم» كلما دمرنا إحداها نبتت بدالها أخرى» .

إن ديناميكية قواتنا والتى أتبعت مبدأ العمل ثم العمل والسرعة جعلت العدو في متاهة بالنسبة لماهية حائط الصواريخ اذا كانت حائطا فعلا بالنسبة لقوته ومنعته وأسراره .

طيب نتيجة هذا العمل فى هذه المرحلة إيه ؟ كان علينا أن احنا نستكمل أعداد القوات بتاعتنا بتاعة الدفاع الجوى علشان تحرير سيناء، وكان نتيجة الأعمال اللى تمت خلال هذه الفترة ان احنا ـ أعنى القيادة ـ اكتسبت خبرة كبيرة فى التخطيط والتفكير وادارة أعمال القتال بسرعة والتصرف بذكاء فى المواقف الطارئة ،

اكتسبت القوات خبرة عملية فى استعمال المعدات الالكترونية المعقدة ، ثم تطوير اساليب التدريب بطريقة مبتكرة فعالة وبعيدة عن الأساليب التقليدية .

وقد يبدو أمام الكثيرين أن هذا التطوير قد استغرق مدة طويلة، ولكن ذلك يعتبر فى الحقيقة قفزة رائعة تمت بنجاح اذا حطينا في اعتبارنا ، علشان ننشىء قوات صواريخ بالاعداد الهائلة اللى موجودة عندنا والأنواع المختلفة . وكلها حاجات الكترونية ومعقدة . علشان ننشىء قاعدة الصيانة والاصلاح لمثل هذه المعدات المعقدة وعلشان نفهم أسرار هذه المعدات ونجيد استخدامها بدقة وفاعلية كل ده لايتم فى سنة ولا فى سنتين» .

وتحطمت الاسطورة عند الظهر

فى الساعة ٢ تماما ظهر يوم السبت ٦ اكتوبر كانت موجات كثيفة من الطيران المصرى تعبر خط قناة السويس متوجهة فى ثوان الي الاهداف المحددة لها في سيناء . كانت هذه الأهداف في الدرجة الأولى هى المطارات المتقدمة ومراكز قيادة العدو ومراكز التشويش الالكترونية ومواقع الصواريخ المعادية المضادة للطائرات.

كانت هذه أهدافا بالغة الأهمية فى الساعات الأولى للمعركة .. وصفها قائد القوات الجوية المصرية بقوله «ضربنا مركز سيطرة كبير في سيناء ، هو مركز «أم مرجم» الذى يسيطر على القوات الجوية والدفاع الجوى للعدو فى سيناء . وضربنا محطات الرادار الأمر الذى شل هذا المركز واضطر العدو الى نقل مركز السيطرة الى مكان

آخر . وحــدث ارتبـاك كـبـيـر فى هـذه اللحظات الحـاسـمـة لدي القـــيادة الاسرائيليـــة. لم يكن قـــادرا وقـتـها على السيـــطرة على طائراتـــه لأن مـــركـز القـــيادة والسيطرة دمـــر تقريبا ، كذلك تم تدمير مركز التشويــش ، وهـــو المخصص للتشويش على أجـهــزة راداراتنا وبالتالى يؤثــر علي عـمــل صــواريخنا فى الدفـا ع الجـوى وعلى عـمليـات قـواتنا الجـوية عند توجـيـه المقاتلات الى أهـداف مـعاديــة وكـذلك ضـــرب المطار الرئيسى فى سيناء لقربه الشديد من قواتنا ولكونه مركز النشاط الرئيسى لطيران العدو» .

وفى نفس اللحظــة ظهــرت على شاطىء القـناة فجـأة آلاف من المدافــع بشتــى أنـواعـها واحجـامـها تــركـــز نـيـرانها الهائلة على سلسلـــة تحصـينات العــدو فى صـورها وأعـماقـها المختلفة .

وكانت هذه المدافع قد تسللت فى الأيام السـابقة الى مـواقعها التى أعـدت من قـبل فى هدوء حـتى برزت فـجـأة يوم القـتـال ولم يشعر العدو المتـحـصن فى الدشم والخنادق إلا ونيرانها تنصب عليه بكميات هائلة .

كان هذا القصف المركز لمدافع العدو يستهدف تدمير أقصى قدر ممكن منها وارباكها وشل فاعليتها فى اللحظات التى تسبق وتصاحب عبور القوات : من نسف حقول الألغام وتدمير خطوط الأسلاك الشائكة واسكات مواقع المدفعية المضادة وسد مداخل سلسلة تحصينات خط بارليف .

وليس ضرب المدفعية عملا عشوائيا . ولكنه عمل ينطوى على حسابات دقيقة بدوره ، للتنسيق بين الاهداف المطلوبة من كل نوع وحجم من المدفعية ، ولتوجيه تصويباتها وتعديل هذه التصويبات خصوصا على الاهداف التى لن تلبث أن تتحرك وراء خط الدفاع الثابت وفى مقدمتها الدبابات ، ثم الاستمرار فى القصف فوق رءوس قواتنا المهاجمة من حيث تسقط قنابلنا بمسافة محسوبة أمام هذه القوات وهى تتقدم وهى مسافة حساسة تتراوح بين مائة وخمسمائة متر فقط لا غير بين القوات الزاحفة وبين أماكن سقوط القنابل المنطلقة من خلفها والمتجهة الى اهداف العدو ..

وفى الوقت نفسه كما قال العميد نبيل شكرى قائد القوات الخاصة، «كانت قوات الصاعقة تعنبر بقواربها قناة السويس على امتدادها من بورسعيد شمالا الى السويس جنوبا ، وكان لهم شرف رفع أول مجموعة من الأعلام فوق تراب سيناء لتنطلق من بعدها موجات متتالية من المشاه بروح معنوية عالية بعد أن شاهدوا من الضفة الغربية قبل دقائق من زحفهم رفاقهم أبناء الصاعقة يعبرون المانع الرهيب وينقضون على العدو داخل مواقعه الحصينة محطمين أسطورة الجيش الذى لايقهر .. وكانوا أول من يقهر الساتر الترابى العالى الذى أنشأه العدو على الضفة الشرقية ، مستخدمين الحبال ليصلوا الى أعلى جزء فيه ، بغرض تأمين قواتنا من استخدام العدو لهذا الساتر ، واستولوا على المصاطب التى أعدها العدو لدباباته كمواقع تعمل منها .. ثم قاموا ببث الألغام فى هذه المصاطب ونصبوا كمائن لاقتناص الدبابات المعادية التى ستحاول الدخول اليها» .

وكان العدو يعتمد هذا الساتر الذى يرتفع بين ١٥ و ٢٠ مترا أى أشبه بعمارة ارتفاعها خمسة طوابق ـ كما يعتمد على أنابيب المواد المشتعلة فى عملية الرد الأولى ..

وكما فوجىء العدو بأن مواسير المواد المشتعلة قد قطعت وأغلقت عند الفجر «يقول ونستون تشرشل أن أحد المهندسين الإسرائيليين كان قد بدأ فى اصلاح أول ماسورة عندما فوجىء بجنود الصاعقة المصريين فوق رأسه» ، وقال مراسل آخر «إن أول مهندس وصل لاصلاحها وقع فى الأسر» كذلك فوجى العدو بأن المصريين قد توصلوا الى حل آخر لهذا الساتر لم يخطر لهم على بال : فلابد من فتح ثغرات فى هذا الساتر الملاصق للمياه مباشرة لتركيب كبارى كافية لعبور القوات الرئيسية . ولم تكن المدفعية تؤثر فيه ، ولكن شباب سلاح المهندسين والأجهزة الفنية فى القوات المسلحة كانوا قد توصلوا خلال مرحلة الاعداد للحرب الى صيغة بسيطة : موتورات تدفع المياه بقوة ضخمة جدا على الساتر فيتفتت الجزء المطلوب شقه ويبدأ فى الانهيار «وان كان الاسرائيليون يعتقدون أن فى الأمر سرا آخر لم يعلن ، وربما كان مادة كيمائية معينة فى المياه المندفعة» .

وفى الوقت نفسـه كانت هناك أعداد كبيرة من طائرات الهليوكوبتر المصرية قد أفرغت حمولاتها من رجال الصاعقة فى عمق سيناء .. يهاجمون خلف خطوط العدو وعلى أهداف محددة لهم .. وكانت وحدات من هذه القوات تزحف علي مياه البحر الأحمر والبحر الأبيض وتصل الى أهدافها على سواحل سيناء فى أماكن بعيدة وغير متوقعة .

وفى وهجة هذه النيران المشتعلة ، والقنابل المتفجرة فى كل مكان ، وعمليات الاقتحام التى تقوم به القوات الخاصة ، تتلوها قوات من المشاه تحمل مدفعيتها وصواريخها المضادة للدبابات ، كان لابد أن تتم عملية من أكثر العمليات حساسية فى المعركة كلها : وهى إقامة الكبارى الموصلة بين الضفتين حتى تعبر فوقها القوات الرئيسية وخصوصا الدبابات .. وكان لابد أن يتم هذا بسرعة كبيرة ، تسبق سرعة العدو فى تجميع قواته المدرعة وشن هجمات مضادة بها على قوات الصاعقة والمشاه التى عبرت بصدورها ، وكان عليها أن تعطل بصدورها وأسلحتها هذه الدروع حتى تعبر قواتنا المدرعة الأساسية .

ولعل حسابات العدو وكانت كما قالوا بعد ذلك على ألسنة بعض المحررين العسكريين ، أن تركيب الكوبرى خلال المعركة يستغرق فى المعدل بين ١٥ و ١٧ ساعة ، ولكن المهندسين الذين كانوا فى كل مكان أمكنهم تركيب بعضها فى خمس ساعات .

وعبرت أول قوات رئيسية وقوات مدرعة لتكون فى وضع الاستعداد لهجمات العدو المضادة التى لامفر منها ..

ونفس التحرك الذى شمل القوات البرية والجوية كان قد شمل بدوره القوات البحرية .

يقول الفريق فؤاد ذكرى قائد القوات البحرية « .. قبل بدء العمليات بفترة كان لابد أن تحتل الوحدات البحرية أماكن معينة فى البحر، دون أن تؤدى تحركاتها الى كشف نوايانا ، ولذلك كانت خطتنا الاعلان عن تنفيذ المناورة السنوية للقوات البحرية مع مناورات للقوات المسلحة لاختبار فعلى لنتائج تدريبنا السنوى .

«وتتمركز وحداتنا فى بورسعيد والاسكندرية ومرسى مطروح فى البحر الأبيض ، وفى الغردقة وسفاجة بالبحر الأحمر ، وبمقارنة القوات يتضح تفوق قواتنا فى المدمرات والغواصات

ووحدات بث وكسح الألغام .. وبتفوق العدو فى لنشات الصواريخ وقواته الجوية وطائرات الهليكوبتر .

ويتميز مسرح العمليات البحرية بطول سواحلنا وقدرها ١٦٠٠ كيلو متر ، بينما تبلغ سواحل العدو فى البحر الأبيض بما فيها الأراضى المحتلة «غزة وسيناء» ٤٠٠ كيلو متر ، ونتيجة لوضع اسرائيل السياسى والجغرافى تعتبر خطوط مواصلات البحرية لها بمثابة الشريان الرئيسى لاستمرار اقتصادها وامدادها بالمواد العسكرية والاقتصادية .

وكانت خطتنا أساسا مبنية على التعامل مع العدو على جبهة عريضة فى البحرين الأبيض والأحمر مع استخدام أقصى جهد للوحدات البحرية خلال الأيام الأولى للعمليات ، باستغلال عامل المفاجأة الى أقصى حد ، وتشتيت جهود العدو وارباك قياداته .

وفى اليوم الأول للعمليات ، اشتركت القوات البحرية بجميع تشكيلاتها من مدمرات وغواصات ومدفعية ساحلية ولنشات طوربيد ولنشات صواريخ وقوات الصاعقة البحرية وقوات الضفادع البشرية. فقامت لنشآت الصواريخ والمدفعية بتوجيه ضرباتها بالصواريخ الى مناطق شرق بورفؤاد ورمانه ورأس برم،

كما قامت المدفعية الساحلية بمعاونة قوات وقطاع بورسعيد بالنيران .

«أما فى البحر الأحمر فقد تم قصف شرم الشيخ بجميع أنواع الصواريخ ، وفى خليج السويس قامت الصاعقة البحرية بمهاجمة منطقة أبو دربة على الساحل الشرقى لخليج السويس، وهاجمت مجموعات الضفادع البشرية منطقة البترول في بلاعيم ، ودمرت حفارا ضخما ، كما قصفت منطقة رأس سدر بالصواريخ واشتركت بالمدفعية الساحلية أثناء التمهيد بالنيران لعبور قوات الجيش الثالث .

«وقد اشترك فى مهمات اليوم الأول حوالى ٥٠ وحدة بحرية بخلاف وحدات تأمين القواعد» .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر نفس اليوم فى نفس اليوم «ى» والساعة «س» كانت المدفعية السورية فى الجبهة الشمالية تطلق نيرانها بغزارة على طول خط المواجهة ، وألوية المدرعات تتخذ طريقها فى خطط الهجوم المرسومة لها على الخطوط الإسرائيلية.. قال وينستون تشرشل من الجانب الإسرائيلى «اختار السوريون قطاعا طوله ٢٥ ميلا وشنوا هجوما بطوله مستخدمين حوالى

١٢٠٠ دبابة أكثر من ضعف العدد الذى استخدمه روميل فى حرب العلمين، وبدبابات أقوى بكثير ، وكان يصحب الدبابات فى زحفها قوات من المشاه مسلحة بالصاروخ السوفييتى المضاد للدبابات المسمى فى الغرب باسم «ساحر» وهى صواريخ تسمح للمشاه بالتصويب علي أى دبابة معادية بدقة بالغة وهى على بعد ميل كامل منها . وكان لابد أن تقتحم هذه القوة المواقع الإسرائيلية .

وقد قاتل الإسرائيليون على الجبهتين قتالا مريرا ، واختصروا مدة حشد الاحتياطى الأول من ٢٤ ساعة الى ٦ ساعات ، ولكن سلاح طيرانهم كان أهم سلاح لجأوا اليه فى اللحظات الأولى ، اذ خرجت كل قواتهم الجوية في طلعات متتالية لاتنقطع ، تضرب القوات المهاجمة على الجبهتين ، ومتحملة خسائر لم يسبق لها مثيل في نسبتها الى عدد الطيران الإسرائيلى كله ، مستميتة في منع العبور فى قناة السويس والاختراق فى سوريا .

وقبل أن تنقضى الليلة الأولى من بدء القتال وقبل أن يشرق فجر اليوم التالى ، أى بعد حوالى ١٢ ساعة من بدء القتال ، كانت قد صدرت عن قواتنا فى الجبهتين البلاغات التالية :

الجبهة المصرية :

ـ البلاغ الأول «الساعة الثانية والربع بعد الظهر» قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا فى منطقتى الزعفرانة والسخنة فى خليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى من الخليج وتقوم قواتنا حاليا بالتصدى للقوات المغيرة .

ـ البلاغ الثانى «الساعة الثانية وخمسة وثلاثون دقيقة» ردا على العدوان الغادر الذى قام به العدو ضد قواتنا في كل من مصر وسوريا تقوم حاليا بعض من تشكيلات الجوية ـ بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية فى الأراضى المحتلة .

ـ البلاغ الثالث «الساعة الثالثة بعد الظهر » الحاقا للبيان رقم ٢ نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح وأصابت مواقع العدو باصابات مباشرة وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة .

ـ البلاغ الرابع «الساعة الثالثة وعشرون دقيق» حاولت قوات معادية الاستيلاء على جزء من أراضينا غرب القناة . وقد تصدت

لها قواتنا البرية وقامت بهجوم مضاد ناجح ضدها بعد قصفات مركزة من مدفعيتنا على النقط القوية المعادية ثم قامت بعض من قواتنا باقتحام قناة السويس مطاردة للعدو إلى الضفة الشرقية فى بعض مناطقها ولازال الاشتباك مستمرا على الضفة الشرقية لقناة السويس.

● البلاغ الخامس (الساعة الرابعة و٦ دقائق) نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة واستولت على نقط العدو القوية بها، ورفع علم مصر علي الضفة الشرقية للقناة كما قامت القوات المسلحة السورية باقتحام مواقع العدو فى مواجهتها وحققت نجاحا مماثلا فى قطاعات مختلفة.

● البلاغ السادس (الساعة الخامسة مساء) نتيجة لنجاح قواتنا فى عبور قناة السويس قام العدو بدفع قواته الجوية بأعداد كبيرة فتصدت لها مقاتلاتنا واشتبكت معه فى معارك عنيفة وقد أسفرت المعارك عن تدمير إحدى عشرة طائرة فى هذه المعارك.

● البلاغ رقم (٧) (الساعة السابعة وخمسة وثلاثون دقيقة):

نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس على طول

الجبهة وتم الاستيلاء على معظم الشاطىء الشرقى للقناة. وتواصل قواتنا حاليا قتالها مع العدو بنجاح كما قامت قواتنا البحرية بحماية الجانب الأيسر لقواتنا على شاطىء البحر الأبيض المتوسط. وقد قامت بضرب الأهداف الهامة للعدو على الساحل الشمالى لسيناء وإصابتها اصابات مباشرة.

● البلاغ رقم (٨) (الساعة ١٢ و٤٣ دقيقة بعد منتصف الليل):

قام العدو بعد آخر ضوء اليوم بهجمات مضادة بالدبابات والمشاة الميكانيكية ضد قواتنا التى عبرت قناة السويس ومن اتجاهات مختلفة وقد تمكنت قواتنا من صد جميع الهجمات وتدمير العدو وتكبيده خسائر كبيرة فى الأفراد والمعدات، ولازالت قواتنا تقاتل بنجاح من مواقعها على الضفة الشرقية للقناة.

● البلاغ رقم (٩) (الساعة السابعة وثلاثون دقيقة صباحا):

قام بتلخيص أحداث اليوم السابق وأضاف أنه فى ليلة ٦/٧ استمر قتال قواتنا مع العدو ودارت معارك عنيفة قام العدو بهجمات مضادة محاولا استعادة الموقف ولكنه فشل وتمكنت قواتنا من صد هجمات العدو مع تكبيده خسائر فادحة فى المعدات والأفراد وقامت قواتنا البحرية بتدمير خمس قطع بحرية

للعدو فى البحر الأبيض المتوسط وقامت بقصف بعض المناطق المعادية بالشاطىء الشرقى لخليج السويس ونتيجة لهذه المعارك وصلت نتائج القتال منذ بدئه الآتى: خسائر العدو - اسقاط ٢٧ طائرة للعدو وتدمير ٦٠ دبابة - تدمير ١٥ موقعا معينا شرق القناة وعدد من الأسرى يجرى حصره. علاوة على تكبيده خسائر جسيمة فى الأرواح بينما كانت خسائر قواتنا ١٥ طائرة مقاتلة وبعض طائرات الهيلوكوبتر كما تكبدت قواتنا بعض الخسائر فى الأفراد. ومازالت قواتنا تتدفق عبر القناة وتواصل تقدمها شرقا والاشتباكات الأرضية والجوية مستمرة.

● البلاغ رقم (١٠) (الساعة التاسعة صباحا):

لازالت قواتنا المسلحة مستمرة فى تدفقها وقتالها فى سيناء مكبدة العدو خسائر كبيرة. وقد قامت القوات الجوية للعدو صباح اليوم بقصف جوى بتشكيلات كبيرة على بعض المطارات واشتبكت معها مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى. وتم تدمير واسقاط خمس طائرات للعدو ولم تحقق غارات العدو الجوية أهدافها.

● البلاغ رقم (١١) (الساعة الثانية عشرة و٣٥ دقيقة) :

نتيجة لنجاح قواتنا فى عملياتها فى سيناء قام العدو فى الساعة ١١ قبل ظهر اليوم بتركيز قواته المدرعة تعاونها قواته

الجـوية للقـيـام بالهـجـمـات المضـادة ضـد قـواتنا فى القطاع الشمالى والجنوبى من الجبهة وقد قـامت قواتنا البرية بمعاونة قواتنا المقاتلة وبتركيز من مدفعيتنا وتمت ستر دفاعنا الجوى لصد هجمات العدو المضـادة تماما وتكبيده خسائر فادحة فى قواته المدرعة وفى الأفراد.، كما تم أسـر عدد منهم وبدأت قواته تنسحب شرقا.

● البلاغ رقم (١٢) (الساعة الثانية و٤٠ دقيقة بعد الظهر) قامت تشكيلاتنا الجوية ظهر اليوم بتوجيه ضربة جوية ضد مواقع الأفراد فى القطاع الأوسط والشمالى من سيناء شملت بعض مواقع العدو الإدارية وبطاريات مدفعيته ووسائل دفاعه الجوى وأحدثت بها خسائر كبيرة فى الأفراد والمعدات. وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة. وعلى الساحل الشمالى لسيناء قامت قواتنا البحرية بتنفيذ مهامها بنجاح فى قصف مواقع العدو الساحلية كما تمكنت من اسقاط طائرة هليكوبتر للعدو حاولت التدخل فى المعركة ومازالت قواتنا البرية تقوم بتصفية جيوب المقاومة المعادية بنجاح وتم أسر عدد آخر من أفراد العدو كما تم احداث العديد من الخسائر فى افراده ومعداته. وقد حاول تشكيل جوى معاد التدخل ضد

قواتنا البرية أثناء تنفيذ مهامها فى القطاع الشمالى فتصدت له وسائل دفاعنا الجوى وأسقطت له طائرتين.

كانت هذه البيانات التى صدرت خلال الاثنتى عشرة ساعة الأولى من القتال (وقد وصل عددها مع وقف اطلاق النار الى ٥٣ بيانا).

أما عن الجانب السورى فقد صدرت البيانات التالية فى نفس الفترة الزمنية:

● البلاغ الأول (الساعة الثانية و٢٥ دقيقة):

فى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم بدأت قوات العدو بالاعتداء على القوات السورية الأمامية على طول خط وقف اطلاق النار وتقوم قواتنا بالرد على مصادر النيران واسكاتها.

كذلك حاولت مجموعات من طائرات العدو خرق مجالنا الجوى فى القطاع الشمالى من الجبهة فتصدت له مقاتلاتنا وتدور الآن معركة جوية بين طائراتنا وطائرات العدو ولاتزال الاشتباكات مستمرة حتى الآن.

● البلاغ الثانى (الساعة الرابعة والثلث):

نجحت قواتنا فى ايقاف هجوم العدو على مواقعنا وانتقلت الى الهجوم المعاكس وقد حررت قواتنا بعض المواقع ومنها جبل الشيخ ويدور القتال الآن غربى خط وقف اطلاق النار.

● البلاغ الثالث (الساعة التاسعة والربع):

نجحت قواتنا فى اقتحام نقاط الدفاع - المعادية والتحصينات الأمامية والحواجز الهندسية للعدو واحتلت عدة مراكز من دفاعاته، فى هضبة الجولان المحتلة، وتتابع تشكيلاتنا تقدمها حتى الآن كما اسقطت وسائل دفاعنا الجوى ثلاث طائرات معادية.

● البلاغ الرابع (الساعة الحادية عشرة والربع):

تمكنت قواتنا بعد معارك ضارية بالدبابات ومختلف أنواع الأسلحة من تكبيد العدو فيها خسائر فادحة وتحرير عدد من المواقع والقرى فى هضبة الجولان المحتلة. كما أسرت قواتنا عددا من جنود العدو.

● البلاغ الخامس (الساعة السادسة وعشر دقائق):

اعتبارا من الساعة الخامسة والربع من صباح اليوم (الاثنين) استأنف الطيران المعادى نشاطه فوق منطقة الجولان. فتصدت له مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى واسقطت له عشر طائرات وعادت طائراتنا سالمة.

● البلاغ السادس (الساعة الثامنة واربعون دقيقة):

جرت فى الساعة السابعة والنصف من صباح هذا اليوم معركة جوية بين مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى وبين طائرات

العدو، أسفرت عن اسقاط اربع طائرات معادية وعادت طائراتنا سالمة وبهذا تكون طائراتنا قد اسقطت أربع عشرة طائرة هذا اليوم.

● البلاغ السابع (الساعة العاشرة و٢٥ دقيقة):

مازالت الاشتباكات الجوية مستمرة بين مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى وبين طائرات العدو. وقد تمكنا من اسقاط طائرتين معاديتين فى معركة جرت فى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح اليوم.

● البلاغ الثامن (الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة):

فى الساعة ١١,٤٠ من صباح اليوم قامت تشكيلات من طائرات العدو بمحاولة قصف معسكراتنا فى قطنة ودرعا ومراكز دفاعنا الجوى فتصدت لها وسائل دفاعنا الجوى واسقطت منها ثمانى عشرة طائرة سقطت معظمها فى أراضينا.

● البلاغ التاسع (الساعة الثانية والربع):

فى تمام الساعة الواحدة والثلث حاول طيران العدو الاغارة على قواتنا المتقدمة بهدف تثبيط مسيرة تقدمها فتصدت له تشكيلاتنا الجوية واسقطت طائرة معادية فوق خسنين فى منطقة الجولان.

وصف الفريق أول أحمد إسماعيل شعوره ساعة العبور مع لمحة من المشهد العام [١] فقال:

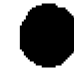
«كنا جميعا فى مقاعدنا.. وكانت الخطة أمامنا والعمليات تجرى أمام عيوننا، تحملها إلينا البلاغات من الجبهة: المهمة كذا بدا تنفيذها، المهمة «كذا» تم تنفيذها.

«من الساعة الثانية بعد الظهر كان المشهد فى غرفة العمليات مثيرا إلى أبعد حد: كان العمل دقيقا بأكثر مما يتصور أحد. اثبتت الخطة كفاءتها وكانت المهام تنفذ بجسارة واقتدار، وكانت هناك لحظات تهز المشاعر إلى الأعماق. ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأى انفعال.

«ضربة الطيران الرئيسية الأولى - تمهيد المدفعية ونيرانها الكثيفة - موجات العبور الأولى - عمليات الاقتحام المبكرة لخط بارليف - بداية اقامة الجسور - الجيش الثانى يفرغ من اقامة جسوره فى الموعد المحدد - الجيش الثالث يتأخر بعض الشىء بسبب طبيعة الأرض فى اتمام اقامة جسوره. الهجمات المضادة للعدو بالدبابات تجىء فى الموعد الذى توقعناه فى الخطة - جسور الجيش الثالث لابد من تركيبها بسرعة لكى تعبر الدبابات قبل أن تبدأ الهجمات المضادة للعدو أمام الموجات

(١) الحديث السابق

الأولى التى عبرت بالأسلحة المضادة للدبابات لابد أن تجىء دباباتها وراءها بسرعة.. أعصابنا يجب أن تظل قوية لان أى ارتباك فى مركز القيادة.. يحدث خللا فى توازن العمليات كلها - العدو يقاوم على الجسور وامام الحصون - قواتنا تواصل تنفيذ مهماتها - أبطال من رجالنا يستشهدون على الجسور وأمام الحصون ولكنهم يعبرون ويقتحمون - خسائرنا أقل مما توقعنا - خسائر العدو أكبر مما توقع. لم يعد هناك شك فى أننا حققنا انتصارا كبيرا».



كم تنطوى وراء هذه الصورة الموجزة المؤثرة من تفاصيل!

وكم كانت البلاغات العسكرية - بكلماتها الرزينة الموجزة - تخفى وراءها من ملاحم!

وقبل كل شىء وبعد كل شىء كان هناك بعد الخطة وبعد السلاح ذلك العنصر الحاسم آخر الأمر: العنصر البشرى.

عنصر الرجال:

رجالنا..

الضباط والجنود الذين كانت هذه السطور بالنسبة لنا، هولا وجحيما ، وبالنسبة لهم مخاطرة بالموت مئات المرات بالنسبة للواحد منهم فى كل دقيقة بل كل ثانية.

ذلك ان تنفيذ الخطة الموضوعة، بكل تفاصيلها المعقدة فى الوقت المحسوب لها كان جوهريا لنجاح العملية كلها. كان الوقت حقا من ذهب. أو مما هو أغلى من الذهب، وهو الدم.

ولم يتردد القادة والضباط والجنود فى الميدان فى دفع هذا الثمن بسخاء، من أجل انجاح الخطة.

ولاشك ان التنسيق بين شتى عناصر عملية العبور بمهماتها الشديدة التنوع كان أمرا بالغ التعقيد.

فى وقت واحد كانت ملحمة انسانية عسكرية كبرى تعزف سيمفونيتها..

الطيارون فى طائراتهم يقذفون مواقع العدو الخلفية ومراكز القيادة والتحكم وانطلاق الطائرات.. ورجال الصاعقة يتسللون عبر القناة والبحار والأجواء الى نقط فى عمق سيناء للقيام بعمليات شتى من المراقبة الى التدمير إلى ارشاد المدفعية الرابضة على الضفة الغربية ، رجال المدفعية وراء آلاف المدافع يضربون أهدافا شتى محددة لهم: منها النيران التى تغطى تحرك الجنود عبر القناة. والنيران التى تنصب على تحصينات العدو مباشرة، والنيرات التى تذهب الى عمق أبعد لتعطيل تحركاته ونجداته.. والمهندسون بأيديهم وأجسادهم ينفذون عملية سد مواسير المواد الملتهبة بالاسمنت التى تنبع من

مستودعات يسع كل منها ٢٠٠ طن من المواد الملتهبة مستعدة للاندفاع بالنار فوق سطح القناة، وقوات صاعقة أخرى تستعد لاحتمال عدم نجاح هذه العملية بالاستيلاء على المستودعات ذاتها.. والماكينات التى تمتص الماء وتدفعه بقوة هائلة على الساتر الترابى تفتح شقوقا فى هذا الساتر.. وفى الوقت الذى بدأ فيه الرجال الذين مهمتهم اقامة الكبارى يخرجون معداتهم تحت هذا الجحيم ليصلوا مابين الضفتين.. ثم قوات المشاة التى كان عليها أن تتواجد بأسرع وقت على الضفة الشرقية لتقتحم الحصون الأولى ذاتها وتستولى على المصاطب المرتفعة قبل أن يتحكم فيها العدو، ثم لتصد هجماته التى سوف يشنها بالطائرات وأسلحة مدرعاته المشيدة عليها.

كان على هذه القوات أن تعبر وتستبسل بل وتستشهد بالتحديد، حماية لمناطق العبور ورءوس الجسور.

كان مطلوبا منها فى الخطة أن تصمد مايقرب من ٢٤ ساعة، هى المدة التى قدرت تقريبا لعبور القوات المدرعة.

ولهذا عبرت القوات القناة مجهزة تجهيزا خاصا.

فقد درست أقصى حمولة يمكن أن يحملها الجندى معه عابرا القناة، وصاعدا على قدميه الساتر الترابى، ثم صامدا ومقاتلا.

وكان التقدير يدور بين ٢٥ و٣٥ كيلوجراما يجب أن تتسع لما يحتاجه من طعام وماء ودواء وسلاح وذخيرة. واختصرت مواد الغذاء الى اقصى حد لحساب مواد القتال، صنعت لهذه العملية خصيصا «عربات نقل خفيفة يجرها الجنود باليد عند صعودهم الساتر الترابى، تتسع لحمل الذخيرة التى سيحتاجون اليها. ثم تسليحهم فى الدرجة الأولى الى جانب اسلحة المشاة التقليدية بالصواريخ الخفيفة التى تستخدم ضد الدبابات أو ضد الطائرات.. فسيكون عليهم أن يواجهوا بأجسادهم هول الطائرات والمدرعات خلال هذه الفترة.

وكان العدو يقاتل قتالا عنيفا..

فاذا كانت بعض مواقعه قد أخذت على غرة، إلا أنهم لم يلبثوا ان قاوموا من هذه المواقع الحصينة بكل الأسلحة المتاحة لهم، والذخائر المخزونة لديهم فى كل موقع.. وبدأت قبل الغروب هجمات مضادة متفرقة على طول الجبهة معززة بقصف جوى كثيف من طائراتهم.. وعندما وصل جنودنا الى جدران الحصون ذاتها ثم إلى قلبها، دار القتال الرهيب رجلا لرجل وسلاحا لسلاح. تحت سماء تنفجر بالبروق والرعود والموت والدمار.. اما نيران مدفعيتهم ودباباتهم فكانت تركز كذلك على كل مابدا لهم أنه نقط العبور فى محاولة لتدمير «المعابر» المؤقتة

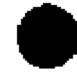
السريعة فى محاولة لمنعها من أن تستقر وتصبح جسورا وتتدفق من فوقها القوات.

وكانت أول نقطة حصينة من خط بارليف تسقط فى يد الجيش الثانى هى النقطة التى تقع عند الكيلومتر ١٩ جنوب بورسعيد بعد ساعة و٢٣ دقيقة. وكانت أول نقطة حصينة تسقط فى يد الجيش الثالث عند الكيلو متر ١٢٤ جنوبا بعد الأولى بسبع دقائق.

ثم توالى سقوط حصون خط بارليف.

وكان ما يسقط منها بعد ذلك أشد صعوبة. بقدر تنبه العدو واسترداده لتوازنه وحشد لقواته.. فالنقطة رقم (٢) جنوب الفردان فى قطاع الجيش الثانى مثلا دام القتال فيها ٤٨ ساعة متواصلة قبل سقوطها.. والنقطة الحصينة عند البلاح استولت عليها قواتنا ثم استردها العدو فى هجوم مضاد، ثم عادت قواتنا فهاجمتها واستردتها من جديد. كل هذا فى ليلة واحدة هى ليلة ٧ أكتوبر. . وأمام الجيش الثالث وحده كان هناك أحد عشر حصنا عليه اقتحامها والاستيلاء عليها وقد ظهر أن الأرض امامه ذات طبيعة «طفلية» كما ظهر أن الساتر الترابى فى بعض الأجزاء يصل سمكه الى مائتى متر.. الأمر الذى أخر عمل سلاح المهندسين فى فتح الثغرات المطلوبة طبقا للخطة..

وبالتالى دخول الدبابات الى سيناء، والمزيد من بطولات الضباط والجنود من قوات المشاه الذين كانوا يقاتلون على الضفة الشرقية حتى يتم تأمين العبور.



قال أحد الضباط الذين قادوا عملية العبور فى ساعاتها الأولى.

«الدفعات الأولى التى عبرت القناة كانت تحمل الاعلام وعندما عبرت القناة كان أول ما فعلته ان غرست اعلامها فوق التلال وتابعت الزحف لتصل الى نقطة جديدة وتنصب فوقها اعلاما جديدة.. رغم ما فى ذلك فى خطورة بالغة. ولكنك لاتستطيع أن تصف هؤلاء المقاتلين الأشداء. كنت أنظر اليهم فأشعر بأن تيارا كهربائيا قد مسهم. كانوا قد قرروا أن يعطوا حياتهم من أجل الوصول إلى سيناء».

فى اليوم التالى كان قد تم اقامة كلّ الجسور المطلوب اقامتها وعبرت القناة قوات تضم جيشين كاملين.

انتصفت شمس الظهيرة يوم ٧ أكتوبر على هذه الحقيقة التى لم تكن قد تخطر على بال العدو ولا على بال أى مراقب عسكرى اجنبى.

وكان الاسرائيليون قد بدأوا يشنون هجماتهم المضادة مع آخر خيط من الضوء يوم ٦ أكتوبر.

ولكن مع نجاح القوات المصرية فى العبور بكامل اسلحتها على الجبهة المصرية، ومع اجتياح القوات السورية لخطوط دفاع العدو فى الجبهة الشمالية، تحول اليومان التاليان الى هجمات مضادة اسرائيلية بقوات مدرعة كبيرة فى الجبهتين وقتال عنيف من المصريين والسوريين لتدعيم مواقعهم ورد الهجمات المضادة.. وبدأت معارك الدبابات فى الاتساع.

واتخذ رد الفعل الاسرائيلى ضد سوريا طابعا انتقاما وعلى الأغلب فى محاولة لتصفية سوريا بسرعة والتركيز على مصر، اذ لم يقتصر الطيران الاسرائيلى على الضرب فى الجبهة.. ولكنه إزاء الخسائر الفادحة التى لحقت به من بطاريات صواريخ سام ٦ وسام ٧. عمد إلى الانتقام بضرب الأهداف المدنية والاقتصادية. فأخذ يضرب قلب مدن دمشق وحمص وطرطوس واللاذقية.. ولكن الروح المعنوية العالية، التى لامثيل لها والتى واجه بها الشعب السورى هذا القصف والتدمير فى قلب مدنه وفى أرواح ابنائه كان لايقل شهادة للأمة العربية على بسالتها عن الشهادة التى كان يقدمها مقاتلوها فى جبهات القتال.

فى حين اتخذ رد الفعل الاسرائيلى فى مصر محاولة تدمير رؤوس الكبارى على قناة السويس ومنع تدفق القوات فراح يشن الهجمات المضادة بالألوية المدرعة المعززة بالمدفعية والطائرات بغير انقطاع.

ويوم الثلاثاء أعلن بيان عسكرى مصرى فيما أعلن تدمير لواء اسرائيلى مدرع - اللواء رقم ١٩٠ - بأكمله وأسر قائده الجنرال عساف ياجورى.

ويوم السبت بعد أسبوع من بدء القتال أعلنت اسرائيل مصرع الجنرال مندلر قائد كل قواتها المدرعة.

وصف اللواء حسن أبوسعدة قائد الفرقة المصرية التى دمرت اللواء الاسرائيلى ١٩٠ المعركة كنموذج لقتالنا ضد هجمات العدو المضادة فقال (١) :

فى اليوم الثانى من الحرب شاءت إسرائيل أن تلعب على المستوى الاستراتيجى. كان قادتها يحاولون الوصول إلى أعماقنا بأى شكل وكانوا يظنون انهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك كما فعلوا عام ١٩٦٧.

وقد بدأوا محاولتهم الأولى بارسال اللواء المدرع ١٩٠ من «بئر شوبا» على طريق العريش فى اتجاه الفردان. ثم أخذوا

(١) حديث عزت صافى ، جريدة الأنوار .

يدفعون مجموعات صغيرة من الدبابات الى الجناح الايسر لجس النبض. كانوا يتصورننا نظريين. وأخذنا نحن نصد هذه الدبابات على انها الهجوم الرئيسى للعدو.

بعد ذلك ارسلوا قوات صغيرة أخرى لدعم المجموعات المتقدمة.

ومرة أخرى ارسل العدو مجموعة ثانية باتجاه آخر. فأظهرنا له خطة متجاوبة مع هدفه بمعنى اننا تصرفنا وكأننا نلبى خطته.

وبعد ذلك دفع بمجموعة جديدة الى خلف قواتنا فى مكان جديد. ثم جاءت معلومات بأن قوات العدو تتجمع على بعد ٦ كيلومترات الى الشمال الشرقى من هذه المنطقة. وكنت تصورت أين سيكون الهجوم المضاد وكان فى منطقة الوسط وكنت مستعدا وبدأنا ننصب فخا للعدو.

وبعد عشر دقائق بدأ العدو هجومه بسرعة ٤٠ كيلو مترا، فأمرت الخط الأول بالنزول فى المخابىء وقلت لجنودى: اتركوا اللواء ١٩٠ يمر حتى نأخذه بالأحضان!

وعندما بدأت الدبابات الاسرائيلية تمر على حفر المشاة المموهة عندنا أخذ هؤلاء يقفزون من الحفر المموهة كالشياطين

ويدكون دبابات اللواء ١٩٠ فيما كانت دباباتنا وكل وسائلنا المضادة للمدرعات تطبق على العدو.

وكان قائد اللواء الاسرائيلى عساف ياجورى بعيدا عن قواته بثلاثة كيلو مترات. وطبعا لم تكن هذه المفاجأة تخطر له. وقد حاول أن يقفز بدبابته ولكن أحد ضباطنا الممتازين اسرع بدبابته خلف دبابة ياجورى وضربها فأصابها، فقفز ياجورى منها ومعه جنديان، وأسرعت مركبة قيادة اسرائيلية لتلتقطه، الا أن مجموعة من جنودى على رأسها ضابط كانت له بالمرصاد.. وبصاروخ واحد صغير ضربت مركبة القيادة الاسرائيلية فقفز منها عساف ياجورى ومعه أربعة جنود.

وأمرتهم مجموعتنا بالاستسلام، فرفع ياجورى يديه مستسلما، وأمر جنوده بالاستسلام أيضا، إلا أن أحدهم حاول اطلاق رشاشه «العوزى» فالتحمت معهم مجموعتنا بالسلاح الأبيض واستعملت مجرفة الرمل فى هذه المعركة فقتل ثلاثة جنود اسرائيليين واستسلم الرابع وهو بحالة سيئة ووقع عساف ياجورى فى الأسر.

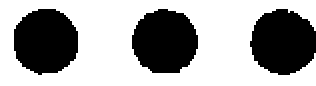
وقد طلب مقابلتى فوافقت.

«وجيىء به إلىّ. كان خائفا على مصيره وسألنى عن مصيره فقلت له: انك ضابط كبير والحرب قد انتهت بالنسبة اليك. فأنت

الآن أسير حرب وسوف تعامل حسب اتفاقية جنيف الخاصة بأسرى الحرب».

وفى ظل هذا القتال المتلاحم من الجانبين كانت القوات المصرية قد استولت تماما على خط بارليف بكل مواقعه وتحصيناته وشبكاته الدفاعية وطهرت شاطىء القناة الشرقى من كل وجود اسرائيلي عليها. وكان آخر ما أعلن سقوطه عاصمة سيناء مدينة القنطرة شرق. أعلن ذلك البلاغ العسكرى رقم ١٦ يوم الاثنين ٨ أكتوبر فى الساعة التاسعة والنصف مساء قائلا: «عاد العلم المصرى الى مكانه العزيز فوق المدينة الثانية فى سيناء كلها وهى القنطرة شرق وذلك بعد أن تم تحريرها بواسطة قواتنا المسلحة وكانت أهمية عملية تحريرها راجعة الى أن القوات المصرية كانت تراعى اعتبارين فى نفس الوقت. وهما: تدمير قوات العدو فيها والمحافظة على أرواح المواطنين المصريين الذين بقوا فيها يعانون ظروف الاحتلال. ولتحقيق هذا الغرض تم حصار المدينة داخليا وخارجيا. ثم جرى اقتحام مشارفها ودار قتال مع جنود العدو فى الشوارع والمبانى حتى انهارت قوات العدو واستسلمت. وقد استولت القوات المصرية على كميات كبيرة من سلاح العدو وعتاده بينها عدد من دبابات سنتوريون واكس ايه ام رأسه ثلاثين فردا للعدو

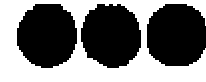
هم كل من بقى حيا منهم فى المدينة. وكانت فرحة المواطنين المصريين داخل المدينة بعد تمام تحريرها فرحة كبرى حيث اندفعوا الى الحفاوة باخوانهم المقاتلين المصريين من أجل شرف الوطن وعزته. وتعبر القيادة العامة للقوات المسلحة عن اعتزازها باشتراك هؤلاء المواطنين عمليا فى مساعدة قواتهم المسلحة. وكان جهدهم معها وعونهم لها رمزا للتلاحم بين قوى الشعب وقوات جيش الشعب.



كانت فى صفوف القوات المصرية قوات كويتية وفلسطينية.. وأسرعت قوات جزائرية الى الجبهة المصرية بأقصى سرعة..

وكانت فى صفوف القوات السورية قوة مغربية. وعندما سمعت بغداد أنباء اشتعال القتال وأنها الحرب حقا بادرت فأرسلت خيرة قواتها المدرعة التى أسرعت عبر طريق الصحراء الطويلة المكشوفة لطيران العدو الى اتخاذ مواقعها فى الجناح الأيسر للقوات السورية. ودخلت لحظة وصولها رغم اجهادها المعركة فورا فى مرحلة من مراحل القتال الحاسم على الجبهة السورية. كما قاتلت طائرات عراقية من الجبهتين المصرية والسورية فى نفس الوقت.

وأعلنت سائر الدول العربية عن دعمها المالى والاقتصادى للقوات التى تقاتل عن الأمة العربية كلها على الجبهة.



كان طبيعيا أن يكون للمقاومة الفلسطينية التى لم تتوقف بنادقها قط، دور فى هذا القتال الضخم.

كان للمقاومة الفلسطينية مكانها فى القتال على الجبهة السورية وكان لها نصيبها من العمليات الفدائية طوال أيام المعركة.

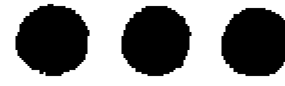
ومن أمثلة البلاغات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية.

● قصف الثوار الفلسطينيون أجهزة رادار العدو العسكرية على قمة جبل الجرمق بالجليل الغربى بالصواريخ وأصابوها مباشرة.

● قام ثوارنا فى الأراضى المحتلة بايقاع قافلة امداد وتموين مؤلفة من ثلاث سيارات نقل عسكرية فى الطريق العام بين بئر سبع وعصلوج حيث كانت هذه القافلة متجهة الى منطقة القتال فى سيناء. دمرت الثلاث سيارات وقتل جميع من فيها.

● قام ثوارنا بنسف قطار محمل بالذخيرة بالقرب من مدينة خان يونس فى قطاع غزة، ونتج عن ذلك تدمير عدة

● قامت مجموعة من الفدائيين بضرب مؤخرة العدو فى الجولان وأوقعت فى العدو خسائر فادحة.. واستشهد فى هذه العملية ثمانية من رفاقنا.



منذ البداية اعترفت اسرائيل بنجاح المفاجأة الاستراتيجية والمفاجأة التكتيكية ضدها.

واعترفت بأن هذه حرب من نوع آخر غير ما واجهته من قبل، وان خسائرها فادحة غير خسائر الحروب السابقة (قال ابا ايبان بعد ذلك فى خطابه فى مؤتمر جنيف ان خسائر حرب ٧٣ بالنسبة لاسرائيل تساوى كل خسائر اسرائيل منذ ١٩٤٨ فى الحروب وفى كل عمليات العنف الأخرى).

ولكن الغرور لم يبرح اسرائيل وقادتها بسهولة.

فى اليوم الأول قال الجنرال دافيد العازار، قائد عملية اختراق الجولان سنة ١٩٦٧، ورئيس الأركان: اننا سندق لحمهم وعظامهم.

وقالت البيانات العسكرية - متسرعة - انها دمرت كل رءوس الكبارى المصرية.. ثم تراجعت الى زعم تدمير «معظمها».. قبل أن يعرف العالم انه لم يدمر كوبرى واحد.

ثم لم تلبث لهجة البيانات والتصريحات الاسرائيلية ان تراجعت خطوة إلى الوراء.

قال الجنرال العازار نفسه بعد يومين «نحن الآن فى وسط معركة، ومستمرون فى الهجوم المضاد حتى ندمر كل القوات المهاجمة».

قال موشى ديان فى الاذاعة الاسرائيلية فى تحديد شامل لتصوره للمعركة: «سوف ينتهى القتال فى ستة أيام! فيومان يكفيان لاستكمال التعبئة الشاملة ويومان لايقاف الهجوم علينا ويومان لتدمير قوات العدو على الجبهتين».

ولكن ما كان يجرى وراء هذا الستار من الثقة كان أمرا آخر بدأ العالم يلمحه لأول مرة يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر (اليوم الخامس للقتال) حين اضطرت اسرائيل الى أن تعلن على العالم عن تغيير قياداتها العسكرية فى صيغة مبطنة هى: استدعاء ستة جنرالات سابقين للخدمة تحت ستار «القيام بمهمات خاصة» وهم:

– الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق مباشرة على العازار لمدة أربع سنوات وخبير اسرائيل الأول فى حرب المدرعات.

– الجنرال جافيتشى، وقد أرسل الى «الجبهة الجنوبية» وكان قائدا لها من قبل ذلك.

– الجنرال اموس هوريف كبير علماء الجيش الاسرائيلى سابقا وقد عين مساعدا لرئيس اركان الحرب (على الأغلب للاشراف على وضع أساليب لمواجهة الاساليب الجديدة التى كشف عنها القتال وخصوصا الصواريخ المضادة للدبابات التى تحملها المشاة).

– الجنرال موردخاى هود القائد السابق لسلاح الطيران الاسرائيلى والمشرف على ضربة ١٩٦٧ الجوية.

– الجنرال أهارون ياريف مدير المخابرات السابق ومستشار رئيسة الوزراء العسكرى.

– الجنرال ريحابون زيجينى، قائد القطاع الأوسط (الضفة الغربية سابقا).

ولكن القصة كما ظهرت فيما بعد كانت أعمق من ذلك بكثير.

ومن مجموع ما نشرته الصحف الأجنبية لمراسليها المتصلين بالدوائر الاسرائيلية (خصوصا الصنداى تايمز، والاوبزيرفر، والصنداى تلجراف، والنوفيل اوبزرفاتير) نجد أن القدر المتيقن مما حدث كان كما يلى:

بعد ٤٨ ساعة فقط من نشوب القتال كان الاسرائيليون يواجهون كارثة على الجبهتين. فقد اقتحم المصريون قناة السويس بقوات ضخمة، واخترقت الدبابات السورية الخطوط الاسرائيلية واستولت على جبل الشيخ، وأحاطت بالقنيطرة، وتساقطت الطائرات الاسرائيلية بنسبة لم يسبق لها مثيل بالنسبة لأى سلاح جوى آخر في العالم. وفى هذا الجو - كأى جو هزيمة - انفجرت أزمة حادة فى القيادة الاسرائيلية العامة فى داخل الحكومة ذاتها حول طريقة ادارة الحرب..

فى تل أبيب، بدأ العسكريون يتهمون السياسيين بعدم تقدير الموقف تقديرا صحيحا وبالعكس أخذ الوزراء الذين لم يستشاروا فى الأيام الحاسمة قبل الحرب يتهمون غيرهم بأنهم لم يستخلصوا النتائج الصحيحة من العلامات والنذر التى سبقت القتال. ونالت المخابرات العامة والمخابرات العسكرية حظها من النقد.

ولكن الكارثة الكبرى كانت فى الجبهة الجنوبية حيث صار هناك جيشان مصريان كاملان متماسكان شرق القناة، وتم الاستيلاء على خط بارليف، وأقيمت رءوس الكبارى القوية التى فشلت كل الجهود لتدميرها. ثم ان هناك مشكلة الخسائر

الفادحة خصوصا فى أعز ما تملك اسرائيل من الطائرات والدبابات وأطقمها البشرية - على الجبهتين المصرية والسورية.

وكان الجنرال شارون وصل ليقود قواته الى مقر القيادة الميدانية المتقدمة فى «الخشيبة» ليعمل تحت قيادة الجنرال جونين قائد الجبهة الجنوبية.

ولكن شارون كان قائدا للجبهة الجنوبية قبل شهور، وطوال سنوات عديدة، وقد استقال لأنه لم يعين رئيسا للأركان بدلا من العازار، وهو يتهم مائير وديان بأنهما تخطياه لأنه من حزب جحل المعارض وليس من جنرالات حزب العمل مثل ديان وبارليف وغيرهما، اى أنه كان مطلوبا منه أن يعمل مرءوساً تحت من كان مرءوسا له شخصيا قبل شهور وهو «جونين». ثم انه يعتبر نفسه الخبير الأول بالحرب فى سيناء بالذات التى عرفها سنة ٥٦ و٦٧ وظل مسيطرا عليها منذ ١٩٦٧، بالقياس الى الجنرال جونين الذى تولى القيادة الجنوبية منذ شهرين فقط.

وكان الجنرال جونين قد بدأ يفقد سيطرته على نفسه تحت تأثير الهزائم غير المتوقعة التى ألحقها به المصريون والخسائر الكبيرة التى منيت بها قواته.

وقال أحد الذين كانوا حاضرين فى مقر القيادة الجنوبية فى ذلك الوقت أن الجنرال جونين أشاع جوا من اليأس وفقد هدوء أعصابه وكان يصيح باستمرار وتدهورت علاقاته مع قواد الميدان الثلاثة التابعين له: شارون وابراهام أدان وكالمان ماجين. واختلف معه شارون بالذات خلافا عنيفا حول ادارة العمليات وقال له مرة «لقد أوصلتنا الى موقف جعلنا المصريون فيه نرقص على نغماتهم دون أن نبذل شيئا لتغيير هذه النغمة».

ووصلت أنباء هذا الانهيار بسرعة الى الجنرال ديان وزير الدفاع فى تل أبيب فى مقر قيادته فى شارع كابلان رقم ٣١، وحاول ديان أن يحل المشكلة بأن اقترح على دافيد العازار رئيس الأركان ان يتبادل شارون وجونين منصبيهما، أى يصبح شارون من جديد هو قائد الجبهة الجنوبية. ورأى العازار أن هذا التبديل بين الرجلين سيخلق موقفا أكثر تفجرا، فذهب بنفسه الى مقر القيادة الجنوبية وعاد باقتراح أن يراس الاثنين قائد أكبر منهما: الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق.

واستدعى بارليف للخدمة من منصبه كوزير للتجارة تحت ستار تكليفه بواجبات خاصة «ولكن هذه الواجبات الخاصة» كانت ببساطة: قيادة الجبهة الجنوبية ضد الجيش المصرى. ومن تلك اللحظة صار هو المسئول الحقيقى عن توجيه الحرب

في سـيناء وإن كـانت الأوامـر والتـعليـمـات ظلت تصـدر باسم الجنرال جونين.

على أن شارون وان كان يكن الاحترام لحاييم بارليف الا انه كان على خلاف معه أيضا..

فمن الناحية السياسية ينتمي بارليف أيضا الى كتلة حزب العمل وينتمي شـارون الى المعارضـة اليـمنية المتمثلة في كتلة ليكود، وكانا قبل الحرب مباشرة مشتبكين في صراع سياسي عنيف.

ومن الناحيـة العـسكرية كانت هناك قـصـة قديمة، وقـصـة جديدة.

فـالجنرال شـارون أذاع بعـد الحـرب عندمـا رأى صـور التـجـسس الجـوى قبل الحـرب بأيام أيقن أن الحـرب سـتنشب فورا وأعلن رأيه هذا للمسئولين ولكنهم ومن بينهم بارليف الذى كان في مجلس الوزراء لم يتخذوا الاجراءات اللازمة.

القصـة الأخرى ان شـارون، كمـا روى بعد ذلك، كـان خـلال حـرب الاسـتنزاف وخـصـوصـا في الشـهـور الأخـيرة حين بدأت شـبكات الصـواريخ الجديدة تقـام رغم الضـرب الجـوى الشـديد وتسـقط الطائرات الاسـرائيلية بدرجـة وصـفها ايبان بأنه «تآكل».. وضـع شـارون بوصـفه قائدا للجبهة الجنوبية خطة للعبور بقوات

مدرعة الى غرب القناة، تقوم بتدمير هذه الشبكات على الأرض بعد أن تعذر تدميرها بالطيران وحده، وسميت الخطة من وقتها باسم «الغزال» وقال شارون انه وضح تفاصيلها حتى انه حدد نقطة العبور شمال البحيرات المرة قام بوضع علامات بالطوب الأحمر على نقطة العبور لكى تتعرف الجرافات عليها حين تأتى لتمهيد الطريق.

وقد رد بارليف بعد ذلك علنا على شارون (بعد حرب ٧٣) بأن هذه الخطة ليست خطة شارون كما يدعى، وهذه دعاية انتخابية. ولكنها خطة اشتركت فيها الأركان العامة كلها، وكان طبيعيا أن يكون لشارون دور فيها كقائد للجبهة الجنوبية، واستشهد بارليف على ذلك بعشرات الضباط الذين ساهموا فى وضع هذه الخطة.

الآن وفى اليوم الثالث من القتال كان رأى شارون انه يجب ان تعدل خطة الغزال هذه الى حجم آخر، وأن تنفذ فورا، لأن هذه هى الطريقة الوحيدة لارباك الهجوم المصرى الشامل الذى يزداد ترسخا فى الجبهة الغربية، والذى تكسرت أمامه كل الهجمات المضادة بالدبابات والطائرات.

ولكن قيادة الأركان وجدت ان الوقت ليس مناسبا لتنفيذ هذه الخطة: فالهجوم الشامل على كل الجبهة لم يترك لاسرائيل قوة

اضافية تلقيها لعمل هذه الثغرة. والقوات المتاحة فى ذلك الوقت لايمكن لها تأمين اقامة جسور مأمونة العبور ستكون تحت مرمى المدفعية المصرية.

واحتكم شارون فى خلافه مع قيادة الأركان الى الجنرال ديان وزير الدفاع، وقال له ديان بصراحة «ان كل مايمكن ان نستغنى عنه ونعطيه لك الآن هو لواء مظلات نغطى به بوادر هجوم من الجيش الثالث المصرى نحو الممرات، ومحاولتك الآن قد يكتب لها النجاح ولكنها اذا فشلت فلن يبقى لاسرائيل شىء فى سيناء وسوف تتعرض اسرائيل ذاتها للخطر».

وقد عملت السلطات الاسرائيلية على اخفاء هذه الأزمة الحادة، ومنعت جنرالاتها من مقابلة الصحفيين الأجانب، ولكن الموقف كان يتدهور فى سيناء.

«كانت القوات الاسرائيلية قد انهكت فى مواجهة المشاة المصريين بصواريخهم المضادة للدبابات . وفى اليوم الثالث أنزل المصريون هزيمة ضخمة بالاسرائيليين أشاعت أكبر قدر من الكآبة فى القيادة الاسرائيلية فقد وقع اختيار الكولونيل آمنون ريتشيف قائد القوات المدرعة الأساسية فى سيناء على الفتنانت كولونيل عساف ياجورى لكى يقوم بأول هجوم مضاد حقيقى بكتيبة رقم ١٩٠ من دبابات بالون الأمريكية .

. ثم حدث لهذا الهجوم المضاد ما سبق ذكره ..

وتستطرد الجريدة قائلة «وهكذا انخفض حجم قوات ريتشيف من ٢٥٠ الى ٩٠ دبابة ظلت فى عمليات مستمرة لمدة يومين . ولم يهتد أطقم رجال الدبابات المجهدون والذين كانوا فى رعب بالغ أحيانا الى وسيلة لمحاربة تكتيكات المشاة المصريين الذين كانوا يزحفون فوق الرمال بصواريخهم وينصبون الكمائن ويطلقون سحابة رهيبة من الصواريخ عندما تظهر الدبابات الاسرائيلية .

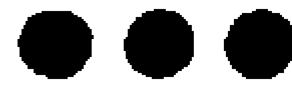
«وكان المصريون يتقدمون بعنف فيما وصفه ريتشيف بأنه «هجوم زاحف» وكانوا ، يخلفون وراءهم فى الطريق الحطام المتناثر للدبابات الاسرائيلية المحترقة فى الوقت الذى ظلت فيه مدرعاتهم سليمة آمنة وراء ستار الصواريخ المضادة للدبابات فى البر ، وستار الصواريخ المضادة للطائرات فى الجو ..

«لقد دخلت أطقم الدبابات الاسرائيلية المعركة وهى على استعداد لمقاتلة الدبابات الأخرى وملأوا خزائنهم بالصواريخ الخارقة للدروع، فى حين أنهم كانوا يحتاجون الى ذخيرة مضادة للأفراد لاستخدامها ضد المشاه الذين كانوا يصبون عليهم نيران الموت . وانقضت أيام قبل أن يتمكنوا من الحصول على الذخيرة الصحيحة .

قالت الجريدة الانجليزية «... قبل أن يتمكنوا من الحصول على الذخيرة الصحيحة» ..

أى قبل أن يدخل الأمريكيون ساحة الحرب لانقاذ اسرائيل!.

وهذا ما سيجىء أوانه بعد قليل ..



انقضى أسبوع منذ بدء القتال ولم تتمكن قوات موشى ديان من انهاء المعركة فى ستة أيام كما وعد فى أول الحرب ..

بل لقد كانت الصورة فى نهاية الاسبوع مختلفة تماما ..

فبعد أن تم للقوات المصرية الاستيلاء على خط بارليف وتطهير جبهة القناة كلها من أى قوة اسرائيلية ، قضت القوات الاسرائيلية بقية الاسبوع الأول وهى تشن هجمات مضادة بلا انقطاع .. مستخدمة ألوية كاملة من الدبابات وقوات المشاة المحمولة وكل طاقة سلاح طيرانها الموزعة «بين الجبهتين» وكان القتال يدور ليلا ونهارا فى محاولات مستميتة للعدو تستهدف منع الجيشين الثانى والثالث من تثبيت مراكزهما على الضفة الشرقية أو تدمير رءوس الكبارى المقامة أو ايقاف تدفق التعزيزات من الرجال والأسلحة والعتاد ..

ظلت القوات الاسرائيلية حتى يوم ١٤ أكتوبر تبذل هذا الجهد الجبار، وبلاغاتها العسكرية وتعليقات المحللين فيها

وتصريحات الرسميين تؤكد أنهم على وشك تدمير الوجود المصرى شرقى قناة السويس .

ولقد بدأوا وقتها يقللون من شأن خط بارليف ، ويقولون ان المصريين بعد استيلائهم على هذا الخط لن يلبثوا أن يهزموا فى معارك الدبابات المفتوحة فى الصحراء أمام القوات الاسرائيلية المدرعة الشهيرة .

ولكن هذا كله ضاع عبثا ..

لقد خسر الاسرائيليون رغم كل ما بذلوه معركة شاطىء القناة خسروا معركة منع قوات الجيش المصرى من احتلال الشاطىء الشرقى عنوة مواجهة . وفى فجر يوم الرابع عشر من أكتوبر ، أى بعد ثمانية أيام من بدء القتال الذى لم يتوقف قط ، ومع أول ضوء من صباح الأحد ١٤ اكتوبر ، شنت القوات المدرعة المصرية على طول الجبهة هجومها الثانى الكبير لتدمير أكبر قدر ممكن من قوات العدو ولتوسيع العمق الذى تسيطر عليه القوات المصرية فى سيناء ..

وكان هذا الهجوم فاتحة أكبر معارك للمدرعات عرفتها الحروب منذ الحرب العالمية الثانية ..

ولم تلبث أن اشتركت فى القتال كافة الأسلحة ..

فقد أسرعت طائرات العدو الى دخول المعركة لمساعدة قواتها الأرضية . وعلى الفور اشتركت قواتنا الجوية وأجهزة الدفاع الجوى فى القتال ضدها . وقدر المراقبون الأجانب القوات المشتركة فى القتال بألفى دبابة ..

وكانت البيانات الاسرائيلية قد كفت عن مزاعم تدمير قواتنا واحتوائها وتدمير رءوس الكبارى وانتقلت مع بداية هجومنا الى نغمة دفاعية ..

كان أول نبأ من تل أبيب يقول «أن القوات المصرية بدأت مع الفجر هجوما عاما بطول الجبهة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب وقد مهد للهجوم قصف شديد بالمدفعية وهجوم مركز بالطيران» .

وبعد مرور سحابة اليوم الأول قال معلقهم العسكرى الرسمى . حاييم هرتزوج : «ان الهجوم الذى شنته القوات المسلحة المصرية صباح اليوم فى صحراء سيناء يدور على جبهة واسعة جدا كما يبدو عنيفا للغاية .. وان كافة الدلائل تشير الى أننا أصبحنا الآن فى مرحلة حرجة من الحرب الدائرة على الجبهة الجنوبية وقال : «ان الانسان يعجز عن التنبؤ بشىء قبل نهاية هذا الهجوم».

وفى نهاية اليوم أعلنت اسرائيل أن الجنرال ابراهام مندلر ، القائد العام للقوات المدرعة فى سيناء لقى مصرعه فى القتال .

وفى الليل كان موشى ديان يظهر على شاشة التليفزيون الاسرائيلى ليتحدث بلغة جديدة ..هذه حرب صعبة ، معارك الدبابات فيها قاسية، ومعارك الجو فيها مريرة .. إنها حرب ثقيلة بأيامها وثقيلة بدمارها .. وليس أمامنا الا نقاتل بقلوب مكتئبة.

وفى نفس الوقت كانت اسرائيل تبذل جهدا جبارا فى الجبهة السورية دون جدوى لاختراق الخطوط السورية . وزعمت اذاعاتها عدة مرات أنها على الطريق الى دمشق ، ولكن القوات السورية دمرت كل هذه المحاولات وأحبطت كما قالت الصحف الأجنبية عدة محاولات اسرائيلية لتطويقها . ولم يفلح الضرب الانتقامى ضد المدنيين فى مدن الداخل فى زعزعة روح الصمود والقتال السورية فلما بدأ هذا الهجوم المصرى الشامل اختفت نهائيا مزاعم اسرائيل عن الزحف الى دمشق : ذلك انها أدركت أن الجبهتين لم تبذلا كل ما لديهما فى الهجوم الأول . وانهما بعد أسبوعين قادرتان على توجيه ضربات جديدة وانزال خسائر فادحة بالقوات الاسرائيلية .

لقد أزال الأسبوع الثانى من القتال أسطورة تفوق الجيش الاسرائيلى فى حرب المدرعات المفتوحة فى الصحراء المكشوفة.

وبدأت كل تعليقات الخبراء العسكريين الأجانب تتنبه الى دروس هذه الحرب الجديدة والأساليب الحديثة التى اتبعت فيها.

وقد يكون مناسبا ان نقف هنا ، ومعارك الدبابات الكبرى دائرة يوما بعد يوم ، عند بعض هذه التعليقات .

كتب دور ميدلتون ، الخبير العسكرى الأمريكى ، عدة تعليقات هامة من بينها :

يوم ١٢ أكتوبر كتب يقول :

اتسعت أبعاد الحرب فى الشرق الأوسط ، وتغير ميزان القوى لصالح العرب، على حد قول المصادر العسكرية البريطانية والأمريكية العلمية .

وقد بدأ السلاح الجوى الاسرائيلى مضغوطا ، وفقد من طائراته طبقا لأقوال المصادر الأمريكية ، نحو ٦٠ طائرة على الأقل خلال ثلاثة أيام .

وقد ذكرت المصادر العسكرية الأمريكية، استنادا الى تقديرات المخابرات من الشرق الأوسط ، أن للمصريين الآن قوات هائلة فى الضفة الشرقية للقناة ومئات الدبابات .

وتعتمد هذه القوة في حمايتها من الضربات الجوية الاسرائيلية على صواريخ «سام - ٢» و«سام -٣» ، وصواريخ «فروج» أرض - أرض .

وذكر أحد المصادر أن التكتيك المصرى واضح ، وهو حمل الاسرائيليين على مهاجمة رأس الجسر وتجنب حرب المناورة .

وكما قال ضابط أمريكى ، وافق على هذا التقييم ، ان التكتيك المصرى - على ما يبدو - هو «أن يفعل العدو ما تريده أنت أن يفعل» .

وقالت المصادر أن المحاولة الاسرائيلية الأولى لتصفية رأس الجسر جرت دون استعداد كاف ، وبقوة غير كافية . وليس من الأرجح أن تتكرر هذه الأخطاء ، التى تعكس افراط القوات الاسرائيلية فى الثقة بنفسها ، نتيجة انتصارها عام ١٩٦٧ .

الا أنه ليس من المؤكد أن تقوم اسرائيل بضربة ناجحة مضادة وذلك بسبب الامدادات المنظمة من القوات المصرية عبر القناة ، وإمكان تزويد مواقع الاطلاق فى الضفة الشرقية بامدادات جديدة من الصواريخ أرض - جو ، وأرض - أرض .

ويرى المراقبون أن وصول مزيد من الامدادات للمصريين فى سيناء، قد يجعل استراتيجية الاستنزاف أقل جاذبية

للإسـرائيليين مما كـانت عليه منذ يومين عندما اسـتـخدمت هذه العبارة لأول مرة فى تل أبيب .

فنجـاح عمليـات الاسـتنزاف يرتهن بتـوافـر عـدد من الرجـال ومقـادير من العتـاد أكثر ممـا لدى الجـانب الآخـر . ولم يكن لدى الاسـرائيليـين ابدا عـدد من الرجـال، حـتى فى حـالـة التـعـبـئـة الشـاملة، أكـثـر مما لدى المصـريين والسـوريين . واذا اسـتـمـر الجسـر الجوى من الأسلحـة السوفييتية لمصر، واذا استمرت خسـائر الاسـرائيليـين فـسـيكونون أقل مـسـتـوى فى شـبكات الأسلحـة الحديثة: الطائرات المقاتلة ، والصـواريخ ، والدبابات ، والمدافع المضادة للدبابات والطائرات ، وهناك احتمال قائم ، هو أنه بالنظر إلى قـوة رأس الجسـر فى سـينـاء وأجـهـزة الدفـاع المتينة هناك ، فأنه قد يتم ارسال بعض الاسرائيليين فى الشمال الى شبه جزيرة سيناء لتعزيز الهجوم المتوقع فى سيناء .

ويرتهن مـوقف اسرائيل العام بقدرة جيشـها على الاحتفـاظ بالمرونة فـى مـخططاته وتكتـيكاته. وهـذا هو السـبب فى أن الاسرائيليين أعادوا تنظيم القيادة العليا، بالاستعانة بالضباط القـدامى وترقـيـة القـادة الذين لـهم إدراك بالقـدرات الجـديدة للقوات المصرية .

وترى أغلبية المصادر العسكرية الغربية أنه يتعين على اسرائيل أن تتخلص من رأس الجسر المصرى إذا أرادت أن تستعيد موقف المساومات فى الجانب السياسى . ويتعين كذلك على المصريين أن يتمسكوا بمواقعهم لتحسين موقفهم ، وليس أمام أى من الجانبين مهمة سهلة فى هذا الشأن .

ولكنه بعد يومين كتب يقول :

بعد ثمانية أيام من القتال العنيف ، كان كبار المسئولين العسكريين فى الولايات المتحدة والغرب يعتقدون أن المرحلة الحاسمة فى الحرب قد اقتربت . فاسرائيل تحاول بأكبر جهد ممكن فتح طريق الى دمشق . وفى سيناء فإن قوافل السيارات التى تحمل الرجال والامدادات توضح وجود حشد للقوات الاسرائيلية يفوق أى حشود لها تشهدها هذه الحرب .

وقالت المصادر العسكرية أن هدف اسرائيل هو تحطيم الجيش السورى ورد القوات المصرية عبر قناة السويس على أن نفس المصادر تتساءل عما اذا كان ما تنفقه اسرائيل من الرجال والعتاد وحالة التوقف التى تسود الاقتصاد الاسرائيلى، سيكون أمرا ممكنا من الناحية السياسية لدولة قوام شعبها ثلاثة ملايين نسمة .

ويقول أحد التقديرات الغربية أن اسرائيل قد خسرت حتى اليوم الرابع للقتال ٢٠٠٠ جندى في المعارك . واذا صح هذا التقدير فإن ذلك يكون لطمة خطيرة لدولة تتكون من ثلاثة ملايين نسمة . إذ أن ذلك الرقم سيكون مساويا لأن تخسر الولايات المتحدة ، التى يبلغ تعدادها ٢٢٠ مليون نسمة ، ١٥٠ الف جندى، وهو مايوازى تقريبا ثلاثة أضعاف الجنود الأمريكيين الذين قاتلوا فى الحرب العالمية الأولى .

ومن ناحية أخرى فإن استمرار القتال أسبوعا آخر ضد المقاومة العربية المتسمة بالتصميم يمكن أن تتضاعف خسائر اسرائيل فى البشر والعتاد وتزيد من حدة المشاكل الاقتصادية.

ويتساءل الضباط العسكريون فى الغرب عما إذا كانت اسرائيل يمكنها أن تحتفظ - وقد أنهكتها مثل تلك الخسائر - بقوة سياسية وعسكرية تتيح لها التفاوض لوقف اطلاق النار وعلى قدم المساواة مع الدول العربية .

ومن المحتمل أن تكون ثمة ضغوط داخل القيادة الاسرائيلية لخفض الخسائر فى سيناء وقصر العمليات العسكرية هناك على نشاط الطيران والمدفعية ونشاط المدرعات الذى يهدف الى ازعاج القوات المصرية هناك.

وأيما كانت النتائج فهناك اتفاق عام على أن القتال الدائر حتى الآن قد غير السنوات القادمة لميزان القوى فى الشرق الأوسط . ولقد أظهرت الحرب أن العرب قادرون على تشغيل الأسلحة الحديثة والمعقدة فى ميدان القتال .

وتشير جميع التقارير التى وصلت الى مصادر غربية ان الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة . وكانت القيادة على مستوى كتائب المشاة وأسراب الدبابات على مستوى مرتفع . كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة . وقال ضابط بريطانى «ان الجيشين المصرى والسورى قد استعادا شرفهما وهذا عامل جديد سيؤثر على المستقبل فى الشرق الأوسط كله».

ولقد كان أهم تطور تكنولوجى هو استخدام القوات العربية للصواريخ التى تطلق من الأرض للجو ضد سلاح الطيران الاسرائيلى . وقد أثبتت صواريخ سام – ٢ وسام – ٣ وصواريخ سام – ٦ المتحركة فعاليتها فى حماية المواقع المتقدمة وحشود القوات ضد الهجمات الجوية الاسرائيلية .

ومن ناحية أخرى فإن الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من طراز «ساجر» التى زود الاتحاد السوفييتى العرب بها أيضا قد زودت القوات العربية بسلاح جديد قوى لمواجهة القدرة التكتيكية لاسرائيل على استخدام المدرعات .

وقد أكدت عملية عبور القوات المصرية للقناة أن القوات المصرية قد تطورت منذ عام ١٩٦٧ . وأثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الابقاء على السر وأنه فى وسعهم ، بعد ما حققوا من مفاجأة ونجاح أن يتصرفوا فى انضباط .

وفى يوم ١٦ أكتوبر كتب يقول :

ان التفوق الجوى لاسرائيل الذى كانت الولايات المتحدة والسلطات العسكرية الغربية تأخذه كأمر مسلم به عند بداية حرب الشرق الأوسط قد انخفض بصورة خطيرة ، فيما يبدو من النتائج ذات المغزى التى تتضح مع سير القتال .

ويضع الخبراء الغربيون ثلاث عوامل باعتبارها مسئولة عن حرب جوية يسير فيها القتال فى ظروف أكثر تكافؤا مما كان متوقعا .

هذه العوامل هى :

١ - إن مصر وسوريا تستخدمان المخزون لديهما من الصواريخ «أرض - جو» بمهارة ضد قوة جوية اسرائيلية تفتقر - فيما يبدو - الى أحدث المعدات الألكترونية المضادة التى تم انتاجها فى الولايات المتحدة.

٢ - إن القوات الجوية العربية قد ظهرت على مستوى عال بصورة لم تكن متوقعة حيث أظهر الطيارون أنهم لا يفتقرون الى

الجسارة بينما أظهرت الأطقم الأرضية - فيما يبدو - أنها قادرة على تشغيل طائرات معقدة مثل الميج ٢١ تحت ظروف القتال .

٣ - كانت القيادة الجوية المصرية قادرة على دعوة الدول العربية الحليفة لتقديم تعزيزات من المقاتلات ودعوة الاتحاد السوفييتى الى اعادة امدادها بالصواريخ أرض - جو .

والملاحظ أنه فى الحرب الجوية الدائرة الآن فان الصواريخ أرض - جو والطائرات المطاردة والرادار تعمل كلها كفريق متكامل وبناء على التجربة الأمريكية فى فيتنام الشمالية فإن الوسيلة الوحيدة لإلحاق الهزيمة بهذا الفريق هى أن يستخدم المهاجمون أحدث المعدات الألكترونية المضادة التى تم انتاجها فى المراحل الأخيرة من حرب الهند الصينية .

وتستخدم الاجراءات الأليكترونية المضادة لإرباك أجهزة الرادار عن طريق التشويش عليها بواسطة إرسال موجات مستمرة ذات جهد عال على نفس الترددات التى تعمل عليها أجهزة رادار الخصم ، أو عن طريق خداع تلك الأجهزة بواسطة نبضات رادارية زائفة تشبه الأهداف الحقيقية ويتم إرسالها إلى تلك الأجهزة .

وتقول المصادر العلمية أن السلاح الجوى الاسرائيلى لا يمكنه أن يحقق تفوقا بدون شحنات ضخمة من الطائرات الأساسية والمتخصصة من الولايات المتحدة .

والطائرات الأساسية هى «فانتوم ٤» و سكاى هوك «ايه ٤ آى» والطائرات المتخصصة هى النماذج الجديدة من الطائرات «تى سى -١٢١» التى أثبتت فعاليتها .

أما أحدث الطائرات الأمريكية التى تحمل معدات اليكترونية مضادة فهى «أنترودر تى ايه - ٦ ب» وهى تنطلق من على حاملة طائرات وقد انتجتها البحرية الأمريكية خلال حرب فيتنام.

وقد ذكرت المصادر المطلعة أن المشكلة التى تواجهها إسرائيل لاتختلف كثيرا عن المشكلة التى تمت مواجهتها فى فيتنام . فإن عددا كبيرا من صواريخ «سام - ٢» و «سام - ٣» قد وضعت فى قواعدها حول الأهداف العربية الرئيسية فى رأس الجسر فى سيناء .

وقد أضيف إلى هذه الصواريخ صواريخ «سام - ٦» التى تنطلق من قواعد متحركة . وتعمل صواريخ «سام - ٣» و «سام - ٦» على مستوى منخفض ، أما صواريخ «سام - ٢» فان مداها يبلغ حوالى ٢٥ ميلا .

وكانت الولايات المتحدة قد بدأت خلال حرب فيتنام في تطوير معدات الكترونية للتشويش ولكن لم يتم تزويد المقاتلات بها الا في عام ١٩٦٧ . وقد تضمنت هذه المعدات أجهزة للتشويش على أجهزة الانذار المبكر لرادارات صواريخ سام وعلى أجهزة الرادار للرصد في المراقبة الأرضية .

ولقد تعلم طيارو المقاتلات أن يحلقوا في تشكيلات محددة ، لأنه إذا خرج أحد الطيارين من نطاق هذا التشكيل فأنه يفقد الحماية التي توفرها الأجهزة الالكترونية المضادة ويمكن لأجهزة رادار العدو ان تراقب طائرته .

وعندما ضاعفت الولايات المتحدة من هجومها الجوى على فيتنام في عام ١٩٧٢ فإن السلاح الجوى الأمريكي استخدم الطائرات من طراز «مرنيخ ستار اى سى – ١٢١» وقد مكنت هذه الطائرات الطيارين من اعترض طائرات العدو ومن التعرف على الأهداف الأرضية للعدو . كما كانت تستخدم كوسيلة للاتصال الجوى وكمركز قيادة .

وفيما يبدو فإن اسرائيل قد توفرت لديها المعلومات الأمريكية فيما يتعلق بالأجهزة الالكترونية المضادة ، غير ان المصادر العلمية ذكرت أن أحدث هذه الأجهزة التي تم تطويرها في العام الماضي لم يتم بيعها لاسرائيل .

وبناء على الوضع الراهن فإنه يبدو من المرجح أن السلاح الجوى الإسرائيلى سيقاتل وهو لا يتمتع بميزة النقد التكنولوجى .

، ذلك أن آخر ما حصل عليه من المعدات الألكترونية المضادة يرجع تاريخه إلى عام ١٩٧٠ أي قبل فترة طويلة من تطوير المعدات الأمريكية الحديثة .

ويتفق الخبراء في شئون الطيران على أن القتال فى جبهة سيناء قد أظهر قدرة مصر على توفير دفاع جوى متماسك لقواتها البرية . وقد تم ذلك اعتمادا على صواريخ أرض - جو ، وأمدادات وفيرة من المدفعية المضادة للطائرات رباعية المواسير ، علاوة على شبكة رادار وإنذار عالية الكفاءة .

وأن الافتراض بأن حصول إسرائيل على طائرات أمريكية اضافية مزودة بمعدات الكترونية مضادة تعيد إلى السلاح الجوى الإسرائيلى ميزة التفوق التكنولوجى ، يقوم على الاعتقاد بأن من الممكن التشويش على الموجات والترددات الخاصة بأجهزة الرادار المصرية . وفى حين أن إحدى الموجات التى تستخدمها أجهزة الرادار للأسطول السوفييتى فى البحر الأبيض المتوسط لايمكن التشويش عليها .

وكتب ك . تانر مراسل اليونايتد برس :

إن معارك الدبابات التى تدور رحاها فى الشرق الأوسط الآن قد وصلت وتجاوزت فى بعض الحالات أكبر معارك المصفحات على الاطلاق التى وقعت فى الصحراء وفى ستالينجراد خلال الحرب العالمية الثانية . إن خبراء الدفاع يبدون دهشتهم إزاء كمية المدرعات التى تم حشدها فى هذه المعارك وخاصة على الجانب المصرى .

ففى معركة العلمين الصحراوية (سنة ١٩٤٢) التى اشتبكت فيه القوات البريطانية مع قوات روميل كان للبريطانيين نحو ١٤٠٠ دبابة ضد قوات ايطالية تتكون من ٥٥٠ دبابة .

وفى معركة ستالينجراد التى كانت من أعنف معارك الحرب العالمية الثانية حشد السوفييت نحو ٩٠٠ دبابة ضد نحو ٧٠٠ دبابة ألمانية .

وفى القتال الذى يدور فى الشرق الأوسط الآن قالت الأنباء أن سوريا هاجمت بنحو ١٤٠٠ دبابة ، وأن المصريين نقلوا إلى ضفة قناة السويس الشرقية أكثر من ٥٠٠ دبابة تشتبك منذ نقلها فى معارك مع الدبابات الإسرائيلية .

وقدر مجموع ما لدى الاسرائيليين من دبابات عند بدء القتال بنحو ١٧٠٠ دبابة هناك فضلا عن ذلك احتياطى كبير من الدبابات لدي سوريا لابد من وضعه فى الاعتبار كما أن لدى المصريين احتياطيا يقدر بمئات الدبابات على الضفة الغربية للقناة . ولدى العراق أكثر من ألف دبابة .

ويقول خبراء الدفاع أن استخدام هذا العدد الكبير من المدرعات على جبهات صغيرة نسبيا ومن جانب دول صغيرة نسبيا يعتبر فى الواقع حدثا لم يسبق له مثيل فى التاريخ العسكرى بما فى ذلك القتال الذى خاضته الدول العسكرية الكبيرة وهى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا وألمانيا فى الحرب العالمية الثانية .

لعلنا نقف هنا وقفة قصيرة والقتال مازال دائرا عند الجبهة الداخلية التى ربما لم تنل حظها من الكتابة .

لقد كان معروفا أن إسرائيل بعد أن تم لها الاستيلاء على سيناء بأكملها فى سنة ١٩٦٧ ، وبعد أن زودتها أمريكا بطائرات الفانتوم البعيدة المدى ، صار فى مقدورها أن تصل بسلاحها الجوى إلى كل نقطة حيوية تقريبا فى القطر المصرى بأكمله .

وعندما جرى إحصاء فى احدى المرات عن المرافق الحيوية التى يمكن أن توجه إسرائيل إليها ضرباتها فى حالة تجدد الحرب وصل عددها إلى مايقرب من ١٥٠٠ هدف حيوى .

وإلى جانب الصناعات الحديثة التى أقامها الشعب بعرقه ودموعه هناك شبكة الجسور والكبارى والسدود التى تتحكم فى مياه النيل منذ مئات السنين وآخرها السد العالى ثم شبكات ومحطات الكهرباء والمياه القديمة والحديثة والموانىء وإلى جانب اتساع مساحة القطر المصرى فانه يواجه مشكلة أخرى فى تمركز حياته حول مجرى نهر النيل وفروعه وبالتالى مركزية كثير من مرافقه كخطوط السكك الحديدية والطرق .

ولم يكن سرا أن إسرائيل فى أى لحظة من لحظات الخطر ليس لديها أى مانع من تدمير أى شيء يمكن أن تمتد يداها إليه .

ففى حرب ١٩٤٨ كما كشفت مذكرات اسرائيل بعد ذلك كان قد وضعت خطط لضرب القاهرة ودمشق وبيروت بمجرد أن حصل الجيش الإسرائيلى على أول طائراته الحربية .

وفى سنة ١٩٥٦ عندما احتلت إسرائيل سيناء ثم انسحبت منها ، نزعت كل ما أمكنها نزعه من أدوات وآلات

من سيناء حتى خطوط السكك الحديدية وأعمدة التلغرافات والتليفون وهدمت مالم يكن ممكنا أخذه بما فى ذلك الطرق الصحراوية .

وبعد حرب ١٩٦٧ عندما أغرقت زوارقنا الحربية المدمرة الاسرائيلية «إيلات» ردت إسرائيل بضرب مباشر على معامل تكرير البترول المصرية الواقعة على شاطىء السويس والمنطقة الصناعية المجاورة لها .

وخلال معارك المدافع عبر القناة كانت إذا لم تجد حيلة لإسكات مدفعيتنا عمدت إلى ضرب الأحياء المزدحمة بالسكان ضربا مباشرا .

وخلال حرب الاستنزاف لم يقتصر طيرانها على شن الغارات على منطقة القناة بل حاولت ضرب العمق المصرى كما سبق ذكره مرة لأغراق مساحات شاسعة من الأراضى المزروعة والمسكونة ومرات لضرب المرافق الانتاجية : ودائما لمحاولة ضرب الروح المعنوية لدى الشعب المصرى .

وإزاء عمليات المقاومة الفلسطينية ضدها كانت طوال سنوات لاتكف عن الرد بضرب مخيمات اللاجئين فى الأردن وسوريا ولبنان .

كان هذا هو أسلوبها وكان مؤشرا إلى ما علينا أن نتوقعه حين يبدأ القتال الجدى ضدها .

هكذا انطلقت الأجهزة الداخلية فى مصر نحو تلك المهمة الصعبة المتشعبة التى سميت إعداد الدولة للحرب .

وكان هذا يعنى وضع كل الخطط الممكنة لمواجهة كافة الاحتمالات : من وقاية الأفراد والمنشآت إلى ضمان سير عمل الأجهزة الحكومية والإدارية والانتاجية تحت ظروف الحرب إلى إيجاد رصيد كاف من التموين ، لا فى مجالات الطعام والشراب فقط ولكن فى مجال كل المواد اللازمة للانتاج .

وإذا كان مايتم عمله فى هذا المجال ليس من شأنه إثارة الاهتمام إلا أن ماتم عمله كثير ، وهو على تفصيلاته بالغ الأهمية .. من صفارات الأنذار فى مناطق العمران إلى الاستعاضة عنها بصفارات المطاحن والوابورات فى المناطق الريفية إلى انشاء غرفة عمليات رئيسية تربط ما بين قيادة القوات المسلحة وقيادة الجبهة الداخلية من جهة وترتبط بكل الأجهزة والوزارات العامة فى العاصمة وأنحاء القطر من ناحية أخرى ، متصلة فى ذلك بغرف عمليات فى كل مرفق لهم أو محافظة مع تحصين كل هذه المراكز الحساسة وايجاد غرف بديلة لها فى حالة إصابة إحدى الغرف الأصلية .

وعلى مستوى تقليل الخسائر كانت هناك ضرورة اعداد أجهزة الأطفاء والأفراد المدربين على كل مكان قدر الطاقة وأجهزة الأنقاذ بمعداتها ابتداء من أجهزة ثقيلة لرفع الأنقاض إلى سيارات لنقل المصابين إلى معدات طبية لعلاجهم .

ووزعت هذا كله على عدة مناطق رئيسية فى القطر : بطريقة تجعل كل مركز قادر على التحرك بامكانياته بسرعة فى اتجاه المنطقة التى تتعرض للضرب.

وفى جميع مراكز التدريب التى أقيمت للدفاع المدنى فى أنحاء القطر شمل التدريب ٤٠.٠٠٠ مواطن على الدفاع المدنى والأطفاء والأنقاذ ليمارسوها فى مواقعهم الانتاجية وتم اعداد فرق الخدمات العامة التى بلغ عدد المدربين فيها أكثر من سبعمائة ألف مواطن ، فضلا عن تدريب ضباط وطلبة كلية الشرطة ومعهد الأمناء وقوات الأمن المركزى وقوات الأمن فى كل المحافظات .

ووضعت خطط مفصلة لمواجهة حالات تعطل شبكات الرى والصرف والمياه والمجارى والكهرباء بل لقد تم تحديد ٦٢ مدينة فى الدولة يتولى أفراد من المتطوعين من أبنائها مسئوليات الدفاع عنها وأسهمت وزارة الداخلية فى مجال تزويد كل هؤلاء بالتدريب والسلاح والذخيرة .

ولم يذهب هذا الجهد عبثا بل انه أثبت أهمية وحيوية فى المناطق القريبة من ساحات القتال حيث يركز العدو جزءا من ضرباته على المرافق من هذا النوع .

كان لابد مثلا أن يضرب طرق المواصلات القريبة من الجبهة لإرباك الجهد العسكرى والمدنى معا : ضرب طريق دمياط بورسعيد الساحلى وطريق بورسعيد الإسماعيلية ، وطريق القاهرة الاسكندرية الزراعى .

وضرب خطوط السكك الحديدية فى محافظات الاسماعيلية والشرقية والسويس .

وضرب محطة المياه فى بورسعيد وماسورة المياه الرئيسية الموصلة مابين دمياط وبورسعيد وترعة الاسماعيلية .

وقصف محطات الكهرباء فى بورسعيد وبورتوفيق وبعض أبراج الضغط العالى فى محافظة الدقهلية وخط الكهرباء الرئيسى لمدينة الاسماعيلية .

ولم تكن الخسائر التى ألحقها العدو بالجسامة التى تتناسب مع حجم غاراته المكثفة على هذه المواقع ولا بحجم اصراره أحيانا على مواصلة الضرب فترات طويلة بقصد منع عمليات الأطفاء والأنقاذ والاصلاح .

وكان الفضل فى ذلك إلى جانب شبكة الدفاع الجوى وقواتنا الجوية إلى جماهير الشعب فى هذه المناطق وأجهزة الدفاع المدنى بشتى أنواعها .

ولعل أروع صفحات البطولة تجلت فى بورسعيد وفى السويس بالذات.

فلقد صب العدو جام غضبه على مدينة بورسعيد طوال أيام القتال محاولا تدمير كل مرافقها الحيوية وكانت جماهير الشعب وقوات الأمن وفرق الدفاع المدنى من إنقاذ ومكافحة حرائق وغيرها تمارس كلها وحدها فى بسالة رائعة وتحت النيران المستمرة فى ملحمة رائعة .

وكانت الملحمة الرائعة الأخرى بعد قرار وقف اطلاق النار حين أسرعت القوات الاسرائيلية المدرعة فى إتجاه مدينة السويس بقصد الاستيلاء عليها بأى ثمن .

ومن الساعة الثامنة صباح يوم ٢٤ أكتوبر حين أتجهت القوات المدرعة الاسرائيلية إلى السويس عن طريق شارع الجيش ، اقتحمت قوات الجيش والشرطة والدفاع الشعبى والجماهير العمالية والمتطوعة فى معركة طويلة انتهت بتدمير كل الهجمات الاسرائيلية حيث مازالت دباباتهم راقدة فى أماكنها شاهدة على مرارة القتال والهزيمة رغم عدم متانة اللاح ، بتضحيات رجال القوات المسلحة والشرطة والجماهير وامتزاج دمائهم معا .

الاستغاثة

قال الرئيس أنور السادات فى مؤتمره الصحفى مع الصحفيين الأجانب بعد الحرب ، أن إسرائيل كانت على وشك الأنحدار ، وأنه لم يكن قد بقى لها بعد ١٢ يوما من الحرب إلا القليل من الذخيرة ولكن الولايات المتحدة الأمريكية التى تدخلت لأنقاذها .

وكان هذا صحيحا وبأقوال المسئولين والمراسلين الأمريكيين أنفسهم.

فمع التآكل الرهيب لأهم أسلحة إسرائيل - الطيران والمدرعات - ومع الخسائر البشرية الضخمة فى الأرواح ، دارت أتصالات محمومة بين تل أبيب وواشنطن كانت فى الواقع كما قال سياسى أجنبى : أشبه بالأستغاثة التى ترسلها سفينة مهددة بالغرق .

ولعل الأمريكيين سمعوا من إسرائيل لأول مرة لهجة غير لهجة الغرور المألوف وغير التأكيدات المطلقة بأنهم قادرون دائما على سحق العرب وبسرعة .

ومعروف أن إسرائيل لم تدخل الحرب بغير سلاح . وأن إعلامها الضخم عن تزويد الاتحاد السوفييتي لنا بالسلاح الحديث لايعني أنها محرومة من السلاح الحديث . وسياسة أمريكا «المعلنة» هي توازن القوى في المنطقة وترجمتها «المعلنة» لتوازن القوى هو أن تكون لدى إسرائيل قوة عسكرية تعادل كل ما لدى الدول العربية مجتمعة . والسياسة الحقيقية المعلنة ، هي أن تكون إسرائيل متفوقة في السلاح دائما على كل الدول العربية مجتمعة . ومنطقهم الرسمي أن قدرة اسرائيل على تهديد العرب وهزيمتهم هي وحدها التي تمنع العرب من القضاء على اسرائيل .

فالمفاجأة إذن في الحرب لم تكن تشمل السلاح . وما لدى اسرائيل من سلاح كان كثيرا وغزيرا وحديثا يعادل إن لم يكن بالتأكيد أكثر مما لدى العرب .

وقد ترددت واشنطن فترة في تزويد اسرائيل بالسلاح إذ كانت تظن أن إسرائيل تبالغ في طلباتها وأنها بما لديها قادرة على إنهاء الحرب لمصلحتها .

ولكن مجريات القتال العنيف جعلها تغير رأيها بالتدريج وتأخذ استغاثات إسرائيل مأخذ الجد ..

كتب جون فينى محرر جريدة النيويورك تايمز فى تلك الفترة يقول :

«يعترف المسئولون الأمريكيون فى واشنطن أنه بالرغم من عديد من الدلالات المثيرة للشكوك إلا أنهم لم يتوقعوا ما حدث» .

فقبل عام ونصف مضى حصلت إسرائيل على صور مفصلة لطرق جديدة تؤدى إلى نقط التقاء هامة على الضفة الغربية لقناة السويس . وكشفت هذه الصور أيضاً عن معدات سوفيتية لبناء الكبارى مخزونة عند كل نقطة من النقاط القى يمكن استخدامها للعبور . وبالقرب من الخنادق شيدت معسكرات كبيرة مزودة بأجهزة الرادار والدبابات ومخازن الذخيرة ولكن عدد الأفراد فيها كانوا قليلين .

ولكن عندما عرضت الصور على الخبراء الأمريكيين فى حينها، خرجت التقديرات الأمريكية والاسرائيلية معا بنتيجة واحدة هى : أن عبور القناة على نطاق واسع يشكل تحديا يتجاوز قدرة القوات المصرية المسلحة . وبناء على ذلك فقد فوجئت اسرائيل التى بنت استراتيجيتها العسكرية على أساس الأحتفاظ بزمام المبادرة .

ونفس الشىء حدث بالنسبة للجبهة السورية من سوء تقدير عواقب بناء خط متقدم من صواريخ أرض - جو قرب خطوط وقف اطلاق النار بين سوريا واسرائيل .

إن هذا يضيف بعدا آخر لمعنى «المفاجأة» يوم ٦ أكتوبر : كان الظن لدى أمريكا واسرائيل أنه حتى لو حدث هجوم فهو أكبر من طاقة مصر وسوريا وبالتالى لن يكون شاملا وانه سوف يمكن سحقه بسهولة.

ولكن مع تساقط الطيران الاسرائيلى أمام شبكات الصواريخ ، ومع الدمار الذى لحق بالمدرعات الاسرائيلية وأطقمها من الأفراد ، وما أبدته القوات المصرية والسورية حيث أتيحت لها الفرصة من مهارة وروح قتالية عالية ، جعلت أمريكا تغير رأيها بسرعة وأتخذ على أعلى المستويات قرار إنقاذ إسرائيل .

ففى يوم ١١ أكتوبر أذاعت وكالات الأنباء العالمية أن أمريكا «بدأت فى إرسال شحنات من السلاح على وجه السرعة إلى إسرائيل . وأن الأمر بدأ بطائرتين إسرائيليتين من طراز بوينج ، تم شحنهما بالصواريخ وبقنابل جديدة من قاعدة أمريكا فى فرجينيا ، وكان الجنود الأمريكيون يخفون العلامات الاسرائيلية على الطائرتين حتى يتم شحنهما ولما سئل قائد القاعدة عن هذه الشحنات رفض التصريح بأى شىء .

ثم لم تمض أيام حتى كانت إسرائيل قد تلقت أسطولا جديدا بأكملة : ٤٨ طائرة فانتوم جديدة نقلت من أمريكا رأسا إلى مطار

اللد فى اسرائيل واعترف الأسرى الاسرائيليون فى مصر بأن طيارين أمريكيين كانوا يطيرون بهذه الطائرات رأساً إلى مطارات اسرائيل ، حيث يجرى تغيير رسم نجمة داوود فوق نجمة سلاح الطيران الأمريكى بسرعة ثم تنطلق إلى القتال .

وحملت طائرات شحن أخرى إلى اسرائيل صواريخ «سايد وايندر» جو - جو وصواريخ «وول - آى» الموجهة بالتليفزيون والتى تستخدم ضد الأهداف الأرضية والقنابل المتفجرة ، المتعددة الاتجاهات التى تستخدم ضد المدرعات وصواريخ شرايك المصنوعة خصيصا لضرب شبكات الدفاع الجوى الصاروخية .

وقالت جريدة الواشنطن بوست أنه بدأ شحن ما يتراوح بين ٨٠ و٩٠ طائرة سكاي هوك إلى إسرائيل بطريق البحر ، بعد أن خسرت إسرائيل هذا الرقم تقريبا من نفس النوع من سلاح طيرانها خلال الأسبوع الأول للقتال .

وقدمت الحكومة فورا إلى الكونجرس الأمريكى مشروع قانون لاعتماد مبلغ ٢٠٠٠مليون دولار حتى يمكن اعطاء إسرائيل الأسلحة المطلوبة لها فوراً من مخازن الجيش الأمريكى وبلا مقابل .. ألا أن هذا الرقم لايشمل ماقدم لإسرائيل مثلا من شحنات أسلحة نقلتها السفن والطائرات الاسرائيلية ولايشمل طائرات

الفانتوم التى قادها الطيارون الأمريكيون أنفسهم رأسا إلى إسرائيل ...

وأذاعت وكالة رويتر من لندن أن مطارات أوروبية قد تحولت إلى معسكرات يتدفق عليها مئات الأمريكيين والأوربيين اليهود من الطيارين والفنيين لنقلهم فورا إلى إسرائيل وأن أربع طائرات جامبو مرت بمطار لندن فى يوم واحد فى طريقها إلى إسرائيل .

وفى يوم ١٥ أكتوبر كتب جورج شيرمان المحرر العسكرى لجريدة واشنطن ستار نيوز يقول : إن تقديرات المخابرات الأمريكية تشير إلى أن إسرائيل قد فقدت أكثر من ثلث قوتها الجوية الضاربة وذلك حتى صباح ١٣ أكتوبر وأن خسائرها من الدبابات تتراوح بين ٥٠٠ و٦٥٠ دبابة أى ثلث قواتها المدرعة وأنه قد تقرر تعويض إسرائيل عما فقدته .

وفى نفس اليوم كتب جون فينى مراسل النيويورك تايمز الأمريكية فى واشنطن يقول : أن القرار الأمريكى الخاص بإرسال الأسلحة الثقيلة برية وجوية والأجهزة المتقدمة إلى إسرائيل قد صدر بناء على ثلاثة اعتبارات : الأول طول مدة القتال بشكل غير متوقع ، والثانى مدى الخسائر التى كانت بالجيش الإسرائيلى فى الحرب ، والثالث حجم شحنات الأسلحة السوفيتية إلى سوريا

ومصر «ويحاط شحن الطائرات والأسلحة الثقيلة الأمريكية هنا فى أمريكا بسرية بالغة وغير عادية من جانب حكومة واشنطن» .

ثم استطرد قائلا «..ويبدو أن الحكومة الأمريكية ترى انه لابد على الأقل من تعويض الطائرات الإسرائيلية التى فقدت .. إذا كان يراد أن يحافظ السلاح الجوى الإسرائيلى على قوته الضاربة ضد القوات المصرية المسلحة فى سيناء» .

على أن هذا التكتم لم يلبث أن انفضح وعرف العالم المجهود غير العادى والذى لم يسبق له مثيل الذى بذلته أمريكا عسكريا خلال هذه الأيام الحاسمة لإنقاذ إسرائيل .

ففى ٢٥ أكتوبر بعد وقف القتال نشر الصحفى الأمريكى المطلع رسالة من واشنطن (خاصة للنيويورك تايمز والأهرام) روى فيها قصة الجسر الجوى والبحرى كالتالى :

«اعترفت المصادر الرسمية فى الولايات المتحدة بأنها اضطرت إلى إقامة نظام خاص للتعجيل بإرسال الامدادات إلى اسرائيل لأن بعض حلفائها فى منظمة حلف الأطلنطى رفضوا التعاون معها فى هذا الشأن خوفاً من المقاطعة العربية البترولية لهذه الدول .

«وذكر المسئولون العسكريون أن حاملات الطائرات وطائرات الوقود التابعة للسلاح الجوى الأمريكي شاركت مباشرة في امداد اسرائيل بالأسلحة من القواعد الموجودة في الولايات المتحدة ذاتها فقد اضطر الأسطول الأمريكي والسلاح الجوى الأمريكي إلى اقامة نظام للإمداد المستمر من الولايات المتحدة إلى اسرائيل.

«وذكر المطلعون العسكريون نموذجا على ذلك كالتالي : اقلعت طائرات السكاي هوك يقودها رجال البحرية الأمريكية من الساحل الشرقي وهبطت في جزر الازور للتزود بالوقود ثم طارت إلى حاملة الطائرات جون كيندي المرابطة قرب جبل طارق حيث جرى تزويدها بالوقود مرة ثانية بواسطة طائرات تزويد الوقود . ثم طارت الطائرات المرحلة التالية إلى حاملة الطائرات فرنكلين روزفلت في قلب البحر الأبيض المتوسط حيث قضت الليلة هناك وفي آخر مرحلة تزودت الطائرات بالوقود من الجو في شرق البحر الأبيض فوق حاملة طائرات ثالثة هي اندبندانس قبل أن تصل مباشرة بعد ذلك إلى اسرائيل .

«وقد شملت هذه العملية ما بين ٢٠ و ٣٠ طائرة سكاى هوك وصلت إلى اسرائيل جوا بينما وصلتها حوالى ٥٠ طائرة أخرى على متن سفن النقل التابعة للأسطول الامريكي .

«وقد ظلت طائرات السكاى هوك والفانتوم مختفية بعلاماتها الأمريكية إلى أن هبطت فى اسرائيل ثم استبدلت علاماتها بعلامات اسرائيلية وعاد الطيارون الأمريكيون على متن طائرات مدنية .

«ولم تعرف بعد طريقة نقل طائرات الفانتوم إلى اسرائيل وكيف تم تزويدها بالوقود ولكن المؤكد أن عددا كبيرا خرج فى أول الأمر من القواعد الأمريكية فى أوروبا حتى اعترضت الدول الأوروبية على ذلك فلجأت إلى التزويد بالوقود من جزر الأزور ، قاعدة أمريكا وهى أرض برتغالية» .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر نقلت وكالة اليونايتدبريس تصريحا يعلن فيه «المسئولون الأمريكيون أن الولايات المتحدة سوف تستمر فى تزويد اسرائيل بالأسلحة حتى تعلن الحكومة الاسرائيلية أنها اكتفت تماما . وأضاف المسئولون «أننا سنواصل تزويد اسرائيل بالمعونة العسكرية حتى يشعر الاسرائيليون بأنهم مسلحون بدرجة كافية فالاسرائيليون وليس الأمريكيين هم الذين سيقررون القدر الذى يعتبر تسليحاً كافياً . وقد صرح جيرى فرايد هايم المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية بأن الجسر الجوى المتجه نحو اسرائيل لا يزال مستمرا بمعدل عشرين رحلة يوميا» .

واستطردت الوكالة تقول «وفى تل أبيب أعلن الجنرال بنيامين بيليد قائد سلاح الطيران الاسرائيلى فى حديث إذاعى أن قوة سلاح الطيران الاسرائيلى تكاد تكون قد استكملت وأنها عادت إلى المستوى الذى كانت عليه يوم ٦ أكتوبر عندما بدأ القتال وصرح مصدر وثيق الاطلاع بأن الأسلحة والمعدات الأمريكية المرسلة إلى إسرائيل مستمرة بنفس المعدل وقد هبطت طائرات النقل التى تنقل هذه الأسلحة والمعدات خلال ليلة أمس فى المطارات المحددة لها وطبقا للمواعيد المحددة» .

وكان هذا بعد قرار وقف اطلاق النار بيومين .

ولعل قول المسئول الأمريكى «أن اسرائيل وليست أمريكا هى التى ستقرر القدر الذى تعتبره تسليحا كافيا» .. لعله قول لم يسبق له مثيل فى الذهاب إلى أقصى حد فى تدعيم اسرائيل .

وقد ألقت جريدة الصنداى تلجراف الانجليزية ضوءا آخر على عملية الانقاذ هذه فى سلسلة تحقيقاتها عن حرب أكتوبر فقالت :

«لم يكن الموقف بالنسبة للعرب فى مثل خطورته بالنسبة لاسرائيل من حيث الامدادات العسكرية ويقول المصريون أن الاسرائيليين كان أمامهم يومان فقط ثم تنفد ذخيرتهم قبل أن يبدأ الجسر الجوى الأمريكى بطائرات «جالاكسى» الجبارة .

«لقد جهزت مائة طائرة من تلك الطائرات الضخمة التى تحمل كل منها مائة طن من الذخيرة والدبابات والأهم من ذلك الأسلحة الالكترونية الحديثة التى تتحكم الآن فى ساحات القتال .

«وقد نقلت طائرات الفانتوم والسكاى هوك مباشرة إلى القواعد الاسرائيلية حيث كانت نجمة داوود توضع بسرعة على علامة سلاح الطيران الأمريكى المرسومة فوق الطائرات وكان من رأى المصريين أن هذا معناه اشتراك أمريكا فعليا فى القتال .

«وقد يكون الأمر كذلك فعلا . ولكن من الحقائق التى ما تزال غير معروفة ، أن الجسر الجوى الأمريكى قد تقرر بعد أقصى درجة من التردد . ولم يبدأ الجسر الجوى الأمريكى بالفعل إلا عندما اتصلت جولدا مائير مباشرة بالرئيس الأمريكى نيكسون بالتليفون وفى يوم - السبت ١٣ أكتوبر - أى بعد اسبوع من نشوب الحرب أعطى كيسنجر رأيه بالموافقة .

«وفى اليوم التالى كانت طائرات «جالاكسى» تطير كل ١٥ دقيقة متجهة إلى مطار اللد عن طريق جزر الأزورس وكانت الأسلحة التى تحملها تنقل مباشرة بطائرات نقل من طراز هيركول إلى القواعد الأمامية فى سيناء حيث تتجه الدبابات مباشرة إلى خط القتال ..

«وكانت هناك حاجة فى الصحراء إلى الكثير من الأسلحة الأمريكية الجديدة وخاصة الصاروخ ت . و . ف . المضاد للدبابات.

وقالت مجلة «افييشن ويك» الأمريكية فى ٢٦ / ١١ أن شركة الطيران الاسرائيلية «العال» قدمت للجيش ٧٥ ٪ من عمالها كما قدمت له معظم امكانياتها وشوهدت في مطار لندن طائرة بوينج ٧٤٧ من طائراتها وقد أزيل عنها اسم الشركة واستبدل بشعار سلاح الجو الاسرائيلى . وكانت تنقل جنودا وطيارين بملابسهم العسكرية وكانت كل من طائرتى البوينج ٧٤٧ الموجودتين لدى شركة العال تنقل إلى اسرائيل فى كل رحلة ما يوازى ٧٥ طنا . كما شوهدت طائراتها الأخرى فى عدة مطارات أمريكية وكانت أطقم التفريغ على الأرض مزيجا من المدنيين العسكريين والمتطوعين الذين جاءوا من اسكندنافيا والولايات المتحدة وكندا . وكانت طائرات ستارليفتر س – ١٤١ تغادر اسرائيل بعد ٩٠ دقيقة من وصولها . وتقول المصادر الاسرائيلية أن هذا لم يكن ممكنا لو لم يرسل سلاح الطيران الأمريكى جهازى تفريغ آليين صمما خصيصا لتفريغ هذا الطراز من الطائرات وكان سلاح الجو الاسرائيلى قد

استـأجـر طائرات بوينج أخـرى بالأضـافـة إلى أسطــول شـركـة العــال الذى يضم ١٢ طائرة بوينج .

وكـتب مـائيـر كـوهـين [١] فـى مـلـحق جـــريدة «هـاآرتـس» الاسرائيلية فى ٢١ / ١٢ / ٧٣ عن الجسر الجوى الأمريكى فقال: أن الاسم الذى أطلق على العـمليــة كــان «نيكل جـراس» وقــد اسـتـخـدمت فـيـه طائرات النقل الأمـريكيـة الضـخـمـة . إذ قـامت طائرات ستاليفتر س - ١٤١ بنحو ٤٢٠ رحلة وطائرات جالاكسى بنحـو ٢٥٠ رحلة . ووصل عدد الرحـلات اليـومـيـة فى أواخـر أيام القتـال إلى ٢٨ رحلة فى اليوم وكانت أحياناً توجد ١١ طائرة مرة واحـدة فـى مطار اللد . وأرسلت أمـريكا بعـثـة من ٢٠ خـبـيـرا للإشـراف على عـمليـات التـفـريغ والصـيـانة الأرضـيـة والتـزويد بالوقود.

وفى رسالة من الجـبـهـة للمراسل الأمـريكى رايموند اندرسون كتبها عندما زار الجبهة فـى سيناء بعد الحرب مع وفد من الزوار الأمــريكيين يــروى قصـــة أخرى فيقول : « ... وعلى هضبة قريبة، قـــاد ضــابط مــصــرى زائـــرا أمـــريكى الجنـسـيـــة من بين المجموعـة ليريه حفـــرة كبيرة أحـــدثتها إحـدى القنــابـل ثم

---

(١) ترجمة نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

أشار بيده إلى ثلاث قنابل لم تنفجر كل قنبلة منها فى حجم كرة البيسبول وقال له «هذا النوع من القنابل الوحشية ممنوع بحكم القانون الدولى . هذه بعض عينات شحناتكم من الأسلحة إلى إسرائيل .. وسوف تجد أنها تحمل تاريخ انتاجها وهو ابريل ١٩٧٣» .

وفى دراسة لمؤسسة الدراسات الفلسطينية عن المساعدات الأمريكية لاسرائيل منذ ساعة بدء القتال جاء ما يلى :

«منذ بداية القتال فى ٦ / ١٠ / ٧٣ باشرت الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بكميات ضخمة من ذخيرة المدافع والدبابات والطائرات .

وقالت جريدة جيروزاليم بوست الاسرائيلية أن طائرات شركة العال كانت تنقل هذه الذخائر من قاعدة نورفولك البحرية فى ولاية فرجينيا .

«وفى ١٣ / ١٠ / ٧٣ بدأت أمريكا فى تعويض اسرائيل عن خسائرها فى الحرب من طائرات ودبابات وللاسراع فى توصيل هذه التعويضات إلى أرض المعركة تقرر سحبها من أعتاد الجيوش الأمريكية المرابطة فى أوروبا وأنحاء أخرى من العالم (جيروزاليم بوست ١٦ / ١٠ / ٧٣) ..

وقالت الصحيفة الاسرائيلية ذاتها أن الجسر الجوى كان من الضخامة بحيث اضطرت البحرية الأمريكية إلى الاستعانة بطائرات النقل المدنية التى استؤجرت من شركات الطيران الأمريكية ، وأضافت الجريدة الاسرائيلية أن ضابطا من سلاح الجو البرتغالى يخدم فى القاعدة البرتغالية الأمريكية المشتركة فى جزر الأزور ذكر أن اعدادا كبيرة من طائرات النقل الأمريكية هبطت فى تلك القاعدة وهى فى طريقها إلى اسرائيل وأنها كانت محملة «بكل ما تحتاجه الحرب» ، وقال أنه شاهد فى الطائرات : دبابات وقنابل للطائرات وصواريخ موجهة وغيرها ، وقالت مصادر برتغالية أخرى أن عشر طائرات بوينج وأربع طائرات نقل ضخمة من طراز جالاكسى واعدادا كبيرة من طائرات نقل من طراز هيركولس وطائرات فانتوم مقاتلة ، مرت على القاعدة فى نفس اليوم الأول من الجسر الجوى وكانت الطائرات بمعدل تصل واحدة كل خمس عشرة دقيقة .

«وفى نفس الوقت بدأت أمريكا بشحن الأسلحة إلى اسرائيل بحرا . وقد شوهدت السفينة الاسرائيلية «بن دان» وهى فى قاعدة نورفولك البحرية ، محملة بطائرات سكاى هوك وذخائر ودبابات (الديلى تلجراف ١٧ / ١٠ / ٧٣) وذكرت مجلة «تايم» الامريكية (٢٩ / ١٠ / ٧٣) أن الجسر الجوى الامريكى

استطاع نقل ٨٠٠ طن يوميا ، غير الطائرات المقاتلة والقاذفة التى كانت تصل مباشرة . هذا إلى جانب ما كانت تنقله طائرات العال . وقد أوفدت أمريكا خمسين فنيا من سلاحها الجوى إلى مطارات اسرائيل للمساعدات فى عمليات التفريغ والتركيب .

«ومن الأسلحة التى سلمت إلى اسرائيل لأول مرة صواريخ «مافيريك» جو - أرض ضد الدبابات وصواريخ «ستاندرد أرم» جو - أرض ضد محطات الرادار ، قواذف «لو» مضادة للدروع ، قنابل موجهة بأشعة ليزر وقنابل «روكاى» .

«وفى الوقت نفسه طلب نيكسون من الكونجرس الأمريكى اعتماد مبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار لمساعدة اسرائيل بصرف النظر عن الأسلحة التى صرفت بالفعل .

«وبالاضافة إلى ذلك صرح بنحاس سابير وزير المالية الاسرائيلى لدى وصوله عائدا إلى مطار اللد بأن اليهود فى أمريكا وعدوا لجمع مبلغ ٧٥٠ مليون دولار عن طريق الجباية اليهودية الموحدة ومبلغ ٤٥٠ مليون دولار عن طريق السندات والقروض وطلب من اليهود فى سائر أنحاء العالم التبرع بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار أخرى ...

«وقالت المصادر الغربية على المستويات العليا أن اسرائيل كانت على حافة الهزيمة قبل الجسر الجوى الأمريكى للنقص الخطير في المعدات والذخائر (التايمز الانجليزية ٣١ / ١٠ / ١٩٧٣) ..

فى الوقت الذى بدأ فيه السلاح الأمريكى يتدفق إلى إسرائيل ويصل مباشرة تقريبا إلى خطوط القتال فى سيناء وبعد أن ضمنت اسرائيل تعهد أمريكا باستمرار تدفق العتاد على هذا النحو الذى لم يسبق له مثيل أعطت القيادة الاسرائيلية الضوء الأخضر لعملية «الغزال» ، عملية عبور قناة السويس إلى الضفة الغربية .. وكما سبق ذكره لم تكن هذه الخطة جديدة بل أنها كانت موضوعة منذ زمن ..

وفى الأيام الأولى للقتال صرح موشي ديان أن اسرائيل ستقاتل هذه المرة غرب القناة .

وكان شارون وغيره من القادة يطالبون بها كما سبق ذكره منذ اليوم الأول ...

ولكن القيادة الاسرائيلية رفضت باستمرار ازاء العبور المصرى الشامل ومعارك الدبابات الضخمة وخسائر اسرائيل الجوية والبرية الفادحة وكما قال موشى ديان وقتها لشارون :

إذا حاولت وخسرت فلن تكون هناك قوات لنا فى سيناء وستتعرض اسرائيل ذاتها للخطر ..

كان لابد أن يدخل الموضوع عنصر جديد ...

وكان هذا العنصر الجديد في الواقع عنصرين :

الأول : هو الانقاذ الأمريكي وضمان استمراره .

والثاني : هو اقتراب موعد لا مفر فيه من تدخل العالم لوقف إطلاق النار .

واسرائيل مشهورة ببراعتها فى تنسيق العمل السياسى والعسكرى معا ..

وقد كانت أهداف اسرائيل من فتح ثغرة بين الجيشين الثانى والثالث ، والعبور إلى غرب القناة عدة أسباب سياسية وعسكرية .

أولا - نقل القتال إلى غرب القناة بحركة مفاجئة ، تستهدف وضع القيادة المصرية فى موقف مربك بان تضطر إلى الاختيار بين الوقوع فى الحصار شرق القناة أو إعادة قواتها إلى غرب القناة وهذا هو الحد الأقصى الذى كانت اسرائيل تطمح إليه .

ثانيا – تدمير شبكات الصواريخ الموجودة على الأرض بعد أن عجز الطيران عن تدميرها ، حتى يسترد طيرانها حرية العمل كاملة فوق جو ساحة القتال ...

ثالثا – أن تسبق وقف إطلاق النار ولو بنوع من النصر النفسى المحدود الذى يجعلها فيما سوف يتلو وقف إطلاق النار فى موقف أقوى مما أدى إليه قتال أكثر من أسبوعين ..

ويكشف لنا عن هذه الأهداف بالذات نوع الاسلحة التى أرسلتها إليها الولايات المتحدة فضلا عن كمياتها .

وقد فشلت اسرائيل فى تحقيق الهدفين الأولين . فلم ترتبك القيادة ولم تجد نفسها مضطرة للانسحاب إلى غرب القناة ولم يتم تدمير الجسور المقامة ولا تقليل حجم القوات الموجودة شرق القناة . ولم تدب فوضى كانت تحلم بها أشبه بانهيار ١٩٦٧ . كذلك فشلت اسرائيل فى تحقيق الهدف الثانى إذ توقف القتال وشبكات الصواريخ مازالت تحدث أثرها المدمر فى الطيران الاسرائيلى .

ولكنها حققت هدفها الثالث فى أن يقف إطلاق النار ولها قوة منتشرة فى غرب قناة السويس عدلت بها وقع الهزيمة الشاملة عليها ...

ومع ذلك فقد احتاجت اسرائيل لفتح هذه الثغرة ليس إلى قوات محدودة كانت لديها كما كان شارون يتصور ، ولكنها احتاجت إلى أن تلقى بكل ثقلها البرى والجوى فى قتال شرس لم يسبق له مثيل ، واحتاجت إلى أن تفقد فى هذه الثغرة أضخم خسائرها خلال أيام القتال كلها ..

.. واحتاجت فوق ذلك إلى : أن تتلاعب بوقف إطلاق النار ذاته ..

فحتى الساعة التى حددت لوقف إطلاق النار لم يكن لها على الضفة الغربية سوى جيب محصور غير صالح للبقاء ولكنها لم تلبث حين وقت ساعة وقف إطلاق النار أن ألقت بكل ثقلها من جديد وكانت خطتها الانتشار ولو بقوات بسيطة على أوسع دائرة ممكنة حتى تجئ قوات الطوارئ الدولية لتجدها على هذا الانتشار...

هدف رابع لم تحققه اسرائيل من هجومها ، وهو الاستيلاء على إحدى مدن القناة الرئيسية بسبب الدور الاعلامى لهذا الحدث. فركزت على مدينة السويس بعد قرار وقف إطلاق النار تركيزا رهيبا . وتعاونها فى التنسيق السياسى العسكرى أعلنت رسميا سقوط مدينة السويس فى يدها عدة مرات على

أمل أن يتحقق ذلك بالفعل حين تصل قوات الأمم المتحدة إلى الموقف . ولكن هجماتها الجوية والبرية بالمدرعات فكرت الهجوم تلو الهجوم عند مداخل المدينة الباسلة التى التحم داخلها الجيش بالدفاع الشعبى بالمواطنين العاديين فى ملحمة استبسال نادرة . وبلغ من عنف الهجمات وشدة حملة الإعلام وتأكيد البلاغات الاسرائيلية أن العالم فعلا لم يصدق أن السويس لم تسقط إلا عندما وصلت قوات الأمم المتحدة إلى المدينة واذاعت ذلك بنفسها..

وخرق اسرائيل لوقف إطلاق النار بعد ساعات من قبوله ، وانتهاز الفرصة لاختلاس المكاسب ليس أمرا جديدا على اسرائيل . بل أنها أحرزت معظم توسعاتها منذ سنة ١٩٤٨ بهذا الأسلوب .

ويكفى أن نقلب بعض ما هو منشور في أوراق دافيد بن جوريون حول حكايات وقف إطلاق النار واستغلالها :

سنة ١٩٤٨ صدر من الأمم المتحدة قرار الهدنة الأولى ، وتوقف القتال بين قوات الدول العربية واسرائيل ، وكتب بن جوريون «باعلان الهدنة يوم ١١ يونيو ، انتقل زمام المبادرة إلينا !» كيف !

كانت قوات اسرائيل حتى إعلان الهدنة تحارب متقهقرة . وحين أعلنت الهدنة للبدء في تنفيذ قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة ، قبلت اسرائيل الهدنة لسبب آخر تماما ، هو : إعادة ترتيب قواتها ، والاستعداد للبدء هذه المرة بالهجوم ، لا بالدفاع .

« فخلال الهدنة الأولى - يقول بار زوهار المؤرخ الشخصى لبن جوريون وعلى لسانه - ضللت اسرائيل مراقبى الأمم المتحدة وجاءت السفن سرا حاملة آلاف الأطنان من السلاح والعتاد . وتسلل آلاف المهاجرين عبر شتى الطرق إلى اسرائيل . وتكونت فرق مسلحة جديدة وتأسس أول أسراب للطيران الاسرائيلى . وحين كان ممثلو الأمم المتحدة يسألونه عن رأيه فى خطوط التقسيم ، كان يقول فى غموض : حيث تقف قوات اسرائيل» مضمرا هجوما غادرا ينهى به الهدنة .

هكذا ، بمجرد انتهاء الهدنة الأولى ، يوم ٩ يوليو ، شنت اسرائيل هجوما شاملا على كل الجبهات ، لتحتل كل الأراضى التى تريد لها أن تكون جزءا من دولتها التى كانت فى الشهر الثانى من عمرها وفى خلالها عشرة أيام ، أعلنت بعدها الهدنة الثانية ، كانت قوات اسرائيل قد دفعت القوات المصرية جنوبا ،

واستولت على مثلث الجليل الخصب كله ، واحتلت منطقة الرملة واللد والمطار الدولى فيها ، كما استولت على مدينة المسيح ، الناصرة .

وكانت الأمم المتحدة قد فرضت الهدنة الثانية فرضا ، على أن يستمر وقف إطلاق النار حتى تسوى المشكلة نهائيا ، ولكن اسرائيل قبلت الهدنة الثانية وهى تضمر شيئا آخر تماما .

فقد عطلت مرة أخرى عامدة محاولات الأمم المتحدة لتطبيق قرار التقسيم حتى بعد التعديلات التى أجرتها اسرائيل بالقوة . وفى هذه المرة لم يقف الأمر عند حد «تضليل» مراقبى الأمم المتحدة ، بل وصل إلى اغتيال ممثل الأمم المتحدة الكونت برنادوت، فى قلب مدينة القدس يوم ١٦ سبتمبر ١٩٤٨ على يد أشخاص مازالوا أحياء أحرارا مكرمين فى اسرائيل ! ذلك أن اسرائيل كانت تستعد لخرق الهدنة الثانية فى الوقت المناسب .

كانت تريد الاستيلاء على القدس ، والاستيلاء على النقب ، حتى تتم لها أول خريطة تريدها لنفسها ..

وفى أوراق بن جوريون مرة أخرى : نرى كيف أن الخطة أعدت فى سرية تامة ، وقدر العسكريون لتنفيذها عشرة أيام ، وكان هدفها هذه المرة الجيش المصرى وحده .

وعرض بن جوريون الخطة في سرية تامة على قادة حزبه ثم على مـجلس الوزراء . ثم أخطروا بهـا مـوسى شـاريت وزير خارجيتـهم الذى كـان فى الأمم المتـحدة وقتـها لكى يستـعد للعاصفة.. ويقى اختلاق السبب ..

وقرروا أن يكون المفتعل هو أرسال التمـوين إلى مستـعمرة اسرائيلية بعيدة في النقب . قرروا ألا يرسلوا مجرد قافلة تموين كما كانت تقضى اتفاقية الهدنة بل يرسلوها مصحوبة بطابور مسلح ، فيصبح اصطدامه بالجيش المصرى حتميا ، ثم يبدأ الهجوم بحجة أن الجيش المصرى خرق شروط الهدنة ومنع وصول الطعام إلى المستعمرة الاسرائيلية البعيدة .

وبالفعل ، تحـركت القافلة يوم ١٥ أكتوبر : وكـان لابد أن تشتبك بقوة الحراسة المصرية الواقفة على خط الهدنة ، وفوراً قفز الجيش الأسرائيلي كله للهجوم على الجيش المصرى من كل الاتجاهات ...

وأسرعت الأمم المتحدة للتدخل من جديد ، ولمطالبة اسرائيل بالانسحاب ولكن اختيار موعد خرق الهدنة الثانية كان محسوبا بدقة : يقول دافيد بن جوريون بالنص «تقرر أن يكون الهجوم بعد النصف الثانى من سبتمبر حين تكون رئاسة مجلس الأمن

الأمريكي، فتستطيع أن تمنع صدور أي قرار عنيف ضد اسرائيل، وحين تكون انتخابات الرئاسة الامريكية قريبة فلا يستطيع الرئيس ترومان أن يخاطر باغضاب اليهود الأمريكيين» . •

قال بن جوريون أن الشئ الذى كان يمكن أن تخشاه دولة جديدة هو توقيع عقوبات عليها ، ولكن هارى ترومان ، الذى أعيد انتخابه رئيسا لأمريكا ، كان قد اتصل فى مكالمة تليفونية طويلة بمدير المخابرات الأمريكية فى باريس يطلب منه أن يطمئن اسرائيل إلى أن أمريكا ستمنع أى قرار لتوقيع العقوبات عليها . ويروى بن جوريون أنه عندما علم سفير أمريكا فى باريس وقتها – الجنرال جورج مارشال : بكل رصيده الضخم – بهذا الأمر انفجر غاضبا وهدد بالاستقالة ولكن دون جدوى .

وبعد أن حققت الحملة أغراضها ، توقفت القوات الاسرائيلية ثم تم توقيع هدنة أخيرة بينها وبين الدول العربية فى فبراير ومارس وابريل . ولكن بن جوريون شن خلال هذه الهدنات هجوما أخيرا يوم ١٠ مارس فى النقب وصلت به اسرائيل إلى مياه خليج العقبة حيث يقوم اليوم ميناء إيلات .

.. وأقرب كثيرا من هذا أن نتذكر حرب ١٩٦٧ ، على الجبهة السورية بالذات ..

لقد صدر قرار وقف إطلاق النار وقبلته كل الأطراف ، قبل أن تحول اسرائيل ثقل هجومها من سيناء إلى الجولان . وببساطة أعلنت اسرائيل سقوط معظم الجولان كذبا قبل إعلان وقف إطلاق النار : أما القتال الذى دار بعد ذلك فى الجولان للاستيلاء فعلا على مرتفعاته ، فقد دار بعد وقف إطلاق النار ، وبينما وفدها ووفد الولايات المتحدة يمارس عمليات الخداع والتضليل فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن حتى تم لإسرائيل احتلال الجولان متخطية مسافات كثيرة للخطوط التى صدر عندها قرار وقف إطلاق النار.

لا شئ جديد إذن فى الكتاب الاسرائيلى للحرب والخديعة والتلاعب بالقرارات الدولية .

دروس الحرب

تحاول اسرائيل أن تجعل الانتصار العسكرى الذى أحرزته قواتنا بكفاءاتها ودمائها فى ساحة القتال صدفة أو غلطة من غلطات التاريخ .. وهى حتى عندما أعلنت عن تأليف لجنة عليا للتحقيق كانت إلى جانب محاولتها مواجهة موجة السخط لدى الرأى العام الاسرائيلى الداخلى أن تجعلها لجنة تحقيق تبحث فى «الأخطاء» التى أدت إلى هذه النتيجة ..

وكل حرب تقع فيها أخطاء بل وأخطاء لدى الطرف المنتصر والطرف الخاسر على السواء ولكن ليس كل الأخطاء هى «شخصية» تواجه بالتحقيق .

وهذا يهم اسرائيل إلى حد كبير لأنها ستظل تحاول إعادة بناء اسطورة الجيش الذى لا يهزم ، لأن مجرد احتمال هزيمة الجيش وانتصار العرب فى أى صراع ، سوف يتلوه على وجه اليقين تغير عميق فى نظرة اسرائيل إلى نفسها وإلى العالم العربى المحيط بها

. تغير لا تريد اسرائيل أن تواجهه . وواقع جديد لا تحب اسرائيل أن تتأمل أسبابه أو نتائجه .

ولذلك فمن المهم جدا أن نقف عند بعض دروس المعركة التى دارت على الجبهتين المصرية والسورية خصوصا فى إطار المقارنة بينهما وبين أى قتال عربى اسرائيلى سابق منذ سنة ١٩٤٨ وإلى الآن ...

عنصر المفاجأة :

إن اسرائيل تعترف بأثر عنصر المفاجأة فى الانتصار الذى أحرزته قواتنا ..

ولكن كما أشرنا إشارة عابرة فى غير هذا المكان فإن المفاجأة يمكن أن تكون لها صورتان ..

اسرائيل تحاول أن تجعلها أشبه بمفاجأة اليقظان النائم فى لحظة غفوة عابرة ولكن الكثير من صفحات هذا الكتاب توضح غير ذلك ...

فالخطة العسكرية الدقيقة التى رسمها وخطط لها ضباطنا وقيادتنا كانت قد بذلت مجهودا كبيرا لتحقيق عنصر هذه المفاجأة بالمعنى الاستراتيجى العام ...

وقد ذكرنا نماذج من عمليات التضليل الاستراتيجية التى لم تكن عفوية ولكن بذل فى سبيلها الكثير من العرق والمجهود ومن الحساب الدقيق والتقدير جزءا لا يتجزأ من الخطة العسكرية للحرب ذاتها ..

- والمفاجأة بهذا المعنى حق من حق أى جيش محارب . إن المفاجأة عنصر لا تخلو منه أى حرب أيا كانت بل لا تخلو منه أى معركة صغيرة فى أثناء حرب مشتعلة بالفعل . إن نصف المعارك يكون كل خصم فيها قد أعد لخصمه مفاجأة ولو من زاوية الاقتراب منه ، أو من شرك منصوب له ، أو من احتياطى غير ظاهر ، لدخول المعركة فى ساعة معينة ...

المفاجأة .. المفاجئة ، هى تلك التى تكون حين تشن دولة ما الحرب على دولة أخرى دون أى مقدمات تبرر ذلك . كالغزو المفاجئ الذى شنه هتلر مثلا على الاتحاد السوفيتى فى الاربعينات فى وقت كان يتظاهر فيه باحترام معاهدة للصداقة وعدم الاعتداء جديدة معه . أو مثل هجوم اليابان على بيرل هاربر القارة الامريكية فى الحرب العالمية الثانية بينما كانت وفود السلام تتفاوض فى واشنطن واحتمال قيام اليابان بهجوم ضد أمريكا وهم بعيد ..

ولكن فى حالتنا هذه كانت الحرب لاسترداد الأرض وارغام العدو على تغيير سياسته وإعادة القضية إلى سخونتها السابقة كانت هدفا معلنا على ألسنة كل مسئول ، فى دولتى المواجهة . وحالة الحرب ذاتها قائمة منذ ١٩٦٧ بوجه خاص على الأقل واسرائيل - تعقد كل يوم صفقات السلاح الجديدة ، وتضرب المدن العربية هنا وهناك بطائرات ، فهى ليست المفاجأة الشاذة . ولكنها المفاجأة العسكرية المدروسة والتى تشهد ببراعة الخطة لا بقدر العدو ...

ومع ذلك فقد جاء في أجزاء سابقة من هذا الكتاب كيف توالت النذر فى الأسبوع السابق على القتال ، على أدنى تقدير بالنسبة لاسرائيل ، عن حشود مصرية وسورية وأجهزة تقام وأسلحة تعد وتبادلت المخابرات العسكرية الأمريكية والاسرائيلية المعلومات والتساؤلات - والتفسيرات على أعلى المستويات ، ولكن عناصر التضليل الاستراتيجى التى لعبت بها قواتنا في احكام واقتدار ودقة بالغة فى التنفيذ هى التي ساهمت فى وأن يبقى السؤال عن نوايانا لدى العدو سؤالا حائرا ليس له جواب قاطع حتى فجر يوم الهجوم على الأقل ..

إن قيمة هذا بالنسبة لنا انه يثبت ، أن أحد أسلحة الحرب وهو عنصر القدرة على التخطيط وخداع العدو ووضع التفاصيل

اللازمـة لكل ذلك ، والتى تصل إلى ضـرورة مـعـرفـة كل وحـدة بواجبـاتها القـتـالية حـتى أصـغـر سـرية من السـرايا ، إن هذا العنصـر الهام ، فى امكاننا انجـازه وتحـقيقه ، والتفـوق فيه ، لو حشدنا طاقاتنا ووفرت لها الظروف المواتية ، أو أن هذا النوع من الذكاء والقدرة على اتقان الدراسة والتفاصيل ليس صفة قاصرة على العدو ، وليس من طبيعة العرب - الأزلية - الفوضى وعدم الاتقان وانعدام الخيال ، كما قال أدب النكسة الانهزامى ، وكما ظل يردد على أسماعنا ما يقرب من سبع سنوات ...

ومع ذلك فقد استعد الاسرائيليون احتياطيا - قبيل المعركة كمـا سبق ذكره ، فضـلا عن أنه كـان لديهم ثلاثة حـواجـز ضـد المفاجأة الشاملة مستعدة للعمل فوراً : أولها خط تحـصينات بارليف بكل استعداداته وخططه وفاعليته جنوباً أو استحكاماتهم فى مرتفعات الجولان الحصينة طبيعيا فى الشمال ، وسلاح الطيـران الاسـرائيلى القـوى ، وهو نوع من الأسلحـة القـابل للاسـتخدام فورا وخـلال دقائق بعكس القوات البرية التى قد يحتاج زجها فى المعركة إلى بعض الوقت ..

وقد استخدمت اسرائيل هذه العناصـر الثلاثة فور وقوع المفاجأة ، دون أن تحقق لها الأثر المطلوب الأمر الذى يؤكد أن

المفاجأة وحدها - على أننا فخورون بها - لم يكن ممكنا أن تنجز وحدها ما انجزته بغير الصفات القتالية الأخرى التى أظهرتها قواتنا ..

هذا عن «المفاجأة» التي سبقت القتال ولكن هناك نوعاً آخر من المفاجأة هو :

المفاجأة مع بدء القتال :

لقد انتهينا من تحليل عناصر مفاجأة بدء القتال ولكن هناك مفاجأة أخرى هى مفاجأة - أو مفاجآت - القتال ذاته ...

إن هذه ناحية أخرى من المهم التأكد عليها لما تعطيه لنا من لفتة فى أنفسنا ، ولما ترد به على حرب العدو النفسية وتأثير أدب النكسة الانهزامى المدمر ...

ساعة أن تطلق الطلقة الأولى ، نكون قد عبرنا عنصر المفاجأة الأول ، ودخلنا الحرب ذاتها التى تحتاج بدورها إلى مفاجآت .

وقد كان لدى قواتنا فى هذا المجال بعض المفاجآت أيضا ... وكان هناك إلى جانب ذلك عنصر القتال الصريح ذاته حيث لا يكون هناك ثمة مجال لمفاجآت ...

هنا أيضا نجد مفاجأت لا تدخل في دائرة ما تجريه اسرائيل من تحقيقات ، ولكنها تدخل فى دائرة ما أثبتته التجربة لدينا من كفاءات وقدرات حين تتاح لقواتنا المسلحة وكفاءاتنا الفنية وعقولنا المفكرة فرصة العطاء ..

مفاجأة توصل قواتنا إلى طريق لفتح ثغرات سريعة فى السد الترابى الضخم ..

ومفاجأة معدلات السرعة التى يمكن بها لقواتنا المسلحة أن تقيم خلالها رءوس الكبارى عبر القناة ، بالساعات والدقائق لا بالأيام ..

ومفاجأة التدريب المحكم على نماذج أقيمت لدينا من حصون خط بارليف ، واكتشاف الخطط الكفيلة بالاستيلاء على أهمها فى الساعات الأولى من القتال .

ومفاجأة وجود حتى قواتنا البحرية فى أبعد الأماكن جنوب البحر الأحمر مثلا ، ساعة المعركة بعد تحركات ومناورات لم يفهم العدو مغزاها ...

ثم هناك المفاجأتان الكبيرتان ، اللتان تدخلان فى بند الكفاءة التخطيطية والقتالية معا ، المفاجأة التى هى صميم المواجهة فى المعركة :

الأولى - مفاجأة قدرة الجيش المصرى لا على أن يعبر القناة ويحطم خط بارليف فحسب ، ولكن أن يتم هذا فى أقل من ٤٨ ساعة وألا ينتهى يوم واحد على بدء القتال إلا وقد صار على الضفة الشرقية للقناة جيشان كاملان بكل قياداتهما وأسلحتهما ومعداتهما الثقيلة ..

مفاجأة بهذا الحجم وفى وجه كل العقبات والاستحكامات التى أقامتها اسرائيل عبر سنوات وتحت حجم النيران المنصبة عليها من السماء والأرض ، هى مفاجأة تدخل تحت بند الكفاءة القتالية المحض : من التخطيط إلى التنفيذ إلى بسالة القوات بجنودها وضباطها وقياداتها وروحهم القتالية العالية .

كتب هنرى تانر مراسل النيويورك تايمز يقول :

«شاهدت بنفسى منطقة المعارك فى سيناء والقوات المصرية بدباباتها وعتادها تتدفق عبر قناة السويس . كان الجنود المصريون فى حالة معنوية عالية . وكانوا فيما يبدو غير عابئين بقذائف الطيران والمدفعية الاسرائيلية .

«لا تقلقوا إن الله معنا» هكذا صاح واحد من ثلاثة جنود شبان أمام المراسلين الذين سارعوا بالاختباء عندما انفجرت قنبلة قريبة أما المصريون الثلاثة فقد بقوا حيث هم واقفون على رأس

تبـة . وكـانت سيـارات النقل تقف بين بطاريات المدافع المضـادة للطائرات فى صفوف على أرض مكشوفة تنتظر دورها فى العبور دون خوف من التعرض للهجوم الجوى . وفى إحدى سيارات النقل العابرة كان ثمة جنديان شـابان يقفان فوقة شـحنة من العتاد ويرقصان على وقع تصفيق الآخرين . كانت فرحة النشوة بالعودة إلى الأراضى المصرية المحتلة منذ أكثر من ست سنوات ظاهرة فى كل مكان ، وقـد كـان الانطبـا ع الواضح الذى رأيناه فى كل مكان هو أن القوات المصرية فى سيناء تساورها كلها فكرة واحدة – هى التقدم شرقا» .

والحكايات كثيرة عن الجنود الذين كانوا يرتمون بأجسـادهم على الأسـلاك الشـائكة والألغام ليعبـر زمـلاؤهم بسـرعـة ، والذين كانوا يسدون – بأجسادهم – فوهات خط بارليف لتمكين زملائهم من الاقتراب والاقتحام ، والضـبـاط الذين كانوا يستشـهدون مع جنودهم فى كل مكان ..

المفاجـأة الثانيـة .. هى التـكتيك الـذى استـخدمتـه قواتنا فى القتال ذاته ، خصوصا فى صد الهجمات المضادة التى كانت تقوم بها القـوات المدرعة للعدو ، واسـتـخدام المشاة فى معـارك الدبابات..

لم تكن المفاجأة هنا في سلاح سرى نملكه ولا يعرف العدو شيئا عن وجوده ، وقد قال الكتاب الاسرائيليون أنفسهم ذلك فى تحليلاتهم لمعارك اكتوبر ١٩٧٣ . ولكن قواتنا المسلحة توصلت إلى هذا الأسلوب فى استخدام المشاة المسلحين بالصواريخ فى مساعدة دباباتهم وفى مواجهة موجات مدرعات العدو بشكل لم يتوقع العدو أن تكون له هذه النتائج المدمرة ...

السلاح لم يكن سرا ولكن الاسلوب القتالى والبسالة التى يحتاج إليها هى التى كانت مفاجأة ..

لقد امتلأت الصحف العالمية بتصريحات المسئولين والخبراء العسكريين من البلاد الكبرى يقولون أن حرب أكتوبر جعلتهم يعيدون النظر فى أساليب وأسلحة كثيرة .

وذهب البعض إلى القول بأن الدبابات التى كانت لها السيادة على أرض المعارك ، عادت تخلى سيطرتها القديمة للمشاة .

ولم يكن ذلك - بصرف النظر عن دقة هذا الحكم - إلا بفضل أسلوب استخدام المشاة حاملى الصواريخ فى مواجهة الدبابات .

ولم تكن هذه الصواريخ سرا ، وقد اعترف المراقبون العسكريون بأن الطرفين كان لديهما أنواع متشابهة من

الصـــواريخ المضـــادة للدبـــابـــات ولكن القـــوات المصـــرية استخدمت المشاة ضد الدبابات بطريقة فعـــالة أربكت العدو . هذا فـضـلا عن مـعـارك الدبابات الكبرى التى واجـهت الأولوية المدرعة فيها من الجانبين بعضها البعض .

واستـخدام المشاة ضد الدبابات فضلا عن أنه يحتاج إلى تدريب دقيق جدا فإنه يتوقف إلى حد كبير على جسارة الرجال : الذين يقفون بأجسادهم أمام تلك القلاع الفولاذية الزاحفة ..

قال مـراسل عسكرى أجنبى عريق : إن مواجهة دبابة تطلق نيرانها أمر مرعب حقا ! .. وانتظارها حتى تقترب إلى مرمى السلاح الذى يحمله الجندى يحتاج إلى أعصاب من فولاذ ! بل إن صوت ومشهد انفجار الدبابة بعد ضربها عن قرب منظر يهز الابدان هزاً !

ولكن .. كانت تلك هى الظروف التى قاتل فيها ضباطنا وجنودنا لتحطيم هجمات العدو المضادة بالطائرات والدبابات معا خصوصا قبل أن تعبر أولوية المدرعات الرئيسية إلى شرق سيناء.

النظرية العسكرية ذاتها :

لقد قيل الكثير عن النظرية العسكرية الاسرائيلية التى لا تقهر..

ولكن القوات المصرية والسورية حين اتخذت قيادتها قرارهما بأن يكون الهجـوم شـــامـلا بطــول الجبـهـة كلـها حطمت هذه النظرية العســكرية الاسرائيلية وعرفت الطريق إلى أن أى نظرية لا تتميز بالكمال ، بل فيها الثغرة التى يكمن فيها مقتلها بشرط معرفة طريقة مواجهتها ..

نظرة اسرائيل إلى العرب

ما أكثر الأدب الذى كتبه الصهيونيون وأنصارهم فى العالم وكتبه الاسرائيليون لأنفسهم عن العرب قبل حرب أكتوبر ٧٣ ..

بل ما أكثر ما كتبه بعض العرب أنفسهم .. عن أنفسهم ..

لم يكن ممكنا قبل اكتوبر ١٩٧٣ ، أن نقرأ فى صحيفة اسرائيلية مثل دافار (١٠ / ١٢ / ١٩٧٣) مقالا كالذى كتبه الكاتب الاسرائيلى «أهارون غيفع» ، حول هذا الموضوع يقول فيه:

«يبدو لى أن زمن الخبراء بالنفسية العربية» وعلى اختلاف أنواعهم الذين أثروا فينا بآرائهم وتحليلاتهم قبل الحرب قد انتهى.. ومن الأفضل أن يفتشوا لأنفسهم عن مصدر آخر للرزق..

ويمكن تقسيم خبراء الأمس هؤلاء إلى ثلاث فئات . منها من اعتاد أن يعلن «لقد ولدت فى العراق . وأننى أفهم العرب» . وتضم الفئة الثانية أولئك الذين يتذكرون أيام صباهم عندما كانوا يعملون كمراقبين على الفلاحين العرب فى بيارات البرتقال فى «بتاح

تكفاه» .. أما الفئة الثالثة وهى أخطر هذه الفئات فتضم أولئك الذين درسوا الثقافة الاسلامية فى الكتب .

وفى الحقيقة لقد أثار هؤلاء «الخبراء» شكوكى فى الماضى ..

إن خبراءنا لا يشبهون - لا سمح الله - اللاساميين ، فاللاساميون يكرهون اليهود ولكن خبراءنا لم يكرهوا العرب ولكنهم استخفوا بهم ، وأحيانا ارتدى هذا الاستخفاف طابعا «علميا» .. فماذا زعموا ؟

زعموا أن العرب بحكم ثقافتهم الخاصة يتجاهلون الواقع ويقعون ضحية خيالهم وقد قدموا أكثر من مرة البرهان على ذلك من بلاغات الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ وحرب الأيام الستة التى كانت كلها تنم عن خيال خصب .

ولكن الحرب الأخيرة أثبتت أن هذا الادعاء ليس صحيحا وإنما فى هذه المرة كانت بلاغات الناطق العسكرى المصرى دقيقة للغاية .

ولدى خبرائنا إدعاء آخر : أن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة فقط . لقد كان هذا الادعاء الأساسى للخبراء اليهود الذين ولدوا فى البلاد العربية أو من القدامى الذين عملوا مع العرب فى المزارع ولكن الواقع الآن يكذب هؤلاء الخبراء ، فلم تكن هناك

مظاهرة قوة أكبر من حرب الأيام الستة .. وماذا كانت النتيجة ؟ هل رضخوا للغة القوة ؟ أم الاستعداد لحرب جديدة ؟ ..

ثم أن معلقينا – خصوصا فى الاذاعة – يخبروننا كل يوم عن الانقسامات والخلافات فى العالم العربى . كل المؤتمرات والمشاورات وزيارات الوزراء المتبادلة ليست إلا تعبيرا عن الصراع الداخلى فى العالم العربى . وهكذا خلق لدى الجمهور الاسرائيلى انطباع بأن العالم العربى عالم منهار عاجز عن التكتل .

لا شك فى أن هناك صراعات عربية داخلية ، وهناك مصالح متضاربة وصراع على السيطرة على العالم العربى . كل هذا صحيح طبعا . ولكن الواقع أثبت أن العرب يستطيعون أن يتحدوا ليس بالكلام فقط ، خذوا استخدام سلاح البترول . أن من يقرأ كلام الاستخفاف بتهديدات استعمال النفط ، التى نشرت فى الصحف الاسرائيلية قبل الحرب ، لابد أن يتساءل باستغراب : من يعيش فى عالم خيالى .. نحن أم جيراننا ؟

إن للعرب ثقافة خاصة بهم تختلف عن ثقافة الغرب . إن هذه الثقافة ثمرة تطور خلال مئات السنين ، وقد فرضت طابعها على طرق التفكير وطرق التصرف ، ولكننا بالغنا فى تقدير الخلاف بين الثقافات ، ونسى الكثيرون أن الشعوب لا

تراوح فى مكانها . إن الشعوب تتغير أحيانا بسرعة وأحيانا ببطء . ولكنها تتغير» ..

روى لى صحفى أمريكى كبير ، أنه كان قبل حرب أكتوبر بستة شهور يزور جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل ، ومعها سيمحا دينتز سفيرها فى واشنطن . كان الصحفى الأمريكى يحدثها عن تشدد اسرائيل وعدائها لأمة عربية آخذة فى التطور ، ولكن مائير رفضت الاقتناع بأن هناك أى تغير حقيقى فى العالم العربى .

وقال لها الصحفى : هناك شباب عرب يعملون الآن فى عدة عواصم عربية على الآلات الحاسبة المتقدمة «الكومبيوترز» وانفجرت مائير بالضحك وقال دينتز له : كومبيوترز ؟ إنها اللعبة الجديدة الباهظة الثمن التى يلعبون بها ، تماما كما شغفوا قبل ذلك بلعبة الطائرات النفاثة ثم فشلوا فيها !

ولم تهتم مائير وتبدى مظهرا للقلق ، طبقا لرواية الصحفى الأمريكى، إلا حين قال لها : أن آلاف الأطفال فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين لا هم لهم إلا التعليم والدراسة ..

العبرة ..

منذ بدأ العالم العربي يفتح جفونه في بطء على حقائق العالم الجديد ، قبل قرنين من الزمان وبعد نوم دام قرونا طويلة دقت بابه عدة تحديات كان لكل منها وقع الصدمة ، والتنبيه معا ..

عرفوا صدمة الحملة الفرنسية التي قادها نابليون إلى مصر ثم حاول أن يمتد بها إلى المشرق .. وكانت الحملة الفرنسية تحمل معها أول معلومات عن الحضارة الجديدة في أوروبا من جهة وتحمل معها أيضا أول محاولة استعمار غربية من جهة أخرى ، عرفوا مبادئ الحضارة الغربية الأولية وما فيها من علم ومعرفة وعرفوا معها جانبها الشرس ، الفهم الطامع في امتداد قوته إلى آفاق جديدة .. وكان هذا أول تحريض للوطنية المصرية ، ثم لأقطار عربية كثيرة على التمرد لا على المستعمر الجديد وحده ولكن على التفكير في نقض عباءة الظلام والاستبداد العثمانيين أيضا ..

ثم عرفوا صـــدمة تحــالف دول أوروبا ضد محمد على الكبير، حين حــاول من القــاعدة المصــرية الحــديثة التى انشــأها أن يتحــدى الامبراطــورية التركية من الداخــل ولحساب المنطقة لا لحساب غيرها من القوى الأجنبيـة ، حتى فرنسا التى شجعته وساندته ودربت له جيوشـه انضـمت فى الساعة الحاسمـة إلى انجلترا وروسيا وغيرهمـا إلى جانب الامبــراطــورية التركيـة المتـداعية ، ضد القوة المحلية البازغة ..

وعرفوا صدمة الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ الذى لم يتأخر كثيرا عن فتح قناة السويس . والذى جاء فى لحظة وصلت فيها الوطنية المصرية بالثورة العرابية إلى إحدى قمم محاولاتها لطرح الحكم التركى والحصول على الحقوق الدستورية للشعب المصرى .. ورأوا الاستعمار الانجليزى الذى جاء ليبقى وكان أول ما قرر تسريح الجيش المصرى الوطنى ، وفك المصانع الحربية والبحرية وبيعها خردة وافلاس الصناعات الوطنية لحساب طوفان البضائع الأجنبية .

وعرفوا صدمة الحرب العالمية الأولى التى وعدتهم أوروبا فى بدايتها بالاستقلال إذا ثاروا فى وجه العثمانيين .. ثم ظهر أن الوعد كان خدعة وأن الغرب خلال ثورتهم كان يستعد لاحتلال بقية العالم العربى وإعادة تقسيمه وتوزيعه .. ووجد باقى العرب – كما

حدث للمصريين قبلهم - أنفسهم أمام استعمار أكثر رغبة في إدخال بعض الاصلاحات، ولكنه أكثر شبابا وقوة من الاستعمار العثماني ..

أما صدمة اسرائيل التي عرفوها بعد الحرب العالمية الثانية فقد كانت من نوع آخر تماما فهذا هو النصل الحاد للعالم المتقدم يقترب من رقابهم مرة أخرى .. وقد جاء هذه المرة لا ليحتل ويرحل ولكن لكي يستوطن ويبقى وينشئ قومية جديدة وحصنا مستمرا ، تتجه منه إليهم التهديدات والانذارات الكفيلة بابقائهم راكعين ، خاضعين ...

استطاعت اسرائيل أن تلحق بالعرب في ساحة القتال سلسلة من الهزائم ، ربما أرادت بها هي ومن وراءها تعليم العرب درس الخضوع وقد ظنت بعد حرب يونيو أن الدرس قد حقق أغراضه في النهاية ...

ولقد حاولت عشرات الكتب والدراسات والأبحاث تمزيق الروح العربية بعد تمزيق الجسد العربي وانتشرت بضاعة النظريات التي تفلسف أسباب تخلف العرب ، وعجزهم عن التقدم ، وعجزهم عن الاتقان أو حتى التنسيق فيما بينهم .

حاولوا اعتبار لحظة المحنة الشاملة وصورة الأمة العربية خلالها على أنها صورتهم الدائمة .. التى لن تتغير ...

ومن هنا كانت أهمية لحظة ٦ أكتوبر فى نظرى ..

لحظة أثبتت أن هزيمة الهزيمة أمر ممكن .

وأن الانتصار ممكن .

وأن العرب مثل أى شعب آخر إذا اعطيت لهم الظروف والامكانيات والمؤسسات التى تجعلهم قادرين على تحقيق ذاتهم واستخدام امكانياتهم قادرون على أن يرتفعوا إلى مستوى التحديات التى تواجههم .

وليست الحرب فى ذاتها دلالة الحضارة . ولا التفوق فيها شهادة للتفوق فى كل شئ . ولكن الحرب مع ذلك ، وتلك حقائق الحياة : إذا فرضت فرضا على شعب فإنها تصبح الامتحان الأكبر لقدراته ومواهبه .

قدراته على الاحتمال والصبر ، وعلى مواجهة المكاره وعلى الثبات وعلى الشجاعة الذهنية والجسدية .

ومواهبه فى التفكير والخلق والابداع والاستفادة من الدروس..

والمواجهة المفروضة علينا من خصم يريد التوسع ويؤمن بالتفوق وضعنا فى هذا الامتحان المستمر ..

امتحان يجعل فى مقدمة مهماتنا وجود جيوش قومية عصرية حديثة مقتدرة ..

ومجتمعات عصرية حديثة قادرة على انجاب مثل هذه الجيوش..

.. كتلك الجيوش التى عبرت القناة : وصمدت فى مرتفعات الجولان، فى تلك الأيام المجيدة من أكتوبر ١٩٧٣ .

أين كانوا وأين كنا قبل ٦ أكتوبر ؟

لست أقصد أن أحدد أين كانوا وأين كنا بمعنى المواقع التى تقف عندها جيوشهم وجيوشنا فهى على وجه التأكيد مواقع للانطلاق نحو نضال سياسى عنيف أو نحو قتال عسكرى جديد أكثر عنفا وضراوة ..

إن الحرب لم تنته بعد .. وما أقصده هو المعنى السياسى والمعنوى والنفسى ، وهو أثر بالغ الأهمية من آثار الحروب ...

إذا كانت ثقتنا بأنفسنا ، وبقواتنا المسلحة قد صعدت ، وثقتهم فى أنفسهم ومناعة قواتهم المسلحة قد هبطت فهذه نتيجة هامة .

وإذا كانت صورتنا فى العالم قد تغيرت إلى الأحسن والهالة التى كانوا يحيطون بها أنفسهم قد شحبت فهذه نتيجة أخرى ..

وإذاكان نهوضنا للقتال غدا أسهل علينا نفسيا وعسكريا بكثير من نهوضنا به بعد ركود دام سنوات ، فهذه نتيجة هامة أيضا ، إذ سوف يحسب كل طرف فى الدنيا حساباته على أن العرب قد قاتلوا وأبلوا بلاء حسنا ، وبالتالى فأنهم يمكن أن يقاتلوا فى أى وقت ..

وإذا كانت إرادة القتال حلقات تتصاعد وتغذى روح المقاومة فى الشعوب ، بينما القعود والركون له منطقه الخاص الذى يجذب روح المجتمع إلى القاع ، فقد عادت عزيمتنا تطفو على السطح وتتنفس الحياة بطاقة أكبر على مواجهة تحديات المستقبل دون وجل .

كان ٦ أكتوبر امتحانا مجيدا عرفنا منه : وعرف العالم ، أننا نستطيع أن نهزم الهزيمة .. لا أن نرفضها فقط ونبقى ساكتين ..

وعرفنا وعرف العالم أننا وقد هزمنا الهزيمة ، نستطيع أن ننتصر ..

ليس فى ساحة القتال ضد عدو عنصرى توسعى فقط ، ولكن : أن ننتصر فى كل ساحات التحديات التى يطرحها العصر الحديث على العالم العربى بأكمله ..

فهرست

صفحة

تقديم بقلم مصطفى نبيل ٥

مقدمة ١٣

حرب يونيو ١٩٦٧ .... ١٦

عناصر الأسطورة ٨١

حرب الاستنزاف ١٠١

٦ أكتوبر ١٤٨

وتحطمت الأسطورة عند الظهر ٢٢٢

الاستغاثة ٢٨٧

دروس الحرب ٣١٣

نظرة اسرائيل إلى العرب ٣٢٥

العبرة ٣٢٩

رقم الايداع ٩٦/١٠٢٦٢

I.S.B.N

977- 07-0504-7

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى
أكتوبر ١٩٩٦ .. تقـرأ فيهـا :

أحمد بهاء الدين
جزء خاص

- مطلوب مجلة تقدم النظرة الجديدة الي الحياة .... احمد بهاء الدين
- احمد بهاء الدين، شهادة للعقل والحوار .... غسان توينى
- بهاء الذي عرفته .... مصطفى نبيل
- سر الاجماع علي احمد بهاء الدين .... د. جلال أمين
- احمد بهاء الدين أكثر بساطة، اكثر وضوحا، أعم فائدة ...... مصطفى الحسينى
- كيف تناول احمد بهاء الدين التاريخ .... د. عاصم الدسوقى
- احمد بهاء الدين، وماذا حدث للمصريين؟ .... كمال سعد
- بهاء.. وخريطة جديدة لمصر .... عاطف مصطفى
- دردشة مع احمد بهاء الدين حول حسين احمد امين .... صافى ناز كاظم

فكـر وثقافـة

- ماذا حدث للمصريين؟ متغيرات في الشخصية المصرية .... فاروق خورشيد
- النحو العربي والحمي المستباح .... د. محمود الطناحى
- البنيوية وجرثومة ما بعد الحداثة.......................... د. عبدالوهاب المسيرى
- القفز علي الاشواك : نهاية الاندلس - .... د. شكرى محمد عياد
- د. لطيفة الزيات، رائدة الكتابة كفعل للتحرر والعمل الوطني .... د. صبرى حافـظ

● قاموس التقاليد والعادات والتعابير الشعبية .... د . نبيلة ابراهيم
● محمد ناجي في لحن الصباح ....فوزية مهران
● في ذكري طه حسين، الحب والتحدي ....مها محمود صالح
● عالم جورجي آمادو، رائحة الكاكاو تهب من ناحية البحر .... محمود قاسم

قصة وشعر

● ياريم (شعر) ....محمد خليل الزروق
● حلم النيل (شعر) .... سليم الرافعى
● محابيس (قصة قصيرة) ....محمد البساطى

فنون

● سقوط غرناطة وصعود قصر الحمراء .... مصطفى درويش
● الانسان في شرك الحياة، الفنان محمد راتب، ومتحف تائه في المجهول ....
.... عز الدين نجيب

التكوين

● سنوات تكويني صاغت ملامح الدراما التليفزيونية .... أسامة انور عكاشة

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء - أقوال معاصرة -

من الهلال إلى الهلال - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة | رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد | **مصطفى نبيل**

روايـــات الهـــلال تقـــدم

بحر ميت

بقلــم :

جورجي آمادو

ترجمــة :

شحات صادق

تصدر ١٥ اكتوبر ١٩٩٦

كتاب الهلال القادم

الحقيقة والوهم
فى
الواقع المصرى

بقلم

د. رشدى سعيد

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٩٦

هذا الكتاب

هذا الكتاب الذى بين أيدينا خطه الكاتب السياسي والمفكر القومى أحمد بهاء الدين منذ اثنين وعشرين عاما، ومازال كتابا حيا متوهجا، يحمل فى طياته دراسة جريئة ومهمة، يجب ان تطلع عليها الاجيال الجديدة..

ويصدر هذا الكتاب المهم فى مناسبتين، الأولى الذكرى الثالثة والعشرون لحرب أكتوبر، والثانية ذكرى الأربعين لرحيل الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين.

ويسجل الكاتب بدقة أبعاد ووقائع الصراع العربى – الاسرائيلى، حتى لا ننسى، وتطوى الأيام تلك البطولات.

ويعيد احمد بهاء الدين الاعتبار لحرب الاستنزاف التى بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف اطلاق النار فى ٧ اغسطس ١٩٧٠.

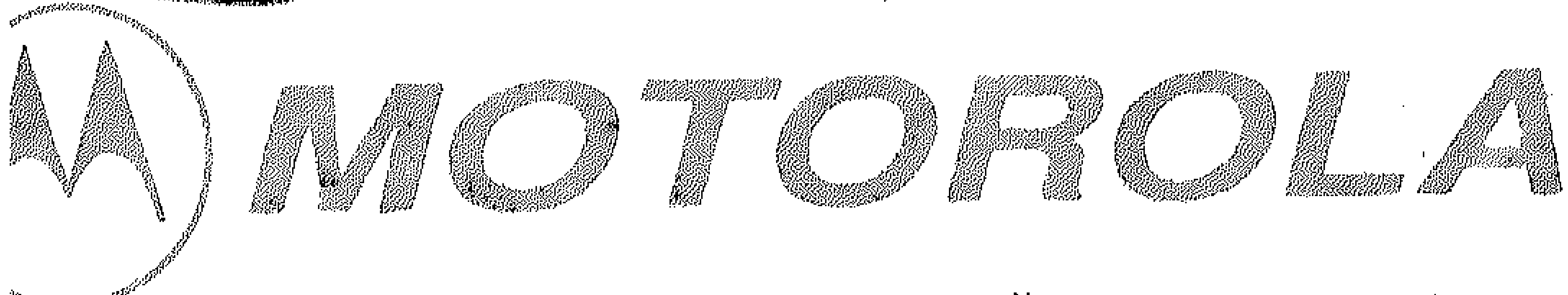
ونرى فى هذا الكتاب ملامح أحمد بهاء الدين وسر جاذبيته، والقبول والمصداقية التى تتمتع بها كتاباته، فسنجد انه ذلك المزيج بين الوطنية والمعرفة.

وبذلك احتل مكانته فى الحياة الفكرية والصحفية كالشهاب، معتمدا على قدراته ومواهبه .



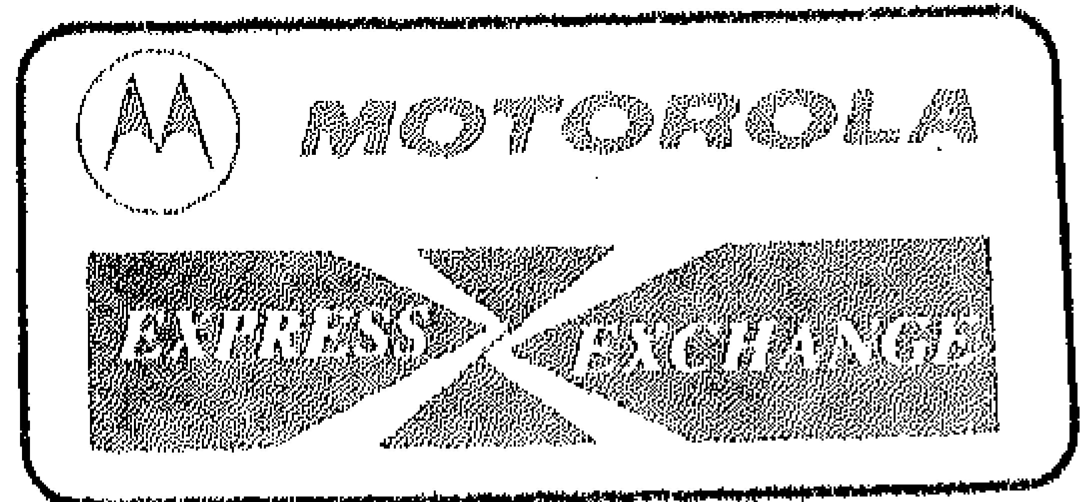
لماذا
موتورولا
هو
رقم ١ ؟

الآن بمصر أحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا الإتصالات الأمريكية والصناعة الألمانية والبريطانية لأجهزة التليفون المحمول G.S.M من موتورولا



بخصائصه الفريدة وقوة تحمله، وشكله الأنيق، وأسعار منافسة جدً

إسأل عن



خدمة التغيير السريع

بدء الخدمة
نوفمبر ١٩٩٦

متوفر جهاز للسيارات ثابت أو متحرك ٨ ١
مراكز صيانة متخصصة للاسلكى موتورولا منذ ؟!

سيستل SYSTEL

القاهرة ت: ٣٤١١٨٠٠ فاكس ٣٤١٣٨٠٠ ● مدينة نصر ت، ف: ٢٦٤٨٦٦٢
المعادى ت: ٠١٧١٢١٨/١٩ ● الإسكندرية ت+ف ٨٥٧٥٤٢٧ فاكس
مكتب اتصال العاشر ت: ٠١٥/٣٦٨٦١٧

الإتصالات اللاسلكية مهنتنا ... ومهمتنا